ما وراء الطبيعة

المجموعة الأولى

التحويل الى حبر الكتروني



التجميع في مجلد واحد





الأعداد من (01) الى (20)

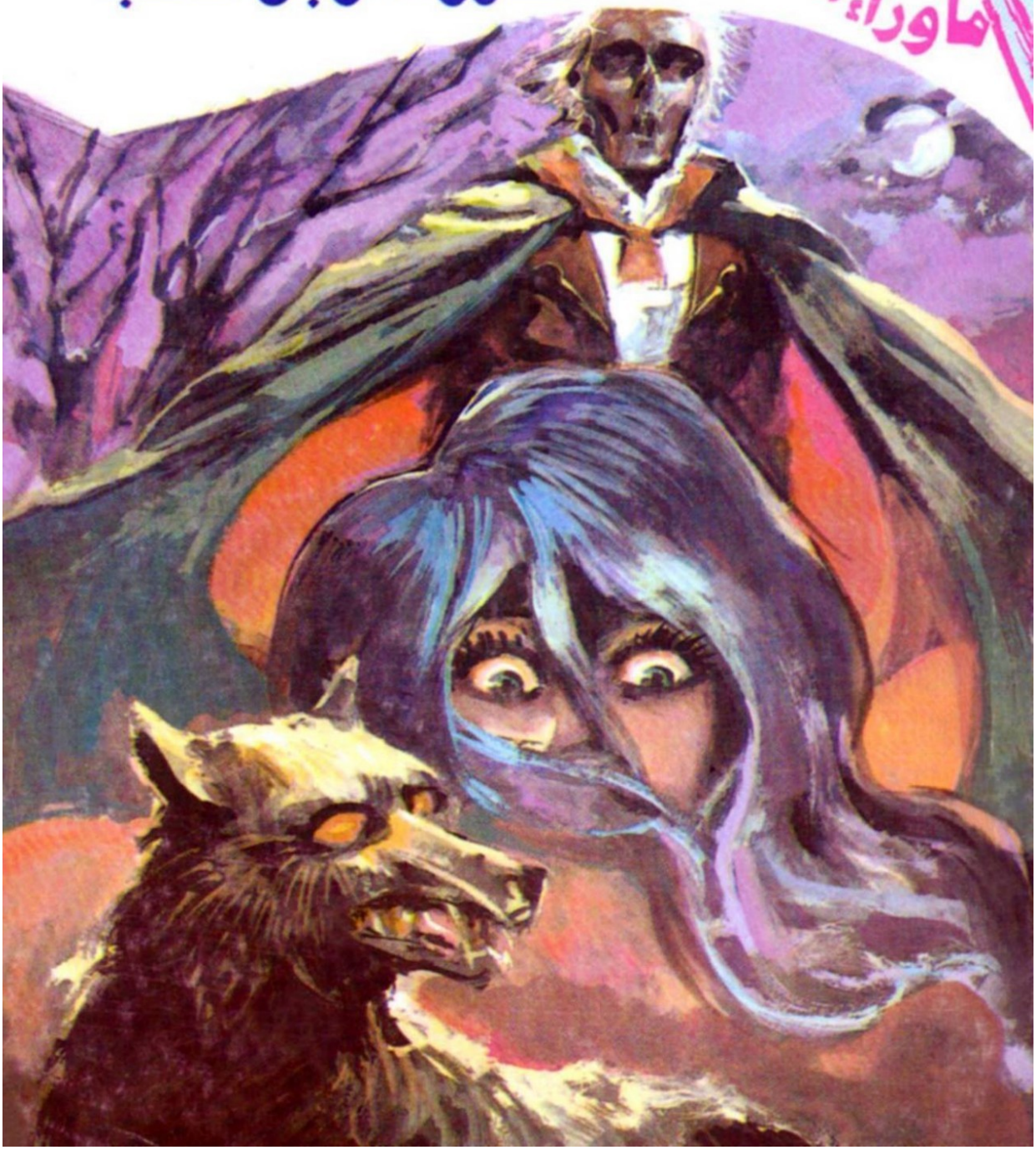
١

روايات مصرية للجيب

مصاص الدماء و أسطورة الرجل الذئب

ما وراء الطبيعة

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

مصاص الدماء وأسطورة الرجل الذئب

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

١

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

•

مصاص الدماء
وأسطورة الرجل الذئب

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة..

أعرفكم على نفسي: الدكتور رفعت إسماعيل أستاذ أمراض الدم سابقًا بجامعة (...) وعدد لا بأس به من جامعات أوروبا وأمريكا، السن يناهز السبعين.. عزب، لأن حياتي الصاخبة لم تدع لي الفرصة أبدًا كي أكون كالآخرين..

لقد عرفت أشياء كثيرة.. فتحت تابوت الكونت (دراكيولا).. صارعت المذءوب في رومانيا.. بحثت عن وحش (لوخ نس) في اسكتلندا، قابلت رجل الثلوج الرهيب في التبت، ولبيت نداء النداهة في غيطان الذرة المظلمة.. وعرفت (الزومبي) في جامايكا.

كل هذا سأحكيه لكم بالتفصيل في هذه السلسلة.. لكني - مرة أخرى - أرجو من ضعاف الأعصاب ومرهفي الحس أن يمتنعوا عن القراءة، وبذلك يوفرون على أنفسهم ساعات من التوتر والهلع وخشية الظلام..

اليوم أحكي لكم قصتي مع مصاص الدماء..

* * *

١ - ليلة رهيبة..

كنت في ذلك الوقت شابًا في الخامسة والثلاثين من عمري لا أعرف شيئًا عن عالم ما وراء الطبيعة وكنت أؤمن أن العلم قد عرف كل شيء.. كنت ساذجًا بالطبع.. سافرت إلى بريطانيا لحضور مؤتمر أمراض الدم الذي يحضره نخبة من أساتذة هذا العلم في العالم كله، لكن كما هو معروف - ليست المحاضرات مشوقة إلى هذا الحد، وقد قضيت في ذلك اليوم أربع ساعات من أسود ساعات حياتي أصغي لكلام كثير عن سرطان الدم. وأنيميا البحر المتوسط... و... و...

كان الأطباء الجالسون قد أصيبوا بذلك النوع من الملل والتعاسة والتجمد الفكري الذي أؤثر أن أسميه (ذهول المؤتمرات)، كانوا جميعًا قد فقدوا الاحساس بظهرهم وأطرافهم. وتحولت أرادفهم إلى جزء من المقاعد، وبعضهم أخذ يزجي الوقت في الحديث همسًا وهم يضعون أيديهم على أفواههم كتلاميذ المدارس..

- شكرًا..

وللحظة لم يصدق هؤلاء البؤساء آذانهم لكن الرجل كان قد انتهى بالفعل من محاضراته الطويلة، من ثم تعالت تنهدات العرفان بالجميل، وبدأوا يصفقون له شاكرين!

كان المحاضر كهلًا وسيمًا اسمه (ريتشارد كامنجز) قابلته في مصر أكثر من مرة وانبهرت به بشدة، كان شامخًا مهيبًا عصبيًا مغرمًا بالتاريخ والفن وكان يعشق تاريخ الفراعنة وكانت هذه نقطة تلاقينا..

بعد المحاضرة قابلته، وعلى الفور هش وبش لي وبدت السعادة على وجهه، بل إنه صافحني (وهو شيء غير معتاد من الانجليز) ثم إنه سألني عن رأيي في المحاضرة فكذبت عليه في كياسة قائلًا إنها رائعة، دعاني إلي بيته الريفي في (يوركشاير) ؛ لأنني - كما قال - إنسان متحضر وشديد الاخلاص للعلم..

لهذا - وكما علمتني التقاليد الانجليزية الصارمة - وجدتني أجتاز مدخل حديقة البيت الإنجليزي الجميل في تمام السابعة مساء.. وكان القمر يرخي ضوءًا هادئًا رقيقًا على غصون اللبلاب المتدلية فوق سقف البيت المنحدر، وفي الحديقة كنت تشم روائح غير مألوفة لزهور لا تعرف اسمها..

وفي الداخل كان البيت أنيقًا بسيطًا، بيت أسرة كاثوليكية متدينة.. وفي قاعة الجلوس كانت هناك مجموعة كبيرة من الصلبان الأثرية، ولوحة كبيرة للعشاء الأخير، وكانت زوجته في منتصف العمر مهذبة رقيقة، أما ابنته كاترين فكانت مراهقة لكنها أكثر تعقلًا من سنها..

وأدركت كم هم متدينون حين تلوا قبل العشاء صلاة المائدة، من ثم شعرت بالخجل من نفسي لأني نسيت البسملة على الطعام قبل أن أبدأ الأكل.. تمتمت أن بسم الله أوله واخره، وشرعت أملأ بطني من الأصناف جميلة المنظر، شنيعة الطعم، التي عرف بها المطبخ الانجليزي في أوروبا كلها..

بعد العشاء - وفي حجرة المعيشة المريحة - جلس د. ريتشارد جوار المدفأة يدخن غليونه ويرشف القهوة في استمتاع وقد بدا لكلينا أن الحياة لن تكون أبدًا أروع مما هي عليه الآن..

قال د. ريتشارد: كيف تشعر وأنت من سلالة الفراعنة هؤلاء العباقرة؟

ابتسمت ولم أدر بماذا أرد، فغمغمت:.. بالندم وبالحسرة لأني لم أحفظ حضارتهم وكل ما اكتشفوه.. أحيانًا يخيل لي أنه لم يعد هناك ما يمكن اكتشافه بعد كل ما اكتشف حتى اليوم..

أعتقد أن زمن (الكشوف) قد ولى وبدأ زمن (التطوير).

وهنا يبدأ دور رجل علم مثلي يؤمن بعلم ما وراء الطبيعة ويؤمن أن كل أسطورة لها أصل ما لم يحاول القدماء أن يتوقفوا عنده، وهكذا نفتح أبوابًا جديدة..

وجال ببصره في الحجرة الخالية.. ثم همس:

- خذ عندك أسطورة الكونت دراكيولا.. إن أحدًا لم يحاول أن يتأمل فيها..، كانوا يبحثون في الكهرباء والموجات الكهرومغناطيسية والانشطار النووي والمضادات الحيوية فلم يتوقفوا عند هذه الأسطورة أبدًا، هنا أتي دور رجل علم مثلي يؤمن أن هذه الأسطورة لم تأت من فراغ ويتوقف لحظة عندها..

هناك شواهد تاريخية عديدة ومريبة.. الدم هذا السائل الأحمر الغامض رمز الحياة والموت معًا.. خذ عندك طقوس شرب الدماء في الهند.. المومياوات ذات الأنياب التي وجدوها في الصين، ومآدب أهل أسبرطة التي كانوا يحتسون فيها الدم الممزوج بالخل والتوابل، ودماء السلحفاة البحرية التي يشربونها لعلاج الروماتيزم في جامايكا..

وكتب السحر في العصور الوسطى، وكلها تتحدث عن طرد مصاصي الدماء كقضية مسلم بها..

وهنا نبدأ - بمرونة فكرية - نجزم أنه في وقت ما، في مكان ما، تواجدت مخلوقات كابوسية تعيش على الدماء مثل دراكيولا..

- آوه!

كان هذا هو صوت كاترين.. وكانت قد دخلت الحجرة لتوها فسمعت آخر جملة، وسرعان ما اعتذرت بأنها ترغب في الصعود لحجرتها..

قال د. ريتشارد:

- هكذا أفضل.. هناك أشياء لا يجب أن يقولها المرء أمام النساء.. أنت تفهمينني..

واتجه نحو النور الكهربائي وأطفأه، فساد الظلام الحجرة فيما عدا نور المدفأة الهادئ الخافت.. ، وقال بطريقة درامية مؤثرة.

- هكذا يكون الجو مناسبًا لهذه الأحاديث الرهيبة! !

أحسست بالرجفة تسري في ظهري، وكان منظر لهيب المدفأة يذكرني بالمشوار الذي ينتظرني بعد هذه الامسية في العودة لفندقي.. البرد والخوف..

توقف د. ريتشارد أمام إحدى اللوحات المعلقة يتأملها علي ضوء المدفأة المتراقص، وهمس:

- لقد بحثت وبحثت سنوات طويلة مع أحد رفاقي من علماء التاريخ.. واليوم أستطيع أن أقول إننا برهنا بالدليل المادي على وجود الكونت دراكيولا..

دوت الكلمة الكابوسية في الظلام فأجفلت لها في مقعدي، والواقع أن د. ريتشارد كان مخرجًا مسرحيًا رائعًا..

القصة كما يعرفها كل الناس هي قصة ذلك الكونت الذي عاش في ترانسلفانيا في القرن الرابع عشر.. كان شريرًا بكل ما في الكلمة من معان، ولكنه لم يكن من الموتى الأحياء.. إلا أن كاتبًا نشطًا أسماه (دراكيولا) أي الشيطان، وخلده "برام ستوكر" في قصته الشهيرة التي لم يزل الناس يرتجفون منها حتى اليوم.. ثم السينما العالمية.. "فنسنت برايس.. لون شاني" ليكملوا الصورة..

اليوم أقول أنا: إن (دراكيولا) وجد فعلًا كما صورته القصص دون أية مبالغة..

* * *

٢ - خادم الكونت..

قلت في حماسة:

- "لكن كلينا رجل علم، وكلينا يعرف أن مالا يرى ولا يسمع ولا يشم ولا يعقل، هو ببساطة غير موجود.."، ابتسم د. ريتشارد في ثقة.. ثم اتجه نحو خوان في ركن الغرفة وفتح درجه وأخرج ظرفًا ممتلئًا ناوله لي، وقال:

- اقرأ هذه الأوراق قبل أن تتحدث عن العلم..

قبل أن أرد دخلت علينا (مسز كامنجز) باشة الوجه.. وبانجليزية حاولت أن أجعلها راقية شكرتها على العشاء.. ثم بدأنا حديثًا عن الطقس.. ثم أطريت بيتهم وأبديت إعجابي بلوحة العشاء الأخير المعلقة.. فشرعت تشرح لي قصة اللوحة ونظرات الدهشة المرتسمة على وجوه الحواريين... و... و...

- هل تعلم سر تشاؤم الغربيين من سقوط الملح على المائدة؟

فهززت رأسي معترفا بجهلي.. قالت:

- لأن (يهوذا) الخائن مرسوم في اللوحة وقد انسكب الملح على المائدة أمامه.. هل ترى وجهه؟ هذا وجه ارتسمت عليه كل خطايا البشر.. إنه خاضع للشيطان لكنه مستسلم لهذا ولا يجد سبيلًا آخر..

كنت في هذه اللحظة قد دخلت في عالم اللوحة لكني كذلك كنت أفكر في المسافة الطويلة التي تفصلني عن الفراش الدافئ وقراءة هذا المظروف الذي أحمله..

وحين عدت للفندق تمددت في الفراش وتأملت المظروف الذي أعطانيه د. ريتشارد، وكان مليئا بأوراق قديمة وصور فوتوغرافية..

كانت إحدى الصور لقصر أثري غريب، وأخرى لتابوت رخامي مغلق، ثم صورة لشيء لم أفهم ما هو، ثم صورة للوحة زيتية تمثل رجلًا ملتحيًا طويل القامة.. أما قطعة الورق الصفراء المهترئة فكان بها خريطة مرسومة بحبر أسود لقصر مجهول به سراديب سميت بأسماء سلافية لم أعرف حتى كيف أقرؤها..

ألغاز كثيرة جدًا..

أخيرًا ورقة بالإنجليزية - بخط د. ريتشارد - تقول:

"لقد بحثنا شهورًا في سراديب قصر (الكونت دراكيولا) في ترانسلفانيا، وهو الذي منعت السلطات السياح من زيارته لأنه آيل للسقوط في أكثر من موضع..، وأخيرًا وجدنا الخريطة المرفقة التي دلتنا على توابيت عائلة الكونت في سرداب قديم مليء بالأتربة والوطاويط...

وقد فتحنا التوابيت كلها حتى وجدنا مومياء الكونت وعلى صدرها وجدنا صندوقًا عاجيًا فيه رسالة كتبها خادم الكونت للأجيال القادمة:

- أكتب هذه الرسالة لمن يأتون بعدي كي أحذرهم من خطر داهم شنيع، لقد اختار الشيطان هذه المنطقة التعسة مهدًا له..

إن (دراكيولا) هو أول مصاص دماء يولد في هذا البلد، إن سيدي الكونت معروف بين الفلاحين بقسوته وطغيانه واستخدامه جيشًا من المرتزقة لفرض سلطانه، كل هذا جعلهم يسمونه (الشيطاني) أو (دراكيولا)..



وقد فتحنا التوابيت كلها حتى وجدنا مومياء الكونت وعلى صدرها
وجدنا صندوقًا عاجيًّا ..

بدأ الكونت في كل مساء يشرب مزيجًا لعينًا من دم الخنازير والنبيذ والتوابل بدعوى أنه يعيد الشباب، وبدأ يدرس السحر الأسود.. ويزداد انعزالًا وغرابة..

لقد بدأ وجهه يستطيل وصوته أخذ نبرة عواء الذئب في الليالي المقمرة، وصار يخرج في المساء ويعود في الفجر وينزوي بالساعات في بدروم القصر وحيدًا.. بل إنه لم يعد يأكل..

وفي كتب السحر وجدت تفسير حالته.. إن هذا المزيج الذي يشربه يقود إلى الخلود بأشنع الطرق.. إنه يحيل من يدمنه إلى خفاش بشري يتغذى بدماء البشر ليلًا وينام في تابوت نهارًا ويموت إذا رأى ضوء الشمس..

وكان لابد أن أعرف..

صباح اليوم التالي استجمعت شجاعتي ونزلت بدروم القصر حيث توابيت أسرته، وكانت رائحة العطن تملأ المكان، والفئران تمرح في حرية تامة، وفي تابوت رخامي وجدت ما كنت أبحث عنه (هذا الجزء غير واضح في المخطوط) لا تنفس. ووجهه شاحب شحوب الموتى وعلى شفتيه قطرات من دماء لم تجف بعد، وعيناه مفتوحتان تحدقان في لا شيء..

اقتربت من شفتيه واستجمعت شجاعتي وفتحتها.. فوجدت صفين من الأسنان الدقيقة المدببة كأسنان الضواري، انتابني ذلك الرعب المجهول الذي يشل العقل تمامًا.. جريت في هلع وقد تسلطت علي فكرة واحدة: الهرب.. لا أدري لأين.. ونسيت أن أعيد غلق التابوت..

إذن غدا الكونت مصاص دماء، وصار عالة على نفسه وعلى الأخرين، إذن كان أهل القرية محقين حين كانوا يرسمون الصليب حين يمرون بالقصر، وإذن كان هذا هو سر جثة المتسول العجوز التي وجدوها قرب القصر ملقاة على الكلأ وفي عنقه ثقبان أحمران..

لهذا نزع الكونت الستائر البيضاء والأيقونات، ولهذا كان ذلك العواء الذي يهز القصر في الليالي القمرية.. ولهذا.. ولهذا.

عدت لكتب السحر أقرؤها. إن مصاص الدماء كابوس.. ومن واجبي أن أجد أنا دواء لهذا الكابوس خاصة أنه لم يمتص دمي بعد ربما لحاجته إلي.

إن قتل مصاصي الدماء أمر سهل، فهو يموت من أي رمز ديني.. إنه مخلوق رمزي، وجوده رمز ومصرعه يتم بالرموز، الضوء واللون الأبيض والفضة والكتب السماوية كلها تقتله، لكن الطريقة الفعالة هي وتد من الخشب يدق في صدره، ثم تلي صلاة الموتى عليه، وتحذر كتب السحر من أنه: كما أن مصاص الدماء رمز فموته رمز، إنه يعود للحياة مرة كل مائة سنة ليعيث في الأرض فسادًا، ثم إنه بعد أن ينشر الرعب والموت يقتل على يد إنسان لم يتلوث... و...

وهنا أحسست بشيء غير عادي في الحجرة.. رفعت رأسي فوجدت الكونت (دراكيولا) واقفًا على رأسي يسد الباب وهو يبتسم ابتسامة صفراء رهيبة، لقد جاء الليل دون أن أدري وحين نهض وجد غطاء التابوت مكشوفًا وأدرك أنني فهمت!

ونظرت إليه في هلع..

لم يعد وجهه يمت بصلة للوجه الذي عرفته.. ناباه الفظيعان.. بشرته الشاحبة المتجعدة.. رائحة الكبريت التي تتحدث عنها كل كتب السحر، تحرك أمام المرآة فلم أجد له صورة، حتى الشمعة لم تترك له ظلًا على الحائط..

صرخت: يا إلهي.. أنقذني!

أجفل.. وتراجع لحظة.. فجريت للباب كما لم أجر في حياتي إلى غرفتي.. أغلفت الباب بالمفتاح، وعلى الفراش أغمي علي، وكان آخر ما رأيته هو مقبض الباب يتحرك، لكن الباب كان مغلقًا..

نعم.. صار الكونت هو خليفة الشيطان في الأرض، إنه مريض وهو يعلم ذلك، ولقد قررت أن أريحه..

سأقتله اليوم، كتب السحر قالت إنه سيموت على يدي رجل لم يتلوث.. وأنا هو ذلك الرجل، أنا القاضي والمدعي والجلاد معًا، سأنزل إليه بالخنجر الفضي والثوم وقبل كل شيء. بإيماني..

ولئن كنت ملوثًا ولقيت مصرعي فليعلم من يجد هذه الرسالة ما علمته أنا ولينتظر عودة الكونت كلما مرت مئة عام، ولينتصر من هو منا على حق.

خادم الكونت / جيسيب ميخائيل
في عام الرب ١٥٩٩

بعد نهاية الرسالة وجدت تعليقًا صغيرًا بخط د. ريتشارد يقول: إنهما وجدا مومياء الكونت وعلى صدرها هذا التحذير للأجيال القادمة، وأن هذا يعني أن الخادم وفق في مهمته..

انتهت المذكرات..

أغلقت مفتاح الأباجورة وأغلقت عيني لأريحهما في الظلام.. إذن فهذه الخزعبلات هي ما يشغل ذهن العالم العظيم.. وكل هذا الكلام الأبله الذي يقولونه في أفلام الرعب الرخيصة عن الهنود والأسبرطيين ومومياوات الصين... هراء..

ومضيت أسلي نفسي بمحاولة تخيل شكل الشر في العالم.. غول أحمر العينين.. أخطبوط له ستة أذرع.. لم أستطع.. ولسبب لا أدريه لم تفارق ذهني صورة وجه يهوذا في لوحة دافنشي.. النظرة التعسة الآثمة.. نظرة الخاطئ الذي لا يملك سوى أن يخطئ..

ولم أدر كيف، ولا متى غرقت في سبات عميق..

* * *



بعد نهاية الرسالة وجدت تعليقًا صغيرًا بخط د. (ريتشارد) يقول :

ـ إنهما وجدا مومياء الكونت وعلى صدرها هذا التحذير للأجيال القادمة ..

٣. المومياء..

في اليوم التالي وبعد انتهاء جدول أعمال المؤتمر لهذا اليوم، قابلت د. ريتشارد في كافتيريا المؤسسة، يرشف القهوة ويدخن.. حييته وقد بدا لي أن الليلة السابقة كانت مجرد شيء سخيف.. وبعيد جدًا..

قلب د. ريتشارد الكريمة، على سطح فنجانه، ثم سألني:

- قرأت الأوراق؟

- نعم..

.وما رأيك؟

صارحته برأيي في الموضوع كله، فالتمعت عيناه غضبًا ووضع فنجانه في الطبق:

- خزعبلات؟! أنت تظن أنني وواحد من أعظم علماء التاريخ في أوربا كنا ضحية خدعة قذرة لفقها لنا أحد الظرفاء.. حسن.. لقد كلف هذا الظريف نفسه ما لا يطيق وأعد كل هذه الأوراق، وأعد المومياء وانتظر سنوات عديدة حتى يخطر لأبله مثلي أن يبحث في هذا السرداب حتى يجد هذه الأشياء.. يا لها من دعابة!

- ليس هناك مايثبت رأيي لكن ليس هناك ما ينفيه.

هز رأسه في ضيق، ثم عاد لبروده الموروث وقال:

- أريد منك أن تأتي إلي هذه الليلة.. هناك شيء جديد أريد أن تراه.. نفس الموعد..

مرة أخرى على العشاء أجلس أمام نظرات يهوذا الآثمة، على الناحية الأخرى من المائدة يجلس البروفسور "ماكس لوفارسكي" وهو - كما عرفت أنت - يهودي لم يكف لحظة عن الحديث عن ماعاناه في معتقلات النازيين، لماذا خلق الله العلماء مملين إلى هذا الحد؟

بعد العشاء التفت إلي د. ريتشارد، وقال:

- إن ما سأريه لك الآن هو خلاصة بحث سنوات من عمري أنا والأستاذ (لوفارسكي)، لا أطالبك أن تقتنع، لكني أطالبك - وهذا من حقي - بالاحترام لكل ما ستراه، اضف لهذا ان ما ستراه هو سر سيظل طي الكتمان نطق العبارة الأخيرة بلهجة مرعبة تعمد الضغط على كلمة (سيظل) فشعرت بالرهبة، وقلت:

– أعدك بهذا..

نهضت معهما إلى القبو - قبو البيت الانجليزي الأنيق حيث رائحة الخمر المعتق والعطن ورائحة شيء ما لم أستطع أن أحبها.. أزاح د. ريتشارد الخيش عن صندوق مغلق في أحد الأركان.. وفتحه ثم هتف بلهجة مسرحية:

- أيها السادة.. ها هي ذي مومياء الكونت دراكيولا..!

من العدل أن أقول إنني لم أشعر برهبة ولا فضول ولا شيء على الإطلاق.. بل ظللت محتفظًا بتعبير رجل العلم الذي لا (يندهش) من شيء ولكن (يهتم) به.

كانت مومياء عادية لها كل مزايا وعيوب أية مومياء أخرى.. جلد متأكل.. خصلات شعر متناثرة.. أنف مجدوع.. شيء واحد كان مختلفًا.. الأسنان..، لماذا كانت في فك هذا الشيء تلك

الأنياب الحادة الشبيهة بأنياب الذئاب..؟
ابتسم د. (كامنجز) في تشف.. وهمس:
- ما رأيك..؟
لم أرد بل سألت (لوفارسكي):
- كيف استطعم إحضاره هنا؟
- لقد نجحنا في تهريبه بوسائل معقدة على أنه شحنة أدوات حفر، والسلطات في ترانسلفانيا لا تعرف حتى بوجوده هنا.. لهذا لم تبحث عنه أصلًا..
أشعل د. (ريتشارد كامنجز) عود كبريت وقربه من المومياء.. فجأة انطفأ.. فهتف:
- "هل ترى؟ ثمة غاز خامل يتصاعد من هذه المومياء.. " لم أستطع أن ابتلع كل هذا.. لكنه واقع.. أمامي الآن الدليل الحي على خطأ الافتراضات العلمية وعلى وجود السحر، وعلى قابلية كل الأساطير للتصديق وعلى...
سألت د. (ريتشارد):
- لكن لماذا تضيعون كل هذا الوقت والمجهود؟
- الحقيقة..
قالها د. (ريتشارد) في بساطة.. واستطرد:
- الحقيقة التي ستهب العلم مرونة لا تقاس، تكفي لاستيعاب الأساطير وكل معتقدات الشعوب البدائية وتحدث انقلابًا لم يشهد له العالم مثيلًا..
إننا نقف الآن أمام الدليل الحي على وجود السحر.. صعدنا لحجرة المعيشة بعد دقائق، وجلسنا في حول مجموعة من المستندات القديمة..
قلت في حيرة:
- لم أفهم بعد.. ما السر في اطلاعي أنا بالذات على هذا؟
- أنت مسلم يا د. (رفعت)..
- نعم..
- وأنا كاثوليكي ود. (لوفارسكي) يهودي، وهذا سيجعل شهود المعجزة هم نماذج لثلاثة أديان..
. أية معجزة؟
- عودة دراكيولا..

* * *

٤. طقوس..

مد د. (ريتشارد) يده إلى الأوراق وفتح إحداها وشرع يقرأ:

- تقول المستندات إن مصاص الدماء يعود للعالم كل مائة عام لنشر الفساد والشر، ثم يموت على يد شخص لم يتلوث..

وهنا قال د. (لوفارسكي) عابثا بلحيته:

- إن لدينا شواهد تاريخية على ظهور مخلوقات لها صفات مصاص الدماء والعثور على جثث رقابها مثقوبة في الأعوام ١٧٥٩ و١٨٥٩، وبشكل أكثر تحديدًا في الليالي المقمرة التي يتوازى فيها المشتري مع المريخ، ويمكن القول إنه كان يقتل في كل مرة.. ويعود لصورة المومياء التي نراها.

- وهل كان يعود من تلقاء نفسه؟



إنه كان يقتل فى كل مرة .. ويعود لصورة المومياء التى نراها .

قال د. (لوفارسكي):
- كلا.. بل بمعونة بعض الأوغاد الذين يؤدون بعض الطقوس اللازمة للبعث.
وهنا بدأت أفهم.. كنا في العام ١٩٥٩.. أي أن هذا هو العام المنتظر السعيد.
وفتح د. (ماكس لوفارسكي) ورقة صفراء وشرع يقرأ:
- أول الطقوس هو أن يؤديها أشخاص بلغ منهم الشر كل مبلغ... أي نحن.. !
قال د. (ريتشارد):
- إننا عبيد الفضول العلمي، وكلنا على استعداد لعمل أي شيء من أجل الحقيقة... إن العلم هو ما نحيا من أجله..
- ثاني الطقوس هو شرط القرن. أي أن تكون مائة عام قد مرت على مصرع الكونت..
- ثالث الطقوس هو شرط القمر. أي أن يكتمل البدر ويتوازى المشتري مع المريخ..
الشرط الثاني أو الثالث سيتحققان بعد أسبوع. ليلة الأربعاء..
الشرط الرابع هو شرط الوطواط.. يجب أن يوضع علي صدر الجثة مومياء وطواط وهذا ليس صعبًا.
الشرط الخامس هو شرط الدم.. بحيث أن يوضع دلو من الدم بجوار المومياء.
- دم بشري؟
- لم يحدد النص ذلك..
وهنا لاحظت شيئًا.. التمعت عيناي في فخر كأنني طفل فاز في لعبة المساكة، وصحت:
- لحظة من فضلك.. التاريخ يحكي أنه - في كل مائة عام - كان بعض الأوغاد يجدون التابوت ويمارسون نفس الطقوس، فكيف تأتي أن التابوت لم يزل في نفس المكان، والرسالة لم تزل حيث يتركها الخادم منذ خمسة قرون؟
احمر وجه د. (ريتشارد) فترة، ثم همس في استسلام:
- لقد فاتني التفكير في هذا بالفعل..
قال د. (لوفارسكي):
- لربما فكر من يقتل الكونت في كل مرة أن يترك الرسالة في موضعها للأجيال القادمة؟
- ولماذا يحرص من يقتل الكونت على إعادة جثته للتابوت في كل مرة؟ لماذا لا يدفنها في أي مكان؟ لماذا لا يمزقها او يحرقها؟ لم أعرف أن قتلة مصاصي الدماء منظمون إلى هذا الحد؟
ساد الصمت للحظات وأدركت - في فخر - أن الرجلين يكرهانني في جنون، لكن هذا هو العلم، وهما يعرفان هذا خيرًا مني..
قال د. (ريتشارد) بعد تفكير:
- حسن يا د. (رفعت). إننا مصممان على التجربة، والتي لم يبق لها سوى أسبوع، فإذا لم تقبل فعلى الأقل قل ذلك الآن حتى يتسنى لي أن أجد عالمًا أثق به من الجالية المسلمة في إنجلترا.. الوقت ضيق كما ترى..
من أنا حتى أرفض أمرًا كهذا؟ ستكون ليلة الأربعاء ليلة مثيرة بكل المقاييس...، هكذا قلت لنفسي.. كنت ساذجًا كما قلت لك...
- إذن فلنبدأ.. الوقت ضيق كما قلت أنت...

لم يكن هناك أي شيء. وكنت واثقًا من نفسي أنني بدأت أعد عبارات العزاء التي سأقولها لهما حين تشرق شمس يوم الخميس والمومياء لم تزل كما هي - مومياء – يا لها من لحظة!. لحظة يعرف كل منهما انه أضاع عمره يطارد وهمًا.. يا للحسرة..

كان الأمر واضحًا في ذهني تمامًا.. هذه مومياء قام أحدهم بنشر أسنانها لتبدو كالأنياب وستظل كذلك، لا أرى الموضوع على أي ضوء آخر.

في الصباح جاء (جوناثان) صبي البقال بلفة صغيرة اتضح أنها خفاش ميت اصطاده من الكنيسة المهجورة المجاورة، وأخذ جنيهين كاد يطير بهما فرحًا..

وجلست أنا ود. (ريتشارد) نحنط الخفاش في الحديقة مستعملين الفورمالين.

- لنفرض أننا لم نستطع السيطرة على دراكيولا حين ينهض. فماذا نفعل

قال د. (لوفارسكي):

- إذا نهض، لقد كان مفزعًا في العصور الغابرة.. عصور الشمعدانات والعربات التي تجرها الخيول والكونتيسات... الخ، لكنه اليوم سيعود في عصر انشطار الذرة والكهرباء. لن يكون سوى مجرد حيوان تجارب طريف..

قال د. (ريتشارد):

- سنقوم بنقله إلى معمل مظلم في جلاسجو ونقيده هناك، ثم ندرس كل شيء... تركيب دمه... أنسجته... ضغط دمه... درجة حرارته، وإذا مات سنشرحه.. لربما أتى اليوم الذي تعقد له فيه مؤتمرًا صحفيًا أو ننشر مذكراته في كتاب اسمه (عشت في تابوت) يحطم مبيعات السوق !

قلت:

- إن هذا المسخ محظوظ جدًا... لكن أتمني لو عدت للحياة بعد مائة عام لأرى حال السياسة والعلم والمجتمع والناس وقتها..

فاحت في المكان رائحة لا تطاق لأحشاء الخفاش اللعينة، واستمررنا في عملنا على مضض.

- اللعنة.. فهمت الآن لماذا لا يبعث مصاص دماء إلا كل مائة عام..

ثلاثة علماء يعملون في صبر من أجل إثبات وهم...

* * *

٥ - شيء ما..

جلست في حجرتي المريحة التي أعطانيها د. (ريتشارد) في بيته الريفي الجميل.. كنت قد غادرت الفندق من ثلاثة أيام، لكني تركت هنالك أمتعتي لسبب ما،

لم أدر ما هو..

شعور غامض في أعماقي جعلني أترك جزءًا من ذاتي خارج جدران هذا البيت. أشعلت سيجارة وشرعت أفكر.. ما الذي جعلني أقحم نفسي في هذه القصة؟.. إنه ذلك الولع المجنون بالمجهول.. تلك اللذة الحريفة الكامنة في قصص جدتي عن الغولة والنداهة، وكنت أتساءل: كيف تبدو هذه المخلوقات؟!.. ولماذا !

اختار الفلوكلور الشعبي لها صورة الأنثي.

ثم كبرت وبدأت أذهب للسينما.. وشاهدت (لون شانى) - ذا الألف وجه - (وفنسنت برايس) يلعبان دور الكونت الغامض شارب الدماء.

لكم فتنتني شخصية (دراكيولا).. ولكم حيرتنى.. ولكم أفزعتني!

واليوم.. هأنا ذا قاب قوسين من حقيقة هذا الكابوس، بل إن - صدق أولا تصدق - مومياء هذا الكونت ترقد في بدروم البيت الذي أنا فيه الآن!.. بل إن موعد استيقاظها هو بعد ثلاثة أيام لا أكثر! ماذا سيقول أصدقاء طفولتي في (المنصورة) لو عرفوا ما أنا فيه الآن

الآن كل شيء معد.. دلو دم الخنزير.. الخفاش المحنط.. ورفقة اثنين من العلماء حادي المزاج لا يهمهما سوى العلم أيا كانت نتائجه الوبيلة.

أضأت الاباجورة فوجدت جوار السرير مجموعة كتب، وعلى السطح كانت رواية (برام ستوكر) الشهيرة (دراكيولا)، لابد أن د. (ريتشارد) تعمد وضعها جوار سريري لجعلي أعيش في (الجو)..

أطلقت سبة في سري ثم فتحت الرواية وبدأت أحداثها تجرفني.. يا للخيال المروع العبقري المريض...! لكم أحسد مؤلفها.

كنت قد وصلت للجزء الذي يدخل فيه الكونت على ضيفه الغافل موثق العقود (جوناثان هاركر) وهو يحلق ذقنه.. وهنا يفكر الموثق: كيف لم أر هذا الرجل في مرآة الحلاقة؟ وتتصلب عينا الكونت على جرح في عنق موثق العقود نجم عن الحلاقة... و...



وهنا يفكر الموثق : كيف لم أر هذا الرجل فى مرآة الحلاقة ؟..

كنت قد وصلت لهذا الجزء حين دق الباب فأجفلت.. ثم عدت لعالم الواقع، فنهضت للباب وفتحته، كان القادم هو د. (ريتشارد)..

- هل نمت؟

- من الواضح أنني لم أفعل..

نظر إلى الرواية على الفراش.. وضحك:

- إذن أنت تستعد لضيفنا؟

ضيفنا؟.. قلت في حنق:

- تبًا لها من رواية،

- وماذا تعلمت منها؟

- تعلمت ألا أحلق ذقني أمام (دراكيولا) لئلا أجرح نفسي، وعندئذ..

- وماذا أيضًا؟

- تعلمت ألا أثق بالأشخاص الذين لا تنعكس صورتهم في المرآة!..

انفجر د. (ريتشارد) يضحك.. كان يرتدي الروب وتحته فميص وربطة عنق، وقد بدا غاية في الأناقة والوسامة، ثم أنه أشعل سيجارة - ولم يقدم لي واحدة كعادته - وجال بنظره في أرجاء الغرفة.

- لماذا لا تضع بعض الآيات القرآنية هنا وهناك؟

أشرت إلى الكومودينو بجوار الفراش، إلى المصحف الصغير الذي أعطتني إياه المرحومة أمي قبل أول سفر لي بالخارج.

- ها هو ذا.. لكن بغرض القراءة وليس لحمايتي من مصاص دمائك..

هز رأسه مؤيدًا.. ونهض في تثاقل متجهًا إلى الباب مارًا أمام المرآة المزخرفة المعلقة.. لا!.. لابد أنني متوتر الأعصاب.. هل المرآة غير مصقولة أم أن الإضاءة غير كافية؟ أم أن هذا الرجل لا يعكس ظلًا في المرآة بالفعل؟ !

التفت لي في اهتمام وسأل:

- ما سر هذا الهلع على وجهك؟ !

هل أصارحه؟.. كلا.. كلا.

- لا شيء.. إنه مفعول روايتك لا أكثر.

فكر قليلًا ثم قال:

-(رفعت..) هناك شيء هام..

- ما هو؟

- شيء أريد عمله ولا أريد للدكتور (لوفارسكي) أن يعلم به، هل تعدني؟

- أعدك..

- إذن اتبعني إلى البدروم بعد عشر دقائق..

وألقى سيجارته وانصرف في تؤدة.

بمجرد أن خرج أغلقت الباب وهرعت للمرآة.. إن صورتي واضحة فبها، ولكن.. ما أكثر ألاعيب الضوء!. رب زاوية انكسار كاملة تحيل الماء إلى مرآة، لماذا لا تتحول المرآة - في زاوية ما

وإضاءة ما - إلى سطح غير عاكس؟..
وحتى إذا لم تعكس المرآة صورته؟.. ما معنى ذلك؟.. أنا لا أؤمن بالأشباح.. وحتى إذا طبقنا منطق الخرافة نفسها فلا توجد أي ضرورة لهذه الزيارة، ولم يستتبعها شيء..
لماذا يريد د. (كامنجز) لقائي في البدروم؟.. طبعًا ليس للعب الورق ولا لمشاهدة مجموعة طوابعه.. وبالطبع ليس لامتصاص دمي، لأني لا أؤمن بكل هذا الكلام الفارغ..
ما الذي يريده من مومياء (دراكيولا)؟.. ما الشيء الذي لا يريد أن يعرفه د. (لوفارسكي)؟!
على كل حال مضت العشر دقائق.
ارتديت الروب وخرجت من باب الغرفة قاصدًا البدروم.، ظلام الردهة وبقايا العشاء على المائدة لم ترفعها مسز (كامنجز) بعد.
باب غرفة د. (ريتشارد) يفتح في بطء..
- د. (رفعت)؟
- نعم.
لاحظت أنه يتكلم بصوت عال.. فخفضت صوتي في همس كالفحيح:
- والآن هيا..
- هيا ماذا؟
- البدروم..
- البدر.. هل أنت بكامل قواك العقلية؟!
ماذا يحدث؟.. عم يتحدث هذا المخبول؟.. لكن وجهه كان جادًا صارمًا لا أثر للدعابة فيه.. كلماتي اصطدمت بحاجز صلب بارد فسقطت مهشمة عند قدمي.
- ألم تطلب ذلك مني؟
- دقيقة واحدة.. طلبت منك ماذا؟
- النزول للبدروم !..
- منذ عشرة دقائق في حجرتي !..
أعتقد أنه لا بد من اختصار هذه المحادثة التي لابد أنك أدركت فحواها، هو يعرف ويؤكد ويقسم أنه لم يأت لحجرتي أبدًا، وأنا واثق تمامًا أنه كان عندي لسبب يعلمه الله وحده، محادثة مملة كحوار الطرشان نتيجتها أن كلًا منا اعتقد أن الآخر كاذب أو معتوه..
- هل تعرف يا د. (رفعت)؟
قالها في غموض وهو يضيق حدقتي عينيه مستطردًا:
- يبدو أن كلينا على حق !
- الأمر واضح.. هناك من حاول استدراجك للبدروم.. لهذا زارك في صورتي.
- هل سنعود لهذا الهراء؟..
- قل لي.. ألم تلحظ شيئًا غير عادي في هذا الزائر؟..
فكرت لحظة ثم قلت بلا مبالاة:
- لا شيء سوى أنه.. لم يكن يترك انعكاسًا في المرآة!

* * *

7 - مزيد من الألغاز..

هل لك في شريحة جامون يا د. (رفعت)؟

سألتني مسز (كامنجز) في رقة ونحن جلوس حول مائدة الافطار، هززت رأسي أن لا.. فصبت المزيد من القهوة في فنجاني قائلة إنني أبدو منهكًا..

- كانت ليلة شنيعة سيدتي، زارني أحدهم، و..

وهنا أخرستني نظرة شذراء من عين د. (ريتشارد) كي لا أسترسل في كلامي، غريب هذا!.. في شمس الصباح كان ما حدث أمس يبدو ضبابيًا وسخيفًا..

إن ما حدث ليلًا هو دعابة لا أكثر، أو هو على أقصى افتراض هلوسة شاذة نتيجة لقراءتي لقصة (برام ستوكر) الشنيعة.

بعد الافطار دخلنا مكتب د. (ريتشارد) والتففنا حول صاحب الدار الذي أشعل سيجارة.. وقال مبتسمًا:

- أمس تلقي د. رفعت زيارة لطيفة..

وحكي قصة الأمس لد. (لوفارسكي) الذي أخذ يصغي وهو يرمقني بعينين حادتين كالصقر.. فما أن انتهت القصة حتى ساد الصمت، بعد دقائق قال د (لوفارسكي) بصوت رتيب كالقضاة:

- أعتقد أن كل شيء يتوقف على د. (رفعت)..

سألته في دهشة:

- ماذا تعني؟

قال في ثقة

- لا غبار على قصة د. (ريتشارد). لكن قصتك تحتمل المناقشة!

غلى الدم في عروقي:

- هل تعني أنني كاذب؟

- لا يا صديقي.. بل أعني أنك واهم..

هززت رأسي.. الواقع أنني - أنا نفسي - لم أعد واثقًا من شيء.. كل ما رأيت كان ملموسًا وماديًا إلى حد مرعب.. لكني لم أهلوس من قبل، لربما كانت كل الهلاوس مقنعة هكذا..

ثم.. تذكرت شيئًا.. يا لي من أحمق!..

- تعاليا معي إلى غرفتي..

وفي غرفتي كان الفراش بحالته، لأنني لا أرتب سريري ابدًا عند الاستيقاظ.

- تريان الآن ما أعنيه..

وأشرت إلى رواية (برام ستوكر) المفتوحة.. والمصحف الصغير على الكومودينو.. موضوعات حديثي مع زائر الليل..

قال د. (ريتشارد):

- هذا لا يعني شينا.. من الطبيعي أنك أقحمت في هلوستك بعض الموجودات الحقيقية في غرفتك.

- وهذا؟

نظرا إلى ما أشير إليه.. الدليل الدامغ على سلامة عقلي.. هناك على مشمع الأرضية كان عقب سيجارة محترق، سيجارة من النوع الذي يدخنه د. (ريتشارد) ولا يدخنه أحد غيره..



نظر إلى ما أشير إليه .. الدليل الدامغ على سلامة عقلى .. هناك على مشمع
الأرضية كان عقب سيجارة محترق ..

قال د. (لوفارسكي):
- شيء بسيط أيها الشاب!.. لقد قدم لك د. (ريتشارد) إحدى سجائره..
- إنه لم يقدم لي سيجارة في حياته!..
- اسمع يا صديقي.. إن الحياة مليئة بالتعقيدات ولا تحتمل أكثر.. لماذا تملأ الدنيا صراخًا على.. على عقب سيجارة؟
صرخت في غيظ.
- أنا أقول إنني واثق أن شخصًا - أو شيئًا - اقتحم حجرتي ليلًا ودعاتي للنزول للبدروم، وهذا العقب هو الدليل على صدق كلامي..
ثم نظرت لـ د. (ريتشارد)، متوسلًا:
- د. (ريتشارد).. لماذا لا تقول إنك كنت تمزح وتريحنا من هذه السفسطة؟
- تحشم أيها الشاب!.. أنا لا أكذب..
- لكن التفسير العلمي الوحيد هو أنك تكذب.
- أنا لا أسمح.. وأطالبك بأن تكون أكثر لياقة مع رجل في سن أبيك..
واشتعلت الكلمات. وأظن أنني كنت على وشك ضربه أو هو على وشك طردي، لولا أن تدخل د. (لوفارسكي) بجسده البدين بيننا مهدئًا النفوس:
- يا سادة.. أرجوكما!.. لقد نسينا شيئًا.
توقفنا عن المناقشة، كي نعرف ما سيقوله هذا اليهودي:
- ما الذي كان على د. (رفعت) أن يفعله في البدروم؟
- لا أدري.
- ولا أنا..
- إذن ننزل البدروم ونلقي نظرة.
ونزلنا للبدروم.. التابوت الكئيب الممل ورائحة العطن.. لا يوجد شيء جديد أو يستحق الانتباه، لا شيء يدل على شيء.
يا لغرابة ما نحن بصدده. !
لقد بقي يومان على الموعد المشهود وما زال كل منا عند رأيه، لكن علامات الاستفهام تتكاثر حول كل شيء.
من سيضحك ضحكة الانتصار ليلة الأربعاء؟

* * *

٧ - زائر الليل..

في منتصف الليل صحوت على صوت زجاج يتحطم.. استغرقت دقيقة كي أفهم أين أنا، ومن أنا، وماذا أفعل في الفراش.. ثم عشر ثوان أخرى كي أثب من الفراش حافيًا - وبالبيجامة - إلى باب الغرفة.. ثم إلى الطابق الثاني حيث سمعت الصوت.

هذه غرفة مكتب د. (ريتشارد)، لا أحد هنالك لكن الستارة كانت تتموج في صمت في هواء الحجرة المظلمة مما دلنا أن اللوح المكسور هو هنا..

أشعلت النور فلمحت شظايا زجاج على الأرض.. وبالطبع - كما هي العادة معي - دست على شظيتين بقدمي الحافية فأطلقت سبة.. وجلست على الأرض كي أخرجها.

ثم لمحت عيناي...

هناك - خلف المكتب - كان شخص مختبئًا كي لا أراه.. الشخص الذي اقتحم النافذة الزجاجية بهذا العنف من أجل شيء لا أعرفه.. ولو جريت من الغرفة فقد يهاجمني: لذا تشاغلت بمعالجة قدمي وأنا أسب بصوت مسموع، الدم يصفر في آذني والأدرينالين يرتفع في دمي وقبضتي تتوتر، ثم في لحظة واحدة وثبت فوق المكتب وألقيت نفسي على هذا المتلصص..

تلقيت لكمة في بطني جعلت الهواء يخرج من فمي.. إلا أني تحاملت ورفعت ركبتي لأركله أسفل بطنه.. سمعته يئن.. ولكن من هو؟

كان ملثمًا.. ولم أر سوى عينين باردتين كشتاء لندن، رماديتين كضبابها، وجهت لكمة قوية إلى أنفه خلف القناع حتى أنني شعرت بغضروف أنفه يكاد يتهشم.. ثم لكمة في صدره.

لم أكن رياضيًا في حياتي، ولم يكن الكاراتيه والجيدو والتايكوندو معروفين لجيلنا، إلا أن كل إنسان يمكنه أن يقاتل بشراسة، طالما وجد هدفًا قويًا.. وهل يوجد هدف أقوى من أن أمنع هذا المتعصب من قتلي؟

والتحمنا في عراك طويل.. كان الوغد قويًا وشرسًا لكني كنت حانقًا وخائفًا مما جعلني خصمًا مساويًا له تقريبًا.. وفجأة امتدت يده إلى شيء ما على المكتب، وانهالت فوق رأسي ضربة من جسم معدني ثقيل.. كلا.. ! لن أفقد وعيي..؟ تحاملت.. لكن الأرض هي التي خذلتني!..

لابد أن فترة فقداني الوعي لم تزد على خمس دقائق. وعلى الارض كانت أداة لتثقيب الورق ملقاة بجانبي هي التي حسمت المعركة السابقة..

كان الغثيان يقتلني لكني نهضت.. جريت مترنحًا للباب المفتوح، ونزلت السلالم جريًا إلى المكان الذي كنت أعرف أني سأجده فيه. البدروم..

نعم.. كان هناك في الظلام بجوار تابوت الكونت (دراكيولا) وقد أضاء الكشاف الكهربي ووضعه بجواره على الأرض، وكان قد قرب وجهه من الكونت، وهو يهمس بكلمات ما لم أتبينها.. كأنها صلاة وثنية غامضة أو شيء من هذا القبيل..

آه!.. ألن ينتهي هذا الجنون؟



وكان قد قرب وجهه من الكونت وهو يهمس بكلمات ما لم أتبينها ..

صرخت صرخة أفزعتني أنا نفسى.. ورفعت زجاجة ملقاة على الأرض ولوحت بها في الهواء كالهراوة ثم انقضضت على هذا المدعي.. ولولا أنه أجفل لهشمت الزجاجة جمجمته في ثوان.. وثب كالملسوع إلى الكشاف الكهربي فاطفأه.. ثم انهالت علي لكماته في الظلام، إن هذا الوغد يرى في الظلام كالوطاويط..

وفي هذه المرة لم أقاوم كثيرًا.

ظللت فترة ألهث في الظلام ومذاق الدماء المالح يملأ فمي.. أعتقد أنني في حاجة لاستعادة لياقتي في المرة القادمة.

نور البدروم يضاء.. د. (ريتشارد) و(لوفارسكي) بثياب النوم وعيونهم منتفخة من أثر النعاس يحيطون بي. صحت في سخرية مرة:

- أهنئكم على نقاء ضمائركم..! إن الضجة التي أحدثتها كانت كفيلة بإيقاظ الموتى، وأنتم لم تصحوا إلا الآن..!

وشرعت أحكي ما حدث، وما أن سمع د. (ريتشارد) قصتي حتى امتقع وجهه ووثب كالقط إلى غرفة المكتب، وهنا جال خاطر مرعب في ذهني.. ماذا لو عاد . كعادته . من أعلى ليقول إنه لا يوجد لوح زجاج مكسور وأني كنت أهلوس؟

إلا أنه عاد بعد دقائق وقد بدا عليه الاهتمام وهو يحمل معه أداة لتثقيب الأوراق تلك التي كادت تهشم رأسي منذ دقائق.. وقال:

- إنك كنت محظوظًا يا صديقي..

أشرت إلى الزجاجة المكسورة الملقاة على الأرض وقلت:

- والوغد كذلك محظوظ مثلي..

- د.(رفعت) إننا أناس متحضرون، وأري أن ما حدث لا ينبغي ان يمنعنا من ارتداء ثياب لائقة حتى تناقش الأمور في مظهر متمدن:

- سنلتقي في غرفة مكتبي بعد عشر دقائق؛

آه من هؤلاء الإنجليز!.. يريد مني حين أجد لصًا في داري أن أنهض من الفراش وأمشط شعري وأرتدي ثياب السهرة ثم أذهب إليه وأنحني كجنتلمان قائلًا:

- سيدي.. إذا لم تغادر داري خلال دقيقة أعتقد أنني سأصل بصددكم إلى قرارات خطيرة ؛

آه.. تبًا. المهم أنني عدت لحجرتي وارتديت ثيابي. وتأملت وجهي في المرآة.. لم تكن هناك عاهات مستديمة والحمد لله، ولكن ماذا سيكون تفسير هذين السيدين لمغامرتي القصيرة الفاشلة؟

وفي غرفة المكتب حيث الستارة لم تتطاير.. سألت الرجلين،

- والان،. ما قولكما؟

قال د. (لوفارسكي) متحاشيًا النظر في عيني:

- إذا أردت رأيي لقلت إن هناك أحداثًا غامضة لا يجمع بينها سوى شيء واحد.. في كل مرة إما أن نقابلك متجهًا للبدروم أو نائمًا فيه..

قال د، (ريتشارد):

- انني أتساءل عن قصتك القادمة التي ستبرر بها نزولك للبدروم ليلًا!.. صحت في غيظ وقد بدا لي الرجلان شديدي السماجة والجهل.

- وهل تظنان أنني أحب هذا البدروم العطن وتلك المومياء السخيفة؟.. هل أنا أكذب لأبرر عشقي الشديد للجلوس جوار التوابيت في الظلام؟

لم يستطع د. (ريتشارد) أن يمنع ابتسامة على شفتيه إثر كلامي.. ورفع يده محاولًا تهدئتي:

- أنا لم أتهم.. ولم أقل هذا.. ولكني قلت إن هناك محاولة ما لجعلك تنزل البدروم وحدك ليلًا.

- إن هذا لم يدر بخلدي قط، لكنه صحيح..

- ولنفرض هذا.. فما المفروض أن يحدث هناك؟

- هذا ما اجتمعنا للتفكر فبه..

- ولكن لماذا لا يكون زائر الليلة لصًا.. لصًا عاديًا..

نظر لي د. (لوفارسكي) نظرة ذات معنى.. وقال:

- اللصوص لا يجثمون جوار التوابيت ليتلوا صلاة غامضة.. أنت قلت هذا بنفسك هل تذكر؟..

أضاف د. (ريتشارد):

- واللصوص لا يحطمون الزجاج بهذه الرعونة، هذا اللص أحمق أو هو أراد أن تسمعه أنت..

- واللصوص لا يدخلون البيوت من الطابق الثاني ما دام عندهم نوافذ الطابق الأول.

تنحنح د. (ريتشارد) ونهض إلى الستارة وأزاحها.. ثم قال:

- هناك ما هو أغرب.. هل لاحظتم كسر الزجاج. إنه مجرد فتحة صغيرة لا تسمح أبدًا بمرور إنسان..

نظرت في عينيه.. وقلت:

- لكنها تسمع بمرور.

نعم.. تسمح بمرور وطواط..!

قال د. (لوفارسكي):

- المزيد من الالغاز..! هل تريدان رأيي؟.. أعتقد أن بعض الجماعات السرية أو عبدة الشيطان على علم بوجود المومياء لدينا.. وهم يحاولون سرقتها.

- لكن أحدًا لم يعلم ما نعلم نحن..

- طالما علمنا ما علمناه من المخطوطات فماذا يمنع أن يعلم آخرون نفس الشيء؟

- إن هذا يدعونا لمزيد من الحذر.. لم يبق سوى يوم واحد على كل حال.. فلندعه يمر على خير بأية طريقة..

ثم هز إصبعه في وجهي.. وقال محذرًا:

- لا مزيد من الزيارات الغامضة للبدروم لأن المرة القادمة لن تمر على خير.. أريد أن تعود لمصر قطعة واحدة دون ثقوب!

ونزل الرجلان السلم في حين تخلفت عنهما.. كنت أفكر.. ما دام اللص لم يدخل من النافذة فهو أحد المقيمين بالبيت.. وما دام قويًا فهو رجل.. وما دام ليس أنا فهو أحد العالمين..

وما دام رمادي العينين قوي البنية فهو ليس د. (لوفارسكي). إذن هو...

نعم.. إن هذا يتفق مع ما حدث بالأمس.. دائمًا هو د. (ريتشارد) في كل حادث غامض ثم يظهر ليؤكد لي أنني أهلوس، لكن.. ما الذي يخفيه هذا الرجل؟

إنه يداعبني دعابة عملية قاسية أو هو مخبول تمامًا وهو شيء لا استبعده.. إن من عاش حياته وسط هذا الهراء لابد أن يكون مخبولًا..

ولكن لماذا أنا بالذات؟.. لأنني أصغرهم سنًا وأكثرهم رعونة.. ولأنه لم يزل يحمل احتقار المستعمر لأهل البلد الذي استعمره.. لم تكن ثلاث سنوات قد مضت منذ حرب السويس.. فهل هو ذلك الانجليزي المتعصب الحاقد حقًا؟.. لا أفهم.

على كل حال لم يبق سوى يوم واحد.. وليس في جعبتي سوى الحذر والانتظار.

دخلت حجرتي وأغلقت بابها، اتجهت للشباك وفتحته.. نظرت إلى أعلى.. إلى نافذة غرفة المكتب المكسورة.. خيل لي أن شيئًا ما يخرج ببطء من فتحة الزجاج.. ثم تبينت ما هو.. كان وطواطًا صغيرًا سرعان ما فرد أجنحته مرفرفًا ودار دورتين في الهواء ثم اختفى في الظلام.. !

* * *

٨ - ليلة الأربعاء..

تم إعداد كل شيء.

وفي ذلك اليوم خرجت مع مسز (كامنجز) و(كاترين) في نزهة رائعة في الريف الإنجليزي وتحدثتا عن كل شيء فيما عدا المومياء الموجودة بالبدروم، وقد خشيت أن ينزلق لساني بشكل أو بآخر، لكنها كانت تعرف كل شيء فيما يبدو..

عدنا للبيت عصرًا فتناولنا وجبة لا بأس بها. ثم دعانا د. (ريتشارد) إلى النوم لأننا سنقضي الليل ساهرين. وفي حجرتي غرقت في سبات عميق..

ترانسلفانيا.. الشيطان.. دراكيولا.. د. ريتشارد.. سالي.. يهوذا.. دم وخفاش وقمر.. وخفاش ودم... مائتا عام.. جنين الشر.. (دراكيولا) يدخل الغرفة.. جئت لأصطحبك.. كلا... ليس أنا.. دعني فرصة أخرى.. أنا لست عزرائيل.. أنا مجرد مصاص دماء بائس.. نظرة يهوذا.. ليتني كنت خفاشًا يغرد في الصباح.. كلا.. الخفاش لا يغرد.. كانت فلاحة ذاهبة للحقل في قريتي.. حين.. حين ماذا.. لا أذكر.. لا تقترب مني..

وللحظة لم أعرف أين أنا.. هل ظلام الغرفة حولي هو جزء من الحلم؟ أم أنني أنا نفسي حلم.و.... لقد غابت الشمس وفد جاء الليل، ولكن لماذا لم يوقظني أحد؟..

وهنا أدركت ما أيقظني. إنه صوت خطوات غريبة تمشي في الردهة خارج الحجرة.. ثمة شيء مريب في هذه الخطوات.. إنها ليست خطوات إنسان يمر عرضًا، بل هي خطوات واثقة متأنية تهدف إلى أن أسمعها أنا!..

بحذر مددت يدي للأباجورة بجوار السرير وفككت سلكها واتخذت منها أداة صالحة للضرب، وببطء اتجهت للباب. وهناك لشدة ذهولي - تجددت الخطوات - وتجمد الدم في عروقي.. صاحب الخطوات يقف الآن خلف الباب مباشرة!!

أهو (ريتشارد)؟ أم (لوفارسكي)؟ ولكن لم هذا التلصص؟ مددت يدي إلى المقبض وفتحت الباب. وعلى ضوء الردهة الخافت وجدت خيالًا مألوفًا..

- د. (رفعت).. لقد حدث شيء.

- (كاترين)؟ ماذا أتي بك هنا.. وماذا يحدث؟ كانت شاحبة ترتجف، وعلى عينيها الزرقاوين الجميلتين غشاوة متجمدة من الدموع لم تنحدر بعد..

- لا أحد هنالك..

- لا أفهم..



– د . (رفعت) .. لقد حدث شيء .

– (كاترين) ؟ ماذا أتى بك هنا .. وماذا يحدث ؟..

- لا أحد هنالك.. كل غرفهم خالية، مامي ودادي ود. (لوفارسكي).. كل الغرف خالية ؛
- كلهم؟.. وكم الساعة الآن؟
- الحادية عشرة مساء.
- إذن بقيت ساعة على ميعاد نهوض المسخ.. لكن أين ذهبوا؟ هل رحلوا؟
هل اختبأوا في مكان ما؟. ولم تركوني أنا وكاترين!
- أنا خائفة يا د. رفعت.. لقد نمت نومًا عميقًا وحين نهضت لم أجد أحدًا..
كانت ترتجف كالورقة.. فمددت ذراعي وطوقتها.. تحرك شيء في قلبي، للمرة الأولى، فطنت إلى أنني عشت خمسة وثلاثين عامًا من عمري وحيدًا.. يا له من شعور غريب أن تكون مسئولًا عن إنسان ما. وأن يحتاج إليك إلى درجة البكاء.. أخذت بيدها ونزلنا إلى البدروم..
كل شيء كما هو... والتابوت المشئوم في مكانه.. ومومياء الخفاش ودلو دم الخنزير... قلت لها:
- أنت تعرفين ما كان مفروضًا أن يتم هذه الليلة؟..
هزت رأسها أن نعم..
- وتعرفين أن الموعد بقيت عليه ساعة؟
- نعم.
- هل بحثت عن الأخرين في البيت جيدًا؟
- وفي الحديقة... وفي البدروم... لا أحد... لقد تركونا...
أشعلت سيجارة وجلست على حافة التابوت مفكرًا.
- هل نطلب الشرطة بالتليفون؟
- ليس لدينا واحد. أقرب تليفون على بعد نصف ساعة
- رائع
وهنا ساد الظلام التام البدروم.. لقد انقطع التيار الكهربائي ويا له من وقت لانقطاعه..
أشعلت شمعة كانت ملقاة على الأرض.. ظلان ساقطان على الحائط كأن عملاقين يراقبان ما نفعله ونقوله..
قلت وأنا أنفث دخان السيجارة:
- هل تعلمين يا صغيرتي؟ يخيل لي أن كل الخطوط تتلاقى في نقطة واحدة..
إرغامنا - أنا وأنت - على أن نكون المسئولين الوحيدين عن عودة هذا الشيطان.. هل نحن أصلح الناس لذلك؟ هل يرى الشيطان فينا من الشر الخفي ما يؤهلنا لذلك ببراعة؟
- لقد صرنا مجبرين.
هتفت كاترين في حنق:
- ولكن لماذا نحن مجبرون؟ نستطيع أن نغادر هذا البيت الرهيب وبعد نصف ساعة نصل للعمران.. الدفء، الأمان.
صرخت فيها:
- كلا.. لو فعلنا هذا لظللنا للأبد نحترق بنيران الفضول الذي لا يرتوي، ولظللنا نلعن جبننا وتتساءل سؤالًا لا إجابة عليه أبدًا:

هل كان (دراكيولا) سينهض؟

إننا ظاهريًا أحرار لكننا في الواقع مقيدون بأصفاد متينة من الفضول العلمي..

نحن لا نستطيع إلا أن نستمر.. وسنستمر..

- ولكن.

- لا لكن.. لو ضيعنا الفرصة فلن تعود قبل مائة عام نكون نحن فيها قد شبعنا موتًا.. نموت دون أن نعرف.

كانت صغيرة السن ولم تفهم كل كلامي، لكنها لم تكن تستطيع أن تنصرف وحدها.. إن من دبر هذا الموقف لهو شيطان ذو عقلية جهنمية يعرف تمامًا أن من سيتعرض لهذا الاختبار هو لابد مستمر فيه..

- وأين الاخرون

- لا أدري.. ولا وقت الآن للإجابة عن هذا السؤال.. المهم هو أن نعد هذا المكان لاستقبال الكونت.

بقيت عشر دقائق على منتصف الليل. وأحضرت دلو دم الخنزير وقربته من التابوت، ووضعت الخفاش المحنط على صدر المومياء.. ثم أطفأت الشمعة حتى لا تضايق سيد الديجور عند نهوضه.

بعد سبع دقائق يتعامد المشتري على المريخ، وينكشف وجه القمر من وراء الغمام.. وبعد سبع دقائق يعرف العالم إلى الأبد ما إذا كان السحر خرافة أم لا.. وما إذا كان القدماء واهمين أم لا.

أما انا فكنت أردد كالمجنون بالعربية التي لا تفهمها:

- لن ينهض هذا الشيء لن ينهض.. أنا واثق من هذا وإلا غدونا في موقف لا نحسد عليه. بقيت أربع دقائق.

* * *

٩ - المفاجأة..

الساعة الآن الثانية عشرة والنصف..

لم يحدث شيء. برغم الظلام الدامس، أرى حدود الجسد المسجى في التابوت، وعيني كاترين اللامعتين، وأشم رائحة الفورمالين. وأسمع دقات قلبي.... لم يتغير شيء..

كان كل هذا وهمًا..

أشعلت الشمعة في تؤدة فأضاءت المكان إلى حد ما.. وقد بدا لي الكونت مبتذلًا وسخيفًا إلى حد لا يوصف.. نفس الوجه والشعر المتآكل.. و... و...

- انتهى الآمر..

قلت لكاترين لكنها لم ترد، نظرة غريبة شاردة في وجهها.. قلد حطمتها هذه التجربة، لكن لم يكن لي مفر. المهم الآن هو معرفة أين ذهب الاغبياء الآخرون..

- قد يكونون خرجوا لغرض ما.. أو هم مختبئون في دعابة سمجة، أو..

وأشعلت سيجارة، غريبة رائحة الكبريت هذه.. كنت أحمل قداحة، لهذا اندهشت للرائحة، د. (ريتشارد كامنجز) الأحمق الذي أفني حياته في ألعاب صبيانية، وذلك اليهودي البدين، وانا الذي سأرجع للقاهرة محملا بذكريات باسمة لا أكثر.. رائحة الكبريت.

الآن أستطع القول إن العلم هو العلم.. وكل ما عداه هو خزعبلات، ولكن لماذا تنظرين إلى يا(كاترين) هذه النظرة الوالهة.. كنت ما أزال وسيمًا محتفظًا بشعري، لكني لم أكن جذابًا لهذه الدرجة، خاصة لفتاة مراهقة.

- كاترين.. هيا نصعد.

لم ترد، وفجأة انفرجت تضحك في هستيريا.. تضحك، وتضحك في الظلام.. لقد جنت المسكينة!.. ثم نهضت، وهي تترنح إلى.. إلى دلو الدم ومدت يدها فيه وأخرجت أصبعها السبابة ملوثًا، و... لعقته في تلذذ.

- كاترين، أيتها المجنونة!..

التفتت إلى بشفتيها الحمراوين وهمست في صوت بارد:

- أتت لم تفهم بعد أيها الغبي.. لم تفهم.

ما أغرب هذا الذي تفعله، لقد جنت تمامًا.. و. التابوت ظل في مكانه كل هذه القرون ممددًا به الكونت والصندوق العاجي على صدره.. لهذا بدت لي قصة د. (لوفارسكي) غير منطقية ومضللة، لأنه لا يمكن أن يقتل في كل مرة ويعيدون تسجيته في التابوت بنفس الوضع..

- لن تفهم أيها الأحمق.

أسنانها تلتمع في الظلام، وهنا فهمت كل شيء.. لم يحدث أبدًا أن نهض (دراكيولا) من تابوته، كانت الطقوس تتم بجوار تابوته في كل مائة عام، من ثم تنتقل روحه لتحل في أحد ممارسي الطقوس، يصير هو (دراكيولا) الجديد.. في حالتنا هذه كنت أنا و(كاترين) المختارين لهذا الغرض؛ لهذا استبعد الأخرين بصورة ما.. والآن (كاترين) - بعد منتصف الليل - تغيرت كثيرًا جدًا.. (كاترين) شربت الدماء وتلتمع اسنانها الحادة في الظلام وتصدر رائحة الكبريت اللعينة..

وأنا حبيس معه، في البدروم!..
لفد فهمت كل شيء متأخرًا جدًا..
- د. رفعت، تعال وقبلني..
صوت مغر قادم من عالم بعيد، إذن هذا هو كل شيء.
- تعال..
ولهذا لم أتحول أنا أيضًا، لأنه لابد لمصاص الدماء الوليد من وجبة عشاء.. وبماذا يتعشى إذا غدوت أنا أيضًا مصاص دماء؟ !
وقبل أن أفهم أنا نفسي ما حدث، أطلقت ساقي للريح، جريت كما لم أجر في حياتي، خرجت من القبو. الردهة.. مدخل البيت.. الظلام الدامس جعلني أصطدم مئات المرات بأشياء مجهولة، قلبي كاد يثب من حلقي.. الحديقة وضوء القمر يغمرها..
وبدأت أركض.. أركض.. أركض.. ومن بعيد لمحت أضواء العمران ورأيت أناسًا عاديين..

* * *

١٠ - الخاتمة..

خلال أربع وعشرين ساعة كنت قد عدت لبيتي السعيد في (الدقي) بالقاهرة، قضيت أيامًا عديدة أتخيل (كاترين) تهيم في الفلاة المحيطة ببيتهم تبحث عن عابري السبيل وتخيلتها تموت بوتد خشبي في صدرها..

بعد شهور تشجعت وأرسلت خطابًا إلى د. (ريتشارد) - أو إلى عنوانه على الأقل - فلم يصلني أي رد..

أرسلت ثلاثة خطابات أخرى، إلى أن وصلني خطاب من مالك البيت الجديد يقول لي إن د. (ريتشارد) لم يعد يعيش هناك، وأنه ارتحل إلى أستراليا مع عائلته، ولا يعرف عنوانه هناك..

كم من ليلة سوداء قضيتها أستعيد ما حدث وأحلله. هل كنت واهمًا؟ هل كان هذا حلمًا؟ أم كان هذا حقيقة تتلخص ببساطة في أن الفتاة قد انهارت أعصابها بفعل التجربة الجهنمية؟ أم كان هذا واقعًا عشته حين حبست وحدي في البدروم مع مصاصة دماء؟..

لا أدري.. ولن أدري أبذا.. هل قتلت (كاترين) بيد إنسان لم يتلوث - إنسان مثل أبيها - وهرب بعدها إلى أستراليا؟

أم أنها قتلت ذويها في تلك الليلة وجاءت غرفتي تولول وتبكي أم أن الأمر كله دعابة عملية قاسية أجادوا حبكها،.؟

أسئلة كثيرة بلا إجابة، ولا أرجو لها إجابة.. كل ما أعرفه أنني لن أحضر أبدًا أي مؤتمر عن أمراض الدم.. ولن أذهب أبدًا إلى (يوركشاير) أو (أستراليا).. وأبدًا لن أشاهد فيلمًا لدراكيولا!..

- شعرات عديدة شابت في رأسي وأنا أنتظر أن يصلني انتقام الكونت (دراكيولا) إلى بيتي في الدقي خاصة وأنا - على ما أظن - آخر من يعرف حقيقته، وحزم ثوم علقتها خلف الشبابيك والأبواب، وأوان فضية، وآيات قرآنية.. لكن لم يحدث شيء والحمد لله إما لأن الله ستر، أو لأني كنت واهمًا في مخاوفي..

... وبعد سنتين من هذه الاحداث، قابلت شيطانًا من نوع آخر في مكان آخر أنساني ما حدث تمامًا.. لكن هذه قصة أخرى...

د. رفعت إسماعيل
القاهرة - يناير ١٩٩٢

* * *

انتهى الجزء الأول (بحمد الله)

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة



الجزء الثانى

أسطورة الرجل الذئب

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع الأمير سالم بالعباسية - القاهرة - ت ٨٤٥٥٠٩

مقدمة..

مرة أخرى أعرفكم على نفسي: الدكتور رفعت إسماعيل أستاذ أمراض الدم سابقًا بجامعة (...) وعدد لا بأس به من جامعات أوروبا وأمريكا، السن يناهز السبعين.. عزب، لأن حياتي الصاخبة لم تدع لي الفرصة أبدًا كي أكون كالآخرين..

لقد عرفت أشياء كثيرة.. فتحت تابوت الكونت (دراكيولا).. صارعت المذءوب في رومانيا.. بحثت عن وحش (لوخ نس) في اسكتلندا، قابلت رجل الثلوج الرهيب في التبت، ولبيت نداء النداهة في غيطان الذرة المظلمة.. وعرفت (الزومبي) في جامايكا.

كل هذا سأحكيه لكم بالتفصيل في هذه السلسلة.. لكني - مرة أخرى - أرجو من ضعاف الأعصاب ومرهفي الحس أن يمتنعوا عن القراءة، وبذلك يوفرون على أنفسهم ساعات من التوتر والهلع وخشية الظلام..

اليوم أحكي لكم قصتي مع أسطورة الرجل الذئب..

* * *

١ - بلد الأساطير..

نظر (إستبان) إلى ذبالة الشمعة المحترقة وإلى وجوه الجالسين حوله ثم همس:
- يا رفاق.. إن المذءوب هو أحد الجالسين على هذه المائدة!..

* * *

قبل أن نصل إلى هذا الجزء، دعونا نعود بضع أيام إلى الوراء، إلى زيارتي لرومانيا للمرة الأولى في حياتي، كنت في السابعة والثلاثين من عمري، وقد مضى عامان على مغامرتي الرهيبة مع الكونت (دراكيولا).. وكنت أعتقد ـ واهمًا كدأبي - أن متاعبي قد انتهت للأبد وأن الوقت قد حان كي أتزوج وأكون أسرة صغيرة وأفتتح عيادة نظيفة بمجرد عودتي من هذه المهمة العلمية..

في إحدى جامعات كلوج قابلت الصحفي الروماني (جوستاف فيكولسكو).. وهو شاب شديد الذكاء يتمتع بروح دعابة قوية، ويجيد الإنجليزية كأهلها.. ومتبحر في الأدب والعلوم الإنسانية، وقد اعتبر نفسه مرشدًا لي في كل خطواتي، وعلمني الكثير عن رومانيا البلد الذي كنت أعرف عنه أقل القليل أو لا شيء على الاطلاق..

- ما هي الديانة هنا؟..
- إن غالبية السكان هم روم أرثوذكس..
- والشيوعية؟

ابتسم في تحفظ.. ثم همس وهو ينظر نظرة ذات معنى:

- يا رفيق.. إن الشيوعية لن تغير رومانيا.. إن رومانيا نسيج وحدها في أوروبا وهي لن تتبدل أبدًا.

رومانيا - كما قال لي - هي كلمة تعني أرض روما.. لأن القائد الروماني العظيم (ترايانو) قد فتحها وطرد البربر منها في موقعة (داتشيا) سنة ١٠٦ ميلادية.. ومنذ ذلك الحين صارت ولاية رومانية.

ثم غزاها القوط، ومن بعدهم السلاف، في القرن السادس الميلادي.

- أعتقد أن السلاف هم من أعطاها طابعها المميز؟
- إلى حد ما، والأهم هو أنهم قسموها إلى منطقتين: (ترانسلفانيا) و(والاشيا)..
- ترا.. ترانسلفانيا؟. حيث قصر الكونت..
- (دراكيولا)!.. نعم!.. إنها بلد خالد بالأساطير.. وأهم معالمه السياحية هو قصر الكونت (دراكيولا)، يجب أن نزوره معًا.. فهو مكان مثير للخيال إلى أقصى حد!

يا لك من أحمق؛.. ماذا تعرف أنت عن هذا القصر وعن تابوت الكونت وعن خادمه.. وعن.. وعن؟

- بل إن (ترانسلفانيا) هي أيضا مكان قلعة (فرانكنشتاين) كما وصفتها مدام (ماري شيللي)!
- يا له من بلد جميل!

- المهم.. كنت أقول لك إن الأتراك غزوا رومانيا.. ودارت معركة كبيرة بينهم وبين (ستيفانو) الأكبر في سهول راكوفا.. ثم تنازلت تركيا - الرجل المريض - عن أجزاء من البلاد للنمسا في صلح (باساروفيتش)..

- ومتى إذن صرتم أحرارًا؟.

- حدث هذا في عام ١٨٥٦.. وانتخب للحكم الأمير (ألكسندر كوز) بعد الحرب العالمية الأولي ضممنا للبلاد (بوكوفنيا) من روسيا.. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية.. استولى الجنرال (أنطونسكو) على الحكم لصالح النازي، وكان من جراء هذا أننا فقدنا (بوكوفنيا) مرة أخرى هي وأجزاء من (ترانسلفانيا) عادت للمجر..

بعد الحرب صرنا دولة شيوعية تابعة للاتحاد السوفييتي،

(كان هذا الكلام في عام ١٩٦١ ولم يكن أحدنا يتخيل ما سيحدث لرومانيا - وللشيوعية كلها - بعد ثلاثين عامًا).

قلت له:

- ولماذا تحبون الشيوعية؟

- مكره أخاك لا بطل!.. إن موسكو لا تترك لأحد فرصة الاختيار، أضف إلى هذا أننا كنا نريد أي تغيير بعد مظالم العهد البائد..

- هلا أعطيتني سيجارتك أشعل بها سيجارتي؟

قدمت له سيجارة فأخذها.. وهتف:

- أرأيت؟.. قبل سنة ١٩٤٧ كانت هذه جريمة يعاقب عليها كلانا بالسجن!

- أية جريمة؟

- إشعال سيجارة من سيجارة!.. كانت قوانين الاحتكار تحتم على المواطن استعمال عود ثقاب لهذا الغرض كي تروج تجارة الثقاب!

أخذت أضحك.. فلم أتخيل من قبل هذه العبقرية في تقييد الحرية الشخصية للإنسان، يا للجهل البشري!

قال جوستاف:

- سترى الكثير من الأعاجيب في رومانيا.. عليك الآن أن تذهب لفندقك كي تستريح.. وسأراك غدًا..

* * *

كانت جولة رائعة استغرقت أسبوعين، زرنا فيها جامعات (كلوج) وكنائس (بوخارست) العتيقة.. ودخلنا حانات (مامايا) على البحر الأسود، حيث روى لنا البحارة الأشداء قصصًا مثيرة.. وزرنا ميناء (كونستاتا) أهم موانئ رومانيا، لكن ما أثر في أشد تأثير كان زيارتي لـ(ترانسلفانيا)..

- (ترانسلفانيا)هي حوض منخفض في غرب البلاد تحده سلسلة جبال الألب الترانسلفانية، وإلى الشمال تجد مراكز صناعة الصلب في رومانيا.. ثم منطقة (الكربات)..

- هذا الاسم مألوف لي..

- (الكربات) هي منطقة رعوية.. جبال متوسطة الارتفاع تكسوها الحشائش، وفي الجنوب يجري نهر الدانوب..

- الأزرق،

- لا يوجد دانوب أحمر فيما أظن!..

وفي تلك الليلة زرنا قصر الكونت (دراكيولا) العتيق المتهدم، وكنت أذكر تفاصيله من الصور الفوتوغرافية في المرة السابقة، لم أتمالك أن أرتجف وأنا أتخيل د. (ريتشارد) و(لوفارسكي) يتسللان ليلًا لهذا القصر المنهدم كي يبحثا عن مومياء (دراكيولا)، وتذكرت رعب أهل القرية من المرور جواره..

إن هذا المكان ينبض بروح ما، لا يمكن وصفها.

قال لي (جوستاف):

- إن التراث الشعبي في رومانيا مليء بقصص الرعب، والأمهات هنا يخفن أطفالهن بحكايات مصاصي الدماء والمذوبين و(نوسفراتو)2

- ولماذا في رومانيا بالذات؟

- إما أن هذا يعود لخصوبة الخيال المحلي.. وإما أن هذه المسوخ موجودة في رومانيا بالفعل!..

* * *

٢ - العاصفة..

انطلقت سيارة (جوستاف) في الطريق الوعر المتشعب والمطر ينهمر بغزارة على زجاج النافذة في حين كان بخار الماء يتكاثف من أشداقنا على باطن الزجاج الدافئ.. فكنت أمسحه من أمامه بمنديلي من حين لآخر..

ومن بعيد - عبر الغابات الكثيفة المظلمة - كان لسان. من البرق يشق السماء من حين لآخر ليضيء الموجودات بلون أزرق بارد قاس ثم يختفي.. وبعد ثوان يدوي هزيم الرعد كأنما نجوم السماء يصطدم بعضها البعض..

- إنها الكريفات...

- الكريفات؟..

- إنها ريح شتوية عاتية تجتاح هذه المناطق.. وتحدث كارثة في المزروعات.. إنها وبال على الفلاحين

- يا له من فأل سيئ!..

- لا تبتئس يا رفيق.. أنت لم تر سوى رومانيا الباسمة، وقد حان الوقت كي تراها حين تكشر عن أنيابها!..

كنا نجتاز دلتا الدانوب في جنوب البلاد، وكانت الطيور كلها قد فرت قبل العاصفة، ولم يبق في الغابات المترامية إلا بعض الذئاب تبحث عن مأوى..

بدأ الجليد يتساقط رقيقًا ناعمًا لكنه فعال، في ثوان تكتسي الغابات بلون أبيض جميل، وكنت لم أر الجليد في حياتي.. وقد خيل لي أنني أحلم.. فجأة يتحول المشهد إلى مسرح لقصة خرافية ما.. نعم.. لابد أن ينشط الخيال البشري في هذه الأصقاع.. لابد.

- رائع!

- هل تعني أنك لم تر جليدًا قبل اليوم؟

- نعم.

- ألم تقل إنك زرت انجلترا وفرنسا مرارًا؟

- بلى.. كان ذلك دائمًا في جو صحو للأسف

انفجر يضحك.. ثم اشعل سيجارة.. وهتف:

- إن دلتا الدانوب مليئة بالبجع والبلشون.. والدببة.. والفهود!

- فهود؟

- طبعًا.. أنت لم تر رومانيا بعد يا صديقي.. ويبدو أنك سترى منها الكثير من الآن فصاعدًا..

- ماذا تعني

- أعني أننا لن نستطيع الاستمرار في هذا الجو دون جنازير على العجلات.. يجب أن نتوقف!..

شرع (جوستاف) يتفحص خريطة الطريق.. ثم تمتم:

- أقرب مدينة منا هي (تورسفرين) لكنها على مسافة لا بأس بها، إلا أن هناك قرية صغيرة اسمها (كرايوفسكا) على بعد عشر دقائق.. أعتقد أنها أملنا الوحيد.. المهم هو أن نتحرك سريعًا قبل أن يتعذر ذلك..

وافقته على كلامه لأن دمائي الحارة القادمة من وادي النيل كانت قد بدأت تتجمد في عروقي، كنت أرتدي بول أوفرين ومعطفًا وتحت بنطلوني ذلك السروال القطني السميك الذي أهدته إلي المرحومة أمي حين ذهبت للإسكندرية أول مرة في حياتي، لكني برغم نلك كنت أرتجف.. وبدأ أنفي يسيل.. وأدركت أنني في حالة سيئة.. سيئة..

أعاد (جوستاف) الخريطة إلى تابلوه العربة، ثم أدار المحرك عدة مرات.. احتبس فيها نفسي لا أريد التفكير فيما سيحدث إذا رفضت السيارة التحرك.. ثم انطلقت السيارة، ومضينا صامتين لا شيء حولنا سوى الأشجار المغطاة بالثلج تلتمع في كشافات السيارة.. ومن بعيد كان ذئب أو اثنان يجريان من طريق العربة.

- (جوستاف)؟

- هم م م؟

- ماذا عن قضمة الصقيع؟!

وقضمة الصقيع - إن كنت لا تعرف - هو نوع من الغنغرينا يصيب الأطراف في البرد الشديد ويؤدي لبترها، قال لي ما معناه:

- فال الله ولا فالك ؛

- أنا لا أمزح.. أنا لا أشعر بأصابع قدمي!..

- على كل حال ليس الطقس بهذا السوء.. لسنا في (سيبيريا) فلا تتصرف كالأطفال..

ظللت صامتًا وأنا ألعنه في سري، وألعن دلتا الدانوب، وهذه الكر.. الكرفات أو أيًا كان اسمها، وشرعت أتخيل نفسي عائدًا للقاهرة دون قدمين لأتسول جوار مسجد الحسين، أو أتخيل نفسي ضحية لذئاب رومانيا الشهباء التي لا تمزح.. هل سيكرمون ذكراي في كلية الطب ويسمون دورة المياه بها على اسمي؟.. دورة مياه الشهيد (رفعت إسماعيل)..

في ذلك الوقت لم أكن أعرف أنني سأعيش ثلاثين عامًا أخرى سليمًا معافى، واليوم أتذكر، في كل مآزق حياتي - وما أكثرها - كنت في كل مرة أعتقد أنها الأخيرة، لهذا لم أستمتع ولم أتعلم..

حين تدخل أنت بيت الأشباح في مدينة الملاهي أو فيلم رعب تكون على علم تام بانك - مهما رأيت - ستعود إلى بيتك سالمًا بعد هذا الفزع لهذا تعيش التجربة بأكملها، أما أنا فلم أكن أعرف..

والدرس الذي تعلمته - بعد سنوات طويلة - هو أن افتراض في كل مأزق أنني سأخرج منه سالمًا من ثم أحتفظ بوضوح وترتيب فكري، إن الهلع لا يجدي.. والموت هو ميعاد مكتوب لن يغيره حذري ولا رعبي، فإذا جاء.. فلأمت كرجل مبتسمًا واثقًا..

لكني لم أكن أفهم هذا وقتها!..

ومن بعيد لاحت أضواء القرية.

كانت الساعة العاشرة مساءً.. والشوارع مغطاة بالثلج، والظلام شبه تام فيما عدا بعض الأضواء خلف النوافذ المغلقة..

وارتجفت حين تخيلت الأسرة الملتفة حول المدفأة.. والطعام..

- الآن علينا أن نجد خانًا..

وأمام لافتة خشبية يضيئها مصباح ترجل (جوستاف) من العربة.. ثم قرع الباب بقبضة نحاسية معلقة جواره.. وصاح باللغة الرومانية بشيء ما، فرد عليه من الداخل صوت فظ يقول شيئًا آخر، حين تسمع لغة لا تفهمها يخيل إليك أن الكلمات تجري بين شفاه أصحابها بسرعة لا يمكن متابعتها، (جوستاف) يصرخ والصوت يصرخ.. ماذا هناك؟



قرع الباب بقبضة نحاسية معلقة جواره.. وصاح باللغة الرومانية

بشيء ما..

عاد إلي وهو يسب ويلعن - بالرومانية - بألفاظ أعتقد أنها مشينة للغاية، ثم فتح باب السيارة وجلس جواري.

- الخنزير لا يريد أن يفتح لنا..

- ولمه؟

- لا أدري.. قال إنني أستطيع أن أشكوه لمكتب الفنادق أو للحزب نفسه لكنه لن يفتح..

- ربما يظننا لصوصًا؟

- كلا إن رعاة الدانوب ودودون جدًا.. ولكن هذا الرجل.. لا أفهم.. وأدار محرك السيارة، وعدنا نجوب شوارع القرية المكسوة بالثلج صامتين.. بعد دقائق سألته:

- (جوستاف)؟

- نعم..

- هل اللية مناسبة دينية عندكم؟

- لا أعتقد.. ولماذا؟

- لا يوجد بيت في هذه القرية إلا وغرس صليبًا حديديًا أمام بابه!.. ألم تلحظ هذا؟!!

* * *

٣ .الكنيسة..

وصلنا للكنيسة العتيقة في القرية. آخر أمل لنا في المبيت.. نزل (جوستاف) من العربة واتجه نحو باب الكنيسة الحديدي الصدئ وصفق بكفيه.. ولم يفته أن يشير لصليب حديدي مغروس في الجليد أمام الباب.. ونظر إلي نظرة معناها: أنت على حق فيما لاحظت..

بعد دقائق تحرك ضوء مصباح، وانفتح الباب الصدئ في حذر عن وجه مليء بالتجاعيد، كان هذا هو القسيس.. لحيته البيضاء ونظاراته الطبية السميكة ذكرتاني بالقساوسة الروم الأرثوذكس الذين عرفتهم في الاسكندرية، تحدث معه (جوستاف) بكلمات مقتضبة فهز رأسه استنكارًا ودعانا للدخول..

أغلقت خلفي باب السيارة ووثبت إلى الداخل وأنا أرتجف بردًا. صعدنا سلالم متآكلة إلى غرفة واسعة رحبة.. وكانت هناك.. مدفأة! اللهب الأحمر العزيز يتراقص مرحبًا بنا.. وكانت هناك سيدة عجوز جالسة تحيك التريكو جوار المدفأة.. قدمها لنا الأب بكلمات لم أفهمها.

فقال (جوستاف):

- الآنسة شقيقة الأب (أنطونيسكو)..

وكانت هناك بعض كتب الصلاة على مائدة خشبية عتيقة، وشمعدانان.. وعدة أيقونات، كانت غرفة قديمة لكنها نظيفة مريحة و.. دافئة!

جلسنا أمام النار شاعرين أن اللهب ينفذ عبر عظامنا ليذيب النخاع بداخلها!.. أما الأب (أنطونيسكو) فنهض إلى زجاجة صغيرة صب لنا منها شيئًا في قدحين من الخزف.. وقدمه (لجوستاف) ولي.. نظرت إلى (جوستاف) في تساؤل فقال:

- روم ساخن ليجري الدم في عروقك..

اعتذرت له وناولته الكأس ليشربها بدلًا مني في حين شرح هو الأمر للأب:

- مسلم..

قالها بالرومانية كما ننطقها نحن بالعربية.. فنظر إلي الأب في مودة:

- أها!.. مسلم؟

ودارت محادثة قصيرة أدركت مفادها بالطبع.. من أين أتيت أنا وكيف؟ وماذا أفعل في هذا الركن المشئوم من العالم في هذا الزمهرير بينما بلدي هو أجمل وأدفأ بلدان الأرض؟!.. لو كنت أجيد الرومانية لقلت له إنني مجنون أيها الرجل الطيب.. مجنون.. ومعتوه.. وأبحث عن حتفي

جاء العجوز في تؤدة حاملة وعاء تفوح منه أبخرة زكية.. ورغيفين طويلين.. وطبقًا به بعض شرائح اللحم، أشار القسيس إلى اللحم ولي وقال كلامًا ما لم احتج لمجهود كبير كي أعرف معناه..

قال (جوستاف):

- يقول لك إن هذا اللحم..

-. ضأن.. وليس لحم خنزير.. أليس كذلك؟

- وكيف عرفت؟

إن لغة الايماءات والنظرات عالمية يا صديقي.. لو أنك شاهدت فيلمًا باللغة البنغالية لفهمت ثمانين في المائة من قصته دون جهد..

وعلى المائدة جلسنا نرشف الحساء الذي لا أعرف ما هو وإن كنت أميل بعد تناوله إلى الاعتقاد أنه حساء أحذية.. وكانت تسبح فيه أشياء مرعبة لكنه كان ساخنًا وهذا يكفى!

على حين جلس (جوستاف) والقس يتبادلان حديثًا لم أفهم حرفًا منه.. سيل من الشينات والخاءات ينهال فوق رأسي ويكاد يطير المائدة بما عليها.. هل اللغة الرومانية خشنة إلى هذا الحد؟

عينا القس تتسعان خلف نظارته وهو يضغط على مخارج الحروف.. و(جوستاف) يبدو غير مصدق وإن كان قد توقف عن المضغ مما دلني على أن الأمر أثار اهتمامه إلى حد ما، الأب يرسم علامة الصليب..

- عم تتحدثان يا (جوستاف)؟..

نظر إلي في تهكم.. ثم قال:

- خمن!.. ألست خبيرًا في الأفلام البنغالية؟!.. الايماءات يا صديقي.. الايماءات!

- حسن.. لا تمزح!.. هناك معتقد ما يؤمن به الأب ويخشاه كثيرًا لكنك لا تصدقه.. وإن كانت القصة قد بدأت تؤثر فيك..

- حسن.. أنت على حق.

- ولأكون أكثر دقة.. يقول لك إن الشيطان أو روح الشر - أو شيئًا من هذا القبيل - يتجول في القرية هذه الليلة المشؤومة لهذا أغلق السكان بابهم وغرسوا الصلبان على الأبواب، وإنه يسأل الرب أن يحفظنا هذه الليلة

نظر إلي في شك.. وتساءل:

- قلت إنك لا تعرف حرفًا من الرومانية؟

- بالفعل.. لكنها الايماءات كما قلت لك.. ثم إن القصة هي دائمًا هكذا.. تعلمت ذلك من قصص (إدجار آلان بو)3..!

- وهل أدركت من الايماءات أيضًا أنه مزق رجلين أمس؟

- من هو؟

- إنه (بيلاسكو) المذءوب.. أو بمعنى آخر، الذئب الذي كان رجلًا..

* * *

٤ - رعب في القرية..

صحت في ذهول:

- هل.. هل تتحدث عن أسطورة الرجل الذي يتحول إلى ذئب حين يصير القمر بدرًا؟

قال في تشف إذ نجح أخيرًا في إثارة فضولي:

- إن رومانيا هي موطن هذه الأسطورة.. وبالتحديد سهل الدانوب، وللمزيد من الدقة الجغرافية يبدو أن موطنها هذه القرية للأسف!

ثم ابتلع ملعقة من حسائه.. ودعاني بإشارة إلى أن أواصل الاكل.. لكن ما أكلته كان قد تحول في معدتي إلى قالب من الطوب.. خرافة أخرى تلاحقني في هذا الركن من العالم كأني الوحيد المؤهل لهذه المهام القذرة..

- لكن القمر كان بدرًا البارحة.. المفروض بحسب الأسطورة أن يسود الهدوء والسلام القرية بعد ليلة البدر الصاخبة، ويعود المذءوب إنسانًا.

تبادل بعض كلمات مع الأب (أنطونيسكو)، ثم التفت إلي:

- ثلاثة أيام..

- إذن يظل المذءوب يعيث فسادًا في القرية ثلاثة أيام.. هذا كثير..

وإذن فليلة باكر هي آخر ليالي هذا الشهر..

- أظن هذا..

وشرعت أنهي حسائي على حين استمرت المحادثة بين (جوستاف) والقس، التفت إلي (جوستاف)، قائلًا:

- قلت للقس إنك لا تصدق حرفًا..

- (جوستاف)! إن هذا لا يليق.. إن آرائي الخاصة...

- وهو يدعوك أن تزور الحانة باكرًا لتسمع ما سيقوله الرجال هناك..

- ولكن اعتذر له.. أنا لم أقصد.. يا لك من...

وعادا للحديث مرة أخرى.. وسمعت كلمة (نوسفيراتو) عدة مرات.. ثم أشار إلي القس ضاحكًا..



وعادا للحديث مرة أخرى .. وسمعت كلمة (نوسفيراتو) عدة مرات ..

- إنه يسألك عن مغامرتك مع الكونت (دراكيولا)..

نظرت إليه في غيظ، وقلت:

- قل له إنني اقتربت من القصة بشكل مروع.. لكني حتى هذه اللحظة لست واثقًا من شيء، قد تكون كل القصة سلسلة من الأوهام، وقد تكون دعابة قاسية شربتها حتى الثمالة.. لكني أعرف شيئًا واحدًا..

لم أجد أي دليل مادي على أن مصاص الدماء عاش أو يعيش في هذا العالم.. وإن موقفي من الخرافات لم ولن يتغير.. كل ما لا يرى ولا يسمع ولا يشم ولا يعقل هو غير موجود، هذا هو رأيي في أسطورة (دراكيولا)..

قال (جوستاف) مصححًا:

- (نوسفيراتو)!.. إنهم يفضلون هذا الاسم هنا وفي بولندا والمجر..

- نعم.. هم على حق.. فهو يبدو محببًا للنفس!..

عادا يتحدثان عشر دقائق.. ثم التفت إلى (جوستاف) قائلًا:

- يقول الأب إنك مخطيء!..

يا لبلاغة هذه اللغة!.. ربما استغرقت ساعتين كي أقول له كلمة مساء الخير، تثاءبت فقال الأب شيئًا ما للسيدة.. فقامت على الفور تحمل مصباح الكيروسين.. واقتادتنا في تؤدة إلى غرفة صغيرة بها فراشان نظيفان.. وقالت شيئًا ما هو - بلا شك - كلمة مساء الخير بالرومانية، وعلى الفراش ارتمينا بثيابنا لأن حقائبنا كانت في السيارة ولأن أحدنا لم يكن مستعدًا للنزول في الصقيع والظلام كي ينعم بالنوم في بيجامة.

... وغرقت في نوم عميق....

... غريب هو عواء الذئاب في هذه القرية.. صوت قوي متحشرج أليم كأنه إنسان يتألم في أعماق الجحيم.. أيقظني هذا العواء ثلاث مرات بعد منتصف الليل.. فكنت أردد آية الكرسي وأعاود النوم متخيلا ذلك الذئب البائس الذي يمشي الآن في الظلام والثلوج، باحثا عن فريسة!..

في الصباح خرجنا - أنا و(جوستاف) - نسير في القرية..

- أول شيء هو أن نجد ما يلزم للسيارة كي نواصل الرحلة.. ثاني شيء هو أن نذهب للحانة - كما قال الأب - فقد نجد شيئًا يهمك.. أو يهمني أنا..

وعند جراج القرية توجه (جوستاف) إلى رجل بدين يكسوه الشحم والعرق ويصرخ، تحدث معه صديقي فواصل الصراخ.. ثم عاد إلي.. قلت باسمًا:

- كلهم في هذه القرية يصرخون ويرفضون طلباتك..

قال في صرامة:

- لامجال للمزاح.. إنه يقول إن الكريفات سدت كل الطرق بالثلوج.. وخط التليفون الوحيد مقطوع فلم يستطيعوا استدعاء كاسحات الثلوج..

- وهذا يعني.

- نعم.. بالضبط.. يعني أننا سجناء في هذه القرية حتى يذوب الجليد!

* * *

في الحانة طلب (جوستاف) بعض الروم له وقهوة لي، وجلسنا وسط بحر من الشوارب الكثة السلافية ونظرات الشك.. ورجال مفتولو العضلات زادهم الفراء الذي يرتدونه ضخامة.. وكلهم تقريبًا مسلحون ببنادق ضخمة عتيقة..

- كلهم هنا من الرعاة.. وحياتهم خشنة إلى حد لا يوصف، ثم يجدون أنفسهم أمام فتاتين رقيقتين مثلي ومثلك!

قالها (جوستاف) وهو يرشف قدحه في حين انكمشت أنا في مقعدي وسط هذا المناخ غير المرحب، اقترب منا صاحب الحانة فأخرج (جوستاف) حفنة من اللايات4 دسها في قبضته.. وقال شيئًا ما، من ثم تهلل الرجال طربًا وشرعوا يحتسون الروم في مرح مرعب..

إنها تلك الحيلة القديمة: كل مشاريب (الجدعان) على حسابي.. من ثم تزول الكراهية والحواجز البشرية في ثوان.. اقترب منا رجل قوي البنية وشد كرسيًا على مائدتنا وصافحني أنا و(جوستاف) بيد كادت تهشم أصابعنا، وقال:

- (إستبان)!.. إستبان هيرشوفتش..
- (جوستاف نيكولسكو)..
- (رفعت إسماعيل).

سأله (جوستاف) عن شيء ما بالرومانية.. فشرع الرجل يفكر، ثم بدأ يحكي قصة مروعة طويلة وهو يئن من حين لأخر، ثم تهانف.. فأحاط (جوستاف) كتفه بذراعه، وقال:

- إنه فقد صديقه أول أمس.. تذكر صديقه هذا أنه لم يغلق حظيرة الأغنام من ثم ترك زوجته وطفليه وخرج في الظلام.. بضع ثوان لكنها كافية.. سمعت زوجته صرخة مريعة، وحين خرجت مسلحة لترى وجدت زوجها ممزقًا على الأرض وجواره آثار أقدام ذئب..

- والآخر؟.
- إنه عبيط القرية (كونستانتين)..
- وهل حدث شيء ليلة أمس؟
- لا شيء فيما نعلم.. كنا نحن المرشحين لنيل هذا الشرف لو لم يستضفنا القس..

صحت في حنق:

- إذن تركنا هؤلاء الجبناء ولم يفتحوا أبوابهم بغرض ترك وجبة عشاء مضمونة للرفيق (بيلاسكو).. يا له من ذكاء!

عاد يتحدث مع الراعي.. ثم التفت إلي:

- يقول إن أحدًا لم يفتح بابه لنا لأن المذءوب يستطيع الكلام بصوت البشر أحيانا مقدمًا أعذارًا مقنعة، ومن رأيه أن الاب (أنطونيسكو) اقترف جريمة في حق نفسه وحق أخته حين أدخلنا بيته أمس!

وأفرغت فنجان القهوة في حلقي.. ثم سألت:

- قل له من هو هذا المذءوب؟.. هل يعرفونه؟
- يقول إنهم لو عرفوه لقتلوه.. لكنه أحدهم بالطبع!.. ثم أنهم قتلوا مذءوبين كثيرين من قبل..
- ماذا؟.. هل هم كثيرون؟

- طبعًا؛.. هناك دائمًا واحد.. الأسطورة تقول إن من يجرحه المذءوب يتحول لمذءوب جديد في الشهر التالي. كأنه وباء.. فإذا قتلت المريض الأول يبقى المريض الثاني..

- وحين تقتله يكون قد ابتلي العالم بثالث..

- وهكذا.. سلسلة طويلة منذ القرون الوسطى إلى يوم الدينونة..

- وكيف يقتلون المذءوب؟..

- الأمر يقتضي إغماد نصل فضي في قلبه بالطبع وهو في صورته الآدمية لأنه وهو ذئب يكون في أقوى حالاته.. يمكنه اقتلاع شجرة من جذورها بكل سهولة..

- وكيف يعرفون وهو آدمي أنه هو المطلوب؟

عادا يتحدثان.. وأشار (إستبان) إلى رجل يرتدي ثيابًا قذرة وأصلع الرأس، فجاء الرجل، طلب منه شيئًا ما.. فاخرج الرجل من سترته لفافة وألقاها على المائدة وهو يرمقني في شك..

- يقول (إستبان) أن كل إنسان في القرية يعرف أنه إذا هاجمه المذءوب عليه أن يحاول إحداث إصابة ما به.. فإذا نجا بعد ذلك بدأنا في البحث عن صاحب هذه الاصابة.. ويتم إعدامه بنصل من الفضة..

- وهذه اللفافة؟

- هذا الرجل يدعي (إيدو).. هاجمه مذءوب في الشهر الماضي بين الأحراش. وقد استطاع أن ينتزع منه مخلبًا ثم فر بجلده.. في الصباح وجد في جيبه بدل المخلب شيئًا آخر.

- مثل.. بعض الشوكولاتة مثلاً؟

فتح (إستبان) اللفافة ببطء.. كان إصبعًا مجعدًا.. إصبعًا آدميًا يحيط به خاتم ذو فص أزرق..

لم يحتج (إيدو) لجهد كبير في البحث عمن فقد إصبعه في القرية.. بل هو لم يحتج حتى إلى ترك بيته.. إن هذا الخاتم هو خاتم زوجته!!

* * *

٥ - إيكاترينا..

صحت في ذهول:
- يا للهول!
قال (جوستاف) وهو يبلع ريقه:
- هذا هو ما يقولونه.. أنا لا أصدق لكن قصتهم محبوكة إلى حد مرعب..
قلت في حنق:
- وطبعًا قتل زوجته بنصل فضي..
- طبعًا..
- وهكذا يستطيع أي سفاح أن يقتل زوجته ويقطع إصبعها ثم يخرج ليصيح في القرية أنه اكتشف أنها مذءوبة وأنه نفذ فيها قصاص السماء!
التفت (جوستاف) بشكل تلقائي إلى الرجلين لينقل لهما وجهة نظري، فصرخت:
- لا يا أحمق!.. لن نخرج أحياء من هنا!
فتوقف عن الكلام.. لكن الرجلين خمنا ما قلت أو كادا.. اللعنة على لغة الايماءات هذه!.. ولمحت نظرة غضب في عيني (إيدو).. وتحسست يده القذرة نصل خنجره المعلق في حزامه.
- أهنئك على حماسك في الترجمة!.. حاول أن تغير الموضوع..
وعاد (إستبان) يتحدث بصوته العميق الغليظ، في حين حزم (إيدو) لفافته وأعادها لجيبه وهو يرمقني بنظرة نارية..
قال (جوستاف):
- منذ عام نجح (ستيفانو) في قطع رجل مذءوب بفأسه.. في الصباح تحولت الرجل المخلبية المشعرة إلى رجل إنسان، وفي نفس اليوم وجدوا ابن العمدة وقد فقد ساقه في حادث.. بالطبع نفذ أبوه الحكم بنفسه..
- يا للبشاعة!..
- المذءوب الجديد (بيلاسكو) لم يستطع أحد حتى الآن أن يحدد هويته أو يحدث به إصابة ما..
وفي هذه اللحظة وقعت عيناي على.. على أروع ما رأيت في حياتي!
إن الكلمات لن تنجح في التعبير عن وقع كل هذا الجمال على روحي.. أحتاج إلى لغة أرق وأكثر جمالًا.. ربما هي الموسيقا، فتاة سوداء العينين والشعر والملابس تقف جوار (إستبان) وتنظر إلي في رقة نظرة ثابتة أذابتني من الخجل
قالت لـ(إستبان) شيئًا ما فرد عليها بفظاظة.. يا له من وغد!.. وقال (لجوستاف) شيئًا آخر وقد بدا عليه الاشمئزاز.
قال (جوستاف):
- هي (إيكاترينا) ابنة صاحب الحانة.. قالت إنها تريد إخبارك بشيء لكن (إستبان) زجرها وقال لها إن النساء يصمتن حين يتكلم الرجال..

- الوحش
ثم فكرت قليلًا.. فخطرت لي فكرة.
- (جوستاف).. قل لي.. بالطبع في هذه الحانة مكان للمبيت.
- طبعًا.. ككل حانة قذرة في العالم..
- إذن قل لصاحب الحانة إننا نطمع في المبيت عنده.
- لكن لماذا؟.. هناك الخان.. والكنيسة، و...
- لا.. أريد المبيت هنا..
- هل سال لعابك عند رؤية أول فتاة في القرية؟.. إنها ليست....
- لم أزعم هذا لحظة.. فقط أريد أن أكون جوارها في هذه الليلة.
ليلة مسخ الذئب..
- يا لها من رومانسية ؛.. كم أنتم ملتهبو العواطف يا أبناء البحر المتوسط!
ونادى صاحب الحانة وأخبره برغبتي.. فهز هذا الأخير رأسه مرحبًا.. وأشار إلي أن أصعد معه سلالم خشبية نخرة إلى.. إلى أقذر حجرة رأيتها في حياتي.. منتهى البؤس والفقر والضعة.. حتى دورة المياه كانت عبارة عن جردل صدئ جوار الفراش الذي لم يكن أفضل
- والآن اسمع يا رفيق (رفعت)..
- أعرف ما ستقول.. اذهب أنت ونم في الخان أما أنا فباق!
- لقد وجدت مصيرك!..
قالها وهو يبصق على الأرض التي لم تزدها بصقته قذارة في الواقع.. وعلى الباب استدار ليسألني سؤالًا أخيرًا..
- والترجمة؟
ثم هز رأسه مستدركًا:
- آه!.. نسيت لغة الايماءات والنظرات!
وأغلق الباب قبل أن أرد عليه بما يناسب وقاحته!
جلست على الفراش وتأملت المكان في اشمئزاز.. هل أنا مراهق إلى هذا الحد؟ أم أنه حافز خفي جعلني أفعل ما فعلت؟..
دق الباب فوثب قلبي في فمي.. تخيلت يدها النحيلة الحساسة الباردة تدق الباب لتقول شيئًا ما بالرومانية يقتلني قتلًا..
فتحت الباب ملهوفًا فوجدت صاحب الحانة البدين يضحك لي كاشفًا عن أسنانه النخرة.. أرق ابتسامة استطاع أن يرسمها على وجهه.. أعوذ بالله!.. ناولني منشفة ممزقة وصابونة ملوثة بالشحم ثم انحنى ليوحي إلي أن الخدمة ممتازة.. وانصرف!
واضح تمامًا أنه هو الذي سيرعاني في هذه الغرفة!..
كانت الساعة الآن الثانية ظهرًا.. لم يكن هناك داع لإضاعة اليوم كله في حظيرة الخنازير هذه! لهذا أزمعت أن ألحق بـ(جوستاف) في الحانة بالطابق السفلي كي نقرر ما نفعله بقية اليوم..
الباب يدق ثانية.. لا شك أن الوغد سيعطيني هذه المرة فأرًا ميتًا لوجبة الغداء.. اتجهت إلى الباب وفتحته فرأيت (إيكاترينا)!..
ولكن قولوا لي.. هل يوجد أجمل ولا أنقى من هذا؟

- جئت.. أقول..
هل أنا أحلم أم أنها تتحدث الإنجليزية؟.. إنجليزية رديئة في الواقع لكنها مفهومة..
- أنت.. بالذئب.. تهتم؟
- أنا نعم..
خيل لي - لا أدري لماذا - أنها ستفهمني أكثر لو تحدثت بلغة إنجليزية ركيكة وهو رد فعل تلقائي نتخذه حتى في العربية حين يحدثنا أحد الأجانب بلغتنا..
- الذئب.. هو هنا..
- أين؟
- في.. الحانة.. هذه!..

* * *



هل أنا أحلم أم أنها تتحدث الإنجليزية ؟.. إنجليزية رديئة فى الواقع
لكنها مفهومة ..

7 - من هو؟

قالت وهي ترتجف كالورقة.

- أنا هاجمني من شهر.. في المخزن يفعل.. أنا.. أهرب.. أنا أجرح ذئب.. هو.. جرح في رأس.

إنها قصة مشوقة!.. إذن لقد هاجمها المذءوب الشهر الماضي ولقد استطاعت أن تفر وأن تجرحه في رأسه، وهكذا حين أشرق النهار كان هناك واحد مجروح الرأس تعرفه هي.. وهو الآن يشرب الخمر في الطابق السفلي من الحانة!..

- هو.. لا أعرف.. يلبس.

- غطاء رأس؟

- نعم.. نعم.. غطاء رأس، (إستبان) يلبس.. (ميلو إنستادت) يلبس.. (كوثار) يلبس.. (جورج).. (ستيفانو).. رأس

- هذا طبيعي يا صغيرتي، في هذا الطقس حتى الشيطان نفسه يلبس غطاء رأس

- لا.. لا.. هو. هم أبدًا يخلعون لا..

هل فهمت هذا الجزء؟.. إنها نقطة هامة.. الطبيعي أن الرعاة يشربون ويسكرون ويتشاجرون.. لكن هناك خمسة لم يحدث طيلة الشهر الماضي تحت أية ظروف أن استطاعت رؤية رءوسهم عارية، هذا التشبث المريب بتغطية الرأس أثار شكوكها..

فكرة ذكية.. لكن هناك حقيقة لا يجب تناسيها ألا وهي، أن الفتاة مخبولة.. مخبولة تمامًا!.. إذا تغاضينا عن جمالها وضعفها ورجفتها..

- تساعدني هل أنت؟

- نعم يا صغيرتي.. أساعدك أنا سوف!.. لكن كيف أتخلي عن قناعاتي وثقتي بالعلم لأضع ثقتي في قصتك الملفقة عن جرح الرأس.. القصة التي ستؤدي إلى ذبح أول مسكين يتصادف أن عارضة الشباك ضربت رأسه أو قذفه طفل شقي بقالب طوب؟

ربت على كتفها مطمئنًا.. وأوصلتها للباب فخرجت وهي ترسم علامة الصليب..

نزلت إلى الحانة.. الطابق السفلي فوجدت (جوستاف) جالسًا على مائدة مع (إستبان) وقد صار ثملًا تمامًا، جلست على نفس المائدة ومضيت أتأمل وجوه الرجال الخشنة وهم يصخبون ويمزحون مزاحًا فظًا سمجًا كله لكمات وشتائم أحدهم هو المذءوب كما قالت هي.. ولكن من هو؟.. أي أسماء ذكرتها؟.. إن هذه الأسماء لا تعلق بالذاكرة.. (جورج) قالت.. و(ستيفانو).. ثم.. ثم.. (كثار).. كلا.. (كوثار).. ثم (ميلو).. بقي واحد، (إستبان).. بالطبع هو (إستبان) الجالس على هذه المائدة معنا.. تأملته وتأملت وجهه المشعر وهو يتحدث مع جوستاف، مفهوم تمامًا أن تعتقد الفتاة أن هذا الرجل مذءوب.. فهو لا يحتاج لأنياب ومخالب كي يغدو مرعبًا.

ولكن كيف ولدت أسطورة المذءوب؟.. إن نفس النغمة تتكرر بشكل أو بآخر في رائعة (ر. ل. ستيفنسون) (الدكتور جيكل والمستر هايد)، الرجل الطيب الشريف الذي يتحول في ظروف

معينة إلى شيطان مفترس.. هل هي فلسفة إنسانية ما تتحدث عن أن لكل منا جانبين: أبيض وأسود؟!

هل هي محاولة ساذجة لتفسير حالات الانفصام التي يتحول فيها الشخص إلى نقيضه دون سبب واضح؟!.. على كل حال فالفكرة مفزعة ولا أنكر هذا لحظة.. وأعتقد أن تحول (جوستاف) أمام عيني إلى مسخ ذئب لكفيل بجعلي أخر ميتًا دون أن أنطق بحرف!..

الساعة الآن الخامسة مساء..

اقتربت من (جوستاف) - ورائحة الخمر من فمه تكاد تقتلني - وقلت له:

- هل هناك طريقة ما تجعل هؤلاء الرجال يخلعون أغطية رءوسهم؟

- أريد رؤية رءوسهم عارية ؛..

- هل جننت؟.. أولا قررت فجأة المبيت هنا.. والآن تريد رؤية رءوس الرعاة.. إن الصقيع...

-.لا.. لا.. لم يتجمد مخي، أرجوك افعل شيئًا!..

- دعني أفكر..

- يمكنك مثلاً أن تدعوهم لشرب نخب ما وأن يخلعوا قبعاتهم في صحة هذا النخب.

- هل تمزح؟!.. لسنا في ناد بلندن.. إن هؤلاء السادة أبعد ما يكونون عن الرقي.

- إذن فلنحضر أيقونة أو شيئًا مقدسًا لنجبرهم على خلع أغطية رءوسهم تحية له..

- انهم لا يعرون رءوسهم في الكنيسة نفسها..

- إذن..

وهنا نهض (جوستاف) مترنحًا حاملًا الزجاجة في يده وقال:

- هناك طريقة أسهل وأضمن..

وصاح بالرومانية بشيء ما.. فتعالت صيحات الدهشة.. ورأيت كل العيون تنظر إلي في كراهية أو احتقار أو شك!.. وصاح أحدهم مستنكرًا..

- ماذا قلت لهم أيها المعتوه؟

- قلت لهم ما تريد دون لف أو دوران.. قلت لهم إن السيد القادم من مصر يرغب - بعد إذنكم - في مشاهدة رءوسكم عارية!!

- يا لك من أحمق!

لقد كان ثملًا.. ووضعني في موقف ليس محرجًا فقط بل هو خطر على حياتي أيضًا.. كلهم ينظرون إلى وقد كوروا قبضاتهم.. هناك من أعتبرها إهانة وهناك من اعتبرها حماقة وهناك من اعتبرها نزوة، واحد فقط - بلا شك - أدرك أنني أعرف كل شيء!

اقترب (إستبان) مني وهو يرمقني بنظرة نارية.. ثم ضرب المائدة بقبضته، وشرع يصرخ بكلام كثير أدركت بصعوبة أنه موجه لي..

قال (جوستاف):

- إنه يقول إنك رقيع وسمج وابن..

- أنا أفهم هذا الجزء!..

قلتها وأنا أرتجف..

- ويقول إنه يطلب تفسيرًا..

ابتلعت ريقي، وتحاشيت نظرات الرجال النارية، وقلت:

- قل له أن يجلس لأشرح له، بشرط أن يكون هذا دون أن يسمعنا أحد..

نقل له (جوستاف) معنى كلماتي، فتوقف لحظة يرمقنا في شك وكراهية.. ثم حزم امره.. فالتفت إلى الرجال وامرهم بشيء ثم إنه سحب كرسيه وجلس على المائدة أمامي..

وفي عبارات سريعة نقلت له ما قالته لي الفتاة في غرفتي.. وقلت له إنني أشك فيه.. وإنني أطالب بكشف الاوراق قبل أن يحل الليل..

قطب جبينه ورشف جرعة من زجاجة (جوستاف) ثم مسح شاربيه بظهر يده المشعرة.. ومضى يحدق في وجهي فترة ثم نهض.. وصرخ بأعلى صوته في الرجال..

- (ستيفانو)!!

فأتى له شاب على شيء من الوسامة يربط رأسه بمنديل قذر..

- (كوثار)!!

نهض رجل بدين قصير القامة من مقعده وجاء لمائدتنا..

- (ميلو إنستادت)!

فأفاق (ميلو) من إغفاءته القصيرة على مائدة البار وجاءنا وهو يصلح غطاء رأسه المصنوع من فراء الثعالب

- (جورج)!

فجاء شاب ملتح يضع على رأسه غطاء من الجلود، التفت (إستبان) إلى باقي الرجال وقال شيئًا فساد التوتر.. ونهض أحدهم لكي يغلق الباب.. باب الحانة.. وبدأ الرجال اللذين ناداهم يشمرون عن أذرعتهم.. فقد فهموا أنه ناداهم لكي يفتكوا بي! وهو أمر وارد بالنسبة لي لأن كلامه الكثير بالرومانية قد يكون معناه: أن هذا السيد يقول إنكم مذءوبون فخذوا بثأركم منه!

التفت (إستبان) إلي وقال كلامًا ما.. ثم أشار إلى الرجال ليجلسوا حول المائدة.. ثم شرع يتكلم بصوته العميق ضاغطًا على كل حرف..

قال (جوستاف) مترجمًا:

- إنه يحكي ما قلته أنت.. ويقول لهم يا رفاق.. إن المذءوب هو أحد الخمسة الجالسين على هذه المائدة.. إنه يدعوهم لكشف رءوسهم ويقسم إنه سيفجر رأس من لا يفعل برصاص بندقيته..

وفي بطء واستسلام بدأ الرجال يعرون رءوسهم.. الصمت يسود المكان.. والحلوق جافة تترقب ما سيحدث.

تعرت أربعة رءوس.. ثم في حركات درامية مد (إستبان) يده لغطاء رأسه وانتزعه ووضعه على المائدة، لو كانت الفتاة كاذبة - في موضوع الجرح - فسأكون في موقف عسير..

كانت كل الرءوس سليمة..

رأسان فقط هما رأسا (ستيفانو) و(مليو انستادت) كان بهما جرع.. جرح قطعي طويل مغطي بخصلات الشعر، صاح الرجال في إثارة.. في حين أخذ الرجلان يصيحان في هلع بكلمات ما.. طبعًا كل منهما يشرح لهم أين وكيف اصيب بهذا الجرح.

عاد (إستبان) يتكلم.. إن هذا الرجل قوي الشخصية وله نفوذ هائل في قومه، صيحات الموافقة تتعالى في حين ازداد الرجلان تعاسة.. نظرت إلى (جوستاف) - الذي جرفته الأحداث فلم يعد يترجم - متسائلًا، فقال:

- يقول (إستبان) إن الموقف صار أكثر وضوحًا.. وإننا سنجلس كلنا هنا طيلة الليل حتى يتحول أحد الرجلين إلى مذءوب.. وأن السماء هي التي ستحسم القرار..

- ولكن كيف يقتل المذءوب عندئذ؟

- أول علامات التحول هي احمرار حدقتي العينين.. وهو سيراقبهما كالصقر بانتظار أول بادرة من أحدهما عندئذ سيذبحه بسكين الفضة قبل أن يكتمل تحوله!

* * *

٧ - المقابلة..

أخذت الدقائق تمضي بطيئة مملة ونحن جالسون في الحانة ملتفون حول (ستيفانو) و(ميلو انستادت) وهما عاريا الرأس باكيان يرتجفان..

الدقائق تمضي.. بطيئة..

فجأة صاح أحدهم بشيء ما.. فالتفت الجميع إلى (ميلو)..

- يقولون إن عينيه احمرت!

بالفعل كانت عيناه محتقنين بالدم.. لكن الاحمرار كان في الملتحمة.. بياض العينين.. وهذا - بالطبع - نتيجة لكثرة البكاء مع كل الحرارة والدخان والجو الخانق المحيط

- لكن هذه ليست حدقته.. إنها الملتحمة.

- وهل تتوقع من هؤلاء الرعاة معرفة الفارق التشريحي بين الحدقة والملتحمة؟...

إنها عين حمراء.. وهذا يكفي!..

تصايح الرعاة في حماسة وقد صرعتهم نشوة الموقف في حين تجمد (ميلو) في مقعده وقد بدا عليه هلع لا يوصف.. كالفأر الذي وقع في المصيدة ويرى ألا داعي لإضاعة لحظاته الأخيرة في المقاومة..

شعرت بالغثيان.. وبأنني على وشك إفراغ معدتي. فتحاملت على نفسي متجهًا للباب.. ناداني (جوستاف):

- ماذا هنالك يا رفيق؟

- قيء..

- والمذءوب؟

- ألستم تحتجزونه هنا؟..

وفتحت الباب الخشبي.. وفي الخارج.. كان الجليد وهواء الليل البارد.. شعرت أنني أحسن حالًا، لكن في أعماقي كان شعور من الندم على كل هذا الذي تسببت فيه.. ربما أدت حماقتي إلى مذبحة.. لكن كان هذا هو الحل الوحيد الذي وجدته لإنقاذ حياتي أنا من المأزق الذي أدت بي إليه حماقة (جوستاف).. وطبعًا كانت حماقة (إيكاترينا) هي التي بدأت سلسلة الحماقات هذه التي ستؤدي إلى ذبح (ميلو) أمام عيني..

كان صخب الرجال يتعالى داخل الحانة خلف النافذة.. وكنت أدرك أن علي أن أجد مخرجًا ما.. ولكن ما هو؟!.. لا أحب أن أرى إنسانًا يموت لأنه أصيب بالتهاب في الملتحمة.. ولكن كيف أمنع ذلك؟

وهنا سمعت صوت زئير وحشي.. رفعت رأسي فرأيتني أمام المذءوب!!

هل سقط أحدكم في قبضة مذءوب من قبل؟!.. إن الذين عاشوا هذه التجربة يمكنهم تجاوز هذا الجزء.. أما سعداء الحظ الذين لم يحدث لهم هذا فلهم أقول إنها تجربة شنيعة!.. أن تري أمامك كائنًا عملاقًا يرتدي ثيابًا بشرية لكن وجهه وجه ذئب ضخم.. ويداه مخالب ذئب.. وصوته صوت

ذئب.. ويقف على قدميه، عيناه حمراوان كالدم.. وفمه مفتوح يكشف عن أنياب بيضاء لامعة.. وصدره يموج بصوت حشرجة جهنمية، وهذا الكائن يهاجمك أنت!!



وهنا سمعت صوت زئير وحشى .. رفعت رأسى فرأيتنى أمام المذءوب !!

ماذا تفعل؟!.. ستصرخ.. لكن أليست هذه صرخات نهاية أكثر منها صرخات استغاثة؟.. حاول أن تهرب فوق الجليد المنزلق لكنه حتمًا أسرع منك، حاول أن تركله أو تضربه لكنه صلب كجدار..

ستسقط على الأرض متكورًا وهو يجثم فوقك كالكابوس ومخالبه تمزق لحم وجهك.. وبقوة يائسة توجه له لكمة قوية في عينه الحمراء.. فيصرخ.. وينهض من فوقك.. وفي اللحظة التالية يحيط بك الرعاة وقد خرجوا من الحانة على ضوضاء المعركة...

، ويفر هذا الوحش بين الثلوج..

هذا هو بالضبط ما حدث لي!..

وفي داخل الحانة أجلسوني ومسحوا وجهي بخرقة مبتلة.. وقدموا لي شيئًا في قدح شربته قبل ان أسأل ما هو، أحاط (جوستاف) كتفي في لهفة.. وسألني:

- ماذا حدث؟
- هو!..
- (بيلاسكو)؟
- نعم
- يا للسماء!.. إذن هو ليس (ميلو)؟!
- وهل شككت أنت في ذلك؟!
- إذن من هو؟!..
- لا أدري.. لكني لكمته لكمة رهيبة كادت تفقأ عينه اليسرى..

استدار (جوستاف) الرعاة وشرع ينقل لهم كلامي، بدت معالم الخلاص على وجهي الشابين المتهمين.. في حين أخذ الكل يثرثرون في حماسة.. غدًا بالطبع سيكون يومًا وبيلًا على كل من تلقى طوبة أو ضربة على عينه اليسرى.. لكنهم ما زالوا يرمقونني بنظرات الشك والتحفز، (إستبان) يشير إلى ويقول شيئًا متشككًا.. (جوستاف) يصرخ فيه بحماسة نافيًا ذلك الشيء.. ماذا حدث؟

- ماذا هنالك يا (جوستاف)؟
- لا شيء.. يرون التخلص منك الآن!..
- ماذا؟
- قبل أن تقتل أطفالهم!؟
- أنا..؟.. كيف؟
- في الشهر القادم.. حين تتحول إلى مذءوب!..
-مذءوب؟.. كيف؟

نظر إلي نظرة ذات معنى.. وهمس:

- إنه جرحك في وجهك عدة جروح.. ألم تلحظ ذلك؟!

* * *

جلست في مكاني أصغي للمناقشات والصراخ وأنا أفكر.. من الغريب أنني بالأمس نفس الوقت لم أكن أعرف شيئًا عن قصة المذءوب، أليس غريبًا أنني قد انغمست - خلال أربع وعشرين ساعة - في المشكلة إلى حد أنني أنا نفسي في طريقي لأكون مذءوبًا!.. يا له من تقدم!!

كنت أعرف تمامًا أن القصة لا حظ لها من الصحة.. وأن هذا الذي واجهني في الخارج هو شيء له تفسير علمي، لكن المشكلة العاجلة الآن كانت هي مواجهة هؤلاء الحمقى المسعورين الذين لا يريدون سوى الدم..

بصعوبة - رغم سكره البين - استطاع (جوستاف) أن ينقذ حياتي بأن أقنع الرعاة أن يتريثوا.. وأن يرفقوا بي. مع التأكيد على أن الشهر القادم لن يشهدني في القرية ولا في رومانيا كلها.. بل سأكون في مصر حيت أنكب وادي النيل السعيد بأسطورة الرجل الذئب.. أي أن رومانيا ستصدر عدوى المذءوب إلى إفريقيا كلها!!

تكفي هذه الاثارة لليلة وأحدة..

وفي تؤدة نهضت، وفي خطوات ثابتة صعدت السلالم فلم يعترض طريقي أحد.. اتجهت لغرفتي القذرة.. وخلعت حذائي وارتميت فوق الفراش وأنا أشعر به يعلو ويهبط.. يا له من يوم!.. يا له من يوم!..

الباب يفتح في صرير بطيء.. فليكن هذا هو المذءوب أو الشيطان نفسه. فلن أستطع النهوض ولا المقاومة.. إذا كان يريد افتراسي فليفعل دون أن يوقظني.. هذا صوت (إيكاترينا) الناعم..

- هل شيئًا تريد.. سيد؟

قلت وعيناي مغمضتان:

- لا يا ملاكي.، لا.. شـ.. شيء

أغلقت الباب وخرجت.. ثم فتحته وأدخلت رأسها الأسود الصغير:

- شكرًا.. من أجلي.. سيد...

وخرجت..

الفراش يموج بي.. لكم أنا متعب..

* * *

نور النهار يدخل من الشباك، أفتح عيني وأحرك أطرافي شاعرًا بالقوة التي منحني إياها نوم الليلة الهادئ. لقد غسلني هذا النوم من الداخل.. وإنني الآن. لصافي الذهن إلى حد مفزع..

نهضت إلى حوض الغسيل القذر.. وغسلت وجهي، واختلست نظرة إلى المرآة المكسورة، كان هناك جرحان قطعيان طويلان على خدي الايسر، ولكني طبيب ولا يمكن خداعي بسهولة من قال إن هذين الجرحين هما آثار مخالب ذئب؟

انفتح الباب خلفي ورأيت الظل المحبب الذي فتنني لـ(إيكاترينا) تحمل في يدها صينية عليها أشياء ما المفروض أنها تؤكل، ثم وضعتها على المائدة خلفي والتفتت إلي دون أن ترفع وجهها..

- هذا.. إفطارك هو.. سيد..

كان شعرها الاسود منسدلًا على جبينها.. لهذا نهضت واقتربت منها وبأناملي داعبت ذقنها الصغيرة، هتفت في حرج باسم:

- أرجوك.. لا.. سيد.. أنا لست...

أزحت الخصلة المنسدلة على جبينها.. هذا هو ما كنت أبحث عنه.. والآن يا ملاكي أنت في مأزق مرعب، وإنك لساذجة إذا ظننت ان انسدال شعرك يمكن أن ينفذ موقفك.

قلت في إنجليزية رصينة وأنا أضغط على كل حرف:

- إيكاترينا؟..

-.....؟

- ما سبب هذه الكدمة حول عينك اليسرى؟!!

* * *

٨ - مطاردة الذئب..

صاحت في ارتباك وهي تعيد الشعر لتغطي عينها:
- هذا.. في باب.. ضربته.. هو في باب!..
أمسكت معصمها في حزم ونزعت خصلة الشعر..
- لا يا صغيرتي.. إنني أنا الذي وجهت لك هذه الضربة أمس.. حين كنت تلعبين دور المذءوب!.. وتكفل الظلام والرعب بجعلي أتخيل قوة غير عادية لك..
- أنا.. لا أفهم.. سيد..
- ثم الجروح في وجهي.. لا يمكن أن تحدثها مخالب أي حيوان.. بل هي آثار أداة قاطعة رفيعة كنت تمسكينها في قبضتك لتحدث تأثيرًا..
الدموع تملأ عينيها.. وكيانها كله يرتجف.. و..
وهنا انفتح الباب ورأيت أباها صاحب الحانة يدخل. نظرة متشككة إلى الموقف برمته ألقاها علينا.. ثم تصلبت عيناه على وجه (إيكاترينا).. وبالذات على.. عينها اليسرى، ثم فجأة بدت عليه علامات الفهم!.. أشار إليها وهتف شيئًا ما.. ثم إنه اندفع خارج الحجرة وهو يردد نفس العبارة مرارًا.. لا يحتاج المرء لكثير ذكاء كي يعرف أنه يقول: المذءوب هو ابنتي.. المذءوب هو ابنتي!!
التفت، إليها وصحت:
- أرجوك!.. لا وقت للتفسير!.. اهربي الآن!..
- لكن..
- اهربي!.. إن هؤلاء الأوغاد متعطشون للدماء، وستكون أسعد لحظة في حياة أبيك هي عندما تتاح له الفرصة للتضحية بك لإثبات ولائه للجماعة!..
- لكن..
- لن يفهموا شيئًا عن مرضك النفسي.. وسيلقون بك أرضًا ويقتلونك بسكين من الفضة.
- لكن..
- هيا.. اذهبي إلى الأب (أنطونيسكو) في الكنيسة واطلبي اللجوء.. واعترفي له بكل شيء.. أما أنا فسأحاول أن أنقذ الموقف، سأشرح لهم.
وهنا تعالى صوت الرجال في الطابق السفلي.. صيحات الغضب والثورة، إنهم قادمون فقد ناداهم المخبول، في سرعة ودون تردد أمسكت يدي (إيكاترينا) وفتحت الشباك - برغم الثلوج المحيطة به - وفي رفق ساعدتها على الانزلاق على طبقة الجليد العالية تحت النافذة.. ثم أشرت إليها أن تجري.. نظرت إلي لحظة في تردد.. ثم أطلقت ساقيها للريح..
ودخل الرجال الحجرة وقد بدا الشر في عيونهم، وقالوا ما معناه "أين هي" بالرومانية؟ فأشرت للنافذة، عندئذ أسرعوا بالنزول على السلالم لملاحقتها ولم يفت (إستبان) - بالطبع - أن يفتش الحجرة عدة مرات قبل أن يصدق إشارتي، ثم نظر إلي نظرة شك.. ولحق بالرجال.
وجدت نفسي وحيدًا في الغرفة وربما في الحانة كلها..

فتحت الباب.. وتفقدت المكان حولي.. كانت هناك حجرتان في نفس الطابق كلتاهما مغلقة الباب، سرت في تؤدة إلى الباب الأول وعالجت مقبض الباب الصدئ.. فوجدتني في غرفة صغيرة نظيفة نسبيًا.. على الفراش قطعة من نسيج الكانافاه لم تتم.. وعلى المائدة في وسط الغرفة زهرية ورد رقيقة بها زهور ذابلة لا أعرف اسمها، كل شيء يدل على أنها غرفة أنثى.. (إيكاترينا) على وجه الخصوص.. ثيابها ملقاة في إهمال على كرسي خشبي جوار الفراش.. ثم ديوان شعر مكتوب بحروف سلافية لا تعرف حتى الوضع الصحيح للامساك به.

كان تصرفي وقحًا وطفيليًا لكني كنت أريد أن أعرف.. لهذا مددت يدي المرتجفة الباردة إلى حشية الفراش وقلبتها.

كان هناك كيس قماش كبير مربوط بعناية، فتحته ومددت يدي فيه فشعرت بشيء كالفراء وأشياء كقطع بلاستيك مدببة. قلبت الكيس على الفراش فوجدت ما توقعته..

هناك - على الفراش - ارتمى رأس المذءوب الذي هاجمني أمس.. قناع مصنوع بإتقان غير عادي يكسوه الفراء.. والعينان حمراوان مضيئتان لكنهما تسمحان للابس القناع أن يرى من خلفهما، وكان الفك السفلي المليء بالأنياب متحركًا. تحفة فنية حقيقية..



هناك ـ على الفراش ـ ارتمى رأس المذءوب الذى هاجمنى أمس .. قناع مصنوع بإتقان .

وجوار القناع كان قفازان من الفراء مزودان بالمخالب، ثم شيء يشبه حزام النجاة في السفن والطائرات.. عبارة عن أداة لتضخيم حجم الصدر والأكتاف حين تلبس تحت الثياب..

ثم - والأهم - أداة قاطعة دقيقة، ومجموعة سكاكين مختلفة الاحجام يمكنها تمزيق فيل....

وأخيرًا صورة شمسية صغيرة لشاب وسيم حليق الوجه يبتسم في بلاهة.

الآن أفهم كل شيء.. (إيكاترينا) هي (بيلاسكو) المذءوب الذي دوخ القرية وأفزع رجالها حتى الموت. هي أعدت هذه الثياب المتقنة لنفسها.. وشرعت تخرج في كل ليلة مقمرة بحثًا عن التعس الذي يوقعه حظه العاثر في قبضتها، ومع كل الرعب والمفاجأة لم يكن أي واحد على استعداد للدفاع عن نفسه.. لم يحاول أي واحد على الاطلاق أن يفعل.. وفي الظلام كانت تمزقه بالسكاكين التي تخفيها معها.. ثم تفر وتعود لدورها الأصلي.. ابنة صاحب الحانة الرقيقة، ومن حين لآخر تخبر المغفلين أمثالي بقصة المذءوب مجروح الرأس.

ولكن لماذا تفعل ذلك؟.. لماذا؟..

* * *

- د. (رفعت)!

هذا صوت (جوستاف) يناديني.. لقد استيقظ الآن فقط من نومه بعد إجهاد السُكر ليلة أمس، وقد بحث عني في الحانة فلم يجد لي أثرًا ولم يجد أحدًا يسأله.

- هذا أنا يا (جوستاف).. أنا هنا..

صعد إلي في الطابق العلوي حيث وقفت في غرفة (إيكاترينا).. وعلى الفراش وجد أنياب المذءوب، فصاح في غباء:

- هل.. هل قتلته؟ وسلخته أيضًا؟

- يا لك من معتوه!

وفي كلمات سريعة شرحت له كل شيء..

- والعمل؟

- أول شيء.. سنذهب للكنيسة لنواجهها بما نعرف..

- ثم

- ثم نتدبر إخفاء الأمر أو إعلانه حسب ما يكون تفسيرها.. قد تكون قاتلة تستحق الإعدام وقد تكون مريضة انفصام تستحق العلاج، لكن مهما كان لن نترك الأمر للعدالة الجماعية في هذه القرية المنكودة.. يجب الذهاب بها إلى (بوخارست) بأي ثمن.

* * *

في الكنيسة قابلنا الأب (أنطونيسكو).. سألته همسًا عن الفتاة فقال لي إنها لم تأت.. أقسمت له إننا لن نؤذيها.. فاحتد غضبًا مؤكدًا أنه لا يكذب..

إذن أين ذهبت هذه التعسة؟.. وهل نجح الرعاة في الإمساك بها قبل أن أتمكن من.. علينا الآن أن نبحث عنها.

وهنا تذكرت شيئًا فأخرجت صورة الشاب الوسيم التي كانت في حجرتها.. وقربتها من نظارة القس.

- هل تعرف هذا الشاب يا أبت؟

لم يعط القس فرصة الترجمة (لجوستاف) لأنه قرب أنفه من الصورة.. وهتف:

- آه!... (ميخائيلسكو)!

ثم قال بضع كلمات أخرى.. ورسم علامة الصليب.. قال (جوستاف):

- يقول إن اسمه (ميخائيلسكو)..

- هذا واضح!.. أنا لست حمارًا على كل حال..

- وأنه ابن العمدة.. كان مذؤوبًا وهاجم (ستيفانو) ، لكن (ستيفانو) أطاح بساقه بالفأس، وفي الصباح بدت قصته عن ظروف بتر رجله ملفقة وسخيفة لهذا أدركوا أنه المذءوب.. وقتلوه!..

- وبالطبع هذا الفتى كان يحب (إيكاترينا)؟

دارت محادثة سريعة بينهما أدركت من خلالها أن الاجابة نعم.. إذن هذه هي القصة.. قصة حب عنيفة بين الشابين مرهفي الحس.. ثم تفقد الفتاة حبيبها نتيجة خرافة أو قصة مغرضة صاحبها (ستيفانو)، لهذا تصمم أن تنتقم وأن تحيل لياليهم المقمرة إلى جحيم.. كأنها قالت: حسن.. أردتم مذؤوبًا فلكم هذا!!، وشرعت في كل شهر تقتل أحد الذين كانوا مسئولين عن موت حبيبها، ثم اختارت ميتة بشعة لـ(ستيفانو) عن طريقي أنا.

كانت تعرف أن رأسه مجروح لهذا أدركت أن اختيار ليلة الأمس سيؤدي لقتله كما مات حبيبها، ولما سارت الرياح لا كما تشتهي هي.. وكاد (ميلو) يفقد حياته، ارتدت ثياب المذءوب وانتظرت كي تهاجم أول من يغادر الحانة.. وكنت أنا بلا فخر!..

- ما التفسير الذي قدمه (ميخائيلسكو) لفقد ساقه؟

- قال لهم إنه فقد وعيه ليلًا في أثناء سيره في الغابة.. وحين أفاق لم يجد ساقه.. ووجد الجرح مربوطًا ببراعة كي لا ينزف، من ثم جر نفسه إلى داره.. وارتمى فوق فراشه مغشيًا عليه حتى أيقظوه صباحًا ليتهموه بأنه مذءوب!

قصة غريبة صعبة التصديق، لكن إذا تخيلنا - بشيء من التمادي - أن (ستيفانو) كان يحب (إيكاترينا) هو أيضًا.. يمكننا أن نكمل القصة.. كان يستطيع أن يضرب الفتى في أثناء سيره في الغابة، ويقطع ساقه بالفأس.. ويضمدها.. ثم يجري للقرية ليعلن قصته المزيفة عن المذءوب، وبهذا يتخلص من منافسه بطريقة نظيفة وبحكم إعدام جماعي.

لكن (إيكاترينا) كانت هناك، وقد قررت أن تكافئ القرية بمذءوب حقيقي!

* * *

آخر سؤال وجهته للقس قبل أن ننهي حديثنا كان:

- كيف بدأت قصة المذءوب في القرية؟

نقل له (جوستاف) سؤالي، فهز رأسه في إرهاق.. وابتسم وشرع يتكلم.. قال (جوستاف):

- يقول إن هذا حدث من قرون، منذ عهود القرون الوسطى، عائلة (سخاروزان) الاقطاعية كانت تحكم البلاد بالحديد والنار.. لكن اللعنة أصابت نسلهم.. كان أطفالهم يولدون مذءوبين.. وكان

المرض يبدأ باسوداد لون البول ومغص في بطونهم.. ثم يتحولون لمسوخ ذئاب.
بول أسود ومغص؟.. مسوخ ذئاب؟.. إن هذا يذكرني بشيء ما.. نعم.. هو كذا.. صحت بـ(جوستاف):
- إن القصة كانت هكذا.. لكن الحقيقة أنهم كانوا مرضى بمرض له أسباب علمية وعلاج.. هذا المرض أسماه القدامى (مرض الرجل الذئب).. أما إسمه العلمي فهو (بورفيريا)5.
هذا المرض ناجم عن اختلال تمثيل الحديد في الجسم.. من ثم تحدث أعراض عديدة منها المغص والبول الأسود، وفي حالات نادرة تستطيل الأظفار وتبرز الأنياب ويتجعد الجلد، تصير الحواجب كثيفة والشفاه مشققة والعينان حمراوين.. ثم يتجنب المريض الشمس لأنه لا يتحملها!!..
- باختصار يتحول إلى...
- يتحول إلى ذئب بشري!.. وبمرور الوقت تولد الأسطورة.. وتعيش في النفوس، ويستغلها بعضهم لقتل زوجته أو منافسه في الحب، أبدًا لم يوجد على الارض رجال ذئاب.
هتف (جوستاف) في جزع:
- رائع!.. ولكن هلا اختصرت هذه المحاضرة العلمية إلى أن ننقذ الفتاة؟
يا الله!.. لقد نسيتها تمامًا.. غمرتني نشوة أن أجد تفسيرًا هذه المرة لهذا اللغز من ألغاز التاريخ، وللحظة ظننت أنني خليط من (شيرلوك هولمز) و(لوي باستير).. وفاتني تمامًا أن الوقت غير مناسب لهذا..
- فلنسرع!.. واشكر لنا الأب (أنطونيسكو) بشدة!..

* * *

عند المقابر وجدناهم.. الدماء تلطخ الجليد الأبيض.. وهم جميعًا واقفون في صمت وقد نكسوا رءوسهم.
على الثلوج كانت ممددة وشعرها الاسود الجميل ينتشر حولها ملطخًا بالدم والثلج.. وفي صدرها كان نصل طويل غائصًا إلى نصله.. نصل من الفضة.. في حين وقف قاتلوها حولها يلهثون في إعياء.
لقد تأخرنا كثيرًا.. كثيرًا جدًا.
وعلى قدميها ارتمى أحدهم يبكي ويغسلها بدموعه، كان عاري الرأس وفي فروة رأسه جرح قطعي طويل.. لقد فقد (ستيفانو) حبيبته الرقيقة أمام عينيه وهو الذي فعل كل الفظائع التي فعلها لتكون له وحده.. لكني لا أشعر بأي نوع من الرثاء له.
أخذ (جوستاف) ينشج في صمت، وسالت دمعتان دافئتان على خدي سرعان ما تحولتا إلى ندفتين من الثلج جوار فمي.
ودون كلمة أخرى تأبط (جوستاف) ذراعي وأخذني بعيدًا عن هذا المشهد المروع.
لقد انتهت أسطورة الرجل الذئب.. انتهت للأبد، لكني لست فخورًا على الإطلاق بدوري فيها.. لست فخورًا على الاطلاق.
والشمس تغرب فوق المقابر في سكون.

* * *



على الثلوج كانت ممدّدة وشعرها الأسود الجميل ينتشر حولها ملطخًا
بالدم والثلج ..

٩ - الخاتمة..

في مطار (بوخارست) صافحت (جوستاف) وشكرته على كل شيء، ثم إنني طلبت منه أن يكتب لي باستمرار.

تحسس الجرح الذي في وجهي وهتف باسمًا:

- إذا تحولت إلى مذءوب يوم الخميس القادم لا تنس أن تكتب لي!..

لم أبتسم.. وقلت في كآبة:

- أرجوك ألا تعود لهذا في خطاباتك!..

- أوه!.. لننس الماضي..

أشعلت سيجارة.. وتأملت المسافرين المتجهين لصالة الجوازات.. وسألت:

- هل نشرت القصة؟

- لا..

- ولمه؟.. إنها مثيرة برغم كل شيء..

- المكتب الثقافي في الحزب..

وتلفت حوله في حذر ليتأكد أن أحدًا لا يسمعه.. ثم أردف:

- قالوا إن قصتي خيالية.. و.. رجعية.. ولا تخدم أيديولوجية الحزب.. ثم إنها تتهم رعاة الجنوب بالتخلف!!

- ربما كان هذا أفضل..

وصافحته للمرة الأخيرة.. واتجهت لصالة الجوازات، ناداني في لهفة صائحًا:

- حاول أن تعود لرومانيا قريبًا.. تنتظرك أشياء رائعة في قلعة الدكتور (فرانكنشتاين)!

- لا مفر من ذلك!.. لكني سأتعلم اللغة الرومانية أولًا..

- وداعًا.. يا رفيق، تحياتي لأبي الهول!

وأقلعت الطائرة..

كنت أظن أنني عائد إلى عالمي الهادئ الناعم، ولم أكن أعرف أنني سأواجه كابوسًا جديدًا في قريتي الصغيرة و.... لكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل
القاهرة ١٩٩٢

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

أسطورة مصاص الدماء

مقدمة..

١ - ليلة رهيبة..

٢ - خادم الكونت..

٣- المومياء..

٤- طقوس..

٥ - شيء ما..

٦ - مزيد من الألغاز..

٧ - زائر الليل..

٨ - ليلة الأربعاء..

٩ - المفاجأة..

١٠ - الخاتمة..

أسطورة الرجل الذئب

مقدمة..

١ - بلد الأساطير..

٢ - العاصفة..

٣ - الكنيسة..

٤ - رعب في القرية..

٥ - ايكاترينا..

٦ - من هو؟

٧ - المقابلة..

٨ - مطاردة الذئب..

٩ - الخاتمة..

روايات
مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة
روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة
الرجل الذئب

تعالوا معي إلى غابات
رومانيا الباردة حيث أكواخ الحطابين
، تعالوا معي إلى الليالى المقمرة حين يكتمل
البدر .. تعالوا معي لتصغوا لصوت عواء الذئب
الذي يجمد الدم فى العروق .. الذئب الذي كان رجلاً
.. خذ الحذر .. وتأمل فى وجوه من حولك ، فأحدهم
هو .. وحين يكتمل البدر فى المرة القادمة لربما تحول
إلى مذعوب أمام عينيك المذهولتين .. وحين يهاجمك
المذعوب حاول أن تنتزع منه مخلبًا .. ففى الصباح
قد يتحول هذا المخلب إلى إصبع بشري .. إصبع
إنسان تعرفه .. صديقك أو ... حبيبتك ..!
!... تعالوا .. تعالوا إذا جرؤتم

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة النداهة

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

حقيقة

[←2]

الاسم المجري لدراكيولا

[←3]

((إدجار آلان بو) الشاعر الأمريكي العبقري.. كتب آرق قصائد الحب مثل (آنابيل لي) وأفظع قصص الرعب مثل (قناع الموت الأحمر) و(الحشرة الذهبية) و(سقوط منزل آشر)

[←4]

اللاي: عملة رومانيا

[←5]

حقيقة!



روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

ماوراء الطبيعة

٢

أسطورة النداهة

مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

٢

روايات مصرية للجيب

•

ماوراء الطبيعة

أسطورة النداهـــة

روايات مصرية للجيب

٢

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة النداهة

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

روايات مصرية للجيب

٣

ما وراء الطبيعة



أسطورة النداهة

مقدمة..

الاسم: د. رفعت إسماعيل.
السن: ستة وستون عامًا.
المهنة: أستاذ أمراض الدم (سابقا) بعدد لا بأس به من الجامعات في مصر وأوروبا وأمريكا.
الحالة الاجتماعية: أعزب.

لقد عشت حياة حافلة أنقب فيها في كل مكان عن أساطير الحياة التي ورثناها عن أجدادنا وأثارت رعبنا كما أثارت رعبهم..، واجهت الكونت (دراكيولا) و(الزومبي) ودخلت قلعة د. (فرانكنشتاين) وتعرضت للعنة الفراعنة ولعبت بأوراق التاروت وغير ذلك الكثير..

وقبل أن يحين الأجل أو يقضي تصلب شرايين المخ على ذاكرتي آثرت أن أكتب حكاياتي كي يعرف الشباب أي محارب للخرافات والخزعبلات كنته في حياتي.

واليوم سأحكي لكم حكايتي المريرة مع رعب القرى المصرية العتيد.. (النداهة).. ولن أكرر نفسي..

لا تقرءوا هذه الصفحات إلا نهارًا وبين أحبائكم..

إن الليل والوحدة يثيران الخيال.. وأنا أعرف هذا جيدًا لأني عانيت منهما كما لم يعان أحدكم..، ولهذا - ولهذا فقط - أوصيكم ألا تقرءوا هذه الأوراق وحدكم ليلًا.. انتظروا شمس النهار.. ودفء الصحبة الآدمية.

لقد نصحت.. وقد أعذر من أنذر!!.

* * *

١ - العودة..

قريتي أخيرًا!..

قريتي العجوز الطيبة حيث كانت طفولتي ومراهقتي قبل أن أنتقل إلى القاهرة كي أدرس الطب وأقيم هناك..

لم يتبدل شيء..

البيوت الطينية.. الساقية.. المسجد الذي تآكلت جدرانه.. الترعة الراكدة.. النخلة المائلة فوق حائط الكتاب.. الأطفال الحفاة يلعبون ألعابهم البدائية وقد تدلي المخاط من أنوفهم..

وكنت أنا في سيارة أجرة.. واحدة من تلك السيارات العتيقة التي لا تصلح إلا للسقوط براكبيها من الفلاحين التعساء في الترعة، لم تكن سيارتي لتتحمل هذا الطريق الوعر ؛ لذا تركتها في القاهرة..

ثمة فلاح عجوز متشكك يجلس جواري وترتعش شفتاه بآيات قرآنية طيلة الوقت، وكل ثلاث دقائق يهتف في السائق:

- بالراحة يا (صالح)!.. هي الدنيا طارت؟!..

فيضحك السائق في فظاظة، ويرفع عقيرته بالغناء بصوت أجش (لم تكن أجهزة كاسيت السيارات منتشرة في ذلك الوقت لحسن الحظ)، وتزداد سرعة العربة أكثر...

وعلى جانبي الطريق يتوقف الفلاحون عن العمل في حقولهم ليروا ما هنالك وقد ضيقوا عيونهم - من أثر الغبار والعرق - مؤكدين حقهم الإلهي في التدخل فيما لا يعنيهم.. إلى أن يقول أحدهم في ذكاء واضح:

- هذا (صالح)!

- لقد عاد إذن!

ويواصلون عملهم.. ويواصل العجوز قراءة القرآن..

* * *

قريتي أخيرًا

هي إحدى قرى محافظة الشرقية على مسافة قصيرة من (فاقوس) واسمها (كفر بدر).. هل تعرف هذا الإسم؟!.. لا أظن.. هل ستذكره؟!.. لا أظن..

إنه اسم آخر من تلك الأسماء المتشابهة التي يزخر بها ريفنا الطيب والتي لا يعرفها ولا يهتم بها سوى أبناء قراها..

من هذه القرية الصغيرة صرت أحد أساتذة أمراض الدم المرموقين وعضوًا مرغوبًا فيه في كل منتدى علمي في العالم.. وصديقًا لكل علماء الدم في الأرض..

ليس هذا غرورًا ولكنه اعتراف بفضل هذه القرية الفقيرة عليّ..

واليوم أعود إليها بعد انقطاع، شاعرًا بحاجة النبات إلى جذوره..

نظرات الأطفال الفضولية تلاحقني، والحسناوات المراهقات يختلسن إلي الطرف ثم يلكز بعضهن البعض في دلال مرح.
لا أحد يتذكرني تقريبًا.. لا أحد..

* * *

ووصلت إلى دارنا.. الدار الحنون التي عشت فيها أجمل أيامي، وهي - كأغلب بيوت القرية - مصنوعة من الطين اللين، مصطبة عند مدخلها فوقها مصباح جاز مشروخ.. ثم الباب الخشبي العملاق.. والفسحة التي يمرح فيها البط والدجاج يتسلى بالتقاط الحشرات من الأرض الطينية الزلقة، وحجرة على يمين الداخل.. والفرن العتيق.. ثم تدرجات طينية منحوتة كيفما اتفق تصل إلى الطابق العلوي حيث السطح بما عليه من أكوام تبن وأقراص من روث الماشية معدة لتجف.. وجوارها حجرتي.. وبالطبع لم تكن الكهرباء قد وصلت قريتي في ذلك الوقت..
على الباب تنحنحت.. ثم دخلت وألقيت نظرة على العنز الصغيرة التي أخذت ترمقني في دهشة..، سيدة عجوز جالسة وأمامها طشت نحاسي كبير مليء بالأرز وقد شرعت تنقيه.. وجوارها شابة حسناء منهمكة في تنظيف طفل صغير عار تمامًا...
رفعت العجوز عينيها الذابلتين لأعلى فرأتني..
- ابني... (رفعت)..!
- أمي..!
وارتميت في أحضانها وقبلت يديها في نهم.. اليدين المعروقتين العزيزتين.. في حين شرعت الشابة تعانقني من الخلف دامعة ويداها مبتلتان بعد..
- أخي..!
يا للحنان.. ويا للرقة! أبدًا لم أتلق في حياتي قبلات بلا ثمن وصادقة إلى هذا الحد من أية امرأة إلا من أمي وأختي، وأبدًا لم يبك إنسان بصدق حين يراني إلا هاتين العزيزتين، لكنني لم أفطن أبدًا قبل تلك اللحظة إلى ما هما فيه من فقر وبؤس حال..، دائمًا كانت هذه المعالم التي تحيطهما حقيقة مسلمة في عيني إلا أن فترة غيابي عنهما جعلتني أفطن إلى أن من واجبي أن أوليهما عناية مادية أكثر..
إنني - الآن - قادر على أن أبني لهما بيتًا من الطوب.. وأن أوفر لهما الكثير من سبل الراحة التي هما جديرتان بها..
لكن شيئًا في عيني أمي جعلني أؤجل التفكير في ذلك.. إن حساسيتها الزائدة لن تعتبر اقتراحي برًا بأهلي بل سترى فيه لونًا ما من التعالي على بيئتي، أن فكرة إقامتي وحيدًا بالقاهرة وسفري للخارج مرارًا لا تفارقها.. وهي تؤمن إيمانًا مطلقًا لا يتزحزح أنني - لابد - قد تغيرت، وهي تنتظر أول تلميح مني كي يتحطم قلبها..
نعم.. لنرجئ هذا الحديث الآن..

* * *

كانت عودتي - للأسف - وبالًا على الطيور بالدار... مذبحة دامية قامت بها أختي.. وتم إعداد مأدبة هائلة لي في حين أخذت أمي تدير (العملية) كجنرال في حرب يعرف تمامًا كيف يكسبها.. رحمها الله كم كانت باسلة نشيطة.

وجالسًا كهارون الرشيد على الطبلية بين أكوام الرقاق واللحم واللبن الرائب والخبز والفطير، ادركت أن علي أن التهم كل هذا عن آخره وإلا تحطم قلبا هاتين العزيزتين! وأمي - ككل أم مصرية - تؤمن أن صحة ابنها ليست على ما يرام في أية لحظة تراه فيها، وتؤمن أن الأكل هو العلامة الوحيدة الموثوق بها على الصحة، ثم هي - طبعًا - ترى انني تأخرت في الزواج إلى حد مرعب..

- كم أتمنى أن أطمئن عليك مع زوجتك، هي التي ستعرف كيف ترعى صحتك وطعامك..!

آه يا للنغمة الأليمة!

كنت أنا وقتها قد بدأت أشعر بالوحدة وبتلك الغريزة التي يستشعرها الواحد منا فيرغب أن يكون اثنين ثم ثلاثة ثم أربعة وهكذا.. لم يكن قلبي يختلف عن قلب البواب والسباك وبائع الجرائد.. تلك الحاجة الملحة إلى رفيقة درب تنتظرك عند عودتك ليلًا وتودعك عند ذهابك صباحًا..

رحمك الله يا أمي!.. كيف لو عرفت - وكيف لو عرفت أنا - أنني سأصل إلى سن السادسة والستين وحيدًا، ولم يكن في توقعي أنني سأري كل هذا الذي سأراه وأنني سأقضي زهرة عمري بين مصاصي الدماء والمسوخ حتى لا يبقى لدي وقت ولا متسع من عاطفة يسمحان لي بأن أجد فتاة لطيفة تشاركني حياتي...

ابتلعت قطعة اللحم التي كنت ألوكها. وغمغمت:

- ربنا يسهل!

ونظرت لوجهها الودود الطيب كيف لو عرفت ما مررت به في انجلترا وفي رومانيا؟!.. لو عرفت لماتت هلعًا.. ولأقسمت أن أظل في كنفها آمنًا حتى يموت واحد منا..

مددت يدي أداعب ذقن الطفل العاري الذي أنا خاله.. وسألت:

- كيف حال (طلعت) زوجك يا (رئيفة)؟

- بخير.. سيعود ليلًا..

غمست لقمتي في القشدة وطوحتها لفمي.. وواصلت الاطمئنان:

- وما أخبار (رضا)؟!

و (رضا) - إن كنت لا تعلم - هو أخي، وهو فلاح آثر أن يرعى أرضنا في القرية ويقيم مع زوجته في الناحية الأخرى من البلدة لأن زوجته العصبية المتعالية لم ترد أن تعيش مع أمي وأختي..، مرت دقائق فطنت بعدها إلى أن واحدة منهما لم تجب عن سؤالي..

- أقول.. ما أخبار (رضا)؟

نظرة ساهمة في عيني أمي.. ودمعة متجمدة في عيني أختي وهي تحاول تجاهل السؤال بالتشاغل بإطعام طفلها.. ماذا حدث؟!

- أمي.. ماذا حدث..؟

وجدت أمي ألا مفر من الإجابة عن سؤالي فنظرت لعيني وهمست:

- رعاه الله وحفظه

- ماذا؟.. هل.. هل هو مريض؟.. هل تورط في مشاكل ما؟.. أن (نجاة) زوجته..

- لا تتهم أحدًا يا بني.. إنها إرادة الله..
- إذن ماذا حدث..؟
أنهضت أختي ابنها من على حجرها.. وهمست:
- (رضا).. نادته النداهة..

* * *

٢ - أسطورة جديدة..

النداهة؟!.. يا للذكريات التي تثيرها هذه الكلمة عندي..!.. حكايات جدتي لنا جوار الفرن ونحن بعد صبية صغار نصغي لقصصها بعيون مفتوحة وأفواه فاغرة... قصة تلك الشابة الحسناء التي تسير في الحقول ليلًا تنادي الشباب - الذكور طبعًا - كي يلحقوا بها.. ويهرع الشاب إلى أحضانها، وهنا تتحول إلى حقيقتها.. غول مرعب شرس يفترس الفتى فلا يسمع عنه أحد بعدها..

لكم أرّقتنا هذه القصة..!، ولكم تخيلنا تفاصيلها الشنيعة في مئات الصور المرعبة، ومازلت - بعد كل هذه السنين - أذكر صوت جدتي الخشن الخفيض يردد في حزن ذلك الموّال:

فين الولد يا مّه؟ قالت نسي أهله
فات البلد لمّا الغولة نادت له

* * *

فين الولد يا ولاد؟ قالوا الولد مسحور
سافر وراها بلاد وادي السنين بتدور

يا لها من قصة... واليوم تبعث هنالك من فصوص مخي الخلفية.. والغريب أنها تعود إلي في هذا الوقت.. ومع أخي بالذات!..

- هل.. هل تعنين النداهة؟
- نعم!..
- النداهة.. المرأة التي تنادي الشباب و...؟
- نعم.. زين الشباب..

ألقيت باللقمة التي في يدي على الطبلية، ونهضت في حنق:

- ماذا تعنين بهذا الكلام الفارغ؟!

قالت أمي بعين دامعة:

- أقسم على هذا.
- ولكن لا يوجد شيء كهذا..
- يوجد يا بني.. يوجد.. هل نسيت كلمات جدتك أم أن الإقامة في مصر قد جعلتك تنسى كل شيء؟!

آه.. يا لهذه النغمة التي كنت أخشاها..، مرة أخرى تذكرني أمي أنني تغيرت حتمًا، وأنني أعتقد أنني أكبر وأفضل من كل معتقدات أهلي.. وهذا - بالطبع - ليس صحيحًا.. لا يجب أن أظل مؤمنًا بالغولة والنداهة والحطمة لكي أثبت لهم أنني لم أتغير..

- حسن.. كيف نادته؟
- نادته.. وهذا كل شيء.
- وهو.. هل هو موجود أم ماذا؟!.. هل اختفى؟!.

- إنه في بيته.. لكنه تغير.. لم يعد يكلم أحدًا، ولا يأكل ولا يشرب..
- لكن هذا لا يدل على شيء..
- إنه ينتظر نداءها الثاني ليلحق بها للأبد..
يا للجنون... الهراء الذي يطاردني في انجلترا ورومانيا وحتى هنا في قريتي حيث ظننت أني سأنال بعض الراحة النفسية..، يجب أن أحقق في الموضوع بهدوء ودون انفعال، يجب ألا أسمح لنفسي أن أصرخ في هاتين البائستين.
- حسن...
قلتها في استسلام.. وأردفت:
- أريد أن أراه فهل هذا مسموح به على الأقل؟

* * *

ذهبت لدار أخي المصنوعة من الطوب الأحمر وعلى بابها كفوف مفتوحة حمراء لمنع الحسد مع بعض العبارات التي تحاول طرد الحاسدين.. وقرعت الباب في حزم..
انفتح الباب عن زوجة أخي بوجهها الصارم المتعالي، وما إن رأتني حتى رسمت ابتسامة قاسية على شفتيها.. ورحبت بي في فتور:
- أهلًا يا دكتور.. الحمد لله على السلامة..
وقادتني للداخل.. وكان هناك ثلاثة أطفال يلعبون في صحن الدار توقفوا عن اللعب، وأخذوا يرمقونني بعيون فضولية واسعة..
-هيا يا أولاد.. سلموا على عمكم.
امتد كفان صغيران يصافحانني في حين توارى الثالث في خجل مذعور برغم لوم والدته له، تمتمت ببعض كلمات الإطراء على نمو الأطفال وظرفهم، ثم سرت خلفها إلى غرفة النوم..
هناك - على الفراش - كان جالسًا.. (رضا) أخي وقد انثنى على نفسه منطويًا.. وكان الليل قد بدأ يحل مما جعل الرؤية عسيرة نوعًا..
- (رضا).. لقد جاء أخوك الدكتور (رفعت).. هيا رحّب به..
لم يرد..
- (رضا).. لقد جاء من مصر خصيصًا من أجلك..
استمر الصمت..، جلست جواره في هدوء وتأملته.. كان يرتدي جلبابًا أزرق متسخًا.. ورأسه عار.. وفي عينيه نظرة تائهة ترمق أبعادًا أخرى لا نعرفها..
لم يتغير كثيرًا ومازلت أرى ملامحي في ملامحه.. لكن ماذا دهاه؟
-(رضا).. ألا تعرفني؟



جلست جواره فى هدوء وتأملته .. كان يرتدى جلبابًا أزرق متسخًا ..
ورأسه عار .. وفى عينيه نظرة تائهة ترمق أبعادًا أخرى لا نعرفها ..

لم يبد عليه أنه سمعني فضلًا عن أنه عرفني أساسًا..، ربت على كتفه والتفت إلى زوجته حيث وقفت ويداها في وسطها..

- منذ متى؟

- منذ أسبوع..

- وماذا حدث..!!.

قالت وهي تشعل لمبة الجاز لتبدد بعض ظلام الحجرة مضيفة - في الواقع - ظلالًا كئيبة زادت الجو توترًا:

- كنا قد نمنا.. ثم سمعت صوتًا ينادي (رضا).. (رضا)!.. صوت امرأة قادمًا من الحقل القبلي، نهض هو مصرًا على أن يرى ما يحدث.. قلت له إنها النداهة يا (رضا).. لا تذهب يا (رضا)، لكنه أصر على أن يذهب.. وها هي ذي النتيجة..

- وهل عاد لك بعدها؟

- كلا.. تأخر كثيرًا.. فخرجت للحقل وحدي حاملة لمبة الجاز، وهناك وجدته واقفًا وحيدًا لا يرد.. عدت به إلى البيت ومنذ تلك الساعة وهو في هذه الحال..

- وهل هو لا يأكل فعلًا؟

- تقريبًا..، أحيانًا أدس الطعام في فمه كالأطفال أو كالبط! ويظل الطعام في فمه دون مضغ عدة ساعات..

- وقضاء الحاجة..؟

- حيث هو..!

وفجأة - ودون إنذار - انفجرت باكية والدموع تختلط بكلماتها:

- لقد ضاع رجلي!.. لقد انتهى..!.. يا ليته ماخرج.. ياليته ما سمعها.... ماذا أفعل؟.. ماذا أفعل؟

ثم شرعت في هستيريا تسبه على حماقته وتسب الظروف التي جعلته - هو بالذات - ضحية النداهة، ثم تسب النداهة... ثم تسبني أنا نفسي لأنني... لا أدري بالضبط ما ذنبي في الموضوع لكنها رأت أن لي دورًا ما، لا تعرف كنهه ويستحق التوبيخ.. ربما لأنها كانت تفضل أن أكون أنا في مكانه.. ان تمتعي بكامل قواي العقلية هو في رأيها جريمة لا تغتفر... ولا ألومها على هذا..

ثم تهانفت فأجلستها جوار (رضا) وربت على ذراعها..، ما أغرب هذه المرأة.. كل هذه العواطف كانت مختفية وراء مظهرها الصارم المتعالي..

- ماذا أفعل بكوم اللحم الذي تركه لي؟!

الواقع أنها كانت بالفعل في موقف لا تحسد عليه لأن أخي كان رجل البيت بمعنى الكلمة.. يفعل كل شيء ويعرف كل شيء، ومن دونه هي ضائعة تمامًا..

- إنه لم يمت يا نجاة.. لم يمت..

- بل هو ميت فعلًا..

- إنه مريض.. وسيشفى..

- كلا.. أنا أعرف مصير من نادتهم النداهة... سيظل هكذا أسبوعين أو ثلاثة.. وبعد هذا تناديه للمرة الثانية، عندئذ يفارق الدار للأبد ولن يراه أحد بعدها..

- كلا.. لن يحدث هذا وأنا حي... لن يمس أخي بشرّ أبدًا..

ونهضت في تصميم.. وقد تذكرتها هي الأخرى... فأكملت:
- ولن يمس زوجة أخي سوء طالما أنا على وجه الأرض..

* * *

كان الظلام قد أرخى سدوله على القرية.. والنجوم شديدة الوضوح في السماء كأنها ثقوب في ثوب أسود يغطي الكون، كل الموجودات قد بردت واصطبغت بلون أزرق قاس، ووجوه مكسوة بالظلام تمر من جواري تقرئني السلام فأرد بعبارات مختلطة وذهني شارد..

ما هي هذه الأعراض؟!

إن هذه الصورة تشابه إلى حد ما أعراض الاكتئاب التفاعلي الحاد أو صدمة عاطفية أو مرضًا نفسيًا ما، لا أعرفه لأني لا أعرف سوى أقل القليل عن هذه الاضطرابات..

وفي تلك الأيام السعيدة لم تكن المخدرات معروفة بصورتها البشعة التي نعرفها اليوم... لهذا استبعدتها على الفور وإن كنت لا أنكر تشابه هذه الأعراض مع تسمم الباربيتيورات المزمن.. لكن أخي لم يكن من النوع الذي يدمن.. ولم يكن سهل الخداع أبدًا..

هل هو مرض عضوي ما لا أعرفه؟.. هل هو جنون ذهولي متقدم؟ هل هو؟.. هل هو؟.. لا إجابة.

هناك شيء واحد أعرفه.. إن واجبي هو أن أجلب بعض زملائي من أساتذة الجامعة ليروه.. وأنا واثق أنهم سيجدون مصطلحًا لاتينيًا من عشرة أحرف على الأقل يسمون به هذا المرض.. وسيصفون بعض الأقراص والحقن تعيد أخي إلى حالته الأولى...

نعم.. كنت أعرف ما ينبغي علي عمله..

* * *

٣- ثرثرة..

وقفت (نجاة) مذهولة ترقب ما يحدث، في حين وقف أطفالها في استمتاع واضح يراقبون هذا السيرك الذي يدور أمامهم..

وعلى الفراش الخشبي تمدد أخي (رضا) ذاهلًا لا يدري بشيء مما يحدث له، في حين انكب زملائي - علماء الطب - يفحصون كل ملليمتر من جسده القوي..

دكتور (عادل شلبي) أستاذ الأمراض الباطنية قاس حرارته وضغط دمه ووضع ساعة على صدره وبطنه ثم هز رأسه وجمع حاجياته ونهض..

الدكتور (محمود الأسيوطي) أستاذ الأمراض العصبية وخزه بدبوس عدة مرات وضربه بمطرقته مرارًا وتحسس عضلات فكيه ثم ترك المجال للدكتور (محمد ابراهيم) أستاذ الأمراض النفسية الذي أخذ يرمقه في شك، وأخذ يسأل (نجاة) أسئلة محمومة لا ينتظر إجابتها عن أخي. وهل كان يميل للوحدة.. وعلاقة أمي بأبي.. و... و..

ثم جاء دوري فمددت يدي بمحقن عملاق وسحبت من ذراعه عشرة سنتيمترات من الدم وضعتها في أنبوب اختبار به مادة مانعة للتجلط وأصدرت لتلميذي الدكتور (علاء) قائمة طويلة من الفحوص يقوم بها حين يعود لمعمله في القاهرة..

ثم إنني خرجت معهم إلى صحن الدار واجلستهم كيفما اتفق حول أكواب الشاي الأسود التي أعدتها زوجة أخي.. وقلت في حرج:

- إنني أشكركم على مشقة السفر وكل الوقت الذي أضعتموه من أجلي...

قال د. (محمود) وهو يرشف الشاي:

- لا مجاملات بيننا أيها الزميل.. لا مجاملات..

وقال د. (عادل):

- إن هذا هو واجب المهنة.. سكر من فضلك!

ناولته علبة السكر والملعقة، ثم تنحنحت وقلت:

- والآن.. هل كونتم رأيًا ما؟

ساد الصمت برهة.. ثم قال د. (عادل) في كياسة:

- من ناحيتي لا توجد مشكلة.. إنه سليم تمامًا..وجهازه العصبي متكامل.. وهذه ليست أعراضًا نفسية لها اسم!

ولكن.. هذا يعني.. إذا زعم هؤلاء الزملاء أنه لا مشكلة هنالك فأنا كفيل بجعلهم يعيشون في مشكلة حقيقية..!

- ولكن.. لا بد أن هناك شيئًا ما خطأ..

قال د. (محمد إبراهيم) وهو يشعل غليونه:

- بالطبع.

- وهذا الشيء له إسم...

- بالطبع..، وهو إلى حد ما يشابه أعراض الاكتئاب أو فقدان النطق الهستيري لكن ما هو بالفعل؟.. لا يستطيع أحد أن يجزم..
- إذن فمن يستطيع؟
قال وهو ينفث دخان الغليون كريه الرائحة محدثًا سحبًا كثيفة:
- المشكلة هي أننا لا نعرف شيئًا عما سبق هذه الحالة.. الملابسات التي أدت إليها... ولا نملك أية قصة سوى قصة زوجته الملفقة التي يعوزها الدليل العلمي..
ثم أشار إلي بفم غليونه.. وأردف:.
- مثلا هل ستحكي لك هذه السيدة أية صدمة عاطفية سببتها له في تلك الليلة المشئومة؟!.. هل لديها فكرة عن أزماته المالية أو مشاحناته أو هزائمه !..
قال د. (عادل) مكملا الكلام:
- هل تعرف - وهو الأهم - أية عقاقير يتعاطاها؟!
قلت في حنق:
- وهل تجد أية علامات لإدمان مخدر معروف؟.. مخدر لا يؤثر في حدقة العين ولا في الجهاز العصبي ولا في العلامات الحيوية؟
- وهل أنت ملم بكل أنواع المخدرات؟
- على الأقل أعرف منها ما يحتمل أن يوجد في قرية كهذه.. ثم إنني أعرف أخي جيدًا.. إنه لا يدمن ولا يتعاطي حتى الأسبرين، وهو حذر جدًا بحيث لا يمكن أن يدس له أحدهم شيئًا منها في طعامه..
- إذن فالحل الصحيح هو عند زوجته..
تنحنح د. (محمود) معلنًا رغبته في الكلام:
- إذا أردت رأيي.. هل يمكنني الكلام بصراحة؟
- بالطبع..
قال وهو يحاول أن يتحاشى نظراتنا المتشككة:
- أنا لست مستريحًا لهذه المرأة القاسية المتسلطة وأعتقد أنها تمارس لعبة نفسية ما، مع أخيك أدت لتحطيمه بهذه الصورة..
قلت وأنا أمد يدي لكوب الشاي:
- لكنك لم تعرف أخي.. إنه هو رجل البيت بمعنى الكلمة، كل ما في الأمر أنه يحبها ويحاول إرضاءها قدر استطاعته..
- هذا لا يمنع أنها تسيطر عليه..
- ثم إنها الآن في موقف لا تحسد عليه،،، ليس من مصلحتها أبدًا أن يفقد زوجها وعيه خاصة في هذه الأيام..
قال د. (عادل) وهو يعيد كوبه للصينية متمتمًا بعبارة شكر:
- على العموم.. هي مجرد آراء..، والآن علينا أن تتصرف.. لقد حان موعد عيادتي.، وأمامنا رحلة عودة شاقة..!
- ولكننا سنتغدى سويًا..
- كلا.. ليكن هذا في ظروف أخرى إن شاء الله.

وهكذا - وفي صمت - أركبتهم في سيارتي وبدأنا رحلة العودة الشاقة إلى القاهرة، كنت محرجًا منهم فلم أجرؤ أن أصارحهم بأن فحصهم لأخي وآراءهم لم تزد الأمر إلا سوءًا.. وأن ما قدموه لي لا يساوي ثمن البنزين الذي بددته في هذه الرحلة الرهيبة..

لقد وضعت مشكلتي في أيدي ثلاثة من أساطين الطب في مصر فأعادوها إلي قائلين إنها مشكلتي أنا.. يا له من شعور مرعب!.. إذن فأنا وحدي.. وحدي تمامًا...

وعند مدخل عيادته في باب اللوق نزل د. (محمد ابراهيم) من السيارة وسط بحر من عبارات شكري، واتجه للمدخل.. ثم تذكر شيئًا ما فعاد إلى وانحنى فوق نافذة السيارة هامسًا لي:

- هل تعرف؟!

- ماذا؟

- لو كنت مكانك لفكرت في أسطورة النداهة بشكل أكثر جدية.. ألم يخطر لك أن أخاك قد نادته النداهة بالفعل؟

* * *

عدت للقرية شارد الذهن، وكان الليل قد أرخى سدوله بظلام لم أعتده أبدًا في القاهرة.. ظلام ثقيل لزج يخنق الأنفاس.. ولا يفلح نور كشافات سيارتي في تبديده

وصلت لدار أخي فقرعت الباب.. أدخلتني (نجاة) وقد بدا بعض الشعوب على وجهها وفي لهفة سألتني:

- هيه؟.. ماذا قالوا؟

هززت كتفي في يأس.. ثم قلت في شرود:

- لا شيء.. حالة نفسية لا أكثر..

- ألم ينصحوك بشيئ؟

- أشياء تهم الأطباء فقط.. ولكن لماذا تسألين؟

قالت في لهفة ذات معنى:

- يخيل لي أن هذه هي الليلة..!

- ليلة ماذا؟

- ليلة الرحيل..!

- اسمعيني يا (نجاة).. لن نعود لهذا مرة أخرى..

- لن أتكلم.. تعال للداخل وانظر.

تبعتها في توجس وهي تحمل لمبة الجاز وظلها يسقط خلفها على الأرض طويلًا مهيبًا مرعبًا.. معها دخلت غرفة النوم فلم أجد (رضا) في الفراش..

- إذن أين هو؟!

أشارت بأصبع مرتجفة إلى النافذة.. النافذة المطلة على الحقل القبلي المظلم... هناك كان واقفًا ينظر إلي الظلام في ثبات وظهره لنا، لم يشعر بوجود أحدنا قط... اقتربت منه في تؤدة ووضعت يدي على كتفه فلم يهتز ولم يبد عليه شيء.. وعيناه شاخصتان خرساوان وثمة رجفة في شفتيه كانه يعتزم أمًرا..

- هل رأيت؟.. منذ انصرف الحكماء وهو هكذا..
قلت في ضيق:
- وما هي المشكلة.. إنه مريض لا أكثر...
مصمصت بشفتيها متصعبة.. وقالت:
- كلهم يحدث لهم نفس الشيء.. إنه ينتظر النداء الثاني..
- (نجاة).. لا داعي للتخريف..



اقتربت منه فى تؤدة ووضعت يدى على كتفه فلم يهتز ولم يبد
عليه شىء ..

ثم إنني نهضت إلى حقيبتي التي نسيتها في غرفته، وأخذت منها محقنًا وطلبت منها غليه (في تلك الأيام السعيدة قبل اختراع الإيدز والتهاب الكبد الفيروسي كنا نغلي المحاقن الزجاجية)، ثم كسرت أمبولًا من الفينوباربيتون1 وتناولت ذراعه وأفرغت محتوى الأمبول في وريده.. لم يقاومني كأن الإبرة تخترق عروق شخص آخر..

بعد قليل بدأت جفونه تتدلى وجسده يتراخى، من ثم نظرت إليها في ارتياح.. وقلت:

- ها هو ذا.. سينام نومًا هادئًا حتى الصباح...

- أكيد؟

- طبعًا.. حتى نداهته لن تستطيع إيقاظه..

وتعاونا على إرقاده على الفراش، ثم جمعت حاجياتي وهممت بالانصراف ولم تحاول أن تدعوني للبقاء معه ولم أكن لأقبل لو فعلت..

في الخارج كان الظلام الدامس مخيمًا وصوت حشرات الحقول يتعالى في إيقاع رتيب.. أغلقت باب السيارة وأدرت المحرك... هل هذا الصوت الغريب قادم من المحرك أم ماذا؟!.. كلا.. ليس هو المحرك..

هذا الصوت قادم من بعيد.. من الحقل القبلي.. صوت عميق رقيق كأنه امرأة تتوجع.. ببطء ومع الضغط على مقاطع النداء..

- رااااح..... رااااح..!

كلا.. ليس ما تقوله هو هذا.. أوقفت المحرك لأسمع بصوت أوضح نعم.. أكاد أقسم أن هذا الصوت القادم من الظلام.. من الحقول البعيدة التي لا يجرؤ إنسان أن يمشي فيها ليلًا مهما كان معه من مصابيح، هذا الصوت يردد في إصرار محموم:

- (رضا اااه).. (رضا اااه)!

* * *

٤ - مرضى آخرون..

والآن لابد لكم أن تعترفوا بأنني قوي الأعصاب إلى حد غير عادي وأن إيماني بالعلم لا يتزعزع، لأني - ببساطة - بعد أن سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت لم أهتز قط.. وعدت إلى دارنا لأنام..!

إنني لا أتصور أي أحمق كنته في تلك الأيام...

على أنني في الصباح الباكر لم أنس أن أمر على بيت أخي لأسأل زوجته عن حاله، فقالت وقد أشرق وجهها:

- الحمد لله..

- لم يستيقظ ليلًا؟

- نادته النداهة عدة مرات فكان يتقلب في الفراش لكنه لم ينهض..!

- رائع!

قالت لي وقد بدا عليها الشرود.

- لماذا لا تعطيه هذا العلاج.. الحقنة.. كل ليلة؟

فكرة لا بأس بها.. لكنها ليست حلًا على الإطلاق، ليس انتصارًا أن يقضي إنسان حياته تحت تأثير الفينوباربيتون حتى لا يسمع صوت النداهة ودعك من انها جريمة.. جريمة أن تدفع إنسانًا للإدمان لمجرد أن تطمئن أنت.. ولكن ماذا نفعل كي لا يهرب!!

ابتسمت في شفقة، وحييتها وانصرفت...

* * *

كما هو متوقع انتشر خبر عودتي للقرية كالنار في الهشيم..، وعلى الفور ازدحم الفناء الضيق لدارنا بأهالي القرية الذين جاءوا حاملين أوجاعهم على أكتافهم والأمهات اللواتي يعاني أطفالهن الإسهال والمراهقات اللواتي يؤرقهن النمش على خدودهن.

الواقع أن كل مخلوق في القرية فتش في جسده عن علة ما تسمح له بالحضور لأفحصه، وبالطبع لم أتذمر ولم أتقاض مليمًا لأن هذا هو حق أهل قريتي الذي لا جدال فيه..

لقد جعلني هذا أتذكر شبابي الأول كطبيب وحدة ريفية..

وفي الحجرة التي على يمين الداخل لدارنا أعددت ما يشبه عيادة خارجية صغيرة، وشرعت أمارس أسرار مهنتي المقدسة في حين أخذت أختي تعد الشاي لعينات منتقاة من الزائرين..

وعند العصر كان ضغط العمل قد ركد.. وكنت أنا قد انتهيت.. فأزمعت الصعود إلى حجرتي للراحة توطئة لأن أذهب لأخي (رضا) ليلًا..

انفتح الباب ودخل ثلاثة رجال يبدو عليهم التردد.. وقال لي أكبرهم سنًا:

- نحن نريدك في زيارة منزلية يا دكتور.

ابتسمت وهززت رأسي:

- هل يمكن تأجيل هذا إلى المساء.. إنني..
- أرجوك..
قالها في صوت عميق أقرب للأمر، وتبادلوا النظرات المريبة فيما بينهم.. هؤلاء الرجال يخفون شيئًا مريبًا، وهو - كالعادة في الأفلام السينمائية - واحد منهم مصاب بطلق ناري في أثناء معركة مع البوليس!.. لكننا لسنا في فيلم سينمائي لهذا حاولت مرة أخرى التملص:
- عندكم الوحدة الصحية، و....
- أي مبلغ تريد..
إنهم مصرون... على كل حال فإن فلاحي الشرقية مسالمون وكرماء.. ولا جدوى هنالك من رفض رؤية مريضهم هذا لأنهم مصرون كالموت ذاته.. وأنا لا أحب الشجار.. على الأقل مع أهل قريتي..
- إذن هيا بنا. وحملت حقيبتي.. وخرجت معهم..

* * *

- تفضل يا بيه..
ثمة امرأة تخفي وجهها بطرحة سوداء، وعدد لا بأس به من الرجال جالسون في وجوم وصمت يدخنون ويتبادلون نظرات ذات معنى..، ثم نفس تصميم الغرف الطينية الموجودة في دارنا.. والبط الذي يمرح بحرية تامة..، وكان هناك مدخل كريه الرائحة يقود لغرفة جانبية مفروشة بالحصير، وعلى الأرض تمدد شاب وسيم في مقتبل العمر يحدق في السقف بعينين لا تطرفان.. سألتهم وأنا أنظر للشاب:
- هل هو المريض؟!
لم يرد أحد تعبيرًا منهم عن بلاهة سؤالي، فقررت أن أزيد الأمر سوءًا بسؤال أكثر سخفًا..
- ماذا به؟
- كما ترى..!
- منذ متى..؟
- أسبوع.
انحنيت عليه فلم أستطع فحصه، اضطررت إلى الركوع جواره وبدأت بمحاولة تنبيهه فلم أفلح.. نفس الأعراض اللعينة.. هل هو وباء يجتاح القرية..؟ مددت يدي لمعصمه لأقيس نبضه فوجدت شيئًا مروعًا.. حبل من الليف حول معصمه يثبته إلى وتد خشبي مدقوق في الأرض، لقد قيدوا هذا الفتى كحيوان مفترس كي لا يفر.. ويالها من فكرة!
رفعت عيني إلى الرجال الواقفين حولي وسألت:
- هل.. هل نادته النداهة؟!!
تبادلوا نظرات التقدير لي، ثم قال أكبرهم وقد انبسطت أساريره:
- أمه تقول هذا.. لقد سمعتها..
- ولماذا استدعيتموني إذن؟
- كي تثبت هذا أو تنفيه..

أثبت هذا؟.. وكيف أثبت هذا وأنا لا أصدق منه حرفًا؟! وفي أي كتاب علمي تجد وصفًا دقيقًا لأعراض مرض (النداهة)!!.. تأملت الفتى المقيد في رهبة.. إنها أسطورة مرعبة.. وفكرة هذا القيد البشع تزيد الرعب، جالت بخاطري رحلة (أوليس)2 حين كان عليه المرور أمام صخرة عرائس البحر اللواتي يفتن غناؤهن البحارة فيرمون بأنفسهم في الماء ليغرقوا.. اضطر (أوليس) إلى تقييد نفسه ورفاقه بالسلاسل إلى صواري السفينة حتى لا يلبوا نداء عرائس البحر الفاتن... إن السلوك البشري الأسطوري يتشابه في محافظة الشرقية وفي بلاد الإغريق!!

ما علينا..

واصلت فحص الفتى..، وعريت الجلباب عن بطنه فوجدت شيئًا ما.. آثار أنياب حادة مزقت اللحم أسفل الصرة لكنها التأمت تمامًا.. وهكذا بدأت أفهم ما هنالك..، سألت الرجال في حذر:

- هل يشرب؟

- لا.. إنه يرفض الماء تمامًا..

- إذن هاتوا لي بعض الماء..

جروا - في حماسة مبالغ فيها - ليحضروا لي قلة الماء..، ناولوها لي في شك مندهشين من تحمسي للشرب في هذه الظروف..

أمسكت بالقلة وقربتها من وجهه ثم بدأت أسكب الماء ببطء أمام عينيه المذعورتين.. وكما توقعت بدأ وجهه يتقلص.. نظرة سريعة في عينيه.. صرخة صامتة على شفتيه..، ثم نهض جالسًا وهو يعوي ويئن كالذئب الجريح..

أبعدت القلة عنه وشرعت أهدئه..

نهضت وجمعت حاجياتي في صمت، ثم أشرت لأكبر الرجال كي يتبعني للخارج، وهناك أمام عيون كل الواقفين قلت له:

- ليس هذا نداء النداهة يا حاج..

- إذن ما هو؟

- إنه مصاب بالكلب.

- الكلب..؟!

- نعم.. حيوان مسعور عضه في بطنه منذ بضعة أيام3!

- لم يحدث...

- بل حدث، ولربما تجاهل هو الأمر ولم يأخذ المصل المضاد لذلك..، والآن هو في مراحل المرض الأخيرة..

- وموضوع الماء؟

- هذا المرض كان يسمى قديمًا بمرض (خوف الماء) لأن المريض يهتاج من صوت الماء أو منظره ويتشنج بهذا الشكل الشنيع، وكذلك تيارات الهواء تحدث تقلصات بلعومية شديدة..

وأشعلت سيجارة مستطردًا وشاعرًا بالفخر من نفسي:

- وهذا الذهول هو عرض التهاب المخ المصاحب للمرض.

لم يبد عليه أنه فهم حرفًا مما قلت.. ولم يكن يعنيه أن يفهم، كل ما كان يريده هو أن يعرف: ماذا يفعل؟

- يجب نقله فورًا إلى إحدى مستشفيات الحميات بالزقازيق...

- ولكن..
- فورًا.... إن احتمال نجاته لا يتعدى النصف بالمنة لكن يجب أن نحاول..
- ولكن..
- فورًا..!.. إن حياة هذا الفتى بين أيدكم الآن..
قال أحدهم في فظاظة وتحد.
- لكن أمه سمعت النداهة يا دكتور..
التفت إليه في غيظ وصحت::
- إذا اعتقدتم في وجود النداهة فهذا شأنكم، لكن هذا الفتى مسعور.. هل تفهمون هذا؟.. ولن يعيش ليرى صلاة الجمعة القادمة!
- والعمل؟
- سبحان الله!.. قلت لكم مستشفى الحميات!
ودارت مناقشات جانبية شديدة الحمق والغباء..، من الواضح أنهم لن يأخذوه لأي مكان وأنني سأضطر إلى إبلاغ المركز عن احتجازهم لمريض في حالة خطرة، لكنني - في قرارة نفسي - وددت لو كان بإمكاني أن أجد تفسيرًا لحالة أخي بهذه السرعة والسهولة.. أعرف أن أحدًا لم ينجو من مرض الكلب في تاريخ الطب حتى اليوم، لكن رغبتي في إيجاد حل لمشكلة أخي كانت شديدة الإلحاح.
انتهت المناقشات، من ثم تقدم أكبر الرجال إلي وصافحني في حزم:
- شكرًا يا دكتور.. والآن كم أتعابك؟!
طلبت رقمًا فادحًا لأنني أحسست أن من واجبي أن أنتقم من هؤلاء الحمقى إلا أنه دفعه عن طيب خاطر، وأمر أحدهم كي يرافقني إلى داري، قبل أن أنصرف قال لي:
- أنصحك أن تؤمن بالنداهة لأنها لا تنادي إلا من لا يصدقون وجودها!!

* * *

٥ – الدكتور (عاصم)..

كان الوقت يقترب من السابعة مساء حين اتجهت بسيارتي للوحدة الصحية في قريتي، وهي مبني عتيق متهدم كادت الرطوبة تأتي على جدرانه، واحد من مئات المباني المماثلة على شكل حرف (ت) الإنجليزي تملأ ريفنا الطيب، وتقدم للفلاحين خدمات محدودة جدًا..

لم يكن هنالك عمال ولا خفراء من ثم صعدت في السلم المتحطم إلى الطابق العلوي حيث سكن الطبيب، وقرعت الباب في كياسة..

- لحظة.

وسمعت خطوات بالداخل، ثم انفتح مزلاج حديدي.. وتبدي لي وجه الطبيب في ضوء مصباح الجاز الذي يحمله.. كان شابًا في منتصف العقد الثالث من عمره لكن شعر رأسه قد زال أو كاد.. وعلى عينيه نظارة سميكة جعلت جفونه تبدو أصغر وأضيق مما هي عليه، وكانت ذقنه نصف نامية..

- أفندم؟

قمت بتعريفه على نفسي.. فابتسم لي في مودة، ودعاني للداخل وهو يصيح:

- عرفت الآن لماذا لم أر مريضًا واحدًا في هذا اليوم اللعين!

وقادني إلى غرفة نظيفة بها فراش جواره بعض الكتب والمجلات، وموقد كيروسين عليه وعاء شاي آخذ في الغليان، وعلى الحائط تحرك برص صغير أزعجته أصواتنا!، من الواضح أن الطبيب كان راقدًا في الفراش يقرأ حين أتيت..

في حرج أزاح جزءا من الملاءة ليسمح لي بالجلوس على الفراش، ثم شرع يزيد كمية الشاي في البراد، وخلع شبشبه وتربع جواري على الفراش وهو يسب عمال الوحدة سبابًا مقذعًا لسبب لم أفهم ما هو، الخلاصة أن استقباله كان شديد المودة على قدر إمكانياته..

قال لي..

- أنا الدكتور (عاصم فتحي).. هذا ثالث عام لي في هذه القرية.. إنني سمعت عنك يا دكتور (رفعت) الكثير.. الكثير جدًا..

هززت رأسي في تواضع وقلت:

- لقد جئت لاستشارتك في أمر صغير..

ضحك في سرور:

- الأستاذ العظيم يطلب استشارتي.... يالي من محظوظ!

قلت في جدية:

- الأمر جد لا مزاح فيه.

- وما هو؟

حكيت له قصة مريض الكلب وموقف أهله، ثم سألته:

- ما هو التصرف الإداري في حالة كهذه؟!

نهض ليصب الشاي في كوبين محدثًا قرقرة محببة للنفس.. وقال:

- كم ملعقة سكر.. اثنين؟.. حسن.. كنت أقول إن التصرف الصحيح هو إبلاغ المركز ويتم ترحيل المريض إلى مستشفى الحميات وعمل محضر لأهله..

هذا هو الحل الصائب.. ولكن..

- ولكن ماذا؟

نظر لي نظرة حادة وهمس:

- هل تتوقع فائدة ما من هذا؟!.. مريض كلب في آخر مراحل المرض..

- وما معنى هذا..؟

- معناه أنك ستسبب مشاكل لا حصر لها لأهله، كفاهم ما هم فيه..

- وتتركه يموت؟

- إنه سيموت على كل حال... أنت - كما يقولون - ابن القرية لكنك لا تعرفها..



نهض ليصب الشاى فى كوبين محدثًا قرقرة محببة للنفس .. وقال :

ـــ كم ملعقة سكر ؟..

و ناولني كوب الشاي، ثم تنهد.. وأردف:
- في الريف يجب أن يتحلى المرء بشيء من المرونة.. إن لهذه القرية قانونها الخاص غير المكتوب..
تأملت الغرفة حولي مفكرًا.. إن في كلام هذا الفتي شيئًا من المنطق لكن مشكلتي لم تنته بعد... قلت له وأنا أرشف الشاي:
- هل سمعت عن النداهة؟
هز رأسه.. وشبح ابتسامة تتلاعب على ثغره.. واصلت السؤال:
- هل قابلتك حالات مماثلة؟!
ازدادت الإبتسامة اتساعًا.. ثم إنه نهض إلى مقعد خشبي صغير جوار الفراش تكدست عليه الكتب والأوراق، وتناول كراسة صغيرة مهترئة الغلاف.. وعاد للفراش..، وقال:
- سأريك الآن شيئًا لم يطلع عليه أحد من قبل.
- وما هو؟
- إنها كراسة مذكراتي..
وشرع يقلب الكراسة.. أوراق عديدة بخط صغير أنيق مليئة بكلام فارغ.. رسوم لوجوه فتيات، وأبيات شعر.. وكلام عن ألمه وعذابه وندمه على أشياء كثيرة لا يهمني أن أعرفها.. يا للكارثة... من المستحيل أن يقاوم إغراء قراءة كتاباته على أذني العجوز المنهكة.. فلقد ألقى إليه القدر بمستمع معتوه في الثامنة مساء وهو لن يتركه يفلت أبدًا!
إلا أنه لم يتل علي شيئًا لحسن الحظ.. بل قلب الكراسة إلى صفحتين في المنتصف.. وشرع يقرأ وهو ينظر إلى من حين لآخر:
- في أكتوبر ٦١ أصيب (الزغبي فرحات) وهو فلاح في السادسة والثلاثين من عمره بمرض غريب.. الأعراض: شرود تام، وانفصال عن الواقع.. لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم..
الفحص: كل العلامات الحيوية سليمة.. الحالة العصبية سليمة.. لا توجد علامات لعقاقير مخدرة من أي نوع..
الأبحاث: السكر ووظائف الكلى والسائل النخاعي الشوكي على ما يرام..
تاريخ الحالة: يزعم أمل المريض أنهم سمعوا نداء امرأة يدعوه باسمه قبل ظهور الحالة بدقائق..
في نوفمبر ٦١ نام أهل البيت، وحين استيقظوا لم يجدوا المريض في البيت ولا في أي مكان..
ثم إنه قلب الصفحة إلى صفحة أخرى.. ورشف جرعة من الشاي.
- في فبراير ٦٢ تتكرر القصة مع (سعيد جابر).. عامل بناء في الخامسة والعشرين.. نفس الأعراض.. وكل شيء..
في مارس ٦٢.. حادثة مماثلة تحدث لـ (إبراهيم السقا).. مراهق في الثالثة عشرة من عمره..
في أبريل ٦٢.. (رضا إسماعيل)، فلاح في الرابعة والثلاثين.. هو في غيبوبة الآن لكنه لم يفر بعد..
في كل حادثة من هذه الحوادث ذكر أهل المريض اسم النداهة..
ما هي النداهة؟!

النداهة هي إحدى الشخصيات المرعبة في الأدب الشعبي، وهي - كما يجمع من وصفوها - غولة تتنكر في شكل أنثي حسناء.. تتجول ليلًا في الحقول المظلمة وتنادي شابًا بعينه باسمه مرارًا، ما إن يسمعها الفتى حتى يهرع للحاق بها على الرغم من أهله، فإذا مالاقى الفتاة وارتمى في أحضانها تحولت لغول ضخم يلتهمه حتى العظام..

توجد شواهد عدة على وجود كائن له هذه المواصفات..

(محمد أمين) – فلاح عمره خمسون عامًا - شاهد في حقله ليلًا امرأة طويلة القامة تسير في تؤدة وتنادي: (زغبي).. (زغبي)!.. وهو يقسم إنها كانت تشع بلون أخضر مخيف، طبعًا لم يجرؤ على أن يذهب إليها بل عاد لبيته ليتدثر بأغطيته ويتلو الأدعية..

(السيد الشرقاوي) - بقال القرية - في أثناء عودته ليلًا جوار الترعة شاهد فتاة حسناء تمشي فوق مياه الترعة ولا تغرق به..

(أحمد عباس) - فلاح - سمع صوت نداء امرأة يردد: (ابراهيم).. (ابراهيم)! فهرع ليرى ما هناك، وجد امرأة واقفة في الحقل وحدها.. اتجه ليسألها عما تريده من (ابراهيم).. استدارت له ببطء.. يقول إنه رأى أجمل وجه رآه في حياته لكن.. حدقتيها..، كانتا حمراوين بلون الدم، وأن العالم كله دار به حين رأى المشهد.. ولم يدر إلا وشقيق زوجته يحمله إلى داره مغشيًا عليه من هول ما رأى..

الطفل (صبحي محمود) - ٩ سنوات - شاهد امرأة تعبر حقل أبيه ليلًا في ضوء القمر دون أن تترك ظلاً..

قلت في سخرية: - إنه طفل قوي الملاحظة حقًا..

لم يبد على الدكتور (عاصم) أنه لاحظ سخريتي، وواصل القراءة:

- في كل الحالات كان هناك نداءان.. الأول يودي بالمريض إلى حالة الذهول، والثاني هو النهائي الذي يختفي بعده.. الفاصل بين النداءين هو أسبوع إلى أسبوعين..

بعض أهالي القرية يقيدون (المندوه) لمنعه من الاختفاء، وبعضهم يحرسون المريض حراسة محكمة.. لكن هناك لحظة ما من الإهمال أو النوم لابد أن تحدث.. عندئذ ينتهي كل شيء ويفر (المندوه)..

- ألم يحاول أحدهم مطاردة صاحبة الصوت؟

- بالطبع لا...لأن الأسطورة حية في نفوسهم، وهم واثقون أن من يعوق النداهة عن أداء عملها سيكون فريستها القادمة!

و رشف ثمالة الشاي من كوبه.. وقلب الصفحة:

- هناك عدة احتمالات لهذا الذي يحدث.. الاحتمال الأول: هو أن النداهة كائن حقيقي..

- احتمال غير مقبول..

قال لي وهو يضع الكوب جانبًا ليغير وضع جلسته:

- أوافقك على هذا.. لكنه الاحتمال الوحيد بعد استبعاد الاحتمالات الأخرى.. وهي سخيفة كما سترى..

الاحتمال الثاني: أنه وباء لا نعرفه اجتاح القرية وأعراضه نفسية تمامًا مثل وباء الكورو4 في وسط افريقيا، وفي هذه الحالة فإن الأمر يستدعي إبلاغ من هم أقدر منا، كمنظمة الصحة العالمية أو النمرو5..

الاحتمال الثالث: هلوسة جماعية أصابت الكل.. وهو احتمال عسير وصعب التصديق.. لكنه أفضل من الاحتمال الرابع..

الاحتمال الرابع: أن هناك عدة جرائم قتل نظيفة تمت باستغلال هذه الصورة الأسطورية وأن هناك قاتلًا عبقريًا قام بزخرفة جرائمه بحيث لا يتطرق الشك إلى أحد أن هناك نداهة حقيقية..

قلت له متثائبًا:

- لقد أجدت عرض الحقائق.. لكنني أعتقد أن الأربعة الاحتمالات كلها خيالية ومتناقضة..!

- الاحتمال الخامس: هو أن لكل حالة تفسيرًا على حدة.. فالحالة التي رأيتها اليوم كانت مصابة بالكلب، ربما كانت الحالات الأخرى تعاني أشياء أخرى لم أعرفها

نظرت لساعتي.. كانت التاسعة تمامًا.. وتذكرت أخي.. إن ما يجول بخاطري الآن هو شيء واحد.. أن أذهب إليه لأقيده في فراشه وأريح دماغي مما قد يكون وما قد يحدث..، أن عرض الطبيب لمعلوماته كان جيدًا منظمًا لكنه لم يقدم لي الكثير... وتأملت الكتب التي وضعها جوار الفراش على الكرسي.. يا لها من مجموعة غريبة.. كتاب (كفاحي) لأدولف (هتلر).. وبعض كتب (نيتشه)6.. ومجموعة من روايات الخيال العلمي.. وبعض المجلدات الطبية أكثرها عن علم العقاقير.. وأربعة دواوين شعر..

نظرت له وقلت:

- شكرًا على عرضك المشوق وعلى استقبالك، لا بد لي أن أنصرف..

- لكننا لم نتحدث بعد..

- فيما بعد.. لقد كان يومي شاقًا...

- نعم.. أعلم هذا وآسف له..

- على كل حال ستجدني هنا مرارًا..

- وكم من الوقت ستقيم هنا؟

- الواقع أنني لا أدري..

و هرشت رأسي في تعب، من الغريب أن هذا هو يومي الثالث فقط في القرية.. كأنه دهر!... قلت في إنهاك:

- المفروض أن إجازتي من الجامعة هي أسبوعان.. إلا أنني سأظل هنا حتى أعرف كل شيء عن أخـ...

وقبل أن أخبره بقصة أخي دق الباب في إلحاح... تركني واتجه ليفتحه حاملًا المصباح، وظللت وحدي في الظلام أسمع محادثة هامسة بينه وبين ما يبدو أنه أحد عمال الوحدة وقد عاد من جولته في الخارج..، بعد دقيقة عاد لي والمصباح يلقي ظلالًا مرعبة على وجهه.. وقال:

- هذا (مصطفي).. خفير الوحدة، يعتذر عن اضطراره للنزول إلى القرية لأن أهلها نادوه للبحث عن شخص ما معهم..

- شخص مختف آخر؟!

- بالفعل.. وأنت تعرفه جيدًا.

أخي (رضا)!.. هل حدث هذا.. ولكن الطبيب لا يعرف بعلاقته بي.. ولم يربط لحظة بين اسمي (رفعت إسماعيل) و(رضا إسماعيل)... إذن من هو ذلك المفقود الذي أعرفه أنا جيدًا..؟!

- هل تذكر الفتى المسعور الذي رأيته عصر اليوم؟

- بالطبع..
- حسن.. لقد لبى نداء النداهة منذ ساعة!!

* * *

٦ - أين هي؟!

حين عدت لدارنا في ساعة متأخرة من الليل بدت أمي قلقة من منظري المشوش المضطرب، وشرعت أختي - بعينين حمراوين من أثر السهر - تسألني عما هنالك.. حتى أنهما جعلتاني أقسم أن شيئًا ما لم يصب أخي (رضا).. أكدت لهما أنني منهك لا أكثر..

وفي غرفتي المتواضعة بجدرانها المطلية بالجير الأخضر جلست أدخن واتصفح كتبي التي لم يمسها أحد منذ أيام مراهقتي.

يا للهزيمة المروعة التي تلقاها تشخيصي بعد أقل من أربع ساعات! لقد فرّ الفتي ملبيًا نداء النداهة، وبالطبع يقوم أهله الآن بتوجيه اللعنات إلى ذلك الحمار المغرور - الذي هو أنا - الذي زعم أن ابنهم مسعور وبالتالي جعلهم أقل حذرًا في تعاملهم مع الفتى... أنا لا يضايقني أن يقال إنني لا أفقه شيئًا، فلطالما قيل ذلك لكني أكره أن تنهزم الحقائق العلمية على يدي وبهذه القسوة..

حين نادى (كوخ).. العبقري الألماني بأن مرض الكوليرا تسببه باكتيريا واوية تحداه أحد خصومه وشرب مزرعة كاملة من باكتيريا الكوليرا أمام الشهود - مزرعة تكفي لقتل مئة رجل - فلم يصب بشيء ولا حتى عسر هضم7!!، وهكذا قُهر العلم لأسباب لا يمكن تفسيرها!

نفس الموقف يتكرر معي على نطاق أضيق..

أنا أعرف أن التهاب المخ المصاحب لمرض الكلب يسبب جنونًا مؤقتًا.. وقد يفر المريض من ذويه، لكن هذا يحتم أنهم سيجدونه ميتًا في مكان ما بالقرية خلال أربع وعشرين ساعة.. فإذا لم يجدوه فمن يقنعهم أن ما حدث هو أمر لا دخل للنداهة فيه؟!

يا للحيرة..!..

* * *

في الصباح ذهبت - محمر العينين مشوش الشعر - للاطمئنان على أخي، فتحت لي (نجاة) الباب.. فما إن رأتني حتى ابتسمت في تشفّ.. وهتفت:

- سمعت أن ابن أبي عبد الرازق قد نادته النداهة أمس..

قلت لها في ضيق معاتبًا:

- الناس تقول صباح الخير أولا..

واصلت الكلام في قسوة:

- يقولون إنهم أرادوا رأيك لكنك قلت أن حيوانًا مسعورًا عضه..

- حتمًا؟

- أي أنك لم تعرف..

- هذا يدعو للفخر..

ونظرت في عينها.. وضغطت على أسناني، ثم تمتمت:

- (نجاة).. ماذا تريدين.. ما الذي يسرك في هذه القصة إلى هذا الحد؟!

هل أنت سعيدة إلى هذه الدرجة لفشل أخي زوجك؟!
شدهت لفترة.. ولم تدر ما تقول، من ثم خفضت رأسها ودعتني للدخول..
- لا مؤاخذة... كنت أتحدث من غلبي...
وهشت الأولاد الذين يلعبون من طريقي وأردفت:
- أنت لا تصدق.. ولهذا قلت ما أقول.. لا مؤاخذة!
ودخلنا غرفة أخي، وكان كل شيء كما هو سوى أنها فعلت الشيء الذي كنت أريد أن أفعله.. ربطت معصمه في عمود السرير بإشارب من الحرير.. وكان نائمًا مفتوح الفم، وقد بدا منهكًا إلى أقصى حد..



ربطت معصمه فى عمود السرير بإشارب من الحرير .. وكان نائمًا
مفتوح الفم ، وقد بدا منهكًا إلى أقصى حد ..

قالت (نجاة) مفسرة:
- ظل طوال الليل ينهض ويتقلب ؛ لهذا اضطررت لتقييده.. ظلت الملعونة ثلاث ساعات تناديه أمس..
- وهل (رضا) عاجز عن فك هذا القيد الحريري؟
- إنه ضعيف جدًا.. ألم تلحظ هذا!!.. ثم إن مخه مشوش ولا يستطيع حتى معرفة كيفية فك هذه العقدة..
- والفتى إياه.. إبن أبي عبد الرازق.. لقد كان مقيدًا..
- كلا.. لقد فكوا ذراعه على كلامك، تركوا الغرفة خمس دقائق ليتفقوا على ما يفعلون.. حين عادوا للغرفة لم يجدوه ووجدوا النافذة مفتوحة..
ثم دمعت عيناها.. وهمست في غيظ:
- وأنت قلت إن حيوانًا مسعورًا عضّه!

* * *

قال د. (عاصم) في ثقة:
- إن رأيك العلمي لا يقبل الشك، إن الحمى المخية جعلته يهرب، ولكن كيف تقنع هؤلاء الحمقى؟!
كنا جالسين في غرفته بالعيادة، غرفة الفحص.. وكان زحام المرضى قد بدأ يقل.. وكان وجهه في نور الصباح أكثر بشاعة مما رأيته ليلًا.. كأنه بومة عجوز متشككة ترتدي المعطف الأبيض..
فقلت له في شرود:
- عندي فكرة ما..
- ما هي؟
- أنت مهتم بهذه الأسطورة مثلي تمامًا..
- طبعًا..
طرقت المنضدة بمجمع قبضتي، وصحت:
- نحتاج إلى الكثير من الصبر والتأني..
- لا أفهم..
- قلت لي بالأمس أن هناك مريضًا لم يلب نداء النداهة..
- نعم.. واسمه (رضا إسماعيل)...
لماذا لم أخبره أن المدعو (رضا إسماعيل) هو أخي؟!.. لا أدري.. إنه حافز خفي لا أدريه جعلني أفعل هذا..، نفس الحافز الذي جعلني لا آخذ حقائبي إلى بيت الدكتور (ريتشارد كامنجز) في يوركشاير.. وهو نفس الحافز الذي جعلني أقرر المبيت في الحانة القذرة في تلك القرية الرومانية البائسة، وقد أقسمت - منذ زمن بعيد - أن ألبي دائمًا تلك الحوافز الغامضة لأنها تصيب دائمًا..
قلت له:

- سنقوم بترتيب أنفسنا..، ستوزع نوبتجيات سهر تقوم فيها بمراقبة المنطقة المحيطة بداره... وإذا ظهرت هذه النداهة المزعومة تلقي القبض عليها فورًا..!

نظر لي لحظة ليرى إن كنت جادًا.. ثم هرش صلعته مفكرًا.. وقال:

- إنها خطة مرهقة..!

- بالفعل.. لكني لا أتوقع أن يدوم انتظارنا أكثر من ليلتين..

- وحالات الطوارئ الليلية؟!

- يمكنك أن تخبر عاملًا تثق به بمكانك بحيث يستدعيك إذا ما اقتضى الأمر ذلك..

أخذ يفكر قليلًا.. وفي هذه اللحظة دخلت ممرضة حسناء الغرفة حاملة زجاجة صغيرة بها ترمومتر.. وما إن رأتني حتى هزت رأسها محييةً إياي والتفتت إلى الدكتور (عاصم) قائلة بصوت مبحوح:

- لقد انتهت آخر الكشوف يا (عاصم)..

يا (عاصم)؟.. وإزاء نظرة الدهشة التي ارتسمت على وجهي هش وجه الدكتور (عاصم) وأشار للفتاة قائلًا:

- معذرة.. لقد نسيت أن أقدمها لك.. (عواطف) زوجتي..!

ثم عاتبها باسمًا:

- (عواطف)..كم مرة قلت لك ألا تناديني باسمي مجردًا أمام ثالث..؟

ضحكت في دلال وقالت بلهجة قروية جريئة وهي تتحسس رقبتها:

- إنني أعرف د. (رفعت) جيدًا.. إنه ابن القرية وليس غريبًا..

هززت رأسي محييًا إياها بما معناه (تشرفنا).. ثم سألتها:

- هل تعرفين أسرتي؟

- ليس تمامًا.. إنني أصلًا من فاقوس..

شيء غريب!.. لم يجل بخاطري أبدًا أن الرجل متزوج..، أن منظر غرفته التي شهدتها بالأمس ومنوال حياته يوحي بالعزوبة.. وأين كانت زوجته ليلة أمس حين كنت عنده؟!.. ثم إن لدى بعض التحفظات على زيجة كهذه قد لا تمنح أقصى درجة من التكافؤ الثقافي والاجتماعي.. لكن مالي أنا وهذا؟.. إنهما سعيدان.. وأنا أفهم ما تفعله الوحدة في النفوس..، على الأقل هو قد أكمل وجوده الفسيولوجي، أما أنا فما زلت طفلًا يلهو جوار بركة الحياة قاذفًا فيها حجرًا من وقت لآخر لكنه أبدًا لا يجد الشجاعة ليسبح فيها..!

قال د. (عاصم) وقد خمن نصف ما أفكر فيه:

- إنها بنت حلال.. تفهمني تمامًا ولا أرضى عنها بديلًا..

ثم قال وقد خمّن النصف الآخر:

- أمس كانت قد نزلت القرية لإجراء ولادة عاجلة، انهم هنا يفضلون أن تقوم قابلة أو ممرضة بذلك..

- لهذا لم أرها ليلة البارحة..

- ولهذا أغلقت مسكن الممرضة تمامًا لأننا نعيش سويًا في سكن الطبيب.. لقد صارت هذه الغرفة الضيقة بيتنا الفاخر..

مددت يدي أعبث بالترمومتر الذي في الزجاجة.. ثم قلت:

- إذن متى يبدأ مشروعنا الصغير..؟
- الليلة إذا أردت!

* * *

- إنه الليل...

مرة أخرى يعود هذا الكيان الغامض الأسود المليء بالأسرار... في غرفتي أرتدي ثيابي استعدادًا للحاق بالدكتور (عاصم) عند الوحدة الصحية، ارتديت حذاء خفيفًا ووضعت في جيبي مصباحًا كهربيًا، وتأكدت أن معي من السجائر ما يكفي لسهرة طويلة قاسية..

ثم إنني فعلت الشيء الذي لم أكن أعتقد أنني سأفعله أبدًا.. من بطانة حقيبة الكشف أخرجت مسدسي الصغير الذي قمت بترخيصه بعد مغامرتي مع الكونت (دراكيولا)... وتأكدت من حشوه ثم دسسته في جيبي..

أما الخطوة التالية - وهي الأهم - فكانت أنني أخذت المصحف الصغير الذي أعطتني إياه أمي، ووضعته في جيب البدلة الداخلي..

لقد استعددت لكل شيء..

* * *

٧ - المقابلة

عند الوحدة الصحية الجاثمة كشبح أسود في الظلام قابلته... كان واقفًا وقد ارتدي (بول أوفر) أسود عالي الرقبة، لا أحب كثيرًا قضاء الليل مع هذا الخفاش الأصلع لكن لا مفر لي.. إن زوجين من الأعين هما - حتمًا - أفضل من زوج واحد حتى إذا كان كلانا ينظر للعالم من خلف زجاج نظارة سميكة..

- هأنذا..! -

صحت به، فوثب في مكانه هلعًا وشرع يبسمل ويحوقل... يا لك من أبله! إننا لم نبدأ بعد... وما إن تعرف علي حتى وجه ضوء البطارية إلى وجهي وشرع يضحك في هستيريا مردِدًا..

- لقد ظننتك هي..!

- هذا هو ما نريده بالفعل..

- لكم أنا سعيد أنك لست هي..!

- د. (عاصم)..

- نعم أيها الزميل..

- إن كوني لست هي لا يعطيك الحق في إصابتي بالعمى بهذا الكشاف!

استدرك معتذرًا، وأطفأ الكشاف وقد بدا عليه الخجل، وبدأنا في صمت السير على الطريق الترابي المؤدي إلى دار أخي.. كان قد وصفه لي بدقة صباح اليوم وتظاهرت بأنني أجهله، وبعد دقائق بدأ صوت لهاثنا يتعالى فلم يكن واحد منا يتمتع بلياقة طيبة..

لا أحب كثيرًا هذا الصمت المريب..

ومن بعيد لاحت لنا دار أخي..، كئيبة حزينة مسربلة باللون الأسود.. نظرت له وهمست مشيرًا إلى الجهة الغربية:

- فلتتوغل أنت في هذه المزروعات وانتظر هناك..

- وأنت..؟

- إذا حدث ما يريب عليك أن تصدر صوت البومة.. وإذا كان الخطر داهمًا فلا عليك.. اصرخ..

- وأنت؟

- سأتوغل أنا في حقل الذرة القبلي..!!

* * *

الحقل القبلي هو المكان الذي سمعت منه ذلك الصوت ينادي أخي.. توغلت بين أعواد الذرة التي تتجاوز بارتفاعها قامتي.. صوت خرفشة الأوراق الجافة وأشياء قاسية كنصل السكين تخدش وجهي، سيكون من الصعب رؤية أي شيء من هذا المكان.. حتى ولو كان هذا الشيء على بعد سنتيمترات من وجهي.

ظللت أتوغل وأتوغل حتى وصلت لمساحة خالية في الحقل فتوقفت وقد تسارعت دقات قلبي من الانفعال... رفعت رأسي للسماء فرأيت النجوم واضحة مميزة كما أراها من قبل.. ومن بعيد استطعت أن أرى بيت أخي وحيدًا بائسًا مسربلًا بالظلام..

لم يكن هناك قمر.. وأنا أفضل ذلك، لأن الظلام الدامس لا يخيف.. إن ما يثير الهلع هو الأضواء الخافتة الظلال لأنها تثير الخيال، تذكرت قصة الغرفة الحمراء لـ (هربرت جورج ويلز).. حين كان على البطل أن يقضي ليلة سوداء في غرفة مسكونة بالأشباح، وقد أضاء شموعًا كثيرة لتؤنس وحدته لكنها زادت رعبه حتى كادت تودي به للجنون حين كان عليه أن يواجه الظلال التي يحدثها انطفاء شمعة من حين لآخر!

نعم.. أنا أفضل الظلام الدامس بلا شك.. الظلام الدامس المتجانس المسطح.. إن إيقاد شمعة أو مصباح خافت أو ضوء القمر الشاحب لكفيل بأن يجعلني أموت هلعًا..

ومضت الدقائق..

افترشت الأرض وجلست القرفصاء.. والآن هو ذا عيبي الأساسي الذي لم أتخلص منه أبدًا والذي لم يخطر لي على بال.. الملل..، تبًا لهذه النداهة الكسول.. ما ذنبي أنا كي أقضي ليلتي بانتظار اللحظة التي ترأف فيها تلك الملعونة بحالي وتأتي من عالمها الجهنمي لترعبني؟!...

إذا لم تفعل ذلك الآن فلا داعي لتفعله أبدًا..

* * *

مضت ساعتان..

المشكلة في هذه المسوخ المرعبة أنها لا تأتي أبدًا حين تريدها..

والآن يغفو (رضا) في فراشه غير عابئ بشيء، وتنام (نجاة) جواره تفكر في مصيرها من بعد رحيله ؛ وكل القرية نائمة لا تدري شيئًا عن المخبولين الذين قررا قضاء الليل في الحقول دون مبرر..

أشعلت سيجارة وطفقت أدندن..

لا أدري لماذا تذكرت هذا اللحن الحزين في هذه اللحظة بالذات:

فين الولد يا مّه؟ قالت نسي أهله

كان اللحن مناسبًا للموقف لكنه خرج من فمي غليظًا أجش كأنه نذير، ولقد أثار رجفة في عروقي أنا نفسي..، ما الذي جعلني أتذكره؟!

وهنا..

انتابني شعور غريب بأنني لست وحدي، في مجال بصري لمحت شيئًا ما.. أدرت وجهي في بطء تجاه هذا الشي.. فلمحت ما يشبه فتاة طويلة مسربلة بثوب طويل أسود تسير في تؤدة على بعد خمسة أمتار من في خفة كأنها (تسري) ولا تمشي.. لا يوجد أي نوع من الانبعاج تحت ثوبها يوحي بحركة القدمين..

فات البلد لمّا الغولة نادت له

لما تدر وجهها لي كأنها لا تراني أساسًا..، وفي هذا الظلام لم أكن لأراها حتى لو نظرت لي... أحسست بعمودي الفقري يتجمد وقلبي يكاد يثب في حلقي... إنها تنظر.. إلى دار (رضا)..

فين الولد يا ولاد؟ قالوا الولد مسحور

أما ما جعلني أدرك أن الأمر كله ليس وهمًا فهو هالة الضوء الأخضر العجيبة المحيطة بها.. كأنها تشع هذا الضوء من الداخل.. من تحت ثوبها... إن ما أراه الآن لهو شيء غامض بكل المقاييس.. شيء لا أدري كنهه لكني لا أجرؤ على ترك المكان قبل فهم ما يحدث.

سافر وراها بلاد وادي السنين بتدور

والآن توقفت الفتاة وقامتها منتصبة وصدرها يعلو ويهبط.. ثم رفعت عقيرتها بالنداء وهي تنظر لأعلى كذئب يعوي أمام قرص القمر..

- (رضا اااه).. (رضا اااه)!

إنه نفس الصوت الطويل - كالنحيب - المدوّي كأنه قادم من أعماق الجحيم... نفس المقاطع الممطوطة.. نفس الحشرجة التي سمعتها في تلك الليلة عندما عدت من القاهرة...

- (رضا اااه).. (رضا اااه)!

والآن حان وقت انتهاء هذه المهزلة..، نهضت من مكاني وفي هدوء وحذر اتجهت إليها وكانت تدير ظهرها الي.. ضوءها الأخضر الغامض يغلف معالم جسدها ويسقط على ثيابي... حين صرت خلفها تمامًا تنحنحت لأبدأ الكلام.. فقد انحشرت الحروف في حلقي..

فين الولد يا مّه؟ قالت نسي أهله

قلت وأنا أرتجف:

- ماذا تفعلين هنا أيتها الفتـ.....

وهنا التفتت لي..

فات البلد لمّا الغولة نادت له

من ذا الذي قال إن النداهة رائعة الجمال؟!.. أنا لم أر ولم أتخيل قط وجهًا مريعًا كهذا الوجه..، وجه شاحب كالموت.. عينان عميقتان حدقتاهما حمراوان بلون الدم... شفتان مشققتان.. لا أنكر أن هناك جمالًا ما من نوع خاص كجمال الساحرات الشريرات كان موجودًا لكنه جمال قاس شنيع.. خصلات شعرها سوداء قاحة مصففة بعناية، وعنقها طويل شامخ و.... شامة كبيرة زرقاء على الخد الأيسر..

لم يتسع الوقت لأعصابي كي تستوعب كل شيء..، لأني صرخت وصرخت كما لم أصرخ من قبل.. نسيت كل شيء عن المسدس الذي في جيبي.. لم أكن أريد سوى الخروج من هذا الموقف إلى مكان لا أرى فيه هذا الوجه..

فين الولد يا ولاد؟ قالوا الولد مسحور

وشرعت أجري وأتعثر.. وأنهض.. ثم أجرى.. أعواد الذرة تلطم وجهي، وقلبي يخفق..، وتفكيري كله قد تبدد إلا من الأغنية المشئومة وثعبانين يلتهم كل منهما ذيل الآخر لا أدري كيف تسربا إلى عقلي الباطن..



وشرعت أجرى وأتعثر.. وأنهض.. ثم أجرى.. أعواد الذرة
تلطم وجهى..

ومن بعيد عاد صوتها يتردد في إصرار:
- (رضا اااه).. (رضا اااه)!

* * *

وفي الظلام اصطدمت بجسد بشري، فأجفلت وشرعت أوجه لكمات خرقاء إلى ما ظننت أنه مقتله.. فسمعت صوتًا مألوفًا يبسمل ويهتف بي:
- دكتور (رفعت)!.. هذا أنا.. (عاصم)!
عاصم من؟!.. الآن تذكرت.. دكتور (عاصم) الذي بدأت معه المغامرة.. أنار الكشاف وشرع يهدئ من روعي على حين أخذت أرتجف وأحكي له ما حدث في كلمات سريعة.
- إذن هي هناك؟
- بالطبع يا أحمق..
- إذن هيا بنا هذه آخر فرصة لنا..
وشرعنا نجري إلى المكان الذي رأيتها فيه... وهناك - وعلى ضوء بطاريتينا - لم يكن شيء سوى السكون المريع وصوت ضفدع ينق مغازلًا أنثاه...
أين ذهبت تلك الفتاة؟!..
- هل أنت واثق مما رأيت؟!
- بالطبع.
- ولماذا لم تقبض عليها؟!
احمر وجهي - وهو ما لم يره في الظلام - وقلت بمزيج من الخجل والحنق:
- ليتك كنت هناك مكاني.. لم تكن هناك فرصة لأي شيء
- إلى هذا الحد كان المشهد مرعبًا..؟
- مريعًا..
- وأين تظنها ذهبت؟!
- إلى المكان الذي منه جاءت بالطبع..
تفكر حينًا ثم تثاءب، وقال:
- على كل حال فإن من رابع المستحيلات أن تجد أحدًا بين عيدان الذرة النامية، يبدو أن حفل الليلة قد انتهى... فلنعد إلى الوحدة ونتناقش..
أنت في حاجة لكوب من الشاي..
- نعم ولا ريب..

* * *

- والآن دعنا نسترجع ما حدث..
كانت (عواطف) زوجته تعد لنا الشاي على موقد الكيروسين، في حين جلسنا نرتجف - أنا ود (عاصم) - على الفراش.. لم أصدق لحظة أنني منذ عشر دقائق واجهت النداهة.. النداهة بعينها..

شرعت أعيد حكاية القصة، في حين شرعت (عواطف) تتصعب وتمصمص شفتيها حتى إذا وصلت لجزء المواجهة صرخت بصوتها المبحوح:

- يا لهوي!.. كفاك هذا فقد اقشعر جلدي!

ضحك د. (عاصم) في طرب.. ان الرجال يحبون أن تفزع النساء.. والنساء الذكيات فقط يعرفن كيف يستغللن هذا.. كأني بخوف النساء العتيد من الفئران مجرد تملق لغرور الرجل..

قلت في تواضع وأنا أرشف كوب الشاي:

- أنت اقشعررت من مجرد كلمات..، أما أنا فقد عشت الموقف وجها لوجه وسيظل يطاردني حتى أموت..

قال د. (عاصم) في اهتمام:

- صفها لي..

هرشت ذقني في تردد، إنني أعرف شكلها تمامًا لكني لا أستطيع وصفه.. ثم خطرت لي فكرة فتناولت ورقة وقلمًا وشرعت أخط شيئا ما..

- آه!.. سترسمها؟

- بالطبع.. فأنا رسام لا بأس به..

وعلى الورق بدأ الوجه يولد.. العينان الشاخصتان.. الشفتان الممزقتان خصلات الشعر الناعم الأسود منسدلة على الجبين، ثم العنق الطويل الأبيض..، صورة لابأس بها، لكنها لا تشبهها كثيرًا.. فقط مفيدة لمن لم ير نداهة من قبل..

مددت يدي بالورقة إلى (عاصم)، فتناولها يتأملها ومطت (عواطف) عنقها الطويل في فضول لترى ما هنالك، أطال (عاصم) النظر إلى الصورة ثم أعادها لي واجمًا..، أعدت تأمل الصورة.. هناك خطأ ما ارتكبته.. فقد نسيت أن أظلل العينين لتكونا حمراوين كعيني النداهة، ثم إنني لم أرسم الشامة الزرقاء على الخد الأيسر.. لهذا بدت الصورة أكثر بشرية مما كانت عليه تلك الشيطانة حين رأيتها.. مجرد فتاة جميلة أخرى..

ثنيت الورقة ووضعتها في حافظتي ؛ ونهضت للانصراف.. فلم يحاول أحدهما استبقائي..، قال (عاصم) في شرود:

- وبعد.. هل سنواصل ما بدأناه باكرًا؟

- طبعًا.. إننا لم نصل لشيء..، والساعة الآن الحادية عشرة مساءً..

- لو كنت مكانك لأخذت الحذر..

- ولم؟

نظر لي نظرة حنونًا غريبة من خلف نظارته السميكة.. وهمس:

- لقد عطلت مشروعها لهذه الليلة، والنداهة لا تترك أبدًا من يعترض سبيلها! والآن فلتشرب كوبًا آخر من الشاي قبل أن تنصرف..!

* * *

٨ - النداء

في الواحدة صباحًا عدت لداري فخلعت ثيابي وارتميت على فراشي منهكًا.. ما أطوله من يوم!!.. كان الصداع يقتلني والدوار يعصف بي.. وثمة انفصال كامل عن الوجود في كل كياني... ولكن.. الواحدة صباحًا..؟!.. لقد ودعت د. (عاصم) منذ ساعتين.. فهل استغرقت ساعتين في الوصول لداري؟!.. لا أذكر شيئًا ولا يهمني أن أذكر. كل ما أريده الآن هو أن أناااام..!

ولم أدر متى غلبني النعاس..

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي استيقظت وفمي جاف كالقش وفي ذهني صورة واحدة ملحة.. ثعبانان يلتهم كل منهما ذيل الآخر.. أين لمحتها؟

ومتى؟.. وما معناها..؟!..

ولم يستمر تساؤلي لأني غفوت ثانية..

-.....

* * *

على الطبلية جلست ألتهم البيض والفطير الذي أعدته لي أختي (رئيفة).. وكنت شارد الذهن إلى درجة أثارت قلقها.. شرعت تحدثني في مواضيع عديدة بدت لي بعيدة جدًا ومبتذلة فأغلقت أذني وشرعت أهمهم بنغمات مختلفة توحي بالمتابعة.. كأني أوافقها في الرأي:

-.....

- هم م م..!

-.....

- هههم م!

-.....؟!

- هم م..

وهنا لمحتها تنظر لي في ضيق ودهشة وتقول:

- إنني أسألك!

لقد أجبتها على سؤالها بهمهمة توحي بأنني أتابعها.. وهكذا اتضح شرودي بشكل مخجل لابد أنه أثار حفيظتها.. قلت في ارتباك:

- لا مؤاخذة... ماذا كنت تقولين؟!

- أنت لا تسمعني البتة.. أقول لك ماذا ستفعل مع (رضا)؟!

- وهل هناك جديد؟!

- نعم.. أرسلت لنا امرأته صباح اليوم تقول إنه..

- هرب؟!

- لا.. ليس بعد... نادته النداهة أمس فمزق قيوده وكاد يهرب، حتى أنها اضطرت للاستعانة بالجيران كي يمنعوه.. لم تكن تريد أن يعرفوا..

لم تكن تريد أن يعرفوا؟.. هذا غريب..

- وهل هي لم تخبر أحدًا بالموضوع حتى الآن؟

- بالطبع.. أنت تعرف امرأة أخيك.. إنها لا تحب الشماتة.. إنها تخفي السر وتزعم للجيران وأصدقائه أنه مريض..

- إذن أنا أول من فحصه؟!

- طبعًا.. وكنت أقول إن..

إن شيئًا في هذا الكلام لشديد الأهمية... إنه يعني.. ولكن يا لتشوش ذهني!

لا أستطيع أن استخلص شيئًا من هذا الكلام لكنه يوحي لي بفكرة ما هامة جدًا.. وقد نسيت ما هي...

شفتا أختي لم تزالا تتحركان بكلمات كثيرة... ألن تكفى عن الكلام أبدًا؟!.. أنا لا أفهم حرفًا مما تقولين فضلًا عن سماعه أصلًا... والآن من المحتم أن أزور (رضا) لأطمئن عليه وتلك المرأة الكتوم قوية الشخصية زوجته..

أنهيت إفطاري وشربت الشاي، ثم إنني غادرت الدار متجهًا إلى بيت (رضا) تعمدت أن أعبر حقل الذرة الذي حدثت فيه أحداث الأمس... وفي المكان الذي وقفت فيه النداهة توقفت وشرعت أتفحص التراب.. كانت هناك آثار أقدام لحذائي الكاوتشوك الذي ارتديته ليلًا.. وعلى بعد أمتار كانت هناك آثار أخرى غريبة.. حفر دقيقة عميقة في التراب لا يمكن أن يرسمها حذاء.. بل هي - إذا أردنا الدقة - أقرب للآثار التي ترسمها أقدام القط حين يزحف في حذر نحو عصفور!..

اتجهت نحو دار (رضا) وقرعت الباب ففتحت لي (نجاة):

- أنت لم تدر ما حدث أمس وأنت نائم في العسل..

هكذا صرخت بمجرد أن رأتني فأوقفتها بحزم رافعًا يدي:

- أعرفه.. ولم أكن نائمًا في العسل..، سامحك الله..

- إذن أين كنت؟!

- كنت واقفًا في البرد والعراء أنتظر نداهتك.. ورأيتها.. وسمعتها تناديه.

- وماذا فعلت؟

- لا شيء.. ذهبت أطلب نجدة وحين عدت لم أجدها..

- يا خيبتك!!

إن هذه المرأة ستحطم أعصابي.. لماذا أتحمل وقاحتها وسخفها دون أن أحطم رأسها؟!

للأسف أنني مضطر لهذا لأنها هي الضريبة التي أدفعها وسأظل أدفعها كلما أردت العبور إلى عالم أخي.. إنها سيدة الدار.. ولا مفر من ذلك!

تأملت وجهها.. خصلات شعرها الأسود الناعم.. عينيها المحملقتين.. إن هذه الملامح تذكرني بشيء ما... ثم إن شفتيها مشققتان بصورة غير عادية، وكانت تكشف عن عنق طويل أبيض..، لا أريد أن أكون متحاملًا لكن هذه المرأة تشبه النداهة إلى حد لا بأس به..!.. ثم لا تنس - وهذا هو الأهم - تلك الشامة الزرقاء الغريبة على خدها الأيسر... إنها تشبه النداهة لكنها ليست هي.. لا يمكن أن تكون هي..!

- فيم أنت شارد هكذا؟!

ابتلعت ريقي.. قد تكون مصادفة وقد يكون إيحاء تركته في نفسي أحداث البارحة، وقد يكون انعكاسًا لكراهيتي لها لكني لا أتخيل للحظة المبرر ولا الحافز الذي يجعلها تترك زوجها وتخرج ليلًا لتنادي عليه من خارج البيت..! سيكون تكرارًا سخيفًا أن تكون كل فتاة أقابلها ذات شخصية شريرة أخرى.. (إيكاترينا) تتنكر في صورة مذءوب في رومانيا و(نجاة) تتنكر في صورة نداهة في مصر..!

كلا.. لن تؤثر هذه الملاحظة العابرة على تفكيري.. فقط لأحتفظ في ذاكرتي بهذه النقطة ولا أنساها أبدًا: (نجاة) تشبه النداهة إلى حد ما..، لربما أفادتني هذه المعلومة يومًا ما..، ودعتها وانصرفت متجهًا لداري.. على أنني توجهت إلى الوحدة الصحية لأري شيئًا ما في مكتب المواليد ثم عدت لداري بعدها دون أن أقابل (عاصم)..

* * *

بدأ المرضى يتوافدون إلى دارنا.. فعدت أمارس عملي في الغرفة الجانبية إياها، وكنت شارد الذهن مما أثر على سلامة تشخيصي، ولأكثر من مرة تردد القلم في يدي محاولًا تذكر اسم دواء ما.. ونسيت كثيرًا من الوجوه التي رأيتها أمس.. الخلاصة أن أدائي كان مثيرًا للشفقة إلى حد لا يوصف.

وحين جاء العصر صعدت لغرفتي وتناولت لقمة أعدتها لي أمي للغداء.. ثم تمددت في فراشي لأستريح استعدادًا للسهرة القاسية التي تنتظرني هذه الليلة.. وسرعان ما غلبني النعاس، فنمت نومًا هادئًا لا أحلام فيه...

* * *

صحوت في الظلام الدامس.. ما الوقت الآن؟!.. نظرت لساعتي الفوسفورية فوجدت عقاربها تشير للعاشرة مساء.. لقد خانني التعب وتأخرت ساعتين عن موعدي في الوحدة مع د. (عاصم).. يجب أن أرتدي ثيابي وأهرع إليه قبل أن يجن..

ارتديت (عدّة النداهة) التي وصفتها لك.. المسدس والمصحف والسجائر والحذاء الخفيف.. ثم اتجهت للباب كي أخرج، وهنا سمعت صوتًا غريبًا.. صوتًا قادمًا من ناحية الساقية المجاورة لبيتنا.. صوتًا طويلًا ممطوطًا كالنحيب.. صوتًا أعرفه جيدًا يقول:

- (رفعا اااات).. (رفعا اااات)!

إنها تناديني أنا.. أنا بالذات!.. لقد جاءت لحظتي، والآن لن أبحث عنها ولن يكون هناك المزيد من الانتظار الليلي الممل... كل ما علي هو أن أخرج من البيت ولسوف تكون هناك بانتظاري..

- (رفعا اااات)!

وهنا انفتح الباب ولمحت أمي وأختي و(طلعت) زوج (رئيفة) يدخلون الحجرة وثمة شمعة مضاءة في يد أمي.. ونظرة هلع في عينيها الذابلتين:

- بسم الله الرحمن الرحيم!.. إنها تناديك يا بني؟!..

ثم لمحت استعدادي للخروج..، فصاحت:

- لا.. لن تذهب!..
قلت في غلظة على الرغم مني:
- اسمعي يا أمي.. لا دخل لأحد بهذا.. إنها مشكلتي وسأحلها بنفسي..
ضربت على صدرها في لوعة:
- الحقوني أيها الناس.. هل أفقد الولد وأخاه؟!
بينما الصوت يتردد في إصرار وبرود::
- (رفعا اااات)!
اتجهت للباب.. إن شيئًا ما في هذا النداء لا يقاوم أبدًا.. ثم مشهد وجهها.. لابد لي أن أرى هذا الوجه مرة أخرى..، كم هو فاتن... كم هو غريب.. كم هو شيق... لن يستطيع هؤلاء منعي بدعوى الحنان الأسري..
أمسك (طلعت) ذراعي بيده القوية - كالمنجلة - وقال بخشونة:
- (رفعت).. لا أريد أن أؤذيك..!
قلت في حنق محاولًا انتزاع ذراعي وقد سقطت نظارتي على الأرض:
- لا شأن لك يا (طلعت) بهذا.. دعني.
فازدادت قبضته ثباتًا... وهنا دوي الصوت مرة أخرى:
- (رفعا اااات)!



أمسك (طلعت) ذراعى بيده القوية ــ كالمنجلة ــ وقال بخشونة :

ــ (رفعت) .. لا أريد أن أؤذيك !..

كلا.... لن أضيع هذه الفرصة!.. حاولت التملص في هياج فكانت فرصة رائعة لـ (طلعت) كي يستعرض قواه.. لا أذكر سوى معركة عنيفة كنت فيها الطرف الواهي جدًا..

وكانت أمي تولول، وأختي تلطم خديها بينما طفلها يمسك ذيل ثوبها وينشج... (طلعت) يوجه لي اللكمات ثم يلقي بي على الفراش الخشبي العتيق.. أختي تناوله حبلًا من الليف يعقده حول كاحلي وهو يلهث.. ثم يلفه حول معصمي، قاومت.. صرخت.. تسلخ لحمي لكن القيد كان محكمًا.. ثم استسلمت منهكًا.. الصوت لم ينفك ينادي:

- (رفعا اااات)!

أطلقت أختي سبة.. وهتفت:

- ألن تخرسي يا بنت ال.....؟!

ثم شرعت تقول وهي تبكي وقد اكتسب كلامها نغمة محببة للنفس:

- أولًا (رضا).. ثم هو ذا أخي (رفعت) زينة الرجال. ليتك لم تأت من مصر.

ليتك لم تأت، ليتك تركتنا في بؤسنا..

لماذا تبكي هذه المرأة؟!.. أنا لا أرى مصيبة ما في هذا الذي يحدث.. كل ما هناك أن هذا القيد يثير حفيظتي وأنني يجب أن أتخلص منه بأسرع ما يمكن.. هناك تقف حبيبتي الرقيقة في ثوبها الأسود تنتظرني وتناديني.. فعلام لا ألبي نداءها؟!

* * *

لم أدر بشيء مما حدث في الأيام التالية..

هلوسة متواصلة مضطربة تداخل فيها د. (ريتشارد) مع (استبان) والمذءوب مع مومياء (دراكيولا) ومشهد وفاة (إيكاترينا) ود. (عاصم) ووجه النداهة ووجه يهوذا والثعبانين اللذين يلتهم كل منهما ذيل الآخر..

فيما بعد حكت لي (رئيفة) كل شيء..

كنت ذاهلًا عن العالم أرمقه بعينين مفتوحتين لا تريان، ولم أكن آكل لهذا كانوا يطعمونني قسرًا كالبط..، وقد أحرقت أمي أطنانًا من البخور جوار فراشي وقرأت سورة (يس) مئات المرات..

أما (رئيفة) فقد أحضرت - مشعوذًا نصابًا كالعادة - كي يحاول فك اللعنة التي تكبلني.. وبالطبع أحرق مزيدًا من البخور وردد عشرات الرقي وطلبت مئات الطلبات ثم انصرف زاعمًا أن هناك جنيًا حانقًا علي لأني لم أجلب له ما أراد من هدايا..

وكان (طلعت) أكثر مادية في تفكيره.. إذ ذهب للقرية وأحضر د. (عاصم) طبيب الوحدة كي يراني.. وقد أبدى هذا الأخير أسفه ولوعته، وقال إنه خمن أن هذا حدث حين تأخرت عن موعدي معه، وحكى لهم قصة لقائي مع النداهة.. ثم إنه أعطاني حقنة مهدئة وعرض خدماته في أي وقت ونصحهم بفك القيود من حين لآخر والسماح لي بالتقلب في الفراش حتى لا أصاب بقرحة فراش،.، وأخذ جنيهًا ثمن الكشف برغم أن هذا ممنوع حسب قوانين النقابة..

ياله من نصاب ا..

وفي كل ليلة - حكت أختي - كانت البداية تناديني من جوار الساقية... فكنت أتململ وأتقلب وأحاول النهوض لكن القيود كانت أقوى مني..

وفي ذات مرة أصر (طلعت) على الخروج ليرى هذه الشيطانة لكن أمي وأختي توسلتا إليه أن يبقى.. فهما ليستا على استعداد لفقد آخر رجل في الأسرة.. وقد اضطرت أختي لأن تلثم يده كي يكبح فضوله القاتل، فرضخ لرغبتها..

كم من الوقت استمر بي هذا الحال؟!..

أسبوعين..!

وكيف انتهى؟!.. إن لذلك قصة صغيرة سأحكيها لكم، ولكن لا تتعجلوني..

* * *

وصل خطاب باسمي، تسلمه (طلعت) زوج أختي.. ولم ير فائدة ما من اطلاعي عليه لأنني قد انفصلت عن العالم تمامًا.. لهذا نسيه تمامًا في جيب جلبابه.. ثم إنه في إحدى الليالي فكر في أن يتلوه بجانب فراشي لعل شيئًا فيه يثير انتباهي أو يكون أمرًا ذا بال يمكنه هو التصرف فيه..

وعلى ضوء مصباح الجاز شرع يقرأ.. كان الخطاب من تلميذي د. (علاء عبد الصمد) يتحدث فيه عن عينة الدم التي أخذها ليحللها في معمله بالقاهرة:

- عزيزي د. (رفعت):

لم أستطيع الحضور بنفسي كما أنني لم أستطع الاتصال تليفونيًا لأن القرية لا يوجد بها تليفون، لهذا أرسل هذا الخطاب وفي تقديري أنه لا يستغرق سوى ثلاثة أيام وبالتالي لن يسبب التأخير مشكلة..

لقد قمت بإجراء التحاليل التي طلبتها.. وكما توقعت أنت لم أجد أي دليل على مرض السكر أو الكلى أو الفشل الكبد أو تغير حموضة الدم... كما أن نسب الكهارل8 لابأس بها..، ومزارع الباكتيريا سلبية كلها..

باختصار.. لا شيء على الإطلاق.

ثم قمت بإجراء تحليل كروماتوجرافي في كلية الصيدلة بحثًا عن سموم معينة وبعد بحث مدقق مرهق وجدنا في العينة نسبة قليلة جدًا ولكنها محسوسة من مادة الباربيتورات..

كان (طلعت) يقرأ بلغته المضعضعة الواهية، وقد عانى الأمرين في نطق كلمات مثل (كهارل).. (كروماتوجرافي)... (باربيتورات) لكن الكلمة الأخيرة وصلتني كاملة سليمة.. واستقرت في وعيي لتحدث هزة كاسحة.. ومن ثم رددتها خلفه - هكذا قال - وكانت أول كلمة أقولها منذ أسبوعين مما أحدث له هزة فرح عارمة.. وشرع يكبر والدموع تغطي عينيه:

- وا (رفعت)!.. لقد نطقت أيها الرجل الطيب!.. نطقت!

هأنذا.. حي أرزق.. لا أدري ما حدث لي ولا يعنيني أن أعرف.. فقط أريد هذا الخطاب حالًا.. يجب أن أعرف ما به... ولكن.. إنني مقيد للفراش كالذبيحة.. من فعل هذا؟.. (طلعت)؟!.. ولماذا؟!.. أذكر شيئًا عن النداهة وعن تلك الليلة لكنه مشوش تمامًا.. لابد أنهم قيدوني - هؤلاء الحمقى - لكيلا ألحق بالآخرين.. قلت في صوت متحشرج:

- (طلعت).. أنا بخير.. أرجوك أن تفك قيودي..

نظر لي في حيرة ولم يرد..
- (طلعت)!.. دعني أنهض وسأخبرك بكل شيء.. لقد زالت الغيبوبة..!
وجهه مغطى بالظلال ولا يريد أن يرد، من حقه ألا يصدق لكن كيف أقنعه؟
- (طلعت)!.. صدقني.. أنا لا أكذب..
نهض في حزم ووضع الخطاب في جيبه.. وقال لي بجلاء واضح
- استعذ بالله يا دكتور ولا تلبي نداء الشيطان.
- ولكن..
- إنها تلك الملعونة تحاول أن تدعوك إليها.. لكنك لن تخدعني..!
وحمل مصباح الكيروسين في يده متجهًا للباب، وفتحه.. وقبل أن يخرج قال مكررًا في اشمئزاز كأنه يبصق..
- لن تخدعني!

* * *

٩ - أخيرًا فهمت!

في ظلال الليل ومع قيدي الإجباري بدأ تفكيري ينشط ويصفو حتى وصل ذروته.. وبدأت أحلل الحقائق وأفندها.. كل كلمة وكل صورة وكل موقف كان له دور ما في هذه القصة..
بدأت الصورة النهائية تكتمل لكن ثغرات عدة كانت تملؤها.. المهم الآن أن يطلقوا سراحي ولو قليلًا لأني بحاجة إلى الحركة..

* * *

في الصباح جاءت (رئيفة) بالافطار ؛ وجلست جواري على السرير وشرعت تدس لقيمات مغموسة بالعسل في فمي.. اللعنة... أنا لا أحب العسل إن كل ما مررت به من تجارب مروعة لا يساوي عندي أن آكل العسل وأنا مقيد بالحبال! لهذا بصقت ما في فمي مما جعلها تجفل.. وصحت:
- (رئيفة).. أنا بخير.. لقد شفيت..
- يارب!
- لقد استجاب الله بالفعل لدعائك.. ألم تلاحظي أنني أتكلم؟
- لقد أخبرني (طلعت).. وأخبرني أيضًا أن هذه خدعة من النداهة..!
يا للغباء!.. من حسن حظها بالفعل أنني مقيد.. قلت في غيظ:
- ومتى ستقولين أنني شفيت إذن؟!
- حين.. حين تشفى!
ماذا أفعل مع هذه الحمقاء العزيزة؟!.. إن ذهولي هو دليل مرضي - كما تعتقد - إلا أن عودتي للواقع هي دليل أكثر خطورة على نفس المرض... أخذت نفسًا عميقة وقررت أن أسايسها برفق:
- (رئيفة)..
- نعم..
- إن النداهة تنادي ليلًا.. أليس كذلك..؟
- بلى..
- ونحن الآن في الصباح.. أي أن رغبتي في التحرر لا غبار عليها..
- طبعًا..
- إذن لماذا لا تحضرين سكين المطبخ وتقطعين قيودي؟!
قالت وهي تلملم شتات الفطير المتساقط على صدري وذقني..
- إن (طلعت) قد حلف علي بالطلاق لو أنني فككت قيودك، هو لا يريد سوى مصلحتك
اللعنة!.. ها هي ذي الأمور تأخذ طابعًا متأزمًا لامفر منه.. لو حررتني فقد فقدت زوجها وأسرتها.. قلت في حنق:
- إذن سأقضي حياتي هكذا؟.. حتى إذا شفيت من نداء النداهة؟
نظرت لي في حسرة وهمست:

- أن أحدًا لم يشف من نداء النداهة أبدًا.. ولهذا نحن واثقون أنك لم تشف.. هذا هو كل شيء!

آه.. يا للمنطق المحكم الخرب..! أمامي الآن حلان.. إما أن أقضي نهاري في محاولات خرقاء لفك القيود آسفًا على أنني لم أكن هوديني9 وإما أن أخبرها بكل استنتاجاتي آملًا أن تتولى هي مهمة كشف السر.. لكنها لن تفهم حرفًا مما سأقوله لها ولن تصدقه..

في هذه اللحظة دخلت أمي الحجرة هاتفة في مرح:

- صباح الخير يا بني..، لقد جاء حبيبك..

- حبيبي؟!

- نعم.. د. (عاصم) وزوجته للاطمئنان عليك.. قل له كل ما تريد..

- أقول له ما أريد؟!.. إن الإغراء شديد بالفعل..

* * *

دخل د. (عاصم) بصلعته المميزة الغرفة حاملًا حقيبة الفحص ووراءه زوجته (عواطف) وقد بدت في أجمل حالاتها في ضوء النهار.. وما إن رآني حتى اتسع ثغره بابتسامة بلهاء وصاح:

- الحمد لله على سلامتك أيها الزميل!.. أخبرتني (الحاجة) أنك قد تكلمت بالأمس..

كانت نظراتي مثبتة على (عواطف).. على قلادتها بالذات، وقد لاحظت نظرتي فأغلقت زر قميصها العلوي في شيء من الحرج، وغفت:

- حمدا لله على السلامة!

التفت د. (عاصم) إلى أمي وقال في مرح:

- نريد الشاي يا ست الكل.. ثم التفت إلي، وجلس على حافة الفراش قائلًا:

- لقد تركت الوحدة في ساعة الذروة من أجلك..

- بارك الله فيك.. اجلسي يا مدام (عواطف)..



وقد لاحظتْ نظرتى فأغلقت زر قميصها العلوى فى شىء من الحرج ،
وغمغمت : ــ حمدًا لله على السلامة ..

جرت (عواطف) كرسيًا من الجريد وجلست عليه جوار الفراش وهي تتحاشى النظر لوجهي في إصرار.. غريب هذا الاجتماع العائلي بين طبيب سعيد مثله وزوجته مع رجل مقيد في الفراش وقد نمت ذقنه المشعثة فبدا كالمجانين..، دعك من أنني لم أكن قد استحممت منذ أسبوعين مما جعل رائحتي ككهوف الدببة.

أحضرت أمي الشاي فنهضت (عواطف) لتأخذ منها الصينية، ووضعتها على الأرض الترابية جوار الفراش، في حين قال د. (عاصم):

- والآن هلا تركتنا بعض الوقت يا حاجة؟!.. أغلقي الباب خلفك لأننا سنناقش مستقبل ابنك ولماذا لم يتزوج؟

ضحكت أمي في مرح ودعت له ولزوجته ثم فعلت كما قال..

- والان هات ما عندك..

- ومن قال لك إن هناك ما عندي؟!

- عيناك..

- ليس قبل أن تفك قيدي..

- أما هذا فلا.. لقد وعدت هاتين البائستين.. ولحسن الحظ أنهم لم يربطوا لسانك بحبل من الليف هو الآخر..

أخذت نفسًا عميقًا ونظرت لسقف الحجرة ثم قلت:

- حسن.. سأتحدث.. ولكن لا تقاطعني،،، ضع نظارتي على أنفي على الأقل..

- لك هذا..

- في البدء كان اللغز غامضًا كالموت نفسه.. ولم يكن هناك بصيص من هدى، لهذا أرسلت عينة من دم مريض لتحليلها في القاهرة بحثًا عن شيء ما..، وأمس وصلني التقرير.. يقول ان هناك نسبة ما لا تذكر من مادة الباربيتيورات..

- وماذا في ذلك؟.. ألم تعطه أنت حقنة فينوباربيتون!

- كلا.. لقد أعطيت هذا المريض حقنة فينوباربيتون بعد وليس قبل التحليل..

أي أنه كان يتعاطى - أو يُعطى - هذا العقار في أثناء مرضه..

والآن هل تعلم من هو هذا المريض؟!.. إنه (رضا إسماعيل) أخي..

- وهل.. هل أخفيت علي ذلك كل هذه الفترة؟!

- أنا نفسي لم أر مبررًا لذلك، لكني - حين أعيد التفكير - أرى أنه أحكم تصرف فعلته في حياتي.. والآن دعنا نسترجع الأحداث.. في كراستك الصغيرة التي أريتني إياها في الوحدة حين زرتك أول مرة ذكرت اسم (رضا إسماعيل) وأنه ممن نادتهم النداهة.. كيف أمكنك معرفة ذلك في حين أن زوجة أخي لم تخبر أحدًا في القرية بهذا الموضوع ولم تجلب له طبيبًا غيري..؟!

إنك قيدت اسمه في الكراسة دون أن يخبرك به أحد..

فما السبب؟!!

قال في ارتباك:

- ربما هي كلمة سمعتها هنا أو هناك.. لابد أن الخبر تسرب..

قلت في حزم:

- ألم أقل لك ألا تقاطعني.. ثم إنني قابلت النداهة المزعومة..، وكان الموقف مريعًا لكني احتفظت في ذهني بملامحها.. واستطعت أن أرسمها لكني نسيت بعض التفاصيل التي كانت تجعلها متوحشة، مما جعلها أقرب لصورة أنثى عادية.. حين رأيت أنت و(عواطف) هذه الصورة أصابكما الوجوم.. لماذا؟!.. لأن الصورة بدت أقرب إلى (عواطف) منها للنداهة... لكني لم أفطن لهذا الشبه وقتها وخيل لي أن هناك تشابهًا شديدًا مع (نجاة) زوجة أخي.. إن النداهة التي رأيتها تملك شامة زرقاء على خدها وهذه يسهل رسمها.. أما العينان الحمراوان فيمكن لعدستين ملتصقتين ملونتين إعطاء الإيحاء بهما.. أما اللون الفسفوري المشع ليلًا فهو شديد السهولة، أن الماكياج الذي كان على وجه النداهة كان متقنًا وكان بارعًا لكن نسيان الشامة يفسد كل شيء..

أضف إلى هذا أن الأنثى هي الأنثى.. لم تنس (عواطف) أن تضع قلادتها الذهبية الجميلة - التي ترتديها الآن - على عنقها وهي تمثل دور النداهة، لم يتسع عقلي لاستيعاب شكل القلادة لهذا ظلت مجرد صورة في ذاكرتي الثعبانين يلتهم كل منهما ذيل الآخر لا أنكر متى وأين رأيتها... ومن عادات (عواطف) أن تضع يدها على جيدها في أثناء الكلام لهذا لم ألحظ أنها ترتدي هذه القلادة إلا الآن..!

والنقطة الأخيرة هي صوت (عواطف) المبحوح.. إن سر هذه البحة هو كل هذا المجهود الذي تبذله حنجرتها في النداء على الفلاحين ليلًا..، هذا الصوت الرهيب غير البشري لابد وأنه أتلف أحبالها الصوتية..

ويوم زرتك في الوحدة أول مرة لم ألق زوجتك.. قلت إنها كانت في ولادة بالقرية لكن هذا غير صحيح.. لقد تفقدت سجل مواليد القرية يومها فلم يكن هناك أي مولود، كانت - ببساطة - تنادي (رضا) أخي وقتها..!

قال د. (عاصم) وقد ارتسم شبح ابتسامته على ثغره:

- وماذا عن الفلاحين الذين رأوها تمشي فوق الماء، أو لا تترك ظلًا؟!

- لقد كاد قلبي يتوقف رعبًا وأنا لا أومن بها.. فهل تتوقع من فلاح أو طفل يراها بهذا الماكياج المريع ألا يفقد صوابه؟!.. لا يمكن أن يكون كلامه متماسكًا.. إنه سيراها عندئذ كما يظن أنها ستكون وليس كما هي في الواقع.. وعلى كل حال لا أظنكما عاجزين عن تلفيق خدعة بصرية كهذه!

قال د. (عاصم) وهو يتبادل النظرات مع عواطف:

- ولكن الحالة أصابتك أنت نفسك بكل تفاصيلها المرعبة.. هل كنت أنت أيضًا تمثل معنا..؟!

تنهدت في يأس وقلت:

- أن هذه هي الثغرة في قصتي..، لكن تذكر أن المرض هاجمني بعدما كنت عندكم وبعدما شربت الشاي الذي قدمته لي زوجتك.. ماذا كان في الكوب..

والأهم هو أنني ودعتك في الحادية عشر مساء ووصلت داري في الواحدة صباحًا..

وليس لدي أدنى تفسير لما فعلته أو حدث لي في هاتين الساعتين..

إنني كنت ضحية معالجة ما لا أفهمها لكنها تؤدي لجنون ذهولي دائم.. وأنت وزوجتك هما من يملكان التفسير..

نظر لي د. (عاصم) في ثبات وقال:

- والآن - بفرض صحة كلامك - ماذا تريد؟

- النصف الآخر من الحقيقة وهو لماذا فعلتما ذلك؟

أشعل د. (عاصم) سيجارة.. ونظر نظرة ذات معنى إلى (عواطف) فنهضت للحقيبة وناولته شيئًا ما منها.. محقنًا زجاجيًا مليئًا بسائل أبيض.. وقال لي:

- هناك حقيقة واحدة يا زميل.. لقد كنت قوي الملاحظة لكنك ساذج.. ساذج بشكل مرعب... وأحمق أيضًا..

أخيرًا..! لقد اعترف - لأول مرة - بأن كلامي صحيح.. إلا أنه أردف:

- عندما يواجه المرء أعداءه بحقائق كهذه يجب عليه أن يكون في موقف قوة لا أن يقول كلامه وهو منعزل ومقيد في الفراش.. والآن أنت تحت رحمتنا تمامًا..! كان يجب أن تنتظر حتى تتحرر.. والآن..

- حقنة هواء في عروقي؟!

- لا.. إنها طريقة فظة... أولًا سأعطيك جرعة من الباريتيورات لتنام ثم نفك قيودك جزئيًا بشكل لن يلاحظه أحد، وفي المساء سينام الجميع عندئذ ستلبي نداء النداهة.. وستحضر لنا إلى حيث تعرف مصير من سبقوك..!

فتحت فمي لأصرخ إلا أن (عواطف) كومت الملاءة وحشرتها في فمي حشرًا حتى تكتم صوتي، في حين شرع (عاصم) يعرّي ذراعي.. وفي تؤدة أفرغ الحقنة في وريدي.. ثم إنه نهض لاهثًا:

- عندما تعود أمك وأختك للغرفة ستعرفان أن مناقشتنا قد أنهكتك.. وأنك ستنام طيلة اليوم..

ثم أعاد محقنه للحقيبة.. وضحك:

- أراك هذا المساء أيها الزميل!

* * *

١٠ - المعمل..

استغرقت بعض الوقت كي أدرك أين أنا ومن أنا، وحين فتحت عيني لم يكن ما رأيته هو حجرتي الفقيرة الأليفة بل كانت غرفة واسعة تزحف الرطوبة والطحالب والعفن على جدرانها..

كنت مقيدا إلى الحائط بجنزيرين صدئين في وضع المصلوب..، وجواري كان جردل فارغ وغلاية حقن معدنية موضوعة فوق موقد جاز عتيق..، وكانت رائحة العقاقير تملأ الجو..، والأغرب هو أنني كنت أرتدي البيجامة وحافيًا..

ثم عرفت ذلك الشيء الذي يمنعني من الكلام.. شريط عريض من البلاستر ملصق فوق فمي، وكانت قدماي حرتين لكن لم يكن شيء في مجال حركتهما..

رفعت وجهي في هدوء لأرى ما هناك..، كنت قد فقدت نظارتي لكني لم أكن قصير النظر إلى هذا الحد الذي يمنعني من تبين تلك الأجساد الآدمية نصف العارية المقيدة إلى الجدران من حولي..

كانت هناك أربعة أجساد لرجال في العقد الثاني أو الثالث من العمر وأحدهم أقرب لسن المراهقة، كلهم مقيدون - بنفس الكيفية التي أنا مقيد بها - للحائط.. وعلى فم اثنين منهما قطع بلاستر لاصقة، على أنه لم يكن هناك كثير حاجة لذلك لأنهم كانوا جميعًا في حالة ذهول تام..

ولكن.. من هو هذا الرجل ضخم الجثة الذي أغمض عينيه وتدلى رأسه على صدره؟!.. إنه هو.... (رضا) أخي!.. هو بعينه..

الآن تذكرت قصة د. (عاصم)، والحقنة التي أخذتها.. والمواجهة... و(عواطف) و... يبدو أنه نفذ تهديده حرفيًا وهو يعرف ذلك الذي يفعله جيدًا.. والآن أنا أسيره، ويبدو أنه لا مفر لي من قبضته.. كل ما على هو أن أنتظر لأرى..

أما باقي الغرفة فكان يحوي منضدة عليها أنابيب اختبار عدة.. وموقد (بنزن) وميكروسكوب ضوئي متهالك.. وآلة طرد مركزي..

صوت باب ينفتح ببطء...

وعلى بصيص الضوء الخافت القادم من النافذة رأيته.. د. (عاصم) وقد ارتدي معطفًا ملوثًا بالدماء ومن خلفه (عواطف) زوجته.. وكان يحمل صينية عليها قوارير عقاقير مختلفة الأنواع... وفي ثقة انتزع قطعة البلاستر من على فمي..

- صباح الخير أيها الزميل!

هتف بي وهو يضحك متشفيًا.. ووضع ما في يده على المنضدة..

- كيف حالك؟

- أفضل مما تتوقع أيها الجزار...

- يبدو أن نوم الليلة لم ينجح في تهذيب أخلاقك.. لقد فككنا قيودك بشكل لم يلاحظه أحد..، وحين جاء الليل نادت النداهة فنهضت من فراشك ووثبت من النافذة وجئت إلي متحمسًا.. أليس هذا رائعًا؟!

ثم إنه أمسك بمعصم زوجته وأشار لي:

- تخيلي هذا يا (عواطف).. أستاذ أمراض الدم العظيم هو حيوان تجارب في معملي... دعينا نعرفه على زملائه في الأسر..

ثم مضى إلى الحائط.. إلى الرجال المكبلين بالسلاسل، وشرع يشير لهم واحدًا واحدًا:

- هذا الفتى الوسيم هو (إبراهيم السقا).. شاب في الثالثة عشرة من عمره، قلبه مليء بالعواطف وذهنه مليء بالطموحات.. إلى أن جاءت النداهة..

وتحرك إلى رجل أصلع ضخم الجثة ينتظر لنا نظرة خاوية خرساء.

- وهذا الأخ هو (الزغبي فرحات).. أول ضحاياي.. وهو رب أسرة ورجل ورع شديد الرزانة..

ثم تحرك إلى شاب كث الشارب تدلى رأسه على كتفه..

- وهذا (سعيد جابر).. عامل البناء الشاب الذي ضرب زوجته كي يلحق بالنداهة..، أما هذا..

وتوقف عند أخي..

- فهو (رضا إسماعيل)، شقيق الدكتور (رفعت).. لقد ضممته للمجموعة أمس فقط بعد أن أخذتك أنت الآخر.. والآن تصور مشاعر أمكما التي فقدت ولديها الراشدين في ليلة واحدة!!

ثم أشعل سيجارة، كان يعرف كم هو سمج ويستمتع بذلك، لقد وجد أقصى متع الحياة في أن يكون وغدًا..

- والآن نأتي لموضوعنا الذي أثرته أنت أمس.. ما هو هدفي من كل هذا؟.. دعني أخبرك بسر صغير يا د. (رفعت).. إنني عبقري!.. أنت لم تلحظ هذا بالطبع لأن العباقرة لا يمشون برأس متضخم كالذي نراه في قصص الخيال العلمي.. لكنى أؤكد لك أننى عبقري..

وما الذي نلته من ذلك؟!.. لا شيء.. سلسلة طويلة من الإحباطات.. لم أوفق إلى الالتحاق بسلك الجامعة ونفيت إلى هذه القرية القذرة التي لا تناسب أحلامي..

وحتى في الحب.. وارتجفت شفتاه قليلًا وهو يردف:

- حتى هنا لم أوفق..، كان رأسي الأصلع ونظارتي السميكة يعوقانني عن الحصول على الفتيات اللواتي أرغب في أن يشاركن حياتي، كل شيء في الحياة كان يرغمني على أن أكون ما أرادوه لي.. مجرد فأر أرياف منزو منعزل وفقير.. وحين أموت لن يذكرني أحد، ولن يبكي على أحد..

ونفث دخان سيجارته في إنهاك.. وأردف:

- وهكذا.. قررت أن أنتقم... إنني أعرف أن أسطورة النداهة قديمة في هذا البلد ولهذا تزوجت (عواطف).. وبدأت في تحويلها إلى نداهة حقيقية.. أنت لا تتصور عبقريتي في الماكياج.. ولكن.. إنك رأيتها فعلًا وأصابك الذعر هل تنكر؟

- لم أنكر لحظة...

- كنت أختار ضحيتي من زوار الوحدة الصحية، وكنت أتفرد به فاحقنه بجرعة صغيرة جدًا من (بنتوثال الصوديوم).. إنهم يسمونه مصل الحقيقة لأنه يضعف الارادة... وهكذا أبدأ نوعًا خاصًا جدًا من التنويم المغناطيسي تحت تأثير هذا الدواء..، وأقنعه أنه يحب النداهة.. وأن عليه أن يلبي نداءها حين يسمعه في الليل.. وأن يظل صامتًا لا يأكل ولا يشرب في انتظار النداء..

وفي الليل ترتدي (عواطف) ثياب النداهة الفسفورية وتقف عند بيت الضحية وتبدأ في النداء باسمه..، أحيانًا كان يلبي وأحيانًا كان أهله يحكمون الحصار حوله.. لكنها - مهما طالت المدة -

كانت واثقة أنها آمنة وأن أحدًا لن يجرؤ أبدًا على الخروج لمضايقتها..، أضف لهذا أنني - أو عامل الوحدة - كنا دائمًا على مقربة منها على استعداد للتدخل إذا حدث شيء..

وكنت أزور الضحية صباحًا فأعطيه جرعة صغيرة منشطة من الباربيتيورات ليظل وعيه في حالة السبات، إنني الوحيد في القرية الذي له الحق في إعطاء حقن لا يعرف نوعيتها أحد للمرضى..

ثم تأتي الليلة الموعودة..

الليلة التي يلحق فيها المريض بالنداهة.. عندئذ أبادر أنا أو عامل الوحدة إلى تخديره ونقله إلى هنا.. أي إلى سكن الممرضات الخالي بالوحدة والذي لا يصعد إليه أحد ولا يجرؤ أحد على تفتيشه..

- ولماذا لا تخطف من تريد مباشرة وتنتهي؟!

- الفن..!

قالها بلهجة من يقرر حقيقة لا غبار عليها..

- الفن يا صديقي.. الفن.. يجب أن تكتمل جوانب الأسطورة وتتسق مع بعضها.. ألم أقل لك إنني عبقري؟!..

- وما جدوي كل هذا؟.. وما فائدة جمع الفلاحين كالفراش؟!

ضحك في سرور.. وهتف:

- هذا هو بيت القصيد.. أن لهذا شطرين.. الشطر الأول هو استمتاعي الخاص بإحياء قصة النداهة وإفزاع هؤلاء الناس، والشطر الثاني هو حاجتي إلى حيوانات تجارب بشرية لإجراء نوع خاص جدًا من الأبحاث.. أبحاث هي وليدة قراءاتي وعبقريتي، أبحاث ستؤدي إلى صنع الإنسان الأعظم.. السوبرمان..

قلت له في سخرية:

- لهذا وجدت في حجرتك كتب (نيتشه) وكفاحي لـ(هتلر) وكل هذه الروايات عن الخيال العلمي..، أنت تعتنق إذن هذه الأفكار النازية المخبولة..!

اعتصر سيجارته بين أسنانه وغمغم:

- ليست أفكارًا مخبولة... إنها رؤيا خارقة لا يفهمها أمثالك.. أنت عالم حقًا ولديك شهادات علمية لا أعرف حتى كيف أقرأ أسماءها لكنك مجرد صرصور آخر يحرك شواربه في جشع بحثًا عن المادة..

وبصق في اشمئزاز:

- صرصور..!

تجاهلت إهانته التي لا مبرر لها أبدًا، وسألته:

- لدي خمسة أسئلة أرجو أن تجيب عليها... أنا أعرف أنك متلهف على بدء تجاربك علي لكني لا أريد أن أموت أو أجن وأنا لم أفهم بعد..

- سل ما تريد..

- السؤال الأول هو: لماذا جعلتموني أرى النداهة في تلك الليلة

ماذا كان سيكون تصرفكم لو أنني هاجمتها؟!

قال وهو يهرش صلعته:

- كان هناك احتمالان.. الاحتمال الأول - وهو الأفضل - كان أن يصيبك الهلع وتفرّ وتزداد إيمانًا بوجود النداهة وهو ما حدث تقريبًا، أما الاحتمال الثاني فكان أنك قد تهاجمها، وعندئذ كنا سنثب عليك أنا و(صلاح) عامل الوحدة لنحقنك بينتوثال الصوديوم ثم تبدأ معك قصة النداء الغامض..

أنت نفذت الاحتمال الأول.. إلا أنك اقتربت جدًا من الحقيقة حين رسمت وجه النداهة - أو (عواطف) - بهذه الدقة لهذا آثرنا أن نبدأ معالجتك فورًا.. دست لك (عواطف) مخدرًا في الشاي.. ومارست أنا تنويمك مغناطيسيًا بمعونة بنتوثال الصوديوم.. وحين عدت لدارك - بعد ساعتين - كنت قد صرت مسحورًا آخر ينتظر..

هززت رأسي علامة على الفهم.. ثم قلت:

- السؤال الثاني: هل لك علاقة باختفاء (عبد الرازق)؟.. الفتى الذي قلت أنا إنه مسعور؟

- بالطبع لا.. لقد فر الفتى لأنه مصاب بمرض الكلب وقد وجدوا جثته في (الريّاح) منذ ثلاثة أيام، لقد أصابته نوبة هياجية جعلته يفر ويرمي بنفسه هناك، وطبعًا لم يجدوه إلا بعد عشرة أيام..، إنني بريء من دمه...

- السؤال الثالث: هل حقًا لم تر أخي (رضا) في بيته بعد إصابته بمرض النداهة؟.. إذن كيف وجدوا مادة الباربيتورات في دمه بعد أسبوع من مرضه؟

ابتسم في مودة كأنه أستاذ يهنئ تلميذًا مجتهدًا.. وقال:

- أنت حقًا ذكي.. لم تنس علم الأدوية بعد، ولم تنس أن بنتوثال الصوديوم قصير المفعول جدًا وأن أثره في الدم يختفي بعد أقل من ساعة من حقنه..، أنت تريد القول أن هناك من كان يزوره ويحقنه بالبابيتيورات في الفترة التي تلت حقنتي الأولى، وهذا صحيح.. لقد كانت (نجاة) زوجة أخيك تدعوني سرًا لرؤية زوجها وحقنه لأنها لم تكن تثق فيك البتة وكانت تؤمن أنك - عدم المؤاخذة - حمار..!

- اللعينة!..

- والآن قل سؤالك الرابع بسرعة..

- السؤال الرابع هو: كيف تطيعك (عواطف) بهذه السهولة!

وضع يده على كتفها في حنان وقال:

- إنها تؤمن بي بشدة.. وتفعل أي شيء أطلبه منها..

ابتسمت (عواطف) في فخر..، زوجان سعيدان يحب أحدهما الآخر ولو لم أكن مقيدًا في قبضتهما كالذبيحة لتمنيت لهما الخير..!

- السؤال الخامس هو: ما نوع التجارب التي تجريها على هؤلاء التعساء..؟!

- سؤال جيد.. إنني أحاول صنع الإنسان السوبر مان لهذا أعرضهم لمؤثرات شتى من الإجهاد الحراري والسموم والباكتيريا.. إن قوة تحملهم تزداد يوما بعد يوم..! وعما قريب لن يؤذيهم شيء..

- باكتـ... باكتيريا..! لكنك مخبول تمامًا!.. إنك تقتل هؤلاء التعساء ببطء!

قال في كبرياء وهو يرمي سيجارته:

- إن ما لا يقتلني يزيدني قوة....

- وإذا قتلك..؟

- عندئذ أكون أنا إحدى الفضلات التي مرت من مصفاة الانتخاب الطبيعي ومن دوني ستكون الحياة أفضل..، هكذا تكلم زرادشت يا عزيزي!!

يا للمعتوه!.. تمنيت في هذه اللحظة لو كان (نيتشه) أمامي كي أحطم رأسه.. ما أكثر المجانين الذين يزخر بهم هذا العالم وأنا لا أعترض على وجودهم بشرط ألا يؤدي هذا إلى إفناء وجودي أنا.. شخصية محبطة معقدة تعيش وحدها في الريف وتقرأ كتبًا مخبولة ليلًا ونهارًا.. فماذا تكون النتيجة؟!!

انتهت خمسة الأسئلة وحان وقت العمل..!

في صمت - كأنه جلاد يمارس عمله التقليدي - أعاد لصق قطعة البلاستر على فمي، ثم تناول محقنًا من (عواطف)، وأفرغه في وريد ذراعي.. ثم تناول ملفًا مكتوبًا عليه بخط أنيق:

"دكتور (رفعت إسماعيل) - أستاذ أمراض الدم (٣٧ سنة) خطف ١٢ مايو ١٩٦٢".

وبدأ يخط فيه عبارات عدة بالإنجليزية..، واكتسى وجهه بصيغة رسمية صارمة وهو يصدر تعليماته لزوجته كأنه في مستشفى كبير:

- الحرارة والنبض وضغط الدم وتغيرات الحدقة كل ٤ ساعات، الوجبات العادية.. وغدًا نبدأ الإنهاك الحراري..!

إنهاك حراري؟!.. ألن ينتهي هذا الجنون؟!.. وكيف أمضى حياتي واقفًا في هذا الوضع أنا الذي لا أحتمل الجلوس في مكان واحد أكثر من ربع ساعة؟!

إنه لمأزق حقيقي...

* * *

بعد أربع ساعات كنت قد انتهيت تمامًا..

هأنذا مقيد تحت رحمة طبيب مجنون كما يحدث في الروايات العلمية الرخيصة.. المشكلة أنني لم أتخيل نفسي أبدًا في هذا الموقف.. والمشكلة الثانية هي أن البطل - في هذه الروايات - يهرب دائمًا في آخر فرصة.. فكيف أهرب أنا؟!..

طبعا لا جدوى من محاولة الاستغاثة أو إدماء معصمي بشد القيد لأن من سبقوني - بالطبع - قد حاولوا كل هذا وفشلوا..، ولا جدوى من أن يبحث علي أحد في القرية لأن اللعين أجاد حبك قصته، وهم لا يشكون في أن الندامة قد افترستني أنا وأخي..

فتح الباب ودخلت (عواطف) واتجهت نحوي، وفي برود تفحصت حدقة عيني ثم وضعت ترمومترًا تحت ابطي ولفت جهاز الضغط حول ذراعي،، وعدت نبضي، ثم إنها قرأت الترمومتر، واستدارت لتصرف فناديتها بقدر ما استطعت خلف البلاستر..

- (عواطف)! ألا تفهمين ما الذي سيقودك إليه هذا المعتوه؟

- ماذا؟

- السجن أو ما هو أسوأ..! فكري في ذلك.. لم تزل لديك فرصة..

فكرت حينًا بوجه مغلق.. ثم إنها قالت وهي تهز كتفيها وتعيد تثبيت البلاستر:

- هذا ليس من شأنك..! وتركتني وانصرفت..

* * *

وجاء الليل..
عادت (عواطف) حاملة إناء كبيرًا به عشاؤنا.. وشرعت تدور على الأسرى واحدًا واحدًا تدس في فمه ملعقتين أو ثلاثًا من هذه المادة الهلامية المقرفة ثم تتركه يمضغ بشكل ميكانيكي وتذهب لآخر.. وجاء دوري! رفعت البلاستر من على فمي..
كلا!.. لن أكل من هذا الشيء، ولن يكون فمي هو الخامس بعد هذه الأفواه..!
- ألن تأكل؟!
سألتني في فظاظة، فقلت لها دامعًا وأنا أشعر بأنني مظلوم إلى حد لا يوصف:
- لا.. لا..!
- كما تريد.. عندما تموت جوعًا ستتوسل من أجل هذا..!
وهنا خطرت لي فكرة.. الوتر الوحيد الذي يمكن أن ألعب عليه هو مشاعر الأنثى.. أنا لا أفهم المرأة تمامًا ولو كنت أفهمها لكنت متزوجًا منذ عشر سنوات لكنني أعرف عنها صورة ضبابية من قراءاتي لهذا قررت أن أستغل ما أعرف:
- (عواطف)!.. هل أنت واثقة أن د. (عاصم) يحبك..
- ماذا تعني؟
- أعني.. هل هو يستحق كل تضحياتك من أجله؟!
تفكرت حينًا بوجه مغلق.. ثم هزت كتفيها وأعادت تثبيت البلاستر قائلة وهي تنصرف:
- هذا ليس من شأنك!

* * *

بعد أربع ساعات عادت لتأخذ علامات الحيوية، فقلت:
- (عواطف)..! اسمعيني لحظة واحدة..
- هم م م؟
- ان الدكتور (عاصم) لا يحبك.. بل هو يرى أن زواجه منك أحد أسباب كراهيته لهذا المجتمع.. أنت إحدى علامات هزيمته وهو لن يغفر لك هذا..
نظرت في عيني بوحشية وهمست بفحيح الأفعى:
- أخرس!
- ولماذا يمنع رجل ناضج زوجته من أن تناديه باسمه المجرد؟!.. إنه يخجل منك..
- هذا ليس من شأنك..!
قالتها وهي تهز كتفيها.. وأعادت لصق البلاستر وتركتني وانصرفت...

* * *

في موعد الإفطار عدت أمارس لعبتي الخطرة..
- ألم تتصفحي أبدًا كراسة مذكراته؟!

قالت في كبرياء وهي تدس الملعقة المشئومة في فمي:
- الزوجة المحترمة لا تتجسس على زوجها.. أبدًا..
قلت وأنا أمضغ ذلك الخليط الكريه من مواد مرة وسكرية ومالحة:
- إنه في العيادة الآن.. هلا صعدت إلى غرفته وقرأت مذكراته؟.. أنا رأيتها.. ووجدت بها قصائد شعر ورسومًا وحديثًا عن فتيات كثيرات أحبهن قبلك..
- لا أصدق..
- أمامك الكراسة.. وهو لا يخفيها على ما أظن..
- هذا ليس من شانك..!
قالتها وهي تهز كتفيها.. لكنها في هذه المرة لم تعد لصق البلاستر قبل أن تنصرف!

* * *

وبعد ربع ساعة عادت لي والدموع في عينيها وثمة شيء ما في قبضتها... وصاحت وهي تتهانف وأنفها يسيل:
- ذلك السافل... الملعون!
آه... هل أصابت رميتي إلى هذا الحد؟!.. يالي من داهية..
- أنه لم يتزوجني إلا لأني أشبه حبيبته الأولى..
- ألم أقل لك؟!
- والأدهى أنه كتب في مذكراته أنني لا أشبهها إلا في الملامح لأني غبية جاهلة وثقيلة الظل..، وأن ما أفعله من أجله لا يزيده إلا تشبثًا بالأخرى.. ذلك الكاذب المخادع!...
قلت لها وقد شعرت بقلبي يتمزق بالفعل من أجلها:
- حاولي أن تنسي... فكل الرجال لهم حب أول..
وهنا مدت يدها في عصبية بالشيء الذي كانت تحمله.. مفتاح صغير صدئ أولجته في قفل القيود وشرعت تفكها في جنون وهي تصيح:
- والآن اذهب عليك اللعنة!.. اذهب واخرب بيتنا أنا وهو، فلم أعد أعبأ بشيء.. هيا.. اذهب عليك اللعنة قبل أن أحطم رأسك
وللحظة لم أصدق أنني تحررت.، كانت أطرافي متصلبة.. وكدت أسقط أرضًا لكن نظرة واحدة لعينيها الناريتين جعلتني أطلق ساقي للريح..
أخيرًا!.. الشمس والهواء، ولأول مرة منذ أسبوعين..

* * *

استغرق الأمر ساعتين كي أحضر بعض رجال الشرطة من المركز ليداهموا الوحدة، وكنت قد ارتديت ثيابي وحذائي ووضعت مسدسي في جيبي، ودخل رجال الشرطة سكن الممرضات فوجدوا الضحايا الأربعة مقيدين كما وصلتهم..
ثم قرعوا باب سكن الطبيب مرارًا فلم يرد أحد.. تعاون اثنان منهما ضخما الجثة على تهشيم الباب، ودخلنا الغرفة.. وكانت كما هي لم يتغير فيها شيء.. إلا أن من دخل غرفة النوم عاد لنا

ووجهه ممتقع قائلًا:

- إنهما هنا..

وعلى الفراش كانا.. هي ساقطة على ركبتيها ووجهها مدفون في الملاءة كأنها تبكي بينما هو راقد على ظهره مفتوح العينين ونظرة ذاهلة ترمق السقف..، وعلى الأرض انتشرت أقراص (الدونوليز).. لقد تناولا جرعة قاتلة من دواء السكر أدت لقتلهما على الفور.. لربما أرادت هي أن تموت معه ولربما أجبرها هو لأنه لم يستطع أن يهرب (وأين يهرب) ولم يستطع أن يظل حيًا ليواجه غضب أهل القرية وصرامة القانون وسخرية الدهماء..

وجواره على الفراش كان كتاب (كفاحي) لهتلر ملقى في إهمال..

قلت في شرود وقد بح صوتي من الرهبة:

- لقد أراد أن ينتحرا مثل (هتلر) و(ايفا براون) عندما غزا الحلفاء برلين... نفس المشهد الأليم.. ونفس الظروف!

التفت إلي رجل الشرطة الواقف جواري سائلاً:

- انتحرا مثل من يا فندي؟!

لا يبدو لي أن أحدهم سيفهم... لن يفهموا مهما قلت أبدًا..!

نهاية مأساوية لكنها أفضل نهاية ممكنة..

* * *

خاتمة..

في مستشفى الجامعة بالقاهرة أكد لي الأطباء مرارًا أن أخي (رضا) بخير وسينجو، وقد احتاجوا لنقل الدم له مرتين وأجروا له غسيلًا بريتونيًا لإزالة ما دخل جسده من سموم... وقد ظلت أمي وأختي جواره طيلة الوقت وقد سرهما ما بدا عليه من علامات الشفاء الأكيد..

أما (نجاة) - تلك الأفعى القاسية - فقد شكرت الأطباء كثيرًا ولم تكلف خاطرها بتوجيه كلمة شكر واحدة لي، وعلى كل حال فأنا لم أفعل سوى واجبي نحو أخي ولا أحتاج شيئًا خاصًا منها..

شيء واحد أثار حزني، هو أن زملائي لم يستطيعوا أبدًا إنقاذ (الزغبي) لأن تجارب (المرحوم) كانت قد وصلت معه إلى طريق بلا رحمة، أما عن (سعيد جابر) فقد استعاد لياقته، وعاد (إبراهيم السقا) يحلم ويستمتع بالربيع والزهور.. أما أجمل شيء فهو أن أسطورة النداهة قد انتهت لعدة أجيال ولن تعود إلا لصورتها القديمة.. مجرد أغنية ترعب بها الجدات أحفادهن قبل النوم لمجرد التلذذ برؤية الهلع في عيونهم البريئة المتسعة!!

ولمدة أسبوعين كاملين استمتعت بوجود إمرأتين في بيتي بالدقي - أمي وأختي - فعاد النظام والنظافة، وعدت آكل جيدًا وألبس جيدًا وأنام جيدًا وازداد وزني عدة كيلو جرامات..

وعند الرحيل توسلت لي أمي أن أذهب معهما للقرية كي أعيش هناك للأبد.. لكني هززت رأسي في يأس..، لن أستطيع أن أتخلى عن مهنتي أبدًا ولن أفارق الجامعة وطلبت مني - على الأقل - أن أتزوج سريعًا كي تطمئن علي في وحدتي.. فوعدتها أن أفعل ذلك بمجرد أن أعود من مؤتمر أمراض الدم الذي سيعقد في اسكتلندا بعد ستة شهر..

ودعتهما هما وأخي على المحطة..، ثم عدت لداري الخاوية وقد أدركت تلك الحقيقة المروعة: لقد انتهت اجازتي ولن يسمح لي العميد بيوم آخر وإلا كان في ذلك خراب بيتي...

حتى ساعات راحتي صارت أكثر توترًا وانهماكًا من ساعات عملي!

والآن وقد انتهت قصتي مع الأشباح حان الوقت لأحظى بحياة طبيعية لكني لم أكن أعرف أنني سألقى شيطانًا من نوع آخر في مكان آخر يطير كل احتمال للراحة من حياتي.. ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل
القاهرة في مارس ٩٢

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة..

١ - العودة..

٢ - أسطورة جديدة..

٣ - ثرثرة..

٤ - مرضى آخرون..

٥ – الدكتور (عاصم)..

٦ - أين هي؟!

٧ - المقابلة

٨ - النداء

٩ - أخيرًا فهمت!

١٠ - المعمل..

خاتمة..

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة النداهة

هل تسمعون هذا الصوت العميق الساحر القادم من المجهول ... دعونى ألحق به ... ، ستقول أمهاتكم إن هذا هو صوت النداهة وأن ما من إنسان لبّاه إلا واختفى كل أثر له .. ، ستقول زوجاتكم إن هذا هو صوت النداهة .. الغول المتنكر في صورة فتاة حسناء تغرى الرجال باللحاق بها ... ، ستقول أخواتكم ... لا ... لا تذهبوا ... لا تصدقوا هذا الكلام .. تعالوا معي إلى الحقول المظلمة فى قرى محافظة الشرقية .. تعالوا نلبى هذا النداء .. ، و إذا ما فقدتم حياتكم فلا تخبروا أحدًا بأننى من دعاكم إلى النداهة !!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة وحش البحيرة

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

عقار منوم.

[←2]

(أوليس) أو (أوديسيوس) بطل ملحمتى هوميروس (الإلياذة) و(الأوديسة) اللتين تتحدثان عن حربه في طروادة ثم عودته الشاقة إلي زوجته المخلصة (بنيلوبي).

[←3]

قد يحدث مرض الكلب نتيجة عضة الثعلب أو الفأر أو السنجاب أو الجمل وليس بالضرورة الكلب.

[←4]

(الكورو) وباء فيروسي يصيب المخ ويسبب ضحكًا متواصلًا حتى الموت، وهو ناجم عن عادة إفريقية قديمة هي أكل مخ الموتى نيئًا لاتقاء شرهم !

[←5]

(النمرو) NMRU وحدة الأبحاث الطبية التابعة للبحرية الأمريكية.

[←6]

نيتشه فيلسوف ألماني اشتهر بدعوته للقوة ونبذ الضعفاء والمرضى من المجتمع... وفلسفته قاسية غير إنسانية كانت هي أساس فكرة النازية التي تبناها (أدولف هتلر)، وأشهر كتب نيتشه هو (هكذا تكلم زرادشت).

[←7]

قصة حقيقية.

[←8]

الكهارل أو الإلكتروليتات هي أيونات الدم الموجبة والسالبة.

[←9]

ساحر عالمي شهير اشتهر بقدراته على فك القيود والهرب من الفخاخ مهما كانت محكمة.

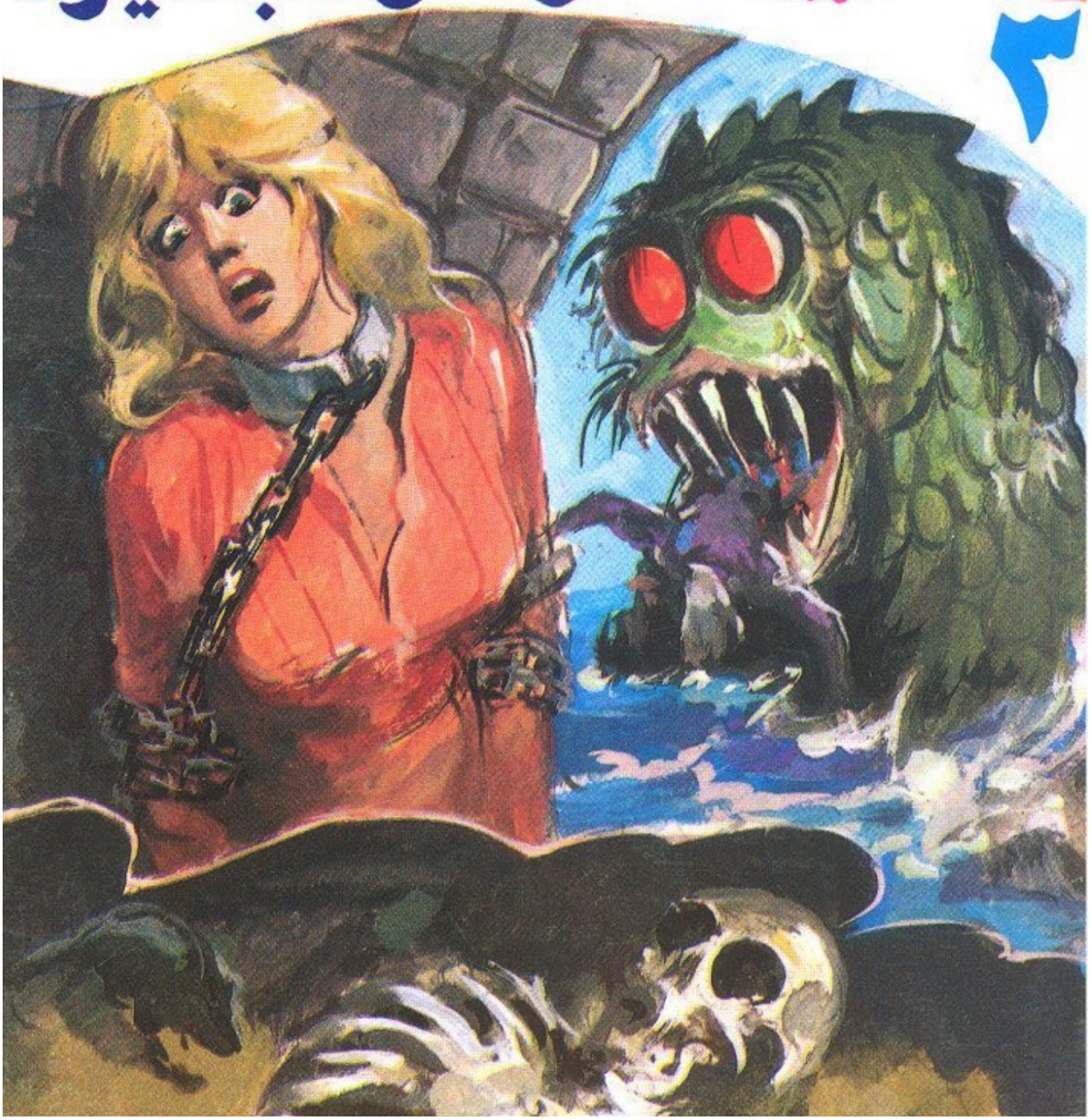
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

أسطورة وحش البحيرة

ماوراء الطبيعة

٣



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

٣

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة وحش البحيرة

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

٣

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

•

أسطورة وحش البحيرة

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة..

اسمي هو الدكتور (رفعت إسماعيل).. مهنتي - قبل تقاعدي - هي أستاذ أمراض الدم بعدة جامعات في أوربا وأمريكا، إلا أن هوايتي الأساسية هي صيد الأشباح..

مختارًا أو مجبرًا وجدت نفسي ضيفًا غير مرغوب فيه في عشرات المقابر والقصور والبيوت المسكونة..، وكان مضيفي إما مذءوبين او اشباحًا، أو مصاصي دماء تلتمع أنيابهم الحادة في الظلام..!

يالها من حياة حافلة تلك التي عشتها..!

ترى ما الذي سأحكيه لكم اليوم؟!.. هل أحكي لكم صفقة الأرواح التي أبرمتها مع د. (لوسيفر) (الاسم اللاتيني للشيطان)؟ أم أحكي لكم مواجهتي للزومبي الخارج من قبره؟ أم أحكي لكم تجربة الدكتور (فرانكنشتاين)؟!.. أم أحكي لكم مواجهتي مع لعنة الفرعون (أخيروم الأول)؟!.. لا أدري..

إلى الذين فاتتهم قصصي السابقة أقول إنه قد فاتتهم لحظات مثيرة من التشويق والترقب، وإني لأنصحهم أن يجدوها ويقرءوها، أما الذين طالعوا ما سبق فلهم أقول إنني لم أنته بعد..!.. لم تزل ذاكرتي قوية عامرة بالأحداث المروعة التي واجهتها في عمري المديد..

والآن أعتقد أنني سأحكي لكم قصتي مع وحش بحيرة (لوخ نس) الغامض.. وقد وقعت أحداثها - إن لم تخني الذاكرة - في أواخر عام ١٩٦٤.. نعم..!.. هو كذلك..

والآن أضيئوا الأنوار وأغلقوا الأبواب.. واقلبوا الصفحة..!

سأحكي مغامرتي مع وحش البحيرة.. فلا تقاطعوني..

* * *

١ - ذكريات..

نحن الآن في منتصف الليل..

المكان: بجوار قلعة (إيركهارت).. في قارب وسط البحيرة.. والضباب البارد يغفو في خمول فوق صفحة الماء الساكنة، حتى لا يكاد يرى بعضنا وجوه البعض.. القارب يتأرجح..

الزمان: أواخر شهر يوليو من عام ١٩٦٤

الحدث: لقد قرر السير (جيمس ماكيلوب) أن يثبت نظريته..

في صمت ينظر إلى ساعته بعقاربها المضيئة، ثم ينظر إلي - أو هكذا يخيل لي - وإلى (ماجي) وإلى (إيوان)، ثم يقول وهو يضغط على كل مقطع من حروف كلماته:

- لقد حان الوقت..!.. تذكروا يا سادة.. لم يزل هنالك وقت للتراجع..، أريد أن أسمع موافقتكم مرة أخرى..

ثم إنه التفت لـ (ماجي)، متسائلًا:

- (ماجي)؟!..

أصدرت (ماجي) همهمة مبهمة بمعني استمر.. ووضعت القلادة حول جيدها..

- د. (إسماعيل)؟..

كنت أعرف أن أبواب الجحيم ستفتح بعد دقائق.. وأن الله وحده يعلم ما ستطلع عليه شمس الغد.. لكني كنت مسيرًا في طريق لا أعلم إلام يقودني، وقد اكتفيت بهز رأسي مشجعًا له..

- (فريزر)؟!

- أرجوك أن تستمر.

سعل السير (جيمس) في تؤدة، ثم قال وهو يمد يده إلى جيبه

- إذن فليكن ما يكون. وأخرج البوق العاجي من جيبه.. ونفخ فيه..

* * *

ثمة قول قديم يقول إن كل كهف تحت بحيرات (اسكتلندا) يحوي وحشًا خرافيًا مرعبًا1، ولم أكن أعرف هذه المقولة في ذلك الوقت من عام ١٩٦٤، وهذا هو قدري.. بعد كل قصة من قصصي أكتشف أي أحمق كنته بالأمس، بل وأي ساذج كنت منذ لحظات.. وأحسب أني وصلت ذروة الحكمة.. ثم أكتشف - في مغامرتي التالية - أن هناك ذروة أخرى لم أعرف عنها شيئا على الإطلاق..

ولكن.. كيف لم أفهم وقتها، أنني حيث أذهب فهناك وحوش وشياطين.. ومادامت هنالك وحوش وشياطين، فإني - لابد - ملاقيها..؟!، هذا هو قدري الذي لا ذنب لي فيه ولا فضل..

لكني - للمرة الألف - أعترف أني كنت ساذجًا..

* * *

لم تكن تلك المرة الأولى التي أزور فيها (اسكتلندا)...ولم تكن تلك المرة الأولى التي أدخل فيها جامعة (داندي)..

فقد سبق لي أن جئت إلى هذا البلد في فترة البعثة التي حصلت فيها على درجة الدكتوراه.. ولى فيه أصدقاء حميمون بالفعل..

إن الاسكتلنديين إنجليز حقًا، لكنهم يختلفون كثيرًا عن الإنجليزي الذي نعرفه، فهم قوم شديدو اللطف والمودة، خالون من البرود والتعالي وثقل الظل، كما أنهم ليسوا ملتهبي المزاج كالايرلنديين..

في جامعة (داندي) كانت لي حكايات طويلة باسمة، وذكريات حفرت في أعماقي إلى الأبد..

واليوم - بعد عشر سنوات تقريبًا - أعود إلى أصدقاء الماضي الأعزاء.. (ماكنزي) و(مكارثر) و(مكديفيد).

و (..!...، لا ادري لماذا تبدا كل القاب الاسكتلنديين ب (ماك) ولماذا يدعي أكثر من نصف رجالهم باسم (أندرو)؟!.. ذكروني أن أسأل عن ذلك لو اتسع الوقت..!

المهم أنني قابلت أستاذي العظيم.. السير (جيمس ماكيلوب)، وكنت منبهرًا به إلى حد الجنون..، شعره الأشيب.. وسوالفه العجيبة.. وحاجبيه الكثين.. لطالما كان يشعرني أنه أحد عمالقة الطب الذين نراهم في المراجع الكبيرة، ويسبق اسمهم - دائمًا - لقب (سير)..، ثم بساطته الودود، وإيماءاته الأنيقة المليئة بالكبرياء، وتفكيره الممنطق.. كل هذا كان يجعلني أهيم به كمراهقة تهيم بأستاذها الوسيم...

صافحني في حرارة.. وسرني أنه يذكرني بعد كل هذه الأعوام.

- دكتور (إسماعيل).. أليس كذلك؟!

ارتعشت زاوية في اليسرى وأنا أهمس بكياسة:

- نعم.. (رفعت).. (رفعت إسماعيل)..

- تلميذي الفاشل!

ابتسمت في حرج لمجاملته، ولم أعرف كيف أرد!.. في حين استرسل:

- هأنت ذا قد عدت لمصر، وافتتحت عيادة خاصة تمتص فيها دماء الفلاحين البؤساء من أهل بلدك.. ونسيت كل شيء عن البحث العلمي.. لا تنكر ذلك؟

صحت في ذعر مقسمًا أن هذا لم يحدث، وأنني لم أمتلك حتى هذه اللحظة سوى شقتي بالقاهرة، وأنني لم أتغير أبدًا..

- إذن لماذا كففت عن حضور مؤتمرات لندن!!

هل أخبره بالسبب الذي قد يكون سخيفًا في رأيه؟!.. للحظة لم أدر كيف أشرح له، إلا أنه باغتني بسؤال أكثر دقة وإحراجًا:

- هل هناك أخبار عن زميلنا د. (رتشارد كامنجز)؟!

ابتسمت في حرج، وقلت متظاهرة بالبراءة:

- لم أره منذ مؤتمر أمراض الدم في عام ١٩٥٩..

- هذا هو بيت القصيد..

قالها في تشكك، وهو ينظر في عيني تلك النظرة الثابتة، التي كان يمزق بها كل أكاذيبي وادعاءاتي في الماضي، وأردف:

- إنه دعاك لبيته الريفي أيامها.. ثم.. لا شيء..، لا خبر عنه على الإطلاق سوى أنه سافر لأستراليا..، استقال من عمله، وانقطعت كل مراسلاته، ولم يترك حتى عنوانه لنتصل به.. فهل تعرف ما حدث وقتها؟!

لقد كنت أقربنا إليه وآخر من راه..

من الواضح أنني سأضطر إلى حكاية قصة مومياء الكونت (دراكيولا)، وتحول (كاترين) إلى مصاصة دماء - أو ما حاولت أن تقنعني به - وهربي في الظلام، وكل ما هو كفيل بأن يجلب علي سخرية هذا الأستاذ العظيم، أو شكوكه في سلامة عقلي، الواقع أنني دفنت هذه الذكرى المريرة في أعماق ذاكرتي، وأهلت فوقها أطنانًا من غبار المشاكل اليومية.. لا أريد لها أن تعود مرة أخرى لتنغص حياتي..

قلت للسير (جيمس) في غموض:

- إنها قصة طويلة..

- إذن ستحكيها لي الليلة..

- هنا؟

- كلا.. إنني أدعوك إلى قصري في (إنفرنسشاير) كي تقضي نهاية الأسبوع، وهناك سنمضي ليلة رائعة تحكي لي فيها كل شيء..! إن برنامجًا حافلًا ينتظرك.

حاولت التملص منه لأنني - بصراحة - لم أعد أستريح كثيرًا إلى دعوات هؤلاء الأساتذة الإنجليز لي في بيوتهم... لقد كان (البرنامج الحافل) الذي أعده لي د.(رتشارد كامنجز)، هو المبيت بجوار مومياء (دراكيولا) مع مصاصة دماء مراهقة. فأي (برنامج حافل) أعده لي هذا السيد؟!

لكنه كان قاطعًا في دعوته، ولم أكن أنا أملك أحشائي - كما يقول الإنجليز كناية عن الجرأة - كي أرفض هذه الدعوة.

- إن قصري على مسافة خطوات من (لوخ نس)...

قالها وهو يغمز بعينه، معتقدًا أنني أعرف مغزى هذا الاسم الذي قاله..

ولم أكن أعرف أي مغزى له، ولم يلفت نظري سوى حرف (الخاء) الذي نطقه في قوة وثقة، (والاسكتلنديون يستعملون حرف الخاء في كلامهم بكثرة، مما يعطي الأذن إحساسًا غريبًا)..، لهذا رددت وراءه:

- (لوخ نس)؟!..

- أعنى بحيرة (نس).. أنت تعرف أن كل بحيرات (اسكتلندا) يبدأ اسمها بكلمة (لوخ) ما عدا بحيرة (منتيث)..، كلمة (لوخ) تعنى بحيرة..

- فهمت!.. إنني لا أعرف الكثير عن (اسكتلندا) في الواقع..

قال وهو يتنهد:

- هذه هي مشكلتك..، لقد أمضيت هنا سنتين تدرس، فلم تحاول - مجرد محاولة - أن تعرف شيئًا عن البلد الذي تدرس فيه..، ألم يحن الوقت لذلك..؟

- بلى.. ولكني..

- كفاك أعذارًا..!، عليك أن ترتب أمورك، وسنلتقي هنا في تمام الخامسة..، وتذكر..

ثم نظر إلى نظرة ذات معني:

- (ماجي) ستكون هناك!

* * *

٢ - إنفرنسشاير..

(ماجي) ستكون هناك!.. الألغام تنفجر واحدًا تلو الآخر في بحر ذكرياتي..

(ماجي) الهشة الرقيقة، التي كانت تستطيع أن تسير فوق العشب دون أن تثني منه عودًا واحدًا!...، العينان الزرقاوان الصريحتان البريئتان، إلى حد إشعارك بأنك شيطان!.. والشعر الذهبي الثائر..

الأيدي المتعانقة في شوارع أدنبرة.. والأحلام الشابة.. ومحاولاتي الخرقاء كي أبدو لها رجلًا محنكًا و(جنتلمان)، ومحاولاتها الساذجة كي تبدو لي أنثى غامضة تفهم الحياة..، ثم نلقي قناعينا ونضحك كالأطفال..

كانت (ماجي) هي ابنة السير جيمس الوحيدة، وكانت تدرس الفيزياء في جامعة (داندي) حين التقينا، وبشكل ما أدركت أن أباها لا يمانع في علاقتنا إن لم يكن يشجعها..

وتمر الأيام وتصل عواطفنا إلى الذروة التي ليس بعدها سوى الهبوط!..

انتهى موعد البعثة.. فقالت لي في حنان:

- ابق هنا يا (رفعت).. ابق معنا.. إن أبي سيجد لك وظيفة محترمة في مستشفاه.. وسنكون سعداء..

قلت لها في رقة:

- تعالي معي يا (ماجي).. إلى مصر.. إلى بلدي المشمس الدافئ، وقومي الطيبين.. سنكون سعداء..

- أنا لا أستطيع أن أترك دراستي وبلدي..

- وأنا لا أستطيع أن أخذل بلدي التي أرسلتني في هذه البعثة.. ولن أترك أمي وأختي..

وكانت مناقشات عقيمة طويلة، توصلنا بعدها الاتفاق هام، هو ألا نتفق أبدًا..!.. وانفصلنا.. ولمدة عامين ظللنا نتراسل، ثم.. أنت تعرف كيف تحدث هذه الأمور..، لم أعد أذكر من الذي توقف عن الكتابة أولًا، لكننا توقفنا عن الكتابة بالفعل.. لم يعد في نفسي لها إلا أثر خافت، كبقايا قبلة طفل رطبة على خدك.. سرعان ما تجف لكنها تترك أثرًا منعشًا في روحك لفترة ما..

(ماجي) ستكون هناك..!

وهناك - في غرفة المائدة الفاخرة - قابلتها بعد كل هذه الأعوام..

- د.(رفعت) على ما اعتقد!

قالتها على سبيل الدعابة وهي تصافحني بتلك اليد الباردة البلورية، التي كنت أخشى أن أهشمها يومًا..، انحنيت في تكلف وغمغمت:

- مس (ماكيلوب)..

لقد تغيرت كثيرًا.. إنها اليوم - وهي على مشارف الأربعين - أبعد ما تكون عن تلك المخلوقة الهشة التي همت بها.. لقد صارت امرأة.. ولكم أثار هذا خيبة أملي.. لكني كنت على استعداد لأن أستعيد كل حب شعرت به نحوها، لو أنها برهنت لي أن روحها لم تتغير..، بالطبع هي لم تتزوج بعد، ما دامت لم تعترض على مناداتي لها بمس (مآكيلوب)..

- أخشى أنك قد ازددت وسامة..!
- وأخشى أنك ازددت سحرًا..!

جلست بجانبي على المائدة، في حين جلس السير (جيمس) في صدر المائدة، وإلى يمينه سيدة حسناء في منتصف العمر، قدمها لنا على أنها مسز (إليزابث جولد)، أرملة الكوماندور المرحوم (ر. ت. جولد)..، وعلى يساره امرأة حادة النظرات أخبرني أن اسمها (كونستانس هوايت)، وكان بجوارها زوجها.. وهو عجوز أصلع أخذ يرمقني في شك..

كانت مأدبة فاخرة ومنشاة جدًا، مما جعل ابتلاع أية لقمة مجهودًا لا يستهان به، وكانت (ماجي) ودودًا إلى حد مرعب، وتثرثر طيلة الوقت، لكني كنت غارقًا في مشاكلي الخاصة، مع آداب المائدة كي لا أبدو لهؤلاء السادة المتحذلقين فظًا ومتوحشًا.. لهذا كنت أرد عليها بإيماءات متكلفة معناها أن كلامها مسل جدًا..

وأخيرًا انتهى العشاء..

اقتادنا رئيس الخدم في كبرياء، عبر دهليز طويل تحف به الصور الزيتية القديمة، ودروع الفرسان الواقفة ممسكة برماحها، وعلى الجدار سجادة أثرية، مرسوم عليها لقطات من تاريخ اسكتلندا..

ذلك الجو الذي لا تستطيع أن تصدق أنه موجود بالفعل، وأنك حقًا هنالك.. لكنه يثير الخيال تمامًا..



اقتادنا رئيس الخدم فى كبرياء ، عبر دهليز طويل تحف به الصور الزيتيه
القديمة ، ودروع الفرسان الواقفة ممسكة برماحها ..

انحنيت بجوار أذن رئيس الخدم، وهمست له بما معناه:
- وحياة والدك قل لي:
- سيدي..!
قالها من الأعماق وبلهجة راقية جدًا، وبكبرياء كأنه قد أهين..
واصلت سؤالي:
- هل أنت واثق أنه لا يوجد أشباح في هذا القصر؟!
- سيدي..؟!
- أعني.. هل هذا القصر غير مسكون بشبح اللورد فلان، أو الكونتيسة فلانة، وأنهم يخرجون - على سبيل المثال - عندما تدق الساعة معلنة منتصف الليل؟؟
نظر إلى في حيرة ليتأكد ما إذا كنت معتوهًا.. ثم إنه شرع يضحك في افتعال:
- آها!.. إن السيد يمزح!.. لم أكن أعرف أن السيد يجيد الدعابة ويحبها.. هئ هئ..!
ثم إنه أشار إلى حجرة الجلوس، وهتف بطريقته المتعالية المتحفظة:
- والآن فليتفضل السادة بالجلوس ها هنا، في حين تتناولون القهوة..
إن سيدي سيلحق بكم حالًا..!

* * *

كان الجو مرحًا باسمًا في غرفة الجلوس، خاصة ونسائم الصيف العذبة تداعب أحلامنا..، وحين لحق بنا السير (جيمس) بدأت محاورات مسلية حول أشياء كثيرة لا أذكرها..
ثم إنه سألني عن د. (رتشارد)، فشرعت أحكي له قصتي إياها.. أجدت الوصف وتصوير الجو، مما جعل عيون الجالسين كلها تتسع رعبًا، وهي تصغي لقصتي، وحين انتقلت إلى قصتي مع المذءوب في رومانيا، ساد الصمت الغرفة وبدا أنني قد غزوت عقولهم تمامًا، مما جعلني ألتهب فخرًا بنفسي..، ثم إنني حكيت لهم قصة النداهة.. وكانت دهشتهم واستثارتهم قد بلغت الذروة، مما جعلهم يطلقون صرخات انبهار ورعب، كلما تطورت أحداث قصتي..
لقد ملكت ناصية الحديث وانتصرت على رعبي الاجتماعي السابق، والذي كاد يفسد أمسيتي كلها..
اقتربت مني مسز (جولد) وقالت وهي تضغط على حروفها:
- لقد قابلت أخطارًا كثيرة يا د. (إسماعيل)، وإنك لرجل رائع بالفعل..
قالت (ماجي) في شيء من الغيظ:
- أو مؤلف رائع!
نظرت إليها في دهشة.. إنها تغار!.. حقًا تغار..!.. إذن لم أزل أنا هناك أحيا.. في قلبها..، إن اتهامها لي بالادعاء قد أثلج فؤادي كثيرًا..
حدقت في عينيها الزرقاوين بثبات.. وهمست:
- وا عزيزتي.. أنت لم تتغيري!
- ماذا تعني؟!..

- أعني أن كل رقتك تذوب وتتحول لشراسة النمور، بمجرد أن تشعري أن خطرًا يتهدد قلبك..
- أنت مغرور..!
- وأنت تحبينني..!
وهكذا.. لا أدري كيف تعانق كفانا. وكيف ذابت العشر سنوات في دقائق.. وكيف خرجنا للشرفة نرمق الليل الصافي.. حولنا مرتفعات اسكتلندا الشامخة، وأنسام الليل تهمس لنا أسرارها، وتحفر اسمينا فوق صفحة مياه البحيرة.. بحيرة (نس)...
ومن خلفنا. في غرفة الجلوس - كان الأخرون يثرثرون ويمزحون، وأدار أحدهم أسطوانة رقيقة على جهاز الفونوغراف..فانبعث صوت (تينو روسي) الرخيم، يتغنى بالإيطالية عن شيء ما لا أدري كنهه، لكن يتحدث - بالتأكيد. عن مشاعري.. ويصف خفقات قلبي في تلك اللحظة، كما لم أستطع أبدًا أن أصفها..
- (ماجي).. أنا لا أعرف شيئا عن حياتي بدونك..، مجرد هراء طويل مرهق.. إنني إلى عينيك أنتمي..
- إذن ستبقى معي للأبد..؟!..
- للأبد..!!
الاخ (تينو روسي) لم يزل يصف ما احس به بكلمات لا أفهمها.. وعيناها الزرقاوان تدمعان.. وهناك في ظلام الليل بدت لي ملامحها أكثر رقة.. وجهها القديم الرقيق يبعث من قبره.. و..
وهنا ارتجفت وتصلبت ملامحها.. ورأيتها تنظر إلى بعيد.. تجاه مياه البحيرة..
- (ماجي)..؟.. هل ثمة شيء؟
أشارت إلى اتجاه نظرها.. وهتفت:
- قل لي.. هل ترى شيئًا ما يتحرك فوق سطح البحيرة؟ أم أن عيني تخدعانني..؟
نظرت باتجاه إصبعها إلى مياه البحيرة الملتمعة في ضوء النجوم، والتي تحركها الأنسام..، لا شيء هنالك.. ولكن.. بالفعل.. هناك شيء أسود غريب - كصخرة ملساء - يتحرك في تؤدة فوق الماء.. أحيانًا يعلو، وأحيانًا يهبط، لكنه يحافظ على اتجاهه المنتظم تجاه ضفة البحيرة..
قلت وأنا أضيق عيني محاولًا أن أرى أكثر:
- إنها قطعة خشب طافية..
قالت وهي تبتلع ريقها بصوت مسموع:
- كلا.. أنت لا تفهم..
ثم إنها انفلتت من ذراعي - وسط عدم فهمي للأمر كله. ووقفت على باب الشرفة تنادي أباها من الداخل..
- دادي..!.. إنه (نيسي)!..
(نيسي)؟.. عم تتحدث هذه الفتاة؟.. وما ذنبي في هذه اللحظة الفارة من مصيدة الزمن، كي يخرج لي هذا الأخ (نيسي) أيًا ما كان كنهه؟
خرج السير (جيمس) كالملسوع من الغرفة، وقد تدلى سيجار غليظ من شفتيه.. وهتف من بين أسنانه:
- كلا.. ليس في هذا الوقت!.. مستحيل!
صاحت (ماجي) في ثقة:

- تعال وانظر بنفسك!
نظر السير (جيمس) إلى البحيرة للحظة، ثم تمتم:
- ولكن.. بحق السماء هذا صحيح!.. قولي لـ(جراهام) أن يحضر الكاميرا وعدسة الزووم..
قالت مسز (هوايت)، وكانت قد دخلت الشرفة مع الآخرين:
- لا جدوى.. لن يستطيع الفلاش أن يضيء كل هذه المسافة..
وافقها سير (جيمس) في ضيق.. ثم عاد يرمق المشهد..
كنت أنا واقفا كالأبله لا أفهم أي شيء على الإطلاق.. لهذا تنحنحت وسألت في كياسة:
- ما هو (نيسي)؟!
نظر إلى سير (جيمس) لوهلة فظننت أنه سيرد علي.. لكنه كان شارد الذهن، فلم يعبأ بسؤالي، إنما التفت إلى مسز (جولد) وسألها:
- هل تظنين أنهم رأوه في (إيركهارت)..؟
- لا أعتقد..
هرش رأسه في حيرة.. ثم غمغم:
- ولكن اليوم هو السابع عشر من يوليو.. ثمة خطأ ما في حساباتي..
- ما هو (نيسي)؟
نظرت إلى (ماجي) في ضيق.. وعادت تتبادل حديثًا هامسًا مع مسز هوايت.
- (ماجي).. ما هو (نيسي)؟...
قالت وهي تنظر إلى بعيد، وقد انعكس بريق النجوم على مقلتيها:
- إنه اسم التدليل الذي نطلقه في اسكتلندا على وحش (لوخ نس)!!

* * *

٣ - أسطورة وحش البحيرة..

- إن الخسوف القمري قد أدّى لحجب البدر هذه الليلة.. هذا هو التفسير..
كنا جالسين في قاعة الجلوس، ودخان التبغ يملأ المكان، في حين شرعت النساء يلعبن لعبة الكونكان..، وكان المشهد الذي عشته منذ ساعة قد هزني كثيرًا..، صحيح أنه لم يكن واضحًا، لكنه كان مؤكدًا ولا يدع مجالًا للشك..
- نعم هو الخسوف.. لا شك في ذلك..
قالها سير (جيمس) وهو يهرش رأسه..
سألته في اهتمام:
- هل (لوح نس) هي أكبر بحيرات اسكتلندا؟
- كلا.. بل أكبرها هي بحيرة (لوموند)..
- وما حكاية هذا الوحش؟!..
في غموض ضيّق السير (جيمس) عينيه ونفث دخان سيجاره.. قائلًا:
- إنها قصة طويلة..
ثم إنه نفض رماد السيجار في منفضة زجاجية بجواره، وقال:
- إن أفضل من يحدثك عن هذه القصة، هو المسز (هوايت).. (كونستانس).... هلا حدثت د. (إسماعيل) عن قصة الوحش
قال الرجل العجوز الذي نسيت وجوده تمامًا:
- إن زوجتي خبيرة بالموضوع.. وقد قامت بتأليف كتاب كامل عنه2...
استدارت (كونستانس) من فوق كتفها وهي منهمكة في اللعب، وقالت دون أن تنظر إلي:
- لا يوجد الكثير مما يقال..
لقد بدأت القصة عام ١٩٣٣ حين خرج (جون ماكي) صاحب فندق (رمنادروشيت) مع زوجته للنزهة عند البحيرة.. وهنا رأيا ما رأيناه نحن تقريبًا..
جسمًا أسطوانيًا مقوسًا داكن اللون، ينزلق فوق مياه البحيرة..، وبالطبع فإن كون اثنين رأياه، يدل على أنه ليس وهمًا..
لهذا شاع الخبر.. واطلقوا على الوحش اسم (وحش لوخ نس)..
قلت في شك:
- لكنهما قد يكونان اتفقا على قصة ملفقة بغية الشهرة، أو ترويج حال الفندق الذي يملكانه...
واصلت (كونستانس) القصة دون تعليق:
- في ١١ مايو من نفس العام، كان (الكسندر ريبو) وولده (أليستير) يسيران بجوار البحيرة، فوجدا نفس (الشيء) يسبح تجاه خليج (إيركهارت) في حركة لولبية غير عادية.. و.. لقد أنهيت أوراقي..
وألقت بأوراقها على المائدة، معلنة انتصارها على (ماجي) ومسز (جولد)..
- إن لعبكما لعب مبتدئين يا صديقتاي..!

صاحت (ماجي) في احتجاج تطالب باللعب دورًا أخر، من ثم شرعت مسز (جولد) (تفنط) الأوراق..

قالت (كونستانس) مواصلة قصتها، وهي تأخذ أوراقها:

- بعد ذلك استطاع (ويليام برودي) وهو في قاربه الأرو، أن يشاهد ذلك المخلوق على بعد ميلين من قلعة (إيركهارت)..

قلت في تساؤل:

- دائمًا قلعة (إيركهارت) هذه؟!

- نعم.. في كل مرة يشاهد هذا الشيء في مسافة ما بين قلعة (إيركهارت) و(أوجستس)...

- هل هناك مرات أخرى؟

- نعم.. لقد شوهد حوالي ثلاثمائة مرة..!

صفرت بفمي معبرًا عن الانبهار.. فابتسمت في رضا وقالت:

- دائمًا كان هناك الوصف ذاته.. جسم أسطواني طويل.. طوله يتراوح بين ٦-١٥ مترًا.. يسبح بسرعة ٢٠ عقدة.. وطريقة سباحته هي إما الحركة اللولبية وإما التثني المستمر..

هناك من قالوا إن له معرفة حصان لكني لا أثق كثيرًا بهذه الإضافة..، ولم يسمع له أحد صوتًا حتى الآن..

- وهل استطاعوا تصويره؟!

- مئات الصور.. لكنها جميعًا تمت في نفس الظروف التي رأيناه فيها هذه الليلة.. أي أنها جميعًا صور غير واضحة، ولا يمكن الاعتماد عليها بشكل علمي..

- وهل حاول العلماء دراسة هذا الموضوع..؟!



ـ مئات الصور .. لكنها جميعًا تمت فى نفس الظروف التى رآيناه فيها هذه الليلة .. أى أنها جميعًا صور غير واضحة ..

قالت وهي ترتب ورقها:
- أكثر من مرة.. أكثرها جدية هي محاولة العالم (وذرل) الذي جاء من (جلاسجو) ومعه فريق كامل من الكشافة، أمضوا أيامًا عديدة في انتظار ظهور هذا الكائن.. لكنهم لم يوفقوا...
بل إن سيرك (برايتون) أعلن عن جائزة مادية هائلة لمن يأسر هذا الوحش.. لكن بالطبع لابد لك قبل أن تأسر الوحش أن تجده.. ولهذا لم يفز أحد بالجائزة..
ثم كانت محاولات ضابط البحرية الكوماندور (ر. ت جولد) رحمه الله. وهي محاولات موفقة إلى حد ما..
- (ر. ت. جولد)؟.. إذن مسز (جولد)..؟
- نعم.. هي أرملته..
- ولكن.. يا لها من مصادفة!
ابتسمت مسز (جولد) في مرارة ورفعت وجهها نحوي:
- ليست مصادفة.. إن وحش (نس) هو الذي جمعنا جميعًا ها هنا، لأننا – جميعًا - من المهتمين بهذه القصة.
قال السير (جيمس) في مودة:
- إننا مجموعة من الأصدقاء نبحث عن الحقيقة، وإننا لابد واجدوها.. إن زوج مسز (هوايت) هو مدير قناة (كاليدونيا) التي تحرس البحيرة ومسز (هوايت) نفسها صاحبة أهم كتاب عن الوحش..
أما مسز (جولد) فهي أرملة مؤلف ثاني أهم كتاب عن هذا المخلوق، ثم (ماجي) وأنا بحكم جيرتنا لمسرح الأحداث، وكوننا رأيناه مرارًا.. بل إنني كدت أدهمه بسيارتي!.
- سيارتك؟.. هل هو..؟
- نعم.. إنه يترك البحيرة كثيرًا كي يتسكع هنا وهناك.. وقد رآه كثيرون يفعل هذا...
ابتسمت في سخرية، وشرعت أقهقه بصوت خفيض.. فقال سير (جيمس) في حنق:
- ما الذي يضحكك؟.. إن كل ما قلناه حقائق علمية...
استدركت معتذرًا بأنني لا أسخر من كلامهم، لكنى أسخر من حظي العجيب، الذي يقذفني دائمًا في كل مكان يجوبه شبح، أو يغفو به مصاص دماء، أو ينتظر فيه وحش!..
هنا قال (برترام هوايت) في لهجة موضوعية:
- إن كون الوحش موجودًا من عدمه، لم يزل يحتمل الكثير من الجدل.. لقد رأى كل هؤلاء (شيئًا ما)، لكنهم لم يروا وحشًا كامل النضج ينفث النار من فمه، وبمعنى آخر إن هناك شيئًا ما يشاهده الناس بكثرة في هذه البحيرة، لكننا لانعرف ما هو..
إن زوجتي قد درست الاحتمالات الأخرى كلها..
قالت مسز (كونستانس) في نفاد صبر، بما يوحي أنها حكت هذه القصة مرارًا:
- لقد فكر العلماء في كل شيء.. قالوا إن هذا الشيء سرب من الإوز البري.. وقالوا إنه حشد من سمك السلامون.. أو دلافين مشاغبة، أو أخطبوط عملاق..
قالت (ماجي):

- إلا أن أقوى الاحتمالات هو السمك الجداف.. وهو نوع من السمك يعيش هنا.. اسمه العلمي هو.... هو.... ريجـ....

قالت مسز (جولد):

- (ريجاليكاس جليسني)...

- نعم.. كما قالت بالضبط..، هذا السمك له معرفة حصان وطول السمكة مرعب.. وعمرها عشرون عامًا.. إنها تناسبنا تمامًا..

- إلا أن شيئًا من كل ما قيل لن يظهر في الصور بالشكل الذي رأيناه...

قلت في شرود:

- لكني لا أفهم.. إن هذا.. هذا الشيء.. غير مؤذ بالطبع.. أعني أنه لا يفعل أكثر من الظهور ليلًا وإثارة التساؤلات..

قال سير (جيمس):

- هو كذلك..

ثم نظر إلي نظرة ذات معنى.. وغمغم:

-.. حتى شهر مضى..!

* * *

٤ - مرة أخرى..!

في الصباح سرت أنا و(ماجي) على شاطئ (لوخ نس) متشابكي الأكف..
تقع (إنفرنسشاير) في شمال (اسكتلندا) وسط مجموعة من المرتفعات اسمها مرتفعات (جرامبيان)، وتوجد في إنفرنسشاير أعلى نقطة في بريطانيا كلها.. واسمها (بن نيفس)..
ومن نقطة (بن نيفس) يمكنك أن ترى الوديان كلها نائمة عند قدميك، وترى بحيرة (نس) بوضوح شديد، إن بحيرة (نس) هي أقرب لأخدود ما بين مرتفعات (جرامبيان) والمرتفعات الشمالية، هذا الجزء الأخدودي يدعى (جلينمور)...
وتعتبر بحيرة (نس) - هكذا أخبرتني (ماجي) - أضيق بحيرات اسكتلندا، حيث لا تزيد في بعض أجزائها على كيلومتر ونصف اتساعًا.. عمقها ٢٦٦ مترًا.. مساحتها ٥٦ كيلومترًا مربعًا.. طولها ٨٣.٤ كيلومتر...
لا أدري ما هي جدوى هذه الأرقام لكنني أسجلها للدقة الجغرافية فحسب.. ولكي أثبت ل (ماجي) العزيزة أنني لم أكن تلميذًا معتوهًا إلى هذا الحد..!
قلت لها معابثًا:
- (ماجي).. لم أر حتى اللحظة رجلًا اسكتلنديًا يرتدي التنورة!
ضحكت في سخرية، وقالت:
- إن هذا هو ولعكم بالأنماط.. إنها زي شعبي نرتديه أحيانًا، وليس طيلة الوقت.. نفس السبب الذي يجعلني لا أراك بالجلباب والطربوش، برغم أننا لا نتخيل المصري إلا هكذا..
- إن صورة الاسكتلندي في ذهننا، هي صورة رجل يرتدي البيرية والتنورة، ويعزف موسيقا القرب، ويشرب الويسكي طيلة اليوم..
قالت في مرح:
- نعم.. كما نتخيل المكسيكي بقبعة عريضة، وحزامي رصاص، وزجاجة (تاكيلا)، يطلق النار طيلة اليوم، والأمريكي راعي بقر أبدي..، والألماني بشوارب كثة و(سالوبيت) وشوب بيرة.. إن السينما والقصص المصورة قد أفسدت تفكيرك، وجعلتك تميل إلى التنميط..!
- هذا صحيح.. لكن التنورة..
- على فكرة.. اسمها ليس تنورة، ولكن (كلتيه)..، كما ان الإسكتلنديين ليسوا بخلاء كما يحبون أن يصفوهم في القارة..
- هذا ما لم أخبره بعد..!
ضحكت في دلال.. ثم أخذت تنظر لوجهي في ثبات.. آه يا ملاكي!.. ليت لي وجهًا أجمل من هذا كي أريه لك..!.. في ضوء النار تبينت - بوضوح - ما اقترفته السنون من جرائم في حق هذا الوجه... وجهها..، لم تعد نضرة.. ولم تعد صافية.. لقد صارت واحدة أخرى.. لكنها ظلت رائعة برغم كل شيء.. ولم أكن في حاجة إلى كثير جهد، كي أقع في غرامها من جديد.. سيكون هذا هو الحب الثاني في حياتي..، أولا أحببت فتاة رقيقة هشة اسمها (ماجي).. ثم الآن سأحب امرأة ناضجة منهكة أسمها - أيضًا - (ماجي).. ولن تتهمني إحداهما بأنني أخونها مع الأخرى..!

قالت في شرود وهي تتأملني:
- بحق السماء!.. أنت قد شخت حقًا!..
- آسف على كوني قد شخت، وأعدك ألا أكرر هذا الخطأ!!..
أخذت تضحك.. ثم قربت وجهها من وجهي.. وهمست:
- للأبد..؟!
- ماذا..؟
- ستبقى معي للأبد..؟
- وحتى تحترق النجوم كلها.. ولن...
وهنا صرخت في هستيريا وهي تشير للبحيرة:
- هل تراه؟.. إن (نيسي) يتحرك هناك..!! اللعنة..!
إن هذا (الأخ) ينوي أن يحطم أعصابي..!.. وهو لا يختار إلا أسوأ اللحظات - أو أفضلها - كي يعلن عن وجوده، ويواصل رحلته البلهاء في هذه البحيرة..
هو ذا ذلك الجسم الأسطواني الرمادي يشق طريقه بين الأمواج من بعيد، ورذاذ الماء ينتشر حوله.. أقرب شيء لغواصة تتحرك تحت الماء، وقد علا الماء منها حوالي ثلاثين سنتيمترًا.. إلا أنه بدا أكثر ليونة ومرونة من المعدن.. لاشك أنه كائن حي.. سمكة عملاقة أو حوت أو شيء من هذا القبيل..
صاحت (ماجي) - وكنت قد بدأت أمقتها هي ووحشها - في ذهول:
- لم يحدث أبدًا أن رآه أحدنا في ضوء النهار..
ثم نظرت ناحيته في حسرة.. وتنهدت:
- لو كان معنا كاميرا..
قلت لها وأنا أمد يدي في حقيبة اليد التي أحملها:
- معي واحدة.. ولكن لا تقولي إنك تنوين إضاعة عدة لقطات على هذا الشيء الأبله...
صاحت حانقة وهي تنتزع مني الكاميرا وتضبط عدستها:
- هل كانت معك طيلة الوقت، ولم تهتم بإخباري..؟.. لو أنه غاص في الماء قبل أن أصوره لقتلتك!!
- لكني لا أفهم.. ستكون مجرد صورة أخرى لا تثبت شيئًا.. أمواج وجسم رمادي وسطها، ثم إن الفيلم أبيض وأسود، مما سيزيد الأمور سوءًا.. مجرد كثافات رمادية لا يبدو فيها أي شيء..
- شششش..!!
قالتها وهي تصوب عدستها نحو الهدف.. و.. كليك!.. كليك... كليك!.. عشرات اللقطات لما تعتقد أنه معجزة اليوم.. كليك!.. كليك!.. كراك!!.. انتهى الفيلم لحسن الحظ..، وهنا - قبل أن أفهم - تركتني واقفًا كالأبله، وشرعت تركض تجاه القصر، وهي تصيح ملوحة بالكاميرا:
- دادي!.. إنه (نيسي)... لقد صورته في النهار..
وقفت وحدي على شاطئ (لوخ نس) أرمق ذلك الشيء المتحرك عن بعد..



قالتها وهى تصوب عدستها نحو الهدف .. و .. كليك !.. كليك !.
كليك !.. عشرات اللقطات لما تعتقد أنه معجزة اليوم.

في غيظ رفعت قبضتي، وصحت بالعربية التي لم يفهمها لحسن الحظ أحد:
- الأيام بيننا يا ماسورة المجاري الصدئة..!
على أنني تذكرت ما رواه لي السير (جيمس) ليلة أمس، مما جعلني أفضل عدم تحدى هذا الكائن، بل أقرر أن أنهي جولتي لأعود للقصر..

* * *

كئيب جدًا هذا القصر الذي يملكه السير (جيمس).. وكل ركن فيه يذكرني بأشباح اسكتلندا العديدة، التي نراها في السينما...، ودروع الفرسان الواقفة في الردهة تبدو كأنها حية على وشك الحركة في أية لحظة.. وبالطبع لابد أن تحت هذا القصر شبكة كاملة من الممرات والمتاهات ومقبرة منسية، وربما كنزًا مدفونًا..!
ثم رئيس الخدم (جراهام) الوقور المتحذلق، الذي يثير وجوده في نفسي الرعب وجوًا من التشاؤم.. لو كانت هذه قصة لـ (أجاثا كريستي) لوجدوا السير (جيمس) مقتولًا في مكتبه، ولما وجد المخبر - (هركيول بوارو) طبعًا - متهمًا أفضل من رئيس الخدم الغامض هذا.. لكن هذه ليست قصة لـ (أجاثا كريستي) لحسن حظ السير (جيمس) أو لسوء حظي أنا..!
أخذ السير (جيمس) يسير بي بين الصور الزيتية، يعرفني أفراد عائلته العريقة - التي كان هو أخرها - بحكم النسب وبحكم الواقع - لأنه لم ينجب وريثًا ذكرًا..، وكان هو يعشق الطب؟ لذا اتجه لدراسته، وصار طبيبًا وأستاذًا لي ولغيري..
- إن عائلتي تعود إلى عهد (ماكبث) نفسه!
- (ماكبث)!!
ضحك في جذل.. وقال:
- لا أصدق أنك قد أمضيت سنتين في اسكتلندا دون أن تعرف أن (ماكبث) - بطل مسرحية شكسبير - كان اسكتلنديًا..
- لكنه شخصية خيالية..
- كلا.. الأساس التاريخي للمسرحية صحيح.. إلا أن (مكدوف) لم يقتله في الواقع، بل عاش حتى عام ١٠٥٥.. ومات ميتة طبيعية..، ثم تلاه (مالكولم) الثالث في عام ١٠٥٨..
ثم يتتالى تاريخ اسكتلندا المتشعب المعقد، وسلالة ملوكنا الذين حكمونا من قصر (هوليرود هاوس)..
ثم وضع يده على كتفي، وقادني لغرفة مكتبه وهو يقول:
- ولكن دعنا من هذا.. تعال لنرى صور (وحشك) التي التقطتها (ماجي).. لقد وصلت الآن..
وعلى مكتبه الأثري الفاخر، تناثرت صور فوتوغرافية، لما التقطته (ماجي) صباحًا..، وكانت - كما توقعت- في غاية الرداءة وعدم الوضوح..
وقد زادتها قطرات الماء المتطايرة فوق العدسة سوءًا..
- فاشلة تمامًا.. هه؟
سألني وهو يقدم لي سيجارًا، ويجلس خلف المكتب.. فقلت:

- لقد أنذرتها..
قال لي:
- لكن هناك شيئًا جديدًا يستحق الاهتمام، هو أن وحش (لوخ نس) قد غير من نظام ظهوره..
- نظام؟!.
ابتسم في مرح، وتساءل:
- بالطبع.. أليس وحشًا بريطانيًا..؟.. إنه منظم ودقيق جدًا.. وظهوره ليس عشوائيًا على الإطلاق..
ومد يده لدرج مكتبه، وأخرج لفافة ورق مقوى فردها على المكتب.. وكانت عليها نقاط حمراء وخضراء، ورسم دقيق لساحل اسكتلندا الشمالي، مع أسهم عدة..، وبدا يشرح لي - في تؤدة - أن هذا المخطط يحاول تحديد أماكن وتواريخ ظهور هذا الوحش، مع ربطها بالوضع الفلكي وحالة القمر والساعة والظواهر الطبيعية كالمد والجزر.. الخ..
وكان من الواضح أنه يتحرك في دائرة مركزها على بعد مائة متر من قلعة (إيركهارت)..، كما أنه من الواضح أيضًا أنه يختار ليالي المحاق -حين يغيب القمر - ويبدأ الجزر وينتصف الليل كي يظهر.. وقد رسم له السير (جيمس) - أو العبقري الذي لاحظ كل هذا - منحنى تفصيليًا يتنبأ بدقة أين وكيف سيظهر المرة القادمة..
- في أغسطس ٦٤ سيظهر في منتصف ليلة الحادي عشر هنا.
في سبتمبر ٦٤ سيظهر في منتصف ليلة اليوم السادس هنا..
صحت بانبهار:
- إنه عمل رائع..!.. إذن كل ما تحتاجونه هو أن تكونوا هناك في هذه اللحظة بكاميراتكم وكشافاتكم..
- لم نفعل هذا بعد، وسأقول لك السبب بعد قليل..
وناظرًا إلى الخريطة المعقدة أمامي تذكرت شيئًا:
- وأين يذهب بعد هذه الفترات؟.. أين عرينه؟!..
هرش السير (جيمس) رأسه في تؤدة.. وغمغم:
- هذا هو السؤال كما يقول هاملت.. ثمة احتمالان..
الاحتمال الأول هو أنه يعيش في كهف تحت البحيرة، وأنت تعرف المقولة الشهيرة إن كل كهف تحت البحر في اسكتلندا يحوي وحشًا خرافيًا..
الاحتمال الثاني هو أنه يعيش في بحر الشمال، وحين يعلو الفيضان في شهر يناير وفبراير، يتمكن من دخول (لوخ نس) عبر إحدى قنوات (كاليدونيا) السبع..
ولكن.. لكم من تساؤلات تحيط بهذا المخلوق!

* * *

٥ - صخرة التضحية..

قال سير (جيمس):

- كانت الصحافة تؤيد دائمًا الاحتمال الثاني، خاصة أن الوحش لا يظهر بتاتًا في السنوات التي لا يجيء فيها الفيضان..

إن بحر الشمال مليء بالأسرار.. وهو يحتمل وجود مئات الوحوش مثل وحشنا..

- وما رأيك أنت..؟

- أنا متعادل.. التجريب هو القياس الوحيد الذي أعرفه..

قلت في حماسة:

- لماذا لا تمدون شبكة - كالتي يضعونها حول الموانئ لمنع تسلل الغواصات المعادية. لتسد قنوات كاليدونيا هذه؟

قال ببرود:

- وعندئذ؟

- وعندئذ نعرف.. لو لم يعد الوحش للظهور في (لوخ نس) فمعنى ذلك أنه سجين في بحر الشمال الرهيب..

- لم تزل متسرعًا كعهدي بك!

قالها في عتاب.. ثم بدأ يشرح لي ما غاب عني:

- يحتاج هذا إلى شبكة طولها كيلومتران، وارتفاعها ٢٩٠ مترًا، كي تسد القناة.. فكيف نصنعها؟.. وكيف نعطل الملاحة؟

ثم هب أننا فعلنا ذلك.. فإننا لن نثبت شيئًا.. لو كان الوحش داخل البحيرة لحظة وضع الشبكة، سيظل يظهر كعادته دون أن نعرف شيئًا.. فكر في حل أخر..

شرعت كالمحموم أفكر.. لم أصل لشيء، فقلت له ما معناه أن حماري قد غلب، فقال وهو يعبث بالقلم:

- السونار3.. الموجات فوق الصوتية قادرة على مراقبة مداخل القناة دون أن تسدها... وتستطيع دراسة الأعماق دون جهد وبتكاليف لا تذكر..

لقد قام قسم فيزياء الصوت - تحت إشراف (ماجي) وموافقة (برترام هوايت) مدير القناة - بمراقبة القنوات السبع طيلة فترة الفيضان، بوساطة تقنية معقدة من الموجات فوق الصوتية.

- والنتيجة؟

- سلبية.. لم يمر من قناة كاليدونيا سوى أسماك، وبرغم هذا عاد (نيسي) يمارس عمله.. فماذا نستنتج من ذلك..؟

- أن الوحش كان هنالك دائمًا.. في القاع..

- هو كذا..

ثم أنه نهض وأخذ يتجول في الغرفة عاقدًا يديه خلف ظهره.. مهيبًا رائعًا كعهدي به..، بعد دقائق من الشرود قال لي:

- لقد لاحظت أن ظهور الوحش كان دائما حول محيط دائرة مركزها قرب قلعة (إيركهارت).. لقد حاول الكومندور (ر. ت. جولد) أن يحدد مركز هذه الدائرة بالضبط ووجد أنه صخرة ضخمة في وسط البحيرة..، وقد استكشفنا هذه الصخرة خفية، حاملين بعض المعاول.. فوجدنا عظامًا بشرية - كلها لأكف ومعاصم - ووجدنا صندوقًا من الخشب المتآكل، تفتت في أيدينا حين حاولنا إخراجه.. وداخل الصندوق كانت هناك قلادة غريبة الشكل، وبوق من العاج أو ربما من قرن ثور بري، ولفافة من الجلد..

تجمدت في مقعدي لأن القصة بدأت تأخذ مجرى شديد الإثارة بالفعل..

أنا أحب هذه الأشياء، وأعتقد أن أكثركم يشاركني الرأي..

استطرد سير (جيمس) في قصته:

- وها هي ذي اللفافة..

ومد يده، وأخرج من درج المكتب شيئًا متآكلًا قذرًا، عليه رسوم باهتة ساذجة.. زوارق.. وأشخاص.. وشيء كالثعبان يخرج من الماء.. و... لم أفهم شيئًا من هذا الهراء.. ولم أحاول أكثر.

قال سير (جيمس):

- أنت تعرف أن شمال اسكتلندا كان محتلا بقبائل الفايكنج والسلت في القرن الثاني عشر.. في عصر الملك (دافيد) بن (هنري) الأول و(ماتلدا)...

طبعًا لم أكن أعرف شيئًا من هذا، لكني هززت رأسي بما يعني أن هذه المعلومة قديمة جدًا ومكررة..

قال سير (جيمس) في رزانة:

إن لدينا ما يحملنا على الظن، أن هذا المخطوط خاص بقبائل الفايكنج.. وهو يرسم قصة مسلية جدًا.. سأشرحها لك ؛ لأننا قد قتلناها دراسة..

المشهد الأول يصور الآلهة غاضبة.. وأعتقد أنها هي (أودين) معبودة الفايكنج الوثنية..

المشهد الثاني يصور وحشًا كالثعبان له معرفة حصان يهاجم الناس من الماء.

المشهد الثالث يصور رجلًا ينفخ في البوق عند أحد الخلجان..

المشهد الرابع يصور فتاة مقيدة على الصخرة ونصفها السفلي متدل في الماء، في حين يتقدم الوحش ليفترسها.. وعلى صدرها قلادة معينة..

لاحظ أن القمر غير باد في الصورة..

والآن نستطيع أن نجمع أطراف القصة..

لقد اعتاد الفايكنج - أو السلت - تقديم القرابين لوحش (لوخ نس) كي يتركهم وشأنهم، لأنهم اعتقدوا أنه انتقام من معبودتهم الوثنية (أودين).. وكانت القرابين تقدم له عند هذه الصخرة، في صورة عذراوات شابات يقيدن بالسلاسل، ويلبسن قلادة الفداء..

ثم يقف كاهنهم عند خليج (ايركهارت)، وينفخ في البوق.. من ثم يتحرك الماء ويرتفع رأس الوحش خارجًا من كهفه.. لابد أن تأثير هذا كان دراميًا وإنني لا أحب أن أرى هذا المشهد أبدًا..

كان هذا يحدث بانتظام، بحسب التقويم الديني لهذه القبائل، الذي لا أعرف عنه شيئًا للأسف، لكننا نستطيع التنبؤ به..

وبمرور الوقت لم يعد هناك فايكنج ولا سلت.. فماذا يفعل هذا الوحش المسكين، الذي فقد مصدر طعامه؟!.. لقد عاد ليغفو في كهفه مكتئبًا منتظرًا قدوم الفرج، وأن يسمع مرة أخرى صوت البرق

يدعوه للعشاء..
ومع الوقت تعلم أكل السمك.. لكنه ظل يدور حول صخرة القربان، في المواعيد التي تعلمها.. مواعيد الفايكنج لتقديم القرابين..
ان مذاق الفتيات الحسناوات ظل حيًا في ذاكرته، وقد ظل يأمل أن تعود تلك الأيام...
هل لديك أية أسئلة؟!..
قلت بعد أن تنحنحت لأنظف حنجرتي:
- هل هو نفس وحش الفايكنج؟.. أعني كيف يعيش كائن حي من عصر الفايكنج حتى اليوم؟.. حوالي ثمانية قرون..؟!..
قال السير (جيمس):
- ربما كان هناك أكثر من واحد يتناسلون فيما بينهم، ويورثون ذرياتهم ذكرى مبهمة عن صخرة القرابين..
وربما كان نفس الوحش، وهو في حد ذاته ظاهرة علمية، فلم لا يكون عمره هو نفسه ظاهرة أخرى؟!.. إن السلحفاة قد تعيش قرنين.. فلم لا يعيش هذا الشيء ثمانية قرون؟!..
قلت في حيرة:
- والقلادة؟.. لابد أنه كان يبتلعها في كل مرة.. فكيف..؟
- كانوا يصنعون قلادة فداء جديدة في كل مرة.. هذا ليس صعبًا ولا مكلفًا..
تفكرت حينًا في كلامه.. ثم قلت في ارتياح:
- الواقع أن نظريتك تبدو متماسكة.. واسمح لي أن أضيف إلى ذلك أن سفن الفايكنج التي كانت تجوب بحر الشمال، كانت تحمل في مقدمتها نحتًا خشبيًا لرأس وحش يشابه تخيلنا لـ(نيسي).. كأنهم أرادوا أن يرضوا (أودين)، أو يخدعوا الوحش كي لا يهاجمهم..
لابد أنه كان مرعبًا حين يبرز لسفنهم في ظلام الليل، وسط بحر الشمال الرهيب..
وارتجفت حين تخيلت المشهد.. لحسن الحظ أنني لم أكن هناك
" قال سير (جيمس) وهو يجمع أوراقه:
- لكني لم أقل بعد أخطر ما في الموضوع..، لقد سرقت القلادة والبوق من الكومندور (جولد) في ظروف غامضة..
- سرقت؟
- نعم.. ثم استجد شيء آخر، هو أن الوحش صار يظهر في أوقات غير منتظمة..، أي أن هناك من يستعمل البوق لياديه كلما أحب ذلك..
- ولأي غرض..؟
- هذا هو ما أعطيتك لمحة عنه ليلة أمس..
لقد زرنا الصخرة منذ أسبوعين - أنا و(ماجي) - فوجدنا سلسلتين مثبتتين بالصخر، وتتدليان في الماء.. جذبنا السلسلتين لنعرف.. فماذا وجدنا؟
قلت في هلع:
- لا.. لا تقل..
- نعم..!.. كما فهمت أنت!.. كفين ومعصمين مقيدين بالسلاسل، وقد بترا تمامًا.. إنهما ما تبقى من إنسان نهشة الوحش بالكامل، وترك الجزء المقيد لأنه لم يستطع انتزاعه.. كانت اليدان رقيقتين

مما يوحي أنهما لفتاة..

وفي البلدة كان البوليس يبحث عن شقراء تدعى (جوسلين)، اختفت منذ ثلاثة أيام، ولم يعرفوا لها أثرًا..، وبالطبع لا يحتاج المرء لكثير ذكاء كي يعرف أين ذهبت (جوسلين) هذه..

صحت في تقزز وأنا أشعر بالعالم يدور من حولي:

- سير (جيمس)..!.. هل.. هل تعني أن هناك من عاد يمارس تقديم القرابين البشرية لوحش (لوخ نس)؟

- بالفعل.. وسواء كان هذا الشخص سفاحًا، أو مجنونًا، أو عالمًا مخبولًا، فالنتيجة واحدة.. وهو يعرف ما نعرفه بالضبط..، إنه يخطف الفتاة ويقيدها على الصخرة، ثم ينادي الوحش بالبوق ليبعثها إلى (فالهالا)4...

- ياللفظاعة!

أضاف السير (جيمس) وقد اكتسب صوته نبرة درامية لا داعي لها:

- الملحوظة الأخيرة، هي أن هذه الفتاة من أصل سويدي.. أي أن أجدادها كانوا من غزاة الشمال..!

* * *

٦ - القبو..

جالسًا بجوار (ماجي) في غرفة الجلوس في تلك الأمسية، شعرت بدهشة غير عادية وانبهار لا حد له بها..

هذه الفتاة الرقيقة - أو المرأة الرقيقة - التي لم تزل متعلقة بي، تخفي في أعماقها قوة هائلة، لم أتخيل أنها لديها.. هي تعرف كل ما تعرفه، ولم تخبرني به.. هي تدير مشروعًا عملاقًا لمراقبة قناة (كاليدونيا) بالموجات فوق الصوتية، دون أن تثرثر عن ذلك طيلة الوقت.. هي شاهدت ذلك المنظر البشع على صخرة القربان ولم تنهر.. ولم تفقد عقلها..

غريبة أنت يا (ماجي).. وإن غموضك ليفوق كل قدراتي على التوقع..

قلت لها:

- لماذا لم تخبريني..؟

- بم...؟

- بما قاله لي والدك اليوم.. عن الوحش..

قالت في حذر وهي تنظر لعيني نظرة ثابتة:

- حسن.. ما الذي قاله لك بالضبط... ما الحد الذي وصل إليه

مرة أخرى تثير إعجابي.. إنها تخشى أن يكون كلامي محاولة لجعل لسانها ينزلق.. المهم أنني شرعت - دون حذر - أخبرها بكل ما قاله لي السير (جيمس) وهي تصغي دون تعليق.. ثم سألتها في عتاب:

- لماذا لم تخبروا البوليس بما وجدتموه على الجزيرة؟.. إنهم أقدر منكم على العثور على سارق البوق والقلادة.

ابتسمت في غموض وقالت:

- إن البوليس لن يعثر أبدًا على السارق، لأنه لم يترك أثرًا...

- على الأقل يمكنهم مراقبة الصخرة لمنعه من قتل فتاة أخرى..

- (رفعت)..!.. أنت لا تفهم.. إن لدينا هدفًا أكبر من كل هذا.. فلا تجعل أبي يندم على إخبارك بما لم يكن ينبغي أن تعرفه..

تنهدت في ضيق، قائلًا:

- حسن.. لقد انتهت هذه العطلة، وسأعود غدًا إلى (أدنبرة) فلا دخل لي بمشاريعكم المريبة..

قالت في حنان اوشكت أن أنسى مذاقه:

- لقد وعدتني أنك باق للأبد.. على الأقل تستطيع أن تظل معنا هذا الأسبوع ؛ لأن أبي لن يعود إلى (داندي) غدًا..

ثم مدت سبابتها إلى ذقني.. وأردفت:

- ثق بنا يا (رفعت).. ثق بنا.. هه!..

ساد الصمت بضع دقائق فيما عدا دقات الساعة..، نهضت ومضيت أسير في الغرفة واجمًا.. أذرعها هنا وهناك، حتى توقفت أمام لوحة زيتية شنيعة معلقة فوق المدفأة، تمثل راعيًا يعزف لحن

حب لحبيبته... تأملت اللوحة هنيهة، ثم استدرت..، وهنا تذكرت شيئًا... فعدت أتأمل اللوحة.. أن هناك آثار كف مرسومة بعناية، على معالم اللوحة.. كأن يدًا اعتادت ضغط اللوحة في هذا المكان، مما أدى بالعرق والاحتكاك إلى ذوبان بعض من الطبقة الزيتية عليها..

لم أتردد ومددت كفي إلى نفس الموضع.. وضغطت..

كان قابلًا للانضغاط.. وسرعان ما شعرت أن رافعة ميكانيكية من نوع ما تتحرك.. وبرغم الصدأ والقدم المخيم على الموضوع كله، انزاح الجدار الخلفي للمدفأة، محدثا صريرًا يؤلم الأسنان.. وتبدّى لي ما يشبه البئر الذي نحتت درجات في جداره..

نظرت لـ(ماجي) متسائلًا.. لكن نظراتها كانت صريحة في دهشتها.. لم تكن تعرف شيئًا عن هذا الباب السحري بالفعل..، فقلت لها:

. إنه شيء نمطي جدًا في القصور الاسكتلندية.. الباب السحري المؤدي إلى مخرج ما.. لكن هل يعرف أبوك به؟!

هزت رأسها في حيرة:

- لا أدري.. أنا أعرف أن هذا القصر مليء بالممرات السرية، لكني لم أر أحدها من قبل..، يا للغباء!.. لقد أمضيت كل حياتي أتساءل عن سر هذا الكف على اللوحة.. لكني لم أحاول أن أضغط عليها، ولا أعتقد أن أحد الخدم قد حاول... فقط بمنفضة الغبار بالطبع..

ابتسمت متشفيًا، ثم إنني نزعت جاكت الحلة الذي أرتديه، وانتزعت شمعة من الشمعدان الموجود فوق المدفأة، وأشعلتها بعود ثقاب.

- ولكن.. إلى أين تظن أنك ذاهب؟



ابتسمت متشفيًا ، ثم إننى نزعت جاكت الحُلّة الذى أرتديه ، وانتزعت شمعة من الشمعدان الموجود فوق المدفأة ، وأشعلتها بعود ثقاب ..

قلت وأنا أدس بجسدي في المدفأة:
- سؤال غريب.. لست ذاهبًا إلى (ديزني لاند) على أي حال..
قالت مرتاعة وجسدها يرتجف:
- أليس من الحكمة أن تنتظر حتى نخبر (دادي)..؟!
نظرت إليها نظرة ذات معنى.. وقلت:
- يا ملاكي.. لست من هؤلاء الأشخاص أقوياء العزيمة، الذين يجدون ممرًا سريًا في قصر اسكتلندي عتيق، ثم يحجمون عن دخوله..، إن هذا أقوى مني..
صرخت في حدة:
- انتظر..!.. سألحق بك.. يجب أن أتأكد أنك لن تموت..!
- ولكن..
وقبل أن أفهم كنا قد دخلنا البئر - أنا وهي - ننزل الدرجات الصخرية، وأنا أحاذر حتى لا يلتهم لهيب الشمعة أطراف ثوبها..، وكانت الدرجات قليلة لحسن الحظ..، وفي أسفل البئر كان هناك قبو طويل تفوح منه رائحة العطن.. و....
كلانج..!!
ما هذا الصوت؟!.. وما سر الظلام الذي ساد القبو فجأة..؟ نظرت (ماجي) لأعلى، ثم قالت:
- لا شيء..!.. لقد انغلق الجدار الحجري خلفنا!
يا لي من مغفل!.. لقد كان الباب يفتح لفترة محدودة، ثم ينغلق بعدها.. لماذا لم أبقها في الخارج، أو أضع شيئًا يعوق انغلاق الجدار..؟!.. إنهم يتذكرون هذه التفاصيل دائمًا في السينما، لكنني لست بطل فيلم سينمائي، لهذا لم أكن مدربًا على هذه الأمور..!!.
والآن ها نحن أولاء واقفان في هذا القبو المجهول، ولا سلاح لدينا ولا مصدر ضوء سوى هذه الشمعة..!
- (ماجي) يا ملاكي.. أخشى أننا في مأزق حقيقي...
التمعت عيناها في الظلام على ضوء الشمعة.. وصفقت بيديها في مرح هاتفة:
- إنها أروع تجربة في حياتي..!.. تخيل أنا وأنت في هذا القبو المرعب.. معًا نتحسس الجدران ونرتجف.. ونمشي في الوحل بين جثث الفئران وعظام من سبقونا..، ثم يشتد بنا الجوع والظمأ.. عندئذ تتمزق أنت من أجلي.. وتخلع قميصك كي تسترني به من البرد..، ثم ينتهي بي الأمر وأموت بين ذراعيك..!
.. أليس هذا رائعًا؟!..
-.. يا لك من بلهاء تمامًا..!.. إن للنساء قدرة غير عادية على العثور على الرومانسية في مواقف لا تعني للرجال سوى مصيبة..
- ثم إنك تموت بعد ساعات حزنًا علي.. وتتحلل جثتانا، وبعد مئات الأعوام حين يكتشف أحدهم هذا القبر، سيجد هيكلين عظميين متشابكي الأكف.. عندئذ يحاول فصلهما فيستحيلان إلى تراب!
قلت متهكمًا:
- نعم..!.. مثل (ازميرالدا) و(أحدب النوتردام)5!
- نعم.. هل قرأتها؟.. إنها مؤثرة إلى حد البكاء..

لم أعرف ما أفعله.. هل أخنقها، أم أمزقها، أم أكتفي بتوجيه لكمة إلى أسنانها؟ اكتفيت بأن قلت لها:

- لم يزل هناك بعض الوقت قبل هذه النهاية الرائعة، لهذا أرى أن نتحرك الآن.. هذا المكان ليس شاعريًا إلى درجة الموت..

قالت - وقد استعادت صوابها - وهي تنظر لأعلى:

- ولكن لابد أن هناك مخرجًا من هذه الجهة..

- هذا معقول.. إن من يبتكر طريقة للدخول، يبتكر طريقة للخروج..

وشرعت - أنا وهي - نتحسس حجارة الجدار حجرًا حجرًا، ونضغط على كل نتوء وكل حجر يتحرك..، وخبطنا بكعوب أحذيتنا على كل رقعة في الأرضية، وتسلقت السلم مرة أخرى كي أعيد استكشاف الجدار.. دون جدوى..!..

قالت (ماجي) وقد عادت الجدية لملامحها:

- لو بقينا في هذه المحاولات الخرقاء فسنموت حتمًا.. يبدو أنه لا مفر من السير في هذا الدهليز إلى آخره..

- ولكن الشمعة...

أخرجت منديلًا حريريًا من جيب ثوبها، ثم بللته بلعابها بأن كورته وحشرته في فمها بضع دقائق.. وقربت منه لهب الشمعة فأخذ يشتعل ببطء شديد بسبب البلل..

- هكذا.. والآن أطفئ شمعتك إلى حين الحاجة إليها.. قلت لها في انبهار:. من علمك هذه الطريقة؟!

قالت وهي تمسك المنديل المشتعل بطرف أناملها، وتضعه فوق قطعة عظم:

- في الحرب العالمية الأخيرة كانت ربات البيوت في لندن وباريس - توفيرًا للطاقة - يستعملن أوراق الجرائد المبتلة لإشعال الموقد.. وكانت جريدة واحدة تكفي لطهو وجبة لأسرة كاملة..!

كان عمري ثلاثة عشر عامًا وقتها..

- آه يا عزيزتي..!.. كيف أستطيع أن ألعب معك دور الرجل الذي يحمي، في حين يبدو لي أنك من ستتولين حمايتي؟!..

في صمت شققنا طريقنا فوق أرضية وعرة.. وكانت هناك فئران تمرح في حرية تامة..، وبقع ماء آسن على الأرض يبدو أنها نتجت عن تراكمات الرطوبة عمر القرون..

سأظل أذكر ما حييت مسيرتنا الواجمة، وهي تسبقني بخطوة حاملة المنديل المتوهج يلقي بظلال غامضة حولها -ولكم أخشى الظلال الغامضة! - كأنها قادمة من عالم آخر، تقودني إلى ما لم يره بشر قبلي..، هل كان (دانتي) يشعر بنفس شعوري، و(بياترس) تقوده في ظلمات العالم الآخر6؟!..

وهنا بدأنا نلمح ما توقعته هي في مزاحها من دقائق... عظامًا آدمية ملقاة في إهمال بين الصخور، مختلطة بعظام فئران.. لم أشأ أن أخبرها أن لهذا معنى واحدًا: أنه لا يوجد مخرج من هذا القبو..، وأن هؤلاء التعساء قد حاولوا قبلنا وفشلوا.. التهموا الفئران حية والتهمتهم الفئران أحياء.. لاشك أن هذا القبو كان سجنًا يلقى به أعداء الإقطاعي مالك هذه القلعة، حتى يتعفنوا أحياء..

لكن (ماجي) كانت ذكية.. ذكية إلى حد مرعب..

لهذا قالت لي في كآبة:

- (رفعت).. هل تعرف ما أظنه..؟
- نعم..
- إننا لن نخرج أحياء من هذا القبو..!

* * *

٧ - الورطة..

مشكلة أسلوب (المتكلم) الذي أستعمله في سرد قصصي، هو أنه يطمئن القارئ تلقائيًا على أنني سأنجو من كل مأزق أمر به، وإلا فما عشت كي أحكيه على لساني..!.. ولو كنت أكتب بضمير الغائب، على غرار: ذهب.. جرى.. خاف.. لما كان القارئ متأكدًا من سلامتي إلى هذا الحد...

نعم.. اعترف انني نجوت من كل مآزق حياتي، حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها.. وأعترف أنني لم أمت أبدًا حتى اليوم!..

لكن أي رعب وأي هلع مررت به في كل هذه الورطات

* * *

خذ عندك على سبيل المثال..

مسيرتي في القبو المظلم خلف (ماجي) ولهب المنديل يتراقص.. وظلال غامضة تتلاعب فوق الجماجم المتناثرة هنا وهناك، كأنها تتحرك وتبتسم..

كيف تريدون مني أن أتوقع أننا سننجو..؟

كانت المشاهد تتشابه.. ولابد أننا سرنا مسافة كيلومتر كامل في هذا القبو الأبدي، حين توقفت (ماجي) هامسة وهي تلهث:

- لن أستطيع السير أكثر.. وجلست على الأرض بفستانها الأنيق، وخلعت حذاءها..
- إنني أموت من البرد برغم أننا في شهر يوليو..
- هذا بسبب الرطوبة...

وجلست بجوارها على الأرض وخلعت قميصي ووضعته فوق كتفيها، وأنا أقول في تشف:

- رومانسي.. أليس كذلك؟!
- اخرس..!

ثم قالت في تقزز من بين أسنانها:

- سيكون علينا أن نتعلم أكل الفئران...

ارتجفت من هول الفكرة.. فقلت مبتلعًا ريقي:

- أفضل الانتظار أسبوعًا دون أكل، حتى أستطيع تقبل الفكرة..!

قالت وكأنها تبصق:

- لو لم تتحامق وتدخل ذلك الباب السرى اللعين لما كنا هنا..
- ولو لم تتبعيني في غباء لكنت أنقذتني.

قالت وهي تتكور حول نفسها كالقطة وتلتصق بي:

- سننتظر هنا حتى الصباح.. أطفئ هذا المنديل؛ لأننا لن نحتاجه مؤقتًا.. أرجو أن يكون معك ما يكفي من الثقاب..

- بالطبع عدد قليل جدًا.. القصة دائمًا هكذا..، إن الأشخاص الذين يملكون علب ثقاب مليئة، لا يضلون طريقهم في ممرات مظلمة أبدًا..

- يا لك من نحس..!

أطفأت المنديل وتكورت حول نفسي، وشرعت أدندن.. أدندن بصوت خفيض نشاز أغنية عربية حزينة..، وفي الظلام سمعت صوت تنفسها المنتظم بجواري...

لقد نامت البائسة..

* * *

حين استيقظنا، كانت العقارب الفوسفورية لساعتي تشير إلى التاسعة صباحًا.. وكانت جالسة تتخلل خصلات شعرها المبعثرة بأناملها، في محاولة لتنسيق شعرها بشكل ما.. ابتسمت في سخرية وقلت:

- ها هي ذي (حسناء الجب) تبدأ يومها..!

قالت والنوم لم يفارق صوتها:

- إذا كان شكلي عند الاستيقاظ يشابه شكلك الآن أيها المتشرد، فإنني أرى ألا نتزوج أبدًا..! ما ذنب أطفالنا كي يروا آباءهم مرعبين هكذا..؟

كدت أرد برد لاذع، لولا أنني لاحظت شيئًا.. فصحت من فوري:

- (ماجي)!.. هل لاحظت؟.. لقد رأيتك ورأيتني!؟.. إن الظلام قد صار أقل كثافة في النهار.. أمس لم أكن أرى يدي نفسها..

- وهذا يعني...

- أن هناك نورًا يدخل هذا القبو من مكان ما.. صحيح أنه لم يزل ضعيفًا جدًا لكنه موجود.. وسنجده..!

وهكذا - ودون إفطار ودون غسيل وجه - نهضنا في ثقة وواصلنا مسيرتنا دون حاجة لإشعال شيء..، لم يكن هناك شك في أن النور يتزايد في كل خطوة نخطوها للأمام...

وفجأة قابلنا ما لم نعمل حسابه بعد.. الممر يتفرع إلى ثلاثة مرات أكثر ضيقًا وكلها يغمرها نفس الضوء الخافت.. يا لها من مشكلة..!..، اخترنا الممر الأوسط.. وسرنا معه بعض الوقت، فوجدناه يتفرع إلى ممرين... هنا أمسكت بيدها كي أمنعها من الاستمرار، وقلت:

- كلا.. إن الأمر يتحول إلى متاهة حقيقية سنضيع فيها للأبد.. يجب أن نكون منظمين..

أولًا سنتبع أسلوب (ثيذيوس) الشهير..

- ومن هو؟!..

- إنه البطل الإغريقي، الذي دخل المتاهة (لابيرينث) في جزيرة كريت كي يقتل (المينوطور) ذلك الوحش الذي كان نصفه العلوي الثور، والسفلي لإنسان... لقد ربط (ثيذيوس) خيطًا في بوابة المتاهة كي يعرف دائمًا النقطة التي يعود إليها.. وبهذا لم ينته كمن سبقوه..

سنرسم على الجدران - حفرًا- خطوطًا تحدد لنا الممرات التي مررنا بها.

ثانيًا - يجب أن ننفصل ليستكشف كل منا فرعًا من هذين الفرعين على حدة، على أن نلتقي هنا بعد ساعتين مهما كانت الظروف..

قالت (ماجي):
- وليعمل من يجد مخرجًا على أن يرسم في أثناء عودته خطوطًا متعرجة كي تختلف عن أية خطوط رسمها في ممرات أخرى
- فليكن.. ناوليني قلمي من جيب القميص.
وكسرت قلمي نصفين يصلحان للحفر في الجدران، وناولتها نصفًا.. ثم تمنيت لها حظًا سعيدًا وافترقنا..
الآن يجب أن أسرع.. لقد اخترت الممر الأيمن الذي قادني إلى ممرين اخرين.. اخترت الأيمن، وسرت وراءه بعض الوقت، إلى أن وجدته مسدودًا بجدار صخري..
عدت أدراجي لنقطة التفرع، واخترت الممر الأيسر.. وسرت فيه دقائق إلى أن وصلت لنقطة يتفرع فيها إلى ثلاث ممرات.. فاخترت الأوسط.. وهكذا.. تستطيع أن تتخيل تعقيد ما قمت به.. إنه أمر منهك على الورق، فما بالك به وأنت تمشي طيلة الوقت فوق صخور مدببة.. وأنفاسك تتلاحق... وطرف القلم المكسور يدمي أناملك؟!..
ترى أي عقل سادي مخبول صمم هذه الممرات؟!
مضى نصف الساعة وأنا في هذه المتاهة.. وفجأة لمحت.. لمحت أثار أقدام.. أقدام واضحة فوق الغبار الطري، الذي بدأ يغلف الصخور..!.. أقدام ليست لي ولا لـ(ماجي) لأنها كبيرة جًدا.
وبدأت أتتبع الأقدام - دون أن أنسى رسم علاماتي - وقلبي يرتجف.. لا يمكن أن تكون آثار أقدام أحد هؤلاء الموتى المتحللين، لأنها حديثة وطرية وصاحبها يرتدي حذاءًا عصريًا..
النور يزداد.. ويزداد..
وأخيرًا..!
ها هي ذي ضالتي..!.. نافذة مفتوحة في الصخر، مسدودة بقضبان من الصلب - نشرها أحدهم لحسن الحظ - ومنها يخرج النور الذي رأيته داخلًا القبو الكثيب..
اقتربت من النافذة لأرى ما تطل عليه.. وعبر الفتحة الصخرية كان رذاذ الماء يتناثر.. إنها بحيرة (لوخ نس) الغافية أمامي في شمس الصباح البهيجة، كأجمل ما رأته عيناي..، وأسفل النافذة كانت هناك صخور الشاطئ.. وعلى مسافة ما كانت صخرة كئيبة المنظر، تقف وحدها وسط الأمواج، دون أن تعبأ بها ولا بي..
وعلى الصخرة كان هناك عمود خشبي قديم، تتدلى منه حبال ليفية.. لم يكن من الصعب أن أعرف أن هذه هي صخرة الفداء، التي كلمني السير (جيمس) عنها بالأمس.. بالأمس؟.. هل كان ذلك بالأمس فقط؟!..
على كل حال لقد وجدت ضالتي، ولم يعد أمامي سوى أن أعود أدراجي مع رسم خطوط متعرجة فوق تلك المستقيمة التي رسمتها عند مجيئي، وأنتظر (ماجي) عند نقطة التفرع الأولى.. ثم نرحل معًا من هذا المكان..
وصلت للنقطة التي بدأت منها، وقد قاربت الساعة الحادية عشرة..
وجلست على الأرض أنتظر (ماجي) وأنا أدندن تلك الأغنية العربية الحزينة، وأفكر في معنى هذا الذي وصلت إليه..
من الواضح أن هذا الممر كان مسدودًا تمامًا بتلك القضبان الكريهة، وكان قبرًا حقيقيًا لمن يقذفه الحظ العاثر فيه.. ثم جاء ذلك الرجل (الخيّر) الذي أزال القضبان، ليمنح نفسه فرصة الخروج

والدخول إلى القصر وقتما شاء، وليتمكن من الوصول إلى لوخ نس بسهولة وسرية.. غير عالم بالطبع أنه يمنحنا فرصة الحياة..

من هو ذلك الشخص؟.. وما غرضه؟.. لا أدري، ولا يعنيني أن أدري في الوقت الحالي.. ولكن...

لقد جرفتني خواطري خلفها، وفاتني أن الوقت قد مر سريعًا.. الساعة الآن الحادية عشرة والنصف ولم تعد (ماجي)... هل ممراتها متشعبة إلى هذا الحد أم أنها قد نسيت رسم العلامات بحماقة... أم أنها لاقت خطرًا ما - حفرة أو صخرة منهارة - أخرتها عني؟!

ثعابين القلق تنهش قلبي..، ولم يكن هناك بد من أن أتبعها..

نهضت من مكاني وبدأت أسير في حذر في الممر الذي اختارته، وكانت خطوطها دقيقة واضحة ومنظمة على الجدار، حتى أنني تخيلت يدها البلورية وهي تخطها منذ ساعتين.. حنين غريب يبعث على التشاؤم يغزو روحي تجاه تلك الخطوط، كأن من رسمتها لن تعود..

كانت الشبكة معقدة بالفعل، لكني سرت وراء الخطوط التي لم تتوقف.. ولكن..

هل أنا أتخيل..؟

كلا.. إن قطرات الدم المتساقطة على الأرض هذه، لا يمكن إلا أن تكون حقيقة!!..

إنه دم (ماجي)..

* * *

٨ - نهاية لغز..

(ماجي) يا ملاكي!.. أقسم أنني سأمزقهم جميعًا.... سأذبحهم وسأنثر أشلاءهم في بحر الشمال، كي تتلذذ بها الوحوش الغامضة جميعًا..

شرعت ألهث وأنا أجري خلف آثار الخطوط التي تركتها.. وقطرات الدم التي تظهر حينًا وتختفي أحيانًا.. أفكاري مضطربة والهلع يشلني.. وأنا ألهث من بين أسناني بعبارات السباب والتهديد (لهم)، وأنا لا أدري من (هم) بالضبط.. كنت أريد أي شيء أصب عليه غضبي، فلم أجد خيرًا من أن أوجد أشخاصًا وهميين لا وجود لهم كي ألومهم..

خطواتي تتسارع.. عضلاتي تتقلص.. أنفاسي تضيق..

سأجدها ميتة بلا شك في أية لحظة عند أقدامي.. وسأنحني فوقها وأريح رأسها على ركبتي، فتقول لي شيئًا ما لا أتبينه.. ثم تدير وجهها وتموت!

آه..!.. إن تخيل هذا المنظر يجعلني أجن!!..

وتتسارع خطواتي ودقات قلبي..

،وهنا اصطدمت بشيء.. وسقطنا على الأرض معًا.. نهضت مستعدًا للقتال لكني وجدتها هي.. (ماجي)..!.. شرعت أصرخ في هستيريا والدموع تتسارع إلى عيني، وحاولت أن أفسر لها.. إلا أنها قالت في ملاطفة كما نحدث حصانًا جامحًا:

- هيه..!.. لا شيء!.. لا تخف يا صغيري..!.. لم يحدث شيء..

وأشارت إلى يدها المربوطة بقطعة من قميصي الذي ترتديه:

- لقد جرحت يدي بقلمك المكسور... هذا كل ما هنالك.. هيا.. اهدأ...

وهنا - أخجل من الاعتراف - انهارت أعصابي تمامًا فشرعت أبكي كطفل.. مما أصابها بالذهول.. شرعت تربت فوق كتفي بحنان.. ذلك الحنان الذي لا تمنحه سوى امرأة، ولا يفهمه سوى رجل..، إنهن أمهاتنا هؤلاء النساء.. ولسنا - مهما كبرنا - سوى أطفال شديدي التعاسة، خرجنا لتونا من أرحامهن...

- هيا..!.. لا تخش شيئًا..!.. كل شيء سيكون على ما يرام... ابك!.. ابك!.. ستشعر أنك أفضل..

وبعد أن زالت العاصفة، وبدأت أهدأ شرعت أحكي لها ما فعلته طيلة الساعتين، وأنني وجدت المخرج، وأنني ظننتها قتلت أو جرحت، وأنني... أحبها كما لم أحب أحدًا في حياتي!

قالت لي في لهجة عملية:

- كل هذا جميل.. لكن هناك اكتشافًا أكثر غرابة وأهمية وجدته أنا.. تعال معي ولكن أولًا..

ومدت إلى يدها بقطعة قماش مزقتها من قميصي الذي ترتديه.. وقالت:

- تمخط أولًا.. لا أحب الأطفال الذين يتدلى المخاط على أنوفهم..!

- حسن.. ففففف!!

- هكذا..

وفي صمت سرت خلفها في ذلك الممر الضيق الغريب.. لقد بدأ يتسع.. ويتسع.. ثم.. وجدت نفسي في غرفة كبيرة حجرية مضاءة بشكل جيد...

هل تعرف منظر غرفة دفن الفرعون في الهرم الأكبر..؟.. إنك إذا كنت تعرفها، فقد وفرت علي مجهود وصف تلك الغرفة.. أما إذا لم تكن قد رأيتها، فتلك مشكلتك.. إنني منفعل ولن أستطيع أن أتكلم كثيرًا...

في ركن من الغرفة كانت هناك.. واقفة مصلوبة إلى الجدار، تلك الفتاة الشقراء التي لا يمكن أن تكون إنجليزية..، وكانت منهكة تمامًا وعلامات ضرب مبرح على وجهها..، قالت (ماجي) في فخر:

- هو ذا اكتشافي...



فى ركن من الغرفة كانت هناك .. واقفة مصلوبة إلى الجدار ، تلك الفتاة الشقراء التى لا يمكن أن تكون إنجليزية ..

ثم انحنت تجاه الفتاة كأنها تقدم أحدنا للأخر في حفل تعارف:
- أقدم لك الآنسة (إيريكا سجفريد) القربان القادم لوحش (لوخ نس)..!
أصابني الذهول.. إلا أنني بدأت أفهم ما هنالك.. لهذا التفت نحو الفتاة المقيدة، وسألتها وقد أعطاني رنين اسمها فكرة معينة:
- هل أنت دانماركية؟!..
خرج صوتها محشرجًا.. وبإنجليزية كسيحة قالت:
- أنا نرويجية.. أدرس الأدب الإنجليزي في أدنبرة..
صاحت (ماجي) في حماسة:
- هل ترى؟.. شقراء ومن أصل اسكندنافي.. اختطفها ذلك السفاح إلى هنا.. وقيدها.. وأطعمها انتظارًا لموعد الفداء.. و...
بضيق قاطعتها:
- ألا ترين تأجيل هذه المحاضرة، حتى نفك قيود هذه التعسة؟.. لماذا لم تفعلي ذلك؟..
قالت في بساطة:
- ليس معي أداة تصلح لفك هذه السلاسل أولًا.. ثم ان يدي مجروحة.. هل نسيت؟!
ثم ربتت على عضلاتي الهزيلة في سرور:
- والآن لنر ما سيفعله (بطلي) مع هذه القيود.. هيا.. فلنر..
احتقن وجهي وشرعت أحاول فك هذه السلاسل دون جدوى.. كل ما سأفعله هو تمزيق معصمي هذه البائسة، التي أخذت تضغط على أسنانها وتئن...
وبعد عشر دقائق كنت قد انتهيت تمامًا.. تمزقت كفاي وسال الدم منهما، من ثم أطرقت برأسي خجلًا معلنًا ألا جدوى..
- دعني أحاول أنا..
ومدت (ماجي) سن القلم الحبر في قفل السلسلة، وشرعت تعبث هنا وهناك، حتى.. كليك!.. انفتحت حلقة القفل في سلاسة.. وشرعت تفك السلسلة عن عنق ومعصى الفتاة النرويجية، وهي ترمقني بتشف، قائلة:
- ليس في جعبتك سوى القوة الغاشمة.. وليتها تجدي!
جلست الفتاة منهارة على الأرض، وشرعت تحكي قصتها..
إنها - كما قلت انفًا - طالبة لغات في (أدنبرة)، وقد تعرفت شابًا من أصل نرويجي، قال إنه يدرس الطب هناك، ودعاها إلى بيته، ثم إنه اختطفها بعد أن خدرها.. ونقلها إلى هنا.. وحين أفاقت، وجدت نفسها مقيدة في هذا الوضع، وأنه كان يطعمها بانتظام.. وينصحها أن تعد روحها للفداء الأعظم، الذي يليق بأرواح أسلافها، والذي سيتم بعد أسبوعين حين تمنح جسدها - سعيد الحظ - كي يلتهمه وحش (لوخ نس)..
- وهل كان موجودا معك بانتظام..؟
- كلا.. كنت أراه مرتين في اليوم خارجًا من ظلمات القبو.. لا أدري من أين يجيء وإلى أين يذهب..
قالت (ماجي) في تهكم:

- وهل هذا سؤال؟!.. بالطبع يجيء من غرفة الجلوس في قصر أبي وإليها يعود.. لابد أنه كان يزورك في الفجر وعند منتصف الليل، حين يخلو القصر من أصحاب الأسئلة المحرجة...

قلت ل (ماجي):

- هل تظنين نلك؟.. وكيف كان يدخل القصر؟

- إنه لم يحتج قط لدخول القصر..

- ماذا تعنين؟..

- أعني أنه كان هناك دائمًا.. أعتقد يا حبيبتي (إيريكا) أن هذا الرجل كان أزرق العينين، له شارب أصفر كث، وشعر أشقر طويل.. باختصار مثل الفايكنج كما نراهم في القصص المصورة.

- بالفعل.. واسمه (آنفريد)... (آنفريد هولثروب)..

- إنه لخادم عندنا في القصر.. وكان يأخذ إجازات كثيرة، يزور فيها (إدنبرة)..

- ولابد أنه كان ينصب شباكه حولك، وحول تلك التعسة (جوسلين)...

قلت لها في حيرة:

- وما الذي يجعل عندكم خادمًا نرويجيًا..؟

- وماذا في ذلك؟.. إنه مهذب ومنظم، ويتحدث إنجليزية راقية جدًا.. وكان أبي يحب طابع وجهه الاسكندنافي كثيرًا..

قلت لها:

- إن الخيوط تتجمع الآن..

ان هذا الخادم كان يعمل عندكم.. وفي ذات ليلة سمع محاورة بين أبيك والمرحوم (جولد) عن وحش (لوخ نس) الذي كان الفايكنج يقدمون له القرابين.. ثم يرى البوق والقلادة والخريطة إياها..

عندئذ يبدأ هذا الخادم يتبدل.. إننا لانعرف الظروف ولا الملابسات التي أدت لتحوله.. هل هو اعتزاز مجنون بقوميته..؟.. هل هي معتقدات وثنية تحركت في عقله الباطن؟.. هل هي رغبة في العبث؟.. هل هي رغبة في التميز؟.. لن نعرف أبدًا إلا منه...

المهم أن الفكرة اختمرت في عقله..، وهكذا.. يسرق البوق والقلادة، ويصمم على استغلال هذا النفق السري - الذي وجده بالصدفة - في مهمته الرهيبة..

لقد كان أذكى منا حين دخل هذا النفق أول مرة.. ولم ينس أن يؤمن الباب خلفه.. ثم أدرك أن النفق يوصله لقرب صخرة الفداء.. عندئذ يقوم بنشر القضبان التي تسد النفق لتوفر له مخرجًا دائمًا.. ويبدأ في خطف الفتيات الشقراوات، اللواتي ينتمين إلى نفس سلالته.. ويحبسهن هنا..

إن النزعة الدرامية في دمه، جعلته يعتقد أن وحش (لوخ نس) لن يلتهم سوى نفس نوع الضحايا اللواتي كان يلتهمهن في الماضي.. الاسكندنافيات..

حفيدات غزاة الشمال..

وحين تأتي اللحظة - حسب حساباته - يقيد الفتاة للصخرة، ويقف عند قلعة (إيركهارت) وينفخ في البوق..

عندئذ يخرج الوحش - الذي تذكر نداء الطعام القديم - ليمارس باقي عمله وتنتهى المأساة..

إنك قد ولدت من جديد يا آنسة (سيجفريد)..

تهانفت الفتاة.. وأخذت ترتجف.. وتقول بين دموعها:

- لقد كان شنيعًا.. كان يأتيني وهو يردد أبيات شعر بلغة لا أعرفها.. ويدس أطعمة غريبة المذاق في فمي..، ثم يؤدي صلوات عجيبة، ويجبرني على أن أرددها معه.. فإذا رفضت صفعني..
- إنه كان يعد روحك للتضحية الكبرى..
قالت (ماجي) في عصبية:
- والآن لنخرج من هذا القبر المرعب.. لابد أن (دادي) سيموت قلقًا علينا.. ثم إن علينا أن نجد هذا السفاح قبل أن يشعر بشيء..
ثم نظرت للفتاة في حنان:
- هل تستطيعين السير معنا يا حبيبتي؟
- لا.. إن قدمي ميتتان تمامًا.. لم أحركهما منذ زمن..
أشارت إلي (ماجي) وغمزت بعينها نحو الفتاة..، اقتربت منها، وهمست في أذنها:
- (ماجي) لا تقولي إنك تريدين أن أحملها..؟!
- ولم لا..؟.. أنت رجلنا الوحيد للأسف..
- ولكنها ثقيلة كالحوت.. لماذا لا تصدقين أنني لست (طرزان)!.. في الأفلام الرديئة فقط يكون هناك رجل مفتول العضلات، عريض المنكبين، يجيد توجيه اللكمات وفك السلاسل، ومصارعة الدببة، وحمل الفتيات اللواتي لا يستطعن المشي..
- (رفعت)!.. احملها..!
- حسن..
وهكذا حملت الفتاة ومضيت بها أترنح، و(ماجي) تسير خلفنا.. على هدى العلامات التي رسمتها هي حتى نقطة التلاقي.. ثم على هدى الخطوط المتعرجة التي رسمتها أنا، حتى النافذة الحجرية..، ولم يكن صعبًا النزول على الصخور ومعنا الفتاة..
كان بحر (لوخ نس) متلاطم الأمواج.. ومن بعيد لاحت لأعيننا الصخرة المشئومة إياها.. أشارت إليها (ماجي) ونظرت إلى الفتاة نظرة معناها: هل رأيت ما كان ينتظرك؟..
ارتجفت الفتاة وتصلبت أصابعها على ذراعي..
لقد ربحنا المعركة، ولكن هل نربح الحرب أيضًا؟!

* * *

٩ - إيوان فريزر..

كانت وجبة طعام شهية، تلك التي قدمها لنا السير (جيمس) بعد خروجنا من القبو، وكانت (إيريكا) المسكينة تلتهم الطعام كالمسعورين، في حين أخذت (ماجي) تعبث في الزبد بسكين الطعام، راسمة أشكالًا ما على حافة طبقها.. كانت شاردة الذهن تمامًا.

قال السير (جيمس) وهو يشعل سيجارًا:

- كلوا هنيئًا.. إنكم قد نجوتم بأعجوبة..

قلت وفمي مليء بالطعام:

- غريب أنك لم تعرف شيئًا عن هذا النفق.

- هذا طبيعي.. إن مخطوطات أسرتنا تتحدث عن عشرة أنفاق أخرى.. ولم تحدد أماكنها، كما أنها لم تتحدث عن كنز مدفون في أحدها، فعلام أضيع وقتي إذن..؟

رفعت (ماجي) رأسها عن الطبق كمن تذكرت شيئًا ما:

- دادي.. أين ذهب (آنفريد)؟

هز السير (جيمس) رأسه في ضيق.. ونفث الدخان من فمه:

- لم نجده.. فر الوغد ليلة أمس..

قلت في حيرة:

- ولكن كيف عرف أننا كشفنا أمره؟!

- أنا...

قالتها (ماجي) في شيء من الخجل.. ثم مدت يدها إلى جيبها وأخرجت شيئًا.. بطاقة صغيرة من الورق المقوى..، وقالت:

- لقد لاحظتها بالأمس عند نزولنا النفق.. لكني لم أعبأ بها..

آه!.. إنها تلك الحيلة القديمة.. لقد دسّ الوغد هذه البطاقة في شق الحائط، حتى إذا فتح أحدهم الباب، سقطت البطاقة.. عندئذ إذا أراد دخول النفق، ولم يجد البطاقة، يدرك أن أحدهم اكتشف النفق والفتاة..

لهذا لم يقدم العشاء ل (إيريكا) أمس.. كان على وشك نزول النفق حاملًا عشاءها، حين وجد أن الورقة غير موجودة.. عندئذ عرف أن أمره انكشف وولّى الأدبار...

قالت (ماجي):

- ولكن.. ما الذي سنفعله الآن..؟!

أحنى السير (جيمس) رأسه مفكرًا.. وبغموض تمتم:

- هو لن يكف عن المحاولة.. لم يزل معه البوق والقلادة والحلم المخبول..

- إذن نبلغ البوليس ليراقب الصخرة..

تفكر حينًا، ثم قال:

- كلا.. ثمة فكرة أفضل...

قلت وأنا التقط آخر قطعة لحم على المائدة، وأقذفها في فمي:

- هذا خبر طيب.. فإن رأسي يكاد ينفجر من الأفكار غير الجيدة..
قال السير (جيمس) في غموض:
- سأعرفكما الليلة على شخص نادر من نوعه...

* * *

قال (إيوان فريزر):
- إن عدد المعتوهين في هذا العالم قد فاق تعداد البشرية نفسها..!
هز السير (جيمس) رأسه موافقًا، وقد بدا لي أنه لم يفطن إلى ما في هذه العبارة من إهانة مستترة للجميع بما فيهم هو نفسه..
واصل (فريزر) كلامه:
- خذ عندك هذا المعتوه (آنفريد) الذي يعتقد أن كرامة أسلافه، تتوقف على إلقاء الفتيات ليمزقهن هذا الوحش..
كان (إيوان فريزر) رجلًا قوي العضلات، أسمر البشرة، له لحية شقراء مشعثة، وخصلات ثائرة تحيط برأسه.. وكانت نظراته وقحة وصارمة إلى حد مزعج.. وكان يأكل في عصبية لا مبرر لها..
في وجبة العشاء، قدمه لنا السير (جيمس) على أنه صديق قديم، وأنه يجيد كل فنون الصيد.. لقد كان صياد أسماك قرش يومًا ما..
- صياد أسماك قرش؟
-.. وحيتان..
- وحيتان؟..
- ونمور...
قال السير (جيمس) في انبهار كالأطفال:
- لقد اصطاد التماسيح..، وذهب للهند من أجل النمور..، واصطاد الأفيال في إفريقيا، قبل أن تحرم السلطات صيدها..
... نقر (إيوان) بإبهامه على صدره في فخر.. وقال:
- الواقع أنني لم أترك شيئًا يمكن صيده إلا وحاولت..
ثم بدأ يحكي لنا بعض القصص عن صولات وجولاته في أحراش إفريقيا، وحقول السافانا، وأعالي البحار..
لقد اصطاد كل شيء من العصافير حتى الحيتان، وإن خبرته بالأسلحة والمقذوفات النارية لا تقدر بثمن..
وأنا لست غيورًا..
لم أكن أبدًا من هؤلاء الذين يحبون ألا ينصب الاهتمام على سواهم.. إلا أنني شعرت بغصة في حلقي وأنا أرى علامات الانبهار على وجه (ماجي)، وهي تشرب كل كلمة وكل حرف من كلماته.. لقد حملها معه بكلماته إلى حوض الأمازون، وإلى غابات الكونغو وسهول الصين.. وكانت تحلم..

لست غيورًا أبدًا..
لكني أمقت أمثال هذا الوحش السادي، الذي يستمتع بتعذيب مخلوقات الله الجميلة..، فلا ينام قرير العين، إلا بعد أن يتأكد أن حيوانًا آخر لن يرى الشمس غدًا.. و... (ماجي) تحب هذا..
كان يقول:
- إن هذا الوغد (آنفريد) يستحق أن يمزق برصاصة.. ثم تسحق جثته.. وتقدم لطعام الكلاب في حديقة داري..!
حتى في حماسته للخير يبدو شريرًا كالشيطان ذاته..
كيف لم تلحظ (ماجي) والسير (جيمس) هذا؟!..
انحنيت نحو (ماجي) وهمست في أذنها:
- لماذا أحضر أبوك هذا السفاح ها هنا؟!
لم ترد لأنها كانت منصتة له، وقد التمعت عيناها، وانفرجت شفتاها قليلًا:
- (ماجي)..!
التفتت إلى في حيرة كأنني أيقظتها من حلم رائع.. وتساءلت:
- ماذا؟!
- لماذا أحضر أبوك هذا السفاح هنا؟
همست في ضيق:
- أعتقد أنه لا يوجد سوى تفسير واحد، ولا أظنك بهذا الغباء.. والآن دعني أصغ، لأن كلامه يثير اهتمامي بالفعل...
ثم عادت تصغي لكلماته بكل جوارحها..
ارتشفت كوب العصير الذي كان أمامي، وأنا أشعر أن كل ما في الكون من عصائر لن ينجح في إطفاء ظمئي، وإزالة المرارة في حلقي..
وانتهى العشاء..
مسح (إيوان) فمه بالمنشفة في فظاظة.. ثم أعلن أنه يجب أن ينصرف، على أن يعود باكرًا لمناقشة (الأعمال) كما قال..، وصافح السير (جيمس) وصافحني - بيد كأنها منحوتة من صخر - ثم تناول يد (ماجي).. وانحنى يطبع عليها قبلة وعيناه لا تفارقان عينيها..
ثم إنه انحنى، وانصرف..
قلت للسير (جيمس) في رعب بمجرد أن انغلق الباب:
- سير (جيمس).. لا تقل إنك ستتفق مع هذا الحيوان، على قتل وحش (لوخ نس)؟!
هز كتفيه في لامبالاة، وقال:
- إننا لم نتفق على شيء بعد، لكن قتل الوحش هو ما أريده منه فعلًا...
- ولماذا؟!..
نظر إلى في دهشة:
- هل لديك حل آخر؟!.
- نعم.. ما شأننا نحن بكل هذا؟!.. لم لا نبلغ البوليس وينتهي الأمر..؟
وضع يده على كتفي في صبر كأنه يعظ خاطئًا في محراب، وقال:

- يا بني.. إن قتل الوحش يعطينا فرصتين.. عصفورين بحجر واحد..، أولا هو سينهي سلسلة القرابين التي لابد أنها ستستمر طالما ظل (هولثروب) طليقًا.. ثم إنه سيحقق حلمنا العتيد.. ستكون لدينا جثة (لوخ نس) كاملة سليمة، كي يراها العالم ويشرحها العلماء ويحنطها أصحاب متحف التاريخ الطبيعي..

إن (فريزر) سيقدم لي مجدى العلمي - وثمرة صراعاتنا - على طبق من ذهب..

- ولكن - حتى إذا قبلنا هذا - كيف يستطيع قتله؟!

- تلك هي مشكلته..

ثم ابتسم وغمز لي وهو يخرج من القاعة:

- وثق بأنه سيجد لها مخرجًا..!

* * *

لم أحاول أن أجادل كثيرًا، لكني كنت أومن بأن وحش (لوخ نس) يستحق حياته، بعد أن عاش ثمانية قرون حرًا طليقًا، تمر به الأجيال..، ثم إنه ليس شريرًا أكثر من أسد لا يأكل سوى اللحم، ولا ذنب له في ذلك.. إذا ألقى أحدهم بإنسان إلى هذا الأسد والتهمه... عندئذ هل نعاقب الأسد أم المجرم الذي هيأ له ظروف الافتراس كاملة؟!

على أن هذا كله كان سابقا لأوانه، لأني أشك في أن يكون هذا المدعي قادرًا على إيذاء ما هو أكثر شراسة من الأرانب البرية..

إنهم يحاولون صيد هذا الوحش منذ عام ١٩٣٣.. وكلهم فشلوا.. فما الذي يجيد (إيوان فريزر) عمله، ويعجز عنه كل هؤلاء الذين سبقوه؟!

* * *

في الصباح ذهبت ل (ماجي) في حجرتها..

كانت الحجرة مفتوحة.. وعلى المنضدة جلست (ماجي) وحول أذنيها شيء يشابه جهاز (الهيدفون).. وأمامها أدوات نحت كاملة.. ومجموعة معقدة من الأسلاك، وجهاز مكروفون معلق على بعد سنتيمترات من فمها..

وكان هناك جهاز معقد، يشابه أجهزة رسم القلب، يخرج منه شريط طويل من الورق، عليه خطوط متعرجة، وبجواره ترموس قهوة وكوب نصف مليء..

وما أن رأتني حتى رفعت كفها محيية دون كلام..



كانت الحجرة مفتوحة .. وعلى المنضدة جلست (ماجى) وحول أذنيها
شىء يُشابه جهاز (الهيدفون) ..

قلت في فضول:.
- (ماجي).. ما هذا ال....
فأوقفتني بنظرة من عينيها.. وأشارت - بعتاب - إلى شريط الورق الذي أخذ يتحرك خارجًا من ذلك الجهاز، وعليه خطوط كثيرة متعرجة ومتكسرة..
الآن فهمت...
إنها تجرب جهازًا معقدًا يحول ذبذبات الصوت إلى رسوم (فونوجرام)، يسهل تحليلها وقياسها.. ولكن ما جدوى هذه التجربة، وما الذي يدفعها في هذا الوقت لكي تتذكر أنها فيزيائية؟
وهنا رأيتها تتناول شيئًا طويلًا أبيض كالبوق، وتقربه من فيها ثم تنفخ فيه أمام الميكروفون.. لا شيء لا صوت..
إلا أن الشريط أخذ يزحف خارجًا من الجهاز، وقد امتلأ بالخطوط المتلاصقة..
مدت يدها إلى زر بالجهاز وأطفأته، ثم نزعت (الهيدفون) عن رأسها وهي تتنهد الصعداء.. ثم صبت لنفسها بعض القهوة في الكوب، وناولتني الترموس وكوبًا آخر:
- اشرب!.. ساعد نفسك لأني مشغولة..
قلت وأنا أجلس، وقد فهمت أن (حظر السؤال) قد انتهى:
- لا أريد.. والآن ما الذي تفعلين؟
- كما ترى..
أمسكت بالبوق الذي صنعته بين أناملي، وتأملته معجبًا:
- إنه جيد الصنع.
- شكرًا.. احترس حتى لا تتعثر في هذه الأسلاك..
- من أين جئت بالعاج الذي قمت بنحته..؟
- إنها قطعة أعطانيها (إيوان فريزر) أمس..
- يا له من لطيف!
قصت (ماجي) قطعة الورق المرسومة عليها الخطوط الأخيرة.. ثم نهضت واتجهت إلى قطعة من الورق الشفاف، مرسومة عليها خطوط مماثلة، معلقة بجوار فراشها.. ووضعت القطعتين فوق بعضهما..
- ما رأيك؟!
كانت الخطوط المتعرجة تتطابق تمامًا في الورقتين.. لكني لم أفهم شيئًا.. لهذا سألتها في حيرة:
- رائع.. ولكن ما معنى هذا؟
فأفهمتني في حماسة: أن الورقة الشفافة تحوي ذبذبات الصوت، التي كان يحدثها البوق القديم المسروق - بوق الفايكنج - أما الورقة الأخرى، فتحوي ذبذبات بوقي الذي قضيت الليل أنحته، محاولة الوصول إلى تردد وطول موجاته..
إنهما يتطابقان تمامًا..
ثم قالت في فخر:
- إن هذا يعني أنها أعادت صنع البوق الذي يستدعون به وحش (لوخ نس).
- ولكن لا صوت له على الإطلاق..

- كلا.. إنها ذبذبات ذات تردد عال جدًا يفوق قدرات الأذن البشرية، لكن آذانًا أخرى تسمعها.. مثل صفارات الكلاب تمامًا..

إن وحش (لوخ نس) يعرف هذه الذبذبة وينتظرها..

- لو كان هذا صحيحًا لاقتحم علينا الغرفة الآن، وهو يبصبص بذيله كالكلاب.. فلابد أنك نفخت في هذا البوق عشرات المرات..

ضربتني بقبضتها في كتفي بدلال، صائحة:

- لا تكن سخيفًا.. إن مدى صوت هذا البوق لن يصل للبحيرة إلا إذا نفخنا فيه عند قلعة (إيركهارت)...

وتأملت البوق في انبهار شديد.. انبهار المثال بتمثال رائع انتهى منه لتوه، وقالت:

- هكذا يمكننا أن نستدعى (نيسي) وقتما يشاء (إيوان) كي يقتله.. لقد أنهيت مهمتي، ولم يبق سوى نحت القلادة..

وفتحت كتابًا أمامها، أخرجت منه ورقة مرسوما عليها بالقلم الرصاص. عن طريق التظليل - نسخة طبق الأصل لقلادة الفداء المسروقة... رسم خشن يصور تنينا يلتهم فتاة وهي تنظر إلى السماء.. وحولها حروف مزخرفة لا تنم عن ذوق جيد..

- (رفعت)!.. سأكون بحاجة لعونك، فأنت تجيد الرسم والنحت. علينا أن نصنع قلادة برونزية تماثل تمامًا هذا الرسم..

- بكل سرور.. ولكن ما الداعي إليها..؟!

قالت وكلها دهشة من حماقتي:

- أحيانًا لا أفهمك يا (رفعت)..

كيف يفترسني وحش (لوخ نس) إذا كنت لا أرتدي قلادة الفداء؟!

* * *

١٠ - خطتنا يجب أن تنجح..

فرد (إيوان فريزر) على المنضدة لفافة الورق التي يحملها.. وأشار إلى نقاط حمراء متناثرة هنا وهناك، مستعملًا طرف سيجارته المشتعلة كمؤشر..

- ها هي ذي..!.. شبكة كاملة على عدة أعماق من الألغام البحرية القذرة.. تكفى لمسة واحدة لزر المفجر، كي تتطاير أشلاء هذا الوحش في الفضاء..، سنمرح كثيرًا.. هي هي هي!

قال سير (جيمس) في ذعر:

- لحظة أيها السفاح..!.. نحن لا نريد قتل الوحش فقط، بل نريد قتله والاحتفاظ بجثته سليمة لغرض البحث العلمي..

مضغ (فريزر) سيجارته، وقد بدا عليه الإحباط.. واستدرك:

- نعم.. بالفعل!.. ثم إن الانفجار سيفتت المرأة أيضًا..!

هكذا..!.. هذا الوحش الفظ يقول عن حبيبتي الرقيقة (ماجي)..المرأة.. حقًا إنه لا يملك ذرة لياقة.. وليس - على أية حال - ذكيًا..

شرع الرجل يهرش راسه دقائق، ثم قال:

- الواقع أنني لا أجد حلًا يقتل هذا الوحش، دون أن يمزقه.. تقول لي إن طوله ١٢ مترًا..؟!..

- نعم.. هكذا قالوا..

- هذا كثير.. هممم!

ثم قال بعد تردد:

- الواقع أن هناك حلًا غير مرض.. هو أن نجتذبه ليقترب، ثم نصوب خراطيش قوية - مثل تلك التي نستعملها في صيد الخراتيت - إلى مقاتله.. إلى عينيه وما بينهما وحلقه..

قال سير (جيمس):

- لكن هذا يجعل الخطة كلها تتوقف على رد فعلنا لحظة خروجه من الماء، وعلى دقة تصويبك..، ثم إنه بالقطع سيتلوى ويثور، ولن نأمن ضربة من ذيله - إذا كان له ذيل - تطيح ب (ماجي) أو تمزقها..

صحت في غضب حقيقي:

- لا زلتما تتحدثان كان (ماجي) ستقبل فعلًا أن تقف في موقف الضحية أمام الوحش.. إنني أرفض.. وأمنعكما بشدة..!..

نظر (إيوان) إلي وإلى السير (جيمس) نظرة معناها - بوضوح - ماذا دها هذا الأبله؟!، أما السير (جيمس) فإنه نظر إلى في حزم، وقال:

- د. (إسماعيل).. إن قبول (ماجي) أو رفضها ليسا من شأنك.. إنها هي الوحيدة صاحبة القرار.. إنها تعرف أننا بحاجة لدورها.. وتعرف أننا لن ندع شرًا يمسها، فلا تلعب دور العاشق الحنون على حساب رصيد حبي لها كأب..

بمعنى آخر.. لست أنت الوحيد الذي يحبها في هذا العالم..

صاحت (ماجي) محاولة تهدئة الموقف:

- (رفعت).. أرجوك.. أنا أقبل ذلك، بل وأرحب به..
صحت وقد أوشكت على البكاء، خاصة أن السير (جيمس) لم يغضب علي هكذا قبلًا:
- إذن لم لا تقدمون له تلك الفتاة (إيريكا)؟.. أليست من أصل اسكندنافي يحبه هو؟
قالت (ماجي):
- إن البائسة لن تتحمل أية تجربة قاسية أخرى.. أما أنا فأتحمل..
وقال (إيوان) وهو ينظر ناحية (ماجي) في ثقة وخبث:
. ثم إن الوحش لن يفرق بين فتاة اسكندنافية، وفتاة اسكتلندية.. إن الفتيات يتشابهن جميعًا..!
يا لك من خنزير..!

* * *

وبدأت أقسى أيام حياتي..
كان (إيوان) يقيم عندنا ليلًا ونهارًا تقريبًا، ورائحة أنفاسه العطنة تلاحقني، وعباراته الفظة التي يغازل بها (ماجي) - أو يظن أنه يغازلها بها - تثقب مسمعي.. والسير (جيمس) يرحب.. و(ماجي) تبتسم.. وأنا أحترق!
لقد تغيرت (ماجي) كثيرًا..
لم أعد أرى نفسي في عينيها، وأعرف - في هلع حقيقي - أنني قد بدأت أفقدها..!
لقد كان هذا خطئي..
لقد أحببتها حبًا هادئًا منتظمًا كالنهر الراكد.. لا جديد فيه ولا مفاجئ.. إنني فقدتها في اليوم الذي عرفت هي فيه يقينًا أنها لن تفقدني!!، أما (إيوان) فهو الخيال ذاته.. هو البحر المتقلب الثائر، الذي لن تعرف أبدًا ما إذا كانت راقت له من عدمه، ولن يكف عن إحباطها وإثارة قلقها..
ان حبي الممل.. وإخلاصي الأبدي.. وانبهاري الخالد بها، هي الأسباب التي جعلتها تفلت كالماء من يدي..، والنساء لا يستغنين عن المحب المنبهر متقطع الانفاس خلفهن، لكنهن يردن - بالفعل - ذلك الوغد الوقح الفظ، الذي لا يعيرهن اهتمامًا كي بمشي أمامهن.. وليكن هذا درسًا لي في قصصي التالية، إن وجدت..

* * *

عاد (إيوان فريزر) إلى القصر حاملًا لفافة كبيرة.. وعلى المائدة الموجودة في قاعة الطعام أفرغها. أمام نظرات (جراهام) كبير الخدم المشمئزة - ليرينا ما فيها من عجائب.. وكانت هناك زجاجتان كبيرتان مليئتان بسائل ما، وقد تم لحام قاعدة كل منهما بشيء يشبه السهم..
- والآن ترون أحدث ما وصلت إليه..
ثم شرع يشرح لنا الفكرة. إن هذه الزجاجات مليئة بحمض الكبريتيك المركز ومجهزة بحيث يمكن تركيبها في فوهة بندقية الأعماق..
- وعند خروج الوحش فاغرًا فاه نقوم - أنا والأخ - بإطلاق هاتين الزجاجتين على فمه.. ستنفجران فورًا بالداخل وتحدثان قروحًا وحروقًا مروعة قد تقتله على الفور.. دون أن يصاب بأذى في جسده..

- وقد لا تقتله..!
قلتها في شك وبرود..، فقال لي بلهجة ساخرة:
- عندئذ.. ستهدأ حماسته ويغوص في الأعماق إلى أن نحرر المرأة ونفكر في فكرة أخرى..!!
أبدى سير (جيمس) حماسته للفكرة، وأيدته (ماجي) أما أنا فقد كان رأيي واضحًا أن مجزرة ستحدث نتيجة اقتراح هذا المعتوه.. إن (نيسي) لن يموت قبل أن يقلب البحيرة رأسًا على عقب، ويقتلع الصخرة وعليها (ماجي).. ويفترسنا جميعًا.. و... و...
- اسمعني يا أخ.. إما أن تقول فكرة أفضل أو تصمت..
فصمت..

* * *

وهكذا اقترب اليوم الموعود..
وبقلب جريح وروح قلقة، شرعت أعد القلادة البرونزية المشئومة التي سترتديها حبيبتي – السابقة - حين تقدم نفسها لوحش (لوخ نس)...
وشرعت أتدرب مع (ايوان) على استعمال البندقيتين الخاصتين بالأعماق، وعلى تركيب ونزع زجاجات الحمض الحارق من فوهات بندقيتيهما..
وعلمني (فريزر) أن أطلق بندقيتي، ثم أتراجع لأعيد حشوها، في الوقت الذي يطلق هو فيه بندقيته... وهكذا لا يتوقف سيل الزجاجات الحارقة لحظة..
- كلما المت الحروق الوحش، فتح فاه اكثر.. سيكون التصويب أسهل عندئذ..، سيكون مع كل منا أربع زجاجات فحافظ عليها..
الواقع أن (فريزر) لم يكن سيئًا إلى هذا الحد.. فقد علمني الكثير بالفعل..، ثم إنه لم يتقاض مليمًا من السير (جيمس) مقابل مجهوداته.. لقد كان حبه للتدمير خالصًا بلا أي غرض (دنيوي)... إن فكرة قتل هذا الوحش قد أنسته كل المطامع المادية، وقشور حياتنا السطحية!!
وجاء اليوم..

* * *

وأخيرًا جاء المشهد الذي بدأت به قصتي..
نحن الأربعة في قارب يتأرجح بين أمواج البحيرة، متجها نحو صخرة القرابين المشئومة.. والضباب يغمر سطح الماء ويجعل الرؤية عسيرة تمامًا، مما سيجعل مهمة التصويب شديدة التعقيد...
(ماجي) ترتدي القلادة في صمت، وتفك دبوس شعرها كي تتناثر خصلاته الشقراء على كتفيها..
السير (جيمس) يتأكد من ثباتنا وإصرارنا على الاستمرار - ما عداي بالطبع - ثم يساعد (ماجي) في الصعود للصخرة، التي تناثرت عليها عظام عشرات الأكف، لفتيات في عمر الزهور، سبقنها ها هنا منذ ثمانية قرون..

ثم قام (إيوان فريزر) بربطها - رباطًا صوريًا غير محكم - إلى العمود الخشبي، وتأكد أنها بحركة بسيطة تستطيع تحرير يديها والفرار في أية لحظة تريد...

ثم إننا تركناها واقفة.. وحيدة.. عزيزة إلى نفسي.. شجاعة..

ونزلنا إلى القارب.. وأوصلنا السير (جيمس) الى صخور الشاطئ المجاورة لقلعة (إيركهارت).. ثم عدنا - أنا و(إيوان)- إلى الصخرة حيث اختبأنا في القارب وعينانا على (ماجي)..اعني على شبحها الواقف وسط الضباب..

وكان على السير (جيمس) أن ينفخ في البوق، حين تصير الساعة الثانية عشرة تمامًا..

في صمت نعد بندقيتينا.. ونرص زجاجات الحامض في قاع الزورق.. (إيوان) متوتر تمامًا لكنه يداري ذلك بقناع من ثقل الدم والتعالي.. أما أنا فيكاد قلبي يثب من فمي لو جرؤت وفتحته.. لهذا أصمت...

كان الضباب باردًا ثقيلًا كالكابوس، وكان هناك طائر شؤم لا أعرف نوعه، يحوم حول الصخرة في دوائر متلاحقة..، في حين أخذ القارب يتأرجح..

اشعل (إيوان) سيجارة، ومد يده إلى حقيبته، فاخرج منها كشافًا يخرج منه سلكان.. ثم بطارية سيارة، أوصل بها طرفي السلكين مستعملًا (بنسة) صغيرة، وأضاء الكشاف، فانبعث نور أصفر كئيب، نجح في إزالة الضباب حول الصخرة، وبدت لنا (ماجي) واقفة وهي تضيق عينيها من أثر الضوء.. وكان موقعنا في الماء على بعد عشرين مترًا من الصخرة:

- مصباح فوسفوري.. إنك لا تنسى شيئًا..

قلتها له في إعجاب..، فقال وهو يرمي السيجارة في الماء بعد نفس واحد منها، لأن أعصابه لم تتحمل المزيد من الدخان:

- بالطبع... إن الضباب يفسد تسعين في المائة من الخطط المحكمة.. هذه حقيقة..

- المهم الآن ألا يتعكر مزاج الوحش، لأنه لم يعتد هذه المؤثرات المسرحية على مائدة العشاء..

قال (فريزر) وهو يشعل - لا شعوريًا- سيجارة أخرى..

- لا أظن.. ولا أعتقد أنه سيلاحظ الضوء أساسًا..

ثم نظر إلى ساعته، وهمس بقلق:

- بقيت ثلاث دقائق...

الطائر يحوم حول الجزيرة أحيانًا، فتلتمع عيناه الشريرتان في ضوء الكشاف، ثم يخرج من دائرة الضوء ليصير مجرد ظل مرفرف في السماء القاتمة..

القارب يتأرجح في بطء..

دخان السيجارة ودقات قلبي.. وحلقي الجاف..

قبضة (إيوان) تتوتر على البندقية..

الآن أرى - بعين الخيال - السير (جيمس) واقفًا في الظلام عند قلعة (إيركهارت) يرفع البوق العاجي إلى فمه.. وينفخ..

تبًا لهذا الصمت..!

هذا الصمت المشئوم الذي تكاد تسمع له ضجيجًا يدوي في أذنيك، ويكاد يخرقها.. صمت له كيان ملموس ثقيل.. و...

صفحة الماء تتحرك..

تصلبت قبضتي على البندقية..
شيء أسود ضخم يرتفع من البحيرة والماء يتساقط منه والأمواج تثور وتتعالى..
في بطء وثقة ينفض عن نفسه قطرات الماء ويتحرك.. الآن نرى ذلك الشيء.. الرأس والعنق.. والعينين..
وسمعت (فريزر) يهمس حتى أن السيجارة سقطت منه:
- يا للهول!!
كائن أسطوري خارج من كتب التاريخ الطبيعي، ومن أساطير الفايكنج، يرفع رأسه فوق سطح مياه البحيرة، ويتقدم من الصخرة.. العنق طويل كعنق الأفعى.. الرأس عملاق تلتمع فيه عينان ناريتان.. ثم معرفة الحصان التي تحدث عنها الشهود ولم تصدقها مسز (جولد)...
لم يكن قد دخل دائرة الضوء بعد، لكني كنت أرتجف هلعًا من أن أرى بوضوح وجهة المريع، الذي عرفه غزاة الشمال تمامًا..
رفعت بندقيتي تجاهه، إلا أن يد (فريزر) المرتجفة أمسكت بيدي، ولأول مرة لمحت الرعب في عينيه الوقحتين، وهو يهمس:
- لا تطلق.. لقد أجهضت خطتنا..!!
- ماذا؟..
- إن حساباتي خاطئة.. لن يجدي مع هذا الشيء سوى (الطوربيد).. فلا تثر هياجه.. عملية فاشلة..
- ولكن...
- إن تأثير قذائفنا، لن يحدث سوى ما يحدثه كوب من الشاي الساخن في لسانك.. سيثور.. ويفتح أبواب الجحيم علينا وعلى المرأة..



رفعت بندقيتى تجاهه ، إلا أن يد (فريزر) المرتجفة أمسكت بيدى ..

ثم بدأ يتحرك بالمجذاف تجاه الصخرة ببطء وحذر.. وكان الوحش يتقدم بنفس السرعة والتؤدة من الجهة الأخرى، أخرج (فريزر) سكينًا من حزامه، وهمس وهو يقذفه إلى:

- حاول أن تحرر الفتاة.. سأراقب ظهرك من هنا..، عد بها وسنعود للشاطئ بأقصى سرعة.. إن هذا الشيء ثقيل الحركة أو هذا ما أرجوه..

وثبت - حاملًا بندقيتي - إلى الصخرة... إلى المسرح المعد للمأساة، وألقيت نظرة على المشهد الرهيب، الذي ستراه الضحية..أي رعب وأي هلع كانت تشعر به الفتاة المقيدة، وهي ترى ذلك الشيء الأسطوري يتجه نحوها هي..؟!.. لم يزل بعيدًا لحسن الحظ.. لهذا جريت خلف (ماجي) وشرعت أمزق قيودها بالسكين، دون أن تسألني عن شيء.. عيناها مثبتتان - كالمنومة مغناطيسيًا. على الوحش الذي يتقدم رافعًا رأسه من الماء في صمت نحوها هي.. هي...

- (ماجي) يا حبيبتي.. لن نحاول أكثر.. لقد أدركنا قصورنا..

(ماجي).. إنني..

* * *

وهنا - وقبل أن أفهم ما حدث - وثب فوقي خيال أسود من إحدى الحفر الموجودة في الصخرة.. والتحم معي محاولًا انتزاع السكين من يدي، وهو يسبني بلغة لا أعرفها..، اتخذت وضع المقاومة تلقائيًا، ووجهت له لكمة قوية بمؤخرة البندقية فوق رأسه.. ثم ركلة محمومة في أسفل بطنه..



اتخذت وضع المقاومة تلقائيًا ، ووجهت له لكمة قوية بمؤخرة البندقية على رأسه ..

لكن الوغد كان قويًا.. وسرعان ما استعاد توازنه، ووجه إلي ركلة أقوى من ركلتي في بطني، جعلت أذني تصفر والهواء يندفع من فمي، لكني - لحسن الحظ - لم أكن أملك ترف الإغماء..

صاح من بين أسنانه بالإنجليزية وهو يرفس السكين من يدي:

- يا أولاد الشياطين!.. إنكم ستفسدون كل شيء!!

وهنا سقط الضوء على وجهه.. فلمحت شاربه الأصفر، وشعره الطويل.. لم أحتج لإضاعة الوقت كي أعرف من هو.. (آنفريد هولثروب).. (آنفريد) الذي اختبأ طيلة الوقت فوق الصخرة - في هذه الحفرة - منتظرًا كي يرى ما سنفعله.. وفي هذه اللحظة الحرجة يعلن عن وجوده بأشرس الطرق.. والأسوأ أنه استطاع أن يتنزع مني السكين.

تأملت وجهه المسعور المجنون، وأسنانه البيضاء التي يكشف عنها كالذئاب، وأدركت أنني لن أهزمه أبدًا.. ولكن أين (فريزر)؟؟..

- إنكم ستثيرون غضبة (أودين) أيها الحمقى!.. لا تحاول حرمان الوحش من القربان أيها الكلب الإنجليزي..!!

إن الوحش يقترب من الصخرة..

لا وقت لدي.. لكن (ماجي) منبهرة تمامًا، ولن تكون ذات عون لي.. وهذا المتعصب يلوح بالسكين في وجهي، وقد بدا لي أنه يعرف هذا السلاح جيدًا، وسيستخدمه كأفضل ما يكون.. لا يوجد خيار لدي.. صحت:

-... والآن يا بني لم يعد لدي وقت.. لقد أردت ذلك!

وضغطت على زناد البندقية فانطلقت زجاجة الحمض الحارقة نحوه من مسافة لا تتجاوز أربعة أمتار.. انفجرت الزجاجة في وجهه وجسده وتناثر رذاذها علي.. وسمعته يصرخ كإنسان يتعذب في أعماق الجحيم.. ورأيته يتلوى راقصًا رقصة الألم المجنونة.. وشممت رائحة اللحم المحترق..

ولحسن الحظ لم ار وجهه فقد خرج من دائرة الضوء..

إنه يترنح.. يصرخ..، ينهض ثم يلقي بنفسه في الماء وهو يردد عبارات لا أفهمها، بلغة لا أعرفها..، كان يسبح تجاه الوحش دون أن يعرف ذلك أو يرى شيئًا..

وهنا..

مد الوحش عنقه الطويل مدليًا رأسه في الماء الثائر، وفتح فيه الذي تملؤه الأنياب.. و...

انتثر الماء ملوثًا بسائل أحمر.. ولمحت يدين تحاولان إبعاد الفكين العملاقين.. وصرخة هلع.. ثم... لا شيء.

وارتفع الرأس في ثقة مستقرًا فوق عنقه.. ثم بدأ هذا الكابوس الحى يغطس في الماء ببطء ورزانة، محدثا دوامة هائلة حوله وقد أخذت الفقاقيع تتكاثر فوق السطح.. وثمة أشياء لا أدري كنهها تتأرجح فوق صفحة الماء. ثم ساد الصمت..

تركت (ماجي) وجريت إلى الزورق لأرى.. إن كون (فريزر) لم يأت ولم يفعل شيئًا بعد كل هذه الأحداث، لا يعني سوي شيء واحد..، وهناك وجدته ممدودًا على قاع الزورق، ورأسه ينزف.. لقد ضربه المخبول بشيء على رأسه لكنه لم يزل حيًا.. إذن لقد سبح من الشاطئ إلى الصخرة، وضرب (فريزر) بالمجداف من الخلف، ثم تسلق الصخرة محاولًا منعي...

همس الصياد في إنهاك وهو يستند على ذراعي:

-... الوحش...؟!
- لقد نال قربانه الأخير ورحل..
ونظرت ناحية البحيرة، التي عاد سطحها يغفو على ما فيه من أسرار...
لقد استحق وحش (لوخ نس) حريته وحياته.. ولن يستطيع مخلوق أن ينتزعهما منه بعدنا..

* * *

خاتمة..

قال السير (جيمس):

- وهكذا انتهت تلك القصة، دون أن نقدم للعالم دليلًا على وجود هذا الوحش، ناهيك عن جثته..، لقد ضاع كل هذا المجهود هباء..

ثم إنه نظر نحوي في لوم:

- لو أنك لم تلق للبحر بقلادة الفداء والبوق العاجي، لاستطعنا تدبير لقاء آخر مع هذا الوحش، نكون فيه أكثر استعدادًا.. لكني - اصارحك - لست غاضبًا منك إلى الحد الذي أحاول أن أبدو به...

قالت (ماجي) باسمة وقد استعادت لياقتها بعد نوم عميق:

- المشكلة أن (رفعت) اقتحم غرفة نومي بالأمس، واجبرني على...

- على ماذا..؟!

- على حرق كل ما دونته عن تردد وأطوال الموجات الخاصة بالبوق، حتى لا أحاول صنع بوق آخر..، بل إنه مزق الورقة التي رسمنا عليها القلادة اللعينة..

هز سير (جيمس) رأسه في حسرة، ونهض ليستعد للسفر إلى أدنبرة، واعدًا بأن يأخذني معه..، قلت لـ(ماجي) وأنا أرتب ثيابي أمام المرآة الموجودة في قاعة الجلوس:

- هكذا سيظل الوحش ذخرًا لاسكتلندا، يتساءل الناس عن كنهه، ويفرحون بلقطة رديئة يبدو فيها من تحت الماء.. إنه سيعتاد أكل الأسماك مرة أخرى، وينسى كل هذا الهراء إلى أن يجد أحدهم البوق مرة أخرى بعد قرون.. وينفخ فيه..

نظرت إلى (ماجي) وفي عينيها تلك النظرة الثابتة التي أخشاها، وهمست:

- للأبد؟!

- ماذا؟

- قلت إنك باق معي للأبد.. فلماذا ترحل الآن؟!

- هل نسيت (إيوان فريزر)؟!

نظرت إلى في ذهول.. ثم أخذت تضحك وهي تصفق بكفيها:

- إذن أنت تغار من (إيوان فريزر)؟.. لم أدرك من قبل ذلك.. ولم أعرف أنك معدوم الثقة بالنفس إلى هذا الحد... دع عنك هذه الخزعبلات يا (رفعت).. لو كنت سأقع في غرام كل من يحكي لي قصة مسلية، فأنا لم أزل طفلة غريرة.. إنه مسل لكنه مهرج كبير وجزار.. فهل تظن أنني بلهاء إلى الدرجة التي لا أفهم فيها هذا؟!

ثم مدت سبابتها إلى أنفي مداعبة:

- أنا لم أعد مراهقة.. إنني.. أقترب من حافة الأربعين..، والمرأة في سن الأربعين تفهم ما هو الحب...

- لكني...

- إن المرأة تحب رجلها ليس لأنه أقوى الرجال، ولا أوسمهم. ولا أغناهم، بل لأنه هو.... هل تفهم هذا؟.. لأنه هو بضعفه وبقوته.. بهزاله وربوه وضيق شرايين التاجية.. لأنه هو..، والحب

ليس استعراض قوة لكنه طاقة عطاء دافئة مستمرة.. كيف أنسى نضالنا المشترك بهذه البساطة؟
ازداد وجومي.. فمنطقها بارع وذكي.. لكني لم أسترح بعد.. إلى أن قالت:
- ثم إنك لست معدوم الحيلة إلى هذا الحد.. إنك قد أنقذتني وأنقذت (إيوان فريزر) نفسه..، إنك فككت قيود حبيبتك كما يفعل (طرزان) مع (جين) في نهايات أفلامه..، ومن أجلي
قلت في حزن مواصلًا كلامها:
- وقتلت...
- لم تقتله لأنه هو الذي رمى بنفسه أمام الوحش.. ثم إنه تم يترك لك الخيار.. وهذا هو الفارق بينك وبين (فريزر) الذي كان سيحكي احتراق (آنفريد) بالحمض في فخر شديد لو أنه كان مكانك..
ارتجفت تأثرًا - إعجابًا بنفسي!! - وكاد البكاء يغلبني، إلا أني تمالكت نفسي، وأخبرتها أنني يجب أن أذهب مرة أخرى، لأن جذوري هنالك في مصر.. عملي وأهلي وبيتي وقبري..، وأنني حين وعدتها بالبقاء معها لم أكن أدري ما أقول.. وكنت مدفوعًا ببركان عاطفي، يقذف الوعود بلا حساب..
قربت وجهها من وجهي، وهمست في حزن شفاف:
- للأبد...؟!
- ماذا؟!
- ستظل تذكرني.. إذن للأبد..؟
- وحتى تحترق النجوم.. وحتى...
وهنا صاحت في هلع وهي تشير إلى شيء خلف ظهري:
- (رفعت)!.. إن هذه الحلة الحديدية الخاصة بالسير (آرشيبالد ماكيلوب) تتحرك!!.. أقسم على هذا.. إن هناك شبحًا في هذه القاعة!!..
لقد انتهينا من الأخ (نيسي) لكي يبدأ هذا الاخ (آرشيبالد ماكيلوب) في تنغيص حياتينا..!..
قلت في إحباط وأنا أبتعد عنها، وأرتب حقيبتي:
- سأعود من أجل هذا الموضوع يومًا ما.. حاولي أن تحتفظي بهذا الشبح في حالة جيدة من أجلي!
- فليكن.. هذا وعد..!
وبعد أسبوع - أو أكثر - عدت لبيتي في الدقي بالقاهرة العزيزة.. وذكريات جديدة تتخذ أماكنها في متحف ذكرياتي، وفوق رفوف خواطري..، ظننت أن مشاكلي قد انتهت، ولكني - كالعادة - كنت مخطئًا، كان هناك كابوس آخر ينتظرني في نفس المنزل الذي أسكنه، ونفس الطابق.. ولكن هذه قصة أخرى!.

د. رفعت إسماعيل

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة..

١ - ذكريات..

٢ - إنفرنسشاير..

٣ - أسطورة وحش البحيرة..

٤ - مرة أخرى..!

٥ - صخرة التضحية..

٦ - القبو..

٧ - الورطة..

٨ - نهاية لغز..

٩ - إيوان فريزر..

١٠ - خطتنا يجب أن تنجح..

خاتمة..

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة وحش البحيرة

هناك من سمعوا صوته يزأر
فى الظلام، وهناك من شاهدوه يتحرك
على صفحة البحيرة ..، قليلون سجلوا صوته
.. وقليلون جدًا تمكنوا من تصويره .. لكن واحدًا
.. واحدًا فقط استطاع أن يصل إلى ما هو أكثر ..،
والآن ألقوا هذا الكتاب جانبًا فقد حان وقت الرعب
الحقيقي ..، إلى بحيرة (لوخ نس) فى إسكتلندا
.. وتذكروا .. أن نصفكم لن يعود من هناك أبدًا
!!..، تعالوا مع الدكتور رفعت إسماعيل لتبحثوا
عن وحش البحيرة في الظلام .. ولكن لا
تندموا على قراركم هذا ..

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة آكل البشر

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

مقولة حقيقية.

[←2]

كل الشخصيات والأحداث في هذا الفصل حقيقية.

[←3]

السونار: كلمة هي ملخص الحروف الأولى من المقطع (الملاحة بالصوت وترديده)، وهو عبارة عن رادار مصغر يرسل الموجات فوق الصوتية ويستقبلها حين تريد، وله كثير من التطبيقات في الطب وعلوم البحار.

[←4]

فالهالا: هو الاسم الذي كان يطلقه الاسكندنافيون والجرمان على العالم الأخر.. وكان الأخيار في عقيدتهم يدخلون الفردوس فيجلسون على موائد عليها لحوم الخنزير البري التي لا تنفد ويشربون اللبن المقدس من عنزة (هايدروكس).. أما الأشرار والخونة فيذهبون إلى مملكة الجحيم (نيفهايم) حيث يلاقون أعتى ألوان العذاب..

[←5]

أحدب النوتردام رائعة الكاتب الفرنسي فيكتور هيجو.. في نهاية القصة تموت الغجرية الحسناء (ازميرالدا) فيصر الأحدب (كوزيمودو) على أن يدفن معها.. وتنتهي القصة بموقف الهيكلين العظميين المتشابكين كرمز لخلود الحب..

[←6]

دانتى اليجيرى: شاعر إيطالي عبقري من عصر النهضة، كتب ملحمة الكوميديا الإلهية، وفيها تخيل أن حبيبته (بياتريس) - التي سبقته في الموت في سن الشباب - تهديه في العالم الآخر وتريه كل شيء هناك. والقصيدة تشابه في وجوه عدة (رسالة الغفران) للشاعر (أبي العلاء المعري)...

روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

أسطورة أكل البشر

ماوراء الطبيعة

٤



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

٤

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة آكل البشر

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

٤

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

•

أسطورة آكل البشر

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

روايات مصرية للجيب



أسطورة آكل البشر

مقدمة..

قبل أن أحكي قصتي التالية، اسمحوا لي أن أعرفكم بنفسي مرة أخرى ولا يتململن منكم أولئك الذين قرءوا هذه المقدمة مرات عديدة قبل ذلك، لأنها ضرورية.. لمن لا يعرفني منكم كي يعرفني.. ولمن يعرفكم مني كي لا ينساني!.. وأنا لا أحب أن تنسوني..

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل).. الطبيب المصري الذي يزحف الآن نحو السبعين من عمره، ويعيش وحيدًا مع جبل من الذكريات التي كانت مريعة يومًا ما، ثم غدت - بمرور السنين - مجرد خواطر باسمة من أيام شبابي..

لقد أسعدني الحظ في حياتي، بأن يسدد خطاي إلى كل مكان يغفو فيه مصاص دماء، أو يجوبه شبح، أو يجول به وحش.. ولكم من مخاطر واجهت.. ولكم من مؤامرات كشفت.. ولكم من أسرار أدركت..

و هأنذا لم أزل قادرًا على الاستمتاع بالحياة، وعلى النوم ملء جفوني وعلى الإمساك بالقلم وكتابة هذه السطور..

والآن سنعود بالزمن إلى عام ١٩٦٥.. وأنا في الأربعين من عمرى، حين تعرفت لأول مرة على آكل لحوم البشر!..

ولم يكن هذا في أحراش إفريقيا، ولا صحارى أستراليا، بل هناك في العمارة الأنيقة التي أعيش بها في الدقي..

ولكن.. لماذا أحرق قصتي قبل أن أكتب حرفًا منها؟! اقلبوا هذه الصفحة.. وستفهمون كل شيء..

* * *

١ - إنني ارتاب!

القاهرة في ١٢ ديسمبر ١٩٦٤

أخي العزيز (عادل):

لقد ترددت كثيرًا قبل كتابة هذا الخطاب، من ناحية لأنني لم أعودك على أنني ذلك الشخص، الذي يمسك القلم ويكتب الخطابات كباقي خلق الله.. ومن ناحية أخرى لأنني أعرف انشغالك الدائم في عملك، مما يضيف بهذا الخطاب - وضرورة الرد عليه - عبئًا جديدًا إلى أعبائك..

كيف حالك أيها الصديق؟ وكيف حال عائلتك؟!.. لقد عدت من أحد المؤتمرات العلمية في اسكتلندا، منذ حوالي خمسة شهور.. وأكاد أسمعك تقول: اسكتلندا مرة أخرى!.. نعم.. اسكتلندا مرة أخرى، بعد رحلتي القيمة من أجل رسالة الدكتوراه في جامعة داندي..

هل تذكر (ماجي)؟!.. هل تذكر قصائدي السخيفة التي صدعت رأسك بها - وكلها قصائد عربية لن تفهم هي حرفًا منها.، وجولاتنا على كورنيش الإسكندرية في سان ستيفانو، نتناقش حول القرار الخطير.. هل أهاجر من مصر وأعيش هناك معها للأبد، أم أنسى الأمر برمته؟!.. كنت أريد أن أتزوجها، وأريد. في الوقت ذاته - أن أعيش في مصر.. ذلك الاختيار الذي جعلته (ماجي) مستحيلًا..

ولكم من مرة حاولت إقناعي بالهجرة، ولكني رفضت.. هل تصدق أنني قابلت (ماجي) عند الأستاذ (جيمس ماكيلوب) وكانت لم تتزوج بعد؟!.. لقد حدثت أشياء كثيرة، وواجهنا أخطارًا مروعة حقًا، مما جعل روحينا تتمازجان أكثر من ذي قبل.. وللمرة الثانية انتزعتها من روحي، كأنك تحاول اقتلاع ضرس سليم من فمك دون تخدير..

ما علينا.. المهم أنني قد عدت إلى شقتي الجميلة، وبدأت في إجراء بعض التجديدات.. مثلا قمت بتركيب ورق حائط، وغيرت قطع الأثاث، واستبدلت بالمصابيح العادية كشافات نيون أنيقة، (كما جرت الموضة في هذه الأيام).. إلا أن شعورًا من عبثية الأمر كله، ينغص على مشاعري.. من أنا؟.. وماذا أفعل؟.. وما الهدف من حياتي؟

إنني - كعهدي - ذلك الذئب الوحيد الذي لا يملك أصدقاء ولا زوجة ولا أهلًا، إنهم يعيشون في عالمهم الخاص به - في كفر بدر - ولا يعبئون كثيرًا بمشاكلي، طالما لم أختر الحياة معهم.. ويبدو أن (رضا) أخي - بعد موضوع النداهة الذي حكيته لك - قد صار يؤدي للأسرة كل ما قد تحتاجه مني...

لست إنسانًا تعسًا. إلى الحد الذي قد تظنه، لكني - بالقطع - لست إنسانًا سعيدًا..

ومحاولًا إزالة هذه السآمة التي تخيم على روحي، بدأت أتعرف على الجيران..! هل تصدق أن (رفعت) صديق صباك يتعرف على الجيران؟.. صدق كل شيء في هذا الزمن الغريب ؛ لأني لم أعد نفس الشخص البري الذي تعرفه..

وفي العمارة التي أعيش بها، توجد عشر شقق مسكونة، وخمس شقق مغلقة بالمفتاح، هناك لواء شرطة قديم - ربما كنت تعرفه - (اسمه محمد حليم).. يعيش مع زوجته بعد أن تزوج أبناؤهما جميعًا.. وهناك مدرس مواد اجتماعية له أسرة كبيرة، وهناك مهندس وزوجته وابنتاه، وهناك

طبيب آخر غيري.. الخلاصة أن كل الأسر أسر مصرية تقليدية جدًا.. طيبون ودودون، لكنهم لن يفهموني أبدًا ولن يجود أحدهم علي بحديث ذكي ينعش روحي، بعد كل الضغوط التي عانيتها..

شخص واحد أعتقد أن له أعماقًا - وإن كنت لا أعرف كنهها - يعيش في نفس الطابق الذي أعيش فيه.. وهو شاب في الثلاثين من عمره، صموت وحاد النظرات، ولون بشرته غريب جدًا، وهو ضابط بحري - كما قال لي البواب - يعيش وحده ولا يصادق أحدًا، ولا يتحدث مع أحد.. وقد اعتاد أن يتغيب شهورًا عن شقته، ربما كان يقضيها على سفينة ما في عرض البحر، يدفع قبلها الإيجار مقدمًا، ويترك مبلغًا لدفع فواتير الماء والكهرباء مع البواب..

أعتقد أنني - لو استطعت كسر حاجز التحفظ - لربما وجدت لديه شيئًا من الذكاء والثقافة.. لقد تعلمت دائمًا أن أحترم الصامتين، وأرى فيهم أعماقًا رائعة.. فإذا تكلموا اكتشفت أي مغفل كنته...!

لكني سأحاول التعرف على هذا الفتى...

والآن لا أجد أخبارًا أضيفها إلى خطابي.. لكني أطمع في رد مفصل منك يذيب حاجز المسافات والسنين

ودمت لي..

المخلص: رفعت إسماعيل

* * *

الإسكندرية في ٢٠ ديسمبر ١٩٦٤

عزيزي رفعت:

تلقيت خطابك في سعادة، لأنك لم تزل تذكرني بعد هذه الأعوام.. وأسعدني أكثر أنك لم تزل حيًا، بعد كل هذه المصائب التي تطاردك في انجلترا ورومانيا، وحتى في قريتك البائسة.. واضح من كلامك أن مصيبة أخرى قد لاحقتك في اسكتلندا، الأمر الذي يقنعني أنك إنسان منحوس، إن لم يبحث عن المشاكل، فالمشاكل لابد باحثة عنه..

والآن اسمع كلامي يا (رفعت)... كف عن الترحال ؛ لأن من رأى أكثر، هو بالقطع معرض لأخطار أكثر.. لماذا لا تكف عن لعب دور الذبابة، التي لا تستقر في مكان؟.. لماذا لا تصير كالأخرين؟.. لماذا لا تتزوج؟..

إن مشكلتك هي كونك - بصراحة - مغرورًا.. ولأنك مغرور تحسب أنك أذكى من أن تعيش حياة الآخرين..

اسمع نصيحتي، وحاول أن تبقى في بيتك، وأن تتعرف على جيرانك الظرفاء، وأن تشتري جهاز تليفزيون مثلي، لأنه أعجوبة حقيقية1! أمامه نجلس أنا (وسهام) و(أشرف) ابني نشاهد العالم كله... ونحن آمنون في بيتنا..

أنا في أفضل حال والحمد لله..

لكن ينغص حياتي ها هنا، تلك المشكلة التي نواجهها في مديرية الأمن، وهي هذه السلسلة الغامضة من الجرائم الشنيعة، التي لن أحكيها لك حتى لا تؤرق منامك.. لكن هناك شيئًا واحدًا أقوله لك: إنني أرتجف في كل ليلة، وأسأل الله أن يحفظ أبناءنا وأحبابنا من هذه الأشياء المروعة..

أعتقد أنك لا تعرف شيئًا عن هذا الموضوع؛ لأنك في القاهرة أولًا، ولأن تعتيمًا إعلاميًا مكثفًا قد فرض على هذه القصة، حتى لا تحدث ذعرًا عامًا..

أنا مشغول الآن..

لذا استميحك عذرًا في إنهاء خطابي، وأنتظر منك خطابات طويلة ممتعة كعهدنا بك قبل أن تنسانا.

وشكرًا...

أخوك: عادل توفيق

* * *

القاهرة في ٢٤ ديسمبر ١٩٦٤

أخي (عادل):

إنني أتساءل عن حال الجو عندكم في الإسكندرية، فالجو هنا عاصف والأمطار الرعدية لا تتوقف.. والبرد يكاد ينفذ للعظام فيجمد نخاعها..

أنا جالس الآن في الفراش تحت الأغطية الثقيلة.. وجو الغرفة دافئ خانق ملوث بالكيروسين، بسبب تلك المدفأة اللعينة التي أهديتها لي منذ ست سنوات، ويا لها من هدية!!..

أرشف كوبًا من الشاي الساخن، وأدخن في شراهة، كأن كل هذا الدخان لا يكفيني كي أختنق...

لقد قرأت خطابك، وقلت: مرحى!..ها هو ذا صديق صباي قد نال رتبة (عقيد)، ولم يعد لديه وقت كاف ليكتب خطابًا محترمًا لأمثالي!، ثم قلت لنفسي إن هذا الرجل مشغول، ولديه أسرة وجهاز تليفزيون، مما يجعل هذه السطور التي أرسلها تفضلًا جمًا منه...

أما عني أنا، فليس هناك ما يشغلني، سوى محاولتي التودد إلى الجيران، وخاصة ذلك الشاب الذي حدثتك عنه..

إن هذا الشاب غريب جدًا..

أكثر من مرة يدخل شقته أمامي - أو سمعته يفعل - وأضاء نور الصالة، فإذا ذهبت وقرعت بابه لم يفتح لي.. ستقول إنه يتهرب مني لنفور شخصي تجاهي.. ولكن من أدراه أنني أنا الطارق2؟

وفي كل ليلة - في منتصف الليل - أسمع صوت رتاج شقته يفتح، وصوت خطواته على درجات السلم.. فأين يذهب في هذا الوقت؟.. ولماذا لا يطفئ أنوار شقته مادام خارجًا؟!..

إنني قد وجدت هدفًا لا بأس به لحياتي، ألا وهو مراقبة هذا الشاب، وإماطة اللثام عن حياته الخاصة.. ولا أكتمك أن شعورًا غامضًا ينتابني، بأن هذا الشاب يراقبني بنفس الحرص!!..

لقد سأل البواب عني منذ أسبوع.. وقد أخبره الأحمق بكل شيء تقريبًا عني وعن سؤالي الفضولي عنه، ومنذ ذلك الحين رأيته يرمقني في اهتمام أكثر من مرة..

أغرب شيء يتعلق بهذا الفتى، هو صفيحة قمامته الموجودة بجوار باب شقته.. أنا لست فضوليًا بطبعي، ولكن حين تجد صفيحة قمامة مليئة بتذاكر السفر المستعملة، وكلها من وإلى الإسكندرية لابد أن تندهش...

لقد سافر هذا الفتى عشرات المرات إلى الإسكندرية في العام الماضي، ولست أفهم لماذا لا يستخرج اشتراك سفر بالقطار يوفر ماله أو يسافر بسيارته (الشيفروليت) الزرقاء، التي لم أره يستعملها الا مرتين؟!

لقد أطلت عليك في موضوع قد لا يعنيك بالمرة.. فاغفر لي ثرثرتي..

سلامي للجميع بلا استثناء.

أخوك: رفعت إسماعيل

* * *

الإسكندرية في ٢٧ ديسمبر ١٩٦٤

عزيزي (رفعت):

من قال إن هذا الموضوع لا يعنيني؟..

إن حاستي (الأمنية) تتحرك.. وقد نجحت في إثارة فضولي بالفعل، ويبدو أنه قد أردت ذلك دون مداراة..

إن هذا الجار يخفي سرًا.. وهذا السر لا يمكن أن يكون شيئًا مشروعًا، لأنني أشتم هذه الأمور عن بعد.. وأراهنك على ذلك..

حاذر من هذا الشاب...

إن هناك أمورًا كثيرة لا أرتاح إليها في قصتك..

وإنني أرتاب!...

* * *

٢ - الزيارة..

القاهرة في ١ يناير ١٩٦٥
أخي العزيز (عادل):
أكتب لك هذا الخطاب في أول أيام العام ١٩٦٥. راجيًا من الله أن يجعله عامًا باسمًا عليك وعلى الأسرة.. وأن ينضم عميد شرطة إلى قائمة أصدقائي عما قريب!..
أنهيت خطابك السابق بكلمة تليق برجل شرطة محنك، هي: إنني أرتاب.. ولعمري لقد ذكرتني هذه الكلمة بكلمة (أميل زولا) الخالدة: إنني أتهم!.. في سلسلة مقالاته الشهيرة، التي لابد أنك نسيت كل شيء عنها3؟
تسلمت هذا الخطاب في ليلة رأس السنة..
كنت وحدي - كالعادة - أجلس في فراشي وحولي عشرات المراجع الطبية، وبجواري المدفأة اللعينة، وكوب الشاي إياه، وفوقي عدد غير عادي من البطاطين.. لكني كنت أرتجف!.. وكانت الدموع تكاد تثب من عيني ؛ لأنه ما من إنسان يعبأ بي أو يقول لي كل عام وأنت بخير.. مجرد ليلة أخرى وعام آخر يضاف إلى أعوامي الأربعين..
في الراديو يترنم (عبد الوهاب) بأغنية ما.. وثمة بطاقة من إدنبرة، تحمل توقيع (ماجي) تتمنى لي عامًا سعيدًا، وتقول إنها قد... خطبت!..، ولا ألومها على شيء، لأنني لم أكن فاعلًا أي شيء من أي نوع يبقيها لي.. إن الأمور قد سارت في مجراها الطبيعي، وكل شيء على ما هو متوقع، ولكن ما سر هذه الغصة في حلقي؟!!
و(عبد الوهاب) لم يزل يتغنى..
وهنا دق جرس الباب...
تململت.. وشعرت بالضيق، لأن ترك الفراش في هذا الزمهرير. وبعد أن صار دافئًا كحضن أمي - أمر غير إنساني..، أطلقت سبة وشرعت أنتظر الدقة التالية التي ستجعل فتح الباب أمرًا لا مفر منه..
ولكنها لم تأت..
كانت الساعة الثانية عشرة والربع مساء، ولم يكن من المتوقع أن يدق أحد جرس الباب في هذه الساعة إلا لأمر هام..
أضف إلى هذا أن من يدق الجرس لأمر هام، لابد أن يعاود الكرة عدة مرات في لهفة وفي جزع.. ولا يبدي هذا الصبر المبالغ فيه..
إن هذا التناقض قد أثار ريبتي..
من ثم أزحت الأغطية، وانتعلت شبشبي والروب، واتجهت عبر الصالة المظلمة إلى الباب، وفتحته بحذر بعد أن أضأت مصباح المدخل..
كان السلم مظلمًا، لكن نور المصباح نجح في إزالة الظلمة إلى حد ما.. وعلى الضوء الخافت، كان جاري الشاب واقفًا، وقد ارتدي معطفًا أنيقًا، وبدت عليه علامات الحرج.. وكانت قطرات الماء تبلل شعره وكتفي معطفه وأنفه..

- مساء الخير.. أرجو عدم المؤاخذة..
قالها بصوت عميق فيه رجولة ورزانة..
- مساء النور.
تنحنح كمن يجد الأمر صعبًا.. ثم همس:
- إنني قد عدت لتوي للبيت.. وكنت أوشك على تناول عشائي و..!..، أعني هل أجد عندك بعض التوابل؟!.. أنا أموت جوعًا..
توابل؟!!
توابل في منتصف الليل؟!.. لابد أن أحدنا مجنون!.. لا أعتقد أن (ماجلان) الذي دار حول الكرة الأرضية من أجل التوابل، كان يجرؤ، على إيقاظ جاره في هذه الساعة من أجلها..
ماذا كنت تفعل لو كنت مكاني؟!.. بالطبع كنت ستوجه إليه عبارات اللوم، وتصفق الباب في وجهه، أو تحطم أسنانه، أو تقتله دون مناقشة..
لكني لست كالآخرين...، وأنت تدرك أنني لا أستطيع حقيقة أن أغضب على أي شيء.. ثم إن أسلوبه المهذب، جعل من المستحيل على أن أطرده أو أزجره.. أضف إلى هذا أنني كنت لم أنم بعد، ولقد قدم لي الحظ فرصة التعرف إليه على طبق من فضة.. فهل أرفضها؟!
دعوته للدخول إلى أن أحضر طلبه، فلم يكذب خبرًا..
أجلسته في غرفة الجلوس.. وكانت رائحة البلل والبرد تفوح من معطفه وشعره وكل شيء..
رفع عينًا حذرة إلى جدران الحجرة وسقفها ثم قال:
- بيتك يوحي بذوق رائع..
شكرته على هذه المجاملة.. فقال وهو يعبث ببطارية نسيتها على المائدة..
- لابد أنها المدام.. صاحبة هذه اللمسات الساحرة..
فأفهمته الحقيقة - برغم أنني واثق بأنه يعرف أنني غير متزوج..
- إذن تعيش وحدك؟!
كدت أرد بالإيجاب، لكن الحافز الخفي المجهول، الذي جعلني أتخذ أغرب القرارات في حياتي (وأحكمها) ذلك الحافز جعلني أقول كاذبًا:
- هناك صديق يعيش معي.. وسيعود بعد قليل..
ابتسم في رزانة قائلًا:
- آه من حياة العزاب هذه...!
ابتسمت وتركته متجهًا نحو المطبخ... وفتحت النملية الخشبية، وشرعت أسكب في أوراق صغيرة ممزقة من الجرائد، بعض الفلفل وبعض الشطة وبعض البهارات...
- أنت تكره غسيل الصحون مثلي!!
وهنا أجفلت.. لقد كان واقفًا خلفي في المطبخ، يرمق الأطباق المكدسة في الحوض، والتي تعود لأسبوع مضى.. متى أتى؟ وكيف لم أسمع خطواته؟!.. وأية وقاحة دفعته للسير بهذه الحرية في بيت لا يعرفه؟!.. كأن عزوبتي قد أعطته تصريحًا غير مباشر بأن يتنقل في داري كما شاء..
هل أطرده؟.. الواقع أنني شعرت أن اللحظة المناسبة لذلك لم تأت بعد، وأنه لم يرتكب حتى هذه اللحظة جريمة حقيقية أعاقبه عليها.. إنه يفتقر للياقة وهذا كل ما هنالك...
لففت التوابل التي اخترتها له في أوراق صغيرة.. ثم سألته:

- لم أعرف اسمك بعد..
- اسمي (عزت).. (عزت شريف)...
ومد إبهامه في إحدى الأوراق، وأخرجه ملوثًا بالشطة، ولعقه في تلذذ:
- أنا ضابط بحرية تجارية.. وأعيش وحدي هنا..
كانت ملامحه واضحة أمامي الآن كأفضل ما يكون، وقد بدا لي وسيمًا إلى حد ما، لكن نظراته حادة بشكل مزعج.. ثم شفتاه الرفيعتان الصارمتان توحيان بقسوة غير عادية، دعك من لون بشرته الذى هو خليط من اللونين الأسمر والأصفر.. والهالات الداكنة تحت عينيه.. ونحوله الشديد...
كل هذا كان يذكرني (بالمظهر الترابي)، الذي يصف الأطباء به وجه مريض الفشل الكلوي المزمن..
أما يداه فكانتا معروفتين شديدتي الخشونة، مما جعلني أندهش من أن يوجد إنسان عمله كتابي - وليس يدويًا - ويملك هاتين اليدين..
على كل حال - أعترف - لم يكن وجوده مريحًا على الإطلاق، وقد بدا لي أن الصداقة لن تجمع بيننا أبدًا. وأنني أرغب في الخلاص منه بسرعة..
إلا أنني - على سبيل اللياقة - فتحت (النملية) وأخرجت منها قطعتين من الجاتوه، كنت قد أبقيتهما على سبيل الاحتفال برأس السنة وحدي، إلا أنني لم أعد أشعر بأية شهية تجاههما..، وضعت القطعتين في طبق وقدمتهما إليه مع شوكة صغيرة متمتمًا:
- كل عام وأنت بخير.. هذا هو احتفالي الصغير برأس السنة..
حاول الاعتذار إلا أنني ألححت عليه.. وبدا لي مجبرًا أكثر مما يحتمله الأمر.. وهنا حدث شيء غريب..
ما إن دس بقطعة الجاتوه الأولى في فمه، حتى بدت عليه أعتى علامات الاشمئزاز، وتقلصت ملامح وجهه، وأشار - في تشنج - إلى فمه المليء.. ففهمت..، قدته بسرعة إلى الحمام وهو يكتم بيده شفتيه.. وحشرجة محمومة تسبقه..
وسمعته - خلف الباب - يتقيأ..



ما إن دس بقطعة الجاتوه الأولى فى فمه ، حتى بدت عليه أعتى علامات الاشمئزاز ، وتقلصت ملامح وجهه ..

غريب هذا..! لا أظن أن الجاتوه كان سيئًا إلى هذا الحد، ولا أظنه فسد بهذه السرعة في هذا البرد تذوقت القطعة الباقية في طبقه، فوجدتها ممتازة.

وهنا عاد من الحمام يترنح، وقد ازداد وجهه اصفرارًا.. وقال وقد لاحظ أنني تذوقت الجاتوه:

- معذرة.. معدتي.. إنها لا تحتمل الحلوى..

- وكيف ستحتمل كل هذه التوابل إذن؟!!

- هذا.. أعني.. انعكاس شرطي.. اشمئزاز لا أكثر.. والآن أشكرك، وآسف على الإزعاج..

وكور قبضته على الأوراق الملفوفة على التوابل.. ثم سار مترنحًا إلى الباب الخارجي، وأحنى رأسه محييًا وانصرف...

يا لها من زيارة!!

على العموم لم أزل أعتقد أن له أعماقًا ما.. فكلمة (انعكاس شرطي) لا ترد على ألسنة الناس العاديين، مالم تكن لديهم خلفية واهية من علم الفسيولوجي، أو علم النفس أو كليهما..، ثم إنه رزين ومتزن بلا شك..

والآن.. هل ما زلت تشك في (كاره الحلوى) هذا؟!

تحياتي واكتب لي سريعًا...

أخوك: رفعت إسماعيل

* * *

الإسكندرية في ٧ يناير ١٩٦٥

عزيزي (رفعت):

سيصلك هذا الخطاب بعد رأس السنة بعشرة أيام على الأقل، مبرهنًا مرة أخرى على أنك الأكثر مجاملة وودًا ورقة مشاعر.. أشكرك على البطاقة الرقيقة، وعلى خطابك الطويل الذي كتبته على أربع ورقات (فلوسكاب)، مما يشي بقدر من المودة أرجو أن يستمر طويلًا!

حكيت قصتك، ثم سألتني في آخرها: هل ما زلت تشك؟!..

طبعًا أشك.. وقد ازداد شكي إلى حد غير عادي...

الواقع أن منطقك وسردك للأحداث، يعكسان بلاهة قلما أصادفها..

تقول إنه زارك بعد منتصف الليل، وتجول في شقتك دون إذن، ثم تصفه بأنه شاب مهذب رزين...

يقول هو إنه جائع، ثم يتقيأ بمجرد أن يضع قطعة جاتوه في فمه..

يقول هو إنه كان على وشك تناول عشائه، وبرغم هذا ثيابه وشعره مبللان ما يوحي بأنه قد عاد لتوه من الشارع.. أنت - حين تعود لبيتك في يوم ممطر - تخلع معطفك، وتجفف شعرك.. ثم تدخل المطبخ، وتبدأ في البحث عن شيء تأكله، وتجهز كل شيء.. ثم بعد نصف ساعة على الأقل، تكتشف أنه ليس لديك توابل، وتفكر في اقتراضها من الجيران..، وغالبًا لا تفعل..

ثم ما نوع المعدة التي تتحمل كل هذه التوابل قبل النوم ولا تتحمل قطعة جاتوه بريئة؟!..

وما هو نوع العمل اليدوي، الذي يجعل اليدين خشنتين في مهنة الضابط البحري؟!...

ثم إنه قد فاتك شيء شديد الأهمية، وعهدي بك أنك تلاحظ جيدًا.. كيف تقول إن ثيابه كانت مبللة، في حين أن السماء لم تمطر في أية بقعة من مصر في تلك الليلة.. ليلة ٣١ ديسمبر سنة ١٩٦٤؟!..

لقد قرأت النشرة الجوية بعناية - لأنها لم تمطر عندنا في الإسكندرية يومها - بل سألت أخي المقيم بالقاهرة تليفونيًا.. فمن أين جاء هذا (الأخ) بالمطر..؟!

ستقول لي أن منطقي يلتهم بعضه، وأنني شككت - في النقطة السادسة - في إحدى الأساسيات التي بنيت عليها النقطة الثالثة!

حسن.. أنا لا أعبأ بهذا الهراء، ولا وقت لدى من أجله...

كل ما أريد أن أقوله لك هو.. خذ الحذر ولا تفرط في الثقة بهؤلاء الأشخاص الودودين الذين يأتون ليلًا..

إن عندي الكثير من القصص المأساوية، التي تشابه قصتك، وكانت نهايتها دائما في محكمة الجنايات، أو منضدة الطبيب الشرعي!

أما بخصوص (ماجي)...

فتقبل عزائي الحار على سلبيتك وترددك، وعاطفتك التي جعلتك تفقد أول وآخر حب في حياتك، والآن حاول أن تنسى تلك الذكية العطوف المليئة بالحيوية، وحاول أن تجد زوجة!، وعندي لك واحدة ليست ذكية ولا عطوفًا ولا مليئة بالحيوية، لكنها زوجة!!.. وهي أخت (سهام) زوجتي.. مدرسة في التاسعة والعشرين من العمر، خارجة من تجربة فاشلة لا ذنب لها فيها..

والمهم أن نراك في الإسكندرية لنرتب لقاءكما معا في بيتي.. لا تندهش.. فهذه الزيجات التقليدية، هي التي تنجح دائمًا.. ثم إنك لست أفضل مني.. وأنا تزوجت

تحياتي وشكرًا جزيلًا.

أخوك: عادل توفيق

* * *

القاهرة في ١١ يناير ١٩٦٥

عزيزي عادل

أكتب لك هذا الخطاب، وأنا أشعر أن هناك أشياء غير عادية تحدث في الشقة المجاورة...!

* * *

٣ - المزيد من الالغاز..

(بقية خطاب د. رفعت):

.... صباح اليوم كنت ذاهبًا إلى الجامعة كعادتي، وركبت سيارتي، وأدرت المحرك، حين فوجئت بجارنا الأستاذ (زكريا) - أستاذ المواد الاجتماعية - يهرع ليلحق بي، ثم ينحني على نافذة السيارة ليلومني..

- على ماذا؟

- على دق (الهاون) طيلة الليل ونحن نيام...

نسيت أن أقول لك أن الأستاذ (زكريا)، يقطن في الطابق الواقع تحت ذلك الذي أسكنه..، وعلاقتي به شبه معدومة، لأنه يعتقد أن رجلًا أعزب يعيش وحده، هو - بلا جدال - وغد منحل يحسن عدم الاختلاط به!! وهو ينتظر ويتوقع ويثق تمامًا أنني سأجلب العار للعمارة يومًا

وهو يقين لا أرى ما يبرره، أنا الذي لم أشرب في حياتي سوى السجائر - وأتمنى لو لم أفعل - ودخلت في دائرة الكهول منذ عام...

المهم أنني أخبرته أنني لم أفعل.. وليس لدي أي سبب يدفعني لذلك، وأن طعامي إما محفوظ، وإما قادم من قريتي وإما في مطعم قريب..

قال في ضيق وهو ينصرف:

- إذن هو الملعون الآخر..!

يعني بالطبع (عزت) - وهو ما أعتقده أنا - لكني لم أفطن لحظتها إلى ما يعنيه بالملعون الأول..!.. إنه أنا بطبيعة الحال..!!

إذن فهذا الشاب يقضي الليل في دق شيء ما على الأرض.. لا أعتقد أنه مولع بالطهي إلى هذا الحد المريع، حين يطلب التوابل بعد منتصف الليل، ويدق الهاون في ساعات الفجر.. لكني لم أسمعه بالطبع وإلا أخبرتك..

قد أقول إنه غريب الأطوار وأكتفي بهذا التفسير السهل...

لكن.. لا.. هناك سر أعمق من كل هذا وأخطر..

أمس جاءني البواب (عم شعبان) حاملًا قطعة من العظام.. وقال لي ان هناك من يرمي عظامًا في منور العمارة..

ولما كان منور العمارة مشتركًا مع العمارة الملاصقة لها، فإنني لم أجد هذا دليلًا كافيًا يسوغ غضبه على سكان عمارتنا..

وكان يريد مني تعهدًا بأن أكف عن رمي عظام اللحم من المنور، إذا كنت أنا ذلك الهمجي الذي فعل ذلك.. قالها وهو يلوح بالعظمة في وجهي..

كانت العظمة عظمة كتف نظيفة وبيضاء..، وكان يمكن أن تنتهي القصة هكذا، لولا أنني أتذكر علم التشريح جيدًا.. وأعرف تمامًا أن هذه العظمة لاتشبه عظام البقرة، ولا الجاموس، ولا الخراف، ولا أي حيوان ثديي أعرفه سوي....

وهكذا طلبت منه باقي العظام ونفحته ربع جنيه..، ولن أنسى أبدًا النظرة التي نظر إلي بها تقول بكل وضوح: هو ذا مجنون أخر..! ثم إنه نزل في السلم وعاد إلى بعد دقائق لاهثًا، وهو يلف كل ما وجده من عظام في جريدة قديمة..

أخذت هذه العظام، وحملتها لغرفة مكتبي، وعلى ضوء الأباجورة شرعت أتفحصها..



وهكذا طلبت منه باقى العظام ونفحته ربع جنيه ...،
ولن أنسى أبدا النظرة التى نظر إلى بها تقول بكل وضوح:
هو ذا مجنون آخر ..

كانت هناك عظمة الكتف التي وصفتها.. ثم بعض العظام الصغيرة، التي يبدو أنها من عظام الكف العديدة.. وكانت هناك فقرات.. وعظمتا ترقوة.. وبعض الأضلع.. ورأس عظمة فخذ مكسورة..

وكان واضحا أن العظام ليست كلها لنفس (الكائن) لأن أعمارها تفاوتت من حيث درجة تكلس الغضاريف والتحام الأطراف.... إلخ....

إنهم يستعملون في الطب الشرعي اسلونا اسمه (الترسيب المناعي)، لمعرفة العظام الآدمية من عظام الحيوانات.. وأنا لا أملك هذه الوسيلة، لكني أملك خبرة لا بأس بها.. وأملك عيني..

فلتقطع ذراعي ان لم تكن هذه العظام آدمية..!

أشعلت سيجارة، وشرعت أفكر وأنا أتأمل الدخان المتوج في ضوء الأباجورة..

إذا كانت العظام بشرية، فما معنى ذلك؟!..

أنا أعرف أن هناك طالب طب في العمارة المجاورة لنا..لكن ما الذي يدعوه لإلقاء العظام في منور العمارة؟! إن الهياكل العظمية التي يدرس عليها طلبة الطب، لا تلقى أبدًا في القمامة، ولكنهم يقرضونها أو يبيعونها عند الانتهاء منها، وهكذا دواليك.. تنتقل العظام من يد ليد، إلى أن تبلى تمامًا أو يدفنها أحدهم..

إذن فهذا الاحتمال مرفوض..

الاحتمال التالي، هو أن أحدهم سقط في المنور وتحللت جثته وهو احتمال مرفوض أيضًا، لأن منور العمارة ليس مكانًا منسيًا إلى هذا الحد.. وبالتأكيد ليس كهفًا في جنوب إفريقيا، أو مقبرة في وادي الملوك...

الاحتمال الثالث هو أن هناك من قتل شخصًا - في إحدى العمارتين - وألقى بعظامه من المنور..

وهو احتمال سخيف، لان المنور ليس المكان الأمثل لإخفاء الجثث لنفس الأسباب السابقة..

أضف إلى ذلك أن العظام مأخوذة من عدة أشخاص.. وأنني لم أجد عظمة واحدة كبيرة - كالفخذ أو الساعد - تدعم النظريتين الأخيرتين...

أسمعك تقول: إن هناك احتمالًا رابعًا، هو أنني لا أفقه شيئًا، وأن العظام عظام حيوانية ببساطة.. وهو احتمال محترم ولا بأس به إلا أني لا أميل إليه كثيرًا..!!

ترى ما هو رأيك في هذا اللغز؟!..

هل ترى أن أبلغ البوليس عن هذا..؟.. لاشك أنه أقدر بوسائله. على معرفة من ألقي بهذه العظام، ولأي سبب، ومن أين جاء بها..

لقد صدعت رأسك - كالعادة - بهذا الخطاب، وأعتقد أن الوقت قد حان لأن أنتهي.. انتظر منك خطابًا مطولًا..

وعلى فكرة.. إنني على وشك تركيب تليفون يريحني من كتابة الخطابات ويريحك من قراءتها.. ورقمه هو ٨٢٧ ١٠، فلا تنس أن تتصل بي بعد شهر لأسمع صوتك، مادام سفري للإسكندرية، أو سفرك القاهرة متعذرا في الوقت الحالي. وشكرًا.

أخوك: رفعت إسماعيل

* * *

الاسكندرية في ٢٠ يناير ١٩٦٥
أخي (رفعت):
آسف على تأخري في كتابة الرد على خطابك، لأني كنت في غاية الانشغال..
لقد قرأت خطابك، وقرأت أنك تود إبلاغ البوليس..
حسن.. إنك تنسى دائما أنني أنا أيضًا بوليس!، وعليه أريد هذه العظام جميعًا.. وعليك أن تلفها لي في ورقة مناسبة.. وسيحضر إليك خلال أيام الأخ منصور - وهو زميل فاضل - وستجده يرتدي ثيابًا مدنية، ومعه ورقة مني، فأعطه هذه العظام سيوصلها إلي...
وبالطبع لا أريد ثرثرة مع أي إنسان حول هذا الموضوع..
نقطة أخرى هامة جدًا...
لا أريد أن أثير رعبك، ولكنني قد تحققت بوسائلنا المعقدة من أطقم ضباط كل السفن البحرية التجارية، المسجلة في هيئة الملاحة.. والنتيجة سلبية..
بمعنى أنه لا يوجد ضابط بحرى اسمه (عزت شريف) على وجه الأرض..
لا يوجد.. ولم يوجد..
والآن ترى أن علامات الاستفهام قد ازدادت، إلى حد يجعل أقدامنا مكبلة.. وهناك خدمة أرجو أن تقدمها إلى
هل تستطيع إرسال شيء - أي شيء - كوب ماء أو ملعقة عليها بصمات هذا الجار العجيب؟!.. إنه لم يفعل حتى اليوم شيئًا خطيرًا يبرر لنا طلب بصماته، لكني سأحاول البحث والتحقق، مما إذا كان قد فعل شيئًا في الماضي..؟
لهذا أرجو أن تساعدني، وتعطي هذا الشيء ملفوفًا في منديل إلى الأخ (منصور) حين يأتيك بعد أيام...
ألف مبروك على التليفون.. وأرجو أن ترد على اقتراحي بخصوص شقيقة زوجتي، لأنك تجاهلت الأمر كليًا.

عادل توفيق

* * *

القاهرة في ٢٥ يناير ١٩٦٥
أخي (عادل):
أكتب هذا الخطاب في الحادية عشرة مساء، وقد انصرف (منصور) منذ دقائق حاملًا ما طلبته مني..
بالأمس. وفي تمام العاشرة مساء - دق جرس الباب ففتحته لأجد (عزت) واقفًا على السلم.. حييته فطلب مني كوبًا من الماء لأن المياه مقطوعة عنده، ولأن أحدهم - حتمًا - قد عبث في عداد المياه الخاص به...
المهم أنني تمالكت فرحتي، وهرعت إلى المطبخ..

ونظفت كوب ماء بمنديلي بعناية شديدة ثم حملته على كفي في حذر، ووضعته في طبق وحملته إليه...

وكان قد دخل الشقة - كعهدي به -، وأخذ يتأمل ديكورات الصالة..، ناولته الكوب بيد مرتجفة فشكرني، وشرع يحسو الماء بصوت مسموع..

ثم إنه أعاد إلى الكوب شاكرًا، فتناولته من قاعدته بأطراف أصابعي، وبحركات بهلوانية. حتى لا أتلف البصمات الثمينة التي نقشها على الزجاج - وضعته في الطبق وهنا لمحته ينظر إلى يدي في شك.. ويسألني:

- لماذا تمسك الكوب بهذه الطريقة؟

كان السؤال مباغتًا.. وأرتج علي للحظة، ثم تمالكت نفسي وقلت:

- إن يدي ملوثتان بالكيروسين.. كنت أصلح المدفأة، ولا أحب أن تلتصق الرائحة بالكوب..

- فهمت.. إنها حياة العزاب هذه..

وعاد يتأمل في الشقة ثقيلًا.. لزجًا.. كئيبًا..، ثم إنه حياني بهزة من رأسه وانصرف.. ولم تفتني تلك النظرة التي ألقاها على الكوب قبل أن يخرج..

والآن صارت لدي بصمات أصابعه كأوضح ما يكون، وقد لففت الكوب في منديل نظيف وأعطيته لـ (منصور) حين جاءني اليوم..

طبعًا أسمعك تقول الآن: إن (عزت) لم يبتلع ما قلته عن إصلاح الموقد، لأن رائحة الكيروسين لا تفوح من يدي، لكني أقول لك: هل لديك حل آخر؟. كان هذا هو العذر الوحيد الذي استطعت إيجاده من وحي اللحظة.. والآن أرجو أن تبلغني النتيجة بمجرد أن تعرفها..

وألف شكر.

أخوك: رفعت إسماعيل

* * *

الإسكندرية في ٢ فبراير ١٩٦٥

أخي (رفعت):.

كنت مشغولًا بفحص العظام والبصمات: لهذا لم أكتب إليك بالسرعة المرجوة..

لقد أكد خبير الطب الشرعي، أن العظام بشرية.. أما خبير البصمات فلم يجد أية سوابق معروفة، لصاحب البصمات التي على الكوب....

والغريب أنه يؤكد أن هذه البصمات، واتجاه الخطوط بها من نمط غريب جدًا لم يره من قبل.. بالإضافة إلى أن جلد صاحب هذه اليد خشن، إلى درجة لا توصف، مما يجعل بصماته غير ذات نفع تقريبًا..

أما آخر ما قاله، فهو أن هذه البصمات المشوهة، موجودة بإفراط وبكثرة على العظام.. العظام التي أرسلتها..!!

* * *

٤ - سوء تفاهم..

ديترويت في ١٥ يناير ١٩٦٥
بروفسير د. (محمد شاهين).
زميلي العزيز:
مع بدايات العام الجديد، أهنئك بمنصبك العلمي الجديد، كأستاذ الأنثروبولوجي4 بجامعة (....)، وأعتقد أنهم قد أحسنوا الاختيار في هذه المرة على الأقل.
إننا نفتقر - بشدة - إلى وجودك العلمي الحميم بيننا.. وإلى حضورك وآرائك الصائبة..، وفي هذا الوقت بالذات، أعتقد أن هناك حاجة ماسة إليك، في إحدى المشكلات العلمية المعقدة التي أتمني دراستها معك.
تتذكر بالطبع مناقشاتنا القديمة عن مذهب الكانيبالزم - أو أكل لحوم البشر -، وكيف أنني كنت أرى أنه طبيعة في أي مجتمع بشري بدائي، في حين كنت أنت ترى أنه لا يشكل طبيعة إنسانية، وإنما هو نتاج ظروف معقدة ومعتقدات أسطورية قديمة، منها أن المجتمعات البدائية كانت حين تأكل البشر، تعتقد بذلك أنها تكتسب مزاياهم، وتمنع أرواحهم من ملاحقة أفرادها.. وكنت تستشهد بفقرات كاملة من كتاب (الغصن الذهبي) لـ (فريزر) الذي يتحدث عن حياة وعادات الإنسان البدائي.. ذلك الكتاب الذي لا أحترمه كثيرًا للأسف..
لقد جاءت الفرصة لإثبات أينا على حق...
والآن دعني أحك لك هذه القصة، التي أخبرني بها أحد تلاميذي المصريين، وحدثت منذ سنوات خمس عندكم..
المهندس (شاكر) شاب مهذب متحضر يعمل في إحدى شركات البترول.. عمره ثلاثون عامًا.. غير متزوج، وليس له أقارب معروفون..
كل من عرفوه قالوا إنه متدين ونقي اللسان، لا يذم ولا يشي، وقد نال رضا رؤسائه ومرؤوسيه بما لا يقبل الشك..
والآن تخيل معي..
يذهب هذا المهندس في مهمة علمية في الصحراء الغربية.. جولة استكشافية بالطائرة، لا يرافقه فيها سوى اثنين من المهندسين والطيار..
وبالطبع مع طائرة صغيرة بمحرك واحد كهذه، تحدث الحوادث بكثرة..
انقطع الاتصال، ولم تفلح فرق الإنقاذ بعد اسبوعين من البحث، في العثور على أي أثر للضحايا الأربع.. برغم إرسال عدة طائرات لمسح المنطقة.. "
وأعلنت الشركة أنها تعتبر مهندسيها والطيار مفقودين...
هل تعرف هذه النوعية من القصص؟...
ثم - بعد شهرين - يحدث ما تتوقعه.. يعود المهندس (شاكر) بعد أن وجده بعض البدو.. وكان في صحة لابأس بها ؛ أما زملاؤه فهلكوا جميعًا..

وكان واضحًا أنه ظل جوار حطام الطائرة، ينتظر في يأس أن يجده أحدهم، واستطالت لحيته وأظفاره، وتمزقت ثيابه تمامًا.. وقد لوحت الشمس بشرته حتى كادت تحرقها.. كما أن الرمد الصديدي كاد يلتهم عينيه..

لكنه - وأكررها - كان في صحة لا بأس بها..



وكان واضحًا أنه ظلّ جوار حطام الطائرة ، ينتظـر فى يأس
أن يجده أحدهم ..

سادت الفرحة أوساط زملائه.. ووسط هذا الهرج، لم يلحظ أحد أنه لم يحك تفاصيل حياته في منفاه الإجباري هذا.. وهذا ينافي الطبيعة البشرية الثرثارة، التي نعرفها.. إن واحدًا مثله كان سيحكي قصته للجميع..ولربما نشرها في كتاب اسمه (ثلاثون يومًا في طائرة) أو (سجين الصحراء) أو شيء من هذا القبيل..!

لم يلحظ أحد هذا في غمرة الفرحة.. كما أن أحدًا لم يسأل نفسه عن التغذية التي كان يحصل عليها ليحتفظ بهذه الصحة الجيدة.. ولم يسأل أحد نفسه عن عظام الطيار والثلاثة المهندسين، التي وجدوها في الطائرة نظيفة لامعة بشكل غير عادي..

إلى هنا والقصة عادية..

ثم بدأ المهندس (شاكر) يتغير.. صار أكثر شحوبًا، واصفر لون وجهه.. شفتاه صارتا قاسيتين جافتين، وبنيته صارت ناحلة، ولم يعد يثرثر أو يمزح، وقد عزا زملاؤه هذا التبدل، إلى التجربة المريعة التي أحدثت شرخًا في شخصيته يصعب التئامه..

واستقال من عمله.. وترك منزله دون أن يودع جيرانه...

والآن تعال معي نفكر فيما حدث..

لايحتاج المرء إلى ذكاء كثير، كي يعرف نوعية الطعام التي كان يحصل عليها في الصحراء، وبين جثث زملائه.. فهذه القصص تحدث كثيرًا، منها قصة المكسيكي الذي سقطت به الطائرة فالتهم المضيفة.. والإندونيسي الذي افترس زملاءه في طوف تتأرجح به الأمواج في المحيط الهادي..

إن الجوع وغريزة الحفاظ على الحياة شريكان لا يجتمعان إلا على شر..

والآن فأنا وأنت واثقان أن هذا المهندس قد أكل لحم البشر.. والسؤال هو: هل استطاع التخلص من هذه العادة، التي حركت في داخله ذلك التراث البدائي الهائل، الذي غطت عليه الحضارة؟!

لقد ترك بيئته كلها، مما يعني أنه يريد أن يذهب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد فما هو غرضه؟.. ما هو نمط حياته اليوم؟.. ما هي التغيرات النفسية التي طرأت عليه؟!

أريد منك أيها الزميل أن تجد لي هذا المهندس - بأي ثمن - وأن تضعه تحت مجهرك لأنه نموذج حضاري غير عادي..

وللمزيد من العلم، أخبرك بأنه قد غير اسمه إلى (وحدت) أو (همت) أو شيء كهذا.. وهو يقيم في أحد أحيائكم المسمى بالدقي، وعنوانه هو ٤-أ شارع الترعة.. هذا هو العنوان الذي أعطانيه تلميذي المصري، الذي كان أقرب صديق لهذا المهندس، الا أن علاقتهما تهدمت في ظروف مؤسفة..

أرجو أن أتلقى ردك سريعًا.. وكن حذرًا..

بإخلاص....

بروفسور د. ر. ل. كاثريل

* * *

القاهرة في ١٢ فبراير ١٩٦٥

عزيزي بروفسور (كاثريل):

لقد أسعدني الحظ بتلقي خطابك أيها الزميل الموقر.. يا حارس بوابة العلم وكابوس الجهل الدائم!!

أكتب إليك هذا الخطاب لأزف إليك الخبر.. لقد وجدت صيدنا الثمين..! ولم تكن مهمتي سهلة بحال..

إنك قد قلت لي إن اسم صاحبنا هو (وحدت) أو (همت) وبمعنى آخر اسم من تلك الأسماء التي لحق بها التبديل (التركي) للتاء المربوطة بتاء مفتوحة وهي كثيرة في لغتنا ومنها: ثروت، عفت، طلعت.... ألخ...

بل إننا نستعمل اسم (مرفت) في العربية غير عالمين أنه اسم (مروة) الذي خربه الأتراك5، فاستبدلوا بتائه المربوطة تاء مفتوحة، وبدلوا واوه إلى فاء... و... دعك من هذا البحث اللغوي، ونعود لموضوعنا..

قلت لي ان اسمه (همت) أو (وحدت).. و(همت) لا يستعمل في مصر إلا للفتيات أما (وحدت) فيستعمله الأتراك فقط ولا نستعمله نحن المصريين أبدًا..

لهذا سالت بواب العمارة - بعد إعطائه جنيهًا وسيجارة - عن صاحب الاسم الذي له هذا الرنين.... (ثروت) أو (طلعت) أو (رأفت)...

قال إلى أن هناك رجلًا مريبًا في الطابق الرابع اسمه (رفعت).. (رفعت إسماعيل)!

وهو يعيش وحده وليس له أصدقاء.. ويمضى طيلة ما بعد الظهر منفردًا في شقته.. وهو يزعم أنه أستاذ في الطب، لكني لا أعرف له عيادة ولم أسمع عنه أبدًا، برغم أنه من نفس الجامعة التي تضم كليتي وكليته..!!

الأكثر غرابة أن البواب قال لي، إنه وجد منذ أيام عظامًا بيضاء غريبة الشكل ملقاة في المنور.. وأنه حين سأل (رفعت) هذا عما إذا كان قد رماها، بدا مرتبكًا مندهشًا.. بل إنه - ضع عشرة خطوط تحت هذه الجملة - أعطاه ربع جنيه كي يحضر له هذه العظام إلى شقته..!!

أما جاره - وهو مدرس ورب أسرة - فقال لي إنه يشك كثيرًا في هذا الرجل المريب.. وأنه لم ير له أهلًا يزورونه، وأنه يمارس عادة الدق ليلًا فوق رأسه وهو نائم لسبب مجهول، وأنه - كما يزعم - يسافر كثيرًا للخارج..

كما قالا لي - البواب والجار - إنه قبيح الشكل ومنظره مرعب، وفي العقد الرابع من العمر تقريبًا، أي أنه في نفس سن رجلنا...

سأحاول التعرف عليه وزيارته.. لكن مهمتي لن تكون سهلة..

أنك لا تزور آكل لحوم البشر كل يوم..!، ولن أتخذ أية خطوة قبل أن يصلني ردك..

المخلص د. محمد شاهين

* * *

ديترويت في ٢ مارس ١٩٦٥

زميلي العزيز:

أعتقد أنك محق في شكوكك.. ومعذرة عن خطئي في الاسم، لأن هذه الأسماء العربية - والتركية. تتشابه في اذاننا الغربية...

أريد منك قبل أن تزور هذا الرجل، أن تأخذ احتياطاتك كأن تتسلح - ولو بمدية - وأن تترك عنوانك ومعلومات لدى أحد أصدقائك، حتى إذا تأخرت أكثر من ثلاث ساعات عنه أبلغ الشرطة.. أما نصائحي لك فهي كالتالي:

(أ) لا أعرف المدخل الذي ستستعمله للتقرب إليه واعتقد أن الوحيد الذي يعرف هذا المدخل هو أنت، لأنك مصري مثله وتعرف ما يجب أن يقال.. وما لا يقال..

(ب) إذا دخلت بيته حاول أن تبحث عن (آثار ثقافية بدائية).. لابد أنك واجد هذا الأثر، لأنه موجود في بيت كل آكل لحوم بشر تم اكتشافه..

(ج) حاول أن تتبين نوع طعامه، وأن تجلب أي أثر منه لكي تفحصه..

(د) لاحظ طريقة كلامه.. فإن لم يخني حدسي، ستجد لديه عيبًا ما في الحروف، وهي سمة عامة في أكلة لحوم البشر ؛ لأن أسنانهم تتشوه تدريجيًا من جراء معالجتهم للأنسجة القاسية.. مما يؤدي لتغير أسلوبهم في النطق..

مرة أخرى.... كن حذرًا..

بإخلاص.

بروفسور د. ر. ل. كاثريل

* * *

٥ - المتطفل..

القاهرة في ١٧ مارس ١٩٦٥

عزيزي (عادل):

لقد جاء التليفون لشقتي أمس.. لكن الحرارة لم تصله بعد..

كان يومًا عاصفًا يحاصرني فيه النحس من كل اتجاه.. لقد جرحت ذقني في أثناء الحلاقة.. وشربت قهوتي ساخنة مما جعل لساني يحترق، ولم أعد أستطيع الكلام..

ثم - الطامة الكبرى - كسرت مفتاح الدولاب في القفل، مما جعلني أكسر الباب نفسه كي أجد قميصًا نظيفًا، وقد قررت أن أرتب محتويات الدولاب بما فيه من تذكارات لن أنساها أبدًا..

مخالب المذءوب التي كانت (إيكاترينا) تلبسها.. وزجاجة حمض مكسورة باقية من رحلتي المشئومة إلى اسكتلندا، لا تعرف أنت قصتها.. وتماثيل سحرة قبائل الزولو، التي أهداها إلى د. (أمجولو) في نيجيريا منذ سنوات.. وقد وجدت أنها جميلة جدًا وتستحق أن أضعها في الصالة..

ثم إنني ارتديت مريولة المطبخ، وطهوت بعض البازلاء والأرز مع فخذ ضأن شهي، اشتريته اليوم من جزار أمين، وأعددت مائدة الطعام وكل شيء، وجلست - ولعابي يسيل - أفترس هذه الوجبة، أنا الذي نسيت تقريبًا طعم الأكل المنزلي، خاصة وأنني لا أطبخ إلا مرتين في الشهر..

أشعر دائما بالحسرة وتبديد الجهد، من أجل الساعات التي أطهو فيها، ثم.. ينتهي كل شيء في دقائق، كل هذه المشقة من أجل عشر دقائق من الاستمتاع.. لا أعتقد أن لهذا داعيًا كبيرًا.. ولا أحسب أن معدتي تستحق كل هذا التكريم المبالغ فيه..

وهنا دق جرس الباب..

ذهبت لأفتحه في غيظ، وأنا أمضغ ملعقة الأرز التي ابتلعتها.. إن الباب - ذلك الملعون – لا يجلب لي سوى أشخاص يريدون نقودًا، أو يلومونني على شيء، أو يزفون إلي مصيبة، أو يقترضون شيئًا لن يعيدوه! فتحت الباب، فوجدت رجلا قميئًا أصلع، يرتدي ميكروسكوبًا - معذرة أعني نظارة سميكة -وحلة حال لونها..

أبتسم لي في لزوجة وقال:

- د. (رفعت إسماعيل)؟!

- ماذا تريد؟

قلتها في ضيق.. فقال وهو يرمقني بفضول:

- أنا الدكتور (محمد شاهين)، أستاذ الأنثروبولوجي جامعة (....).. هل تسمح لي بالدخول..؟!

دعوته إلى الصالة، وأجلسته على مقعد وثير هناك، فغاص فيه وأخذ يختلس نظرات وقحة إلى أثاث الصالة وأركانها.. ثم تحجرت عيناه وهو ينظر إلى.. تماثيل الزولو التي وضعتها على (البوفيه) كما قلت لك.. نظرة انتصار وحشية التمعت في عينيه.. ثم إنه. نظر إلى وقال:

- هذه تماثيل لقبائل الزولو.. وهي توضح الطقوس القديمة للكانيبالزم..!!

هززت رأسي بمعنى أنني لا أدري في الواقع.. فقال:

- إن مهنتي تجعلني على دراية بهذه الأشياء..

قلت له - بلسان معوج من أثر القهوة - إنني أفضل أن يشرح لي سر تشريفه بزيارتي، لأني كنت أتناول طعامي منذ دقائق..

قال على الفور - ملحًا في الرجاء - إنه يصر ويصمم على أن أواصل طعامي أمامه، بينما يتكلم هو عن غرض زيارته..

- إذن تأكل معي؟

ابتلع ريقه وبدا لي أنه يوشك أن يغمى عليه، واعتذر بأنه قد تناول طعامه بالفعل قبل أن يجيء إلى، كما يريد..

وهكذا جلست على مائدة الطعام وأخرجت فخذ الضأن شهية المنظر إلى طبقي، وبدأت أقطعها بالشوكة والسكين، أمام نظراته المرعوبة الخرساء، التي لا أدري لها سببًا.. وكان يرتجف وهو منكمش في مقعده..



وهكذا جلست على مائدة الطعام ، وأخرجت فخذ الضأن شهية المنظر إلى طبقى ، وبدأت أقطعها بالشوكة والسكين ، أمام نظراته المرعوبة الخرساء ..

ثم أمسكت بالعظمة، وشرعت أخبطها على حافة الطبق، لأفرغها من النخاع - كعادتي منذ الطفولة - لاعقًا لساني من التلذذ، وهنا سمعته يتحشرج، ورأيته يغطي فمه بيده، ويشير إشارة فهمتها فورًا..

- آه.. الحمام!.. هلم سريعًا.. من هنا...

جرى إلى هناك، وأغلقت عليه الباب، وعلى صوت قيئه تساءلت في اشمئزاز، عن السبب الذي يجعل كل هؤلاء يتقيؤون عندي؟!.. لا أعتقد أن شكلي (مقرف) إلى هذا الحد المروع...

وحين عاد إلى كان قد صار أحسن حالًا.. وقد اعتذر لي في حرارة لأنه فعلها:

- معذرة.. إنه...

- انعكاس شرطي.. أعرف هذا..

قال وهو يلهث:

- نعم.. هو كذلك..

ثم بدأ يحكي لي قصة سخيفة لا أول لها ولا آخر، عن إبن عم له سقطت به طائرة في الصحراء الغربية، وإنه يبحث عنه منذ سنوات، وإنهم قالوا له إنه في هذه العمارة.. وأنه يعتقد أنني أعرف شيئًا عن هذا الموضوع و....

قلت له انني لا أملك أية فكرة عن ابن عمه المفقود، إلا أنه أخذ يتحدث في إلحاح عن القبائل البدائية والكانيبالزم وحضارة الزولو و.. و..!..

طلبت منه الانصراف، إلا أنه استمسك ببسالة بتصديع رأسي..

ولما أدرك ألا جدوى من الإلحاح، طلب مني - في أدب - أن أعطية العظمة التي كنت آكل منها لغرض ما عنده!!

ألن أنتهي من هؤلاء المجانين طيلة حياتي؟!

قلت له وقد فقدت كل تحكم في جهاز العصبي:

- حسن.. تريد هذه العظمة لغرض صنع حساء طبعًا؟!..

ورفعت العظمة في قبضتي كأنها هراوة، واتجهت نحوه ببطء راسمًا أعتى علامات الشر على وجهي.. فاصفرّ وجهه واخضرّ، ووثب كالفأر من كرسيه، وتراجع نحو الباب وهو يرتجف مرددًا:

- إنك لن تستطيع إيذائي!.. لن تضربني بهذه العظمة!.. إن (رمزي) يعرف أين أنا.. لقد أخبرته..!

- ومن هو (رمزي)..؟

- إنه جاري.. هو يعرف، و(البدري) يعرف، وزوجتي تعرف.. كل المدينة تعرف..!.. إنك لن تجرؤ على....

- إذن لنر ذلك!!

قلتها وأنا أفتح باب الشقة، وأرمي به خارجه كأنه كيس قمامة، وصفقت الباب خلفه، وأنا أسمعه (يبرطم) ويهدد ويتوعد..، كان يصرخ:

- الأيام بيننا أيها الجزار..!! يا كانيبال..!!

وهكذا انتهي ذلك اليوم الكئيب.. والآن لم تعد لدي سوى الأخبار المعتادة لأحدثك عنها..

لم تحدث أشياء مريبة بعد خطابي الأخير، سوى المزيد من الدق في شقة الأستاذ زكريا.. والمزيد من تذاكر السفر الغامضة، من وإلى الإسكندرية..

ولا شيء آخر..

فكرت في خطابك الأخير أن (عزت) هو صاحب البصمات الموجودة على العظام، فما الذي يعنيه لك؟ ومارأيك أنت..

لا أعتقد أنه يقتل الناس في شقته، ويلقي بهم في المنور.. فهذا تخريج مبالغ فيه..

اكتب لي بالتفصيل.

أخوك: رفعت

* * *

الأسكندرية في ٢٤ مارس ١٩٦٥

أخي (رفعت):

ضحكت كثيرًا وأنا أقرأ قصتك، عن ذلك العالم المخبول في شقتك.. إن هذه الأشياء لا تحدث إلا لك!..

ولو لم تقل لي إنه ناداك بالاسم، لظننت أنه كان يبحث عن شخص آخر مثل جارك غريب الأطوار هذا..، وهو أيضا يهتم بالعظام مثله..

وإنني لأتساءل..

على كل حال لم يعد أمامك مفر.. لقد رتبت كل شيء لإقامتك عندي في الإسكندرية أسبوعًا أو أسبوعين، لأني بصراحة لم أعد مطمئنًا لإقامتك وحدك وسط كل علامات الاستفهام التي تعرفها.. كما أنني لست مستريحًا لسلامة أعصابك، ولا رجاحة عقلك بعد كل هذا..

أول ما ستفعله، هو أن تأخذ من كلية الطب إجازة طويلة.. وسيكون يوم لقائنا في ٥ أبريل القادم، وقد أعطيتك مواعيدي، بحيث لن تجد أية فرصة للتراجع، أو ترديد الاعتذار.

المخلص: عادل

* * *

القاهرة في ١٧ مارس ١٩٦٥

عزيزي بروفسور (كاثريل):

لقد زرته.. ولاشك لدي أنه رجلنا..!

قلت لي أن أبحث عن لهجة غريبة، وكان يتحدث من جانب فمه بشكل غريب جدًا.. كأن لسانه محترق!

قلت لي أن أبحث عن مظاهر ثقافة بدائية.. وكانت عنده تماثيل (زولو) تمثل طقوس أكل البشر.. وكان فخورًا بها..

وقلت لي أن أراقب طعامه.. وكان يأكل فخذ طفل مع الأرز والبازلاء!!

وحين حاصرته بأسئلتي المدروسة، تحول إلى شيطان يلتهب الشر في عينيه.. ووثب على ملوحًا بعظمة الطفل، يريد تهشيم رأسي، لكني نجحت في الفرار بأعجوبة..

إنني أرتجف حين أفكر في كل ما حدث..!..
والآن ماذا سنفعل مع آكل البشر هذا؟!..
هل نبلغ الشرطة، أم أن لديك هدفًا علميًا أكثر شمولية، مما لا يصل إليه علمي المتواضع؟!
المخلص: د. محمد شاهين

* * *

ديترويت في ٤ مايو ١٩٦٥
بروفسور د. (شاهين).
أيها الزميل:
بالطبع لدي هدف أكثر شمولية..، لقد استطعت إثبات نظريتي القائلة، إن (الكانيبالزم) طبيعة في النفس البشرية، وإن تذوق لحم البشر، قد دمر قرونًا من التراث الحضاري في نفس هذا الرجل.. وهو الآن - كالبدائيين - لا يجد متعة ولا لذة في أي لحم، مالم يكن لحمًا بشريًا وإنني لأعتقد أن لديكم مشكلة حقيقية في القاهرة..
لكني أملك خطة لا بأس بها، لإيقاف هذا الوحش دون أن ندمره، أو نحرم أنفسنا من دراسته كنموذج فريد...
وسأقول لك كيف..

* * *

٦ - عروس البحر...

الإسكندرية في ٦ ابريل ١٩٦٥

أخي العزيز (رضا):

قليلة جدًا هي المرات التي كتبت لك فيها خطابًا، ربما لأنك كنت دائما قريبًا من روحي، والخطابات تعنى بعد الشخص الذي نكتب إليه....

كيف حالك يا أخي؟.. أيها القريب البعيد.. وكيف حال أمي وأختي وزوجتك وأولادك؟.. كيف حال طلعت زوج أختي؟!.. وماذا عن الأرض ومشاكلها؟!..

لم أر أي واحد منكم منذ عودتي من أسكتلندا، ولمدة تسعة شهور كاملة، فهل أنا لا أعني شيئًا لديكم إلى هذه الدرجة؟!

وصلت - بالأمس فقط - إلى الإسكندرية لأمضى بعض الأيام، على سبيل (تغيير الجو) عند صديق لا أملك رفض طلبه.. وهو العقيد (عادل توفيق) بمديرية أمن الإسكندرية.. هل تذكره؟

المهم أنها كانت لحظات لا تنسى، حين خرجنا إلى الكورنيش نتنزه.. والإسكندرية في فصل الشتاء لها سحر خاص، لا يفهمه سوى أمثالي ممن لا يحبون الزحام...

هواء البحر اضواء المطاعم والكازينوهات.. سحر الماضي لم يزل حيًا، وقد لحقت به أناقة الحاضر.. أي جمال!.. وأية عذوبة!

وكنت قد أحضرت هدية بسيطة لـ(أشرف) ابنه مما أعطى انطباعًا جميلًا عند زوجته (سهام)، التي رحبت بي في حماسة شديدة.. وقد أولمت لي وليمة رائعة جعلتني أنسى أيام (الجوع) إياها!!

وفي المساء جلسنا عنده في الصالة، نشاهد جهاز التليفزيون - وهو اختراع رائع حقًا - حين وجدته يطلب منى أن أرتدي ثيابًا أنيقة، لأن زائرًا هامًا سيأتي بعد قليل..

نفذت طلبه وارتديت بذلتي الزرقاء.. الغريب في الأمر أنني وجدته يرمقني في اهتمام، وزوجته تتفحصني من رأسي لأخمص قدمي، في حين وقفت مرتبكًا كالأبله..، سأل زوجته وهو يشعل سيجارة:

- مارأيك؟

- ربطة العنق غير ملائمة.. يبدو لي كالمتشردين..

- أرى ذلك بالفعل..

ثم إنه دخل غرفة النوم، وعاد لي بربطة عنق أكثر أناقة، وطلبت مني أن أرتديها..

- لماذا؟..

- افعل ما أقول..

فعلت ما طلبه مني وأنا لا أفهم، في حين شرعت زوجته تنفض بالفرشاة آثار غبار على كتف الحلة، ثم تراجعت للوراء لتأخذ فكرة عن مظهري العام، كأنها فنان يضع آخر لمساته على لوحة رسمها.. وقالت:

- لا بأس.. الآن ارفع رأسك ولا تطرق بها كالمتسولين..

- حسن..

ما هذا الذي يفعلانه؟!.. و... جرس الباب يدق..

هرعت (سهام) إلى الباب، وفتحته، وسمعت صوت قبلات وعبارات مازحة، ثم إذا بفتاة ما تدخل من الباب وتنحني لتقبل (أشرف) الصغير الذي أخذ يتواثب كالقرد صارخًا:

- طانط (هويدا)!.. طانط (هويدا)!..

اكتسب صوت (عادل) نبرة معسولة وهو يقدمني للفتاة ويقدمها لي:

- د. (رفعت اسماعيل).. آنسة (هويدا عبد المنعم).. أخت زوجتي...!

أخت زوجتك!.. وأنا الذي تركتكما تعدانني لهذا اللقاء، كأني فتاة يعدونها للقربان في معبد وثني... يا لكما من لعينين!!..

وهكذا جلست - كالمساجين - مكتئبًا في ركن الغرفة، في حين جلست الفتاة مطرقة للأرض محتقنة الوجه، تداعب الطفل وتهمس له وتجلسه على ساقيها.. أنا أعرف هذا النوع من الحنان الذي يجدن إظهاره - أو التظاهر به - مدعيات أنهن ينسين كل شيء عن العالم حين يرين طفلًا!

وكان (عادل) يتحدث في حرارة.. (وسهام) تمتدحني، وتمتدح أختها بطريقة مبتذلة جدًا، فهي بالتأكيد لا تعرف عني سوى ما يحكيه (عادل) لها، وبالتأكيد ليس شيئًا مشجعًا إلى هذا الحد..!

كنت أشعر أنني معروض في سوق للعبيد.. ولا أدري لماذا خيل إلى أن الفتاة تشعر بشعور مماثل...

هل هي تعرف..؟.. هذا مؤكد..

المهم أن جلسة العذاب هذه قد طالت، وأعتقد أنني أفهم ما يحسه الجالس فوق الكرسي الكهربائي بالضبط!!

كانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء، حين نهضت الفتاة للانصراف، لأنها تأخرت.. وصافحتنا.. وصافحتني.. وللمرة الأولى ترفع عينيها تجاهي..

قال (عادل) دون كياسة:

- للأسف سيارتي معطلة، فلن أستطيع أن أوصلك يا (هويدا)...

قلت له في دهشة:

- ولكنك أخذتني بها إلى (ستانلي) منذ ساعتين؟

غمز بعينيه الاثنتين مرارًا وسحق قدمي بحذائه، ما جعلني أفهم أخيرًا.. فقلت لها:

- سأوصلك أنا يا (هناء)..

- (هويدا).. اسمها (هويدا)..

وسارعت (سهام) إلى إيصالنا للخارج، وهي تكاد تنفجر سعادة لمشهد لقاء (القلبين الجريحين) - أو ما تظنه هي - ووقفت تودعنا على (بسطة) السلم، كأنها تزفنا إلى بيت الزوجية.. لقد اطمأنت علينا أخيرًا...

وبعد نصف ساعة عدت للبيت.

قابلني (عادل) في لهفة.. وأجلسني في الصالة.. وسألني:

- ما رأيك؟

- في ماذا؟

- يا لك من أبله!.. (هويدا) طبعًا..

قلت له في صدق:

- لا أدري..
- ألم تتكلما في السيارة؟!
- ولا كلمة.. ظللنا صامتين كالأسماك حتى بيتها..
أخذ يسب ويلعن حماقتي وجهلي وقلة ذوقي، ويقول إنني أحرجته بعد كل ما فعل من أجلي، وأنه وزوجته منحاني كل ما يبغيه رجل ناضج عاقل يريد أن يتزوج.. ثم إنه انتزع مني ربطة العنق الأنيقة.. فقلت له:
- اسمع يا (عادل).. الأزرق لون جميل.. والأخضر لون جميل، لكنهما لا ينسجمان أبدًا، هكذا أنا وأخت زوجتك..
- بل ينسجمان يا أحمق!.. عندي (بول أوفر) يجمع اللونين..
- إذن فهو قبيح جدًا..!
- ثم من قال إنك أزرق؟.. أنت (أحمر) من أي شيء رأيته في حياتي!
والآن ستقول لي إنها لم ترق لك.. فما أدراك أنك أنت الذي لم يرق لها..؟
قلت وأنا أفك باقة قميصي:
- أنا لم أزعم شيئًا، ولم أطلب أن أضع نفسي - أو غيري - في أي اختبار..
إنني - أقسم لك - غير قادر على التعرف عليها بين أربع فتيات في عمرها.. ولا أعرف إن كانت جميلة أم قبيحة..
هز إصبعه في وجهي محذرًا:
- سأكف أنا و(سهام) عن البحث عن مصلحتك..
- هذا ما أتمناه..!
وهنا دق جرس الهاتف، فرفع السماعة وشرع ينصت ويزوم، مصدرًا عبارات قصيرة مؤداها أنه لم يتوقع ذلك، وأنه مندهش، وأنه أت على الفور.. ثم وضع السماعة وتصلب لحظة مفكرا في محتوى المكالمة التي تلقاها.. لقد نسي - لحسن الحظ - كل شيء عن تزويجي..
- حادث؟!...
- بل مصيبة..!
ثم ارتدي جاكت حلته.. ونهض داعيًا إياي أن أتبعه، لأن هناك ما يود أن يريه لي، ثم قذف لي بربطة العنق، داعيا إياي أن أعيد ربطها.. وقال لزوجته إننا خارجان وقد نتأخر..
ركبنا سيارته ومضينا عبر شوارع الإسكندرية، التي قد بدأت تخلو من المارة في هذه الساعة..، وكان المطر قد بدأ ينهمر على الطرقات، وعلى زجاج السيارة التي تشق مصابيحها طريقًا في الظلام..، وبدانا ندخل شوارع أضيق وأقل نظافة.. وبدأت حركة السيارة تغدو أقل حرية..
لا أعرف الإسكندرية جيدًا، لكنني أعتقد أننا في مكان ما بالمنشية..
وكان هو صامتًا كالقبر.. ويدخن بشراهة، مما زاد إحساسي بخطورة ما نحن مقبلان عليه..
وعند ناصية الشارع رأيت مشهدًا غريبًا..
كأنه مشهد من فيلم سينمائي ملون..
سيارة الإسعاف واقفة، ومصباحها الفوقي يدور مرسلًا أضواءه ككرات نارية تحلق حول الواقفين.. وقطرات المطر تنهمر فوق الرءوس غير المبالية.. ثلاث سيارات شرطة واقفة، وبجوار واحدة منها يقف أحد الضباط، ممسكًا بميكروفون وجهاز لا سلكي يحدث جهة ما...

في حين اصطف رجال الشرطة يسدون الطريق بأجسادهم..
وكانت هناك أضواء فلاش، وعشرات الأشخاص الذين لا أعرف عملهم..
نزل (عادل) من السيارة، وفرد صدره واخترق صف الجنود الذين أصابهم ذعر شديد عندما رأوه، وأخذوا يؤدون التحية العسكرية في ارتباك..
لقد تبدل (عادل) في ثوان.. تحول إلى شخصية قيادية رهيبة، صارم الوجه حاد الملامح.. وقد نسي وجودي تمامًا.. لم أصدق لحظة أن هذا الرجل المرعب هو صديقي العتيد، والرجل الذي كنت أمازحه من نصف ساعة!
تبعته إلى قلب هذا الزحام، فرأيت شيئًا مغطى بملاءة عليها بقع دماء طازجة! وسمعت شابًا متأنقًا يقف بجواره يقول وهو يشير إليها:
- الساعة التاسعة تقريبًا يا سيدي.. نفس الظروف..
نفس الظروف؟.. ماذا يعني؟..
ثم لمحت رجلي شرطة، يقتادان رجلًا بائس المظهر، إلى حيث وقفنا.. وقال أحدهما بلهجة (عسكرية) صارمة:
- القهوجي يا فندم..
التفت إليه (عادل) وفي خشونة سأله:
- ماذا كان يلبس؟.. أجب..!



ثم لمحت رجلى شرطـــة ، يقتـــادان رجـــلًا بائس المظهـــر ،
إلى حيث وقفنا ..

قال القهوجي وهو يرتجف (ولا ألومه على ذلك لحظة):
- كان.. كان نحيلًا يا (باشا)، ولونه أصفر غريب جدًا.. وكان يلبس حلة سوداء ومعه حقيبة.. و.. وشرب شايًا ثقيلًا ثم دفع الحساب.. و.. واختفى في الحارة..، وكان هناك جرح على خده..
أشعل (عادل) سيجارة أخرى وقال دون أن ينظر لأحد:
- بصمات؟!..
ارتفع صوت لم أر صاحبه يقول:
- كالعادة يا فندم.. كان يرتدي قفازًا..
هم م م م!
ثم أصدر بعض التعليمات لرجال المعمل الجنائي، وشق طريقه بين صفوف رجال الشرطة خارجًا، وأنا أهرع خلفه كالدجاجة المذعورة.. وفي عصبية فتح باب سيارته، ومد يده إلى زر تأمين الباب ليفتحه لي..
قلت وأنا أسترخي في المقعد بجواره:
- حتى (عادل) (باشا) لا يطمئن على سيارته.. وسط كل هذا الحزام الأمني، لا ينسى أن يؤمن الباب..!
لم يعلق ولم يضحك..
أدار المساحات لتزيل قطرات الماء المنحدرة فوق زجاج النافذة، وأدار الكونتاكت.. وانطلقت السيارة في شوارع المدينة المبتلة..
كان شارد الذهن تمامًا، مما دفعني لاحترام صمته.. بعد لحظات.. قال لي وعيناه على الطريق المظلم:
- إن ما رأيناه الآن هو الحلقة الخامسة، من سلسلة جرائم قتل غريبة، كنت قد لمحت لك بها من قبل..
في كل مرة يحدث نفس الشيء..
يجد أحدهم - في زقاق مظلم أو حارة منسية - جثة متسول أو عابر سبيل ممزقة تمامًا.. أطراف مبتورة.. وشرائح كبيرة من اللحم مفقودة، كأن هناك من قام بانتزاعها في صبر.. نفس ما يفعله الجزار مع ذبائحه المعلقة..
قلت في هلع:
- ما أبشع هذا..!
- ودائما نفس القصة عن رجل نحيل، لون بشرته غريب، يحمل حقيبة يشاهده أحدهم ينتظر في مكان الحادث قبلها، ويفر منه بعدها..
مرة واحدة قال الشهود إنه يركب سيارة زرقاء، لكن أحدًا لم يره بعدها يركبها..
- وهل له علاقة ما بالضحايا؟
قال وهو يشعل سيجارته العاشرة في هذا الوقت القصير:
- يصعب أن تتخيل علاقة تربط بين هؤلاء المتسكعين فهم مثلًا لم يطلعوا على وثائق إحدى عصابات المافيا، أو يسرقوا الميكروفيلم من عملاء المخابرات السوفيتية إذا كان هذا ما تعنيه...
- وهل هناك نظام زمني أو نوعي يحدد الجرائم؟

- آه..!.. أنت تتحدث عن أمثال (لص الثلاثاء) أو (سفاح الشقراوات) أو شيء من هذا القبيل..

للأسف.. إن هناك دائمًا نظامًا عقليًا محددًا، يعمل على أساسه أي سفاح يحترم نفسه.. إلا هذا الوغد.. إنه يقتل أي شخص في أي يوم، في أي مكان، وفي أية ساعة من النهار..!.. العشوائية هي أساس عمله المقيت، وهو ما يجعل أية خطة لعمل كمين له غير ذات موضوع...

- ولكن ما جدوى التعتيم الإعلامي الذي تمارسونه..؟

- إن نشر هذا الذي قلته لك سيحدث هلعًا عامًا في الإسكندرية.. ولن يستفيد منه ضحاياه المقبلون ؛ لأنهم إما متسولون أو متشردون.. أي أنهم بعيدون تمامًا عن مدى التأثير الإعلامي في الصحف والراديو.. ولن يتعلموا شيئًا..

هل تعرف السبب الذي جعلني أحكى لك هذه القصة يا (رفعت)؟

قلت في غباء:

- الصداقة طبعًا..

انفجر يضحك.. ضحكة قاسية واثقة.. ثم قال:

- لا صداقة في العمل يا طبيبي العزيز.. ألم تفهم بعد مغزى ما سمعت وما رأيت؟!

إنك أنت من سيقودني إلى هذا السفاح..!

والآن يا (رضا) أرى أنني أطلت عليك في وصف حدث لا يهمك.. ولو أنك أردت استخلاص شيء من كل ما قلته في خطابي الطويل هذا - سبع صفحات - فإنك تستطيع أن تطمئن أمي علي، وتقول لها إنني رأيت عروسًا لا بأس بها لكني متردد..!

هذا هو كل شيء..!!

أما لماذا حكيت لك ما حكيت، فهو لأنني كدت أنفجر.. وكنت بحاجة لأن أسرد ما رأيت لأي شخص..

أما ما قاله لي (عادل) بعد ذلك، فهو سر لا أستطيع أن أبوح به حتى لك! تمن لي حظًا سعيدًا واكتب لي على عنواني بمصر إذا وجدت وقتًا..

شكرًا وإلى اللقاء.

أخوك: رفعت

* * *

٧ - هذا هو السر!

إلى هنا تنتهي سلسلة الخطابات التي ما زالت عندي عن هذه القصة، وكما لاحظ القارئ فهي تنقسم إلى قسمين.. خطابات متبادلة بيني وبين (عادل) (وقد أرسل إلي (عادل) الخطابات التي كتبتها له لأضمها للمجموعة)، وخطابات بين البروفسور (كاثريل) ونظيره المصري د. (محمد شاهين)، وقد استطعت الحصول عليها فيما بعد.. ثم خطاب واحد لأخي (رضا) لم أرسله قط..

والآن لم يعد هناك مناص من العودة للأسلوب التقليدي في السرد، والاعتماد مرة أخرى على ذاكرتي في استرجاع الأحداث...

* * *

لابد أن القارئ قد فهم محادثتي مع (عادل)، إنه يملك نظرية معينة عن سفاح الإسكندرية.. تلك النظرية التي يرى أن لي دورًا ما في إثباتها..

تعالوا معي إلى حيث توقفنا..

أنا وهو جالسان في سيارته في الظلام، وقطرات المطر لم تزل تنهمر على زجاج النافذة، وشوارع الإسكندرية خالية تماما من المارة...

هذا هو الجزء الذي انتهى عنده خطابي (رضا) أليس كذلك..؟!

فلنستمر إذن

قلت لـ (عادل) في دهشة:

- وكيف أقودك إلى السفاح؟.. إنني لا أعرف سوى طريقة واحدة هي أن أكون أنا هو؟

أخذ يضحك في ظلام العربة، وأنوار مصابيح الطرقات تلتمع على بعينيه.. وقال:..

- اسمع.. سنتعشى أولًا في البيت، ثم أشرح لك..

* * *

وبعد أن رفعت (سهام) - التي بدت على غير ما يرام تجاهي - صحون الطعام من على المائدة.. ونام (أشرف) الصغير في مقعده، طلب منها (عادل) أن تأخذ الطفل لفراشه، وأن تتركنا على انفراد..

ملت نحوه هامسًا:

- هل أخبرتها بموضوع (هويدا)؟.. يبدو أنها تكرهني بالفعل..

- أي أحمق كان يستطيع أن يرى أنك لم تعر الفتاة اهتمامًا..

ثم قشر برتقالة بالسكين ووضعها في طبقي قائلًا:

- إنها شقيقتها برغم كل شيء..

ثم أشعل سيجارة وشرع يشرح لي:

- الآن نعود لموضوعنا..

كنت أحدثك عن هذه الجرائم الغامضة التي تجتاح الإسكندرية، والتي لم نستطع أن نتقدم نحو مرتكبها خطوة واحدة..

كنت في ذلك الوضع حين جاءني خطابك الأول..

إن هذا الخطاب قد قدم لي الحل على طبق من ذهب..

أنت تعيش بجوار جار غامض نحيل، ولون بشرته غريب.. إن هذا الوصف ليس غريبًا على مسامعنا.. لقد سمعناه اليوم من القهوجي، هل تذكر..؟!.

ثم ماذا؟.. سيارته زرقاء.. ويسافر للإسكندرية مرارًا.. لاحظ هذا..

جار يأكل التوابل في منتصف الليل.. ويدق شيئًا ما في ساعات الفجر الأولى، ولا يتحمل طعم الجاتوه..

جار يلقي بعظام آدمية في منور العمارة..

جار يزعم أنه ضابط بحري وهو كاذب..

جار يبدو كالمصابين بالفشل الكلوي، ويداه خشنتان، وبصماته مشوهة.. أعتقد أنك تفهم الآن ما أعنيه..

قلت في ذهول:

- هل تعتقد..؟

- نعم أعتقد.. لست متأكدًا لهذا أعتقد.. فقط أعتقد..

والآن تخيل معي ذلك الشاب المريض بمرض لا يمكن وصفه، يسافر عدة مرات إلى الإسكندرية، وينتظر في الأزقة المظلمة حتى يمر متسكع ما، ثم ينقض عليه ويصرعه..

وبعناية ينتزع قطعًا من لحمه وما يمكن اقتطاعه من أطرافه، ويدسها في كيس بلاستيك ثم يعود إلى القاهرة..

وهنا يبدأ الحفل الحقيقي...

في الليل يبدأ التقطيع والطهى، وإضافة التوابل، والدق بالهاون فوق الجيران.. وإلقاء العظام المتبقية من المنور...

إن معدته قد اعتادت أكل اللحم البشري، لا يمكن أن تستسيغ طعم الجاتوه.. وهكذا يمكننا فهم عدم فتح باب الشقة ليلًا مهما كان الطارق..

ويمكننا فهم خروجه الليلي الغامض، للتخلص من البقايا التي لا تؤكل..

ويمكننا فهم ملامحه المرعبة.. ملامح آكل البشر، ويداه الخشنتان هما بالتأكيد نتيجة العمل اليدوي العنيف، الذي يمارسه بالساطور طيلة الليل!!

تقلصت معدتي وأنا أحاول ابتلاع هذه القصة..

وهمست....

- ياللهول!!

ثم تمالكت روعي وقلت:

- والتذاكر؟.. لماذا لا يسافر بسيارته أو باشتراك قطار..؟

ابتلع (عادل) فص البرتقال الذي يمسك به وقال:

- إنه ذكي.. وهو يعرف أن السيارة ستكون علامة مميزة يسهل اقتفاء أثرها، ولن يعدم شخصًا يلتقط أرقامها ويخبرنا بها...

أما الاشتراك فهو يتوقع - في ظروف ما - أننا سنبحث عن الذين يسافرون للإسكندرية بانتظام، وهو حذر مبالغ فيه لأن هناك المئات غيره يفعلون ذلك...

اما التذاكر فهو يحتفظ بها حتى تتكدس.. ثم يلقيها في القمامة غير متوقع أن جارًا فضوليًا مثلك، يحب أن يعبث في صناديق قمامة الجيران...

- والعظام.. لماذا لا يلقيها بعيدًا؟!...

تنهد (عادل) في استسلام.. وقال:

- هذا هو موضع الضعف في نظريتي.. لماذا لا يلقيها بعيدًا عن دائرة الشكوك؟

على كل حال يصعب معرفة الدوافع النفسية المعقدة، التي تحرك آكل لحوم البشر.. فقد يدقق في لحظة ويهمل في لحظة.. لا أدري..

على كل حال هي مجرد نظرية ينقصها الإثبات الحقيقي..

تفكرت حينًا في اشمئزاز وتقزز.. لقد كنت بمفردي، مع هذا الوحش ليلًا! بل لقد تمنيت صداقته يوما ما!.. والآن ها هو ذا الرعب الذي تركته في انجلترا ورومانيا واسكتلندا وكفر بدر، يسبقني اليوم إلى شقتي الهادئة!!

سألت (عادل) وأنا أنظر لنجفة السقف:

- وهل أخبركم أن (عزت) سافر للإسكندرية اليوم؟

- من هو الذي أخبرنا؟

- بائع (البطاطا) في شارعنا..! إنه رجلكم طبعًا!

نظر إلى في دهشة، وشبح ابتسامة خبيثة يتلاعب على شفتيه:

- ما هذا الكلام الفارغ؟!

قلت له في برود:

- ليس كلامًا فارغًا.. إن بائع (بطاطا) يظهر في شارعنا الراقي - ولأول مرة منذ عشرين سنة – لا يعني سوى أنه شرطي سري لم تجيدوا إخفاءه!!

أخذ يضحك.. وقال من بين أسنانه:

- حقًا أنت ذكي.. وأرجو ألا يكون (عزت) بهذا الذكاء..؟

- منذ متى..؟

- منذ متى نراقبه؟.. منذ ١٩ يناير الماضي.. أي ما يقرب من ثلاثة شهور.. منذ حدثتني عن العظام، ووجدت بصمة الرجل عليها..

وليس بائع البطاطا هو الوحيد، بل إن هناك حوالى عشرة من رجال الشرطة السرية، أرسلتهم مديرية الأمن عندكم، بناء على اجتماع عالي المستوى، درسنا فيه خطاباتك وشكوكي الخاصة...

- والنتيجة؟..

- سلبية..إما أننا مخطئون، وإما أنه لاحظ رجالنا مثلما لاحظتهم أنت.. إنه قد كف عن السفر والخروج ليلًا.. أضف إلى ذلك حماقتك في أخذ بصماته على الكوب، مما أشعره أن شيئًا ما يدبر له..

- وهل سافر إلى الإسكندرية هذه الليلة؟.. وهل سيعود إلى العمارة حاملًا كيسًا مليئًا بأشياء معينة؟

- لم نعرف بعد.. لم يقدم الرجال هناك تقاريرهم ؛ لهذا أنتظر بجوار الهاتف..

- ولماذا لا تداهمون شقته هذه الليلة، وتضبطون ما تجدونه لديه؟
- أنت لا تفهم القانون..
ونهض يمشي في الغرفة مطرقًا برأسه:
- إن هذا السفاح مواطن.. وله حقوق، ولا يمكن أن نداهم شقته دون إذن من النيابة التي يجب أن تجد أسبابنا مقنعة، وهذا ما لا أتوقعه.. ثم استدار إلى هاتفا:
- شيء آخر جدير بذكره..
هذا الأستاذ الجليل الذي زارك في شقتك.. (محمد شاهين)..
- ما شأنه هذا المتطفل..؟
- لقد عرفنا بوسائلنا أنه قد سأل البواب عن ساكن للعمارة اسمه (ثروت) أو (طلعت) أو شيء من هذا القبيل..
وقد تطوع البواب - وهو لا يحبك كثيرًا - بذكر اسمك.. وقال إنك مريب وغريب الأطوار.. و.. و.، وتطوع الجيران بالمزيد من الاتهامات لك.. إن سكان عمارتك يمقتونك بشكل يجعلني أسائل نفسي..!
وهكذا قام الرجل بزيارتك، تلك الزيارة التي وصفتها لي في خطابك بتاريخ ١٧ مارس..
تأمل معي ما حدث..
الرجل يبدو مذعورًا بلا سبب.. حذرًا بلا مبرر..
إنه يرمق طعامك ويريد عينة منه، ويتأمل تماثيل أكلة البشر في اهتمام..
ويغمى عليه تقريبا وهو يشاهدك تأكل اللحم..
إن الرجل يتصرف كأنه يعرف أنه في شقة آكل لحوم بشر..
صحت في ذهول وقد بدا لي كل ما فعله الرجل منطقيًا:
- الآن فهمت..!.. ولهذا أخبر كل من يعرفه بأنه آت لزيارتي..!
- ثم إذا أنت تأملت الموقف لفهمت.. كان يبحث عن (ثروت) أو (رأفت)، فقال له البواب إن اسمك (رفعت)..، الواقع أنه كان يبحث عن (عزت)!
وكلاهما - رفعت وعزت - غريب الأطوار ومعقد ويعيش بمفرده!!
وهذا يعني أن الأستاذ (محمد شاهين)، يبحث مثلنا عن نفس الشيء ونفس الشخص..
إنه يمسك بالطرف الآخر من الخيط الذي نمسكه نحن.. وفي وسط الخيط يتدلى (عزت)..
لهذا يجب أن نعرف ما يعرفه هذا الأستاذ..
كنت جالسًا صامتًا ومهمومًا، مما جعل (عادل) يسألني عما بي.. فقلت:
- إنهم جيراني الأشقياء.. وأنا الذي كنت معهم في غاية الأدب والتهذيب..
أرأيت ما يظنون بي؟!.. أنا آكل لحوم بشر؟!
- إن المصريين لا يحبون المنطوي، ولا يستريحون له بشكل عام.. إنهم يفهمون أن تكون وقحًا، أو أن تكون صاخبًا، أما أن تكون منطويًا مهذبًا غامضًا، فهم يظنون بك الظنون..!
استرخيت في مقعدي.. وتنهدت قائلًا:
- والآن.. هل بحثتم عن (محمد شاهين) هذا؟!
- المعلومات التي لدينا تقول إنه أستاذ فاضل.. رجل لا غبار عليه سوى طيبته الشديدة التي تصل لحد السذاجة.. لكننا لم نسأله بعد عن مصدر معلوماته..

أما عن (عزت)، فلا نعرف أي شيء عنه.. أقاربه.. عمله الحالي أو السابق.. لا شيء سوى ذهابه للتسوق، وللبنك حيث يسحب من حساب لانعرف مصدره، وقيمته ثمانية آلاف جنيه، ولا نعرف وجهته الليلية كما قلت آنفًا.. والآن..

وهنا دق جرس الهاتف، فوثب قلبي إلى فمي، وأجفل (عادل).. ثم تمالك نفسه والتقط السماعة.. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل:

- هم م م م!..أضاعوه؟.. الحمقى!.. ضللهم؟!.. هم م م م!.. الواحدة صباحًا؟!.. نعم.. نعم!.. ثم ماذا؟.. آه..!.. آه!.. علاء قال هذا.. أنت متأكد..!.. حسن...حسن.. ألف شكر..

ووضع السماعة في تؤدة ثم رفع راسه... وكانت علامات السرور مرتسمة عليه..

- هل تعرف ما حدث؟ "

- أعتقد أنه قد نجح في تضليل رجالكم في أثناء خروجه من منزله.. وهكذا لم يتأكدوا من سفره للإسكندرية ولكن علاء - وهو طبعًا أحد مخبريكم - قد وجد دليلًا واضحًا ضده في الواحدة صباحًا..

صاح في غيظ:

- إذا لم تكف عن تظاهرك المستمر بالذكاء، فلن أحكي لك شيئًا!!

- حسن.. حسن.. لن أستنتج شيئًا.. ولكن قل لي..

- يقولون إنهم فقدوا أثره عند نزوله من البيت..

- لقد قلت أنا ذلك!

- إلا أنهم شاهدوا عودته. في الواحدة صباحًا وكان يحمل حقيبة كبيرة ثقيلة.. وبالطبع يرتدي ثيابًا سوداء..أما أهم شيء فهو أنه.. ونظر لوجهي في رزانة مردفًا:

- كان يضع قطعة بلاستر على خده..!!

* * *

٨ - مغامرة صغيرة..

عندما انتهت إجازتي صافحني (عادل) وعانقني.. كما أن (سهام) صافحتني في نوع من الفتور.. وحتى ذلك الشيطان الصغير (أشرف) اشرأب بثغرة نحو خدي.. فانحنيت عليه كي يستطيع أن يلثمه..

قال (عادل):

- والآن تذكر ما قلته لك.. وحافظ على نفسك

ثم قادني للباب وهناك همس لي:

- و.... فكر مرة أخرى في موضوع (هويدا)... أنت بحاجة لزوجة ترعاك، وهي بحاجة لزوج يحميها.. ثم إنها ليست سيئة أبدًا..

وعلى درجات السلم أخذ يكرر على مسمعي ما اتفقنا عليه..

- لابد أن تليفونك يعمل الآن.. فاتصل بي بانتظام.. ولا تخش شيئًا.. رجالنا يلاحظون كل صغيرة وكبيرة، وتكفي إشارة واحدة لأي منهم كي يمزقوه إربًا..

* * *

كان هذا هو اليوم الثامن من ابريل..

إن إجازتي لم تتجاوز في الاسكندرية الجميلة أكثر من ثلاثة أيام.. لكنني ما زلت أملك الفرصة للعودة هناك، بعد أن ينتهي هذا الكابوس.. وفي حجرتي جلست أستمع للراديو، وأتسلى بالرسم على (بلوك نوت) قديم وجدته..عبثًا حاولت، لكن أي وجه رسمته كان هو وجه (ماجي) الحبيب...

لقد تسلطت حتى على أصابعي وعلى قلمي..

كيف يحيا كل هؤلاء الرجال سعداء وراضين، في حين لم يتزوج (ماجي) سوي واحد فقط!!

الساعة الآن الثانية عشرة مساء.. لقد حان الوقت..

رفعت صوت الراديو ليعرف من يتنصت علي، أنني في الشقة...

ثم ارتديت ثيابي وحذائي الكاوتشوك إياه، والبطارية والمسدس المرخص.. ولعل القارئ يذكر أن آخر مرة ارتديت فيها هذه الثياب، كان للقاء النداهة في تلك الليلة الرهيبة في قريتي كفر بدر..

ثم وقفت خلف الباب أتصنت، حتى سمعت صوت الرتاج يفتح من الشقة المجاورة، وصوت الخطوات المألوفة تنزل السلم.. أطفأت نور غرفتي كي لا يرى خيالي، وخرجت للشرفة.. فلمحته يسير - دون أحمال - في الظلام.. وحين وصل لنهاية الشارع، رأيت خيالًا يتحرك ويبدأ السير وراءه حثيثًا..

إن المخبر السهران يؤدي عمله جيدًا....

لقد كان (عادل) مصيبًا حين توقع أن (عزت) سيعود لرحلاته الليلية الغامضة، بعد الجريمة الأخيرة ؛ لأنه لابد من أن يتخلص من الفضلات المتبقية في البيت.. لكني لا أفهم السبب الذي يجعله لا يحمل شيئًا في يده..

والآن حان وقتي أنا..

فتحت باب شقتي وبحذر مشيت إلى باب (عزت)...

مددت يدي إلى جيبي، وأخرجت مفتاح (الماستر كي) الذي أعطاه لي (عادل)، ويصلح لفتح كل أنواع الأقفال..

مددت يدي للقفل، وببطء وحذر أولجت المفتاح فيه، وأدرته و.... تك! انفتح القفل دون مصاعب..

والآن هل أدخل؟!.. لقد قال لي (عادل) أن أبلغ الشرطة السرية، في الليلة التي أدخل فيها شقة (عزت)، حتى يراقبوا لي مدخل العمارة خشية أن يعود فجأة..

لكني وجدت في ذلك حذرًا مبالغًا فيه.. لن يستغرق الأمر سوى خمس دقائق، بعدها ينتهي كل شيء، ثم إن الهدف من قيامي أنا بهذه المغامرة، هو العمل على عدم إقحام رجال الشرطة في شيء ما قد يمكن محاميًا بارعًا من هدم القضية كلها أمام المحكمة يومًا ما..

وهكذا دخلت.. ولم أوقد المصابيح طبعًا..

أطلقت شعاع البطارية في الشقة يمسح الجدران في هدوء.. وكانت هناك رائحة عضوية ما تملأ الجو وتشعرني بالغثيان..

. وفي الصالة لمحت الشيء الذي كان يبحث عنه الأستاذ (شاهين) في شقتي أنا.. مجموعة تماثيل أفريقية موضوعة على مائدة تتوسط المكان..

وكانت هناك عدة لوحات تجريدية شاذة على الجدران..

بدأت أتفقد الغرف وقلبي يرتجف.. وكانت غرفة نومه مهملة تسودها الفوضى، وبجوار الفراش بعض الكتب والمجلات، وعلى الجدار - في إطار قديم - كانت صورة لإحدى الفتيات، وبجوار الصورة كان هناك إطار أخر، يحوي قصاصة جريدة، بها خبر عن سقوط طائرة شركة بترول في الصحراء الغربية..

ولم أفهم معنى هذه القصاصة وقتها..



وكانت غرفة نومه مُهملة تسودها الفوضى ، وبجوار الفراش بعض الكتب والمجلات ، وعلى الجدار ـ فى إطار قديم ـ كانت صورة لإحدى الفتيات ..

أما الذي أثار اهتمامي، فكان مكتب في ركن الحجرة، عليه عظام بشرية من أجزاء مختلفة، وكلها مصقولة بيضاء!.. جمجمة.. ضلوع.. عظام فخذ.. عظام ساعد.. فقرات.. وكان هناك سلك و(بنسة)، مما يوحي ان هناك محاولة ما للحام بعض القطع ببعضها الآخر، كما كنا نصنع في كلية الطب في شبابنا..

هل هذا يكفي؟.. كلا.. لقد أبقيت الغاية للنهاية.. لابد لي أن أرى المطبخ، وأن أفتح الثلاجة..!!

دخلت المطبخ.. وكان مهملًا قذرًا ككل غرف البيت.. وكان الحوض مليئًا بالأطباق مثلما قال لي بالضبط..

وعلى رخامة المطبخ، كانت هناك سكين كبيرة.. ثم.. ثم أياد بشرية طرية، اكتسبت لون الموت القاتم!.. لقد وجدت ما كنا نبحث عنه..

تغلبت على اشمئزازي، وفتحت الثلاجة.. كانت الرفوف مليئة بأجزاء بشرية متنوعة بكامل لحمها..!، لم أجرؤ على أن ألمس شيئًا ولا أن أدع شيئًا يلمسني برغم أني طبيب.. إن رعب الموقف قد أذاب أي منطق علمي

يجب أن أفر..

. يجب أن أعود لشقتي الآمنة، وأغلق الباب بالرتاج..

يجب أن أخبر (عادل) بكل شيء..

وهنا سمعت الباب الخارجي يفتح بالمفتاح..!

لقد عاد الرجل..!

تصلبت في مكاني، وقد تلاشى تفكيري تمامًا.. فقط أطفأت البطارية.. جريت إلى باب الحمام وفتحته، ودخلت وأغلقته خلفي.. كان الظلام دامسًا بالداخل، إلا أنني حين اعتادت عيناي الإضاءة، استطعت تمييز أشياء شنيعة لا أعرف كنهها تملأ حوض البانيو..

وسمعت صوته يمشي في الصالة.

ثم سمعته يفتح عدة أبواب، وكأنه يفتش عن دخيل ما..!

اقتربت الخطوات من باب الحمام، فتجمدت خلف الستارة..

وسمعته يهتف بصوت عال كأنه يحدث شخصًا ما يعرف أنه موجود:

- اخرج من مكمنك!.. أنا أعرف أنك هنا.. لقد لمحت ضوء بطاريتك من الشارع..!!

يا لي من أحمق!.. حين دخلت الشقة دون أن أخبر أحدًا.. وأحمق حين فاتني أن أرخى الستائر على النوافذ الزجاجية قبل أن أضيء بطاريتي..

والآن لم يعد هناك مفر..

إنها معركتي التي ستحدد كل شيء..

أخرجت منديلي وربطته حول أنفي على شكل لثام، لكي لا يتعرف علي إذا ما تصادف ونجا كلانا من الصراع القادم..

وفي لحظة وثبت نحوه كالمسعور وقد زادني الخوف شراسة..

بمجمع قبضتي هويت على مؤخرة عنقه، ثم وجهت ركلة لأسفل بطنه حين استدار - وقبل أن يفهم شيئًا - ثم لكمته بكل ما أملك من قوة في أنفه..

وانطلقت أجري. في حين تهاوى هو كالبالون المثقوب من خلفي..

ظلام الصالة.. التماثيل الأفريقية.. الباب.. الرتاج.. الطرقة..
ثم شقتي..!
لا أدري كم من الوقت قضيته راقدا على الفراش مذهولًا، لا أدري من أنا وأين أنا.. قلبي يتواثب كالحصان في صدري.. قلب لم تعد شرايينه تمده بحاجته من الأكسجين.. الدوار.. الظلام...
وحين أفقت.. نهضت مترنحًا إلى التليفون... وطلبت رقمًا في الإسكندرية..

* * *

صباح اليوم التالي، كنت جالسا في الكلية مع طلبتي في غرفة الدراسة، أشرح لهم - وأنا لم أزل منهكًا - أعراض الأنيميا الخبيثة، حين دق أحدهم الباب في رزانة دقات متتابعة..
استعددت كي أوبخ ذلك الطالب المتأخر بكلمات صارمة ثقيلة الوطء، ثم أدعه يدخل.. حين انفتح الباب بحذر كاشفًا عن رأس أصلع يرتدي نظارة سميكة مضحكة!، ونظرة ذهول بلهاء ارتسمت على وجه الأستاذ (محمد شاهين)، وهو يراني وسط طلبتي.
- أنت؟!..
- وأنت؟!..
- لم.. لم أصدق ذلك حتى رأيت بعيني..!
- حسن.. تعال واجلس حتى أنهي محاضرتي ثم نتكلم.. هناك كلمة اعتذار من حقي أن أقولها لك!
- وأنا كذلك!..
وهكذا جلس مع الطلبة يتابع محاضرتي، وأنا أكاد أسمع الأفكار التي تتضارب في ذهنه....
وبعد انصراف الطلبة، جلس إلى جواري وفتح فمه ليتكلم، إلا أني قاطعته:
- لست أنا آكل لحوم البشر الذي تبحث عنه!.. هذا هو كل شيء.. إن رجلك هو (عزت) وليس (رفعت)، وإني لأعتذر...
- لقد.. لقد سألت عنك فقالوا إنك هنا.. كنت واثقًا أن من يتحدثون عنه هو (رفعت إسماعيل) آخر..
وشرعنا نتبادل الإيضاحات، التي جعلت كل جوانب القصة مضيئة كالشمس.. واعتذر لي عن وقاحته وفضوله، واعتذرت له عن إلقائه ككيس القمامة خارج شقتي..
وحكى لي قصة المهندس (شاكر)، وحكيت له ما يمكنني حكايته - دون أن أفشي أسررًا هامة - من قصة (عزت شريف)...
وحين افترقنا - على وعد بالاتصال الدائم - كنا قد صرنا أصدقاء..

* * *

كانت خطة (عادل) تقترب من نهايتها:.
وبرغم لومه لي في التليفون على حماقتي، فإنني كنت - وكذلك هو - مطمئنًا إلى أن حادثة الأمس لم تؤد إلى نتائج لا يمكن إصلاحها.. وأن (عزت) سيظن أن لصًا محترفًا زار الشقة لغرض ما.. وهو قطعًا لن يجرؤ على إبلاغ البوليس، حتى يتجنب معاينة شقته..

هكذا ظننا..
وكنت - كالعادة - ساذجًا..!

* * *

٩ - المواجهة..

في الخامسة عصرًا كنت قد انتهيت من غذائي حين دق جرس الباب.. كنت لم أدفع إيجار الشهر بعد ؛ ولذا توقعت أنه البواب.. ذهبت لغرفة النوم، وأخذت ثلاثة جنيهات من جيب جاكت الحلة، ثم اتجهت إلى الباب وفتحته..

كان طارق الباب هو (عزت)..!!

كان يقف على الباب في رزانة، وابتسامة ما تتلاعب على شفتيه.. وأنفه متورم من جراء لكمة الأمس، وقد دس في فتحتيه قطعتين من الشاش، وكانت يداه في جيبه.. لم يكن منفرًا إلى هذا الحد، لكني كنت أخشاه كثيرًا..

لم أتوقع أبدًا أن يزورني عصرًا..

- هل تسمح لي بالدخول؟!

لم أدر ما أقول.. إنني لم أرفض دخوله قط، فلا داعي لإثارة ريبته في هذه الظروف بالذات، أشرت برأسي له أن ادخل.. فدخل في تؤدة وهو يرمقني بنظرة حادة ثابتة..

- هل كنت تأكل؟!...

- لا..

- على كل حال لن أضيع وقتك.. إن حياة العزاب هذه..

ومد يده في جيبه - أعني أخرجها - ليريني شيئًا ما..

- هل هذا يخصك؟!..

كان كفه مفتوحًا وفيه بطارية.. البطارية التي كنت أحملها معي حين دخلت شقته بالأمس..!.. البطارية التي نسيتها في الحمام حين اختبأت به، ثم فررت من الشقة ناسيًا كل شيء عنها..

والآن.. سأكذب كذبة صغيرة لكنه لن يصدقها، فتحت فمي فقال بصرامة:

- لا تكذب..!.. أنا أعرفها جيدًا.. لقد تأملتها وأدرتها في كفي في زيارتي الأولى لك، وكانت موجودة على مائدة غرفة الجلوس.. والسبب هو أنني لم أر مثلها أبدًا.. إنني لم أر من قبل بطارية مصنوعة في رومانيا..!!

- أنا... أنا..

- هكذا.. اتضح لى كل شيء..

ثم نظر في عيني في ثبات.. وهمس من بين أسنانه:

- والآن هل تتفضل بالإيضاح؟.. ما السبب الذي دعاك للتسلل إلى شقتي ليلة أمس؟.. ولماذا حاولت قتلي وكدت تكسر أنفي..؟!

ولمحت يده اليسرى تخرج من جيبه وفيها.. مطواة قبيحة الشكل، شهرها في وجهي وهو يقول:

- تكلم..!

لقد انتهى زمن الأقنعة.. ولم يعد لديه سبب للتظاهر بالمودة، ولم يعد لدي وقت للتظاهر بالسذاجة.. إنه يعرف أنني أعرف أنه يعرف!

ولم يعد أمامي إذن سوى الصراخ.. والصراخ فقط.. لكني سأؤجل ذلك حتى آخر لحظة..

قلت له في هستيريا:

- ابتعد عني يا آكل البشر؟

- ما هذا الهراء..؟!

- اسمع يا صديقي.. أنت في مأزق!.. إن كتيبة كاملة من رجال الشرطة تحاصر البيت.. وهم على استعداد لتمزيقك بمجرد سماع صرخة مني.. صرخة واحدة.. والآن ناولني هذا السلاح قبل أن يؤذي أحدًا..

علامات دهشة حقيقية على وجهه وتساؤل:

- ما هذا السخف؟.. أي رجال بوليس.. وأي..

هل عيناي تخدعانني أم أنه يرتجف؟.. يرتجف وقطرات عرق بارد تسيل على وجنتيه.. عيناه زائغتان.. شفتاه ترتعشان.. ثم.. تهاوى على الأرض كما يموت الثور في نهاية مباريات المصارعة الإسبانية، بعد ما تدميه جروحه.. وكان أول شيء فعلته، هو أنني أخذت المطواة من قبضته المتراخية..

ثم بدأت أفحصه..

ان هذا الفتى مريض حقيقة، ولا يدّعي شيئًا.. ماذا دهاه؟.. النبض المتسارع.. العرق البارد.. الضعف.. العام.. لا أعرف سببًا لكل هذا، لكني لن أتركه يموت كالكلب العقور أمامي، حتى ولو كان آكل لحم البشر..

سارعت إلى جهاز ضغط الدم الخاص بي، ولففته حول ذراعه، وبدأت أنصت.. لكن.. لابد أن هذا الفتى يمزح معي..

من المستحيل أن هذا هو ضغط دمه الحقيقي..!



سارعت إلى جهاز ضغط الدم الخاص بى ، ولففته حول ذراعه ،
وبدأت أنصت ..

ولمحت شفتيه ترتجفان وهو يهمس في ضعف:
- اسرع..!.. كـ.. كورت.. كورتيزو...
حسن.. حسن.. إن هذا الوحش يعرف ما يناسبه من علاج، ولئن كان قراري صائبًا أو متهورًا، فإن عندي: أمبولين من (الكورتيزون) ومحقنًا زجاجيًا... لن يتسع الوقت لغليه.. على كل حال هو لم يستعمل بعد..
وهكذا كسرت الأمبولين، وملأت المحقن وأفرغته في وريده..
لقد بدأ يتحسن لاشك في هذا..
ولا أدري إن كان هذا من حسن حظه، أم من حظي... على أن لدي نظرية معقولة عن حقيقة ما أمامي، لا ينقصها سوى البرهان الذي سيقدمه لي هذا التعس عندما يفيق تمامًا..

* * *

الآن نحن جالسان على مائدة الطعام نتبادل النظرات..
هو على طرف المائدة ينظر إلي في خمول وضعف وهو يرتجف.. وأنا على الطرف الأخر ألوح بالمسدس في يدي، وأنا أرمقه في شك وتوتر..
ربع ساعة مر علينا في هذا الوضع..
- والآن..؟
قلتها في صوت حاولت أن أجعله قاسيًا.. فلم يرد علي وأطرق..
- أنت مصاب بفشل الغدة فوق الكلوية، أو ما يسمونه (مرض أديسون).. أليس كذلك؟
- بلى.. هذا هو الاسم الذي قالوه لي..
قالها وهو يرفع وجهه نحوي في دهشة.. فقلت:
- وأنت لا تتحمل أي نوع من الجهد العصبي أو البدني ومصاب بإسهال؟
- نعم.. بالفعل..
- إن هذا يفسر الكثير.. إن مرض (أديسون) ينجم عن عدم قدرة الغدة فوق الكلوية على إفراز مادة الكورتيزون..
والنتيجة.. هزال شديد.. ضعف عام.. انخفاض مريع في ضغط الدم.. خشونة غير عادية في الكفين، ثم ذلك اللون الأسمر الغريب الذي أثار ارتيابي ودهشتي..
إن حالتك الآن واضحة، وعلاجها الوحيد هو الكورتيزون، وأنت تعرف ذلك خيرًا مني.. لكنه علاج يستمر مدي الحياة..
وأعتقد أن رغبتك في التوابل لها علاقة ما بمرضك..؟
نظر إلى كفه في شرود وقال:
- إنها تلك الرغبة المجنونة إلى الملح!.. أحيانًا تصيبني حتى أكاد أجن!
قلت في ثقة وأنا أضع المسدس على المائدة في متناول يدي:
- هذا بسبب احتياج جسمك إلى الصوديوم.. المادة التي يفتقر إليها في مرض (أديسون) هذا.. ولعل ذلك، هو سبب عدم تحمل معدتك لطعم الحلوى..

وأظن أن هذا المرض سبب اكتئابك وانعزالك وغرابة أطوارك، لأن له - أيضًا - جانبه النفساني..

هز رأسه مؤيدًا في ضيق..

بعد فترة صمت قصيرة قلت له وأنا أشعل سيجارة:

- والآن هناك أشياء معينة لا أفهمها..

لماذا استقلت من عملك بعد حادث الطائرة؟ ولماذا غيرت اسمك وسكنك؟

نظر إلى في ذهول.. وهتف:

- كيف عرفت؟!

- أنا أعرف كل شيء عنك تقريبًا.. والآن أجب عن سؤالي..

رفع رأسه للسقف.. وتنهد:

- كانت أعراض المرض قد ظهرت على.. تغيرت ملامحي وطباعي..

ولم أرد أن أرى علامات الرعب أو الشفقة على وجوه من أحببت، ولم أرد أن أؤذيهم بيدي أو بلساني.. لهذا تركت عالمي إلى أرض أخرى لا تعرف اسمي أو وجهي، استبدلت معاشي وبعت قطعة أرض صغيرة أعيش من ثمنها حتى اليوم.. ولهذا تجنبت كل جيراني...

- سؤال آخر: ماذا كنت تأكل في الصحراء قبل أن ينقذوك؟؟

بدت علامات الاشمئزاز على وجهه.. وهمس:

- أي شيء.. فئران.. أفاعي.. سحالي، أما زملائي فكانوا قد ماتوا وتكفلت بهم الذئاب.. كنت أعرف قواعد التغذية السليمة من أيام (فرق الصاعقة) ؛ لهذا احتفظت بكامل صحتي...

- آه..!.. جزء آخر من لغزك يتضح لي..

- لحظة!.. بأي حق تستجوبني؟!

مددت يدي للمسدس ورفعته نحوه:

- لأني أنا الذي أمسك المسدس، ولو كنت أنت الذي تمسكه لكان من حقك أن تعرف كل شيء عني..!!.. سؤال آخر: كيف جئت بقطرات المطر في تلك الليلة ولم تكن تمطر؟!

- أنا لم أقل لحظة إنه مطر.. كنت أحاول إصلاح (الدش).. وأنت تعرف مشاكلي الأبدية مع السباكة في شقتي..

ألقيت السيجارة على الأرض محاولًا أن أبدو مرعبًا.. وقلت:

- لم يزل لدى المزيد من الأسئلة...

كيف تفسر العظام التي ترمي بها من المنور.. ونزهاتك الليلية الغامضة؟

ثم - وقبل كل شيء - الأجزاء البشرية الممزقة التي تملأ شقتك؟.. غرفة النوم.. المطبخ.. بانيو الحمام..

نظر إلى في حدة.. وغمغم وقد تصلبت قبضتاه:

- منذ متى يسأل اللص صاحب البيت عن تفسير لمحتويات بيته..؟!

نهضت في عصبية حقيقية.. وركلت الكرسي:

- ألم تفهم أيها السفاح أنك قد انتهيت؟.. إن رجال الشرطة يعرفون كل شيء عنك، إن قتيل الإسكندرية هو آخر لحم بشري تذوقه في حياتك..!

- لحم بشري..؟ أذوقه..؟

وأخذ يتفكر قليلًا في كلامي.. ثم انفجر ضاحكًا.. ضاحكًا يستمع إلى كلامي وأسئلتي واتهاماتي.. ضاحكًا يلتقط أنفاسه، ثم إنه نهض غير عابئ بمسدسي، وأمسك بذراعي.. وفي رفق - كأنه يأخذ طفلًا إلى الملاهي - دعاني أن أصطحبه إلى شقته.. فقلت متراجعًا للوراء..

- سر أمامي أولًا..!

* * *

وفي شقته الكئيبة، دعاني إلى المطبخ.. وفتح الثلاجة وأخرج تلك القطع الآدمية الممزقة.. ودعاني أن ألمسها، ترددت.. لكنه أصر.. ومد إصبعه يضغط بها على إحداها..

أمام عيني المذهولتين، لمحت أثر إصبعه واضحًا غائرًا في اللحم!...

- هل ترى؟.. هذا صلصال!.. كل القطع التي رأيتها أمس كانت قوالب صلصالية.. بروفات تماثيل أكبر حجمًا..

إنني أمارس النحت على نطاق واسع.. وأعتقد أنك - على ضوء البطارية والرعب المسيطر عليك - فقدت القدرة على التمييز...

انتابني الذهول.. لكني كنت مصممًا على التأكد، حتى آخر قطعة صلصال وجدتها في حوض الحمام.. لم يكن ثمة شك في هذا.. كلها قطع بريئة، تم تشكيلها ببراعة فائقة ودقة تشريحية متناهية!

ولأول مرة - منذ ساعة. لم أجد داعيًا للمسدس، فوضعته في جيبي وسألته، وقد فقدت أكثر عدائيتي إن لم يكن كلها..

- والعظام؟.. هل لديك تفسير لها؟!..

ابتسم في رقة.. وجلس على حافة البانيو قائلًا في شرود:

- لقد فقدت جذوري وأصدقائي، وأصبت بمرض عضال..

لهذا في وحدتي قررت أن أعيد تشكيل ذاتي.. لقد أردت دائمًا أن أكون فنانًا عبقريًا مثل (أوجست رودان).. هل تعرفه؟

- لا..

- إنه مثال فرنسي عبقري، لابد على الأقل أنك رأيت تمثاله (المفكر)..

وهناك. حيث جلس على حافة البانيو - وضع قبضة يده تحت ذقنه، وقطب جبينه محاكيًا ذلك التمثال الشهير الذي أعرفه بالطبع..

- لقد بلغ (رودان) من دقة المحاكاة التشريحية، أنهم اتهموه بأنه يصب تماثيله من البرونز فوق نماذج بشرية حقيقية.. واتهموه بأنه يضع عظامًا بشرية لتشكل هيكلًا لتماثيله..

وكنت أعرف أنهم جميعًا - (مايكل أنجلو) و(رودان) و(مختار) - درسوا التشريح بعناية قبل أن يدرسوا النحت.. لهذا قررت أن أبدأ مثلهم.. حصلت على هذه العظام من أحد طلبة الطب وشرعت أدرسها..

لكني غير طبيعي.. ولحظات يأسي لا تنتهي... ربما بسبب المرض.. ولكم من مرة انتابني الإحباط، فألقيت بكل ما في يدي من المنور.. هذا هو سر تكدس العظام هنالك..

- وخروجك الليلي المنتظم..؟

- أقول لك إنني غير طبيعي.. لقد جعلني مرضي شديد التقلب.. هناك أوقات معينة أشعر فيها أنني سأجن لو لم أترك هذه الجدران الأربعة التي تجثم فوقي..
- يبقى موضوع سفرك المتكرر للإسكندرية..
- لماذا يسافر أي نحات للإسكندرية؟!.. سؤال سخيف..
ان الاسكندرية هي أنشودة الفن.. الامتزاج الخالد بين الفن الروماني والفرعوني والإسلامي.. الإسكندرية هي منبع الهامي، ولو لم أرها مرتين في الأسبوع على الأقل فلابد أن أجن!!
- ولم لا تسافر بسيارتك؟!،
- سؤال غريب.. هذه حريتي الشخصية فيما أظن.. ولا يمكنك أن تلوم إنسانًا لا يجيد القيادة أو يحب القطارات
- هذا حق!..
وتفكرت حينًا في نقاط غامضة أخرى.. ثم قلت:
- وبالطبع فإن أصوات الدق الليلية كانت نتيجة لنشاط خاص بالنحت...
- هذا صحيح.. وأعترف أن جيرة الفنانين مزعجة جدًا..
هكذا..
لقد كان هذا التعس مجموعة من التناقضات والأطوار الغريبة، التي لم يكن تفسيرها ممكنًا إلا على هذا الضوء الشنيع.. أنه يأكل لحم البشر..!
ولكم كنا مخطئين..!
ولكم ارتعبنا وارعبنا دون مبرر واضح.. وهنا تذكرت (عادل) يقول بصوته الواثق:
- إن الناس لا يفهمون المنطوي أبدًا.. قد يفهمون الوقح وقد يفهمون المزعج.. لكن المنطوي المهذب لابد ان يثير لديهم الظنون..!

* * *

ولكن..
من هو سفاح الإسكندرية إذن؟

* * *

١٠ - السفاح..

نحن الآن نشاهد الفصول الأخيرة من قصة سفاح الإسكندرية..
الزمان: الساعة الثانية ظهرًا من يوم ٦ مايو سنة ١٩٦٥.
المكان: زقاق ضيق قذر في إحدى الضواحي التي لن أذكر اسمها.. سيارة شرطة محملة بالجنود تسد إحدى ناحيتي الزقاق، وثلاث أو أربع سيارات تقف متراصة عند الناحية الأخرى..
ثمة بعض الفضوليين والمتسكعين يراقبون ما يحدث، لكن رجال الشرطة يبعدونهم في صرامة، ويساعدون على جلاء السكان..
(عادل) يقف بجوار سيارته وبابها مفتوح، بينما أجلس أنا في المقعد المجاور للسائق منكمشًا بادي التوتر.. فلقد أصر (عادل) على أن أرى نهاية القصة..
شرطي يتقدم ويقوم بتثبيت إبرة إطلاق النار لبندقيته الآلية.. وأشياء أخرى لا أعرف كنهها. لأني لست خبيرًا بالأسلحة النارية. لكنني أراهم جميعًا في الأفلام يفعلون أشياء مماثلة...!
كليك..!.. كراك... كليك..!..
هذا الصوت المرعب الذي يخبرك أن البندقية صارت أداة قتل حية ويقظة..! رفعت رأسي إلى (عادل) الذي وقف مهيبًا مرعبًا ويداه في خصره.. وقلت..
- (عادل).. أنا خائف..
- هذا ليس خبرًا جديدًا..
- ألن تنادوا عليه بمكبر الصوت..؟
ابتسم في سخرية وهو يضرب إطار السيارة بطرف حذائه:
- نعم.. ولم لا نقول له: استسلم يا مرسي.. البوليس يحاصرك من كل ناحية؟!.. أنت ترى أفلامًا كثيرة يا (رفعت)..!.. إنك ساذج.. ثم رفع عقيرته في صرامة:
- أريد ثلاثة أو أربعة هناك..! نحن لا نمزح..
وعلى الفور اندفع ثلاثة رجال يقفون بجوار إحدى نوافذ الطابق الأرضي.. وسمعت ذلك الصوت المشئوم إياه..كليك كراك كليك!.. فتجمد الدم في عروقي.. ستحدث مجزرة ها هنا بعد دقائق..

* * *

قلت لـ(عادل):
- والآن.. من هو؟!
قال وهو يشعل سيجارة:
- اسمه (صالح محمود).. وهو عاطل ومعقد ومفلس حاليًا...
- ومن وشي به؟

- زوجة صاحب البيت الذي يعيش به، شكت في تصرفاته واحتفاظه بكل هذه السكاكين.. ثم وجدت قطرات دم على السلم.. وهكذا..

- ولماذا كان يفعل ذلك؟

يا صديقي لا يمكن معرفة طريقة تفكير سفاح.. بعضهم يملك عقدًا نفسية.. وبعضهم يعاني جنون الاضطهاد.. وبعضهم يبحث عن الشهرة.. وبعضهم يعاني رواسب سادية قديمة..

هذه مشكلته وليست مشكلتنا..

تنهدت في حسرة:

- وأنا الذي خاطرت وتعذبت من أجل ظن لا وجود له.. واتهمت شابًا مريضًا حساسًا بأبشع التهم.. بل ضربته ضربًا مبرحًا..

- لست وحدك.. بل أنا والدكتور (شاهين)، وكل رجالنا الذين تجمدوا في ليل الشتاء وهم يراقبون هذا الفتى...

لقد كان الجواب تحت أنوفنا هنا في الإسكندرية..

- على كل حال لم يحدث أن اجتمعت كل هذه الظواهر الخادعة من قبل، ولو أن (شيرلوك هولمز) في مكاننا لفعل نفس الشيء..

- كانت فكرة الكانيبالزم شططًا لا داعي له.. إنه مجرد سفاح عادي، إذا كان هذا التعبير جائزًا..

وهنا سمعت صوت الرجال يتعالى..

ورفعنا رؤوسنا لنجد شخصًا يتحرك فوق سطح البيت الآيل للسقوط، وهو يترنح كي لا يسقط.. ويفرد ذراعيه على استقامتهما..

كان وجهه وجه شاب تراه في كل مكان وفي كل يوم، برغم لونه الغريب..

وكان يرتدي (بول أوفر) وبنطلون بيجامة قذرًا ممزقًا عند الركبتين.. التفت (عادل) إلى شرطي بجواره.. وهتف:

- سعد.. هاته!

وعلى الفور اندفع سعد إلى مدخل العمارة القذر.. واختفي في الظلام..

قلت لـ (عادل):

- إنه يبدو آدميًا..!

نظر إلي في استخفاف:

- وماذا كنت تتوقع؟.. إن السفاح ليس شخصًا منكوش الشعر، زائغ النظرات، نامي اللحية، يجري في الشوارع شاهرًا سكينًا واللعاب يسيل من شدقيه؟

وهنا دوى صوت صراخ وحشي من على السطح..

نظر (عادل) إلى الرجال فاندفعوا عبر مدخل العمارة.. وسمعت صوت معركة - دون طلقات لحسن الحظ - انكمشت لها أكثر فأكثر، صوت شخص يستغيث.. صوت الكلمات.. عبارات سباب.. صراخ..

ثم برز الرجال وهم يمسكون بشيء كالخنزير البري..

كان (صالح) في وسطهم وقد تورمت عيناه وسال الدم من شدقيه وانتابه هياج لا يصدق، وكان يتهدد ويتوعد ويرفض المشي، من ثم كانوا يجرونه جرًا...

وظهر زوج من الأصفاد كئيب المنظر....

وفي ثوان التف القيد حول معصمه.... و....

لا أدري لماذا ذكرني منظره بتلك الكلاب المسعورة، التي كان شرطي الكلاب يجرها بأنشوطة من الجلد، في نهاية قضيب حديدي طويل.. وكنت أرتجف حين أتخيل ما يمكن أن يحدث لو أفلتت قبضة الشرطي من على قضيب الحديد هذا..

وفجأة..

وقبل ان أفهم ما هنالك..

دفع الفتى الشرطي الذي يمسك بالطرف الآخر من القيد في صدره، فأوقعه أرضًا.. ثم - في نفس اللحظة تقريبًا - هوى بالجزء المعدني الذي كان يمسكه الشرطي، على زجاج نافذة بالطابق السفلي.. وفي ثوان هشم الزجاج إلى قطع صغيرة.. والتقط قطعة.. ووثب علي حيث خرجت من السيارة..

حدث كل هذا في ثانيتين فلم يتمكن أحد من فعل شيء..

ووجدت ذراع الفتى يلوي ذراعي للخلف، وقطعة الزجاج الحادة فوق شريان عنقي (السباتي للأسف!)..

لقد فر الكلب المسعور من حارسه!..

وصرخ في هياج جنوني:

- لا يقتربن مني أحد وإلا ذبحت لكم هذا الخروف!

شعرت بالزجاج يضغط عنقي يكاد يخترقه.. كان شرسًا، وقد زاده الخوف توحشًا.. وشعرت أنفاسه اللاهثة الملوثة بالتبغ تلفح أنفي.. وكان قويًا بلا شك..

بدأ الرجال يتراجعون في بطء وارتباك..

وحتى (عادل) بدا كمن أسقط في يده..

- هكذا... أبعدوا هذه السيارات عن المدخل..!

وأنا لست قويًا..

لكني أمقت أن يستغلني أحد في تعطيل العدالة، ولا أحب أن ينعتني شخص لا أعرفه (بالخروف).. كما أني أمقت الفظاظة وعدم اللياقة..

وفي ثوان اتخذت قراري..

وفي ثوان نفذته..

ألقيت بنفسي للخلف لأبتعد عن نصل الزجاج.. ثم لويت ذراعي عكس اتجاه ذراعه، ورفعت قدمي راكلًا ساقه التي توازن عليها.. وهكذا سقط أرضًا، وقبل أن يفهم شيئًا كان هناك عشرة رجال شرطة يثبتونه أرضًا، ويحكمون تقييده.. مع توجيه بعض اللكمات لتهدئة حماسه..

ولم أسمع عبارات التهنئة..

ولم أسمع كلام (عادل) الضاحك وهو يربت على كتفي..

ولم أسمع دقات قلبي..

كنت أبحث عن مكان يصلح لفقدان الوعي..!

* * *

الخاتمة..

بعد أن حضرنا معرضه في قاعة (جوته) بالإسكندرية، أدركنا - أنا و(عادل) - أن (عزت شريف) قد بلغ الكمال في فنه..

وكان يقف هناك نحيلًا غريب اللون - ولكن مرتفع المعنويات - يتحدث إلى الحسناوات ورجل أو اثنين من رجال الصحافة.. وكان يتألق كالنجم...

وحين سألني عن رأيي في معرضه الأول قلت له:

- سأقص عليك قصة لا أدري أين قرأتها.. كان هناك مثال ينحت تمثال امرأة.. وكان يريد أن يصل للكمال فيه..

وهكذا ظل يتقن ويتقن في صنعه.. عامًا بعد عام.. وعقدًا بعد عقد.. حتى انتهى منه.. وعندئذ وقف يتأمله في ذعر.. ثم صرخ: يا إلهي!.. إنه يبدو حيًا..!.. ثم خر ميتًا من فوره..!

نظر إلى في وجوم.. ثم قال:

- إنها قصة سخيفة على كل حل.. وعمومًا أنا لا أفهم ما تريد قوله..

- وأنا كذلك.. لقد تذكرت هذه القصة لسبب لا أدريه..

- ربما هو جنون..

- أو تحذير من البحث عن الإجادة الكاملة..

وهنا شعرت بـ (عادل) يجذبني ليقدمني إلى فتاة رقيقة بارعة الجمال تبتسم في حرج.. وسمعته يقول:

- معذرة لإنهاء المحادثة.. هذا دكتور (رفعت) يا (هويدا).. هذه (هويدا) يا (رفعت).. أرجو ألا تكونا نسيتما بعضكما..

هتفت في ذهول وأنا مندهش كيف لم ألحظ جمالها في تلك الأمسية:

- ربما نسيتني هي.. أما أنا فمستحيل..

يبدو أنني قد تسرعت في قراري السابق، ويبدو أن الوقت قد حان كي أكبر وأكون كالآخرين الذين يتحدثون عن الخطبة والمهر وقائمة الأثاث و.... و.... تلك الأسرار المرعبة..

يبدو أن الوقت قد حان كي استقر...

قلت هذا لنفسي، ولم أكن - للمرة المليون - أعرف أي ساذج أنا.. فقد كنت سأسافر إلى جزر الهند الغربية بعد شهرين، وكنت سألقي هناك كابوسًا جديدًا من نوع خاص..

ولكن.. هذه قصة أخرى!

د. رفعت إسماعيل
القاهرة في مايو ٩٢

[تمت بحمد الله]

رقم *الإيداع*: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة..

١ - إنني ارتاب!

٢ - الزيارة..

٣ - المزيد من الالغاز..

٤ - سوء تفاهم..

٥ - المتطفل..

٦ - عروس البحر...

٧ - هذا هو السر!

٨ - مغامرة صغيرة..

٩ - المواجهة..

١٠ - السفاح..

الخاتمة..

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة آكل البشر

إن الحديث عن آكلة لحوم البشر مثير دائمًا، بشرط ألا تكون أنت الضحية!..، والآن أغمض عينيك وتخيل معي .. ماذا لو اتضح لك أن هناك آكل لحوم بشر في مدينتك .. بل في شارعك .. بل في دارك؟! تخيل أن لك جارًا يأكل لحوم البشر، ويمارس طقوس (الكانيبالزم) بانتظام .. وهو الآن يدق بابك بعد منتصف الليل، طالبًا بعض التوابل ..! أرجوك .. لا تفتح الباب ..!!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة الموتى الأحياء

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

تذكر أن هذا الكلام في عام ١٩٦٤.

[←2]

لم تكن (العين السحرية) التي تركب في الأبواب المعرفة الطارق معروفة في ذلك الوقت..

[←3]

اتهمت السلطات الفرنسية أحد كبار الضباط بالخيانة فيما عرف باسم (قضية درايفوس) برغم عدم كفاية الأدلة، من ثم جرد الأديب الفرنسي (اميل زولا) قلمه وكتب مقالات ملتهبة تحت عنوان (إنني أتهم)، وقد نجحت المقالات في جعل الحكومة تعيد المحاكمة وتبرئ درايفوس.

[←4]

علم السلوك الإنساني.

[←5]

حقيقة.. إن (مرفت) هو النطق التركي لكلمة (مروة) العربية..

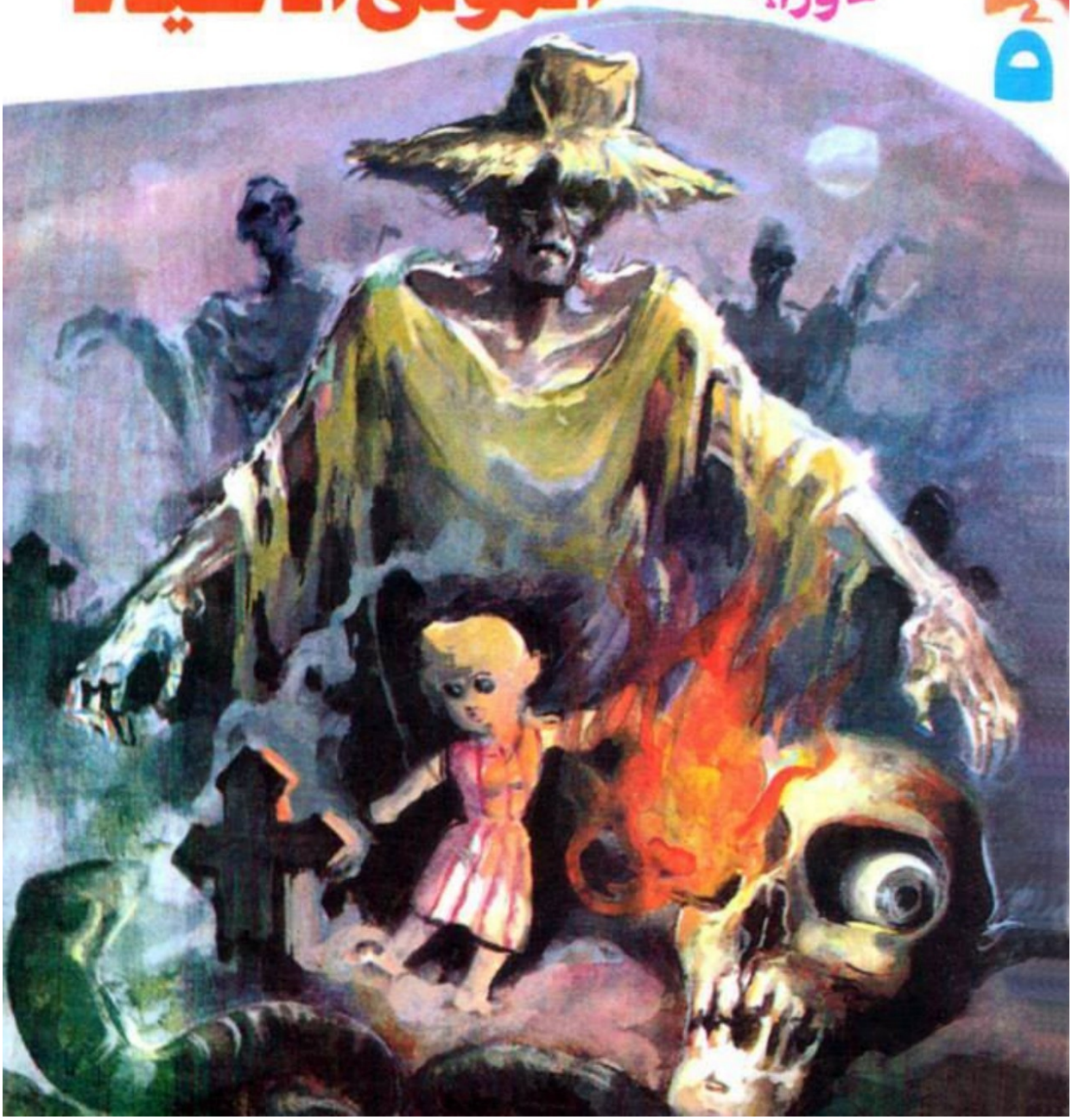
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

أسطورة الموتى الأحياء

ماوراء الطبيعة

٥



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

٥

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة الموتى الأحياء

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

٥

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

•

أسطورة الموتى الأحياء

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة..

من هو الذي قضى الليل جوار مومياء الكونت (دراكيولا)...؟
من هو الذي صارع مسخ الذئب فوق ثلوج رومانيا تحت ضوء القمر...؟
من هو الذي لبى نداء النداهة وعاد...؟
الجواب واحد لا يتغير..
من هو الذي انتزع القربان من (وحش لوخ نس)...؟
من الذي اقتحم شقة آكل لحوم البشر في منتصف الليل...؟
إنكم تعرفون الجواب...
إنه أنا...
الدكتور (رفعت إسماعيل)...
من الذي جرؤ على تحدي د. (لوسيفر)...؟
من الذي دخل قلعة (فرانكنشتاين)؟...
إنه أنا...
العجوز المحظوظ الذي لم ينل منه شيء سوى أثر السنين...
والآن...
من الذي سقط وحيدًا في شرك الموتى الأحياء، ومع الوجوه المرعبة المتآكلة للزومبي...؟!
إنه أنا بالطبع...
وكيف ؟...
أضيئوا الأنوار وأغلقوا الأبواب، واسمعوا ما سأقول...

* * *

١ - في الأنتيل..

إنها الواحدة والنصف صباحًا..
ومحرك السيارة اللعين يأبى أن ينطلق..
مئات المرات يفتش (هاري) عن خلل ما..، عشرات المرات يدعس دواسة البنزين.. ويتحسس أزرار لوحة القيادة دون جدوى..
لقد ماتت السيارة تمامًا...
و يا له من وقت... ويا له من مكان..!
على مسافة أمتار تلتمع شواهد القبور بمنظرها الشاعري الكئيب فيما ضوء القمر الفضي البارد ينعكس عليها...، وثمة ذئب يعوي في مكان ما يجاوبه ذئب آخر في مكان آخر...، وابتلع (هاري) ريقه..
كان صوته غريبًا في ظلام العربة حين يتكلم..
- على كل حال.. نحن في مأمن هاهنا..
- فلننتظر حتى الشروق..
- لا مفر من ذلك..
ثمة شيء يتحرك في الظلام.. إنه يقترب منا في تؤدة وبطء..
ليس شبحًا بل هو رجل يرتدي فانلة داخلية ممزقة وسروالا مهترئًا.. ويرخي على وجهه قبعة من القش تحجب ملامحه عنا..
لكنه يقترب.. وهو - حتمًا - سيقدم لنا العون والمأوى..
وفجأة..
تصلب جسد (هاري) واتسعت عيناه.. وصرخ:
- (رفعت)!.. أغلق زجاج النافذة جوارك.. اضغط زر تأمين الباب..!
ولكن...
صاح وهو يغلق النافذة المجاورة له:
- هل ترى يديه؟.. إنهما متأكلتان باديتا العظام... إنه ليس مخلوقًا حيًا...
كان ذلك الشيء يقترب بنفس السرعة الوئيدة.. حين أردف (هاري):
- إنه من الزومبي..!!

* * *

والآن دعونا من هذا الموقف السخيف وكيف سنخرج منه، وتعالوا معي إلى بقعة قد لا يراها أحدكم في حياته..
تعالوا إلى جزر الكاريب..
هلمّوا إلى الشمس الاستوائية.. ورقصة (الكاليبسو) في ضوء القمر..

تعالوا إلى دقات الطبول.. ومزارع الموز.. والوجوه السمراء الجميلة الباسمة.. والدماء الحارة.. هلمّوا إلى الأنتيل..

* * *

أعرفكم أولًا على هذا الشاب الأشقر الوسيم الذي رأيتموه معي في السيارة.. إنه مهندس كمبيوتر أمريكي اسمه (هاري)... هاري شيلدون..، ولا تدعوا كلمة (كمبيوتر) تمر عليكم مر الكرام لأنها - في ذلك الوقت من عام ١٩٦٥ - كانت مجهولة تمامًا لنا.. وكانت تفوح منها روائح أسطورية مرعبة كأنها كهنوت السحرة.. أما اليوم فإن بعض الدول تعرف الشخص الأمي بأنه ذلك الشخص الذي لا يجيد لغتي برمجة على الأقل..!!

هذا هو (هاري شيلدون).. والآن تعال أعرفك هذه الحسناء المرحة.. ولا ترمقني هكذا!.. إنها ليست صديقتي.. إنها زوجة (هاري) واسمها (لندا).. وهي كما ترى أمريكية جدًا جدًا...

أما هذا الشيطان الصغير الذي يركلك بقدمه ويخرج لنا لسانه فهو ابنهما (جيمي).. وعمره سنوات أربع..

كانت فكرة (هاري) هي اصطحابي معهم - من فلوريدا- لقضاء بعض الأيام في (جامايكا) وهي رحلة أعتقد أنك توافقني على أنها لن تتكرر في حياتي أبدًا..

خاصة وأنني أرافق هذه الأسرة اللطيفة التي تجيد الاستمتاع بالحياة..

قال لي (هاري) وهو يمجد فكرته:

- ستكون أيامًا لا تنسى يا صغيري.. سترى..!

ولو تغاضينا عن مناداته لي بـ(يا صغيري) كعادة الأمريكيين - برغم أنه يصغرني بثمانية أعوام - لوجدنا أنه كان صادقًا في كل حرف..

بالفعل ستكون أيامًا لا تنسى..!

* * *

والآن تعال يا (هاري) وحدثني عن (جامايكا)..

أنا أعرف أنها إحدى جزر الهند الغربية التي تمتد من (فلوريدا) شمالاً إلى فنزويلا جنوبًا على شكل قوس طوله ٣٢٠٠ كم..

لكن لماذا هي (جزر الهند الغربية)؟.. ما دخل الهند في الموضوع..؟

يضحك (هاري) في سخرية ويغمز (لندا) ؛ كي تضحك معه.. ولسان حالهما يقول إنهما لم يتوقعا أن أكون بهذه البلاهة..

ثم يقول لي وعيناه دامعتان..

- أنت تعرف (كريستوف كولومبس) بالطبع؟

- نعم.. فأنا قد دخلت المدرسة الابتدائية على كل حال..

- وتعرف أنه حاول إثبات أن الأرض كروية وذلك بالإبحار غربًا متوقعًا أنه سيدور حول الأرض ليصل للهند..

- طبعًا..

- حسن.. لقد وصل (كولومبوس) سنة ١٤٩٢ - بعد رحلة شنيعة - إلى أرض حارة يسكنها قوم ذوو بشرة قاتمة..، من ثم اعتقد - ولا لوم عليه - أنه وصل للهند..، لم يعرف المسكين أنه وصل جزيرة (واتلنج) في (بهاما) في المكان الذي أطلق عليه (سان سلفادور)..، ثم اكتشف (هسبانيولا) بعد ذلك..

- ولم يعرف خطاه؟

- بل عرفه.. وأدرك أنه لم يثبت شيئًا للأسف..، وصار سخرية القوم حتى أنهم أسموه (أميرال أرض الناموس).. ثم مات فقيرًا دون أن يعرف أنه وجد عالمًا جديدًا بدايته في هذه الجزر.. جزر (الهند الغربية)..

- حتى شرف إطلاق اسمه على العالم الجديد ناله رحالة أخر هو (أمريجو فسبوتشي) الذي من اسمه جاءت كلمة (أميريكا)

- لكن (كولومبوس) ترك اسمه في دولة كولومبيا..

- هذا صحيح.. ولكن القارة كلها كانت من حقه.. وأي ظلم!

- وما هي أسماء هذه الجزر؟

يقول (هاري) وهو يداعب شعر ابنه في رفق:

- اتحاد جزر الهند الغربية يتكون من عشر جزر.. إلا أنه في عام ١٩٦٢ انفصلت عنه (جامايكا) و(ترينداد) و(توباجو).. ونقلت العاصمة الاتحادية إلى بربادوس1..

- وما هي جزر (الأنتيل)؟

- (الأنتيل) هو مجموعة من الجزر البركانية.. أكبرها هي (كوبا) و(جامايكا) و(بورتريكو) و(هسبانيولا) التي تضم (هاييتي) و(الدومينكان)..

وكان سكان هذه الجزر قديمًا يدعون بالكاريب ؛ لذا سميت جزر البحر الكاريبي..

* * *

ونمشي في شوارع (كينجزتن) عاصمة (جامايكا).

إن (جامايكا) جزيرة صغيرة مساحتها ١١٠٠٠ كيلو مترًا مربعًا وتعدادها ١.٨٦ مليون نسمة لهذا لا تتوقع أن تكون عاصمتها كبيرة جدًا أو مبهرة..

إنها ليست (نيويورك) مثلًا..

لكنها - برغم هذا - تتمتع بسحر خاص غامض..

الأمطار الاستوائية لا تتوقف طيلة العام.. وبرغم ذلك فالحرارة شديدة جدًا تصل إلى سبعين أو ثمانين فهرنهايت..

مظاهر الفقر والبؤس واضحة.. نفس الملامح التي رأيتها في كل مكان.. الوجوه القبيحة الكالحة التي تراها في جبال الهملايا وفي أحراش (أوغندا) وفي سوق قريتك..

إن تنوع الوجوه يوجد فقط حيث الثراء والترف..، أما الفقر والبؤس فيجعلان الوجوه تتشابه في كل مكان في العالم..، نفس النظرات المعذبة ونفس الأطفال المهزولين يتدلون بقذارتهم من ثدي مهترئ لأم حافية كالحة الوجه.

لقد نجح هذا المناخ الكئيب في إطفاء جذوة حماسنا بعض الشيء..

إن (جامايكا) بالتأكيد ليست بطاقة بريدية يرقص فيها الرجال والنساء حول أشجار الموز...

لكن (هاري) و(لندا) كانا - فيما يبدو - مصممين على الاستمتاع بكل هذا البؤس الذي لم يعتادا رؤيته في (فلوريدا).. وقد رأيا في كل هذا سحرًا خاصًا مليئًا بالأصالة، الأمر الذي لم يسعدني على الإطلاق..، والأسوأ هو ما أعرفه - بحكم عملي - من أن هذه البلاد موبوءة بالجذام والزهري والطاعون والملاريا.. و.. و...

دعك من مرض (الشاجاس) لعنة هذه البلاد والذي ليس له علاج معروف وينقله نوع من البق بشع المنظر...

- ربنا يستر!

قلتها لنفسي بالعربية بصوت مسموع وأنا أفكر في كل هذه المصائب التي تنتظرني بإذن الله هنا والتي قد أنجو بمعجزة من ثلاث أو أربع منها لكن الباقي سينالني حتمًا..!..، سمعتني (لندا).. فسألتني:

- ماذا تقول...؟

- لا شيء.. كنت أردد بعض عبارات الانبهار بهذا الجمال..!!

ونمشى في شوارع المدينة تحت الأمطار..

* * *

٢ - ضيف غير مرغوب فيه..

- والآن أعتقد أننا سنشرب بعض الروم2..
قالها (هاري) وهو يجلس على المائدة و(لندا) تعيد تعبئة الكاميرا بفيلم جديد..، وكان جو المقهى خانقًا رطبًا.. وظلام الليل يخيم على المدينة كأنه ثوب أسود ثقيل تملؤه ثقوب مصابيح الشوارع..
اعتذرت عن شرب الروم بالطبع وطلبت من الساقي بالإنجليزية أن يحضر لي عصير ليمون..، لم يفهم شيئًا وظل يرمقني في بلاهة مما أثار حفيظتي.
قال له (هاري) بالفرنسية أن يحضر بعض الروم لهم وعصير ليمون لي..
ثم التفت لي باسمًا:
- ليسوا جميعًا يتحدثون الإنجليزية هنا.. يا صغيري..
- إذن فالفرنسية هي لغتهم؟
- ولا الفرنسية.. إن اللغة هاهنا خليط من اللهجة المحلية واللغة الفرنسية.. والإسبانية.. والإنجليزية، أي أنك يجب أن تجرب كل شيء قبل أن تتلقى نتيجة ما..
وتناول الكاميرا من (لندا) ليعبئها بنفسه.. وقال:
- لقد شهدت هذه الجزر احتلال الأسبان والفرنسيين والهولنديين.. لهذا اكتسبت شيئًا من كل هؤلاء..
ثم إن قربها من الولايات المتحدة جعل للإنجليزية أرضية لابأس بها هاهنا..
- فهمت.. ولحسن الحظ أن فرنسيتي تفي بالغرض.. صحيح أنها ركيكة لكني لا أعتقد أنني سأقابل هاهنا أحد أساتذة السوربون.. إن ما أعرفه يشكل (الحد الأدنى للأمان اللغوي).. وهذا يكفي..
ضحك (هاري) ونظر إلى (لندا) في حيرة.. ثم سألني:
- وما هو هذا (الحد الأدنى للأمان اللغوي)؟
- إنه الحد الأدنى من أية لغة، الذي يكفل لك ألا تموت جوعًا ولا تنام في العراء ولا تدخل السجن..
لهذا فإن أول ما أتعلمه من أية لغة هو عبارات مثل: أين الفندق؟.. بكم؟.. أريد أن أكل؟.. أين المخفر؟.. أين المطار؟.. لا خمر ولا لحم خنزير من فضلك..
- لقد نسيت أهم عبارة..
- وما هي؟..
- أين دورة المياه؟.. إنها ستوفر عليك متاعب كثيرة!
- لم أنسها.. لكني لم أشأ ذكرها أمام (لندا)..
- وهناك عبارة (أنا اريد الاتصال بقنصل بلادي) وهي ضرورية إذا لم ترد قضاء بقية حياتك في أحد أقبية (ترينداد) أو سجون (صقلية) أو معتقلات (داهومي)..! إن شعوب العالم عديدة وقوانينها كثيرة.. ومن الصعب ألا تخالف قانونًا ما وأنت لا تتخيل وجوده..

- لا أفهم.. إن السطو والاختطاف والقتل جرائم عند كل الشعوب مهما تباينت.. إن القوانين شيء يستنتجه المرء بالسليقة..

- مثلا في (أوهايو) يوجد قانون يعاقب من يركل كلبا يوم الأحد3...!

والآن تصور نفسك تسير في (أوهايو) في أحد أيام الأحاد والشوارع شبه خاوية وفجأة.. هوب!.. يعضك ذلك الكلب فماذا تفعل؟.. بالطبع تركله.. عندئذ يمسك بك رجلا شرطة من قفاك ويحملانك إلى السجن.. هذا سهل جدًا..، والآن ماذا تفعل لو كنت لا تعرف كيف تقال عبارة (أريد القنصل) بالإنجليزية..؟!!

لم استطع أن أرد..، إن هذه المعلومة قد أثارت دهشتي - وقد بدا لي أنني - ما حييت - لن أعرف كل شيء.. بل سأزداد جهلًا بذلك المخلوق غريب الأطوار عجيب الطباع: الإنسان..، لكنها خبرة أخرى لا بأس بها تضاف إلى رصيد خبراتي.. ولئن جاءت فرصة ما وذهبت إلى (أوهايو) في يوم أحد، ذكّروني ألا أركل أي (كلب) يعضني هناك..!

* * *

وجاء الساقي بما طلبنا فجلسنا نشرب ونتحدث..

كان المقهى يفتقر إلى الرقي..، مستواه أقل إلى حد ما من مستوى الكافتيريا لكنه أعلى - لحسن الحظ - من مستوى الحانة..!..، وكان رواده من رجال ونساء مبعثرين على الموائد المتناثرة يتحدثون بلغة غريبة على مسمعي في حين كان هناك صندوق موسيقا عتيق يبعث نغمات كئيبة تدعو للنعاس...

وكان هناك عملاق أسمر ملتح يرتدي قميصًا زاهي الألوان مشجرًا.. لا أدري كيف واتته الشجاعة على ارتدائه - يقف على منصة الساقي يمازحه ويحسو شيئًا ما في (شوب) كبير..

وكانت هناك ثلاث حسناوات سمراوات يقفن جواره يثرثرن وهن يشربن عصير المانجو..، والساقي النحيل الشاحب يجري هنا وهناك كذبابة في مصنع لتكرير السكر..! والساعة تقترب من الحادية عشرة مساء..

لقد حان وقت الانصراف.. والفراش الوثير.. والنوم..

وفجأة.. ساد الصمت المكان..

لم يعد أحد يثرثر وإن ظل الصندوق يرسل نغماته الكئيبة..

العيون تتجمد في محاجرها.. الساقي تصلب في مكانه فاغرًا فاه في ذهول

الثلاث الحسناوات تراجعن للوراء وهن يرتجفن.. وثمة كأس سقط من كف إحداهن فتهشم على الأرض.

حتى العملاق الأسمر - الذي يمكنه أن يخيف الشيطان ذاته - تراجع وهو يرتجف وعيناه لا تفارقان ذلك الشيء الذي دخل...

في الواقع لم يعد شيء يتحرك في المكان حتى دخان التبغ بدا وكأنه قد تجمد رعبًا في الهواء..

وبشكل غريزي نظرنا نحو المدخل لنرى ما هنالك. كان ذلك الشيء رجلًا نحيلًا ضئيل البنية يسير ببطء بين الموائد..

رأسه مضمدة بمنديل قذر.. ويرتدي قميصًا حال لونه وسروالًا واسعًا ممزقًا في أكثر من موضع..، وكان أضعف من أن يثير كل هذا الرعب في نفس طفل صغير..

وحين مر بمائدتنا بدأت أفهم... كانت رائحة عطنة تثير الغثيان تنبعث منه...

أما الذي أثار ذهولي أكثر من أي شيء فهو يداه..

كانت يداه بلا أصابع تقريبًا وما بقي منها كان مجرد عظام عارية بيضاء..

وحتى قدماه الحافيتان كانتا واضحتين تمامًا.. يمكنك أن ترى الأوتار والعظام وكل شيء فيها..

ورفع رأسه فرأيت وجهه.. اللون الرمادي الغريب.. الأنف المجدوع والأسنان النخرة المتساقطة..

وفي تجويف عينه اليسرى لم تكن هناك عين على الإطلاق.. مجرد حفرة سوداء بشعة المنظر.. والتجاعيد تملأ لحمه..

وبدأت أفطن لسر ذعر كل هؤلاء..

إن هذا الذي أراه ليس له سوى تفسير واحد..

إن هذا الرجل هو جثة حية..

* * *

وتقدم ذلك الشيء نحو (البار) بينما الجميع يفسحون له الطريق دون أن يجرؤوا على إدارة ظهرهم له.. كلهم يتراجعون للخلف وعيونهم لا تفارقه..

وخلف (البار) وقف الساقي يرتجف.. حين تقدم إليه ذلك الكائن ووقف أمامه مباشرة.. كأنه ينتظر شيئًا متفقًا عليه..

وفي حركات هستيرية شرع الساقي يصب الروم من زجاجة في كوب كبير.. وقد سكب خارج الكوب أضعاف ما سكبه بداخله.. ولا ألومه كثيرًا في الواقع حين أضع نفسي مكانه، وذلك الشيء على بعد أمتار منه يتأمله بعينه الصفراء الوحيدة باهتمام..!.



وفى حركات هستيرية شرع الساقى يصبّ الروم من زجاجة فى كوب كبير ..

ومد الشيء يده العظمية إلى الكوب وشرع يحسوه في نهم..
ثم ألقاه على المنضدة طالبًا المزيد وهو مالم يكن الساقي في حاجة لفهمه.. فقد شرع يعيد ملء الكوب حتى قبل أن يوضع أمامه..
نظرت بطرف عيني إلى (هاري) فوجدته يدير قرص حاجب الكاميرا وعيناه لا تطرفان عن المشهد.. اختار أوسع فتحة للحاجب مع السرعة (بي) التي تتيح له فترة تعريض يحددها هو.. اي انه كان يستعد لالتقاط الصورة في هذه الإضاءة الضعيفة بدون فلاش..
- مامي..!.. انا خائف..!
صرخ (جيمي) وهو يدفن رأسه دامع العينين في صدر (لندا) التي تحسست شعره في حنان وثقة بينما عيناها لا تفارقان ذلك الشيء.. إنها لخبرة مروعة لطفل في هذه السن..
(هاري) يرفع الكاميرا ببطء وحذر إلى عينه ويثبت مرفقه على المنضدة حتى لا تهتز يداه (وهو شيء حتمي مع هذه السرعات البطيئة)..، ويحبس نفسه..
الساقي النحيل يهمس له بالفرنسية (وكان واقفًا بجوارنا):
- سيدي!.. بربك لا تفعل..!
همس (هاري) وهو يحكم التصويب:
- ولماذا؟ إنه لن يرى الفلاش..
- سيعرف.. إن (دالماس) يعرف كل شيء..
إذن اسمه (دالماس).. وهم يعرفونه وقد اعتادوه..، وهذا الـ (دالماس) يلعب دور بلطجي الحانات الشهير.. كلاهما يفرض سلطته عن طريق الخوف..، الخوف من قوته الجسدية وبطشه في حالة البلطجي.. والخوف من بشاعة تكوينه في حالة (دالماس) هذا..
على كل حال لقد نجح في إرعابنا..
إن الهلع الذي يغمر القاعة لهو مثال آخر على ظاهرة الإشعاع (السايكو فيزيائي) التي يتحدث عنها علماء النفس..
هذه الظاهرة تفسر تلك العدوى النفسية التي تحدث في حالات الحماسة والخوف والضحك والكآبة..، فحين يصرخ جندي واحد: إلى الجهاد..!؛ تدب الحماسة في الكتيبة بأكملها.. وحين يضحك اثنان أمامك تجد نفسك تضحك معهما دون أن تعرف علام يضحكان..، وحين ينتاب الرعب الموجودين في هذه القاعة يصيبنا نحن أيضًا الرعب حتى قبل أن نعرف سبب رعبهم.. و.. كليك!..
لقد ضغط (هاري) زناد الكاميرا بعد أن أحكم التصويب.. وظل مثبتًا وضعه حابسًا أنفاسه لمدة ثانية كاملة قبل أن يرفع إصبعه من على الزناد..، إنه يدير رافعة الكاميرا من أجل لقطة أخرى... كفاك هذا يا (هاري).. لاشك أنه يريد الاطمئنان بأخذ عدة لقطات لأن الصور المأخوذة بالسرعة (بي) تفشل في أغلب الأحيان...
كليك..!... ثم... كليك...!
ارتشف المخلوق ثمالة الكوب ثم وضعه في حركة عنيفة على المائدة. ولمحت يده العظمية تنساب في جيب القميص العلوي مفتشة عن شيء ما.. ثم خرجت مفرودة وعليها.. قطعة عملة مد بها كفه إلى الساقي..

لم أر من قبل مسخًا بهذه النزاهة..!
مسخ يصمم في كبرياء على دفع ثمن ما شربه من روم..
إلا أن الساقي تراجع للخلف في حياء متقزز.. وأريحية مرعوبة..
إنه لا يريد من هذا الشيطان شيئًا سوى أن يتركه وشأنه..
ألقي (دالماس) قطعة العملة على المنضدة فدارت بضع دورات حول حافتها قبل أن تسقط محدثة دويًا بدا لنا مرعبًا..
ثم إنه استدار.. وببطء شديد أخذ يترنح بين الموائد..
أخذ الذين احتشدوا في طريقه يفسحون له مرة أخرى وهم لا يجرؤون على الإتيان بأية حركة مفاجئة..
كان يسير في تؤدة نحو مائدتنا..
- مامي..!.. إنه سيأكلنا..!
قالها (جيمي) الصغير وهو ينتحب ويحاول أن يختفي عن الوجود نهائيًا في طيات ثياب أمه..
فازداد احتضانها له حزمًا وبسالة...
وكانت يدا (هاري) ما تزالان قابضتين على الكاميرا حين وقف أمامنا ذلك الشيء وقد بدا في أبشع صورة حين دنا منا..
كانت عينه الوحيدة متصلبة على الكاميرا..
وفي بطء ارتفع إصبعه السبابة العظمي نحو (هاري) وارتجفت ذراعه وهو يهمس في صوت كفحيح الأفعى وبإنجليزية مهشمة:
- ها... ها... هاتها!!

* * *

٣ - العرافة..

ساد الصمت المكان وتحفز الجميع لما سيحدث...
نهض (هاري) وقد كور قبضة يده وتصلبت عظام فكيه، وهتف في غضب حقيقي:
- اسمع أيها المهرج..!.. لا أعرف من أية مباءة أتيت.. لكني لا أخافك.. وعلى كل حال لن أعطيك هذه الكاميرا..!
تصلب جسد المسخ ووقف لحظة ساكنًا كأنه يزن الخطوة التالية..، ورأيت أنني يجب أن أفعل شيئًا ما يثبت أنني هنالك.. فوقفت. أنا الآخر جوار (هاري) متصلبًا نافشًا عضلات صدري متظاهرًا بأن كل ما أشعر به هو الغضب وليس الخوف..!
لحظات مرت تصادمت فيها الإرادات وبدا أن هذا الموقف سيستمر للأبد.. وحتى يموت واحد منا إذا كان هذا الشيء قابلًا للموت..
ثم.. نظر لي نظرة لن أنساها أبدا بعينه الصفراء..، أتبعها بنظرة طويلة إلى (لندا) الجالسة في تحفز.. أبشع نظرة رأيتها في حياتي..
ثم إنه استدار واتجه ببطء للباب.. واختفى في الظلام...
ظللنا ساكنين فترة..
ثم ارتفعت التنهدات وأنفاس الخلاص، وسمعت الساقي يهشم الكوب الزجاجي الذي لوثه ذلك الشيء في اشمئزاز..، وارتفعت أصوات الإعجاب والتهنئة لي ولـ (هاري) على ثباتنا أمام هذا المخلوق المنفر..
واقترب منه الساقي النحيل يحيط كتفه بإعزاز وهو يقول بالفرنسية:
- أنت شجاع يا سيدي.. ولكن أنصحك أن تحترس من (دالماس).. فهو زومبي.. والزومبي لا يغفرون ولا ينسون..، عليك أن تغادر الجزيرة سريعًا أو على الأقل تعيد أسرتك إلى الولايات المتحدة..
وارتجف في تقزز مردفًا:
- لقد نظر نظرة وعيد مرعبة إلى زوجتك..، ألم تلحظ هذا..؟
إنها رسالة لا تحتاج لترجمة..!

* * *

من الغريب أنه سمع صوت غالق الكاميرا وأدرك أننا قد صورناه..
كان منظره يوحي بأنه لا يعي أي شيء..
قالها (هاري) وهو يصعد درجات سلم الفندق - فندق سان رامون - وهو يضع يده على كتف (لندا) ويمسك بيد (جيمي) شبه النائم..
قلت وأنا ألهث لاحقًا بهم:
- على العموم لقد أثبت أنه مسخ متحضر..، يفهم فنون التصوير ويدفع ثمن مشروباته..

- هذا هو الرقي..
وعند غرفته ذات السريرين أولج المفتاح في الباب وتمنى لي ليلة سعيدة..
فقلت له مداعبًا:
- على كل حال احترس.. إن الصور مازالت معك، وكما هي القصة دائمًا ستجد عصابة مرعبة تطاردك لأن الفيلم يبين شيئًا ما لا تريد العصابة أن يراه أحد، أو - إذا كانت القصة مفزعة - سيدخل هذا المسخ غرفتك من الشباك هذه الليلة بغية قتلك وتدمير الفيلم..!
- يا لك من داهية..!
قالها وهو يلكمني في كتفي حتى كاد يخلعه.. ودلف إلى الحجرة مع أسرته..
والآن أذهب إلى غرفتي..
ليست فاخرة جدًا - غرفتي - لكنها مريحة.. وبها جهاز تكييف يعمل بكفاءة لا بأس بها.. والفراش وثير إلى حد ما.. وخال من الحشرات لحسن الحظ..
والآن أرقد في الفراش مستشعرة تلك المتعة المخدرة التي يشعر بها المرء حين ينزع حذاءه بعد يوم مضن ويدفن قدميه الساخنتين في الأغطية الباردة.. و..
الباب يدق في حذر...
نهضت متثاقلًا إلى الباب وعندي يقين شبه تام أنني سأجد الأخ (دالماس) واقفًا يرمقني بتلك الفجوة السوداء المريعة..، بحذر أزحت الرتاج وفتحت الباب فوجدت.. شابًا ناحلًا رقيق الملامح يقف في توتر مهذب كمن ينتظر الإذن بالدخول..
نظرت إليه في تساؤل.. فقال بفرنسية رديئة النطق لكنها سليمة:
- سيدي.. أنا (جابرييل) خادم الغرف هنا.. هل تسمح لي؟!
- حسن.. أنا لم أطلبك يا بني..
وكدت أغلق الباب لكنه عاد يتوسل...
- رجاء سيدي.. إنه لأمر هام وملح..
تفكرت في الأمر ثم وجدت أنه لا ضرر هناك من سماع كلمات هذا الفتى بعد إدخاله طبعًا..، وهكذا سمحت له بالدخول.. وأشرت له إلى مقعد كي يجلس..، قال وهو يتنهد في ارتياح:
- شكرًا.. شكرًا...
- والآن قل ما عندك..
- لقد قمتما بتصوير الزومبي (دالماس) هذه الليلة.. لا تسألني كيف عرفت لأن لي مصادري الخاصة، والآن دعني أحذرك.. يجب أن تغادروا (جامايكا) خلال ساعات إلى أي بلد اخر..
تثاءبت وأشعلت سيجارة.. وسألته:
- هل هذا إنذار؟.. أعني هل السيد يهددني؟
قال على الفور:.
- لا.. لا.. هو مجرد تحذير لأن ما سيحدث غدًا - لو لم تنفذوا نصيحتي - سيكون بشعًا إلى حد لا يصدق..، وأنا أكره أن يقال إنني تركت هذه المأساة تحدث برغم علمي أنها غير ضرورية..
نفثت دخان السيجارة وقد نجحت لهجته بالفعل في إثارة توتري..
إن أول أمسية لنا في هذه الجزيرة لا تبدو سارة أبدًا سألته:..
- هناك أشياء عديدة لا أفهمها.. مثلًا من هو (دالماس) هذا؟..

وما معنى كلمة (زومبي) التي تحدثونني عنها كأنها من مفردات قاموسي أنا..؟.. وما هي المشكلة في صورة فوتوغرافية بريئة..؟

تفكر برهة.. ثم سألني في حذر..

- هل تثق بي يا سيدي؟

- نعم أثق بك كما أثق بأي شخص قابلته لأول مرة من ربع ساعة..!

- رائع..!.. ارتد ثيابك وتعال معي لتقابل شخصًا يشرح لك كل شيء..

لم يفهم الغبي دعابتي..، لم يفهم سوى أنني أثق به فعلًا..

لكن ثمة إغراء شديد بأن أستمر مع هذا. الفتى النهاية..، فالموقف مثير.. والفضول يقتلني، ثم إنه أضعف من أن يؤذيني على الأقل بيده المجردة..،

أضف لهذا أن الإرهاق قد برح بي إلى ذلك الحد الذي تنعكس معه الآية ويطير النوم من عينيك..

لن أوقظ (هاري) لأن الأمر كله قد لا يكون سوي دعابة سخيفة..

- وإلى أين سنذهب؟

- إلى الزقاق الكائن خلف الفندق.. إنها شقتي..

- حسن.. ولكن دعني دقائق ريثما أبدل ثيابي::

وما إن خرج حتى شرعت أرتدي ثيابي، ولم أنس بالطبع أن أدس مسدسي في جيب البنطلون، ذلك المسدس الذي لم يعرفوا في الجمرك بوجوده معي خاصة وأن جهاز الكشف عن السلاح لم يكن قد عُرف بعد في تلك الأيام السعيدة قبل أن يخترعوا موضة خطف الطائرات..

وعلى ورقة صغيرة كتبت التالي بخط واضح:

(هاري)...

لقد خرجت مع (جابرييل) خادم الفندق إلى داره في الزقاق الخلفي للفندق..، أرجو أن تنقذني..!

وأطفأت نور الحجرة وتبعت (جابرييل) بعد أن أغلقت بابي..، وعند عتبة غرفة (هاري) انحنيت - أمام عيني (جابرييل) المندهشتين - ودفعت بالورقة التي كتبتها من تحت الباب..

للحظة بدت الحيرة على وجه الفتي.. ثم أضيء وجهه بالفهم.. وقال:

- آها..!.. أنت تخبر صديقك بمكانك كنوع من الاحتياط..

- لم أعرف أنك عبقري فاعذرني..!

ابتسم في عذوبة وقال:

- هي فكرة جيدة ولكن في حالة واحدة.. أن يكون اسمي حقًا هو (جابرييل) وأن يكون بيتي حقًا خلف الفندق..!، أنت لا تعرف عني سوى ما قلته أنا لك..

- في هذه الحالة توجد حلول أخرى..

- كالمسدس الذي في جيبك..؟!..

وأشار إلى الانبعاج الذي أحدثه المسدس في جيب بنطلوني، واستطرد:

- لا ألومك على هذه الاحتياطات لكن المسألة لا تحتمل كل هذا التعقيد.. إن هي إلا دقائق وتعود بعدها.. ثق بي..

ومضينا في الطرقات المظلمة على صوت نباح الكلاب الضالة من بعيد..، كيف لو عرف أن مسدسي لا يحوي سوى طلقتين ؛ لأني لم أشتر ذخيرة له منذ شرائه؟!!

* * *

كانت رائحة شقته خانقة وأثاثها قبيح بالفعل..

وفي غرفة الجلوس قدمني إلى عجوز زنجية شمطاء تساقطت أسنانها جميعًا والتجاعيد تملأ وجهها..، وكانت أظفار يديها طويلتين كالمخالب ورائحة زيتية منفرة تفوح منها..، ومن أذنيها تدلى قرطان كبيران..

- أمي (مارشا).. أرجو أن تقدم نفسك لأنى لا أعرف اسمك..

- (رفعت).. رفعت إسماعيل.. طبيب..

صافحتني العجوز بمخالبها ودعتني للجلوس.. ثم إنها أشعلت سيجارًا غليظًا خبيث الرائحة وجذبت منه نفسين في حنكة واحتراف..، وجرعت جرعة كبيرة من زجاجة بجوارها..، في حين قال الفتى في فخر:

- إن أمي خبيرة في طقوس (الفودو)...

- فو.. ماذا؟

- (الفودو).. إنه السحر الأسود الذي يمارس في جزر (الأنتيل).. وأمي ساحرة بارعة.. إنهم يشهدون لها بذلك..

- سـ.. ساحرة.. با.. بارعة..؟

كانت العجوز ترمقني - كالصقر - بعينيها الرماديتين وقد سرتها إطراءات ابنها ونظرات الرعب في عيني التي لم تخف عليها بالطبع..

ماذا يحدث لي؟ أي شيطان يطاردني كي أضع نفسي في كل هذه المآزق؟.. مرة أتصارع مع مذءوب.. ومرة أصطاد وحشًا أسطوريًا.. ومرة أتسلل إلى شقة آكل لحوم بشر وحدي ليلًا..، والآن أنا في شقة ما في (جامايكا) بعد منتصف الليل مع ساحرة خبيرة في فنون السحر الأسود؟!..

بعد دقائق قالت العجوز في صوت كغطاء تابوت ينغلق وبالفرنسية:

- أنت أيها الشاب الأبيض تحديت الزومبي..

أبيض؟.. إن لوني الخمري يسبب مشاكل عديدة لي.. فأنا أبدو أجنبيًا أينما حللت!!..، في (نيجيريا) كانوا يقولون لي أيها الأبيض المستغل!.. وفي (إنجلترا) كانوا يقولون لي: أيها الزنجي المتخلف!..، وحتى عند (لوخ نس) قال لي (آنفريد) قبل أن يموت: أيها الكلب الإنجليزي!...

قلت لها بفرنسية كسيحة:

- ولكن - معذرة - يا سيدة (مارشا)..

- اسمي هو الأم (مارشا)..

- حسن أيتها الأم (مارشا)..، لا أفهم من هم (الزومبي) بالضبط..

نظرت إلى ضوء المصباح الذابل مفكرة.. ثم قالت:

- (الزومبي) هو اسمهم في (جامايكا).. في (توباجو) و(بربادوس) يسمونهم الموتى الأحياء.. أعتقد أن الاسم الأخير مفهوم لك؟

- نعم.. لغويًا..

قالت وهي تتأملني في تركيز:

- في كل مرة يمارس السحرة طقوسهم خلف النهر يموت واحد.. وبعد ثلاثة أيام يغادر قبره في الظلام... عندئذ يسمونه (الزومبي)...

وهم جميعًا يعرفونه ويذكرون ملامحه، لكنهم لا يجرؤون على الكلام معه لأن (الزومبي) لا يحب أن يلمسه أو يكلمه أو يضايقه أحد وإلا فالويل له..

إن (الزومبي) ملعون للأبد..

إنه لا يعرف الراحة الابدية.. بل يجوب الأرض.. تخشاه زوجته ويخافه أصدقاؤه القدامى.. يتعفن وهو حي.. لا يأكل ولا يشرب ولا ينام...

- لكن (دالماس) هذا كان يشرب كالإسفنجة..

- بالطبع تظل هناك عادات راسخة في نفسه منذ كان حيًا يرزق..

لقد كان (دالماس) سكيرًا في حياته..، لهذا يكرر نفس ما كان يفعله..

- وهل هو (الزومبي) الوحيد؟

- كلا.. هناك ثلاثة في (كينجزتن).. وعشرات في القرى التي حولنا..

ثم إنها ابتسمت ابتسامة قاسية.. وهمست:

- أنت لا تصدق.. إنني أرى ذلك في عينيك!!

ابتلعت ريقي مفكرًا فيما عساي أقول..، ثم قررت أن أتكلم بصراحة:

- اسمعيني أيتها الأم.. أعلم أن ما سأقوله سيثير حنقك لكني سأقوله على كل حال..، إن الأديان السماوية تؤكد وجود السحر الأسود لكنها تنكر قدرته على حرمان أي مخلوق من حقه الطبيعي في الموت... إن الخلود صفة الله سبحانه وتعالى، أما نحن فلا خلود لنا على هذه الأرض.. وهو الذي يهبنا - وحده - الخلود في العالم الآخر..

تصلبت الساحرة فادركت أن ليلتي لن تمر على خير.. وإنني حتمًا سأنتهى إلى برغوث أو خنزير أو أي شيء مشابه.. الأمر الذي لا يروق لي...

بعد لحظات مدت ذراعها الضامر إلي كيس من الخيش على المائدة بجوارها.. ومنه أخرجت حزمة من الأوراق...

أوراق لعب قديمة مهترئة تنم عن إفراط حقيقي في استعمالها..

إنني أعرف هذه الأوراق... أعرف رسومها الغامضة.. وشكلها الكئيب المشئوم إنها أوراق (التاروت) التي لا يستغني عنها السحرة.

(بعد سنوات كانت لي قصة مريرة مع هذه الأوراق ومع د. (لوسيفر).. وسأحكي لكم هذه القصة بالتفصيل - مع شرح هذه الأوراق المشؤومة - يومًا ما.. فذكروني وقتها..!).



ومنه أخرجت حزمة من الأوراق :

أوراق لعب قديمة مهترئة تنم عن إفراط حقيقى فى استعمالها ..

مدت لي العجوز مخالبها بالأوراق - بعد أن فكت (أستك) تضمها معًا.. وهمست لي وهي تمتص دخان السيجار:
- اخلطها..!.. لا تفكر إلا في (الزومبي) وفي حادث الليلة..
كانت الأوراق تفوح منها رائحة توابل وروائح عطرية لا أعرف ماهي..، ولقد خلطتها وأنا أحاول - بوحي من ضمير - أن أركز تفكيري في ما طلبته مني برغم إيماني بسخف الأمر كله..
- والآن.. هاتها!
وتناولتها مني.. وشرعت تفردها بترتيب معين على المائدة وهي تلوك سيجارها دون أسنان..، ساحرة محنكة تعرف عملها تمامًا فيما يبدو..
- آها.. القلعة.. الملكة.. ثم الذئب.. ثم الملكة.. ثم...
ولمحت آخر ورقة.. الورقة التي تمثل الموت في صورة هيكل عظمي يمسك منجلًا ويحصد الرؤوس..، أيًا ما كان معنى ذلك الهراء فنهايته هي الموت.. الموت ولا شيء آخر..
وسمعت صوتها - غطاء التابوت - يفتح من جديد:
- ويل لكما من شرك الموتى الأحياء!!..
لن يكون هناك آخرون..
ستدفنان حيين..!
وحين تغرب شمس الظهيرة...
تحترق القلعة..
ويصرخ الذئب من الألم..
لأنه لن يكون هناك آخرون..
بعد إثنين...
ربما بعد ثلاثة..
ستفتح قبور كثيرة..
لكن التراب الأحمر سيقذي عينيه..
ولن يرى..
ويموت أجنبيان ميتة الكلاب!!
(في لغتها الفرنسية كانت هذه العبارات مسجوعة)..
ثم أنها أحنت رأسها وشرعت تجمع الأوراق في صمت.. قلت لها:
- كل هذا ظريف.. ولكن ما معناه؟
لم تجب وواصلت وضع الأوراق في الكيس.. بنظرة شاردة..
- لا أفهم حرفًا واحدًا.. هلا شرحت لي؟!.
تنحنح (جابرييل) في كياسة.. وكان قد ظل صامتًا كالأسماك طيلة هذه المحادثة..، كان يخشى أمه كثيرًا ويرهبها دون شك، وحين وضع كفه على يدي أدركت أن ضيافتي قد انتهت..
- إن أمي لا تحب الكلام بعد نبوءات (التاروت)..
- نبوءات؟.. لم أسمع منها سوى مقطوعة شعرية رائعة جديرة بـ (إليوت)4.. لكنها إذا أرادت أن تحذرني من شيء ما فمن الطبيعي أن أعرف ما هو هذا الشيء.. هذا حقي..

ازداد صوته حزمًا وملمس يده صلابة وهو يقول:

- إنها لن تعطيك جوابًا.. فهي تترك فهم ما قالته لك.. والأحداث القادمة ستعيد لك ذكرى هذه المقاطع بوضوح.. عندئذ ستعرف ما ينبغي أن تفعله..، والآن حان وقت العودة للفندق..!

تنهدت في استسلام وتبعته للباب وأنا أشعر بخيبة الأمل على الوقت الذي أضعته مع هذه المجنونة.. ولم استفد أي شيء...

وهنا سمعت صوتها يناديني في خشونة...

- تذكر...!

التفت إليها متسائلًا.. فقالت وهي تلوح بورقة الموت إياها:

- بعد إثنين.. ربما ثلاثة..!!!

* * *

٤ - ليلة الرعب..

قال (هاري) وهو يمزق قطعة الورق بين أنامله:
- أهنئك على الفزع الذي سببته لي ليلة أمس..، لقد خرجت من غرفتي لأدخن سيجارة حين وجدت هذه الورقة التي ترجوني فيها أن أنقذك!..
ورمي قصاصات الورقة من النافذة قائلًا:
- ولكن بربك لماذا طلبت مني أن أنقذك قبل أن يحدث شيء؟
- قلت لنفسي إنني إذا لم أعد حتى موعد استيقاظك صباحًا سأكون حتمًا في ورطة.. عندئذ ستكون لفظة (أنقذني) مناسبة جدًا..، أما إذا عدت فإن الورقة لن تكون ذات بال لأني سأوقظك بنفسي صباحًا
- مشكلتي هي أن كل أصدقائي عباقرة..!
هرشت في رأسي بتواضع.. وقلت:
- والآن ماذا نفعل؟.. هل ننفذ؟!
- تعني نبوءة العجوز؟..
- والساقي.. و(جابرييل).. الكل يجمع مصيبة ستحدث لنا..
- على كل حال نبوءة الساحرة تتحدث عن اثنين وربما ثلاثة - كما تقول أنت - أي أن أمامنا فترة أمان قدرها يومان.. وربما أسبوعان..
- وربما شهران.. وربما عامان..
قال (هاري) في شرود وهو يجول غرفتي ويداه في جيبه:
- على كل حال أعتقد - وأنت توافقني - أننا لو أخذنا هذا التهديد مأخذ الجد فلن نحترم أنفسنا أبدًا بعد ذلك..
قلت له في كياسة:
- ولكن ما المانع من ترك هذه الجزيرة؟.. أنا لا أحبها كثيرًا في الواقع..
- لأن هذا جبن!
قالها كأنه يبصق.. فلم أشأ استفزازه..
وفي هذه اللحظة وصلت (لندا) و(جيمي) من جولتهما في المدينة التي قررا القيام بها هذا الصباح برغم اعتراضي..
وكانت (لندا) متحفزة وغاضبة، و(جيمي) متوترًا بشكل مريب..
ثمة شيء ما في وجه (لندا) لا أعرف ما هو لكنه مختلف..
الآن فهمت...
إن هناك خصلة كبيرة تم قصها من شعرها الأشقر على جانب الراس الأيمن مما جعلها تبدو مشوشة المنظر.. ومضحكة إلى حد ما..
- يبدو أنه (كوافير) أخرق جدًا يا (لندا)..!

قلتها مداعبًا وأنا أشير لرأسها.. لكنها لم تضحك.. وصرخت في تنمر أن امرأة تربط رأسها بمنديل أحمر تسللت وراءها في زحام السوق.. وبسرعة جهنمية أخرجت مقصًا.. وأمسكت بخصلات شعر (لندا) الجميلة وقصت حزمة لا بأس بها ثم ولت الأدبار قبل أن تفهم (لندا) ما حدث..



وصرخت فى تنمّر أن امرأة تربط رأسها بمنديل أحمر تسللت وراءها فى زحام السوق .. وبسرعة جهنمية أخرجت مقصًا .. وأمسكت بخصلات شعر (ليندا) الجميلة وقصّت حزمة لا بأس بها ..

فقط نظرات الشفقة والحيرة على وجوه من تصادف أن رأوا المشهد كأنهم رأوه كثيرًا.. ولسان حالهم يقول: هي ذي واحدة أخرى!...

قال (هاري) محاولًا تخفيف الجو المتوتر:

- إنها أرادت تذكارًا ذهبيًا يا عزيزتي.. فحصلت على واحد..!

قالت (لندا) من بين أسنانها:

- لو أن هذه الذئبة سقطت في يدي لأكلت قلبها.. أنت رجل ولا تعرف كم تحب المرأة منا شعرها..

أما أنا فقد بدا لي ما حدث مألوفًا إلى حد ما..، امرأة ترتدي منديل رأس أحمر.. أي أنها - بشيء من الخيال - غجرية.. وموضوع أخذ خصلة شعر يذكرني بموضوع (الأثر) الذي يمارسه سحرة ريفنا المصري..، خصلة من شعر الرجل أو المرأة توضع في دمية من القماش ويتم إيذاؤها بشتى الوسائل..، والمفروض أن هذا الإيذاء ينتقل تلقائيًا إلى صاحب أو صاحبة الخصلات..

إن هذا يبدو مألوفًا لكني لم أجرؤ على مصارحة أحدهما بما لن يتذوقاه من خواطري ومخاوفي الخاصة الغامضة التي لن تثير سوي رعبهما أو سخريتهما..

فلأبق هذه الفكرة المرعبة سجينة في رأسي..

ولأحترس..

* * *

وغربت الشمس..

وكنت جالسًا في أحد المقاهي ارشف فنجانًا من الشاي المعطر حين دخل (هاري) المكان وجلس على مائدتي متحمسًا..

- هيا بنا..!

قلت في هدوء وأنا أضيف السكر للشاي:

- هذا اقتراح لا بأس به.. لكني أعتقد أن من حقي أعرف إلى أين؟

صاح في غيظ وهو لا يدري أيضحك أم يصرخ:

- ألن تكف عن هذه الردود الباردة المتحذلقة؟.. تحمس مرة واحدة لشيء ما وعندئذ ستفهم الحياة..

- أنت تنسى أن أساتذتي كانوا إنجليزًا..، وكلهم شديدو البرود، ويرون أنكم معشر الأمريكان مجموعة من المعتوهين الأثرياء..

- تبًا..!

ثم ارتشف جرعة من فنجان الشاي الخاص بي.. وهمس:

- إنها ليلة الموتى الأحياء..!

- رائع!..

- أقسم لك.. هذه الليلة هي ليلة العيد الديني الخاص بسحرة (الفودو)..، وهم يباشرون فيها طقوس صنع (الزومبي)..!.. تصور هذا يا صغيري!

- ومن قال لك هذا..؟
- إنها العجوز (أنجيلا) التي تبيع الزهور جوار الفندق..، قالت لي إنهم يمارسون طقوسهم خلف النهر قرب قرية اسمها.. اسمها..
وهرش رأسه في قنوط:
- إن هذه الأسماء اللعينة تتشابه جميعًا..
- ولكن ماذا يعنينا في هذا الأمر؟!..
ضرب بقبضته المائدة صائحًا:
- ألم تفهم؟.. يجب أن نذهب هناك..!
- هل جننت؟!..
- إنها فرصة العمر..، معي الكاميرا وجهاز التسجيل في الحقيبة.. ولسوف نذهب هناك ونسجل للعالم أول طقوس (فودو) يراها..، سأرسل صورة صنع (الزومبي) إلى مجلة (لايف).. إنه المجد..!
- وهل تعتقد أن أحدًا لم يلتقط صورًا لهذا المشهد من قبل؟
- بالطبع يا صغيري..
وارتشف جرعة أخرى من فنجاني مضيفًا:
- إن أي غريب يرى هذه الطقوس مصيره الموت..!
- وهذا يثير شغفك..؟
- طبعا.. إنها الأرض البكر التي لم يرها مخلوق.. إنها جبال القمر.. إنها كهوف المحيط.. إنها غرفة الهرم الخفية.. إنها قمة (إفرست).. وإن النصر الحق لهو أن ترتاد هذه الأماكن التي لم يسبقك إليها كائن حي...
أشرت بيدي إشارة سريعة إلى الساقي طالبًا الفاتورة.. ثم قلت لـ (هاري):
- اسمعني يا (هاري).. أنت لا تعرف عني الكثير.. إنني لمصيبة حية.. بل لعنة على قدمين..، وفي كل مكان أذهب إليه كنت أجد كارثة ما، أو شيطانًا لا يراه سواي.. وحتى حين بقيت في داري ابتليت بآكل لحم بشر.. لهذا تجد عندي خبرة لا بأس بها في هذه الأمور..
وعليه فأنا أرفض تمامًا هذا الاقتراح..
- إذن سأذهب وحدي.. لقد استأجرت سيارة (فورد) صغيرة لهذا...
- وأعود أنا إلى (فلوريدا) مع أرملة محطمة وطفل يتيم..؟!
- بالطبع.. فالجبناء يعيشون أكثر من سواهم..
وهذه هي مشكلتي.. أنا لا أستطيع أبدًا - ولو على سبيل التغيير - أن أقول كلمة (لا) بصوت مسموع..، ولو كان الناس جميعا على شاكلتي فإننا جميعًا مجبرون بلا أية إرادة..
ولهذا – كما تتوقعون - وجدت نفسي راكبًا جوار (هاري) ذاهبين (للاستمتاع) بطقوس الموتى الأحياء..!!

* * *

نحن الآن نشاهد طقوس (الفودو) الذي يمارسه سحرة جزر (الأنتيل)..

ولو أردت أن تتخيل المشهد فعليك أن تتخيل بيتًا للجن يرقص فيه ألف شيطان.. ويدوى به ألف طبل.. في ضوء ألف شمعة..

تعال معي ولا تخف.. هات يدك في يدي وتعال نخترق هذا الزحام...

سنعبر هذا الزحام المكون من عشرات الشبان والشابات مبهوري الأنفاس متشابكي الأيدي.. وحاول ألا تشم رائحة العرق التي تملأ المكان..

والان احترس من أن تصطدم بهذا الراقص المحموم الذي يرتدي ثوب شيطان أحمر له ذيل وقرنان.. وحاذر من أن تتعثر في هذه الراقصة التي ترتدي بذلة سوداء مرسومًا عليها هيكل عظمي بالطلاء الأبيض وهي تتمرغ في التراب من حين لآخر..

والآن تقدم معي إلى هذه البقعة المضيئة التي تنيرها ألف شمعة لا تدري متى وكيف أوقدوها.. ولا تخف من تلك الجماجم المستخدمة كمصابيح يخرج اللهب من عيونها فهي لم تعد تؤذي أحدًا..

هل تسمع صوت الغناء الجماعي؟.. وهل تسمع معي دوي الطبول؟ إنه غناء رائع لكنه - للأسف - بلغة لا نعرفها..

اما هذه المرأة التي تتلوى على إيقاع الطبول فهي ساحرتهم.. وهي كما ترى شابة حسناء لكنها مرعبة وقاسية كما يظهر من شكل فكها المربع...

والآن تعال إلى الشجرة العتيقة.. شجرة البلوط التي يقف عندها شاب أسمر عاري الجذع مقيدًا بالحبال في وضع مصلوب وعيناه تلتمعان بنشوة عارمة كأنه تحت تأثير مخدر ما..

انعكاس اللهب يترقرق على وجهه المدهون باللون الاخضر..

في حين يسقيه رجل قصير أعور جرعات من شراب أحمر في إناء.. كلا.. ليس إناء.. إنه الجزء العلوي من جمجمة بشرية.. فلا تخف..!

إنهم يلقنونه عبارات مسجوعة لا أدري ما معناها.. والجمع يردد في إصرار لفظة: (بعلزبول).. (بعلزبول)..

هل أنت خائف؟.. لا ألومك كثيرًا.. فأنا مثلك..

هل أنت مشمئز؟.. بالطبع... إن هذا الجو الملوث لا يناسب الأشخاص الحساسين مثلي ومثلك..

إذن.. تعال معي إلى مخبئنا - أنا و(هاري) - عن هذا الجمع المجذوب وراء شجرة كثيفة الأغصان لا يصلها ضوء المشاعل ولا الشموع..

لا تحدث ضوضاء لان جهاز التسجيل يدور ملتقطًا هذه الأغاني اللعينة.. و(هاري) يصوب كاميراه مستعملا عدسة الزوم والسرعة (بي) حتى لا يودي ضوء الفلاش بحياتنا إذا أحس به هؤلاء المتعصبون..

الساحرة تخرج أفعى من كيس خيشي وتلفها حول عنق الفتى المقيد وتردد كلمات ما... أما المفزع أكثر من الأفعى فهو أن الفتى لا يبدو مهتمًا بالأمر برمته..

قال (هاري) وعينه على الكاميرا:

- هل تفهم؟.. إن هذا الفتى هو (الزومبي) القادم..، ولابد أن هذا الحفل سينتهي بقتله..

- يا للهول!.. وهل سنكتفي بمشاهدة هذا..؟

- إما أن ينتهي الحفل بقتله.. أو ينتهي بقتلنا جميعًا فماذا تفضل؟!..

ابتلعت ريقي شاعرًا بالعجز.. وأنا ألعن كل شيء في هذا البلد بما فيه نحن..، وشرعت أراقب الأحداث الدامية في توجس..

والآن تتناول الساحرة شيئًا ما من نفس الكيس الخيشي فتدب الحماسة في الجمع.. وتتعالى الصيحات..

(كوديكا).. (كوديكا)..!!

إن ما في يد الساحرة هو دمية قماشية رديئة الصنع تمثل زنجيًا.. وها هي ذي تقوم بعمل عدة ثقوب في بطن الدمية.. ثم تلقي بها في اللهب لتحترق..

ترى هل تخدعني عيناي أم أن هذه الدمية تتلوى في النار كإنسان يحترق؟!!

والصيحات تتعالى وإيقاع الغناء يزداد سرعة..

(كوديكا).. (كوديكا)..!!

وتمد الساحرة يدها بدمية أخرى وتفعل نفس الشيء..

ثم دمية ثالثة امرأة بيضاء.. امرأة تغطى رأسها خصلات شقراء ذهبية حقيقية.. و.. لكن.. لحظة من فضلك..

خصلات شقراء حقيقية..!!

إنني الآن أرى من تشبه هذه الدمية.. وأعرف متى وأين تمت سرقة هذه الخصلات من رأس صاحبتها..، صاحبتها التي لا تعرف ما يحدث لشعرها الآن.. صاحبتها التي حلت بها لعنة (الزومبي)!.. صاحبتها التي هي (لندا)..!..

وكالملسوع وقفت صارخًا في (هاري):

- اسمع!.. يجب أن ننتزع منهم هذه الدمية..!

- ولكن ماذا..؟

- لا وقت للشرح..!.. أستعد للهرب..!. انتظرني في السيارة وادر محركها..

- هل جننت؟...

- أسرع..!.. خذ جهاز التسجيل معك..

ودون كلمة أخرى أخرجت مسدسي وبرزت من مخبئي خلف الشجرة مندفعًا نحوهم..

نحو كهنة السحر الأسود..!!

* * *

٥ - هل نرجع سالمين؟!

ياللجنون...!!...
لو أن أحدكم يعرف علاجًا يساعدني على نسيان الذكريات المريرة فليساعدني به..!..
وفي كل ليلة يستبد بي الأرق.. فأشرع في استعادة شريط الأحداث الدامي لتلك الليلة القاسية.. ليلة الموتى الأحياء..
ويسقط القلم من يدي..!

* * *

والآن خذ عندك هذا المشهد..
أنا أصرخ - كشخص يتلوى في الجحيم وأثب في ثلاث خطوات إلى حيث تقف الساحرة..
وقبل أن يفهم أحد أنني هنالك وجهت لكمة عاتية إلى ذقنها المربع القاسي..، وانتزعت الدمية من يدها..
ثم أطلقت طلقة رصاص في الهواء..



وقبل أن يفهم أحد أننى هنالك وجهت لكمة عاتية إلى ذقنها المربع القاسى .. وانتزعت الدمية من يدها .. ثم أطلقت طلقة رصاص فى الهواء ..

تراجع السحرة وأعوانهم مدهوشين..
دست - في حركاتي غير الحذرة - على عشرات الشموع فأسقطتها.. وهشمتها..، وسقطت نظارتي من على أنفي..
إلا انني استطعت الفرار..
ولم أنسى أن أطلق طلقة تحذير أخيرة قبل أن أولي الأدبار.. إلى السيارة الواقفة في الظلام بين الأشجار ومحركها يزأر مناديًا إياي...
وفي وثبتين قفزت إلى المقعد الأمامي جوار (هاري) الذي انطلق هادرًا إلى الطريق الأسفلتي العائد للمدينة..

* * *

وبعد بضع دقائق من الصمت المتحفز قال لي:
- والان هلا شرحت لي ما هنالك؟
لم أنطق بحرف إنما ناولته الدمية القماشية.. فألقى عليها نظرة عاجلة ثم عاد بعينيه على الطريق المظلم..، وقال:
- وماذا بها؟.. مجرد دمية محلية قبيحة يمكن أن ترعب بها الأطفال.. ولا أعتقد أن (جيمي) سيحبها..
- ألم تفهم أيها الغبي..؟.. إن هذه الدمية هي فتيش (لندا)..!
قال في بلاهة حقيقية:.
- فتيش..؟.. عم تتكلم؟..
تنهدت في صبر وقلت:
- الفتيش هو تمثال صغير يرمز لشخص حي ويوضع فيه شيء من متعلقاته كشعره أو أظفاره..، ويعتقد البدائيون أن كل ما يحدث لهذه الدمية يصيب من ترمز إليه على نطاق أوسع يتناسب مع فارق الحجم..
- إذن فقد شاهدنا هذه الليلة احتراق إنسان!
- ربما.. وربما كان الأمر كله هراء محضًا..
وضع يده على عجلة القيادة وهو يعيد لي الدمية:
- إذن أرادوا الانتقام مني في شخص (لندا)..
- هذا واضح.. لكني استطعت أن أمنعهم مؤقتًا..
- ولكن.. ألا ترى أنك تبالغ..؟!.. كل هذه الضوضاء وإطلاق الرصاص من أجل خرافة؟!.. إنك طبيب وأنا خبير كمبيوتر يا بني..
أشعلت أول سيجارة أدخنها من ثلاث ساعات.. وقلت وأنا أسعل:
- لا أعرف إن كانت خرافة أم لا، لكني لن أترك شيئًا للاحتمالات..، وكل الأديان السماوية أكدت وجود السحر الأسود..، لهذا لا أحب كثيرًا - وأنت كذلك - أن نعود للفندق لنجد (لندا) متفحمة..!..

- ما زلت لا أصدق..
- اسمعني.. إن وجود السحر لاشك فيه..، السؤال الوحيد هو ما إذا كان هؤلاء سحرة أم نصابين.. ولن نعرف هذا إلا إذا نجحوا في إيذائنا..!
قال وهو ينظر للطريق شاردًا:
- على كل حال فقد أزعجناهم بما يكفي.. ولن ننجو من ذلك..
- هذا صحيح.. أعتقد أن كل أتباع (الفودو) وكل (الزومبي) في هذه الجزيرة يبحثون عنا الآن... لقد استحققنا الموت بجدارة..
إن ما علينا عمله هو شيء واحد.. أن نعود للفندق ونأخذ زوجتك وطفلك. ونستقل أول طائرة إلى (الولايات المتحدة)... لقد صار قضاء ليلتنا هاهنا في منتهي الخطورة..
- ربما كنت محقًا يا صغيري.
وتحسست وجهي تحت العينين في ضيق.. ثم قلت:
- ألم تلحظ شيئًا غريبًا..؟.. عهدي. بك هو قوة الملاحظة..
تأملني للحظة في تدقيق.. ثم هتف مذهولًا:
- يا السماء..!
- نعم.. وأرجو أن توفر إظهار هلعك وشفقتك. لأني متوتر بما يكفي...
لقد سقطت نظارتي عندهم في أثناء صراعي..!.
مضى يقود السيارة شارد الذهن بضع دقائق.. ثم قال:
- هل تعتقد أنها تصلح..؟
- للفتيش؟.. لا أدري في الواقع.. هل سيصنعون دمية تمثلني ويلبسونها هذه النظارة؟!.. لا أدري..
- ولكن - لو صح هذا الموضوع - فمعنى هذا أنك ضائع تمامًا.. إنهم يملكون إيذاءك في أي وقت يشاءون وأي مكان تهرب إليه..!
صحت في غيظ:
- أنا أعرف كل الجوانب الساحرة لهذا الموضوع فلا تستعرضها لي..! إن غدًا جميلًا مليئًا بالوعود ينتظرني فلا تحدثني عنه..!
وهنا سمعته يئن بصوت مسموع.. فصحت في هلع:
- ماذا بك..؟
- إنه المغص.. إن أحداث الليلة لا تلائم قرحتي..!
- ياالك من وغد..!.. حسبت أن لعنتهم قد لحقت بك..
- على كل حال فهم لم يضيعوا وقتًا..
ورأيته يشير إلى الطريق أمامنا الذي انعكست عليه كشافات السيارة فلمحت في ضوء السيارة مجموعة من الوطنيين يقفون بعرض الطريق مشعلين نارًا على الأسفلت جعلت وجه (هاري) يتألق حيث جلس في مقعده وقد تصلبت يداه على عجلة القيادة..
كانوا يمسكون بشيء ما بين أصابعهم السمراء.. هيكل عظمي كامل تم ربط أطرافه ببعضها ليبدو كأنه واقف يسد الطريق علينا..
وكان الغضب يلتهب في عيونهم...

صحت في هلع:
- (هاري)..!.. لا تتوقف..!.. إنهم ينتظروننا..!
قال وهو يضغط على أسنانه:
- لن أستطيع أن أدهمهم بسيارتي ببساطة.. إن هؤلاء المتعصبين لن يتراجعوا حتى إذا اندفعت نحوهم..
ثم هتف في توحش:
- لكن هناك حلًا يا صغيري..!
وبأقصى سرعة داس على الفرامل فأنت العجلات منتحبة.. وارتطم رأسانا بلوحة القيادة..، وبمهارة لا تصدق أدار عجلة القيادة على آخرها.. وشد ذراع السرعات كأنه يبغى خلعه..
وانحدرت السيارة خارجة من الطريق الرئيسي متسللة بين الأشجار.. وكان ضوء الكشافات ينعكس على الأشجار العتيقة التي أخذت تتسابق نحونا كأنها تتنافس أيها سيهشمنا أولًا..!
لكن (هاري) تفاداها الواحدة بعد الأخرى..
وبعد دقائق كنا قد استعدنا توازننا وبدت مسيرتنا أكثر انتظامًا..
- إن الفورد سيارة رائعة حقًا..
- يا لك من أمريكي مغرور..!.. لو كانت هذه السيارة ألمانية لقلت إنك أنت السائق البارع حقًا..
- ربما.. لكننا نجونا على كل حال وهذا هو المهم بصرف النظر عن جنسية السيارة وسائقها..
- والان.. هل تعرف كيف نعود للطريق الرئيسي..؟
- إننا قريبان جدًا من (كينجزتن) ولا يجب أن تكون هنالك مشكلة ما..
- هذا ما أرجوه.. وأرجو أن تتذكر أن مسدسي فارغ من الرصاص الان..

* * *

إنها المقابر...
لقد وصلنا في فرارنا الأخرق إلى مقابر القرية..
وضوء القمر الشاحب الحزين يفترش شواهد القبور محدثًا ذلك الأثر الدرامي الذي يعرفه كل ذي خيال خصب...
إن هذا الكوكب المعلق هو مرآة لحالتك النفسية..
حين تجلس مع حبيبتك تشعر أنه ثريا معلقة خصيصًا من أجلكما وتتذكر كلمات (روميو) و(جولييت) وأبيات (قيس) و(ليلى)..
وحين تكون سعيدًا تشعر انه وجه يضحك خصيصًا من أجلك..
أما حين تخوض موقفنا المرير فلن يذكرك القمر سوى بالسحرة والمذءوبين وتحذير القدماء من سقوط ضوء القمر عليك وأنت نائم.. إلخ...
غريب أن يجمع شيء واحد بين الأمل والحب والشاعرية والرعب..!.. ؛
ولكن دعنا من هذا الاستطراد..
إن الوقت لا يناسب هذا الكلام لأن هناك خبرًا صغيرًا لابد أنك عرفت ما هو.... هو كذلك..!.. لقد تعطلت السيارة..!!

إنها الواحدة صباحًا..
وبعد عشرات المحاولات المستميتة من (هاري) بدأنا نيأس.. إن هذه السيارة (الرائعة) لم تتحمل كل هذا الإنهاك الذي استنزفها.. وعلى كل حال ليس الوقت مناسبًا كي أحدثه عن رأيي في صناعة بلاده للسيارات..
قال (هاري):
-. على العموم.. لا مفر من الانتظار.. نحن في مأمن هنا..
- (ولندا).. و(جيمي)..؟..
- إنهما لن يغادرا غرفة الفندق..، ولن يصيبهما سوى قلق شديد علينا..، لكن (لندا) - كما أرجو - ستعتقد أننا نلهو في مكان ما في المدينة حيث لا يصطحب أحد زوجته..
- نلهو..؟! يا له من لهو..!
وفي الظلام بدا لنا شيء يتحرك..
كأنه رجل يرتدي ثيابًا ممزقة ويرخي على وجهه قبعة من القش.. وكان يتقدم نحونا في تؤدة وثقة.. حتى دخل دائرة ضوء القمر..
وهنا تصلب جسد (هاري).. وصرخ في رعب:
- (رفعت)!.. أغلق زجاجك وأمّن مفتاح الباب..
- ولماذا..؟
- إن يدى هذا الرجل متآكلتان تمامًا.. إنه ليس مخلوقًا حيًا.. إنه من (الزومبي)..!

* * *

ولكن...
دعنا من هذا الموقف السخيف وكيف خرجنا منه وتعال معي إلى ما هو أهم...
إن الجلوس في سيارة معطلة جوار المقابر في حين تقترب منك جثة حية متعفنة لهو أمر عادي قد يحدث للكثيرين..
أما الغريب حقًا فهو ما حدث لـ (لندا) في تلك الساعات..
فيما بعد حكت (لندا) أنها جلست في حجرتها تنتظرنا وهي تشعر بالملل.. وكان (جيمي) الصغير قد نام منذ ساعتين بثيابه كاملة..
وتقول (لندا) إنها أخذت تلعننا في سرها متخيلة الأشياء المخزية التي لابد أننا نفعلها الآن في إحدى حانات (كينجزتن) الرخيصة..
حين دق الباب..
وقفت جوار الباب وسألت في حذر:
- من؟!..
- افتحى يا (لندا).. هذا أنا..
- آه..!.. د. (رفعت)؟..!!...
- نعم.. هو أنا..!..
ولا تسألني كيف.. هذا هو ما رأيته حين فتحت الباب..

المهم أنني - كما تقول - دخلت الغرفة في لهفة وكنت جريحًا - أنا - في ذراعي ووجهي..، وقلت لها أن (هاري) في مأزق وإنها يجب أن تأتي لأنه يريدها وقد لا يرى نور الصباح.. حجة مقنعة جدًا..

ولما طلبت تفسيرًا مني صرخت فيها أن أسرعي فلا وقت لدينا..

من ثم لفت (جيمي) في حرام صغير - وهو يئن متذمرًا - وضمته إلى صدرها لأنه لم يكن على استعداد للمشي.. ثم أغلقت الحجرة بالمفتاح ونزلت معه - أعني معي - إلى بهو الفندق حيث أخبرت الموظف أنها قد تتأخر ثم خرجت معي إلى الشارع المظلم الذي يتعالى فيه نباح الكلاب..

ألم تلحظ أي شيء غير عادي..؟

بلى.. لاحظت.. لأن (لندا) امرأة شديدة الذكاء.. لاحظت أن جروح يدي ووجهي خالية من الدماء مجرد شقوق في اللحم بلا أي أثر لأوعية دموية ممزقة.

ولكن ما الذي يعنيه كل هذا؟.. هكذا سألت نفسها.. ثم قالت في سرها: إن الوقت لا يتسع لهذه الملاحظات السخيفة...

* * *

٦ - شرك الموتى الأحياء..

كان (الزومبي) يقترب من سيارتنا في تؤدة..

وكنا - أنا (وهاري) - جالسين متقلصين وقد توقفت كل وظائفنا الحيوية تقريبًا بما فيها الهضم والتنفس والتفكير..

اقترب من زجاج السيارة ناحيتي.. فلمحت وجهة ملتصقا بالزجاج على بعد سنتيمترات من وجهي.. وكان يتأملني في اهتمام...

لن أصف ملامحه حتى لا أثير تقززك، لكني أتركها لخيالك.. لقد رأيت (دالماس) معي في المقهى.. حسن.. دعني أؤكد لك أن (دالماس) كان شديد الوسامة إذا ما قارناه بهذا (الأخ)..!

لابد أن (دالماس) كان حديث العهد بالتحلل العضوي..

دار (الزومبي) في بطء حول السيارة كأنه (جنرال) يتفقد فرقته في الميدان..، وعند ناحية (هاري) شرع يتأمله بنفس الكيفية مثلما فعل معي.. ثم امتدت يده إلى مقبض الباب وطفق يجذبه مرارًا دون جدوى محاولًا فتحه..

ودون كلمة واحدة استدار (هاري) إلى الباب الخلفي الذي نسينا تأمينه وضغط الزر قبل أن يجرب (الزومبي) ذلك الباب..



كان (الزومبى) يقترب من سيارتنا فى تؤده ..

وكنا ـ أنا و (هارى) ـ جالسين متقلصين وقد توقفت كل وظائفنا الحيوية تقريبًا ..

ومضت عشر دقائق..
ذلك الشيء يجول حول العربة، في فضول كأنه قط يرى قنفذًا لأول مرة ولا يعرف من أين يهاجمه.. أو كأنه بدائي يرى علبة سردين ولا يعرف كيف يفتحها.. أو أي شيء آخر يناسب خيالك..
ثم إنه عدل عن الأمر كله واستدار مختفيًا في الظلام..
صاح (هاري) في جذل:
- لقد نجونا..!.. نجونا يا صغيري..!
قلت دون حماسة:
- إنها هدنة لا أكثر..!
- وماذا يجعلك تظن ذلك....
- لا أدري.. أعتقد أنه يعتبر السيارة علبة (بولوبيف) مليئة باللحم الشهي.. وهو - حتمًا - ذاهب للبحث عن فتاحة..!.. مطرقة مثلًا يهشم بها الزجاج أو مزيد من زملائه يفككون السيارة..!
- يا لك من متشائم..!
ثم نفخ ليزيل ما تراكم في صدره من انفعالات متوترة..
- ولكن.. أي مخلوقات شنيعة هذه..!.. شياطين..!.. هل رأيت وجهه حين ألصقه بزجاج النافذة..؟.. سيظل يؤرق منامي ما حييت!..
قلت له وأنا أنزل الزجاج طلبًا للهواء:
- رأيت.. وأدركت أن الأمر كله قد لا يكون مرعبًا إلى هذا الحد....
- ماذا تعنى..؟!
قلت وأنا أشعل سيجارة:
- إن هذه الملامح المتآكلة المجعدة الشبيهة بالأسد. والعين التالفة.. والأطراف المتساقطة..، كلها تبدو الى أقرب إلى حالة متقدمة من مرض الجذام المتدرن.. حالة عوملت بإهمال شديد ولم تتلق أي نوع من الرعاية.. وفي حياتي لم أر هذه الدرجة من التدهور...
- الجذام المتدرن؟.. لا أفهم.. أنا أعرف أن الجذام متفش في جزر (الهند الغربية)..، لكن الأهالي يعرفونه بلا شك ولن يخدعوا فيه..
قلت وأنا أنفث الدخان في الظلام..
- هذه مجرد فروض.. إن شرود هؤلاء الأشخاص وغرابة أطوارهم مع اللون الرمادي الغريب لبشرتهم.. مع هالة الغموض المحيطة بالموضوع كله - مما ينفر الناس من التفكير فيه - مع الظلام وبعض الرتوش البارعة.. كل هذا قد يخدع حتى الأطباء أنفسهم وأنا أولهم...
لكن هذه - كما قلت - مجرد فروض.. انا لا أؤمن بشيء اسمه الموتى الأحياء لأن هذا يعارض الدين ويعارض العلم..
لكنى خائف مثلك وأشعر بالرعب في عظامي..، هناك شيء لا نعرف كنهه يحدث هاهنا..
قال (هاري) وهو يعبث في مفاتيح السيارة:
- على كل حال فإن منطقك العلمي لا ينفي أن هناك من يريد قتلنا وأننا في مأزق حقيقي..، وسواء عندي أكان من يقتلني حفنة من (الزومبي) أو حفنة من (المجذومين) فالأمر لا يختلف

كثيرًا..!

نظرت في ساعتي وكانت الثانية بعد منتصف الليل رفعت رأسي وقلت لـ (هاري):

- إن بقاءنا هنا لا معنى له الآن لأن هذا الشيء سيعود حتمًا ومعه زملاؤه أو ما يفتح به السيارة.. ولهذا أري أن نحاول الفرار على أقدامنا...

- هذا هو ما كنت على وشك اقتراحه..

* * *

ومضينا بين الأشجار نتحسس طريقنا في ضوء القمر مبتعدين عن منطقة المقابر..، ولم ننس أن نأخذ معنا الكاميرا وجهاز التسجيل.. والدمية.. كان ظلانا يفترشان الأرض كئيبين صامتين..

ولا صوت هنالك سوى صوت ذلك الذئب الذي يتبادل عبارات الغزل مع رفيقته.. وسوى صوت أرجلنا وهي تحتك بتراب الأرض الأحمر..

إن تربة (جامايكا) حمراء اللون شديدة الخصوبة. على أن نسبة لا بأس بها من أراضيها لتكون من الحجر الجيري..

وبدأت الأمطار الموسمية تهطل..

وفجأة أشار (هاري) إلى بعيد، إلى ضوء كوخ من القش يقف وحده بين الأشجار وقطرات المطر تنحدر فوق سقفه.. إنه المأوى أخيرًا..

وهرعنا جريًا إلى الكوخ.. وعلى بابه المصنوع من قش مجدول وجدنا أداة تصلح كمقرعة.. وكان ضوء ما - غير كهربي - يتسرب من شقوق الجدار العديدة حين قرعنا الباب مرتين..

وبعد دقيقة سمعنا حفيفًا.. وانفتح الباب في حذر عن امرأة عجوز ترمقنا في شك..، وكان ظهرها للنور فلم نتبين وجهها جيدًا..

انحنى (هاري) في كياسة.. وقال بالفرنسية:

- مساء الخير يا مدام.. أنا وصديقي قد تعطلت سيارتنا واعتقدنا أنه قد يكون شيئًا لا مبالغة فيه إذا ما سمحت لنا باللجوء من الأمطار..

ما هذه اللغة السخيفة التي يستعملها؟.. إنه أسلوب مشهور عند من يتحدثون الفرنسية وهم ليسوا فرنسيين.. إنهم يعتقدون أن التحذلق والتراكيب المعقدة تجعل فرنسيتهم أكثر أناقة..

وعلى كل حال لم يبد أن العجوز قد فهمت حرفًا..!

قلت له (هاري) في تشف:

- وفر لغتك الرائعة لأنها لا تفهم الفرنسية..

على أن العجوز هزت رأسها.. وأومأت لنا كي ندخل الكوخ.. إن الأمر لا يحتاج على العموم للكثير من الذكاء كي تعرف عم نتحدث وماذا نريد..، وعلى كل حال نحن لا نبدو كاللصوص أو - على الأقل - ليس في هذا الكوخ الحقير شيء يسرق وهكذا دخلنا..

وكان الكوخ من الداخل أسوأ بمراحل منه من الخارج.. سلال معلقة ملأى بالبصل والموز.. وزجاجات متربة خالية من أي شيء..، وموقد كيروسين بدائي عليه قدر قذر يغلي ما به من طعام خبيث الرائحة..!

وأشارت لنا المرأة إلى الأرض فجلسنا فوق بعض الخرق القماشية المتسخة ونحن نأمل - في سرنا - ألا تأخذها نشوة الكرم الحاتمي فتقدم لنا العشاء..!

إلا أنها شرعت بالفعل تصب لنا شيئًا في علبتين قديمتين صدئتين من علب الطعام المحفوظ.. وقدمته لنا..

وهنا استرعي انتباهي شيء في يديها.. كانتا متآكلتين.. وقد سقطت بعض السلاميات..

رفعت عيني إلى وجهها.. فرأيت أنفها المجدوع وبشرتها الرمادية..

لقد دخلنا الكوخ وجلسنا دون أن ندقق في ملامحها لحظة واحدة.. ويا لها من حماقة..!.. إنها واحدة منهم..!

ويبدو أن (هاري) قد رأى ما رأيته لأن ظاهرة الإشعاع السايكوفيزيائي قد مارست سلطانها علينا في ثوان..

معًا انتابنا ذلك الرعب الذي لا يعرف المنطق..

ولم نسأل نفسينا لحظة واحدة عن الضرر الذي تستطيع هذه العجوز - حتى ولو كانت جثة حية - أن تسببه لنا..

يجب أن نهرب..!.. يجب...

وقبل أن نتبادل كلمة واحدة وجدنا نفسينا نركض تحت الأمطار متجهين إلى لا مكان..!

* * *

وأخيرًا وجدنا الطريق الأسفلتي..

وهناك وقفنا وشعرنا مبتل وثيابنا غارقة بالماء لكن الجو كان حارًا.. ثم إن توترنا الداخلي جعل دماءنا تغلى فلم يكن من الممكن أن نصاب بالبرد..

كل ما هنالك هو أن هذه الأمطار جعلت الرؤية صعبة حقًا..

وبعد دقائق لمحنا ضوء سيارة من بعيد..

اتخذنا وضع (الأوتوستوب) بشكل مبالغ فيه حتى أننا كدنا نسد الطريق بجسدينا.. وهي حماسة كاريكاتورية لا مبرر لها أبدًا..

ولم يكن هناك داع لهذا. لأن صاحب السيارة كان ينوي التوقف بالفعل..، واقتربنا منه في حذر شديد لأننا توقعنا - ولا لوم علينا - أنه (زومبي) آخر..، ثم إن من يقود سيارة في الرابعة صباحًا لجدير ببعض التشكك..

لكنه كان شابًا أنيقًا وسيمًا.. عيناه سليمتان وأسنانه كاملة ولون بشرته أسمر جميل.. لهذا ركبنا السيارة معه ونحن نشعر بالعرفان بالجميل كما لم نشعر به من قبل..

امتنان لا حد له تجاه السيارة وصاحبها والقدر والأمطار.. وكل شيء..

- أنتما ذاهبان للمدينة؟

قالها بفرنسية ممتازة.. فهززت رأسي بالموافقة.. شرعت السيارة تنهب الطرقات.. وقد توقفت الأمطار لكن الوحل كان يملأ الدروب الآن.. كل شيء كئيب غريب كأننا في كابوس، وبدت لي حياتي في مصر وعالمي الخاص شيئًا بعيدًا جدًا ومرهقًا..، حتى الفندق و(لندا) و(جيمي)

و(جابرييل).. كلها أشياء قادمة من عالم الأحلام..، وأن هذا الكابوس لن ينتهي أبدًا.. لا يمكن أن ينتهي..

ومد الشاب يده إلى قطعة قماش وشرع ينظف آثار بخار الماء التي ولدتها أنفاسنا الحارة على زجاج النافذة..

وهنا التفت إلى (هاري) حيث جلس في المقعد الخلفي..

كانت عيناه متصلبتين ترمقان نفس الشيء الذي أثار فزعي..

كانت يد الشاب شبيهة بالمخالب البيضاء الطويلة وهي تطبق على قطعة القماش..!

إنه لكابوس..!.. فقط في الكوابيس يحدث هذا..!.. أن تهرب من شيء ما.. وتستنجد بمن تجده فيدير وجهه ببطء لك.. عندئذ تكتشف أنه...

لا..!.. فلنهرب يا (هاري)..!.. فلنهرب..!

كنا في أسوا حال. وقد هبطت حالتنا العصبية إلى الحضيض..، كنا على حافة الانهيار وقد بدا لنا أننا سنظل نصرخ رعبًا حتى نموت..

وهنا التفت لي الشاب.. فلمح نظرتي إلى يده.. قال في شيء من الحرج:

- أنا آسف..!.. أرجو أن تسامحاني...

ثم أنزل يده عن الزجاج مدمدمًا:

- إن كفي الصناعية تحدث هذا الأثر في نفس كل من يراها أول مرة.. إنه ذلك الحادث الذي أطاح بها منذ سنتين..

ثم رفع يده وشرع يفتحها ويغلقها في حركة ميكانيكية:

- لقد قمت بتركيب هذه اليد في (سان فرانسيسكو) العام الماضي.. وهي تؤدي عملها بكفاءة.. لكنها مرعبة ولا أنكر هذا..

تبادلت مع (هاري) النظرات.. ثم تنفسنا الصعداء...!..

لقد جرحنا هذا الشاب الرقيق في مقتل..، لكنه لو علم ما مررنا به في هذه الليلة الرهيبة لما لامنا لحظة..

على كل حال فإننا شرعنا - وقد نسينا واجب الحذر - نحكي له أحداث تلك الأمسية.. وقد بدا لي متعاطفًا متفهمًا.. ونصحنا أن نغادر (جامايكا) بأقصى سرعة ممكنة لأن سحرة (الفودو) لا يعرفون المزاح..

سألته ونحن ندخل شوارع (كينجزتن) الخالية:

- هل توجد مستعمرات جذام قرب هذه القرية؟!

قال وهو يبتسم:

- توجد واحدة.. لكن (الزومبي) ليسوا مجذومين إذا كان هذا ما تعنيه..

إننا هنا نعرف مريض الجذام جيدًا ولن نخطئ تشخيص مرضه..

وعلى كل حال أنا لم أر (زومبيًا) في حياتي..

قلت له في غيظ:

- إنك لمحظوظ.. أما أنا.. فأقضي في (جامايكا) يومين عندئذ أجد كل (زومبي) الجزيرة في أثري، أذهب لرومانيا أسبوعًا فأجد نفسي مهددًا بالتحول إلى (مذءوب)..، وأقضي يومًا واحدًا في (اسكتلندا) فأكاد أهلك بين أنياب وحش (لوخ نس)..

كل هذا في حين يوجد من لم ير هذه الأشياء من السكان الأصليين.. إنني لإنسان غريب..!..
حقًا إنني لإنسان غريب..

* * *

كانت أضواء الفجر تغزو المدينة حين دخلنا فندق (سان رامون) منهكين محطمي الأجساد والأعصاب.. والخدر يزحف لرأسينا..
وفي المدخل كان عمال النظافة قد بدءوا يمارسون عملهم اليومي وكان موظف الاستقبال محمر العينين من فرط السهر حين رآنا داخلين، فقال لي وهو يتثاءب ويناولنا مفتاح الغرفة:
- هل السيدة لم تبت هنا الليلة؟!
- أية سيدة؟
- السيدة الأمريكية وطفلها..، ألم تخرج معك في منتصف الليل؟!
لقد كنت جريحًا وقتها يا سيدي وإنها لمعجزة أن تشفى في غضون ست ساعات فقط..!

* * *

٧ - أعيدوا لي زوجتي!..

كان النقيب (مارسيل) جالسًا في مكتبه وقد بدت عليه الدهشة..

كان قد فتح ياقة قميصه وفك ربطة عنقه طلبًا لبعض التهوية في جو الظهيرة الرطب القائظ..، وكان أمامه كوب من عصير الليمون المثلج تكاثف البخار عليه من الخارج.. رابع كوب يشربه في هذا اليوم..

ولم يكن يرجو شيئًا في العالم سوى أن يترك وشأنه حتى يجيء الليل بأنسامه الرحيمة..

لكن (هاري) لم يكن على استعداد لترك أحد وشأنه في هذا اليوم.. كان نامي اللحية منكوش شعر الرأس مبعثر الثياب..، وكان واضحًا أنه مسعور.. وأنه سينفجر صارخًا في أية لحظة في أي تعيس حظ يحاول أن يستفزه أو يدعوه للتعقل..

وكان النقيب يقول في استرخاء وهو يقلب كفيه على المكتب:

- والآن دعني أسمع القصة مرة أخرى..

صاح (هاري) في هستيريا كما كنت أخشي:

- قلت لك إن هؤلاء (الزومبي) خطفوا زوجتي وابني..

- وتقول ايضًا إن صديقك المصري هذا هو الذي خطفهما في حين من المستحيل أن يكون قد فعل لأنه كان معك في المقابر.. أليس كذلك؟.. حسن.. دعني أصارحك أنني لا أفهم حرفًا..

- ومن يفهم إذن؟!

- دون انفعالات من فضلك..

- اسمعني أيها الضابط.. أنا أريد القنصل.. أريد قنصل بلادي..!..

ابتسمت في سري لأنني تذكرت كلماتنا في تلك الليلة عن (الأمان اللغوي).. وكيف كان (هاري) يرى أن عبارة: أريد القنصل هي أهم عبارة في أية لغة أجنبية..، لقد صدق كلامك يا (هاري) ولكم كنت أود لو كنت مخطئًا..

لكني - بالطبع - لن أجرؤ على إعلان هذا الذي أفكر فيه لأن الظرف لا يسمح بحال، وأعتقد أنك توافقني على ذلك..

قال النقيب وهو يرتشف كوبه:

- في العادة لا نعتبر المفقود مفقودًا حتى تمر أربع وعشرون ساعة على اختفائه.. لهذا لا أرى أن اختفاء زوجتك اثنتي عشرة ساعة أمر يوجب القلق..

صرخ (هاري) وقد فقد نهائيًا قدرته على الإصغاء المهذب:

- لا يوجب القلق؟.. حين تغادر امرأة وطفلها الفندق في منتصف الليل وحيدين في جزيرتكم العامرة باللصوص والأفاقين والسحرة، فإن هذا وحده كاف لجعلي أحترق!.. والآن قل لي ما الذي يوجب القلق؟.. أن تجد جثتيهما..؟!

أحسنت يا (هاري)..!.. إنني محروم من الزوجة والولد لكني كنت سأفعل وأقول نفس الشيء لو أنني في مكانك..، إنني أحب الرجل الذي يتحول إلى وحش كاسر حين يحيق الخطر بأسرته.. إلا أن كل هذا النباح لم يؤثر في الضابط.

- لقد قلت لك ما هو قانوني.. وما هو صواب.. وعلى كل حال فإن أول نشاط سنقوم به هو استجواب صديقك هذا..!، فهو آخر من رآها وآخر من خرج معها..!

وصل (هاري) لذروة فقدان الأعصاب:

- هل تمزح..؟.. أقول لك إنه كان معي..!

وتصاعد الحوار إلى درجة الغليان حتى بدا لي أن أحدهما سيقتل الأخر..، لهذا بادرت إلى الإمساك بذراع (هاري)..، ووجهت عبارات شكر مقتضبة إلى الضابط ثم سحبته - (هاري) لا الضابط - إلى الخارج وهو يرغي ويزبد. ويتوعد مستعملًا كل أنواع الشتائم الأمريكية التي لم أسمعها في حياتي بعد..

لهذا عدنا إلى الفندق وجلسنا في غرفتي نتشاور حول الحل الأمثل لهذا المأزق..، وكان (هاري) يؤمن أن الوقت ليس في صالحنا.. لماذا؟..

- لأن العرافة قالت لك إن أجنبيين سيموتان ميتة الكلاب..، ومن الواضح الآن أنني أنا وأنت لسنا هذين الأجنبيين..؟

ثم إنها قالت إن هذا يحدث بعد اثنين.. لو كان معنى هذا يومين فإن آخر فرصة لإنقاذ (لندا) و(جيمي) هي منتصف الليلة..

- لقد اختصتنا أنا وأنت بشرف الدفن حيين..

- إذن سنهلك جميعًا..!.. هما يموتان كالكلاب وأنا وأنت نُدفن.

هززت رأسي في استخفاف وقلت له ترجمة - عفو الخاطر - للحديث الشريف: كذب المنجمون ولو صدقوا..

قال وهو يذرع الغرفة كأسد سجين:

- على كل حال قد لا تكون العرافة (تنجم).. بمعنى أنها قد تكون على علم بنوايا هؤلاء القوم من ثم جعلت إنذارها لنا في صورة نبوءة..

وهذا الاحتمال يجعل كلامها - برغم غموضه - جديرًا بالتفكير....

ثم التفت لي في تصميم:

- على كل حال أعتقد أن مفتاح السر عندها.. ولابد من زيارتها الآن.

- هذا هو رأيي برغم نفوري الشديد من تكرار التجربة.. و..

وهنا سمعنا صوتًا خلف الباب ولمحت شيئًا كالخطاب ينزلق من تحته صوت خطوات مسرعة تبتعد..، جريت للباب كالملدوغ برغم علمي أن هذه الحركات الميلودرامية قلما تفلح..، فالقصة دائمة هي أنك لن تجد أحدًا خلف الباب وسينظر لك موظف الاستقبال في بلاهة إذا ما سألته عما إذا كان شخص مريب قد مر به..

وهذا هو - بالضبط – ما حدث..

لهذا عدت للحجرة فوجدت (هاري) ممسكًا بالخطاب وقد بدا الوجوم على وجهه..، ثم إنه ناولني الورقة فوجدت عليها نقوشا غريبة رديئة..، وكانت أطرافها محترقة - على سبيل الزخرفة - وثمة رسوم بدائية لهياكل عظمية ثم رسالة بخط إنجليزي كبير الأحرف:

- "الكاميرا والجهاز عند شجرة الشياطين ساعة الغروب.. ".

قلبت الورقة بين أصابعي ثم قلت ل (هاري):

- هكذا فقط؟... بلا أي نوع من التهديد؟

قال في وجوم:
- إنه نوع من البلاغة الأدبية.. الإيجاز وعدم ذكر الحقائق المفهومة.. فهو يعرف أننا نعرف أنه سيقايض على (لندا) والطفل..، وهو يعرف أننا ننتظر طلب فدية من نوع ما لهذا يوفر الحبر والورق..
- لكن من أدرانا أنه هو المختطف؟
- ومن سواه يملك إجبارنا على أي شيء؟!
تأملت الورقة برهة.. ثم قلت:
- على العموم كاتب هذه السطور إما شديد الغباء وإما شديد التخلف..
- ولم؟
- لاحظ أنه يريد الكاميرا والجهاز - طبعًا يعني جهاز التسجيل - والأصح أن يطلب (الفيلم) و(بكرة الشريط)..، هذا هو ما يناسبه فعلًا.. إذ كيف يعرف أن الفيلم الموجود بالكاميرا هو المطلوب؟.. وكيف يعرف أن شريط التسجيل هو الذي سجلناه بالأمس؟..، كأنه لا يريد سوى الكاميرا وجهاز التسجيل لأنهما غالية الثمن.. وبالتالي فهو لص عادي جدًا..
- اللصوص العاديون يطالبون بالمسروقات مستعملين أوراقًا عليها رموز سحرية.. لقد أساء التعبير فقط، لكن كلينا يعرف ما يعنيه.. وواضح أنه لم يعتد الكتابة بالإنجليزية..
قلت وأنا أهرش رأسي:
- ومتى رأى هؤلاء الأوغاد أنك تحمل كاميرا وجهاز تسجيل؟... لقد هربت أنت قبل أن يروني أفر إلى العربة.. وبالتالي يستحيل أن يكونوا علموا بما تحمله..، كيف يطلبون ما يجهلون وجوده أصلًا..؟!
قال في غيظ:
- أنا لا أعرف إجابات أسئلتك السخيفة..، لكني أعرف أن هؤلاء السحرة يمكنهم معرفة الكثير من الأشياء..، وعلى فكرة.. دع تفكيرك البوليسي جانبًا لو كنت تظن أن كل هذه مؤامرة معقدة دبرتها أنا للتخلص من زوجتي وكادت تنجح لولا هذا السهو الصغير..!!
صحت في صدق:
- أقسم إنني لم أفكر في ذلك لحظة..، أردت أن أقول إنهم حتما يملكون جاسوسًا رآك وأنت خارج بالكاميرا وجهاز التسجيل أو رآك وأنت عائد بهما..
ضيق عينيه في حذر.. ودمدم:
- مثل موظف الاستقبال.. أو (جابرييل) خادم الغرف..
-... أو (أنجليكا) بائعة الزهور العجوز التي لولا مشورتها ما تورطنا في حكاية البارحة..
- إن الثلاثة يثيرون الشك بنفس القدر في الواقع..
- على كل حال أعتقد أن لدينا حقيقة واحدة مؤكدة ألا وهي أن هناك شيئًا هامًا جدًا في الصور وشريط التسجيل يهم السحرة ألا يعرف به أحد..؛ لذا ستكون خطوتنا الأولى هي تحميض الفيلم وطبعه ثم الذهاب إلى أم (جابرييل) لتفسر لنا ما هنالك..
- وهل تثق بهذه العجوز؟.. إن ابنها مشكوك فيه..
- لا أعرف ساحرًا آخر في هذه الجزيرة للأسف.. فهل تعرف أنت؟!

* * *

وهكذا - اختصر القول - ذهبنا إلى الأم (مارشا) ولكن دون معونة (جابرييل) هذه المرة.. وكنا نحمل معنا حقيبة كبيرة..

فتحت لنا الباب وهي تضع في فمها ذلك السيجار الضخم الذي يجعلها تشبه رجل أعمال محنكًا في عمله وما إن رأتني حتى بدا لي أنها تعرف ما هنالك..، أشارت في فتور كي ندخل وراءها.. وعلى مقعدها المفضل جلست تواصل ما كانت تعمله.. قلادة بشعة الشكل يبدو أنها تحوي تعويذة ما..

انحنيت في رقة وقلت بفرنسية حاولت أن تكون راقية:

- نهارك سعيد أيتها السيدة الحسناء..!

قالت في فتور وهي تشير لنا كي نجلس:

- اجلس أيها المخاتل وقل لي ما وراءك!

جلسنا.. وشرعت أحكي لها حكايتنا المروعة منذ كنت عندها حتى خطف (لندا) بوساطة سحرة (الفودو).. وهي تومئ برأسها ولا تنظر لي أو لـ(هاري) على الإطلاق.. فلما أن انتهت قصتي.. مددت يدي لها بالدمية التي انتزعتها من أيدي السحرة في تلك الليلة..، تناولتها مني وأخذت تقلبها في يدها بعين خبيرة وقد ارتسمت على شفتيها – صدق أو لا تصدق - ابتسامة حنين رقيقة..!.. ثم قالت معجبة:

- إنها جيدة الصنع.. كنت أهوى العمل بها في شبابي..!.. (فتيش) متقن جدًا..!.. ولقد أحسنت صنعًا حين أخذته منهم...

ثم ناولته لي وهمست:

- خذ الحذر في التعامل معه.. فكل ما سيحدث له سيحدث لها..، تخيل مثلًا أن فأرًا قرض منه قطعة أو أن رماد سيجارة ملتهبًا سقط فوقه!...

ارتجفت في هلع وقد أحسست بالقشعريرة تزحف فوق عمودي الفقري..، وتوتر (هاري) حيث جلس...، قالت في بساطة:

- والآن.. أرني هذه الصور..

ناولتها الصور الفوتوغرافية الملونة التي التقطها (هاري) من مخبئنا خلف الشجرة في تلك الليلة.. وكانت موفقة جدًا...

لم تأت بأية علامة تدل على الاهتمام..، من ثم بدأت تشغيل جهاز التسجيل لتسمع الأغاني التي كانت على شفاه السحرة.. والكلمات التي كانت المرأة تلقنها للزنجي.. ثم صوت الجميع يردد: (كوديكا).. (كوديكا)..

- هذه الكلمة.. ما معناها..؟

- معناها: إلى الشيطان..، وهي جزء من طقوس حرق الفتيش.. ولكن.. أنصت..



لم تأت بأية علامة تدل على الاهتمام...، من ثم بدأت تشغيل جهاز التسجيل لتسمع الأغانى التى كانت على شفاه السحرة..

صوت الصراخ يتعالى..، وصوتي وأنا أصرخ (هاري) إننا يجب أن نسترد الدمية.. وتساؤله عن السبب.. ثم صوت طلقتي رصاص.. و.. (كليك)!

(اغلق (هاري) جهاز الكاسيت لحظتها حين دخل السيارة..)..

وساد الصمت سوى من صوت دوران الشريط..

- والآن ما رأيك؟!

قالت الأم (مارشا) وهي تبتسم ابتسامة مريعة:

- رأيي أن هذه الطقوس مزيفة.. كلها مزيفة!.. هؤلاء القوم (يمثلون) طقوس (الزومبي) لكنهم لا يمارسونها حقًا..، إنهم يعرفون كيف يبدو الأمر كله لكنهم يجهلون تفاصيله..

وأمام عيني الذاهلتين - أنا و(هاري) - أشارت إلى إحدى الصور وقالت:

- مثلًا.. لف الأفعى حول العنق يتم قبل شرب الدماء وليس بعدها..، ثم إن دهان الوجه بالأخضر مجرد حيلة للتأثير الدرامي ولا أساس لها..، دعك من أن ترتيب الأغاني والكلمات التي تلقنها له كلها خطأ..، وكلمة (كوديكا) لاتقال إلا بعد الفداء الأعظم.. و...

إنها عبقرية بالفعل..!.. ولو أنني كنت أجيد الطب إجادتها للسحر لصرت (أبقراط) عصري.. لكنها كانت غاضبة كبركان:

- يا للعار..!... يا للعار..!.. إنهم لوصمة في جبين (الفودو)..!..

هكذا شرعت تدمدم في حسرة.. وتسعل:

- هيه!.. لم يعد هناك ضمير في هذا العالم..!، حتى (الفودو) صار مغشوشًا.. كح كح!.. اللعنة..!..

قال (هاري) في حيرة:

- ولكنك أبديت إعجابك بالدمية..

قالت في ازدراء وهي تمسح فمها بظهر يدها:

- هذا نوع سهل من السحر يمارسه حتى الأهالي العاديين..، أما (الزومبي) فيحتاج إلى عبقرية.. وإلى تمكن غير عادي..، وقد انقرض جيل الأساتذة هذا منذ زمن.. ربما أنا آخر صانعة (زومبي) في هذا البلد..

فكرت برهة.. ثم سألتها في حذر:

- هل سبق لك أن رأيت (دالماس) (الزومبي) الذي قابلتك من أجله أول مرة؟

- بالطبع لا.. أنا أعرف (دالماس) حين كان بشريًا لكني لم أره أبدًا وهو (زومبي).. إن صحتي لا تسمح لي بالخروج ليلًا أيها الأجنبي..

- لكنك تحدثت عنه في ثقة..

- إن ابني (جابرييل) هو عيني التي تحكى لي كل شيء.. وهو يعرف (الزومبي) جيدًا..

مددت يدي في مظروف الصور وأخرجت منه صور لم ترها هي بعد.. صور (الزومبي) في المقهى التي التقطها (هاري) خلسة وكانت سببًا في تحرش (دالماس) بنا.. وسألتها في حذر:

- هل هذا هو (دالماس)..؟!

نظرت الساحرة إلى الصور في تدقيق.. وغمغمت:

- ولكن.. لا.. أعتقد أن...

ثم مدت يدها بعصبية إلى كيسها الخيشي وأخرجت نظارة سميكة إطارها مكسور ووضعتها على أنفها فبدت كبومة عجوز..، وشرعت تتأمل الصور ثم هتفت:

- لكن هذا ليس (زومبي).. إنهم لا يبدون هكذا.. يا للغباء..!

ثم خلعت النظارة وأعادت لي الصور:

- ليس هناك شك في ذلك..
- في ماذا؟
- هذا الرجل مصاب بالجذام..

* * *

٨- دكتور دالمار..

لم أستطع إخفاء بسمة النصر التي ارتسمت على شفتي.. وقلت للساحرة:
- إذن لا وجود لـ(الزومبي)؟..
- كلا.. (الزومبي) حقيقة.. لكن ليسوا من هؤلاء المدعين..، واضح أن هناك من حاول خداع هؤلاء الحمقى.. ونجح..
ثم وضعت يدها على رأسها كأنها تشعر بدوار وأردفت:
- ان ابتعادي عن (النشاط) فترة طويلة قد أدى إلى تدهور المهنة.. ويبدو أنني قد غدوت عجوزًا مخبولة سهلة الخداع..
قلت لـ(هاري) من وراء كتفي:
- هل عندك أسئلة للمدام يا (هاري) قبل أن ننصرف؟
رفع (هاري) رأسه كمن أخرج من غيبوبة عميقة.. وقال:
- هه؟.. نعم.. سؤال أخير.. كيف تأتى أن تخرج زوجتي مع (رفعت) في حين أن (رفعت) لم يفارقني ساعتها..؟!
قالت الأم (مارشا) في استخفاف:
- إنها حيلة سحرية بسيطة.. لقد فقد صديقك نظارته.. ومن السهل صنع (جبلة)5 خارجية تشابه صديقك وتؤدي دوره بمجرد الحصول على شيء من ثيابه.. كالنظارة مثلًا التي لامست وجهه سنوات طويلة..
ثم قالت مستدركة:
- لكن هذا لا ينفي بالطبع أنهم صنعوا قناعًا من (اللاتكس) يشبه صديقك - أو شيئًا من هذا القبيل - وارتداه أحدهم ليخدع زوجتك..، لكنى أستبعد هذا لأنه ليس لديهم صور واضحة لصديقك.. ولم يكن عندهم وقت كاف لصنع واحد..، ثم إنهم لا يستطيعون تقليد صوته وحركاته إلى الحد الذي يخدع زوجتك خاصة وهي تعرفه جيدًا..
قلت في شرود:
- هذا بالطبع إذا لم يكن موظف الاستقبال بالفندق كاذبًا..
ثم استدرت للعجوز وأحنيت رأسي في أدب قائلًا:
- لقد كانت فرصة رائعة لنا أيتها السيدة الحسناء..
احمر وجهها قليلًا مما جعلني أذهل.. المرأة هي المرأة.. يسحرها الإطراء حتى ولو كانت عجوزًا شمطاء.. وساحرة (فودو)..!، لكن هناك نقطة أخيرة يجب استيضاحها قبل أن نفارق هذه الموسوعة الحية:
- هل امتلاكهم لنظارتي يتيح لهم عمل فتيش لي..؟
- كلا.. لابد من جزء من جسدك كالشعر أو الأظفار.. اطمئن إذن..، والآن انصرفا قبل أن ينفد صبري..
- ولن تفسري لي نبوءة أوراق (التاروت)؟

- لا..!..

* * *

كانت الساعة الخامسة عصرًا حين اتجهنا إلى شجرة الشيطان.. وهي الشجرة التي كانت تتم عندها طقوس البارحة..

وكانت بقايا آلاف الشموع المنصهرة تملأ المكان.. مع آثار عشرات الأقدام الحافية والمكسوة على التراب..، أما الشجرة نفسها فكانت عدة حبال ليفية تتدلى من أغصانها، الحبال التي كان ضحية الأمس مقيدًا بها..، وكانت هناك دمي محترقة حتى التفحم.. وجمجمتان انتهى ما بهما من وقود قوامه شحم الخنزير.. وزجاجات فارغة كثيرة مبعثرة هنا وهناك..

لقد كان حفلًا صاخبًا.. لكني أفسدته في حماقة لسوء حظهم..

أخرج (هاري) من جعبته الكاميرا وجهاز التسجيل ووضعهما تحت الشجرة ثم أشار لي كي نتراجع وسرنا ببطء إلى السيارة وركبناها وأدرنا المحرك.. وابتعدنا بها مسافة مئة متر حيث أخفيناها بين الأشجار وعدنا راجلين لنختفي بين النباتات مترقبين ما يحدث..

- أرجو ألا يفكروا في التأكد من محتوى شريط التسجيل..

- عندئذ سنتظاهر بالغباء.. لقد نفذنا حرفيًا ما طلبته الرسالة.. الكاميرا وجهاز التسجيل، ولم تشترط الرسالة وجود الفيلم أو شريط التسجيل.. وعلى كل حال فالغروب دان وسنعرف كل شيء بعد قليل..

ومضت ساعة أو أكثر..

لا صوت هنالك سوى صوت أنفاسنا اللاهثة في هذا القيظ وجو الخمول الرطب.. العرق يكسو صدرينا ويتجمع أسفل إبطينا.. والبعوض الشرير يئز من حولنا في جشع.

الأشياء تبرد ببطء شديد...

الموجودات تتلون تدريجيًا باللون الأرجواني في طريقها للأزرق.. والشمس تنحدر ببطء نحو الغرب..

ملحمة الغروب الأخيرة تقترب من النهاية..

والآن أرى و(هاري) رجلين يقتربان بخطوات متعثرة من مسرح الأحداث حيث شجرة الشيطان..، وفي ثقة العارفين يتقدمان نحو الكاميرا وجهاز التسجيل.. أحدهما طويل القامة والآخر أقرب للقصر..

وحبسنا أنفاسنا في ترقب..

كانت ملامح الرجلين تدل على أنهما من (الزومبي)..، وكانت الأطراف المتسلخة والعيون الملتهبة الدامية تفتش عن أشياء أخرى متروكة هناك..، ثم إن أطولهما مد إصبعه العظمي إلى زر إعادة شريط الكاسيت - ببراعة وحنكة - وضغط على زر الاستماع.. بالطبع لا شيء.. لا صوت...

أما زميله فقد تفقد عداد الكاميرا. بنفس الاحتراف والتمكن. ثم فتح ظهرها ليجد أن الفيلم غير موجود طبعًا..

لقد انكشفت الخطة وأدركا أننا نتحايل عليهما.. وهما - حتمًا - سيحاولان الهرب لإخبار من أرسلهما أن في الأمر خديعة ما.. يجب ألا يهربا.. يجب..

تحفزت للقفز عليهما أنا و(هاري) لإرغامهما على الكلام إن كان لهما لسان.. إلا أنهما لم يستديرا.. ولم يهربا..

فقط أشارا إشارة ما فلمحت عددًا هائلًا - يقارب العشرين - من هؤلاء الممسوخين يظهرون فجأة.. وينتشرون متجهين إلى الأشجار..

لقد فهمت!.. إنهم أذكياء إلى حد لم نتوقعه..، لقد أدركوا أننا رمينا لهم بطعم لا قيمة له.. ومادام هناك طعم فالصياد مختبئ في مكان قريب ينتظر..

والان هم يبحثون - كالمحمومين - عن هذا الصياد..!

* * *

صرخ (هاري) في رعب:

- فلنهرب يا (رفعت)!..

نعم.. لقد فشلت خطتنا التي رسمناها كي نتبع هؤلاء الذين سيأتون لأخذ الكاميرا وجهاز التسجيل، ولو كنا أكثر ذكاء لوضعنا فيهما الشريط والفيلم كي نوفر على نفسينا هذا الموقف..، لكننا لم نرد أن نعرض هذين الدليلين الهامين لخطر الضياع أو التلف.. ثم إننا تصورنا أن خاطفي (لندا) سيرسلون لنا بعض (الزومبي) الذين لا يفقهون شيئًا ولا يميزون الكاميرا الخاوية من المعبأة ولا يعرفون كيف يديرون شريط تسجيل..!

إن (الزومبي) قد تقدموا كثيرة في هذه الأيام..!

والان تعال واجر معي.. إذا شئت أن تنتظر فهذا شانك لكني لا أضمن النتائج..!..

تأمل وجوههم المتعفنة الرمادية وعيونهم الملتهبة وأيديهم التي تساقطت أكثر أصابعها.. واتخذ قرارك سريعًا.. هل تبقى؟.. لا..؟.. إذن هلم واجر معي.. اجر بين الأشجار نحو السيارة..



والآن تعال واجر معى .. إذا شئت أن تنتظر فهذا شأنك لكنى
لا أضمن النتائج ..!..

إنني لا أرى (هاري).. لقد انفصل عني.. هذا حسن ؛ لأنه ؛ سيشتت بحثهم نوعًا.. ثلاثة منهم يقتربون وأيديهم ممدودة أمامهم تبغى الإمساك بأي جزء منك.. لا تتراخ..!.. اقفز هذه الحفرة معي..

إنهم مجرد مرضى.. أنا واثق من أنهم مرضى.. ولكن لماذا يتصرفون بهذه الطريقة المرعبة؟.. لماذا يريدون رأسينا بهذا الإصرار..؟.. من الصعب أن أصدق أنهم حقًا ليسوا موتى أحياء..

هل أخبرك بسر؟.. لقد تكاثف العرق المالح فوق أهداب عيني.. ولم تعد رئتاي قادرتين على جلب المزيد من الأكسجين لقلبي.. الألم يغزو عظمة القص.. إنها بدايات الذبحة الصدرية..، لكن لا وقت لذلك.. لن أهتم.. وإذا ما مت سأكون قد نجوت - بشكل ما - من كل هذا الرعب..

اثنان يبرزان من وراء الشجرة.. كانا ينتظرانني.. تراجعت بسرعة وقد فتحت فمي أعب به جرعات هائلة من الهواء.. ولكن.. هذان اثنان آخران.. لابد أن ستة منهم يتبعونني الآن.. لا أريد أن ألتفت للوراء لكني واثق أنهم خلفي.. وواثق أنهم على بعد متر فحسب مني.. أكاد أشعر بأناملهم المبتورة تلمس عنقي..

ولكن.. أين أنت يا (هاري)؟.. أنا بحاجة إليك.. إنهم...

من وضع هذا الستار الأصفر أمام عيني؟.. لماذا يلاحقنني في كل مكان؟

هناك واحد آخر هناك.. العرق.. قلبي.. الغشاوة... و... و...

* * *

ها هو ذا ضيفنا الشجاع قد استرد عافيته..

أنا ممدد في سرير نظيف رائحة ملاءاته زكية.. وثمة غرفة مريحة تدخلها الشمس..، كأنه مستشفى.. نعم... هو كذلك.. اللون الأبيض في كل مكان، وزجاجات دواء كثيرة جوار فراشي..، وثمة رجل وسيم وامرأة حسناء يرتدي كلاهما الأبيض يقفان ويرمقانني في مودة..

قال الرجل بفرنسية متقنة لا تخرج إلا من فم فرنسي:

- أعتقد يا رد. (رفعت) أن شراييناك التاجية ليست على ما يرام.. إنه التدخين أيها الزميل.. التدخين..

ثم إنه أخرج سيجارة من علبة أنيقة وأشعلها..!..، ثم أردف:

- أقدم لك نفسي.. د. (رينيه دالمار).. فرنسي..، وحاليًا أنا مدير مستعمرة (سان فرناند) للجذام..، وأنت ضيفنا اليوم في هذه المستعمرة المتواضعة..

همست في تعب محاولًا أن يخرج كلامي ذا معنى:

-.. (وهاري)..؟...

- إنه في الغرفة المجاورة..، والسيدة الأمريكية والطفل الظريف.. كلهم هنا.. ضيوف في بيتي حتى..

وتبادل ابتسامة لطيفة مع الممرضة..، إن مغزى الابتسامة لا يخفى على أحد.. لكنه ظريف جدًا هذا الوغد.. ظريف وودود حتى لأكاد أقول إنه حنون..!..، قال وهو يصلح وضع الملاءة فوقي:

- أنت بالطبع تعرف كل شيء فلا داعي للمزيد من الإيضاحات.. لقد حصلنا على الشريط والفيلم اللذين أخفيتماهما في غرفة الفندق..، والواقع أننا بالغنا في أهمية ما تعرفان لأنه واضح تمامًا - مما وجدناه - أنكما لم تفهما سوى أقل القليل..

- إذن لم كل هذا العناء..؟!..

وضع يده على كتف الممرضة وابتسم:

- أولًا لا أحب كثيرًا أن يرى الصور كل من هب ودب ليقول إن هذه صور مجذومين..، ثانيًا لربما وقعت الصور في يد من يتعرف كاهنة (الفودو) ويلاحظ التشابه الشديد بينها وبين (مارلين) الممرضة في مستشفاي!

يا لغبائي..!.. كيف لم ألحظ هذا الفك المربع القاسي الذي كنت أحطمه بقبضتي في تلك الليلة؟!..، وعلى العموم أنا مدين لها باعتذار:

- أرجو معذرتك يا آنسة.. لست ممن...

قالت في رقة وهي تتحسس ذقنها..

- يضربون امرأة؟!.. لا عليك يا عزيزي.. لقد كان الموقف يستحق ذلك..، والواقع أنك لو لم تفعل لضاعت زوجة صديقك إلى الأبد..!

بدت الدهشة على وجهي.. هل هذه المرأة ساحرة حقًا أم مجرد ممثلة؟..

وكيف استطاعت طيلة هذه الأعوام أن تخدع كل والوطنيين الذين يفهمون (الفودو) و(يتذوقونه) ولا يمكن أن يتلاعب بهم ساحر مزيف مثلها؟...

وكأنما سمع الطبيب الفرنسي صدى ما دار في خاطري.. قال:

- لا تندهش. أن (مارلين) ساحرة (فودو) قديرة وقديمة.. لكن ليس إلى درجة صنع (الزومبي) بالطبع.. وقد تمكنت - بعد جهد - أن تصبح (الأم الكبرى) لسحرة هذه الجزيرة.. وصارت تقيم حفلاتها الخاصة.. لكنها اضطرت لهذه التمثيلية للحفاظ على نفوذها ؛ لأن (الأم الكبرى) يجب أن تجيد فن (الزومبي)..

قلت مفكرًا:.

- وبالطبع لا تريد أن تقع الصور والشريط في أيدي خبراء يعرفون أن الأمر كله بلا جدوى..

- هذا طبيعي..

- ولكن ما نفع كل هذا؟.. لماذا تحاولان إقناع الناس أن (الزومبي) حقيقة..؟.

- هو ذا بيت القصيد...

قالها وهو يقذف سيجارته من النافذة.. وأردف:

- وهذا هو ما ستموتان - أو إذا شئنا الدقة - ستموتون قبل أن تعرفوه!

ثم نظر لي.. وقال بنفس الرقة والتهذيب:

- بعد ساعتين - ربما ثلاثة - ستدفنان حيين..!

* * *

٩ - مأزق..

سرنا أنا و(هاري) مقيدي الأيدي بالحبال و(الزومبي) - أعني المجذومين - يحيطون بنا حاملين خناجر طويلة غريبة الشكل...

إن (الفيلا) التي يقيم بها د. (دالمار) تشابه قلعة حصينة مدهونة بلون أبيض أنيق، وأشجار اللبلاب ونباتات متسلقة أخرى تحيط بها مما يعطيك انطباعًا بأن القلعة تحاول الفرار من براثن النباتات المطبقة عليها..

. وفي الحديقة. حيث تنتشر الوجوه البشعة النخرة ترمقك بنظرات خرساء - تنتشر نباتات استوائية غير معروفة.. وثمة نافورة.. وأقفاص عدة بها ببغاوات لطيفة الشكل ترمقنا في لا مبالاة..

كنا سائرين إلى حتفنا ولا نملك سوى السير.. وكان د. (دالمار) يتقدم مسيرتنا في حماس مهذب كأنه يرينا الطريق إلى غرفة الطعام في بيته..

- هلموا يا سادة..!.. من هنا.. من فضلكما.. أسرعا!..

قلت له وأنا أسير بين أحواض النباتات وأتأمل الوجوه:

- قل لي يا د. (دالمار)...

- أي شيء أيها الزميل المحترم..؟

- يبدو لي أن عقار (٦ ١٩٠)6 لا يعمل بكفاءة عندك..؟

قال وهو يضحك في مرح:

- آه!.. فهمت!.. الواقع أيها الزميل أن هؤلاء البؤساء لا يتلقون أي نوع من العلاج ولا رعاية التقرحات..، وهو إهمال متعمد بالطبع لأنهم يجب أن يبدوا مرعبين بشعين حقًا..

- لكن هناك إضافات أخرى طبعًا..

- طبعًا.. إننا نطلي جلودهم بلون رمادي بشع.. ونضيف بعض لمسات الماكياج.. وهكذا.. حسب ما يتراءى لـ (مارلين)..

وأخرج سيجارة دسها في فمي وأخرى في فم (هاري) وأشعلهما في احترام حقيقي.. يا له من وغد..!

قال (هاري) مدليًا بدلوه:

- وماذا عن موضوع الخروج من القبر.. والحفل.. و... و...؟

قال د. (دالمار)..

- فلنتفق على شيء.. أنا لا أومن بوجود (الزومبي).. لكن معتقدات أهالي الجزيرة فرضت علي أن أنفذ التمثيلية كاملة..

في البدء يكون هناك رجل مجذوب أو مخبول يتمنى التحول إلى (زومبي).

يقدم نفسه لتربطه الأم الكبرى (مارلين) في شجرة الشيطان..، ويبدأ الحفل بكل طقوسه التي شاهدتماها... ثم يموت الرجل في نهاية الحفل..

قلت في امتعاض:

- يقتلونه إذن؟

هز رأسه وابتسم:
- أنا استعملت تعبيرًا أكثر لياقة من تعبيرك..، على العموم بصرف النظر عن أي شيء فهو يموت في نهاية الحفل.. عندئذ أختار أنا مجذومًا يشابهه إلى حد ما من جيش المجذومين الذي أملكه..
- وهل هم كثيرون..؟
- حوالي ستمائة...!..، يتم اختيار شبيه له في الطول والحجم - على الأقل. وأصنع له الماكياج المناسب..، ثم يظهر في المدينة أو في القرية التي جاء منها الشاب الذي مات.. ويمارس عاداته، عندئذ يعرف الناس ان صاحبهم أصبح (زومبي).. ويتحاشونه..، قد يفكر أحدهم في زيارة قبره.. عندئذ ماذا يرى..؟
قلت في ضيق:
- يجد القبر منبوشًا ولا أحد فيه لأنكم نقلتم الجثة لمكان آخر..!
- بالضبط.. إن الناس سهلو الخداع..، وهم لا يرون إلا ما يريدون أن يروه..، وحين تحيط المعتقدات الخرافية بشيء ما عندئذ يصير البحث عن الحقيقة شبه مستحيل..
قلت له وأن أوافق بشدة على عبارته الأخيرة:
- وهكذا تصير مستعمرة الجذام وما يحيطها منطقة محرمة على الأهالي جميعًا.. حزامًا من (التابو)..
- إنهم يعرفون بالطبع أن هناك مستعمرة جذام.. ويظنون كذلك أن الأرض المجاورة لها تعج بالموتى الأحياء، لهذا ينفرون.. ينفرون من الجذام وينفرون من (الزومبي)..
- وهل حقًا لا يوجد أي نوع من الرقابة عليك؟
ضحك حتى دمعت عيناه..، ثم قال:
- رقابة؟.. بالطبع لا.. إنهم تركوا لي المستعمرة وقالوا لي: عالجهم فهم أمانة في عنقك!.. وتركوني ألهو كما أشاء.. أنا الآمر الناهي هنا..!...
ثم بصق على الأرض بشكل ينافي أدبه الواضح وقال بحزن:.
- إنهم مهملون ولا خلاق لهم!.. وإذا أنا أسأت استخدام سلطتي مع هؤلاء التعساء فهي غلطتهم وليست غلطتي..!..، حتى البوليس يخشى زيارة هذه المنطقة.. فيا للإهمال!.. ويا لموات الضمائر..!
ثم هتف في سرور وقد عاد للواقع:
- لقد وصلنا..!
نعم وصلنا.. وصلنا إلى بقعة عارية من الأشجار مغطاة بالغبار.. الغبار الأحمر بلون الدم..، ولم تكن ثمة بقعة ظل واحدة..، وأشار د. (دالمار) إلى رجلين مشوهين فبادرا يحملان رفشين ويبدأن في الحفر.. حفر قبرين لي و(هاري)..!
همس (هاري) بصوت لم يتعمد إخفاءه:
- وزوجتي.. و.. وابني..؟
قال (دلمار) وهو يغمض عينيه ليحميهما من الغبار:
- لا عليك.. سيموتان ميتة الكلاب!
ضغطت على أسناني.. وقلت وأنا أشعر بغيظ حقيقي

- ألاحظ أنك تردد بالحرف الواحد ما قالته تلك الساحرة العجوز لي في أوراق (التاروت)..، لا أعتقد أن نبوءتها كانت صادقة لهذا الحد..

هتف في استنكار:

- بالطبع لا..!.. إن (جابرييل) ابنها يعمل معي وهو الذي نقل لي نبوءتها التي ألهمتني أفكارًا جديدة..، لماذا لا أدفنكما حيين - على سبيل الدعابة - وأقتلهما بالسم كالكلاب؟..

صاح (هاري):

- النبوءة قالت وسيقذى التراب الأحمر عينيه.... هل تفهم معني هذا..؟!

- في الواقع لا..

- معناه هذا..!

وفي ثوان رفس (هاري) الأرض بقدمه فتطاير الغبار في عيني الفرنسي الحساستين... ثم وجه (هاري) ركلة في مفصل رجله..، وقبل أن أفهم أنا ما حدث بالضبط كان الفرنسي ممددًا على الأرض وعنقه بين فخذي (هاري) الذي أخذ يضغط عليه في غل.. ويطبق على أسنانه كأنما ما بين فخذيه صخرة يحاول تهشيمها..

رائع يا (هاري)!.. هكذا يجب أن يكون الدفاع عن عائلتك.. ولكم أحب الرجل الذي يوجه الركلات مقيد اليدين من أجل أسرته!..، من حسن الحظ أنك ترتدي بنطلون (جينز) قوى الألياف وإلا لتمزق إربًا من جراء حركتك العنيفة..، وهأنتذا تقول له في قسوة:

- والآن مر رجالك أن يفكوا قيد صديقي..!

- بالطبع لا..!

قالها د. (دالمار) بصوت مبحوح وقد احتقن وجهه وبرز لسانه..

-.. إن.. ر.. رجالي سيمزقون صاحبك إربًا لو.. لو لم تطلق سراحي..

كان يحاول بيدين مرتجفتين فتح الشرك الذي أطبق على عنقه..

وفي هدوء اقترب مني أحد الرجال.. ومد يده بالخنجر إلى عنقي..

نظرته الخرساء المجردة من أي معنى تدل على أنه لن يجد أية صعوبة في تحويلي إلى شرائح.. لن يؤنبه ضميره أبدًا...

إن هذا الرجل واقع تحت تأثير مخدر قوي وأقسم على هذا...، إن عينة الوحيدة التائهة وذهوله المحير يدلان على ذلك، لهذا ينفذون أوامره مهما كانت.. ولهذا لا يفهمون حقيقة أنهم قد تدهوروا بسببه، هو الذي كان ينبغي أن يحافظ عليهم.. ولهذا يبدون للناس غريبي الأطوار تائهين في عالم آخر.. و.. اللعنة..!

نصل الخنجر يقطع تركيبًا تشريحيًا ما في عنقي.. وشيء دافئ لزج يسيل....

- (هاري)..!

- ماذا تريد؟. أعتقد أن هذا الرجل يذبحني الآن..!

- اصمد..!

- لا أستطيع.. إنني لم أذبح قبل اليوم.. وإنها لتجربة مروعة..، ثم إنك لو حطمت عنق هذا الطبيب فلن ننجو.. سينقض علينا الباقون ويمزقوننا..

- إذن هي مغامرة حمقاء..؟

فتح فخذيه ليحرر عنق الطبيب الذي كان قد توفي تقريبًا ولم يعد قادرًا حتى على أخذ شهيق الخلاص..، ونهض (هاري) وهو مغطى بالتراب الأحمر.. ووجه ركلة إلى الجسد الممدد على الأرض:

- إذن فلتنهض أيها الوغد.. دعنا ننته من هذه المهزلة سريعًا... إننا لن ننتظر طيلة اليوم حتى تقتلنا...

أنزل المجذوم نصل خنجره من على عنقي..، ووقف جواري يلهث في انفعال.. في حين بدأ د. (دالمار) يستجمع نفسه المبعثرة على التراب الأحمر..، بدأ يقف على قدميه مترنحًا ممسكًا بعنقه.. ولون وجهه يعود لطبيعته..، وفي إعياء قال:

- (ميرسي) يا سيدي!.. لقد آلمتني كثيرًا..

- حقًا؟

- أرجو أن تسامحني..!.. كنت أداعبك فقط..

وعادا يقفان كصديقين يراقبان هذا الذي يحدث..، كان الرجلان قد أوشكا على الانتهاء من الحفرتين لتكونا قبرين جميلي الشكل..، وأشار (دالمار) إلى إحدى الحفرتين.. وقال وهو يمسح الدم من عنقي بمنديل معطر:

- أنت أولا يا سيدي.. كن ضيفي..

تقدمت إلى الحفرة.. وأدليت جسدي فيها.. كانت ساخنة منزلقة الحواف..، لكنها غير عميقة.. فقد ظل عنقي فوق مستواها حتى عندما بدأ الرجلان يهيلان الغبار على جسدي إلى أن صرت مغمورًا تمامًا إلى العنق.. رفعت رأسي متسائلًا (لأنني أمقت الأعمال الناقصة):

- لكن هذا خطأ.. لست مدفونًا على الإطلاق..

قال (دالمار) وهو يشير لـ (هاري) كي يتقدم للحفرة الاخرى:

- إنني لا أحب الأساليب الفظة في القتل..، الموت البطيء يناسبكما أكثر..

والآن تخيل نفسك في هذا الوضع ليلًا.. إنك مالم تمت جوعًا ستأتي الذئاب كي تستمتع بنهش وجهك..، إن شهية الذئاب هنا غير عادية مما سيجعل الاحتمال الثاني أكثر واقعية..

- وما جدوى أساليب الموت البطيئة الخاصة بالقصص المصورة هذه؟..

لماذا لا تطلق علينا رصاصتين تنهيان كل هذا الضجيج؟

- رصاص؟.. لا.. لا... قالها وهو يشيح بوجهه اشمئزازًا:

- أنا لا أحتمل الأسلحة النارية!

... ولكن ما الذي يمنعني من قتل هذا المخبول!!...

وتذكرت لحظتها كلمات (ديفيد لين)7 الرائعة عن طريقة أداء دور الشرير في السينما.. كان يقول إن هناك طريقتين.. الطريقة التقليدية التي يهدد فيها الشرير ضحيته وهو مقطب الوجه يرفع حاجبًا واحدًا ويتحدث بلهجة رجال العصابات.. أما الطريقة الثانية.. الأكثر فعالية وتأثيرًا - فهي أن يبدو الشرير حنونًا رقيقًا يهدد ضحيته وهو يداعب عصفورًا أو يعيد تنسيق باقة من الزهور.. عندئذ يلفت أداؤه الأنظار..

كم كان (ديفيد لين) سيعجب بالدكتور (دالمار) لو رآه..!

إنه يحيينا كجنتلمان ويشعل لنا سيجارتين يضعهما في فم كل منا.. ثم يهز رأسه مشجعًا.. وينصرف.. فيناديه (هاري) من مقبرته:

- اسمع أيها السفاح.. فلنعقد اتفاقًا..
- على ماذا؟
- على أنك لن تقتل زوجتي وطفلي إلا بعد شروق الشمس.
- لا بأس.. ولكن لماذا؟
- لأننا سنخرج من هنا ونمزقك إربًا.. ومادام ذلك سيحدث فإنك لن تستفيد من قتلهما شيئًا.. لذا ابقهما حيين لنا، أما إذا هلكنا في الليل فيمكنك أن تفعل بهما ما تشاء.. على الأقل، ستجمع شمل العائلة في العالم الاخر..!

تفكر الفرنسي هنيهة في هذا العرض الغريب.. ثم هز رأسه:

- موافق.. لكنكما لن تخرجا من هنا.. إنهم دائمًا ما ينجون من هذه المواقف في القصص..

ابتسم الفرنسي في وداعة وهو ينفض الغبار عن بنطاله:

- من المؤسف يا سيدي أن هذه ليست قصة..!..، على كل حال أعدك كجنتلمان بأن أعطيك - وأعطيهما - الفرصة..

ثم إنه أخرج شيئًا من جيبه.. وانحنى فوقي ليلبسه لي.. نظارتي!.. لقد تشرخ زجاجها في موضعين لكنها كانت مفاجأة رائعة.. لقد نسيت كيف تبدو المرئيات واضحة نقية بالنظارة!.. يا لي من محظوظ!..

- لم أقصد تحطيم زجاجها.. إنها تلك المغامرة الميئوس منها التي قام بها صديقك الأمريكي، لكنها قد أدت واجبها.. وبمجرد أن غادرتما مسرح الأحداث في تلك الليلة استطاعت (مارلين) أن تأخذها وتصنع منها (جبلة) كاملة تشابهك.. وأرسلتها للفندق لاستدراج المرأة والطفل..

أما الآن فلم تعد بي حاجة إليها..، ومن القسوة أن أدعك تموت بأنياب ذئب دون أن تراه..!!.. هذا حقك الذي لن يحرمك منه أحد..!

* * *

١٠ – الخلاص..

منتصف الليل...

عواء الذئَّاب يتعالى..، ولم يعد هنالك معنى لشيء.. لم يعد لقدمي وجود ولا ليدي ولا لبطني.. رأسي هو الشيء الوحيد الحر في.. الظمأ يقتلني.. الملل... الألم، وعلى بعد أمتار مني يقف رأس (هاري)..، ذقنه متدل فلا تعرف إن كان ميتًا أم نائمًا.. ذباب كبير الحجم يقف ويلهو على أنفه ووجهه.. الذباب يحاصرني فأحاول طرده بتقليص عضلات وجهي وتحريك لساني.. لكنه مصر..

فلينته كل هذا سريعًا.. لينته كل هذا..

والآن حانت النهاية..، ها هو ذا ذئب ضخم أشعث يقترب منا في تؤدة.. ظله الأسود الكبير في ضوء القمر.. صوت زئير خافت منذر.. رائحة أنفاسه الكريهة.. عيناه الناريتان..، إنه يقترب منا ببطء.. ويدور حول رأسينا في حذر محاولًا فهم ما هنالك..، ثم إنه يقف مفكرًا لدقائق بأي الرأسين يبدأ.. الأشقر أم الأصلع؟!..

بالطبع يفضل الرأس العاري.. في تؤدة يتقدم نحوي.. أرى تفاصيله عبر زجاج نظارتي التي تشوه الرؤى.. لست خائفًا.. لست غاضبًا... فقط لا أصدق..، إن هذه الأشياء تحدث للآخرين فقط....

(ماجي) كانت تحبني وكنت أحبها فلماذا لم نتزوج؟.. إن (رضا) أخي على ما يرام بعد نداء النداهة.. وقد صار (عزت) جاري آكل البشر فنانًا شهيرًا.. لكنه لم يشف بعد.. والرعاة قتلوا (ايكاترينا)... و... (ماجي).. هل ستعرفين يومًا ما أن ذئبًا مزقني في مستعمرة جذام في (جامايكا)؟.. ماذا ستقولين؟ وكيف ستبكين؟.. وكيف ستتساءلين عن الشيء الذي رمى بي في هذا المأزق؟.. و(هويدا) أخت زوجة عادل.. ستنتظرني.. ولن تصدق انني لن اعود... و...



عواء الذئاب يتعالى ...، ولم يعد هنالك معنى لشيء .. لم يعد لقدمى
وجود ولا ليدى ولا لبطنى ..

الذئب يصرخ من الألم..!

مثل النبوءة يصرخ!.. والآن أستطيع أن أراه يركض مبتعدًا وهو يعوي في حين يقف شاب أسمر ممسكًا بشعلة نار.. ووراءه سيدة عجوز..

إنه (جابرييل).. وأمه (مارشا)..!.. لقد وصلا في الوقت المناسب..!.. لكن كيف؟.. أليس (جابرييل) متعاونًا مع الفرنسي؟..

- مساء الخير أيها الأجنبي.. ألم أقل لك إن الذئب سيصرخ من الألم..؟!..

بصعوبة نجحت في إخراج صوت من حلقي:

- إن وجهك يا سيدتي - في هذه اللحظة - لهو أجمل وجه رأيته في حياتي..!

ضحكت ضحكة زنجية طويلة.. وقالت في حياء مضحك:

- آها أيها الثعلب!.. فليأخذك الشيطان على كلماتك الخبيثة..

قال (جابرييل) في شيء من الخجل:

- اغفر لي يا سيدي.. لقد غررت بكما لكني لم أستطع أن أترككما تموتان.. كان هذا أقوى مني...

قلت في إعياء:

- ولكن حرراني أولًا ثم نتبادل العتاب..، لو أن هؤلاء المجذومين رأونا..

صاحت الأم (مارشا) في عصبية:

- أنا لا أعبأ بهؤلاء.. إنهم لن يعترضوا طريقي...

وتناول (جابرييل) رفشًا ملقى جوار الحفرة

وشرع يحررني أنا و(هاري) في حين أخذت أحاول معاونته عن طريق خلخلة طبقات التراب المحيطة بجسدي..، كانت المهمة شاقة لكنه أنجزها خلال عشر دقائق...

ووقفنا - أنا و(هاري) - نترنح ونحاول التخلص من أطنان التراب التي تكسو ملابسنا.. في حين فكت العجوز قيودنا بأداة حادة:

وهنا حدث ما كنت أخشاه...

رأينا - بعيون مذعورة - عشرات من هؤلاء المخلوقات البشعة يقتربون منا في الظلام ومشاعلهم تترقرق بضوء ناري رهيب ينعكس على وجوههم الغاضبة..، كانوا قادمين وقد فهموا ما هنالك.. وبعد دقائق كانت هناك دائرة محكمة منهم تقف حولنا..

لقد انتهى الأمر كله..

وهنا تصلب جسد الأم (مارشا).. وبقامتها القصيرة المنحنية تتقدم نحوهم وقد تشابكت يداها خلف ظهرها.. المشهد الذي ذكرني بمشهد عودة (نابليون) إلى جيوشه بعد منفاه.. توقعت أنها ستصرخ بعد دقائق: أنا هو إمبراطوركم!.. فاقتلوني..!..، لكنها فعلت شيئًا مشابهًا..

في ثبات وثقة تتقدم نحوهم.. وتقف في ضوء المشاعل لتصرخ فيهم بلغة ما، كلمات عدة، لم أتبين منها سوى كلمتي (مارشا)، (فودو).. ثم:

- كوجار هاشتاك ناهيرا دوس (زومبي)!..

واضح طبعًا أنها تقول لهم: أنتم لستم (زومبي).. أو لقد أراد أن يقنعكم أنكم (زومبي).. أو... لقد انتهت قصة (الزومبي).. أو أي عبارة أخرى تلائم الموقف وتنتهي بلفظة (زومبي)..!

والآن تأمل معي هذا المشهد الشبيه بالكابوس.. المرأة القصيرة تصرخ بصوت رفيع متهدج بينما عشرات المشاعل تحوطها..، والوجوه المتآكلة البشعة ترمقها بنظرات خرساء.. والظلال تتناثر هنا وهناك مضفية على الموقف كله تأثيرًا يكاد أن يكون سينمائيًا..

(جابرييل) يقترب من أذني، ويهمس:

- إنها تقول لهم إنها هي الأم (مارشا) التي علمت (الفودو) لكل الجزيرة.. وتقول إنهم ليسوا من (الزومبي) لأنها تعرف ذلك..، لقد سحركم ذلك الأجنبي بعقاقيره ولم يعالجكم.. جعل منكم منبوذين.. جعلكم خدمًا له تمتثلون لأوامره..

- كارشاك هامور شاتهاه أي ناج..!

يقول (جابرييل):

- تقول إنكم تستطيعون أن تمزقونا.. لكننا نملك خلاصكم..

- سي هاه شيس داكورك دي فرانتشا.. شيهاج.. ناشاه!...

... وتقول لهم إنهم إذا أرادوا أن يكونوا رجالًا فعليهم أن يثوروا..

- ناشاه!!

هكذا صرخ الجمع مرددا أخر لفظة في حماس وغليان مستمر متعالي النغمة..

ذلك الأسلوب الذي يسميه الموسيقيون (كريشندو).. الإيقاع يتسارع..

- ناشاه!!.. ناشاه!! ناشاه!!

الأم (مارشا) تخرج شيئًا من جيبها.. وتتمتم بكلمات ما..، ثم تنفخ فتشب نار في ذلك الشيء ويستحيل رمادًا..، ثم تنفخ الرماد على وجوه المحيطين بها..، لابد أنه نوع ما من التعويذات غرضه تحريرهم من أثر المخدرات..

- (ناشاه!!.. ناشاه)!!.. (كوديكا!.. كوديكا)..!..

مال (جابرييل) نحو أذني ليفسر لي..

- إنهم يقولون..

رفعت كفي بمعنى ألا داعي هناك لذلك.. وقلت:

- نعم.. نعم.. يقولون: الثورة.. الثورة!.. ثم: إلى الشيطان!.. إلى الشيطان!...

لقد تحسنت حصيلتي من لغتكم هذه يا بني..!... لقد سمعت لفظة (كوديكا) مرارًا في تلك الليلة المشئومة..

الثورة تزداد صخبًا.. والدائرة تنفتح من حولنا وتكون صفًا طويلًا مسعورًا يتقدم نحو الفيلا.. والغضب في كل العيون الملتهبة.. لقد سحرتهم هذه المرأة بتعويذتها أو بمنطقها.. المهم أن النتيجة واحدة..

(هاري) يركض نحوها صارخًا:

- وزوجتي.. وابني..؟.. إنهم سيسحقونهما بالأقدام..!

التفتت نحوه مبتسمة في ثقة.. ثم أشارت للجمع الغاضب وصرخت:

- بي هاه!.. بي هاه دوس دونيا إي بامبا..!!

قلت لـ (هاري) مبتسمًا:

- إن لغتهم تحمل روائح اللغة الأسبانية.. من الواضح أن (دونيا) تعنى (المراة) و(بامبا) تعني (الصغير).. أليس كذلك؟

قال في غيظ وقد احمر وجهه انفعالًا:
- ارحمني من دراساتك اللغوية..!.. إن الموقف لا يناسب ذلك..!...
المشاعل تتطاير نحو الفيلا الشبيهة بالقلعة.. النار تلتهب وتتأجج.. الدخان يتعالى.. الصراخ.. لفظة (كوديكا) تتكرر مرارًا.. إن النبوءة تكتمل: ستحترق القلعة..، د. (دالمار) يبرز من إحدى الشرفات ويحاول أن يقول شيئًا، لكنه يفاجأ بالمجذومين يتسلقون النباتات محاولين الوصول إليه.. من ثم يهرع للداخل..، صوت صراخ.. اللهيب يتعالى...
إن غضب الجموع لهو إعصار لا يمكن الوقوف أمامه
(جابرييل) يقترب مني وسط الصخب، ويهمس:
- سامحني.. كنت أعمل معه مجرد ناقل للأخبار..، ولهذا عرف أنكما صورتما (الزومبي) في المقهى وصورتها الحفل..، ولم أعرف أبدًا أنه خطف المرأة والطفل.. حتى عندما دسست لكما ورقة طلب الفدية لم أعرف محتواها.. فأنا لا أعرف الإنجليزية..
- ولماذا لم تشرح لنا كل شيء..؟
- حاولت إنذاركما مرارًا.. ولهذا أتيت بك إلى أمي كي تقنعكما بالرحيل..، وحين أدركت أنكما وقعتما في الشرك ذهبت لأمي وأحضرتها هاهنا لأنها الوحيدة القادرة على إنقاذكما..
- لقد جئتما في الوقت المناسب.. لكني لا أفهم..، ما جدوى هذه التمثيلية؟
ولماذا يرغب أي شخص في امتلاك جيش من (الزومبي)..؟
نظر في شرود للمشهد المروع أمامه.. وقال في بساطة:
- البوكسيت..!
- بوكسيت؟..
- نعم هو السبب.. إن (جامايكا) تنتج البوكسيت..، حوالى ٣ مليون طن سنويًا.. وقد أممته في عام ١٩٥٢ وألغت الاحتكارات الأجنبية8، لكن د. (دالمار) وجد مكانًا غنيًا به. لهذا جند مرضاه - عن طريق المخدرات - ليكونوا عمالة غير مكلفة تستخرج له ولشركة فرنسية ذلك الخام..، ثم يقوم بتهريبه بحرًا..
كان في حاجة لإثارة أكبر قدر من النفور والرعب حتى يمنع الآخرين من اكتشاف مشاريعه..، ثم إنه بهذه الخطة استطاع الحصول على ستمائة عامل مجاني في الوقت الذي نفتقر فيه للأيدي العاملة ويفر مواطنونا مهاجرين إلى إنجلترا...
- يا للهول..!.. طبيب يجعل مرضاه يعملون بالسخرة؟!..
هذا هو الواقع للأسف....
- على كل حال لقد انتهت هذه المأساة ولن يكون هناك آخرون...
- لقد قلت مقطعًا آخر من نبوءة أمي..!!
إن المأساة تنتهي..، النار تلتهم كل شيء..، خيالان مألوفان يخرجان من الدخان نحونا.. (هاري) يندفع نحو الخياليين ويعانقهما في نهم كأنه يبغى سجنهما في ضلوعه للأبد..، (لندا) و(جيمي) اللذان كانا منهكين لكنهما حيان...
الأم (مارشا) تقترب مني.. فاهرع إليها وامسك بمخالبها في حب حقيقي:
- أيتها السيدة الحسناء.. لن تتصوري أبدًا.. لن.. أنت رائعة..!
- (رفعت).. أنت تحبني.. أليس كذلك؟

قالتها في رقة مرعبة وهي تنظر في عيني.. وابتسامة مريعة على فمها الخالي من الأسنان..!، يا للهول!..لقد بالغت في إظهار إعجابي بهذه الساحرة الشمطاء حتى ظنت..، والآن كيف أقول لها ما يجول في خاطري دون أن تمسخني إلى خنزير..؟!.. (جابرييل)..!.. أنقذني من هذه العجوز المفزعة!..

قالت في حنان وهي تمسك ذقني بمخالبها ورائحة عطرها تخنقني:

- أنا أفهم أنك تحبني بجنون لكن.. حاول أن تنتصر على آلامك..، فأنت لا تناسبني.. أنت ضعيف ومتراخ وأصلع..، حاول أن تتعود على فكرة أني لست لك.. ولا تبك يا صغيري..!.. لا تبك..

الحمد لله!.. إنها دموع الفرح!.. إن رأيها في لهو وسام دائم على صدري.. وإنني لأرتجف من فكرة أن أكون قد رقت لها..

لم تزل تنظر لي في إشفاق.. والنار تلتهب..

و د. (دالمار) و(مارلين) يموتان الآن ميتة الكلاب التي ظننا أنها من نصيبنا.. والمرضى يصرخون.. و(هاري) وأسرته يتعانقون دامعي الأعين.. (كوديكا).. (كوديكا)... شجرة أخرى تتهاوى محترقة..

ولن يكون هناك آخرون...

* * *

خاتمة..

قال (هاري) وهو يحتضن طفله، فيما (لندا) تحزم حقائبنا

- ربما كانت مصادفة أو سلسلة إيحاءات نفذناها نحن دون وعي، لكن نبوءة (التاروت) صدقت حرفيًا.. الذئب.. الغبار الأحمر.. القلعة.. لن يكون هناك آخرون..

قلت في إصرار:

- كذب المنجمون ولو صدقوا..

أخذ يضحك وهو يغمز (لندا) وقد أخذ (جيمي) يعبث في الحقائب:

- كلما تصورت أنك فتى أحلام هذه الساحرة العجوز..!، وكنت ستعود بها لمصر لتطمئن أهلك أنك وجدت فتاة أحلامك أخيرًا..!

- ولم لا..؟.. ربما كان من المفيد أن تقتني ساحرة (فودو) في دارك.. فهي امرأة باسلة تعرف كل شيء ولولاها ماكنا هنا..

- لكنك لست في حل من أن تثير غضبها يا صغيري.

- على كل حال لقد حرمت على زيارة (جامايكا) بعد اليوم ضمن بلدان الله التي لن أزورها أبدًا.. (إنجلترا).. (أسكتلندا).. (رومانيا).. (جامايكا).. وحتى قريتي...

- أعتقد ان..

وهنا دوت صرخة مريعة طويلة.. كانت (لندا) تتلوى على الارض وتولول وعلى وجهها أعتى علامات الالم..

- ذراعي..!.. لا...

نظر إلي (هاري) في تساؤل وهلع..، لكن لم يكن لدي تفسير لهذا الذي يحدث.. إنها ليست الآمًا روماتيزمية ولا ناتجة عن نقص سريان الدم ولا..، لحظة..!.. لقد فهمت..!.. أين (جيمي) الصغير؟.. أعتقد أنني أعرف ما هنالك..

وجوار الفراش كان جالسًا على الأرض يحاول في انهماك انتزاع ذراع الدمية..!؛ الفتيش الخاص ب (لندا) الذي أعطتني إياه الأم (مارشا) وكنا قد نسيناه عندها!!..، وبسرعة انتزعت منه الدمية فكفت (لندا) عن الصراخ..!

ووقفنا نتبادل نظرات مذهولة..

كم من أسرار يحويها هذا العالم العجيب الذي نجهله، لكن ما نعرفه الآن هو أن هذه الدمية ستظل حبيسة خزينة محكمة ما ظلت (لندا) حية..

هناك أسرار كثيرة لكن الوقت قد حان كي نترك هذا البلد..، سأعود إلى (مصر) وإلى أصدقائي والجامعة واتزوج (هويدا)..، وكالعادة لم أكن أعرف أن كابوسًا من نوع آخر ينتظرني في مكان آخر.. كابوسًا يفوق كل ما رأيت وكل ما عرفت... ولكن هذه قصة أخرى..!..

د. رفعت إسماعيل
القاهرة في مايو ١٩٩٢

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة..

١ - في الأنتيل..

٢ - ضيف غير مرغوب فيه..

٣ - العرافة..

٤ - ليلة الرعب..

٥ - هل نرجع سالمين؟!

٦ - شرك الموتى الأحياء..

٧ - أعيدوا لي زوجتي!..

٨- دكتور دالمار..

٩ - مأزق..

١٠ – الخلاص..

خاتمة..

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة الموتى الأحياء

في جامايكا يدعونهم (الزومبى).. فى توباجو وبربادوس يدعونهم الموتى الأحياء .. ولكن .. حين تتعطل سيارتك قرب المقابر، ولا تجد من يعينك سوى أحدهم، و تدخل بيتًا فيفتح لك الباب أحدهم .. و تطلب شرطيًا فيأتيك أحدهم .. عندئذ -صدّقني- لن تهتم باسمهم أبدًا ..!! إنهم .. الموتى الأحياء ..

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة رأس ميدوسا

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

حدث أن (بربادوس) نفسها استقلت عن الاتحاد بعد ذلك بسنة.. أي في عام ١٩٦٦.

[←2]

الروم والعسل الأسود هما محصول الصادرات الوحيد الجاماپكا.

[←3]

حقيقة.

[←4]

ت. س. إليوت: شاعر إنجليزي عظيم اشتهر بغموض أشعاره وتعقيدها.. وأشهر قصائده (الأرض اليباب) و(أربعاء الرماد)..، وقد كان له تأثير كبير في شاعرنا صلاح عبد الصبور.

[←5]

الجبلة الخارجية أو الأكتوبلازم في زعم الروحانيين هي نلك الجزء من الروح الذي يمكنه إتخاذ شكل مادي ملموس يتخذ شكل بللورات أو شكل صاحب الروح ؛ ولا ننسى هنا أن نتذكر قوله تعالي، ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي،.

[←6]

كان العقار (٦ ١٩٠) يستخدم في علاج الجذام في ذلك الوقت، وقد صار الجذام اليوم مرضًا قابلًا للشفاء التام بعد اكتشاف اللامبرين والدابزون والريفامبيسين.

[←7]

ديفيد لين: المخرج الإنجليزي العبقري وأحد أعمدة هوليود السبع.. صاحب (لورانس العرب) و(د. زيفاجو) و(ابنة رايان) و(جسر على نهر كواي).

[←8]

حقيقة.

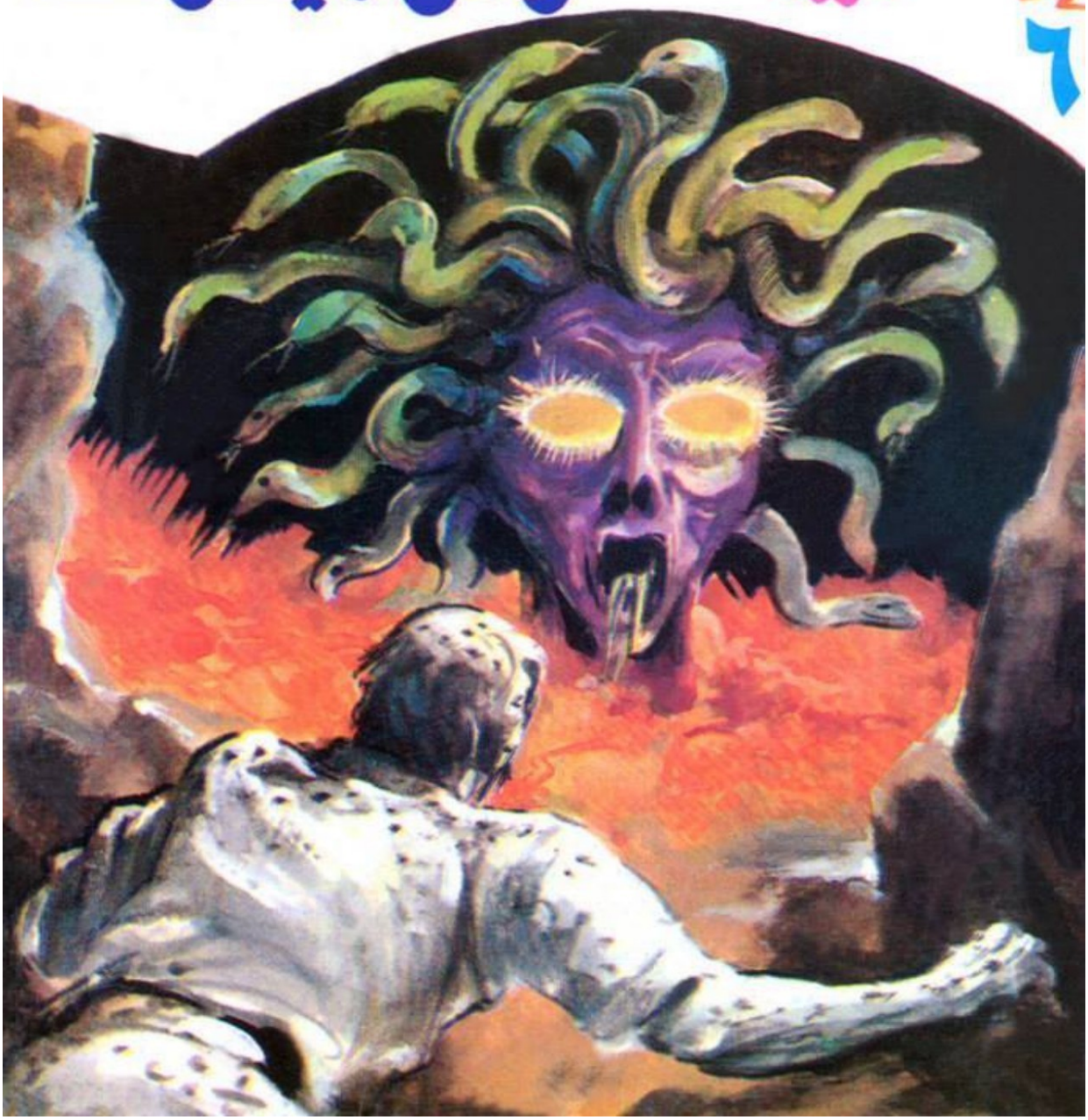
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

أسطورة رأس ميدوسا

ماوراء الطبيعة

٦



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

٦

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة رأس ميدوسا

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

٦

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

•

أسطورة رأس ميدوسا

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة..

نعم لم أتغير..

ما يزال اسمي هو (رفعت إسماعيل)، أستاذ أمراض الدم السابق وصائد أشباح هاو..، وما زلت غير متزوج.. وما زالت تسليتي الوحيدة هي مطاردة الرعب عبر المقابر المهجورة وفي أركان الغرف المظلمة..

لا تخدعنكم نبرة الوهن في صوتي ولا ثلوج الشتاء الزاحفة على ما تبقى من شعري..

أنا لم أنته بعد..!

على الأقل ليس قبل أن أحكي لكم قصة أخرى من قصص شبابي الذي أضعت معظمه - للأسف - جوار توابيت مصاصي الدماء.. أصغي لعواء المذءوبين.. وأحلم بالكوابيس..

اليوم أعتقد - إن لم تخني الذاكرة - أن الوقت قد حان كي أحكي قصتي مع كابوس من نوع جديد..، لقد عرفتم معي الرعب في إنجلترا.. في اسكتلندا.. في جامايكا.. وحتى في قريتي.. بل حتى في الشقة المجاورة لي..

الآن تعالوا إلى اليونان لنلقى (ميدوسا).. الكابوس الذي خرج من قلب الأساطير اليونانية إلى عالمنا الحالي..

هناك. في تلك الجزيرة - كان أول لقاء لي مع (الميثولوجيا) اليونانية، ذلك اللقاء الذي لم يكن سعيدًا للأسف!...

كيف.. ومتى حدث هذا؟..

أغلقوا الأبواب وأضيئوا الأنوار.. واسمعوا لما أقول..

* * *

١ - الاسطورة..

تقول الأسطورة الإغريقية إن (بروسيوس) البطل المغوار كان واحدًا من هؤلاء الأبطال الذين تزخر بهم الأساطير اليونانية ؛ شديد الوسامة شديد البأس.. وهو - كالعادة - ابن (زيوس) من امرأة بشرية..

وعلى حين كان إخوته من الأب يمارسون اعمالهم.. (هرقل) مشغول بقتل (الهيدرا).. (وأطلس) منهمك في رفع الكرة الأرضية.. و(بروميثيوس) معلق بين الجبال يتلقى عقابه الأبدي، و(جاسون) يبحث عن الفروة الذهبية ؛ كانت هناك مهمة أكثر تعقيدًا تنتظر (برسيوس)...

كانت (كاسيوبيا) الحسناء المغرورة قد بالغت في غرورها ووقاحتها إلى درجة أثارت حنق سادة (الأوليمب)؛ لهذا سلطوا على جزيرتها الفيضانات والزلازل.. ثم جاءت الطامة الكبرى حين أرسلوا للجزيرة تنينًا مرعبًا اسمه (الكراكون)، وكان هذا التنين يطلب - كالعادة - أن يقدموا له القرابين البشرية، وإلا أغرق الجزيرة بما عليها..

وهكذا وجدت (كاسيوبيا) نفسها مرغمة على تقديم ابنتها الجميلة (أندروميدا) لإشباع شهية التنين الشره..، وهكذا كانت (أندروميدا) هي الضحية القادمة ما لم يحدث شيء ما..

وفي هذه اللحظة يصل (برسيوس) إلى الجزيرة.. وطبعًا يقع في حب الفتاة المختارة لقربان التنين، ويصمم على قتل الوحش لإنقاذ فتاته.. ولكن كيف؟..

إن هناك طريقة واحدة لكنها أفظع من التنين نفسه.. رأس ميدوسا..!

إن (ميدوسا) وأختيها هن أشنع ما ذكر في الأساطير اليونانية من مخلوقات، ويسمونهم (الجرجونات الثلاث)..، لقد كانت (ميدوسا) وأختاها فتيات طبيعيات جدًا حتى غضب عليهن (زيوس) فأحالهن إلى....

أولًا: تحولت الأيدي إلى نحاس...

ثانيًا: ازددن بشاعة وصار لسانهن مشقوقًا كلسان الأفاعي...

ثالثًا: تحول شعرهن إلى ثعابين ذات فحيح.. ولدغتها قاتلة..

رابعًا: - وهذا أسوأ ما في الأمر - صارت نظرتهن كافية لأن تحول من تلتقي عيناه بأعينهن إلى حجر..

خامسًا: نفين إلى جزيرة في البحر المتوسط لم تحددها الأسطورة حيث يعشن في الكهوف، وسط عشرات التماثيل الحجرية لأولئك البحارة التعساء الذين ألقى بهم الحظ العاثر على شاطئ تلك الجزيرة..

إنه عقاب قاس لكنه ليس أقسى عقاب في الأساطير الإغريقية.. فكما ذكرنا كان هناك عقاب (بروميثيوس) الذي شيد بين جبلين وفي كل يوم يلتهم الرخ كبده.. وفي الليل ينبت له كبد جديد، وعقاب (سيزيف) العبثي الذي حكم عليه بدحرجة صخرة إلى قمة الجبل فكلما وصل القمة سقطت الصخرة للسفح، وعقاب (تنتالوس) الذي كلما حاول الشرب من النهر هرب الماء منه، وكلما حاول الوصول لتفاحة ارتفعت الأغصان لأعلى..، دعك من عقاب (إيكو) و(برسفونية).. وسواهم..

والآن... عليك يا (برسيوس) أن تقطع رأس (ميدوسا)!! ولكن كيف؟.. كيف يمكن مواجهة مخلوق بهذه الصفات؟.. دعك من السؤال الأهم.. كيف تقتل مخلوقًا دون أن تراه..؟!..

لكن (برسيوس) - مثله مثل (هرقل) و(ثيذيوس) - بطل إغريقي أصيل.. يبحث عن المتاعب حيث وجدت ويحمل قدره على كفه ولا يملك الاختيار..، لهذا يروق كثيرًا لسادة الأوليمب..، ولهذا يتلقى زيارة من (هرمز) يحمل له بعض الهدايا التي تبرع بها كل من وجد لديه شيئًا يتبرع به..

الخوذة التي تخفي من يرتديها.. والسيف الذي لا يضرب إلا ويصيب هدفه.. ثم الدرع البراق الشبيه بالمرآة.. لا بأس بتاتًا..

والآن ينطلق (برسيوس) مع رفاقه عبر مياه البحر المتوسط قاصدين جزيرة الجرجونات الثلاث..، بالطبع حدثت لهم مئات المصائب والغرائب في رحلتهم مثل ما حدث لـ(جالون) و(أوليس) العائد من حرب طروادة..، ونحن لا نعرف مسار الرحلة بالضبط ولا الجزيرة المختارة لكن من الواضح أنها قريبة جدًا من جزيرة (كريت)، ولن أطيل سرد القصة..

دخل (برسيوس) كهف (ميدوسا) وقدماه ترتجفان كالـ (جيلي) وهذا من حقه.. حوله عشرات التماثيل الشنيعة لبحارة ماتوا قبل أن يفهموا ما الذي قتلهم، الوجوه الصارخة.. الأكف المرفوعة.. كيف شعروا في اللحظة التي خرجت لهم (ميدوسا) من الكهف لترمقهم بعينيها الداميتين..؟.. هل فهموا لحظتها أن حظهم العاثر اختار لهم - بين كل جزر البحر المتوسط - جزيرة الجرجونات الثلاث ليغرقوا عندها؟.. ترى هل تألموا؟.. إذا لم يكونوا قد تألموا، فلماذا صرخوا؟

أسئلة عديدة لابد أنها دارت في رأس (برسيوس) ورفاقه وهم ينسلون في حذر ما بين التماثيل باحثين عن ضالتهم عالمين أن هذه التماثيل ستزداد عددًا بعد دقائق ما لم تحدث معجزة ما..

إن من شاهدوا هذه المشاهد في فيلم (صدام الجبابرة) - والتي خلقتها عبقرية ساحر المؤثرات البصرية (راي هاري هاوزن) - لن ينسوا هذا الجو الكابوسي أبدًا.. إلا أن (ميدوسا) لم تكن تزحف كالثعبان ولم تكن تطلق السهام.. ولم تكن تعيش وحدها..!..

والآن تصحو (ميدوسا) من النوم وتفحّ الثعابين في شعرها..، فيخفي الرجال وجوههم خلف الدروع..، وتصرخ.

- من ذا الذي يجرؤ على إزعاج (ميدوسا)؟!

فيصيح (برسيوس) مداريًا وجهه:

- أنا (برسيوس).. جئت لأقتلك..!

وتتقدم (ميدوسا) - وشقيقتاها نائمتان لحسن الحظ - نحو أول الرجال فيتعثر وتلتقي عيناه بعينيها فيصرخ صرخة رعب لا توصف، ويتحول لحمه إلى حجر..

وهنا توجد نهايتان مختلفتان للأسطورة. النهاية الأولى: تقول إنها رأت وجهها في انعكاس درع (بروسيوس) البراق فصرخت وتحولت لحجر..، النهاية الثانية تقول إنها تقدمت نحو (برسيوس) الذي استجمع شجاعته وحاسة المكان عنده ليطير رقبتها بضربة واحدة ثم يبادر بالفرار قبل أن تصحو أختاها..

إن هناك شيئًا واحدًا مؤكدًا - إذا أمكننا أن نقول ذلك عن اسطورة - هو أن (برسيوس) قد قتلها..، ولم يمس شقيقتيها، وأنه عاد بالرأس في كيس ليظهره أمام التنين في اللحظة المناسبة قبل أن يبتلع هذا حبيبته (أندروميدا) - حبيبة (برسيوس) طبعًا وليس التنين - وليتحول الوحش إلى تمثال حجري.. وتسود السعادة البلاد..

الآن حق ل (برسيوس) أن يستريح ويتزوج ويهنأ بالًا..

أما نحن فلن نستريح حتى نعرف الإجابة على سؤالين..

ماذا حدث للرأس؟.. وماذا كان مصير الجرجونتين الباقيتين؟ بالنسبة للسؤال الأول لم تتفق الأساطير على إجابته.. ثمة حكايات تقول إن (برسيوس) رمى الرأس في مياه البحر..، وثمة حكايات تقول إنه أهداه لـ (حيرا) زوجة (زيوس) لتتخلص به من أعدائها، وثمة حكايات تتجاهل الأمر برمته تاركة ذلك لخيالنا..

السؤال الثاني ظل - وسيظل - بلا إجابة.. ماذا حدث للشقيقتين؟!

والآن تعالوا نغلق كتاب الأساطير تاركين (برسيوس) مع عروسة الجميلة و(ثيذيوس) في المتاهة مع المينوطور.. و(ديدالوس) يرفرف بجناحين من شمع مع ابنة إيكاروس الذي أرجو ألا يقترب كثيرًا من الشمس..

تعالوا نترك كيوبيد وسايكي يتهامسان.. وشارون مبعوث الجحيم مع كلبه ذي الرأسين..

لنترك هذا العالم الساحر ونعود إلى أرض الواقع..

إلى الجزيرة الصغيرة الهادئة حيث يقوم عالم الآثار اليوناني (ستافروس دندرينوس) ببعض الحفريات.. وحيث ستحدث كارثة بعد قليل..

* * *

٢ - هي..

جزيرة (كارادوس) في بحر (إيجه).. الخامس عشر من أبريل عام ١٩٦٦...

كان الحر شديد الرطوبة يلتف حول كل شيء.. خانقًا.. كريهًا.. لزجًا، وهناك في خيمته والبعوض يحاصره والذباب يلتهم طعامه بدا لعالم الحفريات العجوز (ستافروس دندرينوس) أن الحياة لا يمكن أن تكون أسوأ ما هي عليه في هذه اللحظة، ومن حين لآخر كان ينظر إلى الصخور المكونة لمجموعة الكهوف الملاصقة للشاطئ شاعرًا بالاشمئزاز والمقت لكل شيء..

ها هو ذا يزحف نحو السبعين من عمره دون أن يضيف شيئًا أو يعرفه أحد..، في كل مرة يحدث نفس الشيء، إناء محطم من الخزف أو قطعة بلهاء من تمثال يتيه بها فخرًا وسرورًا لدقائق ثم يكتشف أن أحدًا لا يعبأ بكل هذا.. ما هي الفائدة المرجوة من أن تعرف أن جنديًا يونانيًا كسر طبقه في هذا المكان أو ذاك منذ ثلاثين قرنًا؟!.. الواقع - كما أدركه في هذه اللحظة - أنه أضاع حياته عبثًا.. وبرغم احتفاظه بصحة لا بأس بها فإنه كان من أعماقه يشعر أن عمره قد تجاوز المئة بمراحل، ولم يكن يدري لماذا يستمر في أي شيء.. ومن الذي قرأ كتبه الثلاثة المملة عن (أنماط الخزف في الحضارة الهللينية)؟!..

ثم بعد ذلك يأتي الحر.. الحر اللعين..

شرب كوبًا آخر من الماء سرعان ما تحول إلى قطرات عرق على جبينه..، وكان قد ربط رأسه بمنديل كعادته ومن فوق المنديل وضع الكاب الواقي من الشمس فبدا كأحد جنود الحملة الإنجليزية في الهند..، اليوم هو آخر أيام الحفر في هذا الموقع وبعد هذا.. وبعد هذا مقبرة أخرى والمزيد من الأواني الخزفية المحطمة.. وهكذا حتى يأتي اليوم الذي لن يصحو فيه من النوم صباحًا وسيقول القس كلمات كثيرة عن (شهيد العلم الذي فارقنا).. وبعدها سينسى الجميع حتى أنه وجد أصلًا..

ومن بعيد كان (نيكوس) قادمًا يترنح والمعول في يده..

- سيدي.. هناك جدار من الصخر.. صخر هش للغاية، وقد حطمت جزءًا كبيرًا منه هل ستأتي معنا؟!

- جدار من الصخر؟.. ولماذا بحق السماء؟.. قال (نيكوس) بعد أن بصق على الأرض ومسح شاربه

- لا أدري.. المقبرة هي المقبرة.. لكن هذا الحائط يعطي انطباعًا ما.. كأنه يعزل شيئًا ما عن باقي الكهف..

للحظة تأمل عالم الحفريات العجوز في معنى كلمات العامل.. جدار يعزل شيئًا ما عن باقي المقبرة.. غريب.. ولكن ماذا سيسفر عنه كل هذا سوى المزيد من التماثيل المحطمة؟؟

- وبعد سيدي.. هل نستمر؟

نظر عالم الحفريات إلى ساعته.. إنها الخامسة مساء وبعد قليل سيخيم الظلام.. ربما كان من الحكمة أن يؤجل هذا كله إلى الغد، ثم إن هؤلاء البؤساء لم ينالوا قسطًا من الراحة من التاسعة صباحًا..، نعم.. يستطيع التاريخ اليوناني أن ينتظر ليلة أخرى.. جفف قطرات العرق من فوق زجاج نظارته وغمغم:

- اسمع يا (نيكوس).. يمكنك أن تواصل الحفر إذا كان الفضول يتملكك.. لكن لا تجبر أحدًا من الرجال على العمل إذا لم يرد ذلك..، إن غدًا لناظره قريب.. ثم جفف عرقه وتثائب:

- أعتقد الآن أنني بحاجة للحمام والنوم..، فليذهب (زيوس) للجحيم..

ابتسم (نيكوس) من خلف شاربه الكث، وأخرج سيجارة من صندوق معدني:

- وإذا وجدنا شيئًا.. هل نناديك؟!!..

- بالطبع.. ولكن ليس لشيء أقل من (أجاممنون) 1 نفسه..!

واستدار (ستافروس) متجهًا إلى كوخه - ومسكنه - وهو يمسك بظهره متوجعًا.. في حين عاد (نيكوس) إلى العمال ليصرفهم..، وعلى حين بدأ الرجال في العودة مغبرين غارقين في العرق التفت (ستا فروس) إلى كبير عماله، هاتفًا:

- (نيكوس).. كن حذرًا.

* * *

وفي كوخه غسل (ستافروس) وجهه في طبق به بعض الماء وصابونة.. وارتدى نظارته، ثم إنه صب لنفسه بعض (الأوزو) في كأس وشرع يجرع في مرارة..، المروحة الصدئة تئن ولا تفعل شيئًا تقريبًا فقد فرغت بطاريتها..

أخرج دفتر مذكراته وقلم الحبر.. وأشعل موقد الكيروسين طالبًا بعض الضوء حيث إن الظلام كان قد بدأ يزحف.. وفي الدفتر خط الكلمات التالية:

- آخر يوم في الحفر.. يبدو أن هناك شيئًا يستحق الاهتمام.. لقد وجد (نيكوس) نوعًا من الجدار المزدوج في المقبرة.. ويقول أن هذا الجدار يدارى شيئًا ما.. شيئًا حرص من حفروا المقبرة على عزله.. وجرع جرعة أخرى من الكاس...

منذ شبابه لم يشعر بهذا التوتر الغريب.. شعور غامض يداهمه أن شيئًا ما سيحدث..، هذا الشعور لم يداهمه سوى مرة واحدة يوم أن ماتت زوجته في ذلك الحادث الشنيع.. السيارة.. النيران.. و...

ما هذا؟..

هل سمعت هذه الصرخة؟.. هذه الصرخة المريعة الطويلة القادمة من أعماق الجحيم؟.. كاد قلبه يتوقف عن الخفقان.. ثم إنه هرع لباب الكوخ حيث الغروب قد بدأ يصبغ المرتفعات باللون القرمزي.. لا شك في ذلك.. إن الصرخة قادمة من موقع الحفريات الذي يبعد مئتي متر عن هذا الكوخ..

(نيكوس) كان يواصل الحفر وحيدًا مدفوعًا بشغفه لمعرفة ما وراء الجدار.. ماذا حدث؟.. انهيار؟.. ذئب؟.. كلا.. إنها صرخة غير عادية.. حتى الإنسان الذي يلتهمه ذئب في تلذذ لا يجد ضرورة قوية لأن ينهك حنجرته بمثل هذه الصرخة.. لا يوجد في الكون كله حافز يدفعك لأن تصرخ بهذا الشكل..

والآن هناك شيء واحد يمكن عمله.. البندقية والكشاف..، وليهرع ليرى ما حدث، وليصمت وجيب قلبه قليلًا.. ليس الوقت مناسبًا للإصابة بنوبة قلبية..، لقد حدث شيء ما.. وهو الوحيد الذي سمع تلك الصرخة، وهو الوحيد الذي سيرى ما أصاب هذا التعس (نيكوس)..

* * *

عند بوابة المقبرة اطلق شعاع بطاريته.. لا شيء.. بقايا الحفر وأدوات العمال..، أدخل قدمه في حذر من الفتحة وخطا للداخل..، وشرع يدير شعاع البطارية على النقوش الجدارية المألوفة.. ثم تصلب الشعاع على فتحة بحجم رجل في الجدار المقابل..، هذه هي فتحة الجدار التي اصطنعها (نيكوس) الأمين ليدخل إلى الغرفة السرية.. ربما منذ دقائق..

اتجه إلى الفتحة وكتم أنفاسه وسلط الشعاع على الداخل.. غرفة خاوية تفوح منها روائح العفن..، تمثال حجري كامل لشخص جاث على ركبة واحدة.. وثمة بعض الدروع الصدئة مبعثرة هنا وهناك..

إذن أين (نيكوس)؟..

سلط الشعاع على التمثال الحجري متقن الصنع إلى حد غير عادي.. الشارب الكث والقلنسوة.. والوضع الجاثي الذي لم يره في أي تمثال إغريقي من قبل.. ثم.. شارب وقلنسوة..؟!

وهنا انتصب الشعر في مؤخرة رأسه..، وأعاد تأمل ملامح التمثال..كلا..! هذا مستحيل..!.. لقد فهم..!.. أن هذا التمثال هو.. هو.. (نيكوس) نفسه!!..

* * *

بعد أن خرج من المقبرة.. وضع قرصين من (النتروجلسرين) تحت لسانه، وانتظر حتى هدأ قلبه من رفرفته.. ثم إنه بدأ يستجمع شتات أفكاره التي بعثرها الذعر الحيواني الجارف..، إنه لا يحلم.. والآن لا يوجد في العالم شيء يمكن أن يحول الإنسان إلى حجر.. لا شيء في العالم المادي، لكن هناك شيئًا واحدًا في عالم الأساطير.. شيئًا واحدًا يملك هذه القدرة.. وهو عالم آثار يوناني ويعرف تمامًا هذا الشيء..

سيعود للكهف ولكن بحذر..، عاد للفتحة في الجدار.. ودلف منها إلى الحجرة الكابوسية.. كان تمثال (نيكوس) - كما قلنا - جاثيًا على ركبة واحدة يرمق في رعب شيئًا ما على الأرض.. شيئًا أزاح عنه التراب لتوه..

أغمض (ستافروس) عينيه في عصبية وجثا على الأرض بين يدي التمثال وتحسس الشيء حتى وجده.. وجه.. أشياء طويلة تخرج حيث ينبغي أن يكون الشعر.. نعم!.. إنه هو..!..، وفي حذر أخرج كيسًا قماشيًا سميكًا من جيبه ودس فيه الشيء البشع.. ثم فتح عينيه ليجد أمامه وجه التمثال المليء بالرعب حيث جثا على ركبة واحدة أمامه كأنما يتفحصه..

* * *

وفي الكوخ علّق (ستافروس) الكيس بما فيه على مسمار في غرفة النوم، ثم عاد مرتجفًا إلى مكتبه، وخط الكلمات الآتية:

.. لقد وجدنا رأس (ميدوسا)!.. وكلفنا ذلك غاليًا، إن المسكين (نيكوس) قد فوجئ وهو يحفر في التربة برأس ذلك الكابوس يرمقه أن هناك الكثير من الأسئلة وكثيرًا من علامات الاستفهام لكن

الشيء المؤكد لي هو أنني على أبواب أعظم وأخطر كشف في هذا القرن.. رأس (ميدوسا)..!

* * *

نعم.. هناك الكثير..، وحين يسلم هذا الرأس لقبضة العلم ليتم تصويره بأشعة جاما.. ودراسة جزيئاته وتحور الكربون فيه.. وتشريحه... و... و...، لقد كشف (كارتر) مقبرة توت عنخ أمون، أما هو.. (ستافروس دندرينوس) فقد وجد رأس (ميدوسا)!.. رأس (ميدوسا) سالمًا ومحتفظًا بلعنته بعد كل هذه القرون..، في نشوة رفع نظارته السميكة على قصبة أنفه..

و.... صوت الخرفشة هذا..

لقد نسي الفئران تمامًا!.. الفئران التي تملأ الكوخ والتي ستجذبها حتمًا رائحة الشيء شبه المتحلل..، نهض - وقد عزم أن يضع الكيس في خزانته حتى الصباح - حاملًا في يده مصباح الكيروسين...

في غرفة النوم وجد بالفعل الكيس وقد سقط من على المسمار وفأرًا يهرع منسلًا من فوق عروق الخشب القديمة المبطنة للغرفة بعد إن ضبط متلبسًا..، انحنى جوار الفراش ليرفع الكيس وهو يسب.. ووضع المصباح على الأرض..

إن شرود الذهن يحدث للجميع.. وخاصة كبار السن.. وبشكل أخص يحدث للعلماء، لكن شرود الذهن ليس مبررًا لهذا الخطأ القاتل..

لقد نسي حذره للحظة.. ربع ثانية لكنها كانت كافية..

كان الكيس قد أنفتح عندما أسقطه الفأر..

وهنالك - جوار الفراش - وجد نفسه يحدق في العينين الجهنميتين لـ (ميدوسا)..!

* * *



لقد نسى حذره للحظة .. ربع ثانية لكنها كانت كافية ..

٣ - صداقات قديمة..

نهاية العام الدراسي في مصر..

كنت في ذلك الوقت غارقًا حتى أذني في المحاضرات الختامية لطلبتي عن أمراض الدم، وكانوا يحاولون في خبث جعلي أنزلق بالكلام كاشفًا عن بعض الأسئلة التي تجول بخاطري والتي يمكن أن أضعها - لا شعوريًا - في ورقة الامتحان، وكنت أنا معتادًا على هذه المواقف وأحسن التلاعب بهم وتضليلهم حتى لا يعتمدوا كثيرًا على ذكائهم أو على حماقتي..

وفي ذلك اليوم الحار كنت أحدثهم عن سرطان الدم النخاعي ؛ حين لاحظت أن ثلاث طالبات جالسات يتهامسن في خبث ويرمقنني.. ويضحكن...

لقد اعتدت هذه المواقف من الفتيات..، وليس هذا العيب واضح معين في طباعي أو شكلي أو سلوكي.. بل هو - ببساطة - لأنني لم أتزوج بعد وقد بلغت الأربعين من العمر!، والمرأة تفهم أن يكون الرجل غبيًا أو جبانًا أو مجنونًا أو وقحًا.. تفهم هذا ولربما غفرته له.. لكنها لا تفهم أبدًا ذلك الرجل الذي لا يتزوج!.

إنها تسيء به الظنون وتنسج حوله. مئات العقد النفسية.. غير عالمات - سامحهن الله - أنه لم توجد في الكون سوى (ماجي) واحدة، وكانت لي، ثم ذهبت ولم تترك لي (ماجي) أخرى.. الأمر بسيط إذن...

المهم أنني أزمعت أن أوجه لهن لومًا ما.. إلا أنني لاحظت أنهن يمسكن بجريدة ما تحت الطاولة يتفحصنها ويواصلن الهمس الماكر ويختلسن النظر لي..

شيء ما في هذه الجريدة يتعلق بي بالتأكيد.. هذا غريب...

وفي الاستراحة توجهت إلى غرفتي.. وفتحت درجي لأتفحص جرائد اليوم التي لم أقرأها بعد..، وفي إحداها وجدت ضالتي..، كانت هناك صورة صغيرة باهتة لي أنا و(هاري شيلدون) نبتسم للكاميرا في بلاهة.. وتحتها تعليق صغير يقول إن إحدى الجرائد الأمريكية نشرت خبرًا عن خبير كمبيوتر أمريكي وأستاذ مصري استطاعا أن يكشفا سر الزومبي في جامايكا وأن يوقعا مدير مستعمرة فرنسي أساء استغلال مرضاه...

هذا هو الخبر..، إذن نشروا بالفعل ذلك التحقيق الصحفي الذي أجروه معنا عند عودتنا من مغامرتنا الكابوسية السابقة في جامايكا..، وتسرب هذا الخبر إلى محررنا المصري..

لم يذكر الخبر اسمي لكن وجهي كان واضحًا في الصورة، وللأسف كان منشورًا في ركن صغير مهمل من الجريدة حتى انني أنا نفسي لم أكن لألاحظه لولا أن لاحظته طالباتي الثلاث الخبيثات..

يا للفخر!..، لكم تمنيت لو يسمح لي العميد بتوزيع نسخة من هذه الجريدة على كل طالب وطالبة ليعرفوا كم أنا رائع!!.. لكنه سينسفني حتما قبل أن أفعل.. وضعت الجريدة مفتوحة على تلك الصفحة في أوضح مكان في غرفة التدريس..، ثم شرعت افتح الخطابات التي وصلتني وكلي رضا عن العالم...

* * *

لم تكن المفاجأت قد انتهت..

ها هو ذا خطاب من اليونان يصلني... وأنا لا أملك معارف في هذا البلد، لهذا تأملت المكتوب على المظروف في فضول متجاهلًا تلك الحروف اليونانية العجيبة..

كان هناك اسم بالإنجليزية.. اسم من أرسل الخطاب.. مسز (تابيثا كاراداكيس)..

أنا اعرف واحدة تحمل اسم (تابيثا).. لكنني لا أعرف هذا الكا.. الكاراداكيس.. على كل حال فتحت الخطاب في توتر.. فوجدت صورة جميلة - ومفزعة - بالقلم الرصاص تمثل رجلًا يقف ما بين مصاصي دماء وأشباح وهياكل عظمية.. وهذا الرجل هو صورة كاريكاتورية لي أنا... وتحتها خطت حروف بالإنجليزية تقول: تذكر أن هناك دائمًا مرة أخيرة!!..

فتحت الورقة المصاحبة للرسم فوجدت السطور التالية:

عزيزي رفعت..

لقد مر دهر كامل منذ سفرك عائدًا إلى مصر..، ولا أدري حقًا إن كنت نسيتني أم لا..، أنا (تابيثا ماكجفرت).. هل تذكرنا في جامعة داندي؟ كنت أنا من شلة (ماجي ماكيلوب)، كنت تجد صعوبة في تذكر اسمي.. ولكم كانت (ماجي) تغار عليك مني...

حسن.. لقد ذهبت تلك الأيام إلى الأبد..، أما أنا فقابلت شريك حياتي في أثناء زيارته لاسكتلندا.. عالم الآثار اليوناني الوسيم (ميخائيل كاراداكيس).. ومن لحظتها غدوت السيدة (كاراداكيس) وعدت معه إلى بلده الجميل اليونان.. وانقطعت علاقتي باسكتلندا..

أما عن مسار حياتي ؛ فأنت تعلم كم كنت أعشق الأدب..

وفي بلد كاليونان وجدت جذوري الحقيقية.. واتجهت إلى الكتابة وخاصة قصص الرعب التي لا أدري لماذا أبى قلمي أن يخط سواها..، ولي في أسواق أوربا كتاب أو اثنان متوسطة النجاح...

إن زوجي يعمل حاليًا في مجموعة من الجزر الصغيرة في بحر (إيجه) ما بين (كريت) و(رودس)، وعمله مثير إلى أقصى حد..، تصلنا الجرائد العالمية مرة كل شهر تقريبًا.. وفي الشهر الماضي كنت أتصفح إحدى الجرائد الأمريكية حين وجدت مقالة عن مغامرة مع الزومبي قام بها أمريكي وطبيب مصري.. وكانت صورتك منشورة أعلى المقال، إنك تزداد قبحًا عامًا بعد عام (!!) إلا أن نظرتك المميزة وقامتك الناحلة لم تتغيرا أبدًا..

وكان المقال يحكي عن طبيب مصرى اسمه (رفعت إسماعيل) (يهوى) مصاصي الدماء والمذءوبين وأكلة لحوم البشر..، هرعت وأرسلت خطابًا لـ (ماجي) في (انفرنسشاير) أسألها عما إذا كنت أنت هو هذا الذي تتحدث عنه المقالة أم أن حالة هلوسة قد أصابتني..، وعلمت من ردها أنك المعني بالفعل.. وأنك لم تتزوجها - رغم كل هذا الضجيج - وأنك أنقذتها من وحش (لوخ نس) نفسه..!.. وأعطتني عنوان جامعتك..

والآن.. أكتب لك يا (رفعت) - اسمح لي برفع الكلفة - كي أقول لك إن هناك أشياء غير عادية تحدث في هذه الجزر، وأنني وزوجي في أمس الحاجة للاستعانة بخبرات (استشاري رعب) مثلك..

لن أحكى لك التفاصيل..، لكني أؤكد لك أن الأمر سيثير اهتمامك..، وأنك ستحب اليونان، وستحب (ميخائيل) زوجي، وستجدد صداقتك القديمة مع شيطانة الجامعة الموهوبة (تابيثا

ماكجفرت)..
بانتظار ردك..، وستكون تذكرة سفرك على نفقتينا أنا وزوجي لأن هذا جزء بسيط من دين الصداقة، فقط قل لي متى وأين وكيف نقابلك... إنك لن تنسى ما حييت هذه الرحلة...
بإخلاص:
(تابيثا كاراداكيس)

أغلقت الخطاب وغرقت في دوامة الذكريات.. (ماجي) وأنا وأشيبالد وتابيثا.. والشباب المرح المفعم بالآمال.. ورسالة الدكتوراه التي يشرف عليها السير (جيمس) والد (ماجي) نفسه... و...
لن أنسى هذه الرحلة أبدًا.. هكذا قالت.. وهكذا توقعت أنا، لم أمارس في حياتي أية تجربة يمكن نسيانها حتى اللحظة..، وقبل كل سفرياتي كنت أجد دائمًا من يعدني بأنني لن أنسى.. وبالفعل لا أنسى... وإن حشد الرحلات التي لا تنسى في مخزن ذاكرتي قد تزايد إلى حد أنني لا أجد مكانًا للنوم...، وعدني د. (رتشارد كامنجز).. و(جوستاف)، ود. (عاصم).. وسير (جيمس).. و(هاري شيلدون).. و(عادل).. إنني لن أنسى..، وبالفعل كانوا محقين!!..
إلا أن موضوع الرحلة يثير شغفي، واليونان بلد عريق الحضارة مليء بالأفكار يستحق أن يضاف إلى قائمة البلدان التي لن أزورها مرة أخرى في حياتي...
المهم الآن أن أنهى أعمالي سريعًا.. وأن أبدأ إجراءات إجازتي بمجرد انتهاء موسم الامتحانات..
إن (كريت) لن تنتظرني كثيرًا..

* * *

٤ - رعب جديد..

[ولكنني أعرف هذا التمثال.. هذا الوجه المذعور..]..

* * *

أخذ الزورق يشق طريقه بين أمواج بحر (إيجه) وقد بدا للنوتي أن الحياة كلها صفحة من الماء يجب أن يشقها إلى نصفين..، إلا أن الماء كان يخدعه ويلتئم كلما تأكد من أن الزورق قد ابتعد.. وأن النوتي لم ير ما حدث!...

رائحة البحر وطيور النورس الأنيقة.. وتململ الركاب يؤكد أننا وصلنا إلى جزيرة (كارادوس)...

لن أحكي لكم عن دوار البحر الذي أصابني حتى لا تشعروا بالملل من ضعفي.. أنا لا أفعل أي شيء يستطيع أبطال القصص أن يفعلوه.. وإنه لحظكم السيئ الذي أوقعكم مع بطل قصة مثلي مصاب بدوار البحر والربو والذبحة الصدرية والشيب..!..

إنها جزيرة (تابيثا) حيث يعمل زوجها وحيث ضربت لي موعد اللقاء.

* * *

وصل الزورق إلى الشاطئ.. وشرع الركاب ينزلون وأنا بينهم.. لم يبد على واحد منهم أنه (مسافر) سواي، فهم - كما هو واضح - قد اعتادوا التنقل بين الجزر كأنهم يتنقلون في ضواحي مدينة واحدة..، بل كانت هناك امرأة أو اثنتان تحملان بعض الحاجيات التي اشترتاها من (كريت).. كأنهما عائدتان من السوق..

نزلت على الأرض وقدماي ما تزالان تشعران بتأرجحها..، وعن كثب لمحت صديقتي القديمة (تابيثا) وزوجها (ميخائيل) يرتديان نفس الثياب تقريبًا.. قميص بسيط وبنطلون من قماش خشن سميك وقبعة.. وكانا يلوحان لي في مرح..، اتجهت نحوهما حاملًا حقيبتي..

وكان زوج (تابيثا) شديد الوسامة فارع القامة كممثل الأدوار الفتي الأول.. أما هي فكانت بقبحها المعهود مع احتفاظها بروحها المرحة وسرعة بديهتها..، وركبنا سيارة (جيب) عتيقة تمخر بنا في شوارع القرية - أو الجزيرة لا أدري بالضبط - وسط نظرات الفضول..

الكل ينظر إلينا بلا استثناء..

الرجال بشواربهم الكثة على المقاهي.. والأطفال الذين يلعبون حفاة في الطرقات.. والحسناوات العائدات بجرار المياه من (الطلمبة).. والعجائز المتسربلات بالسواد اللواتي يشبهن عجائزنا في مصر إلى حد مروع..

وتبدأ الهمسات والنظرات الجانبية.. إنه ليس جوًا عدائيًا..، فقط هو جو كل هذه البلدان المنغلقة على نفسها والتي يكون وصول وجه غريب إليها حدثًا جللًا.. ربما يصير يومًا يؤرخون به الأحداث فيما بعد..!

فيما عدا ذلك كان المكان رائعًا.. وبهيجًا..

* * *

أشار (ميخائيل) إلى الكوخ وقال بإنجليزية رديئة جدًا وهو يشد فرملة اليد:
- هذا.. بيتك.. وبيتنا..
نزلت من السيارة مبديًا علامات الانبهار لأخفي خيبة الأمل تجاه هذه الكومة النخرة من الأخشاب التي سأعيش فيها.. ومعهما!..، على كل حال لم أنس أن هذين الزوجين موجدان في الجزيرة بصورة مؤقتة وليس من صواب الظن أن أعتقد أنهما يملكان فيها قصرًا..
أشرت إلى كوخ على بعد مائة متر حالته أكثر سوءًا.. وقد بدا كئيبًا كالكابوس:
- وهذا؟..
قالت (تابيثا) وقد تبادلت مع زوجها نظرة ذات معنى:
- هذا بيت الأستاذ (ستافروس دندرينوس).
ثم فتحا لي باب الكوخ الخاص بهما..، دلفت وأنا أشم في الجو رائحة لا تطاق.. الخشب المغطى بالرطوبة والطحالب.. ونقص التهوية، لكني سأتعود.. المهم ألا يهربا هما أولًا فرارًا من رائحة سجائري التي ستفحم هواء هذا الكوخ بعد دقائق..! وقادني (ميخائيل) إلى غرفة بها فراش صغير.. ومكتب.. وخزانة ثياب..، غرفة نظيفة في الواقع ومريحة.. لولا تلك الرائحة اللعينة، وأشار لي إلى وعاء للغسيل وقطعة صابون ومنشفة.. ثم تركني لأستعد للعشاء.. إلا أنه تذكر أن يعود برأسه ليطل من الباب.. ويضم أصابعه أمام فمه بحركة ذات معني:
- تذكر.. لا.. لا..
كان يحاول البحث عن الكلمة.. وقد فهمت قصده لكنني تظاهرت بالحماقة لأغيظه:
- ساندوتش..؟.. أحمر شفاه؟..
- كلا.. كلا.. كلا..
- تدخين..؟
- نعم.. نعم.. لا تدخين.. ممنوع..!
قضي الأمر إذن..!.. سأظل أشم هذه الرائحة للأبد لكني - على الأقل - سأريح رئتي بعض الوقت طالما بقيت في هذا الكوخ..، استبدلت بثيابي ثيابًا مريحة أكثر.. وغسلت وجهي وشعري، ثم لحقت بهما في المطبخ الواقع في الجزء الخلفي من الكوخ..، وكانت رائحة الطعام شهية حقًا.. على المائدة كميات هائلة من الأسماك المشوية والخبز و- بالطبع - الزيتون..
وبدأ العشاء يسوده المرح..، قلت لـ (تابيثا) وانا أكافح الأشواك في إحدى الأسماك التي أجهل نوعها تمامًا:
- إن زواج كاتبة قصص بعالم آثار يذكرني..
تبادلت هي وزوجها نظرة باسمة ذات معنى.. وتساءلت في خبث:
- يذكرك بمن؟..
- بـ (أجاثا كريستي).. هي أيضا كاتبة قصص وزوجها عالم آثار، وتقول عنه...
إلا أنها لم تهتم بباقي كلامي.. إذ التفتت لزوجها، قائلة في انتصار:

- ألم أقل لك إنه تقليدي..؟! - ثم قالت لي مفسرة - كنا قد تساءلنا أنا و(ميخائيل) عما إذا كنت ستكرر ذلك التعليق السخيف الذي يقوله كل من يعرف بأمر زواجنا معتقدًا أنه تعليق عبقري!.. وكان هو يرى أنك تبدو ذكيًا مبتكرًا ولن تقول نفس السخافات، أما أنا فقلت إنني أعرفك جيدًا..!!

احمرت أذناي خجلًا..، يا لك من شيطانة!..، لقد جعلت منى أحمق حقيقيًا أمام نفسي، على العموم سنحاول تجاهل هذه الدعابة الثقيلة ولنتحدث عن أشياء أكثر مرحًا.. وما هي تلك الأشياء الأكثر مرحًا سوى الأشباح..؟!!..

بدأت (تابيثا) تسألني في اهتمام عن كل ما ذكرته لها (ماجي)..، وبدت عليها الحيرة وخيبة الأمل حين أدركت أنني لست الخبير الذي كانت تظنه..، بل إن علاقتي بالأساطير هي (الهدم) وليست (البناء)..، فهي - ككاتبة قصص رعب - كان يرضيها بالطبع أن تكون النداهة والمذءوب والزومبي حقائق..، إلا أنها بدأت تفهم حقيقة أنني (بطل بالصدفة) يقع دائمًا في شراك هذه المواقف دون فضل له في ذلك..

قال لي زوجها، مبتسمًا:

- على كل حال.. أنت لم تبتعد كثيرًا عن قدرك حين جئت اليونان..!

- ماذا تعني..؟!..

- إن اليونان بلد شديد الغموض، وأساطيره المرعبة لا نهاية لها..

ثم تفكر قليلًا باحثاً عن الكلمات المناسبة.. وهمس:

- مثلًا أنت تظن أن (رومانيا) - وخاصة مولدافيا ووالاشيا - هي أصل أساطير مصاصي الدماء.. حسن.. هل تعرف أن مصاصي الدماء مألوفون جدًا في القرى اليونانية خاصة لدى العجائز؟.. لا أعني بهذا أنهم موجودون حقًا..

قالت (تابيثا) وهي تتلذذ بملامح الذعر على وجهي:

- يسمونهم (الفرايكولاكاس)..، وحتى اليوم توجد قرى يونانية تحشو فم المتوفي - خاصة إذا كان شابًا وميتته غير مبررة - بالثوم. وتضع قطعتي فضة على عينيه لمنعه من التحول إلى مصاص دماء2..!!

أحسست بجلد ذراعي يتحول إلى جلد إوزة بسبب القشعريرة التي أصابتني من الفكرة..، ما سر هذه الأسطورة؟.. ما سر تغلغلها في التراث الإنساني لكل الشعوب إلى هذا الحد؟!...، وتذكرت محاورة قديمة دارت بيني وبين د. (ريتشارد كامنجز) منذ.. منذ عشر سنوات..!.. حين قال لي إنه لابد من أصل واقعي لكل أسطورة.. ترى أين هو؟ وأين أسرته اليوم..؟..

- والرجل الذئب..

استطردت (تابيثا) وعيناها تلمعان في حماسة:

- هل تعلم أن أصل هذه الأسطورة هو اليونان وليس رومانيا؟

- مستحيل..

- إن أصلها من (أركاديا)..، طبيب يوناني هو (مارسليوس السايدي) وصف هذا المرض وأسماه (لايكا انثروبي)..، أي (حالة التصور الذئبي)..، وصف مرضًا يتحول فيه الإنسان إلى ذئب يأكل اللحم النيء ويعوي حين يرى القمر..، وقد وصلت هذه المقالة إلى الأطباء العرب عن طريق (إيطس الأميدي)..، وقد كتبه عن هذا المرض أطباء عظام مثل (إبن سينا) و(الزهراوي)..، واسموه بداء (القطرب).. وهي ترجمة غير موفقة لكلمة (لايكا انثروبي)3.

- أنا.. أنا.. لم أعرف هذا بتاتًا..
قلتها في حيرة.. وقد عاودني ذلك الشعور المرير القديم.. إنني أكتشف - كلما تقدمت في السن - أنني لا أعرف شيئًا على الإطلاق..
والآن يا (تابيثا) ماذا تتوقعين أن أقدمه لك ولزوجك من مساعدة وأنت كما هو واضح تعرفين كل شيء عن أي شيء في العالم..؟

* * *

قال لي (ميخائيل) بعد أن انتهى العشاء:
- هل انت بحاجة للنوم..؟
- بتاتًا.. إنني شديد الحماسة لرؤية هذه الجزيرة..
- لا يوجد الكثير في الواقع.. فمساحتها كما ترى، وسكانها لا يتجاوزون المئتين كلهم صيادون أو رعاة.. وقس.. وحفار قبور.. وصاحب مقهى..، إنها مملة حقًا..
قلت له وأنا انظر إلى (تابيثا):
- والآن.. حدثني عن الكابوس الجديد الذي ينتظرنا ها هنا والذي حاولت أن تتناساه بهذا الحديث المسلي عن مصاصي الدماء والمذؤوبين..!
بدت في عينيه الزرقاوين نظرة حيرة.. عدم الفهم، والتفت لزوجته متسائلًا.. فأطلقت من فمها فيضًا كطلقات المدفع الرشاش - من الكلمات اليونانية تترجم له عبارتي الملتفة التي لم يفهمها.. أول مرة..، ولما فهم - أخيرًا - قال لي:
- معذرة.. فإنجليزيتي ليست على ما يرام، للأسف تعلمت (تابيثا) اليونانية كأهلها قبل أن أتعلم منها الإنجليزية، وهكذا لا أمل لي في التحسن..
ثم استدار لها وفتح مدفعه الرشاش عليها مطلقًا مئات الجمل باليونانية، فاتجهت إلى مصباح كهربي صغير ووضعته في يده..
- والآن تعال معي..
سرت معهما إلى حيث اتجهنا إلى باب الكوخ، وفتحاه.. كان الظلام قد بدأ يغمر الجزيرة وللمرة الأولى فهمت أنه لا يوجد ضوء كهربائي فيها.. البيوت المعدودة والأكواخ قد اتشحت بعباءة الظلام الكئيبة، وعلى الشاطئ تنتشر مجموعة من المرتفعات بها كهوف لا حصر لها..، امشي خلفهما فوق الأحجار متجهين إلى ذلك الكوخ الكئيب الذي آثار فضولي لحظة أن وصلت..
أضاءت له (تابيثا) المصباح على حين شرع يفتش مجموعة من المفاتيح أخرجها من جيبه.. وهمس لها بشيء ما.. ثم مد يده يعالج القفل الصدئ المثبت على الباب حتى فتحه، ودعاني للدخول..
وطواط أو اثنان يتحركان على السقف الخشبي للكوخ وقد أزعجهما الصوت.. لقد حان ميعاد الاستيقاظ أيها الزميلان فالظلام سيحل تمامًا بعد دقائق.. رائحة العطن المميزة.. وثمة جو مشئوم يخيم على المكان..، بصوت هامس قال (ميخائيل) وعيناه متسعتان:
- هذا هو كوخ الأستاذ (ستافروس دندرينوس)... سمعت هذا من قبل..
- إنه المشرف على الحفريات في هذه الجزيرة.. ورئيسي...

- وهو لا يخاف الوطاويط أيضًا كما هو واضح...
- كلا إنه...
قالت (تابيثا) مقاطعة إياه في فتور:
- دعك منه يا (ميخائيل).. إنه يمزح لا أكثر..
لم يعلق (ميخائيل).. وتقدمنا نحو قاعة فسيحة نوعًا تبدو وكأنها كانت الصالة في هذا الكوخ.. وكانت قطع الأثاث المعدودة البسيطة مغطاة بقطع من القماش المكسو بالأتربة وخيوط العنكبوت..
وفي ركن القاعة كان هناك تمثالان مغطيان بالملاءات.. وأدوات حفر.. ومجموعة من الكتب محزومة بالحبال..



لم يعلق (ميخائيل) .. وتقدمنا نحو قاعة فسيحة نوعًا تبدو
وكأنها كانت الصالة فى هذا الكوخ ..

انحنت (تابيثا) على الأرض والتقطت شيئًا ما.. ودسته في يدي وهي تبتسم في رقة.. تأملت هذا الشيء فوجدته تمثالًا لفأر صغير يتلوى.. تمثالًا متقنًا إلى حد غير عادي ومصنوعًا من الحجر الجيري، وكانت إحدى قدميه الخلفيتين مكسورة:

- ما رأيك..؟.. ظريف أليس كذلك؟

قلت لها في حيرة..

- بلى.. ولكنه موضوع غريب للنحت.. لا أذكر أني رأيت تماثيل فئران كثيرة في حياتي..

- لكنه متقن..

- لا أنكر هذا.. هل هو أثر إغريقي؟

ابتسمت في خبث.. وعلى ضوء المصباح الخافت أزاحت الملاءتين المغطيتين للتمثالين وشرعت ترمق تعبيرات وجهي..

كان التمثال الأول يمثل رجلًا في منتصف العمر يرتدي قلنسوة وله شارب كث، وكان راكعًا على الأرض على ركبة واحدة يرمق في ذهول واضح شيئًا ما علي الأرض..، تمثال بالحجم الطبيعي ومتقن إلى حد أنني كدت أرى - في الحجر - مسام جلده وشعيرات ذقنه غير الحليق.

التمثال الثاني كان يمثل عجوزًا يرتدي ثياب النوم.. وقد جثا هو الآخر على ركبتيه.. وحنى رأسه ليرمق في ذهول شيئًا ما على الأرض.. وكانت يده اليمنى مرفوعة قليلًا كأنها تزيح الستار عن شيء ما...

تمثالان رائعان.. مريعان، ولقد بديا في ضوء المصباح المتراقص حولهما كأنما يتحركان.. وفي أعماقي تحرك ذلك الخوف الغامض غير المبرر الذي يحس به الناس تجاه التماثيل..، ذلك الخوف الغريزي الذي ينتابه كل طفل رضيع تقريب، منه دمية..، إنها النظرة الثابتة الموحية بالموت والموحية بالحياة في نفس الوقت.. هي بيت القصيد..

لكن ثمة حقيقية مؤكدة..

إن هذه الملامح والثياب عصرية تمامًا.. ولا تمت للفن الإغريقي بصلة..

* * *

ابتلعت ريقي.. وقلت لـ (ميخائيل) هامسًا دون أن أعرف لماذا أهمس:

- تماثيل متقنة.. لكنها ليست إغريقية أبدًا..

ابتسم في مرارة:

- أصبت.. هي ليست تماثيل إغريقية..

قالت (تابيثا) وهي تعيد تمثال الفأر إلى مكانه:

- بل الأحرى أن تقول إنها إغريقية.. لكنها ليست تماثيل!!

لم أفهم فحوى هذه العبارة الغريبة.. لذا واصلت ملاحظاتي:

- لقد اختار ذلك النحات أوضاعًا عجيبة لتماثيله.. فأرًا يتلوى ألمًا.. وراعيًا يونانيًا يجد شيئًا مفزعًا على الأرض.. وعجوزًا يبدو وكأنه كان يبحث عن الخف تحت الفراش حين وجد الشيطان نفسه..

- لقد قلتها..، وجد الشيطان تحت فراشه..!
- لا أفهم...

كان التمثالان يرسلان ظلالهما الغامضة الرهيبة على جدران الكوخ.. وكانت عينا (ميخائيل كاراداكيس) الزرقاوان تلتمعان بالرعب.. و(تابيثا) تبلل شفتيها بطرف لسانها في توتر.. حين بدأت أتذكر أسطورة قديمة رهيبة سمعتها أو قرأتها يومًا ما.. هذان إذن ليسا تمثالين..

وانتصبت الشعيرات في مؤخرة عنقي.. لقد فهمت..

- هل.. هل تعني.. أنهما رأيا..
- نعم..
- رأيا رأس..؟
- نعم.. رأيا رأس (ميدوسا)..!

* * *

٥ - أين هو؟

كنا واقفين خارج الكوخ المشئوم في ظلام الليل نلهث من الانفعال..

وكان الزوجان يتكلمان ويتعاملان كأنهما يعيشان هذا الموقف للمرة الأولى.. فقد استعادا الفزع الأول المبكر كاملًا..، أما أنا فكانت مئات الأسئلة تصطرع في ذهني وكل منها يحاول السبق إلى طرف لساني، إلا أن تزاحمها جعلها تذوب حتى لم أعد أذكر شيئًا منها...

إن معرفتي بـ (ميدوسا) سطحية جدًا لا تتجاوز معرفة أي طبيب بها.. علامة (رأس ميدوسا) التي تميز تليف الكبد وارتفاع ضغط الوريد البوابي ؛ حيث تتسع الأوردة البديلة المحيطة بصرة المريض معطية ذلك المنظر الشبيه برأس (ميدوسا) والثعابين تخرج منه..، وهو تشبيه (شاعري) أخر من تلك التشبيهات التي تملا كتب الطب واصطكها الأطباء الأوائل.. مثل علامة زهور السوسن.. وعلامة شجرة الشربين المقلوبة وعلامة عاصفة الثلج.. الخ...

بدأ (كاراداكيس) يحكي لي اسطورة (ميدوسا) الكابوسية بالتفصيل..، وقال لي إنه لو أن (ميدوسا) وجدت حقًا فإن موطنها - حتمًا - كان في إحدى هذه الجزر الصغيرة الواقعة ما بين (كريت) و(رودس)...

ثم إنه شرع يحكى لي ما حدث في تلك الليلة الرهيبة.. ليلة الخامس عشر من أبريل عام ١٩٦٦...

- كان أستاذي (ستافروس دندرينوس) يواصل الحفر في بعض المقابر الموجودة في الكهوف المتاخمة الشاطئ.. حين...

منعًا للملل لن أعيد كتابة هذه القصة ثانية.. فأنتم قرأتموها في الفصل الثاني.. لكن اسمحوا لي أنا أن أستمع إليها حيث إنها المرة الأولى لي كما تعلمون!..، والآن نأتي للجزء الجديد من القصة..

- في العاشرة مساء سمعنا صرخة..، صرخة رهيبة لم نسمع مثلها من قبل... وما أن خرجت من كوخي مع (تابيثا) حتى فهمت أنها صادرة من كوخ الأستاذ.. جرينا لهناك.. وكان بعض العمال قد سبقونا لدخول الكوخ عن طريق كسر الباب.. وفي غرفة نومه وجدنا المشهد العجيب..

فأران من الحجر أحدهما متهشم تمامًا (كأنه سقط من الجدار) على الأرض..، وجوار الفراش - منحنيًا وراكعًا كأنه يعاين شيئًا ما - كان تمثال الاستاذ الذي رأيته انت..، وكان هناك كيس من الخيش بجواره على الأرض ليس به أي شيء!!..

لقد تذكر العمال الأسطورة على الفور قبل أن أتذكرها أنا..، أما أنا فقد فتشت الكوخ أولًا بحثًا عن الأستاذ (الحقيقي).. فلم أجده.. ثم هرعت إلى دفتر مذكراته.. وكان مفتوحًا على آخر صفحة كان يكتبها لحظة أن حدث ما حدث..

كان يتحدث عن رأس (ميدوسا).. وعن كارثة أصابت رئيس عماله (نيكوس).. وعلى الفور أصدرت أوامري بأن يستدعي بعضهم (ديمتريوس) رئيس شرطة الجزيرة - والشرطي الوحيد بها كذلك - وحملنا المشاعل أنا وآخرون إلى المقبرة المشئومة حيث وجدنا التمثال الآخر راكعًا على ركبة واحدة كما رأيته أنت.. واضح أنه كان يحفر حين خرج له الرأس من بين الصخور والأتربة..

والآن.. إن خيوط القصة تتضح أكثر.. لقد وجد الأستاذ (ستافروس) ذلك الرأس وأخذه معه للكوخ..، إلا أن الفئران أسقطت الشيء من كيسه تحت الفراش.. وحين نهض ليعيده نسي واجب الحذر وأصابته اللعنة.. لكن.. أين ذهب الرأس بعد هذا؟!..

* * *

قلت لـ (ميخائيل) في حيرة:

- ولكن لو افترضنا أن (ميدوسا) وجدت فعلًا.. فكيف لم تتحلل بعد هذه القرون..؟

قال وهو يفتح باب كوخنا:

- لقد فكرنا في هذا..، إن هناك شيئًا ما في جو هذه الجزيرة أو تربتها يحول الجثث إلى مومياوات..، وليست هذه أول مرة نجد فيها جثة شبه سليمة برغم أنها تعود لما قبل عهد الميلاد.. لقد أعتدنا هذا هنا..

قالت (تابيثا) في ضجر:

- ثم إن القصة كلها غريبة ولا تخضع للمنطق..

دلفنا إلى الكوخ الذي بدا لي بهيجًا جدًا ودافئًا بعد ما رأيناه في الكوخ الأخر..، وجلسنا حول مائدة الطعام نرمق لهيب المصباح المتراقص وكل منا شارد الذهن يفكر في جانب من هذه القصة..

ابتسم (ميخائيل) في رقة.. وقال:

- يؤسفني أننا أقحمناك في هذه القصة على الفور.. لم يكد ينقضي اليوم حتى عرفت ما نعرفه نحن!..

- البوليس.

- ماذا..؟

- البوليس.. ماذا كان تعليقه على كل هذا..؟

نظر إلى أنامله مفكرًا.. ثم حدق في عيني:

- الواقع أن كلمة (بوليس) هي أكبر مما يجب..، فلا يوجد بهذه الجزيرة سوى (ديمتريوس بابادوبولوس) العجوز بربوه وشرود ذهنه وبندقيته العتيقة، وهو لم يحاول أن يبلغ الأمر لرؤسائه حتى لا يتهموه بالخرف.. بل ترك لنا المسئولية كاملة، ولهذا معنا مفاتيح الكوخ.. والتمثالان متروكان (لعهدتنا) إذا صح هذا التعبير..

- وهل سمعتم صرخة العامل..؟.. لم أعد اذكر اسمه..

- (نيكوس).. الواقع أن أحدًا لم يسمعها - إن كان قد صرخ - سوى الأستاذ (دندرينوس).. كنت أنا و(تابيثا) في المقهى.. وكان العمال قد عادوا لديارهم منهكين..

ثم تبادل نظرة مع زوجته.. وقال لها شيئًا ما باليونانية..، ثم نظر لي بعينيه الزرقاوين الحساستين (فيما بعد أدركت أن عينيه هاتين شديدتا الحساسية.. وأن انعكاس رعبه فيهما كان يكفي لإصابة من ينظر إليهما بالذعر هو نفسه)..

- والآن أعتقد أنك ستسألني عن المشكلة..

- هذا أكيد...

- لقد وجد الأستاذ (ديمتريوس) رأس (ميدوسا) ودفع ثمن اكتشافه غاليًا.. ليس هو فقط بل و(نيكوس) وفأران لم يستطيعا كبح شراهتهما... والآن كان ينبغي أن نجد الرأس تحت الفراش.. لكننا لم نجده...

إن لهذا معنى واحدًا.. هناك من دخل الكوخ في الدقائق التي تلت الصرخة... وكان سريع البديهة بحيث فهم على الفور ما هنالك وكيف يحصل على الشيء ويخفيه قبل أن يأتي الآخرون..

هناك شخص ما في هذه الجزيرة يملك رأس (ميدوسا)..، وبالطبع هو ليس عاشقًا للآثار اليونانية ولا من هواة الثعابين وليس عضوًا في جمعية أصدقاء (برسيوس)..

أنه شخص يعرف خطورة هذا الشيء.. ويعرف كيف يستفيد منه..

* * *

الليل.. والظلام.. والأحلام العجيبة..

من أعماق إمبراطورية الظلام (هيدز) حيث يجلس (بلوتو) على عرشه يرمق الأرواح المعذبة.. و(شارون) مبعوث الجحيم يركب زورقه عبر مياه نهر (ستيكس) حاملًا دفعة أخرى من الموتى...

(برسفونيه)4 الحسناء تركض نحوي..، تتوسل إلي أن أنقذها..، ولكن كيف؟!.. كيف أواجه أنا وحدي سلطان (بلوتو) الرهيب؟! الكلب يذوب.. وتشرق الشمس.. لكني وحدي يا (برسفونيه).. لقد أخذك لنفسه.. إن معي سيوفًا كثيرة وبندقية (ليزر) لا أدري كيف جاءت في جعبتي.. ولكنها صالحة.. أنا أحب الزيتون، والأسماك الشهية التي لا أعرف اسمها.. و(تابيثا) سخريتها قاسية..، كانت تداعب (ماجي) فلا تستطيع الرد وتحتشد الدموع في مقلتيها.. أما أنت يا (برسفونيه).. كلا.. هذا ليس أنت..!..، لا..!، ما هذه الثعابين في شعرك ولسانك المشقوق..؟ أنت لست (برسفونيه)..!.. أنت الجرجونة (ميدوسا).. وأنا لم أعد (رفعت).. أنا تمثال حجري يصرخ...

وتقلبت في الفراش غارقًا في العرق.. وابتلعت ريقي... أنا أعرف أن هذا كابوس.. وأن سببه هو أحداث اليوم وإفراطي في العشاء ونومي على ظهري.. لكني لا أستطيع التقلب.. أنا مجرد تمثال حجري.. لو تقلبت لانتهى كل هذا..

والآن يجتمع الرئيس الأمريكي (جون كيندي) مع (تيتو) و(زيوس) و(أورفيوس) لمناقشة هذا السؤال الخطير: ما نوع الأسماك التي أكلناها في العشاء..؟ لم يحضر (خروشوف) بسبب الحرب الباردة.. إلا أن (برسفونيه) ستكون زوجتي.. وستنظف الغبار من على تمثالي كل يوم..، الآن أطمئن. و...

ثم لا شيء..

* * *

في الصباح شعرت وكأن قافلة من العربات الحربية بقيادة (رمسيس الثاني) قد مرت فوق جسدي.. وكان رأسي يترنح، إلا أن ضوء الشمس البهيج أزال أشباح الليلة الماضية حتى أن ما قاله لي (ميخائيل) وما رأيته بدا لي مجرد كابوس آخر من كوابيس الليل.

وجلست على مائدة الإفطار مع الزوجين ألتهم الزيتون والجبن وأرشف اللبن الطازج شاعرًا أن اليوم سيكون حافلًا..

- هل نمت جيدًا..؟!

سألتني (تابيثا) في خبث، على أنني لمحت تحت عينيها انتفاخات تشي بأن ليلتها لم تكن أفضل..

طيلة الليل كان ثمة مؤتمر عجيب في رأسي بين (جون كيندي) و(تيتو) و(زيوس) لمعرفة نوع السمك الذي أكلناه أمس.. والاتفاق على مهر (برسفونيه) زوجتي القادمة!

قالت (تابيثا) وهي تصب لي المزيد من اللبن:

- أنت أفضل حالًا مني..، على الأقل كانت كوابيسك ذات موضوع.. أما أنا فقضيت ليلتي في خلط لا رأس له ولا ذيل.. اشرب...

قلت ل (ميخائيل) وأنا أرشف اللبن تاركًا شاربًا أبيض على شفتي العليا:

- ثمة سؤال واحد يا (ميخائيل) بخصوص موضوعنا..، إذا كان هناك من وجد الرأس قبلنا.. فكيف دخل الكوخ - وأنت تقول إن الرجال اضطروا لكسر الباب - وكيف خرج منه؟!.

- إن هناك نافذة كبيرة منخفضة في غرفة نوم الأستاذ وكانت مفتوحة بسبب الحر الشديد..، ربما دخل وخرج منها ذلك الشخص... وعلى كل حال كانت هناك آثار أقدام شديدة الوضوح جوار النافذة..

قالت (تابيثا):

- ثمة جواب اخر.. هو أن أول من وصل للمشهد من الرجال كان وحده لثوان، لكنها كانت كافية أن يطوح الرأس من النافذة ويتظاهر بالذهول بعدها..، فيما بعد يعود ليسترد الرأس..

هذا صعب.. لا أصدق أن سرعة البديهة والانعكاس الشرطي يصلان لدى شخص ما إلى هذا الحد.. يدخل قبل الآخرين.. ويرى المشهد.. ويفهم.. ويأخذ حذره.. ويقرر.. فيخفي الرأس..، هذا ليس بشريًا..

و على كل حال لا يوجد حل ثالث..

قال (ميخائيل) وقد عادت، عيناه الزرقاوان تبثان الهلع في روحي:

- ثمه حل رابع..

- وما هو..؟..

- أن تكون لهذه الرأس قدرة على التنقل..!..، أن تكون هي نفسها كيانًا حيًا مستقلًا.. وهي الآن حرة في هذه الجزيرة!!

* * *

7 - رعب في الجزيرة..

عوى الكلب مرتين مصدرًا تلك الزمجرة المنذرة بالويل.. ثم انقض على دون سابق إنذار بمجرد أن أفلت من قبضة (تابيثا) على المقود.. شرعت أتظاهر بالرزانة والوقار مانعًا نفسي من البكاء كالأطفال أو الفرار كالأرانب، لأني أعرف أن هذا سيزيد الأمور سوءًا.. شرع يتشمم بنطلوني وجيوب سترتي.. ثم بدأ يدرك أنني لست بالخطر الداهم على صاحبيه..، وبدأ تدريجيًا يتناسى وجودي كلية..

- (كوستاس)!.. تعال هنا..!

صاحت به (تابيثا) بلهجة صارمة.. فتركني - أخيرًا - وعاد لها في تؤدة.. غريب أمر هذا الكلب الذي يجيد الإنجليزية..، إلا أنني كتمت - بصعوبة - ما يعتمل في رأسي من خواطر حول المتعة التي يحصل عليها المرء من تربية هذا الببر...

- ماذا بك يا (رفعت)؟.. كنت أحسبك رفيقًا بالحيوانات الضعيفة...

- نعم.. الحيوانات الضعيفة.. الحيوانات التي قد تموت جوعًا لو لم نرفق بها.. أما هذا الوحش فلن يجوع أبدًا.. إنه سيفترس أول إنسان يكون أمامه عند شعوره بأولي علامات الجوع..!.. لا مشكلة إذن..

قالت في دلال ممزوج بالعتاب وهي تدعك اذني (الببر):

- لا تقل هذا عن عزيزي (كوستاس).. إنه رابطتي الوحيدة (باسكتلندا)..

وأضافت مبتسمة:

- كان اسمه (ماكسل).. وكان الكلب الأثير عند أبي..

- لهذا يفهم الإنجليزية إذن..!

وتأملت الكلب قليلًا.. ثم سألتها:

- لم أره أمس...

- لم نرد أن نضايقك.. لذا حبسناه في بيته..



ثم انقَض علىّ دون سابق إنذار بمجرد أن أفلت من قبضة
(تابيثا) على المقود ..

هنا خطرت لي فكرة..، لو أن هذا الوحش يجيد ربع ما تجيده الكلاب التي في حجمه وتحترم نفسها.. فهو قادر إذن على تقفي الأثر بالشم..، لو أنه شم الكيس الخيشي الذي كانت به رأس (ميدوسا) فهو قادر على مسح الجزيرة كلها والعثور عليه..

إنها الطريقة الوحيدة التي أعرفها للعثور على رأس مختف..

قلت لها فكرتي.. كنا واقفين على الشاطئ نرمق أمواج بحر (إيجه) المتسابقة لترتمي عند أقدامنا الحافية... تفكرت حينًا.. ثم بدت عليها علامات السرور.. إنها فكرة لا بأس بها حقًا.. ولئن كان ذلك الشيء مختفيًا في كهف.. أو في بيت.. أو في باطن الأرض فهي تعرف أن (كوستاس) العزيز سيجده... ولكن كيف لم تخطر لك هذه الفكرة البديهية من قبل يا (تابيثا)؟..

- لأننا أغبياء يا عزيزي (رفعت).. ولأنك عبقري..

قالتها في سخرية واضحة... لو أن أية امرأة أخرى في العالم قالت لي هذه العبارة لامتلأت زهوًا.. لكني تعلمت مع (تابيثا) أن أكون حذرًا..

وعلى مرمى البصر كانت سفن الصيد العتيقة متراصة فوق رمال الشاطئ لتجف، ومجموعة من الأطفال يلعبون..، وصياد عجوز يدخن (النارجيلة) التركية الشهيرة..، وبعض الشبان يعزفون على آلة وترية ما، لا أعرفها.. سألتها:

- هل هذه هي (البوزوكي)؟

- كلا.. هذه هي (السانتوري).. ألم تقرأ تحفة (نيكوس كازنتزاكيس) (زوربا اليوناني)؟!!..

- في الواقع.. نعم.. لم أقرأها..

قالت وعيناها تضيقان انبهارًا:

- إنها آلة رائعة.. وترغمك إذا ما حاولت التعبير عن نغماتها أن ترقص رقصًا يونانيًا موقعًا..، إن كل آلة موسيقية عند كل شعب ترغمك على أن ترقص كأهلها.. الطبول تجعلك ترقص كالأفارقة.. الناي والطبل يجعلانك ترقص رقصًا مصريًا.. الجيتار يجعلك ترقص كالإسبان.. لا حيلة لك في ذلك لأن تكوين الآلة يسيطر على جهازك الحركي ويطبعه بطابعها..

كنت أتأمل في عبارتها حين وصل (ميخائيل) حاملًا سلة من القش اشتراها من بعض الصيادين وكانت مليئة بالأسماك..، ألقى بسمكة للوحش المدلل التهمها وهي في الهواء بعد..، وفي فتور سألنا:

- تتحدثان عن (ميدوسا)..؟

- كلا.. بل عن الآلات الوترية في الحضارة الإغريقية..!

قال كلمة يونانية ما، واضح أنها تعادل كلمة (إحنا في إيه ولا إيه؟) في العربية، ثم جلس على الرمال.. وشرع يدندن لحنًا حزينًا..، بدأت (تابيثا) تفتح مدفعها الرشاش عليه مطلقة سيلًا من العبارات اليونانية يتخللها اسمي واسم كلبها العزيز - ولا فخر - مما أكد لي أنها تخبره بفكرتي..

نظر لي في فهم.. وابتسم مؤيدًا..، ثم اقترح أن ننفذها هذا المساء حين يتكفل الظلام بإراحتنا من الأسئلة..

* * *

وهكذا شرعنا ننفذ خطتنا الصغيرة.. عدنا إلى الكوخ وجعلنا الكلب يتشمم كيس الخيش الذي وجدوه جوار تمثال الأستاذ..، ثم أمسك (ميخائيل) بالمقود وشرع يحث السير خلف الكلب المتحمس.. كان المساء قد بدأ يدنو مرة أخرى..

خرجنا من الكوخ وبدأنا السير عبر رمال الشاطئ وسط النظرات الفضولية التي تقول بصراحة: ماذا دها هؤلاء المجانين؟!..، وبدأ الكلب يتحفز.. ثم دار حول مجموعة الكهوف المتاخمة للشاطئ.. واختار أحدها ودخل..

قربت (تابيثا) الكيس من أنفه بيد ترتجف لتتأكد من أن ذاكرته لم تضعف.. إلا أنه واصل السير بثقة إلى ما يشبه الفتحة في جدار الكهف.. ودخل.. ونحن خلفه.. لكن الظلام كان دامسًا بالداخل..

أشعلت قداحتي فأزالت العتمة قليلًا.. وعلى ضوئها المتراقص رأينا الكلب يحفر في رقعة ما من الأرض وهو يزوم بتلك الطريقة المفزعة.. وكانت أذناه متصلبتين.. وشعر عنقه منتصبًا.. وذيله منتفشًا.. لقد أحس بها..!..

قرب (ميخائيل) يده يحاول جذب المقود إلا أن الكلب كشر عن أنيابه وأصدر زمجرة منذرة فأبعد هذا يده فورًا..، همست (تابيثا) في رهبة:

- لا تحاول يا (ميخائيل)..!.. سيعضك.. إنه ليس في حالة طبيعية..!

رهيب هو هذا المشهد.. والنظرة الزائغة المبهرة في عين الكلب.. و... وهنا تداعى لخاطري سؤال:

- هل هذا هو الكهف حيث.. حيث وقع الحادث؟

- نعم هو.. ألم تفهم بعد؟!

- لكن هذا يعني أنه يشم أثر الرأس في الأرض.. وليس الرأس نفسه..

- لا أعتقد.. لابد أن الرائحة قد زالت الآن.. ولن تكون أقوى من الرائحة العالقة بالكيس نفسه..

- وهذا يعني..

قال (ميخائيل) وهو يطفئ لهيب القداحة بأنفاسه:

- يعني أن بقية (الشيء) موجودة هنا.. أو أن هناك رأسًا آخر تحت الأحجار.. أو أن هذه المقبرة خاصة بشقيقتي (ميدوسا).. لا أدري حقًا لكن الشيء المؤكد هو أن الوقت قد حان كي نغلق عيوننا..!

* * *

وهكذا تركنا الكلب حيث هو وهرعنا متخبطين إلى كوخنا نبغي حماية لعيوننا..، أتى (ميخائيل) بعصابتين للأعين من التي يضعها ذوو العيون الحساسة للضوء عند النوم ؛ أما أنا فوجدت قطعتين من القطن صالحتين لأن أدسهما بين جفوني وزجاج النظارة.. ثم انطلقنا كالقذائف نبغي الوصول للكهف قبل أن نسمع..

العواء..!.. العواء المريع المتحشرج الذي كنا نخشى أن نسمعه..، جرينا للكهف وصوت (تابيثا) تنهنه بالبكاء وهي تجري جواري وتردد مرارًا لا حصر لها:

- ما كان يجب أن... ما كان يجب أن....

وهنا - أمام الكهف - وجدنا حشدًا من السكان يقفون واجمين.. لم يجرؤ أحدهم على الدخول في وكر الشيطان هذا..، شققنا طريقنا.. وارتدى الزوجان القناعين، أما أنا فحشرت، قطعتي القطن خلف الزجاج حتى لم أعد أرى أي شيء.. لربما كان إغماض عيوننا كافيًا لكن هذا لا يضمن لحظة شرود ذهن أو انعكاس لا إرادي يرغمنا على فتحها..

وهنا بدأ سباق العميان...

وسط صخور الكهف نزحف ونحبو نحو المكان الذي سجلته ذاكرتنا..، وسمعت صوت (تابيثا) الملتاع يصرخ:

- إنه هنا!.. لقد وجدته..!

مددت يدي تجاه صوتها فاصطدمت بشيء أملس وبارد.. حجر..، تحسسته في رزانة.. الفم والأنياب والقدمين.. إنه تمثال كلب!.. لا شك في ذلك..

- يا عزيزي (كوستاس).. أنا السبب.. أنا.. شرعت تنشج في الظلام.. أكاد أراها وهي تحتضن التمثال المرعب محيطة عنقه بذراعيها ومسندة رأسها على كتفه..، لم يعد منها نفع بعد الآن.. أما (ميخائيل) فلم يكن عنده وقت لهذا السخف.. إذ سمعت صوته في الظلام يهمس:

- ها هو ذا الرأس يا (رفعت).. لقد وجدته..!.. مد يدك نحوي...

مددت يدي فاصطدمت بفتحة.. فتحة أنف.. تحتها شارب.. و...

- ليس هنا أيها الأحمق!.. هذا أنفي..!..، أنزل يدك قليلًا.. لأسفل.. هكذا.. والآن ها هو ذا..!.. هل تحس به؟!..

في الظلام أشعر به.. مستجمعا كل حاسة (التقدير الفراغي) عندي أتحسسه.. الأنف المجدوع.. الفم ذا الأنياب الحادة.. ثم.. عشرات الأشياء الطويلة الملتفة حول الرأس ولا يمكن أن تكون سوى ثعابين..

إنه هو..

* * *

فتحت له الكيس فرفع الشيء وألقاه فيه وأحكمنا ربطه.. كانت رائحة الشيء قوية وأعتقد أن كل عطور العالم لم تكن قادرة على إزالتها من أيدينا..

والآن يمكننا أن نخرج.. لم تزل العصابات من على أعيننا فمن أدرانا أننا لن نجد أمامنا رأسًا آخر خارجًا من التربة..؟..، حملت الكيس في يدي.. وسمعت صوت ضجة فهمت منها أنهما يتعاونان على إخراج تمثال الكلب من المقبرة..

والآن نشم هواء المساء المالح فنزيل عصاباتنا..

أهالي الجزيرة يحيطون بنا يرمقوننا في وجوم..، وعيونهم متصلبة على الكيس الذي أحمله وعلى تمثال الكلب الثقيل الذي تعاون الزوجان على حمله.. تمثال لكلب يحفر في الأرض ويصرخ..، هذا الصمت الثقيل ينذر بشيء ما..

بدأنا نشق طريقنا بين صفوفهم..، وفجأة برزت لنا امرأة عملاقة ترتدي السواد وشرعت تطلق علينا سيلًا من الكلمات اليونانية التي لا تمت للمجاملات بصلة حتمًا..، قالت لي (تابيثا) وهي تنشق لمنع دموعها من أن تسيل من فتحتي أنفها:

- إنها (ميليسا).. زوجة (نيكوس)..
- نعم.. نعم أرملة ذلك العامل.. هذا واضح..
- إنها تقول إن الشؤم حل بالجزيرة منذ قدوم الشياطين.. شيطان المدينة والمرأة الأجنبية التي ترتدي البنطلون.. و... هناك بعض الشتائم طبعًا لكني لن أترجمها، وتقول إن الشيطان الأصلع ذا النظارة قد جلب المزيد من الشؤم..!
- لابد أنها تتحدث عنى....
كانت المرأة صارمة الوجه.. وكان العرق واللعاب يتناثران من فمها وهي تشير للكيس ثم للرجال..، وتقول كلامًا كثيرًا..
- إنها تقول إن (الشيء) سيجلب الشؤم علينا وعلى أولادنا.. وأن الرجال لو كانوا رجالًا حقًا لرموه في البحر للأسماك ورمونا نحن أيضًا..
وتواصل المرأة الصراخ في حين جفت دموع (تابيثا) تمامًا والتمعت نظرة التحدي في عينيها.. وواصلت الترجمة:
- إنها تقول: فليمزق ألف مخلب أحشاء من بذر البذرة التي منها نبتت الشجرة التي صنع كوخنا من خشبها..!
شاعرية جدًا هذه اللغة اليونانية.. ذكروني أن أتعلمها فيما بعد حين تتحسن الظروف.. أما الآن فالموقف لا يثير الطمأنينة أبدًا..
وهنا ثارت (تابيثا) وصاحت في المرأة مطلقة بعض القذائف اليونانية شديدة الانفجار.. ردت المرأة بقنبلتين هيدروجينيتين.. وكانت (تابيثا) على وشك استعمال قنابل (النيوترون) حين اشتبكت معها المرأة بالضرب واللطم والصفعات والعض..، هل شاهدت في حياتك صراع قطين؟.. هل تستطيع - لو جرؤت - أن تفصلهما؟!.. هذا هو ما حدث وقتها... (ميخائيل) و(أنا) من ناحية والرجال - الذين كانوا متعقلين غير مبالين للعنف - من ناحية أخرى.. الكل يحاول إنهاء صراع الديناصورين هذا..
وقبل أن أفهم ما حدث اندفعت قبضة المرأة تلكمني في أنفي، وانتزعت الكيس الخيشي من يدي.. وهي تسبني بما لا أفهمه...
لكن الكيس كان مهترئًا.. مهترئًا إلى درجة أنه لم يتحمل هذا الجذب!!

* * *

٧ - الشيء...

[ترى هل تألموا؟.. إذا لم يكونوا قد تألموا فلماذا صرخوا؟!..]

* * *

[إنها إغريقية حقًا.. لكنها ليست تماثيل!]

* * *

تمزق الكيس.. ولمحت بطرف عيني شيئًا رماديًا بشعًا يبرز منه حيث سقط على الرمال..
وكان رد فعل (ميخائيل) هو الأسرع إذ صاح باليونانية منذرًا.. ثم مزق أزرار قميصه وخلعه وألقاه - وهو يغمض عينيه - على الشيء..، ولفه في القميص بإحكام وأمسك به..
أما الرجال الذين انحبست أنفاسهم للحظات فقد تنفسوا الصعداء وعادوا يواصلون تخليص المرأتين..، وهنا برز عجوز له شارب كث أشيب.. وأسنان نخرة.. يحمل بندقية قديمة جدًا من القرن الماضي، وكان يرتدي مثلهم تمامًا.. إلا أن طريقته المتمرسة في فض الشغب.. واللهجة الآمرة التي جعلهم يتفرقون بها جعلتني أدرك أنه هو رجل الشرطة في هذه الجزيرة (لا أذكر ماذا كان اسمه بالضبط فمنذ وصلت اليونان وأنا غارق في دوامة لا تنتهي من حروف الواو والسين).
- (ديمتريوس بابادبولوس)..
قالتها المرأة وهى تطلق سراح (تابيثا).. إذن كان هذا هو اسمه.. إنها تشكو له شيئًا ما، وتطالبه بأن يتخذ اجراءًا حاسمًا ؛ إلا أنه لم يعد مهتمًا بالأمر.. بل ولم يبد على استعداد لسماع أي شيء. وتفرق الواقفون على حين أخذت المرأة تلوح بقبضتها
قال الشرطي شيئًا ما لـ (ميخائيل)، ثم نظر لي في ريبة.. وانصرف..

* * *

كان تمثال الكلب قد تهشم حين هوى على الأرض.. لهذا حملت (تابيثا) رأس التمثال ؛ وعدنا لكوخنا واجمين.. أنفي ينزف.. ووجه (تابيثا) مليء بالخمشات.. و(ميخائيل) عاري الجذع يقبض على قميصه الملتف حول الشيء..، إنها لحظات كئيبة لكننا على الأقل سنعرف...
سنعرف..

* * *

وفي الكوخ وضعنا الكيس الكئيب على منضدة.. ثم أحضرت (تابيثا) صندوقًا خشبيًا له مفصلان يتيحان فتحه وغلقه.. وله قفل محكم ؛ ثم إنها أفرغت ما في القميص وبقايا الكيس داخل الصندوق وهي تحول وجهها تجاه الحائط.. ثم خلعت ساعتها..

والآن حان وقت البحث العلمي..

أحضرت كاميرا ذات فلاش وثبتتها على حامل..، ثم أنها أحكمت تصويبها على الجانب الذي يفتح من الصندوق.. وأدارت مفتاح التوقيت الذي يتيح التقاط صورة بعد لحظات، ثم هرعت خلف الصندوق بحيث لا ترى ما بداخله.. وفتحته أمام عدسة الكاميرا.. و.. بعد لحظات.. كليك!.. والآن تغلق الصندوق وتهرع للكاميرا لتستخرج الفيلم..، وتقول:

- إن عندي هنا محاليل التحميض كلها.. انتظراني.. وكورت الفيلم في قبضتها واندفعت إلى غرفتها..

* * *



ثم هرعت خلف الصندوق بحيث لا ترى ما بداخله .. وفتحته
أمام عدسة الكاميرا ..

كنت جالسًا أنا و(ميخائيل) فقط.. لكن شعورًا مروعًا كان يداهمني أننا أربعة... الحضور القوي الذي لا ينكر لـ (ميدوسا) في صندوقها الخشبي.. ولرأس الكلب الصارخة حيث وضعتها (تابيثا) على المنضدة..، قال (ميخائيل) في شرود:

- ما رايك في كل هذا..؟

نظرت له.. ومددت يدي أشعل سيجارة.. كان منهمكًا فلم يستطع حتى أن يعترض:

- لا أصدق حرفًا...

قلتها ونفثت الدخان..، وأردفت أمام عينيه المندهشتين:

- إن كل القصة مبنية على أساس وثني هو أن (زيوس) كان له وجود.. وكلانا يعرف أنه لا (زيوس).. ومادام لا (زيوس) فلا (ميدوسا).. هذا حتمي ومنطقي جدًا..

- أنا لا أتحدث عن (زيوس).. لربما كان هناك كائن حقيقي اسمه (ميدوسا) له القدرة على تحويل الناس الحجر، وحاول القدماء تفسير وجوده على هذا البصيص الوثني..، هذا هو ما أعنيه..

- ومتى وجد كائن يستطيع تحويل الناس لحجر..؟!

- لماذا لا نفترض أن هناك إشعاعات معينة محولة للمادة تخرج من عينيه.. مثل عمل (المدافع النووية) التي تحول عنصرًا لآخر بقذف البروتونات.. هل تنكر عمل (روذرفورد) في هذا الصدد..؟

ضحكت في سخرية أثارت حنقه حتى سألني في ضيق عما يضحكني، فقلت:

- إنها تلك المحاولة المفتعلة لإكساب الخرافات ثوبًا علميًا..، محاولة تفسير الطالع - مثلًا - باستخدام قوانين (نيوتن).. أنا أومن بالسحر لأن الأديان السماوية أجمعت على وجوده ؛ لكني لا أؤمن برأس (ميدوسا) لأنه يناقض ما أعرفه دينيًا وعلميًا.. ولم أسمع عن كائن حي تعمل عيناه (كمدفع نووي)...

- وكل هذا الذي يحدث وحدث..؟

فكرت حينًا.. ثم قلت شارد الذهن:

- لا أعرف.. هناك تفسير ما يمكن ابتلاعه.. لكن لا تحدثني أبدًا عن لغة (زيوس) ثم تحاول أن تبني على ذلك صرحًا محكمًا من المنطق..

- على كل حال سترينا الصورة كنه هذا الشيء..

* * *

عادت (تابيثا) من غرفة التحميض ممسكة بصورة لم تزل مبتلة بين أناملها..

- ما هي الأخبار..؟

قالت وهي تبعد الصورة عن متناول يدنا وترتدي ساعتها وخاتمها:

-لا أعرف.. بمجرد أن بدأت النسخة الإيجابية تتضح لي ؛ كففت عن النظر.. لن أجازف..

قلت لها مبتسمًا:

- ولماذا؟.. هي مجرد صورة.. إن صورة باكتيريا الطاعون لا تسبب الطاعون..

- لا أجزم بشيء..، إن الأمر كله خارق للطبيعة، ولربما كانت هناك إشعاعات ما يتشر بها الفيلم وتعكسها الصورة...

هذا حق..، والواقع أن حذرها قد راق لي..!، والآن أعيد خواطري القديمة عن (فلسفة الخوف).. برغم ثقتي في أن الأمر كله خرافة.. وبرغم ما قلته لـ (ميخائيل) منذ دقائق وكل عباراتي المنطقية المحكمة فإنني لن أجرؤ أبدًا على إخراج هذا الشيء من صندوقه ولا على مجرد النظر لصورته!!.. إنني لا أومن بتاتًا بوجود مصاصي دماء لكني حتى هذه اللحظة - أجذب الملاءة حتى قمة رأسي لأحجب أوردة عنقي عند النوم.. أعترف بهذا.. الخوف غير المبرر.. الذعر.. الهلع الحيواني.. هذا هو ما لم أفهمه بعد..

والآن تتجه (تابيثا) إلى إحدى غرف الكوخ، وتعود حاملة قفصًا فيه عصفور زينة رقيق..، وتحمل الصورة وتقربها من ذلك السجين.. فيرمقها في براءة ولا يتحول إلى صخر..

وهكذا كانت تلك هي الإشارة لنا كي ننقض على الصورة كي نشاهد - لأول مرة - كيف يبدو هذا الكابوس..

* * *

كانت الصورة بالأبيض والأسود تمثل صندوقًا تمسك به يدا امرأة ترتدي خاتمًا،(تابيثا) طبعًا، وبداخل الصندوق كان ثمة وجه.. أبشع وجه رأيته في حياتي حتى أنه ليشابه وجه قرد..، الأنياب تبرز من شفتيه.. والتجاعيد تملأ ما حول شفتيه وركني عينيه.. والعينان جاحظتان شاخصتان..

أما الشعر فلم يكن شعرًا.. كانت مئات الأفاعي تلتف حول نفسها وتنحدر على الجبين..، أما الجلد فكان مهترئًا متسلخًا...

قلت مبللًا ريقي:

- من المؤكد أن الكثيرين من الخطاب لم يتقدموا لطلب يدها..!

- ماذا تقول..؟

- لا عليك يا (ميخائيل).. لقد كنت أمزح..

كان الزوجان ينظران للصورة مسحورين وقد فقدا النطق تقريبًا.. إن هذا الذي نراه الآن يتحدى كل منطق لدينا..، منذ سنوات عشر وقفت أمام مومياء (دراكيولا) ذات الأنياب شاعرًا بنفس الحيرة وعدم الفهم..، وتبلد فكري على هذا النحو حين أخرج وحش (لوخ نس) عنقه الطويل من تحت الماء..، وارتجفت ساقاي هكذا حين سقطت تحت المذءوب فوق الثلوج وشعر صدره الكث يلتصق بفمي وصوت خواره يصم أذني.. لكني - ودائمًا- كنت أجد تفسيرًا أرتاح إليه.. فما هو تفسير هذا الذي أراه الآن..؟؟

* * *

قالت (تابيثا) وهي ترتجف ونحن جالسون في المطبخ نتبادل النظرات الحائرة:

- ترى هل كان الرأس الأول بهذه البشاعة..؟

- رأس أول..؟

- بالطبع..، كان هناك رأس وجده الأستاذ وسرق.. الآن لابد أن هذا رأس ثان!!..

هذا منطقي.. إذ كيف عاد الرأس لمقبرته مرة أخرى..؟!.. فلنرتب أفكارنا يا رفاق ودعونا لا نفقد صوابنا.. ما هي الاحتمالات؟!

الاحتمال الأول - تقول (تابيثا) - أن هذه هي جزيرة (الجرجونات الثلاث) نفسها.. وبالتالي يكون هناك رأسان حقًا..، وبالتالي فإن هذين الرأسين يخصان شقيقتي (ميدوسا) اللتين قتلهما شخص ما في زمن لاحق لزمن الأسطورة.. ومعنى هذا أن رأس (ميدوسا) نفسها ما زال مفقودًا..

الاحتمال الثاني - يقول (ميخائيل) - ان هذه هي جزيرة (كاسيوبيا) وأن المقبرة هي مقبرة (برسيوس) نفسه حيث دفنوا الرأس معه.. وبالتالي فإن هناك احتمالين:

١- أن يكون سارق الرأس قد أعاده لهذه الحفرة علمًا منه بخطره.. وهذا يضع أرملة (نيكوس) على رأس قائمة المشتبه فيهم..

٢- أن يكون الرأس مسحورًا وله قدرة ذاتية على التحرك..!

الاحتمال الثالث - أقول أنا - أن تكون كل هذه ألعوبة مدبرة من الأستاذ مع رئيس عماله طلبًا للشهرة خاصة وأنتما تقولان إنه عاش مغمورًا..

هل يوجد احتمال رابع..؟!، لم يبد على أحدنا أنه يملك ما يضيفه..

إننا نملك عدة محاور تتحرك عليها...

أولًا: عليك يا (ميخائيل) أن تتفحص المقبرة بدقة متناهية أملًا في أن تجد ما يدل على صاحبها..

- إنها مهمة صعبة.. فالفراعنة كانوا يحبون الثرثرة ويكتبون كل شيء عن صاحب القبر على الجدران ؛ أما الإغريق فكانوا يكتفون ببعض الرسوم غالبًا..

ثانيًا: علينا أن نتقصى أمر كل من دخل الكوخ بعد أن صرخ الأستاذ في تلك الليلة.. من دخل بعد من.. وماذا فعل..

ثالثًا: يجب أن نسلم الراس للسلطات..، إن العلم - بصرامته القاسية - هو الذي سيثبت أو ينفي حقيقة هذا الشيء..

رابعًا: يجب أن نواصل الحفر في التربة.. لربما وجدنا جسدي الجرجونتين الباقيتين.. أو سيف (برسيوس) أو أي شيء من هذا الهراء يساعدنا على الفهم...

- سنعتمد على أنفسنا في هذا الجزء لأن هؤلاء العمال سيذبحوننا قبل أن نطلب منهم دخول المقبرة..

خامسًا: يجب إحكام غلق هذا الصندوق وإخفائه لأن محاولات عديدة ستتم لسرقته والتخلص منه.. أو ربما لسرقته والاستفادة منه..، إن من يملك رأس (ميدوسا) يمكنه أن يواجه جيشًا دون خوف..، يقتحم البنوك.. يواجه الشرطة.. عالمًا أن من يفتح عينيه ليراه سيتحول إلى حجر..!

* * *

والآن - وقد رتبنا خواطرنا - حان وقت النوم..

المشكلة هي أن الرأس يجب أن يبيت في غرفة أحدنا للتأكد من أنه لن يسرق..، نظرت لـ (ميخائيل) في ترقب.. فصاح في جزع:

- لا يا سيدي..!.. لا تنظر إلي...

- ولم لا..؟

- لأنني أومن أن هذا الرأس يتحرك فلن آخذه لينام معي!
- ولكن..
قالت (تابيثا) وقد التمعت نظرة التحدي الساخرة في عينيها:.
- ولماذا لا تأخذه أنت؟.. ألست ترى الأمر كله ألعوبة؟!!
- بلى.. ولـ.. ولكن...
- حسن.. أنت شجاع حقًا يا (رفعت)، أما أنا وزوجي ففأران مذعوران..
- لـ.. لا.. أ... أعنى..
- إذن قضي الأمر.. عمت مساء.. ولا تنس مسح الدم من تحت أنفك!..
وهكذا وجدت نفسي داخلًا حجرتي حاملًا الصندوق الخشبي يترجرج ما به من حمل..!..
مشكلتي هي عدم قدرتي على أن أقول لا بصوت مسموع.. ستكون ليلة طويلة حقًا..!!

* * *

٨ - ليلة الرعب..

عقارب الساعة تدق..

الظلام الدامس يغمر الحجرة..، والصندوق الكئيب ملتفًا بالسواد يغفو فوق منضدة في ركن المكان..، المشكلة هي أن هناك ضوءًا خافتًا لا أدري مصدره يضيء الغرفة باعثًا آلاف الظلال وآلاف الاحتمالات..، هو ليس ذلك الظلام الأملس المسطح الذي أرتاح إليه..

[هناك شخص في هذه الجزيرة يملك رأس (ميدوسا)]..

[ترى هل تألموا..؟.. إذا لم يكونوا قد تألموا فلماذا صرخوا؟]..

[لا تحاول يا (ميخائيل).. سيعضك.. إنه ليس في حالة طبيعية]..

[الشيطان ذو النظارة قد جلب المزيد من النحس..]..

هل حدث كل هذا في يوم واحد؟!.. كأنه دهر..، أنا مرهق.. لكنني - كما تقول القصيدة الإنجليزية - ما زالت لدى أميال يجب أن أقطعها ومواعيد يجب أن أحفظها قبل أن أنام...

لم الخوف؟.. ألست واثقًا من منطقك العلمي؟.. لم لا تنهض وتضيء نور المصباح وتفتح الصندوق لتتأمل هذه السخافة عن كثب؟!.. لكنك جبان يا د. (رفعت).. جبان..، كنت دائمًا تعزي نفسك عن ضعفك بامتلاكك العقل الراجح والشجاعة.. والآن ها هو ذا الاختبار الأعظم لعقلك وشجاعتك..، افتح الصندوق ما دمت لا تؤمن بالأسطورة.. هيا..!

* * *

كان العرق البارد ينحدر على جبيني.. والصراع في روحي قد بلغ الذروة.. نهضت في تثاقل من الفراش.. واتجهت إلى مصباح الكيروسين وأشعلته..، ثم اتجهت نحو الصندوق.. قلبي يخفق كالطبل في أذني.. ودمي يفور.. تحركي يا يدي.. أنت ملكي ويجب أن تمتثلي لإرادتي...

لا تفعل!.. بربك لا تفعل..!

حاستي السادسة تصرخ مهيبة بي أن أتراجع.. يدي تتردد.. ثم تتقدم.. أرجوك!!..

هكذا.. أعالج القفل..، الباب الخشبي.. لم تزل هناك فرصة للتراجع.. لكني لن أعود أدراجي أبدًا.. هيا يا يدي..

وانفتح الصندوق..

وبيد ترتجف.. رفعت المصباح ليضيء ما بداخله..

* * *

لم يكن هناك شيء..!

بمعنى أدق.. لم يكن هناك رأس..، وللمزيد من الدقة كان هناك رأس لكنه ليس رأس (ميدوسا)..، بل رأس الكلب الحجرية التي عادت بها (تابيثا) من المقبرة..!!..



لم يكن هناك رأس .. وللمزيد من الدقة كان هناك رأس لكنه
ليس رأس (ميدوسا) ..

أين ذهب هذا الشيء؟..
وغلى الدم في عروقي.. إن هناك من يحاول أن يجعلني أحمق..، هذان الزوجان اللعينان يمارسان ألعوبة ما.. ولكن متى وكيف؟.. لقد ظل الصندوق أمامي طيلة الأمسية.. لم يدخله شيء ولم يخرج منه شيء..، لقد دخلنا المطبخ وتركناه وراءنا دقائق.. لكن كلا الزوجين لم يغب عن بصري ثانية واحدة..
والآن - وأنا واقف أرمق الصندوق في غباء - بدأ التفسير الوحيد لكل هذا يتراءى لي بوضوح تام.. (برغم أن كل خلية في عقلي ترفضه).
هذا الرأس يملك القدرة الذاتية على الحركة!

* * *

وهكذا تناسيت حذري وشرعت أفتش الحجرة في عصبية بالغة.. لا أعتقد أن هناك من بحث عن رأس بهذه الدقة والحماسة في التاريخ.. لا شيء..
خرجت من الحجرة.. وأنا أحمل المصباح في كفي..، وقرعت باب حجرة الزوجين دون كياسة كأنني شرطي يقرع باب مجرم..، انفتح الباب وبرز لي (ميخائيل) مذعورًا وخلفه (تابيثا) تضم الروب حول جسدها..
كان الرعب قد بدأ ينطلق من عينيه حتى قبل أن أحكي شيئًا.. هاتين العينين اللعينتين...، ما إن ترى الرعب فيهما حتى يقتلك الرعب أنت نفسك.. هذا نوع آخر من الخوف.. أن ترى الخوف في عيون الآخرين حتى دون أن تفهم ما الذي أفزعهم...
- الرأس.. اختفى..
- ماذا..؟
أشرت بيدي في حركة توحي بالهباء:
- لا رأس.
- هل جننت؟!
قالت (تابيثا) في رزانة:
- لحظة يا (رفعت).. تقول إن الرأس اختفى.. وأنت لم تغفل عنه لحظة.. أليس كذلك؟..
- بلي..، لقد فتحت الصندوق فلم أجد سوى رأس الكلب الحجري..
نظر لها زوجها نظرة معناها (ألم أقل لك؟)..، ثم شرع يمارس ذلك العمل الأحمق الذي لا بد أن يمارسه.. تفتيش الكوخ دون جدوى طبعًا.. لا دخلاء.. لا نوافذ مفتوحة.. لا رؤوس..
لقد طار الشيء والله - تعالى - يعلم أين وكيف اختفى..
- والآن..؟!
- أعتقد أن من الأفضل أن نواصل النوم.. لا يوجد ما يمكن عمله في هذا الظلام.. ثم إن البحث عن هذا الشيء خطر جدًا..، إن العثور عليه فجأة سيتسبب في مأساة..، ولربما كان من الحكمة إطفاء هذا المصباح..

ارتجفت (تابيثا).. وضوء المصباح يعكس ظلال وجنتيها على عينيها مما أكسبها مظهرًا شيطانيًا.. وهمست:

- بالفعل.. إن النوم هو السبيل الوحيد المؤكد لإغلاق أعيننا..

ودون أي اتفاق ودون أية كلمة أخرى تصرفنا بالطريقة الوحيدة المثالية لهذه الظروف.. حمل كل منا مرتبته إلى الصالة وكومنا المراتب في دائرة..، إن الفكرة التي دارت في أذهاننا في نفس اللحظة هي قضاء الليل معًا..

سيكون هذا - حتمًا - أكثر أمنًا..

- أتمنى لكما أحلامًا سعيدة..!

هكذا قلت وأنا أمدد جسدي على المرتبة فسمعت - في نفس الوقت تقريبًا - سبة إنجليزية من (تابيثا) وسبة إغريقية من زوجها..

مشكلتي هي أنني مهذب مهما ساءت الظروف..!

* * *

هل أشرق الصباح؟..

بالطبع لا... إن هذه الليلة لن تنتهي أبدًا..

والآن يزداد الأمر سوءًا إذا عرفنا أن (كاراداكيس) يتكلم في أثناء النوم، وهو يعاني كابوسًا مروعًا في هذه اللحظات..، إنه يصرخ.. ويتوسل باليونانية.. يهمس.. ثم يصرخ::

كيف لا تسمع هذه الحمقاء كل هذا الضجيج؟!.. والآن أنا بين خيارين.. إما أن أوقظه وإما أن أخنق أنفاسه للأبد بوسادتي..، تحركت على ركبتي حتى وصلت جواره وشرعت أهزه في غلظة كأنني (أخص) قربة من اللبن..

- (كاراداكيس).. نم على جنبك... هيا!..

شرع يهرف بكلام كثير لا أول له ولا آخر.. ثم تقلب.. هدأ أخيرًا..

والآن أعود لمرتبتي لأواصل الأرق..

* * *

لم استطع النوم اكثر ولم استطع الرقاد..

نهضت من الفراش العشوائي.. ومضيت أذرع الصالة وسط الظلام الدامس متأملًا لا شيء..

أريد بعض الهواء النقي.. وأن أرى نجوم الليل البريئة في عالمها الساحر بعيدًا عن كل هذه السخافات..

اتجهت لباب الكوخ وتحسست المزلاج حتى وجدته.. فتحته.. وانسبت إلى خارج المكان..، أغلقت الباب خلفي نصف إغلاق لأني لن أبتعد كثيرًا..

أشعلت سيجارة وشرعت أجذب دخانها في صدري شاعرًا بالدوار الناجم عن دخول هذا السم إلى رئتين لم يدخلهما منذ ست ساعات..

الجزيرة غافية ملتفة في الظلام، والساعة تقترب من الثالثة فجرًا.. ولربما كنت أنا الوحيد المتيقظ في هذا العالم.. أنا والنجوم.. و...

هل أنا أحلم..؟...

لا... هذا واقع... هذا الضوء الخافت الضعيف القادم من إحدى نوافذ كوخ الأستاذ (ستافروس دندرينوس)... إنه حقيقي..، ليس مزاحًا وليس خيالًا.. الكوخ المغلق منذ شهور والذي لم يدخله أحد منذ تلك الليلة الرهيبة..، هذا الضوء ليس انعكاسًا لضوء آخر لأنه ببساطة لا يوجد ضوء آخر..

تدفق هرمون (الأدرينالين) في عروقي مرهفًا كل حواسي، جاعلًا مني شيئًا أقرب لقط متحفز..، إن هناك سرًا ما ويجب أن أعرفه.. هي مجرد نظرة من إحدى النوافذ ستكون كافية لتفسير كل شيء..، ولكن هناك شرطًا واحدًا هو ألا يتوقف قلبي عن الخفقان وأن تطيعني قدماي اللتان تحولتا إلى قالبين من (الجيلي) يهتزان ويأبيان أن يتماسكا..

هيا.. هيا.. وببطء شديد...

* * *

الكوخ الكئيب..

ببطء أدور حوله متحسسًا موطئ قدمي بين الرمال.. صوت البحر الثائر من بعيد.. ورائحة الأخشاب المكسوة بالطحالب ؛ ومذاق التوتر في فمي...

والآن هذه هي النافذة المختارة..

أخذت شهيقًا عميقًا وقربت وجهي من الزجاج وشرعت أتأمل..

كانت النافذة مطلة على القاعة الفسيحة التي وجدت بها التمثالين ليلة وصلت للجزيرة.. وفي الضوء الخافت المبهم استطعت أن أرى التمثالين في وضعيهما الغريبين كما رأيتهما أول مرة.. هنالك بجوار الحائط ينظران إلى ذلك الشيء المروع على الأرض.. و...

[ترى هل تألموا..؟.. إذا لم يكونوا قد تألموا فلماذا صرخوا؟]..

[في العاشرة مساء سمعنا صرخة.. صرخة رهيبة لم نسمع مثلها من قبل]..

وهنا ازداد توتري..

لقد ماتا وهما يصرخان..، هكذا قال الشهود أو هكذا قال (ميخائيل كاراداكيس)... إذا كان هذا صحيحًا فلماذا لا يصرخ أي تمثال فيهما؟.. الفم مغلق ونظرة رعب في العينين فقط.. لا شيء سوى هذا..

وعلى الأرض كان هناك تمثال مهشم لم أره من قبل..، أمعنت النظرة فأدركت أنه بقايا تمثال الكلب.. من جلبه ها هنا؟!.. لقد تركناه على الشاطئ بعد المشاجرة واكتفت (تابيثا) برأسه كتذكار..، فمن جمع البقايا وجلبها ها هنا؟.. لابد أنه الشرطي العجوز (بابادوبولوس) قد جاء به ليضمه لمجموعة (المتحجرين)..، وحتمًا هو من أشعل المصباح ونسيه جوار التمثالين..، نعم.. لا يوجد تفسير آخر..

* * *

كنت منحنيًا على الزجاج غارقًا في التفكير..، تاركًا ظهري مكشوفًا.. وناسيًا باب كوخنا نصف مفتوح وبداخله يغط الزوجان في النوم..كان هذا إهمالًا شديدًا.. إهمالًا لا يمكن الاعتذار عنه..

هل تعرف السبب..؟!!..

* * *

٩ - الغيوم تحتشد..

حين هوت الضربة على مؤخرة رأسي عرفت أي أحمق كنته..
وقبل أن أفقد الوعي أدركت أنني بعد ثوان سأكون تحت رحمة ذلك الذي هاجمني تمامًا.. أنا والزوجان البائسان النائمان في الكوخ..
ثم...

* * *

حين فتحت عيني كنت راقدًا في فراشي وضوء الشمس البهيج يفترش الملاءة، وكان وجه مألوف يتفرس في بنفاذ صبر واضح..، كان وجه ذلك الشرطي العجوز الذي فض الشغب أمس..
ولم أكن في حاجة للمزيد من الأسئلة لأن القصة لا تحتاج لتفسير.. لكن أين الزوجان؟..، ولحسن الحظ وفرت على (تابيثا) المزيد من التوتر حين دخلت الغرفة حاملة كوبًا من الحليب.. وكانت كدمات عديدة منتشرة على وجهها المتورم.. وخلفها دخل (ميخائيل) ووجهه في حالة أسوأ.. وكانت قبضة يده ملفوفة بالشاش حتى المعصم..
- هل افقت يا (رفعت)؟...
قالتها (تابيثا) في مودة.. وقدمت لي كوب الحليب وهي تعينني على النهوض..
- أعتقد أن الأمر لم يكن فقدان وعي كاملًا..، لقد بدأ كفقدان وعي ثم إنك واصلت نومك الهادئ بعدها..!
- ماذا حدث؟..
- اعتداء.. لقد داهموا الكوخ ليلًا.. ضربوك.. وأيقظونا أنا و(ميخائيل) محاولين إجبارنا على البوح بمكان الرأس.. ولم يكونوا على استعداد لتصديق أنه اختفى.. ضربونا ضربًا مبرحًا، وقلبوا الكوخ رأسًا على عقب.. ثم ولوا الأدبار..
- ومن هم..؟..
- كانوا ملثمين للأسف..
أعدت رأسي للخلف، وناولتها كوب اللبن هامسًا بالعربية:
- يا لي من مغفل!!

* * *

لم يحاول أحد الزوجين أن يلومني على إهمالي في إغلاق باب الكوخ البارحة لأن جميعنا كان يعلم أن المعتدين كانوا سيقتحمون الكوخ عنوة على كل حال..، لكن الأسئلة التي طرحناها ظلت معلقة: أين ذهب الرأس؟.. من سرقه في المرة الأولى؟ ومن سرقه في المرة الثانية؟.. أما السؤال عن شخصية المعتدين فلم يضايقنا كثيرًا.. إنهم - ببساطة - سكان القرية..!.. هذه هي الإجابة وهي كافية جدًا على ما أظن..

وفي الصباح فعلنا الشيء الوحيد الممكن: توجهنا إلى المقبرة حاملين أدوات الحفر وشرعت أنا والزوج نستكمل الحفر.. في حين شرعت (تابيثا) تلتقط صورة مقربة للكتابات النادرة على جدران المقبرة..

أكثر من مرة شعرت بوهج الفلاش يلتمع في اتجاهي.. فنظرت لها متسائلًا، فصاحت في مرح دون أن ترفع الكاميرا عن عينها:

- إنها صور نادرة لك غارقًا في الغبار والعرق.. ولن أفوتها..!!

في هذه اللحظة هوى (ميخائيل) بالرفش على طرف حذائي ؛ فصرخت من الألم.. في ثوان التمع وهج الفلاش ؛ وانفجرت (تابيثا) ضاحكة هي وزوجها من هذه الدعابة (الظريفة) ..

- والآن ها هي ذي صورة لك وأنت تعوي كالذئب!!..

- أنتما مخبولان حقًا!!

واصلنا الحفر.. وأكوام التربة تتزايد في إهمال على جوانب الكهف..، وقد شعر كل منا أن محاولتنا خرقاء... و... لحظة!..

ثمة شيء ما.. هل تشعر به؟.. نعم.. تعال.. مد يدك ها هنا وأغمض عينيك.. ها هو ذا.. هل رأيت؟.. أعني هل شعرت به؟.. إنها كف من النحاس!.. كف مخلبية متقلصة من النحاس!!..

والآن نجد الكف الأخرى..

هل نفتح عيوننا؟.. لا بأس.. لا أظن أن كفى (ميدوسا) خطرتان كوجهها.. وفي افتتان نقف لنرمق هاتين القطعتين الفنيتين البديعتين الرهيبتين..، كفين متقلصتين من النحاس الأصفر المغطى بطبقة سميكة من غبار السنين وعوامل الأكسدة..



كفين متقلصين من النحاس الأصفر المغطى بطبقة سميكة من
غبار السنين وعوامل الأكسدة ..

قال (ميخائيل) وهو يلهث.. ويرتجف انفعالًا:
- أظن أن هذا يؤيد - تمامًا - نظرية (تابيثا).. هذه هي جزيرة (الجرجونات الثلاث)..، والرأس أو الرأسان اللذان وجدناهما لا يخصان (ميدوسا) بل الآنستين شقيقتيها..!
- هذا منطقي.. إن (برسيوس) لم يقتطع يدي (ميدوسا) أبدًا.. أو على الأقل لم تذكر الأسطورة ذلك..
وهنا فطنت إلى شيء لم افطن إليه من قبل..، شيء كان كفيلًا - لو أنني أكثر ذكاء - أن يغير كل شيء ويوفر على متاعب لا حصر لها..، ولأنني واثق من ذكاء القاري فلن أذكر هذا الشيء الآن حتى لا أقتل القصة قتلًا...
حين تعود لدارك بعد منتصف الليل.. وأنت واثق أنه لا أحد بالداخل، وتجد الباب مفتوحًا.. والأنوار مضاءة.. ثم - برغم ذلك - لا تستخلص أية نتائج.. وتدخل الشقة لتجد لصًا..! عندئذ تلوم نفسك، لماذا لم تستنتج هذه النتيجة البديهية؟!! لأنك - ببساطة - لم تتوقع أن يحدث هذا لك أنت بالذات..
هذا هو أدق وصف لموقفي لحظتها..
وللمرة المليون أكرر.. لم أدرك أي أحمق كنته!..

* * *

وفي كوخنا جلسنا نتأمل الصور بعد أن أخرجتها
(تابيثا) من المحلول المثبت.. كانت هناك عدة صور لي تظهرني منهمكًا في الحفر كالفئران أو صارخًا كالمعتوهين.. ثم صور عديدة للرسوم التي كانت تملا الجدران..
مضى (ميخائيل) يتأمل الصور في اهتمام وجبينه يتجعد رويدًا رويدًا مما دلني على مدى التركيز الذي يعانيه..، ثم همس وهو يداعب شفته السفلى بالحافة الحادة لإحدى الصور:
- لا شيء يدل على أن هذا قبر شقيقتي (ميدوسا).. لكننا على الأقل نعرف ذلك..
أمسكت بإحدى الكلين النحاسيتين ؛ وقلبتها متأملًا:
- إنني أتساءل كيف كانت امرأة رقيقة تمارس حياتها بهاتين الكفين؟
- إنهما بالتأكيد لم يسهلا لها الطهي أو أشغال (التريكو)..!
هذا صحيح.. لا يوجد مفصل واحد..
قالت (تابيثا) وهي تصب لنا بعض القهوة:
- على كل حال.. لقد انتهت القضية..، لا يوجد رأس.. ولم يثبت لنا شيء واحد.. إنه الوقت المناسب لإغلاق هذه الصفحة وإبلاغ السلطات في (أثينا)..
نظر لها (ميخائيل) في عصبية.. وشرع يتكلم باليونانية في توتر وحماس.. وعيناه تلتمعان بغشاوة دموع ناجمة عن الغضب..
وضعت (تابيثا) كفها على كفه مواسية.. أما هو فشرع يردد لفظة يونانية ما.... يجب أن أتعلم اليونانية.. يجب..، (تابيثا) تقرب وجهها من أذنه وتقول شيئًا ما.. ثم تلتفت لي لتشرح ما هنالك:

- إن (ميخائيل).. يرى أن هذا الكشف قضية عمره..، ويرى أنها فرصته الوحيدة - ربما الأخيرة - ليغدو عالم آثار مرموقًا ويفلت من مستنقع العلماء المجهولين..، إنه يقول إن التخلي عن هذا الكشف الرائع للحكومة قبل ان ينضج أشبه بمن يربي طفلًا ثم يتخلى عنه بمجرد أن يتعلم المشي..

التفت لي (ميخائيل) بعينية الدامعتين.. وهتف:

- بعض الوقت.. لننتظر بعض الوقت فقد تتحسن الأمور..!

وافقته على الفور خاصة وأنني لم أر أي داع لهذا التشنج.. يمكنه أن يقول ما يريد دون بكاء.. يبدو أنني لن أفهم هؤلاء اليونانيين أبدًا..

* * *

عدت لغرفتي وأشعلت مصباح الكيروسين وشرعت أحدق في اللهب شارد الذهن..، هناك مشروع صغير أنوي القيام به..، ولكني أحتاج إلى معونة.. وبالتأكيد ليست معونة واحد من الزوجين..

مددت يدي أعبث في حقيبتي.. حتى أخرجت ما كنت أبحث عنه..، ثلاثة كتب عن تعلم اللغة اليونانية.. اثنان منهما للقاري الإنجليزي وواحد للقارئ العربي..، احتاج إلى فترة أسبوع أقضيها في دراسة مكثفة لهذه الكتب..

وبعدها.. بالطبع لن أستطع قراءة مسرحية ل (سوفوكليس)5 لكني على الأقل سأخذ فكرة مبهمة عن موضوع أية محادثة تدور أمامي..

حين تسمع عبارة يونانية طويلة تقال أمامك، وتلتقط منها كلمتين فحسب مثل (عشاء) و(صديق) فإن الأمر لا يبدو صعبًا.. بشيء من الخيال يمكنك استنتاج أن فحوى العبارة "أن صديقي يدعوني للعشاء" أو أعدي العشاء لصديقنا.. أو أية عبارة أخرى تناسب الموقف..

هذا هو ما أريده...

لم أكن أريد أن أظل تحت رحمة الترجمة وما تجود به على فهمي...

وهكذا شرعت أدرس في حماسة حتى توترت عضلات عيني، وحين نمت أخيرًا كانت هناك صفحات كثيرة قد انتهت من الكتاب الأول..

* * *

صباح اليوم التالي خرجت وحيدًا للنزهة (كما قلت لهما).

شرعت أمشي في الجزيرة أرمق السكان في نظرة متلهفة إلى كسر الحواجز الخرسانية المشيدة بيننا.. أنهم يبدون طيبين وبسطاء.. وأعتقد أن صداقتهم سهلة، لكني لم أنس لحظة ما أمثله لهم: الشيطان الأصلع الذي جاء ليزيد الحياة تعقيدًا..

إنني بحاجة لمعرفة هؤلاء القوم.. أن أسألهم عن أحداث تلك الليلة، عن رؤيتهم الخاصة للأسطورة.. عن علاقتهم بالعالم (المتحجر) (ستافروس دندرينوس) وعن علاقته بتلميذه (ميخائيل كاراداكيس) وزوجته..

كل هذا سيحل لو وجدت صديقًا واحدًا.. واحدًا فقط..

بالإضافة إلى التحسن المحتم في لغتي الوليدة..، لم أكن أريد أن ألم بقواعد اليونانية بل إنني لم أحاول حتى التعرف على حروف كتابتها ؛ كنت أريد (الحد الأدنى للأمان اللغوي) الذي حدثت عنه (هاري) يومًا ما في أحد مقاهي (جامايكا)..؛ أن أفهم - بالتقريب - ما يقال أمامي.. وهذا لا محالة يحتاج إلى أن أجد من أتحدث إليه..

ولكن من..؟.. وكيف؟...

ويبدو أن الحل كان أقرب مما توقعت..

كنت مارًا بجوار البئر شارد الذهن أرمق بنصف اهتمام العذارى الساحرات حافيات الأقدام يملأن جرار الماء وهن يتصايحن ويمرحن.. كأنها صورة من رسم جداري إغريقي قديم ؛ حين أطلقت إحداهن صرخة.. وهوت على الأرض في الطين..

أصابت الفتيات الباقيات حالة من الهستيريا وشرعن يجلسنها.. ويحاولن - يا لهن من حمقاوات - صب الماء في حلقها..

إنها مجرد حالة إغماء هستيري أو ناجم عن هبوط الضغط الدموي أو أي شيء من هذا القبيل..، والضحية تفيق تلقائيًا في كل الحالات ما لم يحاول أحد الحمقى إجلاسها أو صب سوائل في حلقها معرضًا إياها للاختناق..!..

الحق أقول إنني لم أدر ما أفعله.. شققت صفوف الفتيات المندهشات.. وانحنيت لأريح رأس الفتاة المغشي عليها على الأرض.. وبصرامة أبعدت كل من تسول لها نفسها أن تحاول إجلاسها أو صب الماء على شفتيها..

إن هذا هو ما يسميه الطب (الإهمال العلمي).. ما أن تتأكد من أن ما أنت بصدده ليس نوبة قلبية.. عليك أن تترك المغشي عليه وشأنه حيث هو على الأرض دون محاولات بطولية.. حتى تتكفل وضعيته الراقدة بتسهيل وصول الدم إلى المخ.. عندئذ يفيق وحده ويتساءل: ماذا حل بي؟..

وهذا هو ما أفعله الآن كأفضل ما يكون..!

وهكذا. وبعد ثوان - بدأ الدم يعود لوجنتي الفتاة.. وانفتحت عيناها عن تلك النظرة الخاوية المجردة من أي معنى..

كانت سمراء زرقاء العينين وخصلات شعرها الأصفر تتناثر في اهمال على وجهها وفي الوحل.. وكان منديل رأسها القذر قد سقط منها..، كانت جميلة لكنها - بالتأكيد - لم تكن نظيفة أو لعل سقطتها في الوحل قد جعلتها تبدو كذلك..

ما إن أحسست أنها عادت للعالم حتى ساعدتها على الجلوس.. وأشرت إحداهن كي تناولني كوب الماء الفخاري الذي تمسك به، وناولته للفتاة..

وتعاونت مع فتاة قوية العضلات على إنهاضها.. ومضينا في صمت وهي متوكئة علينا إلى دارها..

وفي داخل الكوخ الفقير خيل لي أنني أطوى الأميال إلى بيتي في قريتي.. إن الإنسان هو الإنسان في كل مكان، نفس الأثاث البدائي وأسراب الدواجن التي تتعثر فيها قدماك.. وإخوتها الصغار يلعبون في الرمال ويرمقوننا في فضول..، ولهفة العجوز اليونانية المتشحة بالسواد والتي يمكن أن تكون أمي أنا..

ومثل أمي - لو كانت شقيقتي هي التي أغمي عليها - شرعت توبخ الفتاة بسيل من العبارات اليونانية التي لا أحتاج لكثير ذكاء كي استنتج معناها.. توبخها على خروجها دون إفطار، أو على

ارتدائها ثيابًا خفيفة أصابتها بالبرد، أو ثيابًا ثقيلة جعلتها تختنق!.. أو أي شيء كانت ستقوله أمي في هذه الظروف...

ثم إن المرأة صبت لي بعض (الأوزو) في كأس وقدمته لي.. فرفضته شاكرًا، قائلًا:

- كرستوبلي..!

ضحكت هي والفتاة - صديقة ابنتها - في مرح..، ثم قالت لي الفتاة مصححة وهي تحرك شفتيها أكثر من اللازم لتنقل لي النطق بدقة:

- خريستوبولي..!.. خريستوبو.... لي....!

- خريستوبولي..!

هكذا.. هذه أول كلمة منطوقة تضاف لقاموسي اليوناني..، لقد ربحت كلمة.. وربحت. وهذا هو الأهم - خطوة أولى نحو مصادقة هؤلاء القوم..

لقد بدأ ذوبان الجليد..!

* * *

وهكذا صارت لي صلة صداقة لا بأس بها في هذه القرية، وبدأ عدد الساعات التي أقضيها في هذا الكوخ مع تلك الأسرة الصغيرة البسيطة يتزايد تدريجيًا..

لم يكن الأب موجودًا وقد تجنبت السؤال عنه بطبيعة الحال ؛ لأنه إما ميت أو سجين أو منفصل..!.. وكلها حالات لا تسمح بالفضول.. وكانت الفتاة - واسمها (إيرين) - شيطانة صغيرة مراهقة هي للطفولة أقرب وقد اعتبرتني منقذًا لحياتها دونما سبب واضح.. أما الأطفال فبدئوا يميلون إلى..

هنالك كنت أجلس في الشمس أداعب الصغار وأحدث (إيرين) عن كل شيء بلغتي اليونانية الوليدة وأكتب كل ما تقوله هي - بالنطق - بحروف عربية مشكلة، وألتهم الفطائر التي تقدمها لي الأم..

وتدريجيًا بدأ الجيران يقبلون حقيقة وجودي ويفهمون أنني مسالم.. وأنني لا أتحول لمصاص دماء حين يحل الظلام..

* * *

لماذا لم أصارح الزوجين بحقيقة جولاتي؟..

لا أدري.. إنه ذلك الحافز الخفي الذي يراودني باستمرار ويدفعني إلى عمل أشياء حكيمة جدًا لا أدري سببها!..، كل ما كانا يعلمانه عني هو أنني أهوى السير في الجزيرة وحيدًا لساعات طويلة كل يوم..

والواقع أنني لم أكن الوحيد..

(تابيثا) أيضا صارت تختفي لساعات طويلة في مكان لا يعلمه إلا الله، ثم زوجها..

أين كانت تذهب، ولماذا..؟!...

لقد فهمت كل شيء فيما بعد.. ويا له من تفسير..!

* * *

١٠ - الكوخ والنظارة الحجرية..

الواقع أن لغتي اليونانية قد تحسنت إلى حد غير عادي خلال أسبوع (أو أكثر قليلًا)..، صحيح أن عيني قد أرهقت من الدراسة الشاقة ليلًا على ضوء مصباح (الكيروسين) خاصة وأنني لا أدري من السفاح الذي فكر في طباعة كتب تعليم اليونانية على ورق مصقول..!، وصحيح أن خلايا ذهني قد أوشكت على الاحتراق ؛ إلا أن النتيجة كانت رائعة..، وغدا حديثي مع (إيرين) - وهي تحفر الرمال بأصبع قدمها الدقيق - أكثر تمكنًا وسلاسة..

في ذلك اليوم دخلت لأجد (ميخائيل) جالسًا على المائدة الخشبية يدون شيئًا ما وأمامه أشياء حجرية دقيقة لم أدرك كنهها.. أشار لي لأجلس.. ثم مد يده والتقط.. سمكة حجرية تتلوى كانت أمامه، وغمغم:

- هل رأيت هذه؟!..

مددت يدي في تردد.. والتقطت الجسم الأملس.. كانت سمكة من نوع مجهول كهذه التي نأكلها يوميًا..، وكانت جاحظة العينين تتلوى في ألم واضح كأنها في شباك صياد..، وكانت ثقيلة جدًا..

- إن هذا يعني..

- نعم.. لقد غاص الرأس في بحر (إيجه)!.. وتحجرت الأسماك!..

- ومن وجد هذه الأسماك؟

- واحد من صيادينا.. كان يسير جوار الشاطئ حين وجد عشرات الأسماك الحجرية قذفها الموج هنالك..



مددت يدى فى تردد .. والتقطت الجسم الأملس .. كانت
سمكة من نوع مجهول كهذه التى نأكلها يوميًا ..

تأملت السمكة في اهتمام.. ثم غمغمت في حيرة:
- غريبة خواص الماء عندكم!...
- ماذا تعني؟..
- إن قوانين (أرشميدس) الخاصة بطفو الأجسام لا تسري على (اليونان) فيما أظن.. رأس يهبط للأعماق، وأسماك يتجاوز وزن الواحدة منها نصف الكيلوجرام وتطفو برغم ذلك..!!
ازداد وجهه حيرة واتسعت عيناه الزرقاوان:
- الام تلمح؟
دون شعور أشعلت سيجارة متجاهلًا تعبير الاحتجاج على وجهه.. وقلت:
- إنها دعابة لا أكثر.. ولمرة أخرى أشعر أن هناك تلفيقًا في الأمر..، هناك من وضع هذه الأسماك عمدًا ليوحي لنا أن الرأس في أعماق البحر..، وليس هذا كل شيء..
ووضعت السمكة على المائدة.. واردفت:
- الكفان النحاسيان..، خطر لي عندما وجدناهما أنه من الصعب أن يكون هناك (أثر لحام) في كفى (ميدوسا)!.. لكنني لم أتماد في خواطري وقتها ولم أعلق أهمية ما على تلك الملاحظة..، لكنها هامة جدًا.. لقد تم صب هذين الكفين ولحام نصفي كل كف.. وقد ظل هذا الموضع واضحًا برغم ما قام به النحات من معالجة النحاس كيمائيًا لإكسابه منظر القدم..
كان ينظر لي مقطبًا وعلى وجهه علامات الاهتمام..
على حين استطردت:
. ثم النقطة الأكثر أهمية.. لقد كانت تجول في ذهني حين ضربوني في تلك الليلة والآن أعود فأتذكرها..، لقد مات كل ضحايا (ميدوسا) وهم يصرخون.. لكننا لم نجد تمثالا واحدًا يصرخ.. هل تعرف السبب؟..
ونفثت دخان السيجارة:
- لأن النحات العبقري لم يكن يعرف كيف يبدو ضحاياه وقت الصراخ.. لقد أراد أن يحاكي ملامحهم بدقة ؛ لكن هذه الملامح كانت ستتشوه بشكل مريع لو حاول أن يجعلهم يصرخون وكان التعرف عليهم سيبدو صعبًا... ثم تأتي النقطة التالية..
وأشرت إلى نظارتي..
- النظارة.. نظارة الاستاذ (ستافروس دندرينوس).. قلتما أنه كان ضعيف البصر وكان يكتب خواطره على المكتب ثم نهض ليبحث عن الرأس تحت الفراش.. ألا يحتاج كل هذا إلى أن يظل مرتديًا نظارته؟!.. والآن لم يكن تمثاله الحجري يرتدي نظارة.. ولم يقل أحد إنه وجد النظارة.. لماذا؟.. لأن نحت النظارة كارثة حقيقية وشديد الصعوبة (وثق أن لي خبرة في هذا الصدد)؛ لهذا فضل نحاتنا تجاهل الأمر أملًا في أن أحدًا لن يبحث عن هذه النظارة الحجرية..
كان سيل استنتاجاتي يتوالى.. والنظرة المذهولة على وجه (ميخائيل) تزداد وضوحًا..
- هكذا تري يا (ميخائيل) أن اللعبة بأكملها لعبة نحات بارع.. صحيح أن لي تحفظات حول قدراته على نحت النظارات والوجوه الصارخة لكنني لا أشك في موهبته لحظة..، هذا النحات استطاع أن يجعلنا نعيش في كابوس حقيقي من صنع يده..
- ولكن من هو؟...

- هذا هو السؤال كما قال (شكسبير):.، على أنني لا أستبعد ما قلته من قبل.. وهو أن هناك ألعوبة محبوكة خططها هذا الـ (دندرينوس) بحثًا عن مجد علمي مزيف..، وهو الآن مختبئ - مع رئيس عماله - في كوخ ما يضحكان..

- و... وكلبي الذي...؟

- لقد تركنا الكلب في الكهف فترة لا بأس بها كافية لأي شيء.. و...

وهنا ابتلعت ريقي.. الواقع أن أحدًا سوانا لم يكن ليستطيع أن يستعد بتمثال كلب تحسبًا لهذه اللحظة!.، من المستحيل أن يكون هذا النحات قد أعد تمثالًا لكلب يتلوى على أمل أن نستخدم الكلب للبحث عن الرأس يومًا ما..

والواقع أنني - أعترف - أجد في كل لحظة ما يدعم شكوكي في هذين الزوجين اللطيفين..، وأنني قد ارتكبت حماقة لا بأس بها حين صارحت (ميخائيل) بشكوكي.. لكن حكاية الأسماك هذه قد فاقت قدرتي على التحمل..

في هذه اللحظة انفتح الباب ودخلت (تابيثا).. كانت غارقة في العرق ومنهكة تمامًا وعلى ذراعها تتدلى حقيبة جلدية ثقيلة، وما إن رأتني حتى لوحت في فتور وهي تلقي بحملها في إهمال على الأرض:

- هاي..!

- مرحبًا..!

وجلست على المائدة.. ومدت يدها تتحسس الأسماك الحجرية الملقاة هناك، نظر لها (ميخائيل) وقال لها شيئًا ما.. باليونانية!، تحفزت كل حواسي وانا انصت إلى عبارات اللغة التي لم تعد مبهمة بالنسبة لي إلي هذا الحد..، كانه كهف مظلم اعتدت دخوله.. واليوم ادخله لأول مرة حاملًا كشافًا كهربيًا!..

- هل أنت (... لم أفهم) الكوخ الآخر؟

- نعم.. (.. لم أفهم).. عمل كثير.. (لم أفهم..) ثلاثة..

- (لم أفهم..).. لا يصدق.. (لم أفهم..)..

- (.. لم أفهم..).. (لم أفهم)..؟

- (.. لم أفهم).. العامل.. (لم أفهم).. الكلب..

إن هذه المحادثة شديدة الأهمية.. هناك كوخ أخر.. تقوم فيه (تابيثا) بعمل كثير ينتهي بعد ثلاثة.. وقد أدركا أنني لا أصدق.. وأن العامل والكلب لها علاقة بالموضوع.. هذا هو كل ما يمكنني استخلاصه..، مشكلتي مع (إيرين) هي اعتمادها المطلق على الإشارة إلى أشياء بعينها مع ذكر اسمها.. تشير لكلب وتقول لي إن اسمه كذا.. تشير لكوخ وتقول لي إن اسمه كذا..، لكن هذه الطريقة - طريقة الخواجة (ماكسيميليان برليتز)6 - تكون مرهقة جدًا إذا ما حاولت أن تشرح لي معاني مجردة مثل: الحياة.. الفكرة.. الجريمة.. القلق.. إلخ..، كما أن ترجمة الافعال تصير شبه مستحيلة.. دعك من الظروف والأسماء الموصولة.. لكنني على الأقل أعرف أن هناك خطوة أولى.. الكوخ الآخر.. كوخ الأستاذ (ستافروس دندرينوس) حتمًا..

سيكون علي التسلل إليه هذه الليلة..، وكبداية لابد من سرقة مفتاحه من (ميخائيل) الأمر الذي لن يكون صعبًا إلى هذا الحد..، إنني لم أر شخصًا أكثر إهمالًا منه في حمل المفاتيح ولن أحتاج إلا

لدقيقة أبدل فيها بالمفتاح مفتاحًا صدئًا يشبهه تمامًا من سلسلة مفاتيحي الخاصة.. مفتاح دولابي الخاص في المدينة الجامعية منذ عشرين عامًا على الأقل!

والآن.. تم كل شيء بنجاح.. ها هو ذا المفتاح في قبضتي.. والشكوك في صدري.. ولكن.. لماذا نسيت مسدسي في (مصر) هذه المرة؟..

حقا إنني أرتكب حماقات عديدة..!

* * *

والآن نام الزوجان وساد الظلام الجزيرة..

تعال معي.. هل ترغب في مشاركتي هذه المغامرة القصيرة؟.. إذا كنت لا تريد ذلك فهذا شأنك أما أنا فذاهب.. لا تخذلني..

ستأتي معي..؟.. حسن.. فلنخرج من باب الكوخ في هدوء وخفة..، ولنغلقه من ورائنا.. وفوق الرمال الناعمة نمشي نتحسس خطواتنا.. نحو الكوخ الآخر نمشي.. ونخرج المفتاح الصدئ نعالج به القفل على ضوء البطارية..

إنني سعيد أنك قد جئت معي.. فإنني أشعر بالاطمئنان إلى حد كبير..

احترس لأن دخولنا سيثير اضطراب الوطاويط.. إنها لا ترى. هذه المخلوقات البريئة البشعة. لكنها مرهفة السمع إلى حد مرعب..

والآن أغلق الباب خلفك واتبعني.. إن خشب الأرضية يصدر صريرًا.. وضوء الكشاف يرسم دوائر مرعبة في كل مكان لكن لا تهتم..

هذان هما التمثالان المفترضان للضحيتين السابقتين مع تمثالي الفأرين، و.. لقد اختفت بقايا تمثال الكلب المهشمة.. هل لاحظت هذا؟ فيما عدا ذلك لا يوجد شيء يثير الريبة.. لا شيء..

لكن...

هل ترى هذه الآثار الواضحة فوق خشب الأرضية المكسو بالرمال؟.. آثار قدمين متميزتين.. وبالتحديد صندل (تابيثا) ذي النقوش المتموجة..

الآثار تتحرك - جيئة وذهابًا - فوق خشب الأرضية وشعاع البطارية يجري فوقها..، إلا أنها تتوقف عند.. عند هذا اللوح الخشبي المتحلل والذي لا يثبته سوى مسمار محوي صدئ...

هل هذا صوت باب كوخ يفتح؟!.. للحظة توقفت كل وظائفي الحيوية.. ثم قلت لنفسي إنه صوت الأمواج البعيدة...

بعناية انحنيت فوق لوح الأرضية وعالجت المسمار المحوي..، ها هو ذا يدور مما يجعل رفع ذلك اللوح ممكنًا.. هذا هو ما توقعته..، والآن سأرفع اللوح ببطء شديد.. وأوجه شعاع البطارية عبر الفتحة...

إن تحته ما يشبه الكهف المظلم.. إذن هذا هو المخبأ السري الذي ترتاده (تابيثا).. والذي يحوي تفسير كل شيء..

هل أدخل؟.. لم لا..؟.. إنني واثق أن الزوجين نائمان.. ثم إنك معي وهذا يكفي لكيلا يقتلني الهلع..

انحنيت على ركبتي ووضعت الكشاف في فمي.. وشرعت أدس جسدي في الفتحة الضيقة شاعرًا بآلام سنين عدم المران..، وفي محاولة حمقاء ألقيت بجسدي أرضًا..

فوق الرمال هويت - من ارتفاع بسيط لحسن الحظ - وما أن استطعت الاتزان على قدمي حتى شرعت أتفحص المكان..، كان كهفًا صغيرًا دعمت حوائطه بعروق خشبية عشوائية.. وفوق رأسي كانت الفتحة التي دخلت منها.. ان الصعود إليها ومغادرة المكان لن يكون سهلًا لكنه ممكن..

بدأت أتفقد المكان ببطء شديد..

علب طعام محفوظة مدفونة في الرمال وبضع زجاجات فارغة..، ثم أدوات نحت مبعثرة في إهمال هنا وهناك.. إذن هذا هو (الأتيليه).. وعند قدمي وجدت بقايا حجرية مألوفة لي.. بقايا تمثال كلب.. لهذا بادروا بإخفاء هذه البقايا.. لأن تهشم التمثال أظهر بوضوح قطع السلك المغموسة كدعامات في خامته.. لم يلحظ أحد ذلك في الظلام لكن عيني النحات الخبيرتين فطنتا للأمر..

رفعت شعاع البطارية في بطء.. فوجدت..

وجدت تمثالي وأنا أصرخ في هلع..! لبضع ثوان اختل توازني تمامًا.. ثم بدأت أستعيد أفكاري..

* * *

إنها لتجربة عجيبة أن ترى نفسك في صورة تمثال بالحجم الطبيعي واقفًا يترنح وإحدى يديه تحمل كشافًا والأخرى تتلوى محاولة حجب الرؤية..! كان التمثال متقنًا، ولم ينس النحات هذه المرة أن يضيف نظارتي.. وكان التمثال يرتدي قميصًا صيفيًا وبنطلونًا مشمرًا كأن صاحبه كان يسير على الشاطئ..، وعلى الوجه كانت الملامح المتقلصة تعكس أعتى أمارات الألم الممزوج بالرعب..

وعند قدمي التمثال كانت ثلاث صور فوتوغرافية مألوفة لي... الصور التي التقطتها لي (تابيثا) مداعبة منذ أيام..!.. أه!.. الأوغاد!.. هذه المرة لم ينسوا النظارة.. وكانت عندهم صورة واضحة لي وأنا أصرخ التقطتها لي هي حين تظاهر (ميخائيل) بأنه يمازحني وهوى بالرفش على قدمي..!..

إذن (تابيثا) هي ذلك النحات العبقري الذي نحت تمثالًا لي مستعينًا بصور فوتوغرافية.. نعم.. في أيام الدراسية كانت شيطانة الجامعة الموهوبة - كما قالت هي - تجيد الرسم والنحت وكتابة الشعر والقصة، ولها مراسلات تفخر بها مع (ماتيس) النحات العبقري..، لكني نسيت..!... نسيت تمامًا..

لماذا فعلا ذلك؟.. ما هو سر هذا التبدل الشرير في شخصيتها؟!..

لا أدري.. ولا أرى تفسيرًا لكل هذا..

لكن هناك حقيقة واحدة.. لقد أعدا كل شيء لاختفائي..، لقد تحددت الضحية القادمة لرأس (ميدوسا).. وهذه الضحية هي أنا..!

* * *

عدت للكوخ شارد الذهن تمامًا (لكني لم أنس إزالة آثار أقدامي وإغلاق الباب).. وقد بدأت أدرك أنني في مأزق خطير..

لقد قررا - لسبب ما - أن يتخلصا مني، وقد قررا أن يبدو الأمر على أنه حادث أليم ألم بي في أثناء سيري على الشاطئ.. فجأة وجدت رأس (ميدوسا) الذي ألقي به الموج على الرمال.. وقد حدث هذا ليلًا لأنني كنت أحمل كشافًا.. لقد انتهى العد التنازلي فالتمثال مكتمل.. هذا هو سر اختفاء (تابيثا) المتكرر في الأيام الماضية..، ومعني هذا أن نهايتي ستتم في الساعات أو الأيام القليلة القادمة..، وبعد ما قلته لـ (ميخائيل) لم يعد لديهما مبرر للتردد فيما يتعلق بشأني.. إنني خطر داهم عليهما..

* * *

هل أهرب؟.. هل أبلغ الشرطة؟..

هذا هو الحل الوحيد الممكن..، لا مجال للممارسات البطولية..، ولكن لربما كان إبقاء الأمور كما هي هو الحل الأفضل هذه الليلة.. بعض النوم لن يضير أحدًا ما دمت سأحكم إغلاق غرفتي..، وما دمت سأتحلى بالحذر..

وهكذا.. نمت.. ولكن أي نوم!...

في الصباح جلست على مائدة الإفطار أرمقهما في نظرات متوترة حاولت أن أخفيها قدر الإمكان..، يا للنفاق!.. هما يريدان قتلى وأنا أعرف ذلك لكننا نتصرف كسادة مهذبين..، بحذر تمكنت من أن أعيد مفتاح الكوخ الآخر إلى سلسلة مفاتيح (ميخائيل) وأن أسترد مفتاحي العتيق..

صبت لي (تابيثا) كوبًا من اللبن وقدمته لي.. ثم صبت كوبًا أخر لزوجها..، قربت كوب اللبن من شفتي وكدت أشرب لولا أنني لاحظت شيئًا ما..

لماذا اختارت لي هذا الكوب الكبير المميز واختصت (ميخائيل) بالكوب الآخر؟..

ولماذا تتجنب النظر لعيني، وترتجف شفتاها بهذا الشكل؟!..

تباطأت في تناول اللبن.. وأصخت سمعي لما يقول الرجل باليونانية:

- هل هذا هو الكوب (.. لم أفهم..)؟..

قالت دون أن تنظر لي أو له:.

- نعم.. (لم أفهم..).. لبن.. (.. لم أفهم..).. يموت بعد دقائق!!

* * *

١١ - كشف الأوراق...

أخذ عقلي يعمل كمحرك سيارة سباق..
إن أمامي عدة حلول: أن أرفض الشرب.. أو أسكب الكوب بحماقة.. أو أتركهما وأفر.. لكن عقلي المحموم كان عاجزًا عن الموازنة بين هذه الحلول..
قالت (تابيثا) في حنان وهي تبدأ إفطارها:
- ما بك يا (رفعت)؟.. هل كرهت الحليب فجأة؟!..
يا لك من أفعى!!.. هذه الرقة وكل هذا الحنان من أجل قتلي!.. لكن ماذا عساي فاعل؟.. ليس من الحكمة إثارة ريبتهما لأن هذا قد يدفعهما إلى استخدام طرق أخرى.. (ميخائيل) قوى البنية وزوجته تمسك السكين لتقطيع الخبز ولن تكون مواجهتي معهما مضمونة النتائج لي أنا النحيل العجوز متلاحق الأنفاس..
وهكذا.. كان الحل الوحيد الذي بدا لي ممكنًا..
مددت يدي إلى المائدة فضربت كوب الحليب الذي انسكب على المائدة على الفور...
شرعت أردد عبارات الأسف.. وأجفف المائدة بخرقة قماشية كانت هنالك.. لحظات ثم رفعت عيني لتلتقي بنظرة باردة قاسية في عيني (ميخائيل) الزرقاوين.. وعلى ثغر (تابيثا) الرفيع القاسي تلاعبت ابتسامة نصر وحشية..
بعد ثوان خرج صوت (ميخائيل) باردًا هادئًا كنظرته:
- إذن أنت تفهم اليونانية..!..
نظرت له في ذهول..، إلا أنه واصل الكلام دون أن يبدل جلسته:
- لا يوجد سم في الكوب.. إنه مجرد اختبار بسيط أجريناه للتأكد من مدى فهمك لليونانية، وقد نجحت في الامتحان.. أو بالأحرى رسبت فيه!!

* * *

رفعت رأسي في استسلام.. وقلت:
- كيف خمنتها؟
قالت (تابيثا) بنفس الابتسامة:
- لا صعوبة في الأمر.. كنت - في البداية - تصغي لمحادثاتنا اليونانية بتلك النظرة الزجاجية الخاوية التي تميز كل من يسمع محادثة بلغة لا يعرفها.. مع لمسة قلق وتحفز توقعًا لأن يكون هو محور هذه المحادثة..، في الأيام الأخيرة تغيرت نظراتك.. لم تعد خاوية بل صارت ناطقة بالفهم.. بالمشاركة ؛ وإن حاولت إخفاء ذلك!!
قال (ميخائيل):
- ثم إن لي مصادر معلوماتي في الجزيرة.. من الحماقة أن تعتقد أنني لم أعرف بأمر زيارتك لهذه الأسرة اليونانية ومحاولاتك الجادة لتعلم اللغة اليونانية منهم..، لماذا لم تطلب المعاونة؟..

بالطبع لأنك تريد ألا أعرف أنك تعرف.. ولماذا؟.. لأنك تريد التجسس علي أنا و(تابيثا).. ولماذا تتجسس؟.. لأنك تشك..!..

نظرت لي (تابيثا) في رزانة.. وابتسمت نفس الابتسامة، قائلة:

- إنني و(ميخائيل) نعتقد أننا نعرف ما تعرفه.. لكننا نريد سماع رأيك في الموضوع.. هيا!.. لا تخجل..!

نهضت من مقعدي في توتر مزمعًا أن أهرب..

وهنا لمحت شيئًا ما في يد (ميخائيل) جعلني أدرك أن عرضهما لا يمكن رفضه..، مسدسًا أسود اللون بشع المنظر في يده مصوبًا إلي وفوهته أكثر طولًا مما أتوقع.. لابد أن هذا هو (كاتم الصوت) الذي كنت أراه في السينما.. وفي عيني (ميخائيل) رأيت الحقيقة.. إنني لن أخرج من هنا حيًا...



وهنا لمحت شيئًا ما فى يد (ميخائيل) جعلنى أدرك أن عرضهما
لا يمكن رفضه ..

أشعلت سيجارة عالمًا أن أحدهما لن يعترض هذه المرة.. وقلت وأنا أعود لمقعدي:
- حسن.. سأتكلم..
خفض فوهة المسدس وإن أبقاها مصوبة على دائرة جسدي.. وأشار لي أن استمر..، أردفت:
- لقد كان الأمر كله محاولة للتخلص من البروفيسور (دندرينوس) الذي أعتقد أنه كان يهددكما بشيء ما... ربما كان يملك دليلًا يدينكما في شيء مثل.. مثل تهريب الآثار مثلًا.. أليس كذلك؟
- بلى.. أنت لم تخطئ كثيرًا.. استمر..
- وهنا ولدت الفكرة الجهنمية التي لا تكتبها إلا مؤلفة رعب موهوبة مثل (تابيثا).. لماذا لا تعيدان أسطورة (ميدوسا) للحياة..؟!.. لا تحتاجان إلا لتمثال أو اثنين.. ورأس محنط لقرد خيطت إليه بعض الثعابين، لقد كان عملًا مقززًا لكن الفكرة المجنونة كانت قد تملكتكما.. ثم إن أحدًا - وكنتما تعملان على هذا - لم يكن ليجرؤ على تجاوز الحاجز النفسي والنظر للرأس مباشرة.. إن الصور الفوتوغرافية كانت ستخفي آثار التلفيق إلى حد ما..
- استمر..
- وبدأت (تابيثا) ترتب كل شيء..، لا أدري هل قتلتما رئيس العمال أم أخفيتماه لكن التمثال أدى عمله جيدًا مع صرخة هلع.. وبعدها تتركان تقدير الأمور للبروفيسور العجوز الملتاع..، لقد راهنتما (وربحتما الرهان) على أنه سيدون ما ظن أنه وجده في دفتر مذكراته بخطه.. كدليل لا يمكن تجاهله..، وفي تلك الليلة حين أدرك أن هناك خدعة ما.. دخل (ميخائيل) الكوخ وصرعه.. ثم قمتما بوضع التمثال المعد مسبقًا عند الفراش.. لقد دبرتما الأمر كما تخيلتماه.. ونحتت (تابيثا) تمثالين لفأرين لتدعم قصة الكيس المثقوب، بعدها يصرخ (ميخائيل)، (بمجرد أن تنتهيا من إخفاء الجثة) وتبادران بالهرب من النافذة قبل وصول النجدة..، ثم - كما هو متوقع - يبرز الزوجان البريئان من كوخهما ويهرعان مع الباقين لنجدة الأستاذ..
- الواقع أن حادثة الكيس المثقوب حدثت فعلًا.. كانت صدفة جميلة!!
- و(نيكوس)؟.. هل قتلتماه؟
-.. بالعكس.. إن رئيس العمال العجوز تعاون معنا في تلفيق المشهد إلى أقصى حد.. وهو بنفسه الذي وضع تمثاله في القبر المعد مسبقًا - منذ عدة أيام - ليكتشفه هو..
- وأين هو الآن..؟
- يا له من سؤال!.. في واحد من الكهفين الموجودين أسفل الكوخ ينتظر انتهاء هذه المهزلة ليهرب معنا إلى (الولايات المتحدة) بعيدًا عن فقره وزوجته الثرثارة الفظة..، من حسن حظك أنك وجدت الكهف الآخر فلم تقابله!..
صحت في ذهول:
- كـ.. كيف عرفتما؟!
- إنك وجدت الكهف؟.. هذا بسيط جدًا.. لقد ذهبت (تابيثا) صباحًا إلى الكوخ فلم تجد آثار أقدامها هناك!!.. هناك من نظف الأرضية بعناية ليزيل آثار قدميه هو.. وهو ليس أنا ولا (نيكوس).. إذن من؟!.. إن مفتاحك المزيف لم يخدعني لحظة..
تنهدت في ضيق.. ثم واصلت الكلام:

- حسن.. لقد وصلت عبقريتكما الذروة في مشهد الكلب المتحجر..، إنها فكرتي.. فكرت فيها صباحًا وتحجر الكلب ليلًا.. من المستحيل أن أتصور أنكما نحتما كلبًا بهذه السرعة، لكن هناك تفسيرًا بسيطًا.. إنكما كنتما تنتويان بالفعل أن تقترحا علي استخدام الكلب.. ولهذا أعددتها كلبًا متحجرًا لهذا الغرض، إلا أنني قدمت لكما الفرصة بحماقة حين عرضت أنا استخدام الكلب.. وهكذا نفذت الخطة بسهولة وأعتقد أن (نيكوس) هو من وضع التمثال في اللحظة التي تركنا فيها المقبرة لنحمي عيوننا.. أرجو ألا تكونا من الشر إلى درجة قتل هذا الحيوان.. البريء؟!

قالت (تابيثا) في استنكار:

- مستحيل!.. هل تظننا سفاحين؟!.. إنه الآن يلعب مع (نيكوس) في مخبأه السري..

ألقيت عقب السيجارة على الأرض.. وقلت مستطردًا:

- نأتي الآن إلى اختفاء الرأس..، كان هذا هو الحل الوحيد والممكن لأنكما لم تجرؤا على ترك هذا الرأس لقبضة العلم التي لا ترحم..، لهذا كان على الرأس أن يختفي.. ليلة تحجر (البروفيسور) ثم ليلة تحجر (الكلب).. لقد أجادت (تابيثا) خداعي حين استبدلت رأس الكلب الحجرية برأس (ميدوسا) في كسر من الثانية... و.. هل استبدلت الرأس قبل أم بعد التصوير يا (تابيثا)؟

- بالطبع قبل التصوير حين أبعدتم أنظاركم عن الصندوق.. إن الصور الفوتوغرافية كانت معدة مسبقًا يا عزيزي (رفعت)..، ولو أنك قوى الملاحظة حقًا لكنت قد لاحظت أنني كنت أرتدي خاتمي في الصورة في حين كانت أصابعي بلا خواتم في الحقيقة!..

ابتسم زوجها، قائلًا:

- إن الرجال لا يلاحظون هذه الأشياء أبدًا يا ملاكي..

- كان هذا لحسن حظي..

قلت مواصلًا تجميع الصورة المبعثرة:

- طبعًا كان (نيكوس) هو الملاك الحارس الذي جمع بقايا تمثال الكلب وأعادها للكوخ ليلتها..؟

- طبعًا..

تنهدت في إرهاق.. كانت لعبتهما شديدة الأحكام ؛ وكانت نتيجتها الحتمية هي الخلاص من البروفيسور المزعج الذي لن يفتش أحد عن جثته بعد اليوم لأن القصة كلها ستعتبر ظاهرة غير قابلة للتفسير يحكيها كتاب الغرائب في كتبهم.. وكان اسم (ميخائيل) سيدخل كتب علم الآثار بدلًا من أن يدخل في قوائم المحكوم عليهم بالإعدام..

ضربة مزدوجة موفقة حقًا وقد تم التخطيط لها بعناية، لولا ذلك (الشيطان الأصلع) الذي ظهر لهما فجأة ليفسد كل شيء باستنتاجاته بدلًا من أن يؤيده..، وهكذا غدا الخلاص مني حتميًا.. وبنفس الطريقة النظيفة التي تؤيد ولا تدحض قصة (ميدوسا)...

والآن ليس لديهما حل سوى قتلي.. ووضع تمثالي جوار الشاطئ ليحكي مأساة عثوري على الرأس الذي قذفت به الأمواج..

قال (ميخائيل) باسمًا وهو يصلح شيئًا ما في كاتم الصوت:

- فيم تفكر؟..

- في الهرب..!

تبادل وزوجته نظرة جانبية خبيثة.. ثم قال:

- لا أمل.. إنني أستطيع أن أزيل كل أثر لتمثالك يا (رفعت) وأخفي كل ما يدلك على حقيقتنا.. ثم أتركك تحكي قصتك المعقدة للبوليس دون دليل واحد.. كلامك مقابل كلامي..، لكن هذا سيفتح أبوابًا لا داعي لها.. وسيجد البوليس مئات الثغرات في موقفي... إنهم قادرون على إثبات آثار النحت في تمثال البروفيسور.. وقادرون على العثور على الكهف.. وسيجدون مئات البصمات - حيث لا ينبغي أن يجدوها - في كل مكان تقريبًا.. وسينزحون قاع بحر (إيجه) كله إذا أرادوا بحثًا عن جثة البروفيسور ورأس (ميدوسا) المزعوم.. إن رجال البوليس جبابرة وليس من مصلحتي إقحامهم في هذه القصة.. ألا توافقني؟!

- بلي..!.. لا يمكن خداع رجال الشرطة أبدًا.. - لهذا دعنا ننته من هذه القصة سريعًا..

ورفع فوهة المسدس نحو رأسي.

* * *

كلا.. لم أمت... بالطبع والا فما حكيت لكم حرفًا واحدًا من هذه القصة.. فقط سقطت من على مقعدي فاقد الوعي من الرعب..، طبعا هذا ما تظاهرت به.. وقد تحطمت إحدى عدستي نظارتي خلال سقطتي الحمقاء..

وهكذا سمعت (ميخائيل) يلعنني باليونانية ويهب نحوي ليري ما هنالك.. أنفاسه تقترب مني وركبته تلامس وجهي.. ركبته اليمني.. إذن فالمسدس على بعد سنتيمترات أعلى من هذه الركبة حيث انحني ليفحصني.. لا وقت للتردد أو للتفكير في شعور من يخترق الرصاص بسرعة البرق رفعت يدي و... أمسكت يده.. يده الملتفة حول زناد المسدس.. وثنيتها عند الرسغ ثم وجهت أعنف لكمة ممكنة إلى ذقنه.. كان هذا كافيًا في السينما كي يترك السلاح.. إلا أن الواقع أكثر تعقيدًا للأسف.. إن الوغد لم يترك المسدس بل ازداد تشبثًا به..!

ضغطت على الزناد فوق إصبعه بعنف.. سمعت صوتًا غريبًا.. بوف!.. بوف! كسدادة زجاجة من الفلين يتم انتزاعها.. ولم أفهم هذا الصوت إلا حين سمعت صوت تهشم الأطباق على المائدة..، إذن هذا هو صوت الرصاص مع كاتم الصوت..!..

كان يغرس أنامله في وجهي وهو يضغط على أسنانه ويبتسم بقسوة وثقة مما زعزع ثقتي بنفسي (وهو تأثير كان يتعمده طبعًا).. إلا أنني واصلت التشبث بالزناد كالمسعور...

لكماته تنهال على وجهي وعنقي.. وصوته الرزين الهادئ، يردد:

- هيا يا صغيري!.. إن هذه الألعاب لا تناسبك... ها!.. اتركه!

وهنا لمحت بطرف عيني (تابيثا) تتقدم نحو كيسها الملقي على الأرض وتخرج منه مطرقة.. مطرقة كبيرة.. ولمحتها ترفعها وتتقدم نحوي وهي تقول له باليونانية شيئًا ما..!

لم أترك مجالًا للصدفة.. ثنيت ذراعه بعنف.. نحوها.. و.. ضغطة أخرى على الزناد لأسمع المزيد من سدادات الفلين تنفجر..، ولمحتها تقذف نحو الحائط الخشبي لتصدمه برأسها ثم تسقط على الأرض والدم ينفجر من كتفها..

كانت هذه الإصابة هي التي رجحت كفتي.. إذ تشتت (ميخائيل) نوعًا.. وبدأت ثقته المفزعة بنفسه تتدهور..

مددت يدي وهو يجثم فوقي.. المزيد من سدادات الفلين.. بوف... بوف... كليك... لقد انتهت السدادات!.. فرغت خزنة الرصاص أخيرًا..!، والآن نحن متعادلان إذا ما تجاوزنا عن قوته الجسدية المروعة..، وإلى جواره أرى المطرقة.. المطرقة التي أفلتت من يد (تابيثا) حين سقوطها.. إنها في متناول أناملي...

أمد يدي لها.. أمسكها.. وبيد مرتجفة أرفعها.. أهوى بها على رأسه بأرق ضربة استطعت أن أوجهها له لأني لا أريد أن أفجر رأسه..

كان هذا كافيًا.. إذ سرعان ما تراخت قبضته.. وتهالك جسده من فوقي.. تحسست نبض عنقه لأتأكد من أنه لم يمت.. ثم تحاملت على قدمي المتخاذلتين إلى الباب.. وفتحته.. ضوء الشمس بالخارج.. والناس الأبرياء..

صرخت بالعربية بصوت مختنق مرتجف:

- النجدة أيها الناس الطيبون..!.. النجدة!..

* * *

متهالكًا عدت إلى (تابيثا) حيث أسندت ظهرها إلى الحائط ومددت قدميها على أرضية الكوخ.. كان الدم يغرق قميصها، وثمة نظرة ثابتة موزعة في عينيها وهي تنظر إلى وترتد دون كلل:

- لماذا يا (رفعت)؟.. لماذا؟.. لقد كنا اصدقاء..!!

بماذا ترد على هذا السؤال المستفز؟!.. لا شيء بالطبع.. لهذا! اكتفيت بسؤال أخر وأنا أضغط على مكان النزف بمنديلي:

- كيف تغيرت إلى هذا الحد يا (تابيثا)؟!.. كيف تحولت إلى هذا الوحش؟!.

قالت لاهثة والعرق البارد يكسو جبينها:

- من السهل.. أن تقول هذا.. لقد ضحيت بكل شيء من أجل.. (ميخائيل).. لكننا عرفنا.. الفقر.. والجوع.. لم.. يكن.. أمامي.. سوى أن أظل مع زوجي حتى النهاية.. إن.. شيطانة الجامعة.. المترفة.. تختلف كثيرًا عن زوجة.. عالم الآثار.. البائس.. هل.. فهمت..؟..

أغمضت عينيها وازدادت شفتاها جفافًا.. القشور البيضاء تتجمع عند ركني فمها..

- لأنك.. أحمق.. أحمق كعهدي بك يا (رفعت)..

* * *

وكان الرجال قد ملأوا الكوخ وشرعوا يتساءلون عما حدث.. حين أدركت أنني لم أعد أستطيع الصمود أكثر.. لم أعد أستطيع..!..

وسقطت على الأرض فاقدًا وعيي بالفعل هذه المرة..

* * *

خاتمة..

لم يمت أحد.. لقد نجا الزوج من ارتجاج المخ ونجت (تابيثا) من الرصاصتين اللتين اخترقتا كتفها..، وكان تفسير موقفي عسيرًا في البداية لأن أهل الجزيرة ظنوا أنني أنا المعتدي على هذين الزوجين الوديعين..

إلا أن نظرة واحدة للكوخ الآخر ولمحتويات الكهفين أسفله بما فيها من آثار نحت وتمثال لي وكلب (تابيثا) و(نيكوس) نفسه ؛ كانت كافية جدًا لأن يفهموا كل شيء..

وحين حضر زورق الشرطة ليأخذ الزوجين.. تحاملت على نفسي وصافحت (ميخائيل) في تهذيب، وقلت له:

- في المرة القادمة لا تبن خدعك على أسطورة وثنية قديمة لأن هذا يفسد الأمر كله..

ثم إنني نظرت لأمواج البحر المتلاطمة.. وهمست:

- هذا - بالطبع - لو كانت هنالك مرة قادمة..

قالت (تابيثا) في تنمر وشعرها يتطاير مع الريح:

- كان خطؤنا الأكبر هو دعوتك.. ظننا أنك ستكون شاهدًا معنا لا علينا..

- أنت تنسين يا صديقتي أنني مجرد هاو يبحث عن الأساطير ليهدمها.. وعلى كل حال أنا مدين لكما بثمن التذكرة..!.. هذا حقكما..

- لا داعي لذلك.. إنه واجبنا نحو صديق قديم عزيز مثلك..!

- ما دمت مصرة..

وركبنا الزورق.. وهدر المحرك..

لم ينظرا لي لحظة واحدة.. لكني ظللت أرمقهما حتى ابتعدا عن مجال بصري..

والآن أعود لمصر..

الآن أنعم ببعض لحظات الراحة والأمن بعيدًا عن هذا الكابوس..

إلا أنه - في تلك اللحظات - كان هناك كابوس أكثر شناعة يخرج من مكمنه لينتظر عودتي بفارغ الصبر..

ولم أكن أعرف..

كعادتي لم أكن أعرف...

لكن هذه قصة أخرى..

د. (رفعت إسماعيل)
القاهرة ١٩٩٢

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة..

١ - الاسطورة..

٢ - هي..

٣ - صداقات قديمة..

٤ - رعب جديد..

٥ - أين هو؟

٦ - رعب في الجزيرة..

٧ - الشيء...

٨ - ليلة الرعب..

٩ - الغيوم تحتشد..

١٠ - الكوخ والنظارة الحجرية..

١١ - كشف الأوراق...

خاتمة..

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة رأس ميدوسا

تقول الأساطير اليونانية إن
(برسيوس) قتلها وقطع رأسها ..
ولكنها لم تحدد أبدًا أين ذهب هذا الرأس
بعدها ..؟!
إن من يجد هذا الرأس الذى تحولت شعيراته
إلى أفاع سامة يملك أن يحول من يريد إلى
تمثال رخامي بمجرد أن يريه العينين ..
خُذ الحذر .. قد تكون عيناها تنظران لك
الآن!.. و حين ترفع عينيك من السطور
لربما لاقتا عيني
(ميدوسا)..!!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة حارس الكهف

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

أجاممنون: واحد من أشهر أبطال حرب طروادة.

[←2]

حقيقة.

[←3]

حقيقة.

[←4]

تقول الأسطورة اليونانية إن (بلوتو) شعر بالملل.. فاختطف الحسناء (برسفونيه) لتكون زوجته في مملكته المظلمة (هيدز)، وهكذا حرمت الدنيا من الربيع الأبدي الذي كانت تبعثه (برسفونيه).. فيما عدا ثلاثة شهور (فصل الربيع) حين يسمح لها بإجازة تزور فيها أقاربها وصديقاتها في عالم النور.

[←5]

سوفوكليس: كاتب مسرحي يوناني كبير.. أشهر أعماله (أوديب) و(أوديب في كولونا).

[←6]

ماكسيميليان برليتز: أستاذ لغات عالمي له طريقة فريدة في تدريس اللغات والتي تتبعها سلسلة معاهدة (برليتز) في العالم كله.

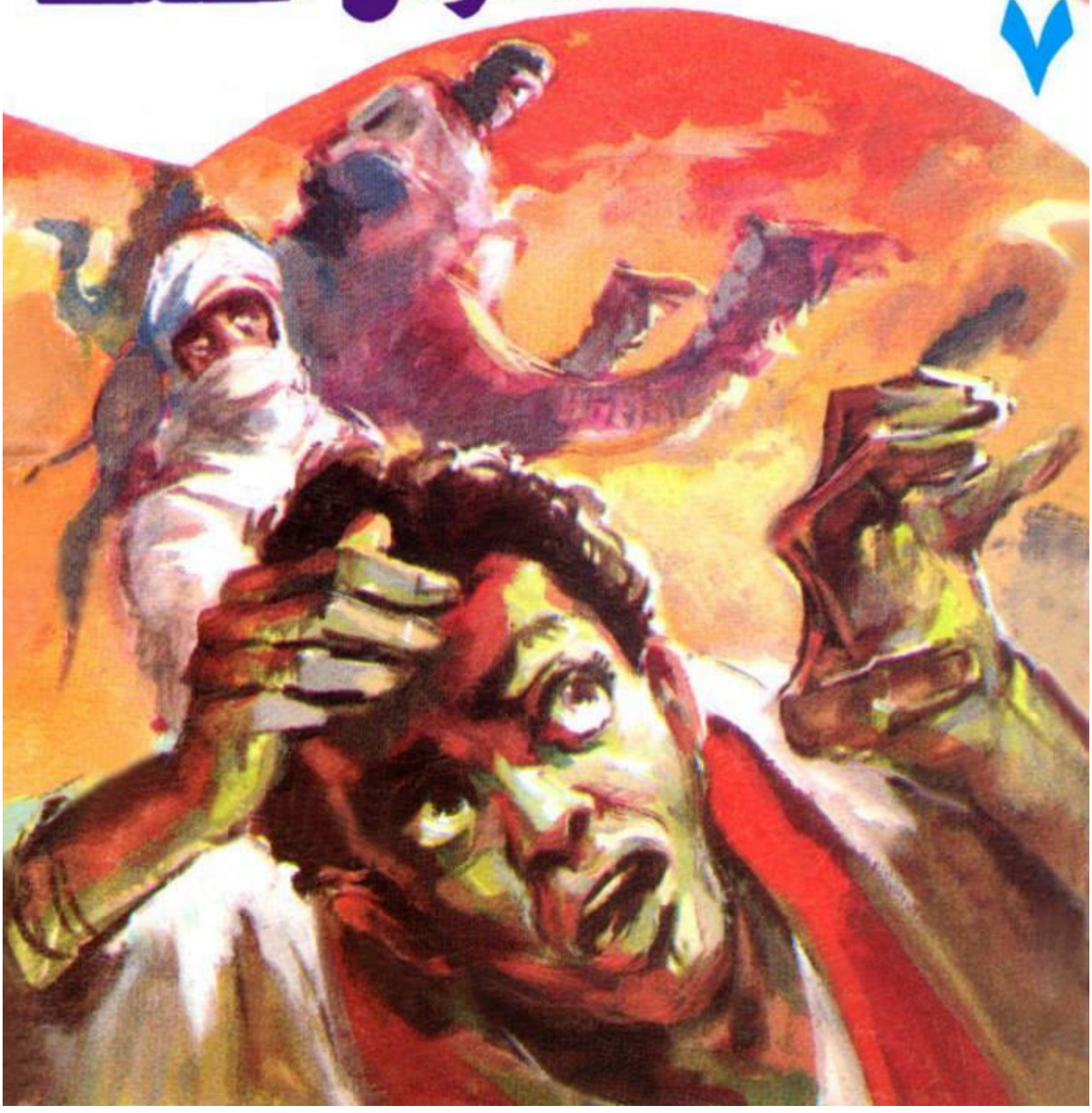
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

أسطورة حارس الكهف

ماوراء الطبيعة

٧



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

٧

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة حارس الكهف

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

٧

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

•

أسطورة حارس الكهف

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٠٠٢ ٢٨٢٧٠٠٢

روايات مصرية للجيب



أسطورة حارس الكهف

المقدمة

لقد انصرفوا أخيرًا..!! والآن أستطيع أن أغلق باب مكتبي علي.. وأجلس في ضوء الأباجورة الخافت أحسو الشاي وأكتب لكم قصة جديدة..

هل تذكرونني؟.. إنني أنا الدكتور (رفعت إسماعيل)، الشيخ المتهالك الذي عاش وحيدًا ويموت وحيدًا في مساء ما.. أنا صائد الأشباح الهاوي.. متعقب الأساطير حيث كانت..، أنا الذي صارع المذءوبين، وطارده (الزومبي)، وأمسك برأس (ميدوسا) و... و....

تسألونني من هم أولئك الذين انصرفوا..؟!

كلا يا رفاق!.. لقد كانت زلة قلم.. لنقل إنني أرغب في الاحتفاظ بهذا السر في الوقت الحالي.. أو - حتى لا أثير فضولكم أكثر - لنقل إنه لم يكن عندي أحد!.. اتفقنا؟..

ربما أصارحكم بالمزيد يومًا.. ربما بعد أن أحكي لكم مغامرتي الثلاثين أو الأربعين أو المائة.. أما أن أحكيها الآن.. فمستحيل!.. دعونا من هذا ولنعد لموضوعنا..

هل أحكى لكم اليوم قصتي مع د. (لوسيفر)؟ ام قصتي مع (براكسا) فتاة المقابر؟ أم قصتي مع (المزييرة)؟!.. لا.. لا داعي، لأن هذه القصص لا تناسب حالتي النفسية اليوم..

سأحكي لكم قصتي مع حارس الكهف..

متى حدثت بالضبط؟.. لا أذكر في الواقع.. لا شك أنها - على الأقل - قد حدثت بعد لقائي في اليونان مع رأس (ميدوسا).. وبالتأكيد قبل تعرضي للعنة الفراعنة..

إنها قصة شنيعة.. لكنكم سعداء الحظ لأنكم تقرؤون هذه الأحداث ولم تعيشوها.. وإنني لأحسدكم حقًا!..

هل استعددتم؟.. هل أصدقاؤكم حولكم والأنوار مضاءة؟..

إذن أصغوا إلي..

* * *

١ - إنه قادم!

حين لمحنا آثار الأقدام المخلبية مرسومة فوق الرمال الرطبة.. وحين رأينا خيط الدم الذي لم يجف بعد يتلوى فوق الأرض، راسمًا رقصة الموت المجنونة.. وحين لمحنا السترة الممزقة، وكأنما فر من داخلها جيش من الشياطين..

وحين لمحنا الحيرة والهلع في عيني البروفسير (باولو)..

عندئذ - وعندئذ فقط - فهمنا أن حارس الكهف حقيقة.. وأنه حر طليق.. وأنه يريدنا...

* * *

شرع رجال (التبو) يتهامسون ويتبادلون الكلام بلهجتهم التي لا أفهم منها حرفًا.. إلا أن كلمة أو اثنتين وصلنا لمسامعنا:

- العساس!.. العساس!

قال لي البروفسير (باولو) في حيرة:

- ما معنى هذه الكلمة؟..

- إنها تعني (الحارس).. وهي كلمة عربية فصحى..

- إذن هم أيضا يفكرون فيما نفكر فيه..

أشعلت سيجارة ثالثة، ونفثت دخانها في الهواء.. وقلت:

- لا توجد طريقة أخرى للتفكير على ما أظن..

وشرعت أعابث الرمال بطرف حذائي.. كان الحر خانقًا.. وذباب الصحراء المسعور يحاول التهام وجهي.. والعرق يغمر ما تحت إبطي، لكني كنت غافلًا عن كل ذلك..

لو أن (العساس) موجود حقًا في هذه الصحراء.. لو أنه موجود حقًا في هذا العالم.. فلن تكون أمامنا فرصة للنجاة..

ولكن الأمر لم ينته بعد.. يجب أن نجد جثة (أحمد) أو جسده الجريح، ثم نبني خططنا على هذا الأساس..

وكان الرجال قد اتخذوا نفس القرار..

* * *

في المساء جاءوا به والقمر يفصح عن وجهه خلف الجبال..

كنت جالسًا جوار النار أنا والبروفسير، حين لمحنا الرجال عائدين في مسيرة صامتة كئيبة، متسربلين بلون الغروب الأرجواني.. ملثمين كما هم دائمًا، لكن عيونهم تنطق بالخطر والتوتر...

وعلى الرمال ألقوا الجثمان، ووقفوا يتبادلون النظرات..

نهضت - في توجس - إلى الجثة، وشرعت أتفحصها.. وتحرك البروفسير واقفًا جواري.. وسمعت شهقته.. ثم أنه يهرع مبتعدًا..

قال لي (محمود) وهو يبعد عينيه قدر الإمكان:
- ما رأيك؟
- كما ترى..
- إذن هي ليست الذئاب؟
طلبت منه أن يشعل سيجارة ويدسها في فمي.. سيجارتي المائة في هذا اليوم الشنيع.. السعال يتحشرج في صدري، وحنجرتي تتقلص، لكني لم أكن أدرك شيئًا عن هذا الذي أفعله..
- كح كح!.. بالطبع ليست الذئاب.. كح!.. لم يخلق بعد هذا الذئب الذي... كح!!
مد يدًا مرتجفة وأخرج السيجارة من فمي، لأستطيع الكلام بوضوح.. فقلت مردفًا:
-.. لا يوجد ذئب يهشم عنق الضحية، ويديره في الاتجاه العكسي..
ولا يوجد ذئب يمتص دماء الضحية.. وأبدًا لم يوجد ذئب يترك آثار أقدام مخلبية عملاقة على الرمال..!
اقترب منا البروفسير متسائلًا.. فنقلت له ما قلت بالإنجليزية.. أما (محمود) فقال له بضع عبارات بالإيطالية جعلت لونه يمتقع..
إن حارس الكهف يريدنا..
لقد أثرنا غضبه.. أيقظنا العملاق النائم...
وعلينا أن ندفع الثمن..!

* * *

اقترب منا (كريم) زعيم هذه المجموعة.. وعيناه خلف اللثام تلتمعان بإصرار وغضب لا يوصفان:
- سيدي.. يجب أن نعود..!
وعلى الفور دوى صوت (محمود) مترجمًا بالإيطالية ما قاله الرجل الملثم.. الذي أردف:
- إن (العساس) قد تحرك.. وآباؤنا جميعًا قد حكوا لنا معنى ذلك لهذا لن ننام.. ولن نستريح حتى نأمن في ديارنا...
الترجمة تتواصل، ووجه البروفسير الخامل يتبدل في ضوء اللهب المتراقص.. الغضب يلتمع في عينيه.. ثم يصرخ.. و(محمود) يترجم هذا الصراخ إلى عبارات عربية حاول أن يجعلها غاضبة:
- لكنكم تلقيتم أجركم مقدمًا!
في برود قال (كريم):
- تلقينا أجر إرشادكم إلى الكهوف، ولم نتقاض أجر إدخالكم فيها بعد.. وعلى كل حال نحن لا نريد شيئًا سوى أن نعود لأطفالنا..
وندعوكم للعودة معنا قبل أن يغدو ذلك متعذرًا..
- هذه الصفقة ليست أمينة!
تحسست يدا (كريم) البندقية.. وازداد غضبًا:
- إن الجحيم نفسه يشمئز من خائن الأمانة.. هذا هو شعارنا نحن الطوارق..

إن هذا المخبول - البروفسير - قد داس على الوتر الحساس لهؤلاء الرجال بغضبته الإيطالية، التي لا تعرف حدودًا (كعادة أهل بلده).. ومن الواضح أن هؤلاء (التبو) المهذبين الصموتين سيفجرون رؤوسنا ببنادقهم، إذا ما استفززناهم أكثر من ذلك..

- بروفسير.. أرجوك.. يكفي هذا..

قلتها وأشعلت سيجارة.. وشرعت أسعل:

- كح!.. دعهم يذهبون.. كح!.. ولنذهب معهم!.. لقد شاهدنا كل ما ينبغي أن.. كح!.. نشاهده.. والأعصاب متوترة، فلا تزد الموقف تعقيدًا.. كح!

تحول حنقه تجاهي.. وهتف:

- أنت ومدخنتك!.. لقد سئمت تراخيك وجبنك ورائحة سجائرك..!.. أطفئ هذه السيجارة وإلا فلن يجد هذا الوحش شيئًا يقتله..، وإذا شئت أن تتبع هؤلاء التبو فافعل.. لن ألومك على شيء.. ها!.. اذهب... أذهب!..

كدت أرد عليه صارخًا بما يتناسب مع وقاحته.. إلا أنني أدركت أن هناك نوعا من الكهرباء في الجو تجعل الجميع يصرخون، فلا داعي لأن أزيد هذا التوتر بشرارة إضافية..

ودون كلمة أخرى أدرت ظهري متأبطًا ذراع (كريم)...

صاح البروفسير في دهشة:

- إلى أين تظن أنك ذاهب؟

- يا له من سؤال!.. أنفذ أوامرك طبعًا..

وأمام نظراته المذهولة بدأ (التبو) يركبون جمالهم.. وتعالت أصوات هذه الحيوانات المرعبة، وهي تنتصب على أقدامها.. أحدها وضعوا عليه جثة (أحمد) المشوهة.. أما أنا فاتجهت إلى جملي واعتليت ظهره.. ها هو ذا الكابوس يبدأ حين ينهض هذا المخلوق.. ويقذفني للأمام.. ثم للخلف.. ثم للأمام.. ثم يستقر على أقدامه.. ويبدأ السير في تؤدة خلف القافلة..، كانوا قد دفنوا الجثة ولم يعد هناك ما يدعوهم للبقاء..

- جبناء!

دوت صرخة البروفسير حيث تركناه هو و(محمود) واقفًا يرمقنا في ذهول..، كانا واقفين وحيدين جوار النار غارقين في ضوئها الذهبي المتراقص.. والصحراء المظلمة الساكنة تمتد حولهما تمتد حولهما إلى ما لا نهاية...

وأنا أبتعد.. أبتعد.. أبتعد مع القافلة..

حتى لم أعد أرى أثرًا لهما..

* * *

لمدة عشر دقائق كاملة لم تفارق ذهني صورتهما واقفين وحيدين في الصحراء، ينتظران مصيرهما الغامض.. وأدركت أن هذا المشهد سيؤرق نومي لعدة سنوات قادمة..

لقد اتفقنا على كل شيء.. ولم يجد جديد.. فلماذا أنسحب؟..

بدأ التردد يزحف على تصميمي.. والندم يغسل آثار غضبي.. لهذا - ودون كلمة - أدرت مقود جملي عائدًا إليهما..

لم يحاول واحد من الرجال أن يمنعني أو يقنعني.. بل إنهم لم ينظروا نحوي أساسًا..، إن هؤلاء القوم يؤمنون تمامًا أن الإنسان هو سيد مصيره، وأن القدر لا يتبدل..

وهكذا.. شرع الجمل يمشي الهوينى عائدًا إلى مكان المعسكر، حيث النار تلقي بضوئها فوق الرمال..

سأخوض المغامرة بكاملها معهما.. وحين تنتهي، لن يكون علينا سوى أن نمضي بجمالنا إلى أحد طرق القوافل، التي صرنا نعرفها الآن تمامًا.. ومعنا ما يكفي من الطعام والماء.. معنا أسلحتنا وذخائرنا..

فأي خطر هناك؟!..

هكذا قلت لنفسي وأنا أرمق الصحراء المظلمة من فوق جملي.. وكما توقعتم.. كنت ساذجًا.. ساذجًا إلى حد لا يصدق!

هل توجد سذاجة أكثر من أن أترك مكاني الآمن بين هؤلاء الرجال الأشداء، وأعود وحيدًا عبر الرمال إلى الكابوس الذي ينتظرني؟

هل توجد سذاجة أكثر من أن أشعر بشعر الجمل ينتصب على مؤخرة عنقه.. وحركاته تزداد عصبية وبرغم هذا استمر؟!

هل توجد سذاجة أفظع من أن تنطفئ النار البعيدة فجأة، وأسمع صوت صرخة شنيعة لإنسان يمزق حيًا، وبرغم هذا أطمئن نفسي بأنها الرياح!!..

هل توجد سذاجة أشنع من أن تصرخ بي حاستي السادسة: عُد.. عُد.. أرجوك أن تعود!، ثم أعزو كل هذا إلى جبني الطبيعي؟!

* * *

على أنني حين وصلت لمكان المعسكر لم أجد أحدًا..!

فقط النار الخامدة ترسل دخانًا رماديًا لعنان السماء.. وأسلحة مبعثرة ألمحها في ضوء القمر الشاحب..

وعلى الرمال أثار أقدام هنا وهناك، تشي بشيء غير عادي.. شيء مرعب قد حدث منذ دقائق.. يجب أن أنزل من على متن الجمل لأرى ما هنالك...



حين وصلت لمكان المعسكر لم أجد أحدًا .. ! فقط النار الخامدة

ترسل دخانًا رماديًا لعنان السماء ..

ولكن... ثمة مشكلة صغيرة.. ا

أنا لا أستطيع أن أنيخ جملًا!.. لابد لأحدهم أن يفعل هذا الى وإلا قضيت باقي حياتي في نفس المكان!، والمشكلة الأسوأ هي أنني لو وثبت من فوقه سأهشم ساقي حتمًا.. وحتى لو لم يحدث ذلك فكيف أعود إلى ظهره إذا أردت الرحيل؟!..

إذن لم يبق أمامي سوى أن أنادى بأعلى صوتي:

- محمووووود!

لا رد....

- بروفسير باااااولووووو!

أين ذهب هذان الأحمقان؟.. ومن الذي أطفأ النار؟.. ومن الذي صرخ..؟

أشعلت سيجارة أخرى شاعرًا بالامتنان لعبقريتي، التي جعلتني أخذ معي كل هذه السجائر قبل القيام بالرحلة.. لقد حدث شيء ما لكنني لا أصدق أن يكون شيئًا سيئًا.. إن الأشياء السيئة لا تحدث بهذه السرعة، وبمجرد أن أدار (التبو) ظهورهم..

إذن على أن أجدهما.. أو أهرع للحاق بالرجال قبل أن أفقد أثرهم.... إن المزيد من الصراخ لن يضر أحدًا:

- محمووووود!...

اسمعكم تقولون لي: لا تصرخ!.. لا تدعه يسمعك..!..، هذا صواب ولكني - كما قلت لكم - لم أكن أتوقع شرًا.. كيف لي أن أعلم أن هذا الصراخ سيجعله يسمعني؟ أو أن رائحة التبغ ستجعله يشم رائحتي؟ أو أن توتر عضلات الجمل من تحتي، لا يعني سوى شيء واحد..؟

أنه هو..!...

ها هو ذا قادم من أجلي.. خارجًا من أعماق الجحيم، متدثرًا بالظلام وضوء القمر الفضي.. العساس...!

* * *

٢ - القارة المفقودة..

ولكن دعونا من كل هذا الهراء..

لماذا أضيع وقتي ووقتكم بالثرثرة في مواضيع لا تهم سواي، في حين كنت أنوي أن أبدأ قصتي بالحديث عن رحلتي إلى (ليبيا)؟!..

كما قلت لكم لا أذكر العام...

لا أذكر العام.. ولا سبب الزيارة.. لا بد أنها كانت مهمة علمية ما، ولابد أنني كنت عائدًا لتوي من (اليونان)، بعد قصتي المؤسفة مع رأس (ميدوسا) حين حدثت هذه القصة.. و

إنني حتى لا أذكر اسم الفندق..

لكنه كان فندقًا مريحًا في (طرابلس).. قضيت فيه أسبوعين، بعد أن انتهت مهمتي هنالك..

وكالعادة - كما يحدث في قصص (رايدار هجارد) - بدأت القصة في قاعة التدخين!.. أعني بالطبع استراحة الفندق..

كنت قد تعرفت على مهندس ليبي اسمه (محمود) كان قد عاد لتوه من رحلة دراسة في (إيطاليا).. ولقد أثارت دهشتي تلك السرعة التي التأم بها الجرح الدامي، الذي تركه الإيطاليون في (ليبيا) وشعبها الطيب، بعد احتلال بدأ من عام ١٩١١ وارتكبت فيه أفظع الفظائع..

- كان جنرالهم السفاح (جراتزياني) - قال لي (محمود).-يربط أهل (فزان) بحبل طويل بعضهم إلى البعض، ثم يرمي بهم من الطائرة!

- يا للهول!!

وشعرت بقشعريرة تغزو عمود الفقري.. هل الإنسان حقًا متوحش إلى هذا الحد؟.. إن الذي كان يقترف هذا، هو لابد بشري مثلنا، له زوجة وأطفال.. ويصاب بالصداع والإسهال.. ويحب الفاكهة وليالي الصيف.. فما الذي يحدث له كي يغدو سفاحًا..؟

- إنها الفاشية والعنصرية.. تحيلان الإنسان إلى سفاح يرتوي بالدماء.. أي إنسان..

قالها (محمود)، وهو يمرر يده على شعره الأشعث المميز لكل أبناء المغرب العربي.. الوجه الأسمر النحيل الحزين.. والشعر الثائر غير المصفف بعناية، والعينان الحساستان إلى أقصى حد.. كان شديد الذكاء.. ولقد قال لي في مرارة:

- نحن بحاجة إلى العلم.. وهؤلاء الناس يملكون العلم.. لهذا قهرونا وعذبونا.. أما اليوم فإن مهمتنا المقدسة، هي أن نتعلم منهم كل شيء.. كل ما يعرفون..، ولهذا لم أجد غضاضة في أن أذهب إلى (إيطاليا) كي أتعلم..

ابتسمت مؤيدًا كلامه.. أنا نفسي درست في (انجلترا) التي احتلت وطني سبعين عامًا.. ومثله لم أجد غضاضة في ذلك..

- أعتقد أن غزاة كثيرين توقفوا عندكم.. نفث دخان سيجارته.. وابتسم:

- كثيرون.... قديمًا احتلنا البربر قادمين من إسبانيا - ونسميهم (الفاندال) - ثم جاء الرومان.. وفي القرن السادس عشر، جاء الأتراك الذين ظلوا يحكموننا بأسرة باشوات (القرمنلي) الشهيرة.. ثم جاء الإيطاليون بحكمهم المشئوم.. كل هؤلاء جاءوا.. وكلهم ذهبوا..

ثم ضيق عينيه وابتسم في خبث:
- وأحيانًا يقال إن هناك غزاة آخرين لا تعرفهم
- ماذا تعني؟
- لا شيء.. مجرد تكهنات وأحاديث علماء غير مجربين..
- لكنك - حقًا - قد أثرت فضولي..
قال وهو يطفئ سيجارته في شيء من العصبية:
- د. (رفعت).. أنت رجل مثقف كثير الأسفار.. فلا تقل إنك لم تسمع عن تلك الهضبة.
- أية هضبة؟
قال بصوت عال نافد الصبر:.
- هضبة (تسيلي) طبعًا!

* * *

على المائدة المجاورة، كان هناك رجل يرمقنا في اهتمام.. رجل في الستين من عمره، من الواضح أنه أجنبي.. وكان دقيق الملامح والأطراف إلى حد غير عادي، كأنه دمية متقنة الصنع.. أما وجهه الخامل الخالي من التجاعيد، فكان يحمل عينين زرقاوين متسعتين فيهما شيء من الخبال..

هذا الرجل عالم.. هكذا قلت لنفسي على سبيل الفراسة، ولم أكن بعيدًا عن الصواب.. هذا الرجل عالم، وقد استرعت انتباهه كلمة (تسيلي)، وهو حتما سيحاول التعرف علينا ليفضي إلينا بأسرار مروعة عن هذه الهضبة، تضيف كابوسًا جديدًا إلى كوابيسي..!

هكذا توقعت.. ولقد نفذ الرجل هذا (السيناريو) حرفيًا..!

ها هو ذا ينهض..!.. ها هو ذا يقترب.. الوغد!.. إنه ينحني ويتحدث بالإيطالية فيرد عليه (محمود)، داعيًا إياه كي يجلس.. يجذب الرجل كرسيًا.. وفي مرح يفرك يديه.. ثم يقول بالإنجليزية:

- لقد طلب مني السيد أن أتحدث بالإنجليزية التي يفهمها ثلاثتنا.. وإنه ليشرفني أن أتعرف على سيدين مهذبين مثلكما..

كانت إنجليزيته مضحكة كأكثر الإيطاليين..

- اسمي هو (باولو جيرالدي).. البروفسير (باولو جيرالدي).. أستاذ التاريخ القديم بالجامعة.. ولقد سمحت لنفسي أن أصغي السمع إلى محادثتكما، التي لم أفهم منها كلمة واحدة بطبيعة الحال، سوى (تسيلي).. ومن المدهش أن نفكر في نفس الشيء في نفس اللحظة..

حين انتهى من كلامه، كانت قطرات العرق تغمر جبينه.. واللعاب يتناثر من شفتيه.. مخبول حقيقي لكنه لن يفسد أمسيتي..

- للأسف إنني لا أعرف شيئًا عن هذا الموضوع فأنا مصري..

- آه!.. لكنكم تتشابهون تمامًا معشر العرب.. تتشابهون تمامًا..

ثم إنه استدعى النادل وطلب منه أن يحضر لنا ثلاثة أكواب من عصير البرتقال المثلج، وشرع يثرثر دونما تحفظ:

- إن هذه الهضبة التي تقع ما بين (ليبيا) و(الجزائر)، لتحوى لغزًا من أكثر ألغاز البشرية غموضًا.. وقد قيل إنها هي الدليل الذي لا يدحض على وجود حياة فوق الكواكب الأخرى..

بدأت أتحفز في جلستي.. إن الحديث يأخذ صبغة تثير اهتمامي إلى حد كبير، خاصة وأنني أجهل كل شيء عن هذا الموضوع...

قال (محمود) وهو يرشف من كوبه أول رشفة:

- ربما قيل هذا.. لكن الاعتقاد الأعم هو أن هذه الهضبة تخفي تحتها قارة (أطلنطس)!!

وثبت في ذهول مستندا بذراعي إلى المائدة:

- (أطلنطس)؟.. هل تمزح؟..

- لا مجال لذاك..

- لكن (هيرودوت)1 قال إنها تقع في المحيط الأطلسي.. وبالتحديد في تلك الفجوة ما بين المغرب وأمريكا الشمالية..

قال (محمود) في حيرة وهو يحك شعره الأشعث:

- لا أدري عن ذلك شيئًا.. لكن معلوماتي هي أن (هيرودوت) قال إنها في الصحراء الكبرى.. وأن الزلزال أبتلعها..

- يعني هذا أنها ليست قارة بل هي بلد..

- بالفعل..

ابتسم البروفسير الإيطالي في رزانة وقال:

- على كل حال هناك شكوك عدة في نظرية (أطلنطس) هذه.. منها أن علماء (الجيولوجيا) لم يجدوا آثار زلازل في الصحراء الكبرى.. وبالتالي لا يمكن أن توجد هناك قارة تحت الأرض..

ثم إنه شرع يفكر هنيهة.. واستطرد:

- نظرًا لأنني أعمل في مجال التاريخ، فقد استرعت انتباهي قصة الكشوف التي قام بها (هنري لوت) عام ١٩٥٦، مع قافلة من العلماء.. واللوحات التي وجدوها على جدران الكهوف.. ويؤكد العلم - بالتحليل الذري - أنها رسمت منذ عشرين ألف سنة.. تخيلوا هذا!.. مائتي قرن..!!.. منذ مائتي قرن كانت هناك حضارة يعرف أهلها معنى الرسم..!.. ولا أبالغ كثيرًا إذا ما قلت، إنني - من أجل هذا - جئت إلى (ليبيا)..

ثم ابتسم في شيء من المرارة وقال:

- إنها الحقيقة.. الحقيقة التي لا تقدر بثمن، والتي ستهب العلم مرونة لا تقاس.. الحقيقة..

هنا ابتلعت ريقي.. متى سبق لي سماع هذه العبارة؟.. هل هو نوع من ظاهرة الـ (ديجافو)2 التي تجعلنا نتخيل أننا عشنا هذا الموقف من قبل، وسمعنا نفس الكلمات؟.. أم أنني حقًا سبق لي سماع ذلك؟..

آه... د. (رتشارد كامنجز)..!.. قالها لي يومًا منذ عشر سنوات تقريبًا، حين وقفنا أمام مومياء (دراكيولا).. نفس الكلمات.. ونفس لمعة العين المجنونة..!..

قال (محمود) في شيء من الفتور:

- لكنها مجرد تكهنات..

- تكهنات؟!

صاح البروفسير الإيطالي في عصبية:

- إذن كيف سيكون الحال لو غدت حقائق؟.. لوحات غامضة في كهف سحيق، يقولون إنها رسمت منذ مائتي قرن.. واللوحات تمثل رواد فضاء ورجالًا يطيرون.. فماذا ينقصنا كي نفهم؟!.. أن ينزل لنا طبق طائر به رجل أخضر له (إيريال) ويحمل بندقية (ليزر)؟!..

تنحنحت.. ثم قررت أن أتوكل على الله، وأقول كلمتي التي لن تسعد هذا المخبول حتمًا.. لكن سأجن لو لم أقلها:

- اسمعني يا (بروفسير).. أنت تعرف أن كل هذا الهراء عن سكان الكواكب الأخرى..

- هراء؟!!

- إنها عنصر جذب لا ينتهي، للعلماء.. وللأثرياء المعتوهين.. وصناع أفلام الخيال العلمي، الذين يعانون ضائقة مالية و....

- مالية؟!!

لحسن الحظ أنني لا أفهم الإيطالية، لأن سيلًا من السباب - المقذع بالتأكيد - انهال على رأسي.. سباب جعل وجه (محمود) يحمر كحساء الطماطم.. وجعل كل من بالقاعة يرمقونني في فضول، كأنني عار تمامًا..

كنت أنا - لأنني لا أفهم حرفًا - ما زلت جالسًا محتفظًا بهدوئي، وابتسامة السخرية الخافتة على ثغري..

- إذن أنت لا تؤمن بوجود مخلوقات عاقلة على كواكب أخرى؟

قلت في رزانة:

- عاقلة أو غير عاقلة.. لا يوجد شيء..

نظر لي (محمود) في حيرة.. وغمغم:

- عجيب هذا!.. قلت لي يا د. (رفعت) إنك مولع بأسرار ما وراء الطبيعة.. وأن لك خبرة هائلة في هذه الأشياء..

- لي خبرة.. ولكن كنت مجبرًا في كل مرة على أن أنغمس في هذه الأمور.. وما زلت أرى أنه من السفه تضييع الوقت والمال في شيء كهذا، على حين تزخر الحياة بالألغاز المفيدة، التي تستحق تفسيرًا - والتي يمكن أن نجد هذا التفسير لها - مثل: لماذا نصاب بمرض السرطان؟.. لماذا لا تنجح أمصال الأنفلونزا..؟.. لماذا تتصحر (إفريقيا)؟.. وكيف نوقف تلوث الأجواء..؟.. هذا هو المجال الوحيد الذي تفيد فيه الأسئلة.. هل يمكنكما أن تخبراني بجدوى معرفة، أن هناك كهوفًا رسمت عليها مخلوقات فضائية في زمن غابر؟..

هل ستجدان إجابة على أسئلتكما؟.. وإذا وجدتماها.. فما هي الجدوى؟..

ثم أشعلت سيجارتي في عصبية وأردفت:

- إن الحياة معقدة بما يكفي، وليس من الحكمة أن نغرق أنفسنا في ضلالات وأسئلة بلا إجابة.. ما دامت هناك أسئلة أخرى لها جدوى ولها إجابة إذا ما بذلنا شيئًا من الجهد..!

لعدة دقائق ساد الصمت، إلا من صوت انفاسنا.. ثم قال (باولو):

- هل انهيت كلامك؟!

- ليس تمامًا.. لقد قابلت كثيرين من المعتوهين، أحدهم يحاول إعادة مومياء (دراكيولا) إلى الحياة.. وأحدهم يحاول إثبات أن وحش (لوخ نس) حقيقة.. وأحدهم يؤكد أن (ميدوسا) لم تكن

أسطورة..، ثم ماذا؟.. ماذا استفادته البشرية واستفدت أنا من كل هذا؟.. لا شيء.. فقط ساعات عصيبة من التوتر والرعب.. وليال مؤرقة.. وذكريات سوداء..

التمعت عينا (باولو) فضولًا، وبدا لي أنه نسي كل ما قلته من قبل، وشرع يسألني في حماس عن كل هذا الذي سمعه.. وأين ومتى وكيف عرفت هذه الأساطير؟..

فقلت له في جفوة:

- مرة أخرى يا بروفسير.. أؤكد لك أنني لست (صانع أساطير) بل (هادم أساطير) إذا جاز لي أن أقول هذا..!

حتى منتصف الليل شرعت أثرثر.. وهما يسمعان نصف منبهرين ونصف مكذبين.. وحين دقت الساعة منتصف الليل، تثاءب (محمود) وقال إنه يرغب في النوم.. ووافقته أنا.. أما البروفسير، فكان شارد الذهن إلى حد ما.. وقد شعرت أن قصصي أوحت إليه بفكرة معينة..

إن مناقشتنا عن كهوف (تسيلي) لم تنته بعد، وقد بترت بترًا.. لكنه لابد عائد إليها في الغد.. لهذا يجب أن أعود إلى الفندق في ساعة متأخرة طيلة الأسبوع القادم.. فإذا كان هو يملك من الصحة والصبر ما يسمح له بالثرثرة، فأنا لا أملك منهما ما يسمح بالإصغاء..!

* * *

في غرفتي شرعت أكتب خطابًا لـ (هويدا).. هل تذكرونها؟.. (الإسكندرية) وزيارتي لـ (عادل) وشقيقة زوجته.. الخ؟.. كنت - حين قابلتها - متورطًا في كابوس آكل بشر وهمي.. ولم أكن أعرف أنني أوشك على التورط مع آكل بشر حقيقي!.. لكن دعونا لا نستبق الأحداث..

"عزيزتي (هويدا).... أكتب هذا الخطاب في غرفتي بالفندق.. والشوق يقتلني، لأن ذكراك الجميلة لا تفارقني... و...."

ما هذا الهراء؟!!..

إن هناك بائعي جرائد كثيرين، كتبوا لحبيباتهم الخادمات خطابات أكثر حرارة ورقة، وأقل افتعالًا..!.. إنها مجرد كلمات.. فلا الشوق قتلني ولا أنا أذكر وجهها أصلًا..! إنها مجرد حالة حب صناعية أحاول أن أصب نفسي فيها، لعلمي أن هذا هو واجبي نحو من ستكون زوجتي يومًا ما.. ثم إن رجلًا في الأربعين لخليق بأن يكتب خطابًا أكثر رقيًا من خطاب مراهق في الرابعة عشرة..

مزقت الخطاب السخيف.. حين دق الباب..

- ادخل..!...

فلم يدخل.. إن معنى هذا هو أنه لم يفهم ما قلته.. وما دام لم يفهمه فهو ليس عربيًا.. ما دام ليس عربيًا فهو..

- ادخل يا (بروفسير)!

قلتها واعتدلت في جلستي.. فدخل الرجل مرتديًا بيجامة صيفية زاهية الألوان إلى حد منفر.. وكان يمسك موسى الحلاقة في يده.. ووجهه مغطى برغاوي الصابون!.. إذن هو كان في غرفته يحلق ذقنه بثياب النوم حين..

-.. جاءتني فكرة غير عادية!!

قالها بحماس مجنون.. فهززت رأسي موافقًا.

- هذا واضح!
- هل تعرف هضبة (تسيلي)؟
- وفيم كان حديثنا هذه الليلة إذن؟
- سنذهب لهناك..!
- ماذا؟
- نعم!.. أنا وأنت و(محمود).. إعادة استكشاف.. أنا أملك الخبرة التاريخية، وأنت تملك الخبرة بالمجهول، و(محمود) من (فزان) حيث توجد الهضبة..!..

والتمعت عيناه في هستيريا حقيقية:

- ستكون أجمل تجربة في حياتك!

* * *



فدخل الرجل مرتديًا بيجامة صيفية زاهية الألوان إلى حد منفر ..

وكان يمسك موس الحلاقة فى يده ..

٣ - دعونا نر!!

- بروفسير (باولو).. أعتقد أنني كنت واضحًا تمامًا في إظهار عدم اهتمامي بهذه القصة.. واضحًا إلى درجة الفظاظة..!.

- لكنك لا تفهم!

قالها واتجه إلى فراشي ليجلس عليه دون دعوة.. وأردف:

- إنها لغز الألغاز:: سر الأسرار.. إنها المرآة المسحورة التي ستقودنا إلى عالم آخر، له مقاييس أخرى...

أشعلت سيجارة.. وأمسكت حذائي، وشرعت ألمعه بالفرشاة.. قائلًا:

- حسن.. سنصل للكهوف ونهبط فيها، ونصل إلى (الأطلنطس) حيث نجد مدينة كاملة متقدمة علميًا، ولهم ملكة جميلة تحبني بجنون.. ثم يحدث زلزال وانهيار، وتدفن هذه الحضارة مرة ثانية، وننجو نحن.. أليس هذا ما تتوقعه؟.. ثم ماذا بعد ذلك؟!:.

قال في نفاذ صبر:

- أنت تقرأ الكثير من قصص (رايدار هجارد) و(إدجار رايس بوروز)3..!

- كنت أظنك أنت الذي يقرأ الكثير منها..

- هل أفهم من هذا أنك ترفض القيام بهذه الرحلة؟

شرعت أتأمل الحذاء الذي صار براقًا إلى حد مدهش.. وقلت:

- أنا لا أرفض الرحلة.. أنت حر في الذهاب إلى الجحيم إذا أردت، ولكن وحدك.. حين يسألني أحدهم عما إذا كان يمكنه الذهاب إلى (ألاسكا)، فإنني لا أنهك ذهني.. فليذهب!.. لا مشكلة لدى..

- لكني أريدك معي..!

- هذا شأنك..!..

وألقيت الحذاء على الأرض، وتناولت فردته الأخرى.. وأطفأت سيجارتي في فنجان القهوة الذي برد قبل أن أشربه، على صوت احتجاج الرجل..

- أنا بحاجة لرفاق رحلة.. لشهود.. وأنت وصديقك تصلحان تمامًا لهذا الغرض.. ظننتك شجاعًا مثقفًا..

- وكنت مخطئًا.. أنا جبان جاهل.. فهل هذا كاف لتتركني؟

وهنا - وللمرة الأولى - بدأت أخاف هذا الرجل.. إذ أنني حين رفعت عيني تجاهه، وجدت العرق يغمر جبينه.. ونظرة مجنونة في عينيه.. وكل جارحة في جسده الضئيل ترتجف...

ومن بين أسنانه.. صدر فحيح كفحيح الأفاعي.

- د. (رفعت).. إنني لم أعتد أبدًا سماع عبارات الرفض... حين يريد (باولو جيرالدي) شيئًا ما، فإنه يناله، وليس على الآخرين أن يظهروا امتعاضهم!.. إنك ستقوم بهذه الرحلة..!!

وقبل أن أجد ردًا مناسبًا.. انغلق الباب من خلفه، وتركني وحيدًا أمسك بفردة الحذاء والفرشاة.. وأرتجف!

* * *

حين حكيت محادثة أمس ل (محمود)، بدا عليه السرور.. وشرع يصفق بيديه في مرح ويضحك، حتى احتبست أنفاسه.. وكان تعليقه:

- إنك قد قدمت لهذا المعتوه ما يسيل لعابه.. لقد فاقت حكاياتك كل خيالاته، ولم يعد يحتمل أكثر.. وسرعان ما تحركت أمنية خافية في نفسه، هي أن يراك ويراني، ويرى نفسه في حملة عبر الصحراء لكشف المجهول..

- المشكلة أنه هددني..!

- إنه لم يتخلص بعد من عقد المستعمر الإيطالي.. هذا هو كل شيء..

كنا جالسين في مقاعد مريحة متراصة، عند مدخل الفندق، نرشف الشاي المعطر، ونطالع جرائد وجدناها هنالك..، حين ظهر البروفسير، وقد بدا عليه الهم والإرهاق، بعد ليلة طويلة قضاها - بلا شك - يرسم مئات الخطط الوهمية، ويكشف أسرار الكون..

ودون كلمة واحدة اتجه نحونا.. وجلس على مقعد كأنه حق مكتسب - وشرع يفرك يديه.. ثم طلب بعض الشاي وقال:

- لقد أعددت كل شيء.. ويمكننا أن نرحل غدًا!!

تبادلنا أنا و(محمود) النظرات.. إن هذا المخبول يتصرف ويتكلم كأنه لا إرادة لنا ولا رأي.. ماذا يريد منا؟..

- بروفسير (باولو).. لقد ظننتك فهمت ما قلته لك أمس...

صاح في لوعة حقيقية:

- لكنني قد درست كل شيء.. كل شيء.. مئات الاحتمالات والخرائط والمقالات التي تصف هذه الهضبة.. إنكما لن تخسرا شيئًا.. لقد جئت إلى (ليبيا) بهذا الهدف، لكني شيخ هالك وفي أمس الحاجة إليكما..!.

صحت في عصبية وأنا أجذب (محمود) لنبتعد:

- لكن أحدًا لا يقوم برحلة كهذه على سبيل المجاملة.. ألا تفهم هذا؟

- بلى.. ولكن..

ثم إنه جلس على المقعد يلهث، وقد بدا إنسانًا محطمًا منتهيًا...

هل فهم أخيرًا أنه لا جدوى من الضغط؟..

* * *

غدت حياتي في هذا الفندق جحيمًا.. فهذا المعتوه يطاردني في كل مكان، ويواصل الإلحاح.. ويغريني.. ويشرح لي خطة الرحلة..

أسبوع كامل مضى علي في هذه المعاناة البائسة، حتى أنني وجدت أن الحل الوحيد أمامي هو أن أغادر (ليبيا).. أنا أستطيع أن أغادر الفندق، لكني كنت قد ارتحت له جدًا.. وأستطيع أن أقتل البروفسير - وسأستمتع بكل لحظة أفعل ذلك فيها - لولا أنني لا أحب كثيرًا أن أنهي حياتي على المشنقة..!..

إن الذبابة تستطيع أن تدمر حياتك، إذا ما كنت مثلي إنسانًا عصبيًا متوترًا.. فكيف أستطيع أنا - الذي يشرب مائة سيجارة يوميًا، ويبدل وضع قدميه ألف مرة في أثناء الجلوس - أن يتحمل هذه الذبابة البشرية العملاقة.. اللزجة.. اللحوح؟!..

نعم.. يجب أن أغادر الفندق فورًا..

وهنا حدث شيء غير متوقع.. جاءني (محمود) إلى غرفتي، وفي خجل أخبرني أنه ينوي أن يقوم بالرحلة... ولم لا؟.. إن الأمر يثير الفضول.. ثم هو ذاهب إلى (فزان) وطنه ومسقط رأسه.. وهو واثق أن الأمر ليس خطرًا، بدليل أن كل من زاروا هذه الكهوف عادوا سالمين..

- إن هضبة (تسيلي) - هكذا قال لي - هي أقرب إلى أحد المعالم السياحية التي يجب أن تراها.. مثلها مثل قوس نصر (ماركوس أوريليوس) الذي حرصت على رؤيته هنا في (طرابلس)..

ثم إنه أخبرني أن البروفسير يعتزم أن يقوم بالرحلة في طائرة مروحية وليس على ظهور الجمال كما فعل (هنري لوت) منذ عشر سنوات.. وبالتالي لن تكون رحلة مرهقة..

تدريجيًا - وتحت هذه الضغوط المكثفة - بدأت أجد الفكرة غير سيئة إلى هذا الحد.. لم لا..؟.. على الاقل سأرى بعيني كل ما رآه هؤلاء العلماء الذين ذهبوا وانبهروا وعادوا سالمين..

لم يتحدث أحد عن وجود مصاصي دماء، أو أشباح، أو وحوش خرافية في هذا المكان.. وبالتالي لن تلعب موهبتي الخاصة - موهبة الذهاب إلى المصائب - دورًا في هذه المغامرة..

ثم إن (محمود) شاب عاقل ورزين، ومعه سأعرف الكثير عن هذا الجزء من وطني.. (ليبيا)..، والبروفسير مخبول لكنه مسل.. وأنا أحب هؤلاء العلماء المخبولين المسلين..

نعم.. لم لا أوافق؟..

صحيح أن الرجل هددني.. صحيح أن دواعي الكرامة تقتضي أن أتشبث برفضي حتى النهاية، لكن ما قيمة تهديد هذا الرجل الضئيل لي.. وأية إهانة يمكن أن يسببها لي معتوه مثله..؟::

وهكذا - في مساء ذلك اليوم - توجهت لغرفة الإيطالي.. وقلت له إنني أوافق على الذهاب معه في هذه الحملة البائسة..!..

* * *

من مكاني جوار النافذة، شرعت أرمق الكثبان الرملية ونباتات الصبار المتناثرة في الصحراء، مفكرًا في ما ينتظرنا..

قال لي (محمود) بصوت عال كي يتغلب على هدير المحرك:

- أ.. بادنا.. هابة... اسعة...!

- ماذا تقول؟.

فألصق فمه بأذني صارخًا، وشعره الأشعث يتطاير في جنون:

- إن بلادنا هي هضبة واسعة!.. صحراء جرداء تمامًا، لأنه لا توجد جبال على الساحل تكثف المطر مثل (تونس) و(الجزائر)..

ثم نظر خارج النافذة وصاح:

- لا.. ها... بادي..نا أبها!!

- لا أسمع..

- إلا أنها بلادي.. وأنا أحبها!!

كانت محركات الطائرة تهدر حتى لتمزق طبلت أذني.. ومروحتها الوحيدة تتموج في المقدمة، في حين جلس الطيار الليبي (أحمد الإدريسي) خلف ذراع القيادة.. وجواره البروفسير يردد عبارات حماسية لا تنتهي باللغة الإيطالية..

كنا قد استأجرنا هذه الطائرة من أحد المطارات القديمة، التي شيدها الإيطاليون قرب (سبهة)، وهو مطار منسي لا يعلم أحد شيئًا عنه..

وكانت هذه هي الطائرة الوحيدة التي وجدناها.. على الأقل كانت قادرة على الطيران، دعك بالطبع من قدرتها على ألا تتهشم، لأن هذا شيء بيد الله تعالى!...

وفي ذلك الزمن كانت هناك بقايا للنفوذ الأجنبي في (ليبيا).. لهذا ظلت (فزان) تحت النفوذ الفرنسي.. و(بنغازي) تحت النفوذ البريطاني.. و(طرابلس) تحت النفوذ الإيطالي.. في حين احتفظت الولايات المتحدة بقاعدة جوية واحدة هي (هويلس)4..

ولهذا احتاج البروفسير إلى الحصول على تصريح للطيران من الجهات الفرنسية المسيطرة على (فزان).. وحصل على هذا الطيار الليبي المشهود له بالكفاءة..

وها نحن أولاء نتجه نحو الحدود الليبية الجزائرية، حيث هضبة (تسيلي) التي لم أكن أعرف عنها شيئًا منذ أسبوع..

كانت معنا أسلحة.. وأطعمة. ومياه بكميات وافرة، مع بعض أدوات الحفر والتسلق.. وكاميرا.. (وأخذت معي عشرات من علب السجائر على سبيل الاحتياط).. وبعض الأدوية التي لا تصلح لعلاج أي شيء..

سألت (محمود) وانا اتفحص الحقائب::

-.. أيف..انزل.. نره حراء... أل.. أك.. أز؟

- ماذا؟:.

- كيف سينزل بالطائرة في الصحراء؟!.. هل هناك ممر؟

- بالطبع لا.. وإلا استعمله (هنري لوت).. إنه يأمل في العثور على مكان صالح لذلك فوق الرمال!!..

أرتفع الدم إلى رأسي:.

- لكنكما معتوهان - أنت والبروفسير - ومن الواضح أن هذا الطيار ليس أفضل حالًا.. إن هذا سيؤدي إلى انغراس الطائرة في الرمال ولن تعود للإقلاع أبدًا..!!

- يقول الطيار إنه سيحاول ألا يحدث هذا..!

ماذا أقول وماذا أصنع؟.. وأي مأزق رميت بنفسي إلية؟.. على أنني لم أر داعيًا لاستباق الأحداث.. لهذا قلت بصوت عال:

على كل حال لن تصل هذه الطائرة أبدًا..!

- لماذا تقول ذلك؟.

- لأن كل هذه الطائرات ذات المحرك الواحد لا تفعل شيئًا سوى السقوط بركابها في أسوأ الأماكن.. البحر أو الصحراء، والأدهى هو أن ركابها يظلون أحياء ليواجهوا ما هو أسوأ و..!!

سمع البروفسير صوت صراخي، فأدار جذعه ورأسه من المقعد الأمامي ليسألني عن سبب. الصراخ.. فمال (محمود) على أذنه وشرع يشرح له وجهة نظري.. تلك الوجهة التي لم ترق له -

طبعًا - فوجه لي نظرة حادة قاسية.. وأدار ظهره لنا في اشمئزاز...،
الصحراء لم تزل راقدة في خمول تحتنا.. وفي كل ثانية تكشف لنا عن جزء من وجهها القبيح الأجرد المغطى بالبثور..
مال (محمود) على أذني وصرخ ولعابه يتناثر في وجهي:
- الصحراء الكبرى هي ربع مساحة (أفريقيا).. أما ما تراه الآن فهو واحة (حمادة الأوباري).. بعدها (حمادة مرزق).. ثم (نمات)... وأشار إلى مساحات شاسعة من الرمال.. وصاح:
- بحر الرمال.. إن عرضه يصل لمائة وستين كيلومترًا.. والويل لمن يجد نفسه فيه..!
- مثلنا...!
فنظر لي نظرة نارية، كي أكف عن التشاؤم.... ونسّق شعره المبعثر.

* * *

ثم بدأت الحشرجة..!..
في البدء لم تكن واضحة.. ثم بدأت تتعالي رويدًا.. رويدًا.. وعرفنا أن هذا الصوت قادم من المحرك.. المحرك الوحيد لهذه الطائرة!...
وبدأت المروحة تفقد انتظام حركتها.. والحشرجة تتعالى... الطيار قد فقد ثباته ووقار جلسته، وأحمرت أذناه مما يدل على أن هناك مشكلة ما.. والبروفسير يسب ويلعن بألفاظ لا أفهمها.. ثم إنه التفت لي وصرخ ووجهه يرتجف غضبًا:
- أنا.. عيد؟.. آرك.. أد.. أقف.. إيا!
- ماذا تقول؟
فقرب فمه من أذني وعاد يصيح مكررًا ما قال:
- أقول: هل أنت سعيد؟.. إن المحرك قد توقف نهائيًا!!..
وهنا توقف هدير المحرك.. وعدنا يسمع بعضنا البعض كأوضح ما يكون..!!
ليتني أغلقت فمي!

* * *

٤ - بحر الرمال..

لو كان هذا فيلمًا سينمائيًا، لكان هذا المشهد عبارة عن حشد من اللقطات السريعة المتلاحقة، التي لا تزيد الواحدة منها على ربع ثانية.. يقوم بلصقها (مونتير) موهوب.. ثم يضيف إليها شريط صوت حافلًا بالصراخ والبكاء والعويل.. ولا بأس من موسيقا تصويرية سريعة توحي بالنهاية..

ستكون اللقطات كما يلى..

محرك متوقف.. طائرة تنحدر بسرعة لأسفل.. شفتان ترددان الشهادة.. عينان زرقاوان متسعتان.. يد تجذب عصا التحكم في هستيريا..

العرق على جبيني.. الصحراء تقترب أكثر.. طائرة تنحدر.. يد تجذب عصا التحكم في قوة مجنونة.. يد طفولية دقيقة تحاول التشبث بزجاج النافذة دون جدوى.. نظارة تتطاير..

ثم تزداد سرعة الإيقاع.. وتقصر اللقطات..

يد.. عصا.. طائرة.. عينان.. صحراء.. محرك.. ثم شخص أصلع يبحث جاهدًا عن نظارته التي انزلقت من على وجهه (هذا أنا طبعًا)...

ثم الرمال تنتثر في وجه المشاهد.. وتظلم الشاشة..!..

هذا هو ما كان سيراه المشاهد لو أن هذا فيلم سينمائي.. أما والأمر حقيقة فإنني أكتفي بالقول إن الطائرة سقطت.. وقد نجح الطيار في الهبوط بها بشكل شبه أفقي لهذا لم تكن الخسائر فادحة.. وتكفلت الرمال بدفن نصف الطائرة داخلها، مما امتص الصدمة إلى حد كبير..

لقد نجونا.. ولكن ماذا بعد ذلك؟..

* * *

بعد نصف ساعة استطعنا مغادرة جسم الطائرة، بعد أن أزلنا أطنان الرمال الجاثمة خلف بابيها..



بعد نصف ساعة استطعنا مغادرة جسم الطائرة ، بعد أن أزلنا

أطنان الرمال الجاثمة خلف بابيها ..

كان البروفسير يغلي غضبًا.. وصاح في وجهي وهو ينفض ذرات الرمال عن ثيابه:
- هل رأيت أيها المنحوس؟.. لولا تشاؤمك لما حدث شيء!
قلت في برود:
- بالعكس.. إن المتشائم يتوقع الشر فيجده، أو يجد ما هو أفضل، وبالتالي هو يحتاط لكل شيء ولا يؤمن بالحظ.. أما المتفائل فهو يتوقع الخير دائمًا، وهذا شيء عسير..، ولهذا يجد المتشائم في كل وضع سيئ ما هو أفضل من توقعاته..!
- وما هو الأفضل من توقعاتك هذه المرة أيها الفيلسوف
شرعت أفكر هنيهة ثم قلت:.
- لا أدري.. على كل حال لم يصب أحدنا في هذه السقطة، وهذه نقطة في صالحنا.. يجب أن تكون بكامل لياقتنا حين تهاجمنا الذئاب!!
- ذئاب؟
- طبعًا.. هذا شيء حتمي.. لو لم نر ذئابًا لشعرت أن هناك خدعة ما..!.. ولا بد كذلك من الظمأ.. وبعض السراب!...
أعتقد أن القارئ يستطيع أن يخمن ما قاله البروفسير وقتها.. كل هذه الشتائم الإيطالية المشينة التي لا أعرفها الحسن الحظ.. وإن كنت قد استنتجت معناها من احمرار أذني (محمود)...!
أما الأذن الأكثر احمرارًا فكانت أذن الطيار (أحمد) وهو يخرج من بين كثبان الرمل نادمًا على ذنب لم يقترفه..
يا له من مأزق!.. أين نحن؟.. وكيف سنعود؟..

* * *

قال (محمود) وهو يمعن النظر في البوصلة:
- لاشك أننا قرب (نمات) الآن.. وهذا يعني أننا وصلنا تقريبًا..
كل ما علينا أن نجد السير...
قال البروفسير في جدية:
-.. في أي اتجاه؟..
بالتأكيد في الاتجاه الجنوبي الغربي.. هذا هو اتجاه الحدود وربما الهضبة..
ولربما قابلنا قافلة في أحد المدقّات..
قلت وأنا أجلس على الرمال الساخنة:
- سيكون من الخطر أن نترك الطائرة.. ففيها الظل والمأوى..
نظر لي (محمود) نظرة باردة.. ودمدم:
- هل تحب أن تظل هنا حتى تجفف الشمس عظامك؟.. لا أحد يعرف مكاننا.. ولن يبحثوا عنا..
وهكذا شرعنا نخرج ما بالطائرة من مؤن.. وسلاح و... ماء.. لا تنسوا الماء! فلن نلبث يومًا حتى تصير القطرة منه أغلى من الجواهر.. ثم إنني حملت سجائري.. وشرعنا نجد السير فوق الرمال..

ما أقبح الصحراء!.. ذلك المشهد الرتيب الذي لا يتغير، الرمال وجبال قصية ونباتات صبار.. والرمال ليست صفراء زاهية كما تبدو في الصور، بل هي ذات لون رمادي متجهم..، وكلما دنوت من الجبال البادية في الأفق، بدأت تدرك أنها ليست جبالًا.. بل هي مجرد مرتفعات رملية تمشى فوقها، وترى في الأفق جبالًا جديدة..!

الهباء!.. العبث!.. هذا هو ما تعنيه الصحراء لي..

الشمس عمودية تملأ عينيك بالكرات الملونة حين ترفعهما لأعلى.. وعلى الرمال تتناثر مئات الشموس.. آلاف.. ملايين.. كلها تصب أشعتها عليك.. وقدماك تغوصان.. تغوصان..

وجلدك يلتهب دون عرق... و...

وسقطت على الأرض صارخًا:

- لم أعد أستطيع الاستمرار..!.. اتركوني أموت واذهبوا..!

اقتربا مني البروفسير معنفًا.. وسألني:

- قل لي.. ألا تجد غريبًا أن تصاب بكل هذا بعد ساعتين فحسب؟!

ساعتين؟.. فقط ساعتين؟.. ظننت أننا نمشي منذ ثلاثة أيام..!

يا للهول!.. إذن لم يزل أمامي الكثير من هذا العذاب قبل أن أموت...

قال البروفسير وهو يناولني الزمزمية:

- إنني أفهم أمثالك من ضعاف النفوس.. ما إن تسقط في الصحراء حتى تظن - بعد ثلاث دقائق - أن من واجبك أن تموت جوعًا وظمأ وإرهاقًا.. لكن دعني أؤكد لك أنني أفهم كل هذه الألاعيب النفسية.. فلا تعابثني!..

شرعت أجرع الماء شاعرًا أنني أعيش أتعس ساعات حياتي.. كان البروفسير في حال نفسية لا بأس بها.. وعرفت فيما بعد أنه حارب في (طبرق) يومًا ما، إبان الحرب العالمية الثانية، فلم تكن الصحراء قادرة على إرهابه أو إنهاكه..

كان يمشي فخورًا منتشيًا يتقدم مسيرتنا.. وخلفه (محمود) و(أحمد) ثم أنا.. مثال البؤس والتعاسة..

إن لون الرمال يتغير بشكل واضح..

توقف (محمود) للحظة مفكرًا، ثم إنه نادي البروفسير طالبًا منه ألا يتقدم أكثر.. والتقط حجرًا ثقيلًا على الأرض، ورمي به إلى مسافة خمسة عشر مترًا.. وعلى الفور اختفي الحجر..!.. إذن هي رمال متحركة كأن هذا كان ينقصنا..

- إن سطح الرمال المتحركة يكون أكثر انتظامًا ونعومة من الرمال المحيطة به.. ويسهل على العين المتشككة أن تجدها..!..

صاح البروفسير في عصبية:

- لكن هذا خطير جدًا.. يجب أن ندور حول هذه المنطقة..

عض (محمود) شفته السفلى التي بدأت تتقرح.. وقال:

- لا داعي لهذا.. يمكننا أن نمشى في حذر مدربين عيوننا على تجنب الرمال الناعمة أكثر من اللازم.. سنسير في صف رباعي حتى لا يسقط أحدنا دون أن يدري به الآخرون..

ثم رفع اصبعه محذرًا:

- وليتذكر كل من يسقط في هذه الرمال المخلخلة، أن عليه ألا يحاول الصعود في حركات هستيرية تزيده غوصًا.. فقط يحاول أن يطفو على ظهره ويسترخي تمامًا حتى ننقذه..

قال البروفسير مؤمنًا:

- إن هذه الرمال كالماء تمامًا.. من يحاول أن يقف فيه يهبط لأسفل، أما من يحاول أن يستلقي على ظهره فيظل طافيًا.. كأنها سباحة عادية..

- هذا شيء مطمئن لأنني لا أجيد السباحة!

كانت هذه هي كلمتي التي أثارت جوًا عامًا من الوجوم.. ولم يرد أحد، وبدئوا يتحركون ببطء وحذر فوق الرمال ومعهم مضت..

لو لم تكن (البوصلة) معنا لقلت إننا ندور في دوائر مفرغة.. أكاد أقسم أنني رأيت هذه المجموعة من نباتات الصبار عشرين مرة منذ فارقنا الطائرة..!..

وفجأة لمحنا مشهدًا نراه للمرة الأولى..

إنها طائرة.. طائرة ذات محرك واحد ومن طراز عتيق جدًا.. كانت واقفة على مقدمتها مدفونة في الرمال إلى نصفها.. وجناح من جناحيها مهشمًا تمامًا، وكل جسمها من المعدن الصدى المحترق..، إنها طائرة حربية سقطت براكبها البائس منذ عشرات السنوات ووجدناها نحن..

- إنها إيطالية..!.

هكذا هتف البروفسير وهو يجرى ليعاينها.. وشرع يدور حولها متأملًا ومتحسسًا المعدن المتآكل في حنان حقيقي:

- لابد أنها سقطت هنا منذ أربعين عامًا.. فهذا هو طراز الطائرات المميز لهذه الحقبة.. أية روعة!...

قال (محمود) في فتور وقد بدا عليه الحنق:

- بالطبع سقط هذا السفاح، قبل أو بعد غارة على الآمنين من أهل وطني في (فزان)..!.. لقد نال جزاءه..

امتقع وجه البروفسير، وبدا لنا أنه موشك على الانفجار:.

- أيها الشاب.. لقد كان هذا البائس جنديًا ولم يفعل سوى ما أمر به.. أنا نفسي حاربتكم لأن (الدوتشي) أمرني بذلك..!

- لقد ذبح مواطنوك أطفالنا.. ولا أستطيع أن أتصور أن (موسوليني) قد نادى جنرالاته إلى مكتبه، وأمرهم أن يذبحوا الأطفال.. هم فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يفعلوه.. ثم تجد الواحد منهم بعد الحرب يقول في براءة عذبة: لا تلوموني!.. أنا جندي..!.. لقد فعلت ما أمروني به!..

لم يرد البروفسير وشرع يدور حول الطائرة في افتتان.. ومن بين أسنانه كان يدندن لحنًا حماسيًا بالإيطالية.. واضح طبعًا أنه نشيد كان (الفاشيست) يرددونه في أيام الحرب، عن مجد (روما) وما إلى هذا الهراء.. ثم هتفت بكلمات ما لم أفهمها رافعًا كفه إلى السماء..

هذا الرجل مخبول تمامًا.. ربما أكثر مما تصورنا.. والمفزع أننا معه في قارب واحد.. إن هذه الرحلة لن تمر على خير.. أعرف هذا وأشعر به وأنتظره في هلع!..

لقد بدأ الليل يزحف..

* * *

بعد ثلاث ساعات:

ها نحن أولاء جالسون حول النار المشتعلة - التي اشعلها (أحمد) - نتبادل النظرات.. وظلالنا ترتمي خلفنا فوق الرمال.. لا صوت هنالك سوى قرقعة الأخشاب وأنفاسنا.. وفي يد كل منا قطعة من اللحم المقدد يلوكها بصعوبة.. الليل البهيم - ليل الصحراء - يرتمي بثقله فوق الرمال وفوق أرواحنا..

البروفسير يداعب ألسنة اللهب بعصا في يده.. و(أحمد) يميل برأسه على صدره.. وأنا غارق في خواطري السوداء... حين..

هل سمعتم؟!..

ها هو ذا العواء الطويل الحزين تتردد أصداؤه عبر الصحراء.. ثم ترد عليه عشرات الأصوات المماثلة..، ها هو ذا أسوأ كوابيسي يتحقق..

إنها الذئاب..!..

لم يبد على واحد من رفاقي أنه سمع ما سمعت.. ولم تتغير جلسة أحدهم أو تعبيرات وجهه.. إلا أن (أحمد) مد يده إلى بندقية وشرع يجرب تركيب إبرتها.. ثم تنهد ورفع رأسه.. وتمضي الدقائق بطيئة..

لابد أن الساعة كانت تدنو من منتصف الليل حين رأينا أول الذئاب..

في ضوء اللهب البعيد كانت عيناه تلتمعان كجمرتين، وهو يدور حولنا في فضول مرارًا وتكرارًا.. لابد أنه زعيمهم يحاول معرفة ما هنالك..

التقط البروفسير قطعة من الخشب الملتهب وقذفها تجاه ذلك الزائر غير المرغوب فيه.. لكنها لم تصبه.. فقط نجحت في إبعاده بضعة أمتار.. ثم إن (محمود) أشار إلى نقطة ما خلف ظهري:

- هناك آخرون..!

وثبت كالملسوع لأرى ستة أو ثمانية عيون ملتهبة تقف على مسافة عشرة أمتار مني.. إلا أن صوت (محمود) عاد ينهرني:

- لا تجر!.. اجلس كما أنت.. إن الحركات العصبية السريعة تستفزها.. وهي لن تهاجم فردًا في جماعة أبدًا..

- أعرف ذلك.. ولكن هل تعرفه هي أيضًا؟!

كان واضحًا أن الذئاب لم تسمع بهذه المعلومة من قبل.. إذ أن أحدها اقترب مني في تؤدة، ورائحة أنفاسه العفنة تفعم أنفي.. ثم حنى رأسه، وعيناه الرماديتان الجهنميتان لا تفارقانني.. وأطبق على كم قميصي وشرع يجذبه..!.. لم أتحرك في البداية حتى لا أستفزه.. ثم عدلت عن ذلك..

شرعت أحاول تحرير كمي من هذين المنجلين الحديديين دون جدوى.. فقط ازداد زئيره.. وهنا أدركت أنني في مأزق.. مأزق حقيقي..

إنه يجرني معه خارج دائرة اللهب!!

* * *

٥ - الطوارق..

- (محمود)!.. افعل شيئًا..!
- هيه!.. أبتعد يا ابن الشيطان!.. اتركه..!

لم أكن قد غيرت وضع جلستي، بينما كم قميصي في فم هذا الوحش.. وأنا أحاول ألا أفقد اتزاني..، ذلك المشهد الذي ذكرني بالكلب البوليسي حين يتعرف على متهم في عرض، ويجره جرًا خارج دائرة المشتبه فيهم...

وفي رزانة وثقة مد (أحمد) يده إلى البندقية.. في تؤدة صوبها نحو الذئب من مسافة لا تتجاوز مترًا.. و.. ضغط الزناد...

دوى صوت الطلقة في الصحراء.. وحين انقشع الدخان ورائحة البارود كانت هناك جثة ذئب ضخم ممرغة في الرمال، والدم ينز من جبينها.. وكنت أجلس جوارها مشتت الفكر..

وكأنما كانت هذه هي الإشارة..

سرعان ما اندفعت عشرة ذئاب من الظلام نحونا.. ذئب وثب فوق (محمود) فأسقطه أرضًا، وشرع يفتش عن حنجرته.. وذئب وقف على قدميه الخلفيتين منشبًا أنيابه في صدر البروفسير.. أما أنا فكان من نصيبي ذئب معتوه هزيل الجسد سد علي طريق الهرب، وهو يزوم وشعر عنقه منتصب كالإبر.. كان هذا الأبله ينقصني..!.. بادرته بركلة عاتية في ذقنه جعلته يولول.. ويهرع مذعورًا وذيله بين فخذيه.. في حين كان نابان حادان ينغرسان في لحم ساعد (أحمد)..

إن الموقف سيئ.. ومن الواضح أن هذه الذئاب لا تأكل بما يكفي مما جعلها تتمرد على قوانين علم (سلوك الحيوان).. إلا أنني أستطيع أن أجد مسدسي طالما أنا الحر الوحيد هنا..

هرعت إلى حقيبتي وفككت المسدس من داخلها..

واستدرت في الوقت المناسب لأجد ذئبين يهرعان نحوي.. كتمت أنفاسي وأحكمت التصويب.. ثم.. لمحت ذئبين يتلويان ألمًا فوق الرمال...

وركعت على ركبتي، وبدأت اضغط الزناد.. اضغط.. أضغط.. رائحة البارود.. وجثث مشعرة تتناثر.. وصدي الرصاص يدوي..



وركعت على ركبتيّ ، وبدأت أضغط الزناد .. أضغط ..

أضغط .. رائحة البارود .. وجثث مشعرة تتناثر ..

حتى شعرت بيد (محمود) تنشب مخالبها في ذراعي:
- كفي!.. كفى!..
واصلت ضغط الزناد في جنون..
- (رفعت)!.. كفى!.. لقد هربوا بعد أن مات ستة منهم!
هه؟.. وتراخت عضلاتي أخيرًا.. على حين سمعت (أحمد) يقول ضاحكًا:..
- خمسة ذئاب بست رصاصات!.. هل تعترف الآن أن كل إنسان يمكن أن يتحول إلى جزار إذا ما اقتضى الأمر ذلك
هززت رأسي في اشمئزاز.. ورميت المسدس أرضًا.. إنني أمقت السلاح. أمقته.. لكن شيطان العنف قد تحرك لثوان في أعماقي.. وكانت كافية..، قد يقول أحدكم إني كنت مرغمًا.. لا.. كانت تكفيني طلقتان أو ثلاث.. أما ست طلقات، فلا مبرر لها سوى أنني أصبت بحالة من الدموية لم أكن أحسبني معرضًا لها..
على كل حال، لقد نجونا من هذا الهجوم.. ولا أحد ينكر أنني صاحب الفضل الأول في هذه النجاة!..
شرعنا نعود إلى أماكننا في إنهاك.. على حين كوم الطيار الجثث الست جوار بعضها البعض بعيدًا عنا..، وفي وجوم غدنا نحشوا أسلحتنا تحسبًا لهجمة أخرى من هذه الوحوش المتحمسة..
مر ربع ساعة ثم سمعنا صوتًا..
صوتا آدميًا ينادي!.. فوقفنا متحفزين لنرى هنالك...
وفي الظلام لمحنا وحوشًا عملاقة تدنو منا.. وحوشًا لها ظهر عال مدبب وعنق طويل.. إلا أنها حين اقتربت أكثر، عرفنا أنها جمال يمتطى ظهر كل منها رجل ملثم ضخم الجثة.. كانت تقترب في تؤدة من النار التي أشعلناها وتدور حولها..
- السلام عليكم!
هكذا حيانا أحد الرجال بلسان ليس عربيًا تمامًا.. فرددنا التحية بأحسن منها.. همست في أذن (محمود):
- طوارق؟
- كلا.. بل (تبو) وهم يشبهون الطوارق كثيرًا..
- وما الفارق بينهما؟
- الاسم..؟..
كان الرجال يحيطون بنا حاملين بنادقهم.. مهيبين. غامضين..
وكان كبيرهم يقول لـ (أحمد) وهو مازال على جملة:
- سمعنا صوت الرصاص فهرعنا إلى هنا.. لقد أدركنا أن الذئاب قد هاجمت أحدهم.. إن ناركم قد قادتنا إلى هذا المكان..
لم يحتج البروفسير إلى ترجمة كي يعرف موضوع المحادثة.. فالموقف يفسر نفسه بوضوح تام.. إننا سعداء الحظ.. ولقد نجونا بعد اثنتي عشرة ساعة من سقوط الطائرة، وبالتالي لن يكون هناك جوع ولا ظمأ..!.. حمدًا لله.

شرع (أحمد) يحكى لهم قصتنا.. وكان اثنان منهم قد أناخا جمليهما فوق الرمال، وتقدما نحونا..، وعلى حين كانا يصغيان لحديثه، شرعت أتأمل ملامحهما..

كانا ملثمين بلثام ازرق اللون من القماش المصبوغ بالنيلة.. وكانت بشرتهما سمراء، إلا أن أحدهما كان أزرق العينين..

الملامح قوية صلبة مليئة بالرجولة - على الأقل ما بدا منها خلف اللثام - وكان كل منهما يحمل سيفًا مرعب الشكل، ذا حدين وخنجرًا وبندقية عتيقة، زخرفت بنقوش عربية بديعة..

صاح البروفسير في لهفة وهو يتابع المحادثة العربية:

- عم تتحدثون؟.. أنا لا أفهم حرفًا..!

التفت إليه وشرعت أترجم بسرعة خلاصة المحادثة.. ثم قلب إنهما يرغبان في معرفة وجهتنا.. فقال في دهشة:

- هل هذا سؤال..؟.. هضبة (تسيلي) طبعًا!

كان الرجلان قد سمعا لفظة (تسيلي) وسط الألفاظ الانجليزية، فتلاقت عيناهما في نظرة ذات معنى.. ولكن أي معني؟..

ولبضع دقائق ساد الصمت.. ثم قال أحدهما لي:

- هل تصحبوننا؟.. إننا نخيم على مسافة قريبة من هنا.. ومعنا أربعة جمال بلا راكب...

- هذا محتم...

وفي صمت اطفأنا النار.. وحملنا حاجياتنا.. واتجهنا إلى.. إلى أربعة جمال تنيخ فوق الرمال.. يا للهول!... كيف يمكن ركوب هذه الديناصورات؟.. إلا أن أحد (التبو) ساعدني على الصعود إلى ظهر جمل.. ثم أصدر له أمرًا وربت على أنفه، فوجدتني وكأنني في أرجوحة معلقة من طرف واحد..!.. أمامًا.. خلفًا.. أمامًا... وصراخي يملأ الصحراء.. ثم استقر الديناصور على أقدامه الأربع، وشعرت أن الأمر يتحسن.. وكأنني أرمق الصحراء من شرفة عالية..

كانوا ما زالوا يضحكون ساخرين، حين بدأت المسيرة تتحرك.. والان أفهم لماذا أسموا الجمل ب (سفينة الصحراء).. لأن الراكب فوقه يصاب بدوار البحر... نعم.. أنا واثق من ذلك..

* * *

في مخيم هؤلاء الرجال جلسنا نحسو لبن النياق الرائب، ونأكل التمر...

كان النهار قد جاء بشمسه القاسية ورماله الملتهبة، لكن الوضع كان يختلف هذه المرة.. وشرعت أرمق - في فضول - كل تفاصيل هذا المخيم.. كانت الخيام مصنوعة من جلد الإبل المدبوغ دون عناية وهنا وهناك كانت امرأة من نسائهم تقوم بمهام يومها الرتيبة.. وأدهشني أن النساء حاسرات الوجه، في حين لم ينزع رجالهم اللثام إلا في أثناء الأكل والشرب، وكان وجههن وسيمًا، فيه شيء من الجمال الخشن.. جمال الصحراء.. وكما بدأت ألاحظ، أنه كانت هناك عيون زرقاء أكثر مما كنت أتوقع..

أما اللون الأصفر الغريب على وجوههن، فهو مسحوق من خام النحاس يبعدن به الذباب.. وأما اللون الأحمر على كفوفهن وأقدامهن فهو لون الحناء التي تضعها المرأة المتزوجة..

وكانت النساء المتزوجات يتحركن بحرية تامة، ويجلسن معنا دون حرج، أما الفتيات فلم نر منهن واحدة..

كنت غارقًا في هذه التأملات، حين شعرت بيد البروفسير تجذب معصمي، لأشارك في الحديث.. كان (محمود) يتكلم شارحًا ما يريده العالم الإيطالي من هؤلاء (التبو):

- إننا نرغب أن تشاركونا هذه الرحلة، وتقودونا إلى كهوف (تسيلي).. وسنجزل لكم العطاء..

شرع الرجال يتبادلون النظرات التي لا أفهم مغزاها.. ثم قال واحد منهم، عرفت فيما بعد أن اسمه (كريم)، وأنه قائد هذه المجموعة الصغيرة، وأقوى رجالها شخصية وبأسًا:

- سيدي.. إن الطوارق لا يتحدثون كثيرًا.. قدم عرضك..!..

نقل (محمود) هذه الكلمات إلى البروفسير، الذي مد يده إلى جيبه، وشرع يعبث هنا وهناك، ثم أخرج شيئًا أصفر اللون براقًا.. إنها سبيكة لا بأس بحجمها.. سبيكة ذهبية.. وصاح في لهجة منتصرة:

- هذه..!.. ولكم مثلها عندما نعود من الكهوف..

تناول الرجل السبيكة ووزنها في يده بخبرة.. ثم قال وقد بدا عليه الاهتمام:

- ولماذا تدفع الثمن ذهبًا؟!

- لأنني أعتقد أنكم لا تتعاملون بالعملات الورقية..

انحنيت جوار أذن (محمود) وهمست:

- هل كان يحملها معه طيلة الرحلة؟

- هذا واضح.. إنه حذر جدًا وقد قدر أنه سيحتاج لمعونة الطوارق في مرحلة ما من الرحلة.. وقد كان..!

ولماذا يخبرهم أن معه سبيكة اخرى؟.. من الممكن أن يذبحونا في أية لحظة ليأخذوها..:

ابتسم (محمود) في ثقة وهو يداعب شعره الأشعث:

- ليس مع (التبو).. إن هؤلاء القوم مثال الشرف...شديدو الكبرياء، إلى حد أنه لا يوجد شيء يستطيع افسادهم.. ثم إننا تحت رحمتهم على كل حال..!

قال (كريم) وهو يدس قطعة الذهب في جيبه:

- ما دمتم تريدون الهضبة إلى هذا الحد.. دعوني أعرفكم على دليل لن تجدوا مثله وإن جهدتم.. وإنها لإرادة القدر.

وأشار إلى أحد الرجال الصامتين الجالسين جواره:

- تكلم يا (جبريل)..

في هذه اللحظة - وكأنما بعصا سحر - رمي البروفسير وعاء اللبن الخزفي.. والتمع وجهه حماسة، ووثب من مكانه كالملسوع:

- (جبريل)... (جبرين)!.. أنت..؟!.. أنت؟!..

وشرع يتحسس وجه الرجل - الذي لم يبد علامة اهتمام واحدة - وهو يردد:

- أنت دليل (هنري لوت)!.. الدليل الذي قاده إلى كهوف (تسيلي) منذ عشر سنوات!!.. أنت نفسك..!

أعاد (جبريل) لثامه إلى وجهه في هدوء.. وهمس:

- لقد كانت رحلتي مع الأستاذ (لوت) شاقة حقًا!

* * *

٦ - الكهوف..

تعالى صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر.. فوقفنا نؤديها فوق الرمال التي بللها الندى، في حين شرع البروفسير يراجع أوراقه وخرائطه...

كانت حالته المعنوية قد تحسنت إلى حد كبير، حين عرف أن (جبريل) - أو (جبرين) - الذي كان دليل (هنري لوت) في رحلته الشهيرة، سيكون دليله هو أيضًا..

و (جبرين) هو النطق الأوروبي المتعثر لكلمة (جبريل).. كما أنه تحريف لكلمة (جبارين) البربرية، التي يسمون بها الجبال...

فرغت من صلاتي مع رجال (التبو)، فاتجهت متثاقلًا إلى البروفسير وجلست جواره على الرمال.. ثم ابتلعت ريقي.. وسألته:

- بروفسير... إذا كان هناك من قام بهذه الرحلة ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ودرسها.. فما الذي تعتزم أن نضيفه نحن؟!

قال الرجل دون أن ينظر لي (لأنه لم يعد يطيق رؤيتي منذ سقطت الطائرة):

- إنني أبحث عن الكهف الذي لم يدخلوه.. عن الحجر الذي لم يقلبوه..

ثم إنه فتح أمامي إحدى الخرائط، وأشار بقلمة إلى مجموعة من رسوم الكهوف المبسطة.. وكانت حول أحدها دائرة باللون الأحمر..

- هذا الكهف الصغير التافه مثلًا.. لم يحاول أحدهم دخوله، لأنهم كانوا غارقين في تدوين ما رأوه بالكهوف الكبرى وكلهم انبهار.. بالإضافة إلى أن مدخله مسدود نتيجة انهيار قديم..

- وهذا هو الكهف المختار؟

- لنقل إنه أحد الكهوف المختارة..

كان الفجر ينشر عباءته الدموية فوق الصحراء.. وأنسامه العذبة - الباردة قليلًا- تدغدغ وجوهنا.. حين اتجهنا للجمال وشرعنا نركبها..، وكالعادة....

هأنذا أقذف.. أمامًا.. خلفًا.. أمامًا.. وأخيرًا!!

على أن الجمل كان متعكر المزاج قلقا إلى حد غير عادي.. وشعرت أنه سيقذفني من فوقه في أية لحظة.. ولشدة دهشتي لمحت أحد رجال (التبو) يشعل سيجارة - سيجارة من سجائرهم الملفوفة يدويًا - ويدسها في... منخار الجمل!..، أما الأغرب فهو أن الجمل شرع يستنشق الدخان في نهم.. وبدأ يسترخي قليلًا..!..

قال لي (محمود) مفسرًا....

- إن هذه الجمال مدمنة تدخين.. ولابد لها من سيجارة يوميًا!.. هذا هو ما يعرفه كل (جمّال) يجيد عمله.

إن غرائب هذا العالم لا تنتهي.. ويبد أنني سأظل أراها وأندهش، حتى اللحظة التي أغمض فيها عيني للأبد..، على أنني لا أحب كثيرًا من يفسد فطرة الله في الحيوانات العجماء على سبيل الدعابة. كالكلب الذي يلعق الويسكي والشمبانزي الذي يدخن السيجار.. والجمل الذي يهوى التبغ!..

لكن الوقت ليس مناسبًا للانضمام إلى جمعية (الرفق بالحيوان).!

لقد حان الوقت كي نبدأ مسيرتنا إلى المجهول..

* * *

إنها الحقيقة.. الحقيقة التي ستهب العلم مرونة لا تقاس..

* * *

حين يريد (باولو جيرالدي) شيئًا فإنه يناله.. وليس على الحاضرين إظهار امتعاضهم..!

* * *

لو لم نر ذئابًا لشعرت ان هناك خدعة ما..

* * *

(أحمد)!.. إلى أين أنت ذاهب؟.. يا لك من معتوه!.. ستسقط في إحدى الحفر ويتهشم وجهك..

* * *

ها هي ذي الهضبة تستلقي في استرخاء أمام أعيننا.. وها هم (التبو) أولاء يشيرون لها ويتبادلون الكلام بلهجتهم التي لا نفهمها.. في حين يدور (جبارين) حولها بجمله في تؤدة..
أصوات الجمال وهي تبرك على الأرض.. ثرثرة الرجال.. عقرب ينسل بعيدًا عن أقدامنا باحثًا عن مكان أكثر هدوءًا
- احترسوا من الأفاعي لأن لدغتها قاتلة!
قالها (محمود) وهو يتحسس موطئ قدميه..، والواقع أن تحذيره كان في موضعه لأن المكان كان خطيرًا حقًا..
بشيء من تدقيق البصر تدرك أن تحت كل حجر شيئًا ما.. لابد أن تكون هناك أفعى مسترخية ترمقك في كسل.. أو عقرب.. أو سحلية شنيعة المنظر.. أو شيء ما لا تدري ما هو لكنه حي!!...
إن الصحراء كابوس حقيقي.. أنشودة الجفاف والخشونة والقسوة.. وكل ما يحيا فيها هو جاف خشن قاس.. حتى هؤلاء (التبو) المهذبون..
كنا قد وصلنا إلى مجموعة من الكهوف الصخرية المنحوتة بفعل الطبيعة في جسم الهضبة.. وكان (جبريل) يتفقدها بعين خبيرة وفتور كأنها صديق قديم لا يثير اهتمامه...
أما البروفسير فقد بدأت أشعر بالقلق من تدهور حالته العقلية.. كان يصرخ.. ويرقص.. ويحدث الجميع بالإيطالية التي لا يفهمها سوى (محمود).. كان انبهاره يفوق الوصف، خاصة حين رأي علامات محفورة على مداخل الكهوف.. علامات رسمها من سبقونا.. رجال (هنري لوت) ورجال الرحال (برينان)...

استعد البروفسير ليدخل الكهف الأول، لكن (جبريل) الحاذق أوقفه في حزم.. وأمسك بحجر.. وطوح ذراعه ليلقيه في الداخل.. سمعنا صوت شيء يتحرك ثم ساد الصمت...

- إنه حذر - قال (محمود) - يريد التأكد من إبعاد الأفاعي.. وهذا حقه بلا شك..

وظهر مشعل أو اثنان. وبدانا التقدم داخل الكهف في بطء شديد.. ظلالنا تسبقنا وتتبعنا.. ورائحة القدم والرطوبة تفعم أنوفنا.. مسيرة رهيبة لبقعة من النور المتراقص بين جدران الكهف.. إن أي شبح يسكن هذا المكان كان سيموت ذعرًا لو رآنا..!

- لا أرى شيئًا أين هذه النقوش؟

قال البروفسير وهو يرفع ضوء بطاريته إلى أعلى:

- إنها في كل مكان.. ألا تراها؟!

* * *

هي لغز الألغاز.. سر الأسرار.. المرآة المسحورة التي تقودنا إلى عالم آخر له مقاييس مختلفة..

* * *

منذ مائتي قرن كانت هناك حضارة يعرف أهلها معنى الرسم!

* * *

شرع البروفسير يئن.. يئن كمن يتلوى في الجحيم.. العرق يغمر جبينه وكل جوارحه ترتجف..

وعلى ضوء البطارية والمشاعل، كنا نرى أغرب ملحمة رآها ورسمها إنسان..

هل ترى معي هذه الأجساد الطائرة.. الملتحمة.. المتشابكة..؟.. رجالًا يجرون نحو أجسام أسطوانية غامضة.. ورجالًا كأنهم يرتدون خوذات لامعة وثيابًا فضفاضة.. نساء شقراوات ضخام الأجساد، يطرن ويرمقهن في دهشة بشر سود ضئيلو الحجم..

وهذا؟.. هذا رأس يخرج منه قرنا استشعار.. الضوء يتراقص على الرسوم التي توشك أن تتحرك... بل هي تتحرك..

أما هذا... لأعلى قليلًا.. لأعلى.. يمينًا.. نعم!.. هو ذا.. كأنهم رجال يرتدون زعانف الضفادع البشرية ألا ترى ذلك؟

أي خيال محموم وقف هنا منذ مائتي قرن، كي يسكب على هذا الجدار الصخري أسراره المجنونة؟

أية عبقرية - في فجر التاريخ - آثرت أن تترك الرمح كي ترسم..؟.. ولأي غرض..؟..

إن هذه النقوش رائعة الجمال لكنها - في رأي - لا تحمل من أسرار الكون، أكثر مما تحمله خطوط طفل جامع الخيال، على هوامش كتبة المدرسية..!..

همس (محمود) في أذني محاولًا ألا يفسد جو الرهبة العام:

- ما رأيك؟..

تأكدت أن البروفسير لن يسمع نبرة اللامبالاة في صوتي.. وقلت:

- عبقري..!
- لا أتحدث عن جودة الصور.. ولكن أتحدث عن معناها.!.
- هل تريد معنى لا وجود له؟.. إن الأمر كله لا يزيد على رجل كهف يجيد الرسم..
- ما زلت مصرًا..؟
- بالطبع..

في هذه اللحظة كان البروفسير قد أخرج كاميرا ذات فلاش وشرع يلتقط عشرات الصور لهذه الرسوم الحائطية.. حوالي خمسة آلاف رسم صغير حاول أن يلخصها في فيلمين أو ثلاثة.. ولاحظت - في خبث - أنه نسي أن يزيل غطاء العدسة، مما جعلني أشعر ببهجة وحشية.. لن ألفت نظره لهذا، خاصة وأنه كان قد انتهى بالفعل من تدمير أفلامه الثلاثة حين لاحظت ذلك..

إلا أنني - بعد دقائق - شعرت بوخز في ضميري.. فأشرت إلى العدسة بكياسة.. أطلق سبة إيطالية وشرع يعيد تعبئة الأفلام - التي لا بد أنها ظلت خامًا - ويصور المشاهد مرة اخرى..

بعد ساعة بدأ الملل يقتلني..

اختلست نظرة إلى رجال (التبو)، فوجدتهم يقفون ساكنين كالصخر، وعلى وجوههم أمارات عدم المبالاة.. إن الأمر بالنسبة لهم لا يتجاوز القيام بمهمة روتينية قاموا بها مرارًا.. وهم - مثلي - لا يرون أية روعة في هذه الرسوم، سوى أنها تجذب العلماء المخبولين الذين يدفعون أغلى الأثمان..

والآن نترك هذا الكهف الممل لندخل كهفًا آخر.. ونترك ذلك الكهف الممل إلى كهف أكثر مللًا..

لم أعد أتحمل.

إن هذه المشاهد المكررة تتداخل في ذهني تمامًا.. وكلها تتشابه...

وكلها لا تثير اهتمامي..

والبروفسير يزداد حماسنا وجنونا.. و(التبو) يزدادون لا مبالاة.. و(أحمد) يزداد إرهاقًا..، إلا أننا فرغنا - أخيرًا - من أكثرها..

حتى وصلنا إلى الكهف الصغير الذي لم يدخله أحد.. الكهف الذي سدت فتحته بصخرتين كبيرتين..، تقدم البروفسير وطفق يتفحص الصخرتين في فضول.. ونظر للرجال مستفهمًا كأنه يطلب العون..

- لا...!

قالها (كريم) في صرامة وحزم، بشكل لا يدع مجالًا للمزيد من الإلحاح أو الأسئلة.. إن لديهم سببًا قويًا يمنعهم من تركنا - أو مساعدتنا - لنحرك هذه الصخور..

- ولكن هذا الكهف..
- لا...!
- لقد دفعت أجركم كي....
- لا...!

قالها (كريم) وهو يبتعد معلنًا انتهاء كشوف هذا اليوم ولم يكن في وسعنا سوى أن نمضي خلفه مبتلعين أسئلتنا..

* * *

كان الليل قد حل والرؤية غدت عسيرة نوعًا.. الموجودات قد بردت مكتسبة بذلك اللون الأزرق الغامض ؛ حين جلسنا حول النار نلتهم الخبز واللبن الرائب والتمر..

كنت قد خلعت حذائي فأخذت أصابعي ترقص رقصة الألم.. كأن جريان الدم فيها يمزقها.. والانتفاخ يتزايد..

أما البروفسير فلم يخلع حذاءه.. ولم يأكل، فقط عيناه الزرقاوان تلتمعان في ضوء اللهب، تحت وطأة فكرة مجنونة تحاصره..

ظهرت آلة وترية عجيبة، تشبه كمانًا ذا وتر واحد أو (ربابة) أمسك بها واحد من الرجال وبدأ يعزف.... فهمست في أذن (محمود):

- حتى هؤلاء لهم موسيقا؟

- ولم لا؟.. أليسوا بشرًا؟.. هل قابلت في حياتك وأسفارك بشرًا لا يعزفون ويغنون، حين اجتماعهم حول النار ليلًا؟..

- وهذه الآلة؟.. إنها تشبه الربابة في ريف مصر..

- اسمها (الأمزد).. وستسمع منها عجبًا..

بالفعل بدأ الرجل يغني بصوت رخيم.. وبلهجة لا أفهمها..، أغنية حزينة تتحدث - بالتأكيد - عن الوحدة.. عن حب ضائع وحبيبة قاسية.. عن الصحراء.. عن ديار الأحباب.. عن كل شيء حزين يعتمل في صدرك، ولا تجد الجرأة كي تفصح عنه حتى لنفسك..

انهما دمعتان.. نعم.. دمعتان تنحدران على خدي من هذه الأغنية البربرية، التي أسمعها في الصحراء بهذه الكمان الكسيحة..

وبين دموعي شعرت بالبروفسير يميل علي ليفسد كل شيء:

- الصخرتان!

- ما لهما؟.. أي صخرتين؟

- الصخرتان على باب الكهف!.. لم يكن هذا انهيارًا جيولوجيًا، بل وضعهما إنسان عنوة ليسد المدخل..

- ولماذا يفعل ذلك؟...

- ثمة شيء لا يريد لنا أن نعرفه، أو شيء لا يريد له أن يخرج.. لهذا ينبغي أن نعرف كنه هذا الشيء..

وتقلص وجهه في تصميم:

- يجب أن ندخل هذا الكهف.... الليلة!

* * *

٧ - الكهف الذي لم يدخلوه..

حينما نام الرجال.. تدثرت بالغطاء الصوفي الذي أعطوه لي، وتكورت على نفسي جوار النار.. إن برد الصحراء قاس.. قاس كنصل الخنجر..

لابد أن الساعة كانت الواحدة بعد منتصف الليل، حين شعرت بيد البروفسير الحازمة تهزني هزًا.. وعلى ضوء القمر الذي لم يكتمل بعد، لمحت وجهه القلق المتلهف.. كدت أتكلم لولا أن سدت كفه فمي.. وهمس:

- شش!.. إنني ذاهب مع (محمود) و(أحمد) لرؤية الكهف.. فهل ترغب في أن ترافقنا..؟.. لا إجبار هنالك

همست والنوم لم يزل يداعب جفوني:

- ولكن لماذا لا تنتظر للصباح؟

- لأن الرجال سيمنعوننا من ذلك..

في ثوان أعدت تقييم الموقف.. سنكون ثلاثة - بل أربعة - ولن يقتضى الأمر سوى بضع دقائق، لأن الكهف جوارنا.. وبالطبع هو ضحل كباقي الكهوف.. فلم لا أفعل ذلك؟!.. على الأقل سأرضي فضولي، وأنفي تهمة الجبن التي ألصقها الإيطالي بي..

ثم إن هناك متعة غريزية ما، في اكتشاف الأماكن الممنوعة.. متعة كامنة في الوجدان الإنساني من فجر التاريخ.. هل تذكر قصة ذي اللحية الزرقاء، الذي أهدى زوجته قصرًا به تسع وتسعون حجرة، يمكنها أن تتنقل بينها كما تشاء؟.. لقد منعها من دخول الحجرة المائة.. لهذا لم تعد ترى في القصر سوى هذه الحجرة المائة.. وعلى الرغم من تحذيره دخلتها، فماذا رأت وماذا وجدت؟!...

إنه ولع الإنسان بالمجهول.. الولع الذي لا يرتوي أبدًا...

وهكذا - وكما توقعتم - حشرت قدمي - اللتين انتفختا بفعل الراحة. في فردتي الحذاء.. ونهضت في خفة معهم...

إلى الكهف الأخير..

* * *

وقفنا أمام الكهف.. مدخله مسدود بصخرتين كبيرتين.. وثمة كتابة محفورة بحروف غريبة على إحداهما.. على ضوء الكشاف شرعنا نتأملها.. ونتساءل.. قال البروفسير وهو يلهث انفعالًا:

- إنها أبجدية الطوارق.. حروفها مأخوذة من اللغة القرطاجية القديمة..

- وماذا تعنى؟

- لا أدري.. لكنه تحذير للداخلين طبعًا..! ثم إنه أشار لنا كي نتعاون على تحريك إحدى الصخرتين..

وتكاتفنا نحن الأربعة وشرعنا.. نجاهد.. نجاهد.. نجاهد.. شفاهنا السفلى تنزف من أثر أسناننا.. وظهورنا تتشقق.. وعروقنا تتفجر.. لا بد أن الدم ينزف من شعيرات عيني الآن.. ولا بد أن

عضلات ذراعي تتمزق..
هيلا هوب!.. هيلا هوب!.. إنه يتحرك..!.. لا تتراخوا يا شباب.. هيا!.. هيا!... (أحمد)!.. أنت تتظاهر بالمعاونة.. وأنت تركز الثقل ناحيتي..!.. هوب.. هوب... مستحيل.. لن نتمكن أبدًا.. إنني سأصاب بانزلاق غضروي.... لقد نجحنا!.. أخيرًا..!..
أخيرًا مالت الصخرة على جانبها، وغدت موطئًا لأقدامنا يمكننا الصعود عليه ودخول الكهف.. إذن هيا بنا..
- لحظة!..
قالها (محمود) وهو يقذف حجرًا إلى داخل الكهف.. فهو لم ينس الدرس بعد.. وانتظرنا دقيقة.. ثم شرعنا نثب فوق الحجر إلى الداخل..
وأضأنا بطارياتنا لأن الظلام كان دامسًا.. دامسًا..

* * *

كانت رائحة العطن تملأ المكان..
ومن السقف كانت الصخور الهوابط تتدلى، كأنها أنياب وحش خرافي أطبق علينا.. حاولت أن أبعد هذه الفكرة من خيالي..
أما الجدران فكانت صخورًا.. صخورًا عادية لا رسوم عليها.. مجرد صخور بلهاء في كهف ضيق كريه الرائحة..، وبالطبع كانت خيبة أمل البروفسير هائلة، وازداد وجوم وجهه، كأنه كان يتوقع أن يجد سر الحياة في صندوق ذهبي داخل الكهف...
أخذ ضوء بطارياتنا يتحرك ببطء على الجدران، بحثا عن شيء ما دون جدوى.. لقد نسي ذلك الفنان الغابر أن يضع بصماته على هذا الكهف.. أو لعله سئم الأمر برمته..
وفجأة همس (محمود) في عصبية:
- صه!.. هل سمعتم هذا؟
- ماذا؟
تصلب قليلًا.. ثم استرخت عضلاته.. وهمس:
- لا شيء....
ومضينا نواصل جولتنا عبر الجدران..
عجبًا..!.. أكاد أقسم أنني سمعت صوتًا غريبًا أنا الآخر.. لكن الهستيريا الجماعية حقيقة لا مراء فيها.. والايحاء قوة كاسحة...
- انظروا!.
صاح البروفسير في لهفة وهو يشير إلى شيء ما في أحد الأركان، فهرعنا إليه.. كان يشير إلى الأرض بإصبع مرتجفة..
إنها حفرة.. حفرة حقيقية.. وعلى ضوء بطارياتنا المرتجفة استطعنا أن نرى درجات.. درجات سلم هابطة، حفرت بعناية لا بأس بها!..
ودون كلمة أخرى شرع البروفسير يتحسس الدرجات بقدمه هابطًا في الحفرة، وهو يحرك ضوء بطاريته لأعلى وأسفل..

مددت عنقي من الفتحة وصرخت بصوت مرتجف:
- أ.. بروفسير.. ماذا تفعل؟
صاح في حنق:
- يا له من سؤال!...
- لكن الوقت ليس مناسبًا.. لا توجد معنا حبال ولا أسلحة ولا....
لكنه لم يرد.. وواصل النزول منبهرًا.. هناك مصيبة ستحدث هاهنا.. نعم.. أنا واثق من ذلك بلا أدنى مبالغة..
صرخ (أحمد) في هلع:
- إنه مسحور!.. أنا متأكد من ذلك!.. إن شيئًا يناديه!...
انتصب شعر رأسي من هول الفكرة.. ونظرت له في غيظ.. فليس الوقت ملائمًا لهذه الملاحظات العبقرية.. أما (محمود) فبدت عليه علامات التفكير.. قطب جبينه ثم همس لي وهو يركع على حافة الحفرة:
- هل تعرف فيم أفكر؟.. إلام تؤدي هذه الدرجات؟.. ومن صنعها؟..
- ليست لدي أدنى فكرة...
ابتسم في خبث.. والتمعت نظرة شيطان يحلم في عينيه.. ماذا؟.. هل هو حقًا يعتقد ذلك؟.. كلا.. إن هذا جنون..
- (محمود)!.. لا تقل إنك تعتقد..
- أنا لا أعتقد.. أنا متأكد!
ابتلعت ريقي في عصبية.. إن الفكرة مرعبة لكنها واقعية.. هل هذه الدرجات - التي صنعتها يدا إنسان ببراعة - تقود إلى عالم ما تحت الأرض؟.. هل هذه الدرجات تهبط إلى (الأطلنطس)؟!!..
قلت بصوت متحشرج:
- ولكن لا دليل.. على ذلك....
قال بنفس الابتسامة المرعبة وهو يصلح من شأن شعره:
- يوجد أكثر من دليل.. الرسوم العجيبة التي لا يمكن أن يرسمها رجل كهف متخلف.. الكهف المسدود بصخرتين.. رعب رجال (التبو) والخرافات التي لا بد أن أهلهم قد حشروها في رءوسهم عن (سكان ما تحت الأرض)... لهذا سدوا المدخل والمخرج الوحيد إلى هذا العالم.. وتدريجيًا تحول مدخل هذا الكهف إلى (تابو) له قدسية المحرمات الدينية..
- إذن لهذا السبب لم يدعوا (رينان) و(لوت) كي يدخلوا..
- بالتأكيد...!.
نهضت على ركبتي، وشرعت أنفض الغبار الذي تراكم على ركبتي بنطلوني.. وقلت في توتر وأنا أشعل سيجارة:
- والبروفسير!.. يجب أن نمنعه من النزول...
- بل من الحكمة أن نكون معه..!.. الله وحده يعلم ما يوجد تحتنا..!.
ثم بدأ يستعد للنزول.. واستطرد متسائلًا:
- هل معك مسدسك؟.. نعم؟.. هذا نبأ طيب.. إذ أننا لا نملك أية أسلحة.. هل ننزل..!.
وبدأ يهبط في تؤدة وأنا خلفه.. ثم (أحمد)...

هل كان من واجبنا أن نترك أحدنا ليراقب الكهف بينما نهبط نحن؟!.. لا أدري.. لا أدري حقًا..، ولكن لا تلومونا.. فإننا لم نكن نعلم بتاتًا ما ينتظرنا بعد هذه المغامرة الخرقاء..
لم نكن نعلم بتاتًا..

* * *

لم نكن قد هبطنا أكثر من مائة درجة حين دوت الصرخة.. صرخة فزع عارمة قادمة من أسفل.. ثم فوجئنا بالبروفسير يصعد السلم تجاهنا، وهو لا يكاد يرى ما أمامه.. أوقعني.. واصطدم بـ (أحمد).. ثم سقط بدوره جالسًا على إحدى الدرجات، وشرع يعول كالفتيات المراهقات وقد تقلص وجهه..
كان يتحدث بالإيطالية كأنه مدفع رشاش مجنون.. ووقف (محمود) جواره يتابع كلماته وقد احتقن وجهه.. تساءلت في جزع متوجس:
-(محمود)!.. ماذا يقول؟..
لم يرد الفتى وظل يتابع الكلمات في اهتمام..
- (محمود)!.. تكلم بالله عليك!..
قلتها وأشعلت سيجارة أخرى.. وبدأ السعال يتسرب إلى صدري..، قال (محمود) وهو لا يفارق البروفسير بعينيه:
- إنه خائف!
- يا لك من عبقري!.. وهل هذا يحتاج لمترجم؟!..
- ويقول إن (الشيء) قادم.. ويأمرنا أن نهرب..
- وما هو هذا (الشيء)؟
- لم أفهم في الواقع.. إن حالته كما ترى وكلامه يفتقر لأي ترابط..، ثم إنه نظر لساعته على ضوء بطاريته.. وغمغم:
- على كل حال لقد صار الفجر دانيًا.. ومن الحكمة أن نعود قبل أن يصحو الرجال لصلاة الفجر ويعلموا بمغامرتنا هذه..
قال (أحمد) وهو يمسك بيد البروفسير.. وينهضه:
- ثم إن حاله لا تسمح بالتمادي..
وهكذا - ولحسن حظى ورحمة بأعصابي - عدنا إلى الكهف.. وخرجنا منه ثم تعاونا على إرجاع الصخرة إلى أقرب وضع ممكن لما كانت عليه.. لكن الفتحة ظلت واسعة برغم كل شيء..
كان ضوء القمر يفترش الرمال حين عدنا إلى المعسكر محاولين أن نمنع البروفسير من الصراخ الهستيري.. ولحسن الحظ كان الرجال جميعًا نائمين.. إن هؤلاء القوم يتمتعون بضمائر نقية والحق يقال!..
رقدنا فوق الرمال خالعين أحذيتنا، وشرعنا نرفع أصوات شخيرنا قدر الإمكان.. على أننا - بعد عشر دقائق - لم نعد في حاجة للتصنع.. وذبنا في كأس النعاس شهية المذاق..
في الرابعة صباحًا شعرت بيد أحدهم تهزني لتوقظني كي ألحق بصلاة الفجر..
وحين بزغت الشمس لم نكن نتوقع أن تكون حال البروفسير سيئة إلى هذا الحد..

* * *

٨ - النداء الغامض..

طيلة النهار ظل البروفسير يهذي ويصرخ، ويردد عبارات تهديد إيطالية يرهب بها شيئًا ما..
ما الذي رآه هذا الرجل؟.. وما هو ذلك (الشيء)؟.. إن حالته العصبية سيئة بلا جدال لكني لا أميز سببًا طبيًا واضحًا لذلك.. ولا أستطيع أن أعاونه.. كل ما يمكنني هو أن أدس الطعام والماء دسًا في فمه مع بعض أقراص الـ (فاليوم) المهدئة..، وأن أزيد معدل استهلاكي من السجائر إلى أرقام فلكية.. لا أحب هذا.. لكني متوتر.. متوتر..
أما (التبو) فكانوا جالسين حولنا في وجوم.. يرمقون المشهد من عيونهم الحادة التي لا تطرف.. إن هؤلاء القوم أشداء أمناء لكنهم لا يتعاطفون معنا بتاتًا، ولا يحملون لنا أية مودة.. أقسم على هذا... إنني لفي أمس الحاجة إلى أن أذهب بعيدًا عن كل هذا.. لا أريد أن أرى حولي رمالًا ولا كهوفًا ولا (تبو) ولا أساتذة جامعة مجانين.. لكن ما باليد حيلة..
إن قطار (القاهرة) لا يمر - للأسف - جوار هضبة (تسيلي)!

* * *

جاءني (كريم) ومعه اثنان من الرجال، ووقف أمامي هنيهة.. ثم تربع أمامي على الرمال وشرع يتأملني قليلًا.. فابتسمت في حرج..
- سيجارة؟!..
قلتها مادًا يدي بالعلبة متوددًا.. لكنه ظل ثابتًا يرمقني بعينية الحادتين الثاقبتين.. شعور مزعج حقًا!.. لا أذكر إن كانت كلمة (سارتر) القائلة إن الجحيم هو عيون الآخرين معروفة لي وقتها.. لكنني كنت بحاجة إليها دون شك لأعبر عما أحسه... سمعته يقول في رزانة:
- هل دخلتم الكهف أمس؟...
- هه؟!...
- أقول: هل دخلتم الكهف أمس؟
ماذا أقول؟.. هل أكذب؟.. لكنه بالقطع لديه ما يدعوه للشك، وما أكثر ما نسيناه في هربنا المتعجل فجر اليوم.. آثار أقدامنا والصخرة التي لم تعد أبدًا لمكانها.. و... و...
من الحكمة إذن ألا أفترض الغباء في هؤلاء القوم...
- نعم دخلنا..!..
ساد الصمت لوهلة.. وبدا نوع من الاستسلام القدري في عيونهم.. ثم قال (كريم) وهو يتناول السيجارة مني وينزل اللثام عن فمه:
- كنا واثقين من ذلك...
وأشاروا لي كي أتبعهم... سرنا في صمت فوق الأحجار إلى حيث مكان الكهف.. الكهف الذي فررنا منه فرارًا فجر اليوم.. وهناك عند المدخل وقفنا نتأمل الأرض..
لم يكن هنالك شك.. إن آثار أقدامنا واضحة جلية..

أما ما هو أكثر غرابة وإثارة للتوجس فهو آثار أخرى.. أكبر بكثير من آثارنا وأعمق بكثير منها، آثار أقدام مخلبية تنغرس في جشع في الأرض.. ثم إنها تبتعد رويدًا رويدًا حتى تذوب في الرمال فلا تعرف لها اتجاهًا..

رفعت عيني متسائلًا.. فوجدت في عيونهم نظرة جعلت القشعريرة تسري عبر نخاعي الشوكي..

* * *

قال لي (كريم) في شيء من الضيق:

- والآن.. ماذا تقول؟

- عن أي شيء..؟

نفث الدخان.. وتربع فوق صخرة مريحًا بندقيته على ركبتيه:

- لقد صحا (العساس).... غادر سجنه الطويل..

- العساس؟

- حارس الكهف الذي لم يزعجه مخلوق منذ مائتي قرن!.. هكذا أنذرنا آباؤنا وآباء آبائنا.. والويل كل الويل لمن يجرؤ.. وهأنتم أولاء قد جرؤتم..!

كان يتحدث دون غضب.. قد لا أكون مبالغًا إذا ما قلت إن لهجته كانت تحوي شيئًا من الحنان الرفيق.. كأن ما سيحل بنا كاف ولا يحتاج إلى جرعة إضافية من التوبيخ..



نفث الدخان .. وتربع فوق صخرة مُريحًا بندقيته على ركبتيه :

« لقد صحّا (العسّاس) .. ! .. غادر سجنه الطويل » ..

قلت له في فضول:
- ومن أين جاء هذا (العساس)؟
أشار بأصبعه إلى أسفل.. يعني ما تحت الأرض.... فتساءلت:
-.. ومن هؤلاء الذين يعيشون هناك..؟
هز رأسه.. وواصل التدخين..
-.. إذن أنتم لا تعرفون.. لا أحد يعرف.. فقط ترون آثارهم على جدران الكهوف.. أليس كذلك؟
هز رأسه أن بلى.. وكور سيجارته ورمي بها بعيدًا.. ثم حمل بندقيته ونهض في تثاقل..
ولم ينس أن يقول لي قبل أن يبتعد:
- ستموتون..!.. وربما نحن معكم.. كذا قال الآباء...!

* * *

ينبغي أن أشعل الفتيل.. ولكن أين قداحتي؟..

* * *

أبدًا لا يوجد ذئب يهشم عنق الضحية ويديره في الاتجاه العكسي..

* * *

هأنتم أولاء قد جرؤتم...!

* * *

كانت الشمس تنحدر. غربًا حين بدأت حال البروفسير تتحسن..
كان (محمود) متربعًا جواره يواصل وضع الكمادات على جبينه دون مبرر في الواقع - فهو لم يكن محمومًا - سوى الرغبة في عمل شيء ما..!..
رفع البروفسير رأسه.. وتربع جالسًا..
ركعت على ركبتي جواره.. وهنأته على نجاته، لكن رد فعله كان مدهشًا.. إذ رمقني في حدة واستدار يسأل (محمود):
- عم يتكلم هذا المعتوه؟!..
ماذا؟.. هل فقد ذاكرته أخيرًا؟.. ولكن لا.. إنه ليس من هذا النوع طاهر السريرة الذي ينسى..
سألته في رصانة:
- بروفسير.. أنت قد مررت فجر أمس بخبرة مروعة.. أليس كذلك؟ استشاط غضبًا.. وصرخ في (محمود) والرذاذ يتطاير من فيه:
- ألن تقصوا هذا المتخلف عقليًا عني؟!..
وشرعنا نهدئ من روعه.. ثم بدأنا نستجوبه في هدوء..

عرفنا أنه يتذكر كل شيء.. نزوله للحفرة.. وكل ما فعل، لكنه لا يذكر أن هناك شيئًا معينًا أثار فزعه..

- ربما هو خوف الأماكن العميقة - قال البروفسير محاولًا إيجاد تبرير منطقي لذعره فجر اليوم -.. نعم.. لابد أنه كذلك.. لقد استبد بعقلي وجعلني مشلول الفكر..

تبادلت و(محمود) نظرة عدم اقتناع..

إن خوف الأماكن العميقة لا يحدث فجأة.. ولا يسبب حالة من الهلوسة تستمر نهارًا كاملًا.. دعك من أن من يبتلون بهذا الخوف لا يتحدثون عي (شيء) رأوه.. بل هم يعلمون تمامًا أن خوفهم بلا أساس.. إما أنها حالة فقدان ذاكرة (محددة) من التي ينسى فيها المريض شيئًا بعينه ولا ينسى سواه.. وإما أنه صادق.. وإما أنه يكذب..

ولكن في أي شيء يكذب؟..

يكذب في رؤية الشيء..؟ أم يكذب في عدم رؤيته؟.. أم هو يكذب في الأمرين؟..

لن يكف هذا البروفسير المجنون عن إثارة حيرتي وذهولي..

* * *

والآن يزحف ليل الصحراء الكئيب ليدس أنفه في قصتنا..

وللمرة الـ... ربما للمرة الألف.. تشتعل النار ليجلس حولها (التبو).. ولكن هذه المرة دون غناء ودون محادثات.. فقط الوجوم والصمت..

قال (كريم) بصوت ينذر بكارثة (وكان قد شرح الخطر علانية للجميع).

- غدًا يجب أن نرحل..

صاح البروفسير محتجًا (وكان قد استرد طباعه السيئة):

- لكننا لم ننته بعد.. و....

- غدًا سنرحل!..

ثم إنه شرع يعابث ألسنة اللهب بطرف سيفه.. وقال:

- أما الليلة فلابد من الحراسة..

- سننظم ورديات لهذا الغرض..

- لا أحد يعلم ما قد يحدث.. لهذا أوصيكم بالحذر..

ثم أشار إلى معلنًا أنني سأكون الأول!.. ثم يأتي (أحمد) بعدي...

وبعدها واحد منهم.. ثم (محمود).. ثم واحد منهم.. لم أفهم الحكمة من هذا الترتيب، ثم عرفت أنهم اختاروا الأكثر مللًا - أنا بلا فخر - كي يسهر الساعات الأولى السهلة.. ثم يأتي دور أقوياء التحمل منهم...

ذلك التدبير الذي لا أعتقد أنهم جانبوا الصواب فيه..

* * *

مضت ساعات حراستي الثلاث في سلام.. فيما عدا الخواطر السوداء التي ظلت تتحرك فوق رمال الصحراء هنا وهناك.. وشاب لها رأسي..

إلا أن خاطرًا باسمًا راودني وأنساني كل هذا التوتر..
لو أن المرحومة أمي رأتني... من العسير أن تتصور أم أن ابنها ساهر الآن جوار النار في جنوب (ليبيا)، يحرس قافلة من الطوارق من وحش أسطوري!.. أبدًا لن تتخيل هذا حتى لو اتسع خيالها للمحيط ذاته!
إنني لكائن عجيب.. عجيب!!..

* * *

انتهت ورديتي فأيقظت (أحمد) كي يتولى الحراسة..
وجوار النار تكومت كقط كبير مرتقبًا تلك اللحظة السعيدة التي يأتي فيها النوم بعباءته السحرية ليدق بابي...
لكن ذلك الضيف المشتهى لم يأت..
شرعت - من عين نصف مغمضة - أرمق (أحمد)، وقد جلس جوار النار شاردًا بنظراته عبر المجهول.. عيناه ساهمتان والنار تترقرق بظلالها على صفحة وجهه..
ولم أعرف - وكيف لي أن أعرف - أية تأثيرات مغناطيسية تعمل عملها المدمر في روحه في هذه اللحظات.. لقد كان غائبًا عن العالم غارقًا في أمواج بحر لا وجود له.. والأمواج تعلو.. تعلو..
ساعة كاملة أغيب عن الوعي ثم أصحو لأجده ساهمًا كما كان.
بدأت أشعر بأن شيئًا ما ليس على ما يرام.. ووضعت نظارتي على أنفي.. إن هذا الفتى لم يبدل وضعه طيلة ساعة كاملة..
ثم النظرة.. هذه النظرة الجامدة لا تريحني تمامًا...
فلأنهض وأر ما دهاه.. ولكن مهلًا!.. إنه ينهض.. بالفعل ينهض.. في تؤدة يقف على قدميه، ثم يبدأ السير فوق الرمال خارجًا من دائرة الضوء!.. إلى أين هو ذاهب؟.. ربما لقضاء حاجة.. لكن لا.. سأتبعه عن كثب وأحاول أن أناديه..
كلا.. أن هذه المشية المتصلبة والوجه الجامد، يوحيان لي بالمشي في أثناء النوم.. ومن الخطر أن أحاول إيقاظه.. سأترك الأمر كي يتم تلقائيًا حين تفرغ شحنة التوتر النفسي التي جعلته ينهض...
كان يتحرك في الظلام بسلاسة غير عادية.. أما أنا فكنت أتعثر وأنهض.. وأطلق اللعنات ثم أجد في إثره..
(أحمد)!.. إلى أين أنت ذاهب أيها الأحمق؟.. يا لك من معتوه!.. ستسقط في إحدى الحفر ويتهشم وجهك..
كنت ألهث.. وأتحدث من بين أسناني.. في حين كان هو يتقدم ويجرني خلفه بعيدًا عن النار التي غدت نقطة بعيدة متوهجة.. والصحراء تمتد مظلمة بلا نهاية...
كان هذا هو الوقت الذي سمعت فيه عواء الذئب.. من بعيد.. عميقًا كئيبًا مليئًا بالوحشة والتشاؤم.. ذئب وحيد..
وتوقفت...

لقد حان الوقت كي أتصرف بشيء من الحكمة.. سأعود وأوقظ الرجال، ثم نتعاون في البحث عن هذا المخبول قبل أن تمزقه الذئاب.. لن أفيده في شيء إذا ما مزقتني الذئاب معه...

وإلى المعسكر عدت جريًا...

وشرعت أوسع (محمود) و(كريم) هزًا وركلًا حتى استيقظا.. وحكيت لهما - في عبارات مختلطة - كل ما حدث...

كان هلعي ولهاثي أكبر دليلين على فداحة ما رأيت.. لهذا نهضا مسرعين ومعهما من أيقظته الضجة من الرجال..، وعلى ضوء المشاعل نقتفي الآثار الواضحة على الرمال.. وننادي:

- (أحمد)!.. (أحمد!..)..

فترد علينا الأشباح مئات المرات مكررة ذات المقطع..

وفجأة اختفت الآثار..!.. اختلطت بفوضى من نباتات الصبار المقتلعة وآثار أقدام أخرى كثيرة..، وإلى جوارنا كان هناك منحدر يقود إلى هوة عميقة مظلمة لم نر لها قرارًا..

قال (كريم) في تؤدة محاولًا ألا يزيد رعبنا:

- أعتقد أن ما حدث قد اتضح الآن!.....

ثم أبعد عينيه عن عيوننا المذعورة.. وأردف:

- في الصباح نحاول النزول لهذه الهوة بحثًا عنه..

لكننا عرفنا أن الأمر قد انتهى..

ولم يعد هناك ما يقال...

* * *

٩ - ثلاثة..!..

حين عدنا للمعسكر وجدنا البروفسير قادمًا من بعيد.. وما إن رآنا حتى هتف في لهفة:
- هل وجدتماه؟
لكن وجوهنا المكفهرة القاتمة قدمت له الإجابة دون تزويق...
قال (محمود) في دهشة:
- من أين أنت آت؟
- كنت أبحث عنه في الجهة الأخرى عله دار حولنا دون أن ندري..
- لكنك كنت نائمًا حين نهضنا للبحث...
- إن العجائز لا ينامون بعمق أبدًا يا بني.. لا ينامون أبدًا..

* * *

وهكذا نعود للفصل الأول من قصتي والذي بدأتها به كي أوقعك في نفس الشرك الذي وقعت أنا فيه.. وأجرك جرًا إلى وسط الصحراء حيث لا مأوى ولا مهرب...
هل تذكر ما حدث؟..
البحث عن (أحمد).. العثور على سترة ممزقة وآثار أقدام مخلبية..
وأدرك الرجال أن هذا لا يعني سوى أن (العساس) قد تحرك...
ثم البحث عن الجثة.. والعثور عليها في حال لا يمكن أن تسببها الذئاب..
والمشادة بين الطوارق والبروفسير.. ثم إصراري على الرحيل.. وتراجعي عن هذا القرار...
ثم النذير الغامض الرهيب.. وانطفاء النار.. وصوت الصراخ الشنيع.. و...
هل تذكر ذلك كله؟..
إذن تعال نستكمل أحداث هذه القصة الكابوسية...

* * *

لقد شعرت به....
وشعر به الجمل من تحتي...
نظرت حولي فلم أجد شيئًا.. في ضوء القمر البارد لم يكن ثمة خطر ما.. لكنه كان هناك.. كان داخلي..
كنت أعرف أنه يتبعني، وأنه يقترب، لكني لم أستطع أن أجد له أثرًا حولي..
هل هو غير مرئي؟..
لا.. ولا هو وهم.. إنه حقيقة.. لكنها حقيقة تفوق حواسي..
شرعت أركل بكعبي سنام الجمل أحثه على الهرولة.. أسرع!.. أسرع!.. لكن الحيوان لم يكن بحاجة لذلك، لأنه كان يدرك الخطر ويفهمه ويخشاه ربما أكثر مني..

فوق الرمال يعدو.. يخب.. يهرول..
ثم إنه اضطرب.. وتوقف على حين غرة..
وعلى ضوء القمر الشاحب رأيت شخصًا يقف أمامي محاولًا سد الطريق..

* * *

كان هذا هو (محمود).. عرفته من شعره الأشعث قبل أن أرى وجهه.. كان يرتجف وقد ارتسمت على وجهه علامات الرعب.. وكان يلهث:
- (محمود)!.. ماذا قد حدث؟
- لماذا عدت أنت أيها المعتوه؟!..
- لم أتحمل.. ولكن.. هل بإمكانك أن تنيخ جملًا؟.. إذن افعل!.. أريد أن أشعر بقدمي على الأرض الثابتة..
ساعدني في لهفة على النزول..، وجوار الجمل الذي جثا على أقدامه أخذ يرتجف.. ويردد:
- إنه مجنون!.. هذا البروفسير مجنون!
- لا جديد في ذلك..
وأشعلت سيجارة.. وبدأت أسمع قصته..
قال إن البروفسير استشاط غضبًا عند رحيلنا.. وطفق يدوس النيران في عصبية حتى أطفأها.. وركل المتاع حتى بعثره.. ثم انطلق يركض في الصحراء صارخًا صرخات مريعة، كأنما هناك من ينتزع لسانه حيًا...
- إذن.. كح!.. هذا هو سر الصراخ والنار... كح!.. المنطفئة..
- لقد جريت وراءه كما لم أجر في حياتي.. لكنه ضاع في الصحراء.. كأنما مسه الشيطان.. أنا لا أفهم..
ابتسمت في ثقة، ونفثت الدخان في الهواء، ثم رميت السيجارة:
- بالعكس.. لقد صار الأمر واضحًا..
- ماذا تعني؟..
جلست على الرمال جوار الجمل.. وربت بيدي على جلده الخشن:
- إن الأمر واضح.. هذا الرجل مجنون تمامًا.. والآن حاول أن تتخيل معي ما قال وفعل طيلة الرحلة..، أولًا هو مصاب بجنون العظمة مما جعله يتخيل أن أفكاره هي أمور قدرية لا تتبدل..، ثانيًا: هو مليء بالنزعات الفاشية، وكلانا لا ننسى ما فعله حين رأي الطائرة الإيطالية المحطمة..، ثالثًا: كان هو من نزل درجات السلم.. وهو من صرخ وبدأ الهذيان عن (الشيء) في حين لم نر نحن ما يدعو للقلق..، رابعًا: لاحظت أنت - ولاحظنا جميعًا - أنه لم يكن معنا حين ذهبنا للبحث عن (أحمد).. فأين كان..؟!
قال (محمود) في حيرة:
- كان نائمًا وسمع كلامنا فذهب يبحث في ناحية أخرى...
- هذا ما قاله هو!.. ولكن أي منطق هذا؟.. عجوز يصحو ليلًا ليجد كل من معه وقد ذهبوا في جهة.. كيف تتخيل أن يذهب هو للبحث في جهة أخرى؟!.. ثم ماذا؟.. يسير وحده في الصحراء

المظلمة دون سلاح ودون أن يخشى الذئاب، أو ما هو أسوأ..
- ربما كان مفتونًا مثلما حدث لـ (أحمد)..
- إذن فكيف أفاق؟.. الواقع أنني واثق تمامًا من أن هذا الرجل يعابثنا.. إنه يعرف أسطورة (العساس) ويحاول تحقيقها حرفيًا..
- لماذا؟..
تنهدت في إرهاق.. وقلت:
- لقد قابلت الكثيرين من أمثاله، يحاولون تحقيق الأساطير بشكل متقن.. فتاة تحيى قصص المذءوبين بدافع الانتقام.. عالم يحاول إيجاد حيوانات تجارب بشرية.. طبيب يخلق ستارًا للتهريب.. قاتل يحاول إلصاق جرائمه بأسطورة إغريقية..، إن الأسباب عديدة.. لكني أميل إلى كون هذا الرجل مخبولًا فحسب...
- إذن هو قتل (أحمد)...
- أظن هذا.. وفي الوقت الذي عدت لأوقظكم فيه..
- وكيف شوه جثته؟
- الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها.. وقد استنزف دمه بشكل ما... على أنه لم يوفق كثيرًا في استخدام أسلوب إدارة الرأس في الاتجاه العكسي. هذا الأسلوب يذكرنا بأساطير القرون الوسطى الأوروبية، أكثر مما يذكرنا بأسلوب أسطورة عربية.. ثمة عقل أوروبي وراءها...
- وأين هو الآن؟
- بالتأكيد يدبر لنا ميتة شنيعة أخرى...!
- إذن علينا أن نجده فورًا...
ثم إنني هرشت عنقي.. وأشعلت سيجارة برغم النظرة المحتجة في عينيه:
- الحق أقول لك إن الإيحاء كان قويًا.. قويًا.. حتى أنا نفسي شعرت أن هذا (الشيء) حقيقة ملموسة، وأنه آت في إثري.. لقد كدت أموت رعبًا... كح!.. كح!
- إن الجو العام يثير الخيال إلى حد غير عادي..

* * *

وهكذا شرعنا نستكشف المكان متفرقين..
كان كل منا يحمل سلاحًا.. وقد أشعلنا نارًا قرب الجمل، لنستطيع العودة إلى مكان البدء..
في صمت أذرع منطقتي حاملًا مسدسي ومسترشدًا بضوء القمر.. عيناي تتحركان في محجريهما بجنون.. وريقي جاف كزجاجة صمغ منسية!!..
الشيء الوحيد الذي يطمئنني هو أن الظل أمامي لا خلفي.. ولهذا سأجد هذا المخبول، إذا ما باغتني من الخلف..
إنني أتذكر كل شيء.. عينيه الزرقاوين.. صراخه.. عصبيته.. وأشعر بكراهية عارمة تجاهه، لا أحب أن يخدعني أحد.. سئمت كل هؤلاء السخفاء الذين يجدون في فريسة سهلة يتلاعبون بها، ويقنعونها أن المستحيل ممكن..
- (رفعاااات)!

دوى صوت (محمود) في سكون الصحراء.. فأجفلت..

- د. (رفعاااات)!

إن الصوت آت من هناك.. فلأسرع إذن..

وهناك - في تلك البقعة الرملية الخالية - وجدت (محمود) واقفًا وظله يرتمي على الرمال طويلًا رهيبًا..

كان واقفًا وقد باعد بين ساقيه وحنى رأسه...

وعند قدميه كان هناك شيء ما.. كأنه قطعة رثة من الثياب.. لكنها لم تكن كذلك.. وإن تمنيت ذلك كثيرًا..

كانت جثة البروفسير...

جثته الممزقة وعنقه الملتوي للخلف، وعينيه الشاخصتين.. وحين نظرت إلى الرمال وجدت ما كنت أخشاه.. آثار الأقدام المخلبية التي ألفناها تمامًا..

* * *



كان واقفًا وقد باعد بين ساقيه وحنى رأسه .. وعند قدميه كان

هناك شيء ما .. كأنه قطعة رثة من الثياب ..

- لقد كنا مخطئين..
قلتها لـ (محمود) في مرارة.. وبيد مرتجفة أشعلت سيجارة أخرى، لم يعد الهواء يجد طريقًا إلى أية حويصلة في رئتي.. إنني أختنق!..
لم يرد (محمود).. فواصلت الكلام:
- لقد عرفنا الحقيقة بعد فوات الأوان... كح!
-.....
- (محمود)!.. قل شيئًا....
كان وجهه يكتسي بالظلام، والغموض يغلف ملامحه.. للحظة بدأ الرعب يتسرب إلى نفسي.. إلا أنه تكلم أخيرًا.. تكلم لكن كلماته زادت الأمر سوءا، لأنها خرجت متحشرجة مضعضعة بلا معنى على الإطلاق..
ثم شرع يضحك..
لقد تخلخل جهازه العصبي.. وهذا الضحك هو نوع من الأصوات التي يصدرها (راداتور) السيارة قبل أن ينفجر.. هذه هي مشكلة الآخرين.. دائمًا ما يكونون أكثر قوة وصلابة مني ثم - فجأة - ينهارون تمامًا، في حين أظل محتفظًا بتوازني إلى آخر لحظة..
إن من يبدأ سباق العدو بالركض السريع لا يستمر طويلًا...
ها هو ذا (محمود) يضحك.. ويضحك، وقد تساقطت خصلات شعره على وجهه:
- لقد مات الخنزير الفاشي!.. مات المجنون!.. ها ها ها!
وبدأ يصفق بكفيه.. ويعتصر بطنه... وألقى بندقيته بعيدًا..
وهنا بدأت فكرة شاحبة تغزو أفكاري.. بدأت شاحبة ثم ازدادت وضوحًا.. والآن ها هي ذي تسطع كالشمس..
ماذا لو كنت أنت يا (محمود) صاحب هذه الألعوبة..؟!..
لقد كان البروفسير مجنونًا.. لكنك أردت أن تعاقبه لأنه يمثل لك كل ما فعله الإيطاليون في أهلك بـ (فزان).. ولهذا رسمت الخطة بشكل متقن، وحاولت أن تلصق التهمة بـ (العساس)..
وكنت تملك الوقت الكافي - حين تركتكما وحدكما في الصحراء - كي تقتله وتغير معالم جثته.. ثم نبدأ البحث عنه فتناديني وتتظاهر بالجنون.. ولربما أنت لا تتظاهر.. أنت حقًا مجنون!..
وبعد هذا ستأتي ضحية جديدة لحارس الكهف.. طبيب مصري نحيل اسمه (رفعت إسماعيل).. والطوارق يجدون الناجي الوحيد من هذه المذبحة.. وكلهم يعرفون تفسير ما حدث..
فكرة مختلطة متداخلة لكنها لم تبرح خيالي..
يجب أن أتركه.. يجب أن أفر.. لكنه سيطاردني لا محالة، وأنا لن أستطيع تقييده ولا قتله.. السبيل الوحيد هو أن آخذه معي إلى أن نلقى إحدى القوافل.
وحين نصل لمرفأ الأمان سيكون من السهل أن نعرف الحقيقة..

* * *

أنا جندي!.. لقد فعلت ما أمروني به..

* * *

وحين انتهت نوبة جنونه...
وحين نظر إلى وجهي أخيرًا.. وحين لمح النظرة العجيبة في عيني...
لابد أنه فهم...
وبصوت حاولت أن أجعله رهيبًا.. قلت:
-.. والآن سر أمامي ولا تتظاهر بالبراءة.. كح!.. كح!.. إنني مجنون وأنت تعلم ما يعنيه ذلك.... كح!..
وصوبت مسدسي إلى ما بين عينيه..

* * *

١٠ - اثنان...!!؟

نظر لي (محمود) في برود.. وقال:

- كان ينبغي أن أعرف ذلك يا (رفعت).. إن كراهيتك للبروفسير قد فاقت توقعاتي.. إن عدم الاستلطاف ليس مبررًا كافيًا للقتل...

ابتسمت في سخرية.. وأنا أضغط على مقبض المسدس في عصبية:

- وماذا أيضًا؟..

قال وهو يبادلني البسمة الساخرة:

- لقد بدأت أشك في أمرك منذ شاهدت أسلوبك الدموي في مواجهة الذئاب.. قلت لنفسي: إن هذا الرجل يخفي قدرًا مرعبًا من السادية، ثم لاحظت أسلوبك المريع في تدخين السجائر.. لا يوجد إنسان بكامل توازنه العصبي ويدخن كل هذا الكم..، دعك طبعًا من حقيقة أنك آخر من رأى (أحمد) على قيد الحياة.. ولعل رحيلك وعودتك أعطياك فرصة غير متوقعة للانفراد بالأستاذ..!

ابتسمت في قسوة محاولًا أن أبدو مرعبًا.. وقلت:

- أنت مخطئ تمامًا.. ولعلي أنا أيضًا مخطئ..، لكني لا أملك ترف التجربة.. إنك ستظل أسيرى حتى نجد من يخبرنا بالحقيقة.. ولا داعي أن أردد مرة أخرى أنني مجنون تمامًا..

ومضت دقائق نرمق فيها بعضنا بعيون حاقدة..

لقد بدأت لعبة الشك.. لكني أمسك بزمام المبادأة.. ولا أحب كثيرًا أن أترك له هذا الزمام.. برغم علمي أن هناك احتمالًا لا بأس به أن أكون مخطئًا..

ماذا تفعل لو كنت مكاني؟.... تهدده؟.. حسن.. هذا هو ما أفعله الآن وسأفعله دومًا..

* * *

كأن هذا سهل..!..

إن تبقى جذوة الشك المقدسة حية في قلبك حتى حين يطول الليل.. ويثقل جفناك بعد كل هذه الانفعالات ويرتخي جسدك لكنك لن تنام.. لن تنام!

لربما - إذا نمت - كانت هذه آخر مرة...

إن قضاء الليل مع شخص يبغي قتلك ليس سهلًا، حتى إذا كنت أنت من يمسك بالمسدس...

اما هو - الوغد - فقد تكور على الرمال وشرع يستمتع بنوم هادئ لذيذ ليغيظني.. إنه لا يملك شيئًا يفقده، وهو تحت رحمتى تمامًا.. لهذا نام في سلام... وتذكرت - في مرارة - عبارة (برنارد شو) الساخرة: إن أكثر الناس قلقًا في السجن هو السجان..!

لن أنام.. لن أنام...

(ماجي) يا ملاكي الصغير.. ماذا تفعلين في (انفرنسشاير) في هذه اللحظة؟.. وماذا تفعل (هويدا)؟.. شقيقتي (رئيفة) وأمي و(تابيثا)..؟.. إن (عزت) له وجه آكلى البشر، لكنه موهوب.. مثل (مختار).. (عمر المختار) كان يتحدى (جراتزياني).. و(جراتزياني) ترك (العلمين) بعد أن

ترك هناك لافتة للذكرى كتب عليها: لم تنقصنا الشجاعة.. ولكن الحظ..، الشطرنج لا يعتمد على الحظ، لكن مصاصي الدماء لا وجود لهم.. من ذكر مصاصي الدماء؟.. ما هي المناسبة؟.. لا أذكر.. لكن رسالة الدكتوراه قد أنهكتني كثيرًا.. أنهكتني لكني لن أنام.. لن أنام.. حينما قابل (العساس) أخي (رضا) لم تكن هنالك كواكب أخرى.. و.. ولن أنام.. لن أنام.. لن أنا.....
.....

* * *

الشمس تحرقني.. ملايين البللورات تعكس ملايين الشموس في مقلتي..
إنه منتصف النهار..!.. لقد نمت.. نمت... برغم كل المقاومة وكل الإصرار، انتصرت (الفسيولوجيا) على حب الحياة.. والآن يدهشني أنني لم أزل حيًا..
لقد هرب (محمود) طبعًا، لكن مسدسي ما زال في يدي.. لقد تجنب انتزاعه من كفي كي لا أستيقظ.. وطبعًا استرد بندقيته وجمله.. إنه سفاح شريف!.. ترك لي النصف من كل شيء وقد كان يستطيع ألا يفعل.. فإما أنه مظلوم.. وإما أنه يرجئ وفاتي إلى الوقت الذي يريده
أنا أعرف أنه قريب ينتظر.. لكن أين؟...
لو كنت إنسانًا عاديًا لركبت الجمل وبدأت السير في الصحراء، باحثًا عن مخرج.. لكن هل قال لك أحدهم إنني إنسان عادي؟.. إنني لن أستطيع أن أجعل هذا الديناصور يقف على أقدامه أبدًا..:
وهذا يعني أن أمري قد انتهى..
إلا أنني لم أجد بعد مبررًا للهلع.. إن حقيقة كوني وحيدًا ضائعًا في الصحراء لم تنضج بعد في ذهني.. أعرفها لكني لا أستوعبها بما يكفي..
ولعلي في سبيل للجنون انا الآخر.. ومن يدري؟...
ولعل هذا أفضل..

* * *

مشيت كثيرًا... لكني لم أر أثرًا يقودني إلى الخروج من هذا المأزق..
منذ أن تركت البروفسير في تلك الليلة، وأنا أدور في دوائر مستمرة دون أن أجهد ذهني لتذكر اتجاهي.. وبالتالي يمكن أن أكون الآن على حدود (الجزائر) أو أكون على حدود (مصر).. لكنى لن أعرف ذلك أبدًا..
وهضبة (تسيلي).. هل تبخرت نهائيًا؟..
في كل مرة أعود إلى الجمل العزيز.. وأرشف جرعات من الماء..، على حين أخذ هو يجول هنا وهناك، يداعب نباتات الصبار بشفتيه الغليظتين..
إنني في مأزق..
أما الأسوأ، فهو أنني قد بدأت أدرك ذلك أخيرًا...

* * *

وفي النهاية وجدت مكانًا آخر معسكرًا للـ (تبو)..
المعسكر الذي سهرت أحرسه ليلة أمس..!.... ليلة أمس الأول.. النار المطفأة، وبقايا المعركة حين ثار الأستاذ وبعثر المهمات وحقائبه..
إن الكهوف قريبة جدًا من هذا الموضع.. ولكن في أي اتجاه؟..
شرعت أتفقد الرمال بحثًا عن شيء قد أكون نسيته أو يكون ذا نفع لي.. وبالفعل وجدت (البوصلة) الخاصة بالبروفسير.. وخريطتين.. وقلمًا من الرصاص.. وقطعتين من الحلوى.. وأصبعين من الديناميت.. فتحت الخريطة فوجدت شيئًا ذا أهمية..
كان البروفسير قد رسم بقلم أحمر - واعتمادًا على كلام (التبو) - خطوطًا تحدد مسار قوافلهم عبر الصحراء.. وكان هذا يعني أن أقرب موضع لهم مني يقع على مسافة خمسة كيلومترات شمالًا..
إنها لمعلومة ثمينة.. ربما تساوي حياتي ذاتها..
المشكلة الوحيدة هي أنني لو وصلت إلى هذا الطريق سيكون على أن أنتظر - إلى ما شاء الله - حتى تمر بي إحدى قوافلهم.. لأنها ليست قطارًا أو حافلة يمكن انتظارها. بشكل منتظم..، قد أنجو اليوم أو بعد أسبوع أو بعد شهر.. أو ربما لا أنجو أبدًا..!
لكني لن أظل هنا إلى الأبد..
يجب أن أفعل شيئًا.. أي شيء..

* * *

إلى مكان الجمل عدت مسترشدًا بآثار أقدامي على الرمال..
وجذبت لجامه فأطاعني.. وجررته خلفي إلى موضع المعسكر.. ثم في اتجاه الشمال..، لم يكن لدي مفر من أن أمشي أمامه بدلًا من الركوب فوقه..
كانت مسيرتنا بطيئة لكنها منتظمة..
وقد مضت ساعتان منذ تحركنا.. وبدأ اللون الأزرق الكريه - لون الخوف - يزحف على الرمال.. سيحين المساء بعد ساعة ومعه ألاف الاحتمالات المروعة.. ولسوف تكون ليلة طويلة حقًا..
وفجأة تجمدت خطوات الجمل..
رفع عقيرته إلى أعلى، وأصدر صوت خوار عميق طويل، والزبد يتساقط من شدقيه..، كانت الصحراء عارية أمامي تسبح في بحر من الفضة..
وعلى البعد رأيت جملًا آخر يرعى وحيدًا باحثًا عن نباتات الصبار.. أنا أعرف هذا الجمل..
ووجوده هنا لا يعني سوى أن (محمود) قريب.. وأن كلينا نمشي في الاتجاه الصحيح نحو الدرب الذي تسلكه قوافل (التبو)...!
أنت مخطئ تمامًا.. ولعلي أنا ايضًا مخطئ.. لكني لا أملك ترف التجربة..

* * *

وعلى الرمال وجدته.. في ضوء القمر وجدته...

بالطبع لم يكن واقفًا على قدميه.. ولم يكن في عداد الأحياء أساسًا..
كان قد مات.. قتل بنفس الأسلوب الجهنمي.. وجواره نفس الخطوات المخلبية المألوفة، ومشهد بشع أخر يحفر في ذاكرتي للأبد...
مرة أخرى أكتشف أنني ظلمت بريئًا.. وكان ذلك في وقت متأخر جدًا جدًا.. لقد كان المسكين يخشاني حتى الموت، في حين كنت أرتجف هلعًا منه!.. ولقد حاول الهرب مني، لكنه لم يلحق سوى بقدره.. و(العساس) كان هناك.. (العساس) الذي بدأت الآن أدرك أنه حقيقة لا مراء فيها...
(العساس) الذي ظل مئات السنين يحرس كهوف (تسيلي) كي لا يحاول أحد أن يهبط لأسفل ويعرف...
يعرف ماذا؟.. لا أدري.. ولن أدري لأنني التالي في القائمة.. إنني أنتظر دوري خارج غرفة الإعدام، حتى يفرغ الجلاد ممن سبقني.. وقد فرغ... وهو الآن يناديني كي أدخل!!..
(العساس) كان هناك..
وهو الذي أغرقنا في بحر من الشكوك والاتهامات المتبادلة، وجعل كلًا منا يبتعد عن الآخرين وحده كي يلقي جزاءه..
فقط الطوارق بحكمتهم الفطرية عرفوا هذا، وتجنبوا الخطر.. وفي المرة القادمة حين يعودون - لن يجدوا سوى ثلاث جثث مشوهة، وأسطورة جديدة يحكونها لأولادهم جوار النار ليلًا..
من يدري؟.. لربما أسعدني الحظ، وغدوت بطل أغنية بربرية جميلة، يعزفونها على (الأمزد) بعد أجيال....!
ماذا ستقول الأغنية؟.. ستقول:
لقد أنذرنا الحمقى...
لكنهم لم يصدقوا حرفًا..
لهذا كان الحارس هو صاحب الكلمة..
وشربت رمال الصحراء دماءهم...
أو أي شيء على هذه الوتيرة..
راقت لي الأغنية وشرعت أحاول نظمها وتلحينها.. أطقطق بأصابعي وأصدر نغمات بفمي.. وأرقص.... أرقص.... في ضوء القمر..
لقد جننت..!.. أعرف هذا وأحبه.. إن أهالي (بافاريا) يطلقون على المجنون كلمة (موندزوختيش) ومعناها (صريع القمر)!.. نعم.. كنت أنا قد غدوت صريع القمر.. صريع القمر.. هاهاها!..
لقد أنذرناهم..
والآن تشرب رمال الصحراء دماءهم..
تشربها.....
ترالالالالا..!!

* * *

١١ - واحد..!

والآن تأتي ساعة الحقيقة..
لم يعد هناك مجال للمزاح.. ولا أملك ترف الهستيريا.. يجب أن أرتب أفكاري..
كنت أعلم أن في متاعي أصبعين من الديناميت.. ومعي قداحة ومسدس.. صحيح أن كل هذا لا يكفي لكنه بداية..
معي جملان.. وما دمت غير قادر على ركوب أحدهما فسأستعملهما كما يستعمل خيبر الاشعاعات عداد (جايجر).. إن هذه الحيوانات شديدة الحساسية، وفطرتها لا تخيب.. وحين تنتصب الشعرات في أعناقها، سأعرف أن شيئًا ما قادم في اتجاهي.. شيئًا غير صديق طبعًا...

* * *

بدأت الذئاب تعوي...
لكني لم أكن على استعداد لأن أخافها.. لا وقت لدي لهذه التفاهات، ولن أضيع رصاصة واحدة على هذه الوحوش..
. لكن الحقيقة المروعة..
التي لم تفارق مخيلتي أبدًا..
هي أن الذئاب ظلت تعوي من بعيد لكنها لم تجسر على الاقتراب!..
حتى هذه الوحوش تدرك الحقيقة..

* * *

انتهت سجائري.. لقد نجوت من سرطان الرئة!..

* * *

كانت معي ثلاث زمزميات.. واحدة للبروفسير رحمه الله.. وواحدة لـ (محمود) رحمه الله.. وواحدة لي أطال الله عمري!..
إنني الآن أبدأ الزمزمية الأخيرة...
عجبًا!.. كنت أظن أن مخزون الماء لدينا أكثر من ذلك..
لكن الظمأ لن يضايقني كثيرًا بعد اليوم..

* * *

عجيب هذا!.. قلت لي يا د. (رفعت) إنك مولع بأسرار ما وراء الطبيعة...

* * *

هيه!.. ابتعد يا بن الشيطان..!.. اتركه..!

* * *

ومضى الوقت...
كانت الهستيريا تتسرب إلى عقلي ببطء.. وبدأت أسلي نفسي بتخيل أنني أقدم أحد البرامج النسائية في المذياع:
- سيدتي.. اليوم أقدم لك طريقة رخيصة وفعالة للتخلص من أحد حراس الكهوف الشرسين..!، أنا لا أعرف شكله ولا حجمه لكني أؤكد لك أنك تستطيعين قهره.. باستخدام إصبعين من الديناميت، تنتظرين حتى يقرب ثم.. ثم تشعلين الفتيل وتلقينه عليه.. ثم انبطحي... لا تنسي يا سيدتي أن تنبطحي..!.. وحينئذ.. تكونين قد نجوت!.. نجوت!.. وإلى اللقاء يا سيدتي في حلقة جديدة مع وحش آخر..!
الجمل يرمقني بنظرة ثابتة حكيمة وأنا أجن تدريجيًا.. ما أحكم هذه الحيوانات وأذكاها..!.. لكني لم أنته بعد..!..
ما زال جهازي العصبي محكمًا لكنه مرهق.. مرهق فقط..

* * *

والآن - عند منتصف الليل - جاءت اللحظة..
ها هو ذا قادم من أجلي..
في ضوء القمر أراه بوضوح تام.. وأتجاهل ذعر الجملين.. وعواء الذئاب المتزايد.. ودقات قلبي...
هل أصفه لك؟.. إن هذا من حقك.. لكنه ليس في إمكاني..
إنك تتخيله غوريلا ضخمة.. أو ذئبًا عملاقًا.. أو شيئًا يشبه (العملاق الأخضر) الذي لم نكن نعرفه وقتها..، بل ربما تتخيله شيئًا هلاميًا.. أو كتلة من اللهب.. أو كيانًا شفافًا شبحيًا..
في الواقع لا.. أنت مخطئ..
لم يكن (العساس) يشبه أي وحش من الوحوش التي تحترم نفسها..
كان شيئًا يفوق قدرتي على التعبير.. نعم هو كيان ملموس.. لكنه لا يبدو قريبًا من أي صورة مرعبة نعرفها... إنه هو الوحش الذي لم يخترع بعد.. ولهذا لا أجد صورة أقربه لك بها..
كان مرعبًا.. وثائرًا.. ويريدني.. وهذا يكفيني....

* * *

والآن تمسك يدي بالديناميت...
من العجيب أنني لم أرتجف.. ولم أعد أستشعر ذرة خوف...

علماء الفسيولوجي يقولون إنها مادة (الإندورفين) التي يفرزها المخ في لحظات النهاية، كي يقلل من ألمها قدر الإمكان...
لكنني أسميها رحمة السماء... ورأيانا لا يتعارضان في شيء..
يجب أن أشعل الفتيل.. ولكن أين قداحتى؟.. لقد نسيت موضعها منذ انتهت سجائري.. أين؟..
آه!.. ها هي ذي.. والآن اشتعل.. اشتعل أيها الفتيل اللعين..
إنه رطب.. ولكنه سيشتعل.. أخيرًا!..
وما إن تعالت الشعلة حتى أحكمت التصويب ورميتها عليه، و...

* * *

ثم انبطحي!.. لا تنسي يا سيدتي أن تنبطحي...!

* * *

دوى الانفجار المروع على مسافة عشرة أمتار مني وتناثر الرمل في وجهي.. لكني كنت منهمكًا في إشعال الفتيل الثاني.. وقبل أن يزول الدخان كنت قد ألقيت إصبع الديناميت في إثر زميله..

* * *

ثم انبطحي!.. لا تنسي يا سيدتي أن تنبطحي....

* * *

الانفجار الثاني يهز الصحراء ويحيل الليل نهارًا..
ثم ينقشع الدخان..
وتهدأ سحابة الرمال...
وعندئذ وجدت (العساس) ما زال يتقدم نحوي بنفس البطء ونفس الثقة والتؤدة..!..، مددت يدي إلى المسدس وأنا بعد منبطح على الأرض.. وضغطت الزناد...

* * *

اليوم أقدم لك طريقة رخيصة وفعالة للتخلص من أحد حراس الكهوف الشرسين..!

* * *

بان!.. بان..!.. لا جدوى..!..
ثلاث رصاصات اخترقت هذا الشيء دون جدوى...
إنه منيع كالقلاع..

لقد انتهى الأمر..

لكني - على الأقل - لن أموت دون أن أنهكه جريًا بعض الوقت، حتى لا يقال يومًا ما إنني مت كالحملان..

أدرت ظهري له وأطلقت ساقى للريح..

لكنه خلفي.. أشعر وأشم أنفاسه.. إنه يقترب.. وأنا أتعثر.. أنهض.. أسعل.. ومرة أخرى أدرك أن شراييني التاجية سوف تخذلني.. الألم الحارق.. الألم العاصر العتيد يبدأ في كتفي اليسرى، ويزحف كالكابوس إلى ذراع وإصبعي الصغرى... لم تكن حياتي سيئة بالفعل، لكني كنت أتمنى أن أموت ميتة أخرى.. ميتة أرق من هذه.. ولكن....

فجأة لاحظت أن لون الرمال يتغير...

ولاحظت أن سطحها أملس من اللازم..

إنها بقعة خالية من نباتات الصبار.. وهذا يذكرني بشيء ما..

* * *



لكنه خلفى .. أشعر وأشمّ أنفاسه .. إنه يقترب .. وأنا أتعثر ..

أنهض .. أسعل ..

إن سطح الرمال المتحركة يكون أكثر انتظامًا ونعومة من الرمال المحيطة به..
هكذا قال (محمود) يومًا ما..

* * *

والآن أنا أعرف ما يجب عمله..
شرعت أدور حول الحقل بحذر شديد متجنبًا تلك الرمال مريبة الشكل.. إنه عمل خطر.. فالطبيعة لا تضع فوارق واضحة إلى هذا الحد.. لكني لا أخاف شيئًا.. لم أعد أخاف..
إنه يتبعني...
أريد أن أتواجد في بقعة ما بحيث تفصلني الرمال المتحركة عنه.. وعندئذ - إذا حاول أن يصل إلي - تبتلعه الأرض..
ولكنني لا أستطيع.. إنني أركض على حافة حقل الرمال وهو خلفي يسير فوق نفس خطواتي..، سيظل دائمًا بمحاذاة الخطر مثلي.. ولا سبيل لي للالتفاف إلى الجهة الأخرى..
أدرت وجهي لأراه....
وللمرة الأولى عاد الذعر الوحشي المجنون يهاجمني..
يجب أن أفر.. يجب....
لم أعد أدقق كثيرًا أين تهوى قدماي...
كلا..!.. لن أصرخ، لأن الصراخ سيزيد هلعي، حين أفهم أن هذه الصرخات هي صرخاتي أنا..
في ثانية كنت أركض.. وفي الثانية التالية كنت قد توغلت ثلاثة أو أربعة أمتار داخل حقل الرمال المتحركة..!
إن الرمال المتحركة تتحرك.. تتخلخل تحت قدمي.. إنني أغوص..

* * *

.. وليتذكر كل من يسقط في هذه الرمال المخلخلة، أن عليه ألا يحاول الصعود في حركات هستيرية تزيده غوصًا.. فقط يحاول أن يطفو على ظهره ويسترخي تمامًا..

* * *

ملت بظهري إلى الخلف.. ولمحت قرص القمر يرمقني في شفقة..
شعرت بجسدي يتأرجح ثم يميل للخلف.. ويطفو.. ببطء ببطء..
مددت ذراعي جانبًا محاولًا - غريزيًا - أن أزيد مساحة جسدي وبالتالي يقل ضغطي على الرمال... لا بأس.. إنها طريقة لا بأس بها..
وهنا سمعت الصوت،..
هو ذا (العساس) قادم من أجلي..
ها هو ذا يخطو خطوته الأولى في بحر الرمال.. إ

إنه ينغرس.. يحاول التخلص.. ينشر الرمال حوله..
لكنه - ذلك الأحمق - لم يكن يعرف شيئًا عن قواعد النجاة من الرمال المتحركة.. ولم يكن يعرف معنى الاسترخاء..
إنه يهبط.. يهبط.. وموجات الرمال تتراقص...
إنه يثور.. ويصدر صرخات ترتج لها الصحراء..
لكنه يهبط.. ويهبط.. على بعد مترين من جسدي.... يهبط... حتى اختفي نهائيًا..

* * *

وحينئذ.. تكونين قد نجوت.. نجوت!

* * *

انتهى (العساس)..
نعم.. أنا واثق من ذلك...
إنه ليس شبحًا.. إنه مجرد وحش مفزع ومنيع.. لكنه لن يستطيع الهرب من سجنه النهائي.. وهو - حتمًا - يحتاج للأكسجين مثلي...
لقد انتهى حارس الكهف..
ولن يعود أبدًا....
إلا أنني لم أنج أنا الآخر...
لقد كلفني هذا اللقاء حياتي..، وعما قريب ستلتئم الرمال من فوقي.. ولن يعود هناك أنا بعد اليوم...
لو ظللت طافيًا ساعة.. ساعتين فماذا أفعل بعد ذلك؟
كان (محمود) ينصحني بانتظار النجدة.. ولكن أية نجدة؟!.. لن يجدي الصراخ فتيلًا.. أعرف أنهم في السينما يفكون حزامهم ويلقون به ليتشبث بغصن شجرة قريبة ويبدؤون الزحف نحو الشاطئ..
لكنني لا أجد أي شيء يصلح لأقذف حزامي عليه.. ثم كيف أفك حزامي دون أن أغوص أكثر؟.. دعك بالطبع من أنني لا أرتدي حزامًا أصلًا..!.. يا له من مأزق..

* * *

هل أنا أحلم...؟....
كان الواقف على حافة بحر الرمال يصيح في لهفة:
-.لا تتحرك!.. سأنقذك..
وفي ضوء القمر لمحت وجهه.. (كريم).. (كريم) رجل (التبو) الذي تركته ورفاقه منذ يوم أو أكثر.. لم أعد أذكر..ولكن كيف ومتى عاد؟..
ولماذا؟..

كان يلقى لي بشيء ما أمسكته يدي دون تفكير.. إنه حبل.. حبل.. وفي حركات واثقة ربط الحبل إلى ناقته وشرع يدفعها كي تسير.. ببطء شديد يتحرك الحيوان.. وببطء شديد ارتفع.. اقترب من الرمال الثابتة على شاطئ بحر الرمال.. إنني أنجو..!..

وهكذا وجدت نفسي راقدًا على الرمال، أرتجف وأردد كلمات لا معنى لها.. أما ذلك العظيم فقد نهض إلى ناقته، وأخذ من ركابها قربة ماء وبعض التمر.. وشرع يقدم لي الطعام والشراب بوجه صارم لا أثر فيه للحنان أو للسعادة.. أو للفخر..، وجه قد من صخر...

* * *

.. وإلى اللقاء يا سيدتي في حلقة جديدة مع وحش آخر..!

* * *

خاتمة..

حين عدنا إلى مخيم (التبو)، أدركت أن هؤلاء الرجال لم يتركونا..
لقد أدركوا أننا ضائعون لا محالة ؛ لذا أرسلوا خمسة منهم كي يعودوا بنا على الرغم منا، ولو اضطروا لاستعمال السلاح..
وكانت الآثار مختلطة، لكنهم لم يحتاجوا لذكاء كثير كي يفهموا ما حدث.. وعندما عثروا على جثة البروفسير.. ثم جثة (محمود)، فهموا أنني في مكان ما أواجه (العساس) وحدي.. وعرفوا - حين سمعوا صوت الانفجارين والرصاص - أنني قرب بحر الرمال، وأنني لم أزل حيًا...
وقد كان....
كان (كريم) هو الوحيد الذي رأى ما حدث، وعرف أن الكابوس قد انتهى أخيرًا...
ولولاه....
إلا أنه لم يبد متفائلًا كثيرًا بالخلاص من حارس الكهف.. قد قال لي بطريقتهم المقتضبة الخالية من الانفعال:
- سيعود...!.
- لكنه كائن حي.. ولا يمكن أن....
أشار إلى أسفل.. وقال:
- هناك آخرون....!
الحق يقال، أنني قد همت حبًا بهؤلاء الرجال.. الذين لا يتكلمون ولكن يفعلون.. والذين يملكون من الذكاء الفطري وحكمة القرون ما يفوق تصوري.. ولكن ماذا يوجد بأسفل؟.
ما سر هذه الرسوم على جدران (تسيلي)..؟ لن أعرف أبدًا إلا إذا استجمعت شجاعتي، وحاولت العودة إلى الكهف الأخير يومًا ما، لأنزل الدرجات التي تقودني إلى.. إلى (اطلنطس)؟..
ربما.. ربما فعلت ذلك يومًا..
لكني ما زلت أؤمن بأن هناك من أسرار الكون ما يحسن بالمرء أن يدعه وشأنه....
لقد عشت أيامًا عصيبة، وبلغت حافة الجنون.. لكني لم أعرف أكثر.. وأبدًا لم أزدد حكمة ولا فهمًا للكون...
إن هؤلاء الرجال العظام كانوا أكثر حكمة من البروفسير و(محمود) و(أحمد) و(مني).. أكثر حكمة وأكثر شجاعة..
وكان الفراق أليمًا على طريقة (التبو)..
مصافحات عديدة.. ثم الرحيل ولا شيء آخر.. فهم قوم لا يسرفون في العواطف..
رحلة عسيرة عسيرة كانت أمامي في عودتي لـ (طرابلس)...
وذكرى قاسية أخرى تتخذ مكانها في موضعها الصحيح
على رفوف ذكرياتي..
كنت بحاجة إلى الاسترخاء.. الاسترخاء..

على أنني لم أعلم - وكيف أعلم - أن هناك شيئًا مثيرًا للدهشة ينتظرني.. وأن تجربة غير عادية ستشغل تفكيري لزمن لا بأس به..
لكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل
القاهرة – ١٩٩٢

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

المقدمة

١ - إنه قادم!

٢ - القارة المفقودة..

٣ - دعونا نر!!

٤ - بحر الرمال..

٥ - الطوارق..

٦ - الكهوف..

٧ - الكهف الذي لم يدخلوه..

٨ - النداء الغامض..

٩ - ثلاثة..!..

١٠ - اثنان...!!؟

١١ - واحد..!

خاتمة..

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة حارس الكهف

اليوم نرى بأنفسنا حقيقة تلك الكهوف .. ستزأر العواصف الرملية .. لكننا سندخل، ستعوي الذئاب فى الظلام ... لكننا سندخل، سيتحرك حارس الكهف الرهيب في إثرنا والموت و الدم يتبعانه .. لكننا سندخل!!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة أرض أخرى

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

مؤرخ يوناني عظيم.

[←2]

ديجافو: لفظة فرنسية تعني (شوهد من قبل)..

[←3]

الأول هو صاحب (عائشة) و(كنوز الملك سليمان). والثاني هو صاحب (العالم المفقود) و(الأرض التي غفل عنها الزمن) وقصص (طرزان) الشهيرة..

[←4]

بعد ثورة سبتمبر صار اسمها قاعدة (عقبة بن نافع).

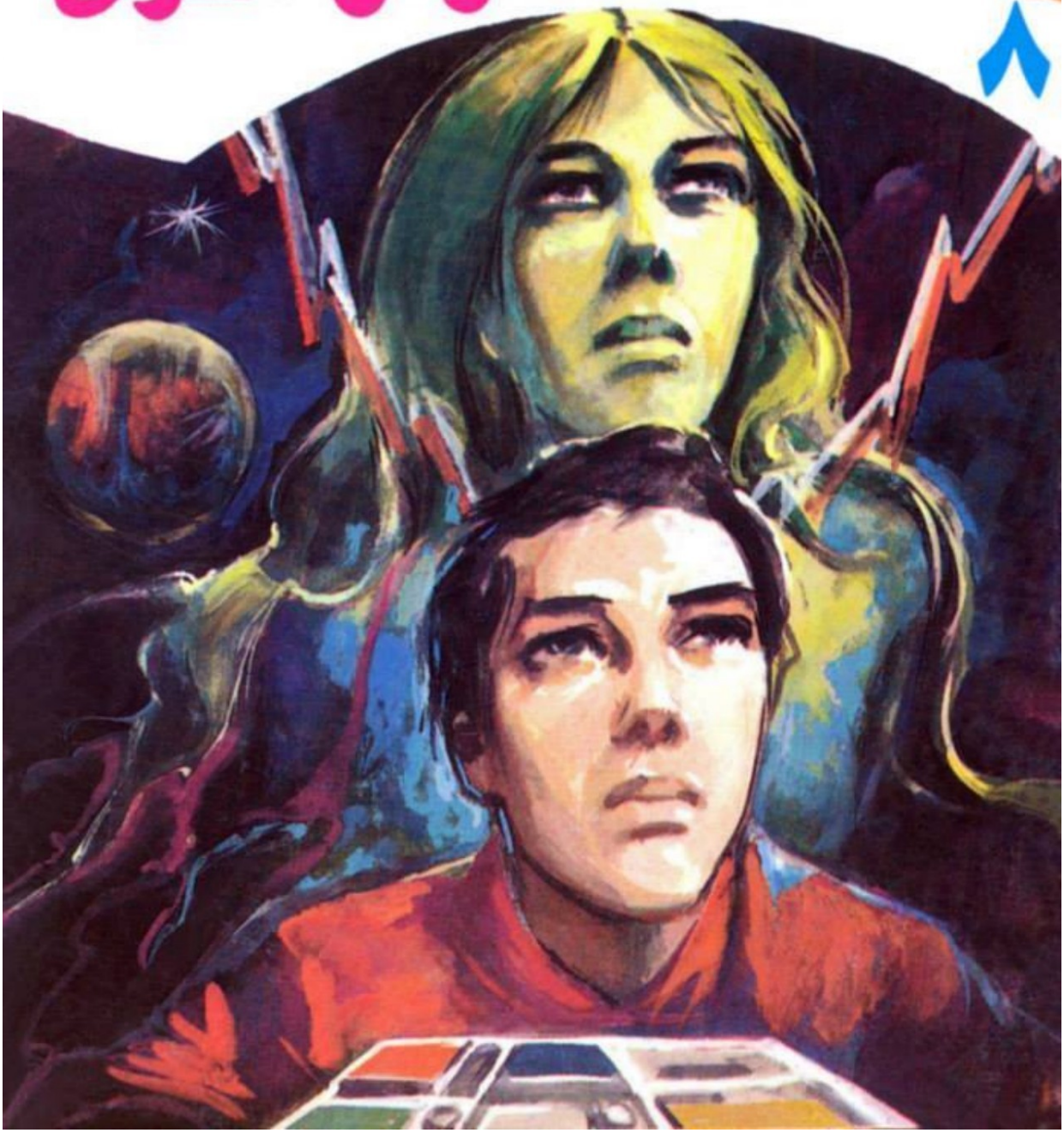
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

أسطورة أرض أخرى

ماوراء الطبيعة

٨



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

٨

روايات مصرية للجيب

•

ماوراء الطبيعة

أسطورة أرض أخرى

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

٨

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة أرض أخرى

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

ما قبل المقدمة

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل)، الذي صدع رءوسكم بذلك التقرير المختص عن نفسه، في بداية كل قصة من قصصه التي لا تنتهي..

على أنني لا أستطيع حقًا أن أقاوم تلك اللذة الخبيثة في أن أكرر ما قلته قبلًا: إنني أستاذ أمراض دم سابق.. وشيخ على حدود الأبدية..

وصائد أشباح غير محترف - وبالطبع - غير متزوج.. اليوم - وكما عودتكم - سأحكي لكم قصة أخرى..

أسمعكم تتساءلون عن المسخ الذي سأقابله هذه المرة.. هل هو (نوسفيراتو)، أم هو رجل الجليد المفزع، أم (فرانكنشتاين)؟.. كلا يا رفاق.. اليوم لن يكون هناك رعب ولا مومياوات ولا حتى مصاصو دماء...، فقط مغامرة من نوع جديد.. مغامرة لم يكن لي أي دور فيها ولا فضل.. وإنما حكاها لي صديق جديد.. وأوصاني أن أنقلها لكم دون تحريف..

(سالم محمد شحاته).. هل تعرفونه؟.. بالطبع لا.. إنه رجل عادي إلى حد لا يوصف.. رجل تلقاه في الشقة المجاورة، والمكتب الملاصق لك، وفي الحافلة، وعلى محطة القطار.. لكن هذا الرجل يختلف لأن له سرًا صغيرًا.. سرًا لا يعلمه أحد ولا يتخيله..

لقد جاء لمكتبي.. وفي خجل شديد ناولني رزمة من الأوراق مكتوبة بخط يد رديء.. وأوصاني أن أقرأها وأن أتبني نشرها إذا ما راقت لي...

وفي المساء بدأت أدخل عالم المرآة المسحورة.. انغمست تمامًا بين السطور.. ونسيت أن آكل أو أشرب أو أنام..، إن هذا الشاب الذي تقتحمه العين هو... هو... كلا.. لن أقولها....

إنها لقصة غير عادية، وإنني لأوثر أن أنسحب تاركًا لكم المجال كي تعيشوا الأحداث مع (سالم) هذا..، إنها الخبرة جديدة تضاف لرصيد خبراتي..

ولا يعنيني ما إذا كانت قصته واقعًا أم خيالًا...

إنها مشوقة.... وهذا يكفيني!!

مقدمة طويلة نوعًا

أول الشهر.. يوم الرواتب في كل زمان ومكان..

أدخل من باب الإدارة متعجلًا ممتقع الوجه.. كلما لاقيت موظفًا نظر لي في هلع وإشفاق، نظرته إلى مجرم يصعد في سلالم المشنقة.. ثم يقول لي محاولًا أن يبدو طبيعيًا (وهو ما يزيد الأمر سوءًا):

- (سالم).. المدير ينتظرك في المكتب..

لقد تأخرت - بسبب سهري المفرط - أكثر من ساعة عن موعد الحضور.. فالويل لي إذن!..

وهناك جوار مكتب الصراف، يقف عدد كبير من الموظفين والفنيين العاملين في دار النشر التي أعمل بها.. إنهم مجموعة مألوفة، ولابد أنك تعرفهم جميعًا.. كلهم ينتظرون رواتبهم..

(نور الدين) و(سلوى) يتهامسان مع ابنتهما (نشوى).. بينما بعض وحوش المشتري وعطارد العاملة في سلسلة (نوفا) تزأر بشكل مفزع...

رجل المستحيل - (أدهم صبري) - واقف يتبادل عبارات غاضبة مع (دونا كارولينا).. وما إن رآني حتى اشرق وجهه الوسيم وهتف:

- كيف حالك يا (سالم)؟.. المدير ينتظرك..!

ثم داعب خصلات الشعر الأشيب على فوديه.. وهمس:

- إنه ينوي خراب بيتك!..

وفي هذه اللحظة صرخ رجل أخضر في عصبية:

- أيها الأرضيون القذرون.. أنا الأرشيدوق (شاسا) قائد أسطول الفضاء المريخي، آمركم بأن تفسحوا لي الطريق.. أريد راتبي!...

انفعل (نور الدين) ومد يده لمسدس الليزر صائحًا:

- ولماذا لا تنتظر دورك مثلنا أيها المريخي المتعجرف؟!

مد الأرشيدوق (شاسا) يده إلى سيف الليزر.. ولوح به لامعًا مرعبًا في وجوهنا.. وصاح:

- تعال ذق هذا ما دمت شجاعًا...

وبدأت الأعصاب تتوتر.. وأيقنت أن مذبحة ستحدث هنا، خاصة وأن وحوش المشترى الهلامية بدأت تتوتر وتتحفز للقتال.. وحين تثور هذه لن تعرف أبدًا مع من وضد من تقاتل.. إنها تلتهم كل شيء، حليفًا كان أو عدوًا.. مكتبًا كان أو مطفأة سجائر..

وهنا برز راس المدير من باب غرفته، وصاح في حزم:

- ما هذه الضوضاء؟.. لا أريد غوغاء ها هنا!

وعلى الفور ساد الصمت وهدأت النفوس، كأنما بعصا ساحر.. فالواقع أن كل هؤلاء - حتى وحوش المشتري - يرغبون في قبض رواتبهم!.. وليس منهم من يتحمل تلقى خطاب الإقالة أو الخصم..

- وأنت يا (شاسا) و(نور الدين).. أعيدا أسلحة الليزر ولا تنسيا أنها عهدة، وأن من يفسد شيئًا يدفع ثمنه!..

هز الأرشيدوق (شاسا) رأسه في ذلة، وأعاد سيف الليزر إلى غمده.. فمرتبه لمدة عشرين سنة لن يكفي لشراء سيف ليزر آخر..!

وهنا حدثت الكارثة..

التفت لي المدير.. وقال في هدوء:

- وأنت.. تعال!!

أفسح لي الواقفون الطريق، وعيونهم تنطق بالحسرة.. لسان حالهم يقول: تشجع أيها البائس...

دخلت المكتب في صمت، على حين استرخي المدير على كرسيه.. وعقد يديه فوق صدره وتنهد.. ثم قال:

- حسن..!

ابتسمت في حرج مقاومًا رغبة جامحة في الفرار.. فواصل الكلام:

- والآن هو ذا (سالم شحاتة) الكاتب الشاب الذي يعمل معي منذ عام.. ويأخذ راتبًا مجزيًا.. من أجل ماذا؟

وأخرج كراستين من درج المكتب ألقاهما أمامي قائلًا:

- القصة الأولى تدور حول رجل يخترع آلة زمن، يرحل بها إلى الماضي والمستقبل، حيث البشر منقسمون إلى طبقتين: طبقة كادحة تعمل تحت الأرض، وطبقة مترفة تعمل فوق الأرض.. هل هذه فكرتك؟

قلت في فخر:

- طبعًا.

هز رأسه في قنوط، قائلًا:

- حسن.. هناك كاتب إنجليزي اسمه (هربرت جورج ويلز) يزعم أنه هو مؤلف القصة الأصلي..

صحت في عصبية وقد صعد الدم إلى رأسي:

- لص!.. إنه لص!.. لقد سرق فكرتي الرائعة!.. سأقاضيه!

قال في برود:

- إنه كتبها قبلك بأكثر من مائة عام..!

ومد يده إلى الكراسة الثانية وشرع يقرأ:

- القصة الثانية تتحدث عن رجل يبيع رأسه مقابل الثراء والمجد الفني.. ألا تجد أنها نسخة طبق الأصل من قصة الرجل (الذي باع رأسه) لأديبنا العظيم د. (يوسف عز الدين عيسى)؟!

وأشعل سيجارًا بقداحته.. واستطرد:

- هكذا ترى يا أخ (سالم) أن الموقف يعكس ثلاثة أشياء.. أولًا أنك غبي إذ تفترض أن أحدًا لا يعرف هذه الأعمال سواك.. ثانيًا أنك لص قصص محترف.. ثالثًا إذا افترضنا أنك لم تسرق هذه القصص، فأنت ساحر حقيقي...

وأشار لي بالسيجار:

- وأنا لا أحب أن أعين الأغبياء أو اللصوص أو السحرة في مكتبي..!، وبعد كل هذا...

واحتقن وجهه:

- بعد كل هذا....

وضرب المكتب بقبضته:
- بعد كل هذا، تجيء متأخرًا ساعة كاملة عن العمل؟!
ابتلعت ريقي بصوت مسموع، ونظرت لحذائي.. ثم قلت:
- سيدي.. إن لدى أفكارًا أكثر أصالة.. فقط أعطني الفرصة كي.. أنت تفهمني...
نظر لساعته في سأم.. وغمغم:
- أعطيك ثلاث دقائق لتقول ما عندك. قلت متلعثمًا محاولا ترتيب أفكاري:
- عندي فكرة عن رجل له شخصيتان، إحداهما خارقة للعادة، والأخرى ضعيفة خجول.
- وحبيبته تنفر من الخجول وتحب الخارقة.. مثل (سوبرمان)!.. الصحفي (كلارك كنت).. هه؟..
مسحت قطرات العرق على جبيني.. وقلت:
- فكرة أخرى عن مخلوق فضائي يعيش على الأرض، ويتعرف حياة البشر، ويأمل في العودة لموطنه.
- (إي - تي)..!.. الفيلم السينمائي الذي شاهده الجميع سواك، أو هذا ما ستحاول إقناعي به.
- إذن فكرة عن إدارة ما، بها مجموعة من الشباب، يحققون في القضايا الغامضة.. و...
- لقد قتلت هذه الفكرة.. هناك ألف قصة عن ألف إدارة بها ألف شاب من هذا النوع.. انتهت الدقائق الثلاث!
ورفع سماعة التليفون، وبدا يطلب رقمًا ما.. وهو يغمغم:
- الحقيقة يا (سالم)، هي أنك كسول وعاجز وغير موهوب.. و...
آلو؟.. (مصطفى)؟.. نعم.. كيف حالك؟.. أرجو أن ترسل لي ملف (سالم شحاتة) حالًا..!
صحت في جزع:
- المشكلة أن القدماء قد فكروا في كل شيء.. لقد سافروا في قصصهم لكواكب أخرى، وغاصوا تحت الأرض وفي الأعماق.. عادوا للماضي وزاروا المستقبل.. لقد سلبوني كل شيء.. المشكلة أنني جئت الدنيا متأخرًا بعد أن أتوا على مائدة الأفكار، فلم يبق لي سوي الفتات.
قلب كفه بمعنى أنه لا يستطيع مساعدتي.. ثم قال برزانة:
- مهما كان رأيك.. دعني أصارحك بشيء.. لو لم تأتني بفكرة جديدة خلال ثمان وأربعين ساعة، ستجد نفسك في مغامرة حقيقية.
- حقًا؟.. شكرًا يا سيدي.. وما هي؟..
- مغامرة البحث عن طعام..!!
وهكذا.. خرجت من مكتبه ورأسي يئز كخلية النحل، بصعوبة أتبين الوجوه من حولي.. (أدهم صبري) يقول باسمًا:
- أعتقد أنك كنت موفقًا.. فلا توجد آثار دماء على ثيابك..!
ويقول لي د. (رفعت إسماعيل) وهو ينظف نظارته:
- تشجع!.. لقد واجهت مواقف أشنع من هذه في شبابي...
أما أنا فلم أكن أعي حرفًا..

* * *

١ - نسختي..!

فكرة جديدة..!.. فكرة جديدة..!

عبثًا استعرضت مئات الأفكار الصالحة، لتبدأ سلسلة مشوقة دون جدوى.. حين تخطر لك فكرة رحلة في عالم القصص الخرافية، تكتشف أن كاتبًا اسمه (لويس كارول) سبقك إليها، وكتب (أليس في بلاد العجائب)، وحين تفكر في كتابة قصة عن رحلة إلى قبائل مجهولة، بحثًا عن كنوز ما.. تدرك أن الأخ (رايدار هجارد) سبقك إليها، حين كتب (كنوز الملك سليمان)..

لا جدوى..

الباب يدق.. ويدخل (سيد) عامل المكتب، يبلغني برسالة عجيبة:

- أختك تنتظرك بالخارج.

- همم!.. وهل قالت إنها أختي؟..

- كلا.. لكنها تشبهك بشدة..

- هكذا.. الواقع أنه ليس لي أخوات ولا إخوة!..

ثم تنحنحت.. وسألته:

- هل هي جميلة؟

- قلت إنها تشبهك بشدة!!

بحثت عن رد لاذع لإهانته فلم أجد.. طلبت منه أن يدعها تدخل، وبعد ثوان دلفت من الباب فتاة ترتدي ثيابا بسيطة جدًا.. والعجيب حقًا أنها كانت تحمل ذات ملامحي.. مع مسحة من الرقة الأنثوية طبعًا، وإلا بدت مثل (فرانكنشتاين)، وكانت أكبر سنًا مني بحوالي عقد كامل..

- أستاذ (سالم)؟

- أنا هو..

ودعوتها للجلوس.. فجلست برشاقة، وابتسمت.. حتى الابتسامة كانت بزاوية فمها اليسرى مثل ابتسامتي!...

- نهارك حليب..!



ودعوتها للجلوس .. فجلست برشاقة ، وابتسمت .. حتى

الابتسامة كانت بزاوية فمها اليسرى مثل ابتسامتى ! ..

تجاهلت تعبيرها الغريب، الذي يعطي لمسة سوقية ما لا مبرر لها، وفي رزانة سألت:
- أفندم.. هل ثمة خدمة أسديها إليك؟!..
قالت وهي تعبث في شرود ذهن بالأوراق على مكتبي:
- لا أدري.. لا يوجد شيء ما أريده منك.. لكني..
وفكرت برهة.. ثم همست:
-.. لا أعرف مخلوقًا ولا مكانًا في هذا العالم سواك.. أنت ملاذي الوحيد.. هل تفهمني؟!..
آه..!.. إذن القصة هي هكذا.. هذه الفتاة منبهرة بك يا أخ (سالم).. ومن العجيب أنها لا تبدو راقية الذوق إلى هذا الحد.. إنها ليست سامية مرهفة الحس فحسب.. بل هي - ولابد. عبقرية أيضًا..!
هززت رأسي في حكمة، بمعنى أنني أفهم تمامًا ما تريد قوله.. فاستطردت:.
- إنك تحتاج إلي هذه الأيام بالذات ؛ لأنك ستطرد من العمل بعد أسبوع، ما لم تجد فكرة جيدة..!
نهضت كالملسوع.. وسألتها:
- من قال هذا؟
- لأنني أنا نفسي طردت في نفس التاريخ، منذ عشر سنوات!
هذه الفتاة تهذي، أو أن وراءها سرًا لا أعلمه.. ما علاقة طردها بطردي؟.. سألتها في ريبة:
- هل تعنين أنك كنت تعملين هنا منذ عشر سنوات؟
قالت في هدوء مستفز:
- كلا.. كنت أعمل هنا ولكن في عالمي..!
- آه..!.. هكذا فهمت!
واسترخيت في مقعدي، لاعنًا يوم اتيت للدنيا، كي أتلقى توبيخ المدير، وأصغي لهذيان الفتيات المعتوهات.. كانت عيناها تتأملان الصور الملونة للقطط الصغيرة المبعثرة تحت زجاج مكتبي.. وابتسمت في انتصار:
- آه!.. أنت تحب القطط الصغيرة؟
- لم أعرف أن القانون قد حرم ذلك.
اتسعت عيناها.. وقالت في حماس:
- مثلي تمامًا.. وطبعا تحب موسيقا (فيروز)، وتحب النوم حتى ساعة متأخرة، وقراءة الجريدة في الحمام؟!..
ملت نحوها برأسي في ذهول.. موضوع الجريدة هذا.. هناك شيء غامض يحيط بهذه الفتاة.. شعور غريب يتملكني..
- وكذلك أنت جاف القريحة وعاجز عن الإبداع.. أليس كذلك؟
- لحظة يا آنسة.. لو كنت قد جئت لإهانتي..
- كذلك أنت تحب الأكل المتبل.. وتفرط في شرب القهوة.. وعندك قرحة معدية مزمنة.
-.....!
كنت هنا قد وصلت لمرحلة انعدام الوزن.. هذه الفتاة تعرف أدق خصوصياتي.. وتشبهني إلى حد مرعب.. ولها عاداتي.. و...

قالت وهي تلمح آثار الغباء على وجهي:
- ألم تفهم بعد؟..
- نعم.. نعم لا أفهم...
- أنا هي أنت ايها الأحمق!

* * *

كنا جالسين أنا وهي في ذلك المطعم الرخيص، نتحدث عن ذلك الذي بدا لي كابوسًا غريبًا..، كانت تزدرد الطعام بشراهة (كعادتي)، وتقول:
-.. هأنذي قد حكيت لك كل شيء عنك.. فأي إثبات تريد بعد ذلك؟
قلت لها في صبر، وأنا عاقد أناملي تحت ذقني، وقد أفقدتني كلماتها شهيتي إلى الأبد:
- دعيني أفهم مرة أخرى.. تقولين إنك من كوكب آخر.. أليس كذلك؟
- بلى.. كوكب (١٩ ٤-أ).. مجرة (تازما مالوري)..
- وأن هذا الكوكب يشبه الأرض في كل شيء، فيما عدا اختلافات طفيفة..
-.. لقد فهمتني..
-.. وأنك أنت صورتي الكروموسومية على كوكبكم.. يعني أنني على كوكبكم أنثى، وعلى الأرض ذكر.. ولهذا اسمي (سالم) واسمك (سلمى)..
- إنك فهمت كل ما قلته..!
- وتتوقعين مني أن أصدق كل هذا..!
- هذا شأنك..
- وكيف تأتي أنك تعرفين ما سيحدث لي؟.. هل التنبؤ بالمستقبل متاح لسكان كوكبكم؟
قالت وهي ترشف كوب الماء بعد الأكل (كعادتي):
- كلا.. لا يستطيع بشر أن يتنبأ بالمستقبل.. كل ما هنالك أننا نسبقكم بسنوات عشر.. أي أننا في عام ٢٠٠٣ الميلادي على كوكبي..، وهكذا فإن أكثر ما سيحدث لك فيما بعد، مر بي أنا..، لقد طردت من عملي في مثل هذه الأيام منذ عشر سنوات..!
- وطبعا لم تموتي جوعًا..
- دنوت من ذلك كثيرًا!
- وماذا فعلت بعد طردك؟...
تنهدت في تعب وقالت:
- التحقت بهيئة بحوث كبرى، وبدأت أدرس الإلكترونيات، وصرت باحثة لا بأس بها.. أطلب لنا القهوة أرجوك، فأنا مدمنة قهوة..
طلبت لها ما أرادت..، ثم قلت:
- لا أعتقد ان عقلي سيستوعب الإلكترونيات ولو بعد قرنين..
- كان هذا هو مصيري، وربما أن مصيرك يختلف..
ثمة العديد من الاختلافات كما قلت لك..
- وكيف وصلت إليّ؟

- حين وصلت لهذا الكوكب، وجدت نفسي قريبة من مكان عملي القديم، لهذا ذهبت هناك بحثا عن (نسختي) الكرموسومية.. قال لي العامل إن هناك موظفًا فاشلًا اسمه (سالم).. لم أحتاج لعبقرية خاصة كي أعرف من هو (سالم) هذا..

ما إن أنهت كلامها حتى طلبت منها النهوض..

- إلى أين؟

- ستعرفين فيما بعد..

- والقهوة؟..

- ششش..!

* * *

إلى صديقي القديم في مصلحة الطب الشرعي - د. (عدنان) - ذهبنا، وكان على وشك الانصراف حين طلبت منه خدمة استثنائية.

طلبت منه أن يأخذ بصماتي وبصماتها، وقطرة من دمي وقطرة من دمها، ليرى مدى تطابقهما..

لم يفهم ما أريد، لكني كنت لحوحًا مما جعله يقتنع.. أو لعله ظن أنني والفتاة مقبلان على الزواج، ونبغى نوعًا من (الاستشارة الوراثية)..

وفي الشارع وقفت والفتاة حائرين.. ثمة مشكلة بسيطة لكنها بلا حل.. أين تمضى الفتاة ليلتها؟.. إنني أحيا وحدي، فليس من الملائم أن أستضيف فتاة حتى ولو كانت من الكوكب (١٩ ٤-أ).. مجرة (تازما مالوري)!

وبرغم غيظي منها، وشكي في أمرها، إلا أن نظرة الحيرة والرعب الصادقة في عينيها، جعلتني أقرر أنها مسئوليتي برغم كل شيء..

وهكذا أخذتها إلى حيث أسكن..

- ألم تتعرفي على البناية؟

- نعم.. في كوكبي أعيش في دار سكنى الباحثات بهيئة (الإلكترونات التكنولوجية)..

صعدنا الدرج إلى شقة جارتي مدام (عواطف)..، فتحت لي السيدة الطيبة الباب، فأشرق وجهها حين رأت من حسبتها شقيقتي..!

- ليست شقيقتي بل ابنة خالتي..

- سبحان الله.. تكاد تكون نسخة منك!

- حسن.. لقد وصلت ابنة خالتي القاهرة اليوم، في زيارة لصديقة لها.. فلم تجدها.. ولما كان الوقت متأخرًا..

- طبعًا.. طبعًا.. ستنام الليلة مع (هدى) ابنتي.. لا تقلق عليها...

وقبل ان تدخل (سلمى) الباب همست في اذنها:

- ولا كلمة عن مجرة (تازما مالون) هذه..

قالت مصححة في كبرياء:

- (تازما مالوري)..

- حسن.. حسن.. ولا كلمة، وإلا وجدت نفسك في مكان يضم زملاءك من القادمين من مجرات أخرى..!

وما إن دخلت حتى هززت رأسي محييًا السيدة الفاضلة، وصعدت لشقتي كي أغفو بضع ساعات أنسى فيها كل هذا..

* * *

في الحادية عشرة مساء، أخذ جرس الهاتف يدق في غرفتي، في هستيريا ولهفة..

رفعت سماعة الهاتف، لأسمع صوت د. (عدنان) الملهوف المذهول:.

- (سالم).. هل حدث خلط بين عينتك، وعينة الفتاة.. أو تكرار مثلًا؟

- أولًا.. مساء الخير.. ثانيًا لم يحدث.. لقد تم الأمر بمعرفتك..

- إذن ثمة معجزة في الأمر.. إن البصمتين تتطابقان تمامًا.. أول بصمتين تتطابقان في تاريخ الطب الشرعي كله، والأدهى أن كروموسومات الدم متماثلة تمامًا..، فقط عينة بها جسيم (بار) بمعنى أنها عينة أنثى.. لقد أصابني الذهول، فطلبت إجراء اختبار توافق الأنسجة، على ما نسميه (المستضد البشري للخلايا البيضاء).. هل عندك فكرة عن الموضوع؟

- بتاتًا.. اعتبر أنك تحدث حمارًا..

- حسن.. هذا أنسب.. بدون تفاصيل يوجد تطابق نسيجي بنسبة ١٠٠٪ بين العينتين.

- ومعنى هذا؟..

قال وقد اكتسب صوته رنينًا مرعبًا:

- معناه أنك - أنت وتلك الفتاة - شخص واحد!!

* * *

٢ - أرض أخرى..

في الصباح وجدتها واقفة أسفل سلم العمارة، تنتظرني مشرقة الوجه، وقد عقصت شعرها، فبدت كطفلة تنتظر أباها للذهاب للمدرسة..، وكنت أنا منتفخ الوجه عكر المزاج، بسبب الأرق طيلة الليل..

- نهارك حليب..!

- ما هذه الكلمة؟.. لماذا لا تقولين (صباح الخير) كالآخرين؟

- في كوكبي لا نقول سوى (نهارك حليب)..

- كلمة مستفزة حقًا..

وركبنا الحافلة.. واضح أن الحافلات في كوكبها مزدحمة مثل حافلاتنا، لأنها لم تبد مندهشة.. وحين مر المحصل، مدت يدها إلى حقيبتها لتدفع لنا، لولا أن أوقفتها نظرة حازمة من عيني.. ودفعت له أنا.. كانت توشك أن تعطيه ورقة من عملاتهم، زرقاء اللون، عليها نصب تذكاري عجيب!!..

همست في أذني وقد فهمت ما هنالك:

- معذرة.. دائمًا ما انسى ان العملات غير واحدة في كوكبينا.

مضت الحافلة تتمايل وتهدر، حتى وصلت إلى وجهتنا حديقة الحيوان!.. نعم.. فأنا لا أستطيع تركها عند جارتي، ولا أخذها للعمل، لذا قررت أن آخذها لمكان يمكننا الكلام فيه دون رقباء.. ثم إنني سأطرد - كما تقول هي - بعد أسبوع، فلا ضير من يوم نقضيه في مرح، أنا الذي لم أر حديقة الحيوان منذ خمسة عشر عامًا..



لذا قررت أن آخذها لمكان يمكننا الكلام فيه دون رقباء ...

وهنالك جلسنا نطعم الدببة بالفول السوداني، ونتحدث..
قلت لها وأنا ألتهم بعض الفول:
- على فكرة..
- همم؟
- اتصل بي د. (عدنان) أمس، وأكد لي ما قلته.
- وهل شككت لحظة؟
- ضعي نفسك مكاني!
بدأت تحكي لي قصة حياتها، وهي تشابه قصة حياتي من وجوه عديدة.. سألتها عن سبب اختلاف جنسينا، فقالت إن تشابه الكوكبين لا يمكن أن يكون مطلقًا.. إن الأمر كله يتوقف على كروموسوم الذكورة (واي)، إذا وصل البويضة أولًا جئت أنا ذكرًا، وإذا وصل الكروموسوم (إكس) جئت أنا أنثى..
- وكيف خطر لأبوينا أن يسميانا نفس الأسماء.. (سالم).. (سلمى)؟
- قد تكون صدفة، وقد لا تكون.. لماذا يختار الأبوان اسمًا ما؟.. إنه خلاصة تجاربهما وبيئتهما وثقافتهما.. فإذا تساوت هذه المعايير على كوكبك وعلى كوكبي، فإن هناك احتمالًا لا بأس به، أن يختار كلا الأبوين نفس الاسم...
هززت رأسي.. وناديت بائع الجرائد، واشتريت منه جرائد اليوم.. فسمعتها تبدي دهشتها من أن عناوين الجرائد مختلفة البنط واللون عن جرائد كوكبها، وشرعت تمرر إصبعها على الأخبار في شغف..
ثم التفتت إلى وقالت إن معها في حقيبتها جريدة من عالمها.. فلماذا لا أتصفحها على حين تتصفح هي جريدتنا؟.. أخرجت من الحقيبة جريدة عجيبة اسمها (المجد) تاريخها ١٤ محرم سنة ١٤٢٣..!.. أرجو ألا يراني أحد وأنا أقرؤها..
أخبار غريبة جدًا...
"أسطول (أ.ع.م) يجري مناورات في المحيط الأطلسي..
(تايلاند) تعزز قواتها في الصين المحتلة..
بركان (الإسكندرية) يجدد ثوراته..
جمهورية كاليفورنيا تشكو في مجلس الأمن الأعمال العدوانية التي تمارسها جمهورية (فرجينيا)..
هبوط في بورصة الولايات الأمريكية الجنوبية المتحدة..".
أصابني الدوار والذهول من كل هذا الخلط.. وكانت (سلمى) في حال أسوأ.. قلت لها مبتلعًا ريقي:
- ما معنى هذا الهراء؟.. (تايلاند) تحتل (الصين)؟ بركان في الإسكندرية)؟
- وهو السخف؟.. لا توجد عندكم (أ.ع.م)؟
- وما هي؟.. إلام ترمز هذه الحروف؟
-.. (أمة عربية متحدة).. في كوكبي اتحدت الدول العربية منذ مئتي عام، مكونة وحدة كونفيدرالية هائلة.. قوة اقتصادية وطاقة بشرية وتقدم تكنولوجي لا يستهان به..، إن أساطيلنا

الجوية والبحرية تسيطر على نصف العالم..
- والقوة الأخرى؟
- هي اتحاد جنوب شرق آسيا (نادي النمور)..، ثم هناك قوة أخرى هي (الولايات المتحدة الأمريكية الجنوبية) وهي تثير الهلع في قلوب جاراتها الضعيفات، مثل جمهورية (أوهايو) ومملكة (بنسلفانيا) وسواها..!
أخفيت ضحكتي الهستيرية المريرة، على الصورة الكاريكاتورية التي ترسمها لي، وسألتها بجدية:
- وعاصمتكم؟.. هل هي (القاهرة)؟
- في (أ.ع.م) توجد ثلاث عواصم.. (دمشق).. (القاهرة)... (الرباط).. تدير. كل واحدة شئون الولايات المحيطة بها مع التنسيق التام..
سألتها وأنا أشعر أن أحدنا مخبول:
- وكيف، ولماذا جئت عالمنا..؟
قالت وهي تهز حذاءها بعصبية:
- د. (محمود بكر)، وهو عالم فيزياء في كوكبي، توصل إلى اختراع جهاز اسمه (ناقل الجزيئات).
- (تيليترانسبورتر)؟.. أليس هذا ما تعنين؟
قالت في كبرياء:
- لماذا تستخدم مصطلحًا لاتينيًا؟.. قلت لك إن مخترعه عربي..
- معذرة. فكل قصص الخيال العلمي عندنا تستعمل هذا المصطلح..
قالت:
- يقوم هذا الجهاز بتحويل جزيئات الجسم إلى طاقة يتم إرسالها بسرعة تفوق سرعة الضوء، إلى أي مكان، لتعود لحالتها هناك..، وهذا هو الحل الوحيد والممكن لارتياد المجرات الأخرى بالنسبة لكائنات فانية مثلنا..، أبدًا لن توجد سفينة فضاء قادرة على هذه المهمة.. لكن هناك مشكلة.. يجب أن يشابه الجو الأيوني للكوكب (المستقبل)، نفس الجو الأيوني للكوكب (المرسل)، حتى نضمن ألا يتغير شكل الجزيئات بعد الرحلة المريعة..
- فهمت.. لا تريدون المخاطرة بإرسال إنسان إلى مجرة أخرى، يتحول عند الوصول إليها إلى دستة من مشابك الغسيل..!
- بالفعل.. لكن الكون كبير.. وهناك مئات المجرات تشبه مجرتنا، بها عشرات الشموس التي تشبه شمسنا، حولها عشرات الكواكب التي لا بد أن أحدها قد مر بنفس ظروف كوكبنا.. وبالتالي..
قاطعتها في حماس وقد اقشعر جلدي رهبة:
- هناك عشرات الألوف من أرضكم.. أحدها هي أرضنا هذه!
- وهكذا فإنه يمكن إرسال الواحد منا - دون أدنى مخاطرة - إلى أرض موازية..، ولما كانت قد مرت بنفس الظروف، فإن هناك احتمالًا لا بأس به أن تقابل نفس الوجوه:. وتسمع ذات الأسماء.. ونفس اللغات.. لكن هناك اختلافات عديدة كما في حالتنا هذه..
- مثير!!

- الأكثر إثارة هو أن الكواكب المتماثلة في الظروف ليس لها نفس العمر.. فكما قلت لك هناك أرض تسبقكم بعشر سنوات هي أرضي.. هناك أرض أخرى لم تزل في عصر الرومان.. وأرض في عصر العباسيين.. وأرض في العصر الباليوزي.. كل شيء ممكن...

- مثل آلة الزمن.

- كلا.. ليس هذا هو مفهوم آلة الزمن.. قد تجد ماضيًا يختلف تمامًا عن أي ماض طالعته في كتب التاريخ..

- وهل سأقابلني دائمًا في كل كوكب من هذه؟

- ليس بالضرورة.. قد لا تكون ولدت بعد.. وقد تكون مت من زمن..، وقد يكون جدك توفي قبل أن ينجب أباك..، قد تجد نفسك رضيعًا، أو عجوزًا، أو ممثلة سينما حسناء، أو ديكتاتورًا..

شردت نظرتي وهمست:

- إن.. إن هذا يثير الدوار..

تلفتت حولها في حذر، ثم مدت يدها لحقيبتها واخرجت آلة صغيرة تشبه الآلة الحاسبة..

- هذا هو.

تأملت الجهاز في خيبة أمل:

- فقط هذا؟.. إن أفلام الخيال العلمي تظهر (التيليترانسبورتر) دائمًا في صورة كابينة تليفونات.. لهذا ارتبطت في ذهني بهذا الشكل، مثلما ارتبطت آلة الزمن - للأبد - بمنظر كرسي الحلاق..

قالت دون أن تعلق على دعابتي:

- كانوا يريدون متطوعين.. وكانت هذه هي فرصتي للهرب من واقعي، أردت أرضًا أخرى لا تعرفني..، لقد أعطاني د. (محمود) برنامجًا يناسب حوالي ألف كوكب.. لكن كل كوكب أزوره يعنى انتهاء فرصتي في العودة إليه لأن دائرته تحترق..

وأشارت إلى الأرقام:

- يأخذ الكوكب رقمًا من واحد إلى ١٩ ٤.. ثم المجرة تأخذ حرفًا من أ إلى ياء.. بعد هذا رقم المدار.. إن الأرض - كوكبكم - هي أول محاولة لي ورقمها هو (١١٢ - ب - ٧٥)..، لن أستطيع العودة لهذا الرقم لو تركت هذه الأرض..

- وكيف عرف د. (محمود) اماكن هذه الكواكب الشبيهة؟

-.. بالحاسوب.

- تعنين (الكومبيوتر)..؟

- كلا.. إنه اختراع عربي في عالمي، ولم يكن ثمة داع لتسميته باسم أعجمي..!! باستخدام الحاسوب وقوانين الاحتمالات، ونوع متقدم جدًا من (جبر المحددات)، توصل لحساب أماكن هذه الكواكب بدقة..

ثم أشارت إلى زر أحمر صغير:

- هذا هو زر العودة.. تلقائيًا يطلب رقم مجرتي (١٩ ٤-أ-٣) حيث أعود وأقدم تقريري يومًا ما.. إنه تذكرة العودة لي.. ووضعت الجهاز جانبًا وعادت تطالع الجريدة..

ألم أقل لكم إنها نسخة مني في كل شيء حتى الاهمال!؟.. قبل أن ندرك ما حدث وثب أحدهم على الحقيبة - والجهاز بها - وانتزعها وشرع يركض..

إنه لص أغراه منظر الجهاز فظنه شيئًا ثمينًا غير عالم - الغبي - أنه لن يجد مشتريًا لجهاز (ناقل جزيئات) مهما حاول..!

صرخت (سلمى) في هلع:

- (سالم)!.. لو ضاع الجهاز أو ضغط على الزر الأحمر سيذهب هو لعالمي وأبقى أنا هنا للأبد..!

* * *



قبل أن ندرك ما حدث وثب أحدهم على الحقيبة ـ والجهاز بها ـ وانتزعها وشرع يركض ..

٣ - سجينة!

بعد عودتنا من المخفر حيث أبلغنا عن سرقة الحقيبة التي تحوى بعض المال و... آلة ترجمة متطورة ؛ كانت (سلمى) في حال سيئة للغاية، ولم تنبس ببنت شفة طيلة الطريق.. لقد غدت حبيسة عالمنا للأبد.. وبرغم تشابه الكوكبين فإنني أفهم شعورها تمامًا..

أما ما كان يقلقني حقًا فهو ذلك الاحتمال الضعيف.. لو عثروا على الحقيبة، وفتحوها.. فما هو تفسيري للعملات النقدية الغريبة، والجهاز المريب الموجود بها؟!..

قالت (سلمى) في غل من بين أسنانها:

- هأنذي حبيسة كوكبك اللعين.. أبدًا لن أرى أرضي، ولا صديقاتي ولا شارعي.. أبدًا لن أرى أرضًا سوى هذه.. والأسوأ هو أن أرضكم هذه غير صالحة للحياة أساسًا..!

قلت لها معتذرًا بلا مبرر:

- آسف على أن كوكبي لا يناسبك.. لكن هناك احتمالًا لا بأس به أن يجد رجال الشرطة حقيبتك.

ركلت قطعة حجر على الأسفلت في عصبية، حتى كادت تهشم أصابع قدميها.. وهتفت:

- وحتى ذلك الحين.. ماذا أفعل؟.. وأين أنام؟..

- من ناحية النوم لن تكون هناك مشكلة.. يمكنك أن تعودي للنوم عند جارتي..

- وأنام مع ابنتها السخيفة المملة، التي تثرثر وتطري نفسها حتى الثانية صباحًا..؟

- طبعًا.. لا يوجد حل آخر.. المهم أن تقبل هي..!

- اللعنة...

فكرت حينًا، ثم واتتني فكرة ما..

- (سلمى).. هل أنت متزوجة؟

- لا.. أنا عانس إذا كنتم تستعملون هذا اللفظ هنا..

-... نتزوج إذن..!..

اتسعت عيناها في ذهول، فأخذت أبتسم في بلاهة.. لم لا..؟.. سيكون هذا هو المخرج الوحيد لها على هذا الكوكب.. ثم تلك التجربة المثيرة أن يتزوج الرجل نسخته الأنثوية..!، مهما توافقت طباع الزوجين فلابد من الاختلاف فالخلاف.. أما في هذه الحالة. حين يتزوج الرجل نسخة كربونية منه. فلن تحدث مشاكل.. مستحيل أن تحدث مشاكل.. امرأة تفكر مثلي، وتحلم مثلي..

دعك - بالطبع - من الفكرة النرجسية العتيدة لدى كل رجل.. لو أنه وجد زوجة تشبهه في كل شيء فلربما كانت أقل مللًا وإزعاجًا.!

صارحتها بخواطري.. فقالت بعد تحير.

- لحظة يا (سالم).. أنت تخلط ما بين (تشابه) الطباع و(تألف) الطباع..

- لا أفهم...

- أردت أو لم ترد أنا أكبر منك سنًا وأكثر حكمة..، دعني أقل لك إن (تشابه) الطباع لا يخلق زيجة ناجحة.. (تآلفها) هو الذي يفعل ذلك..

- لا أفهم..

- حسن.. عندنا فيلسوف لا أدري إن كان عندكم مثله أم لا1.. يقول هذا الفيلسوف إن الزواج الأمثل، هو الذي يتم بين رجل لا يحب صدر الدجاجة، وامرأة لا تحب سوى صدر الدجاجة.. هل تفهمني؟.. لو أن كلا الزوجين يحبان صدر الدجاجة لغدت حياتهما جحيمًا..

- أنا أحب صدر الدجاجة.

- وأنا كذلك.. هل فهمت المشكلة؟.. إن طباعنا متماثلة..

-.. لكني سأتنازل لك عن كل صدور الدجاج في العالم، لو غدوت زوجتي؟

قالت في شرود:

- على كل حال يمكن دائمًا تقسيم صدور الدجاجة إلى نصفين..!

وقضينا طيلة اليوم نمشي في الطرقات نتجادل.. بذلت أقصى جهد ممكن كي أزيل فيلسوفها من رأسها.. قالت لي:

-.. ولو رزقنا بطفل؟.. كيف سيكون؟.. إنه أول طفل في التاريخ يولد لأبوين متماثلين كرموسوميًا.. كأننا أنتجناه بانقسام ميتوسي كالأميبا.. ولا أريد أن يكون ابني أميبا..!

- إنه سيشبهنا في كل شيء.. هذا هو كل شيء.

تنهدت.. وقالت:.

- سنندم يا (سالم).. لكني.. سأوافق...

* * *

أنشودة (سالم)

هي جزء مني وأنا جزء منها...
إن لون عينينا واحد...
طول قامتنا واحد...
نحب نفس الألحان...
ونهوى ذات الأطعمة...
تدمع أعيننا حين نرفعها نحو الكون اللامتناهي...
فمن نجمة منه في مجرة ما...
جاءت هي.. ولم تحسب لحظة أنها ستكون لي...
إنها تفهم أفكاري قبل أن أشرحها...
وتضحك من دعاباتي قبل أن أقولها...
إنها لي.. وأنا لها...
فلك الحمد يا خالق الكون السرمدي...

* * *

أنشودة (سلمى)

اسمه يشابه اسمي..
إنني وحيدة في هذه المجرة بأسرها..
لكني أثق به..
أنه مني.. وأنا له..
يحب نفس العطور.. يصغي لنفس الألحان..
يشاهد ذات البرامج.. يملك نفس سذاجتي..
وبراءتي.. وحماقتي..
إنه لي.. وأنا له..
فلك الحمد يا خالق الكون السرمدي..

* * *

أنشودة (سالم)

ثمة أشياء تضايقني..
أشياء قليلة جدًا..
أنها تقرأ الصحف قبلي..
تدخل الحمام في نفس اللحظة التي أفكر أنا فيها في دخوله!
تسبقني إلى مقعدي المفضل لأنه مقعدها المفضل..
أنها تفكر مثلي..
لهذا لن تدهش يومًا لفكرة خطرت لي، أو تضحك من دعابة..
أنها لا تغار علي..
ولا تنبهر بي أبدًا..!.
والأسوأ أنها تلتهم صدر الدجاجة قبلي!
لست حزينًا ولا حانقًا..
لأنها لي، وأنا لها...
فلك الحمد يا خالق الكون السرمدي..

* * *

أنشودة (سلمى)

هو يملك كل عيوبي، ونقاط ضعفي، ونفس النهم في الطعام...
إنها عيوبي أنا.. أعرف هذا..
لكني - كأنثى - تمنيت منذ عرفت أنني أنثى أن يسبقني زوجي بخطوة..
مجرد خطوة..
حياتنا تتحول إلى تنازل مستمر من كل منا، عن الأشياء التي يحبها حتى لا يتهم بالأنانية..
والشنيع أنه يلتهم صدر الدجاجة قبلي..!
لست حزينة ولا محبطة..
لأني له.. وهو لي..
فلك الحمد يا خالق الكون السرمدي..

* * *

أنشودة (سالم وسلمى)

ربما كان خطأ فادحًا أن تتزوج نسخة منك..
لأنك قد لا تحتمل الحياة مع نفسك..
لكننا سعيدان برغم كل شيء..

* * *

شرع المدير يتأمل الأوراق الأخيرة في شيء من الاهتمام.. ثم أشار إلي بطرف السيجار المشتعل قائلًا:
- لا بأس يا (سالم).. إنها ليست فكرة سيئة.. أعترف بهذا..
ثم نظر لي في شرود:
- إلا أن هذه المحادثة الأخيرة بينهما.. تلك المحادثة حول صدر الدجاجة.. ألا ترى أنها متحذلقة نوعًا؟!
قلت في تواضع، وأنا أحك طرف حذائي في قماش البنطال:
- لكنها ضرورية يا سيدي
- والقصيدة النثرية الأخيرة.. إنها تقتل التشويق قتلًا..
قلت متوسلًا:
- سيدي.. أعطني فرصة لأقول ما أريد قوله..
طوى الأوراق.. وناولها لي في فتور:
- حسن.. دعني أر كيف ستتطور الأحداث.. والويل لك إذا لم تكن مسلية!!

* * *

٤ - دعنا نرحل..

شهر كامل مر على زواجنا.. كان زواجًا كأي زواج آخر، فيما عدا أنني لم أشتر أثاثًا، ولم أدفع مهرًا بالطبع..، وكانت أيامنا موزعة ما بين الانبهار بتشابه طباعنا، وما بين السخط على ذلك ؛ حين دق الشرطي بابي طالبًا مني أن أذهب للمخفر لأمر هام..!

كانت (سلمى) تعد لي طعام الإفطار، حين عدت لها مهمومًا.. لم يكن الأمر يحتاج لتأويل كثير.. لقد وجدوا الحقيبة.. وبالطبع ستكون هناك أسئلة كثيرة عن العملات العجيبة، وجهاز (التيليترانسبورتر)، وعندئذ ستبدو قصتي عن الكوكب (٩ ١٤-أ- مجرة [تازما مالوري]) واهية جدًا وسخيفة جدًا..، ثم إنني - حين يتعلق الأمر بزوجتي - لا أرغب في أي نوع من الضوضاء..

ذهبت معها إلى المخفر.. وكما توقعت لم يتم أي شيء بسلاسة بل ظللنا ننتظر ساعتين في غرفة (النوبتجي).. ثم استدعونا لنقابل رئيس المباحث.. لقد شاهدت هذا المشهد مرارًا في كوابيسي، وأعرف تمامًا ما سيحدث لكني كنت استيقظ غارقًا في العرق قبل أن أعرف كيف سينتهي..!

ها هو ذا رئيس المباحث في غرفة يملؤها دخان التبغ.. يحيط به ثلاثة شبان شديدو الوسامة صارمو الوجوه.. والجميع يرتدون ربطات عنق نصف معقودة على القمصان دون سترات..

وأمامه كانت الحقيبة.. وكان ودودًا مجاملًا بتلك الطريقة التي يجيد رجال المباحث أداءها.. الود المرعب..

- هذه الحقيبة تخص المدام طبعًا؟

أحنيت رأسي موافقًا..

- وماذا فيها...

قالت (سلمى) على الفور ماكنا اتفقنا عليه مسبقًا:

- نقود.. نقود مرسومة من التي تستخدم في المسرحيات.. وأوراق.. وآلة ترجمة (عربية - إنجليزية) معطلة..

ساد الصمت لحظات.. وشرع الضباط يتبادلون النظرات.. كان الجو متوترًا بشكل ملحوظ..، قال رئيس المباحث بعد دقائق:

- الآلة لا تعمل.. هذا صحيح..، لقد حاولنا إجراء عمليات حسابية بها بلا جدوى.. وقد تأكدنا عن طريق خبير إلكترونيات، أنها ليست جهازًا للتجسس.. لكنه لم يعرف كنهها على الاطلاق..، أما العملات الورقية فهي لا تشبه أية عملات على وجه الأرض.. إنها دعابة.. لكنكما ستفسران لي أين وكيف استطعتما طباعة عملات لها علامة مائية وخيط.. وأين وجدتما نوعية الورق؟!..

ثم ابتسم ابتسامة صفراء.. وأشعل سيجارة:

- والآن لنر أوراق المدام، فهي تستحق بعض علامات الاستفهام.

وأخرج بطاقة مغلفة عليها صورة (سلمى).. ولوح بها في وجوهنا.. قائلًا:

- هذه البطاقة مكتوب عليها.. (سلمى محمد شحاتة).. مواطنة رقم (٥٣/٦٢/١٢٤).. تصريحات (أ.ع.م).. وهذا ليس كل شيء.

وأخرج بطاقة أخرى من الحقيبة.. وشرع يقرؤها:
- هذه رخصة قيادة.. لأي شيء؟.. لسيارة (خوارزمي) طراز ١٤٢٢ هجرية..!
ثم فقد صبره واحمرت عيناه حنقًا:
- والآن لا تقولي إن هذا كله خاص بالمسرحية يا (مدام)...
وأطفأ السيجارة في فنجان القهوة أمامه.. وشرع يعيد على الشبان الواقفين حوله - ووجوههم جامدة كالصخر - ما قاله.. إن موقفنا صعب.. صعب للغاية.. ولن يصدقونا قبل أن نمضي معهم شهرين أو أكثر.. وبعدها لن يصدقونا أبدًا..
- والآن.. أريد تفسيرًا.
قالت (سلمى) في كياسة:
- عن أي شيء..؟
- عن كل هذا.. يبدو لي أنك قادمة من عالم آخر، له قوانينه وعملاته ورخص قيادته وبطاقاته الشخصية.
احمر وجه (سلمى) ونظرت للأرض.. لو عرف كم هو محق! ثم إنها أخذت نفسًا عميقًا يتناسب مع الأكذوبة التي تنوي قولها.. وبعد هنيهة همست:
- سيدي.. إن هذه الآلة آلة ترجمة وأستطيع إثبات ذلك..
- إذن أريني..
مدت يدها إلى الجهاز.. يدها اليمني.. في حين أطبقت حول يدي اليمني يدها اليسرى وضغطت ضغطة ذات معني..
توتر الشبان في انتظار ما سيحدث.. قالت وهي تتحسس الأزرار بأنامل يدها المطبقة على الجهاز:
- مثلًا.. دعني اطلب رقمًا ٣٠٠٢٠٠٢٠٠
يا إلهي!.. فهمت!.. إنها تحاول الهرب أمام عيونهم. ستشغل الجهاز لتقذف جزيئاتها إلى أرض أخرى، كلا يا (سلمى)!.. لا تخالفي القانون!.. ولكن أي قانون؟.. قانون كوكبها أم كوكبي؟.. ثم لماذا تضعين الجهاز على المكتب، وتقرعين الأزرار باليد الأخرى؟..
الطبيعي أن تمسكيه باليد اليسرى وتقرعي الأزرار باليمنى.. آه!.. فهمت... لا يا (سلمى).. أنا لا أريد.. لا...
- هذا يكفي يا مدام.. هاتي الجهاز...
- لحظة يا حضرة الضابط.. (ب-٣).. ثم زر الإدخال...
- أنا لا أمزح.. هاتي الجهاز واتركي يده..!
في هذه اللحظة كانت قد أمسكت الجهاز بيدها.. وبأصبع واحدة داست زر الإدخال بالفعل..
وتلاشت الغرفة من حولنا..!

* * *

الكون.. الفضاء.. النجوم..
- هل أنا أحلم؟..

- كلا.. أنت لا تحلم.. جزيئاتي وجزيئاتك تمتزج بالكون ذاته.. لم يعد ثمة كيان مادى لنا.. نحن طاقة.. روحان تبحران عبر الأبعاد الأربعة..

هل تشعر به؟.. هل تفهمه؟..

أنا وأنت فقط في الفضاء.. يدك في يدي جعلتنا في نظر الجهاز كيانًا واحدًا.. وهذا الكيان تلاشي!..، امتزجت جزيئاتنا، وغدونا حزمة لا كيان لها..

- إنني خائف.. قولي إنك لن تتركيني أبدًا...

- ولماذا أتركك وقد توحد مصيرانا للأبد؟.. لن تعود لأرضك ولن أعود أنا.. سنجوب الأكوان معًا.. نرى مجرات أخرى.. ألف أرض وألف زمن.. وألف بلد..



ـــ ولماذا أتركك وقد توحّد مصيرانا للأبد؟ .. لن تعود لأرضك

ولن أعود أنا .. سنجوب الأكوان معًا ..

سنهبط في أي مكان.. المحيط.. القطب.. زائير.. مصر.. وفي زمن لا يعلمه إلا الله تعالى..
هل يؤثر هذا فيك؟.. ليس لك جسد مادي لكنك ترتجف... أنت خائف..
- هل ستظلين معي؟..
- طالما ظللت أنت معي..
- (سلمى).. ماذا لو خلط الجهاز جزيئاتك بجزيئاتي؟.. أي كائن سنصيره؟.. أربعة عيون وأربعة أيدي وفمان..!
- إنه الحلم الأزلي لكل عاشقين.. أن نصير واحدًا للأبد..
السدم النجمية تتوالى.. ألوان لا حصر لها.. ثقوب سوداء.. الكون يفصح عن أسراره لنا فقط.. أنا وأنت..
- أنا وأنت روحان يجوبان الكون بلا أجنحة، نحو أرض أخرى، ربما أكثر جمالًا ورحمة..
- هل تشعر بلذة الهرب!.. أن تلقى بأعبائك وأعضائك وتحلق؟.. إنني أقترب من سر الكون.. إن الحقيقة الوحيدة هي الإله الذي أوجد كل هذا الجمال.. ونحن جزء من كل هذا الوجود الذي لا يصدق..
نحن مجرد نمل يحيا فوق برتقالة فاسدة نتصارع.. ونحقد.. بينما الكون يردد لحنه الأعظم.. فلا نصغي..
- أنت لي وأنا لك.. قوليها.
- أنت لك وأنت لي.. هل هذا يرضيك؟...
- لن أخشى شيئًا بعد اللحظة.. فلتزأر العاصفة.

* * *

- لقد طال السفر صغيرتي.. طال...
- إننا نبحر عبر المجرات.. فلا تقلق.. انظر لهذا النجم المحترق...
يا له من حلم.. هل ترى؟
- ماذا؟..
- هناك!.. الكوكب (٣٢٢-ب-٣).. أرضنا الجديدة.. هل تراها؟..
- نعم.. نفس القارات والمحيطات وكل شيء.. كأنها صورة بالقمر الصناعي لكوكب الأرض..
هل هذا حقيقي؟.. هل أنا بالفعل وسط كل هذا الجمال؟..
أنا بالذات؟...
- اصمت.. واستعد للتجسد.

* * *

كان أول ما شاهدناه - عند التجسد - هو.. حجرة رئيس المباحث مرة أخرى!.. يا للهول..!.. لم يكن الضباط موجودين، وكان هو يرتدي سترته الكاملة.. وما إن رآنا حتى اكفهر وجهه.. وصرخ:
- من أنتما؟.. كيف دخلتما ها هنا؟.. (نصار)!.. (نصار)!

نظرت نحو (سلمى) هامسًا:
- كيف عدنا ها هنا مرة أخرى؟
همست في شيء من الفتور:
- ألم تفهم بعد؟.. هذا هو رئيس مباحث قسم شرطة الكوكب (٣٢٢-ب-٣)..!.. إنه يرانا للمرة الأولى..!
اندفع جندي الحراسة الريفي داخل الحجرة مذهولًا.. كيف ومتى دخلنا من الباب؟.. على حين شرع رئيس المباحث يوبخه:
- هأنتذا واقف على الباب كالناطور.... كيف دخل هذان؟...
قالت (سلمى) في حرج:
- نهارك حليب يا سيدي..
- ماذا؟...
- أعني صباح الخير.. كنا نريد عمل (فيش وتشبيه)، وظننا أن هذا المكتب...
- ليس هو!.. والآن أغربا من هنا..!
دفعنا (نصار) الريفي الساذج إلى باب الخروج، وهو يضرب كفًا بكف من الطريقة السحرية التي مررنا بها بجواره..، ثم عاد ليتلقى توبيخه من رئيسه..
وهكذا وجدنا أنفسنا حرين في الهواء الطلق.. في هذه الأرض الجديدة!

* * *

٥ - أرض بلا أجداد..

حين يمشي رواد الفضاء فوق القمر، أو يستكشفون مدن الفضاء في قصص الخيال العلمي، يكون كل شيء مختلفًا.. كل شيء ينبئ بالتباين الملحوظ..

أما في حالتنا هذه، فكان من المستحيل أن أبتلع فكرة أن هذه (قاهرة) أخرى.. وأن هؤلاء البشر الذين يروحون ويجيئون أمامنا، هم (كائنات فضائية).. ومن الصعب أن أصدق أن زوجتي اللطيفة هذه، هي (مخلوق من الفضاء الخارجي)!.. إن هذا لا يوصف..

نفس شوارع القاهرة المزدحمة ووجوه البشر.. في إحباط همست لها:

- دائما نفس الاختيارات غير الموفقة يا (سلمى).. هذه أرض مطابقة تمامًا لأرضى أنا..

- صبرًا.. لابد من اختلافات.. حتمًا لابد من اختلافات.

ثم قالت وقد بدا عليها الإنهاك:

- إني متعبة.. هلم إلى دارنا..!

- تعنين دار نسختنا في هذه الأرض..؟.. لا أعتقد أن تطابق الكوكبين سيصل إلى درجة تطابق مفتاحي الشقتين.

كنا واقفين جوار إحدى محطات (المينى باص).. وكانت جواري بائعة سجائر عجوز تفترش الرصيف..، تقدم نحوها رجل يخرج ورقة نقد من جيبه، وقد بدا على عجلة:

- علبة (بابل)..!

- لا توجد عندي سوى سجائر (فينيقيا)..!

انصرف الرجل باحثًا عن ضالته عند أخرى.. أما أنا فقد استرعت انتباهي تلك الأسماء غير العادية للسجائر.. والأغرب هو منظر الجنيه الذي أخرجه لها.. جنيه ليس عليه أية صورة لتماثيل فرعونية مثل جنيهاتنا، بل نقش دقيق لتمثال (زيوس)..

لم أصارح (سلمى) بأسئلتي، خاصة وأن ذكري جنيهاتها الزرقاء لا تبرح مخيلتي.. المهم ألا يلاحظ من يأخذ نقودًا مني اختلاف العملتين، خاصة وأنهما شديدتا التشابه..

لاحظت أيضا اختلافا كبيرًا في أسماء الشوارع والضواحي المكتوبة على الحافلات.. إن لدى نظرية ما.. لكني أحتاج إلى إثبات..

لمست كتف رجل يقف بجواري، وسألته بكياسة عن طريق الوصول إلى شارع الهرم.. لم يبد عليه أنه يعرف مكانه أو سمع عنه أصلًا..

إن نظريتي تتضح.. وفي كل مكان أجد ما يدعمها أكثر.. وأكثر..

كل فندق أو شارع أو ميدان، يحمل في عالمي اسمًا فرعونيًا.. استبدل باسمه هنا اسمًا يونانيًا أو هنديًا أو بابليًا.. فندق (نبوخذ نصر).. استراحة (جلجاميش).. كافتريا (الأوليمبا).. ميدان (كونفوشيوس).. الخ..

ركبنا الحافلة إلى ميدان التحرير.. لحسن الحظ لم يلحظ المحصل اختلاف العملة.. أعطيته خمسة جنيهات.. وهكذا وجدت في يدي كمًا لا بأس به من أوراق النقد لهذا الكوكب.. وكلها تحمل صور (يوليوس قيصر) و(زيوس) و(أبوللو)..!

وفي الميدان نزلنا.. قالت (سلمى) وقد بدأت تشعر بغرابة الأمر:
- إن هذه (القاهرة) ليس بها سياح على الإطلاق!
أشرت إلى مساحة شاسعة خاوية من الميدان.. وأيدت كلامها:
- وليس بها متحف مصري....
- هذا صحيح.. ولكن.. ما معنى ذلك؟
- معناه أننا نعيش في (قاهرة) لا تعرف الفراعنة..!

* * *

لكن السؤال الأساسي هنا هو.. هل حقًا لم يعرف هذا العالم الفراعنة، لأنهم لم يوجدوا به، أم لأنه يجهل ذلك؟.. لا أدري.. لربما يتسع الوقت لقراءة كتب تاريخهم فيما بعد.. أما الآن فإن قدمي قد تورمتا.. وأشعر أن جسدي كله هو وتر كمان قديم أنهكه العزف.. يجب أن نستريح.. فندق؟.. لا.. من أين لنا بالمال خاصة وأن الدفع في الفندق لن يكون هينًا كالدفع في الحافلة.. سيدققون في عملاتنا وحتمًا سيلاحظون الاختلاف..

(سلمى) أيضا منهكة.. أعرف هذا تمامًا لأننا ننشط معًا ونتعب معًا.. نفس نسب حمض (اللاكتيك) في عضلات ساقي وساقيها.. ونفس انخفاض نسبة السكر في الدم.. ونفس استهلاك حبيبات (نيسل) في خلايا مخي ومخها.. لأنها - كما تعرفون - أنا أخرى..!

كنا قد وصلنا - دون أن نشعر - إلى بيتنا.. أعني بيت نسختنا..! وشرعنا نتأمل في حنين المدخل المألوف.. ونباتات الظل البائسة المحتضرة في أصصها على الجانبين.. والبواب الغافي المنهك.. ودخلنا..

عند الطابق الثالث توقفنا.. وشرعنا نتأمل لوحة الاسم على الباب:

(سليمان شحاتة).. مهندس..

إذن هذا هو أنا - أو (سلمى) - لا أدري بالضبط.. نفس اشتقاق الاسم الذي لا يمكن أن يكون صدفة..

رفعت إصبعي المتوتر لأقرع الجرس فأوقفني صوت (سلمى):
- لحظة..!.. هل فكرت فيما ستقوله له؟
- لا...
- لن تقول له طبعًا.. مساء الخير يا سيدي.. نحن نسختاك الكروموسوميتان القادمتان من كوكب آخر، ونريد المبيت عندك..!!
- بالطبع لا.. لكن ماذا أقول إذن؟.. لقد بدأت أفهم شعورها حين جاءت مكتبي أول مرة.. من حسن حظها أنني (جنتلمان).. أما هذا فلربما كان فظًا.. ولربما يستدعي الشرطة، أو يملأ الدنيا صراخًا...

ابتسمت ابتسامتي المعهودة بركن فمها الأيسر.. وقالت في حماس:
- اسمع.. الحل الصحيح هو أن ندخل ونتعرف عليه، ثم على ضوء انطباعنا نقرر مصارحته من عدمها..، أنا المدام حرمك وقد فقدت وعيي فجأة.. فماذا تفعل؟.. تقرع أول جرس تصادفه طبعًا..

- أول جرس في الدور الثالث؟
- وماذا في ذلك؟.. كنا صاعدين لعيادة الطبيب بالدور الرابع..
- لا يوجد طبيب في الدور الرابع..
- سنقول له إن هذا ما عرفناه بعد أن صعدنا..!.. والآن هيا..!

ودون كلمة أخرى، سقطت فوق ذراعي مغشيًا عليها.. حتى أنني شعرت بالذعر حقيقة لا تمثيلًا.. وقرعت الجرس في هستيريا..، سمعت صوت مزلاج يتحرك.. وبرز وجه امرأة متسائلة..

قلت لها بضع عبارات متخبطة، توحي بمدى ذعري، وأنا أشعر برأس (سلمى) المدفون في صدري يهتز كاتمًا ضحكة.. لا ريب أنني بدوت لها سخيفًا إلى أقصى حد..



وقرعت الجرس فى هستيريا .. سمعت صوت مزلاج يتحرك ..

وبرز وجه امرأة متسائلة ..

أدخلتنا المرأة.. وأجلست (سلمى) على الأريكة، وشرعت تدلك وجنتيها في حين شرعت أتأمل الشقة الأنيقة، التي لا تمت لشقتنا في كوكبي بصلة..

إن (نسختنا) على هذا الكوكب ميسور الحال بلا شك.. هذا بالطبع مالم تكن هذه السيدة هي نسختي.. وإن كنت لا أجد أثرًا لكروموسوماتي في ملامحها الأرستقراطية..

(سلمى) تفيق.. ويا لها من ممثلة بارعة.. عيناها ذابلتان، وشعرها مبعثر ورأسها يترنح..، أما المرأة فكانت حنونًا مع شيء من الحزم..

صوت رجل يتساءل عما هنالك.. وجواره طفل صغير يرمقنا في شيء من الفضول..

تأملت الرجل.. ضخم العظام.. أشيب حليق الوجه، وكان منحرف المزاج، محمر الأذنين سميكهما بما يدل على أنه كان نائمًا منذ ثوان نوم العصر الكئيب المليء بالعرق والكوابيس....

مرة أخرى لا أجد كروموسوماتي فيه..

صافحني وأجلسني، وشرع يسمع قصتي الملفقة الصغيرة، دون اكتراث حقيقي.. ثم إن زوجته نهضت وعادت لنا بصينية عليها زجاجتا مياه غازية.. نظرت إلى (سلمى)، فوجدتها ترمق الرجل بنظرة ثاقبة.. ثم تلاقت عينانا فالتوى ركن فمها الأيسر بمعنى أنها لا تفهم حقًا..

لربما كنا مخطئين.. لربما كانت (نسختنا) لا وجود لها في هذا العنوان، أو ربما لا وجود لها أصلًا..

من غرفة بالداخل جاء الطفل يركض حاملًا كتابًا مدرسيًا، ويردد بعض الهتافات الطفولية المبتذلة:

- راجل وست.. جم للبيت!!

نادته (سلمى) متظاهرة بالحنان.. ومررت يدها عبر شعره الخشن، ولثمت جبينه الضيق.. وسألته عن اسمه:

- شرريـ.. يـ... يف!

- الله!.. اسم جميل يا شريف!.. وما هذا الكتاب؟.. الله!.. التاريخ للصف الخامس عشر الابتدائي!!

الصف الخامس عشر الابتدائي؟.. لا يهم.. لقد اعتدت هذا الخلط منذ سمعت عن السيارة (الخوارزمي)، وعن احتلال (تايلاند) (للصين)!

فتحت (سلمى) الكتاب، وشرعت تقرأ بصوت مسموع:

- إن (أرسطو) هو من أدخل نور الحضارة اليونانية إلى (مصر)، ولولاه لظلت (مصر) في ظلام الجهل..!!

ما هذا السخف؟!

كلنا يعرف أن الفراعنة هم آباء الحضارة الحقيقيون.. ولم يكن للأخ (أرسطو) أي فضل من أي نوع علينا.. لكن من يدري.. لربما كانت هذه هي الحقيقة على هذا الكوكب..

والآن تشكو ام الطفل ابنها لـ (سلمى) كعادة النساء:

- تصوري يا مدام انه يحب القراءة وشرب القهوة!.. تخيلي طفلًا يشرب القهوة!.. يضيع وقته مع القطط الصغيرة.. أليس كذلك يا (شريف)؟.. هل أخبر (طانط) بالمزيد؟.. إنه يقرأ القصص والمجلات في الحمام..!

ماذا؟.. هذه العادات تبدو مألوفة...
نظرت لـ (سلمى) فوجدتها مثبتة عينيها على وجه الطفل.. نظرت له فوجدت ما كنت أتوقعه..
كان يبتسم بزاوية فمه اليسرى...!!

* * *

7 - صديق..

كما هو متوقع لم نرفع أنا و(سلمى) عينينا طيلة الجلسة عن ذلك الطفل. كان مزعجًا كثير الحركة والتظرف.. وإنني لأعجب كيف تحتمله أمه.. ربما هي نفس المعجزة التي جعلت أمي تحتملني..، وكنت قد بدأت أتبين في ملامح الزوجين، ملامح أبي وأمي في صغرهما.. أما (سلمى)، فهمست في أذني وهي تتأمل ملامح الرجل في اهتمام:

- هذا الرجل.. إنه يشبه أمي جدًا..!!

- هكذا..!.. والمرأة تشبه أباك طبعًا؟

- بالفعل..!

طالت الجلسة.. وبدأ ذلك التوتر والتململ المنذران بوجوب انتهائها يخيمان... بالطبع لن نستطيع الاستفادة منهما أكثر، ولن نجرؤ على طلب المبيت أو طلب نقود..

نهضت مؤذنًا بالانصراف، فنهضت (سلمى) معي متثاقلة.. انحنيت على أذن (شريف) وقربت فمي منها وهمست:

- وداعًا أيها العبقري الصغير.. عندما تكبر لا تحاول أن تسرق قصة من (ه. ج. ويلز)، وتقدمها للناشرين.. إذ سيفتضح أمرك على الفور..!

لم يفهم كلامي - طبعًا - وشرع يبتسم في بلاهة..

شكرنا لهم حسن ضيافتهم.. وشرعنا ننزل السلم.. عند الطابق الثاني وجدنا باب جارتنا (عواطف) مفتوحًا، وابنتها (هدى) - (هدى) هذه الأرض طبعًا - واقفة تثرثر مع صديقة لها..

همست (سلمى) في غل حقيقي.

- آه!.. إنها تلك السحلية الثرثارة!.. عندهم منها واحدة هنا أيضًا!.. إنها تطاردني في كل المجرات..!

- صه!!.. هي حادة السمع أيضًا..

* * *

هل نعود لعالم (سلمى) بعد أن أغلقت كل الأبواب دوننا؟.. إن الكون يبدو لنا الآن أضيق من سم إبرة الخياط.. لا صديق.. لا عون.. لا نقود..، والمشكلة أننا سنواجه نفس الشيء في كل أرض أخرى.. إن اختلاف العملات يجعل ارتياد العوالم الموازية أمرًا شبه مستحيل.. وقد عرضت على (سلمى) أن ننهي كل هذا.. فقالت:

- ربما أفعل..، ولكن في اللحظة الأخيرة قبل أن نقضي جوعًا..!.. ليس الآن حتمًا..

وهكذا نمضي مطوحين قامتينا مجرجرين أقدامنا في الطريق..

متشابهين كتوءمين.. متشابكي الأيدي كعاشقين.. حائرين كذبابتين.. تعسين كطفلين حرما من حيوانهما المدلل..!

المدينة هي المدينة.. الوجوه نفس الوجوه.. الشوارع ذات الشوارع.. لكننا غريبان!..، نعرف الجميع بينما لا أحد يعرفنا..

ترى أية مغامرة مجنونة أقحمنا نفسينا فيها..!

لكن ما كان يعزينا، هو أن لدينا بابًا خلفيًا جاهزًا للهروب منه، حين تسوء الأمور أكثر من اللازم..، قد تتكاثف السحب لكنك تعرف أن القطار ينتظرك، وأن تذكرة الرحيل في جيبك..، أن تهرب.. إلى أين؟.. لا يهم.. المهم أن ترى وجوهًا أخرى وأماكن أخرى وتشم روائح جديدة..

قالت (سلمى) وقد شعرت بما أشعر به:

- نعم.. أنا أيضا أحلم مثلك.. لكننا لم نهرب (إلى) هذا الكوكب كي نهرب منه بعد ساعات..!

إن هذا النوع من المفاجآت لم يعد يثير دهشتي.. إن تفكيري وتفكيرها متزامنان ومتطابقان، إلى حد مفزع.. يكفيني أن أفكر في شيء ما، حتى أتأكد من أنها تفكر فيه في ذات الوقت..

قلت في سخرية مريرة:

- المشكلة هي أنني جائع..

- إذن فلنأكل.. إن معك ما تبقى من نقود الحافلة..

اشتريت بعض الساندويتشات.. ومضينا نلوكها ونرمق المارة في لا مبالاة..، أدركت أنها - وقد أنهت ساندويتشاتها - لم تزل جائعة، لأن الجوع كان يعتصر معدتي أنا.. ناولتها ساندويتشاتي.. نظرت لي في حنان، وابتسمت ابتسامة صفراء حزينة، ثم بدأت تأكل..

والآن أشعر أنني امتلأت ولم أعد بحاجة للمزيد...

* * *

فجأة صرخت (سلمى) في حماس أنها تذكر هذا الشارع تمامًا.. إنه الشارع الذي يعيش فيه (د. محمود) في عالمها...

- د. (محمود) من؟

- إنه ذلك العالم.. مخترع جهاز (ناقل الجزيئات).. هل نسيته؟

- طبعًا.. كأنك حكيت لي عنه منذ قرون..

- إنه رقيق الحاشية، دمث الخلق، وليس من ديدنه طرد المعتوهين الذين يزعمون أنهم من كوكب آخر.. فلماذا لا نرى إن كان عندهم واحد منه هنا؟..

قلت لها في تؤدة:

- وهل تظنين أنه سيعرفك؟.. إذا كنت أنت - أو أنا - مجرد طفل سخيف على هذا الكوكب ؛ فلماذا تفترضين أننا لن نجد عالمك هذا طفلًا رضيعًا، أو لا وجود له على الإطلاق؟!

- لا أعتقد أنه كان طفلًا في يوم من الأيام.. وعلى كل حال لن نخسر شيئًا..

وشرعنا نجر أقدامنا المنهوكة شاعرين أن أحذيتنا هي أدوات تعذيب شيطانية، من عهود محاكم التفتيش.. مدخل البناية الرطب والسلالم.. الطابق الثاني.. ثم.. الباب..

عندهم د. (محمود) بالفعل في هذا الكوكب.. ويمكن لـ (سلمى) أن تسترد أنفاسها المبهورة.. لكن المشكلة هي أن اللافتة تقول إنه (خبير آثار) مما ينفي تمامًا أن يكون نفس الشخص.. لكن (سلمى) أعلنت - في ثقة - أنه هو المقصود.. لأن (محمود بكر) في عالمها كان يهوي الآثار إلى جانب

مهنته كعالم فيزيائي..، إنها تلك الاختلافات البسيطة الضخمة بين الكوكبين، ولربما كان هذا ال (محمود) يهوى الإلكترونيات هنا!! لم أبد متحمسًا، لأنني رأيت كل هذا بلا جدوى على الاطلاق...

انفتح الباب - عندما قرعنا الجرس - عن رأس اصلع، ووجه كالح، كث الشارب.. إنه هو!.. هذا واضح.. لأن (سلمى) كادت تنسى حذرها وتهلل وتقفز عند مرآه، لولا أن طقطقت بلساني محذرًا.. كادت تنسى - الحمقاء - أن زميل العمل العزيز هذا لم يرها في حياته!!..

قالت في صوت يتصنع الرزانة، (وإن بدا متهدجًا نتيجة تأثرها):

- دكـ.. دكتور (محمود)؟

قال في دماثة ورقة حاشية (لحسن الحظ):

- أنا هو..

- نهارك حليب...

فتح فاه ليقول شيئًا إلا أنها بادرت بالكلام:

- أنا (سلمى).. وهذا زوجي..

هز رأسه في رقة، بمعنى أن ما تقوله جميل، لكنه لا يعنيه على الإطلاق..

- هـ.. هل.. يمكننا الدخول؟

- لا..!

قالها كسدادة مصوبة إلى حلقها.. دمعت عيناي ضحكًا على الرغم مني.. لكن (سلمى) لم تيأس:

- دعني أتحدث لحظة.. أنت د. (محمود بكر)..

- هذا اكتشاف لا باس به..

- في طفولتك كنت تهرب من المدرسة، وتفتش عن كنوز وهمية مدفونة في حدائق الجيران..

كاد الباب يغلق في وجهها، لولا أن بادرت بوضع قدمها في فرجته لتمنع غلقه.. وواصلت الكلام في حماسة وسرعة:

- في الجامعة كنت تخفي ثقبًا في حذائك، عن طريق السير بشكل مفتعل.. لكن صديقك كان يسخر من هذا ويسمى حذاءك (حذاء أبي القاسم)..!

بدأت مقاومته تلين نوعًا، حيث وقف خلف الباب..

-... وكان والدك يصر على أن تكون محاميًا لكنك خذلته.. و...

وهنا كانت مقاومته قد انتهت تمامًا.. فتح الباب، وألف علامة استفهام ترتسم على وجهه، وقطرات من العرق البارد تحتشد على جبينه.. وفي بطء همس:

- أرجوكما أن تدخلا..!

* * *

- هذه هي قصتنا..

قالت (سلمى) وهي تكوم قشور اليوسفي توطئة لأن تضعها في مطفأة السجائر أمامها.. كنا جالسين في غرفة الصالون التقليدية المتظاهرة بالفخامة، والتي تراها في كل بيت مصري حتى على هذا الكوكب.. وكانت زوجته تصب لنا الشاي بيد مرتجفة، وهي تختلس لنا النظر.. واضح

أنها لم تبتلع بعد فكرة أن تجلس مع كائنات من (الفضاء الخارجي).. أما د. (محمود) فكان منفعلًا ومتحمسًا إلى حد لا يوصف..

قال لنا وهو يهرش في صلعته:

- لولا أنكما أخبرتماني بأدق أدق أسراري، لما صدقت حرفًا.. كنت أظنكما نصابين، خاصة وأن حالة ثيابكما توحي بذلك!

قالت (سلمى) وهي تقشر ثمرة يوسفي أخرى:.

- الواقع أنني اتبعت هذا الأسلوب من قبل مع (سالم) في لقائنا الأول، على أنني كنت محظوظة.. لقد أخبرني د. (محمود) في كوكبي بالكثير عن نفسه لأنه..

واحمر وجهها قليلًا.. واردفت:

-.. كان يريد الزواج مني..!

يا لها من كلمة!.. إن الموقف عجيب حقًا، لكنني شعرت بعدائية مفاجئة تجاه د. (محمود) الجالس معنا، برغم أنه لا ذنب له في الموضوع.. وفي عيني زوجته التمعت نظرة غيرة حاقدة، وهي ترمق (سلمى) كأنها تقول: كيف يعجب زوجي - أو حتى نسخته - بهذه المخلوقة؟!

قالت (سلمى) لتزيل آثار اعترافها الأحمق:

-.. ولحسن الحظ أنك لم تختلف عنه كثيرًا في هذه الذكريات..

-.. فيما عدا أنه متزوج طبعًا!.

كنت أنا قائل هذه العبارة حين شعرت أنها ستزيد الطين بلة لا محالة.. وبدأت أسأله عن أحوال هذا الكوكب.. وعن الاختلافات غير العادية التي لاحظتها أنا و(سلمى) طيلة اليوم.. فماذا يعرفون عن الفراعنة؟ ولماذا لا يعترفون بفضلهم؟..

قال لي وهو يبتسم في ثقة العلماء المحنكين:

- الفراعنة؟.. ماذا تريد معرفته عنهم؟.. حفنة من الرعاة احتلوا وادي النيل لفترة ما.. ثم تركوه..!!

- هكذا..!.. وهل لا توجد عندكم أهرام، أو (أبو هول)؟

- لدينا بالطبع.. وما علاقة ذلك بالفراعنة!!.. إنها لمسات الحضارة اليونانية البارعة في مصر..!..

كدت انفجر غيظًا من هذا الخلط

- و(الكرنك) و(الدير البحري) و(فيلة)؟!

بدت على وجهه معالم الحيرة والغباء.. فأدركت أن الأمر فيه اختلاف في المسميات لا أكثر.. لهذا قلت له موضحًا:

- معابد.. في الصعيد.. جنوبًا..

- آه!.. تعنى معابد (ديانا) و(أبوللو) الموجودة بالأقصر؟.. لماذا لا تسميها بأسمائها؟!

أرجو أن يمسك بي أحدكم قبل أن أهشم وجه هذا المعتوه..!.. ألا يفهم هؤلاء القوم معنى كلمة (طراز)؟.. ألم يلحظوا اختلافًا ما بين آثار الفراعنة، وبين المعابد والتماثيل اليونانية؟.. إن الطراز الفرعوني الأصيل لا يمكن خلطه مع أي طراز آخر.. لكنه. كالعادة - كان يملك تفسيرًا مقنعًا (له هو طبعًا)..

- إن اليونانيين قد نجحوا في إضفاء أكثر من نمط للطراز في كل بلد زاروه.. وكان أسلوبهم في (مصر)، يختلف عن أسلوبهم في (اليونان).. وهذا دليل آخر على عبقريتهم..!!

- و... وتماثيل الملوك وغيرهم..؟

- كلها يونانية طبعًا..!.. ألم أقل لك إنهم غيروا طباعهم لتناسب البلد؟

- والهيروغليفية؟.. هل هي لغة يونانية أيضًا؟!

- إنها لغة سرية خاصة بالكهنة المصريين.. لكن لماذا نحتاج إليها طالما أن (هيرودوت)2 لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وحكاها؟!

هنا اعتدلت في جلستي.. لقد بدأت أفهم..

- هل تعني أنكم لا تعرفون اللغة الهيروغليفية؟!

- نعم..

- و... حجر (رشيد)؟..

مرة أخرى تبدو علامات الغباء على وجهه..، سألته عن (نابليون بونابرت)، والحملة الفرنسية على (مصر) فقال لي إن هناك (واحدًا) بهذا الاسم حاول غزو (مصر) في أواخر القرن الثامن عشر، إلا أن الأدميرال البريطاني (نلسن) نسف أسطوله عن بكرة أبيه في البحر الأبيض المتوسط...

رفعت رأسي نحو (سلمى)، التي جلست تثرثر مع الزوجة في أمور نسائية بحتة، مثل أسعار الخضر وأسماء العطور والأقمشة على هذا الكوكب.. لم تكن على استعداد السماع ما دار في خلدي من خواطر...

إن هذا الكوكب هو جنتي..!.. حتمًا هو كذلك..!

* * *



مرة أخرى تبدو علامات الغباء على وجهه .. سألته عن (نابليون بونابرت) ، والحملة الفرنسية على (مصر)

٧ - كوكب الحمقى..

طيلة الليل ظللت أذرع غرفة الفندق كالأسد الحبيس.. أدخن سيجارة وهمية هي قلمي.. وأحدث أشخاصًا لا وجود لهم.. وأضحك من نكات لم أسمعها..، كانت الأفكار تتصارع في رأسي، حتى أنها ليسحق بعضها البعض.. أكثر من فكرة رائعة قضت عليها فكرة أخرى...

إن أمامي مستقبلًا رائعًا.. رائعًا إلى حد أنه يثير الرعب في نفسي..

أما (سلمى) فكانت جالسة على الفراش، وقد أسندت ذقنها على ركبتيها، وضمت كفيها أمام ساقيها ترمقني بعينين خرساوين..، ثم تكلمت بعد هنيهة:

- هل فقدت صوابك أخيرًا؟.. كنت واثقة أن هذا سيحدث..!

- هه؟.. هل تريدين شيئًا يا ملاكي..؟

- هل جننت؟

توقفت عن الدوران في الغرفة ورفعت يدي للسقف:

- لقد قدم لي د. (محمود) هذا هدية العمر..

- لا تبالغ.. إن مبلغ المائتي جنيه هذا هو قرض للمبيت في الفندق... و...

- كفي عن الحماقة يا (سلمى)!!.. إنني أتحدث عن مصير البشرية كلها، وأنت تفكرين في المال.. هل سمعت ما قال؟..

ثم إنني جلست على الأرض جوار الفراش، وشرعت أرسم على السجادة خطوطًا وهمية بإصبعي السبابة لأؤيد كلامي:

- قال إن (نابليون بونابرت) لم يدخل (مصر) بتاتًا لأن (نلسن) قد دمر أسطوله في البحر المتوسط..، إن الحملة الفرنسية على (مصر) كانت حملة فاشلة تمامًا، وقد لاقت مقاومة عاتية، لكنها على الأقل نجحت في إدخال الطباعة لـ (مصر) وإخراج كتاب (وصف مصر).. ثم فك رموز اللغة الهيروغليفية اعتمادًا على الجهود الباسلة لعالم الآثار الفرنسي (شامبليون).. وهذا هو بيت القصيد..

وضيقت عيني في غموض:

- والآن.. كان (بونابرت) يلعب لعبة المساكة مع الأسطول البريطاني عبر أمواج البحر المتوسط.. ووصل (مصر).. ووجد (حجر رشيد) الذي كان هو مفتاح رموز تلك اللغة..

ورفعت إصبعي السبابة مؤكدًا كلماتي:

- لو وجد (نلسن) اسطول (بونابرت) لدمره.. ولتغير وجه التاريخ.. وهذا هو ما حدث في هذا الكوكب..!، دمر (نلسن) أسطول (بونابرت).. لم يعثر أحد على (حجر رشيد).. لم تتكشف أسرار الهيروغليفية.. لم يفهم أحد أية حضارة هائلة كانت هنالك.. ظلوا يعتمدون على أكاذيب المؤرخين اليونانيين.. وظلوا يؤمنون أنهم قوم بلا حضارة ولا تاريخ..!

بدأت علامات الاهتمام تغزو وجه (سلمى).. وسألتني:

- وما هو دورنا في كل هذا؟

- ألم تفهمي بعد؟.. إننا نحن المحظوظان الوحيدان اللذان وقعت عليهما مسئولية إخبار هذا الكوكب بتاريخه!!.. نحن من سنهدي لهؤلاء الحمقى معرفة أجدادهم.. سيعرفون تاريخ كل الأسر الفرعونية، منذ الأسرة الأولى وحتى عهد البطالمة.. سيفهمون كل ما كتب على الجدران والمسلات وقواعد التماثيل..، إننا - أنا وأنت - سنقود هذا الكوكب إلى المعرفة!

- أنا وأنت؟

- أنت وأنا..!

* * *

قال د. (محمود) وهو يجد السير عبر أروقة ذلك المبنى:

- أتعشم أن تكونا قد نمتما جيدًا..

قلت لاهثًا وأنا أحاول اللحاق به، ومئات الأسئلة تزدحم في راسي:

- رائع.. أشكرك كثيرًا..

- كان الواجب أن تناما عندي، لكنكما تعرفان الظروف.. و... لا تشكرني.. إن هذا هو واجبي نحو صداقتنا العتيدة - أنا والمدام (سلمى) - على كوكبها!!..

وعند أحد الأبواب الجانبية دلف وأنا خلفه.. و(سلمى) خلفنا..

كانت قاعة كبيرة مظلمة إلى حد ما.. انتظرت بضع ثوان حتى اعتادت عيناي الظلام.. كان هناك عدد لا بأس به من الأشخاص الجالسين حول مائدة طويلة، تشبه موائد الاجتماعات.. وكانوا جميعا يرمقونني في حدة وشك، ودخان التبغ يفعم هواء الغرفة، مما جعل الرؤية ضبابية تمامًا..

قال لي د. (محمود) وهو يشير بلامبالاة إلى الجالسين:

- اقدم لك السادة الجالسين.. هذا هو الدكتور (...) من هيئة الآثار.. اللواء (...) من شرطة الآثار.. العميد (...) من كذا.. الأستاذ كذا من كذا.. الدكتور فلان.. البروفسير علان... الخ...

وكنت قد نسيت كل شيء تقريبًا حين انتهى هو من تعريف آخر الجالسين، فيما عدا رجلًا واحدًا يرتدي بذلة أنيقة مدنية، ووجهه في الظلام خارج دائرة الضوء.. قلت لـ د. (محمود) متسائلًا:

- وهذا؟.. هل هو (رقم صفر الذي لا يعرفه أحد)؟!

لم يضحك.. ولم يضحك واحد من السادة المهمين، الملتفين حول المائدة لمحاكمتي، على شيء لا أدري ما هو بالضبط..، إن رغبة جنونية في الفرار تطاردني لكن الأوان قد فات للأسف..

- اجلس..!

جلست في حذر.. وأنا أشعر أنني نسيت كيفية الجلوس..

- استرخ..!

هكذا أمرني سعادة اللواء الذي نسيت اسمه.. فاسترخيت على الفور..

- اهدأ بالاً..!

أمرني بذلك أحدهم.. فهدأت بالًا على الفور..!

بدأ الرجل ذو الوجه الغامض يتحدث بنبرات رزينة واثقة.. كان يرحب بي وزوجتي في بلدنا (مصر)، حتى وإن كان على بعد ملايين الأعوام الضوئية من بلدنا الأصلي.. وقال إنه يأمل أن

يؤدي تعاوننا إلى فتح جديد في التاريخ، لأنني - إن كنت صادقًا - سأكون شخصية القرن وسيكون وصولي لعالمهم أهم حدث منذ اكتشفوا الكهرباء.. أما إذا كنت - لا سمح الله - كاذبًا..!

وهنا أحسست بالقشعريرة تزحف عبر عمودي الفقري.. لا داعي لأن يكمل كلماته..، لم يكونوا على علم بجهاز (ناقل الجزيئات).. كل ما كانوا يعلمون هو أننا قذفنا بشكل ما إلى عالمهم.. وهكذا يظل عندي باب خلفي لا بأس به للهرب لو أرادوا بي سوءًا..

- والآن حدثنا عن (حجر رشيد).

ابتلعت ريقي.. وبدأت أتكلم بصوت متهدج في البداية:

- إنه ذلك الحجر الذي وجدته الحملة الفرنسية قرب (رشيد).. وكان عليه نص بثلاث لغات.. الهيروغليفية واليونانية والديموطيقية.. وقد تبين (شامبليون) العالم الفرنسي أن الفراعنة كانوا يدونون اسم الملك في إطار مستطيل منحنى الجوانب، هو (الخرطوش).. هكذا أمكنه استخلاص الأبجدية الفرعونية بمجرد المقارنة..

خلع البروفسير (...) نظارته.. وسال:

- ثم؟..

نظرت حولي في غباء.. ورفعت يدي:

-.. ثم لا شيء..!

- هيه!.. لن تقول لنا إنك لا تعرف المكان الذي وجدوا فيه (حجر رشيد) في عالمك.. أليس كذلك؟!

- نعم.. وجدوه عند (رشيد)..!

- هذا واضح.. لكن ما هي إحداثيات المكان؟.. إن (رشيد) ليست شجرة نحفر تحتها حين تعتلي الشمس الأفق..

- لم أكن - طبعًا - مع الحملة الفرنسية حين وجدت الحجر..

- إذن أنت تعرف هذه الحروف الهيروغليفية؟

- للأسف لا...

- إذن ماذا نفعل؟.. وما المساعدة التي قدمتها لنا؟

لا شيء في الواقع.. إن هذا درس طيب لمن يهوى السفر بين العوالم الموازية: لا تنس أن تأخذ معك قاموسًا اللغة الهيروغليفية!

قال د. (محمود) في تؤدة محاولًا تهدئة التوتر المخيم:

- أستاذ (سالم).. إذا لم تستطع أن تقودنا إلى (حجر رشيد)، يمكنك على الأقل أن تخبرنا بمكان نص تعرف ترجمته.. وبالتالي يمكننا إجراء المقارنة على طريقة (شامبليون) الشهيرة هذه..

هرشت رأسي مفكرًا.. وهنا ارتفع صوت (سلمى) للمرة الأولى:

- سيدي.. لقد قام (رمسيس الثاني) بكتابة اسمه على الكثير من المسلات والمعابد، حتى تلك التي لم يبنها.. ستجدون اسمه مكتوبًا مرارًا عند معبد (الكرنك) و(الدير البحري)، أيًا ما كان اسمهما عندكم.

- و(تحتمس الثالث) أزال اسم والدته (حتشبسوت) من فوق آثارها، ليكتب اسمه هو...

مضى الرجال يدونون ما قلته في اهتمام.. وسكرتيرات قلقات يهرعن هنا وهناك، حاملات رسائل يبدو أنها هامة جدًا إلى (جهات معنية) في مكان ما..

وهكذا مضى الاستجواب الذي استغرق أربع ساعات أو أكثر.. كنت أنا و(سلمى) نعتصر خلايا ذهنينا، لاستخراج كل ما نذكره؛ ربما منذ دراستنا الابتدائية عن الفراعنة.. أبدًا لم نفطن لجهلنا المروع بالتاريخ الفرعوني، إلا حين وجدنا نفسينا بحاجة لتذكر ذلك التاريخ..

كم كان عدد الأسر؟.. أية أسرة بنت الأهرام؟.. متى بدأت عبادة آمون؟.. ما الاسم الأصلي لأخناتون؟.. أين يقع وادى الملوك؟

كم عامًا استمر كفاح (طيبة)؟.. من من الفراعنة شيد تمثال (أبو الهول) ولماذا؟.. من هو (بعنخي)؟ ومن هو (سنوحي)؟.. من هو... متى... لماذا... كيف...

كنا قد انتهينا أنا و(سلمى).. ولو كنا قد اقترفنا جريمة ما، فإننا في أتم حالاتنا النفسية لنعترف..!.. إن هؤلاء السادة لا يتعبون ولا يعرفون الرحمة.. وقد استحال عقلي إلى ذبابة قد فرغ من امتصاصها عنكبوت...

بعد أن طال التعذيب، قال الرجل غامض الوجه، وهو ينظر في ساعته:

- أعتقد أن الوقت قد حان كي ننهي هذه الجلسة.. لدينا هنا كمًا لا بأس به من المعلومات، وسيستغرق أسبوعًا أو أكثر في التحقق منه، لهذا أشكركما.. وآمل - لمصلحتكما - أن تكونا على صواب!!

* * *

قرأ المدير الأوراق الأخيرة التي حملتها له مرة تلو مرة.. ثم قال دون حماس وهو يناولها لي:

- لا استريح كثيرًا للمجرى الجديد للأحداث.. إن القصة تتحول إلى استعراض لثقافتك الفرعونية ولا أحسب القاري واجدًا ما يشوقه وسط هذا الحشد من الأسماء والوقائع..

ابتلعت ريقي وقلت في شيء من نفاد الصبر:

- صبرًا سيدي.. إن اللهو لم يبدأ بعد..

- لهو؟!..

- نعم.. إن هذين الغريرين يحسبان أن ما يعرفان ويجهله هذا العالم لكفيل بأن يجلب لهما الرغد والثراء..

- هذا ما قلته أنت مرارًا.

استطردت في غموض وأنا أعيد أوراقي إلى الملف:

- لكنهما سيعرفان إلى أي حد كانا مخطئين....

سيعرفان ذلك بوضوح شديد..!!..

* * *

٨ - شهرة..

لم نكن نعلم أنه في الوقت الذي غفونا فيه في فندقنا أنا و(سلمى)، كانت هناك جيوش من علماء الآثار تعيد البحث في معابد الصعيد.. وجيوش من المصورين تلتقط صورة دقيقة لآلاف النقوش الجدارية المنسية.. وجيوش من خبراء الكمبيوتر، عاكفة على تلقيم أجهزة الحاسب الآلي العملاقة في عدة وزارات، للتحقق من تكرارية النقوش، وتفنيد الاحتمالات المختلفة ومقارنتها...

وحول (رشيد) استحال الليل نهارًا، حيث سلطت الكشافات العملاقة.. وشرعت البلدوزرات تهدر كديناصورات أسطورية تلتهم التراب بحثًا عن حجر صغير يحوي سر الحضارة.

كانت اللغة الهيروغليفية تولد من جديد، وبسرعة غير عادية.. إن البحث عن طلاسم لغة في عهد الكمبيوتر، يختلف - قطعًا - عن ذلك المجهود المحموم، الذي بذله (شامبليون) وحيدًا على ضوء شمعة.

كانوا يحتاجون إلى طرف خيط.. وقد قدمنا لهم عدة خيوط، كلها تقود إلى نفس الشيء..

* * *

في الأيام التالية تكررت جلسات (الاعتصار الذهني) إذا صح هذا التعبير..، وكان هؤلاء السادة يخصصون يومًا لكل موضوع.. قصة الهرم.. إخناتون.. كليوباترا.. حتشبسوت.. إياح حتب.. حورمحب.. إلخ...

وعرفنا انهم - بعد كل استجواب - كانوا يشرعون في دراسة كل حرف ثم يرسلون فريقًا من علماء الآثار للبحث عن أي نقش يؤيد ما قلناه ويحاولون فهم كل كلمة في هذا النقش على ضوء كلامنا..

ثم جاء اليوم السعيد... اليوم الذي سمحوا لصحفي أن يقابلنا فيه..

كان شابًا ناحلًا تلتمع عيناه حماسة، وجبينه مندي بالعرق، ويداه ترتعشان وهو يسألنا عن كل شيء..، بالطبع لم أصارحه بقصة (ناقل الجزيئات)، وحاولت إعطاءه الانطباع بأننا عرافان أو ساحران، أو أي شيء من هذا القبيل..

بعد هذا بدأت الأحاديث الصحفية لي تتوالى... لم أعد أذكركم صحفيًا أصلع الرأس، وكم صحفية تصبغ شعرها وتلوك اللبان قد قابلت.. لكني كنت في كل مرة أحكي شيئًا جديدًا...

وكان موضعنا في أية جريدة أو مجلة مضمونًا، في أية مرة نفتح فيها فمنا.. وغدت صورتي أنا و(سلمى) مألوفة لرجل الشارع.. لكن أحدًا لم يلحظ تشابهنا غير العادي..

صار اسم (رمسيس) و(خوفو) يترددان في وسائل الإعلام، وعلى المقاهي، وعرف الناس (إخناتون) داعية التوحيد.. و(سنوحي) الفلاح الفصيح..

* * *



وغدت صورتى أنا و (سلمى) مألوفة لرجل الشارع .. لكن

أحدًا لم يلحظ تشابهنا غير العادى ..

على أن أكثر القصص التي أثارت شغف الناس، كانت هي قصة (كليوباترا ومارك أنطوني).. وبرغم أن المؤرخين اليونانيين حكوها، وبرغم أن (كليوباترا) لم تكن فرعونية تمامًا، فإن التفاصيل لم تكن واضحة كما حكيناها نحن..

وسمعنا عن مسرحية بنفس الاسم، تقدمها مسارح (لندن)، ألفها شاب انجليزي واعد اسمه (ويليام شكسبير)!.. بالطبع استوحى الفكرة منا، لكنه لم يستأذننا.. اقترحت (سلمى) أن أقاضيه، لكني - وقد تذكرت ماضيّ المشين - رأيت أنه من العدل أن أترك سارق القصص هذا وشأنه، كنوع من التكفير عن سرقاتي السابقة..

ذات يوم جاء للفندق شاب وسيم تبدو في ملامحه سمة أرستقراطية لا تخطئها العين..، وقدم لنا نفسه باسم أحمد شوقي.. شاعرا! ثم إنه طلب مني الإذن في السماح له بكتابة مسرحية شعرية، يكون اسمها (مصرع كليوباترا)!!..

- إن هذا من حقك.. أنا لم أخترع القصة، والتاريخ ملك للجميع.. قلتها في تواضع، وأنا أقاوم رغبة جنونية في الصراخ فرحًا.. في هذا العالم سيكون لي الفضل في إلهام (أحمد شوقي) بفكرة مسرحيته الرائعة، ويا لها من مصادفة!!..

- وماذا ستقول فيها؟

فرك كفيه في حيرة.. وهز رأسه:

- لا أدري في الواقع.. لم أجلس لأكتبها بعد..

هرشت رأسي في تؤدة كأني أفكر.. ثم قلت:

- ابدأها بالبيت التالي..

قياما نشرب الخمرا على نخب كليوباترا

كرر هو البيت ورائي، محاولًا حفظه.. ثم مط شفته السفلى في اشمئزاز.. وغمغم:

- ليس سيئًا.. لكن يمكنني كتابة ما هو أفضل!!

قلت مقاومًا ضحكة خبيثة توشك أن تفلت مني:

- على كل حال. هذا مجرد اقتراح..، يمكنك - بعد إنهاء هذه المسرحية - أن تجرب كتابة مسرحية عن... عن... عن (قيس وليلى) أو (قمبيز) ملك الفرس..

بدت نظرة عدم فهم على وجهه.. فقلت على الفور:

- هذا - بالطبع - لو كنت تعرف هؤلاء..!

كيف لو عرف أنني أحفظ كل هذه المسرحيات عن ظهر قلب، قبل أن يخط هو حرفًا واحدًا فيها؟!

وانصرف الشاب شاكرًا لي عطفي، دنت مني (سلمى)، وجلست أمامي حائرة.. وبعد هنيهة همست:

- (سالم).. إن ضميري ليس مستريحًا تمامًا.

- ولمه؟

- هذا الذي نفعله.. أعتقد أنه ليس أخلاقيًا تمامًا.. ثمة نوع ما من الخداع في كل هذا.. خداع لا أستطيع تعريفه

ثم مررت يدها عبر خصلات شعرها.. وهمست:

- قل لي إنه لا غبار على هذا كله.
نظرت لها في ثقة.. وابتسمت بزاوية فمي اليسرى:
- لا غبار يا ملاكي.. لا غبار.. فقط ثقي بي..

* * *

هكذا ظلت ايامنا تمضي على هذه الوتيرة.. رسالة من المخرج الأمريكي (جوزف مانكوفتش) يطلب مني أن أعمل مستشارًا في فيلمه الضخم (كليوباترا)، الذي ستقوم ببطولته ممثلة اسمها (جلوريا سميث).. وافقت على شرط أن تقوم بالدور (اليزابث تايلور) - لو كانت عندهم واحدة - لأنها ستؤدي الدور بشكل أفضل!! شعراء يطلبون الإذن في نشر قصائد عن (كليوباترا) و(الكرنك)، وملحنون شبان يطلبون تلحينها.. وكتاب سيناريو يطلبون كتابة سيناريو عن (إخناتون)..

الجديد، انني كنت أقدم قوالب جاهزة لكل هؤلاء كي يستعملوها.. حتى أن الملحن الشاب الذي عرفت أن اسمه (محمد عبد الوهاب) انبهر بشدة بالنداء المنبهر الملهوف (كليوباترا) الذي تبدأ به الأغنية التي تحمل هذا الاسم..

قال إنني عبقري فهززت رأسي في تواضع..

واقترح علي مخرج مثقف، اسمه (شادي عبد السلام)، أن يقدم فيلمًا عن قبيلة تتعيش من سرقة المومياوات.. سألني في شرود عن الاسم الذي يطلقه على الفيلم ففكرت حينًا، ثم قلت:

- لا يوجد سوى اسم واحد يناسبه.. سمه (المومياء)..!!

- اسم رائع..!.. أنت موهوب حقًا..!

هكذا - ترون - كنت منهمكًا لأذني وسط كل هذا.. وتحولت قاعة الاستقبال في الفندق إلى سيرك يضم مئات الشعراء والملحنين والرسامين والمخرجين وكتاب القصة.. وكلهم جاءوا من أجلي..

وتدريجيًا بدأت علاقتي تفتر ب (سلمى).. لم أعد أتذكرها إلا وقت النوم، حين تجلس على الفراش ترمقني في صمت بضع دقائق قبلما تكرر سؤالها الخالد:

- (سالم).. هل ضميرك مستريح؟

فأقول وأنا أندس لاهثًا تحت الأغطية:

- جدًا..!

لقد بدأ حسابي في المصرف يتضخم - أخيرًا - أنا الذي لا أعرف مكان أي مصرف في عالمي.. صحيح أنه حساب بعملة هذا الكوكب الغريبة، لكنه مال على كل حال، ويمكن - إذا أردنا الرحيل - أن نشتري به ذهبًا أو فضة أو يورانيوم (٢٧٣)، أو أية مادة يمكن استعمالها في الكواكب الأخرى..

- وماذا لو ذهبنا لأرض أخرى لا تعرف الذهب؟..

هكذا تقول (سلمى) متشائمة.. فأنظر لها في حنق وأقول:

- إذن نتركها على الفور إلى كوكب اخر.. إن الكوكب الذي لا يعرف الذهب، هو كوكب لا يستحقنا!!

فتنظر لي في حنان.. وتهمس:

- (سالم).. متى نرحل؟..
- حين.. حين ننتهي..
- ومتى ننتهي؟
- حين يعرفون ما نعرف...

* * *

كانوا قد بدأوا ينقبون في وادي الملوك، واجدين المومياء تلو المومياء لملوك الفراعنة العظام..، وبفضل توجيهاتي، استطاع العلماء المصريون أن يجدوا مومياء (توت عنخ آمون)، منتزعين ذلك النصر من اللورد (كارنافون) و(هوارد كارتر) صاحبي الكشف في عالمي...

وتدريجيًا تراكمت الآثار.. حتى صارت حاجتهم ملحة لبناء ذلك المبنى الشامخ الأنيق، في ميدان (التحرير): المتحف المصري..، وبدأت السياحة تنتعش.. والأسماء الفرعونية العزيزة تحتل مكان الأسماء اليونانية السخيفة.. وتاريخ (مصر) القديمة يتشكل..

إنني عراف هذا العالم ولن ينتزع مني أحد ذلك المنصب...

ولكن.. ألا ترى معي شيئًا ما يثير الريبة في كل هذا النجاح؟!.. بلى؟.. وأنا كذلك أوافقك..

ثمة نذير شؤم يخيم على المناخ المزدهر.. إن الأمور لا تسير أبدًا بهذه البساطة والسلاسة..

ثمة كارثة تنتظرنا.. لا جدال في هذا..

ولكن أين؟.. وكيف؟.. وهل سننجو منها؟..

هذا ما ستعرفه بعد لحظات..

* * *

٩ - الجانب المظلم من القمر..

كنت عائدا إلى الفندق منهكًا، بعد يوم حافل، حين استوقفني موظف استقبال الفندق (وهو بالمناسبة أبله تمامًا)، ليقول لي بابتسامة مشرقة:

- المدام ليست موجودة..

- حقًا؟..

- لقد غادرت منذ ساعة مع رجلين ضخمي الجثة!.. وقد خيل لي للحظة أن أحدهما يحمل مسدسًا مصوبًا نحوها، ويخفيه تحت معطفه، إلا أنني استبعدت هذا الاحتمال.. خاصة وأن المدام أخذت تختلس لي النظرات، وتأتي بحركات لا أفهمها بوجهها.. و...

قبل أن يكمل عبارته، كنت قد وثبت فوق (الكاونتر)، ممسكا بياقة حلته الحريرية.. والزبد يتساقط من فمي:

- ماذا قلت؟!..

أعاد لي سرد القصة في ارتباك، والرعب يتملكه..

يا لك من معتوه!..

لقد اختطفت زوجتي أمام عينيك.. وأنت لم تفهم حتى محاولتها لإخبارك أن هناك شيئًا على غير ما يرام..، ولكن كيف؟.. ومن؟.. ولماذا؟.. هل تركت لك رسالة ما؟

- نـ.. نعم.. قالت لك أن تقبع جوار التليفون..

أطلقت سراحه، وشرعت أثب السلالم ثلاثة ثلاثة قاصدًا غرفتي.. ذهني مضطرب كبكرة خيط لعبت بها قطة..، ودخلت الحجرة فلم أر ما يثير الريبة.. كل شيء في مكانه.. حتى جهاز (ناقل الجزيئات) في موضعه تحت حشية الفراش..

إن قرحتي تتحرك، وآلامها تعتصرني..

جرس الهاتف يدق.. أجفلت وهرعت نحوه كالملسوع.. سمعت صوتها العزيز عبر الأسلاك مرهقًا خائفًا حبيبًا:.

- (سالم).. هذا أنا..

- طبعًا.. طبعًا.. أين أنت؟

سادت هنيهة من الصمت.. ثم عاد صوتها:

- لا أستطيع أن أقول.. إنهم شرسون يا (سالم)، ولا يعرفون المزاح، وهم ينذرونك إذا لم ترضخ لأوامرهم أن...

قلت في نفاد صبر:

- نعم.. نعم.. كالعادة.. سيرسلون لي أذنيك في طرد..!

- لا.. لا.. أسوأ من ذلك..

- سينتزعون أظفارك بالكماشة؟..

- بل أسوأ.. فهم يتمتعون بحاسة الابتكار للأسف.

وبدأت الدموع تغزو صوتها.. وأردفت منهنهة:

- سيضعون رأسي في كيس مليء بالفئران!
- الأوغاد!.. طريقة التعذيب الفيتنامية العتيقة...

وهنا سمعت صوت جلبة.. وفهمت أنهم انتزعوا منها السماعة.. ثم سمعت صوتًا فظًا يقول بلكنة أجنبية:

- والآن.. كفى مزاحًا.. نفذ أوامرنا وإلا...



وبدأت الدموع تغزو صوتها .. وأردفت منهنهة :

ـــ سيضعون رأسى فى كيس ملىء بالفئران ! ..

ثم وضع السماعة، وساد الصمت!..
لقد نسي الحمقى أن يخبروني بأوامرهم!!.. إن هذا يثير الأعصاب!...
وهنا دق جرس التليفون ثانية.. رفعت السماعة في لهفة لأسمع ذلك الوغد يتكلم:
- معذرة!.. نسينا أن نوضح..
- لا عليك.. فهذا يحدث للجميع.. إن هموم الحياة..
- نريد منك خريطة تفصيلية لأماكن الكنوز الفرعونية التي لم تخبر بها السلطات واستبقيتها لنفسك.
- ومن قال إن عندي واحدة..؟
- لأننا لسنا حمقى..!.. انتظر مكالمة أخرى تحدد شروط اللقاء.. و.... كليك!
ساد الصمت مرة أخرى.. بعد ثوان عاد الجرس يدق فرفعت السماعة لأسمعه يقول في حرج واضح:
- نسيت أن أحذرك..
قلت في نفاد صبر:
- طبعًا.. طبعًا.. ولا كلمة للبوليس، وإلا لن أرى زوجتي.. أليس كذلك؟!
- بلى.. معذرة لشرود ذهني::
- لا عليك.. عمت مساء.. لا تؤذوها من أجلي..
ووضعت السماعة شارد الذهن أنا الآخر.. يا لها من كارثة!

* * *

كانت أوجاع القرحة تمزقني، لكني لم أستطع أن أفعل شيئًا آخر، سوى أن أجلس وحيدًا في غرفتي، أرشف فناجين القهوة، وأرمق جهاز الهاتف في تشاؤم..
يا لهم من حمقى!.. لقد ظنوا أننا نعرف عن كنوز الفراعنة أكثر مما كشفنا عنه.. وظنوا أنهم بالسيطرة علينا، يمتلكون مفاتيح خزائن (قارون).. لكن جعلهم يفهمون سيكون عسيرًا بعض الشيء.
والآن ليس لدي سوى أن أنتظر أو أبلغ الشرطة..
الحل الأول كفيل بإصابتي بالجنون.. أما الحل الثاني فلن يزيد على محاولة تتبع خطوط الهاتف الأمر الذي لن ينقذني من الجنون أيضًا.. ولكن.. ثمة شيء غريب..
أشعر بالخوف لا القلق.. هناك فارق كبير بين الخوف والقلق، وفي حالتي هذه المفروض أن يقتلني القلق.. فماذا يخيفني؟!.
أشعر بالجوع برغم أنني تناولت عشائي.. وأشعر بالبرد برغم أن الغرفة دافئة..
إن تفسير هذا ليس عسيرًا.. هذه ليست مشاعري، بل هي مشاعر ذاتي الثانية - (سلمى) - في سجنها البعيد... لقد ألفت هذا الخلط ولم يعد يدهشني.. لكنه. في هذه المرة. سيكون مفتاحي للبحث عنها..

إنها كروموسوماتي.. وإنني لابد واجدها بشيء من الجهد لو تركت العنان لغرائزي.. إن كروموسوماتي النائمة في خلايا جسدي، لقادرة على إيجاد كروموسوماتي النائمة في خلايا (سلمى)..

وسأفعل هذا وحدى دونما عون..

* * *

الأمر عسير..

شرعت أردد هذا لنفسي، وأنا أركب سيارتي الجديدة التي لم أحصل على رخصة قيادتها بعد ؛ وأجوب شوارع المدينة، مستسلمًا لشعور غامض، لا أعرف إلى أي حد هو صائب وإلى أي حد هو مزيف..

المشكلة - قلت لنفسي - أن ما يربط بيني و(سلمى) ليس نوعًا من التخاطر (التيليباثي) وإلا لغدا العثور عليها سهلًا.. إنه نوع غريب من الانتماء، كالذي يجذب الساق المبتورة نحو صاحبها، إذا كان هناك حقًا شيء كهذا..!!

مشكلة الحضارة، هي أنها أتلفت - للأبد - غرائزنا البدائية.. وإن أي قط يحترم نفسه كان - حتمًا - سيجد زوجته، بعد ربع ساعة من اختفائها، لو كان في مكاني.. لكني لست قطًا للأسف!!

كنت أحمل معي جهاز (ناقل الجزيئات) والحنين والقلق يمزقانني، حين وجدت شيئًا يدفعني إلى السير في ذلك الشارع الجانبي..

* * *

كلا.. لا يمكن أن تكون هذه المدرسة هي وجهتي.. مدرسة ابتدائية تصدع مبناها لا يمكن أن تكون هي ضالتي..

كان الأطفال يملئون الشارع، في انتظار لحظة أن يفتح الباب الحديدي الصدئ، ليتراصوا في طابور الصباح.. ليلة كاملة انقضت علي في السيارة، غارقًا في حيرتي.. والآن المفروض أنني وصلت..

كان هو الذي تعرف على أولًا.. وجهه الشيطاني الأبله، ومريولته الزرقاء، والابتسامة الخبيثة بركن فمه الأيسر.. شريف!..، نسختنا الكروموسومية، التي نسينا عنها كل شيء.. يا للعنة!.. إذن فكروموسومات هذا المعتوه هي التي قادتنا إلى هنا.. وكنت أقتفى أثرًا مضللًا طيلة الوقت.

- أونكل!.. مرحبًا!.. رأيتك في التلفاز البارحة!!

فتحت باب السيارة، ونزلت منها.. وانحنيت على ركبتي جواره.. وشرعت أفكر.. إنني أمقت هذا الطفل السخيف، لكنه قد يكون ذا عون لي.. أولًا سيساعدني مجيئه معي، على التخلص من جاذبية كروموسوماته المضللة.. ثانيًا لو وحدنا غريزتينا أنا وهو، فلربما استطاعت روحه البريئة الشفافة - لو كان يملك واحدة - أن تساعدني على إيجاد كروموسومات (سلمى)...

نظرت في عينيه.. وقلت:

- شريف.. أنت تذكرني و(سلمى) طبعًا؟

- طبعًا

- وتشعر أنك تنتمى لنا.. هل تفهم معنى (تنتمي)؟
- لا..!
- أعني.. تشعر أننا منك وأنك منا؟
- لا..!
- يا لك من حمار..!..
وهرشت رأسي مفكرًا.. كيف أوصل له فكرتي؟..
- حسن.. أنت شعرت بمقدمي يا (شريف) قبل أن تراني.. أليس كذلك؟
هز رأسه أن بلى..
- ثمة شيء ما يربط بيني وبينك وبين (طانط سلمى).. هل تذكرها؟
مرة أخرى هز رأسه أن نعم..
قلت في خطورة باحثًا عن الأسلوب الأمثل، لإقناع هذا الشيطان الصغير:
- لقد خطفها اللصوص.. وسيقتلونها، وأنا بحاجة لمخبر عظيم مثلك يجدها لي.. فهلا ركبت معي..؟
بدا عليه الحماس.. ففتحت له باب السيارة.. واركبته جواري، ثم أدرت المحرك، حين سمعت صيحة من سيدة صارمة الوجه، تبدو كإحدى المربيات الفضليات، وهي تشق زحام الأطفال لتلحق بنا:
- أنت يا أستاذ!.. إلى أين تظن أنك تأخذ هذا الصبي؟!..
- معذرة يا سيدتي، فلا وقت عندي للشرح.. وانطلقت بالسيارة.. وفي المرأة الجانبية لمحتها تدون رقم سيارتي، في وريقة أخرجتها من حقيبتها.. لا ألومها، فقد قامت بواجبها على أكمل وجه، على أنني أتحمل الآن - بجانب كل أعبائي - عبء أن أثبت للشرطة أنني لم أختطف الطفل..!
- إنها أبله (اعتماد).. الناظرة!
قالها لي مفسرًا.. وضحك في بلاهة..، فزمجرت من بين أسناني:
- هذا واضح.. وأكون شاكرًا لو أغلقت فمك يا أخ (شريف)!

* * *

هل تشعر بها؟..هل تشعر بها؟..
من عالمها البعيد جاءت وغدت لي..، تعرف أسراري وأحلامي وتتجاوز عن سخافاتي ونقاط ضعفي..، إنها بريئة رقيقة.. فهل تشعر بها؟..
أمسك بالمقود بيدي اليسرى، وأضغط كف الطفل الصغيرة بيدي اليمني.. حاول أن تذوب في خلايا كفي.. حاول أن تتوحد معي وتفكر مثلي.. إننا حتمًا واجداها..، فقط ساعدني..
- هل نتجه يمينا أو يسارًا؟.. فكر أيها الطفل السخيف.. فكر...
فيضع إصبعه في فمه بحيرة.. ويهمس:
- لا أدري..
أضغط على أسناني وأصيح بوحشية:
- بل أنت تدري!.. فقط فكر..!.. اشعر..!

فتلتمع الدموع في عينيه.. ويسيل المخاط من أنفه.. ويهمس:
- يـ.. يسارًا..
فأدير مقود السيارة إلى اليسار، وأضغط دواسة البنزين.. يجب أن أرفق بهذا البائس الصغير.. إن الخوف يعتصر قلبي، ومعنى هذا أنه خائف!.. إنني أمقت نفسي، ومعنى هذا أنه يمقتني.. لا ريب أنني أبدو له وكأنني قد اختطفته..، لكني لا أملك السعة النفسية التي تسمح لي بأن أكون حنونًا حتى مع نفسي!..
وهكذا شرعنا نتحسس دربنا عبر شوارع القاهرة.. إننا نتجه نحو (حلوان).. ويا لها من رحلة مضنية.. يمينًا.. يسارًا.. يسارًا.. يمينًا.. هنا.. لا.. لا.. هناك.. بل هنا.. لا تقلق..
والآن ها نحن أولاء نرمق ذلك البيت المنعزل، عند أطراف المدينة، حيث حملتنا غريزتانا.. إن الإحساس الغامض يتملكني.. (سلمى) هنا..!.. لا ريب في ذلك..، نظرت لوجه الطفل فلمحت أنفاسه المبهورة تتلاحق من منخريه.. والحمرة تغزو خديه.. وهو لا يجد ما يفسر به ذلك الشعور العجيب..
قلت له مبللًا بلساني شفتي السفلى:
- إنه هو.. هل تشعر به؟
هز رأسه في انبهار.. وشرع يرمق البيت..، إنه إحساس لا يوصف، ولا يمكنني أن أقربه لك، وإلا لغدوت (شكسبير) هذا العصر..، لو أنك تفهم ما تشعر به تفاحة نحو تفاحة أخرى، على نفس غصن الشجرة ؛ لو أمكنك هذا لأرحتني من عناء الوصف!..
أدرت مقود السيارة متجهًا إلى أقرب قسم شرطة..، وأنزلت الصبي على مسافة معقولة.. ثم أصدرت له تعليماتي:
- ستدخل هناك، وتخبرهم انك قد ضللت الطريق.. وتطلعهم على اسمك وعنوانك..، لا تذكر حرفًا عني أو عن هذا البيت..، إنك قد قدمت لي عونًا لن أنساه..، يمكنك أن تثرثر كما تشاء حين تعود لدارك..
قال في حيرة:
- واللصوص؟.. هل ستحاربهم وحدك؟
ابتلعت ريقي.. وداعبت بأناملي شعر رأسه الخشن:
- سأحاول يا صغيري.. أعدك أنني سأحاول!!

* * *

١٠ - الهرب من جديد..

فكرة ملائمة.. فكرة ملائمة!..

إنه قدري أن أقضي حياتي، عاصرًا خلايا ذهني المنهكة، باحثًا عن فكرة.. إن مشكلتي الحالية ليست عسيرة.. بل هي - إلى حد ما - مستحيلة.. ها هو ذا البيت المكون من طابقين بجدرانه المتآكلة، التي تفوح منها رائحة القدم.. ثمة ماسورة مياه صدئة.. وبوابة حديدية مغلقة بقفل فظ، وجنزير كأنه منتزع من دبابة.. وداخل هذا المبنى.. زوجتي!..

والآن.. كيف أدخل؟!..

كلا.. ليس ملائمًا أن أبلغ البوليس، لأن الأمر برمته مجرد حدس.. ولست مولعًا برؤية رد فعلهم إذا ما تبين أنني معتوه..

كلا.. ليس ملائمًا - أيضًا - أن أطرق الباب، لأنني لا أملك أية حيلة أبرر بها قدومي.. ولا أملك أية فكرة عن الوضع بالداخل.. أتسلق المواسير؟.. لا تكن سخيفًا.. أنا لست لصًا محترفًا، ولست - بالطبع - قردًا.. لن تستفيد (سلمى) شيئًا من تهشم جمجمتي..

فكرة ملائمة.. فكرة ملائمة!؟

كل ما أحتاج إليه هو جزء من الثانية.. إصبع من أصابعها.. ألمسه وأضغط أي رقم على (ناقل الجزيئات)، من ثم نفر نهائيًا بعيدًا عن هذا العالم المشئوم.. لا أريد ما جمعت من مال.. لا أريد شيئًا.. أريد صغيرتي البائسة، التي لم أشعر بمعناها في عالمي، إلا بعد أن فقدتها أو كدت..، فقط أعطوني فرصة لأهرب معها..

بعيدًا.. بعيدًا....

* * *

- هل تريد شيئًا..؟!

كان هذا هو السؤال الذي حسم الموقف نهائيًا..، إذ بينما أنا شارد في خواطري الجنونية، شعرت بتلك الكف الباردة كالثلج الغليظة كالصخر تهبط على قفاي...

التفت في هلع، لأرى أسوأ كوابيسي، وقد غدا واقفًا..، إنه رجل ضخم الجثة شرس المحيا، يقف خلفي ويرمقني في شك..

إذن صدق حدسي.. لابد أن هذا هو مقر العصابة.. وهذا الوحش هو من كلفوه بحراسة البيت.. كيف فاتني ذلك؟

حاولت أن أقول شيئًا.. أن أفسر.. لكن كلامي جاء - بالطبع - مجرد دمية بلهاء لا تفسر شيئًا..، من الواضح تمامًا أن هذا الوغد مسلح..

وحتى دون سلاح، ستلعب عضلاته دورًا حاسمًا في أي صراع محتمل..

- قلت ماذا تفعل؟

- مـ.. مـ.. بـ.. فـ.. لـ.. ص.. ش.. هـ.. مـ..!

- إذن تعال معي..!

ودون مناقشة جرني جرًا، وأولج مفتاحًا في قفل الباب الغليظ، وهو يسب ويلعن..، ووجدت نفسي أصعد في درجات رطبة شيطانية الرائحة، وثمة قط أجرب يرمقني في دهشة..

وعند الطابق الأول مد يده وفتح بابًا.. دخلت خلفه إلى صالة أنيقة نسبيًا، تنم عن ذوق لا بأس به في الأثاث..، وعلى مقاعد (أنتريه) حديث الطراز كان هناك بعض الرجال جالسين يدخنون، وقد بدا عليهم الارتباك حين رأوني.. ورمقوا حارسي في تساؤل..

قال الرجل مفسرًا وهو يطلق سراحي:

- كان يتسكع بالجوار.. ولم يعطني تفسيرًا مقنعًا..

كان الرجال يملكون عدة وجوه، لا أجد ما يدعونني لوصفها إلا إذا كنت تحب الثرثرة على غرار: رجل في منتصف العمر نصف أصلع ضخم الجثة وله شارب!.. كانوا رجالاً وكفى..!، فقط أحدهم بدا لي أجنبيًا إلى حد ما، وقوي الشخصية، مما يوحي بالزعامة..

وهنا.. وهنا حدث ما أخشاه..

ضاقت عيونهم فجأة شأن من يتذكر شيئًا ما.. ثم بدت عليهم علامات الفهم... وصاح أحدهم في لهجة (أرشميديسية) بحتة:

- لكنه... إنه...

فساعده الآخر على التذكر:

- نعم.. هو.. زوجها..!.. لقد جاء بنفسه!..

- وكيف استطاع أن..؟

- أليس هو عراف العصر؟!

وساد المكان جو من التحفز.. تصلبوا وقوفًا والتفوا من حولي..

قلت في حنق، وأنا أشعر أن الأمر كله قد غدا سخيفًا:

- أين زوجتي؟

أشار الأجنبي إشارة ذات معنى إلى حارسي.. ثم تأملني بعينين زرقاوين لا تطرفان..، وقال نافثًا دخان سيجاره في وجهي:

- إنها بخير.. بخير يا سيدي..

إنها تلك العربية ذات اللكنة الأجنبية التي سمعتها في الهاتف..

- أقدم لك نفسي.. (هنريكه شولتزمان).. لص آثار محترف...

- وشارد الذهن كذلك..!...

ابتسم في شيء من الخجل..، وأشار إلى.. إلى (سلمى) التي جاءت مع حارسها من مكان لا أعرفه.. كانت في حال طيبة.. وقد بدا عليها الذهول حين رأتني، ثم تبدلت نظرتها إلى ابتسامة بزاوية فمها اليسرى.. فخر الأنوثة والاطمئنان، و... الحنين..!... كانت واثقة من أنني سأجدها..

قال الرجل في مودة:

- هأنتذا ترى أننا لسنا بهذه الشراسة..، وحالتها أفضل بمراحل من حالتك.. لكم تبدو مشوشًا..!..

ثم أشار لها كي تجلس.. وعاد يرمقني في ثبات:

- وحيد؟...

لم أدر كيف أجيب.. هل من الحكمة أن أتظاهر بأنني لست وحيدًا؟ أم أن هذا سيدفعهم لتصرف أحمق متعجل؟! على أنه وفر على عبء الإجابة... إذ افترض مسبقًا أنني لست وحدي..

في رزانة مد يده إلى جيبي وشرع يعبث هنا وهناك.. ثم أخرجها ممسكة به.. جهاز (ناقل الجزيئات)..

هتف أحد الواقفين في جزع:

- هذا جهاز (تتبع) خاص بالشرطة!.. إنهم خلفه..!

يا لك من أحمق..!.. كدت أبدأ في الصراخ مقسمًا لهم إنه ليس كما يظنون.. إلا أن الهر (شولتزمان) أخذ يتأمل الجهاز في خبرة بضع ثوان..، ثم هز رأسه:

- لا أعتقد يا (حلمي).. لقد رأيت العديد من هذه الأجهزة، ولا أحسبه واحدًا منها..، إنه أقرب للآلة الحاسبة.

تنهدت الصعداء.. لقد نجونا!.. وهنا سمعته يواصل الكلام مناولًا الجهاز لـ (حلمي) هذا:

- لكننا لن نترك شيئًا للظروف.. خذه.. وتأكد من تحطيمه..

* * *

مرة أخرى يا (سلمى) تبرهنين لي أنك الأكثر ذكاء وحكمة..، كيف كانت ستخطر لي فكرة مماثلة كالتي بادر عقلك إلى ارتجالها؟..

ما إن أمسك المدعو (حلمي) بالجهاز، قاصدًا المكان الذي يحطمون فيه الأجهزة - إن كان عندهم واحد - حتى صرخت في هستيريا واثبة من مقعدها:

- أيها السفاح..!.. إنك تقتله!!.

نظر لها الرجل في بلاهة - وأنا كذلك – فبادرت مفسرة:

- إنه (منظم ضربات القلب) الخاص به.. ومن دونه يتوقف قلبه خلال ثوان!!.. انظر له!.. إنه يموت!!..

منظم ضربات قلب؟.. فكرة لا بأس بها.. أعرف شيئًا كهذا، لأن عمًا لي كان يحمل جهازًا مماثلًا، ومن دونه تختل الإيقاعية الكهربية لعضلة قلبه.. و... المهم الآن أن أتظاهر بأنني أصبت بنوبة قلبية.. أمل ألا يكون بينهم طبيب أمراض قلب، أو لديهم رسام قلب كهربائي..!

لم أحتج لكثير من الجهد، لأن توتر الموقف تكفل بجعل أطرافي باردة كالثلج.. ولعاب كثير سال من شدقي.. و.... سقطت على الأرض كصخرة تهوي من قمة جبل.. وسط عويل (سلمى):

- أيها الأوغاد!.. زوجي!.. أعيدوا الجهاز!!..

تكفلت (سلمى) بلعب دورها ببراعة، أغرقتهم في بحر من الدموع والصراخ الهستيري واللكمات، حتى لم تترك لهم فرصة للتأكد مما إذا كان في الأمر خدعة..، لقد أصابهم الذعر الهستيري هم أيضًا..

صاح الأجنبي في هلع:

- حسن.. حسن.. اعيدوا له الجهاز.. كفي عن الصراخ يا امرأة!

وهكذا شعرت بيد تدس الجهاز في جيبي..، وعلى الفور بدأت علامات التحسن التدريجي تبدو علي!!.. وفتحت عيني في إنهاك.

- غريب هذا..
قالها الأجنبي وهو يهرش رأسه:
- أنا واثق أن (منظم الضربات) لا يبدو كهذا.. لكنى - على كل حال - متأكد من أنه ليس جهاز اقتفاء أثر..، على العموم سنخاطر.. إنني أريدك حيًا.. احتفظ بلعبتك هذه إذن.
انحنت (سلمى) فوقي وأخذت تجفف العرق البارد من على جبيني...
همست لها وأنا ألهث:
- منظم ضربات؟!.. يا لها من فكرة..!
قالت في حنق من بين أسنانها:
- لم أجد فكرة أفضل.. لماذا لم تنقذ أنت الموقف..؟
جلس الهر (شولتزمان) على الأريكة جواري.. وداعب بأنامله ركني فمه كمن يفكر.. ثم قال بعد هنيهة:
- الآن يا هر (سالم) أعتقد أن تعاونك أمر مفروغ منه.. إن ذكاءك يسمح لك بتخيل ما سنفعله.. لن يتم أي نوع من الإيذاء لشخصك، بل لشخص يهمك أمره، ولن أذكر اسمه طبعًا..!
قال أحد الجالسين في شك:
- إنني أرجو أن يفسر لنا أولًا سر مجيئه.. قد نكون في خطر داهم في هذه اللحظات..
ابتسم الهر (شولتزمان) في ثقة، وبدأ يفسر وجهة نظره:
- لا أظن.. إن الشرطة لم تكن لتغامر بشخص شديد الأهمية مثله للبحث عن مقرنا.. على الأقل كانت سترسل مخبرًا لاستكشاف المكان، أو كانوا سيقنعونه - كالعادة بالانتظار حتى يعرف مكان الصفقة، ويتم تتبع مندوبنا..، إن الأمر كله لا يزيد على مغامرة فردية يائسة، قام بها الهر (سالم) مستعينًا بموهبته التي نجهل عنها كل شيء، وحاسبًا نفسه بطلًا من أبطال السينما.. مثل (هنري جيسون)..
من هو هذا الـ (هنري. جيسون)؟.. أعتقد أنه معادل (جيمس بوند) على هذا الكوكب..!، على أن الثعلب قد أجاد الاستنتاج حقًا.. كل ما أريده لحظة انفراد تتيح لي معالجة أرقام الجهاز.. لحظة واحدة.. ترى متى سيقومون بسجننا؟..
قال الهر (شولتزمان) في تؤدة:
- على كل حال.. لا أرى ما يمنع تغيير مقرنا بأقصى سرعة..
- رأي صائب..
وفي هذه اللحظة..
دوى صوت ضربات عنيدة صارمة على الباب الحديدي للبيت...
الباب المغلق.. لحظات من التوتر.. ثم هرع أحدهم يختلس نظرة بين خصاص النافذة الخشبية.. وهتف في هلع:
- شرطيان!!..

* * *

- يا للكارثة!

واستدارت العيون نحوي ترمقني في اتهام...

لابد أنه الطفل (شريف).. لم يحفظ وعده لي.. وفي المخفر حدثهم عن اختطافه وعني وأشياء مريبة كثيرة، جعلتهم يصممون على زيارة البيت الذي أخذته إليه، ليعرفوا ما هنالك.. بالطبع هم يؤمنون أن الطفل يهذي بخياله الواسع.. وبالطبع هم لم يعيروا الأمر أية جدية، لكن رد فعل هؤلاء الأوغاد لن يكون سهلًا..

التمعت عينا الأجنبي في وحشية.. وهتف:

- كان حدسي خاطئًا يا هر (سالم).. لكن دعني أؤكد لك أن أوان المزاح قد انتهى.. أية محاولة لتحذيرهم ستكون وبالًا عليكما..

وأشار إلى الرجل قوي البنيان، الذي ألقي القبض على.. وأمره:

- أخفهما في البدروم.. ثم افتح الباب وتظاهر بالبراءة.

أخرج الرجل مسدسًا قبيح الشكل فوهته أطول من اللازم مما جعلني أدرك أنه مزود بكاتم صوت..، وفي احتراف أشار لنا كي نتقدمه إلى باب خلفي..

باب يقود إلى درجات محطمة، تقود بدورها إلى قبو عفن مظلم..

كانت (سلمى) ترتجف رعبًا.. أما أنا فكنت أتحرق شوقًا إلى اللحظة التي يتركنا فيها هذا الثور وحيدين، كي تتلامس يدانا.. ونضغط زر الجهاز الحبيب..

كان قبوًا كأي قبو آخر، لا يميزه سوي عمودين خشبيين لا يصلحان سوى لشيء واحد... وبالفعل تناول الرجل حبلًا ليفيًا ملقى على الأرض.. وأشار لـ (سلمى) تجاهي.. وهتف:

- هيا..!.. قيديه سريعًا ثم قفي لأقيدك!!

* * *



وبالفعل تناول الرجل حبلاً ليفيًّا مُلقى على الأرض .. وأشار

لـ (سلمى) تجاهى ..

كلا..!.. إن الهرب يحتاج لأن تكون يداي حرتين..

دون أية كلمات مددت يدي لجيبي مخرجًا الجهاز وقذفته إلى (سلمى).. ثم استدرت نحو الرجل.. سأراهن على شيء واحد.. أنه لن يطلق علينا الرصاص دون تعليمات عليا من رئيسه..

وهكذا ألقيت بجسدي على المسدس ووجهت فوهته بعيدًا..

يالقوة الرجل الكاسحة!.. كأنني أصارع جرارًا.. الشرايين توشك أن تنفجر في فودي.. لكني سأصمد..

الطرقات تزداد شراسة وعنفًا على الباب الحديدي الصدئ..

- (سلمى)!.. مـ.. ماذا تنتظرين؟..

صفعة شرسة على خدي.. لكمة مروعة مزقت شفتي.. مذاق الدم الصدئ.. في الواقع كنت عمليًا أتدلى من المسدس بينما الثور يطوح بي في هواء البدروم، ويوجه لي ضربات غير آدمية.. تلاشي عقلي تمامًا مستشعرًا أنني خفاش متعلق في ساق دابة..

على كل حال هو لم يطلق رصاصة واحدة، مما يدلني على أنه في حيرة من أمره.. ولم تكن قوته الكاسحة لتدع له حاجة لأن يطلق...

- (سلمى)!.. أيتها الحمقاء!!

الطرقات تزداد شراسة.. وعيي يتسرب مني.. أنشب أسناني في كفه فيسب ويوجه لي المزيد من اللكمات..

- (سلمى)..!..

- اتركه يا (سالم)!.. اتركه وإلا أخذناه معنا!!..

اتركه؟.. يا لها من كارثة!.. إن تركه أعقد من التشبث به... و... لكمة عارمة وجهها لي كانت هي فرصتي.. فتركتها تقذفني إلى الحائط، لأسقط جوار (سلمى).. (سلمى) التي واصلت ضغط أزرار الجهاز في برود كأن ما يحدث لا يعنيها.. ثم في صرامة أمسكت يدي.. وهتفت بين أسنانها:

- هيّا..!

وضغطت زر الإدخال..

فلم يحدث شيء..!!

* * *

١١ - الخاتمة..

يا للكارثة!..
لم يحدث شيء!..
بينما ذلك الثور يتقدم نحونا، وعلى وجهه نظرة لا داعي لوصفها...
- (سلمى)... ماذا حدث؟
- لا أعرف.. ربما هي البطاريات..
في هذه المرة يرفع الثور مسدسه نحونا.. وينفرج ثغره عن ضحكة ذئب..
- (سلمى)!.. افعلي شيئًا...
- صبرًا.. ربما لو أعدت ترتيب الـ... نعم.. هكذا. الثور يتقدم.. أقسم أنني أرى الزبد يسيل من شدقيه..
- (سلمى)!..
- حسن..!.. امسك يدي.. هيا...
و....
اختفى القبو من حولنا..

* * *

اخيرًا...
ها نحن أولاء ذائبان في الزمان والمكان.. لكم قتلني الهلع.. ما شعوري لو رأيتك جواري محملقة العينين والدم ينز من ثقب في جبينك؟!..
- يا لك من بشع!!..
يضايقني أننا لم نعاقب هؤلاء الأوغاد.. كلا.. لا تحسب أنهم نجوا.. فالشرطة ستجد عندهم أشياء مريبة عديدة.. حقيبتي.. فردة من حذائك، وبقعًا من دمك في القبو.. ثم هم لابد يخفون أشياء أخرى لا يسرهم أن يجدها رجال الشرطة..
- دعينا ننس كل هذا..
دعينا نستمتع برحلتنا هذه عبر المجرات..
- أنت نسيت كل شيء عني.. أهملتني تمامًا حين وجدت النجاح..
- لقد كنت أحمق.. هذا هو كل شيء.
- هل ترى هذه المجرة؟.. إنها وطننا الجديد.. الكوكب رقم.. رقم.. لقد نسيت.. ضغطت الأرقام عشوائيًا..
لا يهم.. يكفينا أننا معًا.. معًا..

* * *

قرأ المدير الأوراق الأخيرة فانفرجت أساريره (أخيرًا):
- لا بأس يا (سالم).. كنت أريد بعض (الضرب).. بعض اللكمات والركلات من أجل شيء من الحيوية..، إن الفكرة لا بأس بها، والآن أعتقد أنك ستستمر في هذه السلسلة..؟
- بالطبع يا سيدي.
- وما هي الحلقة التالية؟
هرشت رأسي في إرهاق.. ثم قلت:
- لم أفكر بعد يا سيدي.. أعطني فرصة.
ضغط المدير على السيجار بأسنانه.. وغمغم:
- حسن.. لن أطبع هذه قبل أن تأتيني بعدة حلقات.. إن ما أريده هو الاستمرارية.. هذا ما يجب أن أتأكد منه..
ونظر في عيني بثبات مؤكدًا كلماته:
- الاســ.. تـ.. مـ.. ر.. ا.. ر.. يـ.. ـة..!

* * *

أعدت لي (سلمى) قدحًا من القهوة، وجلست جواري تداعب قطتنا الصغيرة، وابتسمت بزاوية فمها اليسرى:
- ألا تخشى أن ينكشف الأمر؟!..
رشفت رشفة من فنجان القهوة.. وقلت:
- أن يعرف المدير الحقيقة؟.. أن قصتي الجديدة عن (سلمى) القادمة من عالم مواز هي حقيقة واقعة؟.. لا أظن يا ملاكي.. من الصعب أن يتخيل أحد ذلك..!
- وماذا إذا عرف ما هو اسوأ. أننا نحن معًا قادمان من أرض أخرى، إلى هذا العالم الموازي، باحثين عن النجاح عن طريق سرد مغامراتنا؟.. لا أظن.. ولن يتخيل.. إنه يظن أن هذا الكوكب هو الأرض الأصلية، في حين أن الأرض الأصلية بالنسبة لي هي الكوكب (١١٢-ب- ٧٥).. وبالنسبة لك هي الكوكب (١٩ ٤-أ-مجرة [تازما مالوري])...
- أي أن المدير نفسه يعيش في كوكب من كواكب مغامراتنا..؟
ثم أمسكت رأسها.. وضحكت:
- سيصيبني الدوار..!.. أرجوك كفى!!..
ثم إنها أطلقت سراح القطة.. وتساءلت:
- ما هي قصتك التالية؟!
وضعت فنجان القهوة ومسحت فمي:
- لتكن قصتنا مع... مع المغول..
- لكنها شنيعة.
-.. والمقبرة.. والمومياء المحترقة.. و...
- هيه!.. لا تفسد القصة أرجوك.. اكتبها الآن..!
وأنتم يا رفاق..؟.. أريد أن أطمئن قبل أن أفارقكم. هل ستلحقون بنا في...

أرض المغول؟!!

* * *

١٢ - ما بعد الخاتمة...

مرحبًا يا رفاق..!.. مضيفكم (رفعت إسماعيل) يعود إليكم بعد انتهاء هذه القصة العجيبة التي رواها لنا (سالم)..

لن ألقى أحكامًا على عواهنها.. ولن أزعم أنه معتوه - برغم أن الإغراء شديد - ولن أدعي أنه نصاب - وما أمتع أن أقولها - بل سأكتفي بأن أحك رأسي الأصلع، وأغمغم أن كل هذا غريب.. غريب إلى حد لا يوصف..

إن لغزًا من أكثر الألغاز غرابة يحيط بهذا الفتى الخجول، وزوجته اللطيفة التي تشبهه. بالمناسبة - إلى حد مريب!..، ومهما كان رأيكم في قصته هذه، فلا أخال أحدكم يجادلني في أنها كانت جديرة بأن أحكيها لكم..

بصيص آخر يلتمع لعيني من عالم ما وراء الطبيعة.. عالم الألغاز التي سنموت ويموت أحفادنا قبل أن نراها، دعك من أن نجد لها تفسيرًا..

والآن.. لقد انتهى دوري.. سأعود في القصص القادمة إلى ذكرياتي الشنيعة، التي لا أجد أرق منها كي أحكيه للأسف!..، على أنني أعدكم أن أشارككم في كل قصة جديدة، يحكيها لي هذا الزميل الغامض.

والآن أعود لعالمي الكئيب..

كان هذا في أوائل عام ١٩٦٧، حين تبدلت مفاهيمي وآرائي في كثير من الأمور، إثر صدامي مع كائن لم أتوقع أبدًا أن له وجودًا، حتى في أشد كوابيسي شناعة..

لكن هذه قصة أخرى!

د. رفعت إسماعيل
القاهرة – ١٩٩٢

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية

القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

ما قبل المقدمة

مقدمة طويلة نوعًا

١ - نسختي..!

٢ - أرض أخرى..

٣ - سجينة!

٤ - دعنا نرحل..

٥ - أرض بلا أجداد..

٦ - صديق..

٧ - كوكب الحمقى..

٨ - شهرة..

٩ - الجانب المظلم من القمر..

١٠ - الهرب من جديد..

١١ - الخاتمة..

١٢ - ما بعد الخاتمة...

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة أرض أخرى

إنه حلم ..
لكنك ستعيشه كأنه واقع ... أرض أخرى تشبه أرضنا كثيرًا .. و تختلف عنها كثيرًا .. (أنت) آخر يشبهك كثيرًا .. ويختلف عنك كثيرًا .. دع له يدك كى يقودك عبر دهاليز ذلك العالم العجيب .. إنه حلم .. و لكن هل نفيق منه حقـــًا؟

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة لعنة الفرعون

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

الفيلسوف الألماني (فيخته).. وعندنا واحد منه لحسن الحظ !

[←2]

مؤرخ يوناني عظيم.. ويطلقون عليه (أبو التاريخ).

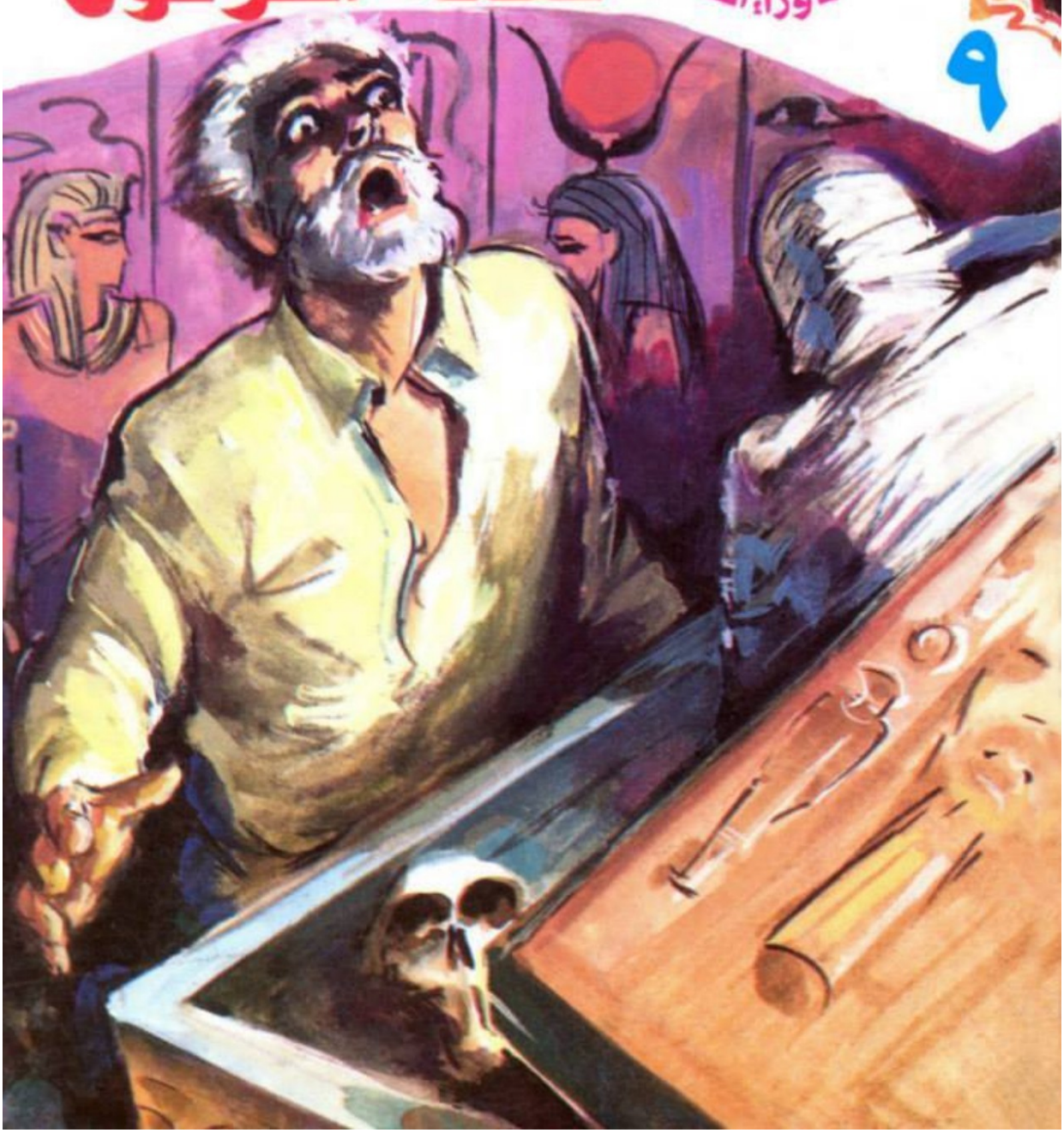
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

أسطورة لعنة الفرعون

ماوراء الطبيعة

٩



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

٩

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة لعنة الفرعون

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

٩

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة لعنة الفرعون

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة

أنا الدكتور رفعت إسماعيل أستاذ أمراض الدم سابقًا في جامعة (...) وعدد لا بأس به من الجامعات في الخارج، أنا الشيخ العزب الذي أنهى فتيل العمر ولم يبق له سوى ساعات، أيام، أعوام معدودة قبل أن يلحق بالأبدية..

ولهذا ؛ قررت أن أمسك القلم وأسطر ذكرياتي حتى لا تنتهي معي..

ماذا تعلمت من كل ما مررت به؟..

تعلمت أنني لم أتعلم شيئًا!.، ولو أن عمري غدا عشرين عامًا لفعلت نفس الأشياء واقترفت ذات الأخطاء وقلت ذات التفاهات. إن التاريخ يعيد نفسه لسبب واحد.. هو أننا في كل مرة نتوقع أنه لن يعيد نفسه وأن الأحداث ستأخذ مجرى جديدًا...!

أسمعكم تتساءلون: هل سيضيع هذا الشيخ وقتنا في فلسفته السطحية؟ ألن يحكي لنا قصة جديدة؟!

بلى يا رفاق..!.. سأحكي.. لكن هذه السطور السابقة ذات أهمية خاصة لما سأقوله لكم بعد دقائق.. وستفهمون ذلك...

متى وقعت هذه القصة؟..

وقعت في أوائل عام ١٩٦٧..

كلكم سمعتم - وقرأتم - عن لعنة الفراعنة..

لكن أحدكم لم يعرف ما عرفته أنا.. ولم يواجه كابوسًا مثل....

لا..!.. لن أفسد القصة...

لقد أنذرتكم.. لا تفتحوا التابوت!..، تعالوا معي عبر الصفحات التالية ولكن بكامل إرادتكم.. أنا لم اجبركم على شيء ولم أطلب منكم مرافقتي...

فلا جدوى من صراخكم..

لا جدوى أبدًا!!

الجزء الأول

الطبيب

"أن يستدعوك في مهمة استشارية فهذا يعني شيكًا أنيقًا به رقم لا بأس به ويحمل اسم (أتعاب استشاري) أو (بدل حضور) أو أي شيء من هذا القبيل..، لكنك - في هذه المرة - تلقيت بدل الشيك قرارًا بإعدامك.. قرارًا لا يمكن استئنافه..."

١ - استشارة خاصة..

يناير ١٩٦٧...

سن الثالثة والأربعين.. سن النضج وهضم خبرات الحياة وأنت ما زلت تملك القدرة على أن تخوض غمارها...

كنت عائدًا لتوي من مغامرتي الكابوسية مع (حارس الكهف) تلك المغامرة التي دنوت فيها من الموت أكثر من أية مغامرة أخرى.. ولقد قضيت عشرات الليالي أتملص - في فراشي - من قبضة رمال متحركة وهمية وأنهض غارقًا في العرق البارد لأتأمل الأرقام الفوسفورية المضيئة على قرص المنبه في ظلام الغرفة.. وأتنهد...

وبعد دقائق كنت أرى (العساس) واقفًا على باب الغرفة تتوهج تضاريسه المريعة في الضوء الخافت القادم من الصالة.. عندئذ أقرر أن أصرخ.. ثم أمنع نفسي في اللحظة الأخيرة من هذا العمل الأخرق لأنني أعرف أن كل هذا وهم.. وهم...

- لقد حان الوقت لتتزوج يا أخ (رفعت)..

هكذا يصارحني الجيران، وينصحني الأصدقاء، وتأمرني المرحومة أمي، وكلهم - بالطبع - يرون ملامح وجهي المرهقة، والشيب الزاحف على ما تبقى من شعري، ونظرة الذعر التي صارت نظرتي الدائمة..

إن الناس يتزوجون ليجدوا من يرعاهم.. أو يتزوجون لينجبوا.. أو يتزوجون لأنهم لا يجدون شيئًا أفضل يفعلونه، أما أنا فسأكون أول من يتزوج ليهرب من رؤية الأشباح والمسوخ ومصاصي الدماء..

وهل قال لك أحد إنني كباقي الناس؟!..

وفي المرآة تأملت ذلك الشيء المفزع الذي تحولت إليه.. وسألت:

- ومن هي الفتاة التي تقبل؟..

فيقولون لي في حماس:

- هناك ألف عروس!..

- ألف عروس معتوهة؟.

فيردون وهم يتنهدون في سأم:

- إن الجميع يتزوجون يومًا ما.. ولكل أوان أذان.. وستكون هناك - حتمًا - بعض التنازلات من الطرفين..!

فأصرخ في هلع:

- ولماذا يتنازل الطرفان؟.. ما الذي يرغمنا على ذلك؟!

- للأسف أنت ما زلت طفلًا لا يقبل أن يتنازل.. طفلًا يريد كل شيء دون مقابل..

- هذا صحيح.. وما دمت كذلك فلماذا اتزوج؟.

- لأن الجميع يفعلون ذلك يومًا ما..!

* * *

وبالطبع كانت العروس - البائسة - هي (هويدا).. هل تذكرها؟ تلك الفتاة التي قابلتها عند (عادل) في (الإسكندرية) حين كنت غارقًا في مشاكلي مع آكل لحوم البشر.. ولم أعرها اهتمامًا في البدء ثم بدأت نوعًا مقننًا ومتحفظًا وباردًا من العاطفة تجاهها..، وتبادلنا بعض المراسلات.. من (الولايات المتحدة).. من (اليونان).. من (ليبيا).. إلخ...

وحين عدت كانت بعد تنتظر....

وفي حفل عائلي شبه بهيج في دار (عادل) وأربع زغاريد - كعواء الذئاب - اطلقتها زوجته (سهام) ؛ طوقت إصبعي بخاتمها وطوقت إصبعها بخاتمي.. وغدونا أسيرين في زنزانة المستقبل المشترك!..

كانت خطبة كأية خطبة أخرى...

ذات الجولات المملة في الدروب.. وذات عبارات الغرام اسكبها في مسمعها أمام البحر.. وذات أكواب عصير البرتقال في ذات الكازينوهات.. وتظاهري بالهيام وتظاهرها بالحياء والقلق..

أعتقد أننا نولد بكمية محدودة من الرومانسية والقدرة على الحب.. وقد استهلكت كميتي كلها مع (ماجي).. وغدت كل محاولاتي مجرد عادات. كالصاروخ الذي يستمر في الارتفاع بالقصور الذاتي بعد أن تتوقف محركاته....

إلا أنني - والله تعالى عليم - كنت صادق النية في إسعادها وفي أن تكون زوجتي..، ولم أشعرها لحظة واحدة بما كان يعتمل في ذهني من تساؤلات لا نهاية لها..

* * *

كنت - كما تعلمون - مقيمًا في القاهرة، لهذا غدوت معتادًا على السفر إلى (الإسكندرية) أيام الخميس لأزور خطيبتي في دار أهلها بـ (الأنفوشى) ولربما عرجت على دار (عادل) معها أو دونها - حسب صفاء الأحوال – لنتبادل المجاملات أو لأشكوها له (إذا تصادف وكنت وحدي)...

ولعلكم تتساءلون هنا: لماذا لم نتزوج على الفور؟..

في تلك الأيام الباسمة كانت الزيجات تتأخر ليس لضعف الإمكانات المادية أو لعدم وجود شقة.. بل لذلك السبب المترف.. أن يتعرف الخطيبان بعضهما أكثر....

تصوروا هذا..!

كانت الأيام تمضي وميعاد الزفاف يقترب...

وكانت دورة الشموس مستمرة....

حين وصلني الاستدعاء الرسمي...

* * *

ذهبت لأفتح الباب في شقتي بالدقي متوقعًا - كالعادة - أن من يرن الجرس هو شخص يلومني على شيء ما أو يزف لي مصيبة أو يريد نقودًا أو يقترض شيئًا لن يرجعه....

كان ذلك في نهار اليوم الثامن من يناير ١٩٦٧..، وكنت أعد وجبة إفطار كريهة حين سمعت رنين الجرس المثير للهلع..

ذهبت للباب وفتحته لأجد وجهًا أسمر متصلب الملامح لشرطي كث الشارب يرمقني في شك ويمسك ورقة ما..، سألته في توتر:

- ماذا هنالك؟

- يريدونك..

لماذا؟

قالها في فتور كأنه يرى سؤالي سمجًا جدًا..، تناولت الورقة وفتحتها بيد مرتجفة شاعرًا أنني امرأة تتلقى ورقة الطلاق، فوجدت بها نوعًا من الاستدعاء الرسمي طلبًا لرأيي العلمي في هيئة الآثار.. ولكن لماذا؟

- لكنني طبيب.. فما هي علاقتي با....؟

- إن (البوكس) ينتظرك يا دكتور...

وهكذا.. لم أر بدًا من أن أطفئ الموقد وارتدي ثيابي وألحق بالزائر غير الثرثار إلى (البوكس) كئيب المنظر الواقف أمام بوابة العمارة التي أقطنها، ونظرة تشف لا بأس بها التمعت في عيني البواب وبعض الجيران حين رأوني أسير مصفر الوجه كالكركم جوار الشرطي.. كأنهم كانوا واثقين أن هذا سيحدث لا محالة جزاء وفاقًا لجرائمي وسيري المعوج..!

لقد فضحني هذا المخبول في الحي بأكمله...

ومضت السيارة تنهب شوارع القاهرة متجهة نحو هيئة الآثار... ودخلت إلى قاعة كبيرة بها مكتب عملاق تعلوه بعض التماثيل الفرعونية الصغيرة.. وكان هناك حشد لا بأس به من السادة الذين تبدو على وجوههم سيماء الخطورة.. والعسكريين الذين يرمقونني بشك لا مبرر له أبدًا.. والعلماء ذوي الشنابر الغليظة... وكلهم صامتون..

- دكتور (رفعت إسماعيل)؟.

قالها رجل متأنق أشيب الشعر يرفع نظارته فوق مقدمة رأسه.. وصافحني في شيء من المودة.. مضيفًا:

- أنا الدكتور (رمزي حبيب).. خبير المصريات... بالطبع ما زلت في حيرة من استدعائنا لك على هذا النحو..

هززت رأسي في تواضع قائلًا:

- إنني شخص حساس ياد. (رمزي).. حساس جدًا.. وليس رجال الشرطة الذين يأتون صباحًا من الأشياء المحببة للأشخاص الحساسين..

انفجر يضحك - أكثر مما تحتمله دعابتي في الواقع - ومعه ضحك كل السادة المحيطين بنا في مجاملة واضحة لي...

بدأ الفأر يلعب في عبي.. إن هناك جوًا من التوتر يخيم على المكان.. ذلك التوتر الذي ينفس عن نفسه بأية طريقة.. صرخة.. هزة قدم.. ضحكة في غير موضعها..، أنا لست أحمق..

- الواقع يا د. (رفعت) أننا.. هيه!.. لم لا تجلس؟.. ماذا تفضل أن تشرب؟...

- سجائر!..

مد أحدهم يده لجيبه وهو يضحك في افتعال.. وأخرج علبة تبغ معدنية ناولني لفافة منها، وقبل أن أفهم ما هنالك امتدت ست شعلات من ست قداحات تحملها ستة أيدي متحمسة نحو لفافة تبغي..

- الواقع أننا.. سمعنا الكثير عن..آ.. لنقل جولاتك الموفقة في دنيا ما وراء الطبيعة.. والقضية التي نحن بصددها تحتاج لخبير في هذه الأمور.. إننا نتحرك في الظلام.. هل تفهمني؟.

- لا...!

قلتها كسدادة فلين موجهة إلى حلقه.. فابتسم في حرج.. وأضاف:

- سأكون أكثر وضوحًا.. أنت أستاذ في أمراض الدم.. هذه نقطة.. وخبير في اسرار (الميتافيزيقا) 1 وهذه نقطة أخرى..، أي أنك الرجل الذي نحتاج إليه تمامًا..

هززت عقب السيجارة في حيرة فأسرع أحدهم يضع مطفأة تبغ في متناول يدي.. إن هذه المعاملة الحسنة تثير ريبتي أنا الذي أتوقع أسوأ الأمور دائمًا.. إن هؤلاء السادة يحملون لي كارثة ما، وإذا أضفنا لذلك ما يقول هذا (الأخ) عن (الميتافيزيقا) فإن استنتاج ما يدور ليس صعبًا.. إنني مقبل على مصيبة أخرى من المصائب التي تنتظرني في كل مكان وكل زمان..

قال د. (رمزي) في شرود وهو يرمق أظفار يده:

- ثمة شيء معين.. نوع من الآثار.. نريد منك أن تراه وتعطي رأيًا كاملًا.. تقريرًا علميًا مفصلًا يفسّر بعض الظواهر الغامضة التي صاحبت هذا الكشف...

- وهذا الشيء.. هذا الأثر.. هل هو مومياء؟.

رفع عينية الرماديتين نحوى في شيء من التبجيل.. وهز رأسه أن نعم..

- وهل فحصها علماء آخرون قبلي..؟.

- في الواقع..

- أجب دون تزويق أرجوك..

تنهد في استسلام.. وقال بصوت كالفحيح:

- خمسة علماء...

- وكلهم ماتوا في ظروف غير مفهومة..؟

- كلهم...

وتبادل مع الرجال الواقفين نظرة حيرى ثم سألني:

- كيف عرفت؟

- القصة دائمًا هكذا...

ثم إنني وأدت عقب السيجارة.. وأردفت:

- ولهذا استدعيتموني؟..

- بالفعل...

- لأكون سادس الضحايا..؟

هز رأسه مرتبكًا.. وفرك يديه ودمدم:

- بل لتقول لنا حقيقة ما يحدث...

وأشار إلى واحد من الواقفين.. رجل نحيل أسمر يرتدي نظارة صغيرة ذات إطار اسود سميك.. وقال:

- الأستاذ (محمد رجب) سيعطى لك خلفية أفضل عن الموضوع..

صافحني الرجل بيد باردة.. وجفف قطرات العرق النامية على جبينه وقال:
- سعيد بمعرفتك يا د. (رفعت)....
ثم جلس على مقعد وثير أمامي.. وأخرج (أجندة) صغيرة من جيبه بها - كما هو واضح - بعض النقاط التي تساعده على ترتيب ذهنه..
- إن الأمر يتعلق بملك فرعوني من الأسرة السادسة.. ملك لا نعرف عنه إلا أقل القليل أولا شيء على الإطلاق، والمصادفة وحدها هي التي قادتنا إلى مقبرته..
ثم بلل شفته السفلى بطرف لسانه.. وأردف:
لا أدري ما إذا كانت لديك فكرة عن الموضوع يا د. (رفعت) لكن هناك قرارًا عالي المستوى أن يظل ما أقوله لك سرًا..
- ولمه؟
- حتى هذا هو سر أيضًا.. كل ما أطلبه منك أن تعدني..
- أعدك ما دام الأمر يتعلق بصالح البلاد...
ولهذا - يا عزيزي القارئ - أرجو إعفائي من ذكر التفاصيل حيث إنني لم ألق هؤلاء السادة منذ ذلك العام.. ولم يعفني أحد من قسمي، سأقص عليكم قصتي محتفظًا لنفسي بالقدر الأكبر من التفاصيل.. وحتى اسم الفرعون نفسه لن أذكره.. بل سنطلق عليه اسمًا رمزيًا هو (أخيروم الأول) وهو – بالمناسبة - قريب جدًا من الاسم الأصلي.
- "كانت هذه المقبرة تختلف كثيرًا عن أية مقبرة وجدناها من قبل.."، قال الأستاذ (محمد) في عصبية.. "ومن المتوقع أن يبدل ما وجدناه فيها كثيرًا جدًا من قناعاتنا السابقة عن التاريخ الفرعوني، حتى أسلوب التحنيط نفسه لم يبد مألوفًا لنا..".
قلت في توتر وقد بدأت القصة تثير شغفي:
- وهل دخل اللصوص هذه المقبرة؟
تبادل نظرة حيرى مع الدكتور (رمزي) معناها: هل أصارحه؟..
ثم تنهد وأجاب عن سؤالي:
- قليلون جدًا.. وكلهم لم يمسوا شيئًا....
- وما السبب؟
ابتلع ريقه واغلق (الأجندة) قائلًا:
- لقد كان صاحب المقبرة غير طبيعي.. ومن العدل ألا نزعم أية قوى غير عادية له، لكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها.. الحقيقة التي تستعصي على الفهم هي أن لصوص المقابر فروا من المقبرة بمجرد دخولها.. آثار أقدامهم على الغبار - وهو لم يمس منذ قرون - أكدت لنا ذلك...
ونظر لي في صرامة:
-.. ما الذي رآه هؤلاء اللصوص؟.. إن من يتسلل إلى مقبرة لسرقتها ليلًا لا يخاف لدى رؤيته فأرًا أو ثعبانًا بالتأكيد...
قال د. (رمزي) مقاطعًا:
- حدثه كذلك عن الجثة...
- آه.. كنت أقول إن اللصوص...
سألته في فضول:

- أية جثة؟..

حاول تحاشي الإجابة بالعودة للحديث عن المقبرة ذاتها إلا أنني كنت مصرًا على الفهم مما دعاه إلى أن يجفف عرقه ويقول وهو يوجه نظرة عتاب إلى د. (رمزي):

- إنها جثة واحد من اللصوص.. جثة إنسان تعثر وهو يحاول الهرب مع رفاقه.. والغريب أن على وجهه أعتى علامات الهلع.. والأغرب أنه لم يتحلل برغم مرور عشرات القرون على وفاته.. أما الشيء المذهل..

وساد الصمت الغرفة:

- فهو أننا لم نجد قطرة دماء متخثرة واحدة في عروقه..

* * *



إنها جثة واحد من اللصوص .. جثة إنسان تعثّر وهو يحاول الهرب مع رفاقه ..

٢ - عن لعنة الفراعنة..

"اخرج يا من تأتي في الظلام وتدخل خلسة. هل أتيت لتقبل هذا الطفل؟ لن أسمح لك بتقبيله. هل أتيت لتأخذه؟. لن أسمح لك بأخذه مني. لقد حصنته منك بعشب (أفيث) الذي يؤلمك، وبالبصل الذي يؤذيك، وبالشهد الذي هو حلو المذاق في فم الأحياء ومر في فم الأموات ".

تعويذة فرعونية لحماية الطفل
تنسب إلى (إيزيس)

* * *

.". إذن وجدتم - لحسن الحظ - مقبرة مصاص دماء فرعوني!" قلتها وأنا أرشف فنجان القهوة الذي قدموه لي، جالسًا على مائدة الاجتماعات الكبيرة، متجاهلًا حقيقة أن كل العيون ترمقني في فضول..

قال د. (رمزي) وهو يبتسم تلك الابتسامة المفتعلة:

- لم نزعم هذا لحظة يا د. (رفعت).. إن وجود جثة غير متعفنة خالية من الدماء لا يعني بالبديهة وجود مصاص دماء.. فقط يعني وجود شيء غامض...

ثم إنه مد يده إلى ملف كبير.. وشرع يخرج منه بعض الصور ويضعها أمامي، صور لمقبرة فرعونية ما، ولتابوت جميل الشكل - ولبعض الرجال الذين ينظرون للكاميرا باسمين، ولجثة لص يبدو عليه الهلع.. ثم أخرج خمس صور صغيرة فعرفت على الفور كنهها...

"هذه هي صور العلماء الذين اجتمعوا - منذ أيام معدودة - على فتح التابوت، وكلهم من خيرة علماء المصريات في (مصر) والعالم كله.. وكلهم هلكوا في ظروف غامضة...".

-.. وعلى وجوههم نفس التعبير الغامض..؟

- وعروقهم خاوية من الدم بنفس الأسلوب..

- ولهذا أبقيتم الأمر سرًا..؟

- إن إحداث ذعر عام لن يفيد أحدًا..

ثم إنه التفت إلى أحد الضباط الجالسين معنا.. لم يكن يرتدي ثيابًا عسكرية، لكن نظرته الحادة وكتفيه العريضتين وكل شيء فيه قال إنه رجل أمن عتيد.. إن ملامحهم لا تتغير أبدًا...

- الآن يحدثنا اللواء (مراد) عن الناحية الأمنية لما حدث..

هرش اللواء المذكور عنقه باحثًا عن الكلمات المناسبة.. ثم ابتسم وقال بصوت رصين:

- إن القصة كلها هي احتشاد فريد لعلامات الاستفهام.. فكل هؤلاء السادة اشتركوا في فحص المومياء حتى أن واحدًا منهم هو الذي التقط هذه الصور التي رأيتها الآن..، ثم بعد ذلك يعودون لديارهم.. فماذا يحدث؟.. في حالتين كان العالم راهب علم يعيش وحيدًا وفي الصباح تصل مدبرة المنزل أو شقيقة أحدهما لتجد المشهد الذي نتوقعه جميعًا، وفي الحالات الثلاث الأخرى كان العالم يدخل دورة المياه أو يبقى في الدار وحيدًا أو يصحو في الليل ليخرج للشرفة.. ثم تأتي الزوجة لتجد

نفس المشهد..، لا داعي طبعًا للقول إننا لم نجد آثار أقدام ولا بصمات ولا شهودًا على أي شيء.. لا آثار صراع ولا آثار سرقة..

- والطب الشرعي؟...

- لا شيء سوى ما قلناه.. لا آثار دماء في العروق، لكن لا ثقوب في العنق إذا كان هذا ما يدور في ذهنك..

- وهل كان العلماء يعانون أمراضًا ما؟

ابتسم في إنهاك.. وقال:

- بالطبع لابد من بعض السكر البولي وارتفاع ضغط الدم.. إلخ، وكلها أمراض عادية تلاحقنا جميعًا..، لكننا كنا نجد دائمًا سيدة مذهولة دامعة العينين تردد دون هوادة أن الفقيد كان في أحسن حال ولم يشك قط..

- إذن لم يصب واحد بالحمى الشهيرة المصاحبة للعنة الفراعنة؟..

- لست خبيرًا بالنواحي الطبية لكنني أجزم بأن الإجابة هي النفي...

ارتفع صوت د. (رمزي) ضاحكًا:

- إذن هأنتذا يا د. (رفعت) تتحدث أخيرًا عن لعنة الفراعنة..

تساءلت في حيرة وأنا أشعل لفافة تبغ:

- هل توجد طريقة أخرى للتفكير؟

- هل تعرف شيئًا عن لعنة الفراعنة هذه؟

نظرت له.. وشرد ذهني عبر الزمان والمكان...

* * *

هل تعرف شيئًا عن لعنة الفراعنة؟..

بالطبع.. أعرف...

ومن فينا لا يعرف...؟..

على أنني في الأيام السوداء التي تلت لقائي بأسطورة (دراكيولا) عام ١٩٥٩ كنت أختبئ في شقتي بالدقي في غرفة نومي التي رصع بابها بحزم الثوم، وكنت أتسلى بقراءة كل ما كتب عن لعنة الفراعنة..!

يا له من مزاج ويا لها من هواية..!

ومع أكواب الشاي الأسود ولفافات التبغ بدأت أدرك أن لهذه الأسطورة الشنيعة - أسطورة لعنة الفراعنة - أصلًا لابد أن يثير الجدل..

كيف بدأت هذه الأسطورة؟..

لقد هلك علماء آثار كثيرون لكن القصة لم تجد طريقها إلى الرأي العام إلا مع اكتشاف مقبرة (توت عنخ آمون) على يدي (كارتر) ولورد (كارنافون) عام ١٩٢٢... وبعد كفاح ستة أعوام كاملة..

"سيذبح الموت بجناحيه كل من يجرؤ على إزعاج مرقد الفرعون...".

"أنا حامي مقبرة الفرعون الذي يصد اللصوص مستعينًا بلهيب الصحراء".

هكذا أنذرتهما المقبرة بشكل لا يمكن إساءة فهمه...
لكنهما كانا مصرين...
مصرين إلى حد تجاهل كل هذه اللعنات..
مصرين إلى حد إخفاء هذه السطور بعيدًا عن عمال الحفر حتى لا يصابوا بالذعر..
كانت المشكلة مع (توت عنخ آمون) هي أنه مات صغيرًا جدًا.. أصغر سنًا من أن يحسن حماية مقبرته بنفسه، ومن ثم تولى الكهنة هذه المهمة مستعملين أفضل ما لديهم من (تقنيات) سحرية وأرقي ما وصلته (تكنولوجيا) حماية المقابر في ذلك العصر الغابر...
هل تعرف شيئًا عن لعنة الفراعنة؟..
بالطبع أعرف...
أعرف أن ثلاثة عشر شخصًا ممن فتحوا المقبرة في احتفال رسمي قد هلكوا.. وكان أولهم هو اللورد (كارنافون) نفسه الذي بدأ يشعر بارتفاع مريب في درجة الحرارة مع رجفة قوية وظل الأطباء حائرين.. هل هي الملاريا؟ أم تسمم دموي؟.. أم هو...؟
وفي منتصف الليل توفي اللورد في القاهرة.. والغريب أن التيار الكهربي قد قطع في جميع أنحاء القاهرة دون تفسير واضح في ذات لحظة الوفاة... وبعد ذلك بدأ منجل الموت يحصد رؤوس من دنسوا المقبرة دون أن يترك تفسيرًا واضحًا لوفاتهم...
دائما تكون هناك تلك الحمى التي تحير الأطباء ثم الموت الذي يلي زيارة المقبرة مباشرة مما لا يدع مجالًا واسعًا لقوانين الصدفة...
وها هو ذا سكرتير (كارتر) الشاب يموت دون تفسير واضح.. من ثم ينتحر أبوه حزنًا عليه.. وفي أثناء تشييع جنازته يدوس الحصان الذي يجر عربة التابوت طفلًا صغيرًا فيقتله...!!
هل تعرف لعنة الفراعنة؟..
حتمًا أعرفها...
حتى ولو لم أكن وقتها أعرف ما سيحدث بعد سنوات أربع للعالم الإنجليزي (والتر إيمري) الذي سيجد تمثالًا لأوزيريس في أثناء بحثه في (سقارة) عن مقبرة المهندس الفرعوني العبقري (إمنحتب).. وفي نفس الليلة يموت دون تفسير واضح أمام عيني مساعده المصري..، لكني - بالتأكيد - أعرف ما أصاب عالم المصريات (شامبليون) الذي فك رموز اللغة الهيروغليفية وتوفي في عمر الزهور دون تفسير بمجرد عودته من مصر...
وأعرف أن الطبيب العظيم (تيودور بلهارس) مكتشف دودة البلهارسيا، قد توفي بحمى عجيبة بعد يومين من زيارته للأقصر مع زوجة الدوق (إرنست الأول)..، وأعرف عشرات القصص المشابهة وكلها لشخصيات تلقي حتفها من جراء حمى مفاجئة مع هذيان ورجفة.. على حين يردد كهنة (آمون) في خبث:
- "أفق من إغمائك فإنك ستهزم الجميع.. لقد انتصر (بتاح) على خصومك فلا وجود لهم...".
ثم هلك الدكتور (دوجلاس ديري) والكيميائي (ألفيريد لوكاس) بعد قيامهما بتشريح جثة الفرعون الذي توفي منذ ٣٣٠٠ سنة..
هل تعرف لعنة الفراعنة..؟
بالتأكيد أعرفها...

* * *

ابتلعت ريقي ونظرت للدكتور (رمزي) هنيهة.. ثم غمغمت:
-.. سمعت الكثير عنها..
فرك يديه في مرح وهتف:
- إننا بصدد نمط جديد منها.. فيا له من مجد!.
- وماذا تريدون منى؟
- يا له من سؤال!
وانفجر ضاحكًا حتى دمعت عيناه وأنزل النظارة من على مقدمة رأسه ليتمكن من القراءة بشكل أفضل، وقال وهو يتأمل الملف المفتوح أمامه:
- نريد منك أن تنفي أو تثبت وجود مرض معد في هذه المومياء.. مرض يجفف الدماء في العروق ويحدث حالة ذعر وقتية...
نظر لي الأستاذ (محمد رجب) في فضول وتساءل:
- هل يوجد في تاريخ الطب مرض مماثل؟...
نظرت له ولم أرد.. عاودني الشرود من جديد...

* * *

منذ خمس سنوات كنت هناك...
في المؤتمر الذي عقده الدكتور (عز الدين طه) الأستاذ بجامعة القاهرة، ولم يكن يعرفني، لكنني كنت بين الجالسين أرهف السمع لنتائج بحث طويل مرهق قام به ذلك العالم الجليل بحثًا عن سر لعنة الفراعنة..، وكان يؤكد أن فطر الـ (أسبرجيللاس نجرا) الذي يعيش ويتكاثر بحرية تامة في المقابر الفرعونية ويصيب كل من يتعاملون في البرديات.. هذا الفطر كان هو السبب في رأيه وراء عدد لا بأس به من وفيات علماء الآثار...
كنت هناك..، وقد راقت لي دقته العلمية وهنأته بعد المؤتمر ووعدته بزيارات عدة لنناقش الموضوع أكثر. ولم أكن أعرف أنها المرة الأخيرة.
لقد توفي إلى رحمة الله في حادث سيارة مروع بعد المؤتمر بوقت قصير..
ويظل السؤال بلا جواب..
تحدث العلماء عن الفطريات وعن السموم التي - لربما - نثرها الفراعنة في مقابرهم، وعن الباكتيريا التي تنشط فوق جلد المومياوات المتحلل.. وعن الإشعاعات النووية الناجمة عن طبقة يورانيوم استخدمها الكهنة لدهان المقابر.. وعن الأشعة الكونية التي نشطوها لحماية مقابرهم...
لكن الباب ظل مغلقًا يثير الرعب في القلوب لأنه ما من إنسان جرؤ على تهشيمه وما من إنسان وجد مفتاحه.. ولأنه...

* * *

"ما من مرض مماثل على قدر علمي..".

قال لي د. (رمزي) في شيء من الجفاء..
- لكنك ستبحث عنه طبعًا..
- هذا هو العلم.. لا تعليمات مسبقة ولا تحيزات، التجريب هو المقياس الوحيد.. لقد كان العلماء في الماضي يجدون حلًا لكل مشاكل الكون في ثوان... وإن آراء (جالينوس) و(أرسطو) لكافية للإجابة على كل سؤال تقريبًا برغم أنها خطأ كلها أو أكثرها..، أما وقد بدأ عصر نهضة العقل وطرق التفكير العلمي المحكمة، فإن ما نعرفه أقل بكثير لكنه دقيق وصائب..
قال د. (رمزي) مجاملًا:
- إن العلم الحديث هو الحقيقة المخيبة للآمال.. في حين كان العلم القديم هو الخيال الممتع..، إنه لشيء محزن أن يعرف المرء أن النحاس لا يتحول الذهب لكنها الحقيقة المحبطة...
- لكن العلم الحديث يعدك بأن تفعل ذلك يومًا إذا كان عندك مدفع ذري متقدم..
شرد ذهنه مدة ثانية.. ثم عاد يفرك يديه:
- فلنعد لموضوعنا..
ونظر للجالسين ليرى رد فعلهم إزاء ما يطلبه مني:
- هل ستفحص المومياء..؟...
بماذا أجيبه؟..
إن هؤلاء السادة ينتظرون ردي فلا تبخلوا علي برأيكم.. هل أفحصها؟.. حسن!
كنت سأقترح عليكم شيئًا كهذا.. إنني لا أتمتع بأية شجاعة.. كل ما هنالك هو أنني فضولي.. فضولي أكثر من اللازم...
يقول الإنجليز إن الفضول قد قتل القط.. ولم أكن أعرف مدى صدق هذه المقولة حتى هذه اللحظة.. ولم أتصور أبدًا أنني قط عجوز...
كنت - كما أقول لكم في كل قصة - ساذجًا.. ساذجًا إلى حد لا يصدق.

* * *

٣ - الباب المغلق..

لماذا قبلت؟

لأن هناك شيئًا اسمه الفضول..، وشيئًا اسمه الحرج من الظهور بمظهر الجبناء، وشيئًا اسمه المسئولية العلمية، وشيئًا اسمه: عمل الشيء لأنك لن تثق أبدًا فيمن يفعله غيرك، ولن ترتاح لاستنتاجاته..

أنا أعرف نفسي.. وعلى خلاف الآخرين لن أموت بهذه البساطة، وإذا أنا هلكت لكان ذلك دليلًا لا يدحض على وجود لعنة الفراعنة.. ذلك الدليل الذي لن أثق فيه كثيرًا إذا ما كان المتوفي واحدًا آخر..!

أنتم تفهمونني.. أليس كذلك؟

* * *

صبيحة اليوم الحادي والعشرين من يناير...

اقف في ذلك المخزن الذي أعدوه لي جوار الأحمق الوحيد الذي قبل أن يساعدني في هذه المهمة.. الأستاذ (محمد رجب)، بالطبع كان هناك عدد لا بأس به من الأشخاص المهمين ينتظرون بالخارج، وكان هناك مصور شاب اسمه (نادر) يحمل كاميرا تصوير سينمائي صغيرة، ويقف على بعد أمتار من موضعنا ليصور (الجراحة) كاملة..

أضأت الكشاف القوي الذي أعدوه لنا.. ثم بدأت الإجراءات الاحتياطية التي أعددت لها في صبر...

قمت بالدوران حول التابوت بعداد (جايجر) للتأكد من عدم وجود اشعاعات نووية (وهو احتمال وارد)..

ثم قمت بتشغيل جهاز شفط الغبار حتى لا يتسرب شيء ما إلى رئتي في أثناء الفحص..

بعد ذلك ارتديت قفازين ووضعت قناعًا لا كأقنعة الجراحين ولكن من الأقنعة المضادة للغازات، وبهذا لم يبق سوى شيء واحد لم أضع له حسابًا بعد.. السحر الأسود.. سحر الكهنة...

وحتى في هذا الصدد تلوت بعض آيات قرآنية..

وبمجرد أن فرغت شعرت بالثقة تفعم روحي..

* * *



بعد ذلك ارتديت قفازين ووضعت قناعًا لا كأقنعة الجراحين ولكن

من الأقنعة المضادة للغازات ..

في تؤدة أزحنا غطاء التابوت..

كان من سبقونا قد قاموا بانتزاع الزخارف المذهبة الخارجية، لهذا كان من السهل أن نرى مومياء الملك لا تسترها سوى لفائف حريرية وقناع ذهبي شبيه بقناع (توت عنخ أمون) فيما عدا أن ملامحه كانت تفتقر للبراءة والسلام اللذين تعكسهما ملامح هذا الأخير..

وببطء شديد تناولت المبضع وقمت بعمل شق صغير في طبقات الكفن، ثم شرعنا نزيح طبقاته المتآكلة جانبًا..

كانت مهمة بطيئة وقذرة، لكننا قمنا بها عاثرين – كالعادة – على عشرات الحلي والمجوهرات بين طيات القماش، مع عشرات التعاويذ لإله الشر عند الفراعنة..، أما ما أثار انتباهي فهو نوع من البلورات العجيبة متناثرة بلا نظام بين طيات النسيج.. بلورات دقيقة جدًا كرقائق الثلج.. وأنا لا أفهم شيئًا في الأحجار الكريمة لكني أعتقد أن هذه البلورات لا تمت لها بصلة..

رفعت عينا متسائلة نحو شريكي فهز رأسه بما يعني أنه لا يفهم ما هي بالضبط..، ومن إصبعين ليمسك واحدة منها متأملًا..

التقطت بعض هذه البلورات بالجفت الجراحي ووضعتها في وريقة صغيرة جدًا لأحللها فيما بعد، أما الآن فالجزء الأكثر تعقيدًا ينتظرنا ألا وهو انتزاع اللفائف عن جذع المومياء..

وجه (محمد رجب) يزداد اصفرارًا.. يا لك من أحمق!..

كان الجلد هشًا رمادي اللون.. وقد قمت بأخذ عينة منه قمت بترقيمها.. ثم عدة عينات من الأوعية الدموية المتخثرة تحته، وقمت بعمل عدة مسحات باكتريولوجية على أنابيب اختبار معقمة بحثًا عن تلوث باكتيري..

- لا توجد أحشاء!

قلتها في حيرة.. فقال وهو يغالب الغثيان والعرق يحتشد على جبينه::

- كان الفراعنة ينتزعون الأحشاء لأنها سريعة الفساد و.. ويضعونها في ما.. يسمى... الا.. الأوعية الكانوبية..، والقلب كانوا ينتـ.. ينتزعونه ويضـ.. يضعون مكانه جعرانًا مقـ.. مقدسًا.. هاااه!..

ثم استدرك في حيرة:

- الغريب هنا أن هذه المومياء من.. من الأسرة السادسة، وعادة انتزا.. انتزاع الأحشاء.. اء.. تعود.. هاه.. للأسرة الـ.. ثانية عشرة..

- إذن كان المرحوم سابقًا لعصره..

هنا سمعت صوت السقوط...

فعلها الأحمق!.. لن أفهم أبدًا كيف يسمح إنسان ناضج لنفسه بأن يفقد الوعي؟!.. خاصة في لحظات هامة كهذه...

انفتح الباب واندفع د. (رمزي) ومعه اثنان آخران، وقد بدا عليهما الذعر وإن لم يجرؤوا على الاقتراب أكثر..، وكذا فعل المصور..، وسألوني بصوت واحد:

- هل مات؟!..

قلت في لا مبالاة وأنا أضع عيناتي في حقيبتي:

- بالطبع لا.. كل ما في الأمر أن عصبه (الحائر) يعمل بكفاءة غير عادية...

- هل نطلب الإسعاف إذن؟.
- لا داعي لذلك.. سيفيق حالًا، وإذا لم يفق فإن حقنة (أتروبين) واحدة ستؤدي الغرض...
ثم إنني بدأت أعيد تغطية المومياء وأعدت التعاويذ والمجوهرات إلى مكانها. ودعوت المصور الشاب كي يساعدني في تغطية التابوت..، ولما كنت قد أغلقت حقيبتي دسست الوريقة الصغيرة في علبة سجائري المصنوعة من الورق المقوى، وانتزعت القفازين فألقيت بهما في دلو من (الفورمالين) مع أدواتي الجراحية، ثم نهضت نحو ذلك الأبله المغشي عليه وبدأت ألطم خزيه وأقرصهما مرارًا حتى فتح عينيه..
وخرجت إلى مكتب د. (رمزي) حاملًا الحقيبة.. أشعلت لفافة تبغ.. ثم طلبت فنجان قهوة بلا سكر، وبدأت أحكي له ما وجدناه.. وقد أبدى اهتمامًا غير عادي بموضوع عدم وجود أحشاء في مومياء من الأسرة السادسة (هؤلاء القوم يهتمون بتفاهات لا تنتهي)..
- إن كل ما يحيط بهذا الفرعون غريب وغير معتاد..
- وماذا عن التعاويذ الكثيرة التي وجدناها..؟
- كالعادة.. كلها تتحدث عن خراب بيت من يجرؤ على إقلاق راحة الفرعون..، الغريب هنا أنها جميعًا تحمل صور (ست) إله الشر عند الفراعنة، مع أنه من المعتاد أن تجد الكثير من صور (أوزيريس)..
وهنا دخل (محمد) الغرفة مترنحًا وقد بدا عليه الإعياء الشديد، جلس على مقعد في الركن يشرب المشروب الغازي الذي أحضروه له..
- أنت مرهف الحس يا صديقي..
- وأنت معدومه..!
- شكرًا...
قال د..(رمزي) وهو يدير قرص الهاتف:
- متى نتلقى ردك؟.
- ليس قبل أسبوعين.. سأقوم بتحليل دمه، وأنسجته.. ثم أضع مزارعي في ظروف هوائية ولا هوائية.. ولابد من انتظار نمو الباكتيريا، ثم إن هناك أبحاثًا معقدة لمحاولة إنماء جراثيم الفطريات...
قال وهو يضع السماعة على أذنه منتظرًا رد الطرف الآخر:
- كما قلنا لك.. السرية مطلقة.. سنضع معامل وزارة الصحة تحت تصرفك حتى لا يكون هناك مجال للأسئلة الفضولية في الجامعة.. و.. آلو!.. دكتور (شاكر)؟.. كيف حالك؟.. ستصلك العينات بعد ساعة.. شكرًا..
ووضع السماعة.. ونظر لي:
- لم نعرف بعد رأيك المجرد في الأمر...
- ليس لي رأي.. وحتى هذه اللحظة لا يعرف العلم مرضًا يسبب ما حدث لعلمائكم وذلك اللص..
- ربما هو مرض جديد؟
- ربما.. وبذلك يكون لنا شرف نشر هذا المرض بعد أن ظل خافيًا كل هذه القرون..
ابتسم د. (رمزي) في غموض.. وقال ضاغطًا على كل حرف من كلامه:

- منذ اللحظة أنت المرشح رقم واحد لتكون الضحية التالية لهذه المومياء يا د. (رفعت) ولو سارت الأمور كما أتوقع فلن نجدك في عالمنا هذا بعد أسبوعين.. هل يثير هذا رعبك؟!

- إن هي إلا ميتة واحدة محددة التاريخ والأسلوب.. فإذا لم تحن ساعتي فلن تستطيع مومياوات الأسر كلها أن تؤذيني حتى ولو كانت أحشاؤها موجودة...

ضاقت عيناه أكثر.. وهمس:

- أنت مصيب لكنك تنسى ما هو أشد قسوة من الموت.. الرعب!.. الرعب غير المبرر الذي يحيل حياتك جحيمًا ويجعلك تتمنى الموت ولا تناله..

وصارت عيناه عيني ثعلب وهو يردد:

-.. الرعب يا صديقي.. الرعب!

* * *

مثلما يحدث في الأفلام السينمائية ظل صدى عبارته يتردد في دهاليز عقلي فيما أنا أقود سيارتي متجهًا إلى الإسكندرية..

الرعب يا صديقي الرعب!...

كان اليوم هو الخميس.. موعد زيارتي الأسبوعية لـ (هويدا) خطيبتي التعسة، وكانت أضواء السيارات تتسابق في مرآتي.. والأزرق الحزين يزحف ببطء منذرًا بحلول ليل الشتاء المبكر..، والهواء الرطب المكهرب يبشر بهطول أمطار رعدية.. و(أم كلثوم) تغنى في المذياع..

الرعب يا صديقي.. الرعب!..

- أيها الحمار!

دوت الصيحة من سائق عربة كدت أصدمها وأنا انحرف لليمين.. كنت شارد الذهن تمامًا إلا أن صيحته أعادتني لعالم الواقع.. ولم يكن هناك حمار آخر سواي بالطبع ؛ لذا تمالكت أعصابي وقبضت بحزم أكبر على عجلة القيادة، يجب ألا أدع مجالًا للمصادفة كي تربط بين مصرعي وبين تدنيس تابوت الفرعون (أخيروم)..، لن أنتهي كسطر آخر يضاف إلى الكتب التي تتحدث عن لعنة الفراعنة.. ولن أتحول إلى علامة استفهام أخرى تثير حيرة عالم يأتي بعد سنوات...

إذا مت فليكن ذلك لأن لعنة (أخيروم) تلاحقني وليس لأنني حمار كما يزعم ذلك السائق غير المتحضر..

الرعب يا صديقي.. الرعب!..

تأملت الحقول المظلمة على الجانبين وخطر لي أن سفري بالسيارة كان مرهقًا أكثر من اللازم.. ما هي مشكلة القطار؟.. (كفر الزيات).. (إيتاي البارود).. لن أنام.. إنني مرهق وقد كان يومي حافلًا بحق.. لكني سأظل متيقظًا...

يحتاج السيد (أخيروم) إلى قدرة هائلة كي يلاحقني في رحلتي السريعة هذه.. إن هذه الفكرة تمنحني اطمئنانًا حقيقيًا...

(إسكندرية) أخيرًا..!.. لقد وصلت..

عروس البحر التي أنهكني عشقها..

* * *

"(رفعت).. ألا تلاحظ أنك للمرة الألف تتكلم عن مصاصي الدماء؟".

قالتها (هويدا) في شيء من الاستنكار لي ونحن جالسان في تلك (الكافتيريا) الدافئة نصغي لموسيقا (التانجو) ونحتسي الكاكاو..

- وماذا في ذلك؟.. إن الحديث عن مصاصي الدماء مسل و..

- لكنها المرة الألف...!.

قالتها.. وابتسمت في شيء من الحنان.. ومضت تفسر موقفها:

- ألا ترى أن كل هذا يفوق المألوف..؟..

خطيب يأخذ خطيبته لأماكن شاعرية كي يحدثها عن مومياء (دراكيولا) وإصبع الرجل الذئب والنرويجي الذي التهمة ذلك الوحش الإسكتلندي بقضمة واحدة..

- لكنها قصص شيقة وأنا أحبها..

-.. والأسبوع الماضي حدثتني عن الموتى الذين يغادرون قبورهم في (جامايكا) وعن حارس الكهوف الذي يهشم أعناق ضحاياه.. و..

- إنها أجمل ذكرياتي..

صرخت بصوت أثار انتباه الجالسين جميعًا وارسل الدم حارًا إلى أذني..

- لكني أكرهها!.. وكلها تؤرق منامي..!.

اشعلت لفافة تبغ في عصبية وكدت أوجه لها بعض كلمات قاسية ثم عدلت عن ذلك، واكتفيت بأن دمدمت وأنا أدفن وجهي في قدح الكاكاو:

- الحقيقة هي أنك مللت وجودي..

كنت أوشك أن أحكي لها مغامرة تشريح المومياء التي خضتها صباح اليوم لأثير إعجابها، لكنها سكبت الماء البارد فوق نيران حماستي، من السهل أن يمقت الرجل تلك الفتاة التي لا تهتم بما يهتم هو به..

قالت في شيء من الرقة:

- دخنت كثيرًا..

- هكذا أنا..

مدت يدها إلى علبة سجائري وألقتها في حقيبتها أمام نظراتي المحتجة.. ذلك التصرف الذي لابد أن تمارسه أية خطيبة مع خطيبها حتى ولو كانت تحب رائحة التبغ وحتى لو كانت مدمنة تدخين.. لابد أن تقول ذات النصيحة التي صارت مقدسة عند أية خطيبة..

- سأكون حارسة صحتك.. ولن تجرؤ على الاعتراض..

ثم هتفت في مرح:

- والآن دعنا نذهب إلى السينما...

* * *

شرع الهنود الحمر يطلقون صرخاتهم المفزعة في حين وقف المأمور (جيمس ستيوارت) ثابت الجنان يفرغ رصاص بندقيته في صدورهم..، وبعد عدة طلقات بدا واضحًا أنه قتل كل شخص في الفيلم بما فيه المخرج نفسه..

تثاءبت في سأم، وعدت أشاهد الأحداث بنصف عين حين سمعتها تهمس في مسمعي:

- ليتك تكون مثله..!

- وأقتل الهنود؟..

- بل تكون شجاعًا وسيمًا مثله..

كدت أرد عليها ردًا يبكيها.. ثم وجدت أن التسامح شيمة الكرماء فقلت:

- سأحاول.. أعدك بذلك.. ولكن غدًا إن شاء لله..

ومضيت أتابع الأحداث في تعاسة...

أدرت وجهي لأرى الجالسين حولنا..، وكانوا قلة لأننا المخبولان الوحيدان اللذان يدخلان السينما في هذا الطقس المنذر بعاصفة..، وفي الصف الواقع خلفنا كان هناك رجل يجلس وحده ومعالم وجهة غير واضحة في الظلام..

ثمة شيء غريب في هذا الرجل..

برغم الظلام شبه الدامس كنت أرى حدود وجهه واتجاه نظراته.. هذا الرجل لم يكن ينظر للشاشة بتاتًا، بل كان يرمقنا بتركيز غير عادي..!

قلت لنفسي إنه فضولي آخر يهمه اختلاس النظر لرجل وامرأة يتهامسان، وعدت أتابع أحداث الفيلم شارد الذهن.. ثم أدرت راسي نحوه بغتة..

كان يرمقنا بنفس الإصرار والتركيز..!..



هذا الرجل لم يكن ينظر للشاشة نهائياً ، بل كان يرمقنا بتركيز غير عادى ..

إن هذا غريب.. غريب حقًا..
إما أنني واهم - من فعل اعصابي المرهقة - وإما أنه وقح إلى درجة لا توصف، أو هو مكلف بمراقبتنا من شخص لا أعرفه.. أو..
انفجر مخزن الديناميت - على الشاشة - وتناثر الهنود في الهواء..
انتهزت هذه الفرصة وأدرت رأسي سريعًا تجاه الرجل لأرى وجهه في الوميض المنبعث من الشاشة...
فلم أجده...!..
متى انصرف؟.. كيف لم أشعر به؟.. وكيف غادر مقعده بهذه السرعة وتحسس موطئ قدميه في الظلام؟.. هناك شيء غير مريح في كل هذا...
- ماذا بك؟
قالتها وهي تناولني بعض (الكاراميل).. فلم أجب..
- أنت تغار من (جيمس ستيوارت)؟.
يا لك من حمقاء!!.. ما زالت تذكر الموضوع وتحسب شرودي دليلًا على الجرح العميق الذي أصابني حين تخلت عني من أجل (جيمس ستيوارت)...، لهذا قلت لها وأنا أمتص قطعة الحلوى:
- أنا أغار من المأمور وليس من الممثل!..
- وما الفارق؟
- الثاني يتظاهر بالشجاعة لكني واثق من انه يموت خوفًا لو أن فارًا متحمسًا داعب قدمه..
ضحكت وضحكت، وناولتني لوحًا من الشوكولاتة وعادت تتابع الفيلم في شغف، في حين ذبت أنا في مستنقع تشاؤمي الآسن مفكرًا فيما عساه يحدث في الأيام القادمة..
وحين نظرت للوراء وجدت ذلك الرجل جالسًا في نفس المقعد..!
- تعالي ننصرف...
- ولكن.. ماذا هنالك؟.. إنه لم ينقذ المغنية بعد..
- بالتأكيد سينقذها.. المهم الآن أن ننصرف لأنني لا ارتاح كثيرًا لهذا الرجل الجالس خلفنا..
نظرت في خفة إلى الوراء.. ثم سألتني بحيرة:
- عن أي رجل تتحدث؟.. لا أحد في القاعة سوانا..!!

* * *

على سلم دارها صافحتها.. فشكرتني على الأمسية ودعتني كي اصعد قليلًا لأشرب قدحًا من الشاي وأحيي والدتها - حماتي المقبلة - فاعتذرت لها بأن الوقت متأخر، وأنني يجب أن أعود للقاهرة في ساعة مبكرة من صباح الجمعة.. ووعدتها بأمسية أفضل في الأسبوع القادم..
وما إن سمعت قرعات كعبيها المنتظمة على درجات السلم حتى واربت باب العمارة وعدت لسيارتي، متجهًا إلى ذلك (البنسيون) الذي اعتدت أن أقضي فيه ليالي الخميس منذ خطبتها..، إن إقامتنا متباعدين لمشكلة، لكنني كنت آمل بعد الزواج أن تنتقل لتعيش معي في القاهرة خاصة وأمها

العجوز تنعم بصحة لا بأس بها، ولن تكون ثمة مشكلة في تركها بالإسكندرية قريبة من ابنتها الأخرى (سهام) و(عادل) صديقي الذي أقحمني في كل هذا...
وفي ساعة مبكرة من صباح الجمعة عدت أشق طريقي عائدًا إلى القاهرة..

* * *

وكأنما كان بانتظاري...
ما إن فتحت باب الشقة حتي دوى رنين الهاتف، ذلك الرنين المتقطع المتحمس الذي يدل على أن صاحبه يموت قلقًا..!
رفعت السماعة بتؤدة وأخبرت الطرف الآخر أنه آلو..!
-د. (رفعت)!.. أخيرًا!..
كان هذا الصوت مألوفًا لكني لم أعرف في البدء من هو..
- أنا (رمزي).. (رمزي حبيب)..
- آه!.. كيف حالك يا دكتور؟
- وأين كنت طيلة الليل؟!
- في سفر.. ولكن ماذا حدث؟
هل أنا واهم أم أن هذا الصمت متعمد منه؟.. لحظات مضت كالدهر لا أسمع سوى أنفاسه، ومن بعد صوت تلاوة قرآن الجمعة استعدادًا للصلاة..
- د. (رمزي).. ماذا حدث؟
تنهد في شيء من الحرج، وقال:
- الأستاذ محمد رجب..!.
قلت بصوت كالبكاء وقد أدركت ما هنالك:
- مات؟..
- نفس الوفاة الغامضة.. خرجت زوجته مع أطفاله للنزهة، وحين عادت كان جالسًا أمام التليفزيون في نفس الوضع الذي تركته فيه ولكن...
أنا لا أفهم شيئًا.. لا أفهم حرفًا...
بنفس الأسلوب وبهذه السرعة؟.. ذلك الشاب المتحمس الذي كان يثرثر أمس عن (أخيروم الأول) ويتهمني بانعدام الحس.. اليوم هو جثة شاخصة البصر جافة الدماء..، ود. (رمزي) ما زال يتكلم:
-... شرعي.. وكالعادة لا شيء...
ثم سأل بشيء من التوتر:
- هل أنت مصغ...؟
- بالتأكيد...
- إذن أتوسل إليك أن تكون حذرًا.. لا تبق وحيدًا لحظة،.. لم لا تأتي لتمضية الأيام القادمة معي..؟
- شكرًا لك.. لكن الحذر لا يمنع القدر..

ثم إنني وضعت السماعة.. واتجهت إلى المطبخ شارد الذهن، فأعددت لنفسي بعض القهوة، وكأي بيت مصري عريق في يوم الجمعة أشعلت بعض البخور ليعبق بخاره المحبب جو البيت..، ثم بدأت أستعد للصلاة في المسجد القريب حين دق جرس الهاتف اللعين مرة أخرى.. هذه المرة ذلك الرنين الطويل العنيد الذي يدل على مصيبة قادمة من محافظة أخرى...

- آلو...

صوت (عادل) الحازم يصرخ:

- أين أنت عليك اللعنة؟!

- يا لها من تحية لصديق..!

- أنا لا أمزح.. أين أخذت الفتاة؟!

- اية فتاة..؟

- (هويدا) يا أحمق..!.. (هويدا)..!.. لقد قضينا أسود ليالي حياتنا، وفي الفجر أرسلت عشرة من رجالى يبحثون عنك وعنها في كل مكان من المدينة دون جدوى..، وطلبتك ها هنا مرارًا.. أين هي يا (رفعت)؟.. (رفعت)!.. أجب عن سؤالي...

السماعة متدلية على الأرض وصوت (عادل) المعدني يكرر صراخه:

- أين هي يا (رفعت)؟.. (رفعت)؟!..

.....

* * *

الجزء الثاني

الفتاة

"إن التدقيق في شريك حياتك المقبل هام جدًا.. يجب أن تعرفي عاداته.. صداقاته.. أحلامه.. أسراره.. والأهم.. يجب أن تتأكدي من أنه لا تطارده مومياء فرعونية حانقة...".

٤ - بداية جديدة..

قالت (هويدا):
كان رقيقًا كالحلم.. غامضًا كالليل.. حزينًا كالغروب.. وكان يحبني..

* * *

في البدء قابلته عند شقيقتي (سهام) في دارها2، وكانت قد أخبرتني بعض الأشياء عنه، منها أنه في الأربعين من عمره وأنه صديق (عادل) زوجها منذ سني الصبا الأولى وأنه خارج من قصة حب فاشلة مع فتاة أسكتلندية حمقاء..

وهناك رأيته ودرست ملامحه - بالطبع دون أن يلاحظ ذلك – وكان على شيء من الوسامة، ليس قبيحًا وليس فاتنًا..، ثمة حزن عميق في عينيه الذابلتين خلف منظاره وتجاعيد مريرة على جانبي فمه وعلى جبينه الحكيم، وكان شعر راسه قد زال أو كاد مما أكسبه لمحة أبوية محببة للنفس..

بالطبع لم يكن أبدًا فارس أحلام ولن يكونه ابدًا..

لكنه زوج.. وزوج مخلص بطبعه..

وبلمحة لطيفة دعاه (عادل) إلى اصطحابي لمنزلي، وهي الدعوة التي قبلها عن طيب خاطر..، طيلة طريق العودة للدار كان صامتًا لكني كنت أشعر بألف قصيدة وألف عبارة غزل وألف حلم يصطرع على لسانه، وكان يدخن بشراهة حقة..

لم أدعه يوصلني للدار نفسها بل لمدخل الشارع، لأنني خجلت من أن يرى بيئتي المتواضعة.. على الأقل ليس في المرة الأولى..

وبعد هذا قابلته في معرض لمثال قاهري اسمه (عزت)، والحق أقول إنني لم أكن أعرف مطلقًا أن هذا الـ (عزت) هو جاره، ولقد دعاني (عادل) إلى حضور المعرض معه وأخبرني أننا حتمًا ملاقيان (رفعت) هناك..



وبعد هذا قابلته فى معرض لمثال قاهرى اسمه (عزت) ..

لست مهتمة يا صديقتي..، صدقيني يا أختاه..، لا أريد شيئًا منك سوى أن تساعديني، في التزين، وأن تقرضيني أفضل أثوابك وأن تلاحظي بعين منتقدة كل صغيرة وكبيرة في مظهري...

أنا لا أعبأ به يا بنات..، حتى وهو يقطع حديثه مع المثال لتلتمع عيناه انبهارًا.. ويصافح (عادل) في حماس، ويبدأ في الثرثرة عن (مايكل أنجلو) و(أوجست رودان)، ولم أكن أهتم بموضوع حديثه أبدًا لكنني أحسنت الإصغاء واستمتعت بكل حرف...

ومنذ هذه اللحظة أدركت أننا سنتزوج..

حذرني (عادل) - وياله من أخ كريم - من أن (رفعت) هذا غريب الأطوار كثير الأسفار.. وأن له اهتمامًا حميمًا بقصص الرعب التي كانت أمهاتنا تحكيها لنا ونحن بعد أطفال..

لهذا لم أقلق كثيرًا حين تركني وسافر للولايات المتحدة..

ولم تفزعني رحلته المفاجئة إلى اليونان...

ولم تثر حفيظتي جولته في ليبيا...

ما دامت خطاباته الرقيقة وبطاقاته تصلني من كل مكان يذهب إليه..

الحق أقول يا صديقاتي إنه تبدّل كثيرًا...

ازدادت خصلات الشعر الأشيب في رأسه، وتضاعفت تجاعيده، وانعكست نظرة عجيبة في عينيه بدلًا من نظرة الحزن العتيدة.. نظرة رعب.. نظرة قط حبيس يتوسل كي نفتح له الباب..

وقالت لي شقيقتي وهي تغرس بعض دبابيس الشعر في جدائلي:

- لقد حان الوقت..

- وقت ماذا؟

- لقد طالت القصة أكثر من اللازم..

- أية قصة..؟

- أسطورة العاشق المتردد..!

وشعرت شيئًا من الخشونة في يدها وهي تعتصر خصلات شعري.. فقلت:

- يبدو خائفًا من الارتباط..

قالت وهي تخرج من بين شفتيها دبوسًا آخر:

- إن الرجال أطفال كبار وهم لا يتزوجون أبدًا ما لم يطلب أحد ذلك منهم..

- وتريدين أن أطلب؟

قالت في دهاء:

- ضعيه أمام مفترق الطرق.. إما أن يطلب يدك وإما أن يكف عن إرسال الخطابات والتودد..

وقد كان يا أختاه..

لقد كانت ليلة شبيهة بالحلم في دار أختي يحف بنا أطفال وسيمو الوجوه كالملائكة، وخاتمه الذهبي يغفو - كالرضيع - حول إصبعي..

وبدأت أعرفه أكثر...

وبدأت زياراته تأخذ طابعًا منتظمًا..، في دارى التي لم أعد أرغب في ألا يراها، ورفقه بأمي العجوز الطيبة.. ومودته المهذبة...

شيء واحد ضايقني فيه..

هو لم يكن يحسن التعبير عن عواطفه، ولم يكن يملك سوى سيل لا ينتهي من القصص الشنيعة عن مومياء مصاص الدماء والنداهة، ورأس الشيطانة اليونانية التي تحيل البشر إلى رخام...

كنت أصغى له متظاهرة بالاهتمام...

لكن ما إن يجن الليل حتى تحتشد الأشباح في غرفة نومي، وأمضي الليل جالسة في الفراش متكورة على نفسي ألعنه في سري..

لقد صارت هذه القصص جزءًا أساسيًا من شخصيته..

حتى أنني - في أوقات عدة - كنت أشعر أنه هو نفسه كائن شيطاني من تلك الكائنات التي يتحدث عنها..

أما الشيء الآخر الذي ضايقني فهو سخريته المريرة..

كان يسخر من كل شيء، ويرى في كل موقف مثير تكرارًا لا يخلو من الإملال.. لهذا كنت اسأله في حيرة:

- لماذا تتعامل مع الناس كأنهم دعابة سخيفة سمعتها مرارًا؟

- لأنهم كذلك!

ثم يشعل لفافة تبغ أخرى.. ويقول:

- كل كلامهم قيل من قبل، وكل حوادث حياتهم وقعت من قبل... لكنهم نسوا...

فيما عدا ذلك...

أعتقد أن (رفعت إسماعيل) لم يكن بهذا السوء...

* * *

حين صارحته برأيي في كلامه عن مصاصي الدماء، لم يبد سعيدًا جدًا، لأنه كان يحسب بداهة أنني أحب هذا الحديث..

كنا جالسين في الكافتيريا نحسو الكاكاو.. بينما لفافة التبغ التي لا تفارقه تبعث سمومها ما بين أصابعه، لهذا رأيت أن أتخذ خطوة إيجابية ما..

مددت يدي إلى علبة سجائره وأخفيتها في حقيبتي.. وقلت بلهجة مرحة محاولة تهدئة مناخ التوتر:

- سأكون حارسة صحتك.. ولن تجرؤ على الاعتراض..

وإزاء نظرته النارية نحوي اقترحت عليه أن نذهب للسينما...

لقد بدا لي ذلك شاعريًا وسط العواصف ونذائر الأمطار أن نجوب الدروب معًا، وأن نجلس وحيدين في قاعة السينما الدافئة نرمق الأحلام الملونة على الشاشة في حين يسود الزمهرير الشوارع..

كان الفيلم من بطولة (جيمس ستيوارت) ويتحدث عن مأمور قرية شجاع وسيم يحب مطربة حسناء، لكن الهنود الحمر يخطفونها.. من ثم يصمم على استعادتها منهم ويطلق الكثير من الرصاص من أجلها..

لكم تمنيت لو أن (رفعت) يملك عُشر.. مجرد عُشر قوة وشجاعة ووسامة ورقة ذلك المأمور، لكنه ازداد تعاسة حين صارحته بهذه الأمنية..

كان كثير الالتفات إلى الخلف لسبب لا أدريه، وفجاه دعاني للنهوض لننصرف، مما أثار دهشتي.. لم أتصور أن تبلغ به الغيرة من بطل الفيلم هذا الحد المروع!..، كنت أحسبه أنضج من ذلك...

- ولكن ماذا هنالك.. انه لم ينقذ المغنية بعد..

قال كلامًا لا أفهمه عن رجل يضايقه في الصف الخلفي، وبالطبع لم أجد أحدًا في ذلك الصف ولا في قاعة السينما كلها..

وهكذا واصلنا مشاهدة الفيلم وأنا شاردة الذهن أتساءل عما دهاه...

* * *

كان البرد ينخر عظامنا حين مضينا عائدين في الدروب المظلمة إلى داري، وكان هو متعكر المزاج إلى حد لا يصدق..

إلا أنه لم ينس - في تحد واضح لي - أن يبتاع علبة تبغ من بقال لم يغلق محله بعد في هذه الساعة المتأخرة من الليل..

وأمام باب العمارة حياني وتمنى لي أمسية طيبة..

- ألن تصعد قليلًا لتحسو بعض الشاي..؟

- نعم.. إن الوقت متأخر...

- على الأقل لتودع أمي...

- أبلغيها سلامي.. إن لدي من الأسباب ما يحتم سفري في التاسعة من صباح غد، وهو وقت مبكر جدًا بالنسبة ليوم الجمعة...

في حنان سألته:

- نفس البنسيون..؟

- لا يوجد غيره...

- أعدك أنك ستنعم بالاستقرار أيها العزيز.. قريبًا جدًا..

هز رأسه في رقة، ووقف على الباب ينتظرني حتى أصعد درجات السلم في ضوء المدخل الخافت، ثم لم أعد أراه فأدركت أنه انصرف...

* * *

تقع شقتي في الطابق الثالث، ولما كانت البناية من طراز قديم فإن الطوابق مرتفعة جدًا، وعدد الدرجات المتآكلة للدرج لا نهائي..

شرعت أعبث في حقيبتي باحثة عن المفتاح، ثم إنني رفعت رأسي ببطء لأرى... كان هناك رجل متشح بالظل يقف على قمة السلم عند الطابق الثالث وقد عقد يديه على صدره في صبر كأنه ينتظرني..!

من هو؟.. هل هو أحد الجيران؟.. مستحيل.. فليس الوقوف على سلم في منتصف الليل من ديدنهم..، وماذا يبتغي بالضبط؟..

لم أكن قادرة على رؤية وجهه الغارق في الظلال، لكن شيئًا حدثني أنني لا يجب أن أفعل.. رعب غامض غير مبرر سرى في عروقي وجعلني غير راغبة بأي حال في تمييز ملامح هذا الغريب...

كان قلبي يتواثب كالضفدع... هل أصعد وليكن ما يكون؟.. مستحيل...

هل أصرخ؟.. ربما يكون الأمر كله غير ذي أهمية، وعندئذ سأبدو للجيران جميعًا حمقاء إلى حد لا يصدق، وعلى كل حال فإن الصراخ سيذهب بالبقية الباقية من تعقلي...

إذن أهبط.

أهبط سريعًا لألحق ب (رفعت) وأدعوه إلى أن يصعد السلم معي...

شرعت أنزل الدرجات مسرعة محاولة الا أحطم كاحلي من جراء التواء كعب الحذاء العالي، ولم أجرؤ قط على رفع عيني لأرى ما إذا كان ذلك الغريب قد شرع يهبط السلم خلفي أم لا..

هواء الليل البارد، والشارع، والأضواء الخلفية الحمراء لسيارة (رفعت) إذ تبتعد إلى مكان لا يمكن أن يسمعني منه..!

يا لك من غبي يا (رفعت)!.. يا لك من معتوه..!..لماذا لم تصعد معي؟..

لم يبق أمامي سوى إيقاظ جارتنا (فتحية) المقيمة بالطابق الأول كي توقظ بدورها ابنها الشبيه بالغوريللا (هشام) كي يصعد معي (ليتفاهم) بطريقته مع ذلك السيد الذي لا يجد شيئًا أفضل يفعله سوى ترويع بنات الأسر الرقيقات...

إن (هشام) سيستمتع أيما استمتاع بضرب ذلك الوقح...

دخلت من مدخل البناية...

فوجدت نفس الهيكل المتشح بالظلام واقفًا ينتظرني.. في بئر السلم هذه المرة..!

* * *



فوجدت نفس الهيكل المشع بالظلام واقفًا ينتظرنى .. فى بئر السلم

هذه المرة ..!

٥ - الهرب إلى لا مكان..

"أفق من إغمائك فإنك ستهزم الجميع.. لقد انتصر (بتاح) على خصومك فلا وجود لهم..".

* * *

شرعت أجد السير بخطوات واسعة فوق الأسفلت..

كنت أستطيع الجري لكنني كنت أخشاه كما خشيت الصراخ من قبل، لأنه سيستهلك قواي الجسدية والعصبية ويشعرني بذعر حقيقي..

ضوء مصابيح الشارع الذابلة، وكلب أجرب يرمقني في حيرة، وبعض القطط المشعثة تكف عن الشجار فوق كومة من القمامة وعيونها الواسعة تتساءل عما هنالك..

ليتني كنت أستطيع أن أخبرها..

ولحسن الحظ كان البقال عند الناصية يوشك على إغلاق حانوته.. عم (جلال) العجوز الطيب الذي اشتريت منه أقراص النعناع وانا بعد طفلة.. وأشتري منه الحناء لشعري وأنا شابة..، البقال الذي ابتاع (رفعت) علبة التبغ من عنده منذ ربع ساعة..

دخلت الحانوت الآمن ممتقعة الوجه باردة الأطراف.. رائحة الجبن الرومي والزيتون والكحول.. ذلك الخليط المحبب للنفس، والوجه الباسم المجعد لذلك الرجل الطيب.

- عم (جلال)...

- هل ذهب الدكتور يا بنيتي؟..

- نـ.. نعم.. هل أجد عندك... مياهًا غازية..؟..

هز رأسه في حيرة:

- في هذا البرد؟.. ما دمت تريدين ذلك.. ولماذا جئت وحدك في ساعة كهذه...؟

- ابتلعت ريقي، وشرعت أحكي له مغامرتي القصيرة بصوت مرتجف.. وسياق مختل..، لكنه فهم فحوى القصة.. لذا احمر وجهه غضبًا وامسك السكين التي يقطع بها الجبن ملوحًا:

- سأوصلك لدارك.. ودعي إبن الـ (...) هذا يحاول أن يعترض طريقك، عندئذ لا يلومن إلا نفسه..!

- إنه آت بنفسه!!

هكذا قاطعته وأنا أشير إلى الشارع المظلم خارج دائرة الضوء..

صرخت في هستيريا وأنا أرى ذلك الظل المخيف يتقدم في تؤدة من الحانوت ويداه في جيبه.. فلم أتمالك الا أن أرتجف...

انتابت البقال العجوز حمى الشهامة فاندفع نحو القادم ملوحًا بالسكين.. وأمسك به من قفاه وهو يسبه أقذع السباب.. و..

- إنني أعرف كيف أتعامل مع أمثالك ممن يتسلون بإفزاع الأبرياء..

شرع الرجل يحاول التملص مرددًا أنه لا يفهم وأن هناك خطأ ما.. لكن البقال كان متحمسًا، وهنا بدأت ابتسامة تغزو وجهي:

- آ.. عم (جابر).. ليس هذا هو الرجل..!
- لكن الإجرام باد على وجهه!
- لم أر وجهه وهو آت.. أما الآن فأراه.. إنه زوج جارتنا.. وهو بالمناسبة مفتش تموين!..
شرع عم (جابر) يعتذر للرجل البريء الذي جاء ليشتري علبة تبغ من الحانوت الوحيد المفتوح في هذه الساعة المتأخرة.. وشرع يؤكد للرجل أن من لا يعرفه يجهله، وأنه لا مؤاخذة في حماية فتاة بريئة مثلي...
في كبرياء قال الرجل وهو يصلح من شأن ثيابه:
- إذا كنت ستضرب كل من يشتري علبة تبغ بالسكين فإنني لا أتوقع أن تروج تجارتك كثيرًا!
ثم دس ما اشتراه في جيبه وانصرف محنقًا.

* * *

لبضع دقائق ساد الصمت...
بدأ البقال العجوز يغلق المحل في تؤدة برغم نفاد صبري، ثم إنه تأبط ذراعي كأب يصطحب ابنته إلى المدرسة في يومها الأول.. وقال لاهثًا من شدة البرد:
- هيا بنا...
كان يرتجف.. ويلهث.. ويسعل حتى شعرت بشفقة حادة تجاهه...
سرنا معًا ببطء شديد عدة خطوات متجهين لداري التي يعرفها جيدًا...
وفجأة.. لمحت ذلك الرجل... بالتأكيد هو هذه المرة...
كان يقف تحت أحد أعمدة الإضاءة ويداه معقودتان على صدره، والظلال تغمر وجهه بنفس الأسلوب الذي رايته على سلم دارنا...
- إنه هو هذه المرة...!
قلتها وتصلب ذراعي وازدادت قبضتي إحكامًا على الحقيبة..
- انتظري هنا...
قالها في حزم، ثم سار في بطء مبالغ فيه نحو ذلك الخيال المتحدي.. سار حتى اقترب منه جدًا.. ثم سمعت صوته الغاضب:
- أنت يا استاذ.. كفاك هذا العبث واللعب بأعصاب الـ...
لماذا كف عن الكلام؟.. لماذا تصلبت نظراته على وجه الغريب؟.. لماذا يترنح؟.. لماذا يمسك صدره بيده؟.. بل - والأدهى - لماذا يسقط على الأرض؟!..
إن شيئًا ما في وجه الغريب قد أصابه بهلع حقيقي.. هلع أودى بقلبه الواهن..، أو ربما هو نوع من التنويم المغناطيسي.. أو هو فقدان وعي...
المهم - في جميع الظروف - أنني قد فقدت حارسي الوحيد...
يجب أن أهرب..
يجب... ولكن لأين؟..
شرعت أركض وأنا لا أسمع سوى صوت كعبي حذائي على الأسفلت المهشم..، كنت ارتدي معطفًا لهذا لم يضايقني البرد كثيرًا..، ثمة كلاب يستفزها ركضي فتعوي وتفكر في ملاحقتي لكنها

- لسبب لا أدريه - تئن في رعب وتهرب هي الأخرى وذيولها بين أفخاذها..
لم أجرؤ على النظر خلفي...
لكني توقفت مرة واحدة وخلعت فردتي الحذاء.. وبغل شديد هشمت كعبيهما لأتمكن من الركض بسهولة أكثر.. فلم يعد هناك وقت للتأنق...
(رفعت).. ليتك هنا لتفسر لي هذا الذي يحدث..

* * *

دخلت إحدى الحواري الجانبية وشرعت أعدو.. وأعدو.. المنزل الذي كتب على جداره بالطباشير رقم (١٢) هو منزل صديقتي (هند).. المهم ألا يكون المدخل مغلقًا.. الحمد لله!.. إنه مفتوح.. المهم - كذلك - ألا أجد ذلك المجهول واقفًا ينتظرني..
لا أدري كيف.. لكنني كنت قد فهمت - تلقائيًا - أن الأمر يتجاوز حدود الماديات وأنه يتعلق بشيء ما.. شيء من وراء الطبيعة، شيء هو أكثر غموضًا من مجرد متسكع يلاحقني...
لكنه لم يكن هنالك...
شرعت أوسع الباب ضربًا في هستيريا...
الدموع تتزاحم على خدي وصوت نشيجي يتعالى...
صوت مزلاج يفتح..، وباب الشقة القديم يئن كاشفًا عن وجه أبيها وقد ارتدى جلباب النوم، وخلفه امرأته تبسمل وتحوقل...
أخذت أردد عبارات مختلطة لم يفهموا منها سوى أن أمي تموت، لكني استجمعت أنفاسي ما بين العبرات وأشرت لأسفل:
- رجل.. من شارعنا.. لم يكف.. البقال..
نظر الأب في حيرة إلى ابنته التي أحاطت كتفي بذراعها وأجلستني على المائدة في حين أحضرت أمها كوبًا من الماء لي..
أخيرًا استعدت قدرتي على الكلام، فشرعت أحكي لهم القصة الكاملة منذ فارقت (رفعت) حتى وصلت لهنا...
- هل هو واقف؟
-ربما.. لا.. لا.. أد.. أدري....
اتجه الأب إلى النافذة وفتحها.. وأطل على الليل البهيم في الخارج..
- هل هو هذا الشخص يا بنيتي؟!..
نهضت في هلع واختلست نظرة إلى الحارة من فوق كتفه.. نعم..
كان هو.. واقفًا معقود اليدين على صدره تحت أحد أعمدة الإضاءة كعادته، إنه يفضل الإضاءة القادمة من أعلى لأنها تخفي وجهه وسط الظلال..
- هو يا عمي.. هو...
أغلق الأب النافذة.. وعالج أزرار الجلباب الذي يرتديه ليخلعه، وهو يغمغم بشيء عن النزول لمواجهة ذلك الوغد ومعرفة ما يريد بالضبط.. وطلب من امرأته أن تناوله (يد الهون) من المطبخ لتكون سلاحًا عفويًا..

إلا أنني تشبثت به في لوعة:
- كلا.. أرجوك.. أنت لم تر ما أصاب البقال حين رآه...
- ولكن...
-أرجوك!.. أنا هنا في مأمن.. فقط دعوني معكم حتى الصباح...
بدا عليه شيء من الارتياح.. فهو - ولا ألومه - لم يكن راغبًا في أن يخوض هذا الموقف..، كما أنه لم يكن يملك جهاز هاتف يطلب به البوليس..
- وأمك؟.. كيف نخبرها؟
قلت وانا ارتجف:
- دعها.. فهي لن تعاني خطرًا سوى القلق، لكنها ستغفر لي كل شيء في الصباح حين تعرف ما حدث...
وهكذا....
قدمت لي أم (هند) بعض سندوتشات الجبن وكوب شاي، ثم أحضرت لي (هند) قميص نوم من قمصانها، وقادتني إلى حجرة النوم وهي تبدي المرح وتثرثر وتسالني - في خبث - عن (رفعت)..
وعلى الفراش تربعت.. وشرعت تريني ألبوم صور خطبتها..، وتنتقد هذه الفتاة وتلك المرأة، في حين كنت شاردة الذهن تمامًا.. ثعابين القلق تنهش قلبي.. وأنت تفهمين ذلك يا أختاه...
كيف تشعر أمي وماذا تقول في هذه اللحظات إذ تأخرت ابنتها الوحيدة الباقية معها في العودة للدار حتي الثالثة بعد منتصف الليل..؟
مسكين أنت يا (رفعت)!.. ستكون أنت المتهم الأول في قضية تأخري..
ولم أكن أعرف أن أمي لم تضع وقتًا... لقد اتصلت ب (عادل) و(سهام) في دارهما وشرعت تولول، من ثم أطلق (عادل) عبارات السباب قائلًا إنه ما كان يجب أن يثق بمعتوه مثل (رفعت) هذا..، أما (سهام) فقد قالت إن عينها اليسرى تختلج منذ أيام ثلاثة.. وأن في هذا دليلًا لا يدحض على أنني قد مت أو - على أفضل الاحتمالات - أحتضر في مستشفى ما..، وقد نزل (عادل) يجوب المدينة بسيارته.. فهو لم يكن يعرف عناوين صديقاتي ولا أين يقضى (رفعت) ليلته..، بل أنه استعان بعشرة مخبرين أشداء من مديرية الأمن كي يفتشوا عنى تحت كل حجر في المدينة وفوق كل منضدة تشريح وكل سرير مستشفى...
كل هذا وانا جالسة على الفراش أصغي لثرثرة (هند).!

* * *

استيقظت في الساعة العاشرة من صباح الجمعة...
أصابني الهلع ووثبت من الفراش كالملسوعة لأرتدي ثيابي وأحمل حقيبتي جارية إلى الخارج..
وفي الصالة وجدت الأسرة الصغيرة جالسة على مائدة الطعام تتناول طعام الإفطار.. وقد أشرقت وجوههم بالمودة والانتعاش...
- هلمي يا بنيتي.. اغسلي وجهك ثم تناولي إفطارك...
- لكني تأخرت..

قال الأب وهو يرشف بقايا كوب الشاي ويطالع عناوين الجريدة وقد دلى نظارته على قصبة أنفه:

-لن تخرجي دون إفطار.. أنا سأوصلك لدارك بنفسي..

وهكذا دخلت الحمام وغسلت وجهي أمام المرأة..

يا لتقاطيعي المنهكة وجفوني المنتفخة... لقد كانت أحداث الليلة الماضية عصيبة حقًا.. لا أراكن الله ليلة كهذه يا صديقاتي..

عدت للمائدة وجلست.. وكانت (هند) تهرس لي بعض الفول في طبق.. ثم أضافت بعض الزيت وقالت:

- نمت كثيرًا...

- كلوح من الخشب.. وإنني لأشكركم بشدة..

وشرعت التهم الفول في اشتهاء على حين داعبت أنفي رائحة البخور الزكية قادمة من المطبخ حيث كانت أم (هند) تعده..، ومن بعيد ترامت لأذني أصوات تلاوة القرآن استعدادًا لصلاة الجمعة..

ما أطيب الأسرة المصرية وما أعذبها..!

نظر لي والد (هند) من فوق إطار منظاره متسائلًا:

- هيا بنا؟

- إذا سمحت..

وقبلت (هند) وأمها التي حرصت على تحميلي ألف سلام للحاجة، مع توصية لي بسرعة إتمام الزفاف حتى لا أكون وحيدة أبدًا مرة أخرى، ثم سرت وراء الأب عائدة لداري...

وفي ضوء النهار بدت لي الحارة مكانًا باسمًا ولطيفًا إلى أقصى حد..

شيء صغير أثار انتباهي..

هو أنه أسفل عمود النور.. عمود النور الذي كان الغريب واقفًا تحته ليلة أمس.. كانت هناك جثة كلب، كلب تقلصت ملامحه كأنما كان يعاني أعتى الآلام لحظة احتضاره... وعلى بعد خطوات تناثرت أربع جثث لأربعة فئران..

- ما الذي قتل هذا الكلب؟...

تساءل الأب وهو يرمق الجثة في حيرة، إلا أن هذا السؤال بدا لي سخيفًا...

سخيفًا إلى حد لا يوصف...

* * *



عمود النور الذى كان الغريب واقفًا تحته ليلة أمس .. كانت هناك جثة كلب ..

٦ - خطر ما...!..

حين وصلت لداري وجدت مشهدًا يفوق كل ما توقعت..
فما إن شكرت (سهام) - شقيقتي – أبا (هند) علي توصيله لي، وما إن انغلق الباب علينا حتى تحولت إلى ذئب مسعور، واعتصرت ذراعي بين إصبعيها سائلة إياي عما حدث، وهي تضغط على أسنانها في توحش..، وكانت أمي في أسوأ حال.. على حين جلست جاراتي اللواتي تعرفنهن يا بنات.. أم (شريف) وأم (بلبل) وأم (ثناء) - أولئك الشمطاوات - يمصمصن بشفاههن متصعبات...
وبعد ثوان دخل (عادل) ولم يكن ترحيبه بي أقل مودة:
- أين كنت يا (ست هانم)؟!
وبعد ساعتين اندفع (رفعت) من الباب صارخًا في هستيريا:.
- لقد أوصلتها بنفسي وأقسم على هذا..!!
كان عسيرًا بعض الشيء أن أحكي قصة البارحة...
لكني حكيتها وأنا ارتجف...

* * *

ما إن انتهيت حتى ساد الصمت بضع دقائق...
قالت (سهام) في توتر، وهي تربت على كتفي:
- ما رأيكم..؟
قال (عادل) شارد الذهن:
- محاولة اعتداء.. ونحن نقابل العشرات منها يوميًا...
- وما رأيك يا د. (رفعت)..؟
قال (رفعت) في غموض وهو يشعل سيجارة:
- ثمة سؤال واحد يضايقني.. هل الصواب لغويًا أن نتساءل (من) الذي هاجمها أم (ما) الذي هاجمها؟!
- وهل هناك فارق؟
- لغويًا.. فارق شاسع...
صحت في رضا وقد سرني ذكاؤه:
- نعم.. نعم.. أنا نفسي شعرت بشيء غير عادي في كل هذا...
تساءل (عادل) في حيرة وهو يضع ساقًا على ساق:
- ما هو الشيء غير العادي في كل هذا؟
قال (رفعت) وهو يتأمل حلقات الدخان:
- تأمل معي يا (عادل) ما يحدث، ثمة شخص ينتظرها على باب الدار ولا ترى وجهه.. شخص يعرف عنوانها ووقت عودتها.. شخص يهبط درجات السلم بسرعة البرق ودون ضوضاء..

شخص يتبعها عبر الطرقات ولا تعدو الكلاب خلفه بل تفر منه..، وما إن يرى البقال البائس وجهه حتى يخر ساقطًا على الأرض..، هل تجد أن كل هذا مألوف في سجلاتكم..؟

ثم نظر لي في شيء من الانتصار، واستطرد:

-.. بل أنني قابلته في دار السينما أمس.. وكلما حاولت أن أتبين وجهه لم أجده.. قلت لك ذلك وحسبتني مخبولًا...

كنت أنا شاردة الذهن.. ها هم أولاء جميعًا جالسون هنا من أجلى.. يا لهم من أعزاء!.. أعزاء إلى حد لا يصدق.. كلهم باتوا ليلتهم ساهرين وحتى (رفعت) الذي لم يكد يصل للقاهرة حتى عاد منها..!.. إنني أحبكم.. أحبكم جميعًا يا ملاعين!...

يمكنني الآن أن أترك المشكلة كلها - واترك نفسي - لهم.. ستجد (سهام) الأريبة ما تقترحه، وستتكفل حكمة (رفعت) وخبرته بإيجاد الجواب، وسيحميني (عادل) الشجاع القوي من كل سوء..

لا تحسدنني يا فتيات.. سأدعو الله أن تنالن سعادتي جميعكن.. كان (عادل) يقول:

- أنت أستاذ في الاستنتاجات الخاطئة يا (رفعت).. وموهبتك في استخلاص نتائج مرعبة من معطيات عادية هي شيء معروف، أنت تذكر المتاهات التي دخلناها معًا مع آكل البشر إياه..

قال (رفعت) في حرج وهو يئد سيجارته:

- قبل أن تظلمني.. سأحكي لك عن شيء قمت به أمس بناء على تكليف رسمي من مصلحة الآثار، ولكن أرجو أن تتركنا النسوة وحدنا قليلًا...

- ليكن هذا...

* * *

حين فرغت (سهام) من سلق البيض ناولتني براد الشاي الساخن وصينية عليها بعض الأكواب.. وهمست في خبث:

- هو يحبك حقًا...

احمر وجهي كالطماطم.. وهمست:

- لا أدري..

- لقد كان يموت قلقًا عليك.. إن الرجل الذي يترك سماعة الهاتف متدلية ويهرع ليثب في سيارته مسافرًا إلى الإسكندرية بعد ربع ساعة من عودته منها لهو رجل يحب!.. احترسي يا حمقاء وإلا سقط البراد منك!

واتجهنا إلى الصالة حيث كان الرجلان يستكملان محادثتهما الطويلة، كان (عادل) متوترًا أما (رفعت) فقد بدا عليه مظهر من يدافع عن قضية خاسرة..

- وهكذا تجد أنني في مأزق حقيقي..

- ولماذا (هويدا) بالذات؟.. ما دام يلاحقك أنت...

- لا أدري..، لكنني واثق بأنني المقصود بما حدث لها و...

ثم إنه قطع كلامه حين أحس بوجودي.. فأخبرتهما أننا اعددنا لهما وجبة خفيفة ما دام أحدهما لم يذق الطعام منذ الصباح...

جلسا على المائدة وشرعا يأكلان كالمحرومين، وبعد برهة قال (عادل) في كياسة:

- (هويدا).. ثمة أسباب معينة تجعلني أقرر البقاء معك ووالدتك على الأقل هذا الأسبوع...
- و(سهام)؟...
- ستعود للبيت من أجل الطفل أو يبقيان معنا هنا سيان.. لكني أحبذ الرأي الأول...
- و(رفعت)؟
توقف عن المضغ ورمق (رفعت) بنظرة ذات معنى، وهمس:
- لا مكان له هنا.. سيعود للقاهرة.. وليحرص على ألا يكون وحيدًا...!
لم أفهم حرفًا.. لكن أمعائي تقلصت من مناخ التوتر المنذر بالخطر.. المناخ الذي ينطق به كل حرف من كلمات (عادل)..

* * *

منتصف الليل...
أغفو في حجرتي المغلقة على حين ينتظر (عادل) في الصالة نصف نائم وقد تمنطق بحزام مسدسه وأراح قدميه على مقعد خشبي أمامه.. وجواره يردد المذياع أغنية لـ (عبد الوهاب)..، أمي تغفو في حجرتها هي الأخرى وقد هدها التعب....
صوت الأغنية يدغدغ أهداب روحي...
"أين من عينيك هاتيك الـ..."
ضوء الصالة الخافت يتسلل من أسفل الباب، وتكتكة الساعة، وصوت أنفاسي المنتظمة وأنا بين النوم واليقظة...
"يا عروس البحر.. يا حلم الخيـ..."
هل هي الفئران؟.. بالتأكيد هي.. صوت شيء خشن يحتك بخشب مصراع النافذة..
"ذهبي الشعر..."
الصوت يتعالى في إصرار غير عادي، أكاد أقسم إنه صوت أصابع تتحسس إطار النافذة...
"شرقي السمات..."
نهضت من الفراش على أطراف أصابعي، وبخفة اقتربت من النافذة، وعلى الضوء الخافت استطعت أن أرى...
"مرح الأعطاف حلو اللفتـ..."
ذلك النصل الحاد يدخل ما بين مصراعي (الشيش) محاولًا أن يرفع المزلاج لأعلى...!
"كلما قلت له خذ..."
حاولت أن أصرخ لكن الصوت احتبس في حلقي، لم أستطع سوى الركض إلى الباب.. الى الصالة وهززت (عادل) لأوقظه بينما صوت الأغنية يتعالى في أذني.
"قال هاتِ..."
وثب (عادل) كالملسوع، وأخرج مسدسه وهرع إلى غرفة النوم خلفي.. وأضاء النور الكهربي، وأمام عيوننا المذعورة كان النصل يواصل محاولة فتح المزلاج..!..، إن هذا اللص أحمق أو هو لا يخشي النور...
.". خلته ذوب في الكأس عطره..."

أشار بإصبعه إلى فمه ليخرسني، ثم اتجه نحو النافذة.. وبحذر شديد أزاح المزلاج لأعلى، ثم فتحه بحركة مفاجئة درامية..

هل كان هذا بابًا من أبواب الجحيم؟!..

لا أذكر سوى أنني كنت أصرخ في هستيريا..، و(عادل) يجرني بأعنف ما استطاع بعيدًا عن الحجرة..

بينما ذلك الشيء الذي لا يصدق ولا يوصف ينساب في داخل الغرفة مقيتًا لزجًا.. كانت له يدان آدميتان، أما فيما عدا ذلك لا أذكر...

"آه لو كنت معي..."



بينما ذلك الشيء الذى لا يُصدق ولا يُوصف ينساب فى داخل
الغرفة مقيتًا لزجًا ..

معًا نركض إلى الصالة، نغلق باب حجرتي بأعنف ما يمكن على هذا الشيء حتى لا يخرج لنا..
أصرخ.. أولول.. (عادل) يزأر.. يرتجف...
أمي صحت من نومها وخرجت لترى ما هنالك وهي تفرك عينيها....
- ماذا حدث يا أولاد..؟.. هل جننتما؟...
قال (عادل) من بين أسنانه، وهو يعالج خزانة المسدس:
- كابوس يا حماتي!.. شيء لم أر مثل بشاعته دخل من نافذة غرفة النوم...
- ولم تطلق الرصاص..؟.
- لم أجرؤ.. إن القواعد المادية لا تنطبق عليه.. لم يتسع تفكيري كي...
وهنا سمعنا صوت الاحتكاك إياه...
ذلك الشيء - أو الشخص - يحاول أن يفتح باب غرفة النوم...!
لن يطول الأمر قبل أن ينجح.. وعندئذ...
رنين الهاتف الطويل المتقطع...
جريت لأرد وعيناي لا تفارقان باب غرفة نومي.. سمعت صوت (رفعت) يصرخ:
- (هويدا).. هل علبة سجائري بعد في حقيبتك؟
- هل تمزح يا (رفعت)؟!.. أنت لا تدري ما يحدث هنا...
- أرجوك أن تسمعيني.. تخلصي من العلبة فورًا.. ارميها من النافذة فلا وقت للشرح...
- لكن الحقيبة بما فيها داخل غرفة النوم معه..!
- مع من..؟!
لم أدر كيف أرد فوقفت أرمق باب الغرفة الذي بدأ يتخاذل.. (عادل) متصلب العضلات لا يدري ما يفعل.. أمي تمسك برأسها غير فاهمة أي شيء..
"حلم ليل من ليالي (كليوبترا)"..
الباب يتهاوى..
(رفعت) يردد في السماعة كمن أصابه مس:
- مع من يا (هويدا)؟.. مع من؟!

* * *

الجزء الثالث

الصديق

"نعم... علماء النفس الغربيون يؤمنون بالإيقاع الحيوي.. ويؤمنون أن هناك أشخاصًا خلقوا ليقعوا في المتاعب التي تسببها حماقاتهم..، أما فيما يتعلق بصديقنا (رفعت إسماعيل) فالأمر يختلف.. إن المتاعب تطارده سواء ارتكب حماقات أو لم يرتكب.. وسواء كان إيقاعه الحيوي في القمة أو الحضيض.."

٧ - المومياء التي حيرتنا..

قال د. (رمزي):
لم أكن أحسب كل هذا ممكن الحدوث.. لكنه حدث..

* * *

بدأ الكابوس في الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر عام ١٩٦٦..
لقد وجد بعض رجالنا آنية أصلية لابد أنها تعود للأسرة السادسة، وكان ذلك في مدينة (الأقصر) على ضفة النيل الشرقية....
أنتم تعلمون يا رفاق أن الفراعنة كانوا يدفنون موتاهم في الجهة الغربية من النيل، وكانوا يصفون من مات بصيغة مهذبة هي: رحل غربًا، لهذا لم أتوقع أبدًا أن الحفريات ستجد مدخل مقبرة في ذاك الموضع وبعيدًا جدًا عن (وادي الملوك) الشهير...
لكن هذا حدث..
ومن اللحظة الأولى أدركنا أن هذه المقبرة تختلف في كل شيء عما تعودناه.. النقوش في مدخلها..، وتعويذة التحذير التي تقول:
" إن الذي يكمن الشر في أحشائه سينثر الرعب في قلوب المتطفلين..."
وحتى الدرجات المؤدية لأسفل.. والأختام، كلها كانت من نمط غير مألوف.. بالإضافة لعدد غير عادي من صور (ست) إله الشر عند الفراعنة..، كل شيء كان يحمل طابعًا مقيتًا مشئومًا...
ودون تردد أجمع علماؤنا على أنهم لم يسمعوا قط عن هذا الفرعون الذي سنسميه هاهنا - لغرض السرية - باسم (أخيروم الأول).. وهو اسم يفتقر للطابع المصري الفرعوني لكنه قريب جدًا من الأصل...
قمنا بنقل المومياء إلى مخزن خاص بمصلحة الآثار..
وفي يوم رأس السنة الميلادية اجتمع خمسة علماء آثار من خيرة رجالنا على وصف التابوت وتصويره، ثم قاموا بفتحه في حضور عدد محدود من المتخصصين...
الواقع أننا بالغنا في تهورنا... لم نحاول أن نتساءل لحظة عن سر امتناع اللصوص عن السطو على هذه المقبرة بالذات.. هل كانوا يعرفون شيئًا لا نعرفه؟..
نعم لا أنكر أنه كانت هناك آثار أقدام.. لكنها آثار ملهوفة مبتورة فوق الغبار كأن من دخلوا أسرعوا بالفرار لسبب لا ندريه...
ولا أنكر أنه كانت هناك مومياء أحدهم راقدة على جانبها وعلى وجهها ارتسمت أعتى امارات الهلع كأنها رأت الشيطان ذاته..، لكننا فسرنا الأمور بالأسلوب الذي راق لنا، وقلنا إن جو المقبرة الخالي من الرطوبة ساعد على حفظ المومياء كل هذه القرون...
دعك من أن العثور على مومياء لص غير محنطة بعد مالا يقل عن عشرين قرنًا بدا لنا مثيرًا ومشوقًا...
وهكذا يا رفاق فتحنا التابوت...

وبحرص أزال علماؤنا الرقائق الذهبية الخارجية، ولم يغفلوا عن ذلك التحذير الرهيب الغريب الذي يطاردهم في كل لحظة...

كنا قد بدأنا نستنتج أن هذا الفرعون كان منبوذًا من الكهنة لسبب أو لآخر، أو لعلهم وجدوا فرصتهم الوحيدة للانتقام منه بعد وفاته.. بدأنا كذلك ندرك أنه كان يمارس السحر على نطاق واسع... وثمة احتمال لا بأس به أنه هو من حمى مقبرته بنفسه... المهم انهم كتبوا تقريرًا كاملًا عن حالة التابوت، وتصورهم لموقع ذلك الفرعون في التاريخ القديم لمصر، وارفقوا بذلك عددًا من الصور...

وكنا على وشك إزالة الأكفان لفحص الجسد نفسه، حين توالت الوفيات كأنها مستعمرة ذباب رش عليها مبيد حشري جيد.. أو حوض أسماك زينة سكبت فيه زجاجة (كيروسين).. أو أي تشبيه آخر يروق لكم...

خمس وفيات لخمسة علماء في أسبوع واحد...

لا يمكن أن يكون الأمر صدفة..

* * *

أوفدت وزارة الداخلية وفدًا عالي المستوى من كبار خبراء البحث الجنائي وعلى رأسهم اللواء (مراد شريف) ليحقق في أمر هذه الوفيات، وكان الغالب على الظن أن هناك مؤامرة معنية من دولة أجنبية بهدف إرهاب علمائنا أو منعهم من الثرثرة (كانت ذكرى القنابل الإسرائيلية المرسلة لعلماء الصواريخ الألمان ماثلة في أذهاننا)3..

إلا أن الخيوط لم تتجمع قط في نقطة واحدة..

لم يجرؤ أحد على التفوه بلفظة (لعنة الفراعنة)...

لكننا كنا واثقين تمامًا أن هذا هو التفسير الوحيد...

قلت للواء (مراد) في أثناء زيارة لمكتبه:

- هل وجدتم خيطًا..؟

ابتسم في إرهاق.. وقال:

- ماذا تريد؟.. حين يموت رجل في غرفة أغلق بابها ونافذتها من الداخل دون دليل على كونه انتحر، عندئذ يخرج الأمر من أيدينا..!

- هل تعني؟..

-لا أعني سوى ما قلته.... ثم إنه فتح ملفًا أمامه.. وقال وهو يرتدي منظاره:

- هو ذا تقرير الطب الشرعي.. كما ترى لا آثار عنف.. لا جروح... لا كدمات.. فقط تعبير الهلع المرتسم على الوجه.. و...

- وماذا؟...

ابتسم في قسوة ورمقني من فوق إطار منظاره العلوي:

-.. لا أثر للدماء في عروقهم...!

- ولا جلطة؟!.

- ولا جلطة واحدة.. إنني أعتقد أن الأمر يتعلق بمصاص دماء أكثر منه بأي مجرم عادي نعرفه...

شعرت بالقشعريرة تغزو مسام جلدي..

ثمة شيء واحد يربط بين الضحايا الخمس..، وهذا يعني أن ما وجدناه لم يكن مجرد قبر فرعون مجهول..

بل هو..

* * *

كنت جالسًا في داري شارد الذهن أفكر فيما عساي فاعله.. لن أستطيع ألا أستمر لأن هذا عملي.. ولن أستطيع أن أتمادى في خطر داهم كهذا الذي أنا بصدده لأنها حياتي..

إن معنى هذا الذي يحدث.. أن كل من يتعامل مع المومياء يخطو نحو كارثة..، لكني لا أملك الصلاحيات التي أمنع بها المزيد من البحث العلمي.. ولا السلطة التي تخولني إعادة المومياء لقبرها وإغلاقه...

أمسكت برزمة من المجلات الإنجليزية أتصفحها على سبيل تزجية الوقت إلى أن تنتهي زوجتي من إعداد العشاء، وهي بالمناسبة مدرسة تحاليل طبية في كلية الطب جامعة (...)...

- هل رأيت هذه المجلة؟.. انظر الصفحة العاشرة..

قالتها وهي ترص الملاعق في الأطباق وعلى شفتيها بسمة انتصار..

أمسكت المجلة المذكورة وقلبت صفحاتها حتي وصلت الصفحة العاشرة، وكانت بها صورة ملونة كبيرة لرجلين أحدهما أشقر الشعر والآخر أسمر اللون أصلع الرأس يبتسم في بلاهة..

وكان التعليق على الصورة يقول ببنط أحمر كبير: مصري وأمريكي يقهران (الزومبي)...

قالت زوجتي في حماس:

- اسمه (رفعت إسماعيل).. زميل عمل لي في نفس الجامعة...

- وما تخصصه؟

- أمراض الدم..

شرعت أقرأ المقال في اهتمام، وكان يتحدث عن مغامرين واجها أسطورة (الزومبي) في (جامايكا) حيث أثبتا أنها خرافة، وتمكنا من القضاء على مدير مزرعة (جذام) أساء استغلال مرضاه، أما الأمريكي فمهندس حاسبات آلية.. وأما المصري فطبيب يزعم أنه وجد مومياء (دراكيولا) وشاهد وحش (لوخ نس) الأسكتلندي الخرافي... سألت زوجتي في شيء من التوجس:

- هل هو معتوه؟

- ربما.. لكنه صادق ومخلص وعلى قدر لا باس به من الذكاء...

- وهل حقًا عاش هذه التجارب..؟

- يقال ذلك...

- ومن قال ذلك؟

- هو...!

تأملت ملامحه.. وشعرت أنني - ربما - لن أخطئ كثيرًا إذا ما وثقت به..، ومن يدري؟.. ربما هو أكثر ذكاء مما يوحي به مظهره..، ثم هو طبيب متخصص في أمراض الدم ويمكنه أن يثبت أو ينفى وجود داء في دم العلماء الخمسة،.. وهو ذو خبرة في عالم الرعب، وأكاد أجزم أن لديه ما يقول في مأزقنا هذا..

لقد رتب القدر أن أرى صورته.. ولن أدع هذه الفرصة تضيع...

- هل لديك رقم هاتفه؟

- إن عنوانه موجود لدينا...

- إذن سيكون هو رجلنا...

* * *

وهكذا أرسل اللواء (مراد) إحدى سياراته لتحضر لنا هذا الرجل هاوي الأشباح..، ومعها استدعاء رسمي له طلبًا لرأيه العلمي كتبناه بصيغة جافة تثير الرعب في قلبه...

وكان انطباعي الأول عنه هو أنه مهذب وعلى قدر من الرقي.. إلا أنه عصبي وحساس إلى حد مرضي..، وكان يدخن كمدخنة قاطرة وأنا لا أطيق المدخنين...

شرعت أشرح له بكياسة ما هنالك، لكنه كان قادرًا على الاستنتاج.. مع (رفعت إسماعيل) تشعر دائمًا بأن الحياة لعبة كرة قدم شاهدتها مرارًا.. او دعابة سمعتها من قبل، وهو لا يملك الصبر ولا الكياسة كي ينتظر حتى تقول دعابتك كاملة، بل يصرخ في وجهك أنه سمعها بمجرد أن تفتح فاك..

ودائمًا ما يحاول إشعارك أنك لن تثير دهشته أبدًا...

المهم أنني عرفته بزميلنا الفاضل الأستاذ (محمد رجب) عالم المصريات العتيد الذي شرع يعطيه خلفية أكثر تفصيلًا عن الموقف..

ولقد حاول هذا الزميل أن يخفي حقيقة الجثث الخالية من الدماء عن د. (رفعت) لكني أصررت على أن يكشف له الأوراق كاملة ليعرف ما ينتظره...

أما حين بدأ اللواء (مراد) يشرح له ما تعرفه الشرطة عن الحادث بدا واضحًا لنا أنه ركز تفكيره حول لعنة الفراعنة، تلك اللعنة التي أدركنا من بعض كلماته ومن توتره الواضح أنه يعرف عنها الكثير...

ثم جاء السؤال الأساسي:

- هل ستفحص المومياء..؟

بدا عليه التفكير.. لكني كنت أعرف أنه سيقبل...

إن د. (رفعت) من هؤلاء الأشخاص الذين لا يعرفون كيف يقولون كلمة لا.. ثم إن رغبته في الظهور بمظهر المتحضر الذي لا يخاف الخرافات الكفيلة بأن تورده موارد الهلاك...

ولم أكن مخطئًا...

* * *

وفي اليوم الحادي والعشرين من يناير...

كان د. (رفعت إسماعيل) يتأهب للقيام بفحص المومياء، ولم نجد من يقبل معاونته سوى الأستاذ (محمد رجب) الذي حاول أن يكون متعقلًا جريئًا..

وكان هناك مصور شاب قبل أن يصور العملية بكاميرا تصوير سينمائي مقياس ١٦ مم على ضوء الكشافات...

ولم يكن أحدهم يتوقع أن أبواب الجحيم ستنفتح..

ولن نستطيع غلقها...

* * *

٨ - عودة الرعب..

ارتدى (رفعت) ثيابًا سخيفة لكنها فعالة.. فوضع على أنفه قناعًا واقيًا من الغازات، وعلى يديه قفازين..، ثم أحضر جهاز شفط غبار وعداد (جايجر) لقياس الإشعاعات التي يحتمل وجودها..

لقد كان حذرًا – والحق يقال - لكنني أومن أن التفسير المادي العقلاني لهذه الأحداث غير وارد.. وهو أشبه بمحاولة منع الحسد باستعمال مرشح للأشعة تحت الحمراء..!..، كان يحاول استبعاد كل احتمال آخر بحيث إذا أصابه مكروه غدا جليًا لنا أن لعنة الفراعنة هي السبب، وهو أسلوب علمي صحيح في التجريب يقوم على تثبيت كل العوامل عدا العامل المراد اختباره..

إن هذا الرجل يملك عقلًا منتظمًا لكني لا أحبه كثيرًا..

وهذا ذنبي لا ذنبه..

* * *

بعد دقائق من الانتظار المرعب سمعنا صوت جسد يسقط داخل القاعة ولم تكن عندنا تفسيرات عديدة، كل ما هنالك أننا نسينا حذرنا واندفعنا لداخل القاعة لنجد (محمد رجب) ممددًا على الأرض في حين كان د. (رفعت) - ذلك المخبول - يواصل وضع عيناته في حقيبته بلا مبالاة حقيقية.. بل أنه بدا مغتاظًا من الموقف كله، وقال إن كل ما هناك مجرد حساسية مفرطة من (محمد رجب).. وغادر المكان ونحن معه...



واندفعنا لداخل القاعة لنجد (محمد رجب) ممددًا على الأرض فى

حين كان د. (رفعت) !!

في مكتبي جاءني د. (رفعت) وأخبرني وهو يرشف القهوة أن المومياء بلا أحشاء...
أليس هذا عجيبًا؟.. مومياء من الأسرة السادسة بلا أحشاء!.. ولم نكن قد وجدنا أية أوعية (كانوبية) في المقبرة وهذا يعني أنه لا تفسير هنالك..
كان التساؤل يدوى في دهاليز عقلي.، لكن د.(رفعت) - غير المتخصص - لم يعلق أهمية كبيرة على الموضوع واعتبره نوعًا من التحذلق...
أمسكت بسماعة الهاتف وطلبت د. (شاكر) في معامل وزارة الصحة كي ينتظر العينات التي سنرسلها له من أجل فحصها بدقة وإجراء قائمة طويلة من البحوث التي طلبها د. (رفعت إسماعيل)...
وكان هذا الأخير يدخن بإفراط غير مبال بفداحة هذه الجراحة التي مارسها منذ دقائق..، لهذا حاولت أن أفزعه.. حدثته عن الأيام السوداء التي تنتظره وعن الرعب الذي يهون الموت معه...
لكنه لم ينفعل.. وانصرف لأنه ذاهب ليلقى خطيبته...
ما هي نفسية الرجل الذي يبدأ يومه باستفزاز شيطان فرعوني وينهيه بجلسة رومانسية مع خطيبته؟!.. إما أنه شجاع جدًا.. أو أحمق جدًا..

* * *

عدت لداري وجلست أشاهد التليفزيون مع امرأتي..
كنت أرمق الشاشة بنصف عين وأنا أقلب صفحات بعض مراجع المصريات علّني أجد ما ينير لي الطريق ولو قليلًا..
غريب هو شغف الفراعنة بالملينات.. واستعمال الحقن الشرجية، تلك التي تعلموها من طائر (أبو محجن) الذي يمارس هذه العملية بانتظام مستعملًا منقاره، كانوا يؤمنون أن منبع الأمراض والأرواح الشريرة هو الأحشاء، وأن عملية التخلص من الفضلات هي نوع من التطهر.. و...
"إن الذي يكمن الشر في أحشائه...".
هذه هي العبارة المريعة التي وجدناها في القبر.. وهي ليست استعارة أدبية إذن، بل هي الحقيقة..، ولهذا انتزعوا أحشاء ذلك الفرعون بعيدًا عن مومياءه لأنهم ظنوا - أو أدركوا - أن الشر الذي حرك حياته كلها كان كامنًا في أحشائه...
ولهذا لم نجد أية أوعية (كانوبية) في المقبرة لأنهم دفنوا الأحشاء بعيدًا في الصحراء أو أحرقوها أو رموها للتماسيح..، كانوا يمقتون الفرعون لكنهم لم يجرؤوا على التخلص من جثته ؛ لذا دفنوه كأجداده بطريقة محترمة.. فقط غطوا الشيء الوحيد الذي يحميهم منه ومن شره...
وإنني لأجسر على القول إنهم كانوا مخطئين...
فهذا الاحتياط لم يمنعه من قتل اللص والعلماء الخمسة..
لقد كان الفراعنة حريصين على حماية موتاهم، لكنهم كانوا يفضلون طرقًا أخرى غير الأساليب الشنيعة التي استخدمها ذلك الشرير...
كنت غارقًا في هذه الخواطر حين دق جرس الهاتف فنهضت زوجتي لترد، ثم عادت إلى حاملة بعض ثيابي لتنظفها بالفرشاة، وقالت وهي تجلس:

- يريدونك... مكالمة لك..
نهضت لأردّ متوقعًا مصيبة ما.. لكن كان هذا هو صوت أحد مساعدي يبشرني بشيء جديد:
- وجدنا أوعيته (الكانوبية)! وهي قادمة الآن من (الأقصر)...
- أوعية من؟
- (أخيروم) طبعًا...
شعرت بالشعر ينتصب على مرفقي.. والثلج يتكاثف أسفل عمود الفقري..
- كـ.. كيف؟.
- قبر صغير جدًا جوار القبر الأصلي، وكان يحوي وعاءين عليهما نقوش عديدة وصور لـ (ست) وتحذيرات لا تنتهي ولعنات تنهال فوق رؤوسنا..
- وهل فتحتم الوعاءين؟
- لسنا من هواة هذه الأشياء...
- إذن لا تفتحوهما.. ممنوع.. تأكد من سلامتهما وبعدهما عن الشروخ...
- لك هذا.. ولكن لماذا؟
- هي قصة طويلة.. فقط افعل ما أقول..!..
ثم إنني وضعت السماعة وعدت لزوجتي طالبًا منها إعداد ثياب للخروج، حيث أنني قررت الذهاب فورًا لرؤية هذين الوعاءين..، قالت وهي تنظف سترة البدلة ملتقطة شيئًا ما بين إبهامها والسبابة:
- هو ذا الدليل على أن لك زوجة ثانية دون علمي..!
- حقًا؟...
-.. وهي تعمل في مصنع سكر...!.
ووضعت ذلك الشيء في كفي.. مجرد بللورة صغيرة جدًا كرقائق الثلج كانت عالقة بقماش البدلة الوبري، وكان هناك الكثير منها.. لا أذكر طبعًا اين وكيف التصقت هذه الأشياء بي، لكنه لم يحدث - حتمًا – في مصنع سكر...
- ليكن.. والآن أعدى ثيابي لأني ذاهب للقاء زوجتي الثالثة التي تعمل في مدبغة جلود...
شرعت تساعدني في ارتداء بدلتي وتربط لي ربطة عنقي..، ثم طلبت مني ألا أتأخر كثيرًا...
- ولماذا؟..
ابتسمت في قسوة وقد لذ لها أنني وقعت في الشرك:
- لأن الليلة عيد زواجنا...!

* * *

- وهل ستفتحه الان..؟
قالها مساعدي وهو يتأمل أحد الوعاءين في شغف..
كأن الأحمق يتحدث عن جرة مليئة بالشوكولاتة..، لم أرد عليه برد لاذع لأني كنت مشغولًا في تأمل النقوش باحثًا عن الرمز إياه..، نعم.. ها هو ذا من جديد: الذي يكمن الشر في أحشائه سيفعل بكم كذا وكذا..

إن كهنة (آمون) والحق يقال لم يتركوا فرصة لكي يزعم أحدنا أنه لم يقرأ التحذير.. لقد أدوا واجبهم على خير صورة، ومن يتجاهل التحذيرات بعد هذا إنما هو يفعل ذلك على مسئوليته الخاصة...

- هل نفتحها الآن؟

كرر السؤال في إلحاح، فهززت رأسي:

- ربما كان من الحكمة أن ننتظر رأى ذلك الطبيب هاوي الأشباح...

- لكنه مجرد مدع ولا يفقه شيئًا في التاريخ الفرعوني..

قالها في اشمئزاز... فرددت دون كثير اقتناع بما أقول:.

- ليس سيئًا إلى هذا الحد.. ثم إنه لا يعبأ كثيرًا بالخوف من هذه الأشياء..

- لأنه لا يعرف ما نعرفه...

نظرت له في اهتمام.. ورددت عبارته مفكرًا:

- نعم.. هو لا يعرف ما نعرفه...

* * *

ولكن ما الذي نعرفه نحن؟..

ها هي ذي الشمعة يترقرق لهبها مع أنفاسنا حين جلست أنا وزوجتي أمام التورتة الصغيرة التي أعدتها لحفلنا المتواضع...

عامنا العاشر.. دون أطفال ودون أحداث هامة، لكننا سعيدان.. ولم تزل شمعة الحب مشتعلة، صحيح أنها لم تعد ذلك البركان الملتهب القديم، لكنها غدت شعلة هادئة منتظمة تمنحنا الانتعاش والدفء....

في رقة همست حبيبتي الصغيرة (برغم أنها اليوم في الأربعين من العمر):

- ألم تملني بعد؟...

- حين تمل الزهور زيارة الربيع.. سأملك أنا..

- لم أمنحك أطفالًا...

- الشمس لا تنجب شموسًا...

- لم أ.....

رررررررن.. اللعنة!.. جرس الهاتف يدوي ناخرًا في أطراف أعصابي، هرعت لأرد متأكدًا – هذه المرة - أن في الأمر كارثة...

- لقد مات (محمد رجب)!!

لم أدر للحظة ما أقول وما أفعل، ثم ابتلعت ريقي:

- من يتكلم..؟

- يا له من سؤال..! اللواء (مراد) طبعًا...

- ومن مات؟

- (محمد رجب).. منذ ساعتين..!

ثم إنه شرع يحكي لي القصة الكاملة، وهي - بالطبع - تتلخص في أن امرأته غادرت الدار مع أطفاله للنزهة.. وتقول إنه كان بصحة جيدة.. لم يعان من إرهاق، ولم يطلب كوب ماء كعادة المتوفين، بل تركته يقهقه ضاحكًا أمام التليفزيون يشاهد فيلمًا لـ (إسماعيل ياسين)..، وحين عادت كان جالسًا في نفس المقعد ونفس الجلسة يحدق باهتمام في حوار ممل عن (اقتصاد (زامبيا) في الستينات)..، الأمر الذي أثار ريبتها..

وحين تفحصت حالته بدقة أدركت أنه لم يعد في عالمنا..

ومن السخف أن نفترض أنه مات من الملل أو من شدة مقته لـ (زامبيا)..

لقد تحرك الفرعون للمرة الثانية، ولكن بسرعة غير عادية.. سرعة لم نتوقعها أبدًا...

لقد كان هذا الفتى بيننا صباح اليوم يثرثر عن (أخيروم)، ويعاون د. (رفعت) في فحص المومياء..، والكارثة أن هذا الأخير سيؤكد لي أن إغماء (محمد رجب) لم يكن نذيرًا بوفاته.. وسيحدثني عن العصب الحائر ويرطن بعدة مصطلحات لاتينية لا افهم منها شيئًا..، ولن أجرؤ وقتها على اتهامه بالافتقار للبراعة...

ولكن..!.... بمناسبة (رفعت)...

هل هو على ما يرام؟.. أنا أعرف أنه يعيش وحيدًا وهذا يعني أنه صيد سهل، ثم هو المرشح رقم واحد في قائمة المطرودين من عالمنا..، ادرت القرص كالمعتوهين وانتظرت، فلم اسمع سوى صوت رنين الجرس يدوي في شقته الخالية..

نسيت أنه مع خطيبته التي لم أكن أعرف أنها تعيش في الإسكندرية.. لهذا واصلت طلب الرقم.. التاسعة.. العاشرة.. الحادية عشرة ليلًا..

وهنا تذكرت... هناك شخص ثالث يتصدر القائمة..، صحيح أنه لم يقلق راحة الفرعون لكن من أدراني أن (أخيروم) عادل إلى هذا الحد؟..

طلبت رقم (نادر) وانتظرت في قلق بضع ثوان حتى سمعت صوته المبحوح يرد.. قلت في هلع:

- (نادر).. لقد هلك الأستاذ (رجب).. لا تبق وحيدًا.. أرجوك ألا تبق وحيدًا...

قال في هلع يفوق هلعي بمراحل:

- د. (رمزي).. هناك أشياء لا أفهمها!

- نعم. نعم.. كل هذا غامض..

- أنا أتحدث عن الفيلم.. الفيلم الذي قمت بتصويره..

- هل فسد؟..

- كلا.. لكنه أظهر أشياء غريبة..

وارتجف صوته:

- أشياء غريبة جدًا...

* * *

٩ - يجب أن نتحرك..

- سأرى هذه الصور غدًا يا (نادر).. أما الآن فلا تنس نصائحي...
وعدت إلى زوجتي وكانت قد غرقت في نعاس عميق بعد أن فسدت الأمسية تمامًا.. لقد تعكر مزاجنا لعدة أجيال...
سأعاود طلب د. (رفعت) في ضوء النهار.. أما الآن فلأنم...
ذكروني أن أشترى بعض سم الفئران غدًا لأن صوت مخالبها يدوي عابثًا في مصراع النافذة الخشبي...
فئران عملاقة كما هو واضح.. سأعني بأمرها في الصباح، أما الآن فأنا منهك.. منهك...

* * *

في الصباح وحوالى الساعة العاشرة استجاب د. (رفعت) لمحاولاتي المتكررة على الهاتف.. أخبرته بما حدث أمس في كياسة.. ونصحته نصيحتي لـ (نادر) إلا أنه قال في كبرياء:
- إن الحذر لا يمنع القدر....
ولم يسترسل في الحديث.. لكني لا ألومه كثيرًا.. وأفهم - إلى حد ما- ما يشعر به....
أن يتهددك خطر لا يجدي معه إبلاغ البوليس ولا امتلاك، سلاح ولا تربية كلب، ولا تحصين النوافذ.. أليس هذا مريعًا؟!
بمناسبة النوافذ.. نسيتم أن تذكروني بفحص مصراع النافذة الذي أرجو ألا تكون الفئران قد التهمت منه جزءًا...
كانت غرفة النوم تطل على شرفة تشترك مع غرفة أخرى تفتح عليها بباب، وكانت الشرفة مرصعة بالبصل معلقًا على عدة مسامير، كأي بيت مصري يحترم نفسه.. كما كانت هناك جرة أو جرتان مليئتان بالعسل الذي أرسله لي أقاربي في الصعيد...
لهذا بدا غريبًا أن تهاجم الفئران نافذة يحيطها البصل، والمعروف أنها تنفر من رائحة هذا الأخير... بل إن...
عسل وبصل..!.. أين يجتمع هذان العنصران؟..
في شرفتي بالطبع.. و... أين؟...
وهنا تبادر الجواب إلى ذهني محدثًا صدمة شبه كهربية:
"اخرج يامن تأتي في الظلام وتدخل خلسة.."
هكذا كانوا يعالجون الطفل ويحمونه ناسبين هذه التعويذة إلى (إيزيس).
"لقد حصنته منك بالبصل الذي يؤذيك، وبالشهد الذي هو حلو المذاق في فم الأحياء، ومر في فم الأموات".
هذا هو الحل...
لم تكن الفئران هي التي تعابث نافذتي...

بل شيء آخر.. شيء ينفر من البصل والعسل.. شيء تحدث عنه الفراعنة وحصنوا أطفالهم منه...
هذا الشيء حاول اقتحام غرفتي...
وحماني البصل والشهد منه...
وارتجفت...
إذن أنا قد تبوأت موضعي في القائمة.. أنا الذي لم ألمس شيئًا بيدي ولم أظهر في (الصورة) قط.. ولكن لماذا؟...

* * *

في دار (نادر) جلسنا نشاهد الفيلم الذي قام بتصويره لـ د. (رفعت) والمرحوم (محمد رجب) إبان فحص المومياء..
كانت المشاهد تتتابع و(نادر) يشرح لي فحوى كل لقطة لأن الإضاءة لم تكن كافية وهو لم يكن معتادًا على استعمال الكاميرا المحمولة باليد لهذا كانت يده ترتجف.. ترتجف حتى كادت الصورة تصيبني بالعمى..
- يكفي هذا يا (نادر)..
- صبرًا.. ها هو ذا يفك طبقات الكفن..
وهنا أصبت بالذهول...
عشرات الشموس الصغيرة تضيء على الشاشة وتتناثر هنا وهناك، ثم د. (رفعت) يمسك بعض هذه الشموس ويضعها في وريقة..، (رجب) يتناول بعضها ويفركها بين أنامله.. ثم يتحدثان.. ويسقط (محمد رجب) فاقد الوعي على حين ندخل نحن..، المشاهد تتأرجح.. ثم يسود الظلام الشاشة.. وينتهي الفيلم.. صوت هدير المحرك فقط..
- ما هي هذه الأجسام المضيئة؟.
سألت (نادر) في دهشة.. فقال وهو يعيد الفيلم لعلبته:
- بللورات دقيقة جدًا وجداها ولم يعرفا كنهها.. العجيب أنها كانت خامدة تمامًا في عالم الواقع.. أما بعد التصوير..
- لا أفهم...
- إنها مشعة.. مشعة بجسيمات خاصة تؤثر في الفيلم الحساس ولا تؤثر في عداد (جايجر)...
- وهل هي تشبه بللورات السكر إلى حد كبير؟
- نوعًا.. لكن ما هي؟.. إنني لم أر شيئًا كهذا من زمن...
- ولا أنا.. لكننا دخلنا وحاولنا مساعدة الأستاذ المغشي عليه وبالتالي التصقت هذه البللورات - كحبوب اللقاح - بثيابنا، ولابد أن (رفعت) قد نال نصيبه منها...
قال (نادر) في ثقة:
- لم يلمسها.. لكنه جمع بعضها في وريقة..
- وأين هي؟
- دسها في علبة سجائره...!

- وأنت؟...
- لقد كنت بعيدًا طيلة الوقت..
- لقد فهمت....

* * *

لقد استخدم (أخيروم) أسلوبًا معقدًا كأسلوب البنوك في التعرف على اللصوص عن طريق مادة ملونة لا يمكن إزالتها توضع في بعض أوراق العملة التي يسرقها هؤلاء , إن من يفتح المقبرة يلوث نفسه بهذه البلورات الدقيقة المشعة.. وبالتالي يصير هدفًا واضحًا محددًا.. لمن؟.. لحارس المقبرة الشيطاني طبعًا...

يجب إنذار (رفعت) فالله وحده يعلم أين وضع علبة سجائره.. أما مشكلتي أنا فهي أكثر تعقيدًا...

لقد وجدت زوجتي البللورات على بدلتي ونظفتها بالفرشاة وتبعثرت على السجادة وفي كل مكان.. وهذا يعني أنه من المستحيل أن أتخلص من مطاردة الشيطان... يجب أن أغادر شقتي...

على كل حال وكخطوة أولى سأخبر (رفعت)...

أدرت قرص الهاتف عدة مرات دون جدوى..

إن هذا الرجل لا يدخل داره إلا ليغادرها...

ظللت أحاول مرارًا وزوجتي ترمقني بنظرات خرساء.. ثم إنها تأكدت من خبالي حين أمسكت بذراعها لأخذها لبيت أخيها..

قالت وهي تصعد في درجات السلم:

- سيظن أنك طردتني....
- إن زوجة مطرودة لهي أحسن حالًا من زوجة ميتة!.
- لا افهم...
- ومن يفهم؟..

ثم إنني قدت سيارتي إلى مكتبي.. كانت الساعة تدنو من الحادية عشرة مساء حين دلفت للداخل يتبعني الخفير مذهولًا، وجلست على المكتب وطلبت مسئولًا هامًا في مصلحة الآثار.. وحكيت له القصة كاملة ولا داعي لأن أقول إنه اعتبرني مخرفًا...

- وماذا تريد؟..
- التخلص من الأوعية الكانوبية وإعادة دفن المومياء..
- وهل هذا كاف؟
- إنه الحل الوحيد الذي أعرفه...
- دعني أدرس الأمر.. إنه الجمعة كما تعلم و..
- لم يكن الجمعة يوم إجازة عند الفراعنة.. ولن يجد حارس المومياء ما يمنعه من قتلنا جميعًا في يوم جمعة...
- إذن دعني أفكر ساعتين...

وضعت السماعة وشرعت أتأمل أظفاري.. ثم بدأت أطلب رقم د. (رفعت).. وفي هذه المرة رد على الهاتف، وعرفت أنه كان في (الإسكندرية) - مرة أخرى في يوم واحد؟! - فطلبت منه أن يأتي

لمكتبي على الفور...
- ولماذا؟.
- ليس من أجل لعب الشطرنج طبعًا.. الأمر خطير...

* * *

وحين وصل د. (رفعت) برائحة سجائره المقيتة، جلسنا نحو ساعة أو أكثر نتبادل الخبرات...
بدأت أجزاء الصورة تتجمع.. وكانت تمثل (أخيروم) أحمر العينين مكشرًا عن أنيابه مصممًا على القضاء على خصومه..
فهم (رفعت) ذلك السر الذي حيره ليلة أمس في لقد كان هناك شيء ما يراقبه، وهذا الشيء لم يكن وهمًا... والذي أثار دهشتي من (رفعت) هو أنه لم يكن يؤمن بالأساطير، بل هو يرى في كل أسطورة أساسًا علميًا يفسر كل شيء.. فالقدماء كانوا يظنون البرق مخالب شيطان ثم اتضح أنه تفريغ شحنات كهربية، القدماء تحدثوا عن مسوخ الذئاب غير عالمين أنه داء (البروفيريا)..
لكن (رفعت) اعترف بصدق بعض الأساطير.. كوحش (لوخ نس) و(العساس) ولربما هذه الأسطورة التي نحن بصددها...
وكان له مقياس لا يحيد عنه.. كل ما يتعارض مع الدين أولًا والعلم ثانيًا هو خرافة..، ولما كان العلم جنينًا حديث الولادة فإن ما يتعارض مع العلم ويقره الدين - كالحسد والسحر الأسود مثلًا - هو احتمال موجود وسيجد له العلم مقياسًا يومًا ما حين تتطور أدواته أكثر...
لهذا - ولأن الأمر في حالتنا هذه يتعلق بالسحر الأسود - كان (رفعت) على استعداد لمناقشته وتجريبه والاقتناع به إذا لم يجد سبيلًا آخر لتفسيره...
في حين كانت أساطير مثل (دراكيولا) و(الزومبي) و(ميدوسا) لا تجد منه سوى الرفض لأنها تتعارض مع الدين بشكل صريح.
إن تفكيره ممنطق وأعتقد أنني كنت سأحب هذا الرجل لو كان أقل قبحًا وسخرية وإفراطًا في التدخين... ما علينا...
مددت له يدى متسائلًا:
- هل الوريقة معك...؟
- أية وريقة؟.
- التي وضعت فيها البللورات.. الأثر الذي اقتفاه الحارس...
- بالطبع.. وضعتها في علبة السجائر...
- وأين هي؟..
بدت عليه علامات الحيرة..
شرع يتحسس جيوبه.. ستكون كارثة لو كان قد رمى العلبة في القمامة كما يحدث دائمًا.. أنا واثق أنه فعل ذلك...
ثم إنه قطب جبينه ومسح العرق من على منظاره.
- لحظة.. كانت معي أمس في (الكافيتريا).. و....
ثم داعب شفته السفلى في شرود:

- نعم.. نعم.. تذكرت.. أخذتها (هويدا) محاولة منعي من التدخين..
- يا للهول!
ونهض في توتر، وقد بدت عليه علامات الفهم..
- فهمت!.. لهذا كانت مغامرتها الشنيعة مع ذلك الشبح الذي طاردها أمس.. لقد كانت البائسة تحمل حكم إعدامها في حقيبة يدها ولا تعرف!!
أشرت إلى الهاتف وقلت بخطورة:
- إذن اطلبها فورًا...
بالطبع لن أصف لكم محاولاتنا الخرقاء للاتصال بالإسكندرية... عشرات المحاولات الفاشلة حتى سمعنا ذلك الرنين الطويل.. وسمعنا صوت سماعة ترفع.. فصرخ (رفعت) في هستيريا:
- (هويدا).. هل علبة سجائري بعد في حقيبتك...؟
ردت بصوت صارخ قائلة كلمات لم افهمها... من ثم صرخ:
- أرجوك أن تسمعيني.. تخلصي من العلبة فورًا.. ارميها من النافذة فلا وقت للشرح..
قالت شيئًا ما جعل وجهه يكفهر..، وتساءل في حيرة:
- مع من؟!..
لم يتلق ردًا فعاد يكرر كالملسوع:
- مع من يا (هويدا)؟.. مع من...؟!
اقتربت منه في فضول متسائلًا:
- ماذا هنالك؟..
نظر لي بعينين زائغتين لا تريان.. وهمس:
- إنه هناك.. في غرفتها!
وثبت كالملسوع إلى السماعة والتقطتها، وصرخت:
- اسمعيني يا آنسة.. هه؟.. أريد مدة أخرى بالطبع عليك اللعنة!.. كلا.. ليس هذا الكلام لك بل لعامل (السنترال)..!.. اسمعيني.. أحضري عسلًا.. وبعض البصل من المطبخ.. أنا لست مجنونًا.. أسرعي..!
يبدو أن صياحي أعاد لها انعكاساتها العصبية.. وسمعتها تجري.. وسمعت صوتًا غريبًا كأنه قفل باب يتهشم.. ثم سمعتها تلتقط السماعة لاهثة وهي تردد:
- أحضرته.. أحضرته...
- إذن.. اسكبي العسل حول حدود دائرة، وقفي داخلها أنت ومن معك حاملين البصل في أيديكم.. اسرعي!.. ورددي أية آيات قرآنية تحفظينها.. هيا!.. هيا!..
سمعت صوت ضوضاء..، وصوت رجل يتكلم..، وخرفشة أوراق البصل.. فعدت أصرخ:
- ضعي السماعة على أذنك.. جرّي الهاتف إلى قلب الدائرة لأعرف ما يحدث..، هه؟.. نعم مدة أخرى أيها الأحمق!!..
كان هناك صوت خشب يتهشم.. العرق يتكاثف على جبيني، و(رفعت) يرمقني كطفل صغير ضل الطريق إلى داره، صوت صراخ.. صوت كزئير الأسود.. صوت طلقات نارية...
ثم ساد الصمت...
بعد لحظات سمعت صوتًا رجوليًا يمسك بالسماعة ويقول لاهثًا:

- انتهى الأمر.. لقد مضى..
- حمدًا لله...
- ولكن من أنت..؟.. وما معني كل هذا؟...
- إنها قصة طويلة وسيحكيها لكم (رفعت) بالتفصيل...
وتناول (رفعت) السماعة.. وشرع يتساءل في لهفة:
- هل أنتم بخير جميعًا؟. كيف حال (هويدا)؟.. لقد كانت أمسية طويلة يا (عادل).. طويلة حقًا....
وحكى له كل شيء.....

* * *

الخاتمة
يحكيها د. (رفعت إسماعيل)

كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تفتق عنها ذهن د. (رمزي)..
ها نحن أولاء واقفون عند فوهة الفرن الكبير في مصنع الحديد والصلب الذي قامت السلطات بإخلائه تمهيدًا لما نزمع القيام به، وكان د. (رمزي) يحمل الوعاءين الكانوبيين الخاصين بالفرعون الذي أسميناه (أخيروم الأول)، وكان ينتظر إشارة المهندس...
- الآن..
قالها المهندس في صرامة...
عندئذ ألقى د. (رمزي) ما في يده داخل فوهة الفرن.. إلى الحمم المنصهرة المشتعلة التي تتجاوز حرارتها ١٠٠٠ درجة مئوية..
وتنحى جانبًا ونحن معه..
هل كان هذا صوت صراخ طويل شنيع قادم من الجحيم؟..
هل كانت هذه الألسنة الملتوية تتخذ هيئة شبح يتعذب؟..
هل كان هذا الضوء الأحمر هو ضوء النهاية؟..
لا أدري...
لكننا ظللنا نرمق الحمم التي ذاب فيها كل أثر لهذا الكيان الشرير..
الكيان الذي ظل يغفو في أوعيته داخل أحشاء (أخيروم) منتظرًا كل من يدنس القبر وتعلق به البللورات كي يخرج ويطارده.. ويقتله شر قتلة بعد أن يترك وصمة الرعب أبدية على سحنته..
إن الذي يكمن الشر في أحشائه سينشر الرعب في قلوب المتطفلين.. وقد كان...
لكننا قد قضينا على أحشائه.. فهل مات الشر معها؟..
إن د. (رمزي) لم يترك شيئًا للصدفة..
لهذا - في نفس اليوم - أعيدت المومياء إلى قبرها وتم إغلاقه بإحكام مع اتخاذ الضمانات الكاملة كي يظل عمال الحفر وكل من شارك في هذه القصة صامتين...
وحين ودعت د. (رمزي) شعرت أنني أودع صديقًا..
صحيح أنني لم أفده كثيرًا.. كالعادة في كل مرة يحاول أحدهم أن يستعين بخبراتي فيها...
لكنني - على الأقل - لم أترك في ذهنه صورة المدعي أو الجبان...

* * *

في المستشفى كانت (هويدا) لم تزل تحت العلاج المكثف من أستاذ الأمراض النفسية (عصام شلبي)..
وكانت تتحسن...

أما أمها فقد شفيت من الصدمة سريعًا..
تجرأت مرة وسألت (عادل) - صديقي القديم - عن الشيء الذي رأوه في تلك الليلة، فقال في مرارة:
- لا تحدثني عن ذلك ثانية.. دعنا ننسه...
- هل كان مريعًا إلى هذا الحد..؟
- لن تتخيله ما حييت...
وهنا جاء الطبيب وقال وهو يصطحبني إلى غرفتها:
- يمكنك الآن أن تحدثها ولكن برفق.. إن ما رأته لن يمحى من ذهنها، لكنها تسدل فوقه ستارًا مزيفًا..
- كانت شجاعة.. وأحضرت ما طلبه د. (رمزي) منها..
- كان العبء ثقيلًا على محركات روحها.. لهذا احترقت!
وفي الغرفة كانت راقدة بين باقات الزهور التي أرسلها لها كل يوم، وكانت تصغي لموسيقا هادئة في المذياع وتقرأ قصة أطفال لأن أعصابها لم تعد تتحمل أي شيء جدي أو صارم...
جلست جوار الفراش حائرًا لا أدري ما اقول...
- شكرًا على الزهور...
قالتها في رقة..، وابتسمت...
مددت يدي لأشعل لفافة تبغ.. لكنها انتزعتها في مشاكسة
- لولا التدخين ما حدث لي كل هذا...!
- ولولا محاولتك منعي عنه ما حدث لك كل هذا...!
- لا أريد زوجًا يدخن...
قلت في مرارة وأنا أنظر للسقف:
- (هويدا).. هل أنت واثقة أنك راغبة في الزواج مني؟.. لقد رأيت جزءًا صغيرًا جدًا من حياتي.. هذه هي وتيرة حياتي منذ عام ١٩٥٩ حتى اليوم.. فهل تتحملين؟!.
انحنى عنقها حتى لا أرى وجهها وصمتت برهة..
ثم حين رفعت وجهها فهمت الحقيقة...
كانت تبكي..!
تبكي بتلك الطريقة المفاجئة الغادرة التي تفاجئنا بها النساء حين لا نتوقع أن هناك ما يدعو للدموع في كلامنا..
وفطنت لحقيقة أخرى..
أنني أحب.. للمرة الأولى أحب هذه الطفلة البريئة البائسة التي أحبت كثيرًا، ومنحت كل عذوبة روحها لي.. لكني لم أفهم.. لأن المذءوبين ومصاصي الدماء قد احتلوا كل دهاليز روحي فلم يعد ثمة مكان لـ (هويدا)..
- (هويدا).. هل تقبلين؟!
هل الصمت علامة الرضا أم علامة الرفض؟..
لا أذكر بالضبط.. لكني سأظل معها... مهما حدث...

* * *

كان ميعاد زفافنا في (مايو) من نفس العام...
لكن شيئًا ما حدث.. شيئًا لم أتوقعه، ولم أدرك قط أية لحظات قاتلة سيحملها لي...
لكن هذه قصة أخرى...

د. رفعت إسماعيل
القاهرة - ١٩٩٢

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

الجزء الأول - الطبيب

١ - استشارة خاصة..

٢ - عن لعنة الفراعنة..

٣ - الباب المغلق..

الجزء الثاني - الفتاة

٤ - بداية جديدة..

٥ - الهرب إلى لا مكان..

٦ - خطر ما

الجزء الثالث - الصديق

٧ - المومياء التي حيرتنا..

٨ - عودة الرعب..

٩ - يجب أن نتحرك..

الخاتمة

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة لعنة الفرعون

لقد أنذرتك !.. لا تفتح
التابوت !.. إنه خلفك .. فى كل
مكان يراقبك .. إنه يعرف اسمك
وعنوانك بل -والأخطر- يعرف مواعيد
نومك! لقد أنذرتك!.. لا تفتح التابوت!
.. والآن لا جدوى من صراخك ..
لا جدوى أبدًا !!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : حلقة الرعب (عدد ممتاز)

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

الميتافيزيقًا: ما وراء الطبيعة.

[←2]

هذا المشهد. مكتوب بالتفصيل في أسطورة (أكل البشر) ولكن من وجهة نظر (رفعت).

[←3]

حدث هذا بالفعل في أثناء قيامهم بإسداء العون العلمي لنا في تصميم صواريخ (القاهر) و(الظافر).

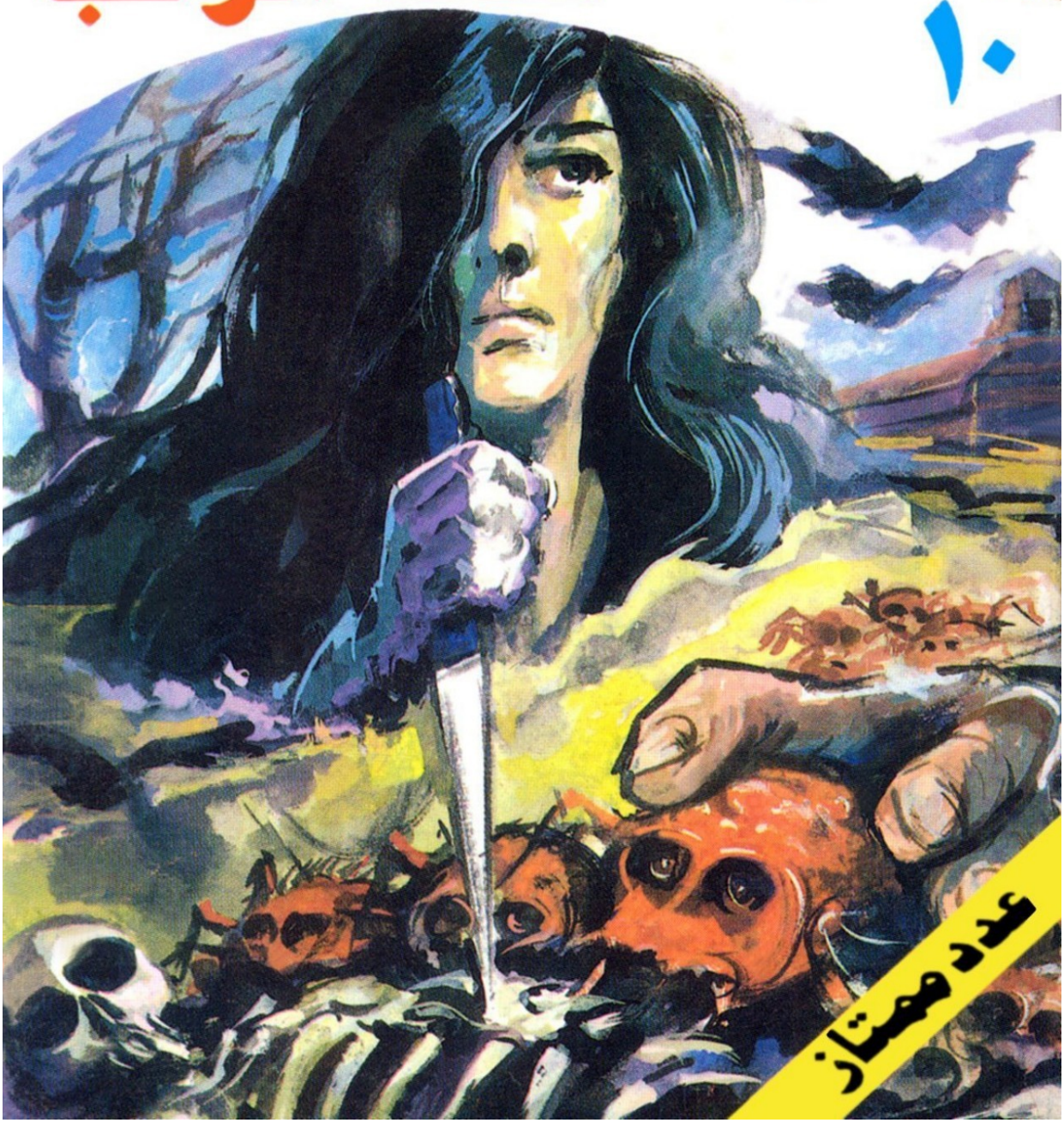
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

ماوراء الطبيعة

حلقة الرعب

١٠



عدد ممتاز

مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٠

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

حلقة الرعب

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

مقدمة..

منتصف الليل...

النوم قد جافاني.. والسعال يعابث شعيباتي الهوائية.. وفناجين القهوة العديدة تحتشد في خلايا مخي داعية إياي كي أكتب قصة أخرى..

هل تعرفون من أنا...؟

تعرفون...

لكني أرى بينكم وجوهًا جديدة بريئة لم يسعدني الحظ بالجلوس معها من قبل، لهذا أقول - لهذه الوجوه فحسب - أن إسمي هو (رفعت إسماعيل).. شيخ فان يملك مئات القصص المفزعة التي كان طرفًا فيها بشكل أو بآخر...

ماذا أحكي لكم اليوم...؟...

في هذه المرة لن تكون حكايتي كالتي تعودتموها من قبل، سأحكي لكم قصصًا عدة قصها علي بعض الأصدقاء في أمسية شتاء رهيبة.. وكان محورها جميعًا هو الخوف.. الخوف الموروث غير المبرر الذي نحمله بين ضلوعنا ولا نجد له منطقًا ولا نهاية...

إن الطقس بارد حقًا...

اقتربوا يا رفاق من مجلسنا وخذوا أماكنكم.. هل لكم في قدح من (الكاكاو) أو حفنة من (أبو فروة)؟.. هل تحبون أن تقتربوا أكثر من المدفأة؟..

إفعلوا ما يحلو لكم..

لأن الليلة ليلة غير عادية.. واللقاء غير مسبوق...

إنها حلقة الرعب...

حلقة الرعب..

- أنا أمقت الشمس والزهور!
قلتها مشعلًا سيجارتي مديرًا ظهري لهم، لمدة ثوان لم يصدقوا أنني قلت ذلك، ثم أنهم انفجروا ضاحكين في هستيريا..
سمعت صوت (عادل) الضاحك:
- لن تتغير أبدًا يا (رفعت).. دائمًا نفس التعليقات والآراء الشاذة التي تتعمدها لمجرد الغرابة..
وصوت (سهام) الساخر:
- معنى هذا أنك تحب الظلام والوحل؟!
وصوت (هويدا) الحاني:
- أنا أفهم ما يعنيه.. إنه يعشق الغموض والخيال، لكن الشمس والزهور أشياء واضحة مألوفة إلى حد لا يطاق..
وصوت د. (سامي) يقول برزانة:
- إن الشخصيات المكتئبة المتجهمة هي نوع من فطر (عيش الغراب) الذي لا ينمو إلا حيث الظلام والرطوبة..، السوداوية لا تنتعش إلا في المطر والرعود..
ثم شعرت بعيونهم تتلاقي على ظهري.. ويسألون:
- وما رأيك أنت يا د. (رفعت)؟..

* * *

ما رأيي أنا؟..
لا أدري حقًا...
من أكون أنا حتى أعرف كنه نفسي..؟
كنت أتأمل الليل البهيم في الخارج ملصقًا أنفي بزجاج النافذة البارد، وقطرات المطر تنهال على الدروب فتتناثر قطرات الوحل هنا وهناك، على حين تتكسر المرئيات عبر خيوط الماء المنزلقة فوق زجاج النافذة ببطء.. ببطء..
ثمة كشاف سيارة هنا أو هناك يمزق الظلام ويدوى صوت الأمواج الممزقة تحت عجلاتها، على حين تتكاثف قطرات بخار الماء الضبابية أمام عيني، والقشعريرة تغزو عمود الفقري إذ أتصور البرد بالخارج وأقارنه بدفء الداخل..
صوت (أم كلثوم) ينبعث من المذياع باعثًا في قلوبنا مشاعر حزينة تكاد عيوننا تندى لها (كان هذا الخميس يوافق حفل (أم كلثوم) الشهري، وكان احتشاد الأسرة حول المذياع طقسًا مقدسًا في تلك الأيام)..
وللحظة تتوهج الغرفة باللون الفضي الباهر.. ثم.. برووووم!.. يدوى هزيم الرعد معلنًا تصادم النجوم..

- يا لها من أمسية!
قالها (عادل) وهو يقف خلفي يرنو إلى ما أرنو إليه.. ثم استطرد..
- أعتقد أنه من الحكمة أن نبقى جميعًا هنا حتى تهدأ (النوّة)..
- هي آخر (نوّات) العام..
قال (عادل) في خبث وهو يربت على مؤخرة رأسي:
- يا لك من نحس!.. إنها أسوأ لحظة ممكنة يغادر فيها رجل (القاهرة) ليزور خطيبته في (الإسكندرية)..
- ألا في سبيل الحب ما أنا فاعل..!
وهنا سمعنا صوت مدام (ثريا) زوجة د. (سامي) تدعونا في حماس إلى العشاء، من ثم فارقنا موقفنا عند النافذة الموصدة واتجهنا إلى مقعدين وثيرين في قاعة الجلوس المريحة...
جميلة هي فيللا الدكتور (سامي) وأثاثها ينم عن ذوق سليم.. وكانت ربة الدار حريصة على استخدام المساحات الشاسعة الخالية من الأثاث مع استعمال لونين فحسب هما الأزرق والأبيض، والإفراط في توزيع نباتات الظل.. كل هذا كان مريحًا للعين إلى حد لا يوصف..
وكانت هناك مدفأة (كيروسين) تتوهج باعثة الدفء المادي والمعنوي في عروقنا، أما الذي زاد الدفء إلى حد لا يمكن التعبير عنه فهو جبل الساندوتشات الذي جلبته لنا ومعه عربة الشاي بما عليها من أقداح أنيقة..
هل تفهم هذه اللحظات؟.. حين يتجمل الوجود وتشعر في روحك برضا قاتل عن الآخرين وعن نفسك..؟.. حين تتمنى أن تظل في هذا الزمان والمكان حتى تموت؟..
لا وقت للتفلسف لأن هؤلاء الزملاء سينسفون الساندوتشات نسفًا - كالمحرومين - والجبل يتناقص.. تعال نر ما تحويه.. لحمًا باردًا.. جبنًا.. لا بأس.. لا بأس...
شرعت ازدرد في جشع حين دنا (عادل) من أذني وهمس:
- ارحم قليلًا..!.. تأكد أولًا من أن (هويدا) تأكل...!
- لكنها تملك مثلي فمًا ويدين...
- إنها اللياقة أيها الهمجي..!.. اللياقة!
حملت ساندويتشًا من البيض (لا أحبه أبدًا) واتجهت إلى (هويدا) وألقيته في طبقها وقلت لها بفم مليء بالطعام:
- كلي هذا..!..
ثم عدت لمقعدي غارقًا في نظرات الحنق التي يصوبها لي (عادل)..
لماذا يرمقني بهذا الشكل؟.. لن أفهمه أبدًا..
شرعنا نأكل في صمت اللهم إلا من صوت المضغ المنتظم..
بعين شبه وقحة أتأمل الجالسين حولي.. تلك المجموعة التي وحدتها الصداقة وقسوة الطبيعة..، تعال أعرفك بهم.. هيا!.. لا تخجل!..
أنت تعرفني جيدًا فلا داعي لأن أصدع رأسك بكلماتي التي حفظتها عن ظهر قلب.. أنا هو أنا دون تفاصيل..
أما هذه الفتاة - نصف الحسناء - فهي (هويدا) خطيبتي.. وجوارها (سهام) شقيقتها و(عادل) زوج الأخيرة، وهي مجموعة متلاحمة لابد أنك تعرفها إذا كنت قد قرأت مغامرتي مع آكل البشر

أو لعنة الفرعون..

أما هذا الملتحي ذو النظارة السميكة فهو (شكري الأشموني).. وهو موظف على المعاش ويمارس أغرب هواية يمكن لإنسان أن يمارسها.. تصوروا أنه - هذا المعتوه - يهوى كتابة قصص الرعب؟!..

ثم أنت تعرف هذا الأصلع ذا النظارة دون شك.. فكر قليلًا..!.. نعم..! هو بعينه د. (محمد شاهين) أستاذ (الأنثروبولوجي) الذي وحدتني معه حكاية جاري آكل البشر، وهو - كما قلت لك - إنسان بريء إلى حد لا يوصف حتى أنك لو وصفت له صراعك مع أسدين وجدتهما في غرفة نومك أمس لقضى حياته يصف شجاعتك للناس، ولظل يدخل غرفة نومه في هلع كل ليلة خشية أن يجد أسدين هو الأخر..!..

أما مضيفنا وامرأته - د. (سامي) وحرمه - فمن أكثر الناس رقيًا وتحضرًا وثقافة، ولما لم يكونا قد رزقا بأطفال فإن (السعار الاجتماعي) - ولا أجد لفظة أخف وطأة - كان يدفعهما إلى تصرفات غير عادية مثل دعوتنا إلى العشاء.. تخيل هذا!!..

كان د. (سامي) أستاذًا للأمراض النفسية لكنه لم يدخل عالم النفس من باب كلية الطب.. بل من باب كلية الآداب، لهذا كان يؤمن بأساليب التحليل النفسي ويعلق صورة (فرويد)1 المرعبة في غرفة مكتبه.. كان أديبًا أكثر منه طبيبًا.

مشكلته الوحيدة هي أنه لا يفتح فاه إلا ليعلمك شيئًا جديدًا، وقد يكون هذا محتملًا بعض الوقت.. أغلب الوقت.. لكنه - بالقطع - غير محتمل طيلة الوقت..

كان د. (محمد شاهين) متواجدًا في (الاسكندرية) وهو – بالصدفة - صديق قديم لمضيفنا.. ثم.. أنت تعرف كيف تتم هذه الأمور.. فلان يعرف فلانًا.. وعلان صديق علانه.. من ثم تكون الدعوة جماعية، وها نحن أولاء مجتمعون في هذه الأمسية نقضي وقتًا ممتعًا.. لولا الأحوال الجوية السيئة التي جعلت من المتعذر عودتنا لديارنا..

والواقع أن حرم د. (سامي) كانت اجتماعية حقيقة لا تصنعًا، تمقت الأكسجين وتعشق ثاني أوكسيد الكربون.. وكانت سعيدة فخورًا بكل هؤلاء الأوغاد المزدحمين في دارها يأكلون طعامها ويحسون شرابها..، لكن (هويدا) كانت عصبية قلقة لأنها الآنسة الوحيدة الموجودة هنا.. وأمها العجوز وحدها في الدار مع حفيدها إبن (سهام) و(عادل)..، لهذا قربت مضيفتنا جهاز الهاتف منها كي تخبر أمها أنها ستعود متأخرة بعض الشيء، وتطمئنها على أن (سهام) معها وزوجها و..!.. أنا..!..

- ولكني خائفة...

- من أي شيء؟..

قالت (هويدا) وهي ترتجف مقفلة - لا شعوريًا - ياقة قميصها:

- من كل شيء.. البرد.. الظلام.. الأمطار..

ردد (شكري) عبارتها في رصانة وهو يلوك بقايا الساندويتش الأخير، وبدا الشرود على وجهه:

- البرد.. الظلام.. الأمطار..

ثم رفع عينيه تجاهنا.. واستطرد بنفس الشرود:

- مفردات الرعب الأبدية...

أشعلت سيجارة.. وقربت مطفأة السجائر مني.. وقلت:

- وماذا في ذلك؟.. أي جديد في كل هذا؟..
رد (شكري) وهو يشعل سيجارة بدوره ويسحب المطفأة من أمامي.
- إن لدينا كل ما يلزم لقصة رعب جيدة.. البرد.. الظلام.. الأمطار.. ودراما المكان الواحد حيث يجتمع مجموعة من الأشخاص يتوقعون الشر...
- نسيت القمر...
- وعواء الذئاب.. لابد من وجود عواء ذئاب..!
قال (عادل) وقد بدأ الحديث يروق له:
- خاصة إذا ما تخيلنا أن هذه الفيللا تطل على المقابر..!
صاحت (سهام) في هلع وقد توترت أعصابها:
- (عادل)!.. هل جننت..؟
- أنا أمزح يا ملاكي.. أمزح.. أحاول أن أكون طريفًا لا أكثر..!
- وقد فشلت...!
خفض (عادل) رأسه في شيء من الحرج على حين واصل (شكري) الكلام معابثًا لحيته كعادته:
- ألا تجدون متعة ما في كل هذا؟..
تبادلنا النظرات لوهلة.. ثم تساءلت (هويدا) في أدب:
- عم تتحدث؟
تأمل طرف السيجارة المشتعل هنيهة.. وغمغم:
- متعة الرعب.. ألا تشعرون بها..؟
- هل تمزح..؟
قالتها وقد تقلص وجهها في إعلان صريح عن سماجته..، إلا أن د. (سامي) تدخل بطريقته الرقيقة المنطلقة مؤيدًا كلام ضيفه:
- إنه يعني ما قال يا آنسة (هويدا).. إن هناك لذة حقيقية في الرعب يعرفها الجميع، ولهذا يدفع الناس مالًا كي يدخلوا دور السينما ليرتجفوا في الظلام مع أفلام (دراكيولا) و(فرانكنشتاين)..، ولهذا يدخلون بيت الأشباح في مدينة الملاهي...
سألت (سهام) وهي تضع ساقًا فوق ساق:
- وما تفسير ذلك؟
- هناك تفسيرات عدة.. قيل أن الرعب الذي ترينه في السينما هو رعب (مروض).. وفي أعتى لحظات الفزع تقولين لنفسك أن كل هذا وهم.. كله خيال.. وأنك بعد انتهاء الفيلم ستعودين لدارك سالمة..، ولهذا تمارسين في استمتاع هذا التلذذ الماسوشي...
حركت شفتيها في تعثر محاولة نطق الكلمة:
- ما... ماسوشي؟..
- ماسوشي.. أي لذة التعذب.. لذة الشعور بالألم، وهي موجودة لدينا جميعًا بقدر متفاوت.. لكنها دائمًا هنالك.. والدليل هو نجاح أفلام الرعب...
اطفأت لفافة تبغي ونظرت نحو (شكري) متسائلًا:
- وهل كتابة قصص الرعب مجزية يا أستاذ (شكري)..؟

- يا له من سؤال!
- لست مأمور ضرائب.. فلا تخشن شيئًا..
أطفأ بدوره لفافة تبغه.. وأجاب في شيء من المراوغة:
- إنه سؤال لا تتوقع إجابة له.. فالقول أنها غير مجزية يعني أنني فاشل أو غير موهوب، وأنا لن أقول هذا عن نفسي أبدًا..
- إذن هي مجزية..؟
- لا تحاول انتزاع الكلمات من حلقي.. ثم إن (أدب الرعب) في (مصر) مجرد رضيع يحبو وليس له أية جذور عتيقة في تراثنا اللهم إلا قصص (النداهة) و(الغولة) و(المزييرة).. لهذا أتحرك وحدي في الظلام..
- وما جدوى أن يحاول الكاتب إفزاع قرائه؟
- لأنهم يحبون ذلك!
قالها في عصبية وقد بدأ يشعر أنني أحاول استفزازه عمدًا (ولم يكن مخطئًا في الواقع)..، وهنا تدخل د. (محمد شاهين) بصوته الواهن:
- ثم أن هناك كتابًا عالميين مثل (إدجار آلان بو) و(برام ستوكر) و(ماري شيللي) كتبوا قصصًا مفزعة ولم يتهمهم أحد بأنهم ليسوا أدباء..
قال د. (سامي) في سرور:
- هذا يؤكد ما قلناه آنفًا.. إن الناس تحب أن تخاف..، ولكن ليكن ذلك خوفًا مقننًا محدودًا..، والآن تأملوا جلستنا هذه.. نحن جالسون في الدفء والأمان في حين تعربد العواصف والأنواء في الخارج..، أليس هذا مثيرًا..؟ أليس هذا فاتنًا؟.. كل هذا الرعب بالخارج لكننا هنا في مأمن ولن يضيرنا شيء..، عندئذ نشعر باللذة ونتجه نحو زجاج النافذة - كما فعل د. (رفعت) منذ دقائق - كي نرمق الدروب المظلمة ونتخيل ما إذا كان سيحدث لو لم نكن هنا؟!..
قال (عادل) وهو يصب مزيدًا من الشاي لنفسه:
- تأكيدًا على كلامك.. كنا نطلب من جدتنا أن تحكى لنا قصص الجان ثم نتوسل إليها أن تتوقف.. وبعد ثوان نعود لنرجوها دامعين أن تواصل السرد!
وابتسم ابتسامة غامضة وقال:
- وكما قلت أنت: (الرعب المروض).. أحب أن (أتخيل) ما سيحدث لو صادفني مصاص دماء على سلم داري.. لكني لا أحب أبدًا أن يحدث ذلك!!
- هذا هو بيت القصيد..
ساد الصمت لبرهة.. ثم قالت (هويدا) في مرح:
- من الغريب أن يكون هنا حشد ممن لهم باع لا بأس به في عالم الرعب..
وأشارت نحوي إشارة ذات معنى:
- (رفعت اسماعيل) خطيبي العزيز الذي تطارده المصائب حيثما ذهب..
وأشارت نحو (شكري).. وابتسمت مستطردة:
- وكاتب قصص رعب.. ربما الوحيد في بلادنا.. و..
والتفتت في اتجاه د. (سامي).. وهمست:
-.. وأستاذ في علم النفس يفهم بواعث الرعب وجذوره..

أضفت أنا مشيرًا إلى د. (محمد شاهين):
-.. وأستاذ في (الأنثروبولوجي) يعرف أبعاد الخوف في الحضارة الإنسانية..
قال (عادل) ناقرًا على صدره:
- وأنا؟.. لست بائع فجل أبدًا وإن لدى - كرجل أمن - ما يقال في هذا الصدد..
قالت (سهام) وهي تربت على ركبته:
- حقًا قلت.. أما أنا فإن لي باعًا لا بأس به في الخوف من الفئران وبالتالي فإنني لن أظل صامتة...
نهضت (هويدا) في مرح كطفلة تلهو.. وصاحت ضامة كفيها:
- فليقل كل منا ما يثير فزعه أكثر من غيره!!
يا لها من فكرة!.. إن هذه الفتاة مخبولة تمامًا..!.. هذا الظلام وذاك الطقس اللعين ثم تقترح هذه اللعبة؟..، لماذا تخليت عنك يا (ماجي)؟.. ما كنت مقترحة شيئًا كهذا قط حتي لو طلبت أنا..
قلت في برود حقيقي:
- يا صغيرتي.. لقد سئمنا جميعًا ألعاب حفلات الكلية هذه!
شد (عادل) معصمي في قسوة.. وغضب:
- (رفعت)!.. إنك تفسد كل شيء وتحيله إلى جهد ثقيل ممل.. ألم أقل لك أن تتحمس ولو مرة واحدة في حياتي؟!
- بلى.. سأتحمس.
وجلست في تعاسة لآخذ دوري في هذه المهزلة..
وبدأت الأصوات تتوالى:
- أخاف الفقر..
- أخاف المرض..
- أخاف الفئران..
- أخاف اللصوص..
- أخاف...
- لحظة يا سادة..
قالها (شكري) رافعًا كفه وقد بدا عليه الملال.. ثم أستطرد:
- كلنا نخاف هذه الأشياء.. وكلنا نعرف أن الآخرين يخافونها، المعضلة الحقيقية هي الفزع غير المبرر.. الفزع الذي لا ندري منطقًا له لكنه يكبلنا بقيوده..
(الفوبيا).. هذه هي الكلمة المناسبة..
قالها د. (سامي) وقد وجد من واجبه أن يعلمنا مصطلحًا جديدًا:
- نعم.. نعم.. (الفوبيا).. هناك مخاوف عديدة في حياة كل منا لا يدري لها مصدرًا ولا تفسيرًا لكنها قائمة..
- يقال أن مصدرها خبرات دفينة في العقل الباطن منذ الطفولة لا نذكرها لكنها تصحو عند اللزوم.. مثلًا.. لماذا نخاف الظلام؟..
هل هي تلك الخبرة القاسية الأولى حين وجدنا أنفسنا وحيدين عاجزين في الظلام بينما أمنا غافية؟!..

بتؤدة قال د. (محمد شاهين) وهو يفرك يديه:

- إذا سمحت لي.. هناك أيضًا نظرية (الوجدان الجمعي).. فحين كان ظلام الليل ينسدل على الإنسان البدائي كان هذا يعني هجوم الدببة والوحوش، وبمرور الزمن لم يعد الخطر قائمًا لكن الخوف ظل حيًا في فصوص عقلنا..، ونفس الشيء ينطبق على خوف المرتفعات (أكروفوبيا) والأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا)..

قلت وأنا أشعل سيجارة أخرى أمام نظرات (هويدا) المتوعدة:

- قرأت أن كابوس السقوط الشهير حين يحلم الواحد منا أنه يسقط في هاوية بلا قرار ثم يصحو فجأة غارقًا في العرق.. هذا الكابوس هو إحياء لذكرى نوم الإنسان البدائي فوق غصون الأشجار حين تتخلى قبضته عن الغصن أثناء نومه.. فيهوي..



قرأت أن كابوس السقوط الشهير حين يحلم الواحد منا أنه يسقط
فى هاوية بلا قرار ثم يصحو فجأة غارقًا فى العرق ..

ابتسم د. (سامي) في غموض وقال:
- تلاحظ أن كابوس (السقوط) ينتهي دائمًا قبل أن تلمس الأرض..
- صحيح.. ولكن ما معنى هذا؟
- إنه إنذار.. مجرد إنذار وليس فيلمًا سينمائيًا له نهاية..
البريق الفضي.. ثم.. بروووووم!!..
وثبت (هويدا) في صدر شقيقتها ترتجف.. في حين وقف (عادل) متصلبًا وبدت مخايل التوتر على وجوه الرجال..، لماذا يصر هؤلاء الحمقى على كهربة الجو بهذه الأحاديث المسمومة؟.. لماذا لا يتحدثون عن شيء مبهج كالفيضانات والزلازل والمجاعات؟!..
- إن الحديث عن الخوف.. مخيف!
قالتها زوجة د. (سامي) وهي تجمع الأقداح، فنهضت المرأتان تساعدانها على حين د. (سامي) يغمغم وهو يعود لمقعده:
- لكنه يعيننا على فهم أنفسنا أكثر..
قال (شكري) مصرًا على لعبته السخيفة:
- والآن.. ليقل كل منكم ما يخشاه أكثر من غيره..
قلت وأنا أطفئ السيجارة:
- لو سمحتم لي بالبدء.. أعتقد أن (ألفريد هتشكوك) قد تحدث عن ثلاثة كوابيس رئيسية في تحفه الثلاث: (نفوس معقدة) وناقش فيها الخوف من الأماكن الغريبة.. (جنون) وناقش فيها الخوف من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم.. (دوار) وناقش فيها خوف المرتفعات..
هز رأسه في فتور بمعنى أن ما أقوله سخيف وغير مفيد.. ثم نظر نحو (سهام) و(هويدا) وزوجة الدكتور.. وسألهن:
- السيدات أولًا.. ماذا يفزع مدام (سهام) غير الفئران؟
نظرت للسقف وهي تمسك الصينية.. وتساءلت:
- فزعًا غير مبرر؟!
- بالتأكيد...
قالت في شرود بعد ثوان من التفكير:
- إنني أخاف المرآة.. أخاف من صورتي فيها وما قد تفعله حين أدير ظهري لها...!
تبادلنا النظرات.. ثم قال (شكري) في رضا:
- لا بأس.. إن المرايا تلعب دورًا لا بأس به في التراث الإنساني.. والخوف والتطير منها معروفان من قدم...
قالت (هويدا) وهي ترتجف كعادتها:
- أما أنا فأخاف الصور المحملقة التي تتابعني عيناها حينما ذهبت..
- هي خدعة بصرية قديمة.. وكل صورة يمكنها أن تتابعك إذا تعمد الرسام وضع المقلة في مركز العين، وكل رسام إعلانات يعرف كيف يعطى هذا التأثير.. وأنت يا مدام (ثريا)..؟
ابتسمت زوجة د. (سامي) وهزت كتفها.. وفكرت قليلًا:

- دعني أفكر.. ما الذي يثير رعبي؟.. نعم.. أنا أخاف كثيرًا مما يحدث على شاشة التلفزيون بعد انتهاء الإرسال حين ننام جميعًا..!

- خوف غير مألوف.. لكنه يعكس الرعب الكامن فينا جميعًا من المجهول..

ثم إنه نظر إلى د. (محمد شاهين) متسائلًا.. فهز هذا الأخير رأسه في تواضع بمعنى أنه لم يستعد للإجابة بعد... ثم غمغم:

- لا أدري حقًا.. لكنني أخاف خوف الحيوانات!

- تعني تخاف الحيوانات؟

- كلا.. أخاف خوفها.. حين يتوتر قطي الأليف أو يبدأ كلب في النباح دون سبب يكاد قلبي يقف هلعًا..

قلت وقد أثارت هذه النقطة ذكرياتي:

- إن ثقة الإنسان في غريزة الحيوان تجعله متأكدًا أن الحيوان يشعر بما لا نراه نحن، وهذا الخوف أثبت نجاحه كمقياس في الزلازل والفيضانات وحرائق الغابات، ولن أنسى ما أنسى توتر الجمل حين خرج حارس الكهف الرهيب يبحث عني.. ولا فرار الكلاب من طريق (هويدا) ليلة أن طاردها حارس المومياء..

وأنت يا د. (سامي)..؟

قال د. (سامي) في كياسة:

- الكابوس الخاص بي هو: أننا نسافر كثيرًا تاركين الفيللا خالية.. لو أن كاميرا تصوير التقطت ما يحدث فيها في تلك الآونة.. فماذا سنرى على الفيلم عند عودتنا؟!!

وابتلع ريقه في رعب.. وأضاف:

- وأخاف الأضواء الخافتة وأفضل عليها الظلام الدامس..!

قلت أنا وقد تذكرت كوخ (ميدوسا):

- أوافقك تمامًا..

ثم سألت (شكري) عما يثير هلعه.. فقال على الفور:

- الكابوس الشهير.. أن تستعين بشخص على خطر يتهددك فيتضح لك أنه جزء من الخطر..، كلنا نعرف قصصًا كهذه.. الحمال الذي يسير في غابة يعيش بها رجال لا وجوه لهم.. يجد رجلًا يدير له ظهره فيهرع مستنجدًا به كي يحميه في أثناء اجتياز الغابة، عندئذ يلتفت له الرجل في بطء فيكتشف الحمال أن الرجل بلا وجه..!..

صاحت النسوة الثلاث أن يا للرعب.. وطلبن من (شكري) أن يكف عن هذه القصص الشنيعة.. فضحك في تلذذ مرددًا:

- إنها (تيمة) قديمة جدًا في الأساطير الشعبية وقصص الرعب..

قلت وقد بدأ الموضوع يروق لي:

- ثمة (تيمة) أخرى تثير هلعي دائمًا.. فكرة (لم أكن أعلم وقتها كذا....) وهي تتكرر في كل شيء.. موثق العقود (هاركر) يبيت ليلته في قصر (دراكيولا) غير عالم بما يعنيه الإسم.. لكن القارئ يعلم!، كلنا نعرف أن جدة (ذات الرداء الأحمر) هي ذئب متنكر لكنها لا تعرف...، هي (تيمة) أدبية لكنها تثير رعبي دائمًا...

تنهدت (سهام) في إنهاك.. ودمدمت:

- تبًا لها من أمسية!!.. من الذي بدأ كل هذا؟
- (هويدا) أختك.. حين تحدثت عن البرد والظلام والأمطار..
- وأنت سعيد بكل هذا؟
- ولم لا..؟!
- لأن...
وتوتر وجهها واتسعت عيناها ونظرت لخارج الحجرة.. ثم همست:
- صه!.. أكاد أقسم أن هناك من يتحرك في الردهة..!.. بل أنا واثقة من ذلك..
قف شعر رؤوسنا جميعًا وتصلبت أطرافنا على المقاعد.. لحظات ثم دوت ضحكة (سهام) القاسية..
- كنت أداعبكم ايها السادة!.. أداعبكم... من الواضح تمامًا انكم مستمتعون بهذه الأحاديث.. لأنكم شجعان.. شجعان حقًا..!
قال (عادل) في حنق:
- (سهام).. لقد توترت أعصابنا بما يكفي فلا تزيدي الأمر سوءًا...
نهض (شكري) في عصبية.. وهتف:
- لقد أوجدنا الرعب.. لم يكن له وجود لكننا خلقناه وصنعنا له كيانًا ماديًا ملموسًا..، لقد صار هو الضيف التاسع في هذا البيت.. بل إنه صار أكثر الحاضرين تأثيرًا وفعالية..، ألا تدركون روعة هذا..؟
تعالت سبعة أصوات حانقة أن نعم..
هز رأسه في ضيق.. ونظر لساعته.. كانت تقترب من منتصف الليل والعاصفة مستمرة..، رفع رأسه متسائلًا:
- هل ننصرف الآن محاولين العودة لبيوتنا بأية طريقة؟
قال د. (سامي) في أريحية لا أثر للافتعال فيها:
- مستحيل.. ستبقون هنا، وستنام السيدتان مع زوجتي.. أما الرجال فينامون هنا معي.. لا مشكلة هنالك..
- لا أحد يرغب في النوم..
ثم لوح (شكري) بيده في الهواء وهتف:
- لنواصل لعبتنا الرهيبة.. فليحك كل منا قصة مرت به.. قصة تتعلق بالفزع الغامض الذي تحدثنا عنه الآن..
- (ديكاميرون)!
قلتها في سخرية، وبالطبع لم يفهم أحد عما أتحدث سواه ود. (سامي) من ثم قال الأول مؤمنًا على كلامي:
- هو كذلك.. مثل الـ (ديكاميرون)2.. لقد تخيل الإيطالي (بوكاتشيو) أن الطاعون اجتاح بلدًا، وأن رجالًا ونساء اختبئوا عشرة أيام حتى يرحل الوباء.. وشرع كل منهم يحكي قصة لتزجية ساعات الفراغ، على أن قصصهم كانت تدور - غالبًا - حول المجون والخيانات الزوجية.. أما (الديكاميرون) المصري فسيدور حول الخوف..
- يا لها من فكرة!..

- فلنبدأ.. وفي نهاية الأمسية سنختار أفضل قصة ونمنحها مكافأة..
وضاقت عيناه وعبث بلحيته وهو يعود لمقعده مستطردًا:
-.. مكافأة خاصة جدًا..
-.. وما هي؟..
نظر لي في شرود...
ثم ابتسم...

* * *

القصة الأولى



تحكيها: (سهام)

- ١ -

قالت (سهام) وهي تخفض صوت المذياع:
- إن الغرام القديم بين الأنثى والمرآة معروف منذ الأزل..، ولئن كانت النساء يعرفن جيدًا كيف يرين الشيء دون أن ينظرن إليه، فإن الشيء الوحيد الذي تنظر له المرأة بإمعان لهو المرأة...

* * *

أنتم تعرفون - وأقولها بكل شجاعة - إنني و(عادل) زوجي محدودا الدخل، لكن المرأة الذكية لا تكف لحظة عن البحث عن متنفس لتجميل شقتها..، وقد وفقت إلى العثور على قطع أثاث في منتهى الأناقة بقروش معدودة.. عندئذ كانت بعض لمسات التجديد كفيلة بتحويلها إلى تحفة حقيقية..
وفي ذات يوم كنت أتسوق حين وجدت رجلًا يبيع بعض الأشياء التي تحمل طراز العظمة الغابرة..، مقاعد صالون مذهبة تكومت كيفما اتفق فوق عربة يد.. ومرآة مزخرفة الإطار ملقاه بإهمال ما بين المقاعد، لكن المدهش بالنسبة الى هو أن زجاجها كان سليمًا وصقيلًا وبحال ممتازة..
ولما سألت الرجل عن ثمنها وأنا أتحسس جنيهاتي الخمس التي أطبقت عليها كفًا ملوثة بالعرق، كان رده أنه يريد خمسة جنيهات!..
كان الإغراء قويًا.. وأنا لست حمقاء.. هذه المرأة تفوق هذا السعر بمراحل، ولم تستغرق الصفقة طويلًا.. أربع جنيهات ونصف ثمن المرأة وربع جنيه كي يحملها صبي يعمل معه إلى داري..
وعدت للدار حاملة كنزي الصغير متسائلة في قلق عن رد فعل (عادل) إذ يرى ما جلبته..، إن الرجال لا يفهمون هذه الأشياء أبدًا.. وسيكون من الصعب أن يفهم كيف اشتريت مرآة بالمبلغ الذي كنا سنأكل به طيلة الشهر3..
كنا لم ننجب بعد.. ؛ لهذا لم أخش شيئًا حين وضعت المرأة في صالة البيت وشرعت أتأملها..
كانت فاخرة بلا شك، وإطارها المذهب المليء بالزخارف يعكس عظمة غابرة لو تناسينا أكوام الغبار المحشورة بين هذه الزخارف.. وتساقط القشرة الذهبية في عدة مواضع، أما المرآة ذاتها فكانت سليمة تمامًا بلا خدوش ولا عيوب في الطلاء..
لابد أن هذه المرأة كانت تزين بها في قصر أمير أو أحد بكوات ما قبل الثورة، لكنني لم أفهم قط كيف وصلت ليد هذا البائع.. ولماذا باعها بهذا الثمن البخس..؟
أحضرت خرقة وزجاجة كحول وبعض الماء والصابون وصنعت مزيجًا لا بأس به لتنظيف الإطار المتسخ..، وبدأت أعبث هنا وهناك بأطراف أناملي.. خطوة بخطوة بدأ الماء يستحيل للون الأسود لكن حال المرأة لم يتبدل كثيرًا..
وهنا اصطدمت أناملي بشيء ما..

كان ثمة شيء محشور بدقة في أحد التجاويف على جدار المرآة الخارجي، وحاولت إخراجه لكني فشلت..، تناولت مفكًا وشرعت أعالج هذا الشيء حتى تمكنت من انتزاعه وبدأت أتفحصه..

كان ذلك الشيء وريقة صغيرة برمها أحدهم بشدة حول نفسها حتى غدت أقرب إلى المسمار، وهكذا استطاع أن يدسها في الثقب..

ببطء وحذر فتحت الوريقة لكنها كانت مهترئة تمامًا وتمزقت بين أناملي قبل أن أتمكن من فتح جزء صغير منها..، من ثم كورتها ورميت بها أرضًا وعدت أواصل عملي..

كنت أرى انعكاس وجهي في المرآة بزاوية عيني، وأعتقد أنه كان واقعًا في مجال ما يسميه الأطباء بـ (البقعة العمياء) التي ترى فيها الشيء لكنك لا تميزه.. فقط أشعر ببقعة وردية هي وجهي حولها هالة سوداء هي شعري..

ولكن...

لا أدري.. للحظة خيل لي أن انعكاس وجهي في المرآة يلتفت للناحية الأخرى!!.. أنا لست مخبولة.. هذا هو ما شعرت به... رفعت وجهي نحو المرآة سريعًا فلم أر سوي وجهي المرتعب يرمقني في حيرة..

أخرجت لساني فأخرج وجهي لسانه، قطبت فقطب وجهي، لوحت بيدي اليمني فلوح الانعكاس بيده اليسرى..

لا مشكلة هنالك..

هي مجرد مرآة بريئة أخرى...

لكن ما سر هذا الإحساس العصبي الذي ينتابني؟

* * *

حين جاء (عادل) بعد انتهاء عمله كان واضحًا جدًا ومباشرًا في رأيه الذي أبداه فيما يتعلق بهذه المرأة..، وبالطبع قال إنني مدللة وعابثة ولا أتحمل المسئولية وأنه - بالتأكيد - كان يتمنى لو كان متزوجًا من واحدة أخرى لا تبدد ميزانية البيت في شراء المرايا..

- لكنها مرآة جميلة..

- وكذلك حمامات السباحة.. كلها جميلة.. لكننا لا نملك حمام سباحة في الصالون!

وبعصبية فك ربطة عنقه ودلف إلى الحمام تاركًا إياي واقفة في الصالة لا أدري ما أفعل ولا ما أقول..، وهنا استدرت - عفوًا - تجاه المرآة فلمحت شيئًا عجيبًا..

كأن صورتي في المرأة كانت ترمق ظهري بحدة طيلة الوقت، وحين التفت لها نجحت - بالكاد - في استعادة مظهرها البريء..!، وعادت كما كانت مجرد انعكاس لي..

اقتربت منها وشرعت أتأملها..

بالطبع كان معنى هذا أنها تتأملني هي الأخرى..

كانت - ككل صور المرايا - تشبهني تمامًا لكني (ولا أدري إن كنت واهمة أم لا) تبينت نوعًا من القسوة في شفتيها الرفيعتين.. بل إن ابتسامة ساخرة تلاعبت على ثغرها!..، أسمعكم تضحكون.. تقولون إنني رأيت انعكاسًا لهواجسي وحالتي النفسية وأن من كان يضحك بقسوة هو

أنا وليس الانعكاس..، لكني أقسم لكم إنني لم أكن أهذي.. أنا واثقة أن هذه الصورة كانت تختلف عني اختلافًا طفيفًا..

في هذه اللحظة دوى صوت باب الحمام ينفتح.. وبرز (عادل) ممسكًا بمنشفة واتجه نحو غرفة النوم.. وسألني دون اكتراث:

- ماذا حدث يا (هانم)؟.. هل جننت؟..

كلا.. لن أصارحه بمخاوفي.. أولًا ؛ لأن الارتباط بين الجنون وكثرة النظر في المرايا قوي في أذهاننا، ثانيًا: لأنه سيعتبر أية ملاحظة أقولها على المرآة اعترافًا مني بأنني خدعت وأضعت ماله هباء..، وثالثًا: لأن الأمر كله أسخف من أن يحكي...

وهكذا مضى اليوم..

لكنني لم أنسى في كل لحظة أمر فيها أمام المرأة أن أفاجئها بنظرة صاعقة علني أفاجئ (الأخرى) وهي غير مستعدة لتقليدي...

لكن ظني خاب في كل مرة.. أخيرًا انتصف الليل.. نام (عادل) كلوح الخشب في حين كان النوم يجافيني..

كان الطقس حارًا ورطبًا.. وقطرات العرق اللزج تحتشد على جبيني وفوق شفتي العليا، وكان الظمأ يحرقني..

نهضت لاهثة إلى الصالة لأرشف جرعة ماء من الثلاجة الصغيرة..

وفي الضوء الخافت المنبعث من جوف الثلاجة اختلست نظرة إلى المرآة التي كنت قد نسيت كل شيء عنها..

إن هذا غريب..

هذا المشهد لا يمت بصلة لصالة داري...

اقتربت في حذر من المرآة.. وكما توقعت لم أر أي انعكاس لي فيها.. لقد رحلت (الأخرى)..

أما ما رأيت فكان صورة كلاسيكية غريبة وضبابية.. كأنها امرأة.. نعم.. هي كذلك.. امرأة جميلة جدًا تتزين وهي تنظر لي من الجانب الأخر للمرأة..، وكانت ترتدي ثيابًا غريبة واسعة الأكمام مليئة بالدانتيللا.. وكانت الخلفية مزدانة - هي الأخرى - بستائر يبدو أنها ثمينة..

لم تكن الصورة واضحة لأن إضاءتها كانت تعتمد على ضوء الثلاجة الخافت، ولابد أنني لبثت بعض الوقت ثابتة كالطود شاخصة البصر إلى هذه الصورة التي لا أدري عنها أي شيء..

ثم.. بدأت أرى انعكاس صورتي من جديد..

ترى ما معنى هذا.. وما هو أصلًا؟..

عدت إلى الفراش مشوشة الذهن حتى أنني نسيت أن أشرب..، وفي الظلام حاولت استرجاع المشهد مرارًا..

حتى غلبني النعاس...

* * *



أننى لبثت بعض الوقت ثابتة كالطود شاخصة البصر إلى هذه

الصورة التى لا أدرى عنها أى شىء ..

صارت الأيام التالية جحيمًا..

فلم تكن عيناي تبرحان المرآة قط.. وطيلة الوقت يعاودني ذلك الشعور المزعج أن هذه المرأة البادية ليست انعكاسًا لي، بل هي مخلوقة أخرى تعيش هناك وتمثل أنها انعكاسي.

كانت نظرتها الثابتة الساخرة تثير هلعي..

لكنني لم أجرؤ قط على أن أصارح (عادل) بهواجسي لأن الرجال يعتبرون النساء هستيريات حتى يثبت العكس..

بل إنني جرؤت ذات مرة أن ألمح له أن:

- تلك الصورة التي في المرآة تفزعني..

ابتسم في سخرية بركن فمه.. وقال:

- إن هذا ليس جديدًا...!

ترى ماذا كان يعني بهذا التعليق؟!..

بعد ستة أيام تكرر ما حدث في تلك الليلة، وكان ذلك في الصباح بعد أن انصرف (عادل).. مررت أمام المرآة شاردة الذهن فشعرت ذلك الشعور الغريب بأن هناك من يراقبني، نظرت للمرآة نظرة صاعقة فوجدت شيئًا يختلف..

في المرآة كان هناك رجل.. رجل يرتدي بذلة وردية ويضع على رأسه طربوشًا ويشذب شاربه الرفيع الجميل بمشط صغير.. كان ينظر لي في ثبات.. ثم بدأ يعدل وضع الطربوش منتقيًا الوضع الأمثل...، ثم أخرج سيجارة رفيعة من علبة تبغ معدنية أشعلها وشرع يبتسم بخبث راضيًا عن نفسه..!

بدأت الصورة تذوب.. بينما هلعي يتشكل ويصحو..

وحين عاد انعكاسي القديم إلى السطح الزجاجي مددت يدًا متشككة باردة كالثلج إلى المرأة.. وفي توجس أدرتها حول محورها الطولي..، إن هذه المرآة مسحورة..

أقسم على ذلك.. كأنها نافذة تطل على كون آخر لا أعرف عنه شيئًا.. ثقب في حائط يفصلنا عن عالم مجهول..

إن هذه الرؤى ليست انعكاسًا لحالتي النفسية، وليست وهمًا.. لا يمكن أن يكون هناك وهم بهذه الدقة.. الدانتيللا في ثياب المرأة وستائر غرفتها وثياب الرجل المتحذلقة.. لم أسمع عن وهم تملؤه الدانتيللا من قبل..!

والآن أمامي ثلاث خيارات..

إما أن أصارح (عادل) لعل عقلين هما أفضل من عقل واحد - كما يقولون - مع استعدادي التام لقبول الاتهام بالعته..

أو أن أتخلص من هذه المرآة بالبيع أو التحطيم أو (التسريب) لكنني لست - حتمًا - ممن يفقدون خمس جنيهات بهذه السهولة..

وإما أن أتجاهل الأمر برمته متظاهرة أن المرايا المسحورة ليست من الأشياء المرعبة..!

إن الخيار الأخير يناسبني لأسباب لا تخفى على أحد..

وكذا مرت أيام عدة والمرآة في موضعها..

إلى أن جاء ذلك اليوم...

* * *

قرع أحدهم جرس الباب فذهبت لأفتحه.. وكانت (هويدا) شقيقتي ومعها (هاني) خطيـ... أعني أحد الأصدقاء4..، وقد أشاعا جوًا محببًا من المرح في الدار.. وكان هناك الكثير من الثرثرة والضحك.. خاصة حين انفجرت زجاجة المياه الغازية في وجه (هاني) وأنا أفتحها..

ثم إن هذين الوديعين العزيزين فارقاني بعد أن أبديا إعجابهما الشديد بالمرآة، ذلك الإعجاب الذي اعتدته من كل ضيوفي وكنت أتقبله في رضا تام.. وأرجوهم أن يرددوه على مسمع من زوجي..

كان (هاني) شابًا وسيمًا هادئًا كالنهر لا يكف عن الابتسام.. وكان يتقبل كلماتي القاسية ومداعباتي اللاذعة في رقة ملائكية حتى أنني كنت أقول لـ (هويدا) إنها مخطو.. أ.. صديقة لجثة..!..

وكانت هي تضحك أولًا رغمًا عنها ثم تقرر أن تغضب.. وتدمع عيناها وتوصي مرارًا ألا أقول ذلك عنه..

ما علينا..

المهم أنهما انصرفا.. فنهضت أعيد للشقة رواءها وأنظف مطفأة السجائر وأعيد زجاجتي المياه الغازية للمطبخ و...

مرة أخرى تتكلم المرآة..

هذه المرة كان المشهد مألوفًا..

نفس منظر الصالة الذي تعكسه دائمًا..، لكن كان هناك شيء غير عادي..، فبدلًا من أن أرى نفسي حيث وقفت أمامها.. وجدت انعكاس (هاني) و(هويدا) واضحين تمامًا.. وكانا يضحكان.. وفي يدي كانت زجاجة المياه الغازية تبصق رغوتها...

ذات المشهد الذي حدث منذ عشر دقائق.

لقد فهمت ما يحدث هنا..

هذه المرآة تختزن الصور التي تحدث في مجالها لبعض الوقت ثم تعيد إخراجها في لحظات عشوائية غير متوقعة..

كأنها كاميرا تصوير تدون الصور على فيلم ثم تعيد عرض ذلك الفيلم في أوقات بعينها..

وهذه الأحداث قد تعود إلى الثلاثينات. كما تدلني ثياب المرأة والرجل - أو تعود إلى عشر دقائق مضت كما حدث الآن..

ولكن ما سر هذه المرآة الخبيثة التي تتظاهر إنها انعكاس صورتي؟...

لن أعرف أبدًا..

لكني - على كل حال - أملك أعجب شيء رأيته في حياتي..، ولكم من مشاهد عرفت ولكم من أسرار فهم هذه المرآة!.. كم من جيل مر أمامها وتجمل أمامها ثم ولى بعيدًا..

إن هذه المرآة خطيرة.. لكنها فاتنة.. فاتنة إلى حد لا يصدق..

* * *

إن المرآة تراقبني..!

لهذا أخذت واجب الحذر ولم أبد أمامها إلا في أحسن صورة.. فمن أدراني أن جيلًا قادمًا لن يجلس أمام زجاجها يطالع أسراري في شغف؟!..

يجب أن أكون صريحة.. لقد كان الفضول أقوى مني.. كنت أجلس الساعات أمامها منتظرة سرًا جديدًا من أسرار ملاكها السابقين وكلي نهم.. كأنها دائرة تلفزيونية مغلقة تتجسس على هؤلاء الناس..، إن هذا ليس أخلاقيًا تمامًا لكن التجسس على قوم عاشوا قبلي بعشرات الأعوام ولا أدري من هم ؛ هذا التجسس لم يبد مشينًا إلى هذا الحد..

رأيت مئات الصور لتلك الغرفة ذات الستائر التي عرفت أنها وردية..

شاهدت عشرات المرات تلك المرأة تثبت قرطًا أو تطلي شفتيها.. لمحت أكثر من مرة ذلك الرجل - والواضح أنه كان زوجها - يمشط شعيرات شاربه..

دعك طبعًا من المرات العديدة التي رأيت فيها نفسي أفعل شيئًا أو آخر.. أو أرمق المرآة في توجس..

والمرات العديدة التي رأيت فيها (عادل) يروح هنا وهناك مرتديًا منامته الشهيرة ذات الخطوط الزرقاء الطولية..

لقد كان كل هذا ممتعًا وأثار شغفي..، لم يكن جهاز (التلفزيون) منتشرًا وقتها وبالتأكيد لم يكن لدينا واحد..، ولقد جعلتني هذه المرآة أفهم ما هو (التلفزيون) قبل أن اراه..

* * *

إلا أن (عادل) بدأ يرتاب في أمري..

وسألني أكثر من مرة عما إذا كنت أحاول تعلم التنويم المغناطيسي الذاتي، ثم صارحني أنه يخشى على حالتي العقلية كثيرًا من حملقتي المستمرة في هذا السطح الصقيل..

إلا أنني كنت مبهورة تمامًا حتى كدت أجتاز عالم المرأة كما يحدث في القصص الخيالية داخلة إلى ذلك العالم المعكوس خلفها، حيث اليمين يسار والعكس.. وحيث يتقدم المرء للأمام متى سار إلى الخلف..!.. لم أفعل ذلك بل كدت..

وفي ذات مساء كنت جالسة وحدي أمامها حين رأيت مشهدًا عجيبًا..

رأيت (هويدا) و(وهاني) ورأيت نفسي..

وكانت الوجوه ممتقعة كالحة والحركات عصبية..، أنا واثقة تمامًا أن هذا المشهد لم يحدث أمام المرآة قط.. فضلا عن أنني لا أملك ثوبًا أزرق ياقته بيضاء، و(هويدا) لا تملك معطفًا أسود...

كان (هاني) يتحدث بشراسة غير عادية ويلوح بقبضته.. بينما (هويدا) تدفن رأسها بين كفيها وتبكي ثم ترفع رأسها محاولة إقناعه بشيء ما.. أما أنا فكنت ألعب دور المصلح ما بين الطرفين.. ثم...

بمنتهى القسوة رفع (هاني) كفه وصفعها، فهببت - كما هو متوقع - صارخة محاولة إيقافه مرددة أشياء لابد أنها من قبيل (هل وصلت الأمور إلى هذا الحد؟.. أتضرب أختي أمامي أيها السافل الوقح؟!!).. نعم.. لا بد أنني كنت أقول ذلك.. إلا أنه دفعني دفعًا بعيدًا عنه.. وصاح مرددًا شيئًا ما ثم انصرف تاركًا المرأتين الباكيتين..

وبدأت الصورة تذوب..
وهنا تقلصت أحشائي..
ما معنى هذا الذي رأيته؟
إن هذا المشهد لم يحدث قط.. فهل هذه المرأة تتنبأ؟.. إن كل شيء يؤكد ذلك.. لكن كيف؟..
وكيف يتبدل الملاك الرقيق (هاني) إلى شيطان يضرب النساء.. ومتى سيحدث ذلك؟..
أنا واثقة أن المستقبل لا يمكن التنبؤ به.. لكن ما هذا الذي رأيت؟
هل هو كابوس لا أكثر سببه توتري وخشيتي على مستقبل أختي؟ لن أدري أبدًا..
لكن فكرة لا بأس بها خطرت لي..
سأعلق تقويمًا على الجدار المقابل للمرآة لتنعكس صورته على زجاجها..
وهكذا - لو شاهدت مرة أخرى مشهدًا مستقبليًا - أمكنني أن أعرف تاريخه التقريبي بمجرد نظرة إلى التقويم المعلق خلف ذلك المشهد.. حتى ولو كان الرقم مقلوبًا لكنه مقروء..
أحضرت مسمارًا ومطرقة وصعدت على مقعد لأعلق التقويم..، وهنا تذكرت شيئًا مرعبًا..
لقد كان شيء يشبه التقويم معلقًا بالفعل على الحائط فوق رأس (هويدا) في المشهد الذي رأيته منذ دقائق.. لكني لم أعبأ به كثيرًا..!
أما الأغرب فحدث عندما عاد (عادل) من عمله..
لقد نال الترقية - أخيرًا - إلى رتبة (نقيب).. وكان سعيدًا كالمهر الصغير.
وقد اشترى لي هدية لأني - كما قال - زوجته الصابرة الباسلة..
- لم أكن أعرف مقاييسك لكن البائعة كانت تماثلك حجمًا وطولًا.. لهذا طلبت منها أن تنتقى ثوبًا يناسبها هي..
نظرت له في جزع.. وبشفتين مرتجفتين سألته:
- (عادل).. هل هو ثوب أزرق ذو ياقة بيضاء؟..
تبدلت نظرته الودود إلى دهشة لا حد لها.. وسألني:
-.. وكيف عرفت؟!

* * *

- ٢ -

عند هذا الجزء من القصة كان (شكري) قد وصل لقمة الاستثارة وشرع يشعل سيجارة تلو الأخرى، في حين تصلبت (هويدا) في مقعدها وقد بدا واضحًا أنها تسمع القصة للمرة الأولى برغم الدور الذي لعبته فيها، ولم يفتني أن ألاحظ - في خبث - النظرة الجانبية التي اختلستها مدام (ثريا) للمرآة الكبيرة المعلقة في القاعة..

قال (شكري) وهو يعابث لحيته وقد اتسعت عيناه:

- إن هذه القصة تلعب على وترين.. الخوف الكامن في الإنسان من المرايا.. ثم الخوف من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم...

قالت (سهام) في ضجر:

- لم أفلسف الأمر مثلك وقتها.. كنت متوجسة فحسب..

قال (شكري) وقد بدأ (يتألق) حقًا:

- لكنك لمست معنى الرعب الحق..

- أستاذ (شكري)..

قلتها في كياسة.. فنظر لي متسائلًا.. استطردت:

- كلنا نعرف أنك إنسان ذكي ورائع.. فهلا تركتها تكمل القصة؟!

نظر لي هنيهة باحثا عن رد يخرسني.. ثم آثر السلامة وأشار لها في استسلام كي تكمل كلامها..

* * *

قالت (سهام):

صار الأمر شبه مؤكد بالنسبة لي خاصة حين علمت أن (هويدا) ابتاعت معطفًا أسود بعد يومين من هذا الحادث.. أي أن الأمر صار ممهدًا تمامًا للمشاجرة التي سيكشف فيها (هاني) عن أنياب شراسته..

هل أنذرها؟.. لا أدري.. أنا متأكدة من استحالة التنبؤ.. لكن كيف تحتشد كل هذه المصادفات؟.. إن رأسي يكاد ينفجر حقًا..

وساعات أطول أقضيها أمام تلك المرآة اللعينة..

ذات مرة شاهدت تلك المرأة جالسة أمام المرآة.. وكانت تتزين كعادتها على الجانب الآخر من الجدار الزجاجي، ثم رأيت الرجل يدخل ويقف خلفها وتدور بينهما محادثة شبه غاضبة، لم تدر رأسها نحوه لكنى فهمت أنها تحدث انعكاسه في المرآة متعمدة تجاهله.. كان الرجل يلوح بخطاب معين ويزمجر.. وبدت هي مشدوهة لكنها تحاول التظاهر أنها أقوى..

ثم.. تصلبت عيناها.. ورأيت الرجل يمد يده في جيب بدلته ويخرج مسدسًا صغيرًا جميل الشكل ويصوبه نحو رأسها... و...

ذابت الصورة وعدت أرى انعكاس وجهي.. كان وجهي - في المرآة - يضحك بخبث.. ثم.. غمزة ماكرة بالعين اليسرى جعلتني أقفز مترًا إلى الوراء..!.. لم أكن أنا صاحبة الغمزة.. وإلا فأنا على حافة الجنون ولا أدرى شيئًا عن نفسي..

ما معنى هذا الذي رأيت؟...

لا جدال هنالك..

لقد رأيت شروعًا في جريمة قتل حدث في مكان ما من أربعينات هذا القرن..

ولا يمكن أن تكون هذه الصورة وليدة عقلي الباطن...

ولكن من قتل من؟..

* * *

بعد أيام فوجئت بمشهد أكثر غرابة..

ذرات رمل وأحجار تملأ المشهد وتحيله ظلامًا تامًا.. لا شيء على الإطلاق يمكن تبينه أو استيضاحه.. فما معنى هذا؟..

ثم عادت الصورة تعكس وجهي كالعادة..

وهنا دق جرس الباب..

لم يكن (عادل) في الدار بسبب استغراقه في إحدى المأموريات.. لذا ذهبت وفتحت الباب وكان القادمان هما (هويدا) و(هاني)..، (هاني) الوديع الرقيق الذي يتدفق حياء وبرغم هذا لم أستطع أن أستريح له.. لقد سممت هذه المرأة نظرتي له إلى الأبد، لقد تحدث الأستاذ (شكري) ود. (رفعت) عن الأشخاص الودودين أكثر من اللازم..، وهذا الخوف موجود في قصص كثيرة.. إن الساحرة تدعو (هانز) و(جريتل) إلى تناول الفطائر لأنها تريد التهامهما.. ساحر (علاء الدين) يتظاهر بأنه أصدق أصدقاء أبيه..

علمونا هذا ونحن بعد أطفال، لهذا كنت على استعداد تام لأن أمقت هذا الفتى..

الشيء الأسوأ هنا هو أن (هويدا) كانت ترتدي معطفها الاسود!!..

جلست (هويدا) تشكو لي مضايقات البحث عن شقة.. وبدأت تلوم (هاني) على تراخيه..، من ثم بدأ يحتد ويدافع عن نفسه بعصبية..

إلى هنا - قلت لنفسي - ليس الموقف موقف صفعات.. ولن يزيد عن مشاجرة عادية.. لن يزيد عن ذلك أبدًا..

وهنا قالت (هويدا) في حنق:

- دعينا من هذا البائس.. وحدثينا عن نفسك..

- أنا بائس؟!

كان الغضب يلتمع في عينيه.. يا لك من معتوهة يا (هويدا)..، إنها لا تعيره اهتمامًا.. بل وتقول لي محاولة تغيير الموضوع:

- أريد أن أرى الثوب الجديد الذي ابتاعه لك (عادل).

- الـ... الثوب الأزرق..؟!

- نعم.. نعم.. ذو الياقة البيضاء.. ارتديه ودعيني أراه عليك!!

- مستحيل!!

كنت أدافع عن سعادة أختي وسعادتي.. لن يجرؤ مخلوق على إرغامي على ارتداء هذا الثوب..، ولولا أنه هدية من (عادل) لحرقته..، إنها تلح - الحمقاء - لأنها لا تعلم شيئًا.. ولا تعلم أن (هاني) سيصفعها أمامي بعد دقائق..

وهنا لاحظت أن صورة المرآة تتبدل.. لقد صرت مدربة تمامًا على معرفة هذه اللحظات.. لم يلاحظا قط أنني أنظر إلى المرآة لأنني لم أكف عن الكلام وأنا أرمقها بطرف عيني:

-.. إنه مغسول.. ثم إنه...

رأيت صورة (عادل) يصيح في عصبية.. وأنا أردد شيئًا ما في هلع وأحاول منعه..، ثم.. التقويم يشير إلى أن هذا سيحدث بعد أسبوع..

-.. ضيق جدًا ولا يناسبني.. و...

(عادل) - في المرآة - يمد يده لجيبه ويخرج مسدسه ويصوبه نحوي..

-.. ولونه ليس...

وفقدت سيطرتي على أعصابي...

انفجرت أبكي في حرقة.. حتى (عادل) أيضًا لن أثق فيه بعد اليوم.. وقد قالت المرآة أنه سيحاول قتلي..، (هويدا) و(هاني) يتساءلان في جزع عما دهاني ويطيبان خاطري، أن المرأة التي تبكي حين تتحدث عن ثوب جديد هي - دون شك - مصابة بالعته..

حين انصرفا في النهاية كنت منهارة تمامًا.. وآليت أن أخبر (عادل) بكل شيء..

* * *

ما أرقك يا (عادل)!!

ربما تتقلب بنا الأيام وتولد خلافات لم نتوقعها..

لكني سأظل مدينة لك أبدًا بالبساطة والتلقائية وقابلية التصديق التي أبديتها نحو كلماتي، لم يتهمك أحد قط بأنك مرهف الحس ولا أنك متفهم...

لكنك - من أجلي فقط - ارتكبت هذه الخطيئة: إظهار الحنان...

نهض (عادل) إلى المرآة وتفحصها في شك، ثم أشعل سيجارة وقال:

- أنت حمقاء يا (سهام).. إذ أنني بالتأكيد أتوق إلى خنقك لكني لن أطلق عليك الرصاص لأي سبب..!

ثم قلب إطار المرآة وتأمله:

- في البدء يجب أن نعرف ما إذا كانت هذه الرؤيا خاصة بك أم أنني قادر أيضًا على رؤيتها..، ثم نحاول معرفة مصدر هذه المرآة..

قلت في حذر محاولة ألا أبدو حمقاء:

- (عادل).. لماذا لم تتهمني بالخرف.. وبأن بقائي وحيدة في الدار قد أنهك أعصابي..؟..

- لأن هذا غير صحيح..!

وهكذا.. مضت الساعات و(عادل) جالس في مقعده يتأمل المرأة حتى أنني بدأت أفهم شكه في حالتي العقلية حين كنت مكانه..

ساعة تلو الساعة يجلس في مقعده يدخن ويصغي للراديو..
ولا بد أنها كانت الواحدة صباحًا حين سمعت صوته الملهوف يناديني، فهرعت حافية القدمين لأرى ما هنالك.. إلا انني وجدت انعكاسًا بريئًا لوجهينا على الزجاج، وقال (عادل) في ارتباك.. وهو يخشى ألا أصدقه:
- لقد حدث... رأيت.. رأيت..
- نعم.. ماذا رأيت؟
- رأيت فتاة شابة تنظر لي في ذهول وقد بدا أن الخوف يقتلها..
- وكيف كان طراز ثيابها؟..
هرش رأسه في حيرة:
- لا أدري.. مثل أفلام الخمسينات.. تقريبًا..
- إذن هي مالكة المرآة بعد الرجل والمرأة..
نظر لي (عادل) بعينين زائغتين.. ثم قرر أن يواصل المشاهدة وأمرني أن أنام لأن سهرته ستمتد طويلًا..

* * *

حين صحوت في الصباح وجدته ما زال جالسًا..
كانت مطفأة السجائر طافحة بالأعقاب، وفي عينيه لمحت نظرة غريبة..
نظرة شك لم أرها من قبل..
- (عادل).. هل ثمة شيء جديد؟
نظر لي في شرود.. ثم هز رأسه أن لا..، ونهض إلى غرفته ليرتدي ثيابه استعدادًا للذهاب للعمل طالبًا مني أن أعد له فنجان قهوة..
- ولن تتناول إفطارًا؟..
- لا...!
قالها في عصبية لا مبرر لها..، وانصرف تاركًا إياي غارقة في أفكار سوداء عن سر تبدل أطواره..، إن الأمر يتعلق - بالتأكيد - بشيء رآه في المرآة في تلك الليلة.. فما هو؟
أستطيع أن أجبره على الكلام فيما بعد.. أما الآن فإن الدار متسخة كحظيرة جياد.. وعلي أن أنظف كل هذا..
وهنا - أعترف - أقول أن تنظيف ما تحت السجاجيد ليس هواية محببة لدى، ولربما فعلت ذلك كل شهرين مع الماء.. لكن الوقت قد حان لذلك اليوم..
بدأت بقلب جوانب السجادة كاشفة عما تحتها حين وجدت الوريقة.. الوريقة القديمة التي دسها أحدهم في إطار المرآة وعجزت أنا عن فتحها.. ترى ما الموجود فيها؟.. إن الأمر لم يثر اهتمامي يوم ابتعت المرآة، أما اليوم فالفضول يقتلني..، أحضرت قطعتين من القطن وشرعت أحاول برفق فتح الورقة التي اهترأت تمامًا من محاولتي الخرقاء الأولى..، ها هو ذا شيء ما يتبدى لعيني.. كتابة بحروف لاتينية.. بلغة لا أعرفها (أنا لا أجيد سوي بعض الإنجليزية وأعرف الفرنسية من منظرها فقط).. لهذا فردت الورقة ودسستها تحت زجاج (البوفيه) حتى يحضر (عادل)...

وهنا دوي صوت الباب ينفتح..
دخل (عادل) في عصبية..، وهز راسه محييًا.. وتساءل:
- وحدك؟.. حسن.. إن معي بعض الزملاء.. أعدي لنا ثلاثة أكواب من الشاي.. شاي ثقيل..
دخلت المطبخ لأشعل الموقد وأضع البراد حين سمعت صوت قرعات متتالية آتيًا من الصالة، تسللت برأسي لأرى ما هنالك، فوجدت رجلا ضخم الجثة - واضح أنه مخبر - يهوي فوق المرآة بمطرقة كبيرة محاولًا تهشيمها.. إن أية مرآة تحترم نفسها تتهشم بعد ضربة واحدة أما هذه اللعينة فتحملت عشرات منها دون جدوى..



فوجدت رجلاً ضخم الجثة ــ واضح أنه مخبر ــ يهوى فوق المرآة
بمطرقة كبيرة محاولاً تهشيمها ..

تبادل (عادل) نظرة ذات مغزى مع رجل أشيب الشعر يقف بجواره.. ثم أخرج مسدسه وركب شيئًا طويلًا على فوهته (فهمت أن هذا كاتم صوت كي لا يفزع الجيران) وصوبه نحو المرآة.. دوت عدة طلقات مكتومة لكن شيئًا لم يحدث..!.. ارتدت الطلقات متدحرجة على الأرض..

- ما رأيك يا د. (سامي)؟..

سأل الرجل الأشيب.. فهز هذا رأسه في حيرة..، ثم قال بصوت رزين:

- أقترح دفنها في هوة سحيقة بالجبل..

وهنا صاح المخبر في هلع مشيرًا إلى المرآة:

- إنها تضحك.. تضحك!

المرآة تشير لنا وتضحك في سخرية!.. إن فشلنا في تدميرها قد راق لها إلى أقصى حد..، حتى أنها لم تعد تخفي ذلك..

شرع المخبر يحوقل ويبسمل.. في حين ظل (عادل) يرمق المرآة في صرامة.. كانت لحيته نامية وإرهاق ليلة أمس مرتسمًا على تجاعيد وجهه.. إلا أنه كان قد وصل لقراره..

- (بيومي).. أحمل هذه المرآة وضعها في (البوكس)..

وهنا أصدرت وسوسة بشفتي منادية (عادل)، فهرع ليرى ما بي وقد بدا عليه شيء من الضيق لخروجي من المطبخ، قلت له هامسة:

- من هؤلاء؟

- مخبر عندي وأستاذ أمراض نفسية من أصدقائي القدامى..

- وهل عرفت شيئًا عن المرآة؟

- وجدنا بائعك.. وعرفنا منه أنه ابتاع المرآة من مخلفات بيت مهندس ريّ.. وكان هذا قد ابتاعها من مزاد صودرت فيه أملاك أحد أعيان ما قبل الثورة.. والملاحظ هنا أنه...

- ماذا؟

- كل من امتلكوا هذه المرآة قتلوا أو انتحروا.. كلهم.. لقد جلبت هذه المرآة الخراب لبيوت عدة..

- وهل رأيت شيئًا أمس؟

احمر وجهه وهمس في ضيق:

- أشياء مشينة.. بخصوصك..، إن هذه المرآة اللعينة كانت تبذر الشك في نفسي تجاهك طيلة الليل..!

- ولهذا جئت على غير موعد وسالت إن كنت وحدي؟!

نظر لي في حيرة.. ولم يرد.. ثم أنه أدار ظهره ليلحق بالرجلين لولا أن ناديته مرة أخرى:

- (عادل).. الورقة تحت زجاج (البوفيه) كانت في المرآة.. لا أدري بأية لغة كتبت..

اتجه على الفور ومد أظافره ليخرج الورقة..

ثم إنه نادى الرجل الأشيب وشرعا يتفحصانها..، هتف الرجل في ثقة وهو يتأمل الورقة:

- لاتينية.. لغة لاتينية.. أنا أقرؤها إلى حد ما.. فلنر ذلك.. الشيطان يسكن هـ.. هذه الـ.. هذه المرآة.. لا.. لا تصدقوا ما.. منه.. ترونه منه..

ثم رفع رأسه مرددًا العبارة كاملة:

- إن الشيطان يسكن هذه المرآة فلا تصدقوا ما يريه لكم..

نظر له (عادل) في حيرة.. وهمس..

- ومن تظنه كتبها؟

- لن نعرف أبدًا.. لكنه كان صادقًا.. هذه المرآة تعابث من يملكها وتريه أحداثًا من الماضي وأحداثًا كاذبة من المستقبل.. وبالتالي تختلط عليه الحقائق ويجن أو يؤذي أحباءه..، على أنها كانت صادقة في نبوءة واحدة..

- وما هي؟

- منظر الأحجار الذي ملأ صورتها.. كانت تعرف تمامًا أنها ستنهي حياتها دفينة في الجبل بين الصخور.. وهو عقاب تستحقه تمامًا..

- إذن فلنسرع بإنهاء هذه المأساة..

وسمعت جلبتهم إذ ينصرفون..

وسمعت انغلاق الباب..

فخرجت وحدي إلى الصالة أنظر إلى الركن الفارغ الذي احتلته المرآة لشهر كامل.. الركن الذي غدا بالتدريج أهم أركان الدار..

فشعرت بحنين لا يمكن تبريره..!

هل أنا حقًا عاطفية وحمقاء إلى هذا الحد؟..

* * *

القصة الثانية

لماذا ارتجف القط ؟

يحكيها: د. (محمد)

- ١ -

قالت (سهام) وهي ترشف (الكاكاو):
- ماذا تقولون عن هذه القصة؟..
قالت (هويدا) مبتسمة:
- إذا ما تناسينا أنني لا أعرفها بتاتًا، يمكن القول أنها غريبة.. لكنها غير مرعبة..
قلت وأنا أشعل سيجارة أخرى:
- بالعكس.. هي مرعبة لكنها غير غريبة.. إن (كوابيس المرآة) قديمة قدم المرأة نفسها، على أن إحساس الناس بالرعب يتفاوت بتفاوت سعة خيالهم..
ونظرت نحو د. (سامي) مبتسمًا:
- إذن أنت تعرف هذه القصة.. وظللت صامتًا كل الوقت.
- الرجل المهذب هو من يتحمل سماع النكتة لنهايتها قبل أن يعلن أنها قديمة..
- كلام لا بأس به.. والآن.. فليقل د. (محمد شاهين) قصته..
أجفل الرجل الطيب - وكان موشكًا على النوم - وصاح في ارتباك وهو يجلس معتدلًا:
- ماذا؟.. ولماذا أنا بعدها؟
- إنها الحروف الأبجدية.. (سهام) ثم (محمد)..
- آه.. إذا كان الأمر كذلك.. إن قصتي..
ثم تذكر شيئًا.. فنظر لي معاتبًا.. وهتف وقد (تبيّن) أنني أتلاعب به..
- أية حروف أبجدية؟.. لو كان هذا صحيحًا لبدأت مدام (ثريا) ثم تلاها د. (رفعت).. ثم...
كدت أموت غيظًا فقلت له ماضغًا (فيلتر) السيجارة:
-.. إذن.. الترتيب بحسب السن..!
تنهد في ارتياح وقال:
- ما دام الأمر كذلك لا مشكلة هنالك.. والآن اصغوا لي....

* * *

قال د. (محمد):
كما قلت لكم من قبل.. إن لغرائز الحيوان هيبة واحترامًا في نفوسنا نحن البشر الذين أوهنت الحضارة حواسنا..، إن الحيوان يرى أفضل منا ويشم أفضل منا ويسمع أفضل منا.. أما الأهم فهو أن الحيوان يملك حاسة الخطر.. الحاسة التي لا نملك منها سوى النزر اليسير أو لا نملكها على الإطلاق..

* * *

كنت طالبًا قرويًا بسيطًا أعيش في (القاهرة) المدينة الصاخبة القاسية التي لا ترحم..، كانت الحرب قد انتهت منذ أعوام واستسلمت (ألمانيا).. وكانت هناك حركات ثورية تغلي واضطرابات وآمال كبار..، لكني كنت بعيدًا عن كل هذا في قوقعتي الخاصة..

كان رفاقي في الجامعة يثرثرون ويرافقون الفتيات ويمرحون ويتأنقون..

لكني كنت منزويًا في حيائي الريفي الطبيعي.. والأمل الخافت الذي لا ينفك يراودني: ستفخرون يومًا أنكم عرفتموني..!

أي ضير في أن تسخر الفتيات من حذائي؟.. لقد سخرت فتاة من (بنيامين فرانكلين) يومًا ما وأطلقت عليه (الكائن العجيب) ثم لم تلبث أن قبلت بكل فخار أن تكون زوجته حين صار المصلح والعالم الأمريكي الأشهر..

أي ضير في أن يتهكم الشباب على ثيابي؟.. إن (بيتهوفن) كان كريه الرائحة قليل الاستحمام.. و(ألكسندر دوماس) كان قبيحًا كقرد.. وحتى (أينشتاين) اتهمه مدرسوه بالتخلف العقلي...

كنت واثقًا أنني أصنع نفسي..

وكنت أجد ما بين صفحات الكتب ما ينسيني عذاب اللحظة..

لكن شعورًا واحدًا كان يمزق فؤادي...

الوحدة..!

الوحدة المريرة التي لن أتحملها يومًا آخر بأي حال.. كنت أعيش في غرفة حقيرة في أحد أحياء القاهرة الشعبية.. وكانت بعض أسر العمال تسكن جواري، فلم يمنعني هذا من إدراك أية متعة يعيشها هؤلاء البؤساء بين أسرهم.. صوت الضحكات.. لعب الأطفال.. الشجار.. عبارات السباب.. كل هذا كان يمزقني تمزيقًا، وحتى قشور البطيخ الملقاة في الزقاق كانت تؤلمني.. فهي كميات أكبر بكثير مما يستطيع شخص واحد أن يلتهمه..!

كنت أحيا في هذا الجحيم..

وبدأت أفهم لماذا يتزوج البشر.. إنه الضمان الوحيد كي تجد إنسانًا آخر ملكك لا يتركك وحيدًا أبدًا..

كنت غارقًا في لجة الكآبة حين قابلت (جمعة)..!

كان صغيرًا بحجم قبضة اليد.. قذرًا كمصرف للمجاري.. شرسًا كالنمر.. جائعًا كسمكة وليدة.. تعسًا كالشيطان.. وحيدًا مثلي..

هنالك أمام بابي وجدته.. مجرد قط وليد منبوذ يرتجف بردًا وجوعًا ويموء بتلك الطريقة الصامتة الواهنة التي تجيدها القطط وتسلب بها قلوبنا.

حملته إلى الحجرة.. ووضعته في سلة الخبز الفارغة التي أرسلتها لي(الحاجة) من قريتي، وأحضرت له بعض الفاصوليا التي كنت قد طهوتها لنفسي فأعرض عنها في اشمئزاز مبديًا رأيًا لا بأس به في طهوي..

فتحت له علبة من السمك المحفوظ وشرعت أضع أمامه قطعًا منها فذاقها بلسانه أولًا.. ثم بدأ يأكل..

حين انتهى راح يلعق أسنانه بلسانه، فحملته في قبضتي إلى صنبور الماء وغسلت جسده وسط محاولات إفلاته المضحكة وموائه الرفيع (من حسن الحظ أننا كنا في (يوليو) لأن غسيل القطط الصغيرة تحت الصنبور خطأ قاتل!).

ثم جففته وشرعت أرمق شعره الثائر المحتشد في أشواك..
وكان هذا هو الحب الأول في حياتي..!..
أسميته (جمعة) لأنني كنت مثل (روبنسون كروزو)5 وحيدًا في جزيرة قصية إلى أن وجد صحبة، وهذه الصحبة كانت بدائيًا جاءه في يوم جمعة، فأسماه بنفس الاسم..
لقد غير (جمعة) حياتي تمامًا..
صار لي هدف أحيا من أجله وأعود لداري من أجله..
كان يرقد على قدمي حين أنام.. ويلعق وجهي مع شعاع الفجر الأول.. ويرتمي على ظهره معابثًا خفي..، ثم يتربع على مكتبي الحقير أمامي إذا أدرس مصدرًا ذاك الهرير الرائع المنتظم..
الواقع أنني كنت أملك يقينًا لا يتزعزع أن هذا القط هو أخي..
فقط هو مصاب بعيب خلقي بسيط يجعله يمشي على أربع ويأكل السمك ويموء، ولابد لي أن أقبله كما هو لأني أحبه!..
ظلت الأيام تدور بنا..
وفي الأوقات القليلة التي كنت أفارقه فيها إلى قريتي كنت أعطي مفتاح الحجرة لـ (آمال) ابنة الجيران كي تطعمه..
كان هذا في الفترة السابقة للقائي بـ (داغر)..

* * *

اسمه عجيب.. أعلم ذلك..
لكن وجهه أكثر غرابة.. فهو شاحب اللون رمادي العينين تتطاير خصلات شعره الأبيض في الهواء.. ضخم.. مهيب... وكانوا يقولون أنه من أصل تركي يبرر مظهره غير المألوف واسمه العجيب..
وكان من أوائل الشباب الرقيع الذي تخلى عن الطربوش.. وبرغم أن كثيرين قد حذوا حذوه في تلك الأيام - أواخر الأربعينات - إلا أنه كان أولهم..
قابلته في الجامعة يدرس الفلسفة..
كان على النقيض مني في كل شيء.. ولن اشرح كيف..
لكنه كان شخصية مغناطيسية يلعب ذات الدور الذي تلعبه البلورة الصغيرة حين تعلقها في سائل مشبع..، إنه مركز تبلور.. وآراؤه وكلماته تغدو هي (الرأي العام) بعد أيام من قولها..
ومن اللحظة الأولى أدركت أنه لن يكون صديقي...
لكن (داغر) أصر على العكس...
وكان له ما أراد..

* * *

كنت جالسًا في المكتبة أطالع بعض كتب علم الأجناس حين وجدته يتخذ مقعده جواري..، العطر الغريب الذي يذكرك بشيء لا تدري كنهه وأنامله الدقيقة كأنامل أفضل عازفي البيانو..
قال لي وهو يقلب صفحات كتاب:

- إننا زميلان.. هل تعرف ذلك؟.. إذن لماذا لا نتعرف؟
- (محمد شحاته).. من إحدى قرى (القليوبية)..
ابتسم في شيء من الرقة الممزوجة بالتهكم.. وقال:
- إسمي (داغر).. (داغر السفير).. وعلى كل حال أنا لم أطلب معرفة محافظتك..
- هي العادة لا أكثر..
وبدأنا نتحدث.. كان مسليًا وواسع العلم لكنى لم أستطع أن أحبه.. نفور لا سبب له ينتابني تجاهه، ذلك النفور الذي فسرته بحقدي المحتوم على طالب مثله يملك كل شيء...
لكنه كان لزجًا كالذبابة..، كانت نظراته محملقة ثابتة إلى درجة مزعجة تسلبك حريتك تمامًا.
الخلاصة أنه كسب أرضًا بعد هذه المحادثة.. وصار من يجذب مقعدًا إلى جواري في أي مكان أجلس فيه دون أن أتمكن من الاعتراض..
هل هو اجتماعي إلى هذا الحد الذي يحرص معه على ألا يفلت طالب من دائرته؟.. أم هو يتسلى بهذا النمط الساذج الغريب الذي كنته؟... إن لديه أصدقاء كثيرين ويمكنه دائمًا أن يشغل وقت فراغه..
بل أنه - صدق أو لا تصدق - طلب زيارة داري..!
كدت أجن.. وطفقت أولول وأصرخ وأؤكد له أن داري ليست دارًا بل هي أقرب إلى الحظيرة أو السوق أو مخزن الكرار..، وأنه حتمًا لن يحب رؤيتها فضلًا عن دخولها.. فلا داعي لهذا التودد..
إلا أنه ابتسم في لزوجة.. وأكد لي:
- إنني على غير ما تحسب.. وجميع الأماكن عندي سواء...
- ما دمت مصرًا..، على الأقل سأجد لك كوبًا مكسورًا هنا أو هناك يصلح لتشرب فيه شايًا..!
- كما تريد...
وفي مساء الأربعاء أولجت مفتاح الباب في القفل.. ودخلت الغرفة ومعي هذا الأخ المتودد.. وشرعت أزيح الزجاجات المكسورة والخرق وعلب السمك المحفوظ الفارغة التي تسد طريقه إلى المقعد الخشبي الوحيد..
- ليست غرفتك بشعة إلى هذا الحد.. تبدو لي كغرف الرسامين التأثيريين في (مونبارناس).
لم افهم هذه العبارة لكنها أكدت لي انه قد سافر إلى هذه الـ.. الـ.. مومبراس مرارًا.. ولا بد أنه مكان رائع فيما عدا غرف الرسامين التأثيريين القذرة التي تملؤه!، ما علينا.. سأعرفه بأخي السنوري (جمعة) الذي سيعطي لحديثنا أرضًا أوسع.. خاصة وكل الناس مولعون بالحديث عن الحيوانات والأطفال..
- (جمعة)..!.. أين أنت؟.. أيها الهر السخيف..!
- هل لديك هر؟
سألني وقد تبدل تعبير الارتياح المرتسم على وجهه.. لا أكذب إذا قلت أنه بدا قلقًا ومتوترًا..
سألته في مداعبة واضحة:
- يبدو أنك لا تحب القطط؟..
- ولا الحيوانات عمومًا..
- ولكن صبرًا حتى ترى (جمعة)..

وركعت تحت الفراش باحثًا عن ذلك القط العنيد..
كان هنالك في الركن المظلم متكورًا حول نفسه وقد انتفشت شعيراته والتمعت عيناه في الضوء كفيروزتين، وكان يصدر زئيرًا متوترًا غير عادي.. فلما مددت يدي نحوه أصدر فحيح الأفعى..



وركعت تحت الفراش باحثًا عن ذلك القط العنيد ..

إن هذا القط خجول أكثر مما توقعت..
امتدت يد (داغر) إلى ظهري حيث انحنيت راكعًا تحت الفراش.. وسمعت صوته الرخيم العميق يغمغم:
- دعك منه الآن..
فليكن..، وعدت أزحف على ركبتي خارجًا، ووقفت على قدمي أمام الفتى الذي مد يده يزيل شيئًا ما من على ذقني.. ويبتسم:
- وجهك غارق في الغبار وخيوط العناكب... لقد أنذرتك..
وعلى السقف تحرك صديقي البرص مغادرًا داره ما بين ألواح الخشب التي تدعم الحجرة..، وهو حدث غير مألوف في هذه الآونة من العام. لكنه حدث وأرجو ألا يلاحظ ضيفي ذلك..
دعوته للجلوس فجلس على مكتبي المتهالك الذي أدرس عليه كيف أكون أعظم إنسان في العالم، وبدأ يتحسس كتبي بيد فضولية..
- تدرس كثيرًا..
- ليس لدي عمل آخر..
- قراءاتك متنوعة..
- إنه ذلك الظمأ المقدس للمعرفة..
وشرعت أعد له كوبًا من الشاي مكتشفًا - في كل ثانية - أية حياة حقيرة أحياها وأية هاوية أنا مترد فيها، وهو الاكتشاف الذي كان يعاودني كلما زارني أحدهم.. لا يوجد براد نظيف.. لا ملعقة غير صدئة.. لا كوبًا غير مشروخ.. تبًا لها من حياة..!
على أنه لم يبد مهتمًا بكل هذا..
بل أنه أخذ كوب الشاي بتؤدة ونوع من الامتنان.. ثم اخرج علبة تبغ جلدية أنيقة وناولني لفافة رفضتها شاكرًا:
- لا أدخن.. شكرًا..
أشعل لفافته في تؤدة وبحث بعينيه عن مطفأة لكني أشرت له ألا مانع من إلقاء الرماد على الأرضية..، بدأ يدخن لحظات.. ثم قال لي:
- أنت لا تدخن.. وتقضي الوقت في الدراسة.. إنك نموذج الطالب المجد الذي كنا نرى صورته في كتب المطالعة الابتدائية..
سرني هذا المديح لكني فطنت إلى أنه كان يتهكم.. إذ أردف:
-.. وطبعًا تتوقع أنك تبذر بذور مجدك وأن هذه الغرفة هي الشرنقة التي ستحلق منها فراشة آمالك..
- لا أدري.. لكنني أحاول..
قال لفظة فرنسية لم أدر معناها.. لكنها - بالتأكيد - تحمل معنى الهباء أو كما نقول (كان غيرك أشطر).. ثم أنه رشف جرعة شاي.. وقال:
- أنت غارق في الحلقة الدامية الشهيرة.. من لا يستحق يجد.. ومن يستحق لا يجد.. ومن الحمق أن تظن أن هذه الحلقة كانت تنتظرك دون ملايين البشر كي تحطمها..

آه!.. ها نحن أولاء قد بدأنا نغمة التعالي.. هو ذا ذلك المدلل ابن المدينة يحاول بمقص من منطق أن يزيل جناحيّ..

قلت في فتور:

- لكني أحاول.. أليس كذلك؟..

لمس نغمة الجفاء في صوتي فقرر أن يتبسط قليلًا.. وبدأ يثرثر عن (العقاد) و(طه حسين) ومعارك الأحزاب.. إلخ...

ليت كلب الجيران يكف عن النباح لحظة.. ماذا دهاه هذا المخبول؟

مضت لحظات ونباح الكلب مستمر ويتعالى.. مع صوت سباب من جاري أبي (آمال) يصف كلبه بأقذع النعوت..

توتر (داغر) بعض الشيء وبدا أنه غير قادر على الاستمرار.. ثم كور بقايا لفافة تبغه ورمى بها أرضًا.. وتنهد:

- سنواصل حديثنا في وقت آخر..

وتهيأ للانصراف مما سرني كثيرًا وإن تظاهرت بالعكس.. وعلى باب الحجرة استدار وتشمم الهواء الراكد.. وهتف:

- تذكر.. أنت تستحق ما هو أفضل..

* * *

حين عدت لغرفتي شعرت بروحي تضيق حتى لتتصاعد إلى السماء.. لقد نجح هذا الوغد في إفساد التعود الذي كنت أستعين به على حياتي، ورغم أنني ريفي فإن دارنا كانت أجمل وأنظف من هذه الغرفة مئات المرات..

لا تظلموني يا رفاق..

ربما أنا ضعيف الشخصية أو طيب القلب لكن ليس إلى هذا الحد..

ومهما كان أحدكم يحب زوجته فهو خليق بأن يمقتها إذا ظل هناك من يقبحها في عينه ليلًا نهارًا.. إن الرضا كوب من الحليب تكفى ذبابة انتقاد واحدة كي تعكره إلى الأبد..

أما المشكلة الحقيقية فكانت مع (جمعة)..

إن هذا الهر الأبله كان متوترًا متحفزًا بشكل غير عادي، بل إنه ظل يرتجف طيلة الساعتين التاليتين وعزف عن الأكل حتى كدت أموت رعبًا عليه..

كانت العاشرة مساء حين قرعت الباب (آمال)..

ابتسمت في رقة معتقدًا أنها جاءت بعذر مختلق لمجرد أن تتبادل كلمتين أو ثلاثًا معي قبل أن تأوي لفراشها.. صحيح أن هذه الفتاة لم تبد مطلقًا أي اهتمام بي لكني كنت أضع (بنيامين فرانكلين) نصب عيني..!

لكنها كانت جادة..

كانت متوترة حقيقة لا تمثيلًا..

وقالت وهي تبتعد عن الباب في حياء:

-.. لا مؤاخذه يا سي (محمد) على مضايقتك.. ولكني كنت عائدة للبيت حين رأيت هذا..

- رأيت ماذا يا (آمال)؟
أشارت إلى الأرض.. إلى عتبة غرفتي الخشبية.. وتساءلت:
-.. من أين يأتي كل هذا النمل؟.. ولماذا يهرب من غرفتك أنت بالذات؟..

* * *

- ٢ -

قلت وأنا أعابث قداحتي -

- إن قصتك يا د. (محمد) تحمل روائح مألوفة لي.. هذا اللقاء لا يمكن أن يكون لقاء زميلين.. وإنني لأشم روائح د. (فاوست) بشكل أو بآخر..

ثم نظرت له في حدة.. واستطردت:

- هل أنت واثق أن (داغر) هذا لم يكن الشيطان؟.. وأنه لم يعرض عليك بيع روحك مقابل المجد أو الحكمة أو الثراء؟!!

قاطعني (شكري) في عصبية هاتفًا:

- هأنتذا تفسد القصة هذه المرة..!

نظرت له في غل.. من العجيب أن كراهية عارمة - لا مبرر لها - قد تسللت إلى علاقتي بهذا الملتحي، مقت غريب لعينيه الوقحتين - وسيجارته التي يلوكها طيلة الوقت - قد ملأ روحي.. وبرغم أنه يكبرني بعشرين عامًا على الأقل إلا أن نفورنا قد وصل إلى درجة القتل..!..

قال د. (محمد شاهين) في حياء:

- صبرًا د. (رفعت)... صبرًا.. إنك لواجد الإجابة على علامات استفهامك بعد دقائق..

ثم أنه تذكر شيئًا.. فصاح محنقًا:

- بالمناسبة.. قلت لي أننا نحكي القصص حسب ترتيب السن.. هذا غير صحيح وإلا لكان أولنا هو الأستاذ (شكري)!.. تذكرت ذلك الآن!

ماذا أقول لهذا الرجل..؟

- د. (محمد)..

- نعم؟..

- هلا أكملت قصتك اللعينة هذه؟!!

* * *

قال د. (محمد) مواصلًا حكايته وقد احمرت أذناه قليلًا: حين انصرفت (آمال) بدأت أدرك أن هناك شيئًا ما ليس على ما يرام.. بالواقع لم يكن أي شيء على ما يرام..

ركعت على ركبتي أتتبع سرب النمل الطويل الكثيف كأنه رسم بفرشاة سوداء على خشب الأرضية..

ها هو ذا.. إنه يتعرج حول نفسه متجهًا إلى أحد شقوق الحائط الكثيرة.. الموضع الذي يفر منه كل هذا النمل..

ما معنى هذا..؟

هجرة نمل في هذا الوقت من العام..؟

وقط متوتر كأنما أوصلت ذيله بقابس الكهرباء..

وبرص يعدل عن رأيه في الوقت الملائم لبدء البيات الشتوي..
وكلب يعوى كالمسعور دون سبب واضح..
كل هذا متزامن مع ذلك الشاب غريب الأطوار والمظهر.. الذي كان عندي من لحظات..
إن هذا يعني.....
وانتصب شعر رأسي (كان عندي شعر رأس في تلك الآونة) واستحال جلدي كجلد الإوزة..
لقد فهمت الحيوانات والحشرات ما لم أفهمه أنا..

* * *

ومضيت أجول الغرفة في قلق:
كان (جمعة) قد هدأ قليلًا لكنه متكور كالجورب القديم في ركن الفراش ويرمقني في توجس..
كف عن الهلع أيها القط السخيف.. أرجوك..
لم تعد لدي أعصاب تتحمل كل هذا..
ولكن.. ما سر هذا الإسم الغريب الذي يحمله؟.. إنني واسع الثقافة - كما تعلمون جميعًا. وكان من السهل أن أقول لنفسي أن (داغر) معناها (لص) وهي كلمة عربية فصحى لكننا نسينا معناها.. أما (السفير) فهو إسم مليء بالدلالات.. خاصة إذا ما استبعدنا معناه القريب الدارج..
أنا أعرف أن (لوسيفر) هو الاسم اللاتيني للشيطان.. وقد كان في الأصل يعني (الزُهرة) حين تغدو (كوكب صباح) ثم اقترن بالشيطان في الديانة المسيحية لأنه كناية عن الخيلاء التي تقود صاحبها للهلاك..
فهل ثمة دلالة معينة لتشابه حروف (لوسيفر) و(السفير)؟!..
إنني غزير العلم - كما تدركون جميعًا - وتفهمون أن الأدب العالمي هو مملكتي الخاصة.. وإن قصصًا مثل (فاوست) و(أحزان الشيطان) لا تغيب عن مخيلتي..
لماذا لا نعرف شيئًا عن نشأة (داغر) ولا اسرته ولا عنوان داره..؟ لماذا يزور الجميع لكن أحدًا لا يزوره..؟
الوغد..!.. لكم كان ناعمًا مهذبًا مؤذيًا كالأفعى...
كانت الساعة تدنو من منتصف الليل وكان النمل قد أنهى هجرته غير المفهومة.. والقط في موضعه السابق..، حين سمعت دقًا متواصلًا على الباب..
فوثب قلبي إلى فمي..
اتجهت للباب في تؤدة وألصقت وجهي به.. وتساءلت:
- من هناك؟
كان هذا هو صوتي المرتجف.. المتوجس.. الرفيع كصوت سحلية مشنوقة..
وهنا سمعت الصوت الذي سيظل يفعم كوابيسي:
- إنه أنا.. (داغر).. إفتح يا (محمد)..!

* * *

- دا.. دا.. (داغر)؟.. مـ.. ماذا تريد؟

قال في سخرية:
- ليس لعب الشطرنج بالتأكيد.. نسيت مفاتيحي عندك..
- لحظة..!
ووثبت كالملسوع إلى حيث كان جالسًا.. فوجدت المفاتيح التي تحدث عنها.. غريب هذا!.. أنا واثق من أنه لم توجد مفاتيح طيلة المدة التي تلت رحيله.. هذه المفاتيح برزت فجأة..!
حملتها بين إصبعين - كالثعبان - واتجهت للباب.. هل أفتحه؟..
لا أدري.. لكني - حتمًا - لن أتمكن من تمريرها أسفله.. إذن لا مناص من فتح الباب.. مددت يدي للقفل وأزحته في توتر.. ودخل (داغر) الغرفة.. كان وجهه الوسيم صارم الملامح يتلألأ بين الظلال وهو يدلف للحجرة وعيناه تلمعان ببريق غير مريح.. بريق لم....
مياااااووو..!
انشب (جمعة) مخالبه في الملاءة وقوس ظهره ثم وثب بقفزة واحدة إلى ما تحت الفراش.. فقال (داغر) وهو يهز رأسه:
- إن هذا القط غريب الأطوار..
والتقط المفاتيح ودسها في جيبه.. وأردف:
- لماذا تحتفظ بهذا الوحش الشرس في دارك؟..
كنت أنا أتعوذ وأردد الأدعية كي يتركني هذا (الشيء) سالمًا هذه الليلة.. وإلى الوراء تراجعت ثلاث خطوات..
- ماذا بك يا (محمد)؟.. لا تبدو طبيعيًا... هل حدث ما يضايقك؟
كان يدنو مني في تؤدة وعلى شفتيه ابتسامة معسولة..
- ابتعد عني..!!
- لماذا؟.. لماذا لا أدنو منك؟
كنت أتراجع للخلف محاذرًا أن أصطدم بالمكتب..
- ابتعد أيها الشيطان!!
ضحك والتمعت عيناه وتبدت أسنانه البيضاء النضيدة:
- أنا شيطان؟.. إنك ذكي يا صديقي..!
- أنت...
وهنا حدث الشيء.. الشيء الذي لم أتخيله في أفظع كوابيسي..
شممت رائحة غبار.. ثم هوى عرق خشبي عملاق من السقف.. وتطاير الغبار أكثر.. ثم بدأ الجحيم..
أخشاب تتهاوى.. الأرض تميد تحت قدمي.. قرقعة.. صخب.. صوت تهشم..، (راغب) يحاول أن يقول شيئًا ثم يسقط أرضًا.. عواء القط.. عواء الكلب.. رائحة عطن.. صراخ نسوة..
ثم لا شيء...

* * *

في مستشفى (القصر العيني) صحوت لأجد نفسي ملفوفًا في الضمادات وعشرات الأصوات تردد أن الحمد لله.. وفهمت ما هنالك..

لقد انهار طابقان من المنزل المتداعي الذي كنت أسكن فيه ولم يصب - بالطبع وكما هي العادة - سواي و(داغر)..

(داغر) المنحوس المسكين الذي عاد ليأخذ مفاتيحه دقيقة واحدة.. دقيقة واحدة لكنها كانت كافية كي ينهار المنزل فوق رأسه ومن حسن حظه أنه لم يقض نحبه..

(داغر) سليل الأرستقراطية الذي لعبت برأسه السياسة فانضم إلى إحدى المنظمات اليسارية المتطرفة.. وتنصلت منه أسرته.. تاركة إياه يمارس دورًا اختاره لنفسه في توعية البؤساء من أمثالي بقسوة وضعهم الطبقي المتدني.. توطئة لضمهم إلى المنظمة..

(داغر) الذي تلقى جزاء حماسه المبالغ فيه في صورة كسر في الفخذ والذراع وارتجاج مخ لا بأس به..

الواقع أنني - في تلك اللحظة - لم أعد أمقت ذلك المعتوه إلى ذلك الحد..، طيلة حياتي كنت أتعاطف مع الفريق الخاسر...

حاولت أن أكسب صداقته من جديد.. لكنه كان قد تعلم درسًا لا بأس به، لهذا أفلت منى وعاد للدراسة من جديد.. وإن كان قد فقد مغناطيسيته أو لم يعد يعبأ بها..، ثم إن (البوليس السياسي) استضافة بعض الوقت مما شفاه نهائيًا من التودد..

* * *

وفي المستشفى زارتني (آمال) وأمها.. وكانت سليمتين تمامًا، وكانت الأم قد أعدت لي بعض الحمام والأرز المعمر كأفضل هدية تعرفها لمريض (ولم تكن مخطئة تمامًا في هذا)..

أخبرتني في تفاؤل أن البيت أمكن إعادة ترميمه فلم يعودوا بلا مأوى.. وأقسمت أغلظ الأيمان أن آكل أمامهما في فراشي..، فلم أكذب خبرًا إلا أنني تجنبت سؤالها عن قطي وعن العزيز (جمعة) الذي كان شريك حياتي لفترة وجيزة.. ثم ولى بعيدًا ككل ما هو رائع..

- قطك بخير يا سي (محمد)...

قالتها (آمال) في نعومة.. مما جعل وجهي يتهلل طربًا غير مصدق لما تقول..، أردفت مبتسمة:

- إن الحيوانات تشعر بالخطر قبلنا... لهذا نجا بعمره في تلك الليلة..

شرد ذهني وأنا ألوك الأرز إلى أحداث الأمسية.. هروب النمل وتوتر القط وذعر الكلب، كانت تشم الخطر وتتحفز ضده..

لكنى - كما هو واضح - أسأت فهم رسالتها وحسبت زائري المقتحم نوعًا من الـ....

إن مشاكلي لم تنته.. بل - بالأحرى - بدأت..

لكني أملك هدفًا.. وأعرف كيف أحقق هذا الهدف، لا أذكر كم من عظماء التاريخ قد انهارت غرفهم فوق رءوسهم.. لكني واثق من أنهم كثيرون..، وعما قريب سيفخر كل معارفي أنهم عرفوني.. وأنهم أحضروا لي الأرز والحمام حين كنت مريضًا جائعًا محطمًا..!

سيكون الغد حافلًا..، وفيه كل شيء ممكن.. أما اليوم.. فلأنم ملء جفوني..

* * *

القصة الثالثة

حشرة الشيطان ..!

يحكيها: د. (رفعت)

- ١ -

كانت الساعة هي الثانية بعد منتصف الليل..
لقد هدأت الأمطار المصطدمة بزجاج النافذة.. لكن العواصف مستمرة...
وكنا جالسين نتحدث عن قصة د. (محمد)..
قال (عادل) في تهكم وهو ينهض ليريح ساقيه المتصلبتين:
- مرة أخرى تخدع يا د. (محمد) وتعطي صبغة غير مادية لأمور مادية تمامًا.. هل تذكر قصتك مع آكل لحوم البشر؟..
- إن ما حدث كان خديعة.. لكن رعبه كان حقيقيًا..
قالها (شكري) وهو يدون بعض الأفكار في (أجندة) صغيرة.. ثم أنه نظر لي متسائلًا:
- والآن.. قصتك يا د. (رفعت)..
نهضت واضعًا يدي في جيبي.. وتفكرت حينًا.. ثم غمغمت:
- لا أدري حقًا.. إن لدى عشرات القصص.. لكنها جميعًا طويلة ولن تترك مجالًا لراو آخر..
ثم تذكرت شيئًا.. (يوسف).. وحشرة الـ (أنثروفاجا).. و.... كيف نسيت هذه القصة؟.. كيف..؟..
رفعت رأسي في تؤدة.. وقلت:
- حسن.. هناك قصة قصيرة نوعًا ولربما شوقتكم.. لكن عدوني إذا شعرتم بالملل أن تخبروني بذلك.. لا أحب أن أكون سمجًا أو ثقيلًا..
- غريب أن تقول أنت بالذات هذا!!
كانت هذه العبارة بالطبع صادرة من خصمي الطبيعي (شكري).. لكني تجاهلته وبدأت أروى قصتي للأناس المحترمين الآخرين..

* * *

قلت لهم:
إن أشد ما يثير رعبي لهو الجهل بالخطر..، وفي كل قصصي أردد عبارتي الخالدة: (لم أكن أعرف ذلك.. لأني كنت ساذجًا.. ساذجًا)..، تخيلوا لحظة دخول (ذات الرداء الأحمر) لجدتها التي لا تعرف أنها ذئب متنكر.. كلنا نعرف ذلك لكنها لا تعرف.. حتى لنكاد نصرخ: إهربي.. إهربي!.. لكنها – بالطبع - لا تسمعنا..
(جوناثان هاركر) يزور قصر (دراكيولا) وهو الوحيد الذي لا يعرف من هو (دراكيولا)...، رائحة الكبريت انبعثت من (كاترين) في القبو المظلم لكني لم أربط بين ذلك وبين مصاصي الدماء..
وفجأة تلتمع الحقيقة كضوء شهاب..
ويدرك بطل القصة - بعد فوات الأوان - أنه في مأزق حقيقي..
عندئذ تولد ذروة القصة..

* * *

كنت أدخر هذه القصة لأحكيها لقرائي.. لكن لما كانت أقصر من اللازم فإنني سأحكيها لكم الآن في حلقة الرعب الوليدة هذه..

كان ذلك في عام ١٩٦٤..

قابلته في الطريق العام في مكان ما من شارع (شريف)..

هل كنت رائحًا أم غاديًا... مكتئبًا أم متفائلًا؟.. أصلع الرأس أم غزير الشعر؟.. لا أذكر.. لكني - فقط - أذكر أن رؤيته فتحت أمامي كونًا من الذكريات..

كان بدينًا متلاحق الأنفاس يبلل العرق الغزير جبينه وموضع شاربه وتحت إبطيه، وكان يرتدي قميصًا صيفيًا واسعًا وبنطالًا رثًا.. الخلاصة أنني استشعرت أن أحواله على غير ما يرام...

سددت أمامه الطريق بجسدي ورسمت أفظع ابتسامات الرد على سحنتي.. فرفع نحوى عينين مذعورتين كأنما ناديته من كون آخر سحيق..

وللحظة احتشد للعدائية ثم بدأ يتذكر..

- (رفعت).. (رفعت إسماعيل)..!

- (يوسف).. (يوسف شوقي)..!

- يا لك من وغد قديم!

- ما زال لسانك يقطر لطفًا..!

هل تعرف هذه اللحظات الخالدة؟..

لحظة لقاء صديقين قديمين حين يتهاوى سد الأعوام.. وحين تبدأ - تلقائيًا - نغمة الحساب:

- ماذا فعلت أنا؟ وماذا حققت أنت طيلة هذه الفترة؟..

كم من الأحلام أثمرت شجراته وكم ذبل؟.. أية أمراض لم تحسبها تصيب مثلك وأصابتك؟.. ما أسماء أطفالك وهل هم حقًا موجودون أم أنك لم تنجب بعد؟.. هل ارتفعت خطوة أم هبطت خطوة أم أنك ما زلت كما أنت؟..

وكالعادة تم الاتفاق على اللقاء..

أعطاني وريقة صغيرة متسخة رسم فوقها - كيفما اتفق - كروكيًا يبين مكان داره، ودعاني إلى أن أزوره.. وليكن ذلك غدًا إذا أمكن...

وفي الموعد كنت هناك حاملًا علبة صغيرة من الشوكولاتة ورزمة من الذكريات، أنا أفهم هذه النوعية من الأمسيات.. سيعرفني على سيدة بدينة متشككة يقول لي إنها (المدام) وعلى مجموعة من الأطفال الوقحين الذين يضعون الميركيروكروم على ركبهم.. ولسوف يقدم لي زجاجة مياه غازية وقدح شاي ولربما بعض (الجاتوه).. ثم نمضي الوقت في كلام من نوع: هل رأيت فلانة؟.. أين فلان؟.. هل تذكر كذا.. وكذا..؟.. كانت أيامًا رائعة ليتها تعود..، ثم نفترق على وعد بلقاء آخر.. وكالعادة لن يكون هناك لقاء آخر..!..

هكذا تمضي الأمور دائمًا..

ليس لي أن أتوقع أكثر..

لأنه لن يكون هناك أكثر..

* * *

كانت شقته تنم عن ذوق رائع..
ودون جهد أدركت أنه غير متزوج..
لا تستطيع زوجة أن تنسق شقتها بهذا الذوق الرائع، دعك من أن الأطفال لن يدعوا حجرًا فوق حجر..
السؤال الوحيد هنا هو ذلك التناقض ما بين ثيابه الرثة وشقته الفاخرة المريحة للأعصاب..، كيف ذلك؟.. وما سر عدم زواجه حتى تلك اللحظة ما دام غير مجنون مثلي؟..
إن الإجابة آتية لا ريب فيها..
أما الآن.. فلألعب دور صديق الصبا الودود..
إن (يوسف) بحاجة إلي لسبب لا أدري كنهه.. وعلي ألا أخيب ظنه...

* * *

جلست في غرفة الصالون على حين أخذ يصدر أصواتًا تدل على الترحيب والحماس..
ثم أنه أحضر لي صينية عليها زجاجة مياه غازية، وهو يثرثر عن أصدقاء الصبا ويسألني عن أسماء عديدة.. وعن مهنتي.. وعن رحلاتي.. وعن كل شيء..
- (رفعت)..!.. إنني بحاجة إليك..!
قالها - دون مناسبة - وكنت أتوقعها تمامًا.. ثم انفجر في البكاء دون أي مبرر.. وأنا لا أحتمل هؤلاء السخفاء الذين يبكون فجأة.. فهم يجعلون الحياة غير محتملة..
لكني نهضت نحوه وقمت بواجبي تجاه صديق يبكي..
قدمت له منديلي ثم عدت لمقعدي وشرعت أدخن وأرمقه في دهشة، تمخط في المنديل - اللعين! - ثم أعاده لي شاكرًا فطويته ودسسته في جيبي مشمئزًا..
- معذرة يا (رفعت).. كل ما في الأمر هو أنني..
- نعم.. نعم.. تشعر بالوحدة.. هذا واضح..
- كلا.. انت لا تفهم..
ثم جلس جواري وحدق في عيني بعينية المذعورتين الغائصتين في لحم وجهه البدين - كأنهما ثقبان في كرة من الصلصال - وجفف العرق من على جبينه وبدأ يلهث..
- إنهم خلفي..!
- حقًا..؟!
قرب وجهه من وجهي.. وهمس في جزع:
- أقسم لك.. إن هي إلا دقائق.. ساعات.. أيام ويجدون مكاني، وعندئذ..
- وعندئذ:
- عندئذ سيتذكرون!
الآن اتضح لي الأمر.. أنا أعرف هذه السمات وأفهم هذه النغمة تمامًا ولقد سمعتها مرارًا من قبل..، حين دعاني (يوسف) إلى داره كنت أخاله يخفى لي ما هو أفضل من (البارانويا)6 لكنه -

للأسف لم يكن يملك سواها.. وها هو ذا يردد نفس الكلمات التي نسمعها في كل حالة عن الآخرين الذين يبحثون عنه ويراقبونه...



الآن اتضح لى الأمر .. أنا أعرف هذه السمات وأفهم هذه النغمة

تمامًا ..

يجب أن أنصرف.. ولكن في سلاسة لأن مريض (البارانويا) مرهف الحس ويمكن أن يغدو عدوانيًا.. كما أنه في أقرب فرصة سيعتبرني (منهم) مما يجعل بقائي وحيدًا معه خطرًا لا بأس به..

- يتذكرون ماذا؟..

-.. يتذكرون أنني السبب في وجودهم..!

- آه..!.. فهمت..!

ولعنت في سري أعباء الصداقات القديمة..

لماذا - أنا بالذات - كلما قابلت صديقًا قديمًا وجدته قد غدا لصًا أو قاتلًا أو مجنونًا؟!..

كان يجفف عرقه في عصبية ويقول:

- في كل ليلة يجافي النوم عيني وأدعوا الله ألا تكون هذه هي الليلة المختارة..

هرشت عنقي في تؤدة.. ثم قررت أن أجازف:

- (يوسف).. لماذا لا تتحدث بالتفصيل؟.. أنت تتصرف وكأنني على علم مطلق بكل ما تقول..

- حقا؟

- إن كلماتك المبتورة تدعوني لإساءة الفهم كما تعلم..

- وتظنني معتوهًا؟

هززت رأسي محاولًا أن أنفي ذلك ثم وجدت ألا داعي لذلك فهو منهك ومستسلم ولن يفيده بشيء أن أنكر..

قال في لوعة:'

- لا ألومك كثيرًا.. أنا نفسي لا أملك الثقة الكافية كي أنفي ذلك أو أؤكده، وأحيانًا ما أحسب كل ما مررت به كابوسًا ثقيلًا.. ولكن.. لماذا لا أحكى لك كل شيء بالتفصيل؟.. هل أنت مرتبط بموعد اخر؟

- بتاتًا..

- إذن سأحكي لك كل شيء..

* * *

سأحاول هنا أن أكون دقيقًا وأن أحكى كل ما قاله لي على مدى ثلاث ساعات، بالطبع هناك تفاصيل منسية لكنها - أو هذا ما أرجوه - غير جوهرية في قصتنا..

حدثت قصته في عام ١٩٥٧..

في ذلك الوقت لم يكن (يوسف) في (مصر).. بل كان موفدًا إلى (ألمانيا) في رحلة دراسية بغرض الحصول على درجة علمية في الآفات الزراعية ومقاومتها.. تلك الدرجة التي - لأسباب سنعرفها فورًا - لم ينلها قط..

كان الفتى منبهرًا تمامًا بكل شيء...

وخاصة بأستاذه العجوز (أوبرمان) الذي أيقن تمام اليقين أنه يعرف كل شيء عن أي شيء يخطر لك..

وكان فريق عمل مكونًا من فطاحل العلم مجتمعًا في ذلك المعمل قرب (لايبزيج) عاكفًا على دراسة الاحتمالات التي لا تنتهي للتوازن البيئي..، والسيطرة البيولوجية على الآفات..

حين يزخر بيتك بالفئران يمكنك دائمًا أن تبتاع سمًا.. لكن الحل الأدنى للطبيعة هو أن تبتاع قطًا، وفي (مصر) يلتهم سمك المبروك قواقع البلهارسيا. أو هذا ما يحاولون عمله. ويلتهم سمك الـ (جامبوشيا) يرقات البعوض..، وهكذا تعالج الطبيعة نفسها بنفسها..

لكن التوازن الطبيعي لعبة خطرة..

ففي بعض ولايات الهند - على سبيل المثال - اعتادوا تربية الوطاويط لتلتهم الفئران.. لكنهم - بعد أعوام - ألفوا أنفسهم أمام وباء حقيقي من الوطاويط..

كان العلماء الألمان يحاولون الحصول على افضل شيء من القوانين البيولوجية دون أن يفسدوا اتزان الطبيعة..

وهم يلعبون على ورقة رابحة إسمها (قانون الانتخاب الطبيعي)..

لم تكن الهندسة الوراثية متقدمة في ذلك الزمن السعيد ولا كل اللعب بجينات باكتيريا (إ. كولاي) البريئة الذي نسمع عنه اليوم..

لهذا كانوا يعتمدون على قانون الطفرات..، وعلى قابلية الصفة وليدة الطفرة على الاستمرار في عدة أجيال تصير كلها بالتدريج حاملة لهذه الصفة..

وعن طريق توليد عدة أجيال ترسخ الصفة وتتم تنقيتها وإضافة ما يلزم لها..، ولو أن مثل هذه التجارب تجري على بشر لاحتاجت ملايين السنين حتى تظهر نتائجها..

لكنهم كانوا يتعاملون مع نوع من الخنافس تشبه خنفسة (أبو عيد) المعروفة عندنا.. ومعها يمكنك إنتاج عدة أجيال في شهور..

كانت سلالة جديدة قد بدأت تنشأ لا علاقة لها بالأجداد.. وانطلاقًا من ولع العلماء بالأسماء المعقدة والرطانة فقد أسموها بالاسم اللاتيني (إنتوفاجا)، وهو - لمن يعنيه الأمر منكم - خليط من مقطعين لاتينيين معناهما (آكلة الحشرات)..

نعم.. هذه الحشرة الوليدة تأكل الحشرات الأخرى التي قد تتطفل على المزروعات، إن (الإنتوفاجا) أمينة على النبات.. شرسة مع أية حشرة لصة تسول لها نفسها الآثمة أن تسطو على الحقول..

(الإنتوفاجا) تتوالد كالأسماك - أو أسرع قليلًا - وحركتها سريعة وشهيتها جامحة.. ولونها أخضر تعجز الطيور عن تمييزه واصطيادها.. وفي حالة انفلات عيارها يمكن القضاء عليها بجرعة صغيرة من أي مركب فوسفوري عضوي.. جرعة لا تؤذي أي كائن أكبر منها...

إن الـ (إنتوفاجا) هي الحل السعيد لكل مشاكل الزراع..

لكن الألمان حذرون ولا يدعون شيئًا للمصادفة، وهم لن يعمموا الفكرة قبل تمحيص لا بأس به لعشر سنوات على الأقل لأنهم يعلمون أن الخلل البيولوجي يكون في الغالب فادحًا عسير الإصلاح..

والبحث العلمي هو نوع من اللحوم القاسية الألياف التي يجب أن تُطهى على نار هادئة لساعات طوال قبل أن تقدم للآكلين..

لكن (يوسف) كان عجولًا..

وكان - كما قلنا آنفًا - منبهرًا بكل شيء..

لهذا شرع في غرفته الصغيرة الأنيقة يصغي لموسيقا (باخ) السماوية ويحلم بما يمكن أن تحققه هذه الحشرة في (مصر).. أن يأتي اليوم الذي تبيد فيه هذه الحشرة ديدان القطن بعبع زارعي القطن ومصاصة دماء الاقتصاد المصري..

أن تملأ هذه الحشرة حقولنا لاعبة دورها الهام بإخلاص وأمانة ودون كلل..

إنه المجد..

* * *

بمرور الوقت بدأ الأستاذ (أوبرمان) يلاحظ تبدلًا في تركيز ومواظبة تلميذه.. أنت تعرف كيف يبدو الإنسان الذي استعبدته فكرة واحدة وكيف يتصرف، ها هو ذا (يوسف) يكف عن البحث في المراجع المطلوبة منه.. ولا يدون الملاحظات.. ويتأخر في الاستيقاظ صباحًا..

ثم أنه يحوم - أكثر من اللازم - حول معامل التحكم البيولوجي حيث تجرى تجارب (الإنتوفاجا) التي لم يكن له دور حيوي فيها..

ولعدة مرات أنذره الأستاذ...

ولعدة مرات توسل له (يوسف) أن يعطيه دورًا أكبر في تجارب هذه الحشرات، لكن العالم الألماني كان صارمًا لا يتزحزح...

وبدأت الخطة تختمر في ذهن (يوسف)..

إنه الآن - بعد ستة شهور - على خبرة لا بأس بها بما يفعلون وهو قادر على البدء في تجاربه الخاصة في هذا الصدد..، فقط تلزمه بعض البويضات وعدة حضانات توفر الظروف البيئية المثلى للفقس، على أن (الإنتوفاجا) كانت حشرة قوية يمكنها - كالصرصور - أن تعيش في ظروف قاسية جدًا سواء في القيظ أو البرد..، ولم تكن ثمة حاجة للتحذلق المعملي..

وهكذا..

طلب إجازة من هيئة البحوث ليعود فيها إلى (مصر)..

ثم أنه تسلل للمعمل وبجفت صغير نقل بعض الشرائح الزجاجية التي تراصت فوقها البويضات إلى علبة صغيرة مغلفة ومبطنة بالقطن الطبي..

واعد حقائبه وودع أساتذته مؤقتًا...

لكنه - هو وحده - كان يعرف أنه لن يعود أبدًا..

* * *

كانت شقة صغيرة في (بنها) هي داره حيث يعيش وحيدًا، وهو في هذا يشبهني كثيرًا.. إلا أنه يختلف عنى في أن فكرة ضخمة صاخبة كانت تنسية هذه الوحدة ولا تدع له وقتًا لأي شيء سواها.. إن الأفكار المصطخبة في رأسه كانت تجعل شقته مزدحمة، وكان يثرثر مع الأحلام.. ويتشاجر مع مخاوفه.. ويضحك من دعابات لم يقلها أحد..

هل جن؟.. لا.. لا أظن ذلك.. لكن كل الظروف كانت مهيئة لذلك لو لم يجد ما يشغله فلا يترك له وقتًا للجنون..

وكانت الحشرة هناك..

الحشرات اللامعة خضراء اللون شديدة الأناقة التي غادرت بويضاتها لتوها كي تتعرف جدران معمله والأقفاص الزجاجية المضاءة التي أعدها لها.. وتلتهم الذباب والصراصير وديدان القز التي كان يأتيها بها..

كان يعرفها حشرة حشرة حتى ليكاد يطلق عليها أسماء مميزة..

ويقول (يوسف) - ولا أدري كيف - أنه بدأ يفهم أن لكل حشرة شخصية متميزة وشكلًا متفردًا يفرقها عن زميلاتها..!

ومضت الأيام..

وبدأت الإناث تنتفخ بالبيض ثم تتحرك في تؤدة وثقة كي تضعه في صفوف متراصة على ألواح الزجاج الرقيقة المثبتة أفقيًا في أقفاصها..

وهكذا ولدت السلالة (إ-١) أولى سلالات هذه الحشرة في (مصر)..

وما أن اشتد عود الصغار حتى نقلها إلى قفص زجاجي آخر وشرع يعرضها لمؤثرات بيئية قاسية..، في البدء عرضها لدرجات حرارة مرتفعة يومًا بعد يوم.. وكما هو متوقع هلك أكثرها لكن ما بقي منها كان قادرًا على تحمل درجات غير واردة أصلًا..

ثم جاء الجيل التالي (إ-٢) قادرًا على ذلك كله..

وشرع في كل يوم يبتكر مشكلة جديدة أو عائقًا من نوع آخر وذلك حتى وصل إلى الجيل (إ-٨٥)..

التقط بالجفت واحدة من الحشرات وطفق يتأملها..

كانت تختلف تمامًا عن الحشرة الأولى التي (استعارها) من معمل البحوث الألماني حتى كأنها نوع آخر مستقل تمامًا..

كانت أضخم حجمًا.. ولونها يميل إلى الحمرة.. ومنظرها غير مريح على الإطلاق.. وكانت تئز بصوت رتيب مفزع..

لكنها كانت (ابنته).. وكان يحبها كما يجب أن يحب ابنته..

مد يده في رفق أمامها..

فتحركت في حذر ودنت من أنامله.. وأحس بها تتلمسها بفمها..

ثم كانت العضة قاسية.. لكنه تقبلها في استخفاف بنفس الطريقة التي تتقبل بها أنثى الذئب عضات جروها الحانية لأذنيها..

- إنك قد صرت شرسة يا فتاة.. هيا إنزلي!

قالها وهو يمد يده ليلتقطها حيث وقفت فوق كف يده الأخرى..

لكنه فوجئ أنها متشبثة.. متشبثة إلى حد أنه قاتل قتال الشهداء كي ينتزعها من لحمه.. وحين استطاع أخيرًا وجد خيطًا من الدم ينسال من بقعة حمراء صغيرة في كفه..

- إذن أنت تحتاجين إسمًا آخر..

ووضع قطعة قطن على موضع النزف مفكرًا:

- (أنثروفاجا).. آكلة الإنسان..!.. نعم.. هو كذلك!.. هذا الاسم يلائمك تمامًا وأنت السبب في ذلك ولا أحد سواك!

وهكذا..

مضت الأيام في سلام..

إلى أن حدثت الكارثة التي يتوقعها ويعرفها ويخشاها كل عالم تمضي بحوثه دون مشاكل..، لابد من مصيبة ما..

وكانت هذه المصيبة في حالتنا هي عربة رش المبيدات التي تجوب الشوارع في وقت الغروب، وكان معمل (يوسف) مفتوح النوافذ في تلك الآونة طلبًا للتهوية.. وكان هو عاكفًا على تشريح إحدى حشراته تحت المجهر حين سمع صوت الموتور المألوف.. وامتلأت الغرفة بضباب ال (د. د. ت) طيب الرائحة شديد السمية حتى أن (يوسف) لم يعد قادرًا على رؤية كفيه.. كفيه اللذين راح يلوح بهما في هستيريا محاولًا إزاحة الدخان صارخًا كالملسوع:

- توقفوا يا أولاد الـ (.....)..!.. توقفوا..!.. إنكم تقتلونهم!

كان يعرف تمامًا ما سيجده عند انقشاع الضباب لأن الاقفاص الزجاجية كانت كلها مفتوحة من أعلى..

يا للكارثة!.. يا للخسارة..!..

في كل الأقفاص كانت (بناته) منقلبات على ظهورهن وقد لفظن أنفاسهن.. عشرات الأجيال.. مئات الحشرات.. إنه لم يتصور أن في العالم كله مشهدًا بهذه القسوة والبشاعة.. كل المجهود المضني الذي ضاع هباء..

لم يعد يرى شيئًا لأنه كان يبكي..

الدموع تشوه الموجودات.. وتسيل من أنفه فيحاول منعها بشهقات قصيرة متوالية..

على الأرض تربع ممسكًا برأسه ينشج.. وفجأة سمع الأزيز.. وثب على قدميه كالملسوع إلى مصدر الصوت.. ولدهشته وجد عددًا من الحشرات من سلالة (إ-٨ ٥).. عددًا لا يتجاوز العشرين.. وكانت حية.. واهنة ضعيفة لكنها حية..

يجب إخراج هذه المخلوقات إلى الهواء الطلق..

إن الخيط لم يفارق أنامله بعد.. ويمكنه أن يجذبه ويعيد لفه حول إصبعه..

وفي حماس تخلص من الحشرات الميتة وبدأ يعد المكان لاحتضان هذه السلالة الناجية التي سره أن وجد بين أفرادها خمس إناث...

وهنا نشعر بالقلق..

ونود ان نصرخ في (يوسف) ألا يفعل..

لقد تحملت هذه الحشرات جرعة قاتلة من ال (د. د. ت)..

وهذا يعني أنها صارت منيعة تقريبًا.. وستورث هذه المناعة للأجيال التالية..

لكن (يوسف) لا يعلم ولا يتوقع شرًا..

وهذا هو بيت القصيد...

* * *

- ٢ -

التمع ضوء البرق الفضي فاستدرنا في توتر نرمق ستائر النافذة وشعرنا بالقشعريرة..
قالت مدام (ثريا) وقد بدأ جفناها يزدادان ثقلًا:
- هل يرغب أحدكم في النوم؟
كان حديثها موجهًا لعدد محدود منا لأن رأس د. (محمد) كان قد تهاوى فوق صدره وتعالى صوت غطيطه، وكذا ألقت (سهام) برأسها للوراء وفغرت فاها.. أما (عادل) فكان يرمقني بعينين دمويتين يكاد الدم ينفجر منهما لولا غشاء الملتحمة الرقيق..
إن قصتي - كما هو واضح - لم تلق حماسًا كبيرًا..!
لكن ما عزاني كان هو د. (سامي) بجلسته المهتمة المتحفزة.. و(هويدا) التي انحنت للأمام كأنما انكسر ظهرها نصفين وقد أراحت ذقنها على قبضتها..
دعك من (شكري) العدواني المتحمس المستعد في أية لحظة لضربي..
قال (شكري) وهو يأخذ سيجارة من علبتي:
- إنها قصة لا بأس بها حتى الآن.. وهي تلعب على الوتر الإغريقي القديم: الإنسان الذاهب في إصرار أحمق إلى نهايته..
- إنه الافتتان.. الانبهار.. الفضول الذي جعلني أصر على استكمال تجربة مصاص الدماء.. وأقبل تشريح مومياء الفرعون..
ابتسم (شكري) في غموض.. وغمغم:
- الواقع يا د. (رفعت) أن اهتمامنا واحد.. ويمكن لتعاوننا أن يفضي إلى نتائج لا بأس بها.. فلديك ذكرياتك الرهيبة ولدي الموهبة..
- أشكرك.. لكني أملك بعض الموهبة أنا الآخر..
قال د. (سامي) وهو يتمطى:
- أكمل يا د. (رفعت) قبل أن تفلت خيوط القصة منا.. إن النعاس يهاجمنا وهو كفيل بأن يفسد كل شيء..

* * *

أين قد توقفت؟..
آه!.. عند السلالة التي نجت من المبيد الحشري ومحاولة (يوسف) أن يبدأ كل شيء من جديد...
لقد استغرق الأمر عدة شهور...
إلا أنه - وبعد جهد مضن - استطاع أن يتملّى جليًا السلالة (إ- ٦٠) تلهو في قفصها الزجاجي..
لقد تغيرت هذه الحشرات كثيرًا جدًا...
لونها أدنى إلى لون الدم، وحجمها يقارب حجم الجرادة، وشراستها كسمكة قرش..، صحيح أن تغير لونها أفقدها مزية هامة هي (المماهاة) أو بمعنى آخر قدرتها على الاختفاء وسط خضرة

المزروعات بعيدًا عن عيون أعدائها الطبيعيين: الطيور..
لكنه بدأ يعتقد أن الطيور تحتاج لشجاعة غير عادية كي تفكر في اشتهاء هذه المخلوقات البشعة..

* * *

كان هذا هو يوم الجمعة..
وبعد سهرة طويلة مع أوراقه وملاحظاته دخل فراشه لينام...
كم نام بالضبط..؟.. لا يذكر..
لكنه واثق أن صوت أذان الفجر كان يتسرب عبر مصراع النافذة حين سمع ذلك الأزيز المألوف..
أدرك (أنهم) في مكان ما من الغرفة معه..
وحين مد يده لمفتاح الكهرباء..، وحين فتح عينيه في دهشة، وحين نهض من الفراش باحثًا بقدمه عن خفه..
كان يتوقع كل شيء سوى ما رآه...
لم تكن هناك واحدة منها ولا اثنتان.. بل عشرات..
عشرات الحيوانات الحمراء فوق الدولاب وعلى السجادة وفوق الستائر وتحت الفراش.. وكانت تموج بالحياة والصخب وتتحرك بثقة هنا وهناك، وتتزاوج.. وتلهو.. وتستكشف المكان..
فرك عينيه متوقعًا أن يصحو من الكابوس غارقًا في العرق..
لكن كل شيء ظل كما هو..
كيف غادرت هذه المسوخ أقفاصها؟.. وكيف وصلت هنا؟..
لقد صار الأمر خطيرًا..
هرع إلى الغرفة التي اتخذها معملًا وأضاء النور ليجد أن السلالة (إ- ٦٠) هي التي غادرت قفصها الزجاجي..، الغريب في الموضوع أنها استطاعت بشكل ما أن تزحزح الغطاء الثقيل وتنسل من تحته مغادرة سجنها.. والأغرب هو أنها عرفت طريق غرفته مسترشدة بالرائحة أو الإدراك فائق الحس لا يدري بالضبط..
لقد تفوقت هذه الحشرات على نفسها..!..
وكأي مصري صميم يجد جيشًا من الحشرات على باب دولاب غرفته ؛ خلع (يوسف) خفه بغية ضرب أكبر عدد من هذه الحشرات..، وهوى به على مجموعة منها..
لكن ما حدث كان عجيبًا..
وكأنما يضرب صفحة الماء.. اتسعت دوامة من الحشرات بلمح البصر تاركة قلب الدائرة فارغًا حيث تهوي ضربته، فما أن رفع يده حتى التأمت حشود هذه الكائنات في ثقة وعادت تمارس حياتها..!..
جرى كالمجنون إلى زجاجة المبيد الحشري التي يضعها تحت الفراش وبدأ ينفث السائل السام على هذه الحشود..، لكن النتيجة كانت سلبية.. وكأنما أسعد الحشرات أن تستحم قليلًا بهذه المادة عطرة الرائحة...

المشكلة الأدهى كانت هي أن هرس هذه الكائنات مستحيل، فلو لم تراوغ.. تبقى حقيقة أن طبقتها (الكيتينية) المغلفة لها قاسية جدًا...

وكأنك تحاول هرس بارجة حربية..

وهكذا لم يبق أمامه سوى أن يجلب دلوًا وبعصا طويلة يسقط ما تيسر من هذه الحشرات في الدلو توطئة لإعادتها للقفص الزجاجي..

عملية مملة مرهقة اقتضت أربع ساعات من الجهد المتواصل..

إلا أنها انتهت أخيرًا، وأمكنه أن يعود للنوم في غرفة خالية من الأزيز..

هذا - بالطبع - بعد أن تأكد من إحكام غلق القفص..

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلمح فيها بصيص الخطر وسط ظلمات غفلته..

* * *



خلع (يوسف) خفه بغية ضرب أكبر عدد من هذه الحشرات ..

وهوى به على مجموعة منها ..

لكنه نسي (عبد العزيز)..
و (عبد العزيز) - إذا لم تكن تعلم - هو الخادم العجوز الطيب الذي يبتاع له حاجيات السوق وينظف الشقة يوميًا ثم يغادره في الظهيرة ويتقاضى خمس جنيهات في الشهر..
ومن الإهانة لذكائكم أن أقول أن (عبد العزيز) كان ممنوعًا من دخول المعمل رغم علمه بما يدور فيه..، كان (يوسف) ينظفه بنفسه إلا أنه - في الصباح التالي - وجد المعمل في حال يرثى لها من أثر أحداث الأمس.. حال لا يمكن تقويمها..
لهذا طلب من العجوز أن يعالج الأمر بحنكة..، وخرج إلى الشرفة يدخن ويرمق العالم بعينين لا تريان..
ثمة شيء يحدثه أن الأمور لا تمضي كما يجب..
إن هذه الحشرة توشك أن تكون منيعة..
وسلوكها الجماعي يثير حيرته إلى حد غير عادي..
إنها ذكية.. نشطة.. لا تتصرف بذعر الحشرات التقليدي..
فما معنى هذا؟..
يوجد حل واحد ألا وهو التخلص من السلالة (إ- ٦٠).. ربما عن طريق دفنها، وليحاول أن يبدأ من جديد باحثًا عن أجداد أغبى وأضعف لها..
نعم.. هو كذلك....
و.....
دخل من الشرفة قاصدًا المعمل مناديًا الخادم العجوز:
- (عبد العزيز)!.. ألم تنته بعد؟..
لم يرد الرجل، وهذه هي مشكلة الشيوخ.. كلهم مصابون بتصلب عظام الأذن وصمم الشيخوخة..
- (عبد العزيز).. أين أنت؟
وفي تؤدة دخل من باب المعمل مواصلا النداء:
- (عبده)!.. هل توفاك الله؟
لم يدر أبدًا إلى أي حد كان صادقًا..
هناك - جوار المنضدة - وجد أسوأ كوابيسه وقد تحقق..
لن أصف المشهد.. لكنكم تستطيعون أن تتخيلوه..
وتستطيعون أن تتخيلوا وجه (يوسف) في اللحظة التي أدرك فيها أي مأزق قد جلبه لنفسه..
وأية كارثة..

* * *

- ٣ -

الحيرة...!

الحيرة القاسية نحو ما ينبغي عمله.. وكيف الخروج من ورطته هذه..

ليس من المستحب أن يجد البوليس هذا المشهد لأن محاولة تفسيره ستكون عسيرة بعض الشيء..

وناظرًا إلى مسرح الأحداث بدأ يفهم كنه ما حدث..، والمفزع هنا أن الحشرات جذبت كم العجوز وأسقطته أرضًا.. فالعجوز لم يكسر قفصًا زجاجيًا عن طريق الخطأ كما قد يتبادر لذهنكم..

نعم.. لن أحكى التفاصيل لأن هناك سيدات بيننا لكني سأكتفي بالقول أن (يوسف) أصابه الهلع.. الهلع البري الوحشي.. فلم يدر ما يجب وما لا يجب..

كل ما فكر فيه هو إبادة هذه الكوابيس مع أثر جريمتها..

- سامحني.. فلن يضيرك هذا..

قالها موجهًا كلامه للعجوز الذي كان يعرف أنه لن يسمعه..، وهرع إلى المطبخ.. ها هي ذي زجاجة الكيروسين وعلبة الثقاب..

وبدأ يسكب السائل على الحشرات وعلى الجدران.. على كل شيء في المعمل..

ثم أسقط موقد (بنزن) على الأرض، وأشعل الثقاب وفر من الشقة سريعًا بعد ما أغلق بابها..

وفي بئر السلم دخن سيجارة بيد مرتجفة وقلب واجف.. ثم عاود الصعود ليجد - كما توقع - الدخان خارجًا من أسفل الباب..

وخرج الجيران ليروا ما هنالك وقدموا شموا رائحة الدخان، فوجدوه يحاول فتح باب الشقة في هستيريا (وكان ذعره حقيقة لا تمثيلًا)، ثم إن بعضهم استدعى رجال الإطفاء الذين اقتحموا الباب..

لقد أتت النيران على كل شيء..

وفي المعمل تناثرت ذرات رماد لم يعرف أحد كنهها، وكيف لهم أن يخمنوا أن هذه الأجسام السوداء هي ما تبقى من السلالة (إ- ٦٠)؟..

وحتى تقرير المعمل الجنائي لم ير في القصة كلها سوى خادم عجوز بائس أوقع موقد (بنزن) مشتعلًا على الأرض ولم يدرك ما حدث إلا بعد فوات الأوان...

نموذج آخر للإهمال المؤسف في حياتنا..

أما (يوسف) فقد ترك كل شيء خلفه وجاء يعيش في (القاهرة)، ولا داعي للقول إنه صار حطامًا بشريًا..

سيظل شبح العجوز يطارده.. ومشهد الحشرة البشع.. وكل ما تلا ذلك من ملابسات درامية..

لكن الله تعالي رحيم وسيغفر له أكذوبته وطموحه المدمر ما دام قد أراح البشرية من هذا الكابوس الشنيع..

دعا الله كذلك أن يغفر له جريمة حرق حشرات حية وهو يعلم أنه لا يحرق بالنار إلا خالقها، لكنه لم يكن يعرف أية وسيلة أخرى لتدمير هذه الكارثة البيئية التي أوجدها..

كان بحاجة لهدية الأيام التي لا تقدر بثمن..

النسيان..

* * *

وفي شقته الجديدة بدأ يمارس حياة رتيبة..
وأخذ يتكسب عيشه عن طريق العمل كمحرر علمي لإحدى الصحف، يرسل لها أخبارًا من نوع (دواء جديد للسرطان) و(انتهت مشكلة الصلع)..
إلى آخر هذه السخافات التي لا يمكن الإمساك بها أبدًا..
أما هوايته في ساعات فراغه فكانت هي تحقيق طموح قديم له: أن يصير بدينًا كالفيل!، وقد بذل كل مرتخص وغال من أجل هذا الطموح.. حتى برز كرشه وصار كرة من الزبد غزيرة العرق متلاحقة الأنفاس...
وهكذا..
كانت الأيام تمضي.. وجذوة الذكرى تخبو.. وسمنته تزداد.. ومقالاته تتوالى..
إلى أن ظهرت الحشرة..

* * *

جالسًا في غرفة مكتبه سمع الأزيز أولًا.. الأزيز الذي جعل شعر رأسه ينتصب وأمعاءه تتقلص..
شيء واحد في الكون يمكنه إصدار هذا الأزيز وهو لن ينساه أبدًا..
نهض في توجس إلى الشرفة الموصدة وأرهف السمع.. ثم انحنى على ركبتيه ودقق البصر..
ها هي ذي..
كانت منهكة خائرة القوى لكنها هي.. هي..!
ولقد تمكنت من الزحف تحت (شيش) الباب داخلة إليه..، ولكن ليتفحصها أولًا..
مد يده – في تقزز- إلى الحشرة الوحيدة.. ووضعها على مكتبه وتأملها في توجس.. إنه لن يخطئ هذا الشكل وهذا اللون.. إنها واحدة من سلالة (إ- ٦٠) المشئومة
لقد بحثت عنه ووجدته..
مهتدية بحاسة لا تخيب فعلت..، مهتدية برائحته فعلت..، مختبئة في ثيابه فعلت..
المهم أنها قطعت هذه المسافة الشاسعة كقط أليف يقطع البلدان في أثر صاحبه..، لم تنسه بعد كل هذه الشهور..
وقد وجدته..
فهل هي أول الغيث؟!

* * *

حبس الحشرة كي يتأكد من أنها لن ترسل إشارة بيولوجية ما لصديقاتها، ثم عاد إلى غرفة نومه يرتجف..

لم يتصور قط أن هناك حشرات ناجية لكن هذا حدث، ومن المؤكد أنه نساها في مكان لم تمسه النيران من الشقة.. أو

وهنا أدرك في رعب أن هناك احتمالًا آخر لكن يجب الإستيثاق منه أولًا..، لهذا هرع إلى الحشرة وأمسكها بأنامله وقرب عود ثقاب ملتهبًا من جسدها..

ولدهشته لم يحدث لها شيء.. وظلت تحاول التملص..

لقد كانت هنالك طفرة.. وهذه الطفرة جعلت بعض الحشرات ذات طبقة كيتينية عازلة للحرارة ولا تشتعل، وبالتالي استطاعت بعض الحشرات أن تنجو من الحريق الكبير...

ولكن هذا يعني..

نعم يعني ذلك..

يعني أنه لو عادت الى (أنثروفاجا) لزيارته فلن يستطيع القضاء عليها أبدًا!!

* * *

قلت لـ (يوسف) وأنا أضع ساقًا فوق ساق وأتأمل الغرفة:

- إذن.. هذه الحشرات لعنة أبدية..

مسح قطرات العرق من على جبينه وهتف:

- أظن ذلك.. ولو أنها تملك الذكاء الذي أؤمن أنها تملكه فهي ولابد آتية للانتقام مني كما ينتقم الابن من أبيه الذي حاول قتله!

- وكيف تمضي وقتك الآن؟

- في الترقب..!

تأملته في شرود محاولًا أن أقرر ما إذا كان مجنونًا أم عاقلًا..

لم أحاول أن أتبين ما إذا كان كاذبًا أم صادقًا لأنه بالتأكيد صادق في رعبه..

إن هذا الزميل في ورطة.. لكن من أدراه أن هناك حشرات أخرى؟

لماذا لا تكون هذه الحشرة التي رآها هي الوحيدة؟

- لأن ثلاث حشرات زارتني بعدها في مدة أسبوع!

- آه!.. فهمت...

ثم نظرت لساعتي..، إنه يحتاجني طبعًا لكن هذه مشكلته لا مشكلتي..

فلن أقضي حياتي جواره بانتظار أن يحدث شيء ما..، لهذا نهضت غير عابئ بعينية المناشدتين..

- إسمع يا (يوسف).. أنا...

- إبق معى ساعة واحدة!

- ولكن....

- ربع ساعة آخر....

أنا أفهمه تمامًا.. وهو يرتجف هلعًا من الوحدة والعودة لمخاوفه لكن ماذا بيدي أن أفعل؟.. إن لدى مشاغلي وأعباء حياتي..

- (يوسف).. إن هذا لن يغير شيئًا.. كل ما يمكنك عمله هو سد كل فتحات دارك في إحكام.. وقضاء أطول وقت ممكن بين الناس...

احمر وجهه حقًا.. ونهض صائحًا ملوحًا بكفيه:

- كذا أنت!.. مثلهم جميعًا!.. كلهم يبدون علامات الفهم ثم يهرعون للحاق بفيلم السهرة حامدين الله على أنهم ليسوا في وضعي!!

ثم أرغى وأزبد.. وشعرت به يدفعني للباب دفعًا..

- اذهب... اذهب لتحصى أرباح اليوم وتغازل فتاتك وتلتهم أفخر الطعام.. ثم تنام شاعرًا بأنك فعلت ما عليك تجاه معتوه مثلي!.. ها.. اذهب...

وقبل أن أفهم ما حدث انغلق الباب خلفي كصفعة انهالت فوق قفاي، فلم أتمالك نفسي من الشعور بالإهانة..

* * *

شارد الذهن مطرقًا للأرض أدرت وجهي لأنصرف..

وهنا استرعت انتباهي مساحة كبيرة من اللون الأحمر على درج السلم الرخامي والجدار..

دققت بصرى أكثر على ضوء المصباح الكهربي الخافت فوق الباب، فميزت عشرات.. بل مئات الحشرات متراصة على الأرض وعلى الجدار..

حشرات ضخمة حمراء اللون لا توحي بالثقة أبدًا..

حشرات أعرف وصفها.. وأعرف جيدًا معنى وجودها هنا..

لقد جاءت - كما توقع (يوسف) - ووقفت على الباب تنتظر..

كانت تتحرك حركات دوامية منتظمة عصبية بعض الشيء، كأنها تشعر بالتململ بانتظار شيء ما..

وكان منها من تعبث هنا وهناك.. ومنها من تستكشف..

لكنها جميعًا كانت تنتظر..

* * *



فميّزت عشرات .. بل مئات الحشرات متراصة على الأرض

وعلى الجدار ..

يجب أن أعبر هذه البحيرة من الأجساد المقززة طالبًا نجدة..
لكن ما إن حركت قدمي حتى وجدت أنه من المستحيل أن أطئ الأرض لأن هذه الأشياء تكدست في الموضع الذي ستهبط فيه قدمي.. من الواضح أنها تتأهب لجذب الحذاء أو شيء مماثل.. لا مخرج من هذه الناحية..
تراجعت للخلف في تؤدة وبطء محاذرًا أن تبدر مني حركة عصبية..
وقرعت الجرس في هستيريا..
مرتين.. ثلاثًا.. ولا استجابة..
بحيرة الحشرات تخضع لنوع من المد.. ولسانان أحمران يسيران ببطء نحوي...
افتح أيها الأحمق..!.. افتح..!
خمس حشرات تزحف من أعلى باتجاه يدي الضاغطة على الجرس..
- (يوسف)!.. إفتح!.. أرجوك!
بعد ثوان كالدهر سمعت صوته المتشكك من خلف الباب:
- ماذا تريد؟.. قلت لك أن ترحل للجحيم!
هذا هو ما سيحدث لو لم تفتح!
لسان أحمر ثالث يلحق برفاقه.. هل أنا أحلم أم أن هذه الحشرات تهاجم بأسلوب (الميمنة - القلب - الميسرة) العسكري العتيد؟!
- (يوسف)!.. إنهم هنا..!
- هم؟..
- افتح الباب لترى!
سمعت - حامدًا الله - صوت المزلاج ينفتح، ثم لمحت وجهه الذي اسود ما أن رأى المشهد..، ومن فمه خرجت شهقة..
وقبل أن يغلق الباب لا شعوريًا.. بادرت بحشر جسدي في الفتحة الضيقة ثم جذبته خلفي.. وأغلقت الباب بإحكام...
- إذن لقد ضعنا!..
أخذ يرددها في هستيريا وقد تفككت صواميل جهازه العصبي تمامًا.. الدموع في عينيه واللعاب يتساقط من شدقه..
- ضعنا.. ضعنا!
- أشكرك على دقة معلوماتك..
- لا تحاول يا صديقي.. لا تحاول!
عليك اللعنة!.. لست في شوق للمزيد من التوتر.. إنني بحاجة للحظة تعقل واحدة منك كي أعرف...
- هل هناك تليفون هنا؟
هز رأسه يمينًا ويسارًا أن لا..
رفعت قدمي وشرعت أهوى بكعب الحذاء على الأرض محاولًا بدقات متوالية أن أنبه الجيران..، وبعد عشر دقائق نظر لي بوجهه المتراخي المستسلم متسائلًا عما أفعله بحق السماء.

- يا له من سؤال!.. أحاول لفت انتباه الجيران..
- لا تحاول.. لا أحد بالطابق السفلي.. كلهم في المصيف!
- إذن قضي علينا؟
- بالتأكيد...

لكني لم أستسلم.. أنا لا أخاف الموت لأنه كأس سنرشفها جميعًا، لكني أمقت أن أموت على صورة طعام في أحشاء هذه الحشرات القذرة وهذا من حقي فيما أظن..

شرعت أجوب الغرفة مفكرًا..

هذه الحشرات لا تتأثر بالنار ولا المبيدات الحشرية ولا يمكن سحقها بالحذاء.. إذن كيف؟... لا بد من وسيلة ما..

آه!.. الماء.. قوة الماء الجارفة التي لا تقاومها الحشرات..

هرعت للحمام.. فوجدت خرطومًا مطاطيًا طويلًا لحسن الحظ.. فقمت بتثبيته إلى فوهة الصنبور وفتحت هذا الأخير..

وقبل أن ينهي الماء رحلته الطويلة بالداخل ركضت إلى باب الشقة وفتحته بحذر وصحت في (يوسف):

- لا تتحرك.. ابق خلفي..

واعتصرت طرف الخرطوم بين أناملي لأزيد قوة اندفاع الماء..

ثم صوبته نحو البقع الحمراء..

وانطلق الماء يكتسح الأجساد البشعة التي لم تمت لكنها فقدت تماسك صفوفها، وبدأ طريق يولد ما بين هذه الصفوف..

كنت أضغط على أسناني محكمًا التصويب ومن حين لآخر أسقط بعض الحشود من على الجدران..

ببطء نتقدم.. ببطء شديد حذر..

و...

فجأة توقف اندفاع المياه من فوهة الخرطوم..

لقد انقطعت المياه في أتعس لحظة ممكنة!

* * *

نظرت نحوه في حيرة.. إلا أنه فارقني وهرع لداخل الشقة.. ثم سمعت صوته يصرخ مفسرًا لي:

- لا شيء هنالك.. إن ضغط المياه أدى لانفصال الخرطوم من فوهة الصنبور..
- إذن أحسن تثبيته بيدك.. ولا تدعه ينفصل..

وعاد الماء يندفع وعدت أحاول تطهير المدخل إلى أن وصلت لدرجة معقولة من الفراغ تسمح لنا بالمرور دون خسائر..

- هلم يا (يوسف).. اترك الصنبور وتعال..

فلم يرد..

رفعت صوتي أكثر وأنا أرش الحائط طلبًا للإتقان:
- (يوسف).. أسرع قبل أن تلتئم صفوفهم..!
فلم أتلق - مرة أخرى - ردًا..
ركضت إلى الداخل بعد أن تركت الخرطوم على الدرج..
ودخلت الحمام فوجدت.....
لقد فات الأوان.. فات..
لم أدر - ولم يدر هو - أن الحشرات يمكنها الخروج من البالوعة كما تفعل الصراصير..، ولابد أنه كان غارقًا في محاولة تثبيت الصنبور فلم يدرك أن الحشرات قد هاجمت شقته على جبهتين كأي جيش منظم يحاصر مدينة..
من خلفه زحفت.. و..!...
لقد انتهى (يوسف) على يد ابنائه وبناته..، السلالة (إ- ٦٠) التي تكاثرت وتمكنت من العثور عليه وجعله يدفع الثمن..
انتهى (يوسف) وجاء دوري..
جريت - كما تتوقعون يا رفاق - إلى الباب والتقطت الخرطوم مواصلًا عملية الإخلاء..
من الغريب هنا أن الحشرات لم تبد متحمسة لمهاجمتي كأنها قد زهدت القتل، وكأنها جاءت في مهمة محددة وهذه المهمة قد انتهت..
وشرعت أثب درجات السلم..
إلى الشارع..
إلى سيارتي..

* * *

كانت ليلة كابوسية..
مئات الرجال يعملون في صبر...
علماء حشرات.. خبراء بيئة.. رجال شرطة.. مهندسون زراعيون..
وكانت الحقيقة المروعة التي لم يهضموها قط هي أن هذه الحشرات منيعة تمامًا..
ولم يجدوا وسيلة سوى جمعها يدويًا أو بالرفش وتكديسها في صناديق كما هي، واضطروا إلى تفكيك شبكة مجاري البناية كي يتأكدوا من أنهم لم ينسوا ذكرًا وأنثى في مكان ما..
أما عن الصناديق فقد دفنوها تحت عمق سحيق وأهالوا فوقها أطنانًا من التربة..
وأبتكر العلماء مركبًا سامًا لا بأس به طهروا به المنطقة وشبكة الصرف تحت الأرض..
وبالطبع شقة (يوسف) كلها..
لكن التعتيم الإعلامي كان كاملًا فلم يدر واحد من العامة بما حدث..
لقد عشت أهوالًا عديدة بعد هذا الحادث، وأزعم - دون ادعاء كبير - أنه لم يعد يزور كوابيسي وأنني تذكرت تفاصيله الأليمة هذه الليلة فقط استجابة لطلبكم..
إلا أنني ما زلت أجفل كلما سمعت صوت أزيز في مكان ما من شقتي.. وهو انعكاس شرطي له ما يبرره في الواقع

* * *

إن من يبحث في مراجع علم الحشرات بدقة اليوم سيجد صورة تمثل حشرة ضخمة حمراء اللون لا توحي بالثقة..

وسيعرف أنها قد انقرضت تمامًا إلا من عينات محفوظة في بعض كليات العلوم بمصر..، وسيعرف أن اسمها اللاتيني هو (أنثروفاجا) ومعناه (آكلة البشر)..

أما الإسم الدارج لها - بعيدًا عن الرطانة - فسهل تذكره..

لقد أسماها العلماء المصريون بإسم..

حشرة الشيطان....

* * *

القصة الرابعة

الزائرة ..

يحكيها: د. (سامي) وحرمه

- ١ -

أنهيت قصتي وتثاءبت.. فقد جاء دوري لأنعس بينما يحكى الأخرون قصصهم لجمهور وهمي...

قال (شكري) في جفاء وهو يتمطى:

- لا بأس بها.. لكنها بشعة أكثر منها مرعبة!

- وما الفارق...؟

- كالفارق بين سماع زئير الأسد ورؤية الأسد نفسه..!، في الحالة الأولى ينتابك الرعب.. أما في الحالة الثانية فتصدم..، وقصة الرعب الجيدة تفسح مجالًا للخيال لكنها لا تصدمك...، لا مجال في قصة الرعب الجيدة لوصف العيون المقلوعة والجثث النخرة و... و...، لكنها توحي لك بذلك..

قلت في غيظ مقاومًا رغبتي في اقتلاع عينيه:.

- تنسى أن هذا حدث لي فعلًا ولست، مسئولًا عن (الإحكام الأدبي) للأحداث..، لا يمكنك أن تقول أن (الثورة الفرنسية) ركيكة أو مفتعلة مثلًا..!

- على كل حال.. أعتقد أن أفضل قصص الليلة هي قصة د. (محمد شاهين) حتى الآن.. فهي تحمل جو التوتر والنذير الغامض وتحشد توترك.. ثم تفاجئك بأنك كنت مخدوعًا..

وهرش رأسه في إنهاك مستطردًا:

- ما دمت لم أحك قصتي بعد فإن قصصكم لديها فرصة.. والآن دعونا نسمع - أو بالأحرى نستمع إلى - قصة د. (سامي)...

تبادل د. (سامي) وزوجته النظرات ثم قال في رقة:

- حسن.. أعتقد أن مدام (سهام) قد أفسدت قصة المرآة التي كنت أدخرها لكم..، لكن عندي لحسن الحظ قصة لا بأس بها، ويمكننا أن نتبادل سردها..

قالت مدام (ثريا) وهي تدعك عينيها الحمراوين:

- إحك أنت.. وسأصحح لك التفاصيل..

* * *

قال د. (سامي):

- إن الخوف من المجهول. ومن الأشياء التي تحدث خلف ظهورنا - لخوف عتيد..، وفي حالتي كان كابوسي الخاص يتعلق بالأشياء المفزعة التي تحدث في دارنا بعد أن نتركها ونسافر..، لو أن عينًا سحرية وصفت لنا ما حدث في المكان الخالي.. فأي شيء سنراه؟..، كانت هذه الفكرة تؤرق صباي وشبابي وواضح أنها ستؤرق شيخوختي..

* * *

هي هواية التصوير الفوتوغرافي التي بدأت كل هذا الفزع..

أرى وجوهكم تتساءل عن الكيفية التي يسبب بها التصوير الفوتوغرافي رعبًا لأحد..، انتظروا دقائق وستفهمون كل شيء..

كنت - في تلك الأيام من عام ١٩٦١ - فخورًا بآلة التصوير العاكسة التي ابتعتها من (الدانمارك)، وقضيت أوقاتًا لا بأس بها أجرب عدساتها وأصور عشرات التأثيرات الخاصة..

ثم بدأت ألتقط صورًا لنباتات الظل في داري...

كنت بحاجة ماسة إلى تعلم الصبر مع كائن ممل بطيء التغير كالنبات، خاصة حين تحاول الإحساس بنموه بشكل ملموس...

وتفتق ذهني عن وسيلة مشابهة لأسلوب (تسريع الزمن) المستعمل بكثرة في تصوير النباتات والزهور. في هذا الأسلوب يتم التقاط صورة للحدث المراد متابعته على فترات متباعدة.. صورة كل ثلاث ساعات.. أو صورة كل يوم..، المهم أن عرض هذه الكادرات يجري بسرعة أربعة وعشرين كادرًا في الثانية (حسب أكثر آلات العرض شيوعًا) وهكذا يولد مشهد لم يوجد قط..

إنك بهذا الأسلوب تري غصون اللبلاب تزحف كالأفاعي متسلقة الجدران، والورود تفغر فاها كطيور وليدة، والأغصان ترقص مترنحة تجاه النور..، إنك تحصل على حياة محمومة أسرع إيقاعًا من حياتنا وأكثر إبهارًا..

لكني لم أكن أملك جهاز عرض سينمائي..

كل ما كان في جعبتي هو (فانوس سحري) متهالك، يمكنه أن يعرض الشرائح الشفافة على الحائط، وعن طريق سرعة تغيير الشريحة المعروضة أستطيع أن أخلق انطباعًا زائفًا بالحركة، وهي بالطبع ليست حركة ناعمة كالتي نراها في السينما بل هي مجرد انتقالات عصبية خاطفة كأنها تجارب (لوميير) الأولى..

لكني كنت منبهرًا بالنتيجة..

وكانت نتائج تصوير شروق الشمس باهرة.. تخيل معي الأفق المظلم الذي يبدأ في التلون.. ثم يثب قرص الشمس في ثقة وسط اللون الأحمر كي يبعث الدفء والنور من حوله..

تخيل ما يمكن أن يحدث لو صورت النباتات بنفس الأسلوب...

لكنها تجربة قاسية:

ولسوف أحتاج إلى صورة في العاشرة صباحًا وصورة في العاشرة مساء كل يوم لمدة أسبوعين حتى أحصل على نتيجة ما..، وأنا رجل مشغول.. مشغول..

ليس لدى ترف تكريس ليلي - إن لم يكن نهاري أيضًا - لهذا السخف حتى ولو كنت شغوفًا به..، خاصة و(ثريا) مصابة بفقدان ذاكرة مزمن يصعب معه أن تتذكر شيئًا كهذا..

لهذا ابتكرت جهازًا رائعًا..

هذا الجهاز هو نوع من الدائرة الكهربية التي تنغلق كلما لامست عقارب الساعة العاشرة صباحًا أو مساء..، ويتكون من منبه وعدة أسلاك وبطارية.. وقد أوصلتها بضاغط الكاميرا الذي يفتح الحاجب ويبدأ (الفلاش) في ذات اللحظة..

أما الكاميرا فوضعتها فوق حامل وأحكمت ضبط شباك رؤيتها على لقطة متوسطة لنباتاتي الجميلة، وكان موضع هذا الحامل هو في الصالة.. هنا.. قرب هذا المقعد.. هل ترون المكان جيدًا؟..

إن هذا الموضع يظهر أصص النباتات بوضوح، ويظهر كذلك مشهدًا خلفيًا عامًا للصالة كلها كما لا بد أنكم لاحظتم..

وما أن أحكمت إجراءاتي واطمأننت على كل شيء..

حتى بدأت التنفيذ..

ومن هنا تبدأ قصتنا..

* * *

كانت التجربة مسلية..

وقد اعتدت و(ثريا) سماع الى (كليك) صباحًا ومساءً، فكانت تبتسم في إعجاب وأبتسم أنا في تواضع متظاهرًا أنني لست ذلك العبقري الذي تظنه...

إن آلية اختراعي تعمل بكفاءة تامة..

كنا - كما تعلمون جميعًا - كثيري الخروج لزيارة المعارف لأننا نحب الجو الاجتماعي أو - كما يقول د. (رفعت) - نعشق ثاني اوكسيد الكربون ونكره الاوكسجين..

لكننا كنا مطمئنين في كل مرة إلى أن الكاميرا تؤدي عملها كخير ما ينبغي..

كان عداد الكاميرا يدنو من الثلاثين لقطة، وكان الشغف يملؤني لرؤية النتيجة.. صحيح أنها لن تكون في إتقان آلات التصوير السينمائي لكنها - على الأقل - ستخدم الغرض..

* * *

كنت أتردد على عيادتي بعد الظهر حيث أقضي ساعتين أو ثلاثًا مع مشاكل مرضاي...

وعلى النقيض من عيادات الأطباء النفسيين المزدحمة التي يستعملون فيها العقاقير ؛ فإن عيادة (المحلل النفسي) تعتمد على مريضين أو ثلاثة يأتي الواحد منهم ليرقد على أريكة مريحة ويثرثر عن نفسه، على حين يجلس المحلل عند رأس المريض واضعًا ساقًا على ساق يدون ما يقال في (بلوك نوت) صغير أو - إذا كان متحذلقًا - يجلس جوار بكرة جهاز التسجيل الدائرة ويكتفي بالأسئلة..

إن أساليب التحليل النفسي معقدة وتحتاج لصبر لا ينتهي..، كما أنها تحتاج لطبيب لاه عن المادة غير متعطش للكسب.. بل للمعرفة..

ومع حديث المريض المسترسل.. او حكايته لأحلامه.. أو تداعى المعاني غير المقصود.. أو تفسيره لصور مشوهة يريها الطبيب له.. أو تحت تأثير التنويم المغناطيسي ؛ يبدأ المحلل يجد خيوطًا تقوده إلى جذور مريضه النفسية وتتجمع أجزاء الصورة..

هو - بلا جدال - فن معقد لكني أحبه..

وكانت الحالة الجديدة التي تؤرقني هي (سوزان)..، فتاة في الثلاثين من عمرها غير متزوجة وعلى قدر لا بأس به من الثراء والجمال..، كل شيء فيها كان أسود.. ثيابها.. شعرها.. عينيها، وكانت تسدل خصلات شعرها على جانب وجهها الأيمن إمعانًا في الغرابة..

هذه الفتاة - قلت لنفسي - ممن يعتقدن أن غموض المرأة (موضة) لها جاذبيتها، وغالبًا ما يتضح أن هذا الغموض يخفي تفاهة وسطحية لا مثيل لهما.. إن من قرأوا (النظارة السوداء) لـ

(إحسان عبد القدوس) أو (أبو الهول الذي لا سر له) لـ (أوسكار وايلد) سيعرفون على الفور ما أعنيه..

المشكلة هي أن هؤلاء الفتيات - مدعيات الغموض - يكن دائمًا فريسة الشعور بالاضطهاد وأنه لا يوجد إنسان مرهف الحس بما يكفي كي يفهمهن..، وفي الغالب هي لم تأت للمحلل النفسي إلا لأنها (تراهن) يفعلن ذلك في السينما، ولان المحلل النفسي جزء من هالة الغموض التي تريد أن تخلقها حول ذاتها..

قلت هذا لنفسي في جزع..

وبدأت أتأهب لساعة من الملل والرغبة في طردها..

لكنها - إذ رقدت على الشيزلونج - بدأت تتكلم..، وكان ما قالته لي غريبًا إلى حد لا يصدق..

إسمها (سوزان) كما قلت لكم.. واسمحوا لي ألا أذكر باقي اسمها ولا مهنتها لأن الطبيب النفسي لا يحق له أبدًا أن يفشي أسرار مرضاه مقرونة بما يدل عليهم..



لكنها ــ إذا رقدت على الشيزلونج ــ بدأت تتكلم .. ، وكان ما
قالته لى غريبًا إلى حدّ لا يصدق ..

ومشكلتها كما قالت لي هي أنها..
-.. بلا مفر.. لا أجد مفرًا ولا مهربًا منها..
فكان طبيعيًا أن أسألها:
- ومن هي؟
- (لميس)..!
- هل هي عدوة قديمة لك أو شيء من هذا القبيل..؟
عابثت خصلات شعرها في توتر.. وهمست:
- بل أسوأ.. إنها أنا!...
- وهي تعيش داخلك؟
- بالفعل.. وتجبر جسدي على إطاعتها..
وأنا يا رفاق طبيب نفسي عتيد، شاب شعري في أروقة اللاوعي ودهاليز (الأنا العليا) وسراديب الـ (هي)..، وأزعم أنني رأيت وسمعت كل شيء.. من العجوز الذي تدعوه البعوضة لتحرير العالم إلى الفتاة التي تخشى أن تخنقها البراغيث في فراشها..
لهذا تبينت على الفور نغمة (الفصام) الشهيرة..، وهي موجودة - بدرجات متفاوتة - في كل منا بدءًا بتناقضات المزاج البسيطة وانتهاء بالصورة القصوى المريعة التي رسمها (ر. ل. ستيفنسون) في رائعته (د. جيكل ومستر هايد)..
إلا أنني تركت الفتاة تتكلم..
- أحيانًا أشعر بها تتحرك في أعماقي وتقول لي: أنا هنا أيتها الحمقاء!.. أنا حية أعرف خواطرك وأحلامك، وهذا الجسد لا يسع سوى واحدة منا.. ولن تكوني أنت هذه الواحدة، إنني أقوى شخصية منك وأذكى.. إنني أحصل على ما أريد ولا أرتجف خلف الأبواب الموصدة عاجزة عن فتحها..، لهذا لا فرصة لك أيتها الحمقاء.. لا فرصة على الإطلاق..
توقفت عن الكتابة في مفكرتي.. وسألتها:
- وهل نجحت في الاستيلاء على جسدك تمامًا؟
لهثت وأرجعت رأسها للوراء وبللت شفتيها بلسانها:
- ليس بعد.. لكنني - حين يجن الليل - وأغرق في النعاس أعرف أنها استحوذت علي، أعرف أنني أغادر الفراش وأتسلل مغادرة الدار لأعيش حياتها الغامضة التي لا أدري شيئًا عنها، إلا أنني - في الصباح - أجد آثارًا كثيرة.. تذاكر قطار.. بطاقات.. خدوشًا في معصمي كأنني كنت أجتاز دغلًا متشابك الأغصان.. جروحًا في أصابعي.. إلخ..
- ولم يحدث قط أن عدت للسيطرة اثناء ممارستها لحياتها..؟
اتسعت عينها اليسرى - غير المغطاة - رعبًا.. وهمست:
- مرات قليلة.. وكنت أجد نفسي في أماكن لا أعرفها.. أماكن غامضة مرعبة، لهذا كنت أفر من ذاتي فورًا وأترك (لميس) تتصرف، لأنها ما دامت وصلت لهذه الأماكن فهي تعرف كيف تخرج منها..
قلت بصوت رزين محاولًا تهدئة أعصابها:
- أماكن مرعبة.. هلا أوضحت أكثر..؟

نظرت لي حيث جلست عند رأسها أدون ما تقول.. وقالت:
- لا أدري.. مقابر وسط الشواهد الكئيبة.. زقاق خلفي مظلم تعوي فيه القطط السوداء في شراسة.. قفص الأسد في حديقة الحيوان وهو يرمقني في تكاسل متسائلًا عما إذا كنت أصلح للعشاء.. محرقة جثث في دولة أجنبية.. عشرات الأماكن..
مرة أخرى توقفت عن الكتابة:
- تعنين أنها ساقت جسدك لقفص الأسد؟
- بالضبط..
- لكننا متفقان على أنه لا يمكن لإنسان أن يدخل هناك، فضلًا عن أن يخرج.. ألا يعني هذا أن الأمر مجرد كابوس منك؟
صاحت في ضيق كأنما أذهلها غبائي:
- نعم.. أنت لا تعرف (لميس)..
- لكن.. هذا يعني أنها..
- نعم!.. هي شيطانة وأكثر.. بل هي تجيد اختراق الحوائط والسفر عبر المحيطات، كل هذا مستعملة جسدي الفاني الضعيف..!
.....
حتى بعد كلماتها الأخيرة لم أشعر بلحظة دهشة..
إن القصة دائمًا هكذا..، ولقد سمعت أسوأ منها بكثير.. وتفسير العامة الجاهز لهذه القصص هو مس الجن..، أنا مؤمن بالجن طبعًا لكننا نعلق على شماعته كثيرًا من الاضطرابات النفسية التي يمكن علاجها، ومن الممكن أن تكون هذه الحالة واحدة منها...
أخذت أسألها عن بيئتها ونشأتها..
فشعرت بخيبة أمل..
إن (سوزان) شخصية إيجابية مثقفة بكل ما في الكلمة من معان.. ونشأتها لا غبار عليها، فلن أجد عقدًا ولا إحباطات في حياتها من أي نوع...، وحتى شماعة (الإحباط العاطفي) التي نعلق عليها المشاكل النفسية لا وجود لها هنا..
لأن الفتاة مخطوبة لشاب مهذب وسيم أعرفه جيدًا، وأعرف أن فتيات كثيرات كن يتمنين قطع ذراعهن من أجل الفوز به...
إذن ما هي المشكلة؟
ماهي جذور (الفصام) في شخصية كهذه..؟
إن المرض العقلي ليس عدوى وليس كارثة قدرية مفاجئة.. بل إن له أرضية ممهدة في شخصية نسميها - نحن أطباء النفس - باسم (شخصية ما قبل مرضية) - ثم تأتي الصدمة.. عندئذ يولد المرض النفسي الذي قد يأخذ صورة اختلال طفيف يعرفه المريض ويفهمه ويكافح للخلاص منه واسمه (عصاب).. أو اختلال خطير لا يعرفه المريض ولا يفهمه بل ويكافح كي يقنع الآخرين به.. وهذا الاختلال الأخير نسميه (دهان)...
وهي تسمية مهذبة لكلمة (جنون)7..
كانت (سوزان) شخصية قويمة تمامًا..، وكان الحديث معها لمدة ساعتين كافيًا لإقناعي بسخف انطباعي الأول عن ادعائها الغموض...

وتدريجيًا بدأت أدرك أنها ستكون حالة مرهقة تتحدى ذكائي وخبراتي في عالم النفس..، لكنني - بالطبع - لم أصدق حرفًا مما تقول..

- لهذا أزمعت أن أحضر معي دليلًا..

قالتها وهي تعبث في حقيبتها باحثة عن شيء ما.. فسألتها:

- دليلًا على ماذا؟

- على أنني كنت هناك..

وأردفت مفسرة وهي تطبق يدها على ما كانت تبحث عنه:

- أمس استعدت سيطرتي على نفسي.. فوجدت أنني واقفة في قاعة مظلمة تملؤها نباتات الظل.. ولم يكن هناك أحد..، كنت أدرك أنني سأتلاشى بعد ثوان لهذا أمسكت بأول شيء وجدته أمامي ودسسته في جيبي لأتأكد في الصباح من أنني لم أكن واهمة..

- منطق لا بأس به.. وما هو هذا الشيء..؟

فتحت كفها لتريني ذلك الشيء، فتجمد الدم في عروقي..

لم أستطع أن أصارحها أني - في هذه اللحظة - أدركت تمامًا إلى أي حد هي صادقة..

لا يوجد سوى منديل واحد في (مصر) كلها يشبه هذا الذي تمسكه..

منديل سماوي اللون تلوث بعصير المانجو وبه أثر حرق من سيجار مشتعل.. وعليه الحرفان الأولان من اسمي..

لأنه منديلي الذي نسيته في قاعة الجلوس أمس..!

* * *

- ٢ -

توقف د. (سامي) عن الكلام وأخذ يتأمل وجوهنا في استمتاع إذ أثار شغفنا إلى حد كبير..
قال (شكري) وهو يرشف القهوة التي أعدتها له مدام (ثريا) كي يحتفظ بحيويته وتحفزه المزعجين:
- لا بأس بتاتًا.. لقد نجحت في بعث التوتر في عروقنا.. وأعتقد أن النعاس قد فر من عيون الكثيرين..
قلت أنا وقد بدأ وعي يتلاشى حتى أنني كنت أجد صعوبة في ترتيب أفكاري:
- هناك من تحدث عن تصوير النباتات.. من هو؟.. وماذا حدث في قصته هذه؟!..
ابتسم الجالسون في رقة.. وتبادلوا النظرات، ثم قال د. (محمد) وهو يربت على خدي:
- صح النوم!.. إن تصوير النباتات هو قصتنا الحالية هذه!
- حقًا؟.. و.... و... ماذا حدث فيها؟
- لم يحدث شيء بعد..
- إذن لماذا تحدث.. ما اسمه بالضبط؟.. د. (سامي).. نعم.. هو كذلك.. لماذا تحدث عنها؟
- هذا ما سنعرفه حالًا..
قال د. (سامي) في لهجة معتذرة:
- لم يكن هذا إطنابًا يا د. (رفعت).. صدقني.. فقط اصغ لباقي القصة..
- حسن.. حسن.. قل ما عندك...

* * *

تناسيت هذا الحادث الغريب..
ولم أشعر الفتاة بما يعتمل في ذهني من خواطر سوداء على أنني كنت أترقب اليوم الموعود في شغف حقيقي..
لقد انتهى الفيلم الذي ظللت ألتقطه في صبر طيلة أسبوعين وثلاثة أيام وأمكنني أن أعيد تعبئته وإرساله للتحميض..
وبعد ثلاثة أيام وصلني مظروف به ستة وثلاثين كادرًا شفافًا، فقمت بترتيبها - بحسب رقم اللقطة - في منصة العرض الدائرية للفانوس السحري..
وناديت (ثريا) التي أعدت لي كوبًا من الليمون إمعانًا في الاستمتاع والتلذذ بالحدث الذي جعله خيالانا ديناصوريًا..
أطفأت النور وأضأت كشاف الجهاز فارتمت الصورة على الشاشة تظهر أكبر عدد من نباتاتنا الحبيبة..
وبدأت أتأمل الكادرات ببطء في البداية على أن أزيد سرعة التحريك فيما بعد حين أتأكد من جودتها جميعًا..

وكانت (ثريا) أول من لاحظ..
في الكادر السابع كان ثمة شيء غير مألوف..
ووجمنا ونحن نرمق ما نراه، عاجزين عن تفسيره...
- هو جزء من ساعد واصابع يد..
قالتها (ثريا) ووثبت إلى الشاشة لتشير بإصبعها شارحة وجهة نظرها، تلك الوجهة المعقولة إلى حد كبير..، فمن طرف الكادر الأيمن كان هناك شكل مبهم - لقربه من العدسة. لكنه يتشكل في صورة ساعد ويد مفتوحة الأصابع.. إن هذا لغريب!
- هل هي يدك؟
- أنت تعرف أن هذا الركن محرم علينا منذ بدأت مشروعك..
- إذن يد من هي؟...
- يد شخص مر أمام الكاميرا في العاشرة من مساء اليوم الثالث...
- وهل هذا طبيعي؟.. لا يوجد سوانا في هذا البيت..
- استمر في العرض وسنرى..
وبدأت الكادرات تتوالى...
وفجأة - عند الكادر السابع عشر - لمحنا شيئًا آخر..
كان هناك كتف.. نعم كتف يدخل من إطار الكادر الأيسر.. وكالعادة بلا تفسير..
وتوالت الكادرات..
الكادر الحادي والعشرون كان يظهر شيئًا قريبًا من ظهر فتاة ترتدي ثيابًا سوداء تمامًا، أما الكادر الثلاثون فكان ظلامًا كله كان هناك من كان يقف أمام العدسة لحظتها..
ما معنى هذا؟
معناه أن هناك من يتسلل إلى دارنا..
وهذا التسلل حدث في العاشرة مساء من اليوم الثالث واليوم الثامن واليوم العاشر والخامس عشر.. من بدء التجربة..
- لقد خرجنا في اليوم الثالث لزيارة آل (محفوظ)..
- بل آل (منصور)...
وخرجنا في الأيام التالية جميعًا..
قالت (ثريا) وهي تتأمل إحدى الصور:
- معنى هذا أن هناك من كان ينتهز فرصة مغادرتنا للدار كي يدخلها..
شردت نظرتي وأنا أقلب في ذهني الاحتمالات:
- ولكن.. هل سُرق شيء من الفيللا؟.. لا أظن..
- لم يسرق شيء.. أنا واثقة..
عدت أفكر بصوت عال وأنا أرشف الليمون:
- إذن لماذا يتسلل أحد للفيللا؟.. ثم تخيلي أنك لصة - لا سمح الله - دخلت إلى دار غاب أهلها، ثم.. هوب... يسطع فلاش الكاميرا وتعرفين أنهم أعدوا طريقة ما لالتقاط الصور أوتوماتيكيًا.. عندئذ ماذا تفعلين؟

- بالطبع أحاول تدمير الكاميرا أو الفيلم لأن عليه دليل تسللي، أو أفر من الدار ولا أعود لها أبدًا..

. لكن المتسلل لم يفعل هذا.. فما سر ذلك؟..

لم تجد إجابة..

وكذا أنا....

ظللنا صامتين نرمق الكادر شاردي الذهن..، ثمة خطر يتهددنا لكننا لا نعرف كنهه.. شرخ في جدار أمننا يتسع ببطء..

وبالطبع نسينا كل شيء عن تجربة النباتات!

* * *

لم يكن منطقيًا أن نبلغ الشرطة..

إذ لم يسرق شيء من الفيللا على الأقل في الوقت الحالي..

المنطقي هو أن نتأكد من غلق الأبواب والنوافذ بإحكام عند مغادرتنا لها، والمنطقي كذلك أن نعيد التجربة مع شيء من سعة الأفق..

أما المنطقي أكثر من كل هذا هو أن نخرج ثم نعود للفيللا في (كبسة) مفاجئة في العاشرة مساء..

ولقد نفذنا كل هذا بدقة تمامًا..

ونقلنا الكاميرا إلى ركن قصى من الصالة يتيح لها التقاط صورة شاملة لكل ما يحدث، وبالتالي لن تحوي الصور القادمة أجزاء من فتيات غامضات بل الفتيات أنفسهن..!

وفي اليوم الأول تعمدنا الخروج محدثين أكبر ضجة ممكنة ليعرف من يراقبنا أننا خرجنا...

ولم نعد في العاشرة مساء لنترك فرصة أكبر للمتسلل..

أما في الأيام التالية فكنا نعود في أوقات مفاجئة، لكننا - كما هو واضح - لم نلق ما يريب..

وبعد خمسة أيام اخذت الفيلم لتحميضه، على صور هذه المرة وليس شرائح فانوس سحري.. وذلك لنسهل تداولها ودراستها..

فماذا - تتوقعون - كانت النتيجة؟..

نعم.. هو كذلك.. لم يظهر المتسلل سوى في الصورة الأولى..، أي أنه لم يأت سوى مرة واحدة أو هو توقع عودتنا في المرات التالية فلم يأت..

كانت الصورة مألوفة لي.. مألوفة تمامًا..

الغريب أنها كانت تقف في مواجهة الكاميرا في ثقة مزعجة، كانت تعرف أن صورتها تلتقط.. وتريد أن تظهر استهانتها بنا..

الثوب الأسود والشعر المنسدل يغطى نصف الوجه والوقفة الشامخة..

ألم تعرفوها بعد؟.. هل نسيتم قصة المنديل..؟

إنها (سوزان) طبعًا..

أم هل أقول.. (لميس)؟!

* * *

في هذه المرة قمت بإبلاغ الشرطة..
وكان ضابط البوليس هو (عادل)، ولعل هذا هو سر صداقتنا.. وأنتم لم تنسوا بعد استشارته لي في قضية المرآة المسحورة إياها..
وكان (عادل) نشيطًا.. بل جم النشاط..
خطته انقسمت إلى جزءين: الجزء الأول هو العثور على الفتاة ومواجهتها بصورتها.. وهذا سهل لأن لدي اسمها وعنوانها ورقم تليفونها..
الجزء الثاني: هو تدبير كمين لها في ليلة نغادر فيها الفيللا..
لكن الجزء الأول كان سلبيًا.. لأن الفتاة تعمدت إعطائي معلومات مزيفة عن بيئتها، وحتى خطيبها الذي كنت أعرفه لم يكن خطيبها ولم يرها في حياته.. هكذا أخبرني في النادي..
كانت تكذب بإحكام لتملك هي زمام المبادأة.. فلا تراني إلا حين تريد هي..!..
أما الجزء الثاني فلم يسفر عن شيء بعد أسبوعين من مراقبة الفيللا.. ولولا الصورة لاعتبرني (عادل) مخرفًا..
لقد ذابت الفتاة.. تبخرت...
- لكنها لم تؤذك ولم تسرقك!
قالها (عادل) مواسيًا.. فصرخت في حنق:
- وهل هذا سبب كاف كي أشعر بالسعادة إذ تدخل (الفيللا) كل ليلة لتفتشها ركنًا ركنًا؟!..
- ثم.. كيف تدخل؟
في حنق نظرت له.. وتنهدت هامسًا:
- أنت لا تعرف (لميس)!

* * *

وقضيت و(ثريا) أيامًا سوداء كقلب الكافر.. الشرخ في جدار أمننا صار أخدودًا.. ثم فالقًا جيولوجيًا يوشك أن يبتلع حياتنا كلها..
لو أخذنا بظاهر الأمور أيقنا أن الفتاة صادقة في كل حرف قالته لي، وهذه الـ (لميس) تأخذها - بعيدًا عن كل قوانين الطبيعة - إلى أماكن غير عادية، ولم تكن الفتاة كاذبة حين وصفت لي قاعة الجلوس في الفيللا بدقة.. بل وكان معها دليل مادي لا يدحض..
ثم جاءت صور الكاميرا لتدعم القصة..
وهنا - يتساءل أحدكم - لماذا بيتي بالذات؟!
إن الإجابة غير مشجعة على الإطلاق..
متشبثين بحبال الطب النفسي إلى النهاية، فتذكر أن الشخصية الثانية في حالات (الفصام) تمقت المعالج بشدة باعتباره يحاول تدميرها لصالح الشخصية الأولى..
وهكذا يسهل معرفة سر زيارة (لميس) المتكررة لداري...
إنها - بدقة علمية - ترغب في الخلاص مني..

أو هي تدبر لي شيئًا ما سيكون وبالًا فوق رأسي..
والفالق يتسع أكثر...

* * *

وفي تلك الليلة..
كانت عقارب الساعة تدنو من العاشرة..
وكنت أنا مختبئًا خلف مقعد في قاعة الجلوس.. نعم... هو ذلك الكرسي الذي تجلس فوقه يا د. (رفعت)!.. هو ذاته..
كنت أنتظرها.. ولم أتوقع أنها ستأتي..
لكنها جاءت..
وفي ضوء القاعة الخافت لمحت ثوبها الأسود، ووسط الصمت المطبق سمعت حفيف ثوبها وقرعات كعبيها..، كانت تسير في تؤدة..
وانتصب شعر رأسي..



ووسط الصمت المطبق سمعت حفيف ثوبها وقرعات كعبيها ...

كانت تسير في تؤدة ..

لم يعد هناك مجال للشك في حقيقة الأمر..، إن هذه الفتاة قد خرقت كل حواجز الطبيعة، واجتازت الأبواب المغلقة والنوافذ الموصدة لتكون هنا..

إنها (شيء) ولا يمكن ان تكون كائنًا بشريًا..

وفي ذعر امتدت يدي إلى مفتاح النور فساد الضوء المكان.. رفعت وجهها نحوي في بطء.. وابتسمت ابتسامة غامضة..

كانت شاحبة... لكنها هي هي.. ذات الملامح والشعر المنسدل، لكن في ملامحها كانت هناك قسوة غير عادية..

- (سوزان)!

كذا ناديتها فلم يبد عليها أنها سمعت شيئًا..

- (لميس)!

بدأت تستجيب أخيرًا..، وفي برود - كلوح ثلج يتهشم - تساءلتُ:

- أنت؟

- بالطبع أنا..

ارتسمت ضحكة وحشية على ثغرها، وبدأت تسير نحوى في تؤدة..

- جئت أراك وأسألك.. لماذا تريد قتلي؟

- أنا؟.. ولماذا؟

- من أجل المخلوقة التافهة (سوزان).. أنظر!.. هي لا تخترق الجدران ولا تطير ولا تلتهم النيران.. أما أنا فأفعل..!

وتقلص وجهها وهي تواصل التقدم نحوي.. وأردفت:

- إنك قد اخترت المعسكر الخطأ..

ولمحت نصل سكين يلتمع في يدها.. أخرجته من حزامها الفضي..

- وعليك أن تدفع الثمن..!...

صحت وأنا أثب للوراء محاولًا أن أطيل اللحظة الفاصلة قدر الإمكان (وحتى لا أستسلم للهلع):

- (لميس)!.. كفي عن هذه اللعبة!

- أية لعبة؟

- لعبة الجنون.. إنك ترين الكثير من الأفلام، وتعتقدين أن الفصام يزيد من غموض المرأة وسحرها..

وازددت تراجعًا للوراء محاذرًا أن أصطدم بقطع الأثاث:

- لكنك لن تخدعيني أبدًا..

همست بصوت كفحيح الأفعى وهي ترفع السكين:

- كنت أنتظر هذه اللحظة.. لكنى شئت أن أفزعك أولًا.. أن أتركك تتساءل عن كنه ضيفتك الغامضة أيامًا وأيامًا..

وانقضت على صارخة بالفرنسية (دون مبرر في الواقع):

- لقد انتهت الكوميديا!!

كانت قد صارت في النقطة المناسبة تمامًا..

وحين لمست الحبل، وانطلقت مجموعة الميكانزمات المعقدة التي أعددتها لها في صبر، وحين سقطت شبكة الصيد المعلقة بإحكام من السقف لتكبل حركتها.. كنت آمل ألا يكون الفكاك من الشباك جزءًا من مواهبها الخاصة...

أجل.. هي طريقة بدائية شبيهة بأساليب قبائل (الزولو) في صيد النمور لكنها كانت تعمل بكفاءة، ولقد قضيت أربع ساعات مع (ثريا) صبيحة اليوم نجرب إمكانات هذا الاختراع.. ثم أننا تظاهرنا بالخروج بسيارتنا في التاسعة مساء توطئة لأن أعود أنا متسللًا أنتظر الزائرة..

الزائرة التي تتلوى في شباكها كالنمر دون أية مبالغة أدبية..

لو لم نكن في المدينة مكبلين بالقوانين لطعنتها برمح واسترحت بالًا..

لكني مرغم على طلب الشرطة للأسف وبسرعة قبل أن يتمكن هذا الوحش الكاسر من تمزيق سجنه بالسكين.. عندئذ لا يعلم سوى الله ما قد يحدث...

* * *

وجاء رجال الشرطة وحملوها - كالخنزير البري الهائج - إلى المكان الأخير الباقي لها كي تذهب إليه..

وقالوا لي أنني نجوت بأعجوبة، وأن الزملاء في مستشفى الأمراض العقلية سيواصلون مسيرتي، وقالوا إنهم آسفون على عدم تصديقي في بدء الأمر لأنهم لم يملكوا خيطًا واحدًا يقودهم إليها..

قالوا هذا وسمعته..

لكني كنت أدرك أن المأساة لم تنته بعد، وأننا لم نصل للنهاية السعيدة المطلقة التي تختتم بها الأفلام السينمائية..

إن في القصة جانبًا غير مادي لم يتضح بعد..

إذ كيف دخلت هذه الشيطانة داري عشرات المرات؟!

* * *

ومرت الأيام في هدوء تام..

وكنت أتردد على عيادتي بانتظام كما هي العادة..

إلى أن جاء ذلك اليوم...

ذلك اليوم الذي فتح فيه الباب ولمحتها داخلة..!

كانت أسنانها النضيدة البيضاء تنفرج عن ابتسامة مشرقة معسولة، وكانت ترتدي ثيابًا زاهية اللون وقد عقصت شعرها..

أما أنا.. لا داعي لوصف ما حدث لي لحظتها..

لقد وثبت مترًا إلى الوراء ومترين لأعلى.. وقفز قلبي إلى حلقي كالبرغوث..

صحت في صوت مختنق:

- أنت؟

هزت رأسها يمينًا ويسارًا في مرح.. وهتفت:

- افتقدتني؟ كنت منشغلة إلى حد ما..

وجذبت كرسيًا.. وجلست عليه وقد وضعت حقيبتها على ساقيها كأن شيئًا لم يحدث، وكأنها بانتظار لحظة البدء..

- لـ.. لحظة من فضلك..!

وبيد مرتجفة مددت إصبعي لقرص التليفون وطلبت رقم مستشفى الأمراض العقلية.. ثوان ثم ردت ممرضة ملول فسألتها عن د. (صابر) صديقي..، وبعد دقائق سمعت صوته يتساءل عما هنالك..

خفضت صوتي إلى درجة الفحيح.. وهمست:

- د. (صابر).. هذا أنا.. (سامي).. نعم.. بخير.. بخير.. كلهم على ما يرام.. لا وقت للاجتماعيات أرجوك!.. قل لي.. متى خرجت تلك الفتاة من عندكم؟.. الفتاة المصابة بالفصام...

سمعت صوته المعدني من السماعة يهتف:

- من؟.. تعني (سوزان) أو (لميس)؟.. بالتأكيد هي ما زالت في ضيافتنا.. فمن قال أنها خرجت؟!

- مـ.. متأكد؟

ضحك لثوان ثم سمعت صوته الواثق يردد:

- طبعًا!.. بل إنها جالسة في مكتبي في هذه اللحظة.. هل تريد أن تحدثها؟.. هاك هي!.. د. (سامي) يريد أن يحييك يا (سوزان)!

رفعت عيني إلى الجالسة أمامي وكانت ترمقني بنظرة ثابتة فيها سخرية خفيفة، على حين سمعت الصوت المألوف في السماعة:

- د. (سامي)..!.. كيف حالك؟.. أريد أن أعتذر عن كل الإزعاج الذي سببته لك..!.. إنهم هنا طيبون حقًا وإنني لأتحسن باستمرار..

هيه!.. د. (سامي)..!.. لا تحقد علي.. لماذا لا تجيب؟!

في بطء أعدت السماعة لموضعها ورفعت عيني نحو الجالسة أمامي..

- ما بك يا د. (سامي)؟.. كأنك ترى شبحًا!

قالتها بنفس النظرة الغامضة الساخرة..

وهنا تصلب جسدي.. ووقفت ببطء شديد.. وبصوت لم أعرف أنه صوتي سألتها:

- من أنت؟

- هل تمزح؟

- بل.. ما أنت؟!

- ياله من سؤال!.. أنا (سوزان) بالطبع..

- إذن من هي نزيلة المستشفى؟

قالت في بساطة وهي تنقل ساقًا فوق ساق:

- وهل هناك نزيلة في المستشفى؟

كنت قد انتهيت تمامًا.. ولم أدر تمامًا حقيقة ذلك الذي أفعله، لكني كنت أضرب المكتب بقبضتي.. وأصرخ في هستيريا:

- إسمعيني أيتها الفتاة!.. أنا لن أتحمل أكثر!.. ابحثي عن أحمق آخر تتسلين عليه بألاعيبك.. أما أنا فقد انتهيت تمامًا..

وكانت هي محافظة طيلة الوقت على وقار جلستها.. مكتفية بأن تطقطق بشفتيها في تصعب مرددة عبارات من نوع:

- كذا؟.. حقًا؟.. يا للخسارة!..

وكنت قد وصلت للنهاية فأرجعت ظهري للوراء وغطيت وجهي بكفي.. ولذت بالصمت..

ساد السكون الثقيل اللزج بضع دقائق..

ثم إنني رفعت وجهي نحوها.. وهمست:

- اذهبي!.. أنا لن أستطيع معاونتك!

- ولكن...

- اذهبي عليك اللعنة!!

نظرت لي لحظة ثم أنها جمعت حقيبتها واتجهت للباب في تؤدة وكبرياء..، وعلى الباب استدارت ونظرت لي نظرة خاوية من المعنى ثم أغلقته وراءها...

* * *

في الصباح التالي على مائدة الإفطار بدأت أشعر بالتحسن..

كأن حملًا ثقيلًا انزاح عن كاهلي..

وهنا سمعت زوجتي تقول وهي تضع الصحيفة أمامي:

- هل قرأت هذا الخبر..؟..

توقفت عن المضغ وأنا ألمح صورة (سوزان) في ركن الخبر العلوي..

ولم تكن عيناها مفتوحتين بل مغلقتين.. وخصلات شعرها الأسود كالمبتلة تغطي أكثر وجهها.. كانت ميتة.. ميتة جدًا..!

وبيدين مرتجفتين وعينين زائغتين عرفت أنها وجدت غريقة في النيل وأنهم لم يعرفوا من هي قط....

أنا فقط كنت أعرف...

أنا الذي بادرت بالاتصال بالمستشفى سائلًا عنها، والجواب - كما توقعت - هو أنها اختفت أمس في السابعة مساء..

زنزانتها أو حجرتها - كما قالوا - كانت محكمة الغلق لكنهم لم يجدوها بالداخل، وفتشوا كل مكان دون جدوى..

لكنهم لم يعلموا أنها في أعماق النيل في تلك اللحظات.

* * *

وتبقى أسئلة بلا جواب...

هل انتحرت (سوزان) لتستريح من المس الشيطاني الذي أصابها، والذي لم يعد لدي شك في وجوده؟..

أم أن (لميس) حاولت أن تسبح بهذا الجسد الذي لا يجيد السباحة في مغامرة طائشة أخرى من مغامراتها..؟

ومن هي التي جاءتني بالأمس؟..

هل هي (سوزان) أم (لميس)؟.. ومن هي التي كانت في المستشفى؟.. وكيف وصل الفصام إلى درجة انقسام الجسد المادي ذاته؟!..

إن رأسي ينفجر..

بل - الأدهى - هل هلكت فعلًا أم أنها حاولت إقناعها بذلك؟.. التفسير الوحيد لكل هذا هو المس الشيطاني - نعوذ بالله من الشيطان الرجيم - الذي أصاب تلك الفتاة، وبالتالي خرج الأمر من دائرة المنطق والماديات إلى آفاق ما وراء الطبيعة..

ولا داعي للقول أن الكابوس سيعيش حيًا فينا ما حيينا..

وأنني - حتى اليوم - أترك الكاميرا من حين لآخر كي تلتقط صورة تلقائية للقاعة عند خروجنا، فقط لأتأكد من أنها لم تعد..

* * *

لقد ظنت البائسة أن شفاء المريض من جرثومة الدرن لا يكون إلا بقتله!، ربما كان هذا سخفًا.. وربما كان جنونًا.. لكني لا ألومها كثيرًا.. لقد كانت مريضة.. وطلبت العلاج.. لكن الطبيب لم يدر كيف يتصرف...

نسيت أن أقول لكم شيئًا أخيرًا..

إن الصور التي التقطناها لها قد مرت بنوع غريب من التحلل العضوي فلم يعد لها أثر..

لقد رحلت الزائرة بعيدًا حاملة كل ما قد يذكرنا بها..!..

* * *

القصة الخامسة

أنا و (العاقّ) !

تحكيها : (هويدا)

- ١ -

الساعة تدنو من الرابعة صباحًا... لقد انتهت بالفعل أية فكرة للعودة إلى ديارنا (هذه الليلة)..
لا أدري متى ولا كيف انتهت لكننا فجأة أدركنا حقيقة أننا (غدًا) ..!
قال (شكري) في عصبية قاذفًا بعقب سيجارته إلى الأرض (ثم تذكر أنه ليس في داره فالتقطه ودفنه في المطفأة):
- أنا أمقت النهايات المفتوحة!
قلت وأنا أتثاءب:
- وأنا أحبها!.
- أحب وضع النقط فوق الحروف.. من فعل ماذا ولأي غرض؟..
هذه هي ميزة القصة.. أن تضعك في وضع المراقب اليقظ العليم.. فإذا لم تحقق لك هذا فما جدواها إذن؟.. وما الذي يميزها عن الحياة؟!
قال د. (سامي) في بساطة:
- أنت مُصر يا أستاذ (شكري) على اعتبار قصصنا مؤلفة.. ولكن هذا هو ما حدث بالضبط.. يمكنك أن تحبه أو لا تحبه لكنه حدث!...
وكما قال د. (رفعت) لا يمكنك أن تتهم الثورة الفرنسية مثلًا أنها ركيكة!
هرش (شكري) لحيته في ضيق.. وغمغم:
- كنت أصبو إلى اتضاح الأمور و..!..
وهنا سبحت الغرفة في الضوء الأبيض الخاطف الجزء من الثانية.. وثبنا كالملسوعين من مقاعدنا ونحن بعد لم نعرف ما الذي نعتقده.. لكن د. (سامي) رفع كفه في تؤدة وهتف:
- إنه ميعاد التصوير الجديد!.. هل نسيتم؟.. لقد أعددت لكم مفاجأة صغيرة لأختبر أعصابكم بعد قصتي..!..
وهنا برزت مدام (ثريا) من خلف الستار حاملة الكاميرا وفوقها الفلاش.. وكانت تضحك في تشف حقيقي...
- يا لها من فكرة!
- إذا كان المطلوب هو الرعب في حد ذاته.. فلا تنكروا أنني قد وفقت إلى حد كبير..!.. لقد وثبتم من مقاعدكم ككرات البنج بونج!
قالت (هويدا) وهي تتنهد وتستريح في جلستها:
- لقد صارت أعصابي كالزنبرك المشدود.. وسأنفجر صارخة في وجه أي شخص في أية لحظة!
أشرت لها.. وابتسمت:
- لقد جاء دورك في الإرعاب بعد الارتعاب..
نظرت للسقف في حيرة وخجل.. ثم غمغمت:
- دوري أنا؟

- طبعًا..
- قصة مرعبة؟
- نعم.. ولكن لا تحكي قصة المرآة لأن (سهام) حكتها.. ولا تحكي قصة الفرعون (أخيروم) لأنني حكيتها للقراء..
قالت وهي تحملق في السجادة معابثة نقوشها بطرف حذائها:
- إن هذا صعب.. ولكن.. مهلًا.. عندي قصة أعتقد أنها ستشد اهتمامكم إلى حد ما..، أنت تعرفين (ميمي) صديقتي يا (سهام) وتعرفين مشاكلها بعد سفر زوجها (بلبل) للخارج تاركًا إياها وحيدة مع (مشمش).. إن (ميمي).....
قاطعتها في كياسة:
- أ... (هويدا).. هل يضايقك كثيرًا ذكر الأسماء الكاملة بدلًا من أسماء التدليل المستفزة هذه؟!.. سيكون صعبًا علي أن أتذكر من هو (بلبل) و(مشمش) و(ميمي)..
نظرت لي في ضيق.. وهزت رأسها مستسلمة:
- ليكن.. ولكن لا تقاطعني ثانية..!...

* * *

قالت (هويدا):
- أنا أمقت الأطفال...، أعرف أنه من العار أن تعترف امرأة بذلك.. لكنكم لستم أغرابًا..، نعم أنا أمقت الأطفال خاصة حين يصلون إلى السن الكريهة التي يمكنهم فيها جذب ذيول القطط وكسر المزهريات الثمينة.. السن التي تتلوث فيها أنوفهم بالمخاط وركباتهم بالميركيروكروم ويصدرون أصواتًا سخيفة عند اللعب..!
أمقتهم.. ولم أكن متجنية تمامًا في ذلك...

* * *

- (هويدا).. لقد توفيت خالتي!
قالتها وانفجرت في البكاء..
- (مها)!.. لا عليك يا حبيبتي.. كلنا سنشرب ذلك الـ..... إلخ.. إلخ...
شرعت أواسيها عبر سماعة الهاتف لكنها - بالطبع - لم تصغ لحرف من كلامي..
ثم إنها استنشقت دموعها.. وهتفت عبر السماعة:
- (هويدا).. لقد جاءني الخبر من (كفر الزيات) منذ دقائق.. وعلي أن أذهب هناك الآن..
كانت (مها) تعيش وحدها في (الإسكندرية) بعيدًا عن عائلتها التي احتشدت كلها في (كفر الزيات)، وكان زوجها قد سافر للخارج لكنها لم تستطع ترك الدار والإقامة في مسقط رأسها.. وذلك لظروف العمل ومدرسة (مجدي) ابنها الوحيد..
وكنت أعرف ما ستطلبه بالتأكيد لأن امتحانات ابنها تبدأ بعد غد، ولا يمكنها إضاعة وقته بالسفر معها.. ولا يمكنها ألا تسافر.. من ثم...
- أريدك أن تعني بـ (مجدي) حتى أعود..

- لا مانع..
قلتها بصوت مبحوح لأنني - كما قلت لكم - أمقت الأطفال، لكن نداء الواجب لا يعرف الميول الشخصية..
لهذا أردفت في استسلام:
- هل تحضرينه لي أم آتي لأخذه؟!
- لا يا حبيبتي.. أريدك ان تأتي لتمضي الوقت معه هنا..
لأنه - كما قالت لي- لن يستطيع أن يركز أفكاره في بيئة مغايرة - وربما معادية - مثل بيتي.. وقد أثار هذا حنقي.. إن هذا (المفعوص) في السنة الثالثة الابتدائية فأي شيء ستفعل وتقول حين يصير في الثانوية العامة!!
- ولكني لن أترك أمي..
- لن أتأخر يا (هويدا).. أقسم لك.. سأعود مع الليل.. وعندئذ تعودين مشكورة لدارك، على أنني سأطلب منك ذات الشيء غدًا..
- فليكن...
إن بضع ساعات لن تضر أحدًا خاصة ودارها قريبة من داري ولن يكون الانصراف مشكلة..
وهكذا.. ذهبت لأعمل (جليسة أطفال) دون أجر..

* * *

ما أن دخلت من الباب حتى ارتمت (مها) في أحضاني دامعة العينين ذابلتهما..، وأخذت تنهنه وتمخط على كتف ثوبي الجديد وأنا أردد عبارات من نوع (كلنا سنموت، استراحت المسكينة، البركة فيك)..
حتى غلبني البكاء فشرعت أبكي معها..
ثم أنها أغلقت أزرار ثوبها الأسود وقادتني إلى الداخل..
وكان طفلها (مجدي) واقفًا يرمقني ممسكًا بقط أبيض ضخم..
(مجدي) الذي طالما وصفته امه بأنه يملك من الذكاء ما يفوق سنه بمراحل وبشهادة كل المربين الذين صادفوه..



وكان طفلها (مجدى) واقفًا يرمقنى ممسكًا بقط أبيض ضخم ..

وحين رأيته عرفت أنه هو..!
ذلك الطراز المزعج من الأطفال الوقحين المدللين المدمرين الصاخبين المتوحشين المخربين القذرين الكذوبين الـ..... كل الصفات القاتلة التي يمكنني تعدادها إلى يوم الدين..!
لقد وقعت في الشرك ولا حول ولا قوة إلا بالله..
كانت (مها) تهرول بفردة حذاء واحدة هنا وهناك شارحة لي (طقوس) دارها.. وإلى المطبخ قادتني وأشارت إلى الموقد:
- هاك.. أرز وبطاطس أعددتهما له على عجل.. إذا جاع مساء يمكنك أن تطعميه... و....
وهرعت إلى الثلاجة وفتحتها وهي ترتدي فردة الحذاء الأخرى:.
- هاك.. مياه غازية وآيس كريم.. في الثامنة مساء بعد أن يتناول عشاءه... و....
ثم التقطت حقيبتها وهرعت إلى الباب.. وهتفت قبل أن تخرج:
- خذي الحذر.. ولا تدعيه يشنق القطة فهو يحاول ذلك من شهور..!
- يشنق ماذا؟!!
- القطة.. ولا تدعيه طبعًا يأكل الصبار الموجود في الشرفة..!
ثم أنها عانقتني.. وانفجرت باكية:
- آه!.. يا خالتي الحبيبة!
ودعتها على السلم وأنا لا أرى شيئًا من الدموع أنا الأخرى..
ثم عدت لأبدأ مهمتي المستحيلة..

* * *

كان واقفًا في الصالة كما تركناه واضعًا يده في جيبه وبيده الأخرى يمسك بالقطة..
وكانت عيناه وقحتين شرستين إلى أقصى حد..
قلت له في حزم وأنا أشير إلى غرفته:
- والآن يا (مجدي) اترك القطة وابدأ المذاكرة..
لم يبد علامة توحى بسماع ما قلت.. وفي برود سأل:
- أنت المربية الجديدة..؟
- أنا صديقة أمك..
- وستعنين بي؟
-.. وأجبرك على المذاكرة كذلك..
- وكم دفعت لك أمي؟!
صعد الدم إلى رأسي.. وصحت به:
- كف عن الوقاحة وادخل غرفتك..!
لثوان التقت عينانا وتصادمت الإرادتان.. ثم خضع أخيرًا وألقى بالقط على الأرض وهتف وهو يهز كتفه:
- لقد ذاكرت بما يكفي..

- إذن زد على ما يكفي..
نظر في عيني.. وابتسم - أوقح ابتسامة رأيتها في حياتي - وغمغم:
- ألا تخافين من (العاوّ)؟
- (عاوّ)؟!
وهنا تذكرت تلك اللفظة السخيفة من أيام طفولتي..
(العاوّ) هو غول عملاق أو شيطان هائل أو جني جبار أو كلب ضخم أو - باختصار - هو كل ما يخيف الأطفال، إن هذه الكلمة تلخص في براعة مئات الكائنات الشيطانية، ومهمة (العاوّ) - كما تراها الأمهات - تتلخص في التهام الأطفال الأشقياء..
أنا أيضا كنت أخاف (العاوّ) ولكن كان ذلك منذ دهر..
يا لذكريات الطفولة ويا لمخاوفها..!..
لقد كان (العاوّ) متعدد النشاطات.. فهو يلتهم الفتيات الصغيرات اللواتي تتسخ ثيابهن، أو يهملن وضع الشريط ليعقصن شعورهن، أو يضعن إصبعًا في أنفهن، أو يكذبن، أو يضربن الأولاد... أو... أو...
كانت النجاة من (العاوّ) ضربًا من المستحيلات..
لكنني نجوت.. نجوت...
واليوم أنا شابة ناضجة في الثلا... آ.. في الخامسة والعشرين من عمري ولن يستطيع أي (عاوّ) أن يلتهمني دون مسائلة قانونية..
- ألا تخافين من (العاوّ)؟
كان السؤال معلقًا بعد..، وكان ينتظر إجابة..
- أنا لا أخاف (العاوّ) لأنه لا يلتهم سوى أمثالك..
انفجر يضحك..
ضحكة غريبة عصبية لم تكن متوقعة من طفل.. وسمعته يهتف:
- إذن.. هل يضايقك أن تعرفي أن (العاوّ) هو أنا؟
- حقًا؟.. سيغمى على..
- تظنين أنني أمزح..
- اسمع أيها القرد الصغير.. لن أسمع كلمة أخرى..
ابتسم في ثقة..
ثم اتجه إلى حجرته متبخترًا بشكل مبتذل..
سيكون من الصعب علي ألا أقتله في الساعات التالية..

* * *

أمضيت ساعة كاملة أستمع للراديو وأتصفح المجلات النسائية التي وجدتها على الأريكة.. كانت (مها) قد أخرجت بعض (الباترونات) وأعدت مقصًا وقماشًا حين جاءها النبأ المشئوم كما هو واضح..
وهنا شعرت بتأنيب ضمير..

لماذا جئت من داري إذن ما دمت سأكتفي بسجن هذا الطفل؟.. وأية رعاية أقدمها له بجلوسي هنا..؟

نهضت في تثاقل إلى غرفته وفتحت الباب..

- (مشمش)..!.. هل تبغي شيئًا؟..

ودلفت إلى الحجرة فلم أجده..

كانت الغرفة خاوية تمامًا.. غرفة طفل أنيقة ومهندمة لكن الحوائط كانت مزدانة بصور شيطانية لوحوش ومصاصي دماء إلخ.. صور تم قصها من المجلات وإلصاقها على الحائط..

ويا له من مزاج لطفل في التاسعة من العمر..!

كانت الستارة تتطاير عبر باب الشرفة المفتوح إلى داخل الحجرة.. وكانت رائحة الليل العطرة تملأ هواءها.. الليل الوليد البكر..

جريت إلى الشرفة لأبحث عنه فلم أجده!..

طار صوابي رعبًا وانحنيت على سور الشرفة باحثة عن جثة صبي في التاسعة من عمره مهشمة على الأسفلت فلم أجد واحدة.. و...

كرانك!..

نظرت للخلف فأدركت أن باب الشرفة قد أغلق دوني!..

لقد فعلها الشيطان!.. ولابد أنه اختبأ تحت الفراش بعد ما فتح باب الشرفة ليغريني بدخولها..، وما إن دخلت حتى فعلها!

والآن أنا في مأزق!.. لن يفتح لي وسيخرب في البيت كما يشاء حتى تعود (مها).. يمكنني أن أصرخ وأقرع الباب مرارًا لكن كل هذا سيبوء بالفشل فهو يعرف ما سيحدث له لو فتح الباب!..

ماذا أفعل إذن؟..

ظللت ربع ساعة أرمق الناس من الشرفة عاصرة ذهني بحثًا عن حل ملائم فلم أجد..

ثم إنني نظرت إلى الباب من فوق كتفي فرأيت الباب مفتوحًا..!

إذن لقد عاد وفتحه لي بعد أن أرعبني قليلًا..

إن هناك - برغم كل شيء - بعض الآدمية في هذا الطفل..

لن يكون عقابه أسطوريًا كما أزمعت..

وفي تؤدة دخلت الحجرة..

كان جالسًا على مكتبه منهمكًا في الدراسة..

في يده قلم رصاص وأمامه كتاب مفتوح به بعض مسائل الكسور..، وحين رآني ابتسم في رقة.. وهتف:

- أنت في الشرفة يا طانط (هويدا)؟!

صعد الدم إلى رأسي، وصحت مقلدة لهجته:

- يا سلام... في الشرفة يا طانط (هويدا)!.. يا للأدب والرقة!...

ومن تظنه حبسني بالداخل أيها القرد الصغير؟!

بدت عليه دهشة حقيقية:

- هل كنت محبوسة؟.. لماذا لم تناديني؟!

شعرت بأنني سأصاب بجلطة مخية من الغيظ.. فاكتفيت بأن اقتربت منه واعتصرت أذنه في غل:

- اسمع يا فتى!.. لو حدث هذا ثانية فلن تجد أمك بقايا تدفنها!

قال متأوهًا وهو يضغط على أسنانه:

- أنت.. آه!.. شرسة الطباع...

بعد ثوان بدأ غضبي يتلاشى.. فاختلست نظرة إلى كتابه وأطلقت سراح أذنه..، إنه لا يجيد الحساب أيضًا.. الطفل الذي يعتقد أن ثمانية في تسعة تساوي أربعين هو طفل في مأزق دراسي..!..

- ألا تعرف جدول الضرب؟

رفع رأسه نحوي ممسكًا بأذنه اليسرى الحمراء كالدم.. وفي تؤدة غمغم:

- كلنا لا نعرف جدول الضرب!

- ومن انتم؟

- نحن مصاصو الدماء!

ثم ضحك ضحكته الغريبة الساخرة..

* * *

بعد نصف ساعة ذهبت لغرفته، ووقفت على الباب سائلة:

- هل تريد أن تأكل الآن؟

رفع رأسه نحوى وهرش في رأسه:

- ماذا أكل؟

- أرزًا وبطاطس...

باشمئزاز مط شفته السفلي وتثاءب:

- لا أريد...

- لابد أن تتعشى..

- ولماذا يأكل (العاوّ) أرزًا وبطاطس ما دمت أنت موجودة؟!

* * *

بعد قليل خرج للصالة حيث كنت جالسة، وشرع يدور حولي كأنما يريد شيئًا فسألته وأنا أتصفح المجلة دون أن أرفع عيني:

- جعت؟

- نعم.. ولكن ليس للبطاطس!

ووقف أمامي يتأملني بعض الوقت، فتظاهرت أنني لا أعبأ حتى بسؤاله عما يريد.. إن هذا الطفل قد بدأ يثير أعصابي إلى حد غير معقول لكنني لن أدعه يشعر بذلك..، قال وهو مستمر في تأملي:

- إن أمي أكثر أناقة وجمالًا منك!

- شكرًا.. أعرف ذلك..
- وأنفها أصغر..
- لم أطالبك بالزواج منى...
ثم إننى تمالكت أعصابي، ونظرت له في برود:
- هل ستأكل أم لا..؟
- هل يمكنني شرب بعض المياه الغازية؟..
- لا بأس.. ولكن القليل منها جدًا...
جرى إلى المطبخ وسمعت صوت فتح الثلاجة، ثم صوت صب سائل فوار.. وبعد ثوان جاءني حاملًا كوبًا به قليل من السائل الأسود الرغوي وقدمه لي، وفي رقة وكياسة طلب مني أن أشربه كعربون صداقة لأنه يشعر أنني لم أرتح له كثيرًا..
بدأت أشرب في شك متوقعة شركًا آخر لكن المشروب كان لذيذًا منعشًا وشعرت أن حقدي يذوب تدريجيًا..، أما هو فجلس على الأرض عند قدمي يداعب القط البدين في فظاظة..
دقائق ثم قال لي دون أن ينظر نحوي:
- كانت عندنا مربية قبلك..
- قلت لك إنني صديقة (ماما) ولست مربية..
هز رأسه في تؤدة بمعنى أن هذا ليس خطئًا جوهريًا.. واستطرد:
- كانت سيدة طيبة.. لكنها مرضت مرضًا شديدًا..
- إن مربيتك لابد أن تصاب بالسرطان والسكر وارتفاع ضغط الدم..
- كان لونها يبهت.. ويبهت.. كل يوم.. حتى صارت صفراء كالبرتقالة..، وخف وزنها وظهرت عظامها..
- وهل جاء لها الطبيب؟
- نعم.. نعم.. وقال إنها مصابة بالـ.. باللامينا..
- تعنى.. أنيميا؟
- ربما كان ذلك.. ولم يعرف أحد السبب.. ثم تركتنا.. وتقول (ماما) إنها ماتت في المستشفى..
تنهدت في صبر.. وهمست وقد تذكرت ما حكته لي (مها) عن هذه القصة الأليمة:
- رحم الله الجميع..
- لكنهم لم يعرفوا أو نسوا حقيقة هامة.. هذه المرأة كانت تنام جواري في الفراش كل ليلة..!..
وهذا هو خطأ الكبار.. إنهم لا يصدقون الصغار أبدًا مهما حدث.. ولطالما أنذرتهم!
لم أفهم ما يعنيه فنظرت له متسائلة..
ازدادت بسمته الوقحة اتساعًا.. ثم قال من بين أسنانه:
- ألم تفهمي بعد المأزق الذي أنت فيه..؟!
واتسع ثغره أكثر وأكثر.. وأردف:
- وحيدة مع (العاوّ) في شقة موصدة بالمفتاح!!

* * *

- ٢ -

- موصدة؟.. ماذا تعنى بموصدة؟
- أنا أغلقتها بالمفتاح من الداخل!
قالها في فخر وهو يثب للخلف مبتعدًا عن منالي..، في حين صحت في ذهول:
- ولكن.. لماذا؟.. وأين المفتاح؟
- أخفيته!
نهضت نحوه في شراسة عازمة أن أرتكب أولى جرائم القتل في حياتي..
لابد أن السفاحين جميعًا يبدءون هكذا..، لكنه تملص من يدي وشرع يقهقه ويصفق..
- لن أخبرك مهما فعلت بي...
ثم إنه جرى للمطبخ فهرعت خلفه لأرى ما سيفعل..
كان عائدًا من هناك حاملًا علبة دواء صغيرة يبدو أنها فارغة، وما أن رآني حتى وثب جانبًا رافعًا العلبة في يده.. وعلى الغلاف قرأت كلمة (ميبروباميت)، وهذه الكلمة مألوفة لي لأنها الدواء المنوم الذي كنت أعالج به بعد الانهيار العصبي الذي تلا انفصالي عن (ها....) أعني بعد أرق مستمر عانيت منه..
ولكن ما معنى هذا؟
- معناه يا طانط (هويدا) أنك شربت عشرة من هذه الأقراص في كوب المياه الغازية!!
- أيها الشيطان الصغير!.. ولكن لماذا؟
صاح في براءة كأنما أهنت طفولته:
- وكيف أمتص دماءك - أنا (العاوّ) - ما لم تنامي؟
إن هذا الطفل مجنون أو ممسوس.. ليست هذه تصرفات أطفال أبدًا.. هل حقًا شربت هذا المنوم؟.. إذن سيكون أمامي ربع ساعة قبل أن أدخل غيبوبة عميقة لأن هذه الجرعة سامة بالتأكيد..، والواقع أنني بدأت أشعر بليونة في ساقي ودوار في رأسي وثقل في جفني..
- (مجدي)!.. هات المفتاح فورًا!
- مستحيل..!؟
صحت في هستيريا:
- ولكن لماذا تفعل ذلك؟
- لأنني (العاوّ)!
ثم أردف وهو يتواثب حولي كالضفدع:
- هل سمعت عن (الثاليدوميد)؟
تصلب جسدي إذ سمعت هذه الكلمة..
لم أتصور قط أن يعرف طفل في التاسعة من عمره معناها أو نطقها..
ولقد أعادت لي ذكرى ذلك العقار المشئوم الذي أنتجته إحدى شركات الأدوية في أوائل الستينات كمسكن للحوامل، وكانت نتيجته كارثة.. لقد ولد جيل كامل من الأطفال بلا أطراف

وكانت مصيبة في العالم وأفلست الشركة وتم وقف إنتاج العقار8..
ولكن ما دخل هذا العقار فيما يحدث؟...
قال مفسرًا وهو يلهث من جراء مراوغتي:
- أنا من أطفال (الثاليدوميد).. أحضره أبي من الخارج لوالدتي، وجئت أنا للكون بكامل أطرافي..، إلا أن العقار كان له أثر غير متوقع في وظائفي الحيوية.. ولم يشعر (بابا) أو (ماما) بالفارق لأنني أجدت إخفاءه!
ثم اقترب مني خطوة والتمعت عيناه:
- لا أستطيع الحياة دون دم!.. ومشكلتي هي العثور عليه.. في البدء كانت المربيات وأصدقائي في المدرسة لكنها كانت كميات محدودة، أما اليوم فقد سنحت لي الفرصة كاملة لإرواء ظمئي..!!
تراجعت للوراء على الرغم مني بضع خطوات.. وصحت:
- كف عن خداعي!!
ابتسم في ثقة.. وسألني:
- بصراحة.. هل رأيت طفلًا في سني يتحدث ويتصرف مثلي؟
- بصراحة.. لا..!
- إذن صدقني ما أقول.. وعلى كل حال سيتضح الأمر بعد دقائق!

* * *

وثبت إلى الوراء صائحة في هستيريا:
- سأصرخ!.. وساعتها ستشرح قصتك للجيران!
طقطق بشفتيه في أسى.. وهمس:
- وإذا كانت هذه دعابة سخيفة من طفل..، هل فكرت كيف ستفسرين موقفك؟!
- إذن سأوسعك ضربًا حتى أهشم عظامك.. ووقتها لن يمكنك إيذائي حتى لو فقدت الوعي..
عاود الضحك في ثقة.. ومن فمه خرجت الكلمات القاسية:
- ذات المشكلة.. كيف تفسرين للجيران ولأمي وللشرطة قيامك بتهشيم عظام طفل بريء؟.. أمانة طلب منك رعايتها.. إن القسوة لن تنتهى من هذا العالم أبدًا!
نفس الشعور الذي ينتابني حين ألعب الشطرنج مع (رفعت) وهو من هو في إجادة اللعب..، كل الخانات مغلقة وكل لعبة لها خطرها الجسيم.. واتخاذ القرار مشكلة..
ولكن لابد من حل..
- إذن سأقيدك بالحبال حتى تصل أمك!
- عندئذ أصرخ أنا داعيًا الجيران كي يروا ما تخفيه النساء من شر خلف مظهرهن الرقيق..!
والتمعت أسنانه البيضاء المسوسة.. وأردف:
- ألم تفهمي بعد المأزق الذي أنت فيه؟
إن وعيي يتخلى عني..
يجب أن أكبل هذا السفاح أو أشله قبل أن أنام..

من الممكن أن أقتحم الشرفة وأصرخ كي ينقذني أحدهم لكن الاحتمال ما زال قائمًا في أن تكون هذه لعبة أطفال سمجة، ولكم أمقت أن أرى نفسي - أنا الخجول البائسة - أحدث فضيحة في الحي كله من أجل لعبة أطفال، دعكم طبعًا من نظرة (مها) إلى صديقتها الهستيرية التي لم تتحمل رعاية طفلها ساعتين..!

عليك اللعنة يا (مها) أنت وطفلك الكريه!..

أية تربية تلك التي تنجب سفاحًا كهذا..؟!..

وفي ثقة - كأي زعيم (مافيا) نال من خصومه - دلف لحجرته مرددًا:

- سأدرس قليلًا حتى تستعدي!!

يا للوغد!..

وحدي وقفت في الصالة أترنح..

لا جدال هنالك!.. إن وعيي يتسرب.. وقدمي تتحولان إلى هلام.. ورأسي تزن طنين..

يجب أن أتصرف...

لن أصرخ.. لكني سآخذ بالحل الأحوط..

سأقيده وليكن ما يكون، وحين تعود (مها) سأخبرها بكل شيء.. ولسوف تصدقني.. نعم.. لابد أنها تعرف دعاباته وتتوقعها.

وجدت بكرة من (قطان) الستائر فحملتها في يدي وتحاملت على نفسي داخلة الغرفة.. ستكون معركة قصيرة لكنها ضرورية..

عندئذ رأيت..

رأيت هذا الشيء واقفًا في وسط الغرفة مديرًا ظهره لي..

وحين سمع خطواتي استدار للوراء نحوي..

كان يمسك بجثة القط الأبيض وقد تلوث عنقها بالدم..، أما عيناه فكانتا حمراوين تمامًا.. وكان الدم يسيل على فمه ويلوث ذقنه..



كان يمسك بجثة القط الأبيض وقد تلوث عنقها بالدمَ ..

وفي تؤدة ألقى الجثة أرضًا وهمس لاهثًا:
- لقد طال الانتظار.. طال..
ثم اتجه نحوي وهو يهمس:
- والآن فلينته كل هذا..!.. لقد استنفد (العاوّ) صبره!
الضباب يزداد كثافة.. الصمت يغزو أذني.. لم تعد لي قدمان..
فقط أذكر أنني سقطت على الأرض وهو يجثم بجسده الصغير فوقي.. مجرد طفل لكني أدركت أنه لم يكن سوى الشيطان ذاته..، هل كنت أصرخ؟.. لا أذكر.. فقط أذكر وجهه الشرس وعينيه و...
وشعرت بيد (مها) تنهضني من على الأرض وتهتف:
- أرى أنك و(مشمش) صرتما صديقين!.. لكنك تضيعين وقته بهذا اللعب يا (هويدا).. لماذا أغلقتما الباب بالمفتاح؟.. وأنت يا (مشمش).. ألم أقل لك أن تكف عن قلب جفني عينيك؟!.. يا لها من عادة سيئة!.. ولماذا لوثت دمية القط بالحبر الأحمر ولماذا لوثت وجهك به؟!.. تبًا!.. إن هؤلاء الشياطين الصغار سيؤدون بنا للجنون!!
نهضت مضعضعة باكية.. وسالتها:
- الـ.. الأقراص.. الـ (ميبروباميت)؟
فهتفت في لا مبالاة:
- أنت تعرفين.. هذه العلب تصلح تمامًا لحفظ البهارات بعد أن تفرغ.. ولكن لماذا تسألين؟.. (مشمش)!... قلت لك مرارًا ألا تحبس القط في الدولاب.. حرام!... أحيانًا أحسبني قد أنجبت شيطانًا..!.. على أنني راضية عن انسجامكما معًا يا (هويدا) خاصة وأنني ذاهبة إلى خالتي غدًا وسيكون عليك أن تكرري خدماتك اليوم..
وأدمعت عيناها.. وفي هستيريا ولولت:
- آه!.. يا خالتي الحبيبة!!

* * *

القصة السادسة

حكاية ليلة واحدة ..

يحكيها: الأستاذ (شكري)

- ١ -

ضحكنا حتى ادمعت عيوننا بعد أن أنهت (هويدا) قصتها..
وقال د. (سامي) وقد استعاد حيويته تمامًا:
- يا له من طفل!.. وإنني لأتساءل عن السفاح الذي سيكونه حين يكبر..، إنه شخصية (سايكوباثية)9 بكل ما في الكلمة من معان، وإن تكيفه مع أخلاقيات المجتمع فيما بعد لجدير بالدراسة..
ثم أردف وقد استعاد طبيعة المدرس:
- إن أقسام العقل الباطن هي (الهي) و(الأنا) و(الأنا العليا).
ويمثل القسمين الأخيرين ما نسميه الضمير.. والطفل عبارة عن (هي) خام بلا شوائب.. مجرد غرائز تتحرك بلا أدنى وازع من ضمير..، لهذا يتمتع الأطفال بالأنانية والشراهة والقسوة إلى أن يعلمهم المجتمع كيف يكبحون غرائزهم.. وتنمو (الأنا) في عقولهم..
قال (شكري) في كياسة:
- لا أفهم كل كلماتك.. لكني أعتقد أن هذه القصة جيدة حقًا وبها ذلك الرعب المتوتر النظيف الذي أصبوا إليه..، هل لدى أحدكم اعتراض على أنها أفضل قصص الليلة؟
- لم نسمع قصتك بعد..
نظر (شكري) لساعته فوجد أنها الرابعة والربع فجرًا.. فهز رأسه في حيرة.. وتساءل:
- إنه الفجر.. لن يتسع الوقت..
- إنه الجمعة فلا داعي للاستعجال..
جلس (شكري) على أريكة واسعة وبدأ يسرد قصته..

* * *

قال (شكري):
المستغيث من الرمضاء بالنار..!..
هذا هو كابوس عمري..، الكابوس الذي نعرفه جميعًا.. أن يكون رجل الشرطة الذي نستنجد به من القتلة هو القاتل!، أن يكون البيت الوحيد الذي يختبئ به (حسن) من الذئب هو بيت الذئب!.
إن هذا الرعب لا يوصف..
لكنه كامن في شخصيتي منذ كنت شابًا..

* * *

الملجأ.. الملجأ..!..
العواصف تزأر من حولي وتلتهم أطراف معطفي.. في حين تنبح الكلاب في ديارها النائية..
والخيال..!.. ما أقسى الخيال!.. حين يكشر عن أنيابه في عقل مريض مثل عقلي..

عقل يسره بالتأكيد أن يرسم لي عشرات الخيالات المريعة والأطياف المرعبة.
عبر الحقول المظلمة أمشي..
أنظر للوراء فأرى ظلامًا..
أرنو للأمام فأجد ظلامًا..
أنظر لقدمي فأبصر ظلامًا..
كلما رفعت عيني لأعلى خيل لي انني سمكة ستسقط في (وعاء الدب الأكبر) الذي ترسمه النجوم في السماء إذ تلتمع خلف أستار الغمام...
نجوم بكر ترسل ضوءًا أوليًا.. ولكنه ضوء وليد لم يتلوث بعد..
ذلك الضوء الذي سقط على وحوش ما قبل التاريخ.. وعلى (يوليوس قيصر).. وعلى جند (عمرو بن العاص).. وعلى (بيتهوفن)..
هو بعينه ذلك الضوء الخافت البكر..
حفيف النباتات تحتج على سحقها تحت قدمي..
بركة ماء ضحلة أخوضها هنا أو هناك..
الريح.. الريح قبل وبعد كل شيء..
إنني في حال سيئة..
ويجب أن أجد ملجأ ما في مكان ما..

* * *

لا تسألوني كيف وصلت هناك..
ربما هو خلل في محرك سيارة، وربما هو قطار تعطلت محركاته فوقف الظلام كوحش مريض همد جسده، وربما هو كابوس..
المهم أنني كنت هناك..
وأنني يجب أن أصل إلى مكان ما..
حيث يعيش الآخرون.
يجب أن أجد نارًا.. وأشم تبغًا.. وأسمع كلمات آدمية وإلا جننت..
إن الخوف يتشكل من حولي..
أرى وجهه وعينيه وذراعيه مبتورتي الأصابع تمتدان نحوي..
أشم رائحته العطنة الملوثة بالعرق..
وأسمع أنفاسه المذعورة اللاهثة..
وأحس بزحفه الحثيث في اتجاهي..
ملجأ.. ملجأ!

* * *

ثم رأيت النار.. دائرة اللهب الحى الدافئ تحيط بالمكان..

وما دام هناك لهب فهناك بشر..، لقد قالوا قديمًا: لا يوجد دخان دون نار.. وأقول أنا: لا توجد نار دون بشر..

أصابتني العدوى فتسرب دفء النار إلى قلبي...

وهرعت متلاحق الأنفاس إلى هناك..

وعلى الضوء الذهبي المتراقص كانت هناك نار يعلوها إناء لصنع الشاي مرتكزًا فوق ثلاثة أحجار - أو كما يقول العرب (أثافي) -.. وكانت هناك بندقية عتيقة على الأرض خطت عليها أرقام بدهان أبيض مما دلني على أنها بندقية خفير..

وعلى بعد أمتار كان ذلك العجوز جالسًا مدثرًا في معطف أصفر من مخلفات الحرب..، وكان يرشف كوبًا من الشاي الأسود..

كان وجهه - كالنجوم خلف الغمام - متسربلًا بالظلال التي ألقاها الوهج على ما حوله..

لكني ميزت شاربه الأبيض الكث ولحيته غير الحليقة..

اقتربت في تؤدة حتى بلغت موضعه.. وكان قد اصطنع لنفسه سقيفة صغيرة من أعواد الجريد تؤدي غرض حمايته من العواصف، على الأقل بالنسبة للعواصف القادمة من خلفه..

- سلام عليكم يا (حاج)..

قلتها في كياسة وأنا أقترب منه.

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. اقترب يا بنى..

كان صوته متحشرجًا غليظًا...

وإذ دنوت منه، كان وجهه الآن واضحًا لعيني.. أرى الحاجبين الكثين الأشيبين والعينين الرماديتين اللتين أفسدت الشمس والغبار بياضهما منذ دهر حتى صار رماديًا هو الأخر..، وكانت سحابة بيضاء تغطي إحدى الحدقتين..

أما أسنانه النخرة من تحت شاربه الكث فقالت لي إنه يفرط في تدخين (المعسل)..

وكان يرتدي (بول أوفر) قديمًا رثًا تبرز شعيرات بيضاء من تحت ياقته العالية كأنها شعيرات من عنق ضبع عجوز..

- تشرب شايًا؟

قالها دون أن ينتظر ردي.. وفي يدي وجدت كوبًا من الشاي الأسود تتسرب سخونته المحببة إلى كفي..

آه من صوت الرشفة الجائعة تبعث الحياة في أعصابي الواهنة؟

قال وهو يتأملني في اهتمام:

- غريب؟

- هذا واضح.. أنت تعرف القرية كلها طبعًا..

- بل أنا لا أعرف أحدًا في القرية..!

معلومة غريبة لكنني فسرتها لنفسي بأنه وافد حديثًا إلى هذه المنطقة أو شيء من هذا القبيل..

أردف وهو يحسو الشاي:

- قلت لنفسي إن من يمشي هنا ليلًا هو ولابد غريب..

ولم يفسر أكثر.. بل مد أنامله في النار - دون أدنى خوف - والتقط بضع قطع مشتعلة من الفحم، ثم استدار للوراء والتقط شيئًا ما عرفت أنه (جوزة) صغيرة.. وبدأ يعبئ المعسل بأنامله، ثم رص

الفحم فوقه وبدأ يمتص الدخان الأبيض ويطلقه من منخريه في حنكة كقاطرة عجوز وحيدة..
- هل لك فيها؟
سألني وهو يقرب عصا الغاب مني فهززت كفيّ شاكرًا أن لا..
بعد دقائق من الصمت الذي له رائحة التبغ ؛ عاد يتكلم:
-.. إنهم يخشون (شاكر بك)..
في حيرة سألته:
- هل هو.. قاطع طريق مثلًا؟!
انفجر يضحك.. يضحك.. يضحك.. وصدره العجوز يهتز بالسعال كأنه صندوق خشبي مليء بالبلى..
يضحك ويسعل.. ويسعل ويضحك..
ثم بصق بعيدًا.. وقال:
- إن (شاكر بك) لا يوصف بكلمات.. لكنه موجود.. ويتحرك.. وكلهم رأوه ولزموا بيوتهم لأنهم يعرفون ما سيحدث في المرة القادمة..
- أعني.. هل هو شرير؟
قال وهو يتأملني في هدوء:
- ليس شريرًا.. المصيبة أنه ليس شريرًا.. بل هو إلى الحزن أقرب، لكنه ملعون.. وكل من رآه لم يعش يومًا آخر..
تحفزت هوايتي العتيدة لقصص الرعب، ودنوت منه أكثر:
- هلا حكيت لي قصته..؟
- ستخاف جدًا.. هل تفهم معنى هذا؟
- إن الخوف.. مهنتي..
- إذن سأحكي لك كل شيء..

* * *

سأحاول هنا أن أحكي القصة التي حكاها لي العجوز بأسلوبي أنا لأنه - بالطبع - لم يكن يملك أية حاسة أدبية..
لقد وقعت القصة في ثلاثينات هذا القرن...
وبرغم أنني سأحكي القصة بشكل و(تكنيك) أكثر رقيًا فإن سحرًا خاصًا لا يتكرر كان يغلف صوت العجوز المنهك وقرقرة (الجوزة) وقرقعة النيران والضوء الخافت والعاصفة..
إن هذا السحر لا تقدر على نقله سوى السينما، ولا يقدر أديب على تصويره ولا رسام على رسمه مهما بلغا من موهبة..
لهذا.. سامحوني.. سأقتل نصف سحر القصة بأسلوبي الأعرج..
كان (كمال باشا) يملك قصرًا في تلك المنطقة..
وكان طيب القلب، إلا أن زوجته التركية المتغطرسة كانت تختلف عنه كثيرًا، ولم يتهمها أحد يومًا بالرقة أو حسن معاملة الفلاحين..

لكنها لم تؤذ - على الأقل - أحدهم قط..
وكان لهما إبن يدعى (شاكر)..، إبنهما الوحيد الذي يملك - بحكم الوراثة القريبة - كل هذه الضياع والأراضي والبشر..
ككل العاطلين بالوراثة كان مستهترًا فظًا، وحين كنت تراه وهو يمتطى صهوة جواده مرتديًا قميصه الأبيض مفتوح الصدر تبرز منه خصلات شعره الأشقر، وعضلاته تتشبث بلجام الجواد، عيناه الزرقاوان الشريرتان تلتمعان في وجهه الوسيم.. كنت تظن أن هذا هو الشيطان ذاته قادمًا ليملأ الأرض جورًا..
وكان السوط في يده يتلوى كالأفعى باحثا عن ظهور ليمزقها..
أما (الحمزاوي) فهو أجير بسيط غُلِّف كعباه بطبقة سميكة من (القشف) يضل فيها الثعبان طريقه بين الشروخ..، وفي عينيه اللتين أكل الرمد نورهما ترى نظرة قهر أزلية..
كان على النقيض من (شاكر) تمامًا.. ولم يكن ثمة مجال لأية مقارنة أصلًا..
لكننا سنفهم كل شيء بعد قليل...

* * *

في ذلك اليوم كان أطفال (الحمزاوي) يلهون قرب القصر.. حين لمحوا (شاكر) عائدًا على صهوة جواده من سهرة حتى الفجر أمضاها عند المأمور...
وفي براءة أطلق أحد الصغار دعابة على (شاكر)...
مجرد دعابة طفولية من التي يتجاهلها أي شخص متزن..
لكن (شاكر) لم يكن متزنًا..
كان ثملًا تمامًا كعادته في ساعات الصباح الأولى..
لهذا لم ير الأمور كما ينبغي أن يراها..
يقول الشهود أنهم رأوا النيران - كحقيقة لا مبالغة - تنبعث من عينيه، واحمر وجهه.. وارتجف شاربه الأشقر الجميل..
ثم إنه ركل بكعبه بطن الجواد..
فانطلق هذا بين صفوف الأطفال يدوس هذا ويركل ذاك، على حين استخدم (شاكر) سوطه ليزيد. من جرعة الإيذاء..
مأساة قصيرة لا داعي لها أبدًا..
لكنها حين انتهت كانت هناك أربعة أجساد صغيرة محطمة تتلوى في الغبار..
وكان (شاكر) يلهث منهكًا فوق صهوة جواده، وقد بدأ يدرك - للمرة الأولى - بشاعة هذا الذي فعله..
وهرع الفلاحون ليروا ما حدث على صوت ولولة النسوة، وكان من بينهم والد الأطفال.. (الحمزاوي).. الذي احتاج لخمس دقائق كي يفهم ما حدث..
وكان القاتل قد ترجل من على صهوة الفرس.. ووقف مشوش الفكر لا يدري ما يفعل وكيف يفعله..، إن الأمر لم يكن يحتاج منه سوى الفرار إلى صديقه المأمور الذي سيصلح كل خطأ.. لكنه - كما قلنا - كان عاجزًا عن التفكير..

في تؤدة اقترب منه (الحمزاوي) وعيناه في عينيه..
لم تكن هناك نظرة عتاب ولا لوم ولا غضب ولا شيء على الإطلاق.. فقط نظرة ثابتة لا تتزحزح..
وفي رزانة قال:
- ما كان يجب أن تفعل ذلك يا سعادة البيه!!
حتى في موقف كهذا لم ينس أن يبجل سيده!، أما (شاكر) فكان يرتجف من الانفعال لكنه لم ينبس ببنت شفة..
- ما كان يجب ذلك..!!
إن الفأس في يده والقاتل أمامه..
لقد كان ما حدث متوقعًا.. متوقعًا أكثر من اللازم..
ولم يتدخل أحد لإنقاذ (شاكر)..
وحتى هو لم يحاول إنقاذ نفسه..

* * *



ولم يتدخل أحد لإنقاذ (شاكر) ..

وحتى هو لم يحاول إنقاذ نفسه ..

أما ما حدث بعد ذلك فلا داعي لذكره.
مطاردة الأب المذعور المكلوم في الحقول..، وكلاب المأمور ورجال الشرطة.. والجياد الثائرة الغضبى..
كان مشهدًا لا يوصف لما يمكن تسميته (صيد الإنسان)..
ثم عادوا به مكبلًا بالحبال ووجهه متورم من جراء كعوب البنادق والركلات، وتطوع كل من رجال الشرطة بإظهار حماسه لإرضاء المأمور بالمزيد من العنف..
وحوكم (الحمزاوي).. وأعدم.. فلم تكن أمامه فرصة نجاة..
وكانت هذه نهاية القصة..
أم هل أقول بدايتها..؟

* * *

بعد ذلك بأعوام بدأت القرية تثرثر..
حكايات كثيرة عن شبح يجوب الحقول في الظلام..
جثة (عبد الودود) المذعورة التي وجدوها، وجثة (محمد الحمزاوي) التي ارتسمت على وجهها أعتى علامات الهلع..
كل هذا ذكر الناس بالحادث خاصة والأخير هو شقيق (الحمزاوي)..
وبدأت الإشاعات تسري:
لقد كان (شاكر بك) يذكرهم بالشيطان أو - على أقل تقدير - بقوة شر كاسحة من دنيا ما وراء الطبيعة..
لهذا قالوا إنه عاد في صورة شبح كي ينتقم من القرية..
البعض قالوا إنه عاد في نفس صورته القديمة على صهوة جواده ليطارد الفلاحين البائسين بين الأحراش..
والبعض قالوا إنه يتخذ صورًا أخرى خادعة.. كطفل ضل طريقه.. أو فتاة حسناء تطلب العون.. أو خفير ساهر ينتظر..! (ألا تلاحظون شيئًا غير عادي هنا؟!..)
المهم أنهم أجمعوا على أنه يجذب الحمقى نحوه..
عندئذ تكون نهايتهم...
وفي الصباح الباكر يجدون جثة مذعورة في حقل ما..

* * *

وهنا يسأل البعض:
- كيف تصف الضحية صورة الشبح بعد أن ماتت؟!
اسألوا عن ذلك (أم فكري)..
فهي - كما تزعم - أفلتت من ثلاث محاولات متلاحقة لقتلها من قبل الشبح، وهي - بالمناسبة - أرملة (الحمزاوي)..

ولقد رأت فتاة جميلة، وشابًا وسيمًا، وشيخًا طاعن السن..
وكلهم طلبوا منها العون أو طلبت هي منهم العون ليلًا..
وعندئذ..
كان ذلك الشخص - أو الشيء - ينتظر حتى تدنو منه ويبدأ في التحول إلى حقيقته المريعة..
لكنها كانت تتوقع الشر دائمًا..
وكانت أسرع انعكاسًا في الفرار.. وأعلى صوتًا في الصراخ..
ولهذا ظلت حية حتى اليوم..

* * *

دارت الأيام.. وجاءت الثورة والتأميم..
ورحلت الأسرة إلى (أوروبا)، وبدأت في القرية قوانين جديدة وعلاقات طازجة وأسر أخرى لا تعرف شيئًا عن هذه القصة
..
لكن الرهبة ظلت حية في الأذهان...
إن الشبح لم يرحل مع عائلته بل استوطن القرية..، وظل يمارس هوايته القاسية مع الأهالي والغرباء.. بل وخاصة الغرباء الذين ترميهم حماقتهم في طريقه ليلًا..
ولا داعي للقول إن الخروج ليلًا صار نوعًا من (التابو) المحرم في هذه القرية يتوارثه الأبناء ولا يدرون سببه..، فإن كان الخروج محتمًا فليكن ذلك في جماعة..
والدرس الأكثر أهمية هو: لا تثق في مسافر متعب.. أو امرأة تستغيث بك.. أو طفل ضال.. أو - وهذا للعلم - خفير ساهر لم تره في القرية قط..

* * *

أنهى الخفير الساهر قصته وجذب أنفاسًا متلاحقة من (الجوزة) وسعل ثلاث مرات.. ثم نظر لي منتظرًا رد فعلي..
تبادر سؤال إلى ذهني.. سؤال هام جدًا:
- قلت إنك لا تعرف أحدًا في القرية؟
- بالفعل.. فأنا من عزبة قريبة..
- لكنك تعرف الأسطورة؟
ضحك.. والمزيد من البلى يتدحرج في الصندوق الخشبي:
- بالطبع.. هع هع.. وكيف لا أعرفها وأنا.. أنا....
ثم لم يكمل عبارته.. ونظر للافق.. وغمغم:
- اقترب الفجر..
- تبدو قلقًا..
قال وهو يضع (الجوزة) جانبًا:
- كل القصص السابقة حدثت قبيل الفجر..

- وأنت.. كيف لم يقابلك (شاكر) هذا بعد؟
نظر لي في غموض وانعكاس اللهب يلتمع على أنفه ولم يرد..
عدت أسأله وأنا لا أشعر بالارتياح:
- ما سر كلمتك عن الحزن الذي يشعر به الشبح؟
نظر لي مرة أخرى.. وغمغم:
- هل الشيطان سعيد؟.. لا أحسب ذلك يا بني..
أنا أفهم ذلك..
وأفهم كيف يشعر الشبح بالوحدة والذعر والحاجة إلى رفاق.. لكنه عاجز عن ذلك للأبد لأن مهنته هي أن يفزع الناس حتى الموت..
لكن الوقت ليس ملائمًا لهذه الأفكار..
لأن العجوز ينهض في تثاقل.. وينظر لي عبر ألسنة اللهب قائلًا:
- لقد حان الوقت!!
.....

* * *

في الصباح وجدت جمهرة من الناس واقفين حيث كان الكوخ العشوائي الذي أمضينا فيه الأمسية..
اقتربت فسمعت أصواتًا تردد:
- هو الخفير من عزبة (النحال)..
- لقد مات!..
- وعلى وجهه علامات الذعر!
وفي مركز الدائرة رأيت العجوز راقدًا على ظهره وقد غطوا وجهه بمعطفه الأصفر المتآكل الذي هو من مخلفات الحرب..
عندئذ عرفت أنه لم ينج بحياته طيلة هذه الأعوام إلا ليقابل (شاكر بك).. وليصير قصة أخرى يحكيها الفلاحون في ذعر لأبنائهم ولأبناء أبنائهم..
حقًا إن حياة الأشباح لقاسية!..

* * *

خاتمة الحلقة

يحكيها: د. (رفعت)

خاتمة الحلقة

كانت أضواء الفجر الدموية تتسرب من النافذة وكأنها دماء الليل المسفوح ؛ حين أنهى (شكري) قصته..

قلت له وأنا أهشم علبة سجائري الخاوية:

- قصة سخيفة يا أستاذ (شكري)..!.. فهي تشبه عشرات القصص المشابهة التي تحكى في كل مكان من العالم.. وليس جديدًا فيها سوى موت الخفير بعد أن ظنناه هو (شاكر)..

قال د. (سامي) مبتسمًا وهو يتثاءب:

- هي مجرد تكرار لفكرة (الرعب الموجه في اتجاه خاطئ).. وهي التي سمعناها في قصة د. (محمد) وقصة (هويدا)، وبالتالي هي لا تستحق انتظارنا لها طيلة الأمسية..

ابتسم (شكري) في غموض.. وقال وهو يعبث في جيبه:

- أنتم إذن لم تحسنوا فهم نهاية القصة!

- أية نهاية؟.. تقول إن الخفير قابل الشبح..

ضحك.. ونهض متجهًا إلى (هويدا) وهو يغمغم:

- نعم.. ولكن متى؟.. ولكن دعونا من هذا.. إن الفجر قد جاء وهو حتمًا لا يناسبني.. والآن أعتقد أن أفضل قصص الأمسية هي قصة الآنسة (هويدا) ما دامت قصتي لم ترق لكم.. هل لدى أحدكم اعتراض؟.. لا؟.. حسن.. ها هي ذي هديتك يا صغيرتي فلا تفتحيها إلا وأنت وحدك..

وقدم لها علبة صغيرة مغلفة بالورق اللامع.. ثم ابتسم لصاحب وصاحبة الدار محييًا:

- كانت أمسية رائعة وكنتم خير مضيفين.. لكني مضطر للانصراف فورًا وأرجو ألا تكون هذه وقاحة مني..

وقبل أن يتكلم أحدنا.. كان (شكري) قد غادر الفيللا..

* * *

ما إن انصرف (شكري) حتى جلسنا صامتين هنيهة..

ثمة شعور عام بأن هناك شيئًا غير مريح في كل ما حدث وقاله (شكري) في ختام الأمسية..

تمطى د. (محمد) في كسل وابتسم:

- أظن أن الوقت قد حان كي ننصرف..

في لهفة صاحت مدام (ثريا) وكأنما أهينت:

- إن هذا لن يكون.. ليس قبل الإفطار!

- سيدتي.. لا تقتلينا خجلًا أرجوك.. كفانا أنكما لم تريا الفراش ليلة أمس..

أقسم د. (سامي) أغلظ الأيمان إنهما استمتعا بكل ثانية وإنهما لن ينسيا هذه الأمسية أبدًا.. بل إنه رجانا أن نكررها..!

قلت وأنا أتمطى أنا الآخر:

- وهكذا.. تنتهي حلقة الرعب الأولى..، وإنني لأسائل نفسي عما سيبقى منها بعد أن ننام للظهيرة..
- حذار وإلا فاتتك صلاة الجمعة..
- ربنا يستر!
وبدأنا نحتشد للانصراف، لبس من خلع الحذاء حذاءه.. وزرر من خلع المعطف أزرار معطفه.. واصطحبت مدام (ثريا) السيدتين إلى حجرتها لتمشطا شعرهما الذي غدا نوعًا من الليف بعد الأمسية..
كان الخدر اللذيذ - خدر السهر وبرد الفجر - يعابث كلماتنا وأفكارنا، وكنا نتحرك كأنما نحن آليات مبرمجة.. هل تفهم هذا الشعور؟..
وبالطبع تكون أقل دعابة كافية لجعلك تنفجر ضحكًا.. الدعابة التي ستندهش ظهرًا من مدى سماجتها وسخفها..!
سألني (عادل):
- هل حقًا ستعود للقاهرة بحالك هذه؟.. مستحيل!.. سنقرأ اسمك في صفحة الحوادث وصفحة الوفيات معًا..
- إذن سأنام عندك حتى أفيق وأسافر بعد صلاة الجمعة..
- ليكن...
دنت مني (هويدا) وكان السهر قد لعب برأسها تمامًا حتى أنساها قناع الجلال والرزانة الأنثوية، فتثاءبت - كفرس النهر - واعتصرت ذراعي في قبضتها.. وقالت:
- قل لي.. ما هو الغريب في خاتمة قصة (شكري)؟
- لا أدري حقًا..
- ولماذا انصرف بهذا الأسلوب الدرامي..؟
ابتسم في استخفاف:
- ربما لأن قصته كانت واهية ومملة.. وهو أدرك ذلك قبل أن نصارحه..، ولهذا لم يتحمل خيبة الأمل..
- قال شيئًا عن الفجر...
- هل قال ذلك؟.. لا أذكر..
في الخارج كانت الطرقات غارقة في الماء والوحل وكان الهواء نديًا مغسولًا كأنه خلق لتوه..، وكان ضوء النهار الأزرق الباهت يرتمي في كسل عبر الطرقات..
لوح د. (سامي) وزوجته بأيديهما لنا إذ احتشدنا في سيارة (عادل) وسيارتي..
وانطلقنا إلى ديارنا بعد أمسية طويلة.. طويلة..

* * *

كان نومًا بلا أحلام...
نومًا أسود مغلقًا بألف مفتاح..

كنت فقط أفتح عيني من حين لآخر وأتساءل: أين أنا؟ متوقعًا أن الباب بالتأكيد عند قدمي وجهاز الراديو على يساري.. ثم أجد كل شيء مختلفًا فأجفل وأنهض.. وبعد جزء من الثانية أدرك أن هذه الستائر الزرقاء وهذا الدولاب الأبيض هي أجزاء من حجرة نوم الضيوف عند (عادل)..، من ثم أريح رأسي على الوسادة وأبتلع ريقي بصوت مسموع.. وأغيب عن الكون..

.....

- (رفعت)..!.. (رفعت)!..

هامسًا أول الأمر.. ثم بعنف أكثر..

وفي النهاية جثم على صدري - كالكابوس - وشرع يهزني كأنما ينفض الروح من جسدي..، فهمست في وهن:

- (عاد..).. (عادل).. مـ.. ماذا هناك؟

شعرت بسماعة الهاتف الباردة تندس في أذني.. وسمعت (عادل) يهتف في عصبية:

- حدثه!

- مـ.. من هو؟

- (شكري) طبعًا يا أحمق!.. هو على التليفون..

- (عادل).. أنت سمج.. أنا لم أنل كفايتي بعد.. أرجوك أن...

ولم أكمل العبارة لأني غبت عن الكون ثانية..

عادت الاهتزازات.. وسمعت صوتًا معدنيًا مألوفًا يهتف من السماعة:

- صباح الخير يا دكتور..!.. إنها الحادية عشرة..؟

- و..و.. كيف صحوت أنت بعد سهرة البارحة..؟

- صحوت لأني لم أسهر معكم..!!

- ماذا تعني؟

- أعني أنني لم أستطع الحضور لأني مريض بالأنفلونزا.. ولم أستطع الاتصال بكم لأعتذر.. إنها الأمطار..!

وثبت في الفراش كالمجنون راميًا الأغطية بعيدًا..

- ماذا تقول؟!

فأكد لي ما قاله مسبقًا وهو يعطس..

- إذن من كان معنا أمس؟!

- وهل كان هناك أحد معكم أمس؟

نظرت إلى (عادل) في حيرة فهز رأسه.. وأشار لي أن أنهى المكالمة ثم أشعل سيجارة امتصها في قلق..

وضعت السماعة وأخذت منه سيجارة أخرى.. وهتفت في حنق:

- إن هذا المتحذلق يلهو بنا!!

- هل تظن ذلك؟

- إنه يحاول أن يخلق قصة سابعة!

نفث عادل الدخان في فتور.. وغمغم مضيقًا عينيه:

- يبدو صادقًا..!

- ماذا تعني؟..
هز كتفيه غير عالم بالرد المناسب، وقال:
- لا أدري حقًا..
كنت قد نهضت من الفراش، وشرعت أبحث عن نظارتي جوار المنبه الموجود على (الكومودينو)..، المنامة الشتوية ذات الخطوط الطولية الزرقاء.. وربطة عنقي التي سقطت من فوق الشماعة حيث علقتها في إهمال..
- ارتد ثيابك واغسل وجهك.. وتعال لتأكل شيئًا..
وفي الصالة كان ابنه يلعب هنا وهناك في حين كانت (سهام) بعد غافية، وكان (عادل) قد أعد لنفسه وللطفل بعض البيض المحترق والخبز المتفحم والشاي الشبيه ببول مرضى السكر..
جلست متثاقلًا على المائدة التهم بعض هذه الاشياء المفزعة، وأرسم بوجهي تعبيرات سخيفة علها تضحك الطفل الذي وقف يرقبني في حيرة ورعب فاغر الفم متصلب الجسد..
- وجه ابنك يدلني على أنه مصاب باللحمية يا (عادل)..!
- مرحى!
ثم إنه قال في فتور وهو يحك ذقنه:
- هل تدري فيما أفكر؟.. إن الذي كان معنا ليلة أمس لم يكن (شكري)!!
- ماذا تعني؟.. هل سنعود لهذا؟
اتسعت عيناه وحملق في وجهي:
- ألم تفهم نهاية قصته؟
ومضى يتجول في المكان عاقدًا يديه خلف ظهره مفكرًا بصوت مسموع:
- أنا رجل شرطة، وحين تحدث جريمة قتل يكون أول سؤال نسأله هو: من آخر من رأى القتيل حيًا؟.. ولقد مات الخفير في قصته.. ومتى؟.. عند الفجر.. عندما لم يعد هناك جزء باق من الليل كي يقابل الخفير قاتلًا آخر.. هل تفهم هذا؟.. لقد حكى (شكري) قصته بعد أن حذف منها جزءًا صغيرًا، لكنه لمح لنا بما حدث بدقة..
ونحن لا ننسى آخر كلماته الغامضة: (نعم.. لكن متى؟، أنتم لم تحسنوا فهم القصة).. هل فهمت؟
وهرش مؤخرة رأسه:
- ثم فراره المذعور عند الفجر.. كل هذا يشير بإصبع الاتهام نحوه، لكننا لم نكن على استعداد كي نفهم..
قلت في توتر وقد بدأت أفهم:
- يا للهول!.. إذن (شكري) هو..
- هو (شاكر بك) نفسه.. إن تشابه الاسمين واضح..
- ولماذا يفضح نفسه؟
- لأنه يتسلى.. يلهو بنا.. وكان الفزع هو هدفه الوحيد!!
- هذا الافتراض يصعب إثباته..
ابتسم في ثقة ونظر لي:
- بالعكس.. يمكننا إثبات أن (شكري) الحقيقي كان مريضًا أمس ولم يغادر الفراش... ويمكننا البحث عن القرية التي كان بها إقطاعي إسمه (شاكر كمال) قتله فلاح إسمه (الحمزاوي)، وعن

خفير من عزبة الـ... الـ...
- النحّال...
قلتها مصححًا وهن ذاكرته.. ثم أردفت:
- إن هذا مفزع.. إذن فلتبحث وبسرعة..
- بقيت نقطة نسيناها..
- وما هي؟..
- الهدية التي قدمها لـ (هويدا).. ماذا كان فيها؟!

* * *

- فيها ساعة جيب ذهبية نقشت على ظهرها عبارة بالفرنسية.. ومعها بطاقة صغيرة..
قالتها (هويدا) وهي تمد يدها لنا بالعلبة التي أهداها إياها (شكري) أو (شاكر)..
أمسكت بالساعة التي كانت نقوشها وأناقتها خير دليل على ثمنها.. وكانت رائحة العظمة الغابرة تفوح منها..
قلبتها في تؤدة وتأملت الحروف المنقوشة على ظهرها، وبلغتي الفرنسية المتوسطة استطعت أن أقرأ العبارة التالية:
صنعت في سويسرا خصيصًا للسيد (شاكر كمال).
لقد كان هذا الـ (شاكر) ثريًا إلى درجة امتلاك ساعة (عمولة) من (سويسرا) عليها اسمه، والحق يقال أنها كانت تنطق بالترف والفخامة.. حتى أنني شعرت بغبطة لأنها ستكون لي يوم أتزوج (هويدا)!!..
أما البطاقة فكانت مكتوبة بالعربية وبخط أنيق للغاية:
- لم يكن الخوف معنا.. لأنه كان أحدنا!!
ظللت أتأمل كل هذا في غباء..
فصاحت (هويدا) في براءة عذبة:
-.. ماذا يضايقك في كل هذا يا (رفعت)؟!
- يضايقني كل هذا..!
واستطردت في غموض:
- لقد كان (شكري) على حق.. إن قصته هي أكثر القصص رعبًا في حلقة الرعب..!!

* * *

في الأيام التالية احتشدت علامات الاستفهام..
(عادل) اكتشف أن قصة (شكري) صحيحة، وأن القرية - مسرح الأحداث - تقع قرب (الإسكندرية).. ربما على مسافة أميال معدودة من الفيللا التي قضينا فيها أمسيتنا تلك.
(شكري) أثبت يقينًا أنه لم يكن معنا في تلك الأمسية..، وقال إنه كان يرغب في أن يشاركنا حلقة الرعب لأنه - كما قال - يحب هذه الأشياء كثيرًا..!

على أنه لم يصدق قط - ومن يلومه؟ - قصة شبيهه الذي قضى معنا أمسية كاملة دون أن نشك فيه، وهو مصر على أن الأمر كله دعابة حاولنا إقناعه بها لنسخر منه..

أما د. (سامي) فاكتشف أمرًا أكثر طرافة..

هل تذكرون الصورة التي التقطتها زوجته كنوع من اللعب بأعصابنا بعد روايته عن الزائرة؟..

هذه الصورة كانت تظهر وجوهنا المنبهرة جميعًا في ضوء (الفلاش) لكنها لم تظهر (شكري) بتاتًا..!..

كان مكانه في الصورة فارغًا، برغم أنني أذكر جيدًا أنه كان جالسًا إلى يميني يحك لحيته في ضيق ويتمنى لو كانت الأمور أكثر وضوحًا في قصة (لميس)..

كان في مركز الصورة.. لكنه لم يبد فيها..

* * *

لقد انتهت حلقة الرعب..

ولم يعد أمامي سوى أن أجمع أوراقي وأنام..

تسالونني عن رأيي في كل هذا.. أقول لكم إنها مجرد انطباعات لا حقائق..

لا شك أنني سأبدو سخيفًا إذا ما تحدثت عن شبح الثري المستهتر الذي سئم حياة الأشباح وراح يفتش عن الصحبة..

وكانت هذه الصحبة هي نحن..

وكأي شبح يحترم نفسه كان يهوى الرعب..

هل تذكرون كيف بدأنا نحكي أقاصيص الرعب؟ ومن كان المحرك الذي دفعنا دفعًا لهذه الأحاديث الرهيبة دون أن يكل أو يرهق..

وكلما سقط واحد منا فريسة النعاس كان هو يزداد نشاطًا ويحركنا حيث يريد في سلاسة غير عادية..

لقد كان يلهو ويسلي نفسه..

وفي نهاية الأمسية أخبرنا من هو..

لكننا لم نفهم...

لم يكن الخوف معنا.. لأنه كان أحدنا!

كان (شكري) هو الخوف البري غير المبرر ذاته، وكان يحيا في كل قصة من القصص..

كان هو الشيء الغريب الذي شعرت به (سهام) يراقبها من المرآة، وهو النذير الغامض الذي جعل قط د. (محمد) يجفل، وهو الذي جعل حشرات (يوسف) تتوحش، وهو الذي كان يدخل فيلا د. (سامي) كل ليلة..، وهو الشيء غير المريح الذي أفزع (هويدا) في عيني الطفل..، وهو ذات الشيء الذي كان يفر منه بين الحقول:

كان (شكري) موجودًا في كل هذا..

لأنه هو الخوف الأولي البكر..

وفي تلك الليلة لم نكن ثمانية..

بل كنا سبعة..

وكان الخوف ثامننا..

* * *

وبعد...

كانت هذه هي حلقة الرعب الأولى التي ستحيا في ذاكرتنا ما حيينا.. ولا ريب في أنها ستكون الأخيرة بالنسبة لأكثر من شاركوا فيها.. لأن الظروف لن تتكرر مرة أخرى، وهم لن يتركوها تتكرر..!

أما أنا...

فالقارئ يعرفني جيدًا..!، ويعرف أنه لو كانت هناك حلقة رعب أخرى في أي مكان من الكون فأنا - بلا جدال - عضو فيها..!

وكيف كان لي أن أعرف أن لقائي مع د. (لوسيفر) قريب.. وأنني سأدخل معه عالمًا آخر من القصص الكابوسية التي لا تنتهي، وكيف كان لي أن أعرف أنني سأكون طرفًا فيها جميعًا؟..

ولكنني - كما هي العادة - كنت ساذجًا.. ساذجًا...

كانت أحداثًا رهيبة.. ولسوف تشاطرني الرأي حين أحكيها لك..

لكن هذه حلقة أخرى.

د. رفعت إسماعيل
القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة..

حلقة الرعب..

القصة الأولى - إنعكاس..!

- ١ -

- ٢ -

القصة الثانية - لماذا ارتجف القط؟

- ١ -

- ٢ -

القصة الثالثة - حشرة الشيطان..!

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

القصة الرابعة - الزائرة..

- ١ -

- ٢ -

القصة الخامسة - أنا و(العاوّ)!

- ١ -

- ٢ -

القصة السادسة – حكاية ليلة واحدة..

خاتمة الحلقة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

حلقة الرعب

اجتمعوا في تلك الليلة يتحدثون عن الرعب .. الرعب الوحشي الأوّلي الذي لا تدري له سببًا، كانت لدى كل منهم قصة .. وكان لكل قصة مستمعون، وهكذا دارت حلقة الرعب، لكنهم لم يدركوا أن خيوط الفجرِ الأولى ستنسج لهم قصة أكثر هولًا من كل ما حكوه وسمعوه ..!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة الكاهن الأخير

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

سيجموند فرويد: أبو التحليل النفسي.

[←2]

يؤمن كثير من نقاد الأدب أن (الديكاميرون) هي الميلاد الحقيقي لفن القصة القصيرة.

[←3]

أرجو ألا ينسى القارئ أن أحداث القصة في الستينات.

[←4]

نست (سهام) هنا أن د. (رفعت) موجود.. وهو ثاني خطيب لـ (هويدا)..، كانت زلة لسان تداركتها سريعًا.. لكنها ستكرر نفس الخطأ مرارًا.. !

[←5]

قصة (دانييل ديفو) الذي يؤكد أنه استوحاها من بحار إسمه (الكسندر سلكيرك). لكن التشابه بينها وبين أسطورة (حي بن يقظان) يثير الشك حول (ديفو).

[←6]

جنون الاضطهاد.

[←7]

معذرة على التفاصيل لكن د. (سامي) يحب دائمًا أن يتخذ دور المعلم، وعلينا أن نتحمله في شجاعة !

[←8]

حقيقة.. وللأسف عاد العقار للظهور في بعض الدول النامية برغم أنف منظمة الصحة العالمية..

[←9]

سايكوباثية: شخصية شريرة مريضة في تكيفها مع المجتمع..

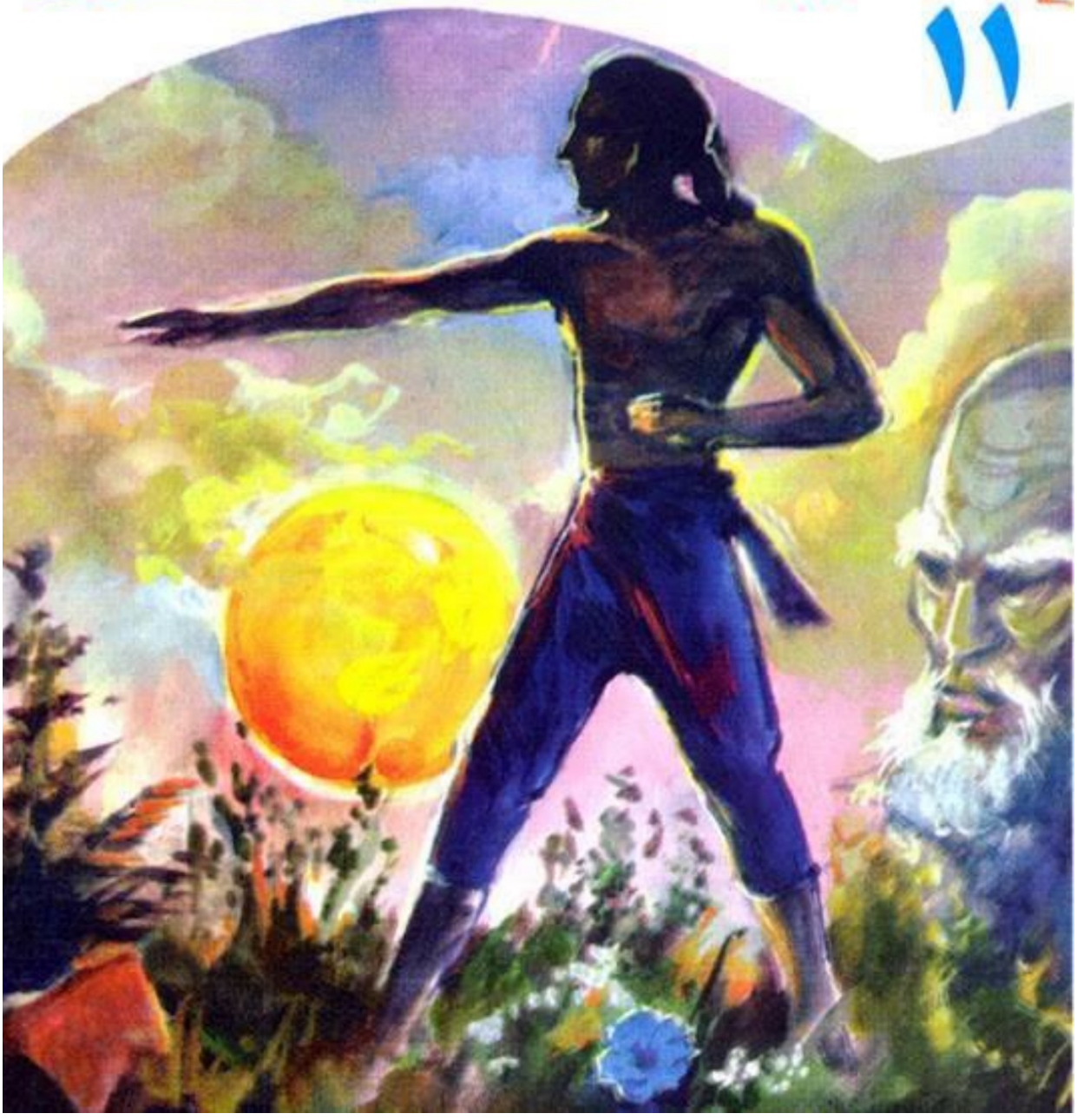
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

أسطورة الكاهن الأخير

ماوراء الطبيعة

١١



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١١

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة الكاهن الأخير

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

مقدمة

دكتور (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم المتقاعد غير المتزوج، الذي تحدى كل قواعد الطب ودراسات الشيخوخة وعاش حتى هذه اللحظة - برغم أمراضه العديدة - كي يحكي لكم ذكريات شبابه.

مريض بالذبحة الصدرية.. نعم..

معتل البنيان.. عصبي المزاج.. نعم..

مصاب بتصلب الشرايين.. نعم..

لكني أحتفظ لنفسي بشيء واحد لم أفقده بعد، ألا وهو ذاكرتي التي تحتفظ بكل شبح وكل مسخ وكل كابوس صادفني في رحلتي الطويلة التي أفنيتها بين المقابر والقصور المسكونة والمستنقعات التي تجوبها الشياطين...

لم أنس شيئًا...

ولكم سأحكي كل شيء بلا تردد.. لأنكم أصدقائي الوحيدون، وآخر من بقى لي في هذا العالم..

لحظة واحدة حتى اخفض صوت (التلفزيون) بعدها أعود لكم كي أسألكم عن القصة التي أحكيها اليوم...

هل تحبون قصص مصاصي الدماء فأحكي لكم أسطورة الشاحبين؟

أم تحبون حكايات السحرة فأحكي لكم أسطورة الساحر الأسود؟.. أم أنتم مغرمون بالنباتات الشيطانية فأحكي أسطورة النبات المنسي؟

... أراكم سئمتم الرعب وتريدون بعض التغيير..

ولم لا؟.. سأحكى لكم اليوم قصة لا رعب فيها.. ولكنها مفعمة بالغرابة وكل ما فيها يتحدى المنطق...

لقد قابلتم - في قصتي الثامنة على ما أذكر - الثنائي المتماثل (سالم) و (سلمى) وهما ضيفان على حكاياتي، لكنني أحبهما برغم كل شيء..، واليوم تقابلون ضيفًا جديدًا هو (الأخرس).. لا تندهشوا!.. فهذا هو اسمه الذي كان نعته يومًا ما..، أما اسمه الأصلي فهو (هن-تشو-كان)، وأعتقد - وأنتم توافقونني - أن (الأخرس) أسهل لفظًا وإن كان أقل أناقة من الاسم الأصلي لهذا الفتى..!..

ستكون رحلتنا طويلة حقًا..

وستعرفون السبب بعد قليل..

* * *

١ - الزهرة الزرقاء..

كان (هن - تشو - كان) زهرة زرقاء...
هل رأى أحدكم زهرة زرقاء؟!..
هناك زهور حمراء وبيضاء وبنفسجية.. لكن (هن - تشو- كان) كان زهرة زرقاء..
هكذا قال له الكاهن الأكبر وهو يضفر له جدائله الطويلة المنسابة:
- أنت يا (هن - تشو - كان) زهرة زرقاء بين ثلوج (التبت).. إن الزهور الزرقاء ساحرة الجمال نادرة كالياقوت، لكن أحدًا لا يفهمها.. والزهور الأخرى تحسدها..، لهذا - إذا أنت وجدت زهرة زرقاء - لا تنتظر أن تكون سعيدة..
نعم.. كان (هن - تشو - كان) زهرة زرقاء..
ومن هنا تبدأ قصتنا..

* * *

ثلوج (التبت) العاصفة.. والظلام.. وحيوان (الياك) ذو الفراء الكث الدافئ.. والدير الجاثم فوق أكداس الجليد..
لا تذكر متى ولا كيف وجدت نفسك في ذلك العالم، لكنك - حتمًا - دخلته وأنت بعد طفل مذعور شاحب الوجه متلاحق الأنفاس، تمشي بخطا مرتجفة متشبثًا بذيل عباءة أمك وهي تتقدم إلى الكاهن الأعظم المتربع القرفصاء على صخرة (النرفانا):
- هوذا ابني أيها الكاهن الأعظم.. وكنت قد نذرته للدير لو عاش حتى يرى عشرة فصول شتاء...
هل كانت تانكم الجمرتان المتقدمتان هما عيناه ترمقانك في اهتمام من تحت حاجبين كثين كفراء (الياك)؟..
- اقترب يا (هن - تشو - كان)...
كيف عرف هذا الرجل اسمك؟.. إن أحدًا لم يخبره به!..
- أنت لم تعد (هن - تشو - كان).. بل أنت الزهرة الزرقاء.. غريب مثلها.. نادر مثلها.. جميل مثلها.. حزين مثلها...
وعلى رأسك مسح وحك أنفه الضخم البارد بأنفك الأحمر الدافئ محييًا..
عندئذ عرفت أن هذا الدير هو بيتك وغدك..
وعرفت أن (النافاراي) ستكون فلسفة حياتك..

* * *

يقول الأخ (ميانج):
- "عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق،.. عندئذ يبدأ فجر (النافاراي)..".

* * *

وعلى ضوء الشموع كان (هن - تشو - كان) يدرس الـ (بهاجافادجيتا) الكتاب الذي يربط البوذية بالهندوك، في حين يجلس أمامه الكاهن الأعظم يحسو الشاي بالزبد ويصحح له ألفاظه.. ويجيب عن أسئلته:

- هل نحن بوذيون أيها الأخ الأكبر؟
- لسنا بوذيين..
- هل نحن هندوس؟
- لسنا هندوسًا..
- إذن نحن كونفوشيوسيون..
- ولا هذا يا بني...
- إذن من نحن؟..

تتسع عينا الصغير في حيرة بريئة.. إذ يجيبه الكاهن في رزانة وتؤدة:

- نحن (نافاراي) يا بني...

ويحسو جرعة أخرى ويغمغم:

- نحن نأخذ أفضل شيء من كل شيء..!..، لسنا سلبيين كالبوذيين.. ولا عبدة أبقار كالهندوس.. ولا غارقين في فلسفة غامضة كالكونفوشيوسيين..

* * *

يقول الاخ (ميانج):

- لماذا تحرق النار؟.. لأنها نار!..، لماذا يطفئها الماء؟.. لأنه ماء..!..، لماذا يرتوي به النمر؟.. لأنه نمر!..

تتسع عينا الصغير أكثر.. ويهمس:

- لا أفهم...

يبتسم الأخ (ميانج) في رزانة.. ويربّت كتفك:

- لكنك - يومًا - تفهم.. وعندئذ تكون (نافاراي) حقيقيًا..!

* * *

وتهب العواصف الثلجية..

ويخرج الرهبان وسط الثلوج حافيي الأقدام لا يحملون سوى عصيهم ويقفون في مهب العاصفة يتكاثف الثلج فوق عوارضهم وأنوفهم، لكنهم لا يتحركون ولا يرتجفون..

تصطك أسنانك وتفقد الإحساس بأناملك التي تحترق أعصابها لكن الأخ (ميانج) يهمس لك:

- إن الطبيعة لا تؤذي أطفالها.. ثق بها ودعها تحنو عليك...

لكنك ترتجف.. ترجف.. وتشعر أنك تموت..

- (النافاراي) لا يشعر بالبرد أبدًا لأنه يملك ناره الداخلية...
وبعد ثوان تشعر أنك في حال أفضل.. وتزول الزرقة المشؤومة عن ساقيك وأطراف أناملك..، ها هي ذي الحرارة الداخلية التي يتحدثون عنها تسري في أجزاء جسدك..
- إن الكون ليس سوى ما تعتقده فيه.. أغمض عينيك وتخيل شمسًا حارقة في صحارى المغول وقافلة جمال..
تغمض عينيك وتحاول.. تحاول.. تحاول..، الأمر صعب لكنك تريده بعمق..، وفجأة يتصايح الرهبان بصيحات الإعجاب والانبهار..، ويدنو منك الأخ (ميانج) ليمسح جبينك.. ويهتف:
- لقد فعلتها!.. إن العرق يملأ جبينك!
وعلى كفه تجد أربع قطرات ماء تحولت إلى أربع ندف ثلج بعد ثوان!
لحظتها عرفت أنك ستكون منهم يومًا ما..

* * *

أما الأخ (وين - بياو) فكان يثير دهشتك بخاصية الارتفاع في الهواء حين يصل إلى حالة (النرفانا) الكاملة..، كان ينظر للأرض في تركيز وقد قطب جبينه.. ثم فجأة ترتفع قدماه عن الأرض ببطء شديد قامة أو قامتين وهو في غيبوبة عميقة..
ثم إنه ينزل إلى الأرض ببطء بعد دقائق، ويحدثك بكلمات غامضة يقولون إنها (أسرار الكون)..



أما الأخ (وين ــ بياو) فكان يثير دهشتك بخاصية الارتفاع فى الهواء حين يصل إلى حالة (النرفانا) الكاملة ..

وكنت تتساءل عن الكيفية التي يصل بها المرء إلى هذه الدرجة العالية من الشفافية.. فكانوا يقولون لك:

- هو مستو عال جدًا من النقاء لا يصله سوى قليلين، والسر لا يفسح عن نفسه لكنك ستجد نفسك محلقًا ذات يوم.. فقط إذا ما تخليت عن ماديتك..

* * *

كانت عضلاتك تتكور، وصوتك يزداد خشونة، وفوق شفتك العليا ازدهر الزغب كنسيج عنكبوت استقر هنالك..

كانت قوى غريبة تسري في عروقك، وثمة روح مجنونة ثائرة تحاول الخروج من جسدك..

يومها قادوك إلى الكاهن الأعظم المتربع داخل الدير وحوله الشموع.. ليقول لك وهو يرشف الشاي بالزبد:

- مرحي.. هأنتذا قد صرت رجلًا، وعليك أن تتعلم كيف تكون (نافاراي) حقيقيًا، ولكن - يا بني - أنت تعرف أن أسرارنا هي سلاسل من الفولاذ تشدنا لهذه الأرض.. ومتى تلقيت أسرارنا ربطت نفسك ما حييت بهذا الدير..

ثم تقلص وجهه في شيء من القسوة وأردف:

-.. فهل أنت حقًا راغب في الحياة هنا أبدًا؟!

رهبة الاختيار والمصير الذي تقرره كلمات.. وعجزك عن الكلام لأن لسانك انحشر في فمك.. - ثم بعد دقائق - همست:

- نعم..!

- أعد القول..!

بصوت أعلى هتفت:

- نعم..!

لم تكن تعلم شيئًا عن الغد.. لكن العالم الخارجي كان غامضًا مسربلًا بالظلال خاليًا من كل ما يجذبك إليه، والحقيقة الوحيدة المؤكدة هي أنك تحب هذا المكان وتأنس لهؤلاء القوم وتعرف كل شيء عنهم.. أما هؤلاء الآخرون..

- فكّر جيدًا.. إن (النافاراي) لا يتزوج ولا يلمس النساء..

آه... كيف تتجاهل كل العواطف البكر المصطرعة في شغاف قلبك، والتي تتمنى أن تهديها يومًا لفتاة ما لها ضفيرة طويلة وقدمان دقيقتان؟!.. إن هذا يبدو شاقًا...

- لا يحق للـ (نافاراي) أن ينجب حتى لا تسلبه ذريته إخلاصه وحكمته.. فهل حقًا تفهم مغبة ذلك؟!

* * *

سأل أحد تلاميذ (جوتاما) [1] أستاذه:

- "كيف نتصرف يا سيدي ازاء النساء؟"..

قال (جوتاما):
- "لا تروهن يا (أناندا)!.. لا تحدثوهن يا (أناندا)!.. وإذا تحدثت إليكم واحدة منهن فلا تكترث لما تقول يا (أناندا)!..".

* * *

لمدة شهر كامل كان الكاهن الأعظم يدعوه ليعيد السؤال مع زيادة جرعة التصعيب في كل مرة..، وكانت الإجابة دائمًا:
- نعم...
قاموا بتجويعه أيامًا ووعدوه بالطعام الشهي إن قال لا..، تركوه في البرد والظلام ساعات ووعدوه بالدفء إن قال لا..، حرموه من النوم يومين كاملين ووعدوه بتركه وشأنه إن قال لا...
لكنه كان - حقًا - يرغب في أن يظل معهم للأبد..
وجاء اليوم الذي بدأ فيه رحلة (النافاراي)، فوشموا ظهره بوشم التنين المجنح، وثبتوا له قرطًا في الأذن اليسرى، وعقصوا شعره الطويل الأسود خلف رأسه كذيل حصان، وارتدى البيجامة الزرقاء السماوية المميزة لهم..
لقد صار يشبههم وإن لم يصر بعد منهم..

* * *

يقول الاخ (ميانج):
- الحكمة ذبابة خضراء مهما حاولت اقتناصها بالجهد تفشل، فإن أنت نسيت أمرها وجلست تتأمل؛ حطت على ذراعك من تلقاء ذاتها..!
ثم يقول لك وهو يشعل الشموع:
- لكنهم يقتلون الذباب الأخضر وعليك أن تعرف كيف تحميه!.
وفجأة - دون توقع - تهوي صفعة ساحقة على خدك... أنت لم تر يده تمتد.. ولم تتوقع أية خيانة من هذا القبيل.. تنهض في تحفز شاعرًا بالإهانة وخدك يتوهج بالدماء..
- هيا!.. انتقم لنفسك أيها الضفدع!
لم تتوقع هذا من الأخ (ميانج) الرصين الهادئ..، ثم إنك لا تجرؤ على رد ضربته فهو معلمك قبل كل شيء.. و..
صفعة أخرى لم تر نذيرًا لها...
- (النافاراي) كرامة.. وهو لا يترك أحدًا يصفعه!
الغريب أنه لم يزل جالسًا في نفس الوضع المتأمل الرزين كأنه لم يفعل شيئًا..
صفعة ثالثة على خدك جعلت الدماء تملأ مقلتيك، وفي حنق وثبت نحو الأخ (ميانج) لتمنعه من المزيد من الإهانات..
- بطيء جدًا أيها الضفدع!
كذا يقول لك وهو يروغ بجذعه - دون أن يغير جلسته - من هجماتك المتتالية.. ينحني يمينًا.. يسارًا.. خلفًا.. أمامًا.. كل ضرباتك تذهب في الهواء كأنك تحاول سحق ذبابة خضراء دون جدوى..

- هيا... حاول، أسرع!

وفي النهاية اندفعت بجسدك كله نحوه، لكنه وثب - كالثعلب - جانبًا فارتطم رأسك بالجدار الصخري خلفه..

وبعد هنيهة رفعت وجهك المبتل من على الأرض..

هل كانت دموعًا أم دماء؟.. لا تذكر.. فكلاهما مالح الطعم ممتزج بالألم.. وكان هو جالسًا نفس الجلسة الرزينة الوقور كأنه لم ير شيئًا فضلًا عن فعله..

تمر الدقائق لا يقطعها سوى صوت لهاثك ونشيجك.. ثم سمعت صوته وهو يضغط على مقاطعه:

- إن (النافاراي) لا يبكي.. بل يطلب مزيدًا من المعرفة..

وتنهد وهو يربت على رأسك:

- غدًا أعلمك كيف تتفادى صفعات الآخرين..

* * *

٢ - نافاراي!..

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق.. عندئذ يبدأ فجر (النافاراي)..

* * *

إنه المساء...

في صمت يتجه الرهبان إلى هضبة (النمور) لمزاولة تدريباتهم الشاقة على القتال ذلك ديدنهم منذ قرون..

قال الأخ (ميانج) لبطلنا (هن - تشو - كان):

- فلسفة قتال (النافاراي) هي التحاشي.. لا تدع العدو يلمسك.. لا تدعه يتمكن منك، لكن لا تكيل له الضربات.. لا تؤذه..، وبعد قليل سيصيبه الإعياء أو الملل ويتركك..

قال (وين - بياو) وهو يربت على ظهر الفتى:

- قتالنا ليس كقتال الديكة.. بل هو كقتال النمور.. تحرش واستعراض قوة وتحاشي للاشتباك أطول فترة ممكنة..

همس الفتى في رهبة، وهو يلهث بردًا وترقبًا:

- وإذا كان خصمي هو الآخر حريصًا على تفادي الضربات لا أكثر؟

- عندئذ لن يكون خصمك..!.. إن القتال لا ينشأ بين شخصين يحاولان تفاديه..

* * *

وبدأت التدريبات..

في الأيام الأولى شعر (هن - تشو - كان) أن هناك خديعة ما في الأمر.. فلم يتجاوز ما يفعله - طيلة ساعات النهار - أن يلوح بذراعه يمينًا ويسارًا ويحرك قدميه في خمسة أوضاع مرسومة كأنه راقصة..

وكان نظيره في التدريبات هو (جينغ - تشا) الذي ألحق بالدير في ظروف مماثلة..، إلا أن هذا الأخير كان من طينة أخرى.. فعيناه تلتمعان بالشراسة والوقاحة، وجسده مشدود متوتر كالقوس، وفي طبعة ميل للعنف لا يداريه.. والواقع أن الجميع أدرك أنه سيكون مصدر متاعب متجددة، وأن تعليمه فن (التفادي) سيكون شاقًا لأنه لا يملك أدنى ميل لذلك...

بعد أيام بدأت التدريبات تأخذ طابعًا غريبًا..

كان على (الطلبة) أن يمروا عبر طابور من الرهبان الذين يحملون عصيًا ثقيلة يبغون أن يهووا بها على رءوسهم، وعلى الطلبة أن يتحاشوا هذه الضربات ولا تسلني كيف..!..

لقد كان درسًا مريرًا..

عشرات الضربات العاتية انهالت فوق كتفي الفتى ورأسه ومعصمه.. وفي جزع أدرك أنه لا مزاح في الأمر، وأن عليه - بالفعل - أن يبذل كل ما في وسعه كي ينجو من الألم.. الألم الممض

الذي يمزق أعصابه ويبعثر كرامته الفتية المتقدة..
طفق ينحني.. يتلوى.. يتمرغ في الغبار.. ينثني حول نفسه..
وبرغم الألم كان يتقدم.. يتقدم..
وحين وصل - أخيرًا - إلى نهاية الطابور كان قد نجا من عشرين ضربة قاتلة، وفي أعماقه بدأ يفهم شعور السحلية التي تتملص من مطارديها دون أن تجرؤ علي مهاجمتهم..
لكن الأخ (ميانج) كان بانتظاره.. وفي صرامة همس:
- عُد للطابور..!
- لكني خرجت منه لتوي!!
- أطع!
فأطاع....
إلا أنه - في هذه المرة - كان أفضل وأكثر حذرًا..

* * *

قال الأخ (وين - بياو) للكاهن الأعظم:
- إن الزهرة الزرقاء في تحسن مطرد أيها الأب.. ولكن (جينغ - تشا) مازال شرسًا كالذئب، وحاول أكثر من مرة ضرب مهاجميه..
التمعت عينا الكاهن تحت حاجبيه الكثين:
- إن له روح نمر جريح، لكننا سنروضها..
وأشعل الشمعة التي أمامه لتضيء صفحات كتاب بال قديم:
- غدًا يدخلون قبو النيران الراقصة..

* * *

قبو النيران الراقصة هو ذروة تدريبات (النافاراي).. وبعده ينتهي صنع (النافاراي) الجديد وتبدأ مرحلة صقله..
لقد صار (هن - تشو – كان) شابًا يافعًا وسيمًا يقف بقامته الفارعة وضفيرته تتدلى على ظهره، وثيابه الزرقاء المميزة.. جسده متوتر كمخالب القط.. وذقنه المربعة الحليقة توحي بقوة الشكيمة..
كان - بالطبع - قد سمع عن هذا القبر ويعلم إلى حد ما ما ينتظره في داخله.. لكنه لم يفشل قط في شيء تمناه حقًا، وهو يتمنى حقًا أن يجتاز هذا الاختبار..، وكان يعرف أن الكاهن الأعظم سيراقبه من فتحة سرية..
قال الأخ (ميانج) في لطف غير معتاد يثير التوجس في النفس..
- هو ذا النفق.. وكلنا اجتزناه قبلك.. فليس الأمر مستحيلًا..
وابتلع ريقه مردفًا وهو يناوله قربة اللبن ليحسو منها:
- لا تدع نيران ذهنك تخبو ثانية واحدة.. بل أبقها متقدة ذكية لأن الثانية التي تخبو فيها ستكون الأخيرة!!

* * *

تعالوا معي نر هذا الكابوس.. ولا تخافوا ما دمت أقودكم بنفسي..

ما إن ينغلق الباب خلفك حتى يسود الظلام والصمت..

لا ترى سوى ضوء مشعل خافت في نهاية النفق.. ولا تسمع سوى دقات قلبك الذي تدعو الله ألا يتوقف الآن..

هل هذا صوت قعقعة؟.. نعم!.. إنه كذلك!.. بل هو صوت سقالة عملاقة مشتعلة بالنيران تهوى فوق رأسك بالذات من أعلى.. ضوء النيران يملأ المكان..

عندئذ تثب للأمام.. ولكن مهلًا... إلى أين؟.. إن الأرض تلتمع بنصال خناجر مشرعة لأعلى بانتظار من يسقط عليها!..

نعم.. هكذا.. اهبط بدقة على الموضع الوحيد الخالي من الخناجر؛ على حين تسمع صوت الدوي المروع خلفك إذ تتهشم السقالة ويتناثر الخشب المشتعل في كل مكان..

لا وقت لتتنفس الصعداء - للأسف - لأن عجلة ثمانية تهبط من السقف وهي تدور.. فتتناثر منها المشاعل الملتهبة تجاهك..

اجذب ساقك من بين الخناجر سريعًا ودر حول نفسك في الهواء محاولًا تحاشيها.. إن طرف سروالك يشتعل لكن الوقت لا يسمح بأن تحاول إطفاءه..

حاول الارتكاز على الجدار الجانبي..

لكن.. لا تفعل!.. هل تسمع فحيح الأفاعي الشريرة؟.. الأفاعي المتحفزة التي تحاول اقتناص طرف أناملك، وتنتظرك دون ملل..!

إذن لا جدران جانبية!.. ا

لعجلة تتدحرج نحوك، و...

سهام مشتعلة تندفع من الحوائط نحوك..!

مستحيل أن يكون هناك جحيم على الأرض بهذه البشاعة.. إنهم لا يدعون لك ثانية واحدة لتلتقط أنفاسك..

ثِب فوق العجلة.. وخذ الحذر من موطئ قدميك لأن هذا السائل الفائر الذي ينتشر في الأرض لا يمكن إلا أن يكون مادة حارقة..

لا تهبط.. تشبث بالحبال المعلقة في السقف..

وهكذا تمر السهام المشتعلة والعجلة من تحت قدميك..

والآن..!..

اترك الحبل فورًا... هل تسمعني؟!.. اتركه فورًا..

ألا ترى الثعبان الملتف حوله وهو يزحف ببطء كي يلدغك؟..

"كلنا اجتزناه قبلك.. ليس الأمر مستحيلًا..".



اترك الحبل فورًا !.. هل تسمعنى ؟! .. اتركه فورا !..

ألا ترى الثعبان الملتفّ حوله وهو يزحف ببطء كى يلدغك ؟..

"لا تدع نيران ذهنك تخبو ثانية واحدة..".

اترك الحبل واقفز إلى الأرض.. بين الخناجر التي تركوا وسطها مواضع ضيقة لا تكاد تكفي لقدم واحدة.. وبعيدًا عن السائل الجهنمي.. أرجوحة ضخمة تتجه نحوك.. أرجوحة مشتعلة..

"ليس الأمر مستحيلًا..".

انحن لتمر الأرجوحة فوق رأسك.. ثم انطلق سريعًا بين الخناجر قبل أن تعود الأرجوحة إليك..

كم سهمًا ناريًا تحاشيت؟..

كم ثعبانًا كاد يلدغك؟..

كم كتلة نارية هوت فوقك؟

لا تذكر..

لقد تداخلت الرؤى والمشاهد.. لكن امتزجت بسرعة الكون ذاته.. لم تكن أنت من يتحرك بل الشهب والأجرام والسدم والإلكترونات في مداراتها الأبدية.. كنت لثوان تعيش بأعصاب القط الخائف، ولثوان تعيش بتوتر الثعبان الغاضب، ولثوان تفهم تمامًا مشاعر البعوضة التي تهوى نحوها كف فظة...

فقط تذكر أنك فعلتها....

وعند مخرج النفق خرجت متوترًا زائغ العينين..

حتى أنك وثبت متزين للخلف مفلتًا من يد الأخ (وين - بياو) التي امتدت لك مصافحة مهنئة..

وتعالى صياح الرهبان احتفالًا بالراهب الجديد...

ومعهم تمضي إلى الكاهن الأعظم ليخبرك أنك نجحت واجتزت أسوأ لحظاتك بنجاح.. وفي رقة يسألك أهم سؤال في الكون:

- لم لم تحرق الأفاعي بشعلة نار؟

- لأنني نافاراي!

- ألم تخش الموت؟

- (النافاراي) لا يخشى سوى موت الكائنات الحية الأخرى..

إنها من المرات القلائل التي شوهد فيها الكاهن الأعظم يبتسم في رضا..

وفي المساء عرف (من - تشو - كان) أن (جينغ - تشا) قد عبر نفس النفق بنجاح.. وإن اضطر إلى أبعاد الأفاعي بجذوة نيران، الأمر الذي وجده الكاهن الأعظم دليلًا على ضيق الحيلة والعدوانية التي لا مبرر لها!!..

أنا لا ألوم (جينغ - تشا) أبدًا ولا أحسب أحدكم يلومه، لأننا كنا جميعًا سنفعل نفس الشيء لو لم نمت ذعرًا في أول لحظة ندخل فيها ذلك النفق..

لكن الفارق هنا هو أن الاختبار ليس الغرض منه قتل الممتحن بل اختبار أخلاقياته وجدارته بأن يكون (نافاراي).

لم يستطع (جينغ - تشا) أن يكون (نافاراي) لكنه لم يطرد من الدير.. وكان هذا تسامحًا أحمق.... تسامحًا لا مبرر له على الإطلاق....

* * *

٣ - الليلة الأخيرة..

مرت أعوام...
وعندما جن الليل اصطحب (هن - تشو - كان) تلميذه الصغير مرتجف الأطراف والفؤاد إلى صخرة (النرفانا) المكسوة بالثلوج..
وفي تؤدة همس له:
- لماذا تحرق النار؟.. لأنها نار..، لماذا يطفئها الماء؟.. لأنه ماء.. لماذا يرتوي منه النمر؟.. لأنه نمر..
يغمغم الصغير في رهبة:
- لـ.. لا.. أفهم..
- لكنك ستفهم يومًا ما.. وعندئذ تكون (نافاراي) حقيقيًا..
وكان (هن - تشو - كان) قد فهم منذ أعوام.. ذلك التسامح المطلق مع طبائع الأشياء، لأنها لا تكون سوى نفسها.. وليس لك أن تتوقع أكثر من أي شيء..، حين تفهم أن النار لا حيلة لها إلا أن تحرق.. والماء لا حيلة له سوى أن يطفئ.. عندئذ تغفر للثعبان لدغاته وللقط خدوشه ولخصمك ضرباته..
كل ما يمكنك عمله هو أن تتفادى الأذى..
لكن أعوامًا عديدة تنتظر الصبي كي يعرف ما عرفه (هن - تشو - كان) وسيكون عليه أن يجتاز اختباراته الخاصة وينال خبراته الذاتية.. لأن أحدًا لا يهديك الحكمة.. بل أنت من تهديها لنفسك..

* * *

يقول (جوتاما):
- "كل من يفصم صلته بما عداه، ويهزم الإغراء.. لهو أعظم الرجال..".

* * *

كانت الإضاءة الخافتة تجعل الرؤية متعذرة في صومعة الكاهن الأكبر لكن صوته الواهن المتداعي كان قادرًا على جعلك ترى وجهة المفعم بالتجاعيد وجفونه الذابلة.. لقد صار شيئًا فانيًا لكنه ازداد هيبة..
- ادخل يا (هن - تشو - كان)..
منذ أعوام طوال لم ينادك باسمك..هل كان هذا نذيرًا ما؟..
- لقد عشت بيننا وصرت واحدًا منا.. ولم نكن مخطئين حين انتظرنا منك الخير..
احمر وجه الفتى وأطرق للأرض عاجزًا عن التفوه ببنت شفة..

أمس فقط استطاع أن يصل إلى مرتبة التأمل الكاملة التي وصل إليها الأخ (وين - بياو).. وغرق في غيبوبة كاملة لا يذكر منها سوى حقائق علوية لا يعرف كنهها..، وحين عاد إلى الوعي أخبره الرهبان أنه ارتفع عن الأرض... بضعة سنتيمترات!..

منذ شهر فقط أخترق بقبضته الصخر القاسي..، ركز أفكاره وحشدها في صورة واحدة..صورة يده غائصة في الصخر..، تخيل جزيئات يده تتباعد... وتتباعد لتفسح بينها مكانًا لجزيئات الصخر..، العنصران يمتزجان.. يلتحمان...

وحين أفاق كانت يده غائصة حتى المرفق في الصخرة..!

كان يتقدم دون شك..

وكان يستحق كل هذا الثناء..

اكتسب صوت الكاهن نبرة رهيبة مثيرة للوجل وهو يغمغم:

- الآن حان الوقت كي أطلعك على سر أسرارنا..

وفي تؤدة نهض إلى تمثال كبير لـ (بوذا) متربعًا في وضع التأمل الشهير، واستدار إلى الفتى ليرى - في الضوء الخافت - رد فعله إزاء هذا الفتح.. الجديد..

وبنفس الهدوء المتعمد أدار رأس التمثال فدارت..، عندئذ أدرك الفتى المذعور أن الرأس هو سدادة لجسد التمثال المجوف يمكن انتزاعها لتكشف مجموعة من الأوراق المصفرة المهترئة الملفوفة في فتحة العنق..

- هو ذا كتابنا.. حاضرنا ومستقبلنا.. الـ (شوكارا).. الكتاب الذي يحوي أسرارنا وفلسفتنا وأسلوب عملنا...

ونظر إلى الفتى نظرة لا مزاح فيها:

- أنت اليوم تعرف موضعه.. قليلون في هذا الدير يعرفون.. والمعرفة عبء لا يفهمه سوى الرجال.. المعرفة ألم دائم وعذاب مقيم..، لأنك لم تكن تخشى شيئًا وأنت جاهل.. أما اليوم....

وأعاد غلق الفتحة مستغلًا رأس (بوذا) الذي أداره حول محوره كسدادة الزجاجة، وهو بعد يستطرد:

- ربما سألوك.. ولربما عذبوك.. لكنك لن تتكلم.. لأنك تفهم أن هذا الكتاب هو حياتنا..

ثم قال وهو يعود إلى الجلوس في ركن الغرفة متأملًا التمثال:

- سيصطرع (الين) و (اليانج) في أعماقك[2] لكنك ستنتصر.. أنا أعرف أنك ستنتصر.. ومن اليوم أنت من يحمي هذا الكتاب..

كان الفتى يرتجف رهبة.. المسئولية.. الفخر والخوف.. كان يتمنى ذلك لكنه كان يخشاه بنفس القدر..

قال الكاهن الأعظم وهو يشعل (السماور):

- غدًا تبدأ مرحلة الـ (سارايانا)..!

- (سارايانا)؟...

- نعم.. (سارايانا).. إن عقيدة (النافاراي) تنقسم إلى مرحلتين.. مرحلة التفادي أو القتال السلبي واسمها الـ (رانجانا).. ثم مرحلة الهجوم أو القتال الإيجابي واسمها الـ (سارايانا)..، والكاهن لا ينتقل من المرحلة الأولى للثانية إلا بعد أن يثبت براعته في التفادي ومقت الاعتداء.. عندئذ يتعلم

كيف يهاجم.. إنه يكون وقتها كالنمر الذي يفضل النوم في الشمس فلا يخرج مخالبه إلا لحظة الخطر الحقيقي..

- إذن.. الـ (رانجانا) وحدها لا تكفي لحمايتي؟

- تكفي لحمايتك لكنها لا تكفي لحماية أحبائك ومبادئك..، لو أن لصًا هاجم دارك فلن يمنعه (التفادي) من سرقتك.. لن يمنعه من إيذاء أمك العجوز.. لن يمنعه من تمزيق كتب صلواتك وسكب زيت الموقد..

- ومتى أبدأ الـ (سارايانا)؟

- غدًا..!

ابتلع الفتى ريقه وسأل السؤال الذي كان يتمنى أن تكون إجابته: لا:

- و.... (جينغ - تشا)؟.. هل يبدأ معي؟

ابتسم الكاهن الأعظم في الضوء الخافت المنبعث من (السماور).. وغمغم:

- أنت تكره (جينغ - تشا).. أليس كذلك؟

- أ.. أ.. أنا..

- بلي تكرهه.. وروحك مثقلة.. لكنك تخشى أن تقولها..، فلتهدأ بالًا.. إن (جينغ - تشا) لم يصر (نافاراي) قط.. ولن يصير..، ومن ثم هو غير مؤهل للـ (سارايانا)..، وتعليمها له كتعليم الشراسة لخنزير بري.. لا جدوى منه.. بل خطر داهم على الجماعة..

ثم صمت الكاهن الأعظم فعرف (هن - تشو - كان) أن الحديث قد انتهى..

* * *

- تشا سارايانا!

يقولها وهو يباعد ما بين ساقيه مثبتًا قدميه بقوة على الجليد..

- جوانغ سارايانا!

يقولها وهو يفتح ذراعيه المشدودين المتوترين مباعدًا أصابعه كمخالب النمر..

- كيوه سارايانا!

يقولها وهو يرجع رأسه للخلف لأقصى ما يستطيع.

إنها الصرخات الثلاث التي يحتم عليه قانون (النافاراي) استعمالها لإنذار الخصم بأن القتال سيتحول من الدفاع السلبي (رانجانا) إلى الهجوم الإيجابي (سارايانا).. ومعناها - إذا لم تخني الذاكرة - بالترتيب هو: سأبدأ (السارايانا).. احترس من (السارايانا).. إليك بـ (السارايانا)...

(تشا سارايانا).. (جوانغ سارايانا).. (كيوه سارايانا).. وقد أعذر من أنذر..!

إنه لمشهد مرعب.. مشهد الفتى المتوتر وهو يطلق قواه المقيدة من عقالها لتثب في وجه خصومه.. كأنه منجنيق شد حبله إلى نهايته ثم قطع...

وبرغم أن العشرة الكهان المحيطين به هم أساتذة في فن التفادي؛ إلا أن ضرباته أطاحت بأربعة منهم سقطوا فوق الثلج يئنون..

وكانت تدريباته تتم إما على خصوم حقيقيين من الرهبان.. أو على تمثال بالحجم الطبيعي للإنسان..، وقد حددت على جسم هذا التمثال النقاط الأساسية للهجوم.. وكانت مقسمة إلى أربع مجموعات:

- نارفا (لونها أبيض): وتؤدي إصابتها إلى إحداث ذعر وارتباك.
- كارفا (لونها أزرق): وتؤدي إصابتها إلى فقدان الوعي.
- شورا (لونها أحمر): وتؤدي إصابتها إلى الشلل.
- كورا (لونها أسود): وتؤدي إصابتها إلى الموت.

وكانوا يعلقون التمثال ويجعلونه يتأرجح بسرعة لا تصدق... على حين كان الفتى يقف وقد لطخوا كفيه وقدميه باللون الأصفر مستخدمين طلاء لا يجف..

وكان الأخ (ميانج) يصرخ:

- شورا!

عندئذ يثب الفتى كالسهم موجهًا أربع ضربات في وقت واحد إلى النقاط الحمراء في التمثال المتحرك..

- كارفا!

فكان الفتى يوجه ضرباته إلى النقاط الزرقاء..

وبمجرد انتهاء التدريب كانوا ينزلون التمثال ويبدؤون في دراسة آثار الطلاء الأصفر التي تركتها قبضة الفتى وقدمه على الأماكن المطلوبة..

لا داعي لذكر أن النقاط التي كان الفتى يهاجمها في تدريبه الحي مع الرهبان هي نقاط الـ (نارفا) التي لا تحدث سوى بلبلة وارتباك..

كان هذا ضروريًا لأن الفتى كان يتقدم - كالعادة - بسرعة غير عادية وكان تدريبه خطرًا لا ريب فيه لولا سيطرته الكاملة على جهازه العصبي..

وفي سره أدرك الأخ (ميانج) أنه لم ولن يدرب ظاهرة مثل الزهرة الزرقاء.. وحتى مبتدع فلسفة (النافاراي) ذاته كان سيذهل لو أنه رأى هذا الفتى.. كأنه جاء الدنيا ليعرف الناس من خلاله معني لفظة (نافاراي)...

-" سيكون لهذا الفتى" قال لنفسه "شأن خطير..".

* * *

مرة أخرى جلس الفتى أمام الكاهن الأعظم يقلب - على ضوء الشموع - أوراق الـ (شوكارا) المهترئة المصفرة..

كانت هناك مئات الأساليب الغريبة والمواعظ والنصائح والنبوءات والذم في البوذية والهندوسية..

على أن شيئًا غريبًا شد انتباهه أكثر من سواه..



مرة أخرى جلس الفتى أمام الكاهن الأعظم يقلّب ــ على ضوء
الشموع ــ أوراق الـ (شوكارا) المهترئة المصفرة ..

كانت هناك طريقة غامضة اسمها (شانكين) يزعم الكتاب أنها تنقل الجسد المادي عبر الأزمنة والمسافات، وكانت قائمة على التأمل المستمر المرهق.. وبالطبع ونظرًا لحداثة سن بطلنا فإن ما تبشر به هذه الطريقة من متعة كان جديرة بالاهتمام..

- دعك منها..

قالها الكاهن الأعظم في لا مبالاة.. وأردف:

- هي لعبة خطرة قائمة على تفكيك الجزيئات وإذابة ماديتها لتتوه في الأثير حيث لا زمن و لا مكان.. ثم تحتشد في أرض أخرى وزمن آخر.. لكنها - الطريقة - لم تحدد كيفية اختيار الزمن والمكان.. كما أنها لم تحدد كيفية العودة من هناك..

هز الفتى رأسه في طاعة..

لكن هذه السطور ظلت محفورة في ذهنه.. وأدرك إنه سيجربها يومًا ما..

* * *

كانت مشاكل (جينغ - تشا) تزداد تعقيدًا..

فهو يتشاجر مع الجميع ولا يحترم أحدًا..

ويبدو أن يأسه من أن يصير (نافاراي) قد جعله بلا شيء يخسره.. وبدا واضحًا أن الكاهن الأعظم سيطرده من الدير بعد أيام أو ساعات..

وبدأت إشاعات تسري في الدير أنه يتردد على رهبان (الماهايانا) في القرية القريبة[3] وكان هذا خطيرًا جدًا لأن (النافاراي) - برغم أنهم يستعملون الكثير من تعاليم (بوذا) - كانوا يعتبرون (الماهايانا) خصومهم الطبيعيين.

وتلك الليلة المشؤومة كان (هن - تشو - كان) يمارس تأملاته في الغابة الثلجية البعيدة حتى الفجر..

ثم إنه عاد إلى الدير كعادته.. ومن اللحظة الأولى أدرك أن هناك شيئًا على غير ما يرام.. بالواقع لم يكن أي شيء على ما يرام...

وأدرك خطورة الموقف أكثر حين دخل الدير فوجد ثلاثة رهبان واقعين على وجوههم وحولهم بركة من القيء وكان من بينهم الأخ (وين بياو)..

اصابه الجنون وهرع إلى الداخل..

وفي كل قاعة كانت كارثة تنتظره..

كل الرهبان موتى - أو قتلى - غارقين في القيء مما يدل على أن هناك حادث تسمم عام..، بل الأطفال أنفسهم لم ينجوا..

حتى الأخ (ميانج) - صنو روحه - لم يكن أفضل حالًا..

ماذا حدث؟..

كيف حدث؟..

متى حدث؟..

ماذا دهاكم أيها (النافاراي)؟.. كنت أحسبكم أذكي من أن تلقوا حتفكم.. لكنها حقيقة واقعة.. أكثر من عشرين راهبًا كلهم جثث هامدة..

في جزع جرى إلى الممرات حيث الكاهن الأعظم فوجده جاثيًا على ركبتيه وقد أراح رأسه وكتفيه على (الطبلية) الصغيرة التي يتلو الصلوات عليها.. وكان القيء يلوث الأرض حوله، وثمة قدح شاي قد سقط أرضًا فتهشم..

لكنه كان يتنفس..!

بلهفة هرع فتانا إليه وجلس القرفصاء جواره، وأراح رأسه العجوز على فخذيه.. وفي عينه التمع ألف سؤال لم يكن بحاجة للنطق به..

فتح الشيخ عينيه الذابلتين بوهن.. وبدا عليه شبح الرضا إذ رأى تلميذه النجيب.. ثم همس بفحيح الأفعى:

- كـ.. كلهم ماتوا؟

- جميعًا..!

التمعت دمعة في عيني الشيخ.. وبلل شفته الضامرة بطرف لسانه:

- إذن أنت الكاهن الأخير...

كانت رائحة فمه كريهة جدًا وهو يهمس.. لكن (هن - تشو - كان) لم يكن في حال يسمح بالاشمئزاز.. ولم يسره قط أن يعلم أنه آخر الكهنة...

- ماذا حدث يا معلم؟

زاغت عينا العجوز أكثر.. وعاد يفح:

- هو.. خـ.. خطأى.. (جينغ).. (جينغ - تشا).. دس.. دس لنا.. الـ.. السم.. في.. الشاي..

- اللعين!.. أراد أن ينتقم!

- بل الأمر أخـ.. أخطر.. يريد الـ... الـ (شوكارا)..لـ.. لقد بحث.. عنـ.. عنها في كل مكـ... ان...آه!..

- ولماذا يريدها؟

- مـ.. من أجل الـ.. (ماهايانا).. لقد ذهب لـ.. يحضرهم.. كـ.. كي يبحثوا معه.. وسـ.. يصلون بعد..دقا.... ئق..

- إذن هي في التمثال بعد؟

- ن.. نعم.. إن من يجدها سيحكم الـ.. العالم..ولا أريد أن يـ.. يكون هو (جينغ - تشا).. آه!

التمعت عينا الفتى وقد أدرك خطورة الموقف.. إذن فحماية كتاب (النافاراي) هي مسئوليته لأنه - بعد ثوان - سيكون (النافاراي) الوحيد على ظهر الأرض..، وهو يستطيع أن يتخيل الكارثة التي ستحدث لو أن مأفونًا من عينة (جينغ - تشا) وجد الكتاب..

لم يعد هناك وقت لرقة المشاعر..

لذا أراح رأس أستاذه المحتضر على الأرض وهرع إلى تمثال (بوذا) ليفك رأسه وينتزع الأوراق الثمينة ويدسها في صدره.. ثم إنه جثا جوار رأس الأستاذ ليتلقى تعليماته الأخيرة..

- هل أقاتلهم؟

- لـ.. لا.. سيكونون أكثر عددًا مـ... من قدراتك.. لـ.. لا يجب أن تج.. تجازف.. الـ.. الكتاب أهم من أن....

نعم.. نعم.. لم يحسن التعبير لكن المعنى مفهوم.. إن إنقاذ الكتاب أهم من خوض قتال لا تعرف نتائجه لمجرد إشباع غريزة الانتقام...

- إذن أهرب...

- سـ.. سيجدونك...

- وما الحل؟

- (شانكين)..!

(شانكين)؟.. نعم.. نعم.. الوسيلة التي تتحدث عن السفر عبر الزمان والمكان والتي وجداها في الكتاب منذ أيام..، لكنها خطرة كما قال المعلم.. ولكن...

- لـ.. لا.. مـ.. مجال للاختيار.. إذ.. اذهب للـ.. للحجرة الـ.. المجاورة.. وأبدأ.. الـ... التأمل...

- وأنت يا معلم؟

- لـ.. لقد.. انتـ.. انتهى أمري!

حاول (هن - تشو - كان) كبح جماح دموعه، ومد يده لصدره فأخرج الأوراق البالية.. وانتزع منها الورقة التي تتحدث عن طريقة (شانكين) ثم أعاد الأوراق لصدره..

وفي الحجرة المجاورة شرع يقرأ.. كان ضوء الفجر الوردي يتسرب من النافذة المنحوتة في الصخر، وآلام اللحظات الماضية التي مرت كحلم كابوسي غريب لم يتخيله، وزلزلة عالمه فجأة ورحيل أصدقائه الوحيدين والمسئولية الثقيلة الملقاة فوق كتفيه...

كل هذا كان يحتشد في عقله وقلبه لكنه أزاحه بعيدًا وأخذ شهيقًا عميقًا وبدأ يحلم..

صوت رجال.. صوت باب يتهشم..

لقد عادوا وهو لم يحرز نجاحًا يذكر..

صوت تحطيم.. تمثال (بوذا) بالذات.. لكنهم لن يجدوا ما يريدون.. ركز أكثر.. امتزج بالكون.. حاول ألا توجد..

أنت تدنو من (النرفانا) الكاملة.. حالة الانطفاء النهائية..

لا تدع صوت السيوف يخرجك من تركيزك..

لا تدع صوت أنين الكاهن الأعظم - وهم يعذبونه غير مبالين بأنه رجل ميت - لا تدعه يشتت تيار أفكارك..

انبذ مخاوفك الخاصة..

هأنتذا تذوب في الأبدية..

هأنتذا تفقد ماديتك وتتحول إلى ذرات أثيرية..

إنهم يقتربون من الحجرة..

لكنك - أنت أيضًا - قد اقتربت جدًا..

جدًا... جدًا...

و.....

لقد نجحت....

* * *

٤ - أرض أخرى.. زمن آخر..

أظن القارئ يتساءل الآن: أين ذهب هذا السخيف (رفعت إسماعيل) بسخريته المقيتة وصلعته ورائحة سجائره؟..

هذا بالطبع - وإن كنت لا أرجوه - ما لم يعلن إحساسه بالرضا والاستمتاع لأنه يقرأ أخيرًا قصة محترمة!..

ولكن صبرًا يا رفاق...

لا تفرحوا قبل الأوان.. فأنا آت لا محالة.. وستعرفون السبب بعد بضع صفحات...

* * *

الظلام والحرارة والرائحة الخانقة..

لبضع ثوان ملأت المفردات الثلاثة حواسه فلم يستطع أن يفهم أين هو.. لكنه كان واثقًا من شيء واحد..

أن القاعة التي كان يتأمل فيها منذ ثوان قد اختفت..

بدأت عيناه تعتادان الظلام.. فاستطاع أن يرى أجولة من الخيش مكومة فوق بعضها، وحيوانات صغيرة مكسوة بالفراء تجري هنا وهناك بسرعة لا تصدق (لم تكن الفئران من الحيوانات المألوفة في الدير)..

أدرك دون جهد أنه في مخزن ما...

ومن الرائحة عرف أنه مخزن لنوع من الحبوب..

لكن أين؟.. وفي أي زمن؟..

سمع باب المخزن ينفتح محدثًا صريرًا..، واندفعت لعينيه حزمة أليمة من ضوء الشمس كأنها دستة من الإبر تنغرس في مقلتيه..

وبين الإبر الأليمة رأى خيالًا فارعًا يدخل من الباب..

كانت فتاة شابة..

وبرغم الألم الذي أحدثه الضوء الساطع أدرك أن شكلها غريب جدًا.. فهي سمراء اللون عيناها واسعتان على نقيض فتيات وطنه.. وكانت كبيرة العظام ضخمة القدمين كما لم ير فتاة من قبل..

لكنها - برغم غرابة مظهرها - كانت مليحة..

وفي نشاط وخفة - ودون أن تلاحظ وجوده - ألقت على الأرض بمقص كبير وبعض الحبال، ثم انسلت مغادرة المكان دون أن تغلق الباب خلفها..

تحرك الفتى ببطء شديد واختبأ خلف كومة أجولة، وشرع يدقق البصر في نهم إلى العالم الخارجي وراء الباب..

كان هناك رجال يتحركون هنا وهناك.. سمر البشرة يرتدون ثيابًا طويلة تصل للقدمين، وكانوا يضعون على رءوسهم أغطية رأس غريبة.. وكان بعضهم منهمكًا بحمل الأجولة متجردًا من ثيابه

الطويلة كاشفًا عن سروال أبيض متسع وصدرية مليئة بالأزرار..
ولم يكن أحدهم يعقص شعره خلف ظهره.. أو يرتدي قرطًا..
أخذ عقل (هن - تشو – كان) يعمل بأسرع ما يمكن..
لن يلبث أن يكتشف أمره.. وعندئذ.. وحتى لا يبدو شاذًا.. عليه أن يبدو مثل هؤلاء أو على الأقل قريبًا منهم...
في تؤدة التقط المقص.. وحركه إلى مؤخر رأسه وجز خصلة الشعر الناعم المتدلية على ظهره..
ثم إنه وجد ثوبًا من هذه الأثواب الطويلة وغطاء رأس في أحد أركان المخزن.. كان الثوب متسخًا قذرًا تفوح منه رائحة العرق لكن الوقت لم يكن مناسبًا لقواعد الصحة..
لهذا نزع ثيابه وارتدى الثوب الجديد.. وثبت غطاء الرأس الصوفي على رأسه وتمنى لو رأى وجهه في لجة ماء..
جاء الجزء الهام من الموضوع..
الآن ينبش بأظفاره الأرض الترابية محدثًا حفرة صغيرة.. ثم يغلف كتابه الثمين - الـ (شوكارا) - بثيابه التي خلعها..، وفي حذر يدفن الحزمة الثمينة في الحفرة..
ويهيل التراب وقد سره أن الجفاف العام المخيم على التربة يدل على أن الرطوبة لن تفسد الكتاب..



ثم يغلف كتابه الثمين ــ الـ (شوكارا) ــ بثيابه التى خلعها ...،

وفى حذر يدفن الحزمة الثمينة فى الحفرة ..

وبالطبع لم ينس أن يدفن خصلة الشعر والقرط مع الثياب وما بداخلها..
ثم إنه مسح بالغبار وجهه....
سيبدو قذرًا كخنزير.. وهو المطلوب لأن وجهه المتسخ لن يدع الكثيرين ينتبهون لعينيه الضيقتين ولون بشرته الأصفر... على الأقل في الوقت الحالي..
لم يكن يتفادى شيئًا بعينه..
لكنه كان يعلم أن هناك خطرًا لا يدري كنهه..
بعد دقائق ظهر (سيلويت) الفتاة عائدة إلى المخزن مندفعة بنفس النشاط والحيوية..
وفي هذه المرة كان محتمًا أن تراه..
التقت العينان.. ولمح عينيها تتسعان في هلع.. وشفتيها تهمسان بلفظة ما.. ثم أنها ضربت بكفها المفتوح صدرها (ولم يكن قد رأى هذا الأسلوب في إظهار الذعر من قبل..)..
- آبا..!..! آبا..!
كذا صرخت وهي تجرى هاربة من المخزن..
أما (هن - تشو - كان) فظل مسمرًا في مكانه يشعر بالحيرة، بالإضافة إلى غرابة اللغة التي استعملتها الفتاة.. واللفظة التي قالتها يملؤها حرف غير مألوف لأذنيه (حرف الحاء في عبارة: بسم الله الرحمن الرحيم).. فما هو هذا المكان؟
ومن هم هؤلاء القوم..؟
بعد ثوان امتلأ المخزن بالفضوليين والمتحمسين والمتحفزين..
أما (آبا) - أو الشخص الذي نادته الفتاة - فكان عجوزًا كث الشارب أشيبه يربط رأسه بمنديل ويرتدي معطفًا أصفر حال لونه منذ دهر.. وكان يمسك في يده بعصا طويلة معدنية تشابه تلك المدافع التي كان الصينيون يستعملونها في حروبهم.
في تؤدة وحذر اقترب من الفتى وسأله عن شيء ما..
كان (هن -تشو – كان) قد قرر التزام الصمت والحذر.. سيتظاهر بالخرس والعته فلا يصير بحاجة إلى الرد..، اندمج في الدور وتدلى لسانه خارج فمه مبعثرًا اللعاب على ذقنه... وبعينين زائغتين شرع يتابع كلمات الرجل التي لم يكن في حاجة للتظاهر بأنه لا يفهمها لأنه - بالفعل - لا يفهمها..
كان الرجل يرمقه في شك..
ثم بدأ يتبادل حديثًا غاضبًا مع الرجال وهم يقنعونه بشيء ما..
أدرك الكاهن الأخير أن عادة هؤلاء القوم هي الصخب والكلام الكثير.. وأن الهمس عندهم هو نوع من الصراخ..
لم يكونوا سمرًا كالزنوج أو بيضًا كالتجار الإيطاليين الذين رآهم ذات مرة.. ولا هم صفر كأبناء جلدته..
فمن هم إذن؟..
تصايح القوم بشيء ما فبرزت من صفوفهم امرأة عجوز تحمل خبزًا ومادة صفراء اللون شديدة الملوحة يبدو أنها نوع من الخبز.. وفي يدها الأخرى وعاء من الفخار تكاثف الماء على سطحه.. وقدمته له..

كان (هن - تشو – كان) معتادًا الجوع أيامًا طويلة، لكنه أدرك أن الحكمة تقضي بعدم الرفض..
شرع يلتهم الطعام - غريب المذاق - والجميع يراقبونه في فضول..
كانت أذنه الحادة تعمل كأذن القط.. ولقد أدرك أن اللفظة التي يكررونها لكل وافد جديد على المشهد.. هذه اللفظة: (أهبل.. أهبل) لا تعني سوى العته أو الجنون..
كانت هناك لفظة أخرى تتكرر بإصرار وبدا له أنها مقاربة في المعنى.. هي (بتاع ربنا)..، وإن أثار دهشته حرف (العين) الذي لم يعتد سماعه قط..
وفي رضا أدرك أنه قد تلقى تأشيرة الدخول إلى عالمهم، وكأنه يكافئ نفسه رفع الوعاء الفخاري إلى فمه وجرع الماء حتى ارتوى..

* * *

دعونا الآن نفارق وجهة نظر كاهننا لنتخذ وجهة نظر أكثر شمولية وإلمامًا بالتفاصيل، لأنه لن يفيدنا بشيء أن نجهل ما يجهله هو على طول الخط..
أظن القارئ قد استنتج أن الكاهن قد قذف إلى قرية مصرية.. أي أنه قد ابتعد مئات الأميال عن وطنه الاصلي..
دعك من أنه كان يعيش أصلًا في القرن السادس عشر.. وهو اليوم في عام ١٩٦٧.. أي أنه ابتعد أربعة قرون عن زمنه الأصلي..
ويمكننا القول إن خدعته قد انطلت على الفلاحين.. فهم لا يملكون خبرة طبية لكنهم - حتمًا - رأوا أناسًا مصابين بهذا النوع من التخلف العقلي الذي يجعل العينين ضيقتين والشعر ناعمًا..، هذا العيب الخلقي الذي يسميه الأطباء بـ (العته المنغولي)[4]..
لهذا تقبلوا سريعًا فكرة العثور على شاب شريد متخلف عقليًا له ملامح صينية.. كان هناك في القرية المجاورة شاب مثله.. وكان أهل القرية يسمونه (الشيخ عطوة).. ويتبركون به..
وهي عادة ريفية قديمة.. عادة اعتبار المتخلفين عقليًا في عداد الأولياء الذين شفت نفوسهم إلى حد الاتصال بسر الكون..
لهذا لم يكن صعبًا عليهم أن يتقبلوا هذا الشريد البائس بينهم لا يهم من أين أتى ولا من هو..
المهم انه بحاجة إليهم...
أما عن المدعو (آبا) - أو ما ظنه الكاهن - فلم يكن سوى (محمد السقا) خفير شونة الغلال.. وبالطبع لم يكن (آبا) سوى نداء ابنته له حين رأت الكاهن.. وقد ظن هذا الأخير أن (آبا) هو اسم الرجل..!..
كانت القرية مفعمة بعمال الترحيلة في تلك الآونة، لهذا لم يكن وجود وجوه غريبة أمرًا يثير الريبة..
وكانت ابنة الخفير - واسمها (سعدية) - تتواثب هنا وهناك تعين الرجال على ربط غرارات الحبوب وتعدها..، وكان ابنه الشاب (إبراهيم) منهمكًا في معاونة العمال مع أبيه..
ومن اللحظة الأولى أدرك الأب أن الوافد الجديد سيكون مسئوليته، ولربما ابنًا ثانيًا له..
وقد أدرك - بفطنة الفلاح التي لا تخطئ - أن الفتى ليس أصم.. فعيناه تتابعان الأصوات.. وجهه يتلون حسب حدتها، لكن من الواضح أنه لا يفقه حرفًا...

وجاء المساء..
العباءة الزرقاء الرطيبة تفترش الكون..
لكن الفتى ظل جالسًا حيث هو يرمق الأفق في نهم.. فحتى النجوم تبدو مختلفة ها هنا..
من الغريب أنه ليلة أمس - أحقًا هو أمس؟ - كان يحيا في عالم (النافاراي) يمارس تدريبات (السارايانا) فوق الثلوج.. واليوم ماذا بقي من كل هذا؟.. هل كانت حياته السابقة حلمًا كلها؟.. أم أنه يحلم الآن ولن يلبث الأخ (ميانج) أن يوقظه؟..
حقيقة واحدة كان يدركها..
لو أنه ظل ها هنا فترة أطول فلسوف يذوي ويموت.. نعم.. يموت.. مثله مثل الببغاء التي يحبسونها في قفص بعيدًا عن توءم روحها..
شعر بخطا تقترب منه فأجفل..
كان القادم هو الخفير يحمل له شيئًا ملفوفًا في رغيف خبز من الواضح أنه يؤكل، وقال له شيئًا ما..
ثم إنه أشار له إلى المخزن.. وقال شيئًا آخر..
قصة بسيطة لا تحتمل سوى تفسير واحد.. تناول عشاءك ونم في المخزن.. وغدًا يوم آخر..
التهم الكاهن الأخير بعض لقيمات متجاهلًا نظرات الرجل الفضولية له..، كان الليل هو ميعاد تمارين (النافاراي) في وطنه.. لكنه لم يعد حرًا كي يزاول عاداته..
الأدهى هو أنه فقد القدرة على النوم ليلًا.. اختل إيقاعه الحيوي تمامًا وغدت ساعات النهار هي ساعات نومه، وهذا معناه أنه سيقضي ساعات تعسة طويلة من الأرق في ظلام المخزن..
كان المخزن حارًا.. حارًا أكثر من طاقة تحمل هذا البائس القادم من أرض الثلوج..
وكان قلبه مثقلًا بالهموم..
لذلك - حين نام أخيرًا - كان الملل والقنوط هما اللذان غشيا وعيه وليس النعاس..
وغدًا يوم آخر..

* * *

٥ - مخالب النمر..

"كالنمر الذي يفضل النوم في الشمس فلا يخرج مخالبه إلا لحظة الخطر الحقيقي..".

* * *

قديمًا كان للفتى اسم هو (هن - تشو - كان) اختاره له أبوه..، ثم كان له اسم آخر هو (الزهرة الزرقاء) اختاره له الكاهن الأعظم..، أما اليوم فثمة اسم ثالث له رنين غريب اختاره له (آبا)... هذا الاسم هو (الأخرس)..

لم يكن يفهم معنى الكلمة.. ولا هو بالقادر على نطقها لو أراد..

لكنه أدرك أنها تتعلق -بشكل ما - بصمته المتعمد المستمر...

* * *

كانت الحياة تتحرك حاملة الفتى في ركابها..

في الصباح كان يعاون العمال في حمل الأجولة وعدها..، وفي الليل كان يتكوم كالهر التعيس في أحد أركان المخزن المظلم راضيًا - على الأقل - بأنه يحرس كتاب (النافاراي) الثمين، ولم يكن يتقاضى أجرًا - وما كان يهمه أن يتقاضى - سوى طعامه.. الوجبات الثلاث تدور كلها حول الخبز والجبن والزبد مع بعض الخضر المطهوة في مناسبات عشوائية، أما قطعة اللحم التي كان يجدها أحيانًا وسط الخضر فكان يلقيها للقطط..

كان - ككل (النافاراي) - عزوفًا عن اللحوم والبيض.. لكنه كان يرحب بمنتجات الألبان..

وفي الليل - وحين يتأكد من أن العيون لا تراه - كان يمارس تدريبات (النافاراي) الانفرادية في المخزن، وحيدًا يقاتل خصومًا وهميين ويتفادى ضربات لا وجود لها..، وهو شيء قريب مما يسميه لاعبو الـ (كونغ فو) بالـ (كاتا)...

وكان أعقد تمرين استطاع أن يبتكره هو الإمساك بالفئران!.. نعم!.. أنتم لم تخطئوا قراءة الكلمة!..

إن سرعة الفئران خارقة وانعكاساتها لا تصدق..، وكان عددها - لحسن الحظ - لا بأس به في المخزن فكان الكاهن الأخير يحاول محاكاة انعكاساتها بنفس السرعة والتوتر..

تخيل منظره إذ يقف متصلبًا كاتمًا أنفاسه متوترًا كالقوس.. ثم.. بدون استعداد ولا إنذار.. يقفز كالقط المسعور إلى ركن المكان وقبل أن ترى أنت ذراعه يكون قد التقط فأرًا مذعورًا بائسًا من ذيله.. ورفعه لأعلى..!

ويحاول الحيوان التملص.. ويثني جذعه محاولًا عض اليد الحديدية التي أمسكت به لا يدري متى ولا كيف..

- لا تخف يا أخي.. إن (النافاراي) لا يؤذي كائنًا يتحرك...

ثم يطلق سراحه.. فيفر الفأر غير مصدق لا يلوى على شيء..

إنسان أسرع من الفأر..!

هل تصدق هذا؟..

الواقع أن هذا التمرين - وليد البيئة - أتى بثمار غير متوقعة..

كان الفتى يتفوق على نفسه يومًا بعد يوم..، إلى الحد الذي كان سيصيب الأخ (ميانج) نفسه بالذهول لو رآه..

* * *

كان الخفير وامرأته يعاملانه بشيء من الشفقة المغلفة بفظاظة من لم تعلمه الحياة الفقيرة أصول الرقة..، لكنه كان يدرك أنهما يعطيانه ذروة الحنان الذي في جعبتهما.. وهذا يكفيه..

وكان ذكاؤه الخارق قد مكنه من فهم العديد من الألفاظ التي يستعملانها وكان يبدى استجابته لكل هذا، لكنه ادخر لنفسه شيئًا من الفهم لم يبده على السطح مدفوعًا في ذلك بحذر غزيزي كحذر القط النمري..

يقول له الخفير مثلًا:

- هات جوالًا واربطه..

فكان الفتى يحضر جوالًا.. ثم يتجاهل الجزء الخاص بالربط مدعيًا الغباء أو البله برغم أنه أدرك - منذ زمن بعيد - معنى احتشاد حروف الراء والباء والطاء في لفظة واحدة..

وهكذا ينسكب محتوى الجوال على الأرض، فيصيح الرجل محنقًا:

- أيها الأبله!.. اربط.. ألا تفهم معنى أ.. ر.. ب.. ط؟!

ويكون الفتى قد فهم أيضًا من احتشاد حروف الباء واللام والهاء أن الرجل يتهمه بالحماقة، وقد أدرك - دون جهد - أن هناك مزية غريبة لهذه اللغة هي أن حروفًا معينة تؤدي المعنى متى احتشدت،، فكلمة (أبله) و (أهبل) و (بلاهة) و (بله) و (هبل) كلها تعني الحماقة..

وهو ليس أحمق.. لكنه يرحب تمامًا بهذا النعت..

هذا عن الخفير وامرأته..

أما عن ابنهما (إبراهيم) فقد كان حديث السن، وبحكم حداثة سنه كان عاجزًا تمامًا عن معاملته برقة، وكان يتخذ منه مادة للمزاح مع رفاقه - وهم مجموعة من الأوغاد شديدي السماجة - ولربما عرقل سيره مادّا ساقه أمامه، ولربما صفعه على قفاه، ولربما انتزع الطاقية من على رأسه ورماها بعيدًا...

كان الكاهن يمقته بجنون ويتمنى تهشيم رأسه.. لكن واجب الحذر كان يملي عليه أن يصبر.. بل إنه لم يكن يملك حتى حق تفادي الضربات المهينة.. لأن سرعته في التفادي ستثير ذهول الفتى وأصحابه، الذين لن يقتضي تحويلهم إلى مقعدين سوى ضربتين منه..

كانوا ذبابًا..

وهو لم يقتل ذبابة في حياته..

بعد هذا يجيء دور (سعدية)..

هذا الشباب النضر الرشيق، والنظرة الحانية المرهفة التي تقطر بالأنوثة من عينها الكحيلتين الواسعتين..

كانت معجبة به.. وتعني بأمره..
أدرك ذلك دون غرور.. بل في شيء من الدهشة لأن مظهره ووضعه المزري هما أبعد ما يكونان عن اجتذاب إعجاب فتاة..
والمصيبة هي أنه كان معجبًا بها هو الآخر... وكان على استعداد تام لأن يقع - كالذبابة - في خيوط هواها العنكبوتية.. لولا....

* * *

"لا تروهن يا (أناندا).. لا تحدثوهن يا (أناندا).. وإذا تحدثت إليك واحدة منهن فلا تكترث لما تقول يا (أناندا)..!".

* * *

"لا يحق للـ (نافاراي) أن يتزوج حتى لا تسلبه ذريته إخلاصه وحكمته.. فهل حقًا تفهم مغبة ذلك؟".

* * *

نعم.. يفهم مغبة ذلك...
وستنظر له الفتاة تلك النظرة التي تخفي آلاف الكلمات فيها، وستحضر له كيزان الذرة المشوية خلف المخزن حين يجلس متأملًا الأفق.. وتقدم له كوزًا وتبدأ في التقاط الحبوب من كوزها.. وتقذفها برشاقة إلى فمها.. ثم تسأله متربعة على القش جواره..



وستحضر له كيزان الذرة المشوية خلف المخزن حين يجلس

متأملاً الأفق ..

- لماذا لا تأكل؟..

الكاف واللام ولهجة التساؤل.. إنها تسأله عن سر عدم أكله، لا داعي إذن لمقاومة حبات الذرة الساخنة.. يملأ فمه بها ويلوكها في صمت ناسيًا أن يمحو عمق المعاناة من على وجهه..

لحظات كهذه كانت لا تفوت الفتاة، عندئذ كانت - بغريزة الأنثى - تشعر أن هذا الفتى ليس معتوهًا.. بل هو يتظاهر بذلك..

إنها تثرثر.. تثرثر.. تثرثر... وحتى في ذلك اليوم الذي جرح ذراعه فيه، وقادته إلى ذلك المبنى الغريب كانت تثرثر، وكان هناك رجل يرتدي معطفًا أبيض ضمد له ذلك الذراع، أما هي فأخذت تشير إلى غرفة ما في الطابق العلوي وتحدثه عن (إبراهيم) أخيها.. حكاية طويلة لم يفهم مغزاها..

يبدو أن (إبراهيم) هذا كان مريضًا وأحضروه هنا يوما ما.

لم يكن كل هذا ذا أهمية..

بل - والأسوأ - كان مملًا ومبتذلًا إلى حد لا يوصف..

هل سينتهي الأمر بأفضل كهنة (النافاراي) إلى أن يعيش ويموت مجرد عبيط قرية آخر؟!

* * *

في تلك الليلة كان جالسًا في المخزن يتأمل حين سمع صرير الباب.. تجمد الدم في عروقه.. من هو القادم في هذه الساعة؟..

حتما هو ليس الخفير لأنه كف عن تفقد المخزن من زمن مطمئنًا لوجود الفتى..، وبالطبع ليست (سعدية) لأنها ليست من هذا الطراز.. ولا هو (إبراهيم) لأنه لم يفعلها قط..

إذن هو....

انفتح الباب اكثر.. وسمع صوت همس...

ثم إنه رأى عددًا من الرجال الملثمين ينسلون من الباب وهم يلهثون انفعالًا..

لقد توقع ما هو أسوأ من حفنة لصوص غلال، ولم يكن بيده ما يفعله سوى أن يقبع في مكانه يراقب ما يحدث..، فلا الغلال غلاله ولا هو سيد الموقف من فليأمل فقط ألا يراه هؤلاء الأوغاد.. ومن يدري؟.. قد تتاح له فرصة الاستعانة بأهل القرية فيما بعد..

كانوا يحملون مصابيح غريبة تضئ بلا نار.. وكانوا يتفقدون بها أرجاء المكان..، ثم.... أغشى الضوء عينيه، وعرف أنهم رأوه.. وعرف كذلك أن رؤيته أثارت رعبهم أكثر بمراحل مما أثاروا هم رعبه..

وسمعهم يهمسون بصوت مسموع..

ثم رأى أحدهم يهرع نحوه في جنون ملوحًا بنصل لامع في يده.. وسمعه يردد عبارة واحدة:

- ولا كلمة!!

الكاف واللام والميم.. واضح طبعًا أنه يأمره بالصمت وإلا ذبحوه.. ثم رأى أحدهم يضع يده على ذراع الأول مهدئًا من روعه:

- سيبه.. ده بتاع ربنا!

آه!.. إذن فهذا الرجل يعرفه ويعرف بلاهته المزعومة، ولهذا يردد عبارة (بتاع ربنا) المرادفة للفظة (أبله)...، إن الرجل ملثم لكن عينيه قد حفرتا للأبد في ذاكرة الكاهن.. وسيعرفه يومًا ما..

و كان الرجل الأول العدواني ما يزال يرمقه في شك... حين عاد الرجال يواصلون عملهم في حمل الأجولة خارج المخزن بحذر وسرعة، وقد آثروا ترك فتانا في سلام...

إلى هنا كان الموقف مبشرًا بالخير..

إلى اللحظة التي فوجي فيها الجميع بـ (سعدية) تقتحم المكان...، كانت الحمقاء - كما هو واضح - قد سمعت جلبة من المخزن، وبمنتهى الغباء نهضت وحيدة لترى ما هنالك.. أو لعلها توقعت أن الفتى هناك فلم تتوقع شرًا..

وقبل أن تفهم شيئًا وجدت نفسها بين المقتحمين، وفي ثوان وجدت نفسها مكممة الفم وقد لوي ذراعها خلف ظهرها..!

حاولت المقاومة ودارت عيناها سريعًا لتقعا على الأخرس جالسًا في تراخ - كالجوال الملقى - على الأرض..

عندئذ فهمت القصة سريعًا..

دارت مناقشة سريعة بين الرجال..، فهم الكاهن فحواها دون جهد.. فهؤلاء الرجال التعساء قد تورطوا في شاهدين على جريمة السرقة، ولئن كان أحدهما معتوهًا فالآخر عاقل ويتمتع بلسان طلق.. والمصيبة أن لثام أحد المقتحمين قد انزلق من على وجهه مما جعل الفتاة ترى وجهه كاملًا في ضوء الكشافات.. ومن الواضح أنها عرفته... وأنها ستتسبب في خراب بيته عند أول فرصة..

لم يكن الكاهن ليلومهم على قرارهم الذي هو القرار الوحيد الممكن.. ولو كان مكانهم لوجد نفسه مضطرًا إلى قتل الفتاة!، نعم.. لا حل سوى هذا.. ولو لم يكن في حبائلهم ولو لم يكونوا أوغادًا ولصوصًا لتمنى لهم التوفيق في قرارهم المصائب هذا..!

لكنه مضطر أن يتصدى لهم..

* * *

"لو أن لصًا هاجم دارك فلن يمنعه (التفادي) من سرقتك.. لن يمنعه من إيذاء أمك العجوز.. لن يمنعه من تمزيق كتب صلواتك وسكب زيت الموقد..".

* * *

كانوا منهمكين في النقاش حول مصير الفتاة حين سمعوا - ورأوا - أغرب شيء تصوروه..

حركوا مصابيحهم تجاه الفتى الابله ليروا ما يحدث هنالك..

كان يقف متحفزًا مباعدًا ساقيه مثبتًا قدميه على الأرض، ثم إنه رفع عقيرته بصيحة لم يعرفوا لها معنى:

- تشا سارايانا!!

ثم إنه مد ذراعيه المتصلبتين على أقصى امتداد لهما.. وصرخ:

- جوانغ سارايانا!!

وأرجع رأسه إلى الخلف ونفش صدره:

- كيو سارايانا!!

تبادلوا النظرات الحائرة.. ماذا دها هذا الأبله؟.. وأية لغة هذه؟ ألم يسمعوا أنه أخرس كالأسماك؟.. على أنهم فهموا شيئًا واحدًا..

أن هذا الفتى يحتشد لموقف عدواني، وبعبارة أخرى يريد ضربهم وقد غدا تأديبه حقًا عليهم..

لم يفهم هؤلاء الحمقى - أن الفتى قد قام بواجبه كاملًا، وأنذرهم بما لا يترك لهم عذرًا.. إنه سيبدأ الـ (سارايانا) وحذار من الـ (سارايانا) ثم إليكم بالـ (سارايانا) يا من لم تقرءوا الفصل الثالث..!

إن أحدًا لا يذكر ما حدث..

ثم إن الظلام ساد المكان إثر سقوط المصابيح من أيدي حامليها، لكن هذا الشيطان كان يرى في الظلام كالوطاويط..

كأن عشرة أقدام تطايرت في وجوه اللصوص في لحظة واحدة، ثم ارتطمت عشر قبضات في بطونهم..

لم يعد الفتى يرى رجالًا.. بل مئات من نقاط (الكارفا) الزرقاء - التي تسبب إصابتها فقدان الوعي - تلتمع في الظلام.. وكان عليه أن يصيبها جميعًا حتى لا يلومه الأخ (ميانج)...

نصل سكين هوى نحوه بسرعة الصوت، لكنه كان يملك سرعة الضوء.. فتمرغ أرضًا ثم رفع مشط قدمه ليركل حامل السكين في أسفل بطنه..، وسمعه يئن كالكلب الجريح.. وسمع - بأذن الخيال - الأخ (ميانج) يلومه:

- ليس الـ (شورا) أيتها الزهرة الزرقاء..!.. ليس الـ (شورا)!..

إنك تسببت في إصابته بالشلل وأنت لم ترد سوى إفقاده وعيه!

- اغفر لي أيها الأخ (ميانج)!

كان أحدهم يحاول الفرار...

من ثم وثب الكاهن الأخير على ذراعيه.. ودار في الهواء ليسقط أمام الرجل.. قال ذلك الأخير شيئًا ما.. ثم تلقى لطمة على جذور عنقه جعلته يهوي أرضًا كبالون مثقوب..

أحد المتحمسين ينقض عليه بفأس وجدها على الأرض..

تنحى الكاهن الأخير جانبًا تاركًا الرجل يندفع كالقطار المجنون في طريقه، ثم وضع ساقه في طريقه فهوي أرضًا..، وبسقوطه كشف عن فقراته العصعصية أكثر نقاط الـ (كارفا) ثراء ووفرة..، وهكذا يكفي سيف يد واحد على أية نقطة كي يجعله يغيب في نعاس لذيذ....

وهكذا انتهت المعركة...

لم تستغرق سوى ثلاث دقائق، لكنها خلفت فوضى لا توصف.. وجثث عشرة لصوص لم يصدقوا بعد أن ما حدث حقيقي...

كانت (سعدية) واقفة في موضعها بعد أن أطلق سجانها سراحها.. ليشارك في المجزرة وينال نصيبه منها...

لم تبدل وقفتها.. ولم تأت بحركة واحدة من بداية المعركة حتى نهايتها.. فقد ألجمها الذهول..

وكان صدرها يعلو ويهبط انفعالًا.. أما الفتى فقد وقف متصلبًا يرمق ضحاياه بضع ثوان..

ثم استرخى قليلًا.. وهتف بصوت عال:

- سوان هاتشاه (سارايانا)!

أي: لقد أنذرتكم أنني سأستعمل السارايانا، وفي العبارة التي تحتم تقاليد (النافاراي) عليه أن يقولها في نهاية القتال..، برغم أنه - في حالته هذه - لم يكن هناك مستمعون على الاطلاق..!

وفي تؤدة سار نحو الفتاة المتصلبة..، وربت على كتفها برقة.. وللمرة الأولى حاول أن ينطق عبارته العربية بفصاحة يحسد عليها:

- هم.. سيىء.. هم.. سيىء.. أنا أضرب سيئ..!

لم تكن هذه هي ذروة البلاغة في اللغة العربية.. لكن العبارة كانت مفهومة وواضحة.. لقد ضربهم لأنهم أشرار.. وعبارته الثانية كانت واضحة بالمثل:

- أنت.. سر.. أنت.. سر..

لم تجب الفتاة.. فقط رفعت عينيها إلى وجهه واتسعتا وارتجفت شفتاها...وفي حدة همست متسائلة:

- من انت؟!

* * *

٦ - افعل شيئًا يا دكتور!

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق.. عندئذ يبدأ فجر (النافاراي)..

* * *

لم تنتظر الفتاة لتفهم أكثر..

بادرت بالفرار إلى الدار حيث يغط أهلها في نومهم، ومئات التساؤلات تتصارع في ذهنها..

على حين وقف (الأخرس(وحيدًا في المخزن يتأمل - دون فخر - حصيلة عمله الباهر ملقاة على الأرض.. مهشمة الأطراف.. تئن..

كان يعرف أن اللصوص سيلملمون جراحهم ويرحلون، وسيصمتون تمامًا فلن يجرؤ أحدهم على إعلان ما حدث.. حتى التعس الذي أصيب بالشلل سيزعم أنه أصيب في أثناء عمله في الحقل.. ولن يتكلم أكثر..

لا مشكلة من هؤلاء..

المشكلة الحقيقية هي الفتاة الثرثارة التي لن تصمت دقيقة واحدة بعد هذه اللحظة.. وستسرد ما حدث على أبيها وأمها وصديقاتها وجيرانها.. وستحكيه للأبقار والماعز والأشجار العجوز..

عندئذ.. كيف يفسر..؟.. وكيف يشرح؟..

لقد كان مضطرًا إلى ما فعل.. لكن هذا الذي حدث قد أفسد مستقبله في هذه القرية للأبد.. وعليه الآن أن يجد قرية أخرى ويلفق قصة جديدة..

سار في تثاقل إلى الليل الصامت خارج المسكن.. وشرع يتأمل النجوم التي - كعادتها - كانت مختلفة وسمجة وأقل ودًا من نجوم وطنه..

- (نافاراي)..!

كذا همس وهو يوشك على البكاء...

- أنا بحاجة إليكم...

* * *

لم تنم (سعدية) في تلك الليلة..

قضت الوقت تتأمل السقف المدعم بالجذوع الخشبية، وتسترجع ذلك المشهد الدرامي الذي رأته منذ ساعات..

لم تصدق حتى هذه اللحظة مشهد قضاء هذا الفتى الناحل المهزول على عشرة لصوص.. عشرة فتوات إذا صح التعبير..

إن تفكيرها الذي كف عن النمو منذ رسبت في المدرسة الإعدادية لم يجد سوى تفسير واحد جاهز لكل ما رأته..

إن هذا الفتى هو.... بسم الله الرحمن الرحيم....

نعم.. لا تبرير سوى ذلك يفسر العثور عليه في المخزن فجأة.. وقضاءه على أولئك الأوغاد بطريقة قتال لم تر مثلها قط..، والعينين الضيقتين العجيبتين.. هي تعرف أن الجان في قصص الفلاحين تكون عيونهم مشقوقة بالطول.. لكن هل هناك ما يمنع أن يوجد جني شقت عيناه بالعرض؟!..

دعك من اللغة (العفاريتي) التي استخدمها قبل ضرب الرجال.. لسوء الحظ تلاشي أي إعجاب من روحها ليحل مكانه الهلع.. الهلع من هذا الشيء الذي يغفو على بعد أمتار من مضجع أسرتها.. ماذا تفعل؟..

لن تجرؤ على إخبار ذويها فلن يصدقوها.. وإن فعلوا فمن يضمن لها ألا يفعل بهم هذا الجني ما فعله باللصوص؟..

أفكار عديدة وهواجس شتي تصارعت في ذهنها حتى الصباح.. إلا أنها - مع شعاع الفجر الأول - كانت قد أزمعت أمرًا..

* * *

نسيت في غمار الأحداث أن أذكر لكم اسم هذه التي وقع عليها حظ الكاهن الأخير دون كل قرى الأرض..

اسمها هو.. (كفر بدر)..!!

هذا بالطبع.. إذا ما كنتم تذكرون الاسم.. ألا يذكركم اسم الفتى (إبراهيم السقا) بشيء ما؟.. إنه المراهق الذي أنقذته من براثن النداهة.. وتجارب د. (عاصم) المخبولة..، وبالطبع هو شقيق (سعدية)..

أسمع بعضكم يغمغمون أن المسألة (واسعة شوية)، فلهم أقول إن قراءتكم ما أكتب هي معاهدة ضمنية على أن تصدقوا ما تقرؤون وأن أصدق أنا فيما أكتب..، من غير العدل أن تصدقوني حين أحكي عن صراعي مع (العساس) أو وحش (لوخ نس).. ثم تأبون تصديقي حين أقول إن الصدفة جعلت الكاهن الأخير يظهر في قريتي...

لا خداع في الأمر..

لهذا كفوا عن إهانتي بترديد أنني مجرد نصاب آخر...

* * *

كانت الفتاة تذكر جيدًا دوري في إنقاذ أخيها من النداهة.. كما سمعت شيئًا عن هوايتي السخيفة في جمع الأشباح..، من ثم قررت في ذهنها أن د. (رفعت إسماعيل) هو رجل (يفهم في هذه الأشياء)..

وكانت قد رأتني البارحة أسير مع (طلعت) زوج أختي عائدين من صلاة العشاء في مسجد القرية..، وأثار ذهولها - تقول هي - ما بدا على وجهي من خطوط معاناة وتقدم في السن...

إلا أنني - تقول هي أيضًا - كنت أوحي بالثقة.. أو على حد قولها (ارتاحت لوجهي السمح)..

وهكذا...

عند العصر كنت أغفو في حجرتي على سريري الخشبي المتهالك، حين دخلت أمي - رحمها الله - لتقول لي إن (سعدية) بنت أبي (إبراهيم) تريدني..!

أثارت ذهولي هذه الجرأة الوقحة.. فلم تصارحني امرأة في حياتي بأنها تريدني برغم أنه لا بأس بي على الاطلاق، ثم عدت لصوابي فأدركت أنها تريد د. (رفعت) لا (رفعت).. والغالب أنها ستأخذ رأيي في أخيها (إبراهيم) الذي لا يأكل كما يجب.. أو يبول دمًا.. أو أي شيء من هذا القبيل..

نزلت متثاقلًا لأرى ما تريد، مشوش الذهن من أثر النعاس..

وعلى المصطبة التي في مدخل الدار جلسنا..

كانت مذعورة ولا ريب.. متوترة دون شك.. ترتجف ولا مراء..

- أغثني يا أستاذ (رفعت)!

- كلي آذان صاغية...

فأخذت بأنفاس مبهورة تحكي لي القصة منذ وجدت ذلك الفتى في المخزن وحتى حطم عظام الأوغاد العشرة..



فأخذت بأنفاس مبهورة تحكى لى القصة منذ وجدت ذلك الفتى فى المخزن وحتى حطم عظام الأوغاد العشرة ..

كانت القصة غريبة.. وأنا لم أعهد في (سعدية) حماقة ولا هستيريا على الأقل أكثر من أية فتاة في عمرها... ثم إن طريقة القتال التي تصفها لا تبدو مألوفة.. بل هي تذكرني بالرياضات العسكرية اليابانية إلى حد ما (في ذلك الوقت لم يكن مخلوق في مصر قد سمع عن الكاراتيه والكونغ فو)..

- والحل يا (سعدية)؟.. ما المطلوب مني؟

- أن تعرف حقيقة هذا الشيء!

- وهل أنا خبير عفاريت؟!

- يقولون كذلك وأكثر.. ألم تتصد للنداهة وأنقذت أخي؟

- بلى.. لكنها كانت نداهة مزيفة.. أعني نوعًا من...

اتسعت عيناها وتجمدت فيهما دمعتان.. لم يكن ثمة مجال للإفلات.. قلت متنهدًا:

- حسن.. كيف أراه؟

* * *

في المساء أحضرته لي..

كنت جالسًا عند مدخل الدار أحسو كوبًا من الشاي مرتديًا الجلباب - على سبيل العودة للجذور - حين رأيت خيال الفتاة.. يسير جوارها في استسلام شاب رث الثياب مشوش الهيئة مغبرها...

من النظرة الأولى أدركت أنه ليس أبله أبدًا..

ومن النظرة الثانية أدركت أنه غير مصاب بالعته المنغولي الذي فهمت من الفتاة أنه مصاب به.. لا توجد علامات أخرى من أي نوع مثل اللسان المتدلي المشقق وعنق أبو الهول والجمجمة الهرمية وثنية القرود في كفه.. إلى آخر ما جف ريق أساتذتنا وهم يعلمونه لنا..

إن هذا الذي أراه هو - ببساطة - رجل آسيوي..!.. لا تسلني كيف ولا من أين جاء..

أما النظرة الثالثة فأدركت منها أنه قوي كالنمر.. برغم نحوله الملحوظ كانت عضلاته تامة الاكتمال يمكنك عد أليافها واحدة واحدة.. هو قوي كالنمر.. خفيف الحركة كالنمر.. متوتر دائمًا كالنمر..

قالت لي النظرة الرابعة إنه حزين كالغروب..كالخريف..

أما النظرة الخامسة فأكدت لي أنه يداري سرًا هائلًا بين ضلوعه.وأدركت من النظرة السادسة أنني سأثير توتره أكثر بكل هذه النظرات والامتحان البصري الذي عقدته له!!

لهذا ابتسمت وأشرت له كي يدخل الدار..

- شاي يا حاجة..

ناديت أمي وأنا أقود الفتى عبر الدرجات الترابية إلى حجرتي، ثم أومأت للفتاة برأسي أنه يمكنها الانصراف..

أجلست الفتى على الكنبة وجلست جواره محاولًا أن أبدو ودودًا غير عصبي..، إلا أنه كان متوترًا تمامًا.. وأدركت من اختلاج عضلات فكيه أنه سيثب في أية لحظة ليفر أو يوسعني علقة ساخنة...

- سيجارة؟.
-.....
بالطبع لم يأخذ السيجارة ولم يرد..، وجلبت أمي الشاي وهي ترمق الموقف في حيرة فشكرتها.. وقدمت الكوب للفتى فأمسكه بكفه دون أن يشرب.. إن هذا لغريب.. كوب الشاي يتوهج بلهيب الموقد فلا يسعك سوى أن تلمسه بضع ثوان ومن حافته.. أما هو فيمسكه بكل ارتياح وامتلاك، تلك الموهبة التي لا يملكها سوى مرضى الأعصاب الطرفية أو ذوي التحمل الفائق.
ظللنا وحيدين بضع ثوان..
ثم قررت أن أبدأ....
بدأت أسأله عن نفسه فلم يبد عليه أي اهتمام..، لكنني أدركت أن استقباله لأسئلتي هو أقرب لاستقبال اللص لأسئلة المحقق الذي يبغي معرفة باقي أفراد العصابة!.. هو يفهم كلامي لكنه لا يريد الإجابة..
سألته بالإنجليزية.. بالفرنسية.. فلم يبد أي رد فعل إيجابي..
أدركت أننا سنظل ها هنا حتى تقوم الساعة ما لم أجد فكرة أفضل، وهنا تذكرت أن عندي أعدادًا من مجلة (لايف) أحضرتها معي من المدينة.. وكانت إحداها تحوي مقالًا سخيفًا ومستفزًا عن زيارة أعضاء فريق (الخنافس) للتبت، وانبهارهم بالفلسفات البوذية.. المهم أن المقال كان حافلًا بصور الأديرة وتماثيل بوذا والرهبان صلع الرءوس في ثيابهم الصفراء.. (إن من يذكرون أواخر الستينات يذكرون مشاكل حرب فيتنام وشعارات الهيبيز وموضة الاهتمام بالبوذية وشعار هاري كريشنا هاري راما)..
لم يخب ظني..!
لقد أثارت هذه الصور شغف الفتى.. وبدا منبهرًا إلى حد لا يوصف وإن حاول عدم إظهار حماسه..، وبعصبية وضع كوب الشاي على الأرض..
عيناه تتسعان في شوق ولهفة.. ثم ينظر لي وللمجلة..
- يمكنك أن تأخذها!
ناولته إياها وأنا أكاد أبكي حسرة على ثمنها.. وقلت لنفسي إنه لو كان هناك الكثيرون من أمثال هذا الآسيوي المشتاق لـ (بوذا) فإن خراب بيتي قريب!..
تصفح الصور في ذهول ويداه ترتجفان.. وبرغمه كان يردد كلمات بلغة لا أعرفها..
ثم إنه أشار لي وللمجلة مدمدمًا مرات عديدة:
- أنت.. أنت.. ماهايانا!
أشعلت سيجارة.. وتنهدت في صبر:
- لحظة يا بني.. ولو كنت تعني أنني ذهبت هناك فأنا لم أفعل!
- ماهايانا..
- لا أفهم هذه الكلمة.. ولكن.. لنقل إنني الآن متأكد من أنك بوذي..
بدا عليه عدم الفهم.. عينان زائغتان ترمقانني في حماقة.. من ثم أشرت بإصبعي إلى المجلة.. إلى صورة (بوذا) المتربع في جلسته الشهيرة على عرش اللوتس.. وهتفت:
- (بوذي) يا غبي.. مثل هذا.. هذا.. (بوذا)..
بدا عليه الامتعاض حين فهم.. وأشار إلى نفسه في عصبية:

- أنا.. لا.. لا.. أنا.. (نافاراي)..!

- (نافاراي)؟.. هل هي ديانة جديدة لا أعرفها؟.. إن أديانكم الآسيوية هذه يا بنى تحتاج إلى عقل أصغر من عقلي بعشرين عامًا كي يتذكر أسماءها...

يبدو أن لسان الفتى قد انفك من عقاله.. إن الصورة التي رآها قد أذابت الجليد نهائيًا فيما بيننا.. والغريب أن كل هذا يؤكد أنه آسيوي.. ولكن كيف؟ ولماذا هذه القرية بالذات؟..

- والآن.. حان الوقت كي أفهم...

سألته في حزم.. فكانت النتيجة مباغتة..، رأيته ينهض وقد أدرك أنه قدم لي أكثر مما ينبغي..

- أنصرف.. أنا

- و.. لكن.. أنا لم افهم بعد...

لم يعطني فرصة للمزيد من الكلام لأنه طوى المجلة في قبضته.. واتجه للباب..، حاولت أن أمسك بكتفه لكنه

تملص ببراعة كالحنكليس - الذي لا أدري ما هو بالضبط - واندفع خارجًا تاركًا إياي واقفًا كالحمقى في وسط الغرفة....

سيكون التفاهم مع هذا الفتى أعقد مما تصورت..

لكني لم أكن على علم بما سيحدث...

* * *

٧ - إنه هنا!..

فيما بعد علمت أن (الأخرس) عاد أدراجه إلى دار (السقا) تحت أستار الظلام، كان حائرًا تائهًا في دهاليز هواجسه وأفكاره...

لقد بلبلت الصور التي أريتها له أية خطط مستقبلية لديه، فهو واثق الآن من أن عالمه موجود ولم يتبدل كثيرًا.. نفس الثلوج ونفس الرهبان وذات الأديرة.. كأنه لم يبرحه قط..

ولكن.. كيف يصل إلى هناك؟.. ما هي علاقته الجغرافية في هذه الأرض بعالمه القديم..؟.. من هو ذلك الرجل الأصلع النحيل الذي أراه الصور؟.. ولماذا قادته الفتاة إليه؟.. إن أسلوب تعاملها يوحي بأن هذا الرجل ذا المنظار (يفهم في هذه الأمور).. ولكن أية أمور هي؟.. هل هو يفهم في الـ (نافاراي) مثلًا؟.. ولكنه بالتأكيد لم يسمع عنهم.. واضح فقط أنه يعرف شيئًا عن البوذيين..

والأهم - والأغرب - هو هذه الطريقة العجيبة في حبس الحياة على الورق.. فلم يكن الفتى قد رأى صورة فوتوغرافية في حياته..!

* * *

كانت العاشرة مساء حين دلف إلى المخزن..

وكانت الفئران - صديقته - تتواثب هنا وهناك.. حين نزع جلبابه وتأهب ليبدأ تدريبات المساء....

وهنا شعر بشيء غير عادي..

ثمة شيء على غير ما يرام في المكان..

انحنى على الأرض يتفحصها في توتر باحثًا عن شيء يبرر ما يشعر به من نذير غامض..، وبإصبعين التقط الشيء الذي أثار ريبته.. الشيء الذي لم يتوقع أن يراه قط.. الشيء الذي يعني أن قدره كامن في مكان قريب ينتظر..

هذا الشيء هو قرط صغير ملقى وسط حبيبات الذرة..

ولم يكن قرطه..!

هو يعرف جيدًا هذا القرط ويعرف صاحبه..

أما الأسوأ فخصلة من الشعر الأسود الأملس ملقاة في إهمال على بعد خطوات..

طبعًا لا داعي للتساؤل عن مغزي هذا....

لقد دفن هو مخلفاته بعناية وها هو ذا موضعها كما هو لم يمسه أحد.. ولم تنبشه الفئران..

إن هذه الأشياء تخص واحدًا بعينه..

واحدًا جاء باحثًا عنه عبر الأزمان والمسافات..

واحدًا عرف أنه هنا.. وعرف كيف يتخفى مثله.. وهذا الواحد قد وصل لهذا المكان منذ ساعات بينما كان جالسًا مع الرجل الأصلع ذي المنظار..

إنه (جينغ - تشا) دون أدنى شك..!

لقد نسي الكاهن الأخير الورقة التي تتحدث عن طريقة (شانكين) لأنه انتزعها من كتاب الـ (شوكارا) إذ حاول الهرب.. ولقد وجدها (جينغ - تشا) ومن معه، وأدركوا أن هذا هو الطريق الذي فر منه، وأدركوا أن كتاب الـ (شوكارا) الثمين معه..

من السهل إذن أن تتخيل ما حدث.. لقد عكفوا شهورًا على دراسة الـ (شانكين) حتى توصل (جينغ - تشا) - وربما آخرون - إلى السفر عبر الأثير لاحقين به، ومن المؤسف هنا أن هذه الطريقة اللعينة لا تقود إلا إلى مكان وزمان واحد كما يبدو.. وهم يأملون أن يجدوا طريقًا ما للعودة بعد أن ينتهوا منه..

للمرة الأولى تحرك في أعماقه - وأحشائه - شعور جديد من نوعه لم يخبره من قبل.. الرعب!...

إن (جينغ - تشا) ليس بالخصم السهل..

هو يعرف كل أسرار الـ (نافاراي) تقريبًا.. وهو أستاذ في التفادي وبالطبع لديه خبرة لا بأس بها بالقتال الإيجابي (سارايانا).. الأسوأ هو أنه ترعرع مع الكاهن الأخير ويفهم جيدًا كيف يفكر وكيف يحلم وكيف يتصرف..

لن يسهل عليهم أخذ شيء من الكاهن الأخير وهم يعلمون ذلك.. لكن هب انهم عذبوا أفراد هذه الأسرة الطيبة لإجباره على الكلام.. هذه الأسرة التي لا ذنب لها سوى أنها آوته..

هو لا يتحمل رؤية أعواد بامبو مدببة تحت أظفار (سعدية)، أو ثعبان يلتف حول عنق أبيها..

إن للـ (ماهايانا) أساليب تعذيب عبقرية تعلموها من الصينيين.. عندئذ لن يجد مفرًا من الكلام.. بل الثرثرة.. ويوم يحصلون على الكتاب.. من يدري ما سيحدث بعدها؟

المصيبة الحقيقية هي أن (جينغ - تشا) قد أخذ أهبته للتخفي والذوبان وسط أهالي القرية كما فعل (هن - تشو - كان)..

لهذا يتحتم أن يغادر القرية أو على الأقل يعرف مكان هذا الشيطان..

ولكن كيف؟..

من السهل أن تبحث عن وافد جديد على القرية.. وافد يتظاهر بالخرس وملامحه آسيوية.. هذا سهل.. سهل لو كنت تتكلم العربية!..

قل لي بربك كيف تسأل حمقاء مثل (سعدية) عن شخص له هذه الصفات مستعملًا لغة الإيماءات؟!..

إن الأمر مستحيل أو هو أقرب ما يكون إلى الاستحالة..

وهنا بدأ (هن.. تشو. كان) يفكر في شخصي المتواضع..

إن شيئًا ما في ذلك الأحمق ذي المنظار يوحي بالثقة.. إن عينيه صادقتان فيهما شيء من الذكاء.. ثم هو - قبل كل شيء - يعرف (التبت) ويعرف رهبان الـ (ماهايانا).. وربما أكثر..

فلماذا لا تحاول مصارحته..؟

ولماذا لا تجرب طلب عونه..؟

ولماذا لا تلقي بعبء السر الذي يثقل كاهلك بعض الوقت؟

* * *

ولهذا - في الصباح الباكر - أخبرتني أمي أن المعتوه الذي زارني ليلة أمس قد عاد يبغي مقابلتي..

- وهل (سعدية) معه؟

- لا يا بني.. يبدو أن هذا الأبله قد أعجب بك!

- إن كل بلهاء العالم يحبونني يا أماه ولا أدري سبب ذلك!

ابتسمت في رقة وإن لم تفهم دعابتي تمامًا..

ثم إنها خرجت من الحجرة.. ويعد ثوان لمحت وجه الفتى المغلق إذ دلف من الباب وخطوته مليئة بالتردد والحيرة..

جلس - كما طلبت منه - على الكنبة الخشبية.. وشرع يعابث طرف القماش الرخيص الذي يغطيها باحثًا عن بداية مناسبة لما ينوي أن يخبرني به..

بضع دقائق.. ثم همس بصوت غليظ:

- (جينغ - تشا)!

- من؟

- (جينغ - تشا).. هنا!.

تنحنحت وأشعلت سيجارة ومضيت أجوب الغرفة جيئة وذهابًا.. وأنا أغمغم كمن يحدث نفسه:

- اسمعني يا بني.. لربما أبدو حكيمًا.. ولربما يوحى منظاري السميك بعلم لا أملكه.. أنا أعترف أنني أبدو أذكى مما أنا عليه.. ولكن...

وصرخت في غل مشيرًا نحوه بطرف السيجارة:

-.. إذا ظننت أن علمي يصل إلى حد فهم ما تقول.. ومعرفة هذا الـ (جينغ - تشا) وما إذا كان اسمًا أو فعلًا.. فأنت مخطئ!

لم يتحرك.. ولم تختلج عضلة في وجهه..

امتصصت عقب السيجارة في جشع.. وقلت بعد أن هدأت نوعًا:

- أنا أمقت من يحدثونني وكأنني على علم بكل شيء.. أرجو أن تتحدث بشيء من التفصيل.. ومن بداية القصة..

لعق شفتيه بطرف لسانه.. وبدأ يتكلم..

وكانت هذه هي البداية..

بداية دوري أنا..

* * *

استغرق الحديث نهارًا كاملًا.. وكان أعجب حوار يمكن أن يدور بين رجلين..

لك أن تتخيل ذلك المزيج العجيب من العربية الرديئة والإيماءات - التي تصل أحيانًا إلى الوثب عبر الغرفة - والإشارات ورسم الأشكال التوضيحية على (بلوك نوت) قديم بقلمي..

فهو - مثلًا - لم يكن قادرًا على شرح معنى كلمة (نمر) لي.. فكان يكشر عن أنيابه ويزأر.. من ثم كنت أرسم له أسدًا كروكيًا وأسأله:

- كهذا؟

فيهز رأسه أن لا.. من ثم أرسم له كلبًا.. وتمساحًا.. ونمرًا حتى أدرك أنه يعني الأخير..

وكنت أنا أيضًا أزداد خبرة بمفردات لغته.. لكن بعض الألفاظ كانت عقبة حقيقية.. فمثلًا (الكاهن الأعظم) لم يستطع هو التعبير عنها ولم أستطع أنا فهمها.. إلى أن مد يده إلى صدر الجلباب وأخرج المجلة إياها وفتحها على صورة أحد رهبان التبت.. وفتح ذراعيه ليوحي لي بمعنى (كبير.. كبير جدًا)..



إلى أن مد يده إلى صدر الجلباب وأخرج المجلة إياها وفتحها على صوره أحد رهبان التبت ..

وهكذا فهمت أنه يعنى (الراهب الأكبر) أو (الكاهن الأعظم).. وحرصت على أن أتذكر الكلمة: (ساكاسورانا) حتى لا نعود لذات المشكلة مرة أخرى.. (ساكاسورانا).. (ساكاسورانا).. أدعو الله ألا أنساها..!

وحين تحدث عن نفسه باعتباره (ناجا سورانا) أدركت أن (سورانا) معناها (راهب) أو (كاهن) أما (ساكا) فمعناها (أعظم).. إذن فما معنى (ناجا)؟..

فهمت المعنى حين أشار لنفسه مرارًا مؤكدًا:

- بعد لا..!.. بعد لا!

- تعني أنك الأخير..؟

- نعم.. نعم.. أخير...

إذن (ناجا) معناها: الأخير.. وهذا الفتى هو آخر (سورانا) على وجه الأرض.. أي أنه - بالفعل - هو الكاهن الأخير..

وهكذا.. بدأ جدار عدم الفهم يتهاوى..

أية لذة ونشوة غمرتني وأنا أرتاد هذا العالم البكر..! عالمًا لم أتخيل حتى وجوده.. وسنوات نضرة خضراء من المعرفة تضاف لعمري أنا الذي طويت الأميال والأزمان إلى أرض باردة تغطيها الثلوج.. ويحلق فيها الرهبان فوق الأرض..

إن الفتى لا يكذب..

فالصدق يشع من عينيه وصوته وخلجات يديه..

لكني لا أصدق حرفًا..!.. وهذه مشكلتي وحدي..

إنها معادلة صعبة جوابها الوحيد أن يكون الفتى مخبولًا.. أي أنه يخرف لكنه يؤمن تمامًا بهذا الخرف...

لكن الفتى عاقل تمامًا..

حدسي يخبرني بذلك.. وخبرتي الطبية التي - وإن شككت فيها - لن تعجز عن معرفة الجنون حين تراه..

يبقى إذن احتمال واحد..

أن يكون هذا الفتى عاقلًا وصادقًا معًا..

وعندئذ.. يكون (النافاراي) حقيقة لا غبار عليها...

* * *

٨ - الهرب..

حكى لي (هن. تشو. كان) - أو (الأخرس) أو (الزهرة الزرقاء) أو (الكاهن الأخير) - كل شيء عن عقيدتهم.. كما حكى لي ما عرفته أنت في الفصول السابقة..

وسأحاول هنا أن ألخص ما قاله بألفاظي أنا.. فلم يعد داع لأن أغرقك في تفاصيل الحوار الركيك الذي شربته وحدي حتى الثمالة..

قال لي الفتى إن (النافاراي) - مثلها مثل البوذية - ليست ديانة.. بل هي فلسفة للتأقلم مع الحياة[5].

وقال لي إنها انفصلت عن البوذية بعد ما سئم مؤسسها (شيان - قه) من كل تلك السلبية والانفصالية التي تتعامل بها البوذية مع العالم...

إلا أنها ظلت أمينة على الكثير من فلسفات (بوذا)..

كان (بوذا) هو النبيل (سيدهارتا جوتاما) من (نيبال) الذي دربه نساك (البراهمانا) على التقشف..، إلا أن الفتى ظل ظامئًا إلى شيء لا يدري كنهه.. ظل ظامئًا إلى الحكمة وفهم الكون...

وفي (بودجايا) شمال الهند ساقته قدماه إلى شجرة، جلس يتفيأ في ظلها ويتأمل..، ويقال أنه فهم كل شيء في جلسته تلك..

وبعد أيام خرج يخبر الناس أنه وصل إلى الحقيقة..

فما هي هذه الحقيقة؟..

قال (جوتاما) إن هناك أربع حقائق تحكم البشر.. هذه الحقائق هي المعاناة، والرغبة في شيء ما تولد هذه المعاناة، لهذا يجب إطفاء الرغبة في هذا الشيء..، ويجب على المرء أن يتعلم كيف يطفئ رغبته هذه....

ولإطفاء الرغبة في كل شيء وضع (جوتاما) مبادئه المتمثلة في العجلة الثمانية التي يقدسها البوذيون، والتي يمكن تلخيصها في ثلاث نقاط:

١- سيلا: أي السلوك الخلقي.. لا تسرق.. لا تقتل.. لا تكذب.. الخ..

٢ - سمادهي: يجب أن تتعلم التأمل والتركيز.

٣- براجنا: أي الحكمة.. يجب أن يدرك المرء أن كل شيء وهم.. حلم..

من الصعب فهم هذه الفلسفة.. ومن المستحيل تطبيقها..

لكن البوذية انتشرت في آسيا إلى حد كبير.. ومنها نشأ فرعان أساسيان هما:

١. الهينايانا (الناقلة الصغيرة) وهي منتشرة في سيلان وبورما وسيام ولاوس وكمبوديا، ويرتدي رهبانها الثياب الصفراء ويحلقون رءوسهم تمامًا.

٢ - الماهايانا (الناقلة الكبيرة) وقد سبق لنا الحديث عنها..

ويرى البوذيون أن العمل (كارما) يؤدي لنتائج بعضها ضار، لهذا يحاولون الوصول لحالة الانطفاء الدائم التي تلغى نتائج الـ (كارما) وذلك عن طريق التأمل المستمر.

ويسمون حالة الانطفاء الدائم باسم (نرفانا).

وهي اللحظة التي تتلاشى فيها علاقة المرء بما حوله، ويكتمل استغناؤه عن الحياة المادية.

وجاءت الـ (نافاراي) لتلغي أكثر هذه المعتقدات..
وكما قلنا سابقًا تعتمد فلسفة الـ (نافاراي) على تفادي الأذى والتسامح إلى أقصى حد ممكن، لكن إذا زاد الأذى عن حده كان الرد.. الرد القاسي المرير الذي يدمر الخطر تمامًا..
ويرتدي الـ (نافاراي) ثيابًا زرقاء ويعقصون شعورهم خلف ظهورهم ويعلقون قرطًا في آذانهم..، كما أنهم لا يرفضون منتجات الألبان على عكس البوذيين المخلصين... إن سيطرة الروح على الجسد هي جوهر فلسفة الـ (نافاراي)...
وهم يؤمنون أن البوذيين نصابون.. في حين يؤمن البوذيون أن الـ (نافاراي) أوغاد..، ويؤكدون أن كتاب الـ (شوكارا) مسروق منهم لأنهم هم الأصل في كل هذا الهراء..
وأخيرًا.. لا يعرف بوجود الـ (نافاراي) سوى عدد محدود جدًا من أهل (التبت) لانهم متحفظون.. وأسرارهم لا تخرج للعالم الخارجي أبدًا..
لهذا - أرجوكم - ليبق هذا الكلام سرًا خاصًا فيما بيننا..!

* * *

وفي النهاية علمت ما كان من موضوع (جينغ - تشا) الوافد الجديد على القرية، وعلمت أن سر اطلاعي على كل هذا هو معرفة ما يمكن أن أسهم به في العثور عليه.. فأنا أتكلم العربية وأنا ابن القرية وأعرف ما ينبغي عمله لإيجاد (نافاراي) ضائع..!
أدركت دون جهد أن (هن - تشو – كان) يخشى (جينغ تشا) كالموت ذاته، وأدركت كذلك أن كارثة دانية قد لاحت في أفق حياتي..
سألته وأنا لا أتوقع إجابة:
- وأين أخفيت الكتاب؟
لا إجابة بالفعل.. هو يثق بي لكن ليس إلى هذا الحد..
فليكن..
وبعد أن غادرني الفتى عائدًا إلى عمله، ودعت أمي وركبت سيارتي متجهًا إلى المركز.. كان الغروب يزحف على القرية حين قابلت المأمور، الذي تربطني به علاقة حميمة بعد قصة النداهة إياها..
فما إن رآني حتى احتقن وجهه وتطاير اللعاب من فيه وشرع يصرخ في جنون كأنه يموت:
- أخيرًا!.. هيه أيها العجوز!... تذكرت أصدقاءك!.. هاه!
ظللت واقفًا في هلع منتظرًا حتى تنتهي (عاصفة) مرحه وترحيبه.. وأنا أتساءل في سري: لماذا يصرخ هذا الرجل؟!..
وما إن هدأ حتى جلس منهكًا يلهث وطلب لي شايًا.. ثم سألني عن الريح الطيبة التي ألقت بي هاهنا.. فقلت وأنا أناوله لفافة تبغ:
- أبحث - لأسباب يطول شرحها - عن غريب ظهر في القرية أمس..
هرش رأسه في حيرة.. ثم غمغم:
- مطلب غريب لكن يسهل التحقق منه.. يكفي إرسال الخفراء في جولة سريعة.. ولكن لمه؟
- سيطول شرح أسبابي كما قلت.. ولا تنس أنك مدين لي بخدمة..

- هذا مطلب عادل...
وهكذا...
حين عدت لداري كنت واثقا أن غريبًا لم يزر القرية أمس.. أو - بمعنى أدق - لم يره أحد بعد..
هذا يعني أن (هن - تشو - كان) واهم أو كاذب.. أو أن (جينغ - تشا) أجاد الاختفاء في هذا البلد، فحتى عمال الترحيلة كانوا معروفين لدى مقاولي الأنفار ومن العسير أن يندس أحدهم بين صفوف هؤلاء العمال..
والسؤال هنا هو..
هل هو يبحث عن الكاهن الأخير أم هو يعرف مكانه وينتظر؟
عندئذ - لو صح كل هذا السخف يكون (هن - تشو - كان) في مأزق حقيقي، والموت يترصده في كل لحظة..
ولكن.. ما شأني أنا بمشاحنات كهنة (النافاراي) من أجل كتاب عمره عشرة قرون؟.. إنني - والحق يقال - إنسان غريب.. غريب.

* * *

إلا أن تلك الليلة كانت أسود ليالي حياتي..
طيلة الوقت يدور شريط المحادثة في ذهني، وأسمع أصواتًا وأرى وجوهًا.. وثمة شعور عارم بضرورة أن أقحم نفسي في هذه القصة..
وحين صاح الديك - أخيرًا - كنت قد أزمعت أمرًا..
إلا أنني حين جلست لألتهم الفطور الذي أعدته لي أمي فوجئت بالفتى آتيًا لزيارتي، وكانت نظرة أمي إليه غنية عن كل كلام.. ألن يتركنا هذا المعتوه وشأننا؟!
أزحت طبق البيض المقلي تجاهه.. وقلت باسمًا:
- هيا يا (هن - تشو - كان).. بسم الله!
إلا أنه لم يبد استجابة.. كان واضحًا أنه قضى ليلة أسود من قلب الكافر، أعصابه منهارة تمامًا.. والإرهاق على كل تجاعيد وجهه التي تضاعفت خلال ساعات.. فقط دمدم بعصبية:
- (جينغ - تشا)!
- لم اجده...
- هو.. هنا..
التهمت لقمة كبيرة ولعقت شفتي التي لوثها صفار البيض.. وقلت:
- أعرف.. لكنهم لم يجدوه..
عض شفته السفلي في حنق:
- هذا.... خطر...
أنهيت طعامي.. ثم بدأت أطرح عليه الفكرة التي ولدت عندي بعد الليلة الفظيعة التي مرت بي..
لماذا لا يهرب؟..
إن القاهرة كبيرة - حتى في ذلك الزمن - ويستطيع فيل كامل أن يذوب فيها فلا يجده أحد، إذن لماذا لا ينزح للقاهرة؟

ولماذا لا يعيش عندي في شقتي حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولًا؟

ولماذا لا يحاول العودة للتبت؟.. أنا لا أعرف إذا ما كانت هناك سفارة للتبت في مصر ولا أعرف كيفية استخراج تأشيرة للذهاب إلى هناك.. لكني - على الأقل - أستطيع شحنه إلى (نيبال) أو (الهند) أو (الصين) حيث يكون على مسافة (فركة كعب) من وطنه..!

هو لن يكلفني شيئًا - خاصة وهو لا يأكل اللحوم - وسيسليني إلى حد بعيد في وحدتي، وسيطرد الأشباح من غرفة نومي، ولربما نجحت في إقناعه بتنظيف المنزل والطهي مقابل إقامته!..

واستغرق الأمر وقتًا لا بأس به لإقناعه.. فقد كان ضائعًا تمامًا ولا يدري ما هو الصواب.. لكنه في النهاية وافق..

ثم إنني ذهبت إلى (السقا) فأخبرته بما انتويه.. طبعًا قلت له إن حالة الفتى تهمني طبيًا وسأقوم بعرضها على زملائي في كلية الطب، وأفهمت (سعدية) أن الفتى ليس شيطانًا بل هو مصاب بمرض من نوع نادر يجعله يتصرف بأساليب عجيبة..

في نفس الوقت تسلل الفتى إلى المخزن فحفر الأرض واستعاد كتابه الثمين ثم أعاد ردم الحفرة، وخرج إلينا ليودع - بفتور واضح - الأسرة التي استضافته في هذا الزمن..

لم يكن الفراق مؤثرًا لأن (سعدية) لم تعد تميل إليه بل هي تخشاه كثيرًا في الواقع..

ولهذا - وحين ركب الفتى السيارة جواري - بدا لي أن صفحة القرية قد أغلقت نهائيًا في كتاب حياته..

كان متوترًا راغبًا في الفرار...

وقد أنساه التوتر أن يندهش...

فقد كانت هذه هي أول سيارة يركبها في حياته..!

وطيلة الطريق المرهق إلى القاهرة لم ينبس ببنت شفة، حتى أدركت أنني قارفت خطأً جسيمًا بقبولي اصطحاب هذا الصنم إلى داري.. ولو كنت بالذكاء الكافي لاقتنيت قطًا أو كلبًا.. لكننا لا نملك أن نختار أخطاءنا!

* * *

على أن حياتي لم تكن مملة إلى هذا الحد مع (هن - تشو - كان) ففي الساعة الواحدة من صباح ذلك اليوم صحوت من النوم على صوت جلبة آتية من غرفة المكتب في شقتي.. وكنت أعلم أن الفتى يغفو هناك على حشية فرشتها له على الأرض، لأنه لم يعتد نوم الأسرة.. وكانت هذه هي ليلته الأولى في داري.. لهذا أضأت الأنوار وهرعت إلى هناك.. فوجدته واقفًا على الأريكة متخذًا وضعًا متحفزًا للقتال وهو يحرك ذراعيه حركات سريعة عصبية لا داعي لها أبدًا..

يا لك من معتوه..!!



فوجدته واقفًا على الأريكة متخذًا وضعًا متحفزًا للقتال وهو يحرك
ذراعيه حركات سريعة عصبية لا داعى لها أبدًا ..

- هل جننت أخيرًا؟!
كذا صرخت فيه بعصبية والنعاس لم يبرح جفنيّ بعد..
- تدريب.. أنا.. قتال!
- وهل التدريب لا يحلو لك إلا فجرًا؟!
لوح بذراعه في الهواء.. وهتف:
- (نافاراي).. ليل..!
بدأت أفهم.. فهؤلاء القوم مصممون على مخالفة الطبيعة البشرية في كل شيء، وهم لا يجدون وقتًا أفضل للتدريب سوى حين ينام خلق الله من معدومي اللياقة البدنية مثلي..
ولكن.. من يشرح هذا للجيران؟..
وهكذا اتخذت الإجراء الوحيد الممكن.. أحضرت له قميصًا وبنطالًا من ثيابي وجعلته يرتديهما.. وكان القياس واحدًا تقريبًا، ثم أنني جررته من يده وأغلقت باب الشقة صاعدًا إلى سطح البناية...
كان السطح خاليًا سوى من بقايا قرميد مهشمة.. وبعض أكوام الرمل، وكان كل هذا يتلألأ في ضوء القمر الفضي البارد.. ولما لم يكن هناك من يرانا سوى خالقنا؛ جلست على قالبين من القرميد وأشعلت سيجارة، ثم لوحت بذراعي في الهواء طالبًا منه أن يستمر..
- هيا.. أرني كيف تتدرب..
بدا عليه الرضا لشعوره بالهواء الطلق.. وبدأ يتنفس بعمق.. ثم أنه انتزع القميص ليقف عاري الجذع كاشفًا عن أجمل - وإن لم يكن أضخم - تكوين عضلي رأيته في حياتي.. كل عضلاته مرسومة محددة كأنما في أطلس تشريح ملون..، وعلى ظهره رأيت وشمًا لتنين مجنح..
وبين دخان التبغ لمحته يأتي بحركات تمهيدية بطيئة.. ثم بدأ يتحرك.. يثب.. يتراجع.. يهجم.. يضرب خصومًا وهميين ويتفادى ضرباتهم.. يتقلب على الأرض..
وسقطت لفافة التبغ من أناملي دون أن أشعر..
إن هذا الذي أراه ليس حقيقيًا.. لا يمكن أن يكون هناك توازن عضلي بهذه الدقة والرشاقة.. لا يمكن أن يكون هذا الجسد من لحم ودم...

* * *

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق.. عندئذ يبدأ فجر الـ (نافاراي).

* * *

كان الكاهن الأخير يطير في الهواء.. يسقط على ذراعيه.. يتقلب.. يرفع وجهه نحو قرص القمر..
لم يعد هناك وكذا أنا.. لقد ذاب تمامًا.. تلاشى في ذلك السر الذي يحكم قوانين الكون ودوران الذرات وهجرات الطيور..
امتزج بالنجوم والليل والقمر حتى غدا جزءًا منها..

كنت أرمق في انبهار (السيلويت) الأنيق المميز له يتحرك أمام قرص البدر المكتمل، فأدركت أن هذا المشهد هو الوحيد الجدير بأن يوضع أمام هذه الخلفية الكونية الخالدة..

ثم كان يدور فتلتمع قسماته وعضلاته في الضوء الفضي الخافت، ولم يكن يشعر بوجودي.. بل - أراهنكم - لم يكن يشعر بوجوده هو نفسه...

عندئذ.. وعندئذ فقط.. أدركت أن هذا الفتى صادق في كل حرف قاله لي.. لقد كان إنسانًا مختلفًا تمامًا عن الآخرين..

لقد كان زهرة زرقاء..

* * *

في الصباح الباكر أزمعت أن أريه القاهرة..

مدينتي الجميلة العجوز المنهكة تتمطى تحت شمس الصباح في كسل..، ومعه نخترق الدروب..

كان مندهشًا من كل شيء.. سأل عن كل مكان.. ويثير فضوله كل ما يراه...

على أن اهتمامه الخاص كان منصبًا على الحافلات.. فهو لم يرها من قبل.. وبالطبع لم يرها في حالة التكدس الجسدي المريع المميز لحافلاتنا، ولقد بدا لي من الطريف أن أدعوه إلى ركوب إحداها..

وشرعت - من طرف خفي - أرمق ذهوله ومحاولته ألا يصطدم بتلك أو يدوس قدم ذاك، لقد كان هذا تحديًا رهيبًا حتى لكاهن (نافاراي) مدرب على التفادي..

ولم يثر منظره أية ريبة لأنه بدا للقوم مجرد سائح آسيوي آخر.. إلا أن حادثًا صغيرًا كاد يكشف أمرنا..

إذ فجأة سمعنا صرخة امرأة، وسمعنا صراخ الناس يدعو السائق أن يتجه لمخفر الشرطة فعلمت أنها القصة المعتادة: هذه المرأة لم تجد حافظة نقودها..، وهنا وجدت شخصًا - بادي الشراسة - يثب من نافذة الحافلة.. مد أحدهم يده ليمنعه لكن اللص أخرج مدية بشعة المنظر لوح بها في وجهه مهددًا.. ثم واصل هربه من النافذة.. إلى الشارع بين صفوف السيارات..، نظرت بطرف عيني إلى (هن - تشو - كان) لأرى رد فعله.. فوجدت علامات اللامبالاة كاملة على وجهه فأدركت أنه لا يريد لفت الأنظار أو التدخل..

وفي الشارع تصدى أحد الشباب المتحمسين للص.. إلا أن هذا بادره بضربة خفيفة من المدية جرحت وجهه، ثم أطلق ساقيه للريح تاركًا الشاب ممسك وجهه وقد انثنى على نفسه..

كانت هذه هي الغلطة التي ارتكبها اللص وما كان ينبغي أن يفعل..!

إذ في ثوان تبدلت ملامح (هن - تشو - كان).. ورأيته يثب كالنمر من نافذة الحافلة بين أجساد الناس المحتشدين الذين يرقبون ما يحدث...

ورأيته يركض كالفهد بخطوات لا تصدق خلف اللص..

شعر اللص أن هناك من يقتفي أثره فزاد سرعة جريه.. لكن (هن - تشو-كان) كان يقطع في كل وثبة أربعة أمتار كاملة، وأخذت المسافة بينه وبين اللص تضيق.. وتضيق..

وهنا أدرك هذا الأخير أن الصواب في التوقف والاشتباك.. ومكشرًا عن أسنانه كالذئب وقف في وجه (هن - تشو - كان) ملوحًا بمديته بما معناه: الويل لك إن تماديت..!..

كنا بعيدين عن المشهد.. لكننا جميعًا سمعنا (هن - تشو - كان) يصرخ بصوت مرعب:
- تشا سارايانا!
قالها وهو يباعد ساقيه.. وبالطبع ذهل اللص من هذا لكنه واصل التلويح بسلاحه هناك حيث وقف على الرصيف بمنتصف الشارع..
- جوانغ سارايانا!
ومد ذراعيه إلى أقصى امتداد لهما مباعدًا ما بين أصابعه..
ثم....
- كيو سارايانا!
وهو يرجع رأسه للوراء.... ثم....
بعد ثانية تعالت أصوات ركاب الحافلة يطلبون الرحمة للص الذي تحول إلى خرقة صالحة لتلميع الأحذية.. وبالطبع لم تعد في فمه سن واحدة سليمة..
يا لك من مجنون يا (هن - تشو - كان)... ستجلب علينا القاهرة كلها وكل رجال الشرطة.. وعندئذ ستبدو قصتي عن الـ (نافاراي) عجيبة بعض الشيء.. فضلًا عن احتمال لا بأس به أن يعرف عدوك بهذه القصة..
- سوان هاتشاه سارايانا!!
كذا هتف وهو يرمق بقايا ضحيته المكدسة على الرصيف..
إلا أنني كنت قد لحقت به وجذبته من ذراعه لأبعده عن الزحام الذي بدأ يتبلور حولنا.. ومضينا نمشي حثيثًا بين الفضوليين الذين لم يجرؤ أحدهم على إيقافنا لأن الذهول كان يعم الجميع..
- أهنئك على الدعاية التي صنعتها لنفسك!.. سنراك في التليفزيون قريبًا تدرّس الدفاع عن النفس..
- أنا.. أضرب.. سيئ..!
- نعم.. نعم.. ولكن سنواصل هذه المناقشة الفكرية فيما بعد..

* * *

"كالنمر الذي يفضل النوم في الشمس، فلا يخرج مخالبه إلا لحظة الخطر الحقيقي..".

* * *

هادئة مضت الأيام، ولكنها لم تكن مملة قط..
تعلمت منه الكثير عن فلسفة الـ (نافاراي) و (التبت) والبوذية، وتعلم مني الكثير عن العرب والفراعنة وأكل الفول المدمس..!
الحق أقول لكم إنه كان ظريفًا لطيف المعشر..، وكان يتعامل مع الحياة ببراءة وانبهار يلذان للنفس، بالإضافة إلى أن روحه كانت أطهر من قطرات المطر.. وأنقى من الثلج الأبيض... أما عن إقامته في داري، فلم تكن ثمة مشكلة لأن الجيران اعتادوا كثرة أسفاري وغرابة أطواري.. ولم يجدوا غرابة في أن أستضيف صديقًا آسيويًا في داري..

كان الفتى قد ارتدى بذلات عصرية أنيقة ابتعتها له، وشذب خصلات شعره، واعتاد وضع منظار أسود فاخر.. فبدا كأنه رجل أعمال ناجح قادم من (هونج كونج)..

صحيح أن هناك خطرًا لا بأس به في أن يستوقفه أحدهم سائلًا إياه عن جواز سفره.. وعندئذ سيعتبر متسللًا للبلاد، لكن هذا لم يحدث حتى الآن لحسن الحظ..

* * *

في ذلك اليوم الكئيب حدث ما أخشاه..

كان (هن - تشو - كان) قد نزل يتجول بالجوار كعادته في الأيام الأخيرة، في حين كنت منهمكًا في تقشير البصل في المطبخ والمخاط يسيل من أنفي مخلوطًا بالدمع.. حين رن جرس الهاتف..

خرجت للصالة لأجيبه وأنا أمسح أنفي في كتف البيجامة ومنظاري مكسو بالدموع..

ومن الهاتف دوى صوت (طلعت) زوج أختي صارخًا:

- كيف حالك يا دكتور؟

أدركت أنه يتحدث من الهاتف الوحيد بقرية (كفر بدر) الموجود عند العمدة.. وهو من نوع الهواتف التي تعمل بالـ (مانفلا)، وترغمك على الصراخ حتى ليسمعك الطرف الآخر دون هاتف..!..

أخذ يسألني عن كل من بطرفنا.. وأنا أرد في اقتضاب أن أحدًا لم يمت بعد للأسف..، وهنا صاح في مرح:

- هل ما زال (الأخرس) عندك؟.. لقد سأل عنه أخوه أمس!

- أخـ.. أخوه؟!

ضحك - من قلبه - وبدأ يفسر لي (ضربة المعلم) التي حققها:

- أمس كنت مع الحاج (محمد السقا) حين مر علينا سائق لوري صديق من القرية المجاورة وسأل عن شاب غريب الملامح وفد على قريتنا من شهر أو أكثر.. قال لنا إنه يبحث عنه لأنه شقيق (التبّاع) الذي يعمل معه، وهو فتى يشبه صاحبنا تمامًا في ملامحه.. وإن كان يتكلم قليلًا.. وقد قال إنه يبحث عن أخيه في (كفر بدر) لأنه ضاع منه منذ شهور...

كان مخي يغلي بالحمى بينما (طلعت) يواصل حكايته:

- الغريب أن هذا (التبّاع) هو نفسه غريب الملامح غريب الأطوار ظهر فجأة في تلك القرية، وأراد سائق اللوري أن يكسب فيه ثوابًا فأخذه ليعمل معه.. وتطوع ليساعده في البحث عن أخيه..!

فتحت فمي لأسأل السؤال الذي سأجن لو لم أسأله:

- وهل.. هل أخبرتماه عن (الأخرس)؟!

- بالطبع.. وماذا تظن؟.. إن الإنسان قلما يجد فرصة ملائمة لعمل الخير كهذه الفرصة!.

- و... و... أخبرتماه بعنواني في القاهرة؟

ضحك في فخر.. وصاح:

- طبعًا.. وكتبته له على ورقة صغيرة.. سيكونان عندك اليوم أو غدًا على الأكثر.. ولكن ماذا حدث يا دكتور؟.. هل أنا أتوهم ما أسمعه أم أنت حقًا تبكي؟!!

.....!

* * *

٩ - (جينغ - تشا)..

الفرار!.. الفرار..!

تسلطت الفكرة على ذهني فلم أستطع إيجاد سبيل لمنطقة ما سمعت..، الفرار!.. إنه آت لداري أنا بالذات.. ذلك الكاهن الفاشل المتعصب المولع بالدماء والسلطة..

إنه قد أجاد لعبته..

فر - بمجرد وصوله - إلى القرية المجاورة، وذاب هناك بين القرويين بأسلوب شبيه بأسلوب (هن - تشو - كان)، ثم إنه بدأ يعمل على عربة لوري... وحكى لسائقها قصته الحزينة.. قصة الأخ الضائع بين القرى باحثًا عن أخيه المتخلف عقليًا، ولم يملك السائق سوى أن يساعده وطبعًا كانت (كفر بدر) هي المرشحة الأولى للبحث.. وها هو ذا قد وجد ضالته دون جهد..

وها هو ذا قد....

تررررررن!..

كان جرس الباب قد أغلق دائرة كهربية تتصل بجهازي العصبي، فأجفلت ووثبت لأعلى مترًا.. ثم إنني استجمعت شجاعتي وانتظام ضربات قلبي.. ففعلت أول ما ينبغي عمله.. دسست قرصًا من الـ (نيتروجلسرين) تحت لساني كي لا تخذلني شراييني التاجية..، واتجهت للباب عالمًا أن القادم ليس سوى (هن - تشو - كان) الذي لم أعطه نسخة من مفتاح الشقة.. سأحكي له كل شيء فورًا..

ولم يكن القادم هو (هن - تشو - كان)..

كان فلاحًا مشعث الشعر تحت طاقية صوفية قذرة، وكانت لحيته نامية وعلى جسده جلباب بال..، وقبل أن أسأله عن مرامه أدركت دون جهد أنه هو..!..

(جينغ - تشا)!.. أعرف هاتين العينين الضيقتين والبشرة الصفراء والوجنتين البارزتين..، إن من يحمل هذه السمات لا يمكن إلا أن يكون آسيويًا.. وبالتحديد من منطقة التبت.. وللدقة لابد أن يكون هو (جينغ - تشا)!.. من غيره؟!..

قبل أن أقرر ما أفعل، لمحت عينيه الباردتين القاسيتين تنظران لوجهي في ثبات.. وفي صوت غليظ تساءل:

- داكتر ريفات؟!

- نعم.. نعم.. دكتور (رفعت).. هذا أنا..

ومددت يدي لأغلق الباب في وجهه..

وهنا لا أذكر ما حدث..

لقد كانت انعكاسات هذا الفتى تفوت القدرة التحليلية لخلايا شبكيتي.. ولا يمكن فهم ما حدث إلا بتصوير المشهد بكاميرا سينمائية تدور بسرعة ألف كادر في الثانية، يتم بعدها عرض الفيلم بسرعة أربعة وعشرين كادرًا..

فجأة وجدت نفسي ملقى في ركن الصالة.. وكان هو قد دخل الشقة وأغلق الباب خلفه.. بل حطم منظاري..

لم أستشعر ألمًا لأن الذهول أضاع كل ألم..، ومضيت أراقبه في توجس وهو يدور في أركان الشقة باحثًا في كل غرفها عن شيء ما.. ثم رأيته يعود لي ويقف أمامي.. ويصرخ بصوته الغليظ:

- (هن - تشو - كان)؟!

لم أر فائدة من التظاهر بالجهل.. فقلت ململمًا أشلاء كبريائي المبعثرة:

- خرج..

نظر لي في ريبة بضع ثوان.. ثم قرر - كما يبدو - أن يعقد لي امتحانًا سريعًا..

وقال بتؤدة:

- (شوكارا).. أين؟

أدركت أنه شبه متأكد من أنني أجهل الموضوع، فهو يتوقع - وهذا حق - أن الكاهن الأخير لم يصارحني بمكان الكتاب إن كان صارحني بوجوده اصلًا.. وصممت أن أبدو بريئًا وغبيًا إلى أقصى حد..

إلا أنه انحنى إلى جواري.. والتقط بين إبهامه والسبابة بعض الشعيرات من سالفي.. وشدها.. آآآآه!.. يا للألم!.. كأنه ينتزع جزءًا من مخي.. كف عن هذا..!.. كف..



إلا أنه انحنى إلى جوارى .. والتقط بين إبهامه والسبابة بعض الشعيرات من سالفى ..

- اسمعني يا أسـ.. آه ه!.. أستاذ.. أنت رجل متحضر وابن ناس ويمكننا ان نتفاااااااااهم!.. آي!
- (شوكارا) أين؟
غريب هذا!.. هو واثق من أنني أجهل مكان الكتاب.. لكنه مصمم على تعذيبي إلى آخر درجة يكون بعدها واثقًا تمامًا..
- (شوكارا).. أين؟
آي..!.. كيف أخبر هذا المعتوه أن تعذيبه وصل للذروة وأن ما يتحمله الـ (نافاراي) ليس هو ما يتحمله شيخ فان مثلي؟
- (شوكارا).. أين؟
تررررررن!
جرس الباب!.. جاء في وقته لأنه أجفل وأطلق سراحي - الفتى وليس الجرس - وتفكر في الموقف هنيهة..
ثم إنه نهض واتجه للباب ووقف خلفه.. ثم مد يده ليفتحه مبتعدًا عن مجال بصر من يدق الجرس..
انفتح الباب ودلف منه الوجه المألوف الجديد لـ (هن - تشو - كان).. في يده كيس مليء بالبيض ابتاعه من السوق وعلى ثغره ابتسامة الظفر كطفل بعثته أمه للسوق أول مرة وعاد موفقًا..
وفي مرح التفت ليحدث من حسبه أنا.. ذلك الذي فتح له الباب..
وهنا التقت العينان.. وفهم كل شيء..
وانغلق الباب محدثًا جلبة..

* * *

ساد الصمت المكان فلا شيء سوى صوت أنفاسنا..
ثم أن (جينغ-تشا) اقترب في تؤدة من (هن - تشو - كان) وهو يبتسم في لزوجة..، وللمرة الأولى أرى الرعب في عيني الكاهن الأخير.. نظرة فأر وقع في المصيدة.. أو قط ترتفع حوله مياه الفيضان.. أو كلب تحيط به الأفاعي.. أو أفعى في جحر المانجوست.. أو أي رعب تتخيله..
بدأ (جينغ - تشا) يتكلم بلغة لا أعرفها..
كان صوته غليظًا بطيئًا مليئًا بالسخرية والغرور والتوعد..
أما (هن - تشو - كان) فكان يرد بعصبية وتوتر بينما المقت يلتمع في عينيه.. كانا يتبادلان الاتهامات والسباب طبعًا...
وهنا بدأت أستعيد صفاء ذهني..
حتمًا سيحدث صراع دموي..، وليس لي أن أخشى شيئًا على (هن - تشو - كان) لأنه الأفضل تدريبًا.. لكن له نقطة ضعف واحدة.. هي أنا!..
نعم.. بالتأكيد سيحاول (جينغ - تشا) تهديد حياتي للضغط على خصمه، وبالتالي لن يكون جبنًا مني أن أحاول الانسحاب في صمت لأن وجودي سيزيد من متاعب الكاهن الأخير فقط...

وببطء.. ببطء ببطء بدأت أزحف نحو باب الشقة.. كانت محادثتهما مستمرة لهذا نسيا وجودي تمامًا..

وفجأة بدأ الاشتباك...

كنت عند منتصف الطريق إلى باب الشقة حين سمعت صوت سوط يشق الهواء فأدرت رأسي لأرى..

لم يكن سوطًا بل هي ذراع (جينغ - تشا) التي امتدت تمزق الهواء تجاه بطن الكاهن الأخير، وكانت أصابعه متخذة وضعًا غريبًا كالعنكبوت مما جعلني أرجح أنها إحدى قبضاتهم السرية..

وهنا أثار ذهولي ما حدث..

لقد تقوس (هن - تشو - كان) للأمام قدر استطاعته مبعدًا تجويف بطنه عن القبضة، ثم أستعاد توازنه.. وتفادي ركلة شنيعة كادت تنسف رأسه..

كان يتفادى.. يتفادى كأفضل ما يكون..

* * *

"لو أن لصًا هاجم دارك فلن يمنعه (التفادي) من سرقتك... لن يمنعه من إيذاء أمك العجوز.. لن يمنعه من تمزيق كتب صلواتك وسكب زيت الموقد..".

* * *

- تشا سارايانا!

صرخ (هن - تشو - كان) وهو يباعد ما بين ساقيه..

وهنا لمحت لمحة من الذعر ترتسم على وجه (جينغ - تشا)...

- جوانغ سارايانا!

صرخ الكاهن الأخير وهو يباعد ذراعيه عن جسده.. ثم أردف بالصيحة الأخيرة وهو يعيد رأسه للخلف (لقد صار هذا المشهد مملًا):

- كيو سارايانا!

واندفع كالسهم الذي تحرر من قوسه نحو خصمه الأزلي..

ما أروعه من مشهد!.. للمرة الأولى أرى قتال الـ (نافاراي) يدور بين خصمين متكافئين.. لم يكن (جينغ - تشا) بالخصم السهل، وبدا لي أنه يعرف مكان واتجاه كل ضربة ويعرف كيف يتفاداها قبل أن تلمسه.. مزهرية ثمينة تتهشم.. ثم أخرى..!

صحت في هلع وأنا أقف فيما بينهما:

- أتوسل لكما.. أصعدا إلى سطح البناية فهناك متسع للجميـ...

وهنا وجدت نفسي وقد طرت لأسقط على الأرض في ركن الصالة وكل عظامي تئن.. من ضربني؟ ومتى؟ وكيف؟.. لا أدري... المهم أن الشخص العادي مثلي هو ذبابة إذا ما اشتبك مع هذه الوحوش، ولربما كان الأوفق لي أن أبادر بالفرار من هذا السيرك..

تررررن!..

جريت مترنحًا لأفتح باب الشقة.. فوجدت جاري الأستاذ (زكريا) مدرس الجغرافيا الذي يقطن بالطابق الأسفل.. وكان يرتدي البيجامة وطاقية صوفية ووجهة محتقن كالطماطم.. ويصرخ:

- ماذا دهاك أيها المنحل؟.. هل جننت؟!

أدركت أن الجلبة التي أحدثها الصراع كادت تسقط السقف فوقه..

قلت له في رقة مفسرًا:

- معذرة.. ولكن عندي كاهنين من الـ (نافاراي) من القرن السادس عشر، وهما يتصارعان الآن.. أنت تفهم هذه الأمور!

فتح فاه في ذهول ليقول شيئًا.. وهنا فوجئ بـ (جينغ - تشا) يبرز من داخل الصالة حاملًا كرسيًا خشبيًا ثقيلًا وهو يعوي كالذئاب ويهوى به على رأس (هن - تشو - كان) الذي تلقى الكرسي على ساعديه.. فتهشم الخشب متناثرًا في كل مكان..

- مجنون!.. كلكم مجانين!

صاح في ذهول وهلع وهو يولي الأدبار قائلًا كلامًا كثيرًا عن حياة العزاب.. وعن توقعه أن القيامة ستقوم في موعد أقصاه هذا الشهر.. وعن الحكومة التي تترك أمثال هؤلاء ينعمون بالحرية..

ولحقت أنا به وقد أدركت أن الوقت قد حان لذلك..

هبطت خلفه درجات السلم ومعه دخلت من باب شقته، فما إن أدرك أنني وراءه حتى صرخ في عصبية:

- ماذا تبغي أيها الاحمق؟

ثم صرخ في ابنته الشابة التي هرعت بقميص النوم لترى ما هنالك:

- وأنت!.. ادخلي غرفتك فورًا!

صحت في توتر محاولًا جعله يفهم الموقف:

- أستاذ (زكريا).. صدقني.. ليس الوقت مناسبًا لآرائك الخاصة في.. إن هذين الشابين في شقتي سيقتل أحدهما الآخر.. يجب أن نطلب الشرطة فورًا..

كان دوي المعركة فوق رؤوسنا مستمرًا حين نظر الي الرجل في حيرة.. ثم غمغم:

- إذن هما ليسا من شلة السوء الخاصة بك؟..

ارتفع الدم إلى رأسي:

- أية شلة سوء؟!.. هل سبق أن عرفت لي أصدقاء؟!.. وأي سوء يرجي من كهل أصلع مصاب بالربو والذبحة الصدرية مثلي؟!.. هلم هات الهاتف قبل أن تغرق الدماء سلالم المبنى..

بدا كأنه اقتنع.. فهرع يحضر لي التليفون وهو ينظر للسقف في حيرة متوقعًا أن ينهار بين لحظة وأخرى..

أدرت الرقم الرهيب - والمطمئن برغم ذلك – ١..٢.. ٢.. وانتظرت برهة دون جدوى.. لا حرارة على الإطلاق..

إن المصائب لا تأتي فرادى..

سأحاول طلب الشرطة من شقة اللواء (محمد حليم) إذن..

هرعت للباب على حين وقفت الفتيات الخمس - بنات الأستاذ (زكريا) - يرمقن المشهد في حيرة، فصاح فيهن أن يدخلن حجراتهن كأنه يهش ذبابًا، وعند الباب توقفت وتراجعت خطوة

للوراء..
لقد أدركت أننا في مأزق..
مأزق حقيقي...
كان هناك شاب آسيوي الملامح، يرتدي قميصًا وبنطلونًا متسخين، يقف على باب الشقة حاملًا نصلًا كئيب الشكل.. وفي تؤدة أشار لي أن ألزم مكاني ولا أتحرك..!..
- ما هذا؟.. من هو؟..
تعالت الصيحات متسائلة.. أما أنا فأغلقت الباب وعدت إلى داخل الشقة وأشعلت سيجارة وأنا أجلس على الأريكة مفكك الأوصال.. إذن لم يأت وحده!
- د. (رفعت).. من هذا الرجل؟.. ماذا يريد؟
رفعت رأسي ببطء شديد وكأنني كنت أحلم..
وفي غموض همست:
- لقد جاءوا خلفه!

* * *

١٠ - الخاتمة..

لقد جاءوا خلفه..!

لم يكن (جينغ - تشا) هو الوحيد الذي اجتاز الزمان والمكان باحثًا عن الكاهن الأخير.. بل تبعه بعض رهبان الـ (ماهايانا) ليشدوا من أزره.. لا يحتاج المرء لكثير ذكاء كي يدرك أننا محاصرون..

ربما البناية كلها محاصرة..

وهذا يعني أننا رهائن مستمرة للضغط على (هن - تشو - كان) كي يسلم الكتاب الثمين لهم، ولقد لعبوا لعبتهم بذكاء حق.. أدركوا أن الكاهن الأخير لن يهزم.. وإذا هزم فلن يستسلم ولن يتكلم..

ولم تكن هنالك سوى طريقة واحدة للضغط عليه، تلك الطريقة التي فررت من شقتي كي لا أمنحها لـ (جينغ - تشا).. استخدام الآخرين..

الهاتف؟.. هل نسيت أنه معطل؟.. وأنهم هم معطلوه دون أدنى شك...

لقد فهم هؤلاء الأوغاد مفردات عصرنا وأهمية الهاتف بسرعة..، أسرع مما ينبغي في الواقع..

والآن.. أملنا الوحيد هو أن نغلق أبوابنا وأن نرجو التوفيق للكاهن الأخير في معركته المصيرية التي تدور فوق رؤوسنا.. ربما لو سلم لهم الكتاب تكون هنالك فرصة..

لكني أشك كثيرًا في ميول هؤلاء السادة السلمية. ولا أعتقد أنهم سيشكرونه ويوجهون لنا عبارات الاعتذار وينصرفون....

المصيبة الحقيقية هي أنني من جلب هذه المصيبة للبناية..، والآن تواجه عشر أسر ورطة لا مفر منها فيما يبدو..

* * *

والآن حان الوقت كي أتمنى لكم ليلة سعيدة وأترككم.. أرى بعضكم يشد كمي.. وأسمع بعضكم يتساءل: وماذا حدث بعدها؟.. هل أنتم حقًا مهتمون بذلك؟.. كنت أعتقد أنكم لن تجدوا ما يثير في حصار بعض البوذيين لسكان بناية بينما يتصارع كاهنان في إحدى الشقق... ليكن لكم ما تريدون..

سأحكي ما حدث بالتفصيل..

لكنها قصة طويلة، وقد قاربت الليلة على الانتهاء.. إن النوم شيء حيوي للشيوخ مثلي..

ربما في الليلة القادمة.. أو ربما ليلة أخرى أستكمل القصة.. قصة العجلة الثمانية ومومياء (شيان - قه) الراقدة بين الثلوج ورقصة الموت.. و.. و..

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل
القاهرة ١٩٩٣

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

١ - الزهرة الزرقاء..

٢ - نافاراي!..

٣ - الليلة الأخيرة..

٤ - أرض أخرى.. زمن آخر..

٥ - مخالب النمر..

٦ - افعل شيئًا يا دكتور!

٧ - إنه هنا!..

٨ - الهرب..

٩ - (جينغ - تشا)..

١٠ - الخاتمة..

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة الكاهن الأخير

الكاهن الأخير يعرف كيف يقاتل، الكاهن الأخير يعرف كيف يتخفّى، الكاهن الأخير يعرف كيف يتظاهر بالخرس حينًا وبالبلاهة حينًا، الكاهن الأخير لا يثق بأحد .. لأن أعداءه لا يرحمون .. والموت جزاء أدنى خطأ .. الكاهن الأخير يتحداك فهل تقبل التحدي؟!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة البيت

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

الإسم الأصلي لـ(بوذا).

[2←]

يؤمن البوذيون بأن هناك طبيعتين في الإنسان هما (الين) و (اليانج).. إحداهما أنثوية متقلبة ثرثارة والأخرى ذكورية قوية هادئة صموت، والإنسان هو محصلة القوة الغالبة عليه.

[←3]

(الماهايانا): هي العقيدة البوذية التي تمارس في التبت ومنغوليا والصين واليابان، ومعناها (الناقلة الكبيرة)، ومنها تتفرع ديانتًا (اللاما) في التبت و (زن) في اليابان.

[4←]

أحيانا يسمى بـ (متلازمة داون).

مذهب (النافاراي) هو وليد خيال المؤلف بأكمله، لكن ماذكر هنا عن البوذية صحيح تمامًا. [←5]

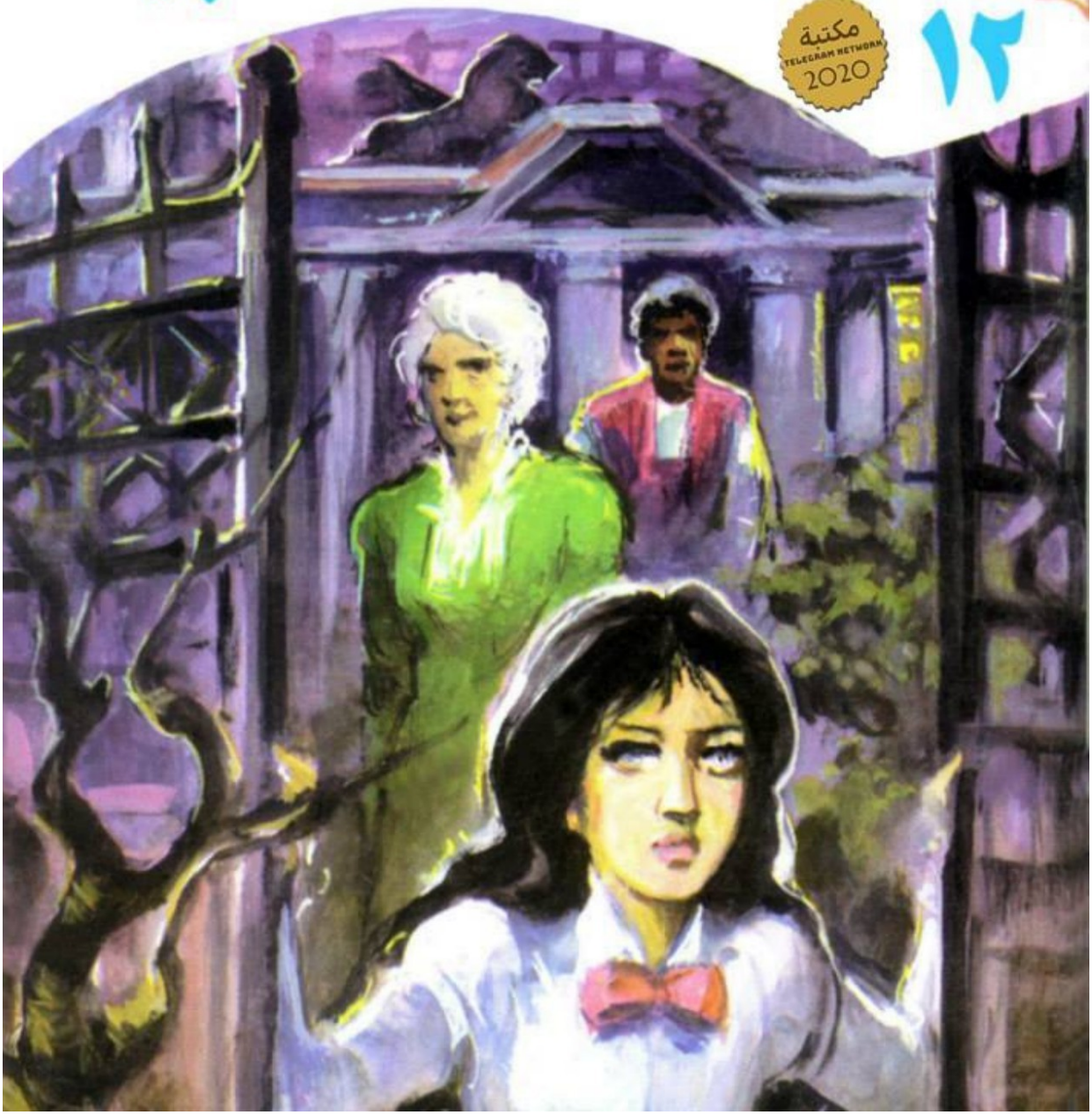
روايات مصرية للجيب

أسطورة البيت

ماوراء الطبيعة

١٢

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٢

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة البيت

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

١٢

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

•

أسطورة البيت

بقلم:

د. أحمد خالد توفيق

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٠٠٢ ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة

مرحبًا...

الدكتور (رفعت اسماعيل) أستاذ أمراض الدم المتقاعد وهاوي الأشباح يتحدث إليكم..

أنا الشيخ الوحيد المتهالك الذي يقضي أيامه الأخيرة مسترجعًا ما كان في شبابه من أحداث، والذي قضى ليلته جوار مومياء (دراكيولا)، وصارع (العساس) في الصحراء، وطاردته لعنة الفرعون (أخيروم)..

لقد ولى أحبائي جميعًا.. وها هي ذي صفارة القطار تعلنني أنهم جميعًا قد ركبوا وأن علي أن ألحق بهم إلى عالم آخر..

لكني أتوسل لناظر المحطة - قلبي المتهالك - أن يتركني بضعة أعوام أخرى تكفي كي أفرغ ما بجعبتي من حكايات..

لكنه يقول لي في تململ وهو يجذب كمي:

- لكن حكاياتك هي في النهاية مجرد حكايات.. ليست نظريات علمية ولا قطوف حكمة فتتركها للقادمين من بعدك..

- لكنها مسلية أيها الرجل الطيب.. مسلية!.. وأقسم على هذا...

عندئذ أراه يفكر.. ثم يعقد ذراعيه على صدره ويغمغم:

- إذن احك قصة مسلية أخرى.. ولكن بسرعة.

ويهز إصبعه في وجهي محذرًا:

- قلت لك أن تكون مسلية.. هه؟.. لقد أنذرتك..!

فأهلل.. وأكاد ألثم يديه لولا تصلب عظام ظهري الذي يعوقني عن الانحناء..، وأبدأ - على عجل - في سرد قصة أخرى...

لقد وعدتكم أن أستكمل قصة (هن - تشو - كان)..

لكني لم أحدد متى.. لذا دعونا نصغ لقصة البيت هذه المرة..

البيت.. يعرف كل شيء.. البيت يذكر كل شيء..

البيت ينتظرنا بعد كل هذه الأعوام..

وبوابته الصدئة مفتوحة من أجلنا..

فهل ندخل؟.....

١ - دوري يا أيام..

العام ١٩٦٧...

هل كان ذلك قبل أم بعد الحرب؟.. لا أذكر.. لكنني أذكر أنني كنت أحيا حياة باسمة هادئة وقد استقرت أموري أخيرًا..

فلابد - إذن - أن هذه القصة وقعت في الشهور الخمس الأولى من العام...

كنت - كما قلت لكم آنفًا - قد خرجت لتوي من مواجهتي الشنيعة مع حارس مومياء الفرعون (آخيروم).. (هل تذكرون قصة البللورات والرجل الغريب الذي يتعقب (هويدا) والعسل والبصل؟)..

وكان ذلك الشعور العجيب المنعش يتسرب إلى روحي دون أن أدري من أية ثقوب يتسرب..!

إنه الربيع...!

أي ضير في أن يحب المرء خطيبته بجنون؟..، أن يقضي الساعات يحلم بتعبيرات وجهها وهي تضحك.. تقطب.. تهتم.. تحنو.. تتفلسف..، وأن يسهر الليل محاولًا فهم ما كانت تريد قوله حين أخبرته بكذا.. وكذا..، ثم ذلك الشعور الممض الغريب: محاولة استرجاع ملامحها في ذهنك دون جدوى.. كأنك لا بد أن تراها لتذكر وجهها!..

والشعور الممض الآخر: الشعور بأنها (ستنفد)!... الجنون المسعور الذي يعصف باتزانك حين تدرك أنها في هذه الساعات تضحك وتقول كلامًا كثيرًا ليس لك نصيب فيه، كأن مخزونها من النضارة والرقة سينتهي بهذه الطريقة قبل أن تتزوجا..

عندئذ تنهض - كالملسوع - إلى الهاتف وتطلب الرقم الحبيب..

وتنتظر في لهفة أن تسمع صوتها يتساءل ناعسًا عما هنالك..

لو كنت تعرف وقتها أغنية (ستيفي واندر): "لقد اتصلت لمجرد أن أقول إنني أحبك!"؛ لو كنت تعرفها وقتها لأنشدتها عبر أسلاك الهاتف.. لكنك لم تكن تعرفها.. ولهذا كنت تختلق أعذارًا على غرار: هل نسيت مفاتيحي عندك؟.. هل زال الصداع عن رأس والدتك؟.. الخ..

كنت تشعر أنك سخيف..

لكنه الشوق المجنون.. والوحدة الأليمة، كالمذءوب الذي يتحول إلى ذئب عندما يكتمل القمر.. تتحول أنت إلى

كائن رومانسي أبله كلما اشتممت رائحة زهر البرتقال تحمله أنسام الربيع..

أصلع الرأس.. نحيل كالبعوضة.. تحش صدره أبخرة التبغ و آلام الذبحة الصدرية.. لكنك... لكنك...

لكنك - ويا خجلي منك يا د. (رفعت) - تحب!

* * *

كنت سعيدًا كطفل نسيه أبواه في مخزن حلوى.. أو أسد وسط قطيع من الحمير الوحشية.. أو خنزير بري في بركة وحل... أو أية سعادة تبدو قريبة لذهنك..

وفي الكلية أصيب طلبتي وزملائي بالرعب من هذه التغييرات التي طرأت على شخصي الكئيب المتشائم..

ثم كانوا يفكرون هنيهة.. ويضحكون في خبث:

- آها..!.. إنه الحب... إن العجوز (رفعت إسماعيل) يحب...!

فإذا ما أشعلت سيجارة صاحوا في عتاب:

- وهي..؟.. ما رأيها في هذه العادة السمجة؟

و إذا ما أطلقت سبة عابرة.. هتفوا:

- ماذا؟.. ألا تخجل؟... ماذا لو انزلق لسانك أمامها؟!

أما شرود ذهني فدليل جازم على فرط هيامي...

وذات مرة سألني الدكتور (رأفت) زميلي في حيرة:

- تبدل موقفك مائة وثمانين درجة..!

- أي موقف؟

- كنت تتزوج لمجرد أنك لا تجد شيئًا آخر تفعله.. فماذا حدث كي يدعوك للتحمس؟.. ماذا قد جد.

نظرت له في شرود..

ماذا قد جد؟.. ياله من سؤال!..

أنا نفسي لا أعرف السبب.. إننا غير مسئولين عن مرضنا ولا عن عواطفنا.. فجأة نصحو من النوم لنجد أننا نهيم بحب فلان أولا نطيق فلانًا.. فما هو المنطق؟..

ربما هو التعود.. وربما هو شعور بالذنب بسبب ما عرضتها له في قصة الفرعون إياها.. وربما هو الامتزاج المشترك بيننا بعد المعاناة التي عشناها سويا.. وربما هو أنها لم تكن سيئة إلى هذا الحد...

لا أدري.. ومن أنا كي أدري؟...

فقط سيطرت هذه الفتاة على كل مليمتر مربع من عالمي...

والأغرب هنا هو أنني لم أنس (ماجي) قط... لقد ظلت واقفة فوق أعلى ناطحة سحاب من مدينة ذكرياتي، وكانت تتوهج وتتألق كعهدي بها..

كل ما هنالك هو أن (هويدا) بدأت تكتسب المزيد من صفات (ماجي) يومًا بعد يوم!..، وحتى ضحكتها كنت أرى فيها شبح ضحكة (ماجي) الحنون المشربة بروح الدعابة..

غريب هو ذلك العالم المتشابك الكامن تحت فروة رأسي.. وأبدًا لن أتمكن من فهم ذلك الكائن الذي هو أنا..

* * *

- ما سر هذه الأرقام الفلكية في فاتورة التليفون؟

- إن مكالماتك الخارجية كثيرة جدًا يا دكتور.. كثيرة جدًا..!.

* * *

- إن هذه السيارة بالوعة بنزين....
- لابد أن زياراتك للإسكندرية لم تعد أسبوعية.. بل زادت كثيرًا!

* * *

- إن رسم قلبك لا بأس به يا دكتور رفعت.. إن حالة قلبك لن تعوقك عن الزواج ولكن لا تنس... التدخين هو مسامير نعشك...
- إذن هو ليس نعشًا.. بل دبابة!

* * *

- ولكن.. متى تغير هذا المنظار الذي يجعلك تبدو كالمعتوهين؟
- أنا أمقت التغيير يا (عزت).. أمقته!
- الزواج هو أكبر تغيير.. ومن يجرؤ عليه يجرؤ على كل شيء آخر..

* * *

- (رفعت)..! إنك تزداد رقة وهذا لا يروق لي!

قالتها (هويدا) وأنا أسير معها في (محطة الرمل) بلا هدف معين.. كانت ترتدي فستانًا أبيض من موضات الستينات الساحرة (كانت كل فتاة تبدو كأنها بطلة فيلم من الأفلام الرومانسية، وكل رجل يبدو كأنه فارس أحلام).. بينما ارتديت أنا قميصا ذا أكمام طويلة..

قلت لها وأنا أشعل سيجارة أمام نظراتها المتوعدة:

- ماذا تعنين؟.. كنت أظن عصبيتي كذلك لا تناسبك..
- نعم ولكن...

وبللت شفتيها بطرف لسانها.. ثم أردفت في حيرة:

-.. لا أدري...

لكنني كنت أفهم ما تعنيه.. هي لا تملك الفصاحة اللغوية التي تمكنها من أن تقول لي إنها تعودت على توتري وعصبيتي و آرائي الساخرة..، وهذه الرقة المبالغ فيها تجعلها غير مستريحة كأنها مع شخص آخر..

حمقاء هذه الفتاة، لكن حماقتها محببة تلذ للسامعين..، إن الأطفال ليسوا فلاسفة متعمقين لكن كل الفلاسفة يحبون محاورة الأطفال، لأنهم يستمتعون بكل هذا الطهر و النقاء والبعد عن التعقيد...

قالت (هويدا) وهي تجرع زجاجة المياه الغازية التي ابتعتها لها:

- يبدو أنك لم تجد أشباحًا في الفترة الأخيرة...
- وهل هذا شيء يدعو للشكوى؟...
- و كففت عن الأسفار...
- إنه الإفلاس..!

ابتسمت في غموض وهي ترمق أسراب طالبات المدارس يهرعن للحاق بالترام.. وهمست بعد فترة تردد:

- إنك تعيش حياة طبيعية هذه الأيام.. طبيعية أكثر من اللازم.. وهأنتذا رجل كالآخرين تذهب لـ (دمياط)

بحثًا عن الأثاث.. وتتشاجر مع السباكين.. و... و...

- لطالما تمنيت أن أصير كالآخرين...

ضحكت في خجل وناولتني زجاجة المياه الغازية لأعيدها للبائع.. وهتفت:

- أعنى.. يخيل لي أن هذا هو نوع من الهدوء الذي يسبق العاصفة.. أعتقد - وأرجو أن يخيب ظني - أنك مقبل على مصيبة..!

- فأل الله ولا فألك!..

- سامحني.. لكني واثقة من ذلك.. إن هذا الكابوس...

- كابوس؟!

- نعم.. كابوس أراه في كل ليلة...

ها هي ذي تلك الحمقاء تحسب - كأكثر الناس - أي كابوس يزورها بسبب أكلها الثوم في العشاء؛ تحسبه رؤيا صادقة شفافة قادرة على التنبؤ.. وماذا رأيت يا (هويدا) هانم بخصوصي في هذا الكابوس المزعوم..؟

- رأيتك ممزقًا إلى أشلاء..!.

- لا بأس.. لقد رأيت نفسي في كوابيس أسوأ...

- وكانت الذئاب تنهش جثتك...!

- هذا هو التجديد الحق..!

اتسعت عيناها رعبًا ووضعت كفها على ساعدي.. وفي توسل همست:

- اسخر مني كما تشاء ولكن خذ الحذر.. أرجوك...

كدت أشكرها على لطفها لولا أنها أردفت وهي تدفعني للسير:

- ماذا سيقول الناس عنى إذا ما لاقى خطيبي الثاني حتفه؟.. لا أريد أن يتهمني الناس بالنحس!..

.....

لم أرد عليها لأنني كنت أرمق في شرود فتاة صغيرة تقف في أحد مداخل البنايات.. كانت ترتدي قميص نوم أبيض طويلًا وشعرها الأسود ينساب على كتفيها...

ذكرني منظرها بشيء ما لا أذكر ما هو بالضبط...

* * *

٢ - الماضي يصحو..

أنهيت جولتي في العنابر مع تلميذي ممتقع الوجه أحمر الأذنين - نسيت اسمه للأسف - الذي يحاول أن يداري أغلاطه قدر الإمكان، لكني كنت أعرف جيدًا مواضع هذه الأغلاط لأنني كنت أرتكبها في سنه..!

بالطبع لم يفحص براز مريضة فقر الدم بحثًا عن دم مهضوم.. ناسيًا - أو متناسيًا - أن سبب فقر الدم قد يكون نزفًا بالقناة الهضمية..، وبالطبع لم يفحص نخاع الطفل المصاب بنزف الجلد ناسيًا - أو متناسيًا - أن سرطان الدم احتمال وارد...

كانت أذنا الفتى على وشك الانفجار من الدماء المحتشدة فيهما حين انتهى لومي له.. وأنهيت جولتي عائدًا لمكتبي...

وجلست أرشف القهوة وأتصفح الرسائل التي وصلتني...

وكانت - كالعادة - رسائل من أشخاص يطلبون مالًا.. أو يتوعدونني بخراب بيتي.. أو من شركات أدوية تعتذر عن عدم قدرتها على تحقيق شيء طلبته منها ونسيت كنهه تمامًا... ثمة خطاب من (جوستاف نيكولسكو) الصحفي الروماني يتحدث عن المذءوبين ويقول إن هناك قرى أخرى يبدو أنها تعاني منهم حقًا، وخطاب من (هاري شلدون) يذكرني برحلة (جامايكا) الكريهة.. ويدعوني إلى زيارة (تاهيتي) لنعرف المزيد من أسرار الـ (فودو)...

لقد مات الماضي يا رفاق.. ألن تعوا ذلك أبدًا...

كان هناك خطاب أخير لم أدر من هو مرسله.. لكن خاتم المظروف كان من (المنصورة).. (المنصورة) أول حب في حياتي..

بيد مرتجفة فتحت المظروف فوجدت هذه السطور مكتوبة بخط أنيق منسق.. كأنه خط امرأة أو خط رجل يملك أصابع امرأة....



بيد مرتجفة فتحت المظروف فوجدت هذه السطور مكتوبة بخط أنيق منسّق ..

الأخ العزيز د. (رفعت):
تحية طيبة.. وبعد...
أسعدني كثيرًا أن أقرأ سطورًا عنك في إحدى المجلات الأجنبية التي يملكها زوجي. وقد تعرفت الصورة فورًا. وقد تذكرت الماضي وحياتك هنا في (المنصورة) مع خالك رحمه الله.
وكنتم خير (جيرانًا) لنا (هكذا في الخطاب) ولم (نرى) منكم إلا كل خير. هناك مشكلة في حياتنا يا د. (رفعت) أعتقد أنها تمسّك بشكل أو بآخر وأرجو أن تلبي دعوة زوجي (محمد أيوب) وهو مهندس معماري للحضور إلى (المنصورة) للقائنا ومعرفة المشكلة.
أما لماذا لم (نأتي) نحن فلأننا نعرف أنك غير متزوج وخفيف الحركة، ثم أن المشكلة عندنا هنا وليست عندك.
سلامي للأخوة (عماد) و (مدحت) و (عبير) إذا كنت تراهم. وعلى فكرة عنواني سهل جدًا وهو (.....) لكن اتصل بنا بالتليفون قبل أن تأتي حتى نعد لك أكلة طيبة تعوض عظامك التي جفت من (طبيخ) العزاب. بالمناسبة رقم تليفوني هو (.....).
وشكرًا جزيلًا..

أختك.. إلهام السويفي

أغلقت المظروف على الخطاب وشرعت شارد الذهن أتأمل (تنوة) القهوة في الفنجان...
(إلهام السويفي)!.. يالها من ذكريات..!.. صحيح أن الأسلوب ركيك ومليء بالأخطاء النحوية.. ولكن هل تتوقع من (إلهام) أن تعرف أن المضاف إليه يجر ولا ينصب.. وأن تعرف أن الفعل المضارع الناقص يجزم بحذف حرف العلة.. بل - والأدهى - أن كلمة (طبيخ) لا تناسب الفصحى؟! غريب هذا...!
كان هذا الجزء من ذاكرتي قد مات تمامًا.. وها هي ذي تذكرني بنفسها و (بالشلة) إياها.. و(عماد) و (مدحت).. إلخ..، أولئك الذين لو شيعت جنازاتهم لما اختلف الأمر كثيرًا.. فالحقيقة المروعة هي أنني لم أر أكثرهم ولم أسمع اسم أكثرهم من ثلاثين سنة تقريبًا..!.. تخيل أنت أن رجلًا يصافحك في حماس مؤكدًا أنه الطبيب الذي أشرف على ولادتك!.. فهل ستذكر وجهه؟.. هل ستعرفه؟.. بالطبع لا...
كان موقفي ساعتئذ قريبًا من هذا...

* * *

(المنصورة) حبي الأول...
لقد ولدت في (الشرقية) لكني عشت أجمل سني حياتي في (المنصورة).. ولهذا لم أزل أحسب نفسي في عداد أبنائها...
إن وطنك هو المكان الذي ارتديت فيه أول سروال طويل في حياتك.. ولعبت أول مباراة كرة قدم.. وسمعت أول قصيدة.. وكتبت أول خطاب حب.. وتلقيت أول (علقة) من معلمك أو خصومك في المدرسة.. وطنك هو المكان الذي ذهبت فيه للمسجد أول مرة وحدك.. وخلعت حذاءك متحديًا صديقك أن يقف جوارك لتريا أيكما أطول قامة..، ووطنك هو أول مكان تمرغت على عشبه في صراع دام مع صديق لدود من أجل فتاة لا تعرف شيئًا عن كليكما..!

لقد كان وطني هو (المنصورة) وسيظل كذلك.. مشاهد عدة أسترجعها.. أبي المتوفي.. نحيب أمي وعبارة واحدة ترددها وهي تحرك رأسها يمينًا ويسارًا:

- كيف أربيهم!.. كيف؟

ثم خالي (عبد الرحمن) يعانقها ويعانقني ويعانق شقيقتي (رئيفة) وأخي (رضا) والدمع في عينيه، ويومها عرفت أن مصائرنا تحددت.. (رضا) أكبرنا سنًا سيظل في (كفر بدر) ليرعى الأسرة ويفلح الأرض، وكذا (رئيفة) لأنها فتاة ويجب أن تظل جوار أمها.. ثم إن البيت في القرية لا يستقيم دون امرأة حتى ولو كانت طفلة..، أما عني أنا..

- اسمعي كلامي يا (فاطمة).. (رفعت) ذكي ويمكنه أن يفلح في الدراسة.. ربما صار طبيبًا أو مهندسًا أو ضابطًا.. وحرام أن تضيعي عليه فرصة كهذه لمجرد أن يظل في حضنك..

- ولكننا لا نملك...

- سيعود معي إلى (المنصورة) ليعيش في داري مع (عماد) و (مدحت) و (عبير) أبنائي.. وكلهم في مثل سنه.. ثم إنني خاله.. والخال والد يا (فاطمة).. لا تنسي هذا...

كان الاختيار صعبًا لكنه محتوم..، ولم تلبث أمي أن استسلمت لرغبة خالي.. وكان الفراق مؤثرًا إلا أنني - كديدن الأطفال - لم أكد أبتعد عشرين مترًا عن داري حتى جفت الدموع في مقلتي.. ونسيت كل شيء عن (كفر بدر)...

كانت (المنصورة) فاتنة منذ اللحظة الأولى ولم أستطع أن أخفى انبهاري.. لا تنس أنها أول ما رأيت في حياتي من مدن..

ودار خالي الأنيقة - أو ربما هو ما رأيته - والأصدقاء الجدد الذين دخلوا عالمي ودخلت عالمهم...

ولسنوات عدة - وحتى التحقت بالكلية - عشت في وطني الجديد مكتفيًا بزيارات قصيرة لـ (كفر بدر) مرة أو مرتين في الشهر..

هي سنوات هادئة تلك التي عشتها هناك في (المنصورة).... فقط بعض المغامرات الصغيرة كالفرار من المدرسة إلى السينما، وتسلق سور فيلا، وصيد الأسماك النيلية في إحدى العزب القريبة...

. كنا أطفالًا نسكن في شارع صغير ضيق تزينه الأشجار العجوز على الجانبين وكانت الشمس تزخرف أرض هذا الشارع بالظلال طيلة ساعات النهار وطيلة فصول العام.. بينما نحن نزخرف جدرانه بأسمائنا ورسوم ساذجة بالطبشور ونتائج مباريات كرة القدم المحلية بنفس المنطق والفخر اللذين جعلا (رمسيس الثاني) يزخرف جدران المعابد بانتصاراته..

كانت الحياة تمضي.. وكنا سعداء...

والآن دعني أعرفك شلتنا الصغيرة...

أما هذا الصغير النحيل العصبي بمنظاره السميك الذي كسر إطاره وتم لحامه بالحرارة فهو أنا.. وكما تلاحظون لم أتغير كثيرًا سوى زحف الجدب على مقدمة رأسي...

أما هذان الطفلان الجميلان فهما (مدحت) و (عماد) ابنا خالي.. وهما - كما لابد أنك لاحظت - توءمان..

الفتاة الأولى ذات الضفيرة و السن الناقصة هي (عبير) ابنة خالي، وهي شيطانة صغيرة خبيثة لا تكف عن الضوضاء..

أما الفتاة الثانية فهي (إلهام) صاحبة الخطاب.. وإذا ظننت للحظة أنها ولد بسبب شعرها القصير وارتدائها البنطال فاعلم أن الكثيرين ارتكبوا الخطأ ذاته.. ثم كانوا يسمعون صوتها الرقيق فيدركون أنها طفلة تصر أمها على محاكاة موضة الـ (آلاجارسون) التي يترجمها (طه حسين) بـ (المسترجلة) ويترجمها (العقاد) بـ (الغلامة)..!

كنا نلتقي في الشارع بعد سويعات المدرسة.. أو في أيام الصيف فنبدأ في لعب كرة القدم أو المساكة أو أية لعبة أخرى.. ثم نمل كل شيء فننفصل أيامًا نعود بعدها لذات الألعاب...

وكانت طبقتنا واحدة هي طبقة أبناء الموظفين (وهي طبقة محترمة في الثلاثينات) لهذا كان انسجامنا تامًا...

وكنا نتشاجر على الفوز برضا سيدة الأقمار السبع وملكة (سبأ) الشهيرة باسم (إلهام) إذا ما كنت تفهم صراع الأطفال المضحك من أجل رضا فتاة..

كان (عماد) يقلص وجهه ويأتي بأصوات غريبة من حلقه محاولًا إبهارها.. وكان (مدحت) يثب على ذراعيه ويمشي مقلوبًا.. وكنت أنا أرسم وجهها..

الخلاصة أن كلًا منا حاول أن يريها أفضل ما فيه من صفات.. لكنها - وهذا طبيعي - لم تر في التوءمين سوى نسخة مكررة لبعضهما.. ولا معنى لأن تهتم بأحدهما دون الآخر، أما أنا فكنت الوحيد الذي لا شبيه له.. لهذا لم تخف ميلها نحوي خاصة وأنا أقربهم سنًا لها.. وموضوع وفاة أبي قد جعلني - في رأيها - كائنًا أسطوريًا عركته الحياة وذاق من التجارب ما لم يذقه هؤلاء المترفون...!

هكذا مرت الأيام...

ثم..... لا أذكر أحداثًا معينة ذات بال..

متى انفصلت هذه المجموعة؟.. لا أدري.. لكن هناك لحظة ما كان محتمًا أن تأتي.. ولم تعد الفتاتان معنا في نفس المدرسة..، ولم نعد نرى (إلهام) لكننا كنا إذا قابلناها مصادفة نجدها قد صارت فتاة أخرى.. حتى شعرها صار طويلًا وكفت عن ارتداء البنطال، وكانت تطرق بعينيها للأرض ويحمر وجهها معلنة أنها لا ترغب في تبادل الحديث في الشارع.. أو - أحيانًا - تهز رأسها بتحية عابرة فاترة لا ود فيها..

حتى في دار خالي صار هناك نوع من الحصار حول (عبير).. ولم أعد قادرًا على رؤيتها في كل وقت ولا دخول غرفتها كما اعتدت في طفولتي.. وصار أخواها أكثر تحفظًا في الكلام عنها.

ونظرت للمرأة لأرى ما تبدل...

فوجدت (رفعت) آخر ينظر لي.. عيناه لامعتان.. والزغب يملأ شفته العليا حتى خيل لي أنه غبار يمكن ازالته بأصبعي..

لكنه لم يزل...

لقد كبرت..!

كدت أصرخ وأبكي.. إن كل طفل يسره أن يصير رجلًا.. لكني مختلف عن الآخرين، إنني مستعد تمامًا للتخلي عن هذا الشرف مقابل أن نعود لبراءة ونقاء الماضي.. ليوم واحد فقط...

فجأة امتلأت حياتي بالجدران... وأدركت - في رعب - أن حياة الرجولة ستكون قاسية حقًا..

* * *

تبًا للذكريات..!

بعد دقائق فطنت إلى أنني كنت أكلم نفسي وأردد عبارات قلتها في طفولتي.. وأضحك وأقطب استجابة لأفعال أشخاص لا وجود لهم!...

لقد عثرت علي (إلهام) بعد كل هذه الأعوام.. وبعد أن بدأت الجدران المقامة بيننا تبلى وتتآكل، وحين هوى الجدار الأول وجدت هي تلك المجلة اللعينة وقررت أن تكتب لي...

تلك المجلة التي وقعت في أيدي (تابيثا) وجعلتها تلعب معي لعبة (ميدوسا) ود. (رمزي) وجعلته يدعوني لتشريح مومياء الفرعون..

لو كنت ثريًا لاشتريت كل نسخ هذه المجلة وأحرقتها.. فقد قضيت وطري من الفخر بصورتي القبيحة المنشورة بها، ولم يعد هناك سوى دفع فواتير الشهرة..

ولكن....

لماذا لا ألبي دعوتها؟.. إن (المنصورة) هي قطعة من روحي، ولا بأس من أن يزور المرء الموضع الذي فارق فيه روحه قبل أن يتزوج ويضيع للأبد..

كنت قد وصلت لداري...

ودون أن أنزع ثيابي مددت إصبعي لقرص الهاتف.. وطلبت رقمًا ما...

* * *

٣- أسطورة البيت..

كنت قلقًا في أثناء ذهابي للموعد المنشود..

فقد تركت (المنصورة) منذ أعوام عديدة، بعد التحاقي بكلية الطب في (القاهرة) ووفاة خالي... وبعد انتهاء واجب العزاء رحلت ولم أعد بعدها أبدًا..، ذبت تمامًا في حياة القاهرة حتى أنني لم أحضر زفاف (عبير) ولا زفاف أخويها برغم أنني تلقيت الدعوة.. وبرغم أن (مدحت) زارني في داري أكثر من مرة..

لقد مزق رحيل خالي حبلًا متينًا كان يربط بيننا.. كأننا سفن تمزقت حبال مرساتها لتضيع في البحر الواسع ولا تعود للميناء أبدًا..

فقط عرفت أن (إلهام) تزوجت وتعيش في مكان آخر بالمنصورة، وأن أولاد خالي لم يروها منذ أعوام طويلة، عرفت كذلك أن كل شيء قد تبدل في المدينة عما كان في الثلاثينات السعيدة..

لهذا.. شعرت بالرهبة و القلق..

خشية ألا أعرف المكان.. وخشية ألا يعرفني المكان..

* * *

ودخلت مدخل البناية الأنيقة الظليل صاعدًا إلى الطابق الثاني لأقرع الجرس وأتنحنح..

هو ذا الباب يفتح عن وجه وقور أشيب الشعر كث الشارب، وخلفه لمحت امرأة بدينة بشعة المنظر تبتسم لي في مودة غير عادية..

- أنا.....

فتعالى صوتها في مرح من خلف كتف زوجها:

- أنت لم تتغير يا دكتور (رفعت)!!

رحب بي الرجل في مودة - وبيد ثابتة مليئة بالثقة - وقال باعتداد:

- مهندس (محمد أيوب).. مرحبًا بك...

ثم دعاني للدخول..

كان الأثاث أنيقًا والأرض مكسوة بسجاد فاخر.. وثمة رائحة عطرة في الجو توحي لي بأنهم قاموا برش مستحضر ما تحسبًا لقدومي..، والواقع أنني فهمت أنهم استعدوا لزيارتي إلى حد كبير.. فالأناقة والنظافة العامة توحيان بأنهما غير معتادتين.. ومن المستحيل أن يظل (الباركيه) لامعًا إلى الأبد في بيت تعيش به أسرة..

حتى (إلهام) بدا واضحًا أنها تأنقت قدر استطاعتها وأجبرت زوجها على ارتداء بذلة أنيقة، وبرغم هذا لم أستطع أن أخفي ما شعرت به من غم إزاء ما طرأ على جمالها القديم من تبدل.. هل حقًا كبرنا إلى هذا الحد المفزع؟.. إذن كيف أبدو أنا.. أنا الذي لم يتهمه أحد بالجمال..؟

أنا أعرف أن الزمن قاس، لكني لم أتصور مدى هذه القسوة...

وجلسنا نرشف الشاي وآكل قطع الجاتوه مرغمًا على حين أخذت تسألني عن أحوالي وعن السر في عدم زواجي (ذلك الموضوع المحبب لدى الناس جميعًا ولا يبدو أن عندهم غيره) ثم عن ميعاد

زواجي بعد أن لمحت خاتم الخطبة في خنصري الأيمن..
دخل الغرفة طفلان مزعجان يتدلى المخاط من أنفيهما قالت لي إنهما (مجدي) و (محمود) إبناها.. تشرفنا.. هل أنتما مجيدان في الدراسة؟.. إن (مجدي) يحفظ الأرقام من واحد إلى عشرة..
تراجعت للوراء راسمًا أفظع علامات الدهشة على وجهي.. وتساءلت غير مصدق:
- هل تقولين هذا لتثير ذهولي فقط؟
- بل هو الواقع...
ونفش الطفل السخيف صدره وشرع يتلو الأرقام حتى عشرة، ثم أخذ يدور بوجهه يمينًا ويسارًا في فخر مبتذل.. الله!.. أنت شاطر يا أخ (مجدي).. ليس هذا فحسب.. فإن (محمود) يجيد غناء أغاني (عبد الحليم حافظ)..
ألن ينتهي هذا الهراء؟!..
وهنا دخلت خادمة صغيرة مصابة بفقر الدم تدعونا إلى مائدة الطعام فنهضنا، وقادني الزوج إلى الحمام لأغسل يدي ووجهي، ثم جلست على المائدة المرعبة المزدانة باللحوم وعشرات الأنواع من الخضر والسلاطة و.. و.. قلت لها في حرج:
- يبدو أنك توقعت أن الجيش البريطاني آت للغداء معي!
صاحت في مرح وهي تصب لي الحساء:
- بل هكذا أكلنا كل يوم..!
يا سلام!.. تريد أن تقنعني أن هناك بيتًا قادرًا على إعداد هذا الطعام يوميًا فضلًا عن طهوه..!.. إنه التفاخر الأخرق الذي لا مبرر له..
قالت لي وهي تأكل في نهم:
- هل تذكر بيت (الخضراوي)؟.
توقفت عن المضغ ونظرت نحوها في حيرة....

* * *

- ما هذا البيت يا (عماد)؟
- إنه بيت (الخضراوي) يا (رفعت)؟
- لاحظت أنكم تبتعدون عنه في أثناء اللعب...
- هكذا نصحنا بابا...
كان الإغراء قويًا..
فالبيت - الشبيه بفيلا من طابقين - كان يقف على حافة النيل بينما يتكاثف ضباب الفجر حوله فيجعله أشبه بوحش أسطوري ينتظر..، وفي أعماقي تحرك شعور شهي.. الرغبة في المجهول و الخوف منه...
- فلندخل...
صاح الأخوان في صوت واحد:
- سيعرف بابا ويعاقبنا...
- إذن فلنقترب منه أكثر...

لم أكن أجسر على الاقتراب وحدي وكنت محتاجًا للصحبة..، وفي تؤدة - كخمس قطط صغيرة تنسل فارة - زحفنا نحو البيت، أذكر هواء الفجر النادي المشبع بالمازوت (ولا أدري مصدره).. وصوت الأعشاب تتهشم تحت أقدامنا.. والمنزل يكبر.. ويكبر.. ويكبر...

لم يكن ثمة مخلوق في المنطقة سوانا، وكان السور الحديدي الصدئ المحيط بالبيت مغطى بالطحالب الخضراء و أوراق نباتات شيطانية تبرز منه، ومن خلفه لمحنا غابة - أعنى حديقة - متشابكة الغصون والأوراق، و أشجارًا لا أدري اسمها يلتف - كأنها تتلوى ألمًا - حول بعضها البعض...

كانت يد (إلهام) الصغيرة ترتجف في كفي.. وكان كفى الآخر يرتجف في كف (عماد) الذي كان كفه.... إلى آخر الدائرة..، وفي أعماقنا دوى صوت يهيب بنا مرارًا أن نبتعد.. يجب أن نبتعد.... لقد مضينا إلى أبعد مما ينبغي وحان الوقت كي نهرب قبل أن نرى ما نخشاه...

وهنا حدث شيء غريب...

* * *



وكان السور الحديدى الصدئ المحيط بالبيت مغطى بالطحالب
الخضراء وأوراق نباتات شيطانية تبرز منه ..

- لكنك لا تأكل يا د. (رفعت)!
دوى صوت الزوج يهيب بي ألا أغرق في شرود الذهن..
رفعت الملعقة إلى فمي وقلت مواصلًا المضغ:
- بيت (الخضراوي)؟.. نعم.. أذكره طبعًا...
قالت وهي تصفع أحد الطفلين كي يكف عن سكب الحساء على المفرش وتلطم الآخر كي يكف عن إعادة ما في فمه إلى الطبق:
- أنت تعرف أننا لم نعد إليه قط منذ ذلك اليوم..
- هم م م م!
-.. حسن.. لقد عادت (شيراز) من جديد!
سقط كوب الماء من يدي على مفرش المائدة..، وشرعت في ذهول أرمق بقعة الماء تتسع تدريجيًا..

* * *

كانت البوابة الصدئة موارية غير مغلقة..
ومن وراء فتحتها كانت واقفة.. وحيدة.. رقيقة.. نحيلة كزهرة.. فتاة صغيرة في مثل سننا ترتدي قميص نوم أبيض طويلًا يصل لقدميها.. وقد عقدت شريط العنق على شكل (فيونكة) صغيرة..، كان شعرها أسود فاحمًا كالليل ينساب حتى خصرها.. أما عيناها فكانتا غريبتين.. لم أكن قد رأيت عينين زرقاوين في حياتي، ولقد أصابني الذهول وأنا أرى فتاة تحمل في عينيها لجتين من مياه البحر شديدة الزرقة والصفاء والشفافية.. حتى أنني ساءلت نفسي:
- تبدو كالعمياء.. كيف ترى بهاتين المقلتين الشفافتين؟
وقفنا - كمن أصابنا مس كهربي - على البوابة عاجزين عن التفكير.. أما هي فقد فتحت البوابة أكثر.. وعلى وجهها ارتسمت أعذب ابتسامة رأيناها في حياتنا.. ثم سمعنا أجراس الملائكة تقول:
- تعالوا.. لا تخافوا.. هذا هو بيتي..!
كان (مدحت) أول من استعاد القدرة على النطق.. فقال متلعثمًا:
- هل.. هل أنت بنت الخضراوي...؟
لم ترد.. بل أشارت لنا لندخل..، ومدت يدها البلورية تعانق (عبير) وتلثمها على خدها:
- ما أجملك!.. ما اسمك يا حلوة؟.
- (عبـ..) (عبير)...
- إسم جميل.. وأنا (شيراز).. صديقتكم...
- اسمك غريب لكنه جميل يا (شيراز)...
ثم إن (شيراز) عانقت (إلهام) وهمست في رقة:
- لماذا تلبسين كالأولاد؟.. لكن - هل تريدين رأيي؟... - أعتقد أنك هكذا أجمل..
ثم صافحتني.. لن أنسى هذه اليد الباردة الشفافة البلورية ما حييت.. تعمدت عدم الضغط حتى لا أسمع صوت الـ (كراشي) الذي أخشاه!..
وفي تهيب دخلنا الحديقة معها نجرجر أقدامنا..

كانت تتقدمنا عبر الاشجار متجهة إلى البيت..، وقرعت الباب عدة مرات بمطرقة على شكل قبضة يد. فانفتح الباب عن خادم نوبي.. ثم إنها دخلت ونحن خلفها إلى مدخل أنيق تحفه المرايا والتحف...

الغريب أن نسيج العنكبوت كان يغلف كل شيء..

فهل هم لا يملكون ما يزيلون به هذا النسيج؟

* * *

- آسف جدًا.. لكني لا أفهم كيف عادت؟

قالت (إلهام) وهي تضع منشفة على مفرش المائدة فوق البلل الذي حدث:

- أمس مررت بالصدفة - في الصباح الباكر - جوار البيت فوجدتها واقفة جوار البوابة.. وكانت تضحك لي!

- غريب هذا...!

- لماذا لا تأكل يا د. (رفعت)؟

- لقد شبعت تمامًا.. ولكن.. هل حدثتها؟

- بالطبع لا.. لم أجرؤ على ذلك...

- ولمه؟.. بعد هذه السنوات.. هل تزوجت؟

- مستحيل أن تكون قد تزوجت يا د. (رفعت)..

سألتها وأنا أشعل سيجارة:

- ولماذا؟.. لابد أنها قد صارت عروسًا فاتنة...

قالت في برود وهي تصب بعض الخضر في طبق طفلها:

- إن (شيراز) يا د. (رفعت) - بعد كل هذه الأعوام - لم تزل طفلة!!

* * *

٤ - الفتاة التي لم تكبر..

- ماذا؟.. ماذا تعنين بالضبط؟
- أعني ما سمعته.. الفتاة ظلت طفلة كما عرفناها..
نفثت دخان السيجارة وتأملت التبغ في شرود.. ثم
سألت:
- تعنين أنها مصابة بتقزم هرموني؟.. خلل في الغدد مثلًا؟..
ضحكت في سخرية وهمست:
- ألا تنسى أنك طبيب أبدًا؟.. أنت تذكر تلك الأيام وتلك الفتاة.. وتعرف مثلما أعرف أن الأمر أخطر من هذا...
نظرت إلى عيني زوجها ثم إلى عيني.. وهمست:
- أعني أن هذه الفتاة لم تكن طبيعية...

* * *

نحن أيضا شعرنا بذلك ونحن تجتاز مع الفتاة صالة دارها...
العنكبوت في كل مكان وكذلك جو العظمة الغابرة.. وكانت هناك امرأة تقف جوار مائدة طعام عملاقة.. امرأة شعرها بلون الجليد.. ولها وجه رقيق مليء بالتجاعيد (ليس من ديدن الأطفال ملاحظة الثياب لكني أعتقد أن ثيابها كانت فاخرة).. وما إن لمحتنا حتى هش وجهها وبش وتقدمت نحونا:
- أصدقاء (شيراز؟).. مرحبًا بكم.. إن أصدقاء ابنتي هم أبنائي.. ومشكلتي هي أنها لا تجد أصدقاء من سنها.. ما أسماؤكم يا أحبابي؟
- (رفعت)..
- (عبير)..
- (إلهام)...
إلخ.. ثم إنها أجلستنا على المائدة وقدمت لنا (جيلي) أزرق اللون شهي المذاق إلى حد غير عادي، وشرعت تسألنا عن أهلنا ومدارسنا وأحوالنا.. ثم سألتني:
- لماذا لم أركم من قبل..؟
تنحنحت.. وبمرح قلت:
- الواقع أننا....
ابتسمت في رقة وربتت على كتفي:
- لا تقل.. دعني أخمن.. أعتقد أن أهلكم يحرمون عليكم المرور هنا..
- الواقع...
-.. فليكن..!.. لا داعي أن تخبروهم بشيء.. ولكن كل ما أرجوه هو أن تعودوا إلي من وقت لآخر..

وقدمت لي طبقًا مليئًا بالشُليك (الفراولة)..

* * *

أنهيت التهام الشُليك الذي قدمته لي (إلهام) وقلت:
- الواقع أن كل شيء كان غريبًا هناك.. الـ (جيلي) الأزرق والشليك في (نوفمبر) ورائحة الجو...
- بالذات رائحة الجو...
ثم نظرت إلى إبنها.. وهتفت:
- (مجدي).. إذا كنت قد فرغت من طعامك فلتعد لحجرتك..

* * *

- نعم.. فرغنا من طعامنا ويجب أن نعود...
قلناها في حرج للأم التي قادتنا إلى الباب الخارجي ومعها طفلتها الحسناء..
وفتحت لنا البوابة فدوى ذلك الصرير البارد..
- مع السلامة يا أحباب..
- مع السلامة..
وخرجنا لا نلوي على شيء.. لكننا كنا محبوسي الأنفاس مبهورين بهذا العالم الغامض الذي لم نر مثله من قبل..
لم نثرثر ولم نتبادل الآراء لكننا عرفنا جميعًا أننا سنعود وأننا لن نحدث الكبار عن شيء.. أما (شيراز) فظل مذاقها في ثغورنا وأرواحنا كحبة (شُليك) حمراء باردة تبلورت حبيبات السكر على مسامها..
وقبل أن نبتعد عن البيت صاحت (عبير) في حيرة وهي تشير إليه:
- هل لاحظتم شيئًا غريبًا؟...
- ماذا تعنين؟..
- إنها ساعات النهار الأولى والطيور تتزاحم فوق الأشجار.. لكنني لا أرى طائرًا واحدًا فوق أغصان هذا البيت!

* * *

- هل تذكر فرار الطيور بعيدًا عن حديقتهم؟
- والقطط الضالة...
قال الزوج وهو يضع الأطباق بعضها فوق البعض:
- الواقع أنكم كنتم شديدي البراءة.. لقد فعلت الطبيعة كل ما تستطيع كي تحذركم من أن ما يجري في هذا البيت مريب.. لكنكم لم تفهموا...

* * *

نعم لم نفهم...

وفي الأيام التالية صرنا نذهب للبيت.. أحيانًا في النهار وأحيانًا بعد الغروب، وكانت (شيراز) دائمًا هناك واقفة خلف البوابة الصدئة..

وكعادتها تضحك وتلثم الفتاتين وتقودنا للداخل.. ويبدأ الحلم... ألعاب لا حصر لها.. المساكة.. لعبة الأدغال.. صيد السحالي الصغيرة (لم يكن يلعبها سوى الصبيان بطبيعة الحال)... لعبة الكرة.. تسلق الأشجار.. وبعد ساعتين كنا نفارق البيت غارقين في العرق تختلج السعادة في أعماقنا، نتمنى أن نموت فلا نبعث إلا حين يأتي موعد الغد..

* * *

- (شيراز).. أنا أحبك..
- (رفعت).. كف عن هذا وإلا أخبرت ماما...
- سأموت إذا ما طلبت أنت مني ذلك!
- إذن.. مَت!

فأمسك بقلبي وأتلوى ألمًا ثم أسقط على الأرض فوق الأغصان المهشمة والأوراق الجافة.. صوت التهشم..

- هأنذا قد مت كما أردت.. والآن هل تحبينني؟!

فتركل جسدي الممدد على الأرض في دلال.. وتصيح:

- كاذب رعديد!.. وماذا عن (إلهام)؟

أصيح وأنا أغمض عيني من جراء أشعة الشمس:

- لم تعد تعنيني قط...
- سأخبرها..!

عندئذ أنسى دور العاشق اللاتيني الذي ألعبه وأنهض ملوحًا بقبضتي..

- حاولي أن تقولي لها شيئًا وسأكسر رقبتك!

لكنها تكون قد تركتني وانطلقت تجري بين الأشجار واضعة كفيها على فيها كمكبر الصوت.. وهي تصيح:

- اسمعي يا (إلهام)!.. (رفعت) يقول...
- اخرسي يا مجنونة!..

وأكون قد لحقت بها و أمسكت بـ.. بمرفقها وجذبته بقوة فيختل توازنها وتسقط على رأسها سقطة قوية كاد فؤادي ينخلع لها... أدركت دون جهد أنها - ولابد - جرحت جرحًا بليغًا وسيكون موقفي عسيرًا أمام أهلها.. وأمام أهلي.. وأمامه..!

ساعدتها على النهوض و أنا أعتذر بعنف.

- سامحيني!.. كنت أمزح..!

المقت والألم في لجة العينين الزرقاوين كأنما ألقي فيهما حجر..، تمسك بجبهتها ولا ترد.. لكني أرى الجرح بوضوح تام يشق جلد الجبين البلوري.. والغريب هنا أنني لم أر قطرة دم واحدة!.. ولا قطرة.. كأنما الجرح في قطعة من الشمع..

- إنه لجرح كبير.. يجب أن تذهبي للمستشفى حيث...

- لا...!



لكنى أرى الخرج بوضوح تام يشق جلد الجين البلورى ..

والغريب هذا أننى لم أر قطرة دم واحدة ؟ ..

قالتها في حزم وصرامة.. ثم أسدلت بعض خصلات الليل الأسود فوق الجرح ونهضت في كبرياء وأنا وراءها خزيان..

كان الحرج يمنعني من توجيه الأسئلة.. أسئلة لا بد منها عن الجرح الذي لا ينزف دمًا.. لهذا تناسيت القصة كلها و عدت أحاول اكتساب رضاها..

وتوسلت لها مرارًا ألا تخبر أمها إنني السبب...

- أنت جبان...

- نعم جبان جدًا.. ولكن ليس خوفًا من العقاب بل خوفًا من الحرج...

ضحكت في دلال وهزت شعرها تلقائيًا، قائلة:

- أنت تجيد تبرير عيوبك...!

غريب هذا..!

لم أكن في هذه المرة قادرًا على رؤية الجرح!..، لقد سقطت خصلات الشعر التي تداريه.. وها هو ذا الموضع أمام عيني.. لكني لا أرى الجرح!.. لا أراه وأقسم على ذلك..

* * *

قالت (إلهام) وهي تصب الشاي:

- أكثر من مرة جرحت الأشواك يدها أمامي ولم أر دمًا..

قلت في دهشة:

- لاحظت ذلك أنت الأخرى؟.. ولم لم تخبرينا؟

- إن الأطفال يرون أشياء كثيرة لكنهم لا يحاولون تفسيرها..

تناولت قدح الشاي منها شاكرًا ووضعته أمامي..

أفضل أن يكون الشاي في كوب لكني لم أجرؤ على طلب ذلك منها.

قال زوجها وهو يتناول قدح الشاي الخاص به:

- تقول (المدام) إنك كنت مدلهًا في حب (شيراز)...

غمغمت (إلهام) وهي ترفع حاجبها الأيسر في تهكم:

- ليس هو فقط.. بل و (سامح) و (عماد) كذلك...

* * *

أية آلام مزقت القلب الصغير - قلب (إلهام) - وهي تفقد عرشها ببطء..!!..

لم تعد ملكة (سبأ) ولا سيدة الأقمار السبع ولم يعد الأولاد الثلاثة يصطرعون من أجلها.. ولم يعد أحد يهتم بمعاونتها على تسلق الأشجار أو عبور الحفر العميقة.. ومنذ شهرين لم يسط أحد على الفيلا المجاورة ليسرق لها وردة حمراء من الحديقة..

لقد احتلت اللعينة (شيراز) كل جوارحنا.. ولم نعد نتقاتل إلا من أجلها.. ولا نمزح إلا من أجلها.. ولا نتحدث إلا عنها..

كل الورد الأحمر وقطع (الكاراميل) ورسومي صارت لها وحدها.. حتى ضرس (عماد) المخلوع المسوس احتفظ به ليريه لها وحدها.. ولم يره أحدنا برغم توسلاتنا..

كان القلب الصغير يطفح بالألم وبالحمم وبالصديد لكنها ظلت صامتة تتظاهر بالمرح.. كانت (إلهام) تتعذب..

ولم تكن قادرة على الحقد على (شيراز) لأنها كانت دونها في كل شيء بثياب الفتيان التي ترتديها وشعرها القصير والسن الناقصة التي تظهر إذا ابتسمت.

القلب الصغير يطفح بالقطران والدخان الأسود...

إلى أن جاء اليوم الذي انفجرت فيه..

كنا نلعب الـ (سيجة) على الأرض.. نحن الثلاثة ضد (شيراز) وكانت (عبير) تراقب الموقف في خبث.. وهنا سمعنا صرخة.. صرخة روح تحترق:

- أنتم جميعًا هنا من أجلها.. لا أحد يريدني.. ولم يعد أحد يعبأ بي!

كذا صرخت (إلهام) وهي تركل الأرض مبعثرة رقعة (السيجة) التي رسمناها بالطبشور... ثم أردفت والدمع يترقرق في عينيها:

- ليكن.. سأعود لداري ولن آتي هنا أبدًا..!

وليس هذا كل شيء..

- وسأخبر كل الناس أنكم تأتون هنا!

وقبل أن نفهم ما حدث كانت قد فرت جارية من الحديقة.. صورة مصغرة للانتقام.. (سالومي) الطفلة دامعة العينين تهرول في الطرقات عازمة على خراب بيتنا..!

* * *

- كنت غيورًا جدًا والحق يقال..

قالت (إلهام) وهي تبتسم في حرج:

- كنت (فتاة) جدًا.. هذا هو كل شيء..

- وجلبت الوبال على رؤوسنا...

- علي وعلى أعدائي!

رشفت جرعة من الشاي وأنا أسمع صوت خالي يناديا بعد أن فرغ - هو الأخر - من رشف الشاي..

* * *

وقفنا - أنا و (عماد) و(مدحت) و (عبير) - محمري الأذان أمام خالي بانتظار كلمته الأخيرة.. بينما يتبادل وزوجته نظرات ذات معنى..

ثم قال في تودة:

- عرفت من أم (إلهام) أنكم تذهبون إلى بيت (الخضراوي).. ألم أنهكم عن ذلك؟

ساد الصمت البليغ لبضع ثوان...

- كم مرة ذهبتم هناك؟

-.....
- كم مرة؟.. ثلاث مرات... أربعًا... عشرًا؟
-.....
- أكثر من عشر مرات؟!
واحمر وجهه - كعرف الديك - وأوشك على الكلام لولا أن تدخلت زوج خالي:
- لحظة.. ماذا رأيتم هناك؟..
بحرج شديد و ارتباك بدأنا نحكي كل شيء.. (شيراز) والأم والخادم النوبي و غيرة (إلهام).. إلخ.. إلخ...
كان الاهتمام يتزايد على وجه خالي، والرعب ينمو في سحنة زوجته، وثمة نظرة جانبية ذات معنى تبادلاها.. ثم عادا ينظران لنا..
نهض خالي - بعد ما أنهينا القصة - إلى المكتبة فتناول المصحف مذهب الأطراف وعاد به ليضعه على مائدة الطعام.. وسألنا:
- ما هذا؟
- مصحف
- إذن أقسموا عليه إنكم لن تعودوا إلى هذا البيت ما دمت أنا حيًا..
- ولكن...
- لا لكن.. إنكم لا تعرفون ربع ما نعرفه نحن الكبار عن ذلك البيت.. و أقسم بهذا الكتاب الكريم إن من لا يقسم منكم على ما أقول سينال أشنع عقاب...
لم تكن أمامنا حيلة...
أقسمنا.. والدمع في عيوننا.. وثمة شعور عام أننا قد خنّا (شيراز) وخذلناها.. وأدركنا أن حياتنا من دونها ستكون أقسى وأكثر مللًا..

* * *

إلى هنا و القصة لم تزل عادية...
لكن الأقاويل تتناثر هنا وهناك..
ولا يمكن لسر أن يظل في قبره..
لقد جاء اليوم الذي عرفنا فيه سر قلق خالي وذعر زوجته..
وكانوا محقين..
لقد توفيت زوجة (الخضراوي) وابنته (شيراز) وكل خدم البيت في حادث غامض عام ١٩٢١...
وبالتحديد.. قبل أن ندخل نحن البيت بخمسة عشر عامًا..!

* * *

٥ - لماذا عادت؟..

قال لي زوج (إلهام):
- ألم تشعروا بالخوف؟
نظرت نحو (إلهام) نظرة ذات معنى.. ثم قلنا في صوت واحد:
- بلى.. شعرنا به بعض الوقت ثم نسينا الأمر برمته..
أردفت أنا في صوت خفيض:
- إن عواطف الأطفال سطحية جدًا ولا تدوم أكثر من دخان التبغ..
- ربما كانت دهشتنا أكبر بمراحل من خوفنا...
ساد الصمت بضع دقائق.. ثم إنني رفعت عينًا متوجسة نحو (إلهام).. حتى هذه اللحظة لم أفهم كنه المشكلة..، هي مجرد ذكرى مرعبة وانتهت ولم يعد هناك ما يدعو للقلق...
ربما رأت (شيراز).. وربما فوجئت بكونها لم تكبر.. فما الغريب في كل هذا؟.. لقد تأكدنا تمامًا من أن (شيراز) شبح.. شبح من عالم الطفولة لا يراه سوى الأطفال ويخشاه الكبار كثيرًا.. فما هو الجديد إذن..؟..
قالت (إلهام) وهي تنظر للأرض باحثة عن كلمات:
- كانت الأمور مستقرة تمامًا على ما عهدناه.. ثم بدأت أشياء مريبة تحدث..
- مريبة...؟
لعقت شفتيها بلسانها.. وهمست:
- أعتقد أن (شيراز) قد تركت البيت باحثة عنا!

* * *

- (مجدي)!.. تعال واحك لأونكل ما رأيته!
اللعنة!.. هل يجب علي أن أستمع لهذا الوغد الصغير مرة أخرى؟..
ها هو ذا قادم حاملًا كتابًا دراسيًا وقد بدا عليه الفخر الصبياني المبتذل لأهميته..
سأل الأب ابنه وهو يديره نحوي:
- ماذا رأيت الأسبوع الماضي؟
- رأيت الأسد في التليفزيون..
- ليس هذا يا أحمق!.. احك ما رأيته في الشارع المجاور..
و ابتلع الصبي ريقه.. ودمدم:
- رأيت فتاة...
- وكيف كان شكلها؟
رفع الطفل يده إلى رأسه محاكيًا شعر الأنثى:
- جميلة جدًا جدًا.. شعرها أسود.. وعيناها زرقاوان...

نظرت لي (إلهام) نظرة عابرة معناها - حتمًا - (ألا يذكرك هذا الوصف بشيء؟).. ثم طلبت منه أن يستمر..
- كانت ترتدي قميص نوم أبيض.. و...
- و..؟
- طلبت مني أن ألعب معها.. لكني خفت منها..
- ولماذا؟....
اتسعت عيناه رعبًا وأرجع رأسه للوراء:
- لا أدري.. خفت منها..
- نعم.. ولكن لماذا؟
ضيق عينيه في توتر، وقال:
- ربما.. ربما لأنها لم تكن تترك ظلًا على الأرض!!
تبادلت وأبوه نظرة حيري.. لكن (إلهام) لم تتوقف عند هذه النقطة بل واصلت الاستجواب:
- وماذا قالت لك بعدها؟
- طلبت أن أنقل تحياتها لأمي!
عند هذا الحد وثبت (إلهام) في مقعدها وقد بدت على ملامحها أمارات الظفر.. وهتفت:
- هل رأيت؟.. إنها تذكرنا!
قلت في حيرة وأنا أشعل لفافة تبغ:
- من هي؟
- (شيراز) طبعًا.. لا أظنك بهذا الحمق...
حككت رأسي في شرود مغمغمًا:
- الواقع يا (إلهام) أنني لا أجد الأمور بهذا الوضوح.. إن القصة كلها تبدو لي نوعًا من الخلط..
- بل هي واضحة كالشمس..
وضربت الطفل على ردفه ليعود لحجرته.. ثم استطردت:
- بعد كل هذه السنوات لم تزل الفتاة تستشعر الوحدة.. ولم تزل تبحث عن أصدقاء الطفولة،.. أو - على الأقل - تبحث عن أبنائهم...؟!
- ألا ترين في هذا نوعًا من المبالغة؟
نهضت في تؤدة لتضيء المصباح النيون المعلق فوق رؤوسنا.. والضوء الأبيض النظيف يغلف الوجوه وقطع الأثاث.. وهمست:
- د. (رفعت).. يجب أن نبحث عن الآخرين...
- الآخرين؟
- نعم.. أولاد خالك..
- فكرة لا بأس بها.. ولكن لماذا؟
- يجب أن نعرف لماذا عادت (شيراز)؟ وما الذي تبغيه منا؟
قالتها وابتسمت ابتسامة لم أدر مغزاها...

* * *

قلت لـ (شيراز) وأنا أتأمل مشهد الغروب:
- (شيراز).. أنا أخاف الغروب.. كأنني أرى مصرع الشمس..
التمع الضوء الأرجواني في لجتي عينيها الزرقاوين.. وهمست:
- الشمس لا تموت عند الغروب يا (رفعت).. بل تذهب لتنام في دارها بعيدًا بعيدًا..
كنت أرتجف كالورقة وخصلات شعرها الأسود تلمس أذني:
- (شيراز).. أنا خائف....
- خائف وأنا معك؟!
لم أستطع أن أصارحها بالشعور الغريب الذي ينتابني أحيانًا.. لم أجرؤ أن أخبرها أنني خائف لأنها معي!

* * *



لم أستطع أن أصارحها بالشعور الغريب الذى ينتابنى أحيانًا ..

مددت إصبعي إلى قرص الهاتف وضغطت على السماعة ما بين أذني وكتفي لأتمكن من تقليب دفتر الأرقام الصغير..

هاهو ذا رقم (مدحت)..٣.. ١.. ٤.. ٢.. ٥.. ٦.. صوت الرنين المتقطع ثم صوت طفلة تتحدث بأسلوب الأطفال الناعس المتراخي.. ماذا تريد؟.. بابا؟.. ماذا تريد من بابا؟.. إلخ.. ثم صوت رجل يضحك ويتناول السماعة منها ليسألني في رصانة عن شخصي.. ثم...

- (رفعت)!.. أيها النذل العجوز!. أين ذهبت؟

- أنا أتحدث من (المنصورة).. من عند (إلهـ...).. مدام (إلهام)..

ارتفع صراخه الودي في الهاتف يحلف آلاف الأيمان إننا لابد ملتقيان.. أعطيته العنوان وطلبت منه أن يحضر (عماد) و (عبير) معه لأن هناك موضوعًا ما لابد من مناقشته.. حاول التنصل أو التأجيل لكني كنت مصرًا كالخرتيت..، من ثم وعدني بأن يحضر أخاه وأخته وزوجته وزوجة أخيه وزوج أخته والأولاد جميعًا.. و...

- أ.. (مدحت).. إن الموضوع جدي وخطير.. وليس حفل تعارف لنادي الـ (روتاري).. حاول أن تأتي أنت و (عماد) و (عبير) فقط، على الأقل حتى لا ندمر شقة مضيفي...

- فليكن...

ووضعت السماعة وهززت رأسي للزوج و(إلهام) أن قد تم الاتفاق دون خسائر.. وسيكون موعدنا هذا المساء..

* * *

وكانت الأم تقطع لعبنا أحيانًا لتحضر لنا صينية عليها أكواب عصير البرتقال أخضر اللون (!!).. أكواب باردة تكاثف بخار الماء على زجاجها.. فكنا نرشفها في نهم وسرعان ما تتكاثف قطرات العرق على جبيننا.. وتغمرنا النشوة..

- برتقال عصيره أخضر وجيلي أزرق!.. لا يوجد شيء واحد طبيعي في هذا البيت..

قالتها (إلهام) وهي تتأمل كوبها في فتور..

- و لكن هذا هو ما يجذبنا إليه.. أليس كذلك؟

- بلى.. ولكن.....

* * *

ولكن اللقاء كان حارًا في شقة (إلهام)...

أبناء خالي الأعزاء.. لقد تبدلوا جميعًا لكن الماضي ما زال في أعطافهم..

كان (عماد) قد صار مهندسًا.. و (مدحت) معلمًا.. و(عبير) ربة بيت غير عاملة..، ازداد التوءمان بدانة وازدادت أختهما ضمورًا..

وفي الصالون بدأنا المناقشة... في كياسة ذكرتهم (إلهام) بذكرانا المشتركة المرعبة.. قصة (شيراز) و أمها والمأساة التي سببتها لنا (إلهام) بغيرتها الشديدة..

ثم إنها بدأت تحكي التطورات الأخيرة.. وأنهت كلامها قائلة إن هناك ما يدعوها للاعتقاد أن (شيراز) قد عادت تبحث عنا...

(عبير) كانت أول من تكلم.. فصرخت في استبشاع:

- كفاك يا (إلهام) أرجوك.. لقد حاولت نسيان هذه القصة.. وكدت أنجح لولاك..!

وهز (مدحت) رأسه في استخفاف:

- ألهذا طلبت لقاءنا؟.. كنت أظن الأمر أشد هولًا!

أما عن (عماد) فلم يأت باعتراض معين.. ثم إنه رفع رأسه نحونا في قلق وهمس:

- لم أرد أن أخبركم كي لا تقولوا إنني معتوه.. لكن ما دمتم ترون ذلك وتشاركونني الرأي فإنني...

قلت له في غيظ:

- عم تتحدث بالذات؟

ابتلع ريقه متحاشيًا نظراتنا.. وغمغم:

- عن (شيراز) بالطبع.. لقد رأتها ابنتي منذ خمسة أيام..!

- هكذا؟.. وهل دعتها لمشاطرتها اللعب؟

- كان هذا عسيرًا...

ثم رفع عينيه إلى وجهي.. وأردف:

- تقول ابنتي إن الفتاة التي قابلتها كان لها نابان حادان.. وكان لسانها مشقوقًا كالأفاعي...!!

* * *

٦ - الملاك المفترس..

تربعت على الفراش مرتديًا منامة (عماد) أدخن سيجارتي الأخيرة (سيجارة ما قبل النوم وليس الموت طبعًا) حين دخل (عماد) الحجرة..

فما إن شاهد سحب الدخان حتى أخذ يلوح بيده في الهواء كمن يختنق.. وهتف وهو يسعل:

- ماذا أقول في طبيب يدخن كأوتوبيس الأرياف؟..

- نفس التعليق السمج الذي لا أسمع غيره.. إنني أدخن لأنني ضعيف الإرادة مزعزع الشخصية مختل النفسية.. فهل هذا ما تريد قوله؟...

- بالحرف الواحد..!

- إذن قد أرحتك من الثرثرة.. والآن هلم اجلس وقل لي ما يدور بخلدك...

تربع على الفراش جواري وبدأ يشرح لي مخاوفه..

كان الليل قد انتصف حين اندس تحت الغطاء جواري فأدركت في هلع أنه سينام معي على سبيل الترحيب!..

إنه بيته فلن أجرؤ على أن أطرده من الحجرة لينام في أي مكان أخر.. وزوجته تغفو مع ابنته في الفراش الآخر باعتبار هذا هو التنسيق الوحيد الممكن حتى لا ينام أحدنا على الأرض...، وبعد دقائق بدأ صوت شخيره المزعج فأيقنت أنه لا نوم في هذه الليلة السوداء...

* * *

تك تك!.. تك تك!.. خ خ خ!.. تك تك!.. خ خ خ!

طريف هو امتزاج صوت شخيره مع صوت محرك الساعة.. والتزامن المثير للإعجاب.. أحداث يومي كلها تتشكل في الهواء الأسود كأنه شاشة وهمية تسقط عليها أشعة وعيي..

و..... صرير الباب...

ظل يرتمي داخلًا الحجرة.. ثم (سيلويت) ابنته يملأ فتحة الباب المضيئة.. ماذا أتى بها ها هنا؟.. إنها حجرتها على كل حال ولربما نسيت شيئًا ما من كتب دراستها أو حاجياتها وجاءت لتأخذها في هدوء دون أن تزعجنا.. ها هي ذي تنسل في بطء إلى جوار الفراش..

صوت حفيف ثوبها الطويل.. وصوت قدميها الحافيتين.. وصرير الباركيه...

تأملت في شرود شعرها الطويل المنسدل على كتفيها يتلألأ في ضوء الصالة الخافت.. و...

وهنا أدركت أن هذه ليست ابنة (عماد)..!..

إنها - بالتأكيد - أطول قامة منها.. و(سارة) ابنة (عماد) لا تملك سوى بعض خصلات الشعر القصير على جانبي جمجمتها..!..

توقف قلبي عن الخفقان...

إن هذه الفتاة - أو هذا الشيء - يقترب بتؤدة من الفراش.. من الناحية التي أنام عندها.. إنني الآن أراها بوضوح...

كانت هي (شيراز)!..

فـ.. فـ.. فتحت فمي لأ.. لأصرخ لـــ.. لكن الكلمات - بالطبع - انحشرت في حلقي.. ثم...



إن هذه الفتاة ، أو هذا الشيء ، يقترب بتؤدة من الفراش ..

ساد الظلام برهة عرفت بعدها أنني فقدت الوعي لجزء من الثانية.. لكني حين عدت لعالم الواقع كانت بعد هناك واقفة جوار فراشي ترمقني بعينين زرقاوين شفافتين..

- (رفعت)..!.. ما زلت تذكرني..

-.....!

- يجب أن تنقذني..!.. ألا ترى أنني أتحول لمسخ؟!

وفي بطء فتحت فاها.. لسان مشقوق كلسان الأفاعي ينزلق ما بين صفين من الأنياب البيضاء اللامعة..

- يجب أن تفعل شيئًا.. أرجوك!!

سأصرخ.. هذه المرة سأصرخ ولن تحتبس الحروف في حلقي.. أصرخ.. أصرخ..

استيقظ (عماد) مفزوعًا فما إن رأى ما رأيت حتى فهم على الفور ما هنالك.. وكانت مشاركته - ذلك الأبله - فعالة حقًا اذ احتضنني في هستيريا وشرع يصرخ معي..!

صراخ.. صراخ.. صراخ...

نور الغرفة يضاء.. وزوجة (عماد) وابنته تقفان على الباب ترمقاننا في جزع ودهشة...

نظرنا حولنا فلم نر الفتاة....

اختفت.. تبخرت تمامًا...

طفقنا بكلمات مبعثرة نشرح للزوجة ما حدث.. شبح فتاة كنا نلعب معها في الطفولة برغم أنها كانت قد توفيت.. الأمر الذي لم يقنعها كثيرًا في الواقع..

- يا فرحتي!.. رجلان ناضجان مثلكما يصرخان بعد منتصف الليل كالندابات.. وكل هذا لأنهما يخشيان الظلام!

- ليس الأمر كما تتصورين يا (فايزة).. لقد رأيناها معًا في نفس الوقت...

مصمصت بشفتيها وتثاءبت ثم أمسكت كف ابنتها عائدة إلى حجرة النوم.. ولم تنس أن تسألنا عما إذا كنا نرغب في ترك النور مضاء..

بالطبع نرغب.....!

* * *

في الصباح اتصلت بـ (مدحت) لأخبره بما حدث أمس فوجدته في حال سيئة جدًا.. فـ (شيراز) - كما قال - كانت هناك.. تنتظره جوار باب دورة المياه وكانت تضحك برقة..!

أما (إلهام) فاكتفت بأن أكدت - في فتور - أن (شيراز) ظلت تجوب صالة دارها طيلة الليل..!، وأنها - حين أيقظت زوجها - لم تجد للفتاة أثرًا وصارحها زوجها بأنها حقًا مخبولة...

إن ما حدث لا يترك مجالًا للشكوك..

إن اللعينة - (شيراز) لا (إلهام) - تحوم حولنا وتطاردنا..

كأنها أدركت أننا التقينا بعد كل هذه الأعوام...

كأنها تريد منا شيئًا...

كأنها تطلب منا أن نعود إلى البيت..

* * *

وعند (عماد) التقينا..، كانت (إلهام) قد جاءت مع زوجها الذي بدا غير مصدق لكل هذا السخف..
لكنه حين عرف أننا جميعًا رأينا الفتاة أمس وفي نفس الظروف تقريبًا بدأ يهتم.. وعلى وجهه الأشيب الوقور ازدحمت تجاعيد القلق... لا توجد هلوسة جماعية على الأقل بالنسبة لأشخاص متباعدين..، وهكذا دار الحوار بيننا..
كان السؤال الأول الذي سألته (عبير) هو: لماذا عادت (شيراز)؟..
الإجابة سهلة: عادت لأنها تريد شيئًا ما...!
السؤال الثاني: ما هو هذا الشيء؟..
الإجابة: لا ندري.. ليتها تحدثت صراحة..، لكني أضفت هنا أنها طالبتني بإنقاذها قبل أن تتحول إلى مسخ.. وهذه نقطة هامة..
السؤال الثالث: ما سر التبدل البشع في مظهرها؟..
الإجابة: لأنها - كما قلنا - في سبيلها للتحول إلى مسخ..
السؤال الرابع: لماذا نهتم بكل هذا؟..
الإجابة: لأنها تطاردنا.. ومن الواضح أنها لن تتوقف عن ذلك.. ولا أحد منا قادر على ممارسة حياة طبيعية منتجة في وجود شبح في داره.. فضلًا عن أننا جميعًا سنصاب بالخبال خلال أيام إذا استمر الحال على هذا المنوال...
السؤال الخامس: وماذا سنفعل؟...
الإجابة: لا شيء.. إن (شيراز) هي التي ستتخذ الخطوة الأولى..
فقط علينا أن نبقى متلاصقين وعلى اتصال...
لا نعتقد أن (شيراز) ستؤذينا.. فقط ستكتفي بتعكير صفو حياتنا وإصابتنا بجلطات في المخ والشرايين التاجية...
لكنها أحبتنا.. نحن متأكدون من ذلك...
قالت (إلهام) في غيظ أثار دهشتي:
- كنتم جميعًا تحبونها.. خاصة السيد (رفعت)...
هززت رأسي في ارتباك ودمدمت:
- لم أكن قد رأيت عيونًا زرقاء في حياتي!.. هذا كل شيء!
- عذر أقبح من ذنب...

* * *

أطفال تغمرنا النشوة...
نتبادل ألفاظًا سكري..
ألتذ براءة ضحكتها..
أجتر عبير سذاجتها..
وتكافح كي تبدو أنثي..
وأجاهد كي أبدو رجلا...!

من قصيدة قديمة لـ د. (رفعت).

سألت (عماد) وأنا أنتزع آخر سيجارة في العلبة..
- لم نعرف بعد من يقطن البيت الآن؟ ولا مالكه..
هز (عماد) رأسه.. وداعب شعر ابنته التي تلهو على البساط ببعض المكعبات الخشبية.. وقال:
- بعد وفاة الأسرة آلت ملكية البيت لأحد الورثة المقيمين في الخارج.. ولم يره أحد - ولا أبناؤه - طيلة هذه السنين..، إن سمعة البيت سيئة ولن يدهشني ألا يكون قد وجد مشتريًا...
- ولكن.. لابد أن هناك شخصًا ما يعني بالبيت.. محاميًا أو خفيرًا أو أحد الأقارب..، ما الذي يمنع أي معتد من أن يقتحم البيت ويستولى عليه؟
- على الأقل لن يكون من أبناء (المنصورة).. فكلهم يعرفون هذا البيت ويخشونه كالموت ذاته..
ساد الصمت برهة.. ثم إنني نظرت إلى (مدحت) وسألت:
- هل عرفتم تفاصيل أكثر عن الحادث الذي أودى بالأسرة؟
قال (مدحت) وهو يضع ساقًا على ساق:
- إن القصة قديمة جدًا وقد دخلت في قاموس الأساطير منذ زمن.. لكن لا أحد يعرف سوى أن الأسرة فقدت عائلها.. ثم وجدوا جميعًا موتى..، ويقال إن اللعنة حلت بالدار من لحظتها...
- إنها القصة القديمة إذن....
ثم إنني ألقيت برأسي للوراء وتنهدت..
- من الصعب علي أن أصدق كل هذا.. أنا بالذات محارب الخرافات القديم.. أقابل شبحًا بل وأطالب بإرضائه..
كانت ذكرى (شيراز) قد تبخرت تمامًا ولم تعد تزور وعيي، وحتى حين كانت تزوره في ليالي الشتاء الباردة كنت أقول لنفسي إن هناك (تفسيرًا ماديًا ما) لكل هذا...
منذ اعوام لم يكن كبريائي وصمود منطقي العلمي قابلين للتزعزع وحين اصطدمت بالمذءوب والنداهة وآكل البشر و (الزومبي) و (ميدوسا) وجدت دائمًا ذلك التفسير المادي..
لكن وحش (لوخ نس) و (العساس) و(الفرعون الغاضب) أحدثوا شروخًا في جدار هذا المنطق الصلب.. واليوم ها هي ذي (شيراز) تعود لتؤكد لي أن كل شيء ممكن، وأن ضيق الأفق ليس هو من يؤمن بعالم ما وراء الطبيعة.. بل هو من لا يؤمن به..
عجيب هذا الكون!.. غموض قاس أليم.. والمصيبة أنني سأموت يومًا دون أن أفهم.. ودون أن أتعلم.. وستظل علامات الاستفهام خالدة تؤرق منام شاب آخر يحسب نفسه ذكيًا.. وستؤرق منام أحفاده وأحفاد أحفاده إلى يوم الحساب..!
وفجأة.. وفي الضوء الخافت المخيم على غرفة الجلوس لمحت وجوه الجالسين حولي تشحب...
نظرت لأرى ما أثار رعبهم فوجدت...
كانت (شيراز) واقفة عند مدخل الحجرة ووجهها خارج دائرة الضوء..!
وسمعت ابنة (عماد) تزأر وقد وقفت في هلع ناثرة مكعباتها الخشبية من حولها.
- (بابا).. إنها نفس الفتاة!.. لقد عادت!
تصلبت أجسادنا جميعًا وشلت أفكارنا.. بعدُ لم نستطع استيعاب فكرة أننا نرى شبحًا وأن هذا الشبح يقف الآن معنا في غرفة واحدة..

كانت تتحرك ببطء.. ووجهها يدخل دائرة الضوء.. الآن نراه.. لن أصفه لك تاركًا الأمر لخيالك لكنني فقط أزعم أنه أبشع وجه رأيته في حياتي..

كانت الفتاة صادقة في ما قالته...

إنها تتحول فعلًا إلى مسخ.. وبسرعة لا تصدق..

ومن أعمق أعماق الهاوية حيث أرواح المعذبين جاءنا صوتها المتحشرج الباكي:

- أنتم لم تنجدوني حين أتيت لكم طالبة العون..

ونظرت بعينيها الحمراوين لي وهمست:

- الويل لكم!.. الويل لكم!

* * *

٧ - فلندخل البيت..

اقتضى الأمر بعض الوقت حتى تفيق (عبير) من إغماؤها، وتكف (سارة) عن الصراخ الهستيري، ويستعيد (عماد) ترابط كلماته، ويستعيد قلبي انتظام خفقاته...

وحين عادت المياه إلى مجاريها كانت (عبير) أول من تكلم.. فصاحت في هستيريا::

- ماذا تريد هذه الملعونة منا؟.. كيف ننقذها؟

قالت (إلهام) وهي تبلل وجه (عبير) بمنديل مبتل:

- من الواضح أن المشكلة تبدأ وتنتهي في البيت...

قال (مدحت) في ضيق صدر:

- إذن ندخله!

هب (عماد) مذعورًا.. فالفكرة لم تكن واردة لديه أصلًا. ثم رأى أن الحكمة تقتضي بألا يبدو مذعورًا إلى هذا الحد.. فقال مبتلعًا ريقه:

- لقد أقسمنا أمام أبي - رحمه الله - على أن نبتعد عن البيت..

راقت لي الفكرة وبدا لي أنها ستضفي على جبننا مسحة لا بأس بها من الشرف.. لكن (عبير) - عليها اللعنة - قالت بمجرد أن أفاقت تمامًا:

- كان القسم يتضمن أننا لن ندخل البيت ما دام أبي حيًا.. أما وقد توفاه الله فقد تحررنا من قسمنا.. يمكننا دخول الدار!

حقًا... يالك من عبقرية!.. كنت أخشى أن نحرم من هذه الغامرة الشيقة.. ألا بارك الله فيك!..

بلل (مدحت) شفتيه الجافتين بلسانه.. وهمس:

- إذن.. متى ندخله؟!

* * *

ياله من سؤال!..

بالطبع في ضوء النهار يا (مدحت).. وبالطبع بعد أن أتسلح بمسدسي.. لا داعي لأن تحضر أحد خبراء الأرواح لأن المشكلة مشكلتنا ولن يساعدنا كثيرًا.. ثم إن النصابين فيهم أكثر بمراحل من الصادقين، ولا نود أن ندخل في مشكلة الهدهد اليتيم والنملة المصابة بالبواسير..

كذلك لا أري داعيًا لأن يصحبنا زوج (عبير) وزوج (إلهام) لأن البيت لا يعرفهما ولا يحمل لهما ذكرى..

ولربما أدى هذا إلى نتائج غير متوقعة..

سندخل البيت في نفس التشكيل القديم وستكون كل من المرأتين خير رفيق للأخرى.. وسيكون التوءمان خير رفيقين لأختهما...

هل نحمل شيئًا آخر؟.. في الواقع لا أدري باحتمالات ما قد نراه في الداخل..

لكني لا أرى مانعًا من أن نحمل بطاريتين وحبلًا..

لماذا الحبل؟.. لأنهم يحملون حبلًا دائمًا في القصص يا سيدي!..

(عماد) يحمل سكين الجيش السويسري من طراز (فكتوريا نوكس) وهى تعطى فرصة استعمال مفك ومطواة وفتاحة زجاجات.. إلخ...
معي مصحف صغير الحجم.. و.. ماء وطعام؟.. لا أدري يا (إلهام) فلا أظن المسألة تحتمل كل هذا التعقيد.. لكن... لم لا؟.. احملي حقيبة صغيرة بها بعض المعلبات والخبز وزمزميات ماء.. كلا!... لا داعي لعمل شطائر كفتة أو لحم بارد.. فلسنا ذاهبين إلى حديقة الحيوانات بالطبع...
هل أنتم مستعدون؟...
وهل كل شيء على ما يرام؟..
إذن هلموا ندخل البيت...!

* * *

مرة أخرى رائحة الفجر المشبعة بالمازوت الذي لا تعرف مصدره..
الضباب يحيط بالبيت الجاثم كوحش أسطوري على حافة النيل..
صوت العشب يتهشم تحت أقدامنا والبيت يكبر.. يكبر..
ومرة اخرى ننسل كقطط كبيرة متحفزة نحو عصفور غافل..
لماذا اخترنا الفجر؟.. سؤال غريب.. بالطبع لأنه يبعدنا عن عيون الفضوليين الذين سيدهشهم أن يروا ثلاثة رجال وامرأتين يدخلون بيتًا مهجورًا.. ولأن الفجر هو الوقت الذي قابلنا فيه (شيراز) أول مرة.. ولأن الفجر هو الوقت الوحيد الذي يجمع ما بين أسرار الليل ووضوح النهار.. سترى نفس أشباح الظلام ولكن في ضوء الصباح...
- نسيت أن أحضر ثومًا!
قلتها وأنا ألهث.. فسألني (عماد) في حيرة:
- ثوم؟.. من أجل الطهي؟..
- بل لقتل مصاصي الدماء إن وجدوا!.. تعلم أن لي خبرة في هذه الأمور!
قلتها في سخرية متوقعًا أن يموتوا ذعرًا.. لكن (عبير) مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت سكينًا لها لون فضي براق.. وسألتني ببراءة:
- هل هذه تناسبك؟.. قرأت أن مصاصي الدماء يخشون الفضة كثيرًا!
- يالك من عبقرية!...
الواقع أنني نجحت في إرعاب نفسي حتى الموت، ولولا بقية من حياء لوليت الأدبار...
هاهي ذي بوابة البيت الصدئة والنباتات الشيطانية تلتف حولها..
- لكنها مفتوحة!
كذا صرخ أحدنا- ربما أنا - وهو يتصلب أمام البوابة العجوز..
قال (مدحت) وهو يرمقنا بنظرة ذات معنى:
- هذا طبيعي.. إن البيت يذكرنا بعد كل هذه الأعوام.. وينتظرنا!
انتصب شعر رأسي - أو ما تبقى منه - وتلاحقت أنفاسي.. وفي داخلي تردد صراخ ملاكي الحارس: لا تدخل!.. بربك لا تدخل!.. اركض بعيدًا وكأن الشيطان يطاردك...
لكن هذه حقيقة واقعة..

إنهم يجتازون البوابة الواحد تلو الآخر.. هم خائفون لكنهم لم يتراجعوا.. والآن جاء دوري...
يخيل لي أن كل قصص الشجاعة في التاريخ جاءت من أناس خشوا أن يبدوا جبناء...
والآن هأنذا أجتاز البوابة.. ربما لأول مرة منذ عشرين عامًا.. و...
كررررررررريك!...
هذا الصوت..
نعم يا رفاق!.. لقد حدث ما كنتم تنتظرونه في استمتاع سادي مرعب..
لقد انغلقت البوابة خلفنا وبمجرد أن عبرتها أنا..!

* * *



نعم يارفاق !.. لقد حدث ما كنتم تنتظرونه فى استمتاع سادى مرعب ..

- لا توجد مشكلة.. نستطيع تسلق السور في أية لحظة..
قالها (مدحت) وهو يتأمل البوابة المغلقة ويحاول فتحها.. لكنها كانت مغلقة بكالون (لاتش) داخلي يحتم على من يريد فتحها أن يجد المفتاح..
- (رفعت) الأحمق جذبها خلفه أو اشتبكت بثيابه..
صحت وقد تصاعد الدم إلى رأسي:
- وهل تجد هذا تصرفًا متوقعًا مني؟!
- إذن هو الهواء...
رفعنا رؤوسنا لأعلى.. ثم تبادلنا النظرات..
إن الإجابة متوقعة وهي أنه لا توجد نسمة هواء واحدة...
إن من أغلق البوابة هو بنفسه من ينتظرنا هنا..
قلت وأنا أشعل سيجارة:
- ما رأيكم؟.. يمكننا الانتظار حتى يأتي أحد المارة فنستغيث به لإخراجنا.. أو نحاول تسلق السور الحديدي، ولا نريد التورط أكثر داخل البيت بينما سفننا محترقة...
ابتسم (مدحت) للتشبيه.. وقال:
- لولا السفن المحترقة ما انتصر (طارق بن زياد).. لا مفر الآن من التمادي إلى آخر الشوط...
قالت (إلهام) مؤمنة على كلماته:
- إن الاستغاثة بأحد المارة ستوقعنا في مشكلة هي لماذا اقتحمنا هذا البيت؟
هذا - بالطبع - مالم يظننا أشباحًا ويموت بالسكتة القلبية.. أما عن تسلق السور.. فأنا بدينة جدًا و (عبير) حامل في الشهور الأولى وأنت يا د. (رفعت) مصاب بالربو وضيق الشرايين التاجية - كما قلت لنا - فكيف بربك تتسلق هذا السور؟
قال (مدحت) وهو يشير لساقه:
- وأنا مصاب بكسر قديم لم يلتئم بشكل مرض..

* * *

نظرت بعينيها الحمراوين لي.. وهمست:
- الويل لكم!.. الويل لكم!

* * *

عبر الأشجار العتيقة الملتفة حول نفسها ألمًا مضينا نشق الطريق نحو البيت..
الحذر يحرق أطراف أعصابنا فلو أن عصفورًا غرد لوثبنا جميعًا مترين في الهواء.. لكن العصافير - كما قلت لك - لم تكن تدخل هذه الحديقة..
ها هو ذا مدخل الدار.. وجواره مطرقة على شكل قبضة اليد..
لا أثر لكائن حي.. لكن الباب مفتوح!..
كدنا نندفع داخلين لولا أن هتف (مدحت) محذرًا:

- لحظة!.. ليس هذه المرة!

ثم إنه أخرج قطعة حبل من جعبته وربط طرفها بمقبض الباب.. ثم شد الحبل ليربط الطرف الآخر في جذع شجرة قريب..

- بالطبع ينتظر هذا الباب دخولنا لينغلق مثل الباب الخارجي.. لكننا لن نسمح بذلك!

ثم نظر (مدحت) لي و (عماد) متسائلًا:

- أعتقد أنه من الحكمة أن ينتظر أحدكما خارج الدار.. من الغباء أن ندخل جميعًا غير عالمين ما ينتظرنا بالداخل..

- ليس أنا..

قلتها على الفور وقد رأيت بعين الخيال صورتي واقفًا على مدخل الدار أدخن سيجارتي العاشرة يعصرني القلق والرعب.. غير مسموح لي بالدخول ولا مسموح لي بالفرار..

وهنا صاحت (إلهام) أنها ترحب بالقيام بهذه المهمة التي تبدو سهلة..

- لا تنسي إذا أنت رأيت ما يريب أن تصرخي..

- حتمًا..

وفي صمت أضأنا بطاريتينا ودلفنا من الباب.. الظلام ورائحة الرطوبة والعطن.. والغبار يغلف كل شيء.. هل تغيرت الموجودات عما كانته؟.. لا أذكر.. لا أحد يذكر.. لا نذكر حتى الإضاءة التي كنا نرى الأشياء فيها.. هل كانت كهربائية أم إضاءة شموع؟

غريب أننا لم نلحظ ذلك..

سمعت (مدحت) يهمس في أذني:

- احمل مسدسك في يدك تحسبًا للمفاجآت..

تحسست جيبي في حيرة.. ثم همست في أذنه:

- لقد اختفى!.. تبخر!.. لا أدري كيف.. لكن لا تدع أحدًا يشعر بذلك في الوقت الحالي!

.....

* * *

٨- إنه حي!..

كنا موقنين أننا سنراها..
لكننا لم نملك أدنى فكرة عما سنشعر به لو حدث ذلك..
في أعماقنا تمنينا أن تكون قد رحلت.. لم يكن أحدنا راغبًا في رؤية ذلك الوجه الشائه مرة أخرى خاصة على ضوء البطارية الخافت باعث الظلال..
ها هي ذي (عبير) بقامتها الناحلة تنزع عن وجهها خيوط العنكبوت الكثيفة.. و (عماد) يرتجف كالعادة.. وأنا أتظاهر بالثبات.. أما (مدحت) فهو أكثرنا جرأة واقتحامًا، لهذا تحول إلى قائد مرتجل لجماعتنا الصغيرة..
المائدة الطويلة حولها مقاعدها الكابوسية.. والمزهرية العملاقة والشمعدان..
الستائر المنسدلة.. تماثيل المستحمات البرونزية تتلوى في أوضاع، حاول المثال أن يجعلها مغرية.. المرايا العديدة التي فقدت طبقة طلائها..
همست في أذن (مدحت):
- هل تذكر قصة (شارلز ديكنز) الشهيرة (توقعات عظيمة)؟.. الآنسة العجوز التي ظلت قاعة المائدة في دارها خمسين عامًا بحالتها حتى تورتة العرس والمشروبات.. لقد نسيت اسمها..
- لا أقرأ هذا الهراء الذي تقرأه.. وليس الوقت مناسبًا لاستعراض ثقافتك..
- لا حيلة لي في هذا.. إن كل موقف في حياتي يذكرني بموقف مماثل في عمل أدبي.. و.....
إن (عبير) متصلبة كالتمثال.. فماذا حدث؟..
دنوت منها.. ونظرت لعينيها متسائلًا عما هنالك..
همست وهي ترمق مقعدًا إلى جوار (كونسول) صغير مذهب:
- (رفعت)...
- ماذا؟
- إنه حي!

* * *

كفاك سخفًا يا (عبير).. بالله عليك كفي عن هستيريا النساء لحظة واحدة.. لقد رأيت المقعد يتحرك.. فلنقل إنك اصطدمت به.. فلنقل إنها رقصة الظلال.. فلنقل إنك حمقاء.. فلنقل أي شيء..
لكن لا تزعمي لحظة أنه يتحرك حركة ذاتية..!
صاح (مدحت) في ضجر:
- يا إخوان.. لقد دخلنا هذه الدار لنواجه أشباحًا فليس غريبًا أن نرى كرسيًا يتحرك..!.. إن من يذهب لصيد النمر لن يضايقه كثيرًا أن يرى آثار مخالبه على الأرض...
وهكذا....
شرعت - و أولاد خالي - نفتش الطابق السفلي على ضوء البطاريتين فلم نجد شيئًا غير عادي...

مجرد بيت لم تدخله قدم منذ عقود...
وهنا صاح (عماد) وهو يشير للأرض مسلطًا ضوء البطارية:
- انظروا!
فنظرنا...
إلى الأرض المكسوة بطبقة كثيفة من غبار الأعوام نظرنا..، كانت هناك آثار أقدام.. أقدام صغيرة عارية كأنها لطفلة مشت حديثًا في هذه القاعة..
(شيراز) كانت حافية في أغلب الأوقات التي عرفتها فيها، ومن الغريب أن هذا لم يبد شاذًا لنا قط..
لو كانت هذه آثارها فإن لها وجودًا ماديًا..
ولكن.. هذا حتمي.. لقد كانت تلعب معنا ونلمسها ونجرحها.. فهي لم تكن طيفًا بل كتلة إكتوبلازمية متجمدة..
إن (شيراز) هنا..
وبالتحديد من فترة قصيرة جدًا...
استنتاج لا بأس به.. أما الاستنتاج الأهم فهو أنها - آثار قدميها - تتجه في ثقة إلى الطابق العلوي..
همس (مدحت) وقد غلبته الرهبة:
- إذن سنجدها هناك..!
- بل هي تريد منا أن نذهب هناك!

* * *

- سأموت إذا ما طلبت مني ذلك...
- إذن.... مت!!

* * *

قال (مدحت) وهو يتحاشى النظر لنا.
- من الحمق أن نصعد جميعًا.. بل الأفضل أن ينتظر اثنان منا هاهنا حتى ينجدا الآخرين في حالة الخطر.. ومن يدري؟.. ربما كان الاثنان اللذان سيصعدان هما منقذا الآخرين اللذين سيبقيان هنا!
لهذا السبب - ولأنني أكره دور المنتظر القلق - قررت أن أكون من الصاعدين للطابق الاعلى.. وكانت المشكلة هي الحاجة الماسة لشخص جريء مثل (مدحت) في المكانين معًا.. ثم استقر الرأي على أن يصعد معي..
على ضوء البطارية نرى درجات السلم الخشبية العتيقة مغطاة بأطنان من الغبار وآثار القدمين الصغيرتين..
نشم رائحة الأعوام.. ونسمع تهشم الخشب الرطب.. ونشعر باقتراب كارثة من نوع ما..

* * *

أصدقاء (شيراز)؟.. مرحبًا بكم.. إن أصدقاء ابنتي هم أبنائي..

* * *

إنه الطابق العلوي حيث غرف النوم..
سنقوم بدور ثقيل على النفس هو فتح هذه الأبواب الموصدة بابًا بابًا باحثين عن شيء لا ندري كنهه..
الباب الأول.. فراش عتيق وستائر مغلفة بالعنكبوت و... جو الغرفة يوحي بأنها غرفة نوم امرأة.. ربما الأم بالذات..
الباب الثاني.. لا ينفتح.. موصد بالمفتاح من الداخل أو الخارج لا أدري..
الباب الثالث.. غرفة نوم غارقة في الغبار وريح القدم.. والوطاويط.. و...
ماذا؟.. وطاويط؟!..
بالطبع!.. لقد نسينا أمرها ونسينا أن هذا البيت هو بيت الأحلام بالنسبة لها.. وها هي ذي تلك الثدييات المجنحة البشعة تنطلق مرفرفة بأجنحتها السوداء في أرجاء الغرفة وقد أقلق سباتها صوت حركتنا..
أغلق (مدحت) الباب على الفور قبل أن تخرج هذه الكوابيس الحية لنا..

* * *

كل ما أرجوه هو أن تعودوا إليّ من وقت لآخر..

* * *

وهنا دوى الصوت..
في البدء ظننا أن المنزل ينهار فوقنا ثم أدركنا - بعد ثوان - أن هذا صوت باب ينغلق بشدة في الطابق السفلي...
تبادلت و (مدحت) نظرة عدم فهم.. ثم فجأة أدركنا ما حدث..
باب المنزل!.. هذا بالتأكيد هو صوته!.. لقد انغلق علينا لنصير سجناء في هذه الدار الرهيبة..
همست بصوت كالفحيح:
- لكن كيف؟.. إنك قد ربطته بعناية..
ابتلع (مدحت) ريقه.. وهمس:
- المشكلة هنا أن هناك شيئًا قد حدث لـ (إلهام) بالتأكيد!.. ما كانت لتترك الباب ينغلق وهي جواره..
قلت وقد أدركت خطورة الموقف:
- و (عبير) و (عماد)..!.. لو أنهما بخير لما انغلق الباب!

إذن هذا هو ما حدث..
إن حاجتنا لتأمين خط رجعتنا قد جعلتنا نتجزأ إلى مجموعات صغيرة.. (إلهام) على الباب.. (عبير) و (عماد) بالطابق السفلي.. أنا و (مدحت) بالطابق العلوي..، وهكذا تركنا جيوبًا معزولة في عدة أماكن..
ترى ماذا أصاب الآخرين؟..
هرعنا جريًا إلى الطابق السفلى فوق الدرجات العتيقة.. كان ضوء النهار قد بدأ يتسرب من شقوق النوافذ عبر تمزقات الستائر.. وقد غدا بإمكاننا أن نتبين ما يدور حولنا دون جهد كبير ودون استعمال ضوء الكشاف..
لم يكن هناك أثر للبائسين..
وحين جرينا إلى باب الفيللا نتحسس مقبضه؛ أدركنا أنه مغلق بإحكام.. ومن المستحيل فتحه..
إذن نحن معزولان في هذا البيت..
لا مخرج لنا.. ولا رفيق..
ولكن.... أين ذهب الجميع؟

* * *

- (شيراز).. أنا خائف...
- خائف وأنا معك؟

* * *

- لكننا لم ننته بعد.. لن ينجح البيت في حصارنا.. نستطيع دائمًا تهشيم النوافذ الخشبية المضعضعة والفرار قفزًا من فوق سور الحديقة...
قالها (مدحت) في توتر محاولًا أن يتماسك..
قلت في لهفة:
- إذن.. لنفعل ذلك الآن...
كان المزلاج الخاص بمصراع النافذة صدئًا متجمدًا في مكانه، لهذا تشبثت بقوائم الخشب وشرعت أهزها في جنون محاولًا تهشيمها..
كان ذلك حين دوت الصرخة..
عميقة كانت.. مكتومة كانت.. قادمة من آبار الجحيم حيث تحترق أرواح الخطاة وأجسادهم.. وشعرت بالشعر على ساعدي ينتصب...
ثم تبادلت نظرة مع (مدحت) حين عرفنا مصدر الصرخة.. وفي نفس اللحظة همسنا بصوت كالفحيح:
- عماد!
شرعنا نثب درجات السلم إلى أعلى ثلاث درجات في كل وثبة غير عابئين بخطر تهشم الخشب العطن تحت كعوبنا... كان الصراخ مستمرًا آتيًا من إحدى غرف النوم القديمة التي لم ندخلها بعد.. وبركلة واحدة فتح (مدحت) الباب لنرى على ضوء البطارية آخر مشهد توقعناه..

كان هناك حبل يتدلى من سقف الغرفة.. وكان هناك شيء ما معلق بالحبل يتلوى كالأفعى.. وكان هناك فراش عتيق الطراز.. أما على الأرض فكانت هناك أشياء مدببة بارزة لأعلى... استغرقنا ثلاث ثوان لنفهم.. وثلاث ثوان أخرى لنصرخ هلعًا..

وفي هذه اللحظة لمحناها... (شيراز)..!

كانت متربعة كالقطة فوق الدولاب الأثري الموجود بطرف الحجرة..وكانت قدماها العاريتان الدقيقتان متدليتين على حافة الدولاب وهي تحركهما في استمتاع.. والظلال تكسو وجهها لكننا كنا نعرف أنها هي..

وسمعنا ضحكتها الرقيقة العذبة تغرد:

- لقد تأخرتم كثيرًا في المجيء يا أحبابي!

ثم إنها استرخت في جلستها.. وأردفت:

- هاهي ذي لعبة مسلية أخرى.. إن (عماد) معلق كما ترون إلى السقف بحبل متآكل في الواقع.. حبل ضعيف جدًا أكاد أسمع صوت تمزق أليافه.. صه!.. هل تسمعون؟.. كري كري توك!.. هي هي!.. وحين ينقطع الحبل سيهوي.. فوق ماذا؟.. فوق هذه النصال المدببة المشرئبة لأعلى التي ستحيل جسده البدين إلى مصفاة..!

وأخذت تضحك على حين رأينا على ضوء البطارية أنها لم تكذب في حرف واحد..

- كري كري توك!.. هاهاها!.. اللعبة هنا هي: هل يمكنكم إيجاد طريقة لإنزاله قبل كري كري توك؟.. إننا لم نله سويًا منذ أعوام.. ويبدو أننا سنمرح كما كان في الماضي أو أكثر.. هي هي!!

الشيطانة!.. كان (عماد) يتلوى في جنون متوسلًا لنا أن نفعل شيئًا.. ثمة خطاف مثبت إلى الحبل وطرفه الآخر مشتبك في سترته.. لا أدري هل تتمزق سترته أولًا أم الحبل.. كل ما أدريه هو أن أمامه ثلاث دقائق أو أقل قبل أن...

صحت في هلع:

- كف عن التلوي كالأفعى أيها الغبي!.. إنك تزيد عمر الحبل قصرًا!

وأمسكت بيد (مدحت) في جنون متوسلًا له أن يفعل شيئًا.. توقف تفكيري تمامًا ولم يعد لدي سوى الأمل في أن يكون تفكير (مدحت) يقظًا...

- (مدحت)!.. فلنحاول التقاطه حين يسقط.. أنا وأنت...

دوى صوت (شيراز) المرح البارد القاسي يذكرنا:

- دقيقتان..!

همس (مدحت) في توتر:

- كلا.. إنه ثقيل الوزن وسيكون أثقل عند سقوطه.. ثم إنه لا يوجد بين النصال مكان يسمح لنا بوضع أقدامنا - سينتهي الأمر بتمزيقنا جميعًا...

- إذن نحاول تسلق الجدار وإنزاله...

- كلا.. كلا.. الجدار أملس.. وحتى إذا...

ولم يكمل عبارته لشرود ذهنه لكني فهمت.. حتى إذا تسلقنا الجدار فكيف نجذبه إلينا.. وكيف نرفعه؟..

لابد من فكرة أفضل.. كري.. كري!

- دقيقة...!

الثواني تمضي.. ولم نجد فكرة مناسبة.. كري كري!
- ثلاثون ثانية..!

* * *



كان (عماد) يتلوى فى جنون متوسلاً لنا أن نفعل شيئًا .. ثم خطاف مثبت إلى الحبل وطرفه الآخر مشتبك فى سترته ..

٩ - ألعاب شيطانية..

فجأة صرخ (مدحت):
- هلم يا (رفعت)!.. احمل السرير معي!
- ولكن...
- أسرع!.. سنضعه فوق النصال كشبكة يهبط فوقها (عماد) عند سقوطه.. هلم معي..!
وثبنا إلى السرير الثقيل وحملناه حتى كادت جذور عنقينا تنفجر - لكن لا وقت للمزاح الآن - ونقلناه لاهثين إلى الموضع الذي سيسقط فوقه جسد (عماد) بعد ثوان.. كري.. كري!
- ربع دقيقة!...
أطلق (مدحت) سبة.. ثم ألقى بالسرير في المكان المناسب له.. تساءلت في تشكك:
- ولكن هل يتحمله الفراش؟.. هل ستحمى الملة جسده حقًا؟
ارتجف ونظر لي زائغ العينين.. لا وقت لديه لاستبعاد هذه الفكرة.. فلتنجح أو لتحل اللعنة على كل شيء.. سيان عنده الآن..!
صوت (شيراز) الرقيق يدوي:
- فكرة لا بأس بها.. لكن جسده الثقيل سيهوي مهشمًا الفراش لتنفذ النصال عبره.. كنت أظنكم أذكى من ذلك.. و الآن دعونا نر مدى صواب فكرتكم.. هيه!.. هو ذا الحبل يقطع.. هيه!.. إنه يسقط.. يسقط!

* * *

لقد فعلت الطبيعة كل ما بوسعها كي تحذركم من أن ما يجري في هذا البيت مريب.. لكنكم لم تفهموا...

* * *

ما إن هوى الجسد من السقف حتى أغمضنا عيوننا - تلقائيًا - متوقعين كارثة...
لكننا - حين فتحناها - لم نجد كارثة.. بالأحرى لم نجد شيئًا على الإطلاق.. لا (عماد) ولا (شيراز) ولا حبلًا يتدلى من السقف.. لا شيء!.. فقط الفراش في موضعه الذي نقلناه إليه...
كنا نلهث وفي حالة أقرب للجنون.. لكننا فهمنا..
هي حالة هلوسة بصرية وسمعية شنيعة أدخلنا فيها هذا البيت اللعين..
ولو كان شبح (شيراز) معنا في الحجرة فلابد أنه دامع العينين من فرط الضحك على حماقتنا واندفاعنا الهستيري من أجل سراب..
تبادلت النظرات و (مدحت)...
ثم بدأنا نردد عبارات السباب متوعدين الفتاة بالويل والثبور لو سقطت بين أيدينا.. سنكون أول بشريين ينجحان في قتل شبح...

* * *

وهنا سمعنا الأنين.. كان قادمًا من الطابق السفلي..

كأنه أنين امرأة حزينة فقدت أملها في شيء،.. ولم يكن في مقدورنا ألا نهرع نازلين الدرجات الخشبية متسائلين عما هنالك..

وهناك - عند ركن المدفأة - رأينا على ضوء النهار المتسرب من الخارج أشنع كابوس رأيناه في حياتنا..

(عبير) الناحلة الرقيقة مقيدة للجدار.. وعلى قدميها تلتف ثلاث أفاع شريرة المنظر لا توحي بالثقة..، وكانت البائسة - (عبير) طبعًا - عاجزة عن التملص أو الحراك أو حتى الصراخ بصوت عال حتى لا تثير حفيظة الزواحف الملتفة حولها.

- لعبة جديدة لعزيزتي (عبير)!

كذا دوى صوت (شيراز) الرقيق فالتفتنا إلى مصدره...

كانت واقفة في أعلى السلم بثوبها الأبيض الطويل وهي تضم إحدى يديها إلى الأخرى في شغف...

صاح (مدحت) في عصبية وهو يثب السلالم قاصدًا تهشيم رأسها:

- أيتها الحدأة!.. لقد ضقت ذرعًا!

في رقة وضعت إصبعًا على شفتيها محذرة:

- شش!.. إن هذه الأفاعي عصبية المزاج وشرسة جدًا.. وسامة!، فلا تجازف بأن تلدغ إحداها شقيقتك الرقيقة في ساقها.. لو كنت مكانك لبدأت التفكير في كيفية إبعاد الأفاعي دون إثارة حفيظتها..!

بدا كلامها مقنعًا لنا.. فعاد (مدحت) يهبط درجات السلم في حذر.. ووقف جواري شارد اللب..

هذه المرة لا أرى حلًا لهذه الورطة.. إلا أنني همست..

- بالتأكيد هي هلوسة كالمرة السابقة..؟

همس في عصبية وعيناه لا تفارقان المشهد:

- وماذا لو كان واقعًا؟!

- لا أدري.. في الحقيقة يبدو لي الأمر معقولًا وملموسًا إلى حد لا شك فيه...

- والعمل؟.. كانت الأفاعي تلتف في كسل وتراخ حول ساقي البائسة التي ماتت ذعرًا أو كادت.. شنيع هو الخوف الذي لا تملك حتى حق التعبير عنه..

وهنا خطرت لي فكرة..

انتزعت قطعة من قماش الستائر وأحرقتها بقداحتي ثم ألقيت بها مشتعلة على بعد متر من ساقي (عبير)..

- ماذا فعلت؟

- الحرارة.. المفروض أنها تجذب الأفاعي.. والمفروض أن جسد (عبير) بارد كالثلج من فعل الأدرينالين.. أعتقد أن الأفاعي ستفضل الذهاب لترى ما هنالك..

بالفعل.. بدأت الأفاعي تفك قيودها من حول ساقي الفتاة.. وتزحف ببطء وتؤدة تجاه المصدر الحراري الوحيد في المكان.. يجب أن نسرع بإنقاذها الآن، و...

فجأة...

اختفى كل شيء.. اختفت (عبير) والأفاعي و(شيراز).. لم يبق سوى قطعة من القماش المحترق ملقاة جوار المدفأة..

انها خدعة بصرية قاسية أخرى.. إن البيت لم يزل طفلًا يصبو إلى اللهو.. اللهو المؤذي المزعج الذي ينسف أعصابنا نسفًا...

* * *

فجأة جذب (مدحت) ذراعي..

معًا سمعنا صوت باب ينفتح في بطء..

أجفلنا وتهيأنا لأسوأ النتائج.. إلا أن الباب انكشف عن وجهي (عبير) و (عماد) الشاحبين.. خيل لنا أننا لم نر قط وجهين أجمل من هذين..

- (مدحت).. (رفعت)!.. أنتما بخير!

وارتمت (عبير) في حضن أخيها على حين عانقني (عماد) كالملهوف وصرخ في هستيريا:

- سمعنا صراخكما فهرعنا ننقذكما.. فوجدنا...

قلت وأنا أشعل سيجارة:.

- نعم.. نعم.. وجدتمانا على شفا الموت..

- كيف عرفت؟.. كنت أنت ساقطًا على الأرض بين ذئاب شرسة تنهش جثتك..!

غريب هذا!.. تذكرت على الفور الكابوس الذي كان يزور هويدا ليلًا وظننته من تأثير عشاءها الدسم!.. إذن فتلك الحمقاء تملك - برغم كل شيء - بعض الشفافية..

- وكيف تصرفتما...؟

- أشعلنا مفرش المائدة لنفزعها إلا أن كل شيء تلاشى فجأة...

- هذا ما حدث لنا بالضبط.. وماذا عن (مدحت)؟

صاحت (عبير) في لهفة وبصوت كالعواء:

- كان مسخ رهيب يطارده.. واستطاع الظفر بهم ثم...

-.. تلاشى كل شيء..

هتف (مدحت) في غل:

- إن البيت اللعين يتسلى باللعب بأعصابنا.. وأقترح أن نغادره فورًا قبل أن نجن....

- لقد جعلتنا (شيراز) يرى بعضنا البعض في ورطات شنيعة.. كانت تتسلى بمشاهدة ردود أفعالنا، إنها لم تفقد بعد روح الطفولة وإن شابتها نزعة سادية مذهلة..

تقدم (مدحت) إلى النافذة الموصدة وعاد يواصل ما كان بدأه من محاولة انتزاع المصراع.. وشرعت أزيد متاعبه متظاهرًا بالمعاونة..

حين دوت الصرخة..

لقد صار هذا مملًا.. سأشعر بالقلق لو مرت عشر دقائق في هذا البيت دونما صوت ما.. صراخ أو أنين أو باب ينغلق أو حبل يتمزق..

كانت قادمة من الطابق العلوي.. بالتحديد عند نهاية (درابزين) السلم..

كانت (إلهام) هناك تصرخ وتولول كقط داست قدمه سيارة.. وكان شيء ما يتقدم نحوها.. شيء ضخم لم نستطع رؤية وجهه لكننا لم نرغب في ذلك قط.. فقد كان يمد يدين ضخمتين نحوها.. ويرتجف..

و ذعرها كانت تتراجع للخلف.. للخلف..

وفي الخلف كان (الدرابزين) المهشم منخفض الارتفاع ينتظر..

وهنا سمعنا صوت (شيراز) المخملي:

- والآن لعبة جديدة من ابتكاري.. إن المسخ يتقدم نحو (إلهام) وعليها أن تختار ما بين أنيابه أو السقوط من أعلى...

كانت واقفة هناك جوار المسخ بثوبها الابيض تبتسم وقد بدت كأنها مذيعة تقدم فقرة رياضية في برنامج منوعات مسل..

- لاحظوا أنكم لن تستطيعوا الصعود إليها لأن درجات السلم تهشمت...

وأشارت لما عنته.. كانت الدرجات التي صعدنا وهبطنا عليها مرارًا قد تلاشت تاركة مكانها فجوات سوداء رهيبة..

- أما عن محاولة التقاطها عند سقوطها فمشكوك فيها.. إنها بدينة جدًا وستفلت بالتأكيد من بين أصابعكم مالم تسقط فوقكم محيلة أجسادكم إلى سجادة!.. والآن دعوني أر ما ستفعلون.. إن (رفعت) العبقري سيجد حلًا بالتأكيد..!

كانت (إلهام) تصرخ.. تتراجع للخلف في هلع.. وتتوسل إلينا:

- (مدحت)!.. افعل شيئًا..!

هاهي ذي حبيبة طفولتنا البدينة توشك على أن تلقى حتفها ونحن عاجزون عن إيجاد حل مناسب... ولكن... لماذا نجد حلًا؟.. إنه وهم جديد آخر من أوهامها التي لا تنتهي...

نظرت للآخرين فوجدتهم أقل توترًا من أي وقت مضى.. لن تخدعنا هذه اللعينة مرة أخري - (شيراز) وليست (إلهام) طبعًا - إننا سنترك هذا البيت مهما حاولت استبقاءنا..

- (رفعت)!.. أرجوك!.. طفلاي!

ضحكت (شيراز) في تشف:

- هكذا يا (إلهام).. لا أحد يرغب في مجرد المحاولة!

أشعلت سيجارة أخرى.. وشرعت أفكر على صوت الصراخ القادم من أعلى.. النار والثعابين.. الذئاب.. كانت كل هذه أوهامًا.. لكن الأوهام التي اشتعلت فيها النار تلاشت فجأة.. النار تبدد الأوهام.. وهاهي ذي سيجارتي مشتعلة، و....

(إلهام) هي التي وشت بنا لدى خالي وجعلته يجبرنا على أن نقسم وبهذا انتهت علاقتنا بالبيت.. (إلهام) مزقتها الغيرة فاندفعت تمزق عرى الصداقة البريئة الوحيدة في حياة (شيراز) أو مماتها..

(شيراز) عادت وحيدة دون أصحاب سنوات لا أعرف عددها.. وإذن فهي تملك كل الأسباب كي تمقت (إلهام)...

* * *

"أنتم جميعًا هنا من أجلها.. لا أحد يريدني.. ولا أحد يعبأ بي! "

"مشكلتي هي أن (شيراز) لا تجد أصدقاء من سنها.. ما أسماؤكم يا أحبابي؟"

* * *

(إلهام) تتقدم نحو الحافة..
اللامبالاة على وجوه الأشقاء الثلاث..
وهنا فهمت..
وفي هلع صحت وأنا أثب نحو المكان الذي ستسقط عنده:
- إن هذا ليس وهمًا!.. هذه هي (إلهام) حقًا.. وكل ما يحدث حقيقي.. لقد بددت النار كل الخيالات السابقة لكنني أشعلت سيجارتي وظلت الصورة مستمرة!
- ولكن....
- أسرعووا...!
وقبل أن نتفق على شيء وقفنا جميعًا أسفل المكان الذي تقف عنده.. ومددنا أيدينا لأعلى في محاولة لا معنى لها لعمل شيء ما...
وهنا تهشم السياج الذي كانت تستند إليه (إلهام)..
ولمحنا جسدها البدين يهوي فوق رؤوسنا كنيزك عملاق..

* * *

١٠ - (شيراز) تتكلم..

توقعنا الكارثة لكنها لم تحدث..

وحين رفعنا رؤوسنا - في حذر - إلى أعلى وجدنا أن الحظ لم يتخل عنا بعد...

لقد اشتبك جزء من الخشب المهشم في ثوب (إلهام) فتدلت - كالثريا - من أسفل (الدرابزين) فوق رؤوسنا.. كانت تصرخ وتولول لكنها ظلت حية على الأقل.. وقد صارت على ارتفاع ثلاثة أمتار فحسب عوضًا عن ثمانية!..

الحمد لله العلي القدير..

- (رفعت)!.. إنني سأ... أسقط..

كان طرف الثوب يتمزق - أو لعله الخشب - ببطء شديد.. سمعنا صوته وكنا على استعداد هذه المرة لنتلقاها بين أذرعنا الممدودة.. صحيح أن محاولتنا قد ألغت نهائيًا آثار السقطة المدمرة لكنها كادت تمزق عضلاتنا.. وسقطنا على الأرض جميعًا شبه مهشمين..

وإنني لأتساءل عن كيف يكون الأمر لو أنها سقطت من الارتفاع السابق فوق رؤوسنا؟..



لقد اشتبك جزء من الخشب المهشم فى ثوب (إلهام) فتدلّت ،
كالثريا ، من أسفل (الدرابزين) فوق رءوسنا ..

نظرنا فوجدنا المسخ و (شيراز) ينظران لنا من أعلى..
صرخ (مدحت) من حيث ارتمى على خشب الأرضية ملوحًا بقبضته:
- صبرًا أيتها الشيطانة!.. لو وقعت في يدي!
لم ترد (شيراز) بل استدارت مع المسخ ببطء.. واختفت في الظلام...
صاح (عماد) في حنق:
- (رفعت)!.. ارفع كعب حذائك عن عنقي..!..
- ليس قبل أن تخرج كوعك من معدتي..
ووجدت ذراعًا مشعرة تلتف حول ساقي.. فصحت في حنق أشد:
- ذراع من هذه؟ فليبعدها صاحبها عنى...!.
- أعتقد أنها ذراعي أنا.. كنت أظن الساق ساقي!
الخلاصة أننا استغرقنا بعض الوقت حتى نفهم حقيقة وضعنا وكينونتنا.. وحتى ننهض على أقدامنا..
وحين وقفنا أخيرًا - لاهثين مغبرين - كنا قد أدركنا ما حدث.. حقًا كانت (شيراز) تحبنا..
وحقًا كانت بحاجة إلينا..
لهذا - وحين تسببت (إلهام) في انقطاعنا عن المجيء - قاست (شيراز) سنوات مريرة من الوحدة.. شنيعة حقًا هي وحدة الأشباح بعيدًا عن كل ما يربطهم بعالم الأحياء..
ولظروف لا نفهمها بدأت (شيراز) تتحول إلى مسخ..
من ثم صممت على الانتقام ممن كانت سبب عذابها وحرمانها من الصحبة الآدمية، وكان هذا الانتقام المروع من (إلهام) يتلخص في جعلها تلقى نهايتها المفزعة أمام عيون أصدقائها الذين لن يحركوا ساكنًا!..
سيظنون كل هذا وهمًا آخر بعد أن اعتادوا الأوهام المماثلة
أي تفكير مروع!.. وأية قسوة..!
المشكلة الآن هي ماذا عسانا فاعلون بعد ذلك؟..
من الواضح أنها تملك إيذاءنا في أي وقت تشاء..
وحتى لو هربنا - وهذا ليس صعبًا - فمن يضمن لنا أن (إلهام) لن تواجه كارثة أخرى؟.. ربما في صالون دارها أو الحمام أو حتى في الطريق العام...
ثم - الأدهى - من أدراني أنها لن تضعني في قائمتها السوداء بعد ما أحبطت لعبتها الجهنمية؟..
إن هذا منطقي وسأندهش لو لم تفعل..
مشكلة الأشباح هي أن التنبؤ بما ينوون عمله مستحيل..
- أعتقد أن الوقت لا يسمح سوى بمغادرة البيت..
- والقفز من على السور الحديدي المرتفع؟
- لن يكون هذا عائقا كبيرًا.. سنجد حلًا وقتها..
وعدنا للمرة الثالثة نحاول تهشيم مصراع النافذة.. تشبث جيدًا!.. هيه!.. إنه يلين.. استمر يا (رفعت).. هيه!... هان!.. هاهو ذا..!. كراشي!!.. تهشم الخشب واستطعنا أخيرًا أن نرى نور النهار ونباتات الحديقة المحتضرة.. ولكن وأسفاه!.. ثمة ثلاثة قضبان غليظة تقف حائلًا بيننا وبين الخروج.. نسينا تمامًا أمر هذه القضبان...

صاح (مدحت) في هستيريا:
- لم ننته بعد.. سنهشم الباب الخارجي.. إنه ثقيل لكننا خمسة ويمكننا استخدام قطع الأثاث لذلك...
نظرت إلى (إلهام) الدامعة وقد تشوشت ثيابها واختلطت خصلات شعرها بالغبار والعرق.. كانت ذاهلة تمامًا.. فقلت في تؤدة:
- نحن أربعة فقط..!.. لا تنس ذلك...
وتعاوننا نحن الأربعة على حمل مائدة الطعام العملاقة.. كان ظهري يوشك على أن ينشطر شطرين.. و عروق عنقي تنفجر.. لكني تماسكت..
هيا بنا..!... معًا نركض - قدر الإمكان - نحو الباب الضخم.. و.. هوب!.. كانت الصدمة ضعيفة لكنها خلخلت أجسادنا وسقطنا جميعًا على الأرض.. أما الباب فلم يبد أدنى استجابة!..
- لا جدوى.. سنتحول إلى فتات قبل أن يتزحزح هذا الباب!
هتف (عماد) في جنون:
- إذن سنظل هنا حتى نموت جوعًا!.
غمغمت في ضيق محاولًا أن أمنع نفسي من ضربه:
- لم أعد أعرف ما إذا كنا سنظل هنا أم لا.. كل ما أرجوه هو أن تطبق فاك وتحتفظ بآرائك لنفسك!
- حسن.. لا داعي لأن نفقد أعصابنا.. إن عائلاتنا لن تلبث أن تلحق بنا...
وعدنا نفكر في همّ عن السبيل الأمثل للخروج من هذا المأزق..، وما لبث (مدحت) أن هتف وقد ثارت حماسته:
- لا بد أن مفاتيح هذا الباب في مكان ما.. ثم إننا لم نحاول الصعود لسطح البيت فلربما تمكنا من طلب الغوث...
- سيظنوننا أشباحًا ويبتعدون مذعورين.. لكن الأمر جدير بالمحاولة..
ثم إنني تذكرت شيئًا.. الدرجات!.. لقد حطمتها (شيراز) كي تمنعنا من الصعود لإنقاذ (إلهام).. فكيف نصعد إذن؟..
وهنا سمعنا ضحكة (شيراز) الرقيقة...
رأيناها واقفة على (الدرابزين) في الطابق العلوي حيث كانت (إلهام) منذ دقائق.. وسمعناها تقول مبتسمة:
- مأزق شنيع.. أليس كذلك؟.. إن البيت حصين أكثر مما يبدو في الواقع!
ومدت إصبعها السبابة والإبهام للأمام وفرقعت بهما:
- ما هو الحل؟.. لا حل!.. ستحاولون كثيرًا وقليلًا لكنكم ستعرفون ألا حل هنالك.. العبوا!.. العبوا.. فهذا يسليني!
تقدمت في تؤدة إلى أسفل المكان الذي وقفت فيه.. ورفعت رأسي صائحًا..
- تغيرت كثيرًا يا (شيراز)..
- ومن لم يتغير؟
- كنا نحبك حقًا..
- وبرغم هذا تخليتم عنى..
- كنا مجبرين.. أقسم لك على هذا.. كنا أطفالًا لا نملك خياراتنا..

أشارت نحو (إلهام) في كبرياء حانق.. وهتفت:
- على الأقل كانت هذه الشيطانة تملك الخيار.. وقد اختارت.. اختارت الشر والحقد.. ولهذا تحتم الانتقام...
- كانت غيرة أطفال..
- النتيجة واحدة.. وهي أنني - أنا الطفلة البريئة الصغيرة - أجبرت على أن أقاسي الوحدة.. وحدة الأشباح المريرة.. الكل يخافون مني.. الكل يتحاشونني كالوباء..، وبدأ الشر يتبلور في أعماقي ويطفح على وجهي.. أنتم لم تروا وجهي بعد.. لكنكم سترون ما وصل إليه...
- أتأخذيننا جميعًا بجريرتها؟!
- إنكم أنقذتموها بكامل إرادتكم.. من ثم استحققتم مصيرها..
تقدمت (عبير) لتقف جواري.. وصاحت محدثة (شيراز):
- (شيراز)!.. نحن مستعدون لأن نعود أصدقاءك وأن نحبك كما كان في الماضي....
ضحكت (شيراز) في سخرية.. أقسى ضحكة سمعتها في حياتي:
- لن يعود الزمان كما كان أبدًا.. أمس كنتم تحبونني بنزق وبراءة الطفولة ولم تكونوا مضطرين.. أما اليوم فأنتم تخشونني.. وتحملون تراث البالغين الفاسد، ثم تقولون لي: لنعد كما كنا... مستحيل يا صغيرتي...
تقدم (مدحت) إلى الأمام جوارنا.. (كأنها مسرحية سخيفة تقدمها إحدى فرق الأقاليم المسرحية حين يتقدم كل ممثل إلى مقدمة المسرح ليقول عبارة ما):
- أيتها الحمقاء!.. لن يلبث ذوونا أن يبحثوا عنا وهم يعرفون أين يجدوننا.. إن زوج (عبير) لعلى استعداد لأن ينسف الباب نسفًا بعد ساعة من الآن...
- ساعة من الآن؟
دوي صوت (شيراز) البارد القاسي.. وبتؤدة أردفت..
- من قال إنني سأنتظر ساعة كاملة؟!.. إن المرح سيبدأ الآن حالًا!
.....

* * *

في اللحظات التي سبقت ما حدث بعد ذلك كان عقلي يعمل بسرعة جنونية..
الأسرة مات جميع أفرادها – بما فيهم الخدم - في أوائل هذا القرن.. فكيف ماتوا؟ ولماذا عادوا للظهور بعدها؟.. الفتاة في حاجة لأصدقاء.. وهي تعاني حرمان السنين..، لكن لماذا هذه الأيام بالذات؟.. ولماذا قررت أن تتحول إلى مسخ؟.. لماذا انتظرت حتى دنونا من سن الكهولة لتطاردنا..؟.. ثم - السؤال الأهم - أين ذهب باقي أفراد الأسرة؟.. أين الأم والخادم؟.. إن نجاتنا تكمن في الإجابة على هذه الأسئلة..
أشعر بذلك بكل جوارحي..
وهنا صرخت (عبير) في هلع كأنها ترى الشيطان:
- انظروا!...
نظرنا - بالطبع - إلى حيث أشارت فرأينا..

رأينا عيونًا حمراء تلتمع في الظلام وسمعنا فحيحًا..
ولمحنا في ضوء النهار المتسرب من النافذة المحطمة أشخاصًا يتقدمون نحونا ومن الواضح أنهم يريدون شرًا...
- أعوذ بالله!
كذا صاح أحدنا - ربما أنا - وهو يلتصق بالآخرين محمومًا..، خمسة أطفال يرتجفون وهم يرون غيلانًا تحاصرهم...
آه لو كان مسدسي معي!..
لن يجدي شيئًا مع هذه المسوخ لكنه - على الأقل - سيجعل نهايتنا مشرفة.. تحسست جيبي بيدي.. و.. غريب هذا!.. إنه في جيبي.. ما هذا العبث؟ ومن الذي...؟..
صحت في الآخرين وقد بدأت أفهم ما حدث:
- لحظة يا شباب!.. إن كل هذا ليس حقيقيًا!.
نظر لي (مدحت) في حيرة:
- تعني.. مثل الأوهام السابقة التي رأيناها؟
- بل الأمر وهم في وهم.. الأمر كله هلوسة جماعية نعيشها الآن!..
إن البيت بالفعل مسكون.. مسكون بطاقة هائلة تجعله يعابثنا...
- و (شيراز)؟.. وانتقامها؟
- أعتقد أن (شيراز) وأمها والخادم.. وكل شيء رأيناه وهم لا وجود له إلا في عقولنا...
صاح (عماد) ولسان حاله يقول إنني جننت أخيرًا:
- وهذه الأشياء التي تهاجمنا الآن؟
صرخت بأعلى صوتي محاولًا تحريك هؤلاء الحمقى:
- تماسكوا.. فكروا في لحظاتكم السعيدة وفي عائلاتكم.. انسوا الفزع.. ولا يفكرن أحدكم إلا في أصدقائه الآخرين وذكرياتنا المشتركة الحميمة.. تماسكوا!...
ليمسك كل منكم يد الآخر.. ولا يدع البيت يهزمه..
كان زئير الأشباح يتعالى وهى تقترب.. نكاد نشم رائحة أنفاسها.. العرق يسيل على جباهنا وأيدينا تنزلق.. لكننا نتماسك..، (عبير) تبكي.. و(عماد) يرتجف كالورقة.. منظاري تتدحرج على أنفي لكنني لا أجرؤ على رفعه حتى لا أترك يد (مدحت).. ويد (إلهام)..
- رائع يا رفاق!.. استمروا..!.. هأنتم ترون أن الأشباح لم تستطع عمل شيء.. إن الوهم لا يؤذي..
مرت دقائق عسيرة..
وفجأة ساد الهدوء.. فتحنا عيوننا ببطء لنجد مدخل البيت والمائدة وكل شيء لكن لا أشباح.. ولم تعد (شيراز) واقفة على (درابزين) السلم..
- الآن فكوا أيديكم!
وأشعلت سيجارة على حين استرخى الآخرون على الأرض من حولي غير عابئين بالغبار.. كان الفضول يعتصرهم ليفهموا ما حدث..
- والآن.. هلا فسرت لنا؟
افترشت الأرض جوارهم ونفثت حلقة من التبغ..

- قبل أن أتكلم.. هلا نظرتم إلى الباب وأخبرتموني هل هو مفتوح أم مغلق.؟ وهل درجات السلم مهشمة؟
- هو مفتوح..! ودرجات السلم سليمة تمامًا...
- كما تركناها؟
- كما تركناها...
- إذن أصغوا لما سأقول...

* * *

١١ - الخاتمة..

في دار (مدحت) جلسنا نرشف الشاي ونتناول طعام الإفطار، على حين أخذت زوجته تداعب (إلهام) وتسري عنها..

قلت لهم مفسرًا ما كان مني في البيت؛ إنني بدأت أعتقد أن الأمر كله وهم منذ وجدت المسدس في جيبي برغم أنني لم أجده لحظة الدخول.. فسألت نفسي: أمن الممكن أن يكون المسدس في جيبي طيلة الوقت.. وأنني لم أجده لأنني (توقعت ذلك)؟.. بمعنى آخر.. هناك قوة ما جعلتني أتخيل اختفاء المسدس برغم أنه كان معي من البداية...

ثم سألت نفسي.. ما سر عودة (شيراز) لمطاردتنا بعد كل هذه الأعوام؟..

لماذا نسيتنا ثلاثين عامًا ثم عادت تذكرنا؟.. إن الأمر يبدو متناقضًا حتى بمنطق الأشباح.. هل حقًا رأينا شبح (شيراز) وأمها أم أننا تخيلنا ذلك؟..

ثم - بمنطق البشر والأشباح - هل خطأ (إلهام) القديم يستحق كل هذا العقاب؟.. لا أظن..

إذن قصة الشبح الطفل المحروم من الصحبة الآدمية لا تروق لي كثيرًا ولا أعتقد أنها تبرر كل ما حدث...

إذن.. لماذا لا تكون (شيراز) وأمها وغرام الطفولة و.. و.. كلها خيالات؟.. مجرد أوهام عشناها بكل تفاصيلها حين أجبرنا الفضول على دخول هذا البيت؟... من يدري؟... لربما كان عددنا خمسة لا ستة كما ظننا.. ولربما كنا نلعب المساكة ونثرثر ونتشاجر من أجل لا شيء.. ومع لا أحد..

لقد صدقت (عبير) حين قالت: إن البيت حي...

هذا أمر لا شك فيه.. وهو المبرر الوحيد لكل ما رأيناه.. كان البيت يحوي طاقة نفسية هائلة قادرة على خلق مئات الرؤى لنراها جميعًا في نفس الوقت..، والحقيقة التي غابت عنا هي أن الباب ظل مفتوحًا ولم ينغلق.. لكننا جميعًا حسبنا أنفسنا سجناء..

البيت جعل أطفالنا يرون (شيراز) وجعلنا نحن أيضًا نراها في ديارنا...

لكن (شيراز) لم توجد.. أو - على الأقل - لم تصر شيئًا...

وأعتقد كذلك أن البيت هو المسئول الأول عن مقتل الأسرة التي كانت تسكنه قديمًا.. فلربما أغرقهم في وهم ما، لم يفيقوا منه قط.. نحن جميعًا قاسينا الهلاوس البصرية والسمعية وعرفنا كيف تبدو حقيقية..

(إلهام) قذفت نفسها من فوق الدرابزين لمجرد رؤيتها مسخًا وهميًا.. ونحن حطمنا ظهورنا محاولين اقتحام باب مفتوح من البداية.. وقضينا أسود ساعات حياتنا في خيالات لا طائل منها...

لقد نال البيت منا... فهو بعد كل هذه الأعوام لم يزل طفلًا يعشق اللهو ويهوى أن يتلاعب بالآخرين..

سألني (مدحت) وهو ينتزع لفافة تبغ من علبتي..

- وما سر هذه الطاقة الهائلة الكامنة فيه؟

- لا أدري.. لكن هذه الأشياء تحدث.. وغالبًا ما يتضح أنه مبني فوق مقابر قديمة اختلطت أساساته بعظام سكانها أو شيء من هذا القبيل...

- يصعب التأكد من هذه النقطة...
- السؤال الأهم هنا هو: لماذا أراد البيت أن نعود له؟.. لا أعتقد أنه اشتاق للعبث.. أعتقد أنه أراد أن يقدم لنا الحل لخلاصه.. إن البيت يريد أن يفنى ونحن فقط نعرف كيف....
- النار؟..
ابتسمت في ود وأشعلت قداحتي:
- بالفعل.. النار.. لقد ذابت كل الأوهام بمجرد أن ظهرت النار...
وهذه هي الرسالة التي أراد البيت أن يوصلها لنا حين أغرانا بدخوله.. وحتى لو كان اعتقادنا خاطئًا فإنني أعتقد أن هذا البيت المشئوم يجب أن يباد تمامًا.. من أجلنا ومن أجل أطفال صغار سيدخلونه في جيل قادم ليلعبوا مع (شيراز) أو واحدة أخرى...
تفكر (مدحت) في كلماتي برهة.. ثم قرب فمه من أذني وهمس:
- - ليكن... ولكن متى؟

* * *

بعد هذا بيومين أتت النيران على البيت تمامًا...
يقول رجال المطافئ إن هذا تم بفعل فاعل تسلل ليلًا وسكب جالونات عديدة من (الكيروسين).. ويقول عابر سبيل إنه شاهد ثلاثة رجال أحدهم نحيل أصلع واثنان متشابهان كالتوائم.. شاهدهم يفتحون البوابة ليلة الحادث...
لكن - والحق يقال - لم يشعر واحد من أهل (المنصورة) بالحسرة على احتراق هذا البيت الذي يخشاه الجميع..
حتى مالك البيت - الوريث - وجد أخيرًا الفرصة لبيع الأرض بعد أن يئس تمامًا من العثور على مشتر لهذا البيت...
فقط يقول الجيران إنهم سمعوا صوتًا غريبًا كأنه عملاق يئن بينما ألسنة اللهب تتصاعد من البيت المهجور...
لكنهم لم يعلقوا أهمية على هذا...
بعد هذا بيومين ودعت الأصدقاء لأعود إلى القاهرة..
سألني (مدحت) في قلق:
- هل تظن أن النار كافية..؟
بخبث ابتسمت:
- من يدري؟... على كل حال إذا لم تكن كافية سنعرف ذلك في القريب العاجل.. وليكونن انتقام البيت رهيبًا!
- إذن.. فلترحل قبل أن أهشم وجهك!
وهكذا...
عدت للقاهرة.. عدت بقصة غامضة أخرى أدونها في كراسة مذكراتي وأحكيها لـ (هويدا) في ليلة صيف ساحرة..
لكن الرعب هو قدري.. وحياتي لا تستقيم بهذه السهولة كما لابد أنكم قد تعودتم...

كان اللهب ينتظرني.. وينادِيني.. وكان محتمًا أن ألبي نداءه عالمًا أنها قد تكون المرة الأخيرة.. ولكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل
القاهرة ١٩٩٣

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

١ - دوري يا أيام..

٢ - الماضي يصحو..

٣ - أسطورة البيت..

٤ - الفتاة التي لم تكبر..

٥ - لماذا عادت؟..

٦ - الملاك المفترس..

٧ - فلندخل البيت..

٨- إنه حي!..

٩ - ألعاب شيطانية..

١٠ - (شيراز) تتكلم..

١١ - الخاتمة..

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة البيت

البيت يعرف كل شيء ..
البيت يذكر كل شيء ..
البيت لم ينس وجوهنا الطفلة ..
و يدرك أننا سنعود لا محالة ..
البيت ينتظرنا بعد كل هذه الأعوام ..
و بوابته الصدئة مفتوحة من أجلنا
.... فهل ندخل؟ .....

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة اللهب الأزرق

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

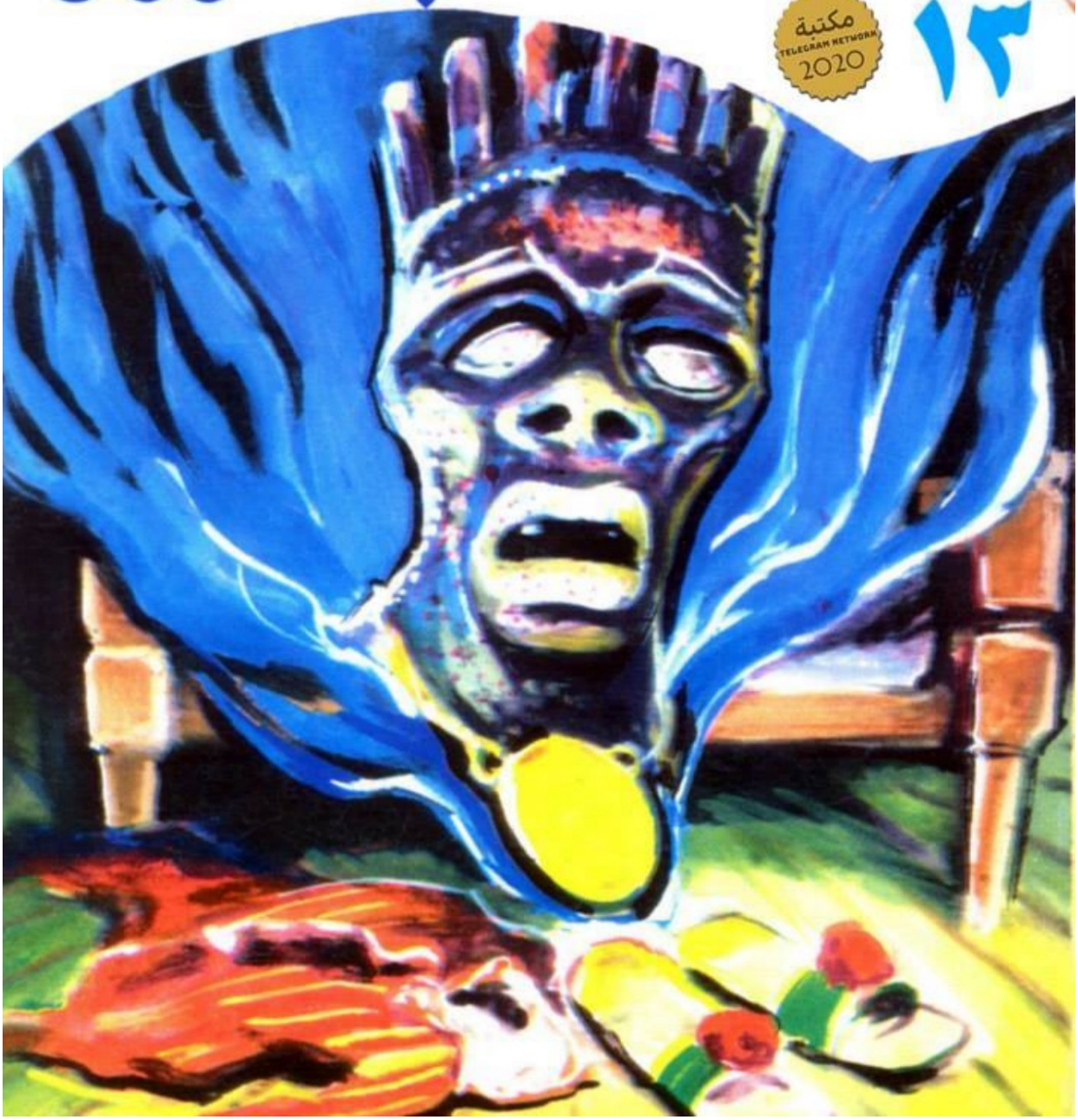
روايات مصرية للجيب

أسطورة اللهب الأزرق

ماوراء الطبيعة

١٣

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٣

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة اللهب الأزرق

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

١٣

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

•

أسطورة اللهب الأزرق

بقلم:

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة

الحكاية الثالثة عشرة..!

لماذا تشاءم الأقدمون من هذا الرقم؟.. إن لهذا قصة طويلة سأحكيها لكم يومًا ما، حين أتناول أسطورة الرقم المشئوم..، أما الآن فدعوني أقل لكم إننا قوم لا نتطير ولا نتشاءم ونحب الفأل..

أسوأ ما سيحدث لنا اليوم- وأرجو ألا يحدث - هو أن بعضكم قد لا يحب هذه الحكاية.. فإذا شعر أحدكم بذلك فليلمني أنا ولا يلم الرقم (١٣)!..

أنا د. (رفعت إسماعيل).. الشيخ الطاعن في السن الذي كان يومًا ما طبيبًا شهيرًا، ومحارب خرافات، ومنقبًا في كهوف ما وراء الطبيعة..

وكما قلت لكم مرارًا.. لم أتزوج قط لأن من عاش حياتي لا يتزوج.. هذا هو كل ما أستطيع قوله عن نفسي..

والآن دعونا ندخل عالمًا آخر من المشاكل والشخصيات، ونتعرف على أسطورة جديدة من التي ملأت أحلامي بالكوابيس..

اللهب الأزرق..

هل سمعتم عنه؟

هل تخيلتم كيف يبدو؟..

أنا سأريكم اللهب الأزرق، وسأحكي لكم عن أسراره.. إن القصة حقيقية تمامًا ومعروفة.. لكني سأجعلكم تعيشون فيها لحظة لحظة.. وستعرفون..

إن العجوز (رفعت إسماعيل) لم يزل قادرًا على أن يكون مسليًا...

فقط لا تزعجوني بالتعليقات..

وأصغو إلي جيدًا..

* * *

١ - رحلة جديدة..

لم أكن خائفًا..

فقط كنت في حالة ذهول تام لأنني لم أجرؤ قط على تخيل أن كل هذا ممكن.. لم أتصور أن هناك شيئًا بهذه القسوة..

لم أكن خائفًا..

فقط انتصبت الشعيرات الباقية في رأسي وعلي ساعدي، وشعرت كأن الجليد يتكاثف فوق عمود الفقري..

لم أكن خائفًا..

لكن الهاجس قال لي إنني يجب أن أولى الأدبار في الحال إذا ما رغبت في النجاة، وكالعادة تجاهلته متظاهرًا بالشجاعة..

كان الدخان يفعم الهواء حتى أننا كدنا نبصق رئتينا من فرط السعال.. صاح (هاري) وقد بدا لي كأحد أبطال أفلام (الوسترن) بشعره الأشقر المنتثر على وجهه وعضلاته القوية:

- (رفعت)!.. يجب أن نهشم الباب..

كان الباب الخشبي العملاق يقف أمامنا متهكمًا من محاولاتنا الخرقاء.. إلا أننا تراجعنا للوراء واندفعنا بكتفينا موجهين له أعنف ضربة ممكنة.. معذرة!.. لم نوجه الضربة للباب بل لكتفينا!...

- (هاري!.. لا جدوى.. فلنحضر ما يصلح لتهشيم الباب..

- لا وقت لذلك.. حاول ثانية..

ونادى في هستيريا عالمًا أنه لن يتلقى ردًا:

- مس (جونز)!

ثم إننا وثبنا كقذيفة المدفع نحو الباب متوقعين نفس الكدمات السابقة لكنه كان قد سئم الصمود.. وسرعان ما انفتح الباب لنجد نفسينا واقعين على الأرض مهشمي الأوصال.. وفي إعياء نهضنا..

كان الدخان يفعم المكان ويجعل الرؤية متعذرة..

لكننا - وسط سعالنا ودموعنا - نجحنا في اختراق الغشاوة.. واستطعنا أن نرى ما انتهى إليه الحال في الداخل..

يا الله!.. ساعدني على أن أنسى..

* * *

النصف الأول من عام ١٩٦٧

أحزم حقائبي متأهبًا للسفر إلى الولايات المتحدة..

كنت قد خرجت لتوي من مغامرتي مع البيت.. البيت الذي اشتاق لأصدقاء الصبا فقرر أن يعابثهم بألعاب الموت..، وكنت قد فارقت هؤلاء الأعزاء بعد المعاناة المشتركة التي عشناها معًا..

فارقتهم على وعد باللقاء الذي لن يتم كالعادة.. لكني كنت راضيًا سعيدًا.. مكتفيًا بالذكرى المشتركة التي برغم شناعتها لم تكن سيئة إلى هذا الحد..

أحزم حقائبي بينما غيوم الحرب تلوح في الأفق.. الكل يصارحني:

- هل أنت مجنون؟.. ليس هذا وقتًا مناسبًا للسفر.

- إن شهر (يونيو) لن يمر دون حرب..

لكني مضطر للسفر...

إن أعمالًا كثيرة تنتظرني هناك ولا أتصور لحظة أن أؤجل كل هذا العمل إلى أن تستقر الأمور، فقط ودعت (هويدا) وأصدقائي ثم ركبت الطائرة متجهًا إلى الولايات المتحدة عاقدًا العزم على أن تستغرق رحلتي أسبوعًا أو عشرة أيام على الأكثر..

أنا لا أحب الولايات المتحدة ولا أجد نفسي فيها.. وأفضل عليها أوربا التي تعبق بالتاريخ وندوب المسامير التي دقها مئات المفكرين في بناء الحضارة البشرية.. إن الولايات المتحدة ثرية نعم.. متقدمة حقًا.. لكنها خالية من الحياة، وكما قال المفكر المصري أ. د. (عاطف العراقي) فإن التقدم موجود في أمريكا لكن الحضارة موجودة في أوربا.. وشتان ما بين التقدم والحضارة!، شتان ما بين الثراء والذوق.. شتان ما بين البهرجة والأناقة... لحسن الحظ أنني لن أقضي وقتًا طويلًا في بلد محدثي النعمة هذا.. على أنني - بعد أن أنهيت أعمالي - طلبت رقم هاتف صديقي الحميم مهندس الكمبيوتر (هاري شيلدون).. هل تذكرونه؟.. إن من قرءوا مغامراتي مع (الزومبي) في (جامايكا) لن ينسوا (هاري شيلدون) أبدًا وزوجته (لندا) وطفلهما الشقي الجميل..

كان (هاري) يقيم في (فلوريدا) كما تذكرون.. وكنت أنا في ولاية (بنسلفانيا) في (هاريسبرج) عاصمة الولاية، ولم أنس بالطبع أن أجعل ثمن المكالمة على المتلقي!.. إلا أن هذا لم يثر حفيظته بل إنه أصر على أن يأتي لي في (بنسلفانيا) خصيصًا كي يكرم وفادتي ما دمت عاجزًا عن اللحاق به في (فلوريدا)..

وهكذا..

وجدت ذلك الشاب الأشقر مديد القامة واقفًا في بهو الفندق الذي أقيم به.. كان يرفع قبضته في الهواء صائحًا بحركة تمثيلية أثارت انتباه كل الموجودين:

- (كوديكا)!.. (كوديكا)!..

والكلمة - إن كنت نسيت - معناها (إلى الجحيم) بلغة سكان (جامايكا) المحلية.. إنه يمزح!.. لكنه مزاح سمج.. المهم أنني هرعت نحوه كي أخرسه... وتحملت - في صبر - لكماته على الكتفين وصيحاته الهستيرية على الطريقة الأمريكية:

- هلم يا صغيري!.. لا تلعب دور الرزين البارد.. دعنا نر أي وغد عجوز صرته!

- أ.. (هاري).. هلا كففت عن الصراخ لحظة؟.. إنك تفزعني..

مشكلة هؤلاء الأمريكيين هي أنهم لا يخجلون.. ولا يخشون أن يراهم الآخرون سخفاء، لهذا يفعلون ما يتبادر لذهنهم عفو الخاطر..

- لقد قطعت مسافة طويلة من (فلوريدا) خصيصًا لأجلك.. وهأنذا تعاملني كرفيق زنزانة قديم جاء ليعيد لك ذكرى ماض كريه!

وصعدنا إلى حجرتي.. وطلبت له كوبًا من العصير..

- هل تذكر مغامرتنا مع (الزومبي)؟.. هي.. هي! والأم (مارشا)؟

- ومن ينساها؟
وجلسنا نتحدث عن الماضي.. وعن أحواله وأحوالي..
بالطبع لم أنس أن أحكي له قصتي مع (العساس) ومع لعنة الفرعون ومع البيت و.. و..، وهنا وجدت عينيه تتسعان وفمه ينفتح كالأبله:
- (رفعت)!.. دعني أصارحك.. أنك لست إلا واحدًا من اثنين.. إما كاذب كبير وإما أتعس سكان الأرض حظًا..!
- أنا لا أحب الكذب.. وعلى كل حال أنت عشت معي قصة (الزومبي)...
- إذن فأنت منحوس إلى حد لا يصدق..
وحك رأسه في حيرة.. وأردف:
- هل تعرف؟.. هناك في دراسات البيولوجيا الحيوية ما يؤكد أن هناك أشخاصًا تحدث لهم المتاعب أكثر من سواهم.. إنهم ليسوا أكثر خرقًا ولا غباء من الآخرين.. لكن هناك شيئًا ما يجعلهم الأكثر إبتلاء..
- أصدقك تمامًا..
وبعد هنيهة تفكير بدأت أسأله عن أسرته.. فقال إنهم جميعًا بخير..، وكم من الوقت ينوي أن يمضيه معي؟.. حوالي أسبوع خاصة وأن رحلتي تنتهي بعد أسبوع، وبالتالي فلا داعي لإضاعة الوقت.. هلم نمرح على الطريقة الأمريكية..

* * *

ولكن ما هو المرح المتوقع في ولاية حجر الأساس الأمريكية؟..
لا شيء سوى مصانع الحديد والصلب المنتشرة في كل مكان.. وربما نزهة على شاطئ بحيرة (إيري).. ثم لا شيء أكثر سوى الجو الأمريكي العام...
صحيح أنك على كثب من (نيويورك) و (أوهايو) و (فرجينيا) - وكل منها تحمل ما تحمله من ارتباطات في الذهن - لكنك برغم ذلك بعيد.. بعيد جدًا..
ستدخل ألف مطعم لتتناول شطائر (الهمبرجر) و (الكلاب الساخنة).. وستذهب للسينما مرارًا.. وتركب زورقًا في البحر محاولا تناسي دوار البحر اللعين.. سيعلمونك مضغ اللبان الأمريكي والكلام من أنفك والسيجارة متدلية من شفتيك..
ستذهب للملاهي الليلية لتمزق طبلتي أذنيك نغمات (الروك أند رول) وعلى الأرض تسيل أنهار الجعة في حين يتلوى الراقصون كأنهم في الجحيم..
وترى عصابات الدراجات البخارية على كل منها شاب أخرق يرتدي سترة جلدية سوداء.. ولربما - إذا حالفك الحظ - لا تتلقى علقة بالجنازير أو تُسرق دولاراتك المعدودة..
هذه هي (أمريكا)..
لا أدري لماذا يمزقني الحنين لـ (كفر بدر) هذه الأيام بالذات؟!

* * *

كنا نقطن في فندق صغير على أطراف الولاية نتخذه كنقطة انطلاق لجولاتنا المتعددة..

وأتاح لي صغر حجم الفندق جوًا حميمًا أمكنني فيه أن أعرف سكان الفندق بشكل أفضل، وبالتالي كان باستطاعتي أن أقسمهم إلى أنماط أو مجموعات متفرقة..

أولًا: كانت هناك مجموعة الشيوخ الذين يجلسون - كالبوم - يرمقون ما يدور حولهم في شك.. وكلهم إنجليز..

ثانيًا: مجموعة الشباب المرح وهم عدد من الفتيان والفتيات المخطوبين أو المتحابين أو المتزوجين..

ثالثًا: مجموعة (زهور الحائط) - كما يقول الأمريكان - وهي مجموعة من الانطوائيين الصامتين الذين يراقبون ما يحدث دون ضيق ولا شغف.. ولا تستطيع أبدًا أن تعرف فيم يفكرون..

رابعًا: مجموعة الفضوليين الذين يراقبون المجموعات الثلاث الأخرى في اهتمام.. وأفراد هذه المجموعة اثنان فقط.. أنا و (هاري)!..

خامسًا: الإدارة.. وتتكون من (جين) الحسناء المرحة ذات الميدعة البيضاء والغمازتين.. مس (جونز) مديرة الفندق العانس العجوز الشمطاء.. و (باتريك أوكونور) الساقي ذي الأصل الإيرلندي.. ثم طاهيين..

هناك - كذلك - كلبان وقط..

هذه هي الخلطة البشرية المقيمة بالفندق قدمتها لك على غرار قصص (أجاثا كريستي).. وما دمت أتبع أسلوب (أجاثا كريستي) فإن لك أن تتوقع مصيبة ما وكيف يتفاعل معها البشر الموجودون..

حسن.. إن حدسك لم يخطئ كثيرًا..

بالفعل ستحدث كارثة..

لكنها لن تكون جريمة قتل يميط القناع عنها (هركيول بوارو).. بل هي شيء آخر.. شيء بشع.. أبشع من كل جرائم القتل التي سمعت عنها..

ولكن....

دعنا لا نسبق الأحداث...

* * *

الجـزء الأول

حادث غير متوقع

تحكيه (جين) خادمة الغرف

"إن لي عيبًا أصارحكم به هو أنني لا أحب الجثث المحترقة!، لربما أدى هذا إلى صعوبات في تعاملي مع المشاكل اليومية لهذا الفندق.. لكني أرجو أن تغفروا لي ذلك العيب! ".

* * *

تقول (جين):

عجوز شمطاء هي مس (جونز) مديرة الفندق.. أحبها بلا تحفظ.. وهي - اؤكد لكم - تخفي تحت شعرها الأبيض المعقوص عقلًا ذكيًا نابضًا وقلبًا شفافًا مفعما بالعواطف..

ولولاها لما تحملت هذه الحياة المملة... وتظرف المتظرفين ومن يحسبون أنفسهم فاتنين للنساء خاصة ذلك الإيرلندي السخيف (باتريك أوكونور) الساقي الذي يحسب أن كوني زميلته في العمل يجعلني ملكه بشكل أو بآخر..

وتيرة حياتي لا تتغير في هذا الفندق..

في الصباح أستيقظ من النوم قبل الجميع في غرفتي الحقيرة، فأرتدي ثيابي وأطعم القط والببغاء وأهرع إلى المطبخ لأجد الطاهيين عاكفين على إعداد الإفطار..، وتكون مس (جونز) قد صحت من نومها وجاءت لتراقب سير العمل.. أما أنا فأعد موائد الإفطار سريعًا..

عندئذ يكون السيد (أوكونور) قد وصل وبدأ يداعب خصلات شعره الأشقر في خيلاء، ويقول عبارته السمجة المعتادة:

- هاي سندريللا!

فأهز رأسي في سأم.. وأعاونه في ترتيب المقاعد على حين يبدأ النزلاء - هؤلاء الكسالى - يتجمعون في قاعة الطعام.. هذه المجموعة المعتادة في فندقنا.. دائمًا السياح الإنجليز الشيوخ الذين يرمقون في فضول ما يدور حولهم.. ودائمًا الشبان المتظرفون مع فتياتهم المائعات.. ثم (زهور الحائط).. دعك - بالطبع - من الشاب الأمريكي الوسيم الأشقر ومرافقه الأصلع النحيل ذي النظارة السميكة.. هذا الأخير لا يمكن أن يكون أمريكيًا أو أوربيًا.. بالواقع هو لا يبدو شبيهًا بأية جنسية من جنسيات الأرض!، وهو يدخن كقطار عتيق من القرن الماضي ولا يكف عن اختلاس النظر للآخرين!...

ويبدأ الجميع في التهام طعام الإفطار - كأفراس النهر في حديقة الحيوان - فأفارقهم صاعدة إلى الطابق العلوي لأرتب أسرتهم وأستبدل البياضات مع بعض الكنس الذي لابد منه..

خمسون غرفة أقوم بترتيبها.. ربما أكثر أو أقل.. وهو مجهود مرعب لكن ليس مستحيلًا..

بالطبع لابد من أن أجد أشياء غريبة من حين لآخر نسيها هؤلاء...

لن أحدثك عن النمر الوليد الذي وجدته في غرفة أحد أثرياء الجنوب.. ولا عن مجموعة علب الثقاب التي يحتفظ بها أستاذ جامعي من (منيسوتا).. ولا مجلات الأطفال التي وجدتها عند عجوز تجاوز عمرها السبعين..

سأحدثك عن شيء وجدته في الغرفة رقم (٢٩) اليوم فقط..

إن ساكن هذه الغرفة هو عجوز إنجليزي متحذلق يحمل طابع بناة الإمبراطورية الأوائل.. بترفعه وتحذلقه ولغته المنمقة التي درس كل مخارجها الصوتية قبل أن ينطقها..، يدعي هذا العجوز بـ (لورد كينزي) ولا أعرف سبب نزول لورد مثله في فندقنا المتواضع..

وأنا لست حمقاء...

إن هذا الـ (كينزي) يخشى شيئًا ما ولعله مختبئ في فندقنا لمجرد الفرار من هذا الشيء..

أنا أفهم هذه النظرات المذعورة القلقة المتوترة، وأفهم تلكم الالتفاتات المستريبة إلى ما وراء الكتفين..، ومراقبته الحذرة لكل وجه جديد... أنا أعرف هؤلاء اللصوص الفارين الذين يتظاهرون بأنهم من علية القوم.. وأعرف كل شيء عن النازيين القدامى الفارين من انتقام اليهود.. الجديد هنا هو أن اللصوص والنازيين يختبئون - دائمًا - في أمريكا الجنوبية وليس في (بنسلفانيا)..

لربما كانت بوصلة هذا ال (كينزي) معطلة حين جاء لنا..!

دعونا من هذا.. كنت أقول لكم إنني بدأت في تنسيق غرفته..

حين سقط شيء ما على الأرض وتهشم..

وهنا أجد لزامًا علي أن أقدم اعترافًا صغيرًا.. لقد سقط هذا الشيء حين فتحت الدولاب الجداري لأرى ما به.. أعلم أن هذا الفضول ليس محمودًا ويتنافى والأمانة، لكني - أقسم لكم - لم أبغ سوى إلقاء نظرة.. مجرد نظرة.. لقد سبق لي في مرات عديدة أن وجدت أكداسًا من المجوهرات ملقاة بكل إهمال لكني لم أمسها لأنني لست لصة.. أنا - فقط - فتاة فضولية أخرى..

لكن حظي العاثر جعلني أسقط شيئًا كان مستندًا إلى (ضلفة) الدولاب، وهذا الشيء - كما قلت لكم - تهشم..

يا له من مأزق..!

كان هذا الشيء عبارة عن تمثال.. تمثال قبيح جدًا بارز الشفتين وقد تحول إلى عشرة أجزاء أو أكثر.. هناك حيث تناثر على أرضية الغرفة الصلبة..

ترى ماذا أفعل؟

هل ألصق الأجزاء؟.. من السذاجة أن أعتبر هذا حلًا لأنه يجب أن يكون أعمى - الرجل لا التمثال - كي لا يلاحظ ما حدث..

هل أحمل له البقايا وأعتذر له بلباقة؟ لكن ماذا لو كان التمثال ثمينًا؟ وماذا لو لم يقبل اعتذاري؟..

أما لو أغلقت الغرفة - ببراءة - وتناسيت الأمر، فإنه سيعرف بالتأكيد أنني المسئولة.. لأنني الوحيدة التي تملك مفتاح الغرفة سواه..

إن هذا اليوم اللعين سينتهي بطردي أو ما هو أسوأ.

ماذا أفعل يا ربي؟..

وهنا سمعت صوت رجل يتنحنح على الباب..

* * *



كان هذا الشيء عبارة عن تمثال .. تمثال قبيح جدًا يبرز الشفتين وقد
تحوّل إلى عشرة أجزاء أو أكثر ..

كان هذا هو (باتريك)..
للمرة الأولى في حياتي أشعر بالراحة لأنني أقابل هذا السمج.. دخل الغرفة وقد بدت الدهشة في عينيه الزرقاوين:
- (جين)!.. ماذا قد حدث؟..
جلست على مقعد خشبي كان هنالك.. وهمست في استسلام:
- كما ترى...!
- لم أتصور أن تفعلي أنت بالذات هذا..
صحت في غل وقد ضايقتني النغمة (التربوية) في صوته:
- اسمعني أيها الإيرلندي.. لقد تهشم وانتهى الأمر ولا حاجة بي لسماع آرائك في الفتيات المهنيات.. لم أطلب منك أن تتزوجني..
هتف بلهجته الإيرلندية وهو ينحني ليلتقط قطعة من الحطام ليتأملها عن كثب:
- هلا هدأت قليلًا؟.. يبدو لي هذا التمثال ثمينًا..
- كان...!
ثم إنه جلس على حافة الفراش وشرع يداعب شعره الأشقر مفكرًا.. لحظات من الصمت ثم غمغم في شرود:
- سيعرفون أنك المسئولة حتمًا..
- نعم وستطردني (الريسة).. أعرف كل هذا..
وهنا ابتسم في خبث والتمعت نظرة ظفر في عينيه:
- ولكن عندي فكرة..
- أنت محظوظ..
- سنجعل الأمر يبدو كجريمة سرقة عادية..!
- ماذا..؟!..
وشرع - في حماس - يحكى لي خطته..، إن عدم وجود آثار عنف يوحي بلا شك أن من عبث بمحتويات الغرفة هو أنا.. أما لو ظهرت آثار تفتيش وآثار عبث بقفل الباب فهذا يدل على أن الجاني هو أي واحد من الذين لا يملكون مفتاحًا.. واحد من النزلاء أو (أوكونور) أو مس (جونز) نفسها.. المهم أن الشرطة أو صاحب الغرفة لن يعرفوا أبدًا من فعلها.. فكرة لا بأس بها.. لكن..
- لكنني لن أسرق شيئًا!.
- ومن قال ذلك؟... سنفترض أن اللص لم يجد ضالته وانصرف بخفي حنين.. هذا وارد...
كان (باتريك) يرتدي قفازين أبيضين بحكم عمله ساقيًا.. لهذا شرع على الفور ينفذ خطته المرتجلة لإنقاذ الموقف.. ولم ير ضرورة لإزالة بصماتي لأن وجودها متوقع.. في البدء رتبت الحجرة وأغلقتها.. كأنني أنهيت عملي قبل السرقة.. ثم جاء (باتريك) وبدأ - بسكين صغير- يعبث في القفل ثم فتحه بشيء من العنف.. ثم إنه دخل الغرفة وفتح أدراج الكومودينو
وباقي ضلفات الدولاب وألقى ببضعة أشياء على الأرض..
وهنا وجدنا لدهشتنا قلادة ذهبية غريبة الشكل بين هذه الأشياء.. قلادة تحمل رأسًا شبيهًا برأس التمثال المهشم.. وكانت على ظهرها نقوش لم يتسع الوقت كي نتأملها..

نظر لي (باتريك) في حيرة.. ثم همس:
- هل تعرفين يا (سندريللا)؟.. ربما كان من الحكمة أن تأخذي هذه القلادة معك.. إذ كيف نبرر أن يتركها لصنا المفترض؟
- قلت لك إنني لن أسرق!
- ومن قال إنها سرقة؟.. سنخفيها بعض الوقت فقط ثم ندسها في حقائبه بعد أن تنتهي ضوضاء المشكلة..
قالها وهو يدس القلادة في جيب الميدعة الخاصة بي..
كان كلامه منطقيًا.. ولم أستطع سوى أن أقبل في استسلام ما طلب..
- والآن.. هيا نهرب قبل أن يعود...
واختفى من الغرفة تاركًا إياي مبلبلة الذهن..
حل أحمق لتصرف أحمق.. وهأنذا قد تورطت حتى أذني في هذه اللعبة القذرة.. يقولون إن الفضول قتل القط.. ومن الواضح أنه قادر على تدمير حياة (سندريللا) ذاتها..
سامحني يا إلهى وأنقذني من هذه الورطة..
المشكلة أنني مضطرة للتمادي في هذا الموقف إلى آخره.. فلا يجب أن يجد رجال الشرطة هذه القلادة بين حاجياتي وهي - حتمًا - أول حاجيات سيتم تفتيشها في هذا الفندق..
لهذا تسللت إلى حجرة مس (جونس) ولم تكن موجودة طبعًا..
إلى المخبأ الذي عرفته بالصدفة في غرفتها.. إن سريرها من طراز عتيق له مقبضان من النحاس المجوف عند رأسه.. وهذان المقبضان متحركان يمكن دومًا إخفاء ما تريد فيهما.. والغريب هو أنها لا تعرف ذلك حتى اليوم.. لهذا كنت أضع مدخراتي في هذا المكان طيلة العام الماضي بعيدًا عن غرفتي مطمئنة إلى أن أحدًا لن يجد هذا المخبأ المتقن.. سأخفي هذه القلادة يومين أو أكثر إلى أن أجد سبيلًا لإعادتها دون ضوضاء..
إن أحدًا لن يشك في مس (جونز).. ولو حدث فإنه لن يفكر في هذين المقبضين أبدًا..
وأتممت مهمتي في ثوان وعدت أواصل عملي..

* * *

ما إن دخلت المطبخ حتى وجدت (باتريك) يصيح في مرح وهو يفتح ذراعيه:
- (سندريللا)!.. أخيرًا عاد الهدوء!.
تبدلت ملامح وجهي في تنمر.. وقلت له ضاغطة على كل حرف من حروف كلماتي:
- اسمع يا (باتريك)!.. كانت ورطة أنقذتني منها وأنا لك شاكرة لكن إذا حسبت لحظة أن هذا يعطيك حقًا ما أو أن هذا السر المشترك قد قرب بيننا بشكل أو بآخر.. فأنت مخطئ!
ثم تناولت زجاجة لبن من الثلاجة وأزاحت غطاءها المعدني:
- أنا لست مدينة لك إلا بالشكر!
وجرعت اللبن البارد غير عابئة بالخيط الذي بدأ يسيل على ذقني على حين تأملت - في رضا - نظرة خيبة الأمل التي انهزمت بها ملامحه.. كنت قاسية لكنني لا أريد منه أن يتبسط في الحديث عن (سرنا المشترك).. أو أن يحسب لحظة واحدة أنني مدينة له بمستقبلي..

- أنت قاسية يا (سندريللا).. امسحي ذقنك!
- اسمي (جين هاربروك).. وذقني هي ذقني أنا ولا دخل لك فيها..
هز كتفيه في تظاهر باللامبالاة وشرع يمارس عملًا وهميًا لمجرد أن يخفي الجرح الذي أصاب كبرياءه..
كان يدندن لحنًا لإحدى أغنيات (توم جونس) السخيفة فتركته وبدأت أعد نفسى للعاصفة القادمة..
ستكون لحظات قاسية.. ولأسمعن الكثير من الصراخ..
لكني سأتحمل.. يجب أن أتحمل..

* * *

مر اليوم دون مشاكل..!..
وهذا في حد ذاته أمر غريب..
أمام عيني صعد هذا الـ (كينزي) إلى غرفته ودخلها.. ثم غادرها.. وعاد لها بعد ساعة.. هكذا!.. ولا كلمة.. ولا حرف...
لقد وجد الرجل آثار المذبحة التي حدثت لغرفته..
آثار السطو والتمثال المهشم.. و.. و... وكل ما جهدنا كي نقنعه به.. وبرغم هذا.. برغم كل هذا
- يا إلهي الرحيم - لم يبد رد فعل واحدًا!
كنت أتوقع أن أسمع صراخه وأن يملأ رجال الشرطة ردهات الفندق بعد ثوان، وأن تقوم الدنيا فلا تقعد.. لكن شيئًا من ذلك لم يحدث.. أي نوع من الرجال هو؟..
ما الذي يدعو رجلًا عاقلًا كي لا يحدث ضوضاء حين تقتحم حجرته ويعبث بها بهذه الفظاظة؟..

* * *

إنه لغز..
من المستحيل أن أفترض أنه لم يلحظ.. الصواب هو أن نقول إنه لا يريد شوشرة.. ولماذا لا يريد شوشرة؟.. الإجابة واضحة.. لأن حدسي لم يخطئ حين افترضت أنه هارب من العدالة..
ومعنى هذا أن هذا الرجل سيبدأ البحث عن مقتحم حجرته..
ولما كان سيعتمد على الجهود الذاتية في البحث فإن هذا يعني أن عقاب اللص لن يكون تقليديًا أبدًا!..
إن رأسي يكاد ينفجر..
لربما كان الصمت والترقب هما الحل الأحوط..

* * *

في المساء ذهبت إلى مس (جونز) حاملة سلطانية من الحساء - عشاءها - معها ليمونتان وزجاجة الدواء..

كانت جالسة على حافة الفراش وقد فكت خصلات شعرها الأشيب لتنساب على كتفيها.. وكانت تقرأ الكتاب المقدس كعادتها ليلًا..

لشد ما أحب هذه المرأة وأرتاح لها..!..

ما إن رأتني حتى أغلقت الكتاب وتأملتني في شرود.. ثم همست:

- (جين)؟.. ماذا تخفين عنى؟.

عيناها الرماديتان المغلفتان بغشاوة من ضمور الشيخوخة ترمقانني في تركيز.. لا أطيق هذه النظرة.. لا يجب أن تفلت مني نظرة إلى المقبضين النحاسيين حيث سري الصغير..



كانت جالسة على حافة الفراش وقد فكت خصلات شعرها
الأشيب لتنساب على كتفيها ..

هززت رأسي بمعنى أنني لا أدري عم تتحدث.. فأردفت:
- أنت طموح جدًا يا بنيتي.. طموح وجميلة وفقيرة.. أنا أفهم كل هذا.. والفتاة في مثل ظروفك ليس لها سوى سبيلين في الحياة.. إما أن تتزوج من رجل ثري أو تغدو غانية!
عم تتحدث هذه المرأة بالضبط؟
- ولما كنت أستبعد السبيل الأول وأنأى بك عن الثاني فإنني أهيب بك أن تتخلى عن طموحك المجنون..
وربتت على كتفي في وداعة:
- إن (باتريك) يحبك.. وهو شاب لا بأس به.. فلماذا لا...؟
- لا..!
صحت في تنمر - على الرغم مني - فأجفلت.. ثم مدت الملعقة إلى الحساء ورشفت رشفة.. وعادت لشرود الذهن..
عسى أن تكون المحادثة قد انتهت..
بعد ثوان من المضغ والشرود عادت ترفع كشافيها الرماديين الفاضحين نحوى وسألتني وهي تمسك ذقني بين أناملها:
- (جين).. ماذا تخفين عني؟
لم أرد.. فهمست وهي تطلق سراح ذقني:
- أنت في رأيي كصفحة كفي.. أعرف كل تجاعيدها وأسرارها، وثقي أنك لن تخفى عني شيئًا.. ولكن ما دمت تؤثرين الصمت فسأتركك لشأنك ولكن ثقي أنني أشعر بحزن مرير..!
سألتها بصوت مبحوح محاذرة أن أنظر لعينيها:
- هل تريدين شيئًا آخر يا سيدتي؟..
- لا يا ملاكي..
- إذن عمت مساء!
وخرجت من الغرفة مبلبلة الفكر..
إنها تعرف.. ولكن ماذا تعرف بالضبط؟.. هل وشى (باتريك) الوغد بي؟.. هذا هو التفسير الوحيد لكلامها الكثير ومحاولتها لعب دور الخاطبة فيما يتعلق به.. ولكن.. لا.. إنها امرأة تعيش بالمُثل ولا تقبل أنصاف الحلول.. ولو علمت ما حدث لكان رجال الشرطة الآن يصطحبونني إلى المخفر..
إذن هو أخبرها بقصة ما اختلقها.. وفي الغالب زعم لها أنني أنسج حبائلي حول نزيل ثري لأتزوجه.. هذا هو التفسير الوحيد لكلامها..
صبرًا أيها الإيرلندي..!.. إن غدًا لناظره قريب..
كنت سائرة في الردهة شاردة الذهن حين وجدت اللورد (كينزي) واقفًا أمام أحد الأبواب يتبادل حديثًا هامسًا مع الأمريكي الوسيم ومرافقه النحيل الأصلع..
وما إن رآني حتى تبدلت نظراته إلى نظرات حادة مرتابة.. وشرع يراقبني كالصقر.. كالصقر!..
إن هذا الرجل يعرف كل شيء..
أقسم على ذلك..

ولكن ما الذي يدبره لي بالضبط..؟.. وما سر لقائه بهذين الرجلين للمرة الأولى؟..
إن أيامًا عصيبة تنتظرني..
أشعر بهذا.. وأثق به..

* * *

الجـزء الثاني
القلادة التـي اختفت

يحكيها لورد (كينزي)

"هناك من دخل غرفتي وهشم التمثال وسرق القلادة الذهبية.. يجب أن أجده على الفور.. إن هذا الأحمق لا يعرف حقيقة ما فعله.. ولا يفهم أي خطر يتهدده!".

* * *

يقول لورد (كينزي):
بالطبع لست لوردًا.. وبالطبع ليس اسمي (كينزي). إن هؤلاء الأمريكان لا يعرفون عن الأسر الإنجليزية العريقة سوى النمط المتحذلق الذي يرونه في السينما والذي أجيد اصطناعه.. في حين أن أدائي لا يمكن أن يخدع رجلًا إنجليزيًا..
لكني مضطر.. مضطر..

* * *

في الفندق الذي أقيم به يوجد بعض الإنجليز لكني أجدت التظاهر بالتحفظ حتى لا يجلس أحدهم معي ويسألني أسئلة محرجة..
يوجد كذلك بعض الشبان المرحين وفتياتهم.. ومجموعة من الانطوائيين - على غراري - ممن يسميهم الأمريكان بـ (زهور الحائط)..، ثم هناك شاب أمريكي وسيم معه رجل نحيل أصلع يدخن كالشاكمان المكسور ولا يكف عن تأمل الناس..
هناك أيضًا مديرة الفندق الشمطاء وخادمة حسناء وشاب أكاد أقسم إنه إيرلندي.. أنا لا أخطى معرفة الإيرلنديين أبدًا..
كل هؤلاء لم يشكوا في أمري..
أوشكوا لكنهم لم يستطيعوا إثبات شكوكهم...
لا أعتقد أن أحدهم يشكل خطرًا على سري لكن الحذر واجب..

* * *

العام ١٩٦١.... على ضفاف نهر (أوكيالي)..
في (بيرو) بأمريكا الجنوبية تحت الشمس اللاهبة ودرجة الحرارة ٤٢ مئوية في الظل.. ومجموعة من علماء الآثار يعملون جاهدين على كشف اللثام عن المزيد من أسرار حضارة (الأنكا)..
هل عرفتم هذا الشاب الأسمر الوسيم الذي يقود الرجال بشخصية كاسحة وذراعين مفتولين وعلى رأسه قبعة من القش؟...
إنه أنا!.. نعم.. أعرف.. لقد تبدلت كثيرًا.. ولكن صدقوني.. هذا أنا ذا منذ أعوام ست لا أكثر..
أنا عالم الآثار الانجليزي (هنري بنسون) الذي جاء إلى هذه البقعة مع زميليه (فيتزجيرالد) و (إيكن) بحثًا عن أشياء لم يجدها السابقون من حضارة الأنكا..
كنا قد وجدنا معبدًا قديمًا مدفونًا كانت تمارس فيه طقوس عبادة أحد الآلهة الوثنيين إسمه (شاكال)..
وبالحفر بدأنا ندرك عدة أشياء..

أولًا: أن هذا الـ (شاكال) كان يحب أن يقدموا له قرابين من الجثث المحترقة.. والدليل كل هذا الرماد والعظام المتفحمة المدفونة تحت ما لا بد أنه كان المذبح..

ثانيًا: أن شعبًا من أقسى وأغلظ الشعوب على وجه الأرض كان يعيش في هذا الموضع..

ثالثًا: أن هناك نوعًا عامًا من الذعر بدأ يظهر على وجه عمال الحفر ومن يعاوننا.. وهي علامة ألفها علماء الآثار جميعًا حين تحرك الحفريات معتقدات بالية في نفوس العمال - الذين يكونون غالبًا من أحفاد أصحاب الأثر - لربما وصلت بهم إلى حد التمرد..

. كفي يا سيد.. هذا خطر.. (شاكال).. سحر أسود!

كذا أخبرني (داماسو) رئيس العمال بإنجليزية مهشمة هي للإسبانية أقرب.. لكنني بالطبع اتهمته بالجبن وأمرتهم أن يواصلوا الحفر..

كان ذلك حين ظهر التمثال..

هو تمثال قبيح لوجه يرتدي غطاء رأس من الذي يرتديه الهنود هنا.. وله شفتان غليظتان ونظرة غير مريحة على الاطلاق..

وكان رد فعل الرجال سريعًا.. وسمعت الصيحة تتردد مرارًا:

- (شاكال)!.. (شاكال)!

- صه يا حمقى..!

وشرعت و (إيكين) نتفحص الراس بين أناملنا..

كانت هناك قلادة ذهبية أنيقة تتدلى حول رقبته.. قلادة تحمل وجهًا يماثل وجه التمثال ذاته..

وكان الرجال هنا قد بدءوا ينأون عنا وقد تعالت صيحاتهم كأنما احتشدوا للثورة، فأدركنا أن من الحكمة أن ننهي التنقيب لهذا اليوم..

جمعنا حاجياتنا ووضعنا التمثال في حقيبة جلدية وشرعنا عائدين إلى المنزل الذي نقيم فيه حين هرع (داماسو) يسير بخطاه المترنحة جواري - فهو يملك ساقًا أطول من ساق - وأخذ يهتف في هستيريا:

- سيد لا!.. سيد لا!.. (شاكال) خطر..

انحنيت نحوه في اهتمام.. وسألته:

- ما سر كل هذا الذعر؟.. عرفتكم شجعانًا لا تبالون...

فأخذ يحكى لي لاهثًا كيف أن كهنة (شاكال) كانوا أقوياء يجيدون السحر الأسود.. وأن من يقتحم حرم (شاكال) يحترق حيًا لأن (شاكال) لا يفهم سوى لغة النار.. وهو لا يمزح أبدًا..

- حسن.. هل لمست أنت ورجالك هذه البقايا؟

- لا سيد.. لا نجرؤ..

-. إذن فهي مشكلتي أنا ورفيقيّ.. ألا ترى ذلك؟

* * *

وفي النزل طفقنا نتأمل التمثال والقلادة اللذين وضعناهما على مائدة فوق ورقة صحيفة.. على حين جلس (فيتزجيرالد) يحلق لحيته..

كان التمثال تحفة فنية - برغم قبحه - ولم يكن أحدنا قادرًا على إبعاد عينيه عنه..، تناول (إيكين) فرشاة صغيرة وطفق ينظف بقايا الغبار المتراكمة على ثنيات التمثال.. ثم أمسك قطعة قماش وبدأ يفرك القلادة..

- ثمة نقوش على ظهرها..

وعلى طريقة علماء الآثار أمسك بقطعة من الصلصال وطبع عليها ثلاث نسخ من ظهر القلادة ثم قطعها بسكينة وناول كلًا منا قطعة عليها انطباع للنقوش...



كان التمثال تحفه فنية ــ برغم قبحه ــ ولم يكن أحدنا قادرًا على

إبعاد عينيه عنه ..

تأملت قطعتي في اهتمام.. ثم غمغمت..
- هي لغة.. لكنني لا أفهم منها حرفًا..
ابتسم (فيتزجيرالد) في فهم وناولني مرآة الحلاقة التي أمامه:
- ربما لأنك تراها مقلوبة.. جرب المرآة...
وضعت المرآة جوار قطعة الصلصال وتأملتها.. ثم هززت راسي:
- لا أفهم حرفًا..
تناول (فيتزجيرالد) المرأة ووضعها جوار قطعته وتأملها لحظة..
ثم....
كيف لم ألحظ هذا التبدل الذي طرأ على وجهه؟.. كيف لم أر الوجوم الذي غمر سحنته والاكفهرار الشديد؟.. كيف لم أفهم معنى تصلبه وصابون الحلاقة يغطي نصف لحيته؟.. ولا الشعيرات التي انتصبت على ساعديه اللذين استحال جلدهما كجلد الإوزة؟
كيف لم أستنتج أنه فهم المكتوب؟
كل ما لاحظته هو أنه هز رأسه بمعنى أنه لا يفهم حقًا.. ثم جلس صامتًا شارد الذهن.. وبحركات آلية واصل حلاقة ذقنه..
قال (إيكين) وهو يغلف التمثال والقلادة برقائق الألومنيوم:
- إنها حضارة لا نعلم عنها شيئًا.. ولغة جديدة.. لربما احتجنا إلى (شامبليون) جديد ليكشف لنا أستارها.. على كل حال نحن واثقون أن هذه النقوش تضم كلمة (شاكال).. ولتكونن هذه نقطة البدء..
ثم تثاءب.. وغمغم وهو يفتح زر قميصه:
- أما الآن فقد حان وقت النوم..

* * *

كانت هذه هي الليلة الأولى في عهد الرعب..
كم كانت الساعة وقتئذ..؟.. لا أذكر ولا أفقه حرفًا مما حدث.. فقط كانت غشاوة النوم واختلاط آخر أحداث الحلم بواقع لحظة الإفاقة.. وحين أدركت من أنا وأين أنا عرفت عدة أشياء...
عرفت أن (إيكين) يوقظني في جنون..
وعرفت أن هناك رائحة احتراق تغمر الجو.. وأن الدخان يفعم الحجرة.. وعرفت أن (فيتزجيرالد) ليس موجودًا معنا..
نهضت كالملسوع إلى حجرته المجاورة لحجرتي..
ولم أستطع فهم شيء..
كان الدخان يغمر الهواء.. السعال يمزق صدري..
نادينا كالملهوفين على (فيتزجيرالد) لكننا كنا ندرك جيدًا أنه لن يرد علينا.. ياللهول!.. فقط ألسنة من اللهب الأزرق.
وعلى المقعد الخشبي - مصدر الدخان - كان هناك شيء ما.. شيء لم نتبينه يحترق.. وكان رد فعل (إيكين) سريعًا.. بادر بإحضار دلو الماء وسكبه على مصدر الدخان ثم هرع يفتح النوافذ وبعد لحظات أمكننا أن نفهم ما أمامنا..

لم يكن هناك شيء على المقعد سوى بيجامة (فيتزجيرالد) الخالية من جسده.. وعلى الأرض كان خفاه..

لا شيء سوى هذا!.. حقًا كانت هناك شمعة لكنها كانت في ركن الحجرة البعيد.. وكان الدخان ينبعث من كل شيء..

هتف (إيكين) بصوت كالبكاء:

- يا إلهي الرحيم!.. حالة احتراق ذاتي!

نظرت نحوه في ذهول..

* * *

الاحتراق الذاتي!..

أعرف هذه القصة جيدًا.. أكثر من مائتي سابقة دوّنها التاريخ لهذه الحالات الغامضة التي يحترق فيها الأناس فجأة دونما سبب ودون أن يقترب منهم مصدر للهب..

حالات مدونة منها راقصة اشتعلت فيها النيران وهي ترقص في (إسكس) فلم يبق منها سوى ثوبها وحذائها.. ومنها رجال أفرطوا في احتساء الكحول.. دائمًا اللهب الأزرق ودائمًا ذهول الواقفين على حين يتبخر الشخص تمامًا تاركًا ثيابه خلفه..

ودائمًا يصف العلماء حرارة اللهب بأنها تقارب ألفي فهرنهايت أو أكثر.. ولا تفسير لكل هذا في كل مرة..

نعم أعرف الاحتراق الذاتي..

لكن هل هذه إحدى حالاته؟..

* * *

ارتجف (إيكين) وهو يتأمل المشهد المروع:

- (شاكال)!

لماذا تذكر هذا؟.. لماذا ردد الاسم الذي كنت أخشى أن يتردد..؟.. لكن كلينا كان يفهم أن هناك علاقة لهذا المشئوم بما يحدث..

وفي هستيريا شرعنا ننظف المكان آملين أنه - بشكل ما - سندرك أن كل هذا وهم أو كابوس..

لكن ماذا يفعل (فيتزجيرالد) خارج بيجامته إذا لم يكن احترق؟!

إن ما حدث يفوق الوصف وقدرة لساني على التعبير.

لكنه حدث..!

* * *

في اليوم التالي التزمنا الصمت وجمعنا حاجياتنا لنفر من هذا البلد إلى ديارنا وبأقصى سرعة.. لم نكن نريد أسئلة محرجة عما حدث خاصة وأننا لا نملك إجابة.. ثم إن الحفريات التي قمنا بها لم

تكن قانونية تمامًا، وحتمًا كنا سنقع تحت طائلة العدالة هناك لو أنها عرفت قصة معبد (شاكال) المندثر..

عدنا إلى (إنجلترا) طاوين اللغز بين أمتعتنا.. ولم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي حملناه معنا.. بلي حملنا أيضًا التمثال والقلادة لأننا لم نر فيهما خطرًا ما.. ثم إن التخلي عن هذا الكشف أمر يفوق احتمال أي عالم اثار..!..

كان (فيتزجيرالد) مغامرًا أسكتلنديًا - رحمه الله - أفاقًا بلا عائلة تبحث عنه، لهذا لم يطالبنا أحد بتقديم تفسير عن تلاشيه..

وبعد أسبوع توجهنا إلى قصر اللورد (كينزي) الذي انتحلت اسمه..

كان اللورد (كينزي) من أسرة بريطانية عريقة يعيش وحده بعد وفاة امرأته، وإلى حد ما يشبه نمط الإنجليزي (المنشى) الذي تقمصته منذ أتيت إلى (بنسلفانيا)..

هواية هذا الرجل هي جمع الآثار، وقد أضيف هنا أنه كان يملك خبرة وثقافة عالم آثار من الصفوة.. تكفيه نظرة إلى تمثال كي يقول لك ما إذا كان أصيلًا أم مزيفًا.. وعمره.. وجنسية صانعه.. ومن أين جاء..

إلى هذا الرجل ذهبنا ولم تكن تلك المرة الأولى فقد بعنا له تحفًا من الفن المصري والأتروري والفينيقي.. وهو - كناقد بارع - لا يقبل إلا أجود الجيد.. وداره هي متحف تتقطع له أنفاس كل دارسي الحضارات القديمة..

كانت كلاب (الدوبرمان) تزأر في الخارج حين اقتادنا اللورد إلى غرفة مكتبة عبر ردهة تعج بالأسود الآشورية ذوي رءوس البشر.. وتماثيل (إيزيس) ترضع (حورس)... و (أغسطس) يرفع يده من تحت عباءته مصدرًا أمرًا ما لقواده...

وعلى المكتب العتيق وضعنا اللفافة التي حملناها..

هتف اللورد في لهفة:

- والآن دعاني أر هذه التحفة..

قلت في شرود وأنا أفك الأربطة:

- السعر أولًا..

- ليس قبل أن أراها.. لا أذهب للكنيسة قبل أن أرى العروس.. لكن إذا رأيتها وراقت لي..

- هي من أجمل عرائس (بيرو)..

وفتحنا اللفافة ليبرز تمثال (شاكال) الدميم والقلادة الذهبية.. لم نكن قد ألقينا نظرة عليهما منذ غادرنا (بيرو).. ولقد بدا لنا أقبح وأبشع مما رأيناه سابقًا..

- غريب..!.. غريب!

أشعل اللورد سيجارًا وقد استبد به الانفعال فلم يعد يعرف كيف يشعله ومضى يردد عبارته المندهشة مرارًا..

- غريب!.. غريب!.. هذا طراز لم أره من قبل.. حضارة موغلة في القدم.. ثقافة همجية إذا صح هذا التعبير..

ومضغ السيجار في نهم.. ثم أمسك القلادة وشرع يتأملها.. مغمغمًا:

- وهذه.. إنها.. نعم.. توجد حروف على ظهرها.. ولكن أين منظاري؟.. آه.. ها هو ذا.. إن هذه الحروف هي..

وتصلب في جلسته..
مرة أخرى لم أعر اهتمامًا للعلامات التي بدت على وجهه.. هذه العلامات تبدو مألوفة لي.. قطرات العرق على جبينه والاكفهرار على ملامحه والتوتر.. دائمًا التوتر..
قلت في كياسة:
- لم نفهم طبيعة هذه اللغة.. هل تفهمها أنت؟
نظر لي بعينين خاويتين.. ثم هز رأسه نافيًا.. وفي اقتضاب أغلق اللفافة على ما بها وبلهجة عملية قال:
- الواقع أيها السيدان أنني لا أعرف الكثير عن هذه الحقبة..
- إذن تريد هذا التمثال..؟
- لا.. فلنقل إنني غير راغب في تشتيت تركيزي بهذه الفترة.. إنني لا أحتاج إلى هذا الأثر..!
شعرنا بدهشة.. كان هذا آخر رد فعل توقعناه.. إن اللورد لم يكن تاجرًا بارعًا، ولم يكن يجيد إخفاء لهفته حتى لا نغالي في السعر.. فما إن يرى أثرًا يهمه أمره حتى يبدأ في الصراخ دون تحفظ ويقدم لنا أي سعر نريد..، من المستحيل أن هذا التمثال لم يثر اهتمامه ومن المستحيل أنه يتظاهر باللامبالاة..
- لكن يا لورد (كينزي).. لو أردت..
أدار وجهه بعيدًا عنا معلنًا انتهاء المحادثة.. ومضغ سيجاره أكثر:
- لقد انتهت الصفقة أيها السيدان.. إن بضاعتكما لا تناسبني..
- ولكن.. ربما لو سمعت سعرنا..
- لا أريد سماعه!
متى دق الجرس؟ ومتى جاء الخادم ليصحبنا - مع تمثالنا - إلى الباب الخارجي؟.. لا أذكر.. كنا مشوشي الفكر.. في صمت مشينا بين الكلاب السوداء المكشرة عن أنيابها والتي قيدها الخدم بالسلاسل.. لم تصدق ما حدث..
ما سر هذا الفتور؟.. وما سر ضيق صدره؟..
لماذا تصرف كأنها إهانة منا له؟

* * *

على أننا - في اليوم التالي - اتفقنا على تسمية هذه الحالة بـ (ذهول شاكال) وكان ذلك بعد ما قرأنا نبأ احتراق اللورد (كينزي) ذاتيًا في غرفة نومه تاركًا منامته وخفيه سليمين!..
قالت الجريدة إن الخدم فوجئوا بدخان ينبعث من غرفة اللورد فحطموا الباب واستدعوا رجال المطافئ، وكان أن وجدوا المشهد المألوف.. ويقول رجال (سكوتلنديارد) إن الغرفة كانت مغلقة من الداخل بإحكام.. ولم يكن بها مصدر واحد للنار، وأن اللورد تبخر تمامًا.. وقد صرح المفتش (جيمس ماكفرسون) أنه.... ألخ.. الخ..
إذن حدث ثانية!..
مثل ما حدث لـ (فيتزجيرالد) التعس..

إن العلاقة الآن واضحة تمامًا بين (شاكال) وحوادث الاحتراق الذاتي، ولم يعد ثمة شك ولا حاجة لضحية ثالثة..

وفي تعاسة همس (إيكين) وهو يتأمل القلادة:

- ولكن.. لماذا لم نحترق نحن؟

قلت وأنا أحاول عبثًا الإمساك بكأسي دون أن ترتجف يدي:

- لأننا لم نقرأ المكتوب على القلادة..

- ماذا تعني؟

- أعني أن الأمر واضح.. ثمة أشخاص كان بإمكانهم فهم هذه النقوش واستنباط معناها.. وأيًا ما كان معنى ما قرءوه فهم قد دفعوا الثمن.. ثمن المعرفة.. إن هذه النقوش تحوي تعويذة ما أو عبارة سحرية أو تهديدًا.. لهذا كان كل من يقرؤه يصاب بذهول.. الذهول الذي يمكن أن نسميه (ذهول شاكال).. كأنه يعرف قرب نهايته..

- هل تعني أن هناك أشخاصًا قادرين دون غيرهم على قراءة معنى العبارة.

- بالضبط.. ومعنى قراءتهم للعبارة أنهم مقضي عليهم بالهلاك..

اتسعت عينا (إيكين) في ذعر وألقى بالقلادة بعيدًا:

- إذن فمصدر هذه اللعنة يجب أن يدمّر!

- وماذا تقترح؟

- ربما حفرة في الأرض أو صندوقًا في قاع المحيط أو فوهة بركان..

- ويذهب كل هذا الجهد هباء؟!

- لا يوجد حل آخر للأسف.. لن احتمل احتراق شخص ثالث وأنت حتمًا توافقني..

في توسل نظرت له.. لم أكن أدرك حقًا ما أقوله:

- اسمعني.. سنحاول كشط هذه النقوش أو طمسها.. هذا سيزيل الخطر دون أن يفسد تأثير هذا الأثر وقيمته..

- إذن نحاول...

ساعات كئيبة قضيناها نحاول إزالة النقوش بمبرد صغير دون جدوى.. إن هذا ليس ذهبًا!.. مستحيل أن يكون ذهبًا!... إنه سبيكة لم أر أصلب ولا أقسى منها.. وهي تأبى أن تتزحزح ملليمترًا واحدًا.. إذن لا أمل للخلاص من هذه النقوش سوى بتدمير القلادة ذاتها.. لكن أية خسارة..!

* * *

في منتصف الليل نزلنا إلى حديقة داري ودفنّا القلادة المشئومة تحت أمتار من التراب.. وعدنا للدار كي نغفو..

إلا أننا لم نكن قد تعلمنا أولى قواعد الدرس..

لا يمكن الخلاص من (شاكال) أبدًا!..

وحين صحونا من النوم وجدنا الحديقة وقد قلبت رأسًا على عقب، وكانت القلادة ملقاة على سطح الأرض.. وكان ما أوحى به الموقف هو أن الكلاب قد حفرت الأرض في أثناء الليل لتخرج القلادة! قمنا بتخبئتها في خزانة حديدية محكمة..

وكان الدرس الثاني الذي تعلمناه هو أن لصوص الخزائن بارعون بدرجة لا تصدق!..



وحين صحوت من النوم وجدت جثته وقد قلبت رأسه على عقب .

وكانت الدلائل عليه على سطح الأرض ..

ففي الصباح الباكر وجدنا الخزانة مفتوحة والقلادة ملقاة على الأرض في حين كانت هناك أنبوبة من غاز (الاسيتلين) استخدمت في إذابة القفل في أثناء الليل..

تسألني لماذا لم يأخذ اللص القلادة؟.. لأنه احترق طبعًا!.. لقد وجدنا بقايا رماد المسكين وثيابه الفارغة جوار القلادة.. لقد دخل مقتحمًا النافذة وعالج قفل الخزانة فلم يجد إلا القلادة بها.. وكانت نظرة واحدة كافية كي يفهم النقوش..

هلك البائس ولم يكن يستحق هذا العقاب..

إن أقسى القوانين - من عهد (حمورابي) - تسجن السارق لكنها لم تحرقه قط..!..

وهكذا دارينا الرماد.. ولم تكن لدينا الشجاعة الكافية لوضع القلادة في خزينة أحد البنوك لأن البنوك تسرق أحيانًا..، وبدأنا في خطة محكمة لإلقاء القلادة في قاع النهر بعد ربطها حول حجر كبير..

لكننا - في كل مرة - كنا نجد القلادة تنتظرنا على البر عند عودتنا!

أكاد أجزم أن نظرة التمثال ساخرة هناك حيث يرتمي على الأرض بانتظارنا كأنما يصارحنا ألا جدوى من المحاولة..

حتى مصهر الحديد والصلب جربناه.. لكن القلادة كانت تظهر فجأة عند أقدامنا معلنة ألا جدوى..

أنت لا تستطيع الخلاص من (شاكال) أبدًا..

كانت حالة (إيكين) النفسية تقلقني في تلك الآونة.. فهو لا ينام أبدًا ونظراته زائغة حائرة زجاجية.. وشروده لا ينتهي.. ازداد عصبية ولم يعد يستجيب لعالمي..

عندئذ عرفت المصير الأسود الذي ينتظره..

وقال الأطباء النفسيون إن (إيكين) شخصية غير مستقرة من النوع الانطوائي.. وأنه قد بدأ يتسرب إلى عالم آخر اسمه (الشيزوفرانيا) وبعبارة أقل رقيًا: بدأ يجن..

قالوا - كذلك - إن سبب تحول شخصية غير مستقرة إلى شخصية مجنونة هو ضغط عصبي مبالغ فيه..

ضغط عصبي مبالغ فيه؟..

من ذا الذي لا يعانيه؟..

إن الأخ (شاكال) قد لوث عالمنا إلى الأبد كنفاية ذرية ألقيت في نهر.. ولم يعد الخلاص منه ممكنًا.. هب أنك تخلصت من القلادة بمعجزة فكيف تتخلص من الرعب والذكريات الأليمة؟..

كيف تتخلص من الشعور بأنك مراقب وأن حياتك لن تعود أبدًا كما كانت؟.. وكيف تمضي في المدينة ترمق آلاف الأبرياء عالمًا أنك تهدد حياتهم جميعًا؟.. أو على الأقل تهدد من يملكون القدرة على قراءة العبارات المكتوبة..

الخلاصة هنا أن (إيكين) قد دخل المصحة العقلية عله بين أسوارها يثوب لرشده..

لقد أستراح (إيكين) الخائر تاركًا إياي وحدي..

* * *

ازداد الطين بلة حين تلقيت زيارة من مفتشين من (سكوتلنديارد).. زيارة بريئة في الواقع لكنني أدركت أنهما يريدان معرفة علاقتي باللورد المحترق (كينزي).. فنحن آخر من زاره في تلك الليلة..

ونحن عالما آثار.. وهو يشتري الآثار المهربة كما لا يمكن أن يغيب عنهما..
إذن.. مفتاح اللغز عندنا.. وحيث إن (إيكين) جن فلم يبق سواي كي يتحمل لعبة الأعصاب المريعة التي يجيد رجال التحري لعبها..
وهكذا....
وجدت نفسي مضطرًا إلى الهرب.. بعيدًا.. بعيدًا.. وأنتم تعرفون باقي القصة..
لم أجرؤ على ترك القلادة والتمثال لأني لن أجازف باحتمال أن يراهما آخر.. أضف لذلك أنني واثق بأنهما سيعودان لي..
أنت لا تستطيع الخلاص من (شاكال) أبدًا..

* * *

حدث اليوم ما كنت أخشاه..
هناك من عبث بحجرتي وسرق القلادة وهشم التمثال!..
كنت في قاعة الطعام أتناول إفطاري.. ثم صعدت للغرفة فوجدت آثار العبث والغرفة مقلوبة رأسًا على عقب.. من فعلها؟..
في البدء فكرت في خادمة الغرف، ثم استبعدت هذه الفكرة على الفور.. فهي تملك مفتاح الغرفة ولا تحتاج إلى كل هذا العنف في الاقتحام، دعك من أنني لو كنت مكانها لجعلت الأمر لا يثير الشك لأنها تعلم أنها المتهمة الأولى في أي تحقيق قادم..
إذن هو شخص آخر.. ولكن من؟..
طبيعي أنني لن أحدث شوشرة لأنني لا أتحمل أسئلة رجال الشرطة لي، وتساؤلهم البريء عن مغزى إقامتي هنا تحت اسم (لورد كينزي) على حين يحمل جواز سفري اسم (هنري بنسون)..
لا.. لن أحدث صخبًا وسأجري أبحاثي الخاصة..
إن هذه القلادة المشئومة ستعود لي حتمًا ولكن بعد أن يحترق اثنان أو ثلاثة من نزلاء الفندق، ولولا ذلك لشعرت بامتنان عظيم للص النبيل الذي خلصني منها..
لكنك لا تستطيع الخلاص من (شاكال) أبدًا..
وفي المساء كنت متجهًا لحجرتي حين وجدت الأمريكي والرجل الأصلع النحيل واقفين أمام بابها يتأملانه في اهتمام.. فأجفلت.. أتراهما السارقان؟..
فما أن رأياني حتى اعتدلا في شيء من الحرج.. وقال الأصلع في ارتباك وقد وجد من واجبه أن يفسر ما هنالك:
- معذرة سيدي!.. إذن هذه حجرتك؟.. كنت أتناقش وصديقي حول مغزى هذه العلامات في قفل الباب.
هززت رأسي في فتور.. وغمغمت:
- محاولة اقتحام.. إن هذه الأشياء تحدث كثيرًا..
- وفشلت طبعًا...
- بل نجحت..! لكن شيئًا لم يسرق من الغرفة على الأقل..
تبادل هو والامريكي نظرة لم افهم معناها.. ثم إنه قال في لهجة انتصار:

- هذا هو ما كنا نتناقش حوله من ثوان.. إن هذه الآثار لا توحي بعملية اقتحام بل توحي بأن هناك من يتظاهر بذلك!

كلام غريب!.. ماذا يعني هذان المعتوهان؟.. أردف الأصلع وهو يشعل سيجارة كعادته الأبدية:

- هذه الخدوش ليست فعالة ومن المستحيل أن تلعب دورًا في فتح القفل..

- لا أفهم..

- أعني أن من وضعها قد وضعها ليوحي بأنه لا يملك مفتاحًا.. في حين أنه - ما دمت تؤكد أنه اقتحم الغرفة - كان يملك مفتاحها بالتأكيد..

ازددت حيرة.. لكنني بدأت أفهم ما يرمي إليه:

- وهذا يعني..

- يعني أن هناك من فتح الغرفة بسلاسة ثم أنه وضع هذه العلامات بعدها ليوجه إصبع الاتهام نحو من لا يملكون المفتاح!

سألته وقد أثار ما قال اهتمامي:

- ولكن من أنت يا سيدي؟.. ولماذا اجتذب نظرك قفل بابي بالذات؟.

قال وهو يرفع منظاره على قصبة أنفه:

- أنا د. (رفعت إسماعيل). مصري الجنسية.. وهذا هو (هنري شيلدون) خبير كمبيوتر.. أمريكي أما سبب توقفي أمام بابك فهو ضعف بصري الذي جعلني أخلط ما بين رقم (٢٩) ورقم (٢٨) بالأرقام العربية[1].. إن (الاستجماتزم) يجعلني أكمل دائرة التسعة بصريًا لتصير ثمانية.. وأظن أنها غرفتي أنا..

وفي شيء من الخجل، غمغم:

- إنني دسست مفتاحي في قفل بابك عشر مرات منذ جئت للفندق!

كنت أنا شارد الذهن أفكر في مغزى ما قال.. إن هذا منطقي ومتماسك إلى أقصى حد.. ها هي ذي خادمة الغرف تمر أمامنا بقامتها الرشيقة الفارعة.. من يملك المفتاح سواها.. إنها مرتبكة تحاول ألا تلتقي عينانا فهل هذا اعتراف منها بالأمر؟. لن أستطيع إثبات جرمها أبدًا، لكني أستطيع أن أحذرها وستفهم هي ما تريد فهمه..

ربما كان هذا الد (رفعت) واهمًا.. لكن الحقيقة التي لا يمكن دحضها هي أن القلادة اختفت.. وأن السارق لا يعرف ما ينتظره...

إنك لا تستطيع الخلاص من (شاكال) أبدًا..

* * *

الجزء الثالث

أمسية ما

تحكيها مس (جونز)

"إن الحر يتزايد في الغرفة.. لو أنصفت القول لقلت إنني أحترق!".

* * *

قالت مس (جونز):

رقيقة هي هذه الفتاة وأعتقد أنني أميل لها بشدة..

هي كذلك تميل إلي بنفس القدر..، ومنذ جاءت فندقي أدركت كم هي جميلة.. وفقيرة.. وطموح..!..

كان في أعماقها شيطان ملول متقلب يبحث دومًا عن الأرقى والأفضل.. وكنت أعرف أن نزلاءنا ـ أولاد الشياطين - يحدثونها ليلًا ونهارًا عن جمالها وعن الأشياء الرائعة التي تستحقها لو أنها فقط تنازلت قليلًا..

ليلًا ونهارًا تسمع هذا الكلام الفارغ وتبدل مفاهيمها بالتدريج.. لهذا أدركت أنني يجب ألا أتركها..، إن تربيتي الدينية الصارمة علمتني أن البشر جميعًا خراف ضآلة يجب أن نرعاها..

وكان الساقي الإيرلندي الوسيم (باتريك أوكونور) يلاحقها باستمرار.. عيناه تعبّان من ينبوع وجهها الشيق، ولا يضحك سوى حين يراها.. وكنت أرتاح لهذا الفتى الدمث الخجول.. وأجد فيه رجلًا نبيلًا بمعنى الكلمة، وكأنني أخطب لابنتي اخترت لها هذا الشاب..

لكن (باتريك) كان يمثل لها الحياة الأبدية في هذا العالم الذي تمقته.. عالم بلا أحلام ولا طموحات.. إنه سيقدم لها الإخلاص بينما هي بحاجة للفراء.. سيهديها الأحلام بينما هي ترغب في سيارة فاخرة.. سيعطيها الحنان وهي لا تريد سوى فيللا أنيقة..

كان طبيعيًا أن تمقته.. ولا ألومها على هذا..

* * *

في تلك الآونة كان فندقنا يعج بهؤلاء الزبائن الذين اعتدنا وجودهم والذين يشكلون شرائح معينة.. فمنهم العجائز الانجليز المتحفظون الذين يقطرون أدبًا وتهذيبًا.. والشباب المتهتك المتظرف.. وزهور الحائط.. ورجل أمريكي ومصري أصلع يدخن كالقمامة المحترقة.. وهذان بالذات لا يمكن تصنيفهما تحت أية قائمة..

وكنت أنا كعادتي - منذ شهور - أفتح عيني من النوم ثم أمد يدي إلى المقبضين النحاسيين عند رأس السرير فأديرهما لأرى ما يختفي تحتهما.. فالشيء الذي لا تعرفه (جين) هو أنني معتادة رؤية ما تخبئه داخل هذين المقبضين حاسبة ـ الحمقاء ـ أنني لا أعرف..!

ومن هذا المخبأ المشترك عرفت كل شيء عن مدخراتها.. وعن حبيبها القديم (جيمي).. وعن هواياتها.. كل شيء..

على أن ما ضايقني كثيرًا هو أنها تخدعني..

هي لم تسرق شيئًا.. ولم تفتش حاجياتي.. لكن هناك خديعة ما في كل هذا.. أن تخفي أسرارك في غرفة شخص آخر لهو عمل غير أخلاقي بكل المقاييس..

* * *

جاء المساء ودخلت غرفة النوم..

وكعادتي مددت يدي وأخرجت الكتاب المقدس، ثم فككت خصلات شعرى الأشيب وبدأت أقرأ..

لا أدري السبب الذي جعلني أمد يدي للمقبضين باحثة عن أسرار جديدة.

ما دامت الفتاة ارتضت خداعي فليس خطأ مني أن أطالع ما تخفيه في حجرتي، هذا هو أبسط حقوقي..

وهنا وجدت القلادة..

قلادة من الذهب عليها نحت لوجه إفريقي مفزع..

ماذا جلب هذه القلادة لها؟.. هل سرقتها؟.. مستحيل.. إن كل حجرات الفندق ملأى بما يمكن سرقته وهي تدخلها جميعًا فهي ليست سارقة أبدًا.. إذن فهذه القلادة هدية.. هدية ممن؟.. ولأي غرض؟..

إن ثعابين القلق تنهش قلبي..

أتمنى - ولا تندهشوا - أن تكون القلادة مسروقة.. لا أريد للفتاة أن تتحول أو تكون تحولت إلى أبشع مهنة في التاريخ.. إنها ابنتي وأنا أعرف كيف أحميها من نفسها وألتهم فؤاد من يؤذي شعرة - مجرد شعرة - من رأسها..



وهـ وجدت القلادة .. قلادة من الذهب عليها نحت لوجه إفريقى

مفزع ..

وهنا شعرت بها تقترب من باب الحجرة..
أخفيت القلادة تحت الوسادة وشرعت أتظاهر بقراءة الكتاب المقدس.. كانت تحمل لي عشائي وزجاجة الدواء..
حاولت أن أجعلها تفصح عن شيء، أي شيء.. لمحت لها بما يساورني من مخاوف.. وحاولت أن أقنعها بأن تقبل (باتريك) عريسًا لكنها - كعادتها - تنمرت و أبت أن تصغي لكلمة واحدة..
ثم إنها استأذنت في الانصراف فأذنت لها..
وبأصابع مرتجفة أخرجت لفافة تبغ من تحت الحشية وأشعلتها..
جلست وحدي في الظلام - الذي اعتدته - أقلب القلادة بين أناملي، ثم إنني نهضت فأحكمت إغلاق الباب.. وعدت للفراش..
غريب أمر هذه القلادة.. كأنها تعويذة أو حجاب قديم..
على ظهرها وجدت نقوشًا عجيبة فتناولت منظاري وشرعت أتأملها.. عجيب هذا..!.. هذه ليست حروف لغة أعرفها لكني برغم ذلك أفهمها.. ثمة كيان ما يخاطبني من عهد سحيق... يشدني إليه.. يحرك عظامي ويجذب أعصابي.. العرق يتكاثر على جبيني وجلد ذراعي يستحيل إلى جلد إوزة..
"أنت قربان (شاكال) الجديد.. لأنه من النار تأتي النار.. وإلى الدخان يصير الدخان.. وفي الرماد يفنى الرماد.. تعالي إلي ملبية ندائي يا دم دمائي ويا إبنة أبنائي..".
كنت أنتفض.. شيء ما يجذبني معه إلى حفرة بلا قرار.. بلا قرار.. وحين انتبهت لنفسي كانت ساعة كاملة قد مضت.. هوذا (شاكال) حاملًا مشعله السرمدي يقف بانتظاري على باب الجحيم..
غريب كل هذا..!
يا دم دمائي وابنة أبنائي..
في الرماد يفني الرماد..
الحر يتزايد في الحجرة..
نزعت الكنزة التي أرتديها فوق ثياب النوم..
لكن حرارة جسدي تزداد.. تزداد..
أنت قربان (شاكال) الجديد..
الحرارة تزداد.. تزداد..
لو صح القول لقلت إنني أحترق..
لكن هذا مستحيل.. لا يوجد شيء كهذا..
الحرارة تزداد.. تزداد..
و.....

* * *

الجـزء الرابع
أسطورة (شاكال)

يحكيها د. (رفعت إسماعيل)

"هذه الحروف كتبت بلغة لا أعرفها.. ولكن.. صبرًا!.. إنني أفهمها..!.. أقسم على ذلك!".

* * *

مرة جديدة أعود - أنا د. (رفعت إسماعيل) - لسرد الأحداث.. حكيت لكم الظروف التي جاءت بي إلى الفندق، وعرفتم شيئًا عن ظروف إجازتي..

بدأ دوري في هذه القصة في اللحظة التي صعدت فيها لغرفتي مع (هاري) وهي كما تعرفون الغرفة رقم ٢٨..، وكان الاستجماتزم الذي بليت به في نظري يجعلني عاجزًا تمامًا عن رؤية الجزء المقطوع ما بين خطين على امتداد واحد بل أكمله في شبكيتي على الرغم مني، وهكذا تتحول (9) إلى (8) دون سابق إنذار..

وكنت في كل ليلة أدس مفتاحي في كالون باب الغرفة رقم ٢٩، ثم أفطن بعد محاولة عقيمة إلى خطئي.. إلا أنني في تلك الأمسية لاحظت تلك الخدوش في قفل الباب ودارت مناقشة بيني وبين (هاري) حكاها لكم اللورد (كينزي) فلا داعي لأن أثير مللكم بإعادتها مرة أخرى..

وكما فهمتم تركزت شكوك اللورد (كينزي) في خادمة الغرف الحسناء وهو شك له ما يبرره في الواقع ونحن معه..

وكنت أتبادل الحديث مع اللورد (كينزي) حين خطر لي خاطر غريب.. تعلمون أن لي خبرة لا بأس بها بأساتذة الجامعة الانجليز المتحذلقين و (أشم) لهجتهم الأكسفوردية دون عناء..

هذا الرجل ليس لوردًا بل هو يقلد أساليبهم بأسلوب يوشك أن يكون هزليًا.. لكن من أنا حتى أفتي في هذه الأمور؟.. إذا كان الانجليز أنفسهم لم يلاحظوا ذلك فمن الغرور أن أزعم أنني عبقري!..

وهنا سمعنا الصرخة الرهيبة المألوفة:

- نار!.. نار..!

مع (هاري) أركض إلى مصدر الصوت..

- نار!.. نار!

ونزيلة إنجليزية شمطاء تقف بقميص النوم في الردهة تردد في هلع ذات العبارة.. سألها (هاري) في نفاد صبر:

- أين؟

- نار!!

- قلت أين؟

أشارت في هستيريا إلى الجزء السفلي من أحد الأبواب الموصدة.. إلى الدخان المتسرب كأنه حشد من الثعابين الرمادية يفر من الغرفة.. نعم.. رائحة الحريق تتزايد.. فكيف لم نشمها من قبل؟!..

- غرفة من هذه؟

- غرفة مس (جونس) مديرة الفندق..

يا للمصيبة!.. لابد أن العجوز تدخن سرًا أو - كما يحدث دائمًا مع العجائز - نزلت بشمعة تحت الفراش لترى ما إذا كان هناك لص يتلصص عليها!.. يجب عمل شيء..

- (رفعت)!.. تعال نهشم الباب..

قالها (هاري) وقد توترت عضلاته وتناثرت خصلات شعره الأشقر على جبينه.. وفي عنف بدأنا نهشم كتفينا.. معذرة!.. أعني نهشم الباب غير ناسين من حين لآخر أن ننادي في هستيريا:

- مس (جونز)؟

بلا جدوى طبعًا.. فالمرأة - حتمًا - قد ماتت أو كادت..

وفجأة انفتح الباب وقد سئم المقاومة.. كان الدخان يملأ الجو وبصعوبة استطعنا أن نتبين الجسد الجالس على الفراش.. كلا.. أعني الجسد الذي كان جالسًا على الفراش..

لم يعد هناك شيء سوى ألسنة من اللهب الأزرق تتصاعد منها سحابة كثيفة من الدخان.. والغريب أن الأغطية لم تمس بسوء.. لم يحترق شيء من الفراش، بل إن قميص نوم العجوز لم يحترق حيث ارتمى على حافة الفراش خاويًا من الجسد الذي كان به..

تبادلت أنا و (هاري) نظرة حيري..

لقد فهمنا ما حدث.. لكننا بعد لم نفهم كيف حدث..!..

سأحاول هنا أن أكون مختصرًا وأريحك من كل ما قيل ومن ذهول الواقفين.. والصراخ الهستيري لخادمة الغرف (جين).. و النظرات الخرساء للورد (كينزي) الذي ساقته قدماه إلى الحجرة.. هل كانت في تلك النظرات لمسة من الذعر؟.. لمسة من ذعر الأرنب الذي أيقن أن الثعلب لم يفقد أثره برغم كل المناورات التي قام بها؟.. لا أعتقد أنني دقيق الملاحظة إلى هذا الحد.. لابد أنني - بعد ما فهمت القصة - أقنعت نفسي بأنني رأيت هذا التعبير على وجهه..

شيء أخير أحب أن أضيفه..

فهناك على الفراش عند قدمي المرأة - أعني حيث كانت قدماها - كانت هناك قلادة غريبة الشكل تمثل وجهًا غليظ الشفتين لا يوحي بالاطمئنان أبدًا..

كان الزحام شديدًا في الحجرة لذا آثرت أن أضع هذه القلادة الذهبية في جيبي حتى أسلمها للشرطة فيما بعد.. إنها ثمينة.. هذا مؤكد.. ولن يعدم المرء واحدًا يدسها في جيبه ليس لتسليمها للشرطة طبعًا..

في الوقت المناسب دسست القلادة حين التقت عيناي بالعينين المرعوبتين لهذا اللورد (كينزي)... كان يبحث عن شيء ما بلهفة لا أدري سببها..

هذا الرجل يخفى جنونًا خطرًا.. كذا قلت لنفسي وعزمت على أن أكون على حذر منه..

ولكن ما هي هذه القلادة؟.. من الواضح تمامًا أنها تعويذة أو شيء من هذا القبيل.. لا أعتقد أن صائغًا معاصرًا - مهما بلغ من خبال - يمكن أن يصمم شيئًا بهذه البشاعة.. إنها القبح المجسم دون مبالغة..

على كل حال لا مانع من إلقاء نظرة عليها على انفراد في حجرتي قبل أن أسلمها للشرطة..

شققت طريقي بين الأجساد وسحب الدخان المنقشع.. وفتحت باب حجرتي وأغلقته ورائي.. وأشعلت لفافة تبغ..

خلعت منظاري لأتمكن من رؤية أوضح..

ومن جيبي اخرجت القلادة وضيقت عيني لأتأملها..

هذه النقوش.. إنها مكتوبة بلغة مجهولة لي.. ولكن..

إنني أفهمها!.. أقسم على ذلك..

هذه الكتابة لها صوت!.. صوت يدوى في أذني من الماضي الغابر وهأنذا أسمعه يجلجل:

- أنت قربان (شاكال) الجديد... لأنه من النار تأتي النار.. وإلى الدخان يصير الدخان.. وفي الرماد يفنى الرماد...

ما هذا الكلام الفارغ؟!.. كأنه سجع الكهان..

- تعال إلي ملبيًا ندائي يا دم دمائي وابن أبنائي..

هو ذا (شاكال) يقف على باب الجحيم بانتظاري حاملًا مشعل الأبدية.. إنه يريدني.. جاء من أجلي أنا...

غريب هذا..!.. إنني مفتون تمامًا..

العرق يغمر جبيني وجلد ذراعي ينتصب كالأوزة..

إنني.. لا.. أملك.. حراكًا..

إنني.. مسحور.. إنني.. (تحت تعويذته) كما يقول الانجليزي..

الحر يشتد..

لا أدري.. السبب.. لكن (شاكال).. ينتظرني.. وليس.. من الحكمة.. أن أبقيه.. أكثر.. من....

- (رفعت)!.. أنت هنا؟..

هذا صوت (هاري).. أخرجني من دوامة (الأيوفوريا) التي بدأت أذوب فيها حتى القاع.. إنه يقرع الباب مناديًا..



الخر يشتدّ .. لا أدرى .. السبب .. لكن (شاكال) .. ينتظرنى ..

وليس من الحكمة .. أن أبقيه ..

استدرت وفتحت الباب متنهدًا الصعداء..
- ماذا بك؟.. تبدو كأنك كنت في حمام بخار!
هتف (هاري) في دهشة.. وخلف كتفه رأيت ذلك اللورد الانجليزي المزعوم يرمقني في نظرة غير معهودة منه.. نظرة فهم.. نظرة من يقول:
إذن فالأمر كذلك!..
ورأيت عينيه تتصلبان على القلادة التي كانت في يدي..
دخل الرجلان الغرفة.. وتلفت (هاري) حول كتفيه، ثم هتف في غباء مستفز:
- لكن حرارة الحجرة عادية.. فمن أين جئت بكل هذا العرق؟!
- هو عرق الخجل!
لم أكن أنا قائل هذه العبارة بل هو لورد (كينزي)..
الطريف أنه قالها وهو يرفع شيئًا ما ويصوبه نحونا..
الأطرف هو أن هذا الشيء هو مسدس صغير جميل المنظر..
صاح (هاري) في هستيريا وهو يبتعد عن مرمى المسدس:
- لورد (كينزي)!.. ما معنى هذا؟.
بلهجة رصينة غمغم اللورد وهو يتخذ لنفسه موضعًا أكثر استراتيجية:
- معناه أن هذه القلادة تخصني أيها السيدان وأنني مستعد لعمل أكثر الأفعال جنونًا كي أستردها!
ثم ابتلع ريقه وهتف في مرارة:
- إذن أنتما من سرق حجرتي وتظاهرتما بمساعدتي..
- ولكن ما الذي...؟
- هذه القلادة في كف زميلك المصري.. إنها دليل كاف.. وعلى كل حال أنا لا أريد استرداد القلادة لأنها ثمينة أو أثيرة إلى نفسي. بل لأنها.... فلنقل إنني أنقذكما بهذا العمل..
ومد يده نحوي كمن ينتظر شيئًا:
- والآن.. هيا!
لم أكن أنا قد تفوهت ببنت شفة منذ دخلا غرفتي.. إلا أن نظرة الرعب في عيني كانت واضحة وقد لمحتها عينا اللورد على الفور.. ولمحت نظرة اهتمام تتبدى في عينيه المتهمتين.. ثم تحول الاهتمام إلى فهم.. وتحول الفهم إلى ذعر.. ثم تحول الذعر إلى شفقة..
وسمعته يهمس من بين أسنانه:
- أنت قرأت النقوش!
- أ.. أنا....
- يا لك من تعس!.. لقد أصابك ذهول (شاكال).. أنت لا تستطيع الخلاص من (شاكال) أبدًا..!
(شاكال)!.. هذا هو الاسم الذي قرأته على القلادة منذ ثوان.. إن هذا الرجل يعرفه.. إذن فالقلادة قلادته.. ولكن من هو (شاكال)؟
وما سر هذه الهلوسة التي أصابتني؟!..
كان اللورد قد أعاد المسدس إلى جيبه ومعه القلادة.. ثم تناول ذراعي مقتادًا إياي إلى داخل الحجرة..

- أعتقد أن هناك نقاطًا عدة يجب أن أوضحها لكما.. كما أنكما لا تبدوان لي سارقين.. ثمة سوء تفاهم على طول الخط أو هذا ما أرجوه..، دعوني أشرح لكما قصتي..

* * *

وفي الساعة التالية حكى لنا اللورد (كينزي) - أو د. (هنري بنسون) - قصته التي سمعتموها في الجزء الثاني على لسانه.. لن أعيدها عليكم لكن اسمحوا لي أن أترككم قليلًا حتى أسمعها منه.. ما دمتم جميعًا قد عرفتموها قبلي..!

* * *

إذن فأنا القادم..!

أنا القادم..!

لقد صدر حكم الإعدام حرقًا علي ولا أمل في استئناف ولا معارضة ولا هرب.. فقط علي أن أنتظر حتى يقرر هذا الأخ (شاكال) ميعاد التنفيذ..

أشعلت سيجارة بيد مرتجفة.. لماذا أنا بالذات تمكنت من قراءة هذه الحروف اللعينة؟.. متى قال (هاري) إنني نحس حقيقي؟.. ولماذا وأي شيطان دفعني لأن آخذ هذه القلادة؟.

كنا جالسين على (الأنتريه) الأنيق الصغير في حجرتي غارقين في خواطرنا السوداء وقد أدرك كل منا حقيقة موقفه..

قال د. (هنري) وهو يتحاشى النظر لي:

- كذا ترى.. لا بد أن العجوز هي سارقة القلادة..

- هذا هو الاحتمال الأقرب للصواب خاصة وأنها تملك فرصة الحصول على المفاتيح.. وعلى كل حال لقد دفعت ثمن جريمتها غاليًا.. أفظع ثمن لجريمة سرقة في التاريخ..

حك د. (هنري) رأسه مفكرًا.. ثم وضع يده على ركبتي وتساءل:

- د. (رفعت).. لا تقنط..!.. لاحظ أن لديك مزية لم يحظ بها واحد من ضحايا (شاكال) السابقين.. هي أنك تعرف - بالتفصيل الممل - ما ينتظرك..!

مضغت السيجارة في تعاسة.. غمغمت:

- حقًا؟.. يا لي من محظوظ!

- ثم إننا لن نتركك أبدًا وحتى تحترق..

- يا له من خبر مبهج..!

- والآن.. هلا فسرت لنا معنى هذه النقوش؟

في شرود تأملت أظفاري ودفنت عقب السيجارة في المطفأة:

- الواقع أنني لا أدري كيف أصف ذلك.. إن الأمر ليس قراءة النقوش قدر ما هو إحساس عام بمعناها..أنت تفهمني أليس كذلك؟.

- نعم! لم أفهم..

- إنه نداء عام.. نداء في أعصابك وعقلك وخلاياك.. نداء لأن تكون قربان (شاكال)..

هتف (هاري) في توتر وقد استعاد عصبيته القديمة وانفلات أعصابه بسرعة مذهلة في الواقع:

- دعونا من هذا الهراء ولنبدأ في التفكير.. ما هي الطريقة المثلى - إن وجدت - لإنقاذ (رفعت) من الاحتراق الذاتي؟

قلت وأنا أحاول التظاهر بالثبات:

- ثمة نقطة تحتاج للتوقف عندها.. لماذا لم أحترق بعد؟

قال د. (هنري) في ثقة:

- لأنك مع آخرين.. كل حوادث الاحتراق الذاتي حدثت لأشخاص وحيدين.. ولولا دخولنا الغرفة في لحظة الذروة لكنت قد...

في حماسة صاح (هاري):

- هذا هو الحل..!.. إننا لن نتركك لحظة يا (رفعت).. سنقوم بتبديل ورديات لمرافقتك.. وهكذا لن يجد (شاكال) الفرصة أبدًا كي يدعوك إليه..

قلت في ملل وأنا أدفن سيجارتي:

- ليس هذا حلًا.. هناك دائمًا لحظة ما أدخل فيها دورة المياه أو الحمام (لا تزعم أنك متحمس إلى حد مرافقتي هناك) وهذه اللحظة ستكون كافية.. ثم إنني لن أجد الرفقة البشرية طيلة حياتي.. مستحيل هذا.. دعك من أن الحياة التي لا يسمح لك فيها بأن تكون وحيدًا هي ليست حياة.. بل هي لا داعي لها أصلًا..!

قال د. (هنري):

- على كل حال هو حل مؤقت.. وحتى نجد حلًا أكثر جذرية..

- أكثر جذرية؟

همست في مرارة ساخرة:

- كالموت؟!

* * *

إنه الفجر..

في الخارج تتبادل العصافير عبارات السباب المختلفة.. وأشعر بالهواء البارد البكر يتسرب من النافذة فلا تتحمله شعيباتي التي اعتادت التلوث.. فأسعل..

ينهض (هاري) من جواري بالفراش مجفلًا ثم يعاود النوم..

أعرف كل هذا وأفهمه..

لأنني - ببساطة - لم أنم بعد..

رفعت عيني من تحت الغطاء بحذر فوجدت (هنري) جالسًا على أحد مقاعد الأنتريه وقد أضاء أباجورة خافتة يطالع على ضوئها كتابًا صغيرًا له غلاف سميك.. وأمامه القلادة اللعينة..

- د. (هنري)..

همست في كياسة محاذرًا أن أوقظ (هاري):

- هل أنت لم تنم بعد..؟

- وكيف أنام؟.. أنت كذلك لم تنم بعد.. إن صوت أنفاسك المضطربة لم ينتظم قط..

وثبت من الفراش وسرت حافي القدمين إلى حيث جلس.. وتربعت على مقعد بجواره، وألقيت نظرة فضولية على الكتاب الذي يحمله..، كان له عنوان (عن الميثولوجيا اللاتينية)..

- آها!.. أنت تبحث عن (شاكال)..!

- للأسف إن ما كتب عنه بسيط جدًا.. نحن عمليًا نجهل كل شيء عنه..

- أعتقد يا د. (هنري) أنك تبحث في اتجاه خاطئ..

- ماذا تعني؟

أشعلت سيجارة وحككت مؤخر رأسي في إنهاك:

- أنت تبحث عن إله وثني لم ولن يوجد... المشكلة ليست هي (شاكال) بل ما يحيط به من سحر أسود بثه كهنته..

- أنت تؤمن بالسحر الأسود إذن...

- تمامًا.. لكني أستبعد تلقائيًا أية نظريات تُبنى حول (شاكال) و (إيزيس) و (جوبتر) وغيرهم من الأرباب الوثنيين الذين أفرزتهم مجتمعات التخلف وتعدد الآلهة..

- إذن؟..

- إذن.. مشكلتنا هي تعويذة السحر الأسود وليس (شاكال) ذاته.

ثم إنني أغمضت عيني وبدأت أحاول التذكر..

ها هي ذي الكلمات التي سمعتها - أو قرأتها - تعود لذاكرتي ببطء.. مذبذبة لكنها واضحة تمامًا..

- لأنه من النار تأتي النار.. وإلى الدخان يصير الدخان.. وفي الرماد يفني الرماد..

- جميل..؟.. وهل هذا كل شيء؟.

- لا.. هناك دعوة.. نعم.. هي كذلك.. تعال إلي ملبيًا ندائي يا دم دمائي وابن أبنائي...

- همم!.. إن (الأزتك) كانوا يظنون (شاكال) أبا البشر جميعًا.. وهذه الكلمات.. بأية لغة سمعتها؟

نفثت الدخان محاولًا التذكر..

- قلت لك لا أدري.. إنه انطباع عام بالمعنى.. لغة هي فوق كل اللغات.. لغة تفهم وتحس لكنها لا تكتب أو تقرأ.. هل أبدو مخبولًا إذ أقول هذا؟

- بتاتًا.. إنك تتحدث عن نوع من (التخاطر)..

- هو كذلك..

قال د. (هنري) وهو يضع ساقًا على ساق:

- إنني أسائل نفسي عن معنى هذه الكلمات..، ربما كانت نوعًا من المحسنات اللفظية.. ولربما كان لها معني غامض هام..

- تبدو لي نوعًا من التهريف...

ضيق عينيه في شرود.. وغمغم:

- من النار تأتي النار.. إلى الدخان يصير الدخان.. ليست هذه مجرد بلاغة وأقسم على هذا..

قالها وأطفأ مفتاح الأباجورة لأن ضوء الصباح الناعس بدأ يتسرب عبر ستائر النافذة..

- أقسم على هذا..

وهنا سمعنا صوت طرقات على الباب...

* * *

الجـزء الخامس

لهيب الحب

يحكيه (باتريك أوكونور)

"إن الحب من طرف واحد لهو اللهيب بعينه.. اللهيب الذي لا تطفئه كل أنهار الأرض.. إنني أحترق يا سادة.. أحترق حقيقة لا مجازًا!".

* * *

يقول (باتريك):
إيرلندي نعم..
حاد الطباع نعم.. حار العواطف نعم..
لكن كبريائي - التي ورثتها عن جدودي - كانت أقوى من عواطفي..

* * *

يقول (توم جونس) في المذياع المقطع العذب من أغنيته الأخيرة:
"لماذا لماذا يا حبيبتي (دليلة)؟..
كنت أدرك أن الفتاة لا تناسبني..
لكنني كنت ضائعًا..
كعبد لا يملك بشر أن يعتقه..".
هل رأى (توم جونس) حبيبتي (جين)؟.. بالتأكيد رآها وإلا فكيف ومن أين جاء بهذه النبرات المتحشرجة المبحوحة المحتضرة.. صوته يندى بالدموع واللوعة.. إنه يفهم ما أحس به خيرًا مني..
لكني إيرلندي..
ولأني كذلك سأطوي لوعتي في ضلوعي وأبتسم..

* * *

منذ جاءت إلى الفندق وهي تعذبني..
قاسية كانت.. ساخرة كانت.. لكن فؤادي - ذلك المعتوه - لم يجد سواها كي يتعلق به..
وأنت تعرف قسوة الفتيات وبرودهن حين يعلمن أنهن لا يرغبن في الرجل الذي يخطب ودهن..
هي لا تريدني.. وتعرف أنها لن تريدني أبدًا في الفترة القادمة، لهذا لا تعبأ بي..
كل عنايتي الرجولية بها.. كل شهامتي.. كل الخدمات والتضحيات الصغيرة اليومية التي أقدمها لها تعتبرها هي من صميم حقها في الحياة.. ولا تكلف نفسها حتى مجرد الشكر..

* * *



منذ جاءت إلى الفندق وهى تعذبنى .. قاسية كانت .. ساحرة
كانت .. لكن فؤادى ـ ذلك المعتـوه ـ لم يجد سواها كى يتعلق بها.

"أنا.. أنا الذي لا أملك شيئًا..
أنا الذي لا أحد لي..
أهيم بك.. أريدك..
أنا لا أحد... بلا شيء أمنحه لك.
سوى.. أنني أحبك!".

توم جونس

* * *

فندقنا يعج بشرائح النزلاء الذين اعتدناهم.. دائمًا هناك (زهور الحائط) والعجائز الذين يرمقون كل شيء في فضول واشمئزاز (غالبًا ما يكونون إنجليزًا وأنا أمقت الإنجليز).. والشبان المستهترين المرحين.. دعك من الأمريكي الأشقر ومرافقه المصري الأصلع النحيل الذي يدخن كأحد آبار جهنم..

كان الجميع عاكفين على طعام الإفطار حين صعدت في الدرج إلى الحجرة رقم ٢٩ باحثًا عن (جين).. كنت بحاجة دائمة إلى أن أراها بقربي رغم علمي التام بأن هذا لن يفضي سوى إلى المزيد من العذاب..

وحين دخلت الحجرة - وكان بابها مفتوحًا - وجدت حبيبتي في مأزق غير عادي.. أنتم قرأتم الجزء الأول وتعرفون تمامًا ما حدث، لهذا لن أعيد السرد..

فقط أقول لكم إنني كنت مسرورًا لأنني ساعدتها برغم تبجحها وفظاظتها الشديدة معي.. لم أكن لأتركها في مأزق كهذا أبدًا، وعلى كل حال كنت قد أزمعت إذا ما ساءت الأمور أن أزعم أنني مقتحم الحجرة.. وهي حركة فروسية لا أبغي عنها أجرًا، إنما هي عرفان بالجميل لأجدادي الايرلنديين الذين منحوني دماء الشهامة..

وحتى حين أبديت سروري لانتهاء الأزمة؛ كان ردها وقحًا عنيفًا إلى درجة أن الدمع كاد يطفر من عيني.. وهمست..

- أنت قاسية يا (سندريللا)..!

كانت تجرع اللبن كقطة هائئة فرغت لتوها من التهام فأر..

لكني لست فأرًا.. ولن أكونه..

يقول (توم جونس):

- "وقفت هنالك تضحك..

رفعت السكين في يدي..

فكفت عن الضحك!".

عبقري هذا الـ (توم جونس)..!..

أحقًا لم يرها بعد؟!..

لقد تجاوز مرحلة وصف أدق مشاعري إلى مرحلة التنبؤ لي بما ينبغي عمله وما سيكون..!..

"لماذا.. لماذا يا حبيبتي (دليلة)؟

ولذلك..

وقبل أن يأتوا ليهشموا الباب..
اغفري لي يا (دليلة)..
فلم أكن لأتحمل أكثر..!".

* * *

كنت هناك حين سمعت صوت الصراخ والعويل قادمًا من جهة غرفة المسنة (جونز).. وشممت رائحة الشياط..
ولمحت الرجلين - المصري والأمريكي - يحاولان تهشيم الباب حتى نجحا في اقتحامه فجأة.. ودخل حشد من القوم الغرفة وسمعت كلامًا كثيرًا عن المسنة (جونز) التي احترقت حية..
كنت أبحث بعيني عن (جين) وسط الزحام..
كانت ملقية برأسها على صدر إحدى النزيلات الشمطاوات وهي تنشج في هستيريا.. وقد انتثر شعرها على وجهها الوسيم:
- أنا السبب!.. ما كان يجب أن..
كلام كثير مختلط لم أفهم منه حرفًا...
عم تتحدث هذه الفتاة؟..
دنوت منها وربت على كتفها وبأرزن صوت همست:
- (جين) يا ملاكي.. ماذا قد حد..
كالملسوعة وثبت.. وكأن يدي هي عقرب وجدته على كتفها.. وبجنون صرخت:
- ابتعد عني!.. أنت السبب في كل هذا!
أنا السبب؟.. كيف؟.. لا أذكر أنني أحرقت المرأة على الأقل في الساعة الماضية.. على أنني أستطيع استنتاج أن شيئًا قد حدث.. وهذا الشيء له علاقة ما بما اقترحته صباح اليوم..
وعدت لغرفتي منهكًا..
كنت أعرف أن دورًا هامًا ينتظرني باعتباري الرجل الوحيد الموجود من إدارة الفندق.. لكنني لم أكن في حال تسمح لي بالقيام بهذا الدور.. سيستدعى أحدهم - فلماذا أكون أنا؟ - الشرطة ورجال الإطفاء والإسعاف..
إن يومًا شاقًا ينتظرني حتمًا ولابد أن أنال قسطًا من الراحة..
سيكون هناك شهود كثيرون يؤكدون لرجال الشرطة أنهم سمعوا الفتاة تتهمني بأنني السبب، فماذا أقول ساعتها وكيف أفسر؟...
ثم.. السبب في أي شيء بالضبط..؟
ليتني أستطيع الفهم..

* * *

على أن رجال الشرطة تمكنوا من إيقاظي..
كانت ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي حين قرعوا بابي.. وكانوا حفنة من الضباط المنهكين محمري العيون معهم مفتش بدين يرتدي المعطف الكاكي اللون الذي يرتدونه جميعًا..

وبدءوا يتأملون غرفتي في فضول، على حين أخرج المفتش مفكرة صغيرة وقلمًا من الرصاص، وشرع يسألني السؤال التقليدي الأبدي:

- أين كنت حين حدث الحريق؟

ثم....

- لماذا انعزلت في غرفتك بعدها ولم يرك أحد؟

- كنت مرهقًا مصدومًا يا سيدي..

- يقول الشهود إنهم سمعوا الآنسة (هاربروك) تلومك على أنك السبب..

- السبب في ماذا؟

- إنني من يسأل.. والآن أجب..

- البينة على من أدعي..

- إن مس (هاربروك) في حال لا تسمح بالاستجواب، وعلى كل حال دعني أؤكد لك أن كل ملابسات هذا الاحتراق تدل على أنه حدث دون يد بشرية.. لا نعتقد أنه انتحار ولا أنه حادث.. لكننا واثقون أن هناك تفسيرًا ما.. فهل نجده لديك..؟

- للأسف لا...

يقول المفتش وهو يعيد المفكرة إلى جيبه وينهض:

- طبعًا لا داعي للتأكيد أننا بحاجة إليك في الأيام القادمة.. فلا تذهب بعيدًا إلى أن أخبرك أننا فرغنا منك..

- ليكن سيدي...

* * *

ما أغربها وأطولها من ليلة!..

كانت خيوط الفجر تتسرب عبر الستائر، وكان النوم قد خاصمني حين خرجت من حجرتي أجوب ردهات الفندق المظلمة وفي رأسي ألف خاطر..

كنت أمام الغرفة رقم ٢٨ حين سمعت صوت أحدهم يهم بفتح الباب.. فوثبت بخفة للوراء - برد فعل غريزي - لأرى القادم..، واقفًا وحدي في الظلام لمحت خيالًا مألوفًا يغادر الغرفة.. خيال امرأة.. بالتحديد خيال (جين)!..

ماذا تفعلين يا (جين) في هذه الساعة هنا؟!..

وكانت الإجابة سريعة للغاية..

إذ لمحت خيال ذلك الرجل الأصلع النحيل الذي يدخن بشراهة.. لمحته مدثرًا بالظلام يقف مودعًا إياها على باب الحجرة.. وكان يرتدي البيجامة..!

سمعته يناديها في رفق:

- وداعًا يا صغيرتي..

وسمعتها تلتفت نحوه لتهتف في شيء من اللوعة:

- وداعًا.. لقد استرحت الآن!

وفي خفة الغزلان شرعت تهرول عبر الردهة عائدة لغرفتها بينما أغلق بابه... إن هذا الذي رأيته ليس له سوى تفسير واحد..

ومع من (جين)؟.. مع هذا الخفاش الأصلع؟.. مع هذا الثعبان الذي ينفث الدخان كالغلاية؟.. أي انحدار في ذوقك وأي ابتذال..!

نيران الغيرة تلتهب في صدري وتحرق أطراف أعصابي...

كانت معه في حجرته في ساعات الفجر الأولى.. بالتأكيد ليس لتنظيف الغرفة ولا للعب الشطرنج..

وأنا.. أنا البائس المحتضر الذي حارب من أجل أن يقع على شبكية عينيك دون جدوى، وهأنتذي تبحثين لديه عن السلوى.. عن العزاء.. عن نسيان الجروح التي خلفها فيك مصرع مس (جونز)...

"لقد رأيت الضوء عبر نافذتها في تلك الليلة..

رأيت دليل خيانتها وقد سقطت ظلاله على ستائرها..

كانت امرأتي..

وحين خانتني..

غاب وعيي عني..

لماذا.. لماذا يا (دليلة)؟

كنت أدرك أن الفتاة لا تناسبني..

لكني كنت ضائعًا..

كعبد لا يملك بشر أن يحرره..".

هكذا ترنم (توم جونس).. وهكذا سمعت كلماته..

"وحين أشرق الصباح..

وحين ذهب ذلك الرجل..

كنت هناك..

عبرت الطريق إلى دارها ففتحت لي الباب..

وقفت هنالك تضحك..

رفعت السكين في يدي فتلاشت ضحكتها..!".

* * *

كان قلبي يعمل بسرعة..

بمعنى أصح لم يكن لعقلي دور فيما يحدث.. انتقل مركزي الحركي إلى الصدر ليسيطر على خلجاتي وتصرفاتي، فقط ظل عقلي هناك يراقب ما يحدث..

توجهت إلى المطبخ وأخذت سكينًا..

أكبر سكين وجدتها هنالك ودسستها في ثيابي..

سيكون أمر (جين) سهلًا.. أما الآن فمن واجبي أن أتخلص من هذا الوغد أولًا.. لن أكون نذلًا مثل (توم جونس) فأترك الرجل سالمًا وأنتقم من المرأة.. بل سأبدأ بالرجل..

اسمه (رفعت إسماعيل).. في العقد الخامس من عمره.. مصري الجنسية.. أعزب.. وطبيب..

أحب أن أعرف كل شيء عن أول إنسان أقتله في حياتي..
هذا التعس لن يعيش ليدخن علبة سجائر أخرى..
في تؤدة - كخطى القدر - أمشي نحو غرفته وأقرع الباب.. صوت رجل يتنحنح.. وخطا تدنو من الباب..
"سامحيني يا (دليلة)..
لم أكن لأتحمل أكثر..".
.....

* * *



توجهت إلى المطبخ وأخذت سكينا ..

أكبر سكين وجدتها هنالك ودسستها فى ثيابى ..

الجـزء السادس
عن (باتريك) و (جين) وآخرين
يحكيه (هاري شلدون)

"قفل مهشم ليلًا.. عجوز محترقة عند منتصف الليل.. حسناء مذعورة عند الفجر.. عاشق سفاح مع بداية اليوم.. إله أزتيكي غاضب..، تبًا لها من عطلة، وتبًا لـ (رفعت إسماعيل) من رفيق في الاجازات!".

* * *

يقول (هاري):

في غرفة (رفعت) ظللنا طيلة الوقت نناقش - مع عالم الآثار الانجليزي (هنري بنسون) - سبيلنا للخلاص من لعنة (شاكال)..

وكما عرفتم استقر رأينا على ألا نترك (رفعت) وحيدًا لحظة واحدة..

وهو - كما تقدرون - ليس حلًا جذريًا إلا أنه كاف إلى أن نجد طريقة أفضل..

أما عن نفسى فلم أحاول أن أنظر إلى القلادة فلربما وقع المحظور واستطعت فهم الكلمات المكتوبة.. وعندئذ..!..

لا أذكر متى نمت جوار (رفعت) في الفراش على حين جلس د. (بنسون) يطالع بعض الكتب في ركن الغرفة على ضوء الأباجورة الخافت..

أية كوابيس زارتني..!، أي هلع شعرت به!.. كنت مرة مومياء مشتعلة يسيل منها الدهن في احتفال همجي.. ومرة كنت أركض مفزوعًا بين الأحراش بينما يطاردني شيء لا أدري كنهه لكني أخشاه كثيرًا..

كنت أسمع سعال (رفعت) الخشن فأمزجه تلقائيًا بالحلم ثم أواصل النوم باحثًا عن عوالم مفزعة أخرى..

وصحوت غارقًا في العرق البارد..

كان نور الفجر يملأ الغرفة وعلى مقاعد الأنتريه وجدت د. (هنري) جالسًا وجواره د. (رفعت) بثياب النوم.. على حين كانت الخادمة الحسناء (جين) جالسة على مقعد ثالث مرتدية روبًا على قميص النوم وكانت الدموع في مرحلة الجفاف على خديها..

ماذا حدث؟.. وماذا جاء بهذه الفتاة ها هنا؟..

وثبت من الفراش منكوش الشعر - كالمجانين - ووقفت وسط مجلسهم متوقعًا أن هذا كله كابوس جديد..

قال د. (رفعت) وهو يشير نحوي ونحو الفتاة:

- مس (جين هاربروك).. مستر (شلدون).. أعتقد أنكما يعرف بعضكما البعض..!

كدت أموت خجلًا من مظهري المزري الذي لا أسمح لامرأة سوى زوجتي أن تراه.. وهززت رأسي في حرج محييًا..

قال د. (بنسون) وهو يشير لي كي أجلس:

- لقد جاءت مس (هاربروك) كي تقدم لنا اعتذارًا صغيرًا.. لقد اعترفت أنها من عبث في حجرتي - بدافع الفضول طبعًا - وأخفت القلادة في غرفة التعسة مس (جونس)، وهي تعتقد - بل هي واثقة - من أن القلادة لها دور فيما حدث.. وقد جاءتنا باكية لتعترف وتريح ضميرها.. وكانت قد شاهدتنا جميعًا ندخل غرفة د. (رفعت) فأدركت أن سرًا معينًا يربط بيننا جميعًا.. ولم يخب ظنها كثيرًا...

قلت في غباء:

- إذن مس (جونس) لم..

- لم تسرق القلادة لكنها بالتأكيد عثرت عليها وقرأت المكتوب عليها.. وهذا يفسر لنا كل جوانب اللغز..

قالت (جين) وهي ترتجف وتعض أناملها:

- في البدء ظننت أن تدخينها هو سبب الحريق.. ثم....

- هل كانت المرحومة تدخن؟

- نعم.. سرًا!.. ولم تكن تظن أنني أعرف..

بدا الاهتمام على وجه د. (هنري) وتبادل و (رفعت) نظرة ذات معنى.. ثم قطب جبينه وغمغم:

- تدخين مرة أخرى.. هل فهمت؟..

ثم فتح أنامله وبدأ يعد عليها:

- أولًا.. شمعة في غرفة (فيتزجيرالد).. سيجار مع لورد (كينزي).. لهب (أسيتيلين) مع اللص الذي سرق خزينتنا.. سيجارة مع مس (جونس) ومع د. (رفعت)..

سألته في حيرة وأنا أحك رأسي:

- هل تعني أن كل هذه الحوادث حرائق عادية..؟.. وكيف لم يحترق سوى الضحية..؟.. حتى ثيابه

ظلت سالمة..

- لم أقل شيئًا عن حرائق عادية.. أعني فقط أن مصدرًا للهب لابد وأن يوجد على مقربة من الضحية.. لأنه (من النار تأتي النار).. إن شروط الاشتعال الذاتي تتحقق إذا ما تواجد الشخص وحده وكان جواره مصدر - ولو كان واهنًا - للنيران..

في إرهاق حك د. (رفعت) صلعته وخلع النظارة:

- إن هذا سبب وجيه حقًا للإقلاع عن التدخين..

- بقي أن نعرف معنى (في الرماد يفني الرماد) لأنني أعتقد أن خلاص هؤلاء التعساء يكمن فيها..

أخذت أفكر عاصرًا ذهني بحثًا عن فكرة مناسبة للموقف.. في الرماد يفني الرماد.. هل هي مجرد صيغة بلاغية؟.. ما معناها أصلًا؟.. أنا أمقت هذه اللهجات المتحذلقة للنبوءات القديمة..

وهنا وجدت د. (رفعت) يشير للفتاة في رقة وهو يرمق ساعته أن الوقت قد حان لتنصرف فأمامها يوم شاق..

نهضت الفتاة معه وفتح لها باب الغرفة.. ثم حياها وعاد ليجلس معنا مشاركًا إيانا حيرتنا وتساؤلاتنا

وتمضي الدقائق..

هو ذا النهار الفتي يقتحم الغرفة بعد أن رحل الفجر الناعس..

دقات متتابعة على الباب..

أشرت لهما أن يظلا جالسين واتجهت للباب كي أفتحه..

وجه (باتريك أوكونور) الساقي الإيرلندي الصميم يتبدى لي.. ثم نظرة ذاهلة في عينيه.. نظرة مسحت الغرفة سريعًا وحركة تراجع لم يكملها..

وسمعت صوت الرنين..

السكين التي كان يخفيها في ثيابه سقطت منه على الأرض، حاول أن يستدير لكني لويت ذراعه بعنف ثم وجهت له ركلة بركبتي أسفل ظهره أطفأت حماسه قليلًا.. ثم دفعته بعنف إلى داخل الغرفة..

صاح (رفعت) في دهشة وهو يعيد منظاره إلى أنفه:

- (باتريك)؟.. ماذا أتى بك هنا؟

قلت من بين أسناني وأنا أوجه له ركلة أخرى (للساقي وليس (رفعت) طبعًا):

- ماذا أتى به هنا؟.. يا له من سؤال!.. أتى ليذبحك طبعًا!

- يذبحني أنا؟.. وماذا فعلت له؟.

- هذا هو السؤال الذي سيجيبنا عنه بكل أمانة..!

على المقعد جلس الفتي مداريًا وجهه بكفيه... وبعد دقائق من النشيج فهمنا منه أنه ظن أن الفتاة كانت مع (رفعت) لغرض لا داعي لذكره.. متهورون هم هؤلاء الإيرلنديون.. متهورون وحمقى.. متهورون وحمقى وعميان... (رفعت)؟!.. ألا تجد فتاة سوى (رفعت)؟.. (رفعت) الشبيه بمكنسة تساقط القش من عليها؟!.. (رفعت) الذي يسعل كمصحة درن كاملة؟

- أعتقد يا بني أنك تسرعت كثيرًا.. لقد جاءتنا فتاتك كي تصارحنا بما حدث أمس في غرفتي.. إن لهذا علاقة قوية باحتراق السيدة العجوز.

قالها د. (بنسون) وهو يقدم للفتي قدحًا من القهوة من ترموس وجده جواره.. كنت قد طلبت هذه القهوة بالأمس لبداية الأمسية وقدم له (رفعت) سيجارة.. لكن الفتى لم يمد يده للقدح.. كانت عيناه الزجاجيتان متصلبتين على القلادة الملقاة على المائدة أمامنا.. لمحته يرتجف.. يبتلع ريقه.. شعر رأسه ينتصب..

في هلع صاح د. (بنسون) وهو ينتزع القلادة من أمامه:

- يا للهول!.. لقد فهم النقوش!.. إذن هو لم يلق نظرة عليها حين وجدها مع الفتاة أمس!

لكن الفتى كان قد تحول إلى كتلة من السعار البشري.. وثب كالملسوع إلى القلادة فانتزعها من يد د. (بنسون).. ثم عاجلني بركلة في أسفل بطني جعلت الهواء يخرج من أذني.. أما (رفعت) المتهالك فلم يتحمل سوى دفعة واحدة جعلته يقفز مترين إلى الوراء..

وفي اللحظة التالية كان الفتى يركض هاربًا من الحجرة..

صرخ د. (بنسون) وهو يركض خلفه:

- الحقوا به!.. إنه يبحث عن فرصة يستكمل فيها قراءة المكتوب.. إنه يسير نحو هلاكه مفتونًا..

تمالكت نفسي ووثبت خلف د. (بنسون) عازمًا على أن أكون الأول.. وخرجت للردهة.. وهنا سمعت صوت (رفعت) يئن قادمًا من الغرفة..

- (هاري)!.. لا.. تتركـ.....

يا للمصيبة!.. لقد نسيناه وتركناه في الغرفة وحيدًا.. مع ماذا؟.. مع لفافة التبغ التي قدمها للفتى...

عدت له جريًا فوجدته في أسوأ حال.. كان ساقطًا على الأرض والعرق يغمر جسده، وأكاد أقسم أن رائحة شياط بدأت تنبعث من شعره.. أطفأت لفافة التبغ وساعدته على النهوض..

- (شاكال).. لقد.. شعر.. برحيلكم..

- اطمئن أيها العجوز.. لن نتخلى عنك بعد الآن.. قلت لك مرارًا أن تكف عن التدخين وعن تقديم السجائر للناس..

وأسند رأسه على صدري وشرعنا نمشي للردهة الخارجية.. كانت هذه هي اللحظة التي دوت فيها الصرخة الثنائية المروعة.. هرعنا جارين إلى مكانها..

كان هذا هو المطبخ.. جوار الموقد المشتعل..

وكان هناك جسدان متلاحمان ينبعث منهما الدخان واللهب الأزرق الكئيب.. لكن أبشع ما في الموضوع هو أن ثيابيهما لم تحترق.. كان أحد الثوبين هو ثوب الساقي (باتريك).. أما الآخر فثوب (جين) خادمة الغرف الحسناء..

كان الجسدان يتلويان.. لكن ملامحهما قد اختفت نهائيًا في سحابة من الدخان والرماد.. وكان د. (بنسون) عاكفًا في هستيريا على دلو من الماء وضعه على الحوض يحاول ملأه ليطفئ هذا اللهيب..

وهنا سمعت (رفعت) يصيح - برغم إنهاكه - وهو يسد الطريق بجسده:

- لقد انتهيا يا د. (بنسون)..!.. انتهيا!.. ولا جدوى من محاولة إنقاذهما.. دع الرماد يفنى.. ففي الرماد يفني الرماد..!

وهنا سمعنا صوت التمثالين الفحميين يتهشمان.. وعلى الأرض تهاوى الرماد وسقط الثوبان المفرغان سالمين لم تمسهما النار..

- هل ترى؟.. ها هي ذي القلادة!..

كان د. (رفعت) يشير إلى شيء معين بين الرماد..

- هل ترى؟.. إنها تتفتت..!.. تتفتت!.. لقد فني الرماد في الرماد كما قالت اللعنة..

بدأ الهدوء يسود المكان فيما عدا صوت ألسنة اللهب المحتضرة الأخيرة تقرقع في سكون.. وسمعنا صوت نزيل أو أكثر يسأل عما حدث..

كان د. (بنسون) يلهث وقد شحب وجهه كالموتى..، وفي تؤدة بدأ يشرح لنا ما حدث.. وكيف حدث..

كان تفسيره مقنعًا.. لكنه مريع.. مريع..

لقد انتهت المأساة.. لكنها ستظل حية في ذاكرتي إلى الأبد..

ومن بعيد سمعت صوت (توم جونس) يترنم في مذياع بعيد:

"اغفري لي يا (دليلة)..

فلم أكن لأتحمل المزيد..".

.....

* * *



الخاتمة

تعليق على ما حدث

يحكيه د. (رفعت)

انتهت لعنة (شاكال)..!

مثل أي شيء مفزع انتهت.. ومثل كل ما هو مبهج انتهت..

لقد وجد الفتى الأيرلندي المطعون في عاطفته السبيل للقضاء على القلادة..، فهو فهم الكلمات وأيقن أن (شاكال) يناديه وأنه لابد سيلبي النداء.. لكنه لم يرد أن يموت وحيدًا..

استجمع إرادته وجرى من الغرفة باحثًا عن (جين).. وحين وجدها في المطبخ واقفة أمام الموقد؛ وضع القلادة أمام عينيها..

كان يعرف ويؤمن أنها ستتمكن من قراءة الكلمات.. كان واثقًا من هذا ثقته من أنهما سيموتان معًا ما داما لن يعيشا معًا..

وحين قرأت الفتاة الكلمات أدركت أن (شاكال) يناديها، وعانقها الفتى بينما نيرانه تشتعل.. ونيرانها تشتعل هي الأخرى.. كانا يحترقان معًا...

ربما للمرة الأولى في تاريخ هذه اللعنة..

أية نيران انبعثت من قلب الفتي المكلوم!.. وأية حرارة تصاعدت من صدره الجريح..!... كان اللهب أقوى من قدرة القلادة ذاتها.. في رماد الفتى فنى رماد الفتاة وذابت القلادة..

لقد تكفل انتقام الفتى بتدمير مصدر اللعنة ذاته..

* * *

وماذا عني أنا؟..

لقد عشت فترة لا بأس بها من الرعب وتوقع الهلاك، لكنني بعد تجارب رصينة أجراها علي د. (هنري بنسون) أيقنت بأنني نجوت للأبد من مخالب السحر الأسود الذي قذفه كهنة (شاكال) في طريقي منذ قرون عدة..

لن أحترق ذاتيًا في هذا العالم وأدعوا الله أن يعصمني من نهاية مماثلة في العالم الآخر..

ادعوا الله - كذلك - أن يهب لي القدرة على النسيان.. فقد كان ما رأيته في هذه المرة بالذات أكبر من تحملي..

ثمة نقطة أخيرة أريد أن أضيفها..

من البديهي أنني لم أتمكن من لقاء مس (جونز) ولا (باتريك) لمعرفة القصة على لسانيهما لكنني قمت بصياغة أدبية لما يمكن أن يكونا قد كتباه لو أنهما كانا من أرباب القلم..

والآن يمكنني أن أضع القلم بعد أن انتهيت من حكايتي الثالثة عشرة والتي أرجو أن تكون قد راقت لكم..

في المرة القادمة نمضي معًا عبر الثلوج باحثين عن رجل الثلوج الرهيب الذي قالوا عنه الكثير من الهراء.. لكنهم لم يسألوني قط أنا الذي رأيته رأي العين..

ستروق لكم حكايتي القادمة كثيرًا، وسترتجفون لا يدري أحدكم أمن عواصف الجليد أم من الهلع..

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل
القاهرة ١٩٩٣

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

١ - رحلة جديدة..

الجـــزء الأول

الجـــزء الثاني

الجزء الثالث

الجـــزء الرابع

الجـــزء الخامس

الجـــزء السادس

الخـاتمـة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة اللهب الأزرق

إنهم يحترقون .. يشتعلون .. فلا يبقى منهم سوى رماد وألسنة من اللهب الأزرق .. إنهم يتلاشون من خريطة الأحياء فى ثوان. لا أحد يعرف لماذا .. و لا أحد يعرف كيف .. لكن د. (رفعت إسماعيل) كان هناك .. و ها هو ذا يفتش عن السر .. و نحن معه....

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة رجل الثلوج

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1] الأرقام العربية هي الأرقام التي يستخدمها الغربيون الآن على غرار 29، 28 أما ما نستعمله نحن في العربية فهو أرقام هندية.

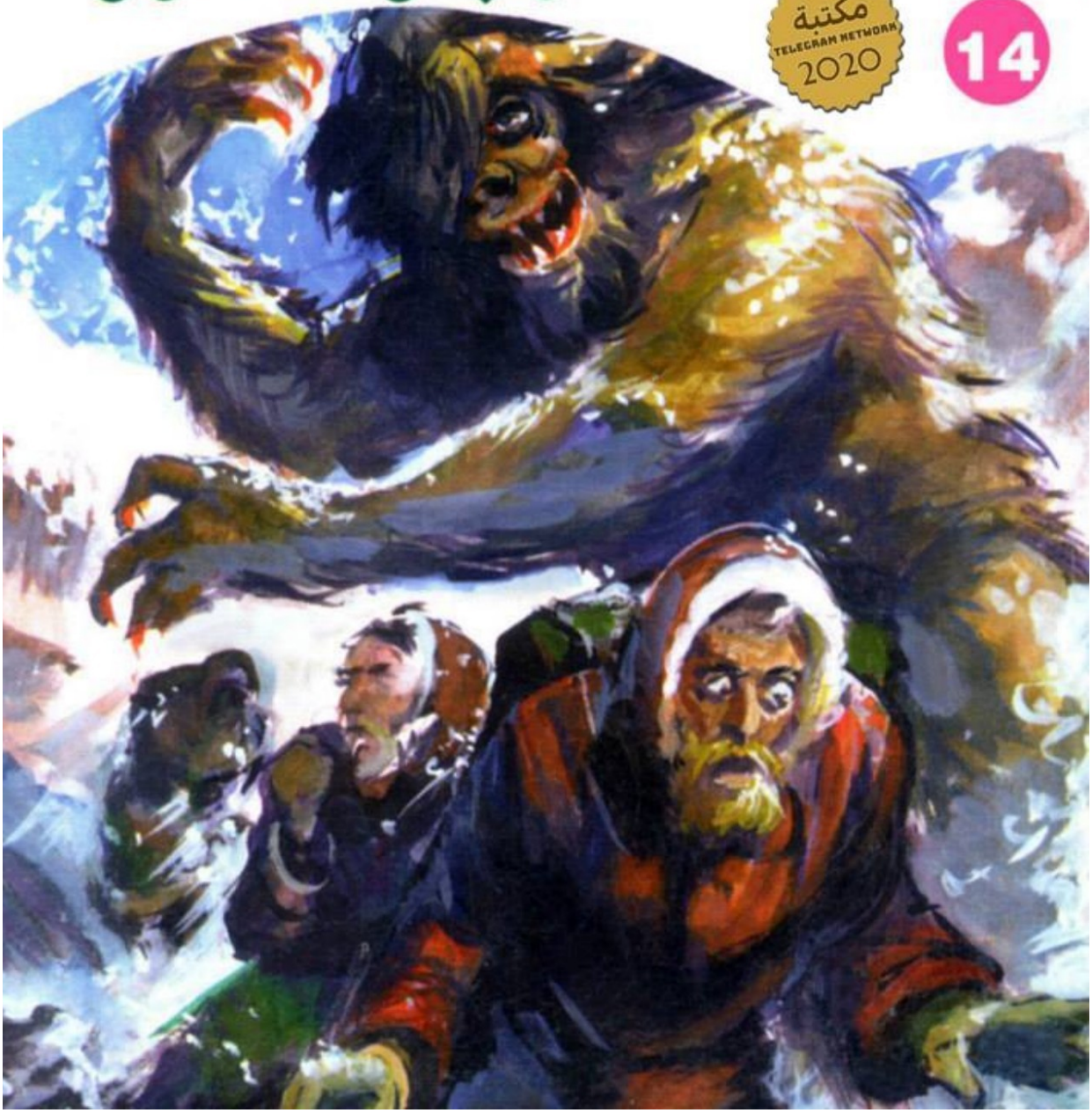
روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة رجل الثلوج

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

14



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٤

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة رجل الثلوج

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

مقدمة

لقد تحركت الشمعة...

أحس هذا.. وأفهمه.. بل أنا واثق منه..، سيقولون إنها هلوسة شيخوخة في أغوار عقل شيخ أضناه تصلب الشرايين، لكنني أعرف تمامًا الفارق ما بين الهلوسة والواقع.. لم يزل الحاجز الواهن بين الحالتين بعد..

لماذا تحركت الشمعة إذن؟..

لو كنت أصغر سنًا وأكثر حيوية لبحثت عن السبب..

لكني عجوز منهك لا يملك سوى الذعر.. ولهذا أكتفي بالذعر وأتجاهل الأمر كأنه لم يكن..!

أنتم تعرفون من أنا...

أربع عشرة ساعة أقول لكم من أنا.. لكني لست واثقًا بعد من أنكم جميعًا كنتم جالسين في المرات السابقة..، لهذا أردد الأسطوانة المشروخة:

أنا د. (رفعت إسماعيل).. أستاذ الدم.. الشيخ.. أعزب.. أمضى حياته في مطاردة أسرار ما وراء الطبيعة.. واليوم يحكي لكم خبراته المروعة.. لماذا؟..

لأن هناك من يجدون أعمق اللذات في الخوف..

كنت سأحكي لكم إذن قصتي مع عروس البحر، أو قصتي مع (نوسفيراتو) أو أستكمل لكم قصة (النافاراي).. لكن لا...

هناك كثيرون منكم أحبوا قصة حارس الكهف - العساس - وهؤلاء بالذات ستروق لهم قصتي مع رجل الثلوج، هناك قراء يحبون الدراما المنزلية، ولهم حكيت أسطورة آكل البشر، ولعنة الفرعون والبيت..، وهناك قراء يحبون جو (الحملات) التي تخرج باحثة عن لغز ما.. ولهؤلاء حكيت أسطورة وحش البحيرة، وحارس الكهف.. وسأحكي لهم قصة اليوم..

أسمعكم تتثاءبون.. فالقصة معروفة.. طائرة تسقط فوق ثلوج التبت.. والرهبان يحذرون.. ثم يظهر رجل الثلوج الشبيه بقرد عملاق.. و.. و...

كلا يا رفاق.. ليست القصة هكذا، وإلا لما حكيتها..!..، ألن تكفوا عن إساءة الظن بشيخكم المحنك (رفعت إسماعيل)؟..

ستكون القصة مختلفة تمامًا هذه المرة..

وستعرفون السبب بعد قليل..

فقط ابدءوا القراءة الآن..

ولا تقاطعوني..

الجزء الأول
حكاية عن (التبت)

صوت أنفاس لاهثة جشعة.. أنفاس شيء ما، يلصق أنفه بقماش الخيمة على بعد أمتار منه!

١ - شيء ما..!

العاصفة من جديد...

تتكاثف ندف الثلج الأبيض وكأنها تتعلق بثوب الطبيعة الأسود..، وخناجر البرد تخترق نخاع العظام محاولة انتزاعه خارجها، الرؤية متعذرة.. والحديث لا يفهم ربما بسبب أصوات الرياح، وربما لأن أكثره يخرج من بين أسنان مطبقة مرتجفة، وربما لأن عباراته تقال باللغة النرويجية.. وما أصعبها لغة!

لن أضيع الوقت في وصف ملامح الرجال..

فكل النرويجيين يتشابهون: نفس ذوي اللحى الصفراء المشعثة والعيون الزرقاء..

والأسوأ هنا أن النرويجيين يتشابهون بشدة حين يرتدون الفراء ومناظير الثلوج..

لهذا سأكتفي بالقول بأنهم ثلاثة.. وأن أسماءهم هي: (أنسلن).. و (سيجفريد) و (هانسن)، وأن أولهم هو أقواهم شخصية، فلابد أنه القائد..

المكان: منطقة (منولنج) المتجهة نحو قمة (إفرست)...

الارتفاع: ستة كيلومترات فوق سطح البحر.. لهذا يسمونه سقف العالم..

درجة الحرارة: يمكنكم تخيلها!...

الزمان: أواخر صيف ١٩٦٧

الحدث: لقد ضل هؤلاء السادة طريقهم ولا فخر..

تعليق على الحدث: من الغريب أنه ليس معهم دليل.. إنهم يعتمدون - ككل الأوربيين - على البوصلة والخرائط، ولعمري هذا خطأ قاتل.. خطأ من النوع الذي يكون الأخير دائمًا..

لقد استطاع مواطنهم (روالند أمندسن) أن يستكشف القطب الجنوبي، لكن حسن الحظ ليس قاعدة يركن إليها، وليس النجاح حليف الإنسان دائمًا لمجرد إنه نرويجي..

حتمًا سيلقى هؤلاء السادة حتفهم..

ولكن دعنا نرى ذلك بأنفسنا..

* * *

كانوا محتشدين في الخيمة التي اتخذوها معسكرًا لهم.. وكانوا قد أشعلوا موقد (البريموس) ليعدوا بعض الشاي، على حين شرع (هانسن) يقسم بمطواته بعض قطع اللحم المقدد ليأكلوها، أما (سيجفريد) فقد أشعل غليونه وشرع يراقب حلقات الدخان الرمادي المتصاعدة وفي عينيه شعور بالهباء.. الخواء..

بدأت قطع الثلج تذوب في الوعاء الذي وضعوها فيه فتصاعد بخار دافئ محبب للنفس.. فقط من يضلون طريقهم في الصحارى الجليدية يعرفون قسوة هذا الشعور.. الحاجة لأن تشرب النار.. لأن تشمها.. لأن تحتضنها غير عابئ بشيء سوى الدفء الذي ستبعثه في أوصالك، مذيبة كرات الدم المتجمدة ونخاع العظام المثلج.. وعندئذ سيسري الدم في عروقك.. وسيكون لسريانه ألم أي ألم.. لكنه ألم لذيذ..

- لنرتب أفكارنا..
قالها (أنسلن) وهو يفرد الخرائط في صعوبة لأن القفاز يعوق حركة أنامله..، وأردف بعد ثوان:
- نحن ضائعون تمامًا.. صحيح أن معنا ما يكفي من المؤن، لكنها ليست خالدة بحال.. نحن نتحرك.. ولكن إلى أين؟
نفث (سيجفريد) المزيد من دخان التبغ.. وغمغم:
- اطمئن.. إننا متفقون على محاولة العودة..
- ولكن كيف نعود؟
- لقد كنا نصعد.. إذن فالأمر سهل.. كل ما علينا عمله هو أن نهبط..!
تامل (أنسلن) ما أمامه من خرائط في ضيق.. فهو من النوع نافد الصبر الذي لا يقبل الأمر الواقع أبدًا، ويصعب عليه إدراك حقيقة أنه أحيط به..، وقال:
- لو أننا فقط استطعنا الوصول إلى نهر (يانجتسي كيانج).. سيكون هو مفتاح عودتنا إلى عالم الأحياء.. أعرف إنه متجمد لكن مجراه سيقودنا إلى النجاة..
هرش (هانسن) رأسه الأشقر بطرف المطواة وقذف بشريحة لحم إلى فمه.. وقال وهو يلوكها:
- على كل حال.. إن من يهبط لا يمكن أن يضل الطريق.. إننا في كل الأحوال سنصل إلى أحد الوديان...
وتناول وعاء الشاي ليصب منه في الأقداح..
كان ذلك حين دوي صوت الزئير..

* * *

عميق هو ذلك الزئير.. موحش كالموت.. كئيب كالظلام.. مريع كقصص الغيلان التي تحكيها الجدات لأحفادهن ليلًا.. طويل كالأبد..
امتد الصوت إلى ما لا نهاية ثم بدأ يذوب متهشمًا فوق سفوح الجبال الثلجية.. لم يبق منه سوى فتات متجمد..
توقف (هانسن) عن المضغ.. وكف (سيجفريد) عن نفث حلقات الدخان.. وتقلصت يدا (أنسلن) على الخريطة..
ولبضع ثوان بدا وكأن المشهد كادر ثابت من فيلم سينمائي..
ثم إن (أنسلن) - بحكم قوة شخصيته وسرعة بديهته - كان أول من استعاد توازنه..، فالتفت نحو الآخرين بجدية.. وهمس:
- ما هذا؟
- ذئب.. بالتأكيد.. لا يمكن أن يكون سوى ذئب..
بصق (أنسلن) في اللهب مزدريًا.. وطوى ما يمسكه من أوراق وتحسس بندقيته في عصبية:
- هراء.. مستحيل أن يكون هذا ذئبًا..
- إذن هو دب أو فهد..
- أنتما تعرفان - كما أعرف - أن هذا الصوت لا يمت بصلة لأي حيوان نعرفه..
- ولكن.. ما جدوى أن نعرف؟

نظر لهما في شرود.. ثم عاد للجلوس متظاهرًا بالاسترخاء لكن سدى..

كان الزئير كذبابة سقطت في كوب من الحليب فجعلت من شربه أمرًا مستحيلًا.. حتى لو تظاهرت بأنك لا تعبأ بها..، لقد شرخ إحساسه بالأمان ولن يلتئم هذا الشرخ ما لم يعرف حقًا حقيقة هذا الزئير..

تقلصت يداه على قدح الشاي، وشرع يرشف جرعات كبيرة عصبية، وعيناه مسافرتان إلى أرض أخرى...

زوجته (نورا) وطفله (كرست).. ماذا يفعلان في هذه اللحظة؟.. إنه (أغسطس).. لابد أن (نورا) تزور والديها في بيتهما الريفي، ولربما تذكرته في هذه اللحظة بالذات.. ولربما تمنت له التوفيق متوقعة أنه سيعود لها بأمجاد عظيمة، بدلًا من أن يقضى نحبه كالفأر بين الثلوج، إما صريع البرد، وإما صريع ذلك الوحش الافتراضي الذي لا يدرون كنهه..

حبيبتي (نورا).. لكم أتمنى لو كنت في مكان آخر في هذه اللحظات.. لكن لأتماسك ولا أدع هذين الغريرين يدركان ما يجول بخلدي وإلا انهارا تمامًا..

وشعر بقشعريرة تزحف على ظهره ببطء.. تمنى لو أدار ظهره للهب.. لكنه رأى أن هذا التصرف سيبدو سخيفًا أمام مرافقيه..

بعد دقائق تردد الزئير مرة أخرى..

لا نجد وصفًا يصفه أكثر مما قلناه في المرة السابقة، لكن الحقيقة التي يجب ذكرها.. الحقيقة التي لا ينبغي أن تفارق أذهاننا، هي أن الزئير كان يقترب!.. لا شك في ذلك..

وازداد (أنسلن) توترًا..

قال (هانسن) وهو ينظر إلى اللهب المتراقص:

- البرد والظلام والثلوج اللامتناهية في الخارج.. بينما في الداخل الدفء والضوء والأمان.. إن هذا التناقض يثير هلعي ولا أدري السبب..

همس (سيجفريد) وهو يسعل:

- الحقيقة هي أنني لا أجرؤ على إخراج رأسي من الخيمة، ولو دفعوا لي ذهب العالم كله..

ثم التفت نحو (أنسلن) متسائلًا:

- فيم شرودك يا (ريس)؟

- الـ (ياتي)..!

كلمة واحدة من بين شفتي (أنسلن) لكنها كانت كالقنبلة في وجهي الرجلين..، وللحظة ساد الصمت.. كانا يعرفان جيدًا عم يتحدث.. يعرفان جيدًا معنى هذه الكلمة.. وكلاهما يتمنى ألا يكون هذا صحيحًا..

- هراء..!

قالها (سيجفريد) بنبرة توحي بأنه لا يعني ما يقول حقًا..

- هل هو حقًا هراء؟..

تساءل (أنسلن) في ضيق:

- تذكرا يا صديقيّ أن هذا هو المكان بعينه الذي شاهد فيه المستكشف البريطاني (إريك شيسون) ومرافقوه (رجل الثلوج).. كان ذلك منذ ستة عشر عامًا..

- وهل تمكن من القبض عليه؟

- بالطبع لا.. لقد وجد آثار الأقدام الغريبة فأخبره الدليل الذي كان يرافقه - وهو من قبائل (الشيربا) - أن هذه آثار قدمي الـ (ياتي)، وأصر المستكشف البريطاني على اقتفاء أثر هذا المخلوق.. وكان أن وجد اثنين لا واحدًا، إلا أن الكائنين فرا بين شقوق الصخور..

وابتلع ريقه ونظر لأعلى.. وفي رهبة غمغم:

- إن الـ (ياتي) يسيطر على هضبة (التبت) سيطرة مطلقة، برغم أن أحدًا لم يره إلا مصادفة..

إذن هم الآن في دائرة نفوذ الـ (ياتي)، ومعنى هذا أنهم تحت رحمته، وأنه لا مفر لهم إلا في التظاهر بأنه غير موجود، وذلك حتى يتمكنوا من العودة أدراجهم.. هذا - بالطبع - إذا ما كان الزئير زئيره..

عواء الريح يتزايد في الخارج..

الدفء المحبب للنفس، ورائحة التبغ، وضوء اللهب المتراقص بالداخل..

إننا في أمان.. في أمان..

وتمر الساعات..

لا شيء سوى النعاس اللذيذ - كالخدر - يزحف للعيون، واسترخاء بطيء في العضلات التي قضت يومًا شاقًا..، وتراخ محتم في الأذهان التي أنهكها البحث عن مخرج.. كأنما العاصفة قد هدأت وهمدت الأمواج بعد طول فوران..

هل كان ذلك في الثانية بعد منتصف الليل؟..

لا يذكر بالضبط ولا يعنيه أن يذكر..

كان (هانسن) هو الوحيد الذي بقي مفتوح العينين يرمق اللهب ويحصى أنفاس زميليه المنتظمة..

هو الوحيد الذي لم يتزوج، ولم تكن له أسرة.. لهذا لم يكن لديه ما يفقده أو يخشاه.. إذن لماذا الخوف؟.. لماذا يخفق فؤاده هلعًا بهذا الشكل المخزي؟ أتمنى لو أنه حازم قوى الشخصية مثل (أنسلن).. أو مراقب ساخر لا يبالي بشيء مثل (سيجفريد).. لماذا يحب الحياة بهذه القوة؟.. الحياة التي لم تهبه سوى هزائم حتى أنه فكر في الانتحار مرارًا.. لكنه - في كل مرة - كان يزداد تشبثًا بها، ويفطن إلى أنه ما زال يخشى السيارات المندفعة والكلاب المسعورة وحوادث الطائرات..

وفي مرارة تساءل: هل الشجعان هم أشخاص أقل حبًا للحياة من سواهم؟

مستحيل أن يكون تشبثه بالحياة أقوى من (أنسلن) الثري الناجح الذي يملك زوجة حسناء وطفلًا جميلًا يهيمان به..

إذن ما السر؟

عزى نفسه بتفسير مرتجل يقوم على أن الأعصاب وراثة.. فكما أن هناك أشخاصًا أطول قامة من سواهم - ولا فضل لهم في ذلك - فهناك أشخاص أقوى أعصابًا من سواهم.. وكما كان هناك دومًا الوسيم والقبيح، فسيظل هناك دومًا الشجاع والجبان..

كان غارقًا في هذه التفسيرات حين سمع الصوت..

صوت أنفاس لاهثة جشعة.. أنفاس شيء ما، يلصق أنفه بقماش الخيمة على بعد أمتار منه..!

صوت الاحتكاك.. صوت رقائق الجليد تتهشم...

ثم يبتعد الصوت اللاهث..

أسوأ ما في الأمر هو أن الصوت بدا له وكأنه يحاول ألا يوقظ الموجودين!.. صوت لص يتسلل من نافذة بيت يعرف أن أهله بالداخل!

وتجمد الدم في عروقه..

فتح فاه ليصرخ.. ثم رأى أن يهمس بصوت مسموع، ويد مرتجفة مدها ليهز (أنسلن) الذي رحل بعيدًا إلى (النرويج) منذ ساعتين..

- (أنسلن)..!

- هم م م م م؟

- ثمة شيء.. ما..!

- هم م م م؟

- أقسم لك!.. استيقظ!.. إنه على بعد مترين!

فتح (أنسلن) عينيه أخيرًا.. كانتا شديدتي الاحمرار مغطيتين بغشاوة من النعاس.. وصاح غير مدرك لما يحدث:

- عم تتكلم بالضبط؟

وهنا..

تمزق قماش الخيمة وتسرب إليها البرد والجليد والظلام...

وشيء آخر..

* * *



أسوأ ما فى الأمر هو أن الصوت بدا له وكأنه يحاول ألا يوقظ الموجودين !..

٢ - نهاية حلم..

(مصر) في بدايات خريف ١٩٦٧

كان الاكتئاب صديقًا أعرف ملامحه وآلف نبرات صوته، وأدمن رائحته..

هذا الصديق كان موجودًا في كل مكان.. في مكان عملي.. في منزلي.. في الشارع.. في سماعة الهاتف..، وكنت أتأمل الناس من حولي، فأجد في ملامحهم ذات التعبير الذي يوحي بأنهم وجدوا أصدقاء مماثلين..

كانت حرب (يونيو) قد انتهت بنهايتها المعروفة معلنة انكسار حلم الستينيات الوردي، والمثقفون منهم من انكسر نهائيًا مع الحلم.. ومنهم من فرّ إلى عالم آخر جغرافي أو خيالي، يحاول أن ينسى فيه مرارة الهزيمة، بينما يردد صوت (عبد الحليم) في مرارة (عدى النهار)..

إنها أيام لا تنسى..

على الصعيد الشخصي كان هناك شرخ أكثر مرارة وقسوة في جدار مستقبلي، هذا الشرخ هو علاقتي بـ (هويدا)..

كانت (هويدا) تتغير..

لا أدري متى ولا كيف ولماذا يحدث هذا، لكنه يحدث.. وعندئذ يسقط حائط (السيلوفان) الوردي الذي يغطي العينين، وتتضح أشياء كثيرة وتولد أشياء أكثر..

عندئذ تبدأ المشاكسات فالمشاجرات..

وعندئذ تتحول عبارات المزاح الخشن - التي كانت تجلب ضحكات الدلال قديمًا - إلى إهانات لا تدري هي كيف سمحت لنفسي بقولها..

إن الحب هو (فيلتر) يستخلص من الحياة أفضل وأجمل ما فيها.. فإذا أصاب الـ (فيلتر) العطب، أو تشبع أكثر من اللازم، لم يبق في الحياة سوى كل ما هو قبيح ومرير وقاس...

حرب مستمرة..

هكذا صارت حياتي حربًا مستمرة..

مشادات فمحاولات إصلاح تزيد الطين بله.. فمحاولات إصلاح لمحاولات الإصلاح.. ثم أمل كل شيء وأعلن رأيي في أن كل هذا سخف.. ثم أبدأ محاولات إصلاح جديدة لأنها لا تفهم كيف جرؤت على أن أقول إن كل هذا سخف..!

هل تفهم معنى عبارة (التورط الأمريكي في المستنقع الفيتنامي)؟..

هذا هو حالي وقتها.. تورط في مستنقع النفس الانثوية المتشابكة.. وكلما حاولت التحرر غصت أكثر فأكثر..

لماذا يا (هويدا) تصرين على هدم كل شيء؟.. كنت قد بدأت أميل إليك.

* * *

سأظل أذكر من تلك الأيام حالة الاكتئاب الحادة التي داهمتني.. والصداع المزمن في مؤخرة رأسي..

هزيمة على الصعيد القومي، والصعيد الشخصي، والصعيد العاطفي..
فيالها من أيام!
كنت في أمس الحاجة إلى الابتعاد عن كل هذا..
كنت بحاجة إلى أسطورة جديدة..

* * *

يذكر القارئ أن آخر عهدي بالأساطير كان في الولايات المتحدة، مع مأساة الاشتعال الذاتي وقلادة (شاكال) إياها..
كما يذكر القارئ مغامرتي التي لم أستكملها بعد مع (هن - تشو - كان) كاهن (النافاراي) المنبوذ بعيدًا عن عالمه وزمنه.. (كنت قد وعدتكم باستكمال تلك القصة، لكن الوقت لا يسعفني، لذا أرجو أن تفسحوا لي صدوركم قليلًا)، سيعرف القارئ بعد استكمال القصة أن (هن - تشو. كان) قد نزح إلى إحدى ضواحي القاهرة الهادئة - (المرج) بالتحديد - ليعيش هناك، وأنه يعمل مترجمًا في سفارة (الصين الشعبية)، الأمر الذي ساعده على ألا يبدو غريبًا أو متفردًا...
شعرت بحنين شديد إلى هذا الفتى الصموت المهذب..
مجرد مرآه كان يحملني إلى بعيد.. إلى الجبال الجليدية وأديرة (التبت) والعواصف وروائح البخور.. وذكريات (جينغ - تشا) الداهية، وأساليب (النافاراي) العجيبة في التفادي..
لهذا أدرت قرص الهاتف في شغف..
سمعت الرنين المتقطع.. ثم صوته ذا النبرة الأجنبية المحببة يتساءل عمن هنالك..
ذكرته بنفسي ودعوته إلى أن يتناول العشاء في شقتي، فوافق في مرح، وقد أكد أنه غير مرتبط بمواعيد...
وبدأت إعداد وجبة العشاء، المكونة من الخبز والجبن وبعض اللبن الرائب، كنت قد نسيته في الثلاجة، وأعرف أن الفتى سيرحب به.. ثم إنني جلست في الصالة أستمتع بمشاهدة جهاز التليفزيون الذي ابتعته حديثًا.. ولكن...
كل البرامج تذكرني بما كان، وبما يجب أن أنساه..
أطفأت هذا الجهاز الجهنمي وشرعت أطالع صحيفة اليوم التي لم أكن قد قرأتها بعد..
مررت بعيني على العناوين، ثم أخبار العالم الطريفة التي يكون مكانها دائمًا الصفحة الثانية من الجريدة.. وهنا وجدت عنوانًا أثار اهتمامي:
السلطات الصينية تعلن إنهاء البحث عن المستكشفين النرويجيين الثلاثة[1]
شنجهاي - وكالات الأنباء:
صرح مصدر مسئول بالحكومة الصينية أن السلطات كفت عن إرسال الحملات بغية البحث عن المستكشفين النرويجيين الثلاثة الذين فقدوا في (التبت) في أغسطس الماضي في أثناء محاولتهم الوصول لقمة (إفرست)..
والجدير بالذكر أن آخر آثار تركها المستكشفون هي خيمة ممزقة وآثار دماء وأثار قدمين كبيرتين مما أعاد للأذهان أسطورة (الياتي) أو رجل الثلوج المخيف.. على أن السلطات الصينية

تنفي القصة بشدة وتعتقد أن المستكشفين قد تجمدوا في مكان ما من الجبل نتيجة لإصرارهم على عدم اصطحاب دليل من سكان (التبت).

(التبت)!.. يالها من مصادفة!...

ولكن هل هناك حقًا من يبالون بهذه السخافات عن رجل الثلوج الذي قتلته القصص المصورة قتلًا؟.. ثم متى ينتهي هذا الجنون الذي يدفع بالناس إلى الانتحار فوق الجبال العالية؟.. لقد وصلوا لقمة (إفرست) مرارًا من قبل، فأي جديد يمكن أن تضيفه حملة أخرى؟

لم أجد تفسيرًا لكل هذا سوى غريزة الموت التي تحدث عنها (فرويد)، والتي تدفع الناس للانتحار دونما سبب..

وهكذا شرعت أنسق الشقة والمائدة بانتظار (هن - تشو - كان) حين يجيء...

دق جرس الباب ففتحته.. كان هو، وقد ارتدى حُلة أنيقة ومنظارًا شمسيًا. فبدا كأحد رجال السلك الدبلوماسي الآسيويين.. لقد تغير كثيرًا جدًا.. لكنه ظل هو..

- لقد صرت معاصرًا أكثر من اللازم يا (هن - تشو - كان)!

- وأنت تخلفت أكثر من اللازم!

عليك اللعنة!.. أهذه هي إجادتك للغة العربية؟!..

وجهت له لكمة مداعبة في صدره لكنه تراجع - بسرعة البرق - إلى الوراء فوجدت نفسي ألكم الهواء.. من المستحيل ضرب هذا الفتى الذي لم ينس بعد فن البعوضة في التفادي والمراوغة..

ثم إنه انحنى في أدب لا أثر للسخرية فيه، وخلع منظاره قائلًا:

- لو كنت ضايقتك.. معذرة.. إنها (دوابا)!

- (دوابا)؟.. أعتقد أنك تقصد (دعابة)..لا عليك.. هلم يا فتى ومرحبًا بك في دارك القديمة!

دخل الشقة وشرع يعانق الأثاث والأركان بعينيه.. ثم جلس على مائدة الطعام وأنا معه نأكل ونثرثر عن كل شيء..

- لم أرد الاتصال بك.

قال وهو يلوك الخبز: لأني توقعت أنك حزين بسبب الأحداث..

- لقد صار الحزن مهنتي..

- وما زلت تدخن بإفراط؟

- أحاول الإقلاع هذه الأيام بالذات، فلم تعد رئتاي على ما يرام..

انتهى العشاء فنهضت أعد لنفسي قدحًا من الشاي - فالكاهن الأخير لا يشربه - وعدت له لأجده منهمكًا في تصفح الجريدة التي كنت أقرؤها.. ويحرك شفتيه جاهدًا مع العناوين..

جلست بجواره ورشفت رشفة.. ثم سألته:

- ما زلت لا تقرأ العربية؟

هز رأسه في تعاسة وواصل تأمل الجريدة:

- صعبة جدًا هي لغتكم المكتوبة.. إنني قد وصلت قمة الإجادة اللغة المنطوقة.. أما بالنسبة للحروف.. فلم أزل أجد مشكلة، دعك من أن لغتنا تعتمد كتابتها على الكلمات الكاملة لا الحروف.. ثم إنها تقرأ من أسفل لأعلى وليس من اليمين لليسار..

فتحت له الصفحة الثانية وأشرت إلى الخبر الذي قرأته منذ برهة.. وسألته:

- هذا الخبر خاص بوطنك.. هل تستطيع أن تفهم ما يقول؟

ضيق عينيه وشرع يمرر إصبعه على الحروف في حيرة ويحرك شفتيه أكثر من اللازم:

- الـ.. السلطات.. الصي.. الصينية.. ت.. تعلن..

ثم نظر في استسلام متوسلًا أن أقرأ أنا الخبر عنه.. فتناولت الجريدة وطالعت له ما هنالك.. فما أن وصلت إلى كلمة (ياتي) حتى اتسعت عيناه وارتجفت شفتاه وتوتر جسده كالمنجنيق المعد للانطلاق.. وانتظر حتى أنهيت كلامي ثم إنه نهض كالملسوع إلى الهاتف..

- (هن - تشو - كان).. ماذا دهاك؟

لم يهتم كثيرًا أو قليلًا بالإجابة.. رفع السماعة وقربها من فيه وبدأ يتحدث حديثًا طويلًا لم أفهم منه حرفًا، مع طرف آخر.. واضح أن هذا الحديث باللغة الصينية أو شيء مشابه..

فما أن انتهى حتى وضع سماعة الهاتف (الذي تعلم استعماله من فترة وجيزة جدًا) ووجهه ممتقع وعيناه حائرتان.. فسألته:

- ماذا هناك بالضبط؟

- لقد عاد الـ (مي - جي)!!

* * *

٣- أسطورة المي - جي..

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق.. عندئذ يبدأ فجر (النافاراي)..

* * *

الثلوج من جديد...
الوقت ملائم تمامًا للجلوس حول النيران وتأمل تمثال (جوتاما) المتلألئ في بحر الذهب.. وسماع قصص الأخ (لين - بياو) الساحرة عن البلدان البعيدة التي تحرق أشعة الشمس الساطعة فيها ظهور حيوانات غريبة لها أنوف طويلة، وحيوانات طويلة الجسد مدرعة الظهر حادة الأنياب تسبح في أنهار غير متجمدة..
نعم الوقت ملائم لكل هذا..
لكن الأخ (ميانج) يدنو منك وعلى وجهه علامات التوتر:
- أيتها الزهرة الزرقاء.. إنني أشعر به قريبًا..
- عم تتحدث أيها الأخ (ميانج)؟
- عن الـ (مي - جي).. إن الليلة ليلته وهو يريد منا أن نشاركه فيها..
عندئذ تفغر فاك في حيرة.. سنواتك الأربع عشرة لم تزل غير قادرة على إغلاق فيك كلما استبد بك عدم الفهم:
- وما هو الـ (مي - جي) يا أخ (ميانج)؟
نظرة مغلقة شاعت في وجه الكاهن.. ولم يعلق بشيء.. إلا أنه استعد كأفضل ما يكون الاستعداد..
- أنت (نافاراي).. ولهذا يجب أن تعرف ما يعرفه (النافاراي) وتكتم أسرارك عمن ليسوا (نافاراي)..

* * *

إن من قرءوا منكم أسطورة الكاهن الأخير يدركون - ولا شك - هذا الجو المألوف.. الجو الذي نشأ فيه (هن - تشو - كان) منذ خمسة قرون، وعلى بعد مئات الأميال في (التبت)، وذلك بالطبع قبل أن تنجح حيلة (شانكين) في حمله عبر الزمان والمكان إلى (القاهرة) في القرن العشرين..
إن (هن - تشو - كان) لم يزل يذكر خبرات صباه..
تلك الخبرات التي تقادم بها الزمن أكثر من خمسمائة عام..!
فبالنسبة لـ (هن - تشو - كان) يظل ما حدث في طفولته كأنما حدث بالأمس.. وتظل الهوة السحيقة بين العصرين لا وجود لها في ذهنه..

* * *

في صمت يمشي (هن - تشو - كان) خلف الأخ (ميانج) فوق الثلوج، والظلام الدامس يغلف الكون بالغموض والذعر..

تدوي الصرخة.. أو لعله الزئير..

عميق كالآبار التي تلقى فيها أرواح الخطاة في الجحيم.. كئيب كالموت.. أليم كانتزاع إصبع من أصابعك..

ثم يتلاشى عبر قمم الجبال الثلجية..

يرتجف الفتى ويطبق بأنامله التي يغطيها القفاز على عضد الأخ (ميانج)، لكن هذا يهدئ من روعه..

- صه!.. إنه يخبرنا بوجوده!

كانا يحملان كيسين كبيرين من الفراء، وقد علم الفتى أن الأخ (ميانج) اختار الفراء ليحفظ حرارة محتوياته..

آثار أقدامهما على الثلوج مختلطة بآثار أخرى تختلف حجمًا وعمقًا.. لكنها تقترب من نفس الاتجاه الذي هما فيه يمشيان..

لم يسأل لأنه أدرك أن هذه الآثار تخص الشيء الذي يقصدانه...

تزداد العاصفة.. يتعثر الفتى أكثر من مرة..

وفي كل كبوة ينهض ليجد الأخ (ميانج) قد سبقه بعشرة أمتار، دون أن ينظر للوراء.. فينهض ويهرع ليلحق به لأنه حين تبدأ العاصفة فوق (الهيملايا)، يكون مدى الرؤية خمسة عشر مترًا لا غير، وليس الضياع في هذه الأصقاع مستحبًا كما لا بد أنك توافقنا..، ويصرخ الفتى بين عويل الرياح:

- أخ (ميانج)!.. انتظر!

- الـ (مي - جي) لا ينتظر..

- خطواتك واسعة..

- وقتي أضيق!

- البرد قارس..

- كذا أقدام الموتى!

وهنا يتردد الزئير من جديد.. وكأنما ضايقه شيء من التأخير في ميعاد مرتقب ينتظره بفارغ الصبر..

والآن يرتقى الأخ (ميانج) درجات جليدية عشوائية تصعد - فيما يبدو - إلى كهف تلتمع الثلوج المحيطة بمدخله، وهنا فقط يتوقف لينظر إلى الفتى.. صوت الرياح يصم الآذان، لكن صوت همسه الشبيه بالفحيح يخترق هذه الجلبة إلى أذني الفتى:

- تذكر ما أقول لك.. لا أسئلة.. لا تنظر إلى أي شيء.. لا تبد ذعرًا.. إننا ضيوفهم، والضيف مرغوب فيه ما لم يبد فضولًا زائدًا..

ابتلع الفتي ريقه وهز رأسه أن اعتمد علي.. وواصلا الصعود إلى مدخل الكهف..

وأمام الفتحة المظلمة صاح الأخ (ميانج) وهو يرفع يده اليمنى مبسوطة.. صاح كأنما يقرئ شيئًا ما السلام، ولم يكن الفتى يعرف هذه اللغة (لكنه عرف فيما بعد أنها إحدى لهجات قبائل [الأمادواس] التبتية)..

ثم إن الأخ (ميانج) انحنى في رقة وتبجيل، وأشار للفتى من طرف خفي أن يحذو حذوه..



والآن يرتقى الأخ (ميانج) درجات جليدية عشوائية تصعد ـ فيما يبدو ـ إلى كهف تلتمع الثلوج المحيطة بمدخله ..

ودخلا إلى الكهف الجليدي المظلم..
في البدء كانت الرائحة.. الرائحة الثقيلة الخانقة كالموت ذاته..
ثم كان البريق.. البريق الملتمع كجذوات من اللهب متناثرة في ظلام الكهف، ولم يلبث الفتى المذعور أن أدرك أن هذا هو بريق عشرات العيون النارية، المخلوقات تملأ المكان وتحيط بهما!
لم ير الفتي تفاصيلها لكنه تخيلها..
لا تنظر إلى أي شيء.. لا تبد ذعرًا..
ثم كان الخوار.. الخوار المترقب الغاضب المنذر بالويل..
لكنه تماسك.. إن الأخ (ميانج) يعرف ما يفعله دون شك.. ثم إنه (نافاراي).. والـ (نافاراي) لا يفقد أعصابه أبدًا..
والآن ينحني الأخ (ميانج) ليفرغ ما بجعبته على أرض الكهف الجليدية.. ويمد الفتى عنقه ليرى أفضل..
عشرات الجثث لأرانب وثعالب تنسكب من الجوالين على الأرض..
لم يكن الفتى قد رأى مشهدًا مماثلًا من قبل، ولم يكن الـ (نافاراي) يأكلون الحيوانات أو يقتلونها، أصابته الدهشة..
أما الأكثر غرابة فهو أن الأخ (ميانج) أخرج من حزامه قارورة ضخمة غريبة الشكل، ومد بها يده إلى أعلى في حركة إغراء للشاربين، ثم وضعها على الجليد وسط جثث الحيوانات..
ومرة أخرى رفع يده اليمنى مرددًا:
- يا هاتشو أوزوم مي - جي!
تلك العبارة التي فهم الفتى معناها بعد أيام.. (لقد بررت بوعدي أيها الـ (مي - جي)) ومعنى هذا انتهاء الزيارة..
لكن الوقت لم يحن لهذا بعد..

* * *

إن (الياتي) يسيطر على هضبة (التبت) سيطرة مطلقة برغم أن أحدًا لم يره إلا مصادفة..

* * *

شعر الفتي بأنفاس حارة كريهة تصطدم بجانب وجهه الأيسر كأنها تحرق جلده.. ابتلع ريقه وتماسك..
ثم شعر بشيء كالأصابع الغليظة يتحرك فوق شعره.. يجذب الضفيرة المميزة لرجال الـ (نافاراي) برفق.. ثم ينحدر نحو مؤخر عنقه مستكشفًا أو مداعبًا لا يدري بالضبط..
لم يجرؤ على إدارة رأسه حتى لا يستفزه من ناحية.. وحتى لا يرى ذلك الوجه المريع من ناحية أخرى.. الوجه الذي كان يتوقع بشاعته ودمامته، خاصة على بعد سنتيمترات قليلة..
ثم بدأ يسمع الحوار يتعالى ببطء.. ببطء..
لن أخاف.. لن أخاف.. سأظل ثابتًا..

نظر إلى الأخ (ميانج) - الذي يعرف دائمًا ما يفعله - فأثار قلقه تعبير التوجس والذعر المرتسم على وجهه. إذن فالأخ (ميانج) ليس واثقًا من نفسه إلى هذا الحد..

إذن فهناك شيء ما خطأ..!

لم تكن هذه الحركة الأخيرة في الحسبان كما هو واضح..

الخوار يتعالى..

عندئذ فقط انتابه الهلع البري غير القابل للتهدئة..

عندئذ فقط تراجع منتفضًا إلى الوراء وصرخ:

- أخ (ميانج)!.. افعل شيئًا!

وهنا فتح باب الجحيم..

خرجت ثعابين الغضب من جحورها، ورياح الحنق من كهوفها.. وتعالى الزئير من عشرات الحناجر.. وصار المكان كله بحرًا من الصراخ والهياج، كأنما كانوا ينتظرون هذه الحركة الدالة على نية العدوان..

تشبث الفتى بجسد الأخ (ميانج) ولف ذراعيه حول خصره ودفن رأسه في صدره وشرع يجهش بالبكاء..

لم يكن يرى شيئًا من حوله في الظلام لكنه كان يشعر بهم جميعًا، وكانوا غاضبين، وأحس بيد خشنة تحاول انتزاعه من الأخ (ميانج) فلم يزدد الأخير إلا تشبثًا به...

ووقف (ميانج) باسطًا ذراعه اليمني مرددًا كلمات ما.. محاولًا - حتمًا - تهدئة الجمع الثائر..

وأخيرًا تلاشى الصراخ، وساد جو من الترقب المشوب بالحذر من الآدميين والمخلوقات المحيطة بهما..

صامتًا أمسك الأخ (ميانج) كف الفتى أن اتبعني..

ودونما كلمة - ودون أن يدير أحدهما عينيه نحو المخرج - تراجعا بظهريهما.. ببطء.. ببطء..

الهواء البارد ورقائق الجليد تصطدم بوجهيهما..

لكن الفتى كان يشعر بالخلاص.. بنشوة النجاة... ولم يتوقع قط أن يتبعهما واحد من هذه الكائنات، لأنه أدرك أن هذه هي نهاية الموقف..

وبعد خطوات عدة التفت إلى الأخ (ميانج) متسائلًا.. لكن هذا ربت على كتفه في ثقة وإعزاز:

- كان هذا اختبارًا لثباتك أيتها (الزهرة الزرقاء).. وقد نجحت فيه..

- لكني أظهرت الرعب..

- لأنني أظهرت الرعب.. والرعب كالطاعون.. ما إن يصاب به واحد حتى يعم المدينة كلها..

ولعيني الكاهن الأخير البريئتين بدا الجبل الجليدي الموحش لغزًا مملوءًا بعلامات الاستفهام.. لكنه لغز من الخير ألا يقترب منه كثيرًا..

وتكررت رحلات الأخ (ميانج). إلى الكهف..

لكنه لم يصطحب معه (هن - تشو - كان) في تلك الرحلات.. بل أصطحب معه فتيانًا آخرين منهم (جينغ - تشا) خصم الفتى العتيد..

وأدرك (هن - تشو - كان) أن الأخ (ميانج) يحاول تعويد شباب (النافاراي) على هذه الخبرة المروعة، كما أنه يختبر ثباتهم وثقتهم بأنفسهم..

لكن الأسئلة لم تُحَل بعد..

ما هم هؤلاء - أو هذا - (المي - جي)؟.. ومن أين جاءوا؟
لماذا لم يذع سرهم في الدير؟.. ولماذا يتحمل (ميانج) مسئولية إطعامهم؟
.....
وتوجه بهذه الأسئلة إلى الأخ (ميانج):
فعرف أشياء كثيرة..
من هم (المي - جي؟):
لا أحد يعرف يقينًا..
من أين جاءوا؟:
لا أحد يعرف يقينًا..
لماذا لم يذع سرهم في الدير؟:
لا أحد يعرف يقينًا..
لماذا يتحمل (ميانج) مسئولية إطعامهم؟:
لأنه لابد من واحد يفعل ذلك.. ألا توافقني؟..
.....
كانت إجابات مفحمة، ولقد قضى الفتي شهورًا يلوك غيظه وينتظر ويتبادل الهمسات مع الرفاق..
إلى أن اجتاز الاختبارات التي تؤهله لدراسة (السارايانا) حين أراه الكاهن الأعظم كتاب (شوكارا) وأخبره أنه سر أسرار الـ (نافاراي)...
عندئذ فقط صار من حقه إذا سأل أن يتلقى إجابات.. وهذه الإجابات واضحة لا تمت بصلة لأسلوب الأخ (ميانج) الحكيم المتحذلق المليء بالغموض..
ولقد عرف الفتى أن الـ (مي - جي) هم كائنات غريبة تمت للإنسان بصلة شبه، تعيش في جبال المنطقة وكهوفها.. وأنها - في الغالب - مسالمة إلا إذا تم استفزازها أو تجويعها..
عندئذ لا داعي للحديث عن خطورتها حين تهاجم القرى وتخطف النساء والأطفال..
ولذلك يقوم الأخ (ميانج) بزيارات تطوعية إلى الكهوف التي تعيش فيها هذه الكائنات، ليقدم لها نوعًا من القرابين أو الإتاوات مكونة من الحيوانات الصغيرة التي تنتزع الكائنات أحشاءها قبل أكلها..
كما يقدم لها شرابًا تم إعداده بعناية يكفل تهدئة غضبها لفترة شهرين أو ثلاثة مما يقي القرى التبتية القريبة من خطر جوعها وثوراتها. وقد أدمن الـ (مي - جي) هذا الشراب..
وعرف (هن - تشو - كان) أن طريقة إعداد هذا الشراب مذكورة في كتاب الـ (شوكارا) الذي هو بمثابة مرجع الـ (نافاراي) الأساسي في شئون حياتهم..
عرف كذلك أن هناك جماجم بل مومياوات كاملة للـ (مي - جي) في أديرة (التبت)، لكنها سر لا يذاع بسبب إيمانهم بأن لهذه الكائنات قوى شيطانية، وليس العبث بها مستحبًا..
أما لماذا يتم الحوار معها بلهجة قبائل (الأمادواس) فلأن هذه القبائل البدوية المحاربة ذات باع طويل في معرفة الـ (مي - جي).. وهم يفترضون أن هذه الكائنات تفهم هذه اللهجة إلى حد ما..
كان السؤال الأخير الذي سأله الكاهن الأخير للأخ (ميانج) مباشرًا أكثر من اللازم:
- منذ متى هم هنا؟
- قبل أن يولد أجداد أجدادنا..

- ومن أين جاءوا..

ببطء ارتفع إصبع الأخ (ميانج) فتابعته عينا الفتى يتجه لأعلى.. لأعلى.. لأعلى.. حتى أشار إلى النجوم المتلألئة في السماء المظلمة.. وبرفق غمغم:

-.. من هناك؟!

* * *

٤ - الرجل الذي يعرف أكثر..

كنا قد عدنا إلى لحظتنا الحالية.. العام ١٩٦٧.. بداية الخريف.. شقتي بالدقي.. الكاهن الأخير يضع سماعة الهاتف ووجهه ممتقع..

- ماذا دهاك بالضبط؟

- قد عاد الـ (مي - جي)!

هرشت صلعتي في حيرة، وخلعت حذائي لأتمكن من تمديد ساقي على الأريكة المقابلة.. وطويت الجريدة لأضعها جانبًا...

- لحظة يا بني.. هل وردت كلمة هذا الـ (ميكي) فيما قرأته لك؟ أم أن هذا معنى لفظة (ياتي) بلغتكم؟

في كبرياء هز شعره.. وصحح لي اللفظ:

- (مي - جي) لا (ميكي).. وهو اسم الـ (يأتي) بالمنغولية.. (ميتي).. (كانج ماي).. كلها تعني ذات الشيء..

- وهل يعني هذا أنه قد رحل ليعود؟

- لقد كان دائمًا هناك لكني نسيته..

- ومن كنت تكلم بالهاتف؟

نظر للهاتف في شرود.. وغمغم:

- السفارة الصينية.. طلبت منهم معلومات عن هذه القصة أكثر مما جاء بجريدتكم..

وكأنما كان الهاتف ينتظر هذه الإشارة؛ انفجر يصرخ مناديًا من ينقذه من فيضان الأصوات المحتشد به.. رفع (هن - تشو - كان) السماعة، وبدأ حديثًا طويلًا مع الطرف الآخر يقطعه بهمهمات موافقة أو استفسار.. ثم أشار لي طالبًا قلمًا، فناولته إياه ليكتب شيئًا ما على طرف الجريدة.. ووضع السماعة قائلًا:

- لقد أعطاني عنوان أستاذ نرويجي موجود حاليًا في (جمهورية الصين الشعبية).. ويقول إنه يحاول مع فريق عمل من الصينيين البحث عن مواطنيه، وطلب مني أن أتصل به إذا كنت أرغب في معرفة أكثر..

ثم سألني وهو يمسك بـ (بلوك نوت) وجده على المكتب:

- هل تجيد النرويجية؟!

- ليس أسوأ من إجادتك للسواحلية.

- إذن خذ واكتب بالإنجليزية.. قل له إنني نشأت في (التبت) وأعرف الكثير مما يهمه أمره بخصوص الـ (ياتي).. قل له أن يحاول منحى فرصة، لأن اعتباري نصابًا أو هاوي شهرة لن يفيده كثيرًا.. إن سعة الأفق هي ما يحتاج إليه.. قل له كذلك أن يحدد أسلوب ووقت اللقاء إذا رغب فيه..

- اسمعني يا فتى.. أنا لا أفهم..

- اكتب فقط ما أقول لك..

ثم إنه تناول مني مظروفًا وخط عليه بقلمه بعض الكلمات بتلك النقوش الصينية التي رسمها على حافة الجريدة، ثم ناولني إياه طالبًا مني أن أرسله له على وجه السرعة إلى (الصين)..

يا لك من معتوه!

لو أن هذا الخطاب العجيب وصل - ومن المستحيل أن يصل - فلن يحدث هذا قبل ستة شهور على الأقل، يكون الأخ (مي - جي) قد افترس فيها الأستاذ النرويجي، أو على الأقل يكون هذا الأخير قد عاد لوطنه بسلامة الله..!

خطاب للصين؟!.. هل سمع أحد عن شيء كهذا؟

* * *



ثم إنه تناول منى مظروفًا وخطّ عليه بقلمه بعض الكلمات بتلك النقوش الصينية التى رسمها على حافة الجريدة ..

لكن الفتى كان أكثر حظًا مما توقعت..
فبعد شهر وثمانية أيام، وجدت في صندوق خطاباتي مظروفًا عليه طابع بريد يمثل (ماو - تسي - تونج) في استعراض عسكري بمناسبة ما.. فلم أتمالك نفسي أن فتحت المظروف وقلبي يخفق كالطبل، غير عابئ بقواعد اللياقة التي تحتم ألا يفتح الخطاب سوى المرسل إليه.. إن الفتي لا يعرف هذه القواعد الحضارية، وعلى كل حال هو سيعطيني الخطاب لأترجمه له حتمًا لأنه لا يفهم حرفًا من اللغة الإنجليزية..
كان الخطاب يقول:

عزيزي مستر (هن - تشو - كان):
وصلني خطابك في الأسابيع الأخيرة من إقامتي في بلدكم الجميل العريق.. وللأسف بعد حملة فاشلة بحثًا عن مستكشفينا الذين فقدناهم في منطقة (منولنج). وثمة أشياء في خطابك استرعت اهتمامي بالإضافة إلى لغتك الإنجليزية الراقية (!!)..
وإن كنت أتساءل عن سبب عدم استخدامك للقنوات الدبلوماسية العادية ما دمت تعمل في سفارة بلدكم في (مصر).. أعتقد وأنت توافقني أن الاتصال بهذه الوسائل سيكون أسرع وأفضل.
على كل حال يسعدني أن أعرف ما تستطيع إضافته إلى هذه المأساة، وبما أنني عائد إلى (النرويج) خلال أيام؛ أرجو أن تراسلني على العنوان التالي (.....)

بإخلاصي..
بروفسير: بيورن أوليفس

كانت لهجة الخطاب مهذبة لكنها جافة متحفظة تقول برقة: أنت نصاب أو مخبول يا سيدي الفاضل..!
على كل حال لن يلاحظ (هن - تشو - كان) شيئًا من ذلك.. بقي أن أتصل به لأعرف ما هو بالضبط ذلك (الكثير الذي يهم النرويجي أمره) و (ما يستطيع إضافته إلى هذه المأساة)..
وفي تلك الليلة جاءني ليسرد علي بالتفصيل ما يدور بخلده.. وكان ما قاله غريبًا.. غريبًا على مسمعي أنا الذي لم يعد شيء قادرًا على إثارة دهشتي..

* * *

القاهرة في أكتوبر ١٩٦٧
البروفسير / بيورن أوليفس المحترم
وصلني اليوم خطابك شديد التهذيب والرقي، وإنني لشاكر لك اهتمامك بالأمر، وإن وشت لهجة الخطاب بالشك في جدوى الأمر كله..
والواقع - سيدي - أن ما سأقدمه لك لكفيل بإثارة اهتمامك، فأنا نشأت في (التبت) وأنتمي أصلًا إلى إحدى فصائل قبيلة الـ (شيربا) التي حطت رحالها في المكان الذي صار قريتي فيما بعد. وذلك قبل أن تنزح (الشيربا) إلى (نيبال)[2].

كما أنني تلقيت تربية خاصة في أحد الأديرة وأعرف شيئًا عن رجل الثلوج أو (الياتي) كما يسمونه منذ عام ١٨٣٨ أو الـ (مي - جي) كما اعتدنا نحن أن نسميه.

إن الرهبان في (التبت) متحفظون لا يتكلمون إلا بمقدار. لكني أعرف أنهم يملكون الكثير مما يمكن قوله عن رجل الثلوج الغامض هذا ومزاجه المتقلب، ويعرفون بدقة متى يستطيعون التنبؤ بثوراته وسبب هذه الثورات.

إنني واثق أن واحدًا أو اثنين من رجالكم ما زال على قيد الحياة وأعرف بالتحديد أن (الياتي) هاجم الثلاثة المستكشفين في مخيمهم، بل وأعتقد أنني أعرف مكان هذا - أو هذين - الناجي أو الناجيين.

تسألني عن السبب يا سيدي..

سأقول لك - وأرجو أن تصدقني - إننا نملك شفافية خاصة تجعل من الرؤى التي نراها نوعًا من (الاستقبال فائق الحس)، ولا أدري ما إذا كان ما رأيته إرسالًا من (الياتي) أم من رجلكم.. كل ما أعرفه هو أن المستكشف وحيد جائع في كهف مظلم، وهو لم يمت بعد حتى هذه اللحظة..

ولأؤكد كلامي أكثر؛ أقول لك إن هذا الرجل أشقر.. له زوجة تدعى (نورا) وطفل اسمه (كرست) وهو يفكر فيهما طوال الوقت، وكنت أرى هذه الرؤيا مرارًا في الشهور القليلة الماضية، لكني لم أر لها دلالة ما حتى قرأت خبر الحملة المنكوبة في إحدى الجرائد المصرية، عندئذ ربطت دون جهد ما بين الحدثين..

سيدي..

أعتقد أنك تستطيع التأكد من هذه الجزئية دون عناء.. وعندها يمكننا أن نواصل الحديث عما يمكن عمله لإنقاذ هذا البائس أو هذين البائسين..

وأنا في انتظار ردك على السفارة الخاصة بجمهورية (الصين الشعبية).

المخلص: (هن - تشو - كان)

* * *

بعد أسبوعين وصل الرد...

كان البروفسير النرويجي موشكًا على الجنون وقد تبدت لهفته حتى في الخط الذي كتب به العنوان..

وطبعًا أحضر الكاهن الأخير الخطاب لي لأترجمه له..

عزيزي مستر (هن - تشو - كان)

كان من المذهل بالنسبة لي أن أتأكد من المعلومة التي ذكرتها في خطابك، وواضح أنك كنت تتحدث عن (إينار أنسلن) قائد المجموعة، وهو جيولوجي في الأربعين من عمره تنطبق عليه المواصفات تمامًا.

ومن الغريب هنا أن امرأته تعاني من رؤى مماثلة في الآونة الأخيرة مما يوحي بأن (أنسلن) هو مورد خصب للإشعاع فائق الحس..

والحق أقول لك إنني لا أومن كثيرًا بموضوع الإدراك فائق الحس (E.S.P)، لكن الحقائق تقول إنه موجود وإنه فعّال..

والآن نتحدث عن خطتنا المزمعة..
من المصادفة أنني قادم إلى القاهرة في منتصف شهر (نوفمبر) ضيفًا على أحد المؤتمرات الجيولوجية، وستكون هذه فرصة جيدة للقائنا ومناقشة ترتيبات إنقاذ رجلنا الذي تؤكد أنت أنه لم يمت بعد.
ستكون إقامتي في فندق (.....) ويمكننا أن نلتقي في الساعة الخامسة عصر أي يوم حتى نهاية (نوفمبر).

بإخلاصي..
بروفسير / بيورن أوليفس

ما أن أنهيت تلاوة الخطاب حتى رفعت عيني نحو (هن - تشو - كان) متسائلًا في حيرة:
- ما الذي تنتويه بالضبط؟
- إنقاذ المستكشف طبعًا ما دمت أستطيع..
- وهل ستسافر إلى (التبت)؟
- طبعًا.. فأنا أعرف أين وكيف أجد الـ (مي - جي)
- وتكاليف السفر؟.. هل سيتحملها النرويجي؟
- هذا ما سنعرفه حين يجيء..
هرشت رأسي في حيرة ووضعت القلم - كسيجارة وهمية - بين أسناني، وسألته:
- هل ستعود لوطنك بعد كل هذه الأعوام، وكل هذه الظروف؟ لنفرض أن أمرك افتضح؟
مد يديه إلى جانبيه وهز رأسه بمعنى الخواء:
- لم يعد هناك (نافاراي).. لا أحد يعرف الـ (نافاراي).. أنا اليوم مواطن صيني كأي مواطن آخر..
- وماذا عن كتاب الـ (شوكارا)؟.. هل ستأخذه معك؟
- (هن - تشو - كان) لن يفارق الـ (شوكارا) أبدًا..
كنت قد نصحته أكثر من مرة بعمل نسخة زنكوغرافية لهذا الكتاب خاصة وأنه كان قد بدأ يهترئ.. لكنه رفض رفضًا باتًا خاصة وهو لا يثق بأحد يرى صفحات هذا الكتاب.. وعبثًا حاولت إقناعه أن من يرى الكتاب المكتوب بلغة (التبت) القديمة لن يفهم حرفًا، لكنه كان مرتابًا ويعتقد أن الحظ العاثر سيجعله يتعامل مع الرجل الوحيد الذي يعرف تلك اللغة في العالم حتى ولو كان هذا الرجل من (بولاق).
نظرت له في ثبات.. ثم غمغمت دونما مناسبة ظاهرة:
- يجب أن تتزوج يا (هن - تشو - كان)..
- أتزوج؟.. لماذا؟
- لأنك أنت آخر (نافاراي) على وجه الأرض.. ومن بعدك لن يكون هناك آخرون.. ولن يستفيد أحد من كتابك هذا..
هز رأسه في عصبية كأنما ليطرد الفكرة من ذهنه:
- زواج.. مستحيل!.. الـ (نافاراي) إذا تزوج لا يعود كذلك..

نعم.. أنا أفهم هذا.. الموظف الشريف يظل كذلك حتى يحصل على أول رشوة.. جهاز المذياع الجديد يظل كذلك حتى تصلحه أول مرة..

هو (نافاراي) في كل شيء ولا يريد إفساد (نافارايته) بالزواج..

لكني أتمنى على الأقل لو أنه لقن خبراته لأجيال من بعده حتى لا يموت هذا العالم الجميل النبيل.. عالم الـ (نافاراي)..

أشار لي (هن - تشو - كان) متسائلًا:

- وأنت؟.. هل تأتي معي؟

إلى الـ (تبت)؟.. لأطارد رجل الثلوج فوق الجبال الجليدية؟.. مستحيل يا فتى.. إن (رفعت إسماعيل) عجوز مجنون لكن ليس إلى هذا الحد.. لم أعد قادرًا على صعود سلم داري دون أن تمزق صدري خناجر الذبحة الصدرية، وأنت تريد مني أن أصعد جبال (الهيملايا)؟!..

* * *

طيلة الليالي التالية كان نومي كنوم (النابغة) الذي (فرشت له العاديات هراسًا به يُعلى فراشه ويقشب)..

لا أدري ما هو دخلي بهذه القصة، لكن الـ (مي - جي) وإخوانه ظلوا يترددون على شقتي كل ليلة، ويفتحون باب حجرة النوم مكشرين عن أنيابهم الصفراء الحادة والثلوج تتساقط من فرائهم - أو لعله شعرهم - فتذوب على أرض الصالة تاركة بقعًا كبيرة من الماء و...

لقد فسد (فريزر) ثلاجتي من جديد.. ذكروني أن أصلحه إذا ظللت حيًا حتى الصباح، ولم يفترسني الـ (مي - جي) بعد انتزاع أحشائي..

وحين أنّ جرس الهاتف في ذلك اليوم كنت أعرف أنه (هن - تشو - كان) وكنت أعرف بالتحديد ما سيقول:

- د. (رفعت).. انا ذاهب للقاء البروفسير (أوليفس) الآن وأرغب في أن تقوم بالترجمة لحوارنا..

- لكن نوم العصر مهم عندي كما تعـ..!..

كانت رنة صوته عصبية شرسة هذه المرة وهو يقول:

- لم يعد هناك وقت نضيعه.. إن الأمور تقترب من النهاية في (منولنج).. أنا واثق من هذا..!

* * *

٥ - الرحيل..

لم يكن البروفسير (بيورن أوليفس) يختلف عن مواطنيه..

دع أي واحد من الشعوب الإسكندنافية يطيل لحيته الشقراء ويفقد بعض الشعر من مقدمة رأسه ويرتدى المنظار، وعندئذ سيكون هو ذلك الرجل.. وإنني لأسائل نفسي عن سبب التباين في وجوه المصريين على عكس الزنوج الذين يبدون كلهم زنوجًا.. والصفر الذين يبدون كلهم صفرًا.. والبيض الذين يتشابهون جميعًا..

قاعة الاستقبال بالفندق الفاخر..

موسيقا هادئة تتسرب من مكان ما.. نفس المكان الغامض الذي تجيء منه تلك الرائحة العطرة ودخان التبغ..

سأحاول أن أكون مختصرًا في وصف المقابلة، لكن دعني أكرر أن نصيبي منها كان التجاهل التام لشخصي لأن النرويجي - قاتله الله - ركز كل همه على معرفة كل ما يمكن معرفته من (هن - تشو - كان)، واعتبرني مجرد جهاز ترجمة بلا إحساس ولا وعي..

في البدء كانت كلمات التعارف.. ثم بدأ الحديث في (الأعمال) كما قال هو، وكان أول الغيث قطرة..

قال لنا البروفسير (أوليفس) وهو يقلب السكر في قدحه:

- إن ما تعرفه عن (الياتي) يا مستر (هن – تشو) هو أعمق بالتأكيد وأدق من معلومات أي أوروبي..

- أظن هذا..

هكذا قال (هن - تشو) بالعربية فترجمتها للإنجليزية، وسأغفل ذكر دور الترجمة من الآن فصاعدًا، حتى لا أفسد سياق الحديث...

- إن معلوماتنا عن الـ (ياتي) محدودة جدًا.. أعتقد أن أول من سمع كلمة (ياتي) في العالم الغربي هو كولونيل (وادل) البريطاني الذي كان يعمل بالجيش الهندي.. وقد قابله - كما زعم - على ارتفاع خمسة كيلومترات بمنطقة (سيكيم)..، بعد هذا تكررت القصص المتشابهة لعل أشهرها قصة مواطني عالم النباتات (هنريك ألواسي)، الذي شاهد ذات المخلوق، بعد هذا تأتي محاولات البريطاني (ايريك شيسون)، والهندي (تومبازي)، والإنجليزي (هوارد يوري)..

كلهم رأوا آثار الأقدام العملاقة على الجليد...

منهم من قابله شخصيًا أو زعم ذلك..

وكلهم أجمعوا على أنه مخلوق عملاق أقرب للقرد مكسو بالشعر، يسير على قدمين، وطوله يناهز الثلاثة أمتار والنصف..

لقد حاول علماء (الأنثروبولوجي) في العالم كله البحث عن حقيقة هذا المخلوق.. في عام ١٩٥٤ حاول البريطانيون البحث عنه.. ثم حاول رجال البترول من (تكساس) ذلك عام ١٩٥٨.. حتى السوفييت حاولوا في عام ١٩٦٢، لكن الجميع لم يجدوا سوى آثار أقدام تؤكد أن هناك (شيئًا ما).. وهذا الشيء يقترب كثيرًا من سمات إنسان (نياندرتال) التشريحية، لكنه بالتأكيد ليس هو..

والمؤكد الآن أن مكان هذا الشيء هو في جبال (الهيملايا) وجبال (البامير) و (منغوليا)..
هذا اللغز الحي يجول تاركًا آلاف علامات الاستفهام خلفه.. ومعها جثث عاثري الحظ الذين يتصادف أن يقابلوه..



وكلهم أجمعوا على أنه مخلوق عملاق أقرب للقرد مكسو بالشعر ،

يسير على قدمين ، وطوله يناهز الثلاثة أمتار والنصف ..

ثم إنه وضع القدح جانبًا وضغط عينيه من تحت المنظار في إنهاك، وأردف:
- يجب أن أضيف هنا أن رجل الثلوج ليس مقصورًا على (التبت) فقط.. فهناك - في الولايات المتحدة - رجل ثلوج خاص بهم في الشمال قرب الحدود الكندية ويسمونه (الساسكواش).. لقد كان كل شعب من شعوب النصف الشمالي من الكرة الأرضية يملك واحدًا، ولعل هذا دليل آخر على وجود أساس لهذه الأسطورة..
مرة أخرى أسمع عبارات د. (رتشارد كامنجز) التي قالها لي وهو يحدثني عن (دراكيولا) يومًا ما في عام ١٩٥٩.. كان ذلك من ثمانية أعوام عرفت الكثير فيها، وتعلمت خبرات مروعة.. لكن القاعدة ما زالت سارية.. إذا تحدث الناس عن المذءوبين فاعلم أن هناك أساسًا لكلامهم.. ربما كان المذءوبون موجودين حقيقة، وربما كان هو مرض (البروفيريا).. لكن لا دخان دون نار ولا بد من سبب لانتشار أسطورة ما..
ومط البروفسير عنقه الطويل نحو (هن - تشو - كان) وسأله:
- لقد صدر كتاب تشريح في (بكين) منذ مائتي سنة يظهر رسوما دقيقة جدًا لهذا الكائن.. هل عندك فكرة عنه؟
- للأسف لا.. لكني أعرف أن مومياءه محفوظة في عدد من أديرة (التبت) لكن لا يسمح لأحد بالاطلاع عليها..
- والآن يا مستر (هن - تشو).. هلا أخبرتني بما تعرف؟

* * *

بدأ الكاهن الأخير يحكي..
كان حذرًا في سرد قصته فلم يذكر تفاصيل حول نشأته أو مذهب الـ (نافاراي)، ولكنه تحدث عن الأسطورة بشكل عام، وقال إن هناك ما يدعوه للاعتقاد بأنه قادر على الوصول إلى مكان تجمع هذه الوحوش، وبالتالي المكان المنتظر العثور على المستكشف فيه..
وكانت هذه هي نقطة المحادثة الأساسية..
- والآن يا مستر (هن - تشو) - قالها البروفسير في كياسة - هل تعتقد بإمكانية مرافقتي في حملة جديدة على نفقة الحكومة النرويجية لمواصلة ما كنا بدأناه؟
- بالتأكيد...
وتم الاتفاق على أن يكون السفر يوم ١ ديسمبر.. وأن يقوم (هن - تشو) بإنهاء الإجراءات الإدارية والحصول على موافقة حكومة (جمهورية الصين الشعبية) على الرحلة[3].
- إن (نورا) زوجة المستكشف ستكون معنا..
- ماذا؟.. وهل ستأتي من (النرويج)؟
- إنها موجودة في (الصين) منذ شهور!

* * *

مساء يوم 30 نوفمبر، توجهت إلى (المرج) لأزور (هن - تشو - كان) للمرة الأولى (ولربما الأخيرة)..

كانت الشقة مملوءة بالزخارف الصينية والنقوش والتنانين المتلوية في كل مكان.. على الجدران.. في مطفأة السجائر.. على الستائر..

وفي الجو تنتشر رائحة البخور.. الخلاصة أن الفتى حول شقته إلى أحد المعابد البوذية كئيبة المنظر..

كان يحزم حقائبه، وفي صوته رعدة لم أخطئ تبينها.. وفي عينيه حيرة وذهول وارتباك.. أنا أعرف سبب هذا..

إن قلبه واجف من هيبة اللقاء..

غدًا يعود إلى وطنه، ويرى ثلوج (التبت) والقرى والفلاحين البسطاء الذين يرعون حيوان (الياك) ويحتسون الشاي بالزبد..

وطنه الذي لم يره منذ.. منذ عشرة أعوام إذا أخذنا بالظاهر.. ومنذ خمسة قرون إذا توخينا الدقة..!

قال لي مبتلعًا ريقه، وهو يدس جواربه في الحقيبة:

- غريب هذا.. لقد كان الصينيون هم أعدائي الطبيعيون، واليوم أعود ضيفهم، بل وأتظاهر بأنني واحد منهم..، هذه المرة لن أجد معابد الـ (نافاراي) ولا أديرة الجبل.. ولن أقابل الأخ (ميانج).. لقد اندثر كل ما كان يربطني بتلك الأرض..

وأدار وجهه فأدركت أنه يداري دمعة.. فاحترمت مشاعره وتظاهرت بأنني لم ألاحظ شيئًا..

سأفتقدك كثيرًا أيها الكاهن الأخير..

حقًا سأفتقدك..

- وهل ستعود؟

- بالتأكيد - ما لم أمت - فهذا البلد هو وطني الحالي.. الوطن هو حيث يوجد أحبابي، وأنا لا أعرف أحبابًا في (الصين)..

فتحت حقيبتي وأخرجت منها بضعة أشياء أردت منه أن يحملها معه هناك..

الشيء الأول هو كاميرا صغيرة مزودة بفلاش لتتيح له تصوير هذا المخلوق إذا استطاع.. وشرحت له بسرعة كيف يستعملها..

الشيء الثاني هو سلسلة صغيرة اعتدت أن أحملها معي ظانًا أنها تجلب لي الحظ، فلم لا يجربها هو الآخر؟

الشيء الثالث هو صورة طلبت منه أن يدفنها تحت ثلوج (الهيملايا) في أنأى أطراف الأرض، ولو كان ذاهبًا للقطب الشمالي لطلبت منه نفس الشيء..

كانت هذه الصورة صورة (هويدا)..

* * *

وهكذا... سافر الكاهن الأخير مع الأستاذ النرويجي، وبقيت أنا غارقًا في مشاكلي اليومية.. بين محاولة الإقلاع عن التدخين، وبين خطبتي التي وجدت أن الحل الأمثل هو إنهاؤها برغم محاولات

الإصلاح من رسل الخير مثل (عادل) و(سهام)..

مشكلة هذه الزيجات التي يتوسط فيها الأصدقاء هي أن التخلي عنها يسبب حرجًا للجميع..، على أنني لم أظلم (هويدا).. هي التي بالغت كثيرًا جدًا في عصبيتها وحساسيتها إلى حد أحال الحياة جحيمًا.. ولئن كانت الخطبة قد فشلت لأنها مدللة متقلبة أو لأنني كهل أصلع غريب الأطوار فالنتيجة واحدة..

لقد تلاشى الطفل الذي كنا سنرزق به يومًا ما، ويحمل نصف كروموسوماتي ونصف كروموسوماتها.. والعلاقة التي كانت (نحن) قد صارت (أنا وأنت) ثم (هو وهي) أخيرًا..

وفي حفل عائلي بهيج تم انتزاع الدبلتين وإعادة الهدايا - هداياها لي فقط طبعًا - مع بعض الكلمات المتحضرة عن (النصيب) و (الصداقة التي هي أفضل من كل شيء)..

لو عرفت أمي لقتلتني..!..

أقول إنني ذبت في هذه السخافات حتى أذني، وبدا لي عالم الـ (مي - جي) وزئيره وجبال (التبت) شيئًا بعيدًا جدًا وباهتًا..

وقد بدأ العام ١٩٦٨ بداية باردة بلا نكهة..

ترى ماذا تفعل الآن يا (هن - تشو - كان)؟..

سأتركه يحكي لكم الصفحات التالية، ولكنني احتفظ لنفسي بحق التعليق في النهاية.. كما أحتفظ بحق صياغة حكايته بأسلوبي أنا..

ذكروني - قبل أن أفارقكم - بإصلاح (فريزر) ثلاجتي لأنه يملأ عالمي ببقع الماء..!

* * *

الجزء الثاني
احترسوا من الـ (مي - جي)!

إنه في كل مكان.. خلف كل هضبة.. ووراء كل منحنى جليدي.. وفي قلب كل كهف..، نسمع صوت زئيره الجشع.. ونشم أنفاسه العفنة.. ونرى آثار قدميه الهائلتين.. ونتوقع الأسوأ..!
ستكون حسرة لنا لو لم نره.. وستكون نهايتنا إذا رأيناه!..

١ - عند سقف العالم..

قال (هن - تشو - كان):
كانت العودة إلى (التبت) أليمة..
صحيح أنها كانت محببة للنفس.. لكنها أليمة..
أن يعود الابن لدار. أبيه الذي يعرف أنه مات..
وحين رأيت (التبت) لأول مرة، عرفت أنني لن أظل هناك.. وعرفت أنني لم أعد أنتمى لشيء إلا لبعض حيوانات (الياك) وربما لمن تبقى من الـ (مي - جي) أنفسهم..

* * *

الريح تزأر كعهدها..
والثلوج تهوي في رفق لتدهن الجبل باللون الأبيض..
في هذه المرة لم أكن أرتدي ثياب الـ (نافاراي) الزرقاء، ولم يكن معي أحد ليدربني.. بل كنت أرتدي ثيابًا عصرية مبطنة بالفراء، وأضع منظار الجليد وأعلق في صدري منظارًا مقربًا..
وإلى جواري كان البروفسير (بيورن أوليفس) والزوجة النرويجية المكلومة (نورا)، وثلاثة حمالين من قبائل (شيربا) النيبالية، إنهم من قومي لكن خمسة قرون تفصل بيني وبينهم... ولا يمكن أن يعرفوني ولو حاولوا، وكان معنا واحد منهم يجيد الترجمة من الإنجليزية للصينية والعكس..
كتاب (شوكارا) مغلف بكيس من المشمع ومربوط بعناية إلى خصري من تحت الثياب الثقيلة..
كنا نتجه عبر الممرات الجليدية الوعرة في (منولنج) بادئين بالمكان الذي وجدوا فيه الخيمة الممزقة، متجهين إلى الكهف الذي جئته يومًا مع الأخ (ميانج) لنقدم للـ (مي - جي) وجبته..
أذكر أننا كنا نرتقى هذه الهضبة، وندور حول ذلك الجرف الجليدي ثم... للأسف تغيرت أشياء كثيرة.. لم يعد شيء كما كان..
لا توجد علامات مميزة وسط هذه الثلوج يمكن الاسترشاد بها..
اقترب مني البروفسير وهمس في قلق:
- ماذا حدث؟
- اختلطت علي الطرق.. لا أستطيع العودة إلى الكهف..
- إذن؟
- فلنعتمد على الحدس.. التخمين.. فلنتأمل.
تبادل هو والزوجة نظرة لم ادر مغزاها.. هل هي نظرة سخرية أم شيء آخر.. ثم تنهد ونزع جربنديته وألقاها أرضًا وجلس فوقها:
- ليكن.. تأمل ما يحلو لك!
نظرت إليه لوهلة، ثم إنني أدرت ظهري.. وشرعت أمشي بين الكتل الجليدية الغافية في ضوء الشمس الباهت.. أمشي إلى أن بلغت مساحة خاوية لا يراني فيها أحد..
التحية لكم يا رجال الـ (نافاراي).. أنا الزهرة الزرقاء قد عدت لأقرئكم السلام.. هل تذكرونني؟

* * *

إننا ضيوفهم.. والضيف مرغوب فيه ما لم يبد فضولًا زائدًا..

* * *

إنها الـ (نيرفانا)..
هأنذا أذوب في الوجود ويذوب الوجود في..
أنفصل بالتدريج عن حقائق الحياة وعن مادياتها، فلا يعود في ذهني سوى مجرى نهر صاف يتلألأ في ضوء الشمس.. أنا هذا النهر.. أنا قديم كالأزل، راسخ كالجبال، سخي كالأمطار..
ها هي ذي الرؤيا تتشكل..
ببطء.. ببطء..
أري كهفًا مملوءًا بالجمرات المتقدة التي هي عيون الـ (مي - جي)..
أرى الأخ (ميانج) يقرئهم السلام، ويسكب جواله على الأرض فتتناثر جثث الحيوانات الصغيرة..
أراني صغير السن ناحل الجسد، أتأمل في رعب ما يحدث وأرتجف.. ثم.. النهر يتفرع ويتخذ مجرى جديدًا..
هذا الرأس الأشقر.. إنني أعرفه.. إنه هو النرويجي (أنسلن) وقد هزل جسده وتساقط شعر لحيته من فرط المعاناة.. لكنه ليس حيًا!..
رقبته مهشمة تقريبًا، والموت يطل من عينيه الذابلتين، لكنه يرفع رأسه ويقول لي وهو يتأرجح:
- تأخرتم كثيرًا جدًا.. لقد فات الأوان!
- ولكن أين أنت؟
يغمض عينيه في إنهاك ويقول وقد جفت شفتاه:
- لقد قتلوني كأرنب بري..
- هذا واضح.. ولكن أين أنت؟
- دفنوني تحت الثلوج في مكان ما.. حتى أنا لا أعرف كيف أحدده..
الرؤيا تتلاشى قبل أن أتمكن من معرفة أكثر..
العالم المادي الوقح يقتحم خدر عالم التأمل الشفاف الحاني..، عندئذ أنهض عائدًا إلى حيث تنتظر المجموعة.. فيسألني البروفسير في فتور:
- هيه؟.. هل حققت شيئًا؟
فأمد يدي إلى ذراعه وأجذبه بعيدًا عن الأسماع (أنا أعرف أن المرأة لا تجيد الإنجليزية لكن واجب الحذر يملي علي ذلك)، وأقول له بإنجليزيتي الكسيحة الطفلة:
- أعتقد أن الأمر انتهى..
قال لي مزمجرًا:
- اسمعني يا بني.. لو أنك مصمم على استعمال الإنجليزية وأنا مصمم على استعمال الصينية، فإن حملتنا هذه ستنتهي دون أن يفهم أحدنا حرفًا مما يقول الآخر..!

حركت يدي لتساعد فمي على الكلام...
- أعتقد أن.. (أنسلن).. انتهى..
- تعني أنه مات؟
- حتمًا..
أطلق عبارة ما أظن أنها نوع من السباب، وبصق على الأرض الجليدية.. رذاذ البصقة تجمد على حذائه وأطراف سترته:
- أنت (تحدس) ذلك طبعًا.. لكن لا دليل..
- إن حدسي هو.. دليل كاف..
نظر حوله في تؤدة.. ثم أمسك ذراعي وهتف:
- إذن لا تذع النبأ.. إن امرأته مرهفة الحس كما تعلم، ومن واجبنا مواصلة حملتنا البائسة هذه حتى نعود به أو بجثته..
عليك إذن أن تستمر..
وهكذا واصلنا المسير..
أحيانًا كنا ننصب خيامنا لنقضي الليل.. ثم ننهض في الصباح مواصلين مسيرتنا وسط الطرق الثلجية الوعرة، وكلما وجدنا كهفًا كنت أنفصل عن أحد الحمالين وأصعد لاستكشافه ثم أعود - دائمًا أعود - بخفي حنين..
لا مستكشفين مفقودين.. لا آثار أقدام.. لا (مي - جي)..

* * *

و لكن الإحساس بوجوده كان قويًا.. رائحته في الجو.. وزمجرته تكاد تثقب أسماعنا..
إنه ذلك الشعور العصبي الذي يراود مرتادي الثلوج، إن هناك من يراقبك طيلة الوقت ومن يدري؟.. لربما كان شعورًا صادقًا..
أحيانًا كانت المرأة تنادي بصوتها الرفيع:
- (أنسلن)!.. أنا (نورا)!
فيردده الصدى ملايين المرات:
-را.. را.. را.. را..!
محدثًا ذلك الشعور الموحش المثير للانقباض.. وتهوي قطعة جليدية من أعلى الجبل لتتهشم عند أقدامنا..
يقولون إن الجليد مرعب.. ويقولون إن الصحراء مفزعة.. فماذا عساهم يقولون عن الصحارى الجليدية؟.. أنا قد نشأت في هذه الأصقاع، وقد اعتدتها كبيتي.. ولكن ماذا عن هؤلاء الغرباء الذين لقوا حتفهم هنا؟..

* * *

فجأة صاح أحد الحمالين مناديًا إياي لأرى شيئًا على الأرض..

شيئًا أسود اللون صغير الحجم مدفونًا بين الثلوج، فمددت يدي لألتقطه وأفحصه.. سمعت (نورا) تصيح من خلف كتفي:

- الغليون..!.. غليون (سيجفريد) الذي لا يفارقه.. إننا نسير في طريق صحيح..

هرش البروفسير رأسه في حيرة وسألها بالنرويجية عن شيء ما، فبدت مصرة.. ثم إنه التفت إلي لينقل حيرته:

- لا أفهم.. لقد هوجموا في موضع الخيمة الممزقة، والآن نجد هذا الغليون هنا.. حتى إذا كان الـ (ياتي) قد حمله إلى وكره، فلا أظن أن هذا وقت مناسب لـ (سيجفريد) كي يدخن الغليون في أثناء حمله..

قلت له وأنا أناوله الغليون:

- لا أظن الأمر كذلك.. لقد احتفظ الـ (ياتي) بالغليون كلعبة يلهو بها.. أو للذكرى، وحملها إلى هنا حيث ألقاها بعد أن فقد اهتمامه بها..

- إذن نحن نسير في طريق (سيجفريد)..

- أعتقد أننا نسير بالتأكيد في طريق الـ (ياتي)!

وواصلنا السير وقد ازددنا حذرًا..

* * *



فمددت يدى لألتقطه وأفحصه .. سمعت (نورا) تصيح من خلف كتفى : ــ الغليون ..!.. غليون (سيجفريد) الذى لا يفارقه ..

في عصر ذلك اليوم صعدت مع المرأة فوق الصخور المكسوة بالجليد نستكشف أحد الكهوف الذي كان مستواه يعلو عن رءوسنا كثيرًا.
كانت تجاهد لالتقاط أنفاسها لأن نسبة (الأكسجين) في الهواء توشك أن تكون معدومة، والواقع أن نقص (الأكسجين) هو مشكلة المشاكل في هذه الجبال، حيث يختل توازن المرء ويتصرف كالسكارى، ولربما أصابه ارتشاح رئوي يودي بحياته..
وفيما بعد، عرفت أن عددًا كبيرًا من علماء الغرب، يعزون كل ما حكاه المستكشفون عن الـ (مي - جي) إلى هذا السبب: هلاوس ناجمة عن نقص (الأكسجين) في المرتفعات..
المهم أنني ساعدتها كي تثبت حذاءها المسماري في طبقة الجليد الهشة الصاعدة إلى الكهف، ووثبت خلفها..
ثم بدأنا نسير على إفريز ضيق وقد ألصقنا ظهرينا بالصخور..
وحانت مني نظرة لأسفل فرأيت الوادي الجليدي مرتميًا عند قدمي..
كان خطأً جسيمًا أن أقودها إلى هذا المكان..
أخرجت حبلًا من النايلون وربطته إلى خاصرتي ثم ربطته إلى خاصرتها لأتأكد من أنها لن تهوي كالصخرة بمجرد أن تنظر لأسفل، وأشرت لها أن تتبعني ببطء.. ببطء..
وهنا حدث أسوأ ما توقعت..
سمعنا صرخة مدوية قادمة من أعلى..
صرخة لا يمكن أن تخرج من حنجرة بشر..
عرفت على الفور مصدر هذه الصرخة لأنني أذكرها جيدًا..

* * *

أخ (ميانج)!.. افعل شيئًا!

* * *

كما توقعت أجفلت الفتاة..
انزلقت قدماها من فوق حافة الإفريز.. فهوت لأسفل وهي تصرخ صرخة طويلة توحي بالنهاية..
وخلفها تدلى الحبل..
شعرت بالسرور لأنني توقعت شيئًا كهذا من قبل، ولأنني ربطتها بإحكام إلى جذعي.. إذن كل ما علي هو أن أتشبث وأجذبها إلي.
لكن سروري لم يدم..
اسمع صوت (الشيربا) يرددون من أسفل:
- آباتي!.. آباتي!.. (خطر.. خطر!)..
وأشعر بالحافة التي أقف فوقها تتهاوى..
وقدماي لم يعد تحتهما جليد..

* * *

٢ - كشف الأوراق..!

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق.. عندئذ يبدأ فجر الـ (نافاراي)..

* * *

لن أسقط!

أنا (نافاراي).. والـ (نافاراي) لا يخضع بهذه السهولة لقانون الجاذبية، ما دام يملك أن يكون هو قانون الجاذبية ذاته..

أذوب في (النرفانا)..

التحم بالكون وحقيقة الموجودات وفلسفة الذرات، وأرى نفسي أحلق في سماء الحقيقة.. إن روحي لن تسقط..

فلتحلق جزيئاتي مع روحي..

يا كل خلية في جسدي.. أطيعي أوامري وارتفعي.. كان العرق يغمر جبيني فيتحول إلى بللورات ثلجية.. لكني بالفعل أرتفع.. لقد فعلتها منذ قرون واليوم أعود لها..

أرتفع.. أرتفع..

لامست قدماي الجرف الجليدي الهش، فأرحتهما هناك، وبيد صلبة بدأت أجذب الحبل رافعًا جسد المرأة نحوي.. كان قد أغشي عليها، لذا مددتها برفق على مكان آمن.. وشرعت أفرك جبينها بالجليد كي تفيق..

وحين أفاقت..

وحين أدركت أين هي..

لم توجه لي عبارة شكر.. مجرد نظرة ارتياب وسؤال ملهوف:

- كيف فعلت ذلك؟

أبعدت عيني عنها وأشرت إلى أسفل قائلًا:

- لا شيء.. أحسنت تثبيت قدمي فلم تنزلقا..

- شعرت بجسدي يرتفع بقوة غير مفهومة.

- لأنني جذبتك بقوة غير مفهومة من ذراعي..

اتسعت عيناها وتأملتني في شرود.. عيناها الزرقاوان الواسعتان ككشافين مسلطين على أدق أسراري.. تنهدت.. اختلجت شفتاها ثم همست (يلاحظ القارئ أن لغتي ولغتها الإنجليزية قد تحسنت كثيرًا):

- أنت مخلوق غامض يا (هن - تشو - كان).. أنت نادر متفرد مملوء بالأسرار.. أحيانًا أشعر بأنك..

وصمتت قليلًا باحثة عن كلمة مناسبة.. ثم همست:

- أشعر بأنك زهرة زرقاء!!

* * *



لكنى بالفعل أرتفع .. لقد فعلتها منذ قرون واليوم أعود لها ..

- هيه!.. هل أنتما بخير؟

دوى صوت البروفسير متسائلًا من أسفل، وكنا قد نسيناه تمامًا، نهضت من موضعي.. وأطللت برأسي صائحًا:

- بخير.. سمعنا صوت الـ (ياتي) فكادت السيدة تسقط..

- إذن هو في هذا الكهف؟!

هززت رأسي أن لا..

لقد كان الصوت قادمًا من أعلى.. وهذا لا يعني أن الـ (مي جي) في الكهف الآن، لكنه يعني- على الأقل - أننا اقتربنا من مملكته - قدس الأقداس - فلا يمكن أن تكون هذه الصرخة إلا تحذيرًا من التمادي..

وبدأنا النزول عالمين أن بحثنا سينحصر من الآن فصاعدًا في تسلق هذه المرتفعات واستكشافها، ومن الحكمة أن يتم ذلك بناء على خطة وليس اعتباطًا..

جلسنا نتناول الطعام المكون من الأرز والبطاطس والعدس الممزوج بالزعفران (يسمونه الدال)، ولم تفتني ملاحظة همسات جانبية ونظرات فضولية من الحمالين الثلاثة إلي..

ودون مناسبة دنا أحدهم مني حاملًا سلطانية صغيرة مملوءة بسائل وأشار إلي أن أجرع منها.. كان هذا الحمال من (الشيربا) ويدعى (نيما تنزى)، ولم أكن استريح له كثيرًا في الواقع، بسبب خبث نظراته، كأنما يجد دائمًا ما يدعوه للسخرية..

أشرت بكفي أني لا أرغب في الشراب.. فقال يغريني:

- إنها (تشانج) وليست (راكشي)[4].

هززت رأسي باشمئزاز:

- لا أشرب الخمر ولا أقربها..

ابتسامة سوداء شاعت في وجهه، ونظر إلى زميليه.. وقال:

- أنت أول (تبتي) لا يشرب الخمر.. فيما أظن..

لم أرتح كثيرًا لهذه العبارة، لأنها تدل على أنهم بشأن استنتاج ما بخصوصي.. ذلك الاستنتاج الذي سيتكون من الحقائق التالية:

(أ) أنا أمت لقبيلة (شيربا) بصلة.. لكنهم لا يعرفون كنه هذه الصلة.

(ب) أنا أبدو في المرتفعات وكأني في داري، ولا أبدو مرهقًا برغم أنها المرة الأولى لي كما يعرفون.

(ج) أنا لا أشرب الخمر.

(د) أنا لا أبدي أي نوع من التوقير لـ (بوذا) كما يفعلون هم.

(هـ) أنا أستطيع الارتفاع فوق الأرض.. ولابد أنهم رأوا ذلك؛ بدليل أنهم حذروني من السقوط.

إلام تقودنا هذه الاستنتاجات؟

هذا ما سأعرفه في الأيام القادمة..

* * *

عنيت الساعات القادمة!...

في المساء دخلت خيمتي المصنوعة من (النايلون) الأخضر، ونزعت ثيابي إلى حد ما.. ثم جلست أتأمل كعادتي..

بعد دقائق اغمضت عيني مصغيًا إلى همس الرياح بالخارج.. لم أعتد النوم ليلًا بعد للأسف، لأن القارئ يذكر أن فجر الـ (نافاراي) يبدأ مع غروب الشمس.. هذا هو وقت تدريباتهم الشاقة..

لقد هجرت تدريباتي منذ شهر أو أكثر، لكني ظللت أمارسها في أحلام اليقظة..

وهنا سمعت صوتًا...

كان هناك من يزيح جدار الخيمة لينسل من تحته في رفق.. وبعين الـ (نافاراي) التي تجيد اختراق الظلام بحكم التعود، أدركت أن هذا المتسلل هو (نيما تنزي)..

المحته يزحف كالثعبان ببطء.. ببطء.. إلى ركن الخيمة الأدنى، وإذا به يفتح حقيبة ظهري، ويعابث محتوياتها ببطء ودقة باحثًا عن شيء ما.. نظر نحوى في الظلام فلم ير عيني المفتوحتين طبعًا.. كان يفعل ذلك كروتين فقط..

ثم واصل مهمته المريبة..

بعد ثوان لمحته يزحف نحوي وفي يده شيء لامع.. خنجر أو سكين يتقدم به نحو عنقي، مزمعًا شيئًا لا يمكن إساءة فهمه..

وفي الظلام سمعت صوته يفح كالأفعى وهو يهزني:

- انهض أيها الكاهن الأخير!

* * *

كانت الصدمة شديدة بالفعل..

فتحت فمي بعد جهد وتظاهرت بالغباء والذعر:

- (نيما)!.. ماذا أتى بك هنا؟.. أي كاهن أخير؟

التصق السكين بعنقي.. وسمعته يفح:

- إذن فلنقل أيها الـ (نافاراي) الأخير!.. لا تتظاهر بالحماقة.. كل قبائل (الشيربا) يعرفون أن هناك قومًا عاشوا في هذه الأصقاع منذ قرون، كانوا يجيدون التحكم في الطبيعة.. وكان اسمهم الـ (نافاراي).. وكلنا نعرف أنهم بادوا جميعًا فيما عدا واحدًا.. وكلنا ننتظر عودته.. كذا قالت الأسطورة..

- أي سخف؟!.

- دعك من التظاهر.. كلنا لمحناك ترتفع عن الأرض لتنقذ المرأة.. أنت لست بوذيًا.. فمن أين أنت إذن؟

ثم مد يده إلى ياقة ثوبي منقبًا عن شيء ما.. ومغمغمًا:

- أين الكتاب؟

هل وصلت معلوماتهم إلى هذا الحد؟.. اللعنة على (جينغ - تشا) وكل رهبان (الماهايانا) الذين نشروا القصة لتتوارثها الأجيال، وليبحث الكل عن كتاب (شوكارا) عالمين أن من يجده يمكنه حكم العالم.

- أين الكتاب الخاص بكم؟.. لا تدعني أذبحك لأفتش ثيابك..

كنت قد عدت إلى صوابي أخيرًا..
تحركت فنون الـ (نافاراي) في دمي فانزلقت كالذبابة من تحت يده المهددة تاركًا إياه على الأرض..
نهض - غير مصدق - ليهجم علي بالسكين، لكني وثبت جانبًا تاركًا إياه يرتطم بالجدار ويمزقه..
هواء الليل والعواصف تندفع مصفرة إلى داخل الخيمة..
حاول عدة محاولات خرقاء دون جدوى..
ففي كل مرة كنت أثب جانبًا أو أنحني أو أتمرغ في الأرض، فلا تنالني ضرباته المحمومة.. كنا قد صرنا في العراء تمامًا، بعد أن تمزقت الخيمة.. وعلى الجليد الهش بدأت رقصة الجنون..
وهنا تبدلت خططي تمامًا.. إذ سمعت صوت صراخ واحتجاج..
وعلى ضوء النيران لمحت الحمالين الآخرين يقتادان البروفسير والمرأة، وعلى عنق كل منهما خنجر حاد.. كانت المرأة تولول غير فاهمة لماذا وكيف يحدث هذا؟.. أما أنا فكنت أفهم..
مرة أخرى تتكرر اللعبة المعروفة معي.. مادام الـ (نافاراي) غير قابل للهزيمة، فلنهدد أصدقاءه وذويه أمام عينيه.. نفس اللعبة التي مارسوها مع سكان بناية (رفعت) في (القاهرة) يومًا ما..
- دعوا هذين البائسين..
قال (نيما) وهو ينهض على قدميه:
- ليس قبل أن تخبرنا بحقيقتك وتعطينا ما نريد..
وحتى لو أعطيتهم ما يريدون.. فالنهاية واحدة وليس أسهل من عودة الحمالين وحيدين من (الهيملايا)، مرددين أنهم فقدوا مرافقيهم في انهيار جليدي أليم..
عندئذ من يجرؤ على تكذيبهم؟
لهذا - ولهذا فقط - اتخذت قراري..
- تشا سارايانا!
قلتها وأنا أباعد ما بين ساقي مثبتًا قدمي على الجليد..
لم يفهم الأغبياء ما أريد قوله.. صحيح أن لغة (التبت) القديمة غير مفهومة لهم، لكن التحدي والإنذار واضح..
- جيانغ سارايانا!
قلتها وأنا أفتح ذراعي إلى أقصى امتداد لهما.. ثم..
- كيو سارايانا!
قلتها وأنا أعيد رأسي للوراء.. ثم..
لقد صار هذا المشهد مملًا، لهذا لن أكرره لك لأنك تعرفه جيدًا..
ركلتان في الهواء ليدين تمسك كل منهما خنجرًا،.. ثم وثبة بهلوانية تطيح بالرأسين.. وضربة مدروسة إلى نقاط الـ (شورا) في كل من الحمالين.. ثم وثبة أخرى.. وبضع ضربات في فقرات (نيما) العصعصية.. و..
ثلاثة حمالين مشلولين مغمورين في الثلوج يئنون..
نظرت إلى البروفسير الذي فغر فاه في بلاهة، وصحت بلهجة آمرة أثارت دهشته أكثر:
- ساعدها على النهوض من فوق الثلوج!

فانحنى وأمسك يدها وأنهضها.. فارتمت على صدره ترمق المشهد بعينين ذاهلتين جفت الدموع فيهما..

لم أنس أن أقف أمام الجثث الثلاث وأصيح صيحة الختام:

- سوان هاتشاه سارايانا!

أعتقد أنكم لم تنسوا بعد أن معناها هو: لقد أنذرتكم باستخدام (السارايانا)..

لقد حدثكم العجوز (رفعت إسماعيل) عن كل هذا.. والواقع أن هذا الرجل لا يملك مزية واحدة سوى ذاكرته ودقة سرده..

وإلى البروفسير نظرت في شيء من الحرج.. وقلت:

- أعتقد يا بروفسير أننا مضطرون لتركهم هنا.. فهم جميعًا قد اصيبوا بالشلل.. سنتركهم لمصيرهم الذي يستحقونه، وإن كنت أتمنى لو لم نفعل..

ليتني وجهت لهم ضربات قاتلة تنهى آلامهم..!

تصلبت عينا البروفسير على وجهي.. وبصوت رتيب بارد سمعته يتساءل:

- من أنت؟

.....

* * *

٣ - رعب الثلوج..!

أمسكت بذراعه لنبتعد عن المشهد..
لكنه واصل التساؤل في ذهول وتوجس:
- من أنت؟.. وماذا كان الحمالون يريدون منك؟
قلت له في فتور:
- بروفسير (أوليفس).. لنقل إنني شخص يعرف كيف يدافع عن نفسه.. والآن.. نواصل رحلتنا..
صاحت (نورا) في هستيريا:
- وهل سنترك هؤلاء البؤساء هنا؟
- لا يوجد حل آخر.. إذ لا يمكن اصطحاب جرحى عبر جبال (الهيملايا).. دعك من أنهم هم من أجبرونا على ذلك..
- ولكن...
- هيا بنا! ولنحمل الأشياء الضرورية فقط..

* * *

وهكذا تركنا المكان.. كان الصباح قد بدأ يغمر الثلوج بأشعته الباهتة، ونحن نواصل مسيرتنا في الاتجاه الذي بدأنا به..
عبثًا حاولت أن أقنع البروفسير أن كل هذا مضيعة للوقت لأنني واثق بأن المستكشف قد مات.. من ثم أدركت أنه يفكر في لقاء الـ (مي - جي)، وأن الروح الإنسانية ليست هي الشيء الوحيد الذي يفكر فيه..
كان الثلج يزداد هشاشة حتى أن القلق بدأ يراودني..
أحيانا كان أحدنا ينغرس حتى خصره وسط الجليد الناعم فنعاونه على النهوض لاهثين.. ولقد بدأت أتوقع في أية لحظة أن يسقط أحدنا إلى عنقه..
حتى بالنسبة لي كانت هذه المناطق غير مألوفة بل ومرعبة..
ولم نكن قد ابتعدنا أكثر من أربع ساعات حين سمعنا الصراخ..
الصراخ المذعور الوحشي المتوسل.. تلته شهقة قصيرة ثم صوت الزئير الذي ألفناه..
تصلبت (نورا) في ذعر وأمسكت ذراعي:
- ما هذا؟
- الحمالون.. - أجبتها في رزانة - لقد هاجمهم الـ (مي - جي) وهم عاجزون عن الهرب..
لم أرد أن أخبرها أنه - بالتأكيد - انتزع أحشاءهم قبل الأكل كما يفعل مع الحيوانات البرية..
- البؤساء!.. فلنعد إليهم!
هززت رأسي في استنكار:
- وما الجدوى؟.. لقد انتهى الصراخ على كل حال..
صاحت في اشمئزاز وقد احتقن وجهها ودمعت عيناها:

- لم أتصور أنك بهذه القسوة..
- سيدتي.. ليس هناك قانون في هذه الأصقاع سوى قانون الطبيعة.. وواجبنا نحن البشر أن نقبله، وأن نتماسك ويرعى بعضنا البعض.. فمن خالف ذلك فالذنب ذنبه وليس على الآخرين أن يلوموا أنفسهم.. ألست من رأيي؟

وواصلنا المسير بلا هدى سوى خطة باهتة في رءوسنا عن الاتجاه الذي يجب أن نسير فيه..

قد يرى أحد أنه من الحكمة أن نعود إذا كنا نريد مقابلة الـ (مي - جي)، حيث إنه موجود حيث فارقنا الحمالين، لكني أستبعد أن يظل بانتظارنا هناك.. لابد أنه صعد إلى مستوى أعلى من الجبال، أو سبقنا.. أو هو في أعقابنا الآن.. لا أحد يدري..

* * *

إن (الياتي) يسيطر على هضبة (التبت) سيطرة مطلقة برغم أن أحدًا لم يره إلا مصادفة..

* * *

كانت منهكة..

ورأيتها تجلس فاغرة فاها على الأرض منقطعة الأنفاس، تحاول - عبثًا - أن تعب الهواء بجرعات كبيرة..

إنه نقص (الأكسجين).. دنوت منها وجلست على ركبتي.. وقلت لها:

- أغمضي عينيك وتصوري أنك في حديقة غناء..
- مستحيل!
- بل كل شيء ممكن لو حاولت.. هل تصغين لغناء البلابل؟.. هل تشمين عبق الورود؟.. هل تسمعين خرير الماء؟.. إنه موجود.. فقط عليك أن تركزي انتباهك..

أغمضت عينيها.. وبدأت تركز أكثر فأكثر..

ابتسامة رضا بدأت تلتمع على شفتيها، فأدركت أنها وصلت هناك، وأن انتعاش الزهور قد لمسها بعصاه السحرية..

وحين فتحت عينيها كانت أحسن حالًا.. وسمعتها تهمس وكأنها تغني:

- لقد رأيت الزهور.. وكان من بينها زهرة زرقاء!!

دنوت منها وشعرت بوجيب في قلبي..

أنا لا أخون أحدًا.. على الأقل أنا واثق بأن زوجها مات حتى وإن لم تعلم هي.. إذن....

* * *



دنوت منها وجلست على ركبتى .. وقلت لها :

ـ أغمضى عينيك وتصورى أنك فى حديقة غناء ..

لا تكلموهن يا (أناندا).. لا تروهن يا (أناندا).. وإذا سألتك إحداهن عن شيء فلا ترد عليها يا (أناندا)..

* * *

عندئذ - وقد تذكرت كلمات (جوتاما) - تركتها ونهضت أنفض الثلج عن ثيابي.. أنا (نافاراي) وليس من حقي أن أميل للنساء.. أنا (نافاراي) لهذا يجب أن أسحق انسانيتي ورجولتي..

* * *

- أتزوج؟.. مستحيل!.. إن الـ (نافاراي) إذا تزوج لا يعود كذلك..

* * *

المسيرة ماضية.

هذه المرة وجدنا آثار الأقدام الغليظة على الجليد.. آثار الأقدام التي لا يمكن أن يكون صاحبها آدميًا.. طول القدم يقارب الخمسين سنتيمترًا، وعرضها يقارب ثلاثين سنتيمترًا..

وكان الإصبع الأكبر أطول بمراحل من أربعة الاصابع الأخرى.. مما يدل على أن طول الكائن يقترب من الثلاثة أمتار..

الأكثر أهمية هنا هو أن الجليد مستمر في السقوط.. ومعنى هذا أن آثار الأقدام هذه طازجة تمامًا..

لقد كان هذا الشيء هنا منذ ساعة لا أكثر..

وللمرة الأولى أخرجت من جعبتي (الكاميرا) التي أعطاني إياها د. (رفعت إسماعيل) قبل السفر، وللمرة الأولى - كذلك - أخرج البروفسير النرويجي بندقيته وتأكد من سلامة حشوها..

التقطت بعض الصور لآثار الأقدام بمعونة المرأة التي لاحظت عدم درايتي باستعمال هذه الآلة العجيبة..

ثم أنني التفت نحو البروفسير.. وقلت له:

- والآن يا سيدي.. بدأ أخطر جزء من الرحلة..

* * *

لم أكد أنهى جملتي حتى فتح باب من أبواب الجحيم..

في البدء ظننته انهيارًا جليديًا، فقد احتجبت الشمس الباهتة لبضع ثوان.. ثم رأيت شيئًا عملاقًا يثب من أعلى علينا.. وتبينت ما هو للمرة الأولى في حياتي..

كان طوله يبلغ الثلاثة أمتار حقًا وجسده مغطى بالشعر الأشهب المشرب بالحمرة..

وكان الشعر منتفشًا مما يوحي بهياجه..

وعلى كتفيه يستقر أبشع وجه رأيته في حياتي، لكنه لم يكن وجه إنسان ولا قرد.. بل هو كتلة مبهمة بلا ملامح..

الشيء الوحيد المألوف في ذلك الوجه كان الفم.. الفتحة الفاغرة عن صفين من الأنياب الحادة اللامعة المتربصة..

وكان يقف على قدميه، ويستعمل ذراعين طويلتين مرعبتين كما يستعملها البشر..

ولمحته يرفع البروفسير ثم يقذفه على بعد أمتار فوق الثلوج ليتكور هناك منطويًا على نفسه.. ثم إنه جر (نورا) من شعرها فسقطت عند قدميه مغشيًا عليها..

لا وقت لطقوس الـ (نافاراي).. لهذا تهيأت للوثوب لأوجه ركلة إلى مقتل هذا الشيء إن كان له مقاتل..

وهنا شعرت بأنني أرتفع عن الأرض..

وأدركت أن واحدًا آخر جاء من خلفي وهو يزمجر، ورفعني من مؤخرة عنقي إلى أعلى كأنه يرفع أرنبًا من جحره..

وشعرت بنفسي أطير في الهواء لأرتطم بحافة الجرف الصخري..

لا.. لن افقد الوعي.. لا وقت لهذا..

وحين فتحت عيني كان هناك أربعة من الـ (مي - جي) يتسلون بقذف جسد البروفسير ما بين بعضهم البعض..

نهضت محاولًا إنقاذ الموقف، فوجدتني كالقزم بين أربعة جبال..

حتى الـ (نافاراي) يملك حدودًا لا يستطيع تجاوزها..

وقبل أن أفهم شيئًا، كان جسدي يتطاير في الهواء ليصطدم رأسي بالجليد الصلب من جديد..

وآخر ما أذكره هو صوت الزئير المفزع والصراخ.. و..

* * *

ظلام...!

الظلام البكر من قبل أن يوجد الضوء..

* * *

وحين أفقت أخيرًا كان رأسي يدق كصندوق مليء بالبلى المعدنية.. وكنت أشعر بالغثيان والدوار وأشياء أخرى لا أعرفها..

وأمامي كان مسرح المأساة غارقًا في الفوضى.. الثلج متناثر هنا وهناك وغطاء رأس (نورا) وجاكت البروفسير المصنوع من الفراء وبندقيته.. وكاميرا (رفعت) قد هشمت تمامًا (من مصلحتي ألا أعود له حيًا إذن).. لكن لا أحشاء في أي مكان لحسن الحظ..

لقد رحل الـ (مي - جي) حاملين فريستيهم..

أما لماذا لم يأخذوني أنا، فأعتقد أن التفسير واضح..

هم اعتادوا مذاق الصفر ويريدون أن يجربوا مذاق البيض ذوي الشعر الأشقر.. كما ترحب أنت بالتهام لحم غزال بعد ما سئمت مذاق لحم الدجاج..

كنت أعرف أن هذا سيحدث..

لا أدري ما إذا كان البروفسير والمرأة حيين الآن أم لا.. لكني لن أرحل دون أن أعود بهما، أو أدفن جثتيهما..

لقد صرت وحيدًا تمامًا..

ومن يدري..؟

ربما كان هذا أفضل..

* * *

٤ - لحظة الحقيقة..!

صرت الآن وحيدًا..
لكني أعرف تمامًا ما سأفعله وكيف أفعله..

* * *

بدأت السير وئيدًا متتبعًا آثار الأقدام المبعثرة بين الثلوج.. أتعثر تارة وأنهض تارة..
أبدو لمن يراني وكأني أتحرك في فيلم بالسرعة البطيئة.. خطواتي ثقيلة وإخراج قدمي من الثلوج يقتضي مجهودًا غير عادي..
لكنني مستمر في التقدم.....
وهنا وجدت وسط الجليد حذاء مألوفًا.. حذاء (نورا) بالذات.. وأدركت أن هذا هو المكان المختار..
نظرت لأعلى أتأمل الجدار الجليدي الشاهق الذي يحيط بالمكان.. فوجدت شيئًا آخر أكثر دلالة.. ملفحة (نورا) ممزقة ترفرف كراية صفراء متدلية من إحدى الصخور المدببة..
مددت عيني أتحسس الجدار، فوجدت ثغرة وسط الجليد لا بد أنها تؤدي إلى كهف..
مددت يدي إلى جربنديتي، وتناولت حبلًا سميكًا من النايلون وصنعت أنشوطة.. وأحكمت التصويب قاذفًا حلقة الأنشوطة إلى أعلى لتتشبث بإحدى الصخور البارزة من الجدار، وجذبته مرارًا لأتأكد من أنه سيتحملني.. وللتأكيد ربطته في خاصرتي..
قد يقول قائل: لم لا ترتفع لأعلى ما دمت (نافاراي)؟
بالطبع لا.. ليس إلى هذا الحد.. أحتاج إلى حالة تركيز عالية تنهكني إلى حد غير عادي، وأنا الآن بحاجة إلى صفاء ذهني من أجل أغراض أخرى..
قد يقول قائل آخر: كيف صعد (الياتي) إلى هناك؟ أقول له إن هذه هي مشكلة (الياتي) وليست مشكلتي.. تستطيع أن تسأله إذا أردت!..
دعوني الآن أواصل التسلق ولا تشتتوني بالأسئلة السخيفة التي لا طائل من ورائها..

* * *

وصلت إلى فتحة الكهف.. مددت يدي إلى (الجربندية) وأخرجت الشيء الذي أخفيته طيلة سفري جوار كتاب (الشوكارا) الملتف حول خصري..
كان هذا الشيء هو قارورة الشراب الذي كان (ميانج) يقدمه للـ (مي - جي) لتهدئته..
لقد قرأت طريقة إعداده بعناية من كتاب (الشوكارا)، وقمت بإعداده من الأعشاب في أثناء توقفنا في (لهاسا) بحثًا عن أدلة لرحلتنا...
سيكون هذا هو ورقتي الرابحة..

لا جدوى من أساليب الـ (نافاراي)، لأن الـ (مي - جي) أقوى.. ولأن عددهم سيكون كبيرًا، ولا جدوى من البندقية لأنها لن تفعل شيئًا.. ربما تقتل واحدًا أو اثنين قبل أن ينتزعوها مني ويحطموها فوق رأسي..

إذن سياسة الوفاق هي المثلى..

أخرجت كذلك ورقة تحوى بعض العبارات بلغة قبائل (أمادواس) التبتية..

من الصعب أن أتخيل أن الـ (ياتي) يذكرون هذه العبارات.. لكني أمل في أن قبائل (أمادواس) لم تزل موجودة وتتعامل معهم منعشة ذاكرتهم من حين لآخر..

ولما حفظت العبارات عن ظهر قلب استعددت لدخول الكهف..

وفجأة..

شعرت بيد مشعرة ترفعني في الهواء وتقذفني لأسفل..

* * *

تشبثت بالصخور بيد واحدة محاولًا ألا أترك الزجاجة..

وهنا توقفت عن الهبوط لأسفل، فأدركت أن السبب هو أنني نسيت الحبل مربوطًا لخصري فظللت متدليًا منه أتأرجح في الهواء البارد.. وللحظة تجمع كل الدم في قدمي فاسودت الدنيا في وجهي..

رفعت عيني فرأيته واقفًا هناك يرمقني من عل..

كان عملاقًا مهيبًا.. غاضبًا إلى حد مروع.. يعابث خصلات شعره الكث ويكشر عن أنيابه..

لو أنه مد يده وانتزع الحبل من مكانه لهويت كالصخرة إلى أسفل..

ولكن هناك مشكلة بسيطة: كيف أعود للصعود؟ وكيف أنزل إذا أردت؟..

وكان الجواب سريعًا.. إذ وجدت أحد الـ (مي - جي) يتقدم عبر الجدار الصخري المغطى بالثلوج وقد ثبت جسده إليه.. يتقدم نحوى على المستوى الذي تدلى جسدي عنده!

كان منظره عجيبًا وهو يتقدم كأنه يتحرك بممصات خفية، أو كأنه سحلية تمشى فوق جدار أملس.. كيف يتشبث؟.. لا أدري..

لكن الحقيقة هي أنه آت نحوي بسلاسة غير عادية..

لن يلبث سوى دقيقة واحدة - بل أقل - ويلف ذراعه المشعر الغليظ حول خصري.. وعندئذ..

تسلقت الحبل سريعًا إلى أن بلغت مستوى أعلى منه..

ولم أجرؤ على الارتفاع أكثر حتى لا أغدو في متناول الآخر..

هذه المرة كان الـ (مي - جي) - السحلية - تحت مستوى قدمي..

وسمعت زئيره، وشعرت بيده تتطاير عشوائيًا في الهواء محاولة الإمساك بأي طرف مني.. لكنه أحمق إذا ظن أنه يستطيع الإمساك بكاهن (نافاراي)!

شرعت أتملص منه وأبعد قدمي.. حتى إذا وجدت اللحظة مناسبة وجهت ركلة بحذاء التسلق المملوء بالمسامير إلى وجهه..

فدوت صرخته المريعة المفعمة بالألم.. الثلوج تنهار فوق رأسي ورأسه من أعلى..

ولمحته يفقد توازنه ويسقط لأسفل، لكني أدركت أن شيطانًا كهذا لا يمكن أن يموت بهذه البساطة..

ولمحت آخرين يزحفون نحوي بنفس الطريقة فأدركت أنني في مأزق حقيقي..

لذا واصلت التسلق إلى أن وجدت الـ (مي - جي) الأول يرمقني بوجهه المرعب من أعلى بانتظار وصولي إليه ليحطم عنقي..



شرعت أتملص منه وأبعد قدميّ .. حتى إذا وجدت اللحظة مناسبة

وجهت ركلة بحذاء التسلق المملوء بالمسامير إلى وجهه ..

كنت عند قدميه تقريبًا وأنا أحتضن الزجاجة في توتر.. والآن حان وقت الـ (نافاراي).. قلت له وأنا متدل من الحبل وبلهجة متعجلة:

- تشا سارايانا!.. جيانغ سارايانا!.. كيو سارايانا!

كنت أعرف أن الإنذار تحصيل حاصل، لكن التقاليد ترغمني على ذلك..

ثم إنني لويت جسدي لأعلى - وأنا متشبث بالحبل - ورفعت قدمي في الهواء بنصف دورة.. لترتطما بجسده في إحدى نقاط الـ (كورا) - إذا كان يملك بعضها..

سمعته يصرخ.. ومزيد من الثلج يهوى من أعلى.. ثم تنحى معطيًا إياي الفرصة لأقف على قدمي..

وحين وقفت أخيرًا أمامه على باب الكهف، هالتني ضخامته.. والأشياء المفزعة التي يمكنه أن يصنعها بي لو أمسكني..

كان يدنو مني ببطء وهو يخور... رفعت يدي اليمنى - كما فعل الأخ (ميانج) منذ خمسة قرون - وهتفت بأعلى صوتي:

- سوان شيهاه مي - جي!

كان مصرًا على إيذائي.. ما زال يتقدم ببطء مريع..

- سوان شيهاه مي - جي!

الكلمة التي كان الأخ (ميانج) يرددها أمام الكهف، ومعناها - كما علمت فيما بعد - هو (لقد جئت بالسلام أيها الـ (مي - جي))..

ترى هل يفهم معنى ذلك؟

لحظات من التوتر.. لقد صار على بعد نصف متر مني.. وبعد ثوان سيكون علي أن أثب بعيدًا عنه..

لكنه بدأ يهدأ.. ثبت في مكانه وكف عن الخوار..

تبادلنا النظرات لثوان.. ثم إنني اتجهت لباب الكهف متجاهلًا إياه، ورفعت كفي اليمني مبسوطة وانحنيت مرددًا ذات العبارة..

ثم دخلت..

* * *

كان الظلام دامسًا بالداخل..

لكنني - هذه المرة - كنت قادرًا على تبين عشيرة كاملة من هذه المخلوقات جالسة في الظلام تتأملني..

دنوت من وسط الدائرة ووضعت الزجاجة على الأرض.. ثم رفعت عيني وهتفت باسطًا كفي اليمنى:

- يا هاتشو أوزوم مي - جي!

أي - كما تذكرون - (لقد بررت بوعدي أيها الـ (مي - جي))..

وكان رد الفعل سريعًا.. لقد ساد الهدوء بالمكان وتلاشى التوتر...

ورأيت أحد هذه المخلوقات يقترب من الزجاجة ليرى ما هنالك..

وهنا حدث شيء غريب..
وجدت البروفسير و (نورا) ورجل ثالث لا أعرفه يهرعون نحوي من بين صفوف الـ (مي - جي).. لم تكن حالهم سيئة إلى الحد الذي توقعته - فيما عدا الأول طبعًا - ومن الغريب أن الكائنات لم تعترض طريقهم..
- (نورا).. بروفسير.. ما معنى هذا؟
هتف البروفسير وهو يلف ذراعه حول (نورا):
- إنهم لم يؤذونا يا بني.. لم يؤذونا.. لقد احتفظوا بنا هنا بينهم وأطعمونا وآوونا..
- ومن هذا الثالث؟
نظر لي الرجل الذي كان معهما.. وغمغم:
- أنا (هانسن) الوحيد الباقي من المستكشفين الثلاثة.. لقد هاجموا مخيمنا واختطفونا.. لكنهم لم يؤذوا أحدًا سوى (أنسلن) الذي جرح ذراعه، وقد حملونا إلى هنا وأطعمونا وآوونا.. لكنهم لم يغفروا لنا محاولة الهرب حين حاولها (أنسلن) و (سيجفريد)..
كان العقاب سريعًا وصارمًا.. ونهائيًا!!
لم أسأله عن المزيد لأن الزوجة تقف جواره، وأنا أعرف جيدًا أنهم قتلوا (أنسلن) (كأرنب بري).. هو قال لي ذلك في الرؤيا التي رأيتها..
لا وقت للأسئلة.. لا وقت لمعرفة سبب إبقاء الـ (مي - جي) على كل هؤلاء النرويجيين أحياء.. ولكن الإجابة واضحة ولا إجابة سواها..
إن هذه الوحوش ظلت غير قادرة على فهم هذه القرود الصغيرة، ذات البشرة البيضاء والعيون الزرقاء والشعور الصفراء، لهذا أبقتها حية إلى أن تعرف ما ينبغي عمله بها..
إن الـ (مي - جي) يحاصروننا فهل أستطيع أن أتجاسر وآخذ النرويجيين معي ما دمت قد أثبت حسن نيتي؟
حقًا لا أدري..
إن أية حركة مريبة ستجعلهم يمزقوننا إربًا، ولديهم سوابق على سوء معاملة من يحاول الفرار..
وهنا جاء الحل الصحيح..
الزجاجة!.. لقد نسيت الزجاجة..
ولمحت واحدًا منهم يتقدم وهو يخور ليمسكها..
يتحسسها بين كفيه، ثم يرفعها لفمه ويزيل غطاءها ويجرع..
ثم إنه ناولها لواحد آخر.. فواحد آخر..
همس البروفسير في حيرة وهو يتأمل المشهد:
- ماذا يحتسون بالضبط؟
- (شراب النجوم).. هكذا يسميه رهبان (التبت)..
نظر لي هنيهة ولم يعلق..
كان الـ (مي - جي) يتبادلون احتساء المشروب، وقد أدركت أنه راق لهم إلى حد غير عادي.. لا أفهم سبب ذلك، لكنه حدث.. وفهمت الآن فقط أي سحر كان الأخ (ميانج) يضعه في شرابه هذا..
لقد بدأ جو من الهموم يسود المكان تتخلله زمجرات قصيرة..
فنظرت إلى النرويجيين الثلاثة المذهولين.. وهمست:

- يمكننا أن نرحل!
هتف النرويجي الجديد - الذي نسيت اسمه - في توجس:
- سيقتفون أثرنا!.
- ليس بعد الآن.. إن أمامنا أيامًا من السلام وثق بأنني أعرف ما أقول..
وببطء وحذر غادرنا الكهف فلم يعترض طريقنا أحد.. وبدأنا عملية الهبوط لأسفل مستخدمين الحبال، عالمين أن الأهوال تنتظرنا في رحلة العودة..
لكننا - على الاقل - عرفنا مصير من فقدوا.. وأنقذنا واحدًا من المستكشفين..
وسيكون لدى البروفسير الكثير مما يقصه على المجامع العلمية حين يعود لوطنه..
إن رحلة العودة شاقة.. لكنها - على الأقل – ستتم دون أن يعترض الـ (مي - جي) طريقنا أو يقفو آثارنا..
وهذا يكفي..

* * *

وداعًا أيها الـ (نافاراي)..

* * *

خاتمة

بقلم: د. (رفعت إسماعيل)

كانت هذه صياغتي لخطاب طويل وصلني من (الصين) بخط (هن - تشو - كان)، وبلغة إنجليزية لا بأس بها، واضح أن تعامله مع النرويجيين جعله يصمم على إجادة الإنجليزية، ولربما هو عاكف على تعلم النرويجية الآن..!

لقد قابل (هن - تشو - كان) رجل الثلوج، وعاش قصة طويلة معه.. لكن للأسف تظل قصته مجرد قصة أخرى كقصص (شيسون) و (هيلاري) و (هنريك ألواس).. غير مدعمة بصور ولا نماذج محنطة للـ (مي - جي)، ولا شيء من أي نوع سوى شهادة البروفسير والزوجة - أعني الأرملة - والمستكشف (هانسن)..

لكن (هن - تشو - كان) لا يعبأ بكل هذا ولا يصبو إلى أي نوع من الشهرة.. كان يشعر بقدرته على إنقاذ (أنسلن).. وقد فعل..

من أين جاء الـ (مي - جي)؟..

لا أحد يدري..

لكن تظل هناك إشارة عابرة من الأخ (ميانج) إلى السماء حين سأله الفتى نفس السؤال، ثم الاسم الموحي للشراب الذي قدموه للوحوش (شراب النجوم)..

أضف إلى ذلك النظرية التي يعتنقها عدد لا بأس به من العلماء، وأن (الياتي) جاء من الفضاء.. وبالتحديد من أحد الكوكبين (بلوتو) أو (أورانوس)، حيث المناخ وضغط الأكسجين يماثل تمامًا مناخ (التبت) وضغط هوائه المنخفض..

هي نظرية لها ما يدعمها..

وكيف جاء؟.. لا أحد يعلم..

إن التاريخ حديث الولادة، فهو لا يسجل شيئًا عن شعوب كاملة عاشت دهورًا وبادت.. فماذا يعرف التاريخ عن الظروف التي نشأ فيها الـ (مي - جي) من ملايين السنين؟!

لا أظن أننا سنعرف الإجابة أبدًا..

كل ما يعنيني، هو أنني أضفت إلى خبراتي خبرة جديدة لا بأس بها أبدًا، وإن كنت أتمنى لو أن لدي من الشجاعة واللياقة البدنية، ما يسمح لي بالذهاب هناك، إلى ثلوج (التبت) لأرتدي حذاء التسلق، وأمارس حياة المغامرة كما فعل هؤلاء..

لقد أدركت مدى عجزي وضموري، وأنا أقرأ ما فعله (هن - تشو - كان)، حين حوصر في الهواء بين ستة من الـ (مي - جي).. فكلما قرأت هذه الفقرة ارتجفت وازداد سعالي، وازداد شعوري بالتعاسة..

لكن يعزيني أنني لم أكن دائمًا هذا الكهل المحطم..

لقد واجهت وحش (لوخ نس)، وذهبت لحملة في الصحراء بحثًا عن كهوف (تسيلي)، وفررت هاربًا من (الزومبي)..

لقد عشت حياة حافلة.. ولم تزل أحداث جسام تنتظرني..

والآن حان الوقت كي..

أسمعكم تسألونني عما حدث لـ (هن - تشو - كان)؟.. حسن.. إنه لم يعد بعد.. ويبدو لي أنه سيظل في (التبت) فترة طويلة، لكنه سيعود حتمًا كما قال.. وعندئذ ستكون لنا لقاءات أخرى وأساطير جديدة..

والآن حان الوقت كي أفارقكم..

و... للأسف لم يذكرني أحدكم بإصلاح (فريزر) ثلاجتي.. لا داعي لذلك، فقد أصلحته، وإنني لشاكر لكم حسن رعايتكم لي!

كنت أظن أنني سأعيش فترة هادئة بعيدًا عن المشاكل، خاصة وأن الكاهن الأخير تكفل في هذه المرة بأن يعيش المشاكل بدلًا مني..

لكني كنت - كالعادة - واهمًا..

لقد رحل (هن - تشو - كان) ولم يعد معي سواي.. والنبات كان يتحرك قادمًا من أجلي..

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل
(القاهرة - ١٩٩٣)

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

الجـزء الأول

١ - شيء ما..!

٢ - نهاية حلم..

٣ - أسطورة المي - جي..

٤ - الرجل الذي يعرف أكثر..

٥ - الرحيل..

الجـزء الثاني

١ - عند سقف العالم..

٢ - كشف الأوراق..!

٣ - رعب الثلوج..!

٤ - لحظة الحقيقة..!

خـاتمـة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة رجل الثلوج

يسمونه الـ(مي جي) باللغة المنغولية
.. و الـ(ياتي) بلغة التبت ..، و نسميه
نحن رجل الثلوج ..، لكن النتيجة واحدة ..
والغموض واحد .. و الرعب الذي تحدثه آثار
قدميه فوق الثلوج واحد .. اليوم يواجه د.
(رفعت إسماعيل) هذا اللغز .. و كما
تعودنا سيأخذنا معه ..
إن الـ (ياتي) ينتظرنا
فكونوا حذرين!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة النبات

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

لدى
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]
احتلت (الصين) بلاد (التبت) عام ١٩٥١، وطردت منها (الدالاي لاما) وهدمت أكثر الأديرة.. ولقد فر هذا الأخير إلى (الهند) لكن التبتيين مازالوا يأملون في عودته.

[2←]

إن جميع أدلاء (الهيملايا) هم من قبائل (شيربا) الذين نزحوا إلى (نيبال)، وعددهم اليوم ٨٠ ألفًا ويتمتعون بلياقة بدنية عالية حتى أن المستكشفين يسمونهم بـ (ذوى الثلاث رئات).

[←3]
يمكن الوصول إلى (التبت) عن طريق (نيبال) أو (الهند) كذلك، و (نيبال) هي أشبه بقطعة جبن في شطيرة مكونة من (الهند) و (التبت).

تشانج: بيرة من الشعير. راكشي: شراب الأرز المختمر.

[←4]

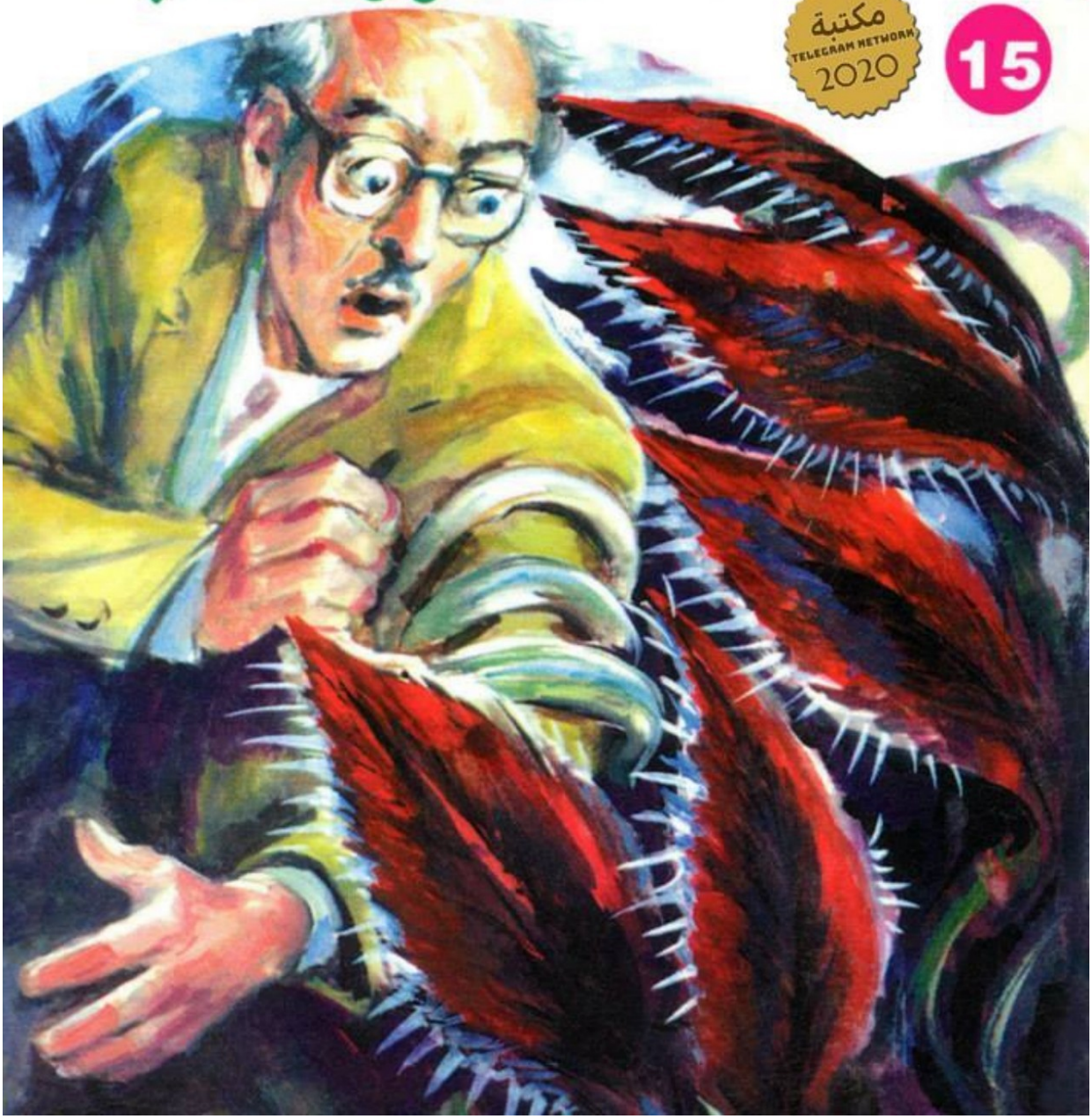
روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة النبات

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

15



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٥

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة النبات

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

١٥

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة النبات

بقلم:

د. أحمد خالد توفيق

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة

ن - ما اسمك؟
- د. (رفعت إسماعيل).
ن - سنك وعملك؟
- أقترب من السبعين من العمر، أستاذ طب متقاعد وطارد أشباح هاو..
ن - حالتك الاجتماعية؟
- أعزب بالطبع.. فلا توجد زوجة تتحمل حياتي، وحتى لو وجدت.. فقد رحل القطار مبتعدًا عن محطتي منذ أعوام..
ن - ومتى تكف عن سرد القصص الكابوسية؟
- حين يحين أجلي..
ن - وعم ستحدثنا اليوم؟
- كنت أنوي أن أستكمل قصة (النافاراي) أو أحكي حلقة أخرى من رحلات (سالم وسلمى) أو أثرثر عن (نوسفيراتو).. ثم وجدت أنني راغب في سرد قصتي مع نبات الـ (موكاسا)، فهي قصة لا بأس بها..
ن - لماذا اخترتها بالذات؟
- لأنني كنت - في المغامرة السابقة - مع رجل الثلوج في (التبت).. ولهذا آثرت أن أحكي قصة بيتية دافئة بعيدًا عن الثلوج وانهيارات الجبال..
ن - متى حدثت هذه القصة؟
- لا أذكر.. ربما كان ذلك في عام ١٩٦٨ وربما لا.. بالتأكيد كنت قد جاوزت الأربعين، وبالتأكيد لم أكن مرتبطًا بـ (هويدا).. إذن هي حدثت قبل لقائي مع الفرعون (أخيروم) أو بعد لقائي مع رجل الثلوج..
ن - ألا تحتفظ بمذكرات؟
- ولماذا أفعل؟.. إن كل ذكرياتي من الطراز الذي لا ينسى.. ويظل محفورًا - كالنقوش - في تعاريج الدماغ.. ولطالما حاولت أن أنسى.. لكن الذكريات الباسمة فقط هي التي تمحي..!...
ن - هل لديك أقوال أخرى؟
- نعم.. لا تنسوا يا رفاق أن تغلقوا الأبواب وتضيئوا الأنوار.. إن العجوز (رفعت إسماعيل) سيسرد قصة شنيعة هذه الليلة.. سأحكي لكم كل شيء ولكن لا أسئلة.. أرجوكم.. حتى أنتهي..

١ - الموهوب..

أبدًا لن يكف (عماد صبحي) عن إثارة دهشتي..
وحين أسترجع شريط ذكرياتي أجد وجهه في لقطات عديدة.. دائمًا تحوطه هالة من الإعجاب والانبهار..
ما الذي كان ينقص هذا الفتى كي يكون سعيدًا؟..
كان وسيمًا.. وسيمًا كصور الأبطال الإغريق التي ترسمها الأساطير، فارع القامة أميل للسمرة.. تتطاير خصلات شعره فاحم السواد لتداعب جبينه الوضاء في افتتان..
. وكان قويًا كالمصارعين الرومان.. وكان أنيقًا كواحد من الموديلات المجسمة التي نراها في نوافذ المحلات.. وبالتالي كان يناسبه كل شيء وكل زيّ كأنما خلق له..
دعابته حاضرة كأفضل ما يكون.. ولسانه - الشبيه بالسوط - يبرز ليلسع كل ما يروق له أو يراه سخيفًا، والمعجزة هنا هي أنك تنفجر ضاحكًا معه حتى ولو كان يتهكم عليك، لأن أصالة دعاباته وطرافتها كانت تذيب حاجز الكبرياء الشخصية فترى نفسك مجردًا كما خلقك الله.. وتدرك مدى سخفك أو غبائك..
لقد كان طرازًا نادرًا من البشر..
عازف كمان من الطراز الأول.. وقارئ كتب من الطراز الأول أو كما قال عن نفسه:
- أنا قارئ محترف.. ولابد أن أحد أجدادي كان (عثة) كتب...
وكان على قدر لا بأس به من الثراء.. الثراء الذي لا يثير حسدًا ولا ضغينة لدى زملائه المعدمين من أمثالنا.. وكان كريمًا كالأمطار حتى أنني أسائل نفسي عن تصرفه لو أنني طلبت عينيه بشيء من الإلحاح!..
كان هذا هو (عماد صبحي)..
فهل لديك سبب يفسر ألا يكون هذا الكائن الأسطوري سعيدًا؟

* * *

عرفته في السنة الأولى لي في الجامعة..
وكنت أنا أدرس الطب.. وكان هو يدرس العلوم البيولوجية.. وبالتالي كان لقاؤنا الأول في أحد معامل (البيولوجي) غارقين في التعاسة محاولين العثور على الوريد البوابي لضفدعة مصلوبة في طبق شمعي.. وكانت الدماء تتسرب من مكان ما لتنتشر فوق سطح الماء فتستحيل الرؤية..
قال لي في قنوط متأملًا المشهد:
- لا جدوى.. جراحة فاشلة.. لقد ماتت (المرحومة) بعد ما ثقبنا (الأورطي)..
ثم وضع المبضع والجفت جانبًا ونهض هاتفًا:
- سأدعوك إلى ضفدعة أخرى على حسابي.. ولكن لنكن حذرين هذه المرة..

وبعد دقائق عاد بضفدعة مكتنزة اشتراها.. وبدأ يحاول تخديرها بالكحول ثم ثبتها بالدبابيس في الطبق إلى جوار جثة (المرحومة) السابقة.. وقال:
- (عماد صبحى).. السنة الأولى بكلية العلوم...
- (رفعت إسماعيل)... السنة الإعدادية بكلية الطب.
- قاهري؟
- بل من (الشرقية) أساسًا.. ثم أنني نزحت إلى (المنصورة) وأعيش هناك..
ثم إنني ابتسمت في حرج.. وأردفت:.
- إنني قروي ساذج إذا كان يناسبك هذا النوع من التعبيرات..
- كلنا ذلك الرجل..
وبدأ في صبر يقص عضلات البطن بطرف المقص، كان دقيقًا في عمله وكأنه جراح محترف.. وبثقة ربط الوريد البوابي بقطعتي خيط ثم أدخل يد المبضع تحته ليغدو الوريد واضحًا للعيان.. وأردف:
- هو ذا الوريد..! والآن..
ثم اكفهر وجهه وهو يرمق البقعة الحمراء التي بدأت تنتشر فوق سطح الماء قادمة من أسفل الطبق كبقعة زيت قادمة من خط أنابيب نفط دمره طوربيد..، وأدركنا أننا فشلنا.. فتبادلنا الابتسامات الساخرة..
وتركنا مسرح الجريمة عالمين أننا - على الأقل - غدونا صديقين..

* * *

وتوطدت العلاقة بيننا..
عرفت كل شيء عن أصدقائه.. أسرته.. هواياته..، وعرفت أنه إنسان نادر..، لا يوجد إنسان بلا عيوب.. لكن عيوب (عماد) كانت خافية عن عيني أو هي - على الأقل - خافتة جدًا...
تجادلنا كثيرًا في السياسة والأدب.. وعما إذا كان (العقاد) مغرورًا أم عبقريًا.. وما إذا كان الإنجليز سيرحلون عنوة أو طواعية.. وما إذا كانت (فاتن) هي أجمل فتاة رأيناها في حياتنا أم هي - فقط - واحدة من أجملهن..
ولما كنا قد نشأنا في بيئات منغلقة فإننا حاولنا أن (نركب) عواطفنا على أول فتاة تصلح لأن نحبها، دون اقتناع حقيقي من جانبنا، ودون أدنى تشجيع من جانبها..
وطفقنا نقرض الشعر - كالفئران - ونكتب مئات القصائد عن كيف تضحك (فاتن) وكيف تقطب وكيف تمشي وكيف تجلس وكيف تأكل ساندوتشات (الطعمية) الساخنة..، وفي صباح اليوم التالي نلتقي أنا وهو ونتبادل قراءة القصائد.. تلك القراءة التي ندرك بعدها أننا خلقنا للعلم وليس الأدب.. ونمزق ما كتبناه ونضحك!..
أواه من لذعة الذكريات الحبيبة!..
كانت (فاتن) زميلتي في الكلية.. وكان عدد الفتيات محدودًا في دفعتي، وكان (عماد) يجيء ليتبادل معي الآراء المتمردة.. فكان يراها.. ولم أحاول منعه من المجيء لأن حبي لها كان باهتًا

يحتاج إلى صراع.. إلى تبادل آراء مع شخص آخر يعاني ذات الألم.. وكان (عماد) مناسبًا لأن يكون هذا الشخص..
معه بدأ هذا الحب يتخذ طولًا وعرضًا وارتفاعًا، وأضفى عليه عنصر المنافسة كل ما يلزم كي يصير حبًا حقيقًا كالذي نسمع عنه..

* * *

وفي مكتبة الكلية وقفت أنا وهو نقلب مجموعة من الكتب الثقافية بحثًا عن شيء لم نقرأه.. وكان هو يردد في عصبية:
- كتب.. كتب.. كتب.. متى وجدوا الوقت ليكتبوا كل هذا إذا كان القارئ لا يجد وقتًا ليقرأ كل هذا؟..
وفجأة لكزته بكوعي منبهًا..
كانت (فاتن) وإحدى صديقاتها واقفتين تقلبان صفحات كتاب سميك على بعد بضعة أمتار منا..
همس لي في حزم وهو يعيد الكتاب الذي في يده إلى الرف:
- هلم اتبعني!..
وتقدم نحوهما في حين سرت خلفه محاولًا منع نفسي من الفرار كالأرانب..
ووقف أمام (فاتن) عاقدًا ذراعيه على صدره.. وهتف في ثقة:
- أيًا ما كان موضوع هذا الكتاب فأنا مستعد لمناقشته معكما فورًا!
تبادلت هي وصديقتها نظرة حيرى، ثم رفعت الكتاب لترينا غلافه.. وكان مجموعة أشعار (إبن الفارض).. فتنهد (عماد) وبدأ يثرثر عن قيمة الشعر في حياتنا وهل التراث هو الأهم أم التجديد.. و.. و.....
لاحظت - في هلع - أنه لم يعد لي أي دور في هذه المحادثة وأن الفتاتين قد رفعتا رأسيهما الصغيرين ليصلا إلى مستوى هذا العملاق، وقد بدا عليهما أنهما ترشفان كلامه رشفًا..
تنحنحت.. قلت ملحوظة ما ثلاث مرات لكن أحدًا لم يصغ لي..، ونظرت إلى (عماد) فوجدته وسيمًا.. وسيمًا إلى حد لا يصدق.. إلى حد يثير الغيظ، أما أنا فكنت نحيلًا كالقلم الرصاص هزيلًا كالعنكبوت فقيرًا كـ (إبن دانيال).. وكان الصلع - حتى في هذا السن المبكر - يتحسس مقدمة رأسي في حذر..
قررت أن أنسحب.. ألقيت كلمة اعتذار مهذبة لكن أحدًا لم يهتم بالرد عليها..
لقد عرفت فتيات كثيرات بعد ذلك، وتعلمت أنني من الممكن أن أكون محبوبًا وأن تنبهر بي إحداهن، لكن مرارة هذا الموقف ستظل في حلقي - بعد خمسين عامًا تقريبًا - وسأحملها معي إلى القبر..
وفي اليوم التالي قابلت (عماد)..
وكما هو متوقع لم أستطع أن أخفي نوعًا من الفتور تجاهه باعتباره ذلك الذي نال كل شيء في الحياة دون أدنى جهد من جانبه..
سألني في مرح وهو يناولني لفافة تبغ (كان هذا هو العام الذي بدأت فيه التدخين للأسف):
- لماذا انصرفت بهذا الأسلوب أمس؟

قلت في اقتضاب:
- لأنني لا أحب (إبن الفارض)!..
- على كل حال لم يفتك الكثير.. لقد كانت (فاتن) هذه تافهة كالخنفسة وهي عاجزة حتى عن فهم لماذا تحب الشعر.. إنها تقرأ الشعر لأن الفتيات الحالمات جميعهن يقرأن الشعر!
ثم ربت على كتفي وأجلسني على السور الحجري الذي يحيط بالحديقة.. وسألني في حذر:
- اسمعني يا (رفعت).. هل سبب ضيقك هو ما أظنه؟
- أنا لا أعرف ما تظنه..
- إذن.. أصغ لي.. إن الرجل الذي يتخلى عن صديقه من أجل امرأة ليس رجلًا.. فالصداقة خالدة وثمينة جدًا ومن القسوة أن نخدشها بهذه الترهات.. ثم إنني لا أهتم بها شعرة وأقسم على هذا.. إنها حالة من التقمص حاولت وضع نفسي فيها وفشلت..
نظرت في عينيه.. ونفثت دخان التبغ متسائلًا:
- إذن.. بم تهتم؟!
نظر في شرود إلى بعيد.. عيناه ترحلان إلى عوالم أخرى لا أراها.. وهمس:
- لا أدري بالضبط.. إنني ظامئ إلى شيء لا أدري عنه شيئًا!.. أريد أن أعرف أكثر وأن أصل إلى الحقيقة.. صدقني يا (رفعت).. لست سعيدًا على الإطلاق رغم كل التدليل الذي تمنحني إياه الحياة.. لا يمكن لإنسان أن يحظى بالسعادة مع روح قلقة متمردة كالتي أملكها..
كانت هذه هي أهم عبارة قالها لي في حياته.. وعلى ضوئها أمكنني تفسير كل ما حدث له فيما بعد، ولهذا السبب أذكرها وأذكر النبرة التي قالها بها بعد كل هذه الأعوام...
وهنا قطع حديثنا صوت أنثوي مرح يهتف:
- لقد قرأت الكتاب الذي طلبت مني قراءته أمس!
كانت هذه (فاتن) وقد تغلبت على تحفظها الطبيعي لتأتي إلى حيث جلسنا ملوحة بكتاب ما في وجه (عماد) وكأنها تريد استكمال محادثة الأمس... نظر لي (عماد) نظرة ذات معنى وألقى لفافة التبغ بعيدًا.. ونهض متثاقلًا ليسير معها يتحدثان عن هذا الكتاب..
للمرة الأولى أدركت أنه يمثل دورًا اجتماعيًا لا يريده لمجرد أن يرضيها.. لسان حاله يقول:
تذكر.. إنها حالة من التقمص.. لا أكثر..

* * *

ومرت أعوام الدراسة..
وتخرج هو قبلي بطبيعة الحال وتم تعيينه في قسم النبات بالكلية أما أنا فكانت ثلاثة أعوام قاسية تنتظرني مع سنة تدريب وسنة عمل بالريف قبل أن أغدو طبيبًا مقيمًا للأمراض الباطنية بكلية الطب جامعة (.....)..
لم تمت صداقتنا.. لكنها خبت كالنيران في قطعة من الفحم.. ذهب وهجها لكنها مازالت هناك تمنح الدفء والضوء إلى حد ما، ولا ينقصها سوى بعض أنسام الهواء كي تبعث ثانية..
كان متميزًا في مجال تخصصه.. عرفت هذا وسمعت عنه الكثير من زملائه وطلبته..

ثم رشحته الدولة لنيل درجة الدكتوراه من (انجلترا) فسافر إلى هناك بضعة أعوام، وعاد إلى وطنه دكتورًا في علم (النبات).. لكنني لم ألقه منذ عودته لانشغالي في درجة (ماجستير) أمراض الدم..

كنا شابين ناجحين.. وكان المستقبل ينتظرنا.. وكل شيء يبشر بغد باسم مزدهر بالسعادة..

لكن الأمور لا تؤخذ بهذه البساطة... ولو أنك دنوت من لوحة زيتية جميلة لرأيت شقوق الزيت وتجعدات القماش، القبح الذي لا تراه حين تبتعد عن اللوحة..

كذلك البشر.. لو أنك سمعت عنهم من بعيد لسمعت أشياء رائعة.. ولتمنيت لو أنك كنت أحدهم..، أما لو دنوت منهم فسترى عجبًا..

متى دنوت من (عماد) لأرى شقوق الزيت على وجهه؟

كان ذلك عام ١٩٥٥

ولهذا قصة عجيبة سأحكيها لك في الفصل القادم..

* * *

٢ - موكاسا نيجرا!..

جذبت فرملة اليد في اللحظة الأخيرة فمنعت الحادث المروع..

لماذا لم تستجب الفرملة تحت قدمي؟.. لا أدري بالضبط.. أن أشياء غريبة تحدث لي هذه الأيام.. ولعل حداثة عهدي بالقيادة لها دور ما في كل هذا..

المهم أنني نزلت لأتلقى إهانات - أو على الأقل توبيخات - سائق السيارة (الأول) التي كدت أحطم مقدمتها، فوجدته هو.. هو (عماد) بشحمه ولحمه ووسامته..

صحيح أن السنين لم تترك مفرقيه وشأنهما، وصحيح أن تجاعيد دقيقة وجدت طريقها إلى ما تحت عينيه وحول فيه لكنه لم يتبدل كثيرًا.. وكان يضحك مما أكد لي أنه تعرف علي بذات الكيفية رغم أننا لم نلتق منذ خمسة أعوام..

- (رفعت)!.. أرى أنك ازددت قبحًا وخبالًا!

- وأنت ازددت وقاحة!

وتعانقنا.. وبدأنا نتبادل المعلومات عن الشلة.. (عادل) أصبح نقيبًا ونزح إلى (الإسكندرية).. كان دائمًا محظوظًا وسيظل.. لقد تزوج!.. تصور هذا المخبول فعلها وازداد عدد المعتوهين واحدًا.. بل اثنين لأن (ممدوح) فعلها هو الآخر بمجرد أن استلم عمله في البنك.. أما (عزت) فترك (سميرة) بعد خطبة طالت.. كذا قصص الحب دائمًا تنتهي نهاية مؤسية.. إما الفراق وإما الزواج!.. للأسف لم يمت أحد.. لكن (محمود) مريض جدًا.. من الواضح أنه سرطان الدم.. يا للبائس!.. لماذا لم يخبرني بذلك وأنا متخصص في أمراض الدم؟.. لأنك حمار يا عزيزي (رفعت)!.. من المستحيل أن نثق في أصدقاء صبانا وأن نسلمهم حياتنا مهما بلغوا من مناصب عليا.. لقد كنت تخطف منه (الفيشار) فكيف تريده أن يأتمنك على خلايا دمه؟!..

ضحكنا كثيرًا جدًا.. وذاب الزمان والمكان ولم تبق سوى اللحظة..

وأقسم أغلظ القسم على أن أذهب معه إلى داره لتناول طعام الغداء، وازداد تشبثًا لما علم أنني لا أملك عيادة خاصة..

وهكذا.. لم أر مفرًا من الذهاب معه لأنني لم أكن أملك مواعيد لألغيها..

كما أنني كنت - بالواقع - راغبًا في العودة إلى النهر القديم..

كان يعيش في (الزمالك) وحيدًا...

فيللا أنيقة حديثة الطراز من طابق واحد - كان (عماد) ميسور الحال كما قلت لك - يجلس على بوابتها بواب نوبي عجوز، ويمرح في حديقتها كلب من طراز (البلاك جاكت) لم يمنعه من افتراسي حيًا سوى زجر (عماد) له أنه من الخطأ افتراس الضيوف.

كانت الحديقة هائلة..

وهائلة هي الصفة الوحيدة التي يمكن بها أن تنعت هذا الدغل من الأشجار العملاقة الملتفة التي وصل بعضها إلى أحجام جديرة بأفلام الخيال العلمي..، وحتى نبات (الفيكس) البائس الذي تحول في شقتي إلى حزمة من الفجل بدا عنده كوحش أسطوري قادم من غابات (الأمازون)..

وكانت هناك صوبة زجاجية يصل طولها إلى ثمانية أمتار تتبدى خلف زجاجها المغطى ببخار الماء أوراق هائلة الحجم لنباتات أذكر منها شكلها دون أسمائها..

قلت في شيء من الذهول:

- إنك تجيد مهنتك حقًا!..

ضحك متهكمًا وهز كتفيه:

- لم أتخرج في كلية الزراعة فلا دور لدراستي إذن في هذا النماء.. إنه نموذج لما يمكن أن يقدمه علم خواص التربة..

- كنت أظن تخصصك هو النبات..

- طبعًا.. لكن علم النبات ليس هو العلم الذي يخبرك بالضرورة بأفضل الطرق لزراعة حديقتك..



قلت فى شىء من الذهول :

ـــ إنك تجيد مهنتك حقًّا !

ودخلنا إلى الفيللا الأنيقة التي ينطق كل ركن فيها بذوق سليم..
شيء مستفز!.. ولا قطعة أثاث في غير موضعها.. ولا تشكيل لوني واحد غير متناسق مع ما حوله.. أما الأسوأ فهو أن كل هذا كان يضوع بطابع البساطة المحببة.. بلا تكلف ولا جهد..
واتجه (عماد) إلى ركن القاعة وانتقى بعض الأسطوانات من مغلف أنيق.. وسألني:
- هل تحب (فاجنر)؟
قلت في فتور (فأنا بالمناسبة عدو الموسيقا الكلاسيك رقم واحد):
- أحبه إلى درجة أنني أفضل الموت ما لم أستمع إليه!
هتف في مرح وهو يضع الاسطوانة على جهاز (جراموفون) جميل الشكل:
- رائع!.. والآن فلنصغ معًا إلى صراع الأرواح القلقة التي أبدعتها عبقرية هذا الساحر.. إنني لا أمل هذه التحفة..
وتصاعدت من مكان ما بالقاعة النغمات القدرية الدوامية المميزة لـ (طائر النار) فشعرت أنني أحلق معها.. من العجيب أنني لم أكن أعرف اسم هذا العمل لكني فردت جناحين وهميين أطير بهما فوق أفاق لم أرها في حياتي لعوالم لم يزرها بشر..
وفي أثناء هذه الملحمة دق جرس الباب فاتجه (عماد) ليفتحه، كان هذا هو البواب الذي ناول (عماد) لفافة ما.. وعاد (عماد) حاملًا اللفافة وأحضر طبقين وأدوات طعام وكوبي ماء، وأعد مائدة صغيرة في قاعة الجلوس تصلح لنتناول عليها ما جلبه البواب من المطعم المجاور.. كان هذا كبابًا ساخنًا وكان هذا كافيًا ليغيب الأخ (فاجنر) في غياهب النسيان فلم تبق منه سوى ضوضاء مبهمة في مؤخرة وعيي..
وارتفعت أصوات المضغ والازدراد فالهضم..
سألته وأنا ألعق شفتي:
- تعيش على الطعام الجاهز؟
- أجده أكثر ملاءمة لحياة عملية.. إن مطبخ هذه (الفيللا) لا يحوي وعاء طهي واحدًا..
- هذا شأني أنا الآخر..
ونظرت له شاردًا..
لا أدري لماذا يا (عماد) أفتقر فيك الكثير من نزق الماضي ومرحه؟.. أنت هو أنت ولكن في طبعة ماسخة فاترة..
لماذا تعيش وحيدًا في هذه (الفيللا) الكئيبة؟.. لماذا فارقت أسرتك؟.. لماذا لم تتزوج بعد؟.. إن البرد يطل من كل ركن في هذا المكان رغم أناقته.. لأنها حياة بلا صديق.. بلا أهل.. بلا أطفال.. بلا زوجة..
أعرف أن حياتي الخاصة لا تختلف عن هذا كثيرًا لكن وضعي يختلف.. فأنا - وقتها - كنت في طريقي للسفر إلى (اسكتلندا) للحصول على درجة دكتوراه في أمراض الدم تحت إشراف السير (جيمس ماكيلوب)، وكنت سأقابل (ماجي) ابنته التي ستكون السبب الحقيقي في عدم زواجي.. كانت ظروفي لا تسمح بتكوين أسرة وقتها.. لكن ذاك لم يكن شأن (عماد)..
بعد الكباب - وبعد اسطوانة (فاجنر) - سألته عما يجول بخلدي من خواطر، فنهض ليضع أسطوانة لـ (موتسارت) رغم احتجاجي الصامت، وقال وهو يعود ليجلس على الأريكة:

- قلت لك مرارًا يا (رفعت) إنني روح قلقة.. روح لا ترضى بأي شيء من الأشياء التي يحبها أصحاب الأرواح المترهلة المتراخية.. إنني ثري لكنني تعس.. ناجح في عملي لكنني تعس.. لو تزوجت من فتاة حسناء سأظل تعسًا.. لو رزقت بأروع طفل في العالم سأظل تعسًا..

وفكر لحظة ثم أردف ببيت شعر لـ (أبو العلاء المعري) يقول:

ولو أن النجوم لدي مال نفت كفاي أكثرها انتقادًا

كان هذا هو لقاؤنا الأول بعد سنوات الفراق..

ولم أكن أعلم - ولم يكن هو يعلم - أن فراقنا سيطول كثيرًا.. وأننا لن نلتقي إلا في عام ١٩٦٨!، أي بعد ثلاثة عشر عامًا كاملًا تغيرت فيها أشياء وأشياء...

لقد سافرت إلى اسكتلندا (جامعة داندي) ثم عدت من هناك، وبدأت رحلة حياتي العجيبة التي اصطحبتكم فيها معي منذ قصة (مصاص الدماء) وحتى هذه القصة التي أحكيها لكم الآن..

بالطبع لم أملك وقت فراغ يسمح لي بإعادة الاتصال بـ (عماد).. ولم يكن هو يعرف طريقة اتصال مؤكدة بي لأن عنواني تبدل..

لكن الأرض مستديرة، أو كما يقولون (مصير الحي يتلاقى)..

وكان اللقاء الثاني في تلك الأمسية التي عدت فيها لداري منهكًا شاعرًا بالوحدة والوحشة في الأيام التي تلت انفصالي عن (هويدا)..، كدت أختنق من ثقل الساعات فوق روحي، وقد كنت في البداية أستطيع زيارة (هن - تشو - كان) - الكاهن الأخير - في شقته.. أما وقد آثر البقاء في (التبت) فلم يعد لدي سوى (عزت) جاري المثّال..

وبالطبع لم أجده فعلمت أنه في (الإسكندرية) كعادته يبحث عن وحي جديد.. إلى أين أذهب إذن؟

وهنا تذكرت (عماد) فجأة كما ينحسر المد عن سفينة غارقة نساها الناس منذ قرون.. لم لا أكرر زيارتي له؟.. ترى هل تزوج؟.. ترى هل سافر؟.. ترى هل مات؟!..

ودونما تفكير وجدتني أقود سيارتي في شوارع (الزمالك) معتصرًا ذاكرتي بحثًا عن مكان (الفيللا) التي زرتها منذ ثلاثة عشر عامًا..

أخيرًا وجدتها.. لم يتغير شيء سوى إهمال واضح في الحديقة، والبواب النوبي العجوز مازال جالسًا يدخن (الجوزة) ويبصق ويصغي للمذياع الصغير الذي وضعه جواره على الدكة..

دنوت منه وسألته - وقلبي يخفق - عن دكتور (عماد) فسعل ثلاث مرات.. وأمرني أن (استني هنا) بصيغة التأنيث التي يستعملها النوبيون.. وهرع إلى داخل (الفيللا).. بضع دقائق ثم عاد لي يدعوني للدخول..

- ولكن الكلب؟

- لم تعد هناك كلاب.. أدخلي ولا تخافي..

وفتح لي البوابة عن آخرها، فدلفت منها أجر قدمًا وراء قدم.. ما بين صفوف الأشجار العملاقة التي أجهل اسمها، والنباتات التي جاءت لتوها من المريخ..

غريب هذا السكون.. السكون المريب..

لا صوت هنالك سوى صوت أعشاب تتهشم تحت حذائي، وثمة سحلية صغيرة بائسة تختفي في وجل بين الخضرة وقد أزعجها قدومي غير المتوقع..

كان هناك خرطوم مياه على الأرض يفرغ تيارًا منتظمًا من الماء على جذور شجيرة برتقال طفلة.. فمضيت أتتبع ذلك الخرطوم عالمًا أنه سيقودني إلى صنبور ربما يقف (عماد) جواره..

وهنا وجدت حوضًا صغيرًا به نباتات لم ار مثلها في حياتي..

كانت الأوراق مسودة حافاتها حمراء كالدم.. وكانت أشواك حادة بشعة المظهر تحيط بكل ورقة على امتداد محيطها..، ارتفاع النبتة يقترب من المتر ولها رائحة غريبة لم ترق لي كثيرًا..

وجدت لافتة خشبية صغيرة مزروعة على حافة الحوض كتب عليها بحروف لاتينية (موكاسا نيجرا)..

إذن هذا هو اسم النبات.. غريب أن يكتب أحدهم أسماء النباتات في حديقته كأنه معرض أو متحف تعليمي..

إن (نيجرا) كلمة لاتينية معناها (أسود).. وما دام هذا النبات أسود فلابد أن نبات (الموكاسا ألبا) - (ألبا) باللاتينية معناها (أبيض) - ينتظر على بعد أمتار من هنا..

مشعلًا سيجارة (للأسف كانت محاولتي الأولى للإقلاع قد فشلت) مضيت أتأمل المزروعات واضعًا يدي في جيبي..، لم تكن ثمة أسماء أخرى فقد انتهى دور (عماد) التعليمي عند نبات (الموكاسا) فيما يبدو..

ومن الواضح أنه يعلق أهمية معينة على هذا النبات..

كنت مديرًا ظهري للنبات الذي وصفته لك وقد انحنيت أتأمل النباتات الأخرى في فضول.. النباتات ذات المظهر المألوف لي..

حين حدث شيء مفزع..

* * *

٣- إنه حيّ!..

حتى في تلك الآونة كنت ساذجًا..
وكنت بحاجة إلى المزيد من الدروس عن الحياة والمخلوقات..
الحق أقول لكم أنني كنت أجهل حقيقة مروعة: حينما تجد نباتًا لا تعرفه فليس من الحكمة أن تدير ظهرك له!..
وسأقول لكم حالًا كيف تعلمت هذه الحقيقة..

* * *

سمعت صوت حفيف من وراء ظهري فأجفلت واستدرت لأرى..
قلبي سقط في قدمي لثوان ثم أنه - بعد أن رأى ما رأى - ظل في قدمي رافضًا أن يعود لمكانه!..
رأيت - غير مصدق ولا متوقع - أوراق النبات إياه تفتح وتغلق مرارًا لا حصر لها كأنها قد جنت، والأسوأ هو أنها كانت تتلوى فوق سيقانها.. والسيقان نفسها تتلوى كأنها ترقص رقصة محمومة..
ورأيت شيئًا طويلًا - كأذرع النباتات المتسلقة - يخرج من بين السيقان مرتفعًا ببطء نحو وجهي!..
مستحيل!.. ليس هذا صحيحًا!..
هل صرخت وجلًا؟.. أظن أنني فعلت.. حتمًا فعلت.. ووثبت إلى الوراء كرد فعل تلقائي محاولًا الابتعاد عن هذا الكابوس..
وهنا حدث شيء لا يصدق..
وثب الذراع الطويل - كلسان حرباء يلتقط حشرة - إلى معصمي.. وقبل أن أفهم ما حدث التف حوله مرتين أو ثلاثًا.. وشرع يجذبه نحو النبات الأم بقوة لا بأس بها!..
في البدء ظننت أنها أفعى كانت غافية بين سيقان النبات.. ثم بدأت أدرك أنه - بالفعل - جزء من النبات ذاته..
الرعب يقتلني لكنني قادر - رغم كل شيء - على انتزاع هذا الذراع بل وانتزاع النبات نفسه من مكانه، فإن أنسجته هشة حقًا..
لكنني شعرت بوخز في معصمي..
أدركت - في هلع - أن هذا الذراع يحقنني بمادة ما، كالتي يحقن بها العنكبوت ذبابة أضخم منه ليستطيع امتصاص أحشائها.. لا بد أنه مخدر أو مادة تسبب الشلل وبالتالي سيكون من السهل على النبات أن يجذبني إليه ليبدأ الحفل..
بالفعل.. قواي تخور.. تنميل في اطرافي.. عرق بارد..
ثم.....

الظلام.. الأسود العظيم يدعوني إلى مأدبته.. و.....

* * *



وثب الـذراع الطـويل ـ كلسـان حربـاء يلتقط حشـرة ـ إلى

معصمي ..

مذاق الليمون الحمضي يغمر لعابي..
ثم قرص (النيتروجلسرين) المر تحت لساني يذوب.. يذوب.. هلمي يا شراييني التاجية استسلمي للمسة (النترات) الحانية.. تفتحي.. تفتحي.. وامنحي الدماء لقلبي الشيخ..
وحين فتحت عيني كان هناك.....
لقد تجاوز الأربعين مثلي لكن شتان بين أربعين وأربعين.. أربعون عامًا أطاحت بشعر رأسي وأوهنت نظري وأصابتني بالهزال، أما (عماد) فقد أضافت له السنون رونقًا وسحرًا وجاذبية..
كنت مضطجعًا على أريكة مريحة في رواق داره، وكان هو راكعًا على ركبتيه جواري يحمل في يده زجاجة الـ (نيتروجلسرين) التي وجدها في جيب بذلتي.. لابد أنني طلبت منه أن يدس قرصًا في فمي منها..
نظرت إليه بعينين زائغتين فبدا عليه الرضا.. وهتف متنهدًا:
- أخيرًا يا (رفعت)!.. كدت تقتلني رعبًا!
- ليتني فعلت!..
وفهمت منه أنه - بعد أن أخبره البواب بقدومي - بدأ باستبدال ثيابه توطئة لاستقبالي، ولم يتوقع أن البواب الأحمق سيتركني أجتاز الحديقة وحدي، ولم يخطر له أنني - المعتوه - سأقوم برحلات استكشافية بين الأشجار حيث لا ينبغي أن أذهب..
فهمت منه كذلك أنه خرج إلى الحديقة بحثًا عني فسمع صرخة.. ولما ذهب إلى حيث كنت وجدني مصابًا بنوبة قلبية جوار نبات الـ (موكاسا نيجرا) الذي يربيه في الحديقة، وبصعوبة جرني جرًا إلى داخل البيت حيث قدم لي شراب الليمون وقرصًا من هذه الأقراص التي يحملها مرضى القلب دائمًا ولا يجدون أبدًا الوقت الكافي لتناولها قبل أن يموتوا.. وهأنذا - ولله الحمد - حي أرزق..
صحت في حنق وأنا أقاوم رغبتي في خنقه:
- لم أتوقع أنك جننت تمامًا في تلك السنين التي لم أرك فيها...
وإلا - بالله عليك - ما الذي يدعو إنسانًا عاقلًا لتربية هذا الوحش الذي كاد يقتلني؟!
في دهشة حقيقية تساءل:
- عم تتحدث بالضبط؟.. أي وحش؟
- النبات المشئوم الذي..!..
نظر لي هنيهة غير مستوعب لكلامي.. ثم أشرق وجهه بالفهم فضحك.. وطفق يشرح لي ما خفي عني:
- إذن كانت الهلوسة البصرية هي التي أصابتك بالنوبة!.. الواقع يا عزيزي (رفعت) أنك كنت ضحية هلوسة مريعة تسببها الرائحة التي يطلقها هذا النبات..
- تعنى أنه لم....؟
- لا أدري ما فعله معك.. لكن أيًا ما كان ذلك فهو غير حقيقي!.. والآن دعني أحك لك القصة من بدايتها..

* * *

قال (عماد):

أنت تعرف أنني كثير الأسفار..، ولقد بدأ كل شيء في رحلة قمت بها إلى الولايات المتحدة حيث قابلت الأستاذ (ديفيد أوبريان) وهو عالم نبات له مقالات عدة لا بأس بها واسمه تعرفه كل المحافل العلمية المختصة..

كانت صداقة حميمة حقًا.. وعندما حان وقت الرحيل أهداني كيسًا صغيرًا من (النايلون) به بذور غريبة الشكل قال لي إنه وجدها في مكان ما قرب مجرى نهر (الأمازون).. ودعاني إلى أن أحاول استزراعها في مناخ (مصر) الدافئ لأن كل محاولاته لاستنباتها قد باءت بالفشل..

سألته عن اسم النبات، فقال لي إنه لا يعرفه.. بل وأن هناك احتمالًا لا بأس به أنه لا أحد يعرفه.. ربما كان هذا النبات بكرًا لم يصفه بشر بعد..

عدت إلى (مصر) ملهوفًا إلى أن أبدأ تجاربي على هذا النبات العجيب، وكنت منظمًا كعهدك بي.. فقسمت البذور - بعد فحص بعضها تحت المجهر - إلى ست مجموعات قمت بزراعة كل منها في تربة وظروف جوية مختلفة وإن ملت إلى رفع درجة الحرارة لأن المؤكد أن هذا النبات كان ينمو في درجة حرارة دافئة..

وطفقت أنتظر....

* * *

كانت هذه الأحداث منذ ثلاثة أعوام (والكلام لم يزل لـ (عماد)، وخيبة الأمل كانت الثمرة الوحيدة التي سمح لي أن أجنيها.. وبدأت أتساءل عما إذا كانت هذه البذور حية أم ميتة.. إنني لم أميز (الجنين) تحت المجهر ولم أستطع تمييز أية أنسجة فهل هي قديمة إلى هذا الحد؟..

كان الضيق يمزقني والإحساس بالفشل يعتصرني وخطابات الأستاذ الأمريكي تزيد عذابي. قلت لك لا جدوى.. أنا حاولت كثيرًا من قبلك،، وأنت تعرف روحي القلقة يا عزيزي (رفعت)..

أنت تعرف تعطشي الدائم إلى المجهول.. وأنت تعرف أنني لم أكن لأستريح حتى ألمس الحقيقة..

وجاء الجواب في ليلة صيف رائعة نمت فيها أحلم بشريط حياتي الحائرة بحثًا عن شيء لم تستطع ثروتي ولا معرفتي أن تقدمه لي..

وفي منتصف الليل سمعت جلبة معينة قادمة من أحد أركان (الفيللا)، فارتديت روبي وخفي وخرجت أبحث عن مصدر الصوت مطمئنًا إلى أنه لن يكون لصًا لأن كلبي الشرس (موكاسا) يحميني كالشيطان ذاته من بطش اللصوص.. إن اللص الذي يدخل داري هو ميت مالم يصرخ لننقذه من الكلب..

وفي حجرة المكتب وجدت ذلك اللص البائس يحاول فتح الخزانة الرقمية الموضوعة هناك على ضوء بطارية.. ورغم دهشتي عن كيفية دخوله لم أفقد ترتيب أفكاري.. من ثم تسللت بخفة إلى خارج الحجرة وجذبت الباب خلفي ثم أحكمت غلقه بالمفتاح من الخارج عالمًا أن الحجرة بلا نوافذ.. وهرعت إلى الهاتف أطلب الشرطة..

وحين جاء هؤلاء - بعد نصف ساعة - قبضوا على اللص الذي وقع كفأر في مصيدة.. وأخبروني أنه دخل من نافذة حجرة الجلوس بعد أن قطع زجاجها بماسة يحملها..

أخبروني - كذلك - أنه تخلص من الكلب ليتسنى له الدخول عن طريق إلقاء رغيف مملوء باللحم المفروم في طريقه.. وكان اللحم المفروم مخلوطًا بمادة (الزرنيخ) التي التهمها عزيزي (موكاسا)

في نهم ليلفظ أنفاسه الأخيرة، ويتمكن اللص من اقتحام (الفيللا) أملًا في سرقتها دون أن أستيقظ أنا..
كانت - بالتأكيد - مغامرة بائسة، ولم يستفد منها أحد.. لا اللص ولا الكلب ولا أنا.. واحد فقد حريته وواحد فقد حياته وواحد فقد كلبه العزيز..
وكل هذا من أجل حفنة جنيهات..
المهم أن دموعًا كثيرة بللت جثة الكلب، وآليت على نفسي لأدفنه بنفسي في الحديقة بين الأشجار التي أحبها في حياته كثيرًا..
وفعلت ذلك وتبًا لها من مهمة قاسية!
بعد يومين لا أكثر بدأت ألاحظ أشياء أثارت ذهولي..
فنافشة أوراقها بدأت سيقان سوداء تبرز من التربة - حيث واريت جسد الكلب - وكلها تحمل أوراقًا سوداء لها حواف حمراء تجللها الأشواك..
نبات لم أر مثله قط ينمو بسرعة لم اعهدها.. وهنا تذكرت..
لقد كنت غرست بعض البذور في هذه التربة منذ زمن بعيد في محاولتي لاستنبات البذور التي أعطانيها الأستاذ الأمريكي.. ونسيتها تمامًا..
فجأة تذكرت هذه البذور إنها حية وإنها يجب أن تمارس ما خلقت له..
فما سر هذا التحول المفاجئ بعد كل هذا الصمت؟!..
الإجابة معروفة لنا جميعًا.. إنها جثة الكلب المتحللة التي منحت البذور موردًا هائلًا من (النيتروجين) و (الكبريت) و (الهيدروجين) كانت تحتاج إليه..
وها هو ذا الحادث الأليم قد أفادني كثيرًا.. وقدم لي الجواب..
إن بذور هذا النبات لا تنبت إلا في تربة تحوي كائنًا عضويًا متحللًا وهو ما لا بد أنها كانت تجده بكثرة في (الأمازون)..
سيكون اسم النبات هو (موكاسا) تخليدًا لذكرى كلبي.. ونظرًا لأن قواعد التسمية الصارمة التي وضعها (لينيوس) تحتم وجود مقطعين للاسم فإنني سأسمي النبات (موكاسا نيجرا) نسبة إلى سواد أوراقه العجيب، وليكونن (موكاسا نيجرا) هو حديث العلماء في العقد القادم.. وليكون هو شغلي الشاغل في الأيام القادمة..
تشريحه.. أسلوب تكاثره.. تمثيله الغذائي.. كل هذا وأكثر لا بد وأن يدون ويوصف بدقة..
ثم - السؤال الأهم - ما سر نهم هذا النبات المحموم إلى (النتروجين)؟
إنه في هذا يتصرف كالنباتات المفترسة - وعددها خمسمائة نوع في العالم - التي تعيش في تربة فقيرة في (النتروجين) من ثم تعوض حاجتها له عن طريق اصطياد الحشرات وهضمها بواسطة إنزيمات (التربسين) و (الببسين) المماثلة لما تفرزه معدة الحيوانات آكلة اللحوم..
إن هذه النباتات أعجوبة حقيقية.. فمنها ما يطبق بأوراقه - كالمصيدة - على الحشرة التي يقودها سوء أخلاقها إلى الاقتراب من هذه النباتات.. ومثالها نبات (ديونيا)..
ومن هذه النباتات ما يفرز سائلًا لزجًا على الأوراق تلتصق به الحشرات..
ومثالها نبات (بينجويكلا) الذي رأيته في مستنقعات (انجلترا)..
ومنها نباتات ذات وعاء أنبوبي مبلل لتنزلق الحشرات على حافته فتسقط داخل الوعاء.. ومثالها نبات (سراسينيا) في أمريكا الشمالية..

لكن الـ (موكاسا) يختلف.. فهو لا يملك أية حيل مماثلة، والذباب يقف على أوراقه طيلة الوقت دون أن يبدي هذا اهتمامًا..

إنه ليس نباتًا مفترسًا أو هو - على الأقل - يتظاهر بالبراءة..

لقد أمضيت عامًا كاملًا مع هذا النبات ولم أر شيئًا يثير ريبتي.. إلا أن هناك نقطتين هامتين يجب ذكرهما:

النقطة الأولى: هي أنه يطلق زيتًا عطريًا معينًا له خواص غامضة.. لكنه يسبب هلاوس بصرية وسمعية شنيعة.. وأنا أعرف أنك جربت هذه الهلاوس.. وهي خطرة بالفعل بالنسبة لضعاف القلوب..

النقطة الثانية: هي أن النبات لا يحوي جزيء (كلوروفيل) واحدًا.. مثله مثل النباتات الطفيلية كلها، لكنه يحوي مركبًا أحمر اللون لا أعرفه..

وهذا المركب يختزن (الأكسجين) ويطلقه على فترات متباعدة..

أعرف أن كلامي يبدو سخيفًا، لكن هذا المركب يذكرني بالدم البشري إلى حد مفزع!!

.....!

* * *

٤ - تساؤلات..

كان الدوار قد تلاشى وبدأ رأسي يتزن على كتفي.. فجلست على الأريكة للمرة الأولى وحككت رأسي وسألته:

- ماذا تعني بقدرة النبات على إحداث هلاوس؟

في حماس.. غمغم وهو يجلس على أريكة أخرى:

- لم لا؟.. كم نوعًا من المخدرات تم استخراجه من ثمرة الخشخاش؟ وكم من الهلاوس يحدثها نبات (البيللادونا)؟.. شيء مألوف وطبيعي أن تخرج من نبات ما رائحة تسبب الهلوسة..

- وما هذا الصبغ الأحمر الذي تتحدث عنه؟

هذه المرة نهض في حماس، وغاب عن عيني بضع دقائق أخذت أتأمل الشقة فيها ثم عاد لي حاملًا أنبوب اختبار مغلقًا بسدادة من الفلين.. كان الأنبوب يحوي مادة حمراء اللون قانية..

قال وهو يناولني إياها:

- هي ذي.. لقد فشلت تماما في معرفة كنهها..

دسست الانبوب في جيب سترتي.. وقلت في توتر:

- دعني أحاول.. إن التحليل (الكروماتوجرافي) سيساعدنا كثيرًا.. ولكن لا تقل لي إنك لم تطلب عون أحد زملائك من أساتذة الكيمياء..

- لا أريد إقحام أحد في هذا الموضوع كما تتوقع.. إن نبات (موكاسا) ملك لي وحدي ولربما أنت أول مخلوق يعرف ما أعرف..

- إذن ثق في..



هذه المرة نهض فى حماس ، وغاب عن عينى بضع دقائق ، أخذت
أتأمل الشقة ، فيها ثم عاد لى حاملاً أنبوب اختبار ..

وساد الصمت لبرهة..
غريب عليك يا (عماد) أن تنغلق على نفسك لتعيش مع هذا الكابوس.. أنا أفهم الفضول العلمي تمامًا لكن هذا الفعل جدير بشخصية أخرى.. شخصية معقدة انطوائية تهوي أكسجين الوحدة.. وتعشق ظلال الليل.. شخصية هي أقرب للوطاويط منها للبشر.. شخصية هي أبعد ما تكون عنك..
لكن الأعوام تغير الكثير.. إنها تبدل تضاريس الجبال فكيف لا تبدل تضاريس شخصيتك؟..
دون كياسة سألته وأنا أنظر في عينيه:
- لماذا لم تتزوج بعد يا (عماد)؟
هز يده في توتر.. وأبعد عينيه عني:
- لأني لا أحب الخداع!.. هذا هو كل شيء!
ثم انتابته حالة من العدوانية فرفع حاجبه الأيسر متسائلًا في تحد:
- ولماذا لم تفعل أنت؟
- لأنني لم أنضج بعد إلى الحد الكافي.. أبدًا لن أصدق أنني كبرت وصرت صالحًا للزواج كالآخرين!
تحاشى النظر إلى عيني.. ففهمت على الفور ما يريد قوله وما يعنيه بلفظة (خداع).. ولم أر من صواب الرأي أن أستفسر أكثر فغيرت الموضوع سريعًا إلى سؤاله عن أحواله، وإلى ثرثرة طويلة عن حياتي وأحداثها في الآونة السابقة..
وحين عدت إلى داري كان الليل قد انتصف..
وسجائري قد نفدت..

* * *

شقتي الكئيبة الحبيبة!..
اتجهت إلى جهاز التسجيل فوضعت بكرة عليها حفل (لأم كلثوم)، وعلى الموقد وضعت براد الشاي وبدأت أنضو ثيابي - في الصالة كدأبي - ثم دلفت إلى الحمام لأفتح المياه الساخنة.. فأنا بحاجة إلى حمام يغسل عن جسدي آثار مغامرة الأمسية..
الماء!.. الماء الحبيب!.. توأم روحي.. و..... آي!..
هذا الألم المبهم في معصمي.. ما سره؟!..
خرجت من تحت شلال الماء لأرى ما هنالك.. فوجدت وخزات عدة كآثار إبر تركت رءوسًا حمراء في جلدي..
كان البخار يملأ المكان.. وصوت (أم كلثوم) الدافئ الحارق يردد (هذه ليلتي).. والماء ينساب على أهدابي فيحجب الرؤية..
لكني شعرت بالرعب يزحف عبر عمود الفقري.. والشعيرات الباقية في رأسي تنتصب..
إذن لم يكن وهمًا!..
الذراع التي قذفها النبات ليجذبني إليه كانت حقيقة واقعة.. وهذه الآثار دليل قاطع على ذلك..
ودون أن أدري ما أفعله، أغلقت صنبور الماء وجففت جسدي.. غادرت الحمام مبلل الفكر لأرتدي منامتي، وأجلس في الصالة أرشف الشاي وأفكر..

لم يكن وهمًا!..
معنى هذا أن هذا الكابوس حقيقة واقعة.. ومعناه أن (عماد) إما كاذب وإما مخدوع...

* * *

"لو أن المرء نام فحلم بالفردوس، ورأى نفسه يلتقط زهرة من هناك.. ثم إنه عند استيقاظه وجد الزهرة في يده..... أواه!.. ثم ماذا بعد ذلك؟"
من قصيدة لـ (كولردج) تذكرتها على الفور..

* * *

تناول منى د. (صبحي) المدرس بكلية الصيدلة ذلك الأنبوب الذي يحوي السائل الأحمر.. فتأمله في رفق ثم نظر إلي متسائلًا:
- بالطبع يمكننا أن نجري عليه التحليل الكروماتوجرافي.. ولكن لماذا لا تحاول أن ترى الأنبوب عبر الـ (سبكتروفوتومتر)؟
فكرة لا بأس بها ولم تخطر لي قط..
لهذا توجهت معه إلى المعمل حيث باشر إعداد العينة لكلا الاختبارين.. ثم ناولني أنبوب اختبار يحوي المادة مخففة ومعها عدسة الـ (سبكتروفوتومتر) السوداء الصغيرة..
سرت إلى النافذة ورفعت الأنبوب أمام النور ووضعت العدسة على عيني لأتمكن من رؤية خطوط الطيف التي ستقطعها خيوط سوداء تحدد نوع المادة..
قال د. (صبحي) وهو يفرغ سحاحة صغيرة في أنبوب اختبار:
- إن هذه المادة تشبه (الهيموجلوبين)[1] إلى حد غير عادي.. ألا ترى ذلك؟
ولما لاحظ أنني لم أرد ناداني في إلحاح:
- هيه!.. (رفعت).. هل هناك شيء؟
دون أن أدير ظهري أو أرفع العدسة عن عيني.. همست:
- بالفعل.. هناك أشياء..
- عم تتحدث بالضبط؟
- إن هذه المادة لا تشبه (الهيموجلوبين).. إنها هي (الهيموجلوبين) ذاته!!

* * *

- مستحيل!.. أنت تقول إن أصلها نباتي.. أنت تعرف أن جزيء (الكلوروفيل) - الصبغ المسئول عن التمثيل الضوئي للنبات - يماثل جزيء (الهيموجلوبين) إلى حد غير عادي.. لكن الخلط بينهما لا يمكن أن يحدث..
- إن لون (الكلوروفيل) أخضر يا (صبحي)..
وتركته يحاول فصل المادة بالتحليل (الكروماتوجرافي)، وركبت سيارتي عائدًا إلى داري، فما أن دخلت حتى هرعت إلى الهاتف لأطلب (عماد).. سمعت صوته الرزين يسأل عمن هناك.. فقلت

في لهفة:
- (عماد).. لقد حللت المادة الحمراء.. أنت نباتي التفكير تمامًا لهذا لم تحاول البحث عن (الهيموجلوبين)، أما أنا فحيواني التفكير - إذا صح هذا التعبير - ولقد بحثت عن (الهيموجلوبين) فوجدته!
سمعت صوته يتساءل في برود:
- وما الذي يعنيه ذلك؟
نافد الصبر صحت فيه وأنا أوشك على الانفجار:
- حسن!.. أنت تربي في دارك نباتًا وقحًا يؤذي الضيوف ويطلق رائحة مخدرة.. بل - الأسوأ - تجري في عروقه دماء بشرية!
ألا تجد في كل هذا ما يثير الريبة؟!
عاد صوته يقول في شيء من الكبرياء:
- كل ما أعرفه يا عزيزي (رفعت) هو أن هذه ظاهرة علمية تستحق أن ندرسها ونحللها.. لا أن نطلق صيحات الهلع، وإنني لأتوقع منك أن تجد تفسيرًا..
قلت له مغتاظًا:
- أصدقك القول أنني لا أرتاح كثيرًا لهذا النبات.. ولو كنت مكانك لسكبت فوقه زجاجة (كيروسين) وأحرقته..
- لحسن الحظ أنك لست مكاني!
لم أصارحه برأيي في أكذوبته عن (الرائحة المخدرة) ربما لأنني توقعت أنه قد لا يكون كاذبًا بعد كل شيء..
وفي المساء توجهت إلى (الفيلا) لأقابله وأحدثه عما يعتمل في ذهني من هواجس..
كان البواب النوبي جالسًا يستمتع بأنسام المساء على صوت أغنية من جهاز المذياع، فحييته.. رد التحية متوقعًا أن أطلب الدخول..
لكني تربعت على الدكة بجواره وأخرجت علبة سجائري وقدمت له واحدة رفضها في عناد لأنه لا يشرب سوى (المعسل) كما قال..
كان اسمه (عبد الودود).. وكان نمطًا رائعًا للرجل الذي شاب رأسه وقلبه من فرط التجارب فلم يعد يبالي بشيء، ولو كان عندي من الوقت أو سعة الصدر ما يسمحان بالاسترسال لسودت أربع صفحات كاملة في الحديث عنه، أما وأنا من أنا من ملل ونفاد صبر فأكتفي بالقول أنه بدأ يثرثر بعد جهد جهيد وبدأ يمنحني ثقته التي ضن علي بها في البدء باعتباري ذلك (الأفندي) الفضولي غريب الأطوار الذي يفضل الجلوس مع البواب بدلًا من الجلوس مع صاحب الدار..
وعرفت أنه يقيم في غرفة صغيرة جوار البوابة مع زوجة هي أقرب للجثث، وذلك بعد أن تزوج الأولاد ورحل بعضهم عن عالمنا..
سألته - متظاهرًا بعدم الاكتراث - عن الحديقة، فقال لي إنه ممنوع من السير فيها لأن (عماد بك) يعني بها بنفسه ولا يسمح بأي تدخل..
- والضيوف؟.. هل هم أيضًا ممنوعون؟
بصق على الأرض ومسح بصقته بحذائه الكبير.. وغمغم:
- ضيوف؟.. لا أحد يجيء هنا.. أنت أول من يدخل هذه الحديقة منذ عشر سنوات!

أطلقت صفيرًا ينم عن الدهشة.. ثم سألته في حذر:
- إذن لم يرحب (عماد بك) بسماحك لي بالدخول هنا في المرة السابقة؟
- يااااه!
قالها بصيغة المبالغة.. وأردف:
- لم يكف عن لومي على تركك تجتاز الحديقة وحيدًا.. إن (عماد بك) يأبى أن يجتازها أي إنسان حتى أنا..
وحتى تموين الأسبوع من اللحوم أتركه جوار البوابة حتى يأتي ويأخذه هو..
أثارت هذه النقطة فضولي:
- تعنى تموين الأسبوع من الأطعمة عامة؟
- بل من اللحوم.. باقي الأطعمة يشتريها هو بنفسه..
أما اللحم فأشتريه له بسعر رخيص من بقايا الذبائح في (السلخانة)..
- بقايا ذبائح؟!.. وهل يأكلها هو؟
هز رأسه في لامبالاة أقرب للغباء.. وقال:
- يأكل بقايا الذبائح؟.. كنت أظنك متعلمًا وسريع الفهم!..
- وأنا كذلك.. إذن ماذا يفعل بها؟
تثاءب ورفع قدمه على الدكة ورفع صوت المذياع قائلًا:
- وما شأني أنا بذلك؟.. هو حر فيما يفعله.. والآن حان الوقت لتدخل إليه أو لتنصرف.. إنني أعرف أساليب الفضوليين هذه.. صدقني أنا أعرفها تمامًا!
.....

* * *

٥ - كشف الأوراق..

في هذه المرة خرج (عماد) ليستقبلني عند باب (الفيللا).. كان يرتدي روبًا أنيقًا من تحته القميص وربطة العنق فبدا كزير نساء في أحد الأفلام المصرية العتيقة، خاصة وأن ثراءه وحياته وحيدًا يثيران التساؤلات في الأذهان.. وهنا خطر لي أن المرأة التي يفوتها قطار الزواج يسميها المجتمع عانسًا وينسى أمرها تمامًا، أما الرجل الذي يفوته القطار - مثلي - فإنه يظل فريسة التكهنات والظنون حتى يواريه القبر.. ليس المجتمع قاسيًا على النساء إلى الحد الذي يحسبنه!..

نظر (عماد) إلى البواب العجوز نظرة استكشافية سريعة، ثم صافحني واقتادني إلى الداخل غير ناس أن يسألني:

- أنت هنا من زمن؟

وذلك - بالطبع - ليتأكد مما إذا كان البواب قد ثرثر أكثر من اللازم.. فقلت:

- وصلت منذ ثوان..

كنا نسير بين الأشجار قاصدين المنزل الغافي بينها، وكنت شغوفًا بأن أعود إلى البقعة التي قابلت فيها النبات أول مرة.. لكنه كان مقتضبًا وفاترًا - (عماد) لا النبات طبعًا - إزاء هذه الرغبة.

- فيما بعد.. فيما بعد!

قالها لي وهو يقودني إلى باب المنزل الموارب..

بعد ثوان.. صوت ضربات القدر الذي أنجبنه عبقرية (بتهوفن) يدوي عبر سماعات متناثرة في أرجاء القاعة، وكأس من عصير الليمون المثلج بين أصابعي.. و (عماد) يجوب المكان في شيء من العصبية..

قلت له بعد دقائق:

- (عماد)..

- هم م م م؟

- إذا أردت ألا يصيبني الجنون؛ فاجلس بحق السماء!

جلس بعد تردد.. فواصلت أسئلتي:

- ماذا تفعل بكل هذا اللحم الذي يجلبه البواب؟!

كأنما كان ينتظر هذا السؤال، لم ينكر شيئًا ولم يسألني كيف عرفت.. بل أجاب في كياسة وهو يرشف كأسه:

- قلت لك أن نبات الـ (موكاسا) لا ينمو إلا في تربة بها مادة عضوية متحللة.. وأنا لن أقتل كلبًا وأدفنه كل يوم!

- إذن هناك أكثر من نموذج لهذا النبات في دارك؟

- وفي الحمام.. وفي المكتب.. وفي غرفة النوم.. إنني أراه جميلًا ولا يمكن لك أن تحاسبني على ذوقي الخاص..

- والرائحة التي تسبب الهلاوس؟

- حسن.. لنقل أنني اعتدتها كما اعتاد (راسبوتين) السم[2]!
ساد الصمت للحظات.. فلم يعد هناك ما يقال..
بعد برهة أشعلت لفافة تبغ، وقلت له ضاغطًا على حروفي:
- (عماد).. أنا أعرف أنك تخفى عني شيئًا.. أنت تعرف كما أعرف أن هذا النبات غير طبيعي.. ومهاجمته لي في المرة السابقة لم تكن وهمًا.. الثقوب التي في معصمي تقول إنه لم يكن وهمًا.. لقد كان يحقنني بمادة هي إلى (الكورار) أقرب..، وتعرف أنه كان يتحرك.. بل أنت تمنع البواب والضيوف من السير في الحديقة.. لماذا؟.. لأنك تعرف جيدًا الخطر الحقيقي المتربص وراء هذا النبات..
كان نفسي قد انقطع من الانفعال فالتقطته.. ثم قلت في رزانة:
- (عماد).. يجب أن تخبرني بكل ما تخفيه وإلا لن أكون ذا عون لك..
نظر لي في حيرة هنيهة..
ولثوان ظننته موشكًا على الكلام لكن ظني خاب.. اكتفى بأن قال وهو يدير ظهره لي:
- (رفعت).. سبق لك أن سألتني عن عدم زواجي وقلت لك إنني لا أحب الخداع.. هل فهمت ما أعنيه وقتها؟
قلت في كياسة محاولًا أن أبدو رقيقًا:
- بالطبع فهمت..
همس بصوت رصين يضغط على كل حرف من كلماته:
- لقد أحببت تلك الفتاة كثيرًا.. ولأنني أحببتها قمت بإجراء التحليلات اللازمة وكانت النتيجة واضحة: من المستحيل أن أكون أبًا ولا زوجًا.. ولأنني أحببتها كثيرًا أخبرتها بكل شيء.. فاختارت الانفصال لأنها لن تتخلى أبدًا عن حلمها بالأمومة وهذا سلوك شريف منها بالطبع..
هل كان يبكي؟.. لا أدري حقًا لكن غمامة ما تسربت إلى نبراته وهو يستطرد:
- هكذا ترى.. لن أمشي أبدًا في الشارع ممسكًا بيد صغيرة مرتجفة لطفل أعرف أنه من صلبي، ولن أهرع في الليل باحثًا عن طبيب توليد أو طبيب أطفال، ولن أعود لداري حاملًا دمية لطفلة تنتظرها في لهفة.. لقد تساوت الأنصبة في الحياة كالعادة.. فالثرى الوسيم الناجح لا ينجب.. وهو يتمنى أن يبادل وضعه مع البواب النوبي العجوز..
لا داعي للقول أن أحدًا من أسرتي لا يعرف هذا الموضوع، وهم جميعًا يظنون أنني أرفض الزواج من ابنة خالتي لأنني أحيا حياة عزاب ماجنة.. وكلهم قاطعوني أو عاملوني بجفاء لكني لم أجرؤ على إخبارهم بالحقيقة قط..
واستدار لي راسمًا ابتسامة مفتعلة:
- ولكني قلت لك من أنا.. إنني أفتش عن المستحيل وغير الممكن.. أهيم حبًا بشيء لم يخلق بعد.. ولهذا غدا نبات الـ (موكاسا) هو ابني الشرعي..
لم لا؟.. لقد ربيته وعلمته وأطعمته.. فهل تعرف شيئًا في كل هذا لا يمارسه الآباء؟.. ولأنه ابني فأنا لن أتخلى عنه.. ولأنه ابني أداري عيوبه وأجاهد كي أصلحها.. ولأنه ابني فلن أسمح لأحد أن يقاسمني فيه أو يأخذه مني أو ينصحني بتدميره!..
ساد الصمت القاعة سوى من موسيقا (بتهوفن) الشجية..

قلت له بعد ثوان وأنا أشعل سيجارة:
- وإلى متى يظل هذا الوضع؟.. متى تنشر أبحاثك إذن؟
- حين أعرف كيف يمكن الاستفادة بما عرفته..
- وأية فائدة ترجى من نبات يعض الضيوف؟.. إنك لن تستخدمه لحراسة البيوت على ما أظن..
ضحك حتى أدمعت عيناه.. ورشف ما تبقى في كأسه من العصير ثم قال:
- ألم تعرف هذا بعد؟.. لقد أنقذني من لصين!..
-.....؟!
- بالفعل.. إن للنبات رائحة غير محسوسة لكنها جذابة تغري الآخرين بالاقتراب منه - ولعل هذا هو ما دفعك نحوه لا شعوريًا في تلك الليلة - وكان هذا هو ما حدث للصين اللذين اقتربا منه أكثر من اللازم و.. هوب... أنا لم أر شيئًا.. فقط سمعت صرخة رعب هائلة في تلك الليلة فهرعت إلى الحديقة لأرى رجلين يهرعان فرارًا ويثبان من فوق السور.. وحين ذهبت إلى مكان النبات وجدت آثار دماء على الأرض وجزئًا منتزعًا من ذراعه التي مدها ليجذب أحدهما، فلو لم يكن الآخر موجودًا لكانت مأساة..
وانفجر يضحك حتى تقطعت أنفاسه:
- تصور ما شعره هذان اللصان البائسان وما يفكران فيه حتى هذه اللحظة!!.. أنت لم تقل شيئًا جديدًا حين قلت إن الـ (موكاسا) يصلح لحراسة البيوت..
ثم إن (عماد) نهض إلى دولاب أنيق موجود بالقاعة، فأخرج جهاز عرض سينمائي للأفلام الصغيرة (١٦ مم)، وبكرة فيلم.. ثم وصل الجهاز بالقابس وركب الشريط وأظلم القاعة..
سمعت صوته في الظلام وراءه خلفية من سيمفونية (بتهوفن) التي لن تنتهي أبدًا كما هو واضح:
- المشكلة هي أن هذا النبات خجول جدًا!
- خجول؟..
- هو يتصرف كطفل يأبى أن يغني أمام أصدقاء أبيه.. ولقد رفض الـ (موكاسا) كل محاولاتي لتقديم فرائس حية له، لكني كنت أجده قد فرغ منها دائمًا حين أعود إليه بعد دقائق.. لهذا قمت بتصوير هذا الفيلم - دون علمه - لأرى ما يفعله حين يرى أرنبًا صغيرًا.. ولسوف ترى الآن كل شيء..
بدأ الفيلم يدور.. انبعث الشعاع تتراقص فيه دقائق الغبار ودخان التبغ ليرتمي فوق الحائط الأبيض..
وعلى الشاشة المرتجلة رأيت مشهدًا بالأبيض والأسود يمثل هذا النبات بشكله العجيب البشع.. وكان هناك أرنب صغير وديع يقف جوار الأصيص غير قادر - وغير راغب - على الابتعاد..
وهنا بدأت الأوراق ترقص رقصتها المجنونة التي ألفتها.. تهتز.. تتمايل.. تتأرجح يمينًا ويسارًا..
قال (عماد) معلقًا على المشهد:
- وكما ترى.. هذا نوع من التنويم المغناطيسي للضحية.. فهي تباغت بالحركة غير المتوقعة وتقرر أن تنتظر ساكنة لتعرف أكثر...
الذراع الكابوسي العتيد يخرج من بين الأوراق كثعبان يزحف نحو فريسته..

- هذا النوع من الأوراق المتحورة يخرج نحو الفريسة ليؤدي دورين..

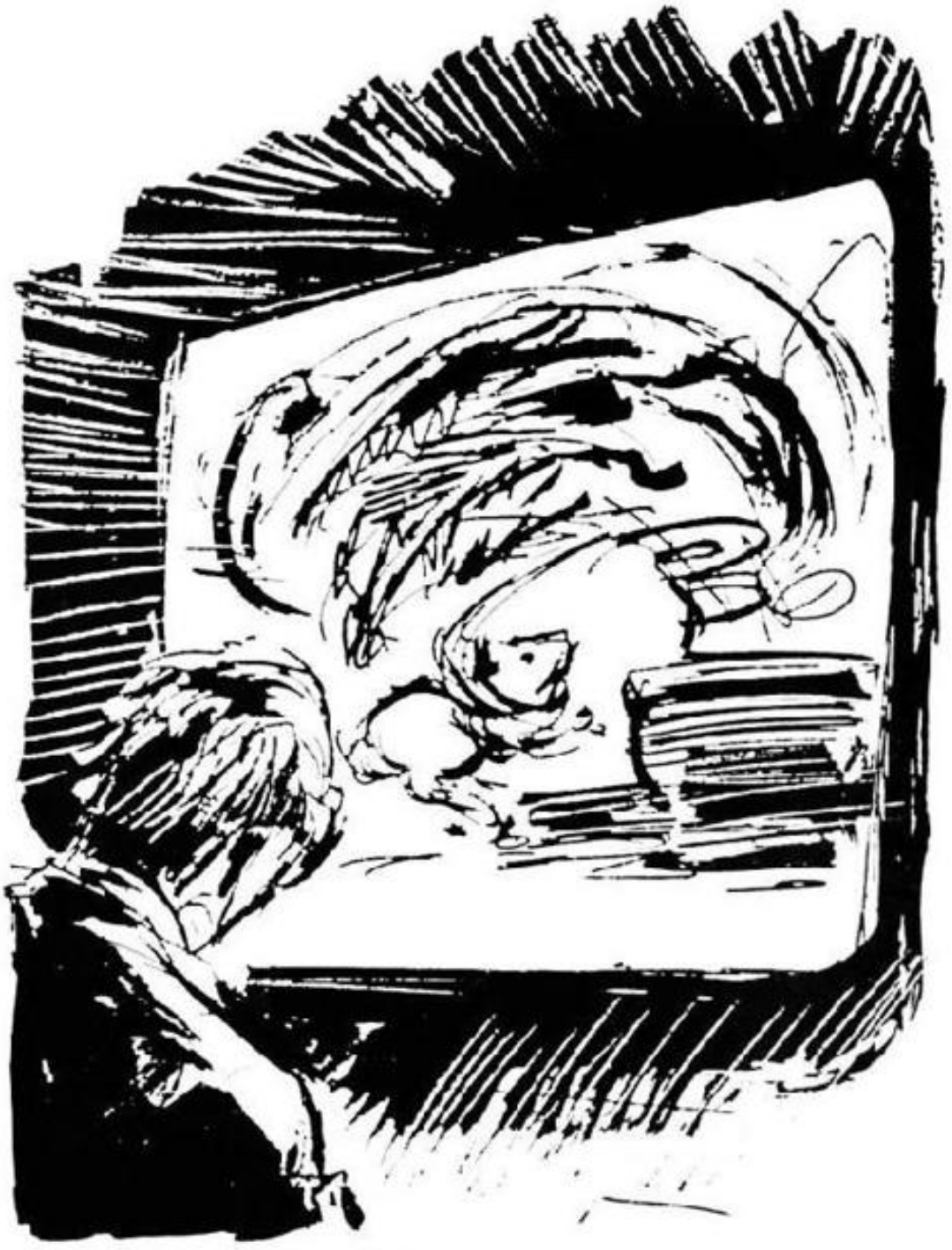
الذراع يزحف نحو الأرنب البائس ليلتف حول عنقه.. يحاول الأرنب أن يتراجع.. يتقهقر.. يقوم بحركات مثيرة للشفقة.. ولكن..

- الدور الأول هو تخدير الفريسة بمادة راخية للعضلات عديمة الاستقطاب.. ولعلها هي (الكورار) كما خمنت أنت..

الأرنب يتصلب.. ثم يتخاذل تمامًا بعد أن شلت عضلاته الإرادية تاركًا جسده تمامًا للذراع المشئوم يتلمسه ويقلبه يمينًا ويسارًا..

- أما الدور الثاني فهو.....

وهنا لم أصدق ما أراه..



الذراع يزحف نحو الأرنب اليائس ليلتف حول عنقه .. يحاول
الأرنب أن يتراجع .. يتقهقر .. يقوم بحركات مثيرة للشفقة ..

تصلبت على حافة مقعدي وأنا أرى شيئًا أسود يتسرب عبر العروق البارزة من ذراع النبات صاعدًا من جسد الأرنب إلى جذع النبات، وبعين الخيال ترجمت هذا اللون الأسود إلى أحمر..

- يقوم الذراع بامتصاص دماء الفريسة ببطء شديد..

وفي اللحظة التالية رفع الذراع جثة الأرنب ليلقى بها بين الأوراق السوداء المكللة بالأشواك.. وانطبقت الأوراق حول الجسد وأخذت تأتي بحركات شبيهة بالمضغ البطيء المتلكئ..

- والآن.. المرحلة التالية هي مرحلة الافتراس الشبيهة بأسلوب نبات الـ (ديونيا).. إنزيمات الـ (ببسين) تذيب العضلات والأوتار والغضاريف.. فلا يبقى سوى.. عجينة من الفراء المختلط بالعظام هي ما تحول إليه هذا الكائن الوادع الذي كان يلهو ويمرح منذ دقائق..

- وهكذا حصل هذا النبات النشط على حاجته من (النتروجين) ومن مادة (الهيموجلوبين).. وأثبت لنا أنه يقف بالفعل عند مكان فاصل بين المملكتين الحيوانية والنباتية..

بدأت الخدوش تتكاثر على الشاشة أي أن نهاية العرض قد دنت ثم ابيضت تمامًا.. وسمعت (عماد) يهتف في مرح:

- ألم يكن هذا رائعًا؟!

ما أن استعدت قدرتي على الكلام حتى هتفت مستنكرًا:

- (عماد)!.. إن هذا ليس نباتًا.. إنه شيطان حقيقي وعليك أن تتخلص منه فورًا!

- قلت لك إنه ابني!..

- أتوسل إليك يا (عماد).. أنا لا أمزح.. إن هذا المسخ سيقتلك يومًا ما تاركًا بعض الشعر الأشيب وروبًا أنيقًا..

ابتسم في ثقة ونهض ليبدل الأسطوانة ويضيء الأنوار:

- الآن حان وقت (موتسارت).. دعني أؤكد لك يا عزيزي (رفعت) أن هذا النبات أذكى من أن يؤذي راعيه رقم واحد.. ويعرف أنه كان روحًا حبيسة في بذور فأطلقت سراحها ومنحتها كيانًا.. إن (بابا) يقدم له اللحوم الطازجة والحيوانات البرية ويحجب عنه المتطفلين.. فكيف يؤذيه؟!..

نظرت إلى الدولاب نصف المفتوح من خلفه.. وسألته في براءة:

- أرى لديك المزيد من الأفلام.. فماذا تحوي؟

بدا عليه الوجوم فأدركت أنه سيكذب.. حتمًا سيكذب..

- لا شيء.. لا شيء على الإطلاق.. مجرد ذكريات لا تعني شيئًا..

.....

وذابت عيناه في الفراغ..

* * *

7 - قريتي من جديد..

دوى رنين الهاتف الطويل المتقطع فهرعت لأرد لاهث الأنفاس.. واجف القلب.. حافي القدمين.. واثقًا من المصيبة التي ستأتيني عبر سلوك هذا الجهاز المزعج..

سمعت صوت الطقطقة ثم الصفير.. ثم صوت (رضا) أخي يصيح:

- (رفعت).. (رفعت).. إن أمي..!..

ثم تلاشت حروفه في عواء كعواء الذئاب فأدركت أن البكاء غلبه.. ولم أحتج لكثير من الذكاء كي أعرف ما يريد قوله، لكن واحدًا كان يقف بجواره تناول منه السماعة ليقول لي بلهجة حازمة - لهجة الرجل الذي يعرف ما ينبغي عمله - ما كنت في غير حاجة لسماعه:

- د. (رفعت)؟

- بالطبع - عليك اللعنة - وإلا فمن أنا؟

- إن الحاجة (أم رضا) قد.. صبيحة اليوم.. نحاول من فترة.. الخطوط.. أنت رجل ناضج.. أخوتك.. الجنازة.. إلخ.. إلخ..

كان الوغد قاسيًا.. قاسيًا إلى حد لا يوصف..

تمهل قليلًا أيها الشيطان.. فأنت لا تخبرني بنتائج مباريات كأس العالم.. بل أنت تخبرني بوفاة أمي.. أمي.. ولكن.. لماذا لا أشعر بالأسى ولا الذعر المتوقعين؟.. لابد أن قلبي لم يصله الخبر من عقلي بعد بسبب رداءة التوصيل عبر الخطوط الهاتفية.. ويل لك يا قلبي البائس حين تعرف الحقيقة كاملة.. وهي أنك - للمرة الأولى - قد غدوت بلا أم..

نعم أنا رجل ناضج متعلم في منتصف العقد الخامس.. ولكن ما علاقة كل هذا بالحزن؟

الحزن البارد الصارم الذي يحيل كل الناس أطفالًا..

والرجل ما زال يتكلم....

* * *

رحمة بأعصاب القارئ سأقاوم رغبتي الشديدة في وصف كل ما حدث وكل ما قيل.. لأننا نقرأ كتابًا اسمه (أسطورة النبات) وليس (آلام رفعت).. ولا أحسب أن أحزاني تهم شخصًا غيري..

إن هناك لذة شديدة في وصف الأوجاع لدى كل البشر، يكفيك أن تجلس جوار أي رجل في الحافلة كي يبدأ في وصف صداع رأسه ومشاكله مع التبرز وآلام النقرس في إصبع قدمه اليمنى..

إنها غريزة كاسحة لكني - لأجلكم - سأقاومها..

فقط تذكروا أنني فقدت أمي في عام ١٩٦٨ حين كنت أنا في الرابعة والأربعين من عمري..

* * *

مرت أيام طوال علي في (كفر بدر)..

أقابل عشرات الوجوه.. وأصافح مئات الأيدي وأرى اللون الأسود في كل مكان.. وأزجر (رئيفة) و (نجاة) لأمنعهما من النواح مائة مرة في اليوم[3].. إن تلك الأخيرة لا تشعر بذرة حزن لكنها قواعد المجاملة الصارمة في الريف التي تحتم على النساء إطلاق بعض الصرخات من حين لآخر والا اعتبرن قليلات الأصل..

في تلك الظروف لا أدري لماذا - ولا كيف - تذكرت (عماد)..

وتساءلت عما يفعله في هذه الآونة مع نباته.. ثم أنني أقصيت الخاطر بعيدًا إذ بدا لي غير ملائم على الإطلاق..

* * *

كعادتي كنت أتذكر الأسماء بصعوبة خارج دائرة أسرتي، وكان (طلعت) يقدم لي عشرات الأشخاص طيلة الوقت بأسلوب يوحي بأنني أعرفهم وصريع في غرامهم.. وأنا لا أذكر أنني رأيتهم أصلًا..

اليوم قدم لي الحاج (فوزي) وولده (صالح) المفترض أنهما جيراننا من زمن، من ثم صافحتهما في حرارة وشكرتهما على مشاركتهما في مأساتي، وجلسنا نحسو القهوة ونصغي لآيات القرآن الكريم.. حين قال الحاج (فوزي) وهو يضع فنجانه في الطبق:

- أمس قابلناك يا د. (رفعت) في الحقل الشرقي.. ناديناك لكنك لم تصغ إلينا.. لعلك لم ترنا قط..

- معذرة.. ولكن لابد أن هناك خطأ..

- لا خطأ هنالك.. كان ذلك في العاشرة مساء..

قلت في شيء من نفاد الصبر:

- أنا لم أغادر الدار مساء أمس لحظة واحدة..

تبادل الحاج وولده نظرات معناها – بما لا يقبل الشك - أنني أكذب لسبب لا يدريانه.. وأن من الحكمة عدم الإصرار على ما قالاه..

من ثم أشعل الحاج السيجارة التي قدمتها له.. وغمغم متحاشيًا النظر إلى:

- يجوز..

قال (طلعت) مؤمنًا:

- إن العين تخطئ..

أما أنا فلم أعط اهتمامًا كبيرًا لهذه النقطة خاصة وأنني واثق تمامًا في أنني لم أفعل، فلست مسئولًا عن أوهام هذا الحاج البصرية وولده..

لكنني بدأت أشعر بالقلق في تلك الليلة حين خرجت مع (طلعت) إلى الحقل الشرقي ليريني المزروعات الجديدة التي استحدثها ويحاول إنجاحها، ذلك الموضوع الذي ظن أنه سيرفه عني قليلًا رغم أنه لا يعنيني على الإطلاق..

وهنا توقف في حيرة وجثا على ركبتيه ليتفحص شيئًا ما وجده على الأرض.. وسمعته يغمغم:

- ما هذا..؟

ومد يده ينتزع نباتًا وجده بين سيقان النباتات الأخرى.. وأعطاه لي لأتأمله.. وقال وهو ينهض:

- هذا نبات شيطاني لم أره من قبل.. غريب!.. أقسم أنه لم يكن هنا البارحة..

أما أنا فما أن أمسكت بالنبات بين أناملي حتى توترت.. مددت يدي إلى جيب السترة بحثًا عن نظارة المسافات القريبة (التي بدأت استعمالها هذا العام) ووضعتها على أنفي.. نعم.. أنت ترى مثلي تلك الأوراق السوداء ذات الحواف الدامية المجللة بالأشواك.. أنت مثلي تقشعر من الملمس الكريه.. وأنت مثلي لم تنس هذا النبات رغم طول المدة..

إنه هو!..

هو (الموكاسا نيجرا) بعينه ولاشك في ذلك..

أما كيف جاء هنا.. وكيف نما بهذه السرعة؟.. فكلها أسئلة بلا إجابة ولا أتوقع لها إجابة..

المهم أنني و (طلعت) شرعنا ننتزع هذه الأوراق الشنيعة من جذورها.. وكدنا نكتفي بذلك لولا أنني طلبت منه رجاء حارًا أن يساعدني على حرقها.. ولم أفسر له طبعًا سبب حماستي..

وبالفعل سكبنا بعض (الكيروسين) فوقها وأشعلنا عود ثقاب، وجلسنا في ظلام الليل نتأمل الوهج المتراقص زائغي الاعين..

وما أن انتهى الوهج ولقت الجذوة مصرعها.. حتى مد (طلعت) يده وسط الرماد الساخن والتقط بحذر شيئًا ما بين إبهامه والسبابة:

- يا لغرابة هذه البذور!

قالها وناولها لي فتأملتها في كفي..

كانت ذهبية اللون خشنة الملمس أقرب - في الحجم والشكل - إلى حبوب (البازلاء) لكنها خشنة كما قلت ممتلئة بالبثور.. وكانت صلبة إلى حد لا يصدق.. حتى حين ضغطت على واحدة منها بين أسناني (وعضلات الفك بالمناسبة هي أقوى عضلات الجسم) لم أجد أدنى استجابة منها..

لن يدهشني أن تقاوم هذه البذور لهيب النيران..

- إذن كيف نتخلص منها؟

- سنلفها في شريحة من القصدير وندفنها بعيدًا..

نهض (طلعت) يبحث عن قصدير في حين أخذت أحفر الأرض في موضع جذور النبات مدفوعًا بخاطر مفاجئ داهمني.. وسمعت صوته الغليظ يتساءل من وراء ظهري:

- عم تبحث يا دكتور؟ عن.. ها هي ذي!.. لقد وجدت ما أريده..

اقترب ليرى ما هنالك على ضوء القمر الفضي.. وتساءل في حيرة:

- غريب!.. من فعل هذا؟

- فعلها من زرع الحبوب..

- يدفن جثة قطة؟.. يا له من عمل غريب...

- إنه يعرف ما ينبغي عمله.. هذا هو كل شيء..

- تعال يا دكتور لنعد للدار.. لقد تشاءمت من هذا الذي رأيناه وإن كنت لا أرى لذلك سببًا..

نفذت طلبه في صمت بعد أن تخلصنا من البذور.. ولم أصارحه أنني أنا الآخر قد تشاءمت.. وأنا الآخر لا أرى لذلك سببًا..

* * *

عدت إلى غرفتي بالطابق العلوي وقد جاوزت الساعة منتصف الليل..

ذات الفراش المتهدم الذي ظللت مصلوبًا عليه أسبوعين يوم نادتني النداهة.. الفارق الوحيد هنا هو أن أمي لن تحضر لي العشاء وتلومني على إجهاد عيني بالقراءة أو عدم الزواج أو.. أو..

خلعت ثيابي واخترت جلبابًا أبيض مريحًا لأنام فيه، وهنا استرعت انتباهي أجسام غريبة صلبة في جيب قميصي العلوي.. فمددت يدي أتفحصها..

كانت بذورًا.. بل بذورًا ذهبية اللون.. وللمزيد من الدقة بذور نبات الـ (موكاسا نيجرا)..

من أين جاءت هذه الأشياء؟

قد يقول قائل إنها البذور التي وجدتها و (طلعت) في الحقل هذا المساء.. لكن لا.. لقد وجدنا اثنتي وعشرين بذرة تأكدنا بعناية من دفنها بعد تغليفها في غلاف يمنعها من الإنبات.. لا يمكن أن تكون هي..

لقد كنت أرتدي هذا القميص حين جئت للقرية، وكنت أرتديه حين زرت (عماد) في المرة الأخيرة (أعرف أن ياقته اتسخت لكني لا أعبأ بهذه التفاهات).. معنى هذا أن هذه البذور جاءت معي حين جئت للقرية..

* * *

أمس قابلناك يا د. (رفعت) في الحقل الشرقي.. ناديناك لكنك لم تصغ إلينا.. لعلك لم ترنا قط..

* * *

هل هما على حق؟..

لو كانا على حق فإن هذا له معنى واحد.. أنني أنا من بذر البذور في الحقل الشرقي مسلوب الإرادة منومًا مغناطيسيًا..

وبالتأكيد أكون أنا من دفن القطة ليوفر (النتروجين) اللازم للبذور.. ومن يدري؟.. ربما أنا من قتلها كذلك!..

ولكن كيف؟.. ولماذا؟

القشعريرة من المجهول - تلك القشعريرة السرمدية - تتسلق عمودي الفقري، وعدم الفهم الممتزج بالغباء يطل من عيني..

لماذا فعلت ذلك؟.. وأية قوى مجنونة حركتني؟

هذه المرة ارتديت الجلباب الأبيض، وهرعت خارجًا من الدار قاصدًا الحقل الشرقي بحثًا عن آثار تدلني على أنني من بذر البذور..

وفي الظلام غير الدامس - حيث كان القمر مكتملًا - رأيته منحنيًا على الأرض يحفرها بأظافره في لهفة وعيناه زائغتان..

دنوت منه في حرص.. ووقفت أمامه بضع ثوان فلم يلحظ وجودي..

كان هذا هو (طلعت)..

لقد عاد إلى الحقل خلسة ليسترد البذور التي دفنها بنفسه منذ ساعة!!

* * *

٧- كابوس..

وهكذا جذبت (طلعت) من ذراعه المشعر الضخم عائدين إلى الدار..، وفهمت منه - رغم عجزه عن التعبير - أن رغبة ملحة استبدت به كي يأتي بهذا العمل..

لقد اتضحت الصورة إذن..

هذا النبات قد فاق كل ظنوني وتوقعاتي..

إن شيئًا ما فيه - ربما رائحة معينة - تحمل رسالة صامتة إلى كل من يتعامل معه.. وهذه الرسالة تقول بوضوح:

- ساعدوني على التكاثر!

ويكون لهذه الرسالة مفعول السحر.. فسرعان ما يحمل المرء بعض البذور ولربما قتل حيوانًا صغيرًا كي يدفنه جوارها، ويتسلل في ظلام الليل ليبذر البذرة المشئومة..

البذرة التي تصحو بعد يوم واحد فحسب، وتبحث عن أحمق تحيطه بذراعها كي تحقنه بـ (الكورار) وتمتص دمه!

قصد..

هكذا تستمر الدورة الشيطانية التي بدأها (عماد) دون قصد..

وحتى (عماد) نفسه لا يدري أنه لا يحب هذا النبات قدر ما هو مسحور به.. وهو ينشر بذوره بنشاط في كل مكان - ولربما هو من دسها في جيبي - لأنه لا يملك سوى فعل ذلك..

لقد استعبده النبات تمامًا..

بل واستعبدني واستعبد (طلعت)..

ولكن.. هل هناك آخرون؟!

* * *

تلقيت الجواب في المساء ذاته.. مساء اليوم الذي وجدت (طلعت) في الحقل عند الفجر..

كنت جالسًا في مدخل الدار مع رجلين أو ثلاثة (فقد بدأت أعداد المعزين تنحسر) وكنا نرشف القهوة وندخن، حين هرع رجلان إلى الدار داخلين من الباب المفتوح..

كانا يلهثان ممتقعي الوجهين ولسان حالهما يقول إن هناك كارثة..

- د. (رفعت).. نحن بحاجة إليك فورًا..

- ولكن.....

لكنهما لم يكونا على استعداد لقبول أعذار، وقد نظرا إلى الرجلين الجالسين معي في لهفة مرددين:

- لا مؤاخذة يا رجالة.. إن الفتاة تموت!..

وهكذا لم يعد أمامي مناص من الاستجابة، أحضرت حقيبتي وأخبرت (رئيفة) أنني ذاهب.. ثم فتحت لهما باب سيارتي كي يركبا..

وانطلقنا ـ بسرعة البرق - إلى الدار..

من اللحظة الأولى سقط قلبي في قدمي حين سمعت الصراخ والعويل ثم أدركت أن المريضة لم تمت بعد لكنهم يصرخون باعتبار ما سيكون!..

وبصعوبة اخترقنا الزحام..

إلى غرفة ضيقة حقيرة دخلنا لأجد فلاحة ممزقة الثياب والخدين تعول دون انقطاع، وعلى فخذيها أراحت رأس طفلة في العاشرة من عمرها.. طفلة شاحبة كالبورص - إذا جاز التعبير - تجاهد كي تلتقط أنفاسها.. وأدركت أن فقر الدم هو السبب في عدم ظهور زرقة على شفتيها..

ما العمل إذن؟ إن الطفلة مريضة جدًا ولكني لا أجد لمرضها اسمًا..

- أين وجدتموها؟

لم ترد الأم.. أما الأب فقال في هستيريا:

- في الحقل منذ ساعة.. ألن تنقذها؟.. هيا افعل شيئًا!..

لم أرد عليه محاولًا استجماع تفكيري.. ليست هذه أعراض تكسير دم.. بل هي أقرب إلى أعراض النزف.. ولكن من أين؟.. لا توجد فتحات نازفة في جسدها الصغير..



وعلى فخذيها أراحت رأس طفلة فى العاشرة من عمرها .. طفلة شاحبة كالبرص ـــ إذا جاز التعبير ـــ تجاهد كى تلتقط أنفاسها ..

وهنا نظرت إلى ذراعها فوجدت.....
إنني أعرف هذه الثقوب وأذكرها..
أذكر جيدًا ذلك الذراع الذي ترك ثقوبًا مماثلة على ذراعي أنا..
إذن هي تعرضت لنبات (موكاسا) لا أدري كيف ولا أين ولا يهمني كثيرًا أن أعرف ولا وقت لهذا..
سأفترض أن هذه حالة (أنيميا) حادة مصحوبة بـ.. بتسمم مادة شبيهة بـ (الكورار).. المادة التي يحاول النبات شل عضلات فرائسه بها.. وهذا يعني أنها مادة مرخية للعضلات عديمة الاستقطاب.. كذا قال (عماد)..
فلتساعدني السماء.. إنني مقبل على أكبر مقامرة في حياتي وهي إعطاء علاج لمادة لا أعرف حقيقتها تمامًا سوى بالحدس
تناولت أمبولًا من (الأتروبين) - كأي طبيب تخدير محترف - وحقنت به الفتاة، ثم عبأت أمبولًا من مادة الـ (نيوستجمين) وبدأت إعطاءه ببطء شديد وريديًا.. فهذه المادة هي الترياق الوحيد لمادة الـ (كورار)..
للأسف لا أذكر حساب الجرعة للأطفال بالضبط.. لكني سأعطيها نصف الأمبول..
فما أن انتهيت حتى أطلقت الطفلة شهقة عالية.. وسكنت تمامًا!..
وسمعت الأب يصرخ في لهفة:
- لقد ماتت يا دكتور!.. قتلتها الحقنة!!

* * *

أخيرًا عاد قلبي يمارس عمله الذي ظل يؤديه أربعة وأربعين عامًا ولم يتكاسل عنه سوى مرات معدودة آخرها هذه المرة!..
لقد بدأ تنفس الطفلة ينتظم بعد أن استعادت عضلات صدرها القدرة على الحركة.. الشيطانة!.. كادت تقتلني قتلًا..
لم يروا توتري ولا لهفتي لأنهم كانوا يرمقون المشهد في خشوع..
وأخذت الأم تحتضن الطفلة دامعة العينين..
فما أن استعادت حنجرتي القدرة على إخراج الأصوات، حتى قلت في حزم:
- لم ينته الأمر بعد.. إنها تحتاج إلى الدم سريعًا.. يجب أن ننقلها إلى المستشفى..
وفي لهفة حملنا الطفلة إلى سيارتي، وشرعنا ننهب الطريق إلى المدينة قاصدين المستشفى.. وبالطبع - نظرًا لنحسي التقليدي - وجدنا أن الفصيلة الوحيدة التي توافق فصيلة الطفلة هي فصيلتي!..
فكان أجري على الفحص هو استنزاف دمي، ثم بالطبع نسي أهلها في غمرة الأحداث أن يسألوني عن أجري وخجلت أنا من مطالبتهم به.. إنهم أهل قريتي وهذا حقهم الطبيعي..
لقد تحسنت الفتاة وهذا يكفيني..
لكنني لست مطمئنًا تمامًا لما حدث.. ومن حقي الطبيعي بدوري أن أعرف كيف وصلت هذه الطفلة إلى النبات، أو - بمعنى أدق - كيف وصل النبات لها؟!

* * *

قال لي عم الطفلة وهو يقدم لي سيجارة..

- ثق يا دكتور أن جميلك في أعناقنا إلى الأبد..

فأدركت أنني لن أنال أجرًا منهم إلى الأبد!..

لا بأس.. المهم الآن يا عمها أن تخبرني بالمكان الذي كانت فيه حين وجدتموها.. وهل حقًا لم تروا ما يريب مثل نبات مفترس أو شيء من هذا القبيل؟..

إن حالة الفتاة لا تسمح بأية أسئلة..

كنا نسير بين النباتات في قطعة الأرض الخاصة بتلك الأسرة، ورأيت الرجل يشير إلى بقعة معينة ويغمغم:

- هنا وجدناها بعد أن سمعنا صراخها..

- ولم يكن هناك شيء معين يلمسها؟

- لا..

وكان ما أبحث عنه موجودًا..

الأوراق السوداء المشئومة بحوافها الحمراء المجللة بالأشواك كأنما تنتظر من يوقعه حظه العاثر بينها..

ها هو ذا نبات (موكاسا نيجرا) القميء في هذا المكان الذي لم آت إليه من قبل وبالتأكيد لم يأت (طلعت) إليه..

إن معنى هذا هو أن العدوى قد انتشرت..

هناك آخرون يحملون البذور لينثروها هنا وهناك غير عالمين بحقيقة ما يفعلون..

- لم أر هذا النبات من قبل..

قالها الرجل وهو ينحني ليتفحص الأوراق السوداء، ثم إنه انتزعها من جذورها.. حزمة صغيرة يمكن جمعها في قبضة اليد - فقد كان النبات وليدًا - لكنها كادت تودي بحياة طفلة..

وفجأة سمعته يهتف في اشمئزاز، وهو يرمي بالنبات على الأرض:

- أعوذ بالله!.. ما هذا؟!

كانت قطرات من الدماء تتساقط من الجذور المنتزعة لتسقط فوق التربة فتبللها، إن الوحش لم يهضم وجبته الأخيرة بعد..

- هل هذه دماء؟

قلت له في كياسة وأنا أشعل سيجارة:

- بل هي إفراز طبيعي.. فقط دعنا نحرق هذا النبات الآن..

- ولمه؟

- إنه.. إنه يؤذي المزروعات مثله مثل (حامول البرسيم)..

وبدأنا نحرق هذا الشيء المقزز، وتكرر مشهد البذور الذهبية الباقية من احتراق النبات.. لكنني في هذه المرة كنت حذرًا، فاحتفظت بها كي أدفنها بنفسي (هذا بالطبع إذا لم أقم بزرعها عند أول سهو)..

وحين عدت لداري أخيرًا كنت قد بدأت أفهم أبعاد الكابوس..

* * *

الخميس الكبير للمرحومة أمي..

العادات المقدسة في الريف.. السلال الملأى بفطير الرحمة.. والمقرئون القابعون في المقابر ينتظرون قدومنا كي ينقضوا علينا كالذباب ليقرأ كل منهم ما يحفظ من قران مقابل فطيرة..

أنا لا أتحذلق.. لكني أعتقد أن قراءتي سورة (يس) الحبيبة بصوت خفيض دامع عند قبر أمي هي أبرك وأقرب إلى التقوى من كل هؤلاء المتطفلين بقراءتهم المملوءة بأخطاء التجويد..

كانت نساء الأسرة يرتدين السواد والدموع، وجو الصباح النادي يبلل النباتات المحيطة بالقبر..

وكنت شاردًا بعيني بين تضاريس اللون الأخضر حين.....

حين رأيت أوراق (موكاسا) اللعينة تتراقص بين الأوراق الخضراء الأخرى!.. ببراءة تتراقص.. بجذل تتراقص.. كأنها - الشيطانة - مجرد نبات بريء آخر له حق التمتع بالضوء والنسيم!..

لقد صار الأمر مملًا.. مملًا إلى درجة الابتذال..

ولم يكن باستطاعتي بالطبع انتزاع النباتات من على القبور، لأن هذه في عرف الريف جريمة لا تغتفر خاصة وأنهم لا يعلمون ان هذه النباتات تتغذى هنا على رصيد لا ينفد من الـ (نتروجين)!

لكنني قررت أن الوقت قد حان لتقديم إنذار جماعي.. صحيح أنهم لن يصدقوني وسأبدو لهم مجنونًا أو متحذلقًا.. لكنني - لو أحسنت اختيار أسلوبي - سأنجح في إفزاعهم إلى حد ما..

وكان موعدي بعد صلاة الجمعة في مسجد القرية..

بضع همسات مع الشيخ (زيدان) إمام المسجد.. ثم إنه أهاب بالقوم أن ينتظروا قليلًا لأن لدي ما أرغب في قوله، وكان بعضهم بالفعل قد حمل نعليه وكاد يسابق الريح لولا أن أثارت الدعوة فضوله..

- يا إخوان.. الدكتور (رفعت) ابن الحاج (إسماعيل) ابن القرية ولديه ما يريد إخباركم به.. فهلا جلستم وانصتم؟

تركزت العيون علي فابتلعت ريقي.. زاوية فمي اليسرى ترتجف رغمًا عني كعادتي حين أحاول ممارسة الخطابة التي لم أجدها يومًا..

تماسكت وفتحت لفافة أحملها من ورق الصحف.. وأخرجت منها النبات الأسود المشئوم.. وأمام العيون المتشككة رفعته..

بصوت متهدج في البدء هتفت:

- هذا النبات الغريب.. هل منكم من وجده في أرضه؟

تعالى صوت من الصف الأخير:

- نعم.. وجدته عندي..

صوت آخر غليظ:

- وأنا..

صوت مبحوح خائف..

- وأنا..

- وأنا..
- وجدته منذ ثلاثة أيام..
- أربعة..
قاطعت الأصوات رافعًا صوتي ليخترق الأسماع:
- اسمعوني يا إخوان.. هذا النبات ضار بالصحة ويسمم الأرض والبهائم.. لهذا أرجوكم.. على كل من يجده عنده أن يقتلعه ويجلبه لي لأقوم بإعدامه بطريقة نعرفها نحن..
تساءل أحدهم في شك خبيث:
- إذا كان كذلك.. لماذا لم تبلغنا (الزراعة) بذلك؟.. ولماذا لم تبلغها أنت؟
رددت في نفاد صبر (فأنا لا أحب الذكاء في غير موضعه):
- لأن الوقت لا يسمح بذلك.. نحن في خطر داهم وما لم تصدقوني فإن مواشيكم ستهلك وأطفالكم سيمرضون..
- فأل الله ولا فألك!
تنحنح الإمام في وقار.. وأمن على كلماتي داعيًا القوم إلى الاستجابة.. وإلى إحضار نباتاتهم لي في الدار.. ثم دعا لهم وترك لهم حرية الانصراف..
فما أن خرجت من المسجد - مع (رضا) و (طلعت) - حتى قابلت مأمور المركز صديقي العتيد الذي عانقني بحرارة.. ثم هتف مستنكرًا:
- ما هذا الذي قلته يا (رفعت)؟
- قلت ما أخشاه..
- لكنك بهذا تحدث ذعرًا.. وما دام لم يصلنا شيء من الوزارة - وما دمت أنت لم تبلغها بشيء - فليس من حقك أن تعطي إنذارات..
وضعت يدي على كتفه محاولًا إشعاره بخطورة ما أقول؟
- اسمعني يا عزيزي.. إن (البيروقراطية) المصرية هي بناء شامخ من أيام الكاتب المصري الجالس القرفصاء وحتى اليوم.. وليس لدي وقت ولا عمر يسمح لي بمواجهتها.. لقد اخترت الحل الأسرع وأعتقد أن جزءًا كبيرًا من العبء سيقع على كاهلك لأني عائد للقاهرة اليوم..
- تشعل النار وتتركني أطفئها وحدي؟!
- لا بد لي من ذلك.. إن الرجل الذي بدأ هذا الكابوس موجود في القاهرة.. ولابد أنه يملك مفتاح إنهائه..
- ترحل هكذا سريعًا؟
- إن لي عشرة أيام في القرية.. وقد هدأت النفوس أخيرًا..
- ولن تحكى لي تفاصيل ما قلته في المسجد؟
- فيما بعد يا صديقي العزيز.. فيما بعد.. فقط أوصي الخفراء أن يفتشوا المزروعات جيدًا بحثًا عن هذا النبات ذي الأوراق السوداء وقل لهم أنه نوع من المخدرات ليبحثوا عنه في جدية.. فإذا ما جمعت كمية كبيرة منه عليك بدفنها في أعمق حفرة ممكنة بعد أن تغلفها بالقصدير أو تضعها في صفائح مغلقة..
كان رأسه مفعمًا بالأسئلة، لكنني لم أعطه فرصة، ولعل غموض الطب والكهنوت المحيط به هما من يحميان الطبيب من الفضول الزائد.. فقد قال لنفسه أن النبات سام وهذا كاف فلا داعي للمزيد

من الاستيضاح..
وفي المساء ركبت سيارتي عائدًا إلى القاهرة تاركًا الكارثة التي جلبتها للقرية كي تتولى الأقدار علاجها..

* * *

كان كل شيء في شقة (الدقي) كما تركته حين تلقيت المكالمة اللعينة.. فقط كان هناك خطابان في صندوق البريد من أشخاص لا أذكرهم يلومونني على أشياء لا أنكر أنني فعلتها.. كما كان هناك حشد من برقيات التعزية استلمها جاري (عزت) نيابة عني، وكلها من أشخاص يزعمون أنهم (يشاطرونني الأحزان) على وفاة أمي فلاحة (كفر بدر) التي لم يرها أحدهم..
لحسن الحظ أن جهاز الرد على المكالمات لم يكن معروفًا وقتها وإلا لقضيت ساعتين أصغي إلى هراء..
استبدلت ثيابي بثياب غير ملوثة بالعرق.. وفتحت الكيس الذي أصرت (رئيفة) على أن أحمله معي.. وبالطبع كان يحوي بعض الفطير المشلتت والجبن المملح.. ثم البطة.. البطة العتيدة الأبدية التي لا بد لمن يعود من زيارة أهله بالريف أن يحملها..
لا بأس.. لا بأس على الإطلاق..
ليذهب (الكوليسترول) إلى الجحيم، هو ونصائح د. (عزام) أخصائي أمراض القلب الذي يعالجني.. ولئن قتلتني الذبحة الصدرية فلأذهبن إلى القبر حاملًا بطة في شراييني التاجية..
جلست إلى المائدة ألتهم البطة عازمًا على أن أترك أكثرها لغداء باكر..، وعازمًا على أن أتصل بـ (عماد) بمجرد أن أغسل يدي..
ثم إنني نهضت إلى الهاتف وطلبت رقمه.. صوت الرنين المتقطع.. دون رد..
حقًا لا رد..
إذن سأحاول الاتصال به غدًا.. أما الآن فالنوم ولا شيء سواه.. ولا بأس بتفاحة قبله..
دخلت غرفة النوم.. بدأت استبدل ثيابي متذمرًا من رائحة الجو الخانقة التي سببتها الحاجة للتهوية.. اتجهت إلى مصراعي الباب المطل على الشرفة وفتحتهما لأسمح لهواء الليل العذب بالدخول..
غريبة هذه الرائحة.. أكاد أقسم أنني شممتها في مكان ما..
ما علينا.. وضعت التفاحة والسكين جوار الفراش فقد فقدت شهيتي..
أطفأت الأنوار وتمددت في الفراش شاعرًا به يعلو ويهبط من الإرهاق ورحلة السيارة الطويلة..
ذكريات النهار تتوالى على شاشة العرض السوداء المعلقة في فراغ الغرفة..
ومن الغريب أنني لم أستطع النوم..
ذلك الهاجس العجيب - الذي رافقني في كل حكاياتي - يهزني وينهاني عن الاستسلام للنعاس:
- لا تنم!.. لا تنم!..
- ولماذا أيها المزعج؟
- لأنك لو نمت.. لا أدري بالضبط.. لكن لا تنم!.. إبق متيقظًا بضع دقائق فقط..
وهنا..!..

في البدء ظننتها ذبابة.. ثم صارت اللمسة الباردة أكثر ثقة واسترخاء حول عنقي فحسبتها سحلية تسللت بشكل ما إلى فراشي.. اقشعر جسدي ومددت يدي إلى عنقي لأبعد هذا الشيء البشع..

وهنا ازداد الشيء تشبثًا.. وشعرت بوخزات في عنقي، فأدركت الحقيقة المروعة في لمح البصر.. ونهضت من رقدتي كمن مسه تيار كهربي..

كانت ذراع نبات الـ (موكاسا) تنسل من الشرفة قاصدة فراشي..

وفي هذه اللحظة بالذات كانت ملتفة حول عنقي في تصميم!..

.....

* * *

٨- زائد عن الحاجة..

قال لي د. (لوسيفر) وهو يتأمل أوراق (التاروت) شاردًا:
- إن اللعبة معك يا د. (رفعت) ستكون سهلة جدًا.. فانت كهل وتعيش وحيدًا.. وضع ألف خط تحت كلمة (وحيدًا) هذه.. إنك لرجل مثقف وتعرف كل الأشياء غير السارة التي قد تحدث لكهل وحيد.. مثلك يا طبيبي العزيز! ".

من قصة (الأوراق المشئومة)
الكتيب رقم (٢٠)

* * *

هل صرخت؟
لا أذكر بالضبط.. ربما قد فعلت..
كل ما أذكره هو قرص (المنبه) الفوسفوري يشير في الظلام إلى أن الساعة الثالثة بعد منتصف الليل..
كنت غارقًا في العرق البارد أحاول بعنف انتزاع عنقي من الذراع الأخطبوطي..
الأسوأ هو أنني كنت أعرف أن كل دقيقة تمر تملأ دمي بالمزيد من ذلك السم النباتي الشبيه بـ (الكورار).. وهذه المرة لن أجد من يحقنني بال (نيوستجمين) بل سأصير خرقة لينة يفعل بها النبات ما يشاء..
هل هو كابوس؟..
إن التهام البط على العشاء خطأ قاتل.. لكن لا.. هذا الذراع حقيقي ووخزاته حق لا مراء فيه.. فليس من الحكمة أن أقنع نفسي أنه كابوس..
وهنا تذكرت..
التفاحة والسكين جوار الفراش على (الكومودينو) حيث تركتهما.. إذن سأمد يدي لألتقط السكين.. ها هو ذا.. لا وقت للخطأ..
وبيد مرتجفة مددت يدي نحو الذراع.. إنه قاس صلب لكني - كذلك - قاس صلب..
هان!.. هان!.. السكين تحش النسيج النباتي في قسوة.. والآن ها هو ذا يتمزق.. يلين.. يتراخى حول عنقي..



إذن سأمدّ يدى لألتقط السكين .. هاهوذا .. لاوقت للخطأ ..

ومددتُ يدى المرتجفة نحو الذراع ..

مددت يدي وانتزعته من حول عنقي.. ثم أضأت الأباجورة، فوجدت باقي الذراع المقطوع يتلوى محاولًا الوصول إلي لولا طول المسافة..

- أيها الشيطان!!

لكني اطمأننت حين وجدت أن هذا الجزء لا يحوي ممصات.. فقد تركها كلها في الجزء الذي قمت ببتره..

نهضت من الفراش راجف القدمين وهرعت إلى زجاجة الـ (نيتروجلسرين) الحبيبة فدسست قرصًا تحت لساني.. ثم أضأت نور الغرفة وخرجت إلى الشرفة غير عابئ بالذراع الذي أخذ يتحسس كاحلي في جشع ويحاول تسلق سروال منامتي..

وفي الشرفة وجدت الأصيص..

أصيصًا كبير الحجم به نبتة يتجاوز ارتفاعها مترًا من الـ (موكاسا)..

ومن الواضح تمامًا أنني من وضع هذا الأصيص هنا ثم نسيت كل شيء عنه.. لقد فعلت هذا قبل سفري بالتأكيد ضمن حملة (نشر النبات) التي تزعمتها رغمًا عني.. وكاد هذا يكلفني حياتي..

لقد وصل الـ (موكاسا) إلى غرفة نومي إذن.. وقمت باقتلاعه من جذوره ثم حملته في اشمئزاز - وهو يتلوى بتلك الحركة المتشنجة التي يتحرك بها ذيل سحلية بعد بتره - إلى غرفة مكتبي وأضأت الأباجورة وبدأت أتأمله بدقة للمرة الأولى..

كان قبيحًا لا شك في هذا..

ساق حمراء غليظة تخرج منها أوراق سوداء ذات حواف حمراء تجللها الأشواك.. بعض الفروع يحمل ثمرة صغيرة حمراء اللون بها تلك البذور الذهبية العجيبة.. وبعضها يحمل زهورًا - غريب هذا - حمراء اللون.. حاولت استعادة معلوماتي التشريحية عن (الطلع) و (المتك) و (الأسدية) لكني لم أميز أيًا منها في هذه الزهرة.. وكانت لها رائحة النبات المميزة..

أما أغرب ما وجدت فهو أن الذراع الذي يجذب الضحية مستقر بشكل زنبرك في تجويف بمقدمة الساق، وبالتالي يستطيع الانفلات في أية لحظة نحو الضحية..

كان مقطعة العرضي مستديرًا يحوي ثقبين - أدركت أنهما يمثلان قناتين واحدة منهما يحقن الـ (كورار) عبرها، وواحدة تمتص الدماء عائدة للنبات..

إنه لتركيب مذهل.. ومذهل هي أقل كلمة يوصف بها..

الحق أن (عماد) قد وجد ضالته المنشودة.. الحلم الذي روى نهمه الدائم إلى المعرفة.. إن روحه الجشعة التواقة إلى التميز قد نجحت في أن تضيف كابوسًا من نوع جديد إلى كل كوابيس الحياة..

أما الأكثر هولًا في هذا النبات فهو قدرته - غير المسبوقة - على التفكير.. والتخطيط.. والكذب... نعم الكذب..

لقد نجح في أن يتظاهر أمام (عماد) بأنه غير مفترس، ولم يتمكن (عماد) من تصوير الفيلم الذي رأيته إلا بعد أن ترك النبات وحيدًا..

حتى حين اكتشف أهل الطفلة اختفاءها.. ماذا وجدوا؟.. وجدوها راقدة شبه ميتة جوار نبات مسالم برئ المنظر..

نبات يقنع كل من يتعامل معه بأن يبذر بذوره خلسة.. بل ويوحي له أن الطريقة المثلى للزراعة هي دفن حيوان صغير تحت الجذور...

نبات يعرف أن طريقته الوحيدة للاستمرار هي الحفاظ على (عماد) لهذا لم يهاجمه ولم يؤذه بعد كل هذه الأعوام...
نبات ينتظر حتى تنام الضحية أو ينتظر حتى تكون الضحية بلا حول ولا قوة مثل تلك الطفلة البائسة..

* * *

وهكذا أثبت النبات أنه يقف بالفعل عند مكان فاصل بين المملكتين الحيوانية والنباتية..

* * *

لم أنم ليلتها..
ظللت أفتش الشقة باحثًا عن نبات وضعته هنا أو هناك.. وبالفعل وجدت أصيصًا في (السندرة) بدأ الكابوس ينمو فيه..
لما كان هذا النبات لا يعتمد على (الكلوروفيل) فسيان عنده إن كانت البيئة مشمسة أو مظلمة.. فهو لا يحتاج النور أساسًا..
وفي الصباح الباكر أدرت قرص الهاتف طالبًا (عماد).. لقد حان الوقت لإنهاء هذه المهزلة..
إن هذا النبات أخطر بالفعل من كل فائدة قد يقدمها للعلم.. يُقال اليوم - عام ١٩٩٣ - إن فيروس فقدان المناعة المسبب لمرض (الإيدز) قد ولد في أحد المعامل وفر منه.. لو كان هذا صحيحًا فإن العالم الذي أوجده لم يقدم خدمة كبيرة للبشرية.. وبالتأكيد لم يقدم (الديناميت) أو (القنبلة الهيدروجينية) أو غاز (السارين) أية خدمة للبشرية مهما كانت عبقرية مكتشفيها..
الجرس يرن دون انقطاع.. ولا إجابة..
إن (عماد) لا يذهب إلى أي مكان.. على الأقل في السادسة والنصف صباحًا، ومعنى هذا أن هناك كارثة ما..
ارتديت ثيابي ملهوفًا وركضت إلى السيارة منطلقًا إلى (الزمالك)..
(الفيللا) تجثم في ضوء النهار المبكر كقصة مفزعة على رف مكتبة تدعوني إلى أن أفتحها وأقرأها رغم توجسي منها...
كانت البوابة مغلقة بالجنزير، من ثم هرعت إلى الغرفة الصغيرة المجاورة لها حيث يقيم البواب، وأوسعت الباب ركلًا وضربًا حتى انفتح عن وجه البواب النوبي العجوز مرتديًا ثيابه الداخلية، متذمرًا من كل هذه الضوضاء..
- (عبد الودود)!.. افتح لي بوابة (الفيللا).. إن (عماد بك) لا يرد على الهاتف ويخيل لي أن شيئًا ما أصابه..
ما كاد الرجل يسمع ما قلت حتى هرع - دون أن يرتدي جلبابه - إلى الجنزير ليفتحه بمفتاحه وهو يتمتم:
- رأيته بالأمس.. وكان على ما يرام...
ودلفنا من البوابة.. لحظة تردد عابرة وهو يفكر هل من حقه اجتياز الحديقة؟.. لكنني كنت قد سبقته على كل حال..

باب المنزل.. أوسعه ركلًا وضربًا.. ولا إجابة..

- لا جدوى من كل هذا.. اسمع!.. هل معك مفتاح؟

مد يده إلى جيب (الصديري) الذي يرتديه واخرج مفتاحًا صغيرًا أولجه في قفل الباب فانفتح.. كان غير مغلق إلا باندفاع لسان كالون (اللاتش)..

ركضنا إلى الداخل باحثين عن (عماد) في كل ركن وكل غرفة:

- (عماد)!..

- (عماد بك)!

كانت أسطوانة (الجرامافون) تدور بلا انقطاع وقد تآكلت الإبرة تقريبًا إذ انتهت الأسطوانة منذ زمن.. الأسطوانة التي تحمل صورة الكلب الذي يصغي لـ (جراموفون) آخر والمميزة لأسطوانات (صوت سيده)..

لقد كانت أسطوانة (طائر النار) لـ (فاجنر)!..

- (عماد بك)!!

لم نجده في أي مكان.. لكن مائدة الطعام كان عليها عشاء لم يؤكل بعد.. بالتأكيد هو عشاء لأنه أخف من أن يكون غداء وأكثر تنوعًا من أن يكون إفطارًا.. وكان الخبز غير طازج لكنه - بالتأكيد - غير متيبس.. أي: أن هذه الوجبة لم يمر عليها أكثر من عشر ساعات..

صعدت درجات قليلة إلى غرفة النوم التي جعل (عماد) مستواها أعلى قليلًا من باقي الحجرات.. وكان الفراش مرتبًا نظيفًا.. ولم يفتني أن أرى أن هناك ثلاثة أصص ملأى بالـ (موكاسا) متناثرة في أركان الغرفة..

الحمام أيضًا يحوي أصيصًا من النبات.. كذا غرفة المكتب.. غرفة المكتب التي ينتظر فيها مجهر صغير أنيق الشكل عليه شريحة زجاجية إلى جوار (أباجورة) مضاءة لتوفر مصدرًا للضوء..

وجوار المجهر وجدت قلمًا وورقًا رسمت عليه قطاعات نباتية عدة من الساق والأوراق والجذر، مع أسهم كتبت عليها مصطلحات لاتينية لم أفهمها..

كان (عماد) يقوم بتشريح النبات ثم أعد العشاء.. هذا هو ما يمكن استخلاصه من كل هذه الاثار..

وجوار المجهر كان هناك مفكرة صغيرة مفتوحة وجوارها قلم حبر جاف.. وقد كتب في الصفحة المفتوحة بخط واضح أنيق:

- لقد أفلت النبات مني!

عبارة غريبة.. لا أدري لماذا ذكرتني بما يكتبه ربانو السفن في دفتر السفينة لحظة غرقها:

نحن نغرق.. فلتساعدنا السماء!

ما معنى أن النبات قد أفلت منه؟..

نظرت إلى البواب الواقف خلفي زائغ العينين غير فاهم لشيء مما يحدث وأهبت به أن يواصل التفتيش.. أو على الأقل أن يفتش الحديقة جيدًا..، ثم شرعت أقلب المفكرة بحثًا عن تفسيرات فلم أجد شيئًا..

مجرد مواعيد وملاحظات من نوع (البذور - عصام - معمل - تذكر) من التي يستحيل فهمهما إلا لمن كتبها..

نزلت إلى الحديقة وبدأت أفتشها مع البواب.. كان نبات (موكاسا) الذي هاجمني موجودًا في مكانه ساكنًا يتظاهر بالبراءة.. مددت يدي في قسوة إلى جذوره.. وبأعنف ما أستطيع انتزعتها ورميت به على الأرض في اشمئزاز فتلوى بضع ثوان ثم همد تمامًا..

لماذا فعلت ذلك؟.. لا أدري.. لكنه كان نذيرًا غامضًا بأن (عماد) لن يغضب على ما أصاب نباته بعد اليوم..

سمعت صوت البواب يناديني فهرعت إليه..

ها هي ذي الصوبة الزجاجية وقد وقف جوارها يشير إليها في توتر.. نظرت إلى كل هذه الفوضى.. الزجاج المهشم المتناثر على الأرض.. فتحة قطرها يقترب من المتر عبر جدار الصوبة.. وقد أطلت منها بعض النباتات التي بدأت بالفعل تلفظ أنفاسها لأنها لم تعتد الجو الخارجي..

قلبي يكاد يثب لفمي وأنا أدنو بحذر.. أقرب وجهي من الفتحة وأتشمم رائحة الرطوبة الخانقة بالداخل، وبخار الماء الذي نفثته مسام الأوراق يتكاثف على الزجاج وينحدر للأرض على شكل قطرات..

لكني لم أجد جثثًا ولم أجد أي نبات (موكاسا) بالداخل..

فقط كانت هناك فوضى عامة وأصص مقلوبة وحفرة في الأرض كأن هناك نباتًا قد اقتلع من هناك..

لكن الزجاج مهشم للخارج كأن شخصًا كان حبيسًا بالداخل ثم نجح في الخروج..

هل هو (عماد)؟.. هل سُجن بشكل أو آخر ثم نجح في تحطيم الزجاج وتحرير نفسه؟.. لا أدري حقًا..

* * *

وحين ناداني البواب العجوز..

وحين سمعت نبرة صوته المذعورة وسعاله..

عندئذ أدركت أنه وجده..

* * *

كان (الروب دي شامبر) على الأرض معجونًا بالدماء والتراب.. وجواره نظارة مهشمة.. وقد تناثرت هنا وهناك خصلات من الشعر الأشيب الناعم، وبقايا ممزقة من منامة كان لونها أزرق، وخفين تبعثرا هنا وهناك، وسلسلة مفاتيح مدفونة في التراب..

ولم يكن هناك (عماد) ولا نبات..

* * *



كان (الروب دى شامبر) على الأرض معجونًا بالدماء والتراب ..

وجواره نظارة مهشمة ..

رأيت هذا المشهد في كوابيسي مرارًا..

* * *

هل تحب (فاجنر)؟!..

* * *

زائد عن الحاجة!..
لقد صار (عماد) بالنسبة للنباتات زائدًا عن الحاجة لهذا قتله..
إن منطق النبات (البراغماتي) النفعي لا يتزحزح.. فأنا قد قمت بزراعة البذور في داري وفي قريتي، وبالتالي صار هناك أكثر من أب لهذا النبات، كلهم عاكفون على بذر البذور ورعايتها..
لهذا - ولهذا فقط - صار (عماد) زائدًا عن الحاجة، والاستفادة المثلى منه هي التهامه...
لو كان هذا النبات رجل أعمال لغدا ملياردیرًا منذ زمن.. ولو كان صحفيًا لغدا رئيس تحرير عشرات الصحف واسعة الانتشار.. ولو كان سياسيًا لحكم العالم في غضون شهور..
لكنه مجرد نبات..
ولأنه مجرد نبات يجب أن يدمر ويحرق في الحال..

* * *

كان العجوز مستندًا إلى شجرة يسعل باستمرار.. باستمرار، وصعوبة التنفس تتزايد، فأدركت أنه - ذلك الأحمق - أصيب بنوبة قلبية..
أجلسته على الأرض وأحضرت له كوبًا من الماء من داخل المنزل، مع قرصين من (النيتروجلسرين) يضع أحدهما تحت لسانه.. ثم بدأت أتفحص المكان حول ما تبقى من (عماد)..
قد يتهمني أحدكم بالقسوة لأنني لم أنهر ولم أبك بعد ما فقدت صديقًا مخلصًا نقيًا بهذه الطريقة الغادرة، لكنني أقول لكم أنني رأيت مصائب كثيرة في حياتي بحيث سئمت كل هذه الأشياء التي يفعلونها ويقولونها في تلك المواقف..
الدموع وعبارات الرثاء بلهاء ومبتذلة أكثر من اللازم ولا تضيف جديدًا.. إن الخدمة الوحيدة التي يحتاج إليها (عماد) الآن هي طلب الرحمة له.. وتدمير هذا النبات مع الاحتفاظ بعينة واحدة منه أرسلها هي والدراسات التي كتبها عنه إلى مجلة (بوتاني) العلمية الرصينة، مع اقتراح مهذب بتسمية هذا النبات الجديد (إيمادللا نيجرا) أو أي اسم قريب من اسم الشهيد الذي اكتشفه..
وهنا قطع على أفكاري خاطر غريب.. لماذا لا أجد أثرًا للنبات جوار (عماد)؟!
إن حالته لا تسمح له بالزحف بعيدًا عن النبات قطعًا.. وكان الواجب أن أجده بين الأوراق الشوكية السوداء كما بدا ذلك الأرنب بعد التهامه...
ولكن ما معنى هذا؟.....
١- الصوبة تهشم زجاجها للخارج.
٢- يوجد بالصوبة أثر يوحى أن نباتًا قد أقتلع من جذوره..

٣- لا يوجد نبات جوار جثة (عماد)..
٤ - آخر كلمة كتبها (عماد) هي: "لقد أفلت النبات مني.."..
ألا يعني كل هذا شيئًا ما؟!..

* * *

يا للكارثة!..
لقد فهمت!..

* * *

٩ - عصر الـ (موكاسا)..

لم يكن نباتًا!

بالتأكيد لم يكن نباتًا..

صحيح أنه يتكاثر بالبذور.. وله ساق وأوراق وجذور، لكنه يخطط.. ويفكر.. ويتظاهر.. بل ويتنقل!.. نعم يتنقل!..

أكاد في هذه اللحظة أرى ما حدث بالضبط.. (عماد) يعد العشاء ويصغي إلى (فاجنر) مرتديًا (الروب دي شامبر) - (عماد) وليس (فاجنر) طبعًا - وإذا به يسمع صوت زجاج يتحطم فيهرع إلى الحديقة ليجد الصوبة مهشمة والنبات غير موجود بها..، يعود مفزوعًا إلى غرفة المكتب ليخط هذه العبارة: "لقد أفلت النبات مني.."... ولم يكن بالطبع يعني أي شيء سوى ما قاله حرفيًا.. لا تتحمل العبارة أي معنى مجازي مثل أن النبات يتصرف بطريقة غير متوقعة أو أي شيء من هذا القبيل.. ثم أن (عماد) يهرع إلى الحديقة ليرى أين ذهب هذا الوغد..

لكن الـ (موكاسا) كان ينتظره في الظلام.. هذه المرة حرًا من قيوده حرًا من الجذور التي تقيده للأرض، وكانت المجزرة..

والأسوأ هو أن (عماد) لم يصدق حتى اللحظة الأخيرة أن نباته الحبيب يمكن أن يفعل معه كل هذا..

* * *

دخلت إلى (الفيللا) متجهًا إلى الدولاب باحثًا عن بكرات الأفلام التي تضمها المجموعة (كان المفتاح معي هذه المرة بعد أن وجدته في حاجيات المرحوم)..

وكانت هناك بطاقة ملصقة على كل بكرة تدل على محتوياتها..

(هامبورج).. (الأقصر).. (هالة) - بالتأكيد هذا الفيلم الأخير خاص جدًا - ثم (موكاسا - ١).. (موكاسا - ٢).. (موكاسا - ٣)..

أخرجت آلة العرض السينمائي وعبأت البكرة (موكاسا - ٣) عليها لأنها بالتأكيد تحوي آخر ما عرفه عن النبات.. يهمني قطعًا أن أعرف ما أخفاه (عماد) علي ليلة أن عرض علي الفيلم الأول.. وفي الظلام بدأ الشعاع يتسرب إلى الحائط الأبيض.. كان الفيلم ملونًا هذه المرة..

وتبينت ملامح الصوبة الزجاجية بما فيها من نباتات عملاقة.. ثم رأيت نبات (موكاسا) في منتصف الكادر.. نباتًا عملاقًا يقارب طوله المترين..

ومرت دقائق دون أن يحدث شيء.. وفجأة بدأ النبات يتحرك.. يتلوى.. يرتجف..

لم أصدق ما أراه لكني واثق تمامًا من أنه حقيقي.. هو ذا النبات ينتزع نفسه من جذوره.. الجذور تخرج نفسها من التربة بكل براعة.. ثم يسقط النبات على جانبه ويبدأ في الزحف - نعم الزحف - ببطء شديد على الأرض وكل أوراقه تتحرك.. تفتح وتغلق بشكل ميكانيكي مروع..

يدور في المكان دورة أو دورتين..

ثم ها هو ذا يعود إلى مكانه ببطء شديد.. تثبت الجذور نفسها في الأرض.. ثم يستقيم النبات على ساقه في تؤدة.. ويعود مجرد نبات بريء آخر!...

انتهى الفيلم..

ظللت أحدق في الجدار المضيء زائغ العينين شارد الذهن..

إذن كان (عماد) يعرف.. وأخفى ذلك عني..

والسؤال الآن هو: هل كل نباتات الـ (موكاسا) تفعل ذلك؟ أم أن هذا النبات الذي تربى في الصوبة هو الوحيد القادر على ذلك؟.. أميل إلى القول إن النبات يحتاج إلى فترة لا بأس بها من النمو والنضج حتى يبدأ في (التقاط رزقه).. فلا ينتظر حتى يأتيه (النتروجين) بل يذهب هو للبحث عنه!

المشكلة أن هذا يجعله خطرًا جسيمًا.. فمن منا يشك في نبات مقتلع من جذوره وملقى على الأرض؟

وتخيلت ما سأقوله لرجال الشرطة..

- إن هناك نباتًا هاربًا مسعورًا.. يجب أن تجدوه قبل أن يفترس أحدًا!!

إنه لأمر مضحك.. ولكن شر البلية ما يضحك..

* * *

خرجت من المنزل لأجد البواب مرتكنًا إلى إحدى الأشجار ووجهه الأسمر كوجه جثة مضى على وفاتها ساعتان..

لم أر من المناسب قط أن أسأله عما إذا كان قد رأى نباتًا مسعورًا يتسلق السور، ولم يبد لي هذا محببًا..

ساعدته على النهوض.. وطلبت منه أن يعود لامرأته على حين أطلب رجال الشرطة بالهاتف، فأصر على أن يفعل ذلك بنفسه.. وأخذ يولول - ليس على (عماد) طبعًا - على المصير الأسود الذي ينتظره هو وامرأته بعد وفاة الـ (بك)، وعمن ستؤول له (الفيللا)..

وراح يتصور منظره وهو يتسول جوار المساجد من أجل شراء الدواء لها..

هكذا شرع (يعدد) كلما أدار رقمًا على القرص.. وهنا سمعنا الصرخة.. من بعيد لكنها واضحة..

تبادلنا النظرات لثوان.. وخطرت لنا نفس الفكرة في ذات اللحظة:

- زوجتك!

- إن الباب مفتوح.. لقد تركته مفتوحًا..

- يا لك من أحمق!.. فلنسرع..

طبعًا لا داعي للقول بأن العبارتين الأخيرتين قيلتا ونحن في منتصف الطريق إلى باب الحديقة، وبعد ثانية كنا داخل الحجرة الضيقة..

كان المشهد مروعًا..

العجوز مستلقية على الفراش تولول عاجزة عن الحركة في حين يلتف الذراع المشئوم حول ساقيها.. كانت شبه مشلولة بفعل المرض - الشلل الرعاش كما تبين لي على الفور - لهذا اكتفت

بالهلع..
وعلى الأرض جوار الفراش المتآكل كان ذلك النبات المشئوم متمددًا بطول مترين أو يزيد.. وأوراقه السوداء الشوكية تنفتح وتنغلق في جشع..
- بسم الله الرحمن الرحيم!
صاح البواب في هلع، وبدا أن النوبة القلبية ستعاوده.. أما أنا فلم يكن عندي وقت لهذا الترف - ترف النوبات القلبية - لهذا هرعت إلى سكين كبير في ركن الغرفة، وعدت راكضًا إلى النبات وأمسكت بالذراع المتلوي وحززته بعنف وقسوة..
لم ينزف شيئًا من الدماء - لحسن الحظ - لكن قطرات من سائل أعتقد أنه هو (الكورار) نفسه.. كان في مرحلة الحقن ولم يصل لمرحلة الامتصاص بعد..
وما أن انفصلت الأنسجة القاسية حتى التف الذراع حولي في هذه المرة.. أنا لا أعرف شعور من يسقط في قبضة ثعبان (البوا العاصرة) أو (الأصلة) لكنه بالتأكيد قريب من هذا..
سقطت على الأرض بين الأوراق السوداء المشئومة فشعرت بها تطبق على ثيابي وما بدا من جسدي، لكني هذه المرة فريسة متيقظة لا مشلولة.. وبالتالي لست سهل الهضم أبدًا..
لكن.. كيف يمكن قتل هذا النبات المتعصب؟...
في البدء كان قتله سهلًا باقتلاع جذوره، أما وقد صار حرًا طليقًا فكيف يمكن قتله؟
صحت بالبواب في لهفة:
.-(عبد الودود)!.. ساعدني على إخراج هذا الشيطان للخارج..
تحامل الرجل على نفسه وساعدني في حمل النبات المتلوي إلى خارج الغرفة وهو يبسمل ويحوقل واثقًا من أن كل هذا سلوك جان شرير..
ولم يفته أن يتأكد من أن المرأة لم تزل حية وتخلصت من الذراع المحيط بعنقها..
في الخارج ألقينا النبات على الأرض.. وصحت بالرجل:
- هلم.. هل لديك (كيروسين) هنا؟
- أكيد..
وعاد لي حاملًا زجاجة متسخة مسدودة بورقة مبرومة كأنها قطعة فلين، فبدأت أسكب منها على النبات المتشنج، ثم أشعلت قطعة الورق بقداحتي ورميتها على النبات، و..
فهاااام!..
اندلعت النيران فهمدت حركة الشيء...
بدأ يتفحم ثم يتحول إلى رماد ساخن.. المشهد الذي يذكرني بمصرع (مصاص الدماء) في نهايات أفلام الرعب..
وحين تلاشت اخر جذوة لهب، مددت بحذر يدي وسط الرماد..
والتقطت عشرة من البذور الذهبية الشبيهة بالمعدن..
لقد هلك الوغد، لكنه ترك بذوره ليزرعها أحمق مثلي - أو البواب – ليستمر الكابوس إلى الأبد..
كنا نلهث.. والعرق يبلل ما تحت إبطينا وياقات ثيابنا.. وكان ينتظر مني تفسيرًا لكل هذا، لكني لم أعطه له.. فقط همست بصوت مبحوح:
- يمكنك الآن أن تطلب الشرطة..

* * *



تحامل الرجل على نفسه وساعدني في حمل النبات المطوي إلى

خارج الغرفة ..

لا جدوى.. جراحة فاشلة.. لقد ماتت المرحومة بعد ما ثقبنا (الأورطي)..

* * *

أيًا ما كان موضوع هذا الكتاب، فأنا مستعد لمناقشته معكما فورًا..

* * *

ولو أن النجوم لدي مال نفت كفاي أكثرها انتقادًا

* * *

هل تحب (فاجنر)؟

* * *

تصاعدت الأبخرة السامة - أبخرة السيانور - في حديقة (الفيللا) على حين بدأ المهندسون القادمون من وزارة الزراعة أقرب إلى كائنات المريخ منهم إلى البشر، بثيابهم المعزولة وأقنعة الغازات المحكمة وعلى ظهر كل منهم خزان ثقيل متصل بخرطوم ينثر المادة المهلكة، وكنا نحن واقفين على بعد كبير نرمق المشهد في فضول..

قال لي د. (صبحي) مدرس الصيدلة وهو يجفف عرقه:

- وهكذا ستتم عملية إبادة كاملة لهذا النبات.. ما دام يعتمد على مادة (الهيموجلوبين) في حياته فإن (السيانور) سيؤدي الغرض تمامًا كما يفعل مع الحيوانات..

نظرت له في شرود.. وسألته مشعلًا سيجارتي الثالثة:

- هل بدأوا تطهير (كفر بدر) اليوم؟

- يقول وكيل الوزارة أنهم بدأوا.. تم إخلاء البيوت ثم رش الحقول بالمادة القاتلة...

- لن نتخلص من هذا التلوث قبل شهور..

- للأسف نحن مضطرون.. إن النبات لم يبد استجابة لمركبات (الفوسفور) العضوي ولا (السيفين)..

تساءلت وأنا أرمق الأبخرة المتصاعدة من بعيد:

- وهل ستموت البذور بنفس الطريقة؟

- غالبًا.. وعلى العموم سيقومون بنقعها بعد ذلك في حمض (النتريك) لمدة ثمان وأربعين ساعة..

- يا للسماء!...

قلتها وأنا أقذف بعقب اللفافة بعيدًا..

كل هذا المجهود للتخلص من الـ (موكاسا)!.. أي شيطان رجيم جاء به (عماد) إلى هذا العالم؟!.. كأن البشرية شفيت من السرطان والجوع والتلوث البيئي كي نقدم لها نباتًا لا يموت إلا بـ (السيانور)!..

دنا منى البواب النوبي العجوز وهو ينهنه متهانفًا للبكاء، فعانقته وربت على كتفه.. سمعته يسعل ويدمدم:

- هل ترى يا (بك) ما فعلوه بحديقة (الفيللا)؟.. ما كان (عماد بك) رحمه الله ليقبل بكل هذا..

كان - البائس - يشعر أن واجبه لم ينته بعد نحو سيده حتى بعد وفاة هذا الأخير.. ولقد أثار هذا الإخلاص مدامعي لكني تماسكت..

وهنا شعرت بشيء صلب في جيب جلباب الرجل.. فمددت يدي أتحسسه.. إنني أذكر هذا الملمس جيدًا..

لا شك في ذلك.. مددت إصبعين داخل الجيب وأخرجت بذرتين من البذور الذهبية المشئومة أمام عيني الرجل غير الفاهمتين!..

ستكون المهمة شاقة..

شاقة حقًا..

* * *

١٠ - خاتمة..

كان حصار البذور مشكلة..

فكل إنسان بدا وكأنه يتحين الفرصة ليسرق بعضها أو يخفيها في جيبه، ولقد اضطررنا إلى تفتيش جيوب وحاجيات كل من تعامل مع هذا النبات.. وكانت النتيجة - غالبًا - إيجابية..

حتى أنا وجدتني أخفي عشر بذور في الدرج الذي أضع به مناديلي..

ووجد د. (صبحي) بذرتين في جوربه حين عاد لداره..

كنا نتصرف كمدمني المخدرات الذين تجد السموم في كل مكان من عالمهم.. ولست مبالغًا في هذا الوصف..

لقد صار الـ (موكاسا) وباءًا حقيقيًا.. وسيدًا على عشرات العبيد الذين لم يعرفوا ما حل بهم وبإرادتهم..

لكن الحصار - أزعم - كان محكمًا..

ولمدة شهور لم نسمع عن حادث هجوم واحد للنبات على إنسان.. ولم يبلغنا أحد بمشاهدة الأوراق السوداء المشئومة..

لهذا - ولأول مرة - أعلن مسئولو وزارة الزراعة أن نبات (الموكاسا) قد اختفى من الوجود، ذلك الاختفاء الذي لم يضايق أحدًا.

ومن لغو القول أن أكرر أن تفاصيل هذا الحادث ظلت سرية تمامًا، فلم يدر بها سوى حفنة من الرجال، وأن من علموا طرفًا من القصة ظنوا الأمر يتعلق بحشرة ما أو وباء من أوبئة المزروعات..

كنا في ذروة الحرب النفسية مع (إسرائيل) في تلك الآونة.. وكنا نعرف تمامًا أن هذه القصة ستتضخم وتنتفش - بفعل الإشاعات - وسيعتقد رجل الشارع أن (الموكاسا) سلاح بيولوجي توصل إليه العلماء الإسرائيليون وأدخلوه إلى البلاد..

والواقع - أصارحك - أنني أسائل نفسي أحيانًا..

إن العالم الذي قدم البذور إلى (عماد) هو عالم أمريكي اسمه (ديفيد أوبريان).. إن (يهودية) الاسم لا تخفى على أحد، وأنا قد تعلمت من زمن ألا أثق بأجنبي يدعى (ديفيد) أو (أبراهام) أو (ليفين) أو حتى (ساره)..

فهل الأمر كذلك؟

هل كان (أوبريان) يعرف حقيقة هذا النبات؟

هل هذا النبات وليد معالجة إشعاعية أو كيميائية تمت في أحد معامل الحرب البيولوجية؟.. لا أظن.. ولا أحسب أنهم وصلوا إلى هذا القدر من التقدم التكنولوجي..

الخلاصة أن التعتيم الإعلامي على الموضوع كان ضروريًا في تلك الحقبة الكئيبة من تاريخ البلاد..

لكن التعتيم الإعلامي لم يمنعني من أن أقوم بواجبي الأخير نحو (عماد) - أرقى إنسان عرفته في حياتي - لهذا تعاونت مع اثنين من زملائه في الجامعة وقمنا بعمل ورقة علمية محكمة تبدأ بهذه

السطور: إن لدينا من الأسباب ما يدفعنا للاعتقاد بوجود حلقة واصلة بين المملكتين الحيوانية والنباتية.....

وانتهت الورقة بجملة شديدة الأهمية عندي:

- وإننا لنقترح تسمية هذا النبات باسم (إيمادللا نيجرا)، والمقطع الأول نسبة لاسم مستكشفه الذي فقد حياته ثمنًا لاكتشافه، أما المقطع الثاني فيدل على لون أوراقه الأسود..

وأرسلنا الورقة - مع الأفلام والرسوم التخطيطية ونموذجًا حيًا صغيرًا - إلى مجلة (بوتاني) عالمين أنها ستكون ضربة العصر.. ولقد نشرت المقالة ونالت إعجابًا علميًا هائلًا وأثارت تساؤلات عديدة، لكنها لم تصل للرأي العام لأن الجمهور أكثر سطحية من أن يقرأ هذه المجلات العلمية المتعمقة..

إنه نفس السبب الذي لأجله كتب (نيوتن) نظرياته باللاتينية التي يستحيل فهمهما على هواة القشور.. كان يريد أن يريح ويستريح فلا يقرأ نظرياته إلا من يستحقون قراءتها!..

* * *

لقد مرت أعوام طوال على هذه القصة..

لكني ما زلت أجفل كلما شممت روائح معينة.. ومازلت أرى الأوراق السوداء في كل مكان.. وما زلت أشعر بشيء يمشي فوق عنقي كلما جلست إلى مكتبي لأكتب..

أؤمن أن كل هذه وساوس لكن الفكرة لا تبرح بالي..

ثمة شخص في مكان ما يحمل بذرة أو بذرتين، وهو ما زال يذكر كيفية زراعتها وينتظر الفرصة المناسبة عندئذ يدسها في التربة جوار جثة فأر أو عصفور ميت.. ثم تبدأ المأساة..

لا بد أن هذا الشخص موجود..

ومن يدري؟.. ربما كان أنا..

أمس ابتعت بعض أصص النباتات المملوءة بالتربة ونصف كيلوجرام من اللحم المفروم لا أدري لماذا ولا ما الذي أنتويه بالضبط!..

أنا لا أعرف..

فهل تعرف أنت؟..

* * *

في القصة القادمة أستكمل معكم حكاية الكاهن الأخير.. رجل (النافاراي) الذي آويته في داري، فجلب الوبال على الجميع.. ستكون قصة مشوقة من (دراما المكان الواحد)، وستعرفون وقتها كيف أن العجوز (رفعت إسماعيل) لم ينته بعد... و...

لكن هذه قصة أخرى.

د. / رفعت إسماعيل

(القاهرة - ١٩٩٣)

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

١ - الموهوب..

٢ - موكاسا نيجرا!..

٣ - إنه حيّ!..

٤ - تساؤلات..

٥ - كشف الأوراق..

٦ - قريتي من جديد..

٧ - كابوس..

٨ - زائد عن الحاجة..

٩ - عصر الـ (موكاسا)..

١٠ - خاتمة..

روايات
مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة النبات

كلنا نحب النباتات ..
فهى مخلوقات جميلة هشة بريئة،
والأهم أنها مسالمة .. لكن هذا النبات
يختلف .. إنه يفكر .. يتحرك .. يخطط ..
و يقتل! حقًا كلنا نحب النباتات .. فهي
مخلوقات لا تؤذي، كلنا نحب النباتات
.. لكننا سنكون حذرين حين ننام
وهي معنا في غرفة
واحدة!!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة النافاراي

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٢٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

الهيموجلوبين: صبغ الدم الأحمر المسئول عن حمل الأكسجين ومنحه للأنسجة.

[2←]
يقال أن الراهب الروسي المخيف (راسبوتين) كان يدرب نفسه على تناول السموم عن طريق جرعات متدرجة، ولهذا فشلت كل محاولات قتله بالسم مما اضطر أعداءه إلى قتله رميًا بالرصاص.

[←3]

أرجو ألا تكونوا نسيتم أن (رضا) هو أخي وزوجته (نجاة)، و (رئيفة) هي أختي وزوجها (طلعت).

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة النافارای

16

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٦

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة النافاراي

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

١٦

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

•

أسطورة النافارای

بقلم:

د. أحمد خالد توفيق

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦٦٩٧

فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة

تحية لكم!..

هو ذا مضيفكم (رفعت إسماعيل) يواصل سرد حكاياته..

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل)، أستاذ أمراض الدم الذي يقترب - حثيثًا - من السبعين، والذي لم يتزوج قط..، والذي قضى زهرة شبابه جوار توابيت مصاصي الدماء.. وفي الأقبية المسكونة.. والغابات التي يجوبها المذءوبون في ضوء القمر..

التفوا حولي ولا تخافوا..

إن الليل ما زال في أوله أو - كما يقول الإنجليز - ما زال الليل طفلًا.. ولدينا ساعات طويلة نقضيها معًا نرشف أقداح الشاي ونثرثر..

فقط - عدوني - تحملوا نبرة صوتي الواهنة، ورجفة أطرافي، وسعالى المتحشرج.. وطبعًا رائحة التبغ التي تفوح من كل شيء في عالمي..

إن حديث الشيوخ ممتع أبدًا..

لأنهم - وقد قاربوا الأبدية - دنوا أكثر من الحقيقة.. وتخففوا من القشور المملة السطحية.. ونسوا آفة التظاهر بالحكمة..

أنا كنت صغيرًا يومًا ما وكنت أعشق ثرثرة الشيوخ في الليل..

سأحدثكم اليوم عن (النافاراي)..

تذكرون - ولا شك - أسطورة الكاهن الأخير التي لم أستكملها بعد، ولا أدري السبب في الواقع.. إنني أشيخ.. وذاكرتي تتداعى، لكني لم أنس التفاصيل قطعًا..

لنقل إنني لم أنس القصة لكنني نسيت ضرورة حكايتها!..

والآن دعونا نستكملها وسامحوني على كل هذا التأخير..

إن (هن - تشو - كان) عائد لكم.. فأفسحوا له مجالًا بينكم..

فلننعش ذاكرتنا!

دعوني أذكركم بما حدث حتى لا أكلفكم مشقة البحث عن الكتيب الحادي عشر، ومحاولة تذكر ما إذا كنتم قد وضعتموه على رف المكتبة.. أم فوق جهاز التلفاز.. أم تحت الفراش، وما إذا كنتم قد أقرضتموه أم بعتموه.. أم استخدمتم أوراقه لتلميع مرآة الحمام.. أم ألقيتم به في أقرب صندوق قمامة؟..

لا ترهقوا أنفسكم ودعوني أُعِد حكاية ما حدث..

لقد تربى (هن - تشو - كان) في أحد أديرة التبت، بعد ما نذرته أمه لذلك الدير.. وهناك اصطلح على تسميته (الزهرة الزرقاء) لتفرده..

إن هذا الدير ليس بوذيًا.. بل هو خاص بعقيدة غريبة كانت سائدة في القرن الخامس عشر هي عقيدة (النافاراي)..

وفي الدير يدرك الصبي أن هؤلاء الرهبان يمارسون فنًا عجيبًا هو فن تفادي الخطر، أو القتال السلبي..، ويكون عليه أن يخوض تدريبات قاسية مع الأخ (ميانج) يحرز فيها تقدمًا ملحوظًا..

وتكون الذروة هي عبوره لنفق (النيران الراقصة) حيث الاختبار الحق لقدرته على التفادي، وبالطبع ينجح نجاحًا مشرفًا..

وهنا اسمحوا لي أن أقدم خصمه الحميم - أو صديقه اللدود - المدعو (جينغ - تشا).. هو ليس نقيًا متبتلًا إلى هذا الحد.. وليس خصمًا شريفًا على الإطلاق.. سيأتي دوره المقيت بعد لحظات..

وينتقل (هن - تشو - كان) إلى مرتبة أعلى..

إذ يطلعه الكاهن الأكبر على كتاب (شوكارا).. الكتاب الذي يمثل كل ما كانه (النافاراي) وكل ما سيكونونه.. إنه سر الأسرار وقدس الأقداس بالنسبة لهم..

والآن يبدأ الفتى - الذي عرف هذا السر الكهنوتي - في تعلم القتال الإيجابي (سارايانا)، ليتمكن من حماية الدير وحماية كل مقدساته..

و (السارايانا) رياضة عسكرية معقدة قائمة على مهاجمة عدة مناطق حساسة في جسد الخصم بعضها يؤدي للإغماء.. وبعضها يؤدي للشلل.. وبعضها - للخصم المتحمس حقًا - يؤدي للوفاة..

لكن قواعد القتال تحتم إنذار الخصم أولًا بأن الـ (سارايانا) ستبدأ وقد أعذر من أنذر..

* * *

وفي يوم كئيب يدرك الفتى أن خصمه (جينغ - تشا) قد تحالف مع كهنة الـ (ماهايانا) أعداء (النافاراي) الطبيعيين.. وثمن هذا التحالف هو كتاب الـ (شوكارا)..

لقد مات كل (النافاراي) مسمومين بالشاي..

ويكون على الفتى أن يفر بالكتاب الثمين بعيدًا..

لقد صار هو الكاهن الأخير.. آخر (نافاراي) على وجه الأرض، ولئن هلك هو أو أسلم الكتاب فلن يبقى أثر لهذه الفلسفة العظيمة إلى أبد الدهر..

وفي الكتاب وجد أسلوبًا بديعًا. لكنه خطر - يدعى (شانكين)..
يعمد أسلوب (الشانكين) إلى نقل الفتى إلى زمن بعيد وأرض بعيدة غير محددين سلفًا.. ولكن الفتى لا يملك ترف الاختيار..
ويفر.. يفر بعيدًا..
إلى أرض لم يرها من قبل، ووجوه سمراء لم يألفها قط..
ونعرف نحن أنه وصل إلى (مصر) في القرن العشرين.. إلى قرية (كفر بدر) قريتي الحبيبة! (إنها مصادفة غير عادية لكننا اتفقنا على أن تصدقوها)..
ويجيد الفتى التخفي متظاهرًا بأنه معتوه.. ويندمج في أسرة أحد الخفراء وتنشأ علاقة حب مبتورة بينه وبين ابنة الخفير التي لم تصدق قط أنه ذلك الأبله الذي يدعيه..
ويصدق حدسها حين تقع فريسة لبعض اللصوص الذين يوشكون على إيذائها مما يضطر الفتى إلى استعمال أسلوب (السارايانا) للدفاع عنها برغم ما في ذلك من فضح لسره..
لكنها لم تسعد بذلك..
لقد انتابها الذعر وأدركت أن هذا الأجير الذي يعيش معهم هو نوع من الجان أو الشياطين..، وكان أن لجأت إلى خبير الشياطين الوحيد الذي تعرفه..
أتعرفون من؟.. طبعًا أنا ولا فخر!

* * *

كأن هذا هين!
التعرف على شاب غريب الأطوار لا يثق بك لحظة ومحاولة معرفة سره.. لم أتمكن - بالطبع - سوى من تبين أن الفتى ليس مصريًا.. وليس معتوهًا.. بل هو يخفي سرًا لا يعلمه إلا الله..
وحين أوشكت على الاستسلام، كان الفتى قد قرر أن يثق بي..
لماذا؟..
لأنه وجد ضفيرة وثيابًا مما دله يقينًا على أن خصمه (جينغ - تشا) قد لحق به في هذا الزمن وهذا المكان، وبالتالي صار العثور عليه مسألة ساعات أو أيام..
لاذ الفتى بي.. وبعربية متعثرة لم تمارس قط اعترف لي بقصته وطلب مني أن أعاونه في العثور على (جينغ - تشا)، الذي هو - حتمًا - متنكر في مكان ما وينتظر..
ولقد استعنت بصديقي مأمور المركز، لكن النتيجة كانت سلبية.. لم أجد أثرًا لخصمه المشاغب في القرية.. أن (هن - تشو - كان) لفي مأزق حقًا..
وكانت الفكرة التي خطرت لي هي أن أرسله إلى داري بالقاهرة، حيث يذوب في الزحام فلا يجده أحد..
وتم تنفيذ الفكرة فورًا..

* * *

وفي شقتي بدأت أجد لونًا من التسلية في صحبة هذا الفتى ببراءته وسذاجته ومثاليته وشجاعته.. وشاهدت معه أغرب التدريبات التي كان يمارسها على سطح البناية التي أعيش فيها..

صحيح أنه كان مولعًا باصطياد الفئران من حين لآخر.. وصحيح أنه كاد يقتل لصًا قابلناه في الحافلة (لأنه سيئ) على حد قول (هن - تشو - كان)..

لكن - المحصلة - كانت أن الحياة معه مسلية إلى أقصى حد، وقد أذاب جدار الوحدة الذي حاصرني إلى حد مروع..

لهذا - وهذه طبيعة الأشياء - كان لابد أن تحدث مصيبة..

* * *

المصيبة كانت هي زوج أختي الذي اتصل بي من (كفر بدر) يقول لي إن هناك شابًا يشبه (هن - تشو - كان) كان يفتش عن توأمه المفقود بين القرى.. وأن هذا الشاب كان يشعر بشوق شديد نحو أخيه.. وبالتالي دله زوج أختي على عنواني في القاهرة شاعرًا بالسعادة لهذا العمل الخير الذي وفقه الله إليه!..

وقبل أن أتخذ قرارًا كان قد وصل لشقتي..

(جينغ - تشا) شخصيًا، اقتحم الشقة وضربني علقة ساخنة دون مبرر حقيقي.. ثم طفق ينتظر عودة الكاهن الأخير من الخارج..

وعاد الكاهن الأخير..

وبدأت المعركة المروعة بين العدوين اللدودين، لا ننس هنا أن (جينغ - تشا) كان على علم لا بأس به بأساليب الـ (سارايانا).. بالإضافة إلى شراسته.. وهكذا نرى أن الخصمين متساويان تقريبًا للأسف..

وكان علي أن أفر بعيدًا...

أفر إلى شقة جاري (زكريا) بالطابق الأسفل لنغلق الباب على أنفسنا ونصغي إلى صوت الشجار بالطابق العلوي..

وهنا أدركنا حقيقة مروعة..

لم يكن (جينغ - تشا) وحده.. بل معه حشد من رجال (الماهايانا) الذين حاصروا البناية وقطعوا خطوط الهاتف..

إنهم استخدمونا كوسيلة للضغط على المحارب الشجاع.. فإما الكتاب وإما حياتنا نحن السكان الأبرياء معدومو الحيلة..

يا له من مأزق!..

إن الكاهن الأخير يعرف كيف يدافع عن نفسه.. لكن مهمته تصير معقدة جدًا حين تطالبه بالدفاع عنا كذلك..

وبرغم أنني أمقت أغلب جيراني إلا أنني لا أحب موتهم إلى هذا الحد..

وحتى إذا تمنيته فليكن ذلك بعيدًا عني...

وهكذا.. تبدأ قصتنا الحالية..

* * *

"عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق.. عندئذ يبدأ فجر (النافاراي).."

لكنهم نسوا النوافذ!

تذكرت هذه الحقيقة في ذات اللحظة التي تذكرتها ابنة الأستاذ (زكريا) الكبرى.. رأيتها تخرج من الغرفة وشعرها مغطى بشبكة تحتها عشرات من تلك (البوبينات) التي تلف النسوة شعورهن عليها مما يعطي مظهرهن طابعًا فضائيًا (وكأنها قصة خيال علمي)..

رأيتها تهرع للخارج.. إلى الصالة صائحة في أبيها:

- النوافذ يا أبي..!.. فلنستغث من النوافذ..

صحت في حماس وقد راقت لي الفكرة:

- هذا مناسب تمامًا.. لنطلب من أحد المارة أن يحضر الشرطة..

وعالجت مزلاج النافذة ففتحته.. ثم وقفت أرمق الشارع في شرود على ضوء أعمدة النور المتناثرة..

لم يكن هناك أحد.. ولا واحد في الشارع الراقي الضيق الذي يمتاز بالهدوء طوال العام.. فقط سيارتان واقفتان إلى جوار سيارتي..

وثمة قط مذعور يفر بعيدًا.. ثم لا شيء..

ابتلعت ريقي.. ثم فتحت فمي عن آخره:

- النجداااااااه!.. الغاااااوث!

بدا لي صوتي مبتذلًا وغريبًا خاصة وأنني لم أعتد على الصياح في حياتي.. وكأن الفتاة وجدت هذا غير كاف؛ قربت رأسها جوار كتفي وصاحت بصوت رفيع رائع كفيل بإيقاظ الموتى:

- النجداااااااه!

لكن كل هذا الصراخ ذهب بلا جدوى..

ظل الشارع ساكنًا بليدًا كما كان وكما سيكون فيما يبدو..

إن شيئًا في كل هذا ليس على ما يرام..

* * *

عدت - بكتفين منحنيتين - إلى داخل الصالة.. أواجه النظرات الحيرى للأستاذ (زكريا) وزوجته وبناته..

- والعمل؟

- لا عمل.. ننتظر هنا حتى تنتهي المشاجرة..

- والرجل الواقف بالباب؟

- إنه لم يحاول الدخول ولا تهديدنا.. كل ما يريده هو أن نظل حيث نحن وحتى تنتهي تسوية الحساب..

وجلست على مقعد مريح، ولم تكن معي سجائري.. لحسن الحظ أن الأستاذ (زكريا) يدخن.. وبنظرة متسائلة أشرت إلى علبة سجائر موضوعة على المنضدة.. فأشار لي أن لا مانع..

وأعدت لنا الزوجة بعض أكواب الشاي وبعض شطائر الجبن، وعادت لتجلس معنا متسائلة في توتر (كانت على شفير الانهيار العصبي):

- ماذا يحدث بالضبط؟.. من هؤلاء؟

- إن شرح هذا يطول يا سيدتي.. لكن لنقل إن زميلي في الشقة يمثل الخير واللون الأبيض.. أما هؤلاء الأوغاد فهم اللون الأسود بلا ظلال!

وهنا دوى صوت صرخة عنيفة من الطابق العلوي.. ثم صوت صرخة مضادة وأشياء تنقلب كأن فيلًا يتعلم وثب الحبل هنالك..

- يجب أن نمد له يد العون.. ذلك البائس!

جرعت جرعة كبيرة من كوب الشاي واضطجعت مسترخيًا على المقعد:

- إن قتال هذين لشبيه بقتال الديناصورات التي ترينها في الأفلام الخيالية، ولن يلعب (المخلص) بينهما أكثر من دور الذبابة.. أي أن كل ما سيفعله هو أن يسحق أو يمزق.. صدقيني.. من الأفضل عدم التدخل..

المزيد من الصراخ والركلات و.. تشاه سارايانا.. كيو سارايانا.. إذن هناك آخرون قد دخلوا الخط..

وهنا حدث ما كنت أخشاه..

لم أفهم - في البدء - معنى هذا.. فقط خيل لي أن دبابة تهشم باب الشقة، ثم رأيت قدمًا حافية متصلبة الأوتار والعضلات تشق خشب الباب دون رحمة تصاحبها ضربات من يد مشابهة..

وبعد ثانية كان رجل صيني شرس الشكل يحمل خنجرًا كئيب المظهر..

كان هذا الرجل قد دخل إلى الشقة وبوثبة واحدة كان عندي.. و....

يؤسفني أن أذكر أنه جرني من قفاي جرًا إلى الباب.. وأنا أمسك بكوب الشاي مرددًا:

- لحظة أيها الحيوان!.. الشاي سينسكب علي!

لكنه - بالطبع - لم يعر كلامي انتباهًا..

وشعرت بنفسي أحمل حملًا إلى مدخل الشقة.. الإضاءة الخافتة على السلم والظلام الشرير القابع على الأطراف ينتظر..

وحين رفعت عيني لأعلى رأيته..

واقفًا عند أعلى درجات السلم متحفزًا كالنمر.. غاضبًا كالثور.. متوترًا كالثعبان.. كان (هن - تشو - كان)..

وعلى درجات السلم تناثرت ثلاثة أجساد مهشمة لا تبدي حراكًا.. واضح طبعًا أنهم من رجال (الماهايانا) الذين نالوا عقابًا لن ينسوه..

وكان الفتى يردد في هستيريا حانقة:

- سوان هاتشاه سارايانا!

يا لك من معتوه!.. ليس هذا هو وقت البروتوكول.. اضرب ثم تكلم.. إن هذه المثاليات والتشبث بالتقاليد ستقودك حتمًا إلى كارثة..

ثمة جسد رابع يتلوى وهو يئن على بعد أمتار من مكاني.. واضح طبعًا أن هذا هو جسد (جينغ - تشا) الذي كوفئ على حماسه بسقوطه من فوق درجات السلم مهشم العظام.. لقد كانت الغلبة للكاهن الأخير إذن..

وشعرت بجسد الوغد الذي يقيد حركتي يتصلب..

ثم شعرت بنصل الخنجر يتحسس شيئًا ما في عنقي.. ذات الوريد البائس الذي داعبه الزومبي وسفاح الإسكندرية يومًا ما

فما إن رأى (هن - تشو - كان) المشهد حتى صرخ في جزع..

- (ريفات)!

وهنا سمع صوت خطوات من أعلى فرفع بصره - وكذا فعلت أنا - ليجد (عزت) جاري المثال البائس، بقامته الناحلة ولونه الأسمر العجيب.. كان يرتدي منامة زرقاء وحافي القدمين مما دلني على أنه كان غافيًا حين فوجئ بالكارثة التي هبطت عليه، في صورة صيني آخر مفتول العضلات يلوح بخنجر مبهج الشكل ويهدده باستعماله..



وشعرت بجسد الوغد الذى يقيد حركتى يتصلب ..

ثم شعرت بنصل الخنجر يتحسس شيئًا ما فى عنقى ..

ومن الطابق الأسفل لمحت صينيًا آخر يمسك باللواء (محمد حليم) المتقاعد.. وكان يرتدي فانلة داخلية وبنطال بيجامة ويصدر عبارات التهديد لهؤلاء الأوغاد.. الأمر الذي بدا لي مضحكًا..

لقد صار الموقف واضحًا..

ولمحت - بطرف عيني - جهازًا معقدًا من التروس والسلاسل والنصال موضوعًا على السلم، أنا لا أدري ما هو، لكنه - حتمًا - جهاز تعذيب عبقري قادم من عالم محاكم التفتيش.. وبالتأكيد سيبدعون في تجربة هذه التحفة علينا أمام عيني (هن - تشو - كان)..

حمدًا لله أن هؤلاء الأوغاد اكتفوا بتهديد الرجال، فلو بدءوا بتهديد بنات الأستاذ (زكريا) أو المهندس (سليم) لكان الموقف محطمًا للأعصاب إلى حد لا يوصف، ولاضطررنا - واضطر (هن - تشو - كان) - إلى التهور مهما كانت النتائج..

ثم إن هناك متعة لا تنكر في أن أرى الأستاذ (زكريا) يعذب حتى ولو كنت أنا التالي في الدور له!

بتؤدة ينهض (جينغ - تشا) من رقدته.. بثقة يجلس.. بسماجة يتكلم.. موجهًا كلامه إلى (هن - تشو - كان).. والكلام بلغة (النافاراي) التي لا يفهمها سواهم (وأشك أنهم يفهمونها في الواقع)..

نظرة بلهاء مذهولة في عيني (عزت).. المسكين.. لابد أنه يحسب كل هذا كابوسًا.. لقد صحا من النوم ليجد نفسه وسط كل هذا..

أما المهندس (سليم) فأخذ يتساءل في حيرة:

- بسم الله الرحمن الرحيم!.. أية لغة شياطين هذه؟

- شششش! إنها لغة (النافاراي)!

لا أحتاج لأن أكون عبقريًا كي أفهم ما يقال..

لقد صار هؤلاء الأبرياء في قبضتنا أيها (الزهرة الزرقاء)، وحياتهم رهن بإشارة منك.. فإذا سلمتنا كتاب الـ (شوكارا) فقد كفى الله المؤمنين القتال، وإذا رفضت فسترى أسوأ مجزرة لم تزر كوابيسك بعد..

وللمرة الأولى أرى إمارات الغباء والحيرة على وجه (هن - تشو - كان)..

كان عاجزًا عن اتخاذ القرار الصائب..

عاجزًا عن إنقاذنا جميعًا في نفس الوقت، فمهما أجاد وأسرع فحتما سيفلت منه وغد أو وغدان يطيحان برأس أو رأسين..

كان عاجزًا عن تسليمهم الكتاب - تراث أجداده المقدس - وحتى لو فعل فمن يضمن له النتائج؟!..

أما عني أنا فالاختيار بسيط جدًا..

أنا أرفض أن أموت في سبيل كتاب مقدس عند رهبان (التبت) في القرن الخامس عشر!.. هذا هو رأيي وأرفض أن أرى الموضوع على أي ضوء آخر..

نعم هو رأيي.. ولكن من يصغي؟

* * *

الحادية عشرة والربع - ***مساء اليوم الخامس من مايو..***

أطلق (عزت) أنة.. ثم تهاوى على الأرض..
يا للكارثة!..
كنت أعرف أن هذا سيحدث.. وها هو ذا ذلك الأحمق يصاب بهبوط حاد ناجم عن فرط الانفعال، وأرجو ألا ينسى القارئ أنه - (عزت) لا القارئ طبعًا - مصاب بفشل الغدة فوق الكلوية، ويعيش على (الكورتيزون)..
سيكون صعبًا أن أشرح تاريخ حالته الطبية بالإشارات لهؤلاء المتعصبين..
لكن الحقيقة.. الحقيقة التي لم تفارقني هي أن الفتى في وضع خطر، وستزداد حالته سوءًا لو لم ينل حقنة كورتيزون حالًا..

* * *

دارت محادثة طويلة مملة بين (هن - تشو - كان) و (جينغ - تشا)..
ونظرًا لأنني لا أريد أن يفارقني القارئ فإنني سأعفيه من ذكر استنتاجاتي بشأنها.. فلا بد أنها نوع من صياح الديكة المتحفزة قبل القتال..
وفجأة رأيت (هن - تشو - كان) يمد يده إلى أزرار قميصه.. يفتحها.. وينزع القميص كاشفًا عن جسده العضلي المتوتر..
وحول خاصرته رأيت كيسًا من (النايلون) مربوطًا بحزام قماشي..
إذن كان هذا هو موضع الكتاب طيلة الوقت.. فهو لم يثق في أي مكان يخفيه فيه.. وهو ذا قد استسلم أخيرًا..
ورأيت الفتى يفك الحزام ويلوح به وبالشيء الموضوع في الكيس...
لكن (جينغ - تشا) ردد كلمة ما في عناد..
واضح - طبعًا - أن الفتى يطالبهم بإطلاق سراحنا.. أما (جينغ - تشا) فمصر على موقفه.. الكتاب أولًا ثم نرى كيف نتصرف..
كلاهما مصمم على رأيه.. وقد بدأ الملل يعتصرني..
مرت اللحظات ثقيلة..
ثم.. هو ذا (هن - تشو - كان) يطوح بالكيس في الهواء..
وتشتت انتباه العصابة ليروا أين سيسقط الكتاب.. وكانت هذه هي اللحظة التي انتظرها الكاهن الأخير طويلًا..
أما ما حدث بعد ذلك فلا يصدق..
أنتم تذكرون تدريبات الفتى المتواصلة مع الفئران ولم تصدقوا حرفًا...
الآن تصدقون!

* * *

حين تمتزج بالكون وتتعلم أسراره..
حين تتعلم منه سرعة البرق.. وقوة الفيضان.. ومضي الشهب..
حين تتشرب منه رقصة الإلكترونات المحمومة حول نواتها، وصبر المذنبات التي لا تتساءل عن مغزى رحلتها السرمدية.. وحين تفهم منه معنى الأبدية.. وأحلام النجوم..
عندئذ يمكنك أن تكون هذا الرجل..

* * *

كانت الوثبة طويلة من أعلى درجات السلم..
ولمحت الوغد الذي يكبل حركتي وقد هوى على الأرض، ثم رأيت قدمًا تضرب (جينغ - تشا) على جذور عنقه، وكفًا تهوي بين عنق أحدهم وكتفه..
ولمحت الرجل الذي يهدد لواءنا المتقاعد وهو يتدحرج على السلم.. ثم رأيت الخنجر يطير في الهواء ليستقر في صدر وغد آخر..
ثم هوى الكتاب عند قدمي بالضبط!..
عندئذ - فقط - بدأت أدرك حجم المعجزة التي تمت أمامي، وأدركت أننا بحاجة إلى أسابيع طويلة قبل أن نفهم ما فعله الكاهن الأخير..
على السلم كانت هناك ثلاثة أجساد مهشمة فازداد العدد قليلًا..
انحنيت على الكتاب لألتقطه لكني سمعت (شخطة) من (هن - تشو - كان) كي أتركه حيث هو.. واضح أنه لا يريد تدنيس الكتاب بأيدي غرباء..
ثم إنه وقف على قدميه.. العرق يغرق ثيابه وينساب - كالشلال - من فوق شعر حاجبيه.. بصوت لاهث يهتف:
- سوان هاتشاه سارايانا!
ثم ينحني جوار (جينغ - تشا) الممدد بلا حراك على الأرض.. فيربت على جبينه مردداً بلا كلل:
- (جينغ - تشا).. سوان هاتشاه سارايانا!
هو ليس فخورًا بما فعل..
وها هو ذا يعتذر لـ (جينغ - تشا) لأنهم أرغموه على ذلك، وأنهم اضطروه لاستعمال أسلوب (سارايانا) الذي - كما هو واضح - يعتبره قذرًا..
لقد انتهت المأساة بمذبحة..
لكن - على الأقل - ليست دماؤنا هي التي تلطخ درجات السلم، وكنا أقرب ما يكون لذلك..
ينهض الكاهن الأخير.. يمشي بتؤدة ليأخذ الكتاب حيث سقط عند قدمي، و..
- احترس يا (هن - تشو -.....)!
ولم أكمل تحذيري..

إذ رفع (جينغ - تشا) رأسه بمجرد أن أدار (هن - تشو - كان) ظهره له - أن هذا المتعصب لا يهلك أبدًا! - ورأيته يمسك بأداة هي عبارة عن كرة دوارة تبرز منها الأشواك، كتلك التي يظهر محاربو (النينجا) وهم يقاتلون بها دائمًا في أفلام (هونج - كونج) الرديئة.. وبآخر ما تبقى لديه من قوة.. ببقايا الروح التي تفارق جسده سريعًا..

قذف الكرة التي دارت في الهواء بسرعة جنونية.. ثم استقرت في مؤخرة عنق (هن - تشو - كان).. تقلص وجه الفتى وارتسمت عليه أعتى أمارات الألـ.....

اللعنة!..

إنه يتهاوى كالبالون المثقوب..

تنثني ركبتاه.. يرتخي ذراعاه..

ثم يغمغم شيئًا ما..

وينكفئ على وجهه بلا حراك!

* * *

الحادية عشرة والنصف - ***مساء اليوم الخامس من مايو..***

سقط (هن - تشو - كان) عند قدمي فوق كتابه..

أطلقت صرخة رعب.. وانحنيت لأريح رأسه على ركبتي.. ثم مددت يدي بحذر وانتزعت الكرة الدوارة من مؤخر عنقه..

كانت لينة. وهذا غريب. خفيفة الوزن - وهذا أغرب - تشع منها إبر صغيرة مجوفة..

وهنا فهمت..

إن الضرر الذي تحدثه هذه الكرة ليس ناجمًا عن قوة ارتطامها، والأذى الذي تسببه للتركيبات الحيوية.. بل هو ناجم عن قيامها بحقن سم ما... هأنذا أعتصر الكرة بحذر فينز سائل أخضر اللون من أطراف الإبر..

وهذا السائل هو ما يجري الآن في عروق الكاهن الأخير..

وكانت الكرة مزودة بطرف عار من الإبر ليسمح لمن يقذفها ألا يدمي أصابعه هو نفسه..

ولكن ما كنه هذا السم؟..

أنا لا أعرف سموم هؤلاء القوم لكني أستطيع تخيلها.. سم من أسنان ثعبان الصخور الأرقط.. أو من أنياب التنين المطحونة.. أو من عصير الوطاويط.. أو أي شيء من هذا الهراء الذي لن أعرفه أبدًا..

فتحت عيني (هن - تشو - كان) فوجدت الحدقتين ضيقتين دبوسيتين..

وكان يتنفس بصعوبة واللون الأزرق يزحف على شفتيه..

إذن سنقتدي بالقاعدة الطبية القديمة: إذا كان السم مما يضيق حدقتي العينين، فالترياق المناسب لابد أن يوسعهما**!**..

أرحت رأسه على الأرض وهرعت إلى شقتي وسط التساؤلات..

ومتناسيًا الفوضى في كل مكان - كأن إعصارًا مر بالشقة - جريت إلى الصيدلية الصغيرة في الحمام، فكسرت ستة أمبولات من (الأتروبين).. وعبأت محقنًا بها..

قد يكون السم مشتقًا من مادة الفوسفور العضوي.. وقد يكون من قلويدات الأفيون... وقد يكون من مشتقات (الارجوت).. وقد يكون مادة ما لم أسمع عنها ولا يعرفها أحد..

كل شيء جائز..

لكني لن أنتظر حتى يموت (هن - تشو - كان) بينما أرمقه في حزن..

يجب أن أفعل شيئًا حتى ولو كان هذا الشيء هو التعجيل بموته**!**

* * *

ونزلت درجات السلم لألحق بالفتى حين حدث شيء غريب..

لم تكن هناك جثث.. لم يكن هناك صينيون... اختفوا.. تبخروا.. ذابوا في اللانهاية... فقط كان جسد (هن - تشو – كان) هناك وقد أراح رأسه على ركبة الأستاذ (زكريا).. ولمحت الذهول في

عيون القوم.. فأين ذهب المعتدون إذن؟
لكنني استطعت أن أفهم.... لقد عادوا إلى عالمهم بمجرد أن قضوا نحبهم..
كأن (الشانكين) يايّ يجذب هؤلاء القوم باستمرار نحو زمنهم وأرضهم..
وحين ماتوا فقدوا ارتباطهم بهذه الأرض وعادوا محلقين إلى عالمهم..
كل هذا غريب..
لكنه يعني أن (هن - تشو - كان) مازال حيًا، ومازال مربوطًا بهذه الأرض وهؤلاء الناس وهذا الزمن..

* * *



فقد كان جسد (هن ـ تشو ـ كان) هناك وقد أراح رأسه على

ركبة الأستاذ (زكريا) ..

أفرغت المحقن في عروقه النافرة وانتظرت في أمل..
والآن.. ها هي ذي علامات (الأتروبين) تظهر عليه.. وجهه يتقد كجمرة ملتهبة.. حدقتاه تتسعان.. لسانه يجف كقطعة من القش.. قشور بيضاء تحتشد على شفتيه.. نبضه يتسارع..
المفروض أن ينهض..
لكن هذا لم يحدث..
إن الأمر أعقد مما تصورت، ولم يعد ثمة ما أفعله سوى نقله إلى المستشفى الجامعي - حيث أعمل - لمعرفة ما يمكن عمله..

* * *

وتعاونت مع (عزت) - الذي استعاد قواه نوعًا - لنحمل الفتى إلى سيارتي، ثم أنهب بها الشوارع نهبًا قاصدًا المستشفى..
وهناك تعاون طبيبان شابان من أطباء التخدير على إيلاج أنبوب القصبة الهوائية في حنجرته، ثم وصلاها بجهاز التنفس الصناعي، وتم إجراء بعض التحاليل الدموية، وحقن لترات لا جدوى منها من مادة الدكستروز في عروقه..
قال أحدهم مضيقًا عينيه في ذكاء:
- تبدو لي كحالة من.. من...
تساءلت ملهوفًا:
- من ماذا؟
- من تسمم (الأتروبين)!
تبًا لك!.. لقد كنت أنا من حقنه بالأتروبين منذ دقائق!.. إن مشكلتنا - وهذا جلي لي - بلا حل..
فإما أن يعود (هن - تشو - كان) إلى الحياة من تلقاء ذاته، وإما أن يموت من تلقاء ذاته، وليس لدينا سوى الانتظار ومصمصة الشفاه..
منحني الكتفين مطأطئ الرأس عدت لداري بعد كل هذه الضوضاء..
الساعة تقترب من الواحدة من صباح اليوم السادس من مايو أصعد في درجات السلم في توجس..
لقد رحل رجال الشرطة من زمن، وعاد الجيران إلى شققهم.. فلم يبق أثر سوى باب الأستاذ (زكريا) المهشم الذي ثبته بالمسامير مؤقتًا حتى يجد من يصلحه في الصباح.. لابد أنهم قد ناموا على أمل أن يعرفوا في الصباح أنهم كانوا يحلمون..
و..... لحظة!..
نسيت شأن الكتاب تمامًا!...
صحيح أنه لا يهمني في شعرة لكنني - حتمًا - أحترمه وأحترم تضحية (هن - تشو - كان) بحياته من أجله، فلا أريد لهذا الرمز أن ينتهي في سلة المهملات أو تلف فيه أقراص (الطعمية)..
إن اهتمام الآخرين بشيء ما - فكرت - يضفي أهمية حقيقية على هذا الشيء، ولهذا يتلخص كبرياء الوطن في قطعة قماش هي العلم.. ويتلخص حبك لزوجتك في حلقة قد تكون من الذهب وقد تكون من الفضة هي الدبلة..

ويتلخص كل كيان الفتى وذكرياته في هذا الكتاب الأبله (الشوكارا)..
لهذا - ومهما كنت قاسيًا - لا أجرؤ على إهمال هذا الكيان..
قرعت الجرس الوحيد الذي جرؤت على قرعه في هذه الساعة.. جرس جاري (عزت) الذي يحيا كذئب وحيد..
انفتح الباب وظهر لي بوجهه الأسمر النحيل الكالح متسائلًا عما هنالك، فما إن رآني حتى اشرق وجهه ودعاني للدخول هاتفًا:
- ألن تفهمني كنه هذا الذي حدث؟
- نعم.. فيما بعد لكن ليس الآن.. والآن هلا أخبرتني بما حدث لذلك الكتاب الملفوف في كيس، والذي أخرجه الفتى من تحت ثيابه ليقدمه للمعتدين؟
صاح في حيرة وهو يحك ما تحت إبطه:
- كيف لم تر ما حدث؟.. آه!.. لقد جريت إلى شقتك لتحضر المحقن.. حسن.. لقد زحف أحد الرجال - أكثرهم عدوانية - نحو موضع الكتاب، و...
- تعني أن (جينغ - تشا) لم يكن قد مات بعد؟
- كان يلفظ آخر أنفاسه إلا أنه التقط الكتاب واحتضنه.. ولم يجرؤ أحدنا على منعه بالطبع..، ثم...
- ثم ماذا؟
- ثم أخرج قنينة صغيرة جدًا- بحجم الإصبع - وجرع ما فيها.. وسقط منكفئًا على وجهه.. بعدها ذاب.. تلاشى تمامًا هو ومن معه من رجال،.. (رفعت)!.. أنا أسمع كثيرًا عن الهلوسة الجماعية، فهل ما مررنا به نوع منها؟.. وما هو سبب كل هذا؟
ثم أشرق وجهه بنشوة الفن وهتف:
- آه لو رأيت منظره وهو يزحف فوق درجات السلم... الأسد الجريح!.. يا لنبله ويا لرشاقته!.. إنني عاكف الآن على رسم (اسكتشات) أولية لهذا المشهد بغرض صنع تمثال جديد..
هل تحب أن تراها؟!
.....

* * *

الحادية والأربعين - ***ظهر اليوم الخمسين من (هسبراد)..***

كان هناك...
إنه لم يفقد ذاتيته بعد.. وهو يعرف نفسه كأفضل ما يكون..
أما كيف وصل هناك فموضوع آخر..
تذكر فقط أنك قد أرديت خصومك جميعًا، فتساقطوا كالفراش حول النيران.. لقد انتصرت (السارايانا) على جنود الظلام..
وتذكر أنك انحنيت جوار (رفعت) لتأخذ كتاب الـ (شوكارا)..
ثم.. الألم الحارق في مؤخرة عنقك.. بغتة..
القوة تتسرب من رقبتك كما يتسرب البخار من (السماور)..
عندئذ - وعندئذ فقط - أدركت أنهم قد نالوا منك..
والآن أنت هنا يا (هن - تشو - كان).. أنت هنا..

* * *

لم يكن هناك أفق..
ولم تكن هناك شمس..
فقط الظلام العتيد.. الظلام البكر الأولي يمتد إلى ما لا نهاية.. وثمة خطان متوهجان باللون الأزرق المشع يمتدان - هما أيضًا - إلى ما لا نهاية.. فوق رأسه..
ونظر (هن - تشو - كان) إلى قدميه..
غبار أحمر متوهج يتطاير هنا وهناك محدثًا - تحت قدميه - صوتًا غريبًا غير مستحب، كالصوت الذي تحدثه أسنانك في ثمرة كمثرى غير ناضجة..
لقد نالوا منك...
إذن أنت قد مُت يا (هن - تشو - كان).. وهذا هو العالم الآخر.. أرض الأجداد التي سمعت عنها مرارًا..
أنت مذعور.. ولكن في هذا دليلًا على أنك لم تلحق بالأجداد بعد..
الأشباح لا ينتابها الذعر بعد ما ظفرت بالأبدية.. الذعر سمة الفانين..
وأنت لا تصدق أن كل هذا ممكن..
إذن.. أنت حيّ.. لكنك منفي هاهنا..

* * *

وهنا يتصاعد الغبار الأحمر في الأفق..
وبعين مذعورة ترى شيئًا يقترب.. ثلاثة أشياء في الواقع..

لبرهة ظننت أنك ترى ثلاثة فرسان. على خيولهم يقتربون منك.. ثم بعد ثوان أدركت أن الأمر ليس كذلك..

فرسانًا نعم.. يركبون خيولًا نعم..

لكنهم كانوا بلا وجوه.. مجرد أجساد تمتطى أشياء أقرب إلى الزواحف واللهيب يتصاعد من مناخرها أزرق مضيء..

وكان كل (شيء) من هذه الأشياء الراكبة يلوح بلسان من النار.. لسان طويل أخضر اللون تتناثر منه الشعلات في كل صوب..

كانوا يريدونك..

وهذا حسبك....

أطلق الأول صوتًا عجيبًا - كأنه قشرة بيضة تتهشم - ودنا منك ملوحًا باللسان الأخضر.. ضخمًا.. رهيبًا.. مهيبًا..

لكنك - حتى في هذا العالم - لم تنس أساليب التفادي..

تمرغت في الغبار الأحمر فتناثر في كل مكان..

لقد أدركت - بالفطرة - أن هذا اللسان الأخضر نوع من السلاح.. شيء يقذف عليك من شخص لا يبدو ودودًا هو بالقطع سلاح لا تعرفه..

وسمعت هذه السحلية تطلق فحيحًا، ثم تمر جوارك نحو مكان ما..

وعندئذ جاء الفارس الثاني..

المزيد من قشور البيض تتهشم، واللسان الأخضر يثب نحوك..

وثبت في الهواء لتتحاشاه ثم هبطت على قدميك على حين اندفع نحوك الفارس الثالث.. فمرت نيرانه فوق رأسك..

من هؤلاء؟.. من أين جاءوا؟.. أين أنت؟..

لا وقت للإجابة..

هأنتذا واقف تلهث في حين يقف الثلاثة صفًا أمامك يتحرشون بك استعدادًا لمواصلة الهجوم.. والسحالي التي يمتطونها تنفث النار وتبعثر الغبار الأحمر بأقدامها الحانقة..

حتى هنا لم ينس الفتى آداب (النافاراي)..

- تشا سارايانا!

صرخ وهو يثبت قدميه على الأرض ويفتحهما:

- جيانغ سارايانا!

قالها وهو يفتح ذراعيه عن آخرهما:

- كيو سارايانا!

هتف بها وهو يرجع رأسه إلى الخلف كسهم في قوس.. ثم..

ثم ترك الزناد.. فاندفع في الهواء نحو الفارس الأوسط..

وبساق غاضبة وجه له ركلة عنيفة في صدره..

لكن الساق لم ترتطم بشيء.. بل مرت عبر الصدر، ليجد الفتى نفسه ساقطًا على الأرض وسط الغبار الأحمر البراق..

لم يكن لهؤلاء وجود مادي إذن.. بل هم أطياف.. رؤى.. نوع من السراب الذي كان يراه في طفولته عبر صحاري الجليد..

وكأنما كانت هذه هي الإشارة..

اندفع الفرسان الثلاثة نحوه صارخين.. لكن صراخهم لم يزد على نوع من تهشيم قشور البيض كما أسلفنا الذكر.. صارخين من أفواه لا وجود لها..

إنهم يلوحون بنيرانهم.. من المؤكد أنها لا تؤذي..

لكنه لن يجازف..

تمرغ أرضًا ثم وثب ثم تمرغ أرضًا ليمر ما بين القدمين المخلبيتين لواحدة من تلك الزواحف التي تشبه الخيل..

وحانت منك نظرة إلى السماء فرأيت أن الخطوط قد ازدادت خطين..

خطين لونهما أزرق متألق يبدآن من اللانهاية وينتهيان في اللانهاية...

ما معنى هذا؟.. ما هو هذا المكان؟..

* * *



وبساق غاضبة وجه له ركلة عنيفة فى صدره ..

لكن الساق لم ترتطم بشىء ..

أنت في (زانادو).. حيث تحيا الظلال على دماء الموتى.. وحيث يمزج الرعب خمر الفناء لمن ضلوا السبيل.. أنت في (زانادو) أرض الكوابيس فاخضع للخان العظيم..

* * *

من قال هذا؟

لا يدري.. لكنه سمع الصوت كأوضح ما يكون في دهاليز عقله.. وبرغم إنهاكه كان قادرًا على التفكير المتعقل..

إنه لم يتوهم ذلك كله.. بل هو حقًا هنا يواجه هذه المسوخ ويصغي لهذا الصوت الذي يدعوه للخضوع.. صوت لا يتحدث بلغة معروفة لكنه مفهوم..

ولكن ما هي (زانادو) هذه؟[1]

* * *

أنت في (زانادو).. حيث يصير للمخاوف كيان ملموس، وحيث تخطو الأشباح في دهاليز الأبدية.. أنت في (زانادو) حيث الظلام السرمدي..

وحيث تعزف النجوم لحن العدم.. فاخضع للخان العظيم..

* * *

مرة أخرى يسمع الصوت..

وحتى إذا ما خضع لهذا الخان العظيم، فكيف يفعلها؟..

كيف يمكن إخبار هذه المسوخ - معدومة الرأس - أنك تستسلم؟

إنهم يقفون أمامه صامتين.. على حين تصدر الزواحف خوارًا مستمرًا وتتحرك في قلق كأنها تريد مواصلة الهجوم..

لكن الفرسان ينتظرون..

من هو الخان العظيم؟.. هل هو رئيسهم؟

* * *

أنت في (زانادو) أيها المحارب.. حيث ينزع الغموض رداءه.. وتفتح الطلاسم أقفالها.. وتستحم عذارى الليل عرايا في دماء من ضلوا سبيلهم وجاءوا هاهنا.. أنت في (زانادو) أرض الشؤم.. فاخضع للخان العظيم،..

* * *

خضعت!.. خضعت!..

فلينته كل هذا!..

أنا لم آت محاربًا ولا أدري أين أنا..
لو كنت - حقًّت - خائنًا عظيمًا، فالمفروض أن تعرف أنني لا أرغب سوى في المعرفة والفهم..
لو كنت خائنًا عظيمًا لجعلت مسوخك ينصرفون..
لو كنت.....
وهنا حدث شيء مريع...

* * *

ولكنني - برغم كل شيء - جائع!..
تذكرون أنني لم أتناول عشائي بعد، وكنت أنتظر (هن - تشو - كان) حين يعود من السوق.. إذ جاء هذا الإعصار (جينغ - تشا) ليقلب الأمور رأسًا على عقب..
لهذا وضعت المقلاة على الموقد وأذبت بها ملعقة سمن، وكسرت بيضتين..
ثم جلست ألتهم عشائي من المقلاة مباشرة، على أن أعود إلى المستشفى على الفور بمجرد أن تخرس كلابي (كما يقول الإنجليز)..
أنا لست بارد الأعصاب كما تظنون، ولست قاسيًا.. أنا - فقط - جائع ولن أؤذي أحدًا بشبعي كما لن أفيده بجوعي..
ثم إنني أشعلت لفافة تبغ وطفقت أتأمل الحلقات الرمادية المتصاعدة..
إذن حصل (جينغ - تشا) على الكتاب.. وحمله معه إلى.....
إلى أين؟..
هل عاد به للقرن الخامس عشر؟.. ولكن كيف يستفيد به هناك.. أكاد أقسم إنه لفظ أنفاسه أو كاد إثر ضربات الكاهن الأخير الفعالة على مواضع هذه الـ (كارما) أو الـ (صارما) لا أذكر اسمها.....
تبًا لك يا (هن - تشو - كان)!..
كيف تسمح لنفسك بالإصابة بالغيبوبة في لحظات هامة كهذه؟.. أنت الوحيد الذي كان يملك تفسير ما حدث..
وهنا دق جرس الهاتف في إلحاح..
نهضت لأرد متوقعًا أن أسمع الخبر إياه.. فسمعت صوتًا ملهوفًا:
- د. (رفعت)؟.. أنا (منير)..
- اختصر يا صديقي.. أختصر..
- المريض الذي أحضرته لنا..
ابتلعت ريقي وتحسست صدري ضاغطًا قلبي في موضعه حتى لا يسقط إلى قدمي.. وتساءلت:
- هل هو.....؟
- كلا.. ولكن.. أشياء غريبة جدًا تحدث.. هلا جئت لنا الآن؟
وضعت سماعة الهاتف وأنا ألعن في سري..
ستكون ليلة أسود من قلب كفار (قريش) جميعًا..

* * *

على الشاشة الخاصة بجهاز (المونيتور) أخذت النبضات الكهربية تتواثب كالبراغيث الخضراء، في حين يشير مؤشر النبض إلى مائتي نبضة في الدقيقة..

كان هناك عدد لا بأس به من المناظير والمعاطف البيضاء حولي..
وسألني أحدهم وهو يتثاءب:
- ما سر هذا؟
- كنت أظنكم تعرفون الإجابة..
- إن الضغط يتزايد. كذلك.. وحركة الحدقة سريعة حقًا
قال د. (منير) وهو يفتح جفني (هن - تشو - كان) متأملًا حدقتي العينين اللتين تتحركان كبندول:
- هل تريدون رأيي؟.. يخيل لي أن هذا شبيه بطور النوم المتناقض (بارادوكس) الذي تبدأ فيه الأحلام..
قلت وأنا أحك عنقي:
- هل تعني أنه يحلم في غيبوبته؟..
- بالتأكيد.. وأظنه يحلم بالكوابيس..
كنت أفكر في كل هذا شارد الذهن.. حين دنت مني إحدى مشرفات التمريض وجذبت كمي قائلة في حزم، وهي تمسك بدفتر كئيب المنظر:
- تأمين العناية المركزة ثلاثمائة جنيه!..
- فيما بعد.. فيما بعد.. نسيت أن أجلب مالًا..
ثم نظرت إلى الفريق الطبي الواقف متسائلًا:
- لماذا لا تجرون له غسيلًا كلويًا يزيل آثار هذا السم من عروقه..
- سنحاول ذلك.. لكننا لا نضمن أي نجاح..
وهنا شعرت بالمشرفة تجذب كمي مكررة في حزم:
- لا تنس الثلاثمائة جنية صباح غد وإلا طردناه!
صعد الدم إلى رأسي:
- لن أنسى عليك اللعنة.. ولكن دعيني أكمل جملة واحدة!..
ثم قلت وقد تذكرت شيئًا.. موجهًا كلامي إلى د. (منير):
- إن عندي كمية نقية من هذا السم.. ولأقوم بتحليلها باكرًا في مركز البحوث، فلربما أفادنا هذا..
سأحاول أن أختصر فلا أحكى لقائي العسير مع رجال الشرطة ووكيل النيابة الشاب المتحمس، الذين انقضوا علي من كل صوب يحاولون فهم ما كان هذا الآسيوي يفعله في شقتي.. وأين جواز سفره؟.. ولماذا لم أتصل بسفارته؟.. وما سر المشادة التي حدثت على سلالم البناية؟.. إلخ... إلخ..
أنا أحب هؤلاء الرجال لأنهم يؤدون واجبهم، لكني أجد من العسير نوعًا أن أحدثهم عن (النافاراي) و (الماهايانا).. لهذا اختصرت أكثر التفاصيل إلى أن صارت القصة مجرد قصة صديق آسيوي عرفته بالصدفة.. ودعوته إلى داري حين هاجمنا بعض الأوغاد لأسباب لا أعرفها..
وجاء اثنان من سفارة (جمهورية الصين الشعبية) ليريا الفتى ويتأكدا من أنه ليس من رعايا دولتهما.. هذا بالطبع قبل أن تبدأ وفود (ألبانيا) و (اليابان) و (ماليزيا) و (الفليبين) و (نيبال) و (منشوريا) غدًا بإذن الله..
والنتيجة هي - حتمًا - خراب بيتي بشكل أو بآخر..

إن السفر عبر الزمان والمكان جميل.. لكنه ليس مستحبًا في زمن تقيده جوازات السفر، ويكون فيه على كل إنسان أن يثبت أنه (شخص ما) وإلا فالويل له.. هو ومن أخفاه عنده!

* * *

الرابعة بعد منتصف الليل..

عدت بسيارتي إلى داري.. إنها المرة الثانية في هذه الليلة التي لا تنتهي..

أحتاج إلى ثماني ساعات في فراشي قبل أن أعود أنا أنا.. لكن هيهات! ليس هذا الترف حقًا لأمثالي..

وعند شقة الأستاذ (زكريا) تذكرت..

الكرة الشوكية.. لقد سقطت مني ها هنا حين أرحت رأس (هن - تشو) على ركبتي.. لكنها لم تعد هنالك..

أريدها.. فهي لم تزل تحوي بعض تلك المادة المشئومة، وأملي كبير في أن أحللها وأجد الترياق..

ولكن..

أين هي؟..

من أخذها؟.. ومتى؟.. ولماذا؟..

* * *

العاشرة - ***صباح اليوم الرابع من (جونو)..***

بدأت الأرض تحتشد..
الغبار الأحمر يتعالى ويتعالى أمام عيني (هن - تشو - كان) الذاهلتين..
لكن الصوت كان مستمرًا:
"اخضع أيها المحارب... اخضع!"..
لم يكن قد فهم بعد.. لكنه أيقن أن هذا الغبار الأحمر كائن حيّ!..
كائن حي غاضب.. ويهاجمه!..
"اخضع أيها المحارب... اخضع!"..
حتى بالنسبة لمحارب (نافاراي) - سيد جهازه العصبي - كان هذا كثيرًا جدًا، وشعر (هن - تشو - كان) أن وعيه يتسرب منه..
"اخضع أيها المحارب... اخضع!"..
تحفز الفتى في وقفته.. أين ذهب ثلاثة الفرسان؟.. إنهم يحيطون به من ثلاث نواح، على حين يغلق التل الأحمر الوليد الناحية الرابعة..
لقد أحكموا حصاره فلا جدوى من الحركات البهلوانية..
وهنا سمع صوتًا هائلًا يصرخ:
- الموت للخان!..
وبرز رجلان يمتطيان ما يشبه الخيول البيض.. لكن هذه الخيول لم تكن ذات أقدام.. بل هي أقرب إلى أطياف بيضاء تحوم فوق الرمال مرفرفة بجناحين سميكين كأجنحة الوطاويط..
ورأى أول الرجلين..
كان عاري الجذع يكشف عن عضلات هائلة (لكنها قرمزية اللون)، وكان رأسه يتربع على كتفيه كبيضة عملاقة بلا تجاويف ولا معالم!..
وفي يده كان لسان من الوميض - كالكهرباء - يرسل شرارًا في كل اتجاه..
وإذا الرجل يصيح صيحة واحدة، ويقذف هذا اللسان على أحد الفرسان..
عندئذ.. تصاعد الشرر الأزرق في كل صوب..
ولمح (هن - تشو - كان) الفارس يتفحم.. ينكمش.. يتضاءل في دروعه..
ثم يتحول - وما يركبه - إلى غبار فوسفوري أخضر.. إذن فهذان الرجلان - مهما كان من غرابتهما - صديقان..
ورأى (هن - تشو - كان) تل الغبار الأحمر يغوص..
ثم يزحف نحو الرجلين ليخسف الأرض من تحتهما أو يعرقل جواديهما..
لكن الخيول ارتفعت برشاقة فوق التل.. ولسعة برق قاتلة أصابت فارسًا آخر فتفحم..
حاول (هن - تشو - كان) أن يركض ليلحق بالرجلين المنقذين، لكن الفارس الثالث الباقي على قيد الحياة اعترض طريقه..
يا للهول!.. يا للضخامة!..

كابوس يركب كابوسًا وهو يطل عليه من أعلى دون رأس..
ولشدة الذعر أدرك (هن - تشو - كان) أن هذه الزخارف التي تملأ حلة الفارس لم تكن سوى مئات العيون الجاحظة المحمرة كلها ترمقه في مقت وتركيز!..
أما ما حسبه حزامًا مزخرفًا فلم يكن سوى فم كبير فاغر تحفه الأنياب القاطعة المشرعة.. فم يتوسط بطن هذا المسخ!..
ومن ذراع المسخ اندفعت أجسام أسطوانية - كأنابيب دقيقة - قاصدة وجه (هن - تشو - كان)..
عندئذ أدرك هذا في هلع ما يحدث..
لقد كان الكائن قادرًا على تحريك أوردته ليمتص بها دماء الأعداء!..
أي كابوس هذا؟!..
هناك حيث وقف في كون يسوده الظلام، على رمال حمراء دموية براقة، يواجه مسوخًا بلا وجه، ويدافع عنه رجلان يركبان حصانين مجنحين..
هناك أدرك أنه يهلوس.. حتمًا يهلوس..
لابد أن هناك من دس له أفيونًا أو قنّبًا هنديًا في طعامه..
لكن الوريد ثبت نفسه على ذراعه، فكان الألم مريعًا..
إن هذا الكابوس يؤلم إذن..
ولكن كيف يؤذيك شيء لا تقدر على لمسه؟.. مستحيل...
لم تطل حيرته لأن أحد الرجلين المنقذين مر بجوارهما.. فأطلق لسانًا من البرق دمر الفارس المسوخي تمامًا..
وسقط (هن - تشو - كان) على الأرض الحمراء يرتجف..
لقد ساد الصمت.. واختفى الجبل الأحمر..
وهنا وجد ثلاثة وطاويط خضراء اللون تحوم في دوائر متصلة صاعدة لأعلى.. لأعلى وهي تصدر صريرًا مروعًا.. حتى تلاشت..
أدرك - دون جهد - أنها ترمز لأرواح الفرسان الثلاثة..
وحين عاد قلبه ينبض..
وحين استطاع أن يقف على قدميه..
وحين وجدت الحروف سبيلها إلى لسانه الجاف..
كان أول ما قاله هو:
- أين أنا؟
- أنت في (زانادو) أيها المحارب حيث تترك الأوهام آثار خطاها فوق الرمال الحمراء..
- أين أنا؟
- أنت في (زانادو) أيها المحارب حيث تفنى الحقائق وتحيا الأحلام..
- أين أنا؟
- أنت في (زانادو) أيها المحارب حيث الرجال رجال حقًا..
كان الكلام يتردد في ذهنه دون أن يدرك مصدره.. هو نوع من (التخاطر) الذي تعلمه في (التبت) إذن.. ولهذا لم تكن ثمة صعوبات في الترجمة..
- ومن أنتم؟

- نحن رجلان من (الراموس) ألد أعداء الخان..
رفع رأسه نحو السماء فرأى الخطوط الزرقاء قد ازدادت عددًا حتى ملأت أكثرها.. أدرك - في هلع - أن لحظة ما آتية حين لا يصير في السماء موضع لخط آخر وتستحيل كلها زرقاء..
أما الأكثر رعبًا فهو مصدر الخطوط..
لقد كان هذا عنكبوتًا عملاقًا قرمزي اللون يثبت أقدامه الثمانية إلى قبة السماء عاكفًا على إفراز المزيد من الخطوط الزرقاء..
- أعنكبوتًا هائل الحجم أرى؟
- أنت تراه كذا.. ونحن نراه شيئًا آخر!
- مستحيل!.. ألا تريان نفس ما أراه؟
- أنت في (زانادو) حيث كوابيسك حقيقية.. وكوابيسك ليست كوابيسنا..
عندئذ بدأ يفهم..
إن مشهد الفرسان الثلاثة عديمي الرءوس كان كابوسًا يطارده في صباه.. بنفس التفاصيل تقريبًا..

* * *



لقد كان هذا عنكبوتًا عملاقًا قرمزى اللون يثبت أقدامه الثمانية إلى
قبة السماء عاكفًا على إفراز المزيد من الخطوط الزرقاء ..

يومها نهضت من الفراش مولولًا صارخًا:
- الفرسان بلا رءوس!.. بلا رءوس!
تقلب الأخ (ميانج) في فراشه الأرضي الملاصق لك ووضع يده على جبينك وغمغم:
- لا تخف أيها (الزهرة الزرقاء).. لا تخف.. إن الشياطين لا تجد ثغرة إلى النفوس الشجاعة إلا حين يغلفها الكرى..
- لقد فتت الذعر جسارتي!..
- في الغد - حين تتسربل بأغطيتك - فلتقسم لنفسك إنك لن تخاف.. ولئن فغر الخطر فاه فأدخل رأسك فيه.. لئن غزا الخطر قلبك فاغز قلبه.. لئن جرى الخطر خلفك فلتتوقف.. انتظره!..

* * *

إذن لم يكن كل ما رأيته سوى انعكاس لكابوس قديم.. كابوس منسي منذ الصبا..
- لكنكما رأيتما الفرسان مثلي؟
هتف أحد الفارسين وهو يدور بحصانه المجنح حول الفتى:
- أنت رأيتهم فرسانًا، أما أنا فرأيتهم نمورًا سيفية الأسنان تحاصرك.. وأخي رآهم كريات من اللهب تحاول حرقك..، أنت في (زانادو) أيها المحارب، فلا تثق بعينيك.. ثق بعقلك.. ثق بغريزتك..
- وهل - حقًا - الغبار الذي نقف علية أحمر اللون؟.. والسماء سوداء تقطعها خطوط من الأزرق؟.. وهل لونكما قرمزي ووجهكما بلا ملامح؟
- أنت في (زانادو) أيها المحارب.. أنا أراك تتلوى كأفعى.. وأراك في بحر من المياه الخضراء..، أخي يراك صنمًا حجريًا تحيط به النيران.. لا تثق بعينيك أيها المحارب.. ثق بإدراكك..
- ومن هو الخان العظيم؟
- هو كل شيء مفزع مقيت في هذا العالم.. الخان هو المرض والوهن والجوع..
الخان هو الألم والقسوة والجبن..
- وهؤلاء.. هؤلاء الفرسان أو النمور أو كريات اللهب.. هم جنوده؟
- بل هم هو ذاته..!.. إن الخان هو كل شيء كريه في هذا العالم..
- وأنتم؟.. ثوار عليه؟...
نحن متمردون على الاندماج في ذات الشر..
وهنا ارتجفت شفتا الفتى.. جاء وقت أكثر الأسئلة قسوة:
- كيف جئت أنا إلى هذا العالم؟.. ولماذا؟.. وكيف أعود منه؟.. ثم - أرجوكما أن تصارحاني - هل أنا ميت في دنيا الأشباح؟
بتؤدة دوى الصوت في ذهنه:
- لا أيها المحارب.. أنت لم تمت.. لكنك تحتاج لكل فنون (النافاراي) كي تعود لعالمك..
وسنقول لك كيف..
.....

* * *

الرابعة والربع - ***صباح اليوم السادس من مايو..***

أخيرًا - بعد بحث دام ربع الساعة - وجدت ضالتي..
كانت الكرة الشوكية قد سقطت عبر (الدرابزين) إلى بئر السلم السفلي..
وعلى ضوء لهيب قداحتي وجدتها..، ولففتها في منديل صغير..
أما سبب سقوطها هناك فبسيط جدًا..
قط صغير تعس الحظ منكود الطالع صعد في سلم الدار ووجد الكرة، واعتبرها - ذلك المعتوه - كرة خيط بريئة.. عابثها بوسادة قدمه فجرحته.. ثم سقطت إلى حيث وجدتها أنا..
وبالطبع كانت جثة القط ممددة إلى جوار أحد الأبواب الموصدة مما جعلني أفهم القصة كلها..
الطريف هنا أنه كان حيًا يتنفس، لكنه مصاب بذات الغيبوبة المشئومة مما دلني على أن هذا السم ليس معتمدًا على الجرعة.. فالجرعة التي تخدر رجلًا ناضجًا مثل (هن - تشو - كان) لابد أن تقتل قطًا صغيرًا لو كان هذا سمًا مألوفًا..
على كل حال لقد منحنا هذا القط فرصة أخرى..
سيكون نموذجًا حيوانيًا نجرب عليه أي علاج قبل أن نعطيه للكاهن الأخير..، ولربما احتجنا إلى تشريحه لمعرفة ما دهاه..
احتضنته في رفق صاعدًا إلى شقتي، وأرحت جسده في علبة من الورق المقوى ابتعت فيها حذائي الأخير.. ثم انتزعت حذائي وارتميت على الفراش بكامل ثيابي، ولا داعي لأن تؤكد لي أن الفراش لا يعلو ويهبط لأنني واثق أنه كذلك.. أكاد أقسم إنه كذلك.....
أنا منهك.. منهـ.....

* * *

ريفاااااات!..
من أنت؟..
ألا تعرفني؟.. أنا (الزهرة الزرقاء).. (هن - تشو - كان)... الأخرس.. الكاهن الأخير.. كل هذه الأسماء هي أنا..
أعرفك.. لكني لا أصدق أنك هنا..
بل يجب أن تصدقني يا ريفاات!.. لا يوجد وقت نضيعه..
ماذا قد أصابك يا (هن - تشو - كان)؟
إنها لعنة (السيرجانتا).. المنفى الإجباري لأعداء (النافاراي).. (جينغ - تشا) عرف السر.. عرفه من كتاب (شوكارا) وتمكن من تحضير تعويذة (السيرجانتا) من جذور أشجار (السرو)..
ولقد أعد لي الكرة الشوكية وملأها بالسائل كي يرسلني - إذا ما هزم أمامي - إلى أرض المنفى حيث لا أموت ولا أحيا..
لكن الكتاب كان معك يا (هن - تشو - كان) طيلة الوقت..

ليس بتلك الصفحة المشئومة يا (ريفاااات).. إن كل صفحة من كتاب (الشوكارا) تحوي سرًا سرمديًا.. وقد كانت الصفحة تحوي أسلوب (شانكين) وأسلوب (سيرجانتا) معًا.. الصفحة التي تركتها في الدير حين جئت إلى عالمكم..

(ريفاااات)!.. يجب أن تفعل شيئًا.....

وماذا أفعل أيها الكاهن الأخير؟.. أخبرني بأسلوب مقاومة هذا السم..

للأسف أنا لا أعرفه.. لكنك حكيم وتستطيع أن تجده.. في كتاب (الشوكارا)!..

أنت لا تفهم أيها الكاهن الأخير.. الكتاب لم يعد معي.. أخذه (جينغ - تشا) إلى عالم ناء لا أعرفه.. لم يكن قد قضى نحبه حين رحلت أنت.. دعك من أن الكتاب مكتوب بلغة (التبت) القديمة..، وفهم كلماته مستحيل..

- ماذا تقول؟.. الكتاب مع (جينغ - تشا)؟.. إذن الويل ثم الويل!..

الويل لكل البلدان في كل الأزمان.. إن من يملك (الشوكارا) يستطيع حكم العالم.. ولقد كان الكتاب في يد (النافاراي) قرونًا فاستخدموه بحكمة واقتصاد.. أما اليوم.. فقد صنعوا للنمس بابًا في مسكن الدجاج!..

- وماذا أفعل إذن يا (هن - تشو - كان)؟..

- لا أدري يا (ريفاااات).. لكنني أعرف أن (جينغ - تشا) سيبحث عنى ويحاول تدميري.. لن يهدأ له بال حتى يتم تدميري..

أنا آخر (نافاراي).. ومهما كان فأنا ما زلت حيًا وقادرًا على الفرار من منفاي لمواجهته.. لهذا سيحاول أن يجدني وأن يفنيني..

سأحاول أن أخاطبك بروحي يا (ريفاااات) كلما أسلمت روحك للجة النعاس لأنها تكون شفافة كمياه (اليانج تسي) إبان الفيضان..

احرص على النوم أكثر ساعات النهار..

وعندئذ سأخبرك بما أبتغي من أرض الواقع..

- والآن وداعًا يا (ريفاااات)!..

- وداعًا (هن - تشو - كان)!..

- وداعًا.....

* * *

وكذا صحوت من نومي غارقًا في العرق البارد..

الأرقام الفوسفورية على ميناء المنبه تشير إلى السادسة صباحًا..

صوت شقشقة الطيور بالخارج تتبادل السباب المموسق..

هل حقًا كان كل هذا حلمًا؟..

مستحيل.. لم أر حلمًا بكل هذا الوضوح والشفافية في حياتي.. ولم أر حلمًا بهذا الترابط المنطقي..

أنا واثق من أنني تحولت خلال نومي إلى جهاز إرسال واستقبال لاسلكي لموجات أثيرية بثها لي الكاهن الأخير من مكان ما..

على كل حال سأتبع أسلوب (فرويد) الشهير..
أمسكت بالقلم و (الأجندة) وبخط لا يقرأ شخبطت ملخصًا سريعًا لكل ما قيل وما سمعت في منامي كي اتذكره حين أصحو صباحًا..
وألقيت برأسي على الوسادة - كالصخرة - لأواصل نومًا بلا أحلام..
حتى الثامنة صباحًا حين...
حين وثبت جثة القط من الصندوق.....

* * *

الستون - *صباح اليوم الأول من (جاسكا)..*

في (زانادو) لا توجد أعوام..
الحياة كلها عام واحد طويل.. فلم يتكرر شهر واحد منذ وجد (زانادو)..
أما عن اسم كل شهر فوليد الخاطر.. يمكنك أن تسميه (جورو) أو (جاسكا) أو (هسبراد) أو حتى (ميكي ماوس).. لا فارق هنالك..
الأدهى أن كل شخص يملك إنهاء شهره بنفسه وفي اللحظة التي يخطر له فيها ذلك.. لذلك قد يحوي اليوم الواحد عشرة شهور!..
الخلاصة: لا وجود لزمن موحد في (زانادو)..
ويعتمد قياس ساعات النهار على عدد الخطوط الزرقاء التي ينسجها في السماء ذلك العنكبوت العملاق (أو على الأقل هذا ما رآه الكاهن الأخير)..
فيبدأ اليوم بخط واحد وينتهي بالسماء وقد صارت سجادة زرقاء..

* * *

معسكر الثوار..
ليس معسكرًا بالمعنى المتفق عليه.. فهناك بعض النيران الخضراء مشتعلة في الرمال، وهناك نهر قرمزي اللون يترقرق فوق الرءوس.. وهناك خيول بيضاء محلقة بلا أقدام.. وهناك مخ كبير بحجم الجبل تذوب أطرافه، وتغلي مادته العضوية طيلة الوقت..
ومن حين لآخر تلتمع ومضة كهربية عبر نسيج المخ فتردعليها ومضات أخرى ويغرق المكان في ضوء أحمر عجيب..
وكان هناك عدد من الفرسان ذوي الرءوس الشبيهة بالبيض والأجسام القرمزية المفتولة، يروحون هنا وهناك، يتلمسون المخ العملاق، فتضئ رءوسهم بالضوء الأحمر.. ثم ينفصلون ويهيمون من جديد..
ولم يحاول (هن - تشو - كان) إقناع نفسه أنه يحلم..
فهو يعرف تمامًا أنه ما من عقل بشري قادر على الحلم بكل هذا..

* * *

أنت في (زانادو) أيها المحارب حيث تفنى الحقائق وتحيا الأحلام..

* * *

لم يكن يحلم..
وبفطرته الصادقة أدرك أن هذا المخ العملاق هو زعيم الثوار..

دنا منه ببطء وتروّ.. ثم توقف على بعد أمتار، وأجفل حين رأي المادة اللزجة السائلة تنساب لتحيط بقدميه كأنها تتفحصهما.. ثم:

- أنت نبيل أيها المحارب.. لك روح نسر وقلب نمر..

لم يدر بم يرد.. كان الصوت ينساب بلزوجة في روحه:

- يا لدمائك الحارة الفتية!.. لكم يتواثب قلبك في صدرك!.. أنت خائف أيها المحارب!

وبدأت المادة اللزجة الفائرة تتسلق ساقه في بطء..

همس (هن - تشو - كان) محاولًا أن يبدو حازمًا لا خائفًا:

- هلّا شرحت لي كل هذا؟.. تبدو لي أكثرهم علمًا..

اندلع صوت فحيح مروع لثوان أدرك الفتى بعدها أن هذا الشيء يضحك!

- هيه هيه هاااف!.. إنك أيضًا مجامل أيها المحارب.. تستطيع أن تدعوني (الأب).. وأنت هنا ضيفي.. وبالتالي أنت ابني..

أحس الفتى بقشعريرة حاول أن يكتمها عن هذا الوحش قارئ الأفكار.. ويل لك أيها (الزهرة الزرقاء).. أنت في عالم يبدو فيه الخير هكذا.. فكيف يكون الشر إذن؟.. وإذا كان زعيم الثوار مرعبًا إلى هذا الحد.. فكيف يكون الخان الذي ثار عليه؟!..

كان (الأب) قد تلقي هذا الخاطر بالفعل لأنه أجاب في تؤدة بصوته اللزج الجشع كماء يتسرب عبر ثقب في الصخور:

- إن الخان هو كل شيء شرير في هذا العالم.. أنت لا تستطيع فهم ذلك.. لكنه صحيح.. الخان هو النار التي تحرقك والرمال التي تبتلعك والسهم الذي سيغيب في صدرك..، ونحن (الراموس) نحاول أن نظل بمنأى عن سلطانه وألا نندمج في ذاته الكريهة..

- ولكن كيف؟

- بالإرادة.. نحن مصممون على التفرد ومقاومة كل كوابيسه وألاعيبه.. وطالما لم نستسلم ستظل الحرب شعواء، ونظل نحن نعيش حياة الخطر.. أنت كدت تستسلم له أيها المحارب، وكادت الرمال الحمراء تبتلعك للأبد لولا أن أرسلت لك اثنين من أفضل أبنائي كي يعززا إرادتك وقدرتك على الصمود..

كانت المادة اللزجة عند عنقه الآن.. لكنه قاوم الغثيان وهمس:

- وماذا أتى بي هنا؟

- هاااف! هاااف!.. قليلون هم (النافاراي) الذين جاءوا لعالمنا بعد أن تسمموا بتعويذة (السيرجانتا).. لكن أحدًا منهم لم يعد لعالم الواقع قط.. أنت آخر ضيوفي وستظل هنا تقاوم الخان معنا أو تفنى في ذاته القذرة...

- إذن أنا لم أمت...

- بالطبع لا.. أنت في كابوس لن ينتهي إلا بالنصر أو بهلاكك الحقيقي في عالم الواقع..

- وماذا تريدون مني؟

انساب الصوت في ازدراء:

- أنت الواقع الوحيد في (زانادو) أما الباقون فأوهام.. ولهذا يمكنك أن تنجح فيما لا ينجح فيه الوهم...

وهنا تمسح شيء في قدم (هن - تشو - كان) فأجفل.. ثم دقق النظر..

فإذا به قط.. قط صغير رمادي اللون مبرقش ببقع سوداء.. كان خائفًا مرتجفًا.. يموء بأسلوب يمزق نياط القلوب..

انحنى (هن - تشو - كان) لأسفل وحمل القط الصغير بين أصابعه وتأمله في لهفة.. إنها أول مرة يرى فيها كائنًا طبيعيًا منذ وطأ هذا الكابوس..

وتساءل بحيرة:

- ما هذا القط؟

- أنت تراه قطًا وأنا أراه حزمة من الدخان.. لا يهم.. المهم أنه وافد جديد إلى (زانادو)، ولعله أصيب بلعنة (السيرجانتا) هو الآخر..

ليكونن هذا أخاك إذن..

استجمع (هن - تشو - كان) أعصابه.. كانت المادة اللزجة قد انسحبت بعيدًا عن عنقه لحسن الحظ، فهدأ بالًا.. وقال:

- أعرف أن (جينغ - تشا) أرسلني إلى هنا.. فما هدفه؟.. لماذا لم يقتلني فورًا وكان ذلك باستطاعته..

- الانتقام هو ما أراده.. والانتقام هو ما ناله.. الموت راحة لا يريدها لك، و (السيرجانتا) أسلوب تعذيب شيطاني قلما يجد شرير خيرًا منه..

- الذئب!.. سأعود وأذيقه الويل.. أقسم على هذا برءوس أجدادي..

ازداد غليان المخ العملاق، وتزايد الضوء الأحمر المنبعث منه إلى حد جعل (هن - تشو - كان) يداري عينيه..

- ماذا حدث أيها الأب؟..

- الخان!.. إنه راض إلى حد كبير.. أشعر بهذا وأحسه.. إن هذا لا يريحني..

وهنا حدث شيء جعل الكاهن الأخير ينتفض..

ووثب القط من يده في هياج مفاجئ..

* * *



وهنا تمسح شيء لي قدم (هس ــ تشو ــ كان) فأجفل .. ثم دقق النظر .. فإذا به قِطٌ .. كان خائفًا مرتجفًا

الثامنة - *صباح اليوم السادس من مايو..*

للحظة توقف قلبي عن العمل، ومعه توقفت كل وظائفي الحيوية..
لقد صحوت على صوت مواء خفيف ثم فتحت عيني لأرى القط الصغير يثب - وهو مرتخي الجسد كما كان - من صندوقه الورقي..
وثبت أنا الآخر من الفراش، ووقفت على بعد متر من موضعه غير متجاسر على الاقتراب أكثر.. كذئب يتطلع في فضول ورعب إلى نار تتلظى..
كان يختلج.. يختلج كنائم يرى كابوسًا... دام هذا بضع ثوان ثم عاد لغيبوبته الهادئة المنتظمة..
وفي هذه المرة كان عندي الدليل المادي الذي لا يدحض على أنني لا أخرف أو أحلم..
فجثة القط قد كانت بالعلبة ولم تعد فيها..
احتجت لبضع دقائق حتى أتمالك نفسي وألتقط الجسد الصغير وأعيده إلى الصندوق.. وعلى الرغم مني غسلت يدي مرارًا بالصابون والماء فالكحول..
ثم إنني ارتديت ثيابي، ودسست الكرة الشوكية والصندوق في ورقة جريدة.. ونزلت لأركب سيارتي حاملًا هذين الشيئين العجيبين.. قاصدًا المستشفى لأرى ما حدث هنالك..
أتعشم ألا أجد فراشًا خاويًا أو جثة مغطاة بملاءة بيضاء..

* * *

وقفت أرمق الفتى الممدد وسط خراطيم المحاليل وخراطيم الأكسجين وخراطيم البول.. خيل إلي أنني أرى أخطبوطًا أو كائنًا فضائيًا..
ولاحظت أن الطبيب النوبتجي عاكف على تثبيت تلك الخراطيم بالشريط اللاصق مما دلني على أنها كانت منزوعة..
سألته في فتور عما إذا كان المريض قد تحرك..
- عمليًا لم يتحرك بل وثب من فراشه منتزعًا كل شيء.. ثم همد مرة أخرى..
- غريب!..
- مهما كان نوع هذه الغيبوبة فهي لا تجلب له السعادة..
هززت كتفي مؤمنًا.. وتأملت الفتى..
أنت الوحيد - يا (هن - تشو - كان) - الذي يعرف معنى ما يحدث لك..
وأنت الوحيد الذي يعرف كيفية إنقاذك.. لكني - أعدك - لن أيأس..
وسأظل معك حتى يعلن الأطباء توقف تنفسك ويحصلون على رسم قلب ورسم مخ مسطحين.. ثالوث الموت الشهير.. عندئذ - أعدك - سأبكي قليلًا وأشعر بالكآبة إلى حد ما... وأكتب قصتك.. ثم أنسى الأمر برمته!
- هل أحضرت الثلاثمائة جنيه تأمين العناية المركزة؟!
اللعنة!.. مشرفة التمريض اللحوح تطاردني!..

إن هذه المرأة لا تيئس.. نظرت لها نظرة صارمة فقابلتها بنظرة وقحة..
ثم إنني فارقتها متجهًا إلى كلية الصيدلة لأعرض ما معي على د. (صبحي) - ومن غيره؟ - ليحدس طبيعة السم..
قال لي في تعاسة (فلم يكن قد أفاق من أثر النعاس بعد):
- تحليل كروماتوجرافي جديد؟.. ألا تفعل شيئًا سوى جمع السوائل المريبة وإحضارها لي لأعرف كنهها؟
- بلى..
قلتها وأنا أشعل لفافة تبغ.. وأضع الكرة الشوكية على النضد.. وأردفت:
- لو كنت أعرف سبيلًا آخر لاتخذته.. خذ الحذر لأن هذه الأشواك قاتلة.. كذا!.. سأعتصرها بالجفت في أنبوب اختبار كما تحلب الأفاعي.. هيه!.. سأقوم بهذا العمل لك.. فقط ناولني أنبوبًا..
وملأت له نصف الأنبوب بالمادة الخضراء.. ثم ألقيت بالكرة الشوكية الفارغة في الفرن العملاق الذي يجففون فيه الأواني.. لا أريد ضحايا آخرين لهذه الكرة.. يكفيها راهب (نافاراي) وقط لهذا اليوم..
على وعد بالإسراع في العمل فارقته، عائدًا إلى المستشفى عساي أجد شيئًا جديدًا.. لكني لم أدخلها..
واستندت إلى السور وأخرجت مفكرتي لأستعيد - على ضوء الصباح ويقظته - ما قاله لي (هن - تشو - كان) في الحلم.. أو الرسالة التي أراد إيصالها لي..
لخصت ما قاله لي في بضع نقاط:
١- هذا الشيء الذي يحدث اسمه (سيرجانتا).
٢- هو مذكور بالتفصيل الممل في كتاب الـ (شوكارا).
٣ - السم مستخلص من جذور نبات (السرو).
٤ - (هن - تشو - كان) لا يعرف سبيل الشفاء.
٥ - (جينغ - تشا) وغد.
٦- يجب أن أنام أكثر لأن (هن - تشو - كان) سيتصل بي في أثناء النوم.
راقت لي - بشكل خاص - النصيحة الأخيرة، لكن الوقت ليس مناسبًا لكل هذا..
ثمة أشياء ينبغي عملها أولًا..
انطلقت بسيارتي إلى سفارة (الصين الشعبية)، وطلبت مقابلة الملحق الثقافي الخاص بها.. وقمت بتقديم ما يثبت شخصيتي..
أدخلوني إلى مكتب مليء بصور (ماو - تسي - تونج) حاملًا كتابه الأحمر الشهير، وخلفه يجلس رجل أصلع الرأس متأنق صغير الحجم نزع منظاره حين رآني، ونهض مصافحًا ثم دعاني للجلوس.. حاول أن يبدأ حملة الدعاية لبلاده، لكني كنت متعجلا للوصول إلى نتائج..
سألته وأنا أجرع الشاي الأخضر الذي قدمه لي من (ترموس) صغير:
- كنت - بحكم عملي - أبحث عن كتابات عن الطب التقليدي الصيني..
بإنجليزية جيدة. تساءل:
- آها!.. طب تقليدي؟.. تعني (شعبي)؟
- نعم.. نعم.. طب الأعشاب وخلافه..

مرة أخرى نزع منظاره ليتفحصني في ارتياب:
- آها!.. اهتمام مبكر..!.. طب أعشاب في العاشرة صباحًا!.. يا له من حماس!
- إنها اللهفة العلمية كما تعلمون..
ثم قررت أن أكون أكثر وضوحًا:
- ما هي استخدامات جذور (السرو) في الطب التقليدي الصيني؟..
فرك كفيه في حيرة.. وتأمل رفًا يزخر بالكتب خلفه.. ثم غمغم:
- قلت إن اسمك البروفسور (رفعت)؟.. حسن يا بروفسور.. إن هذا الطلب غير تقليدي ويحتاج لبحث مطول.. ثم إنني لن أعطيك كتابًا باللغة الصينية طبعًا.. يجب أن أترجم لك النص..
وعلى كل.. هي هي! (ضحكة متكلفة).. يمكننا أن.. هي هي!.. نتصل بكم إذا كان... هي هي... لدينا رقم هاتفكم الموقر..
تركت له رقم الهاتف.. وشكرته كثيرًا على لا شيء..
وغادرت السفارة شاعرًا بالضياع.. غير عالم لأين أذهب وماذا أعمل..
لقد اختل روتين حياتي فلم أعد أذكر كيف كنت أمضي أيامي قبل أن أبتلي بهذين (النافاراي) اللذين دخلا حياتي ليفسداها..

* * *

وكذا يا إخوان لكم أن تراهنوا على أنني أمضيت ساعات يومي هنا وهناك، ما بين المستشفى والبيت وأماكن أخرى لا أذكرها..
ثم - وقد تذكرت نصيحة الفتى - عدت لداري عصرًا واندسست في فراشي، طالبًا النعاس لأكون (شفافًا كمياه اليانج - تسي إبان الفيضان) على حد قول الفتى..
والنعاس قط.. متى حاولت الإمساك به راوغك.. فإن نسيته جاء يتمسح في ساقيك..، وقد كنت أحاول الإمساك به..
أذان المغرب.. لن أستطيع أن أزعم لنفسي أنني لم أسمعه..، نهضت للوضوء.. وصليت ثم أعددت لنفسي وجبة شنيعة المذاق جلست ألتهمها على عجل في المطبخ..
وهنا دق جرس الهاتف فهرعت لأرد متوقعًا خبرًا هامًا.. ولكن..
- مشرفة التمريض تؤكد أنك لم تدفع الثلاثمائة جنيه تأمين العناية المركزة!
- سحقًا!
وأطلقت سيلًا من السباب - المقذع للأسف - ثم أشعلت لفافة تبغ..
وجلست أسعل وقد تذكرت أنها علبتي الثالثة لهذا اليوم.. لو لم أصب بسرطان الرئة أو الحنجرة أو كليهما خلال أسبوع لعددت نفسي محظوظًا...
الحق أن هذا الاختراع المدمر قد توغل في حياتي إلى حد مرعب.. أدخن حين أفرح وأدخن حين أحزن.. أدخن حين أنهمك وأدخن حين أشكو الفراغ.. قبل الأكل وبعده.. قبل النوم وعند الاستيقاظ.. و.... لكني بلا حيلة تقريبًا.. نقص السجائر يصيبني بشعور ممض من الوحشة..
نعم.. الوحشة هي الكلمة التي تعبر عن هذا....
الحق أنني.....

ترررررن!.. تررررن!..
هذه المرة لا بد من شيء جديد..
رفعت سماعة الهاتف وقلبي يخفق في فمي كطبول (الزولو):
- هالو... بروفسير (رفعت)؟.. هذا (كيم - شانج - لي) الملحق الثقـ....
- نعم.. نعم... قل لي ما تريد فورًا..
- لقد درست ما ذكر عن (السرو) في موسوعة طب الأعشاب الصيني.. وقد وجدت فقط أن أهالي (التبت) القدامى كانوا يصطنعون منه سمًا ذا خاصية تسبب الغيبوبة..
- رائع..!.. وهل ذكر شيئًا عن الترياق؟
- بالطبع لا.. هي هي!.. هي مجرد فقرة من سطرين.. ظننت أنها تهمك..
- الواقع أنها هامة حقًا.. لك جزيل شكري..
صاح في حماس وقد بدأ يدرك كم هو رائع:
- إن (جمهورية الصين الشعبية) لتوجه لك شكرها على اهتمامك المشكور بتاريخها العظيم، وإننا لندعوك إلى المزيد من التغلغل في ثورتنا الثقافية من أجل تحرير البروليتاريا البطلة من براثن الإمبريالية وقيود البرجوازية.. و.....
كليك!..
كنت قد وضعت سماعة الهاتف فالوقت ليس مناسبًا لدراسة الشيوعية..
إن عندي الآن خيطًا لا بأس به..
السم مستخلص من جذور (السرو) ويحدث غيبوبة قلقة.. وقد ورد في كتب الطب الشعبي الصيني..
هل يملك أساتذة علم السموم جوابًا على أسئلتي القلقة؟..

* * *

العاشرة - ظهر اليوم السبعين من (ساكاريس)..

كانت كتلة الهلام العملاقة تتدحرج بسرعة نحوهم.. مضيئة من الداخل.. شفافة.. لزجة.. سلسة الحركة إلى حد لا يصدق..

حاول (الراموس) الفرار من طريقها..

لكنها كانت تتقدم.. فتلتحم بمن يحاول الهرب وتبتلعه داخلها..

عندئذ كنت ترى جسده المتلوي عبر المادة الشفافة.. ثم - بعد ثانية - ترى هيكله الداخلي وهو يذوب بالتدريج حتى يتلاشى نهائيًا..

وتتضخم المادة أكثر فأكثر..

إن قوام هذه الكتلة هو مئات الأجساد التي ذابت فيها منذ وجدت..

وها هي ذي الكتلة تقترب من الموضع الذي وقف فيه (الأب) و (هن - تشو - كان)..

* * *

أنت في (زانادو) حيث تحيا الظلال على دماء الموتى.. وحيث يمزج الرعب خمر الفناء لمن ضلوا السبيل..

* * *

كان (الراموس) يتعثرون فيسقطون تحت الكتلة المريعة..

وفي أغوار عقله سمع الفتى صوت (الأب) المتحشرج المريع يهتف:

- اللعنة!.. لقد أرسل الخان الأخطبوط!

- لكنني أرى أن هذه كتلة هلامية ليس إلا..

- تنسى دائمًا أنك في (زانادو) حيث يرى كل منا ما يخافه.. هناك خطر داهم وكفي!.. لا تستسلموا يا أولادي!.. قاوموا الاندماج!

لكن الخطر كان أقوى هذه المرة من أية مقاومة.. الخيول المجنحة تصيح.. وتحاول الفرار..

الأفق يتحول إلى مساحة شاسعة من الشعر الرمادي الأشهب كأنه ذئب عملاق يتكئ بصدره على الكون..، أما السماء فاستحالت للون أحمر داكن..

وعند قدمي (هن - تشو - كان) صار القط نبتة صبار مذعورة!..

واندلع لسان من اللهب من منخري الفتى..

إنها لهلوسة مريعة تفوق كل ما رأى وسمع..

لكنه لم يفقد إرادته بعد..

- قاوم أيها المحارب.. قاوم.. إنها معركتك الأخيرة..

قالها المخ العملاق وهو يرسل الشرر من حوله، وسرعة ذوبانه تتضاعف، وفقاقيع حمراء اللون تتزايد فوق نسيجه..

* * *

عندما تغرب الشمس.. وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق، عندئذ يبدأ فجر (النافاراي)..

* * *

وثب (هن - تشو - كان) في الهواء فوق الكتلة الهلامية.. دار نصف دورة ثم هبط على قدميه خلفها.. شعر بها تتراجع وتتمدد محاولة لمسه..

فوثب في الهواء مكررًا ما قام به..

لكنه تعثر هذه المرة.. تخلت التربة الحمراء عن قدميه.. ووجد نفسه على الأرض بينما المادة اللزجة تزحف فوق صدره قاصدة وجهه في جشع..

* * *

"ولئن فغر الخطر فاه فأدخل رأسك فيه.. لئن غزا الخطر قلبك فاغز قلبه.. لئن جرى الخطر خلفك فلتتوقف.. انتظره**!**"..

* * *

إنك بداخل الكتلة الآن.. ما أعسر التنفس**!**

لن تدعها تهزمك.. إنها وهم.. وأنت الشيء الوحيد الحقيقي في هذا العالم.. يجب أن تقاوم.. لا تشعرها بالذعر..

إرادتك التي التحمت بمضاء المذنبات وأبدية النجوم لن تنهزم..

أنت (نافاراي).. و (النافاراي) لن يموت داخل كتلة لزجة مقززة..

بل سيموت بسيوف أعدائه أو رماحهم..

قاوم الذوبان.. تماسك.. اسبح نحو سطح الكتلة..

ولكن.. هذا حق..

إنها تتضاءل.. تتضاءل.. رأسك الآن خارجها.. ثم جاء كتفاك.. ثم بطنك.. أنت الآن حر..

الكتلة تنكمش.. إنها الآن في حجم الصخرة.. حجم قبضة اليد..

ثم.. هي ذي بحجم الدبوس.. لقد تلاشت تمامًا..

لقد قهرتها إرادتك إذن..

كنت ملقى على الرمال الحمراء تلهث.. العرق يغمر صدرك..

لكنك كنت ترى المعسكر ومن تبقوا فيه من (راموس).. وترى المخ العملاق المسمى بالأب.. وقد كف عن إصدار الشرار..

وسمعت الصوت المتحشرج يدوى في أعصابك:

- لا بأس أيها المحارب.. لا بأس.. لقد فهمت قواعد الحرب.. وعرفت كيف تقاوم.. ومع محارب مثلك لن يكون على الخان سوى انتظار نهايته..

- أنا (نافاراي).. و (نافاراي) هذا أنا..
هتف (هن - تشو - كان) وهو يلتقط أنفاسه المبعثرة..
لن يزيد الأمر إذن على صراع إرادات.. وهو - الذي شق الصخر بكفه وحلق فوق الأرض - يعرف كيف يكون صراع الإرادات..

* * *



أنت (نافارای) .. و (النافارای) لن يموت داخل كتلة لزجة

مقززة .. بل سيموت بسيوف أعدائه أم رماحهم .. قاوم الذوبان ..

تماسك ..

أنت في (زانادو) أيها المحارب حيث الرجال رجال حقًا..

* * *

وهنا لمح في الأفق خطرًا جديدًا..

فمن شعيرات صدر الذئب الأشهب التي اشتعلت فيها النيران، رأى شيئًا ينحدر.. ببطء.. شيئًا هو أقرب لحلقة من النيران الخضراء..

وإذا بالشيء يتدحرج إلى الأرض.. ثم يدور حول نفسه قاصدًا موضعه، والنيران تتبعثر منه في كل صوب وحدب..

وحين تبين (هن - تشو - كان) حقيقة هذا الشيء أدرك أنه حلقة ثمانية.. حلقة ثمانية كالتي كانوا يمثلون بها تعاليم (بوذا)..

كانت عملاقة بارتفاع خمسة رجال في قطرها..

وكانت تقعقع مبعثرة الهول من حولها..

وتحفز (هن - تشو - كان) لمواجهتها.. فثبت قدميه في الأرض.. وركز إرادته كي يقهر إرادة الخان.. كما فعل منذ ثوان...

العجلة تقترب.. تقترب.. ولم يحدث شيء بعد..

يرى الآن ألسنة لهيبها وتلفحه حرارتها ويخنقه دخانها..

لكن العجلة كانت مصممة.. قاصدة اتجاهه دون أن تدع فرصة للفهم الخاطئ.....

وهنا أحس (هن - تشو - كان) بالخطر..

وثب في الهواء فمرت العجلة تحت قدميه.. وشعر بنيرانها تلسع ساقيه كما لم يشعر من قبل.. وحين هبط على الغبار الأحمر البراق رآها (تفرمل) سرعتها وتدور حول محورها لترجع له معاودة الكرة.....

بدأ يشعر أن هذا الخطر من نوع جديد..

ليس وهمًا كله.. بل - ربما - ليس وهمًا على الإطلاق..

إن العجلة الثمانية ليست شيئًا شائعًا في الكوابيس، وليست مما يستعمله الخان من أساليب..

بل هي تكاد تكون حكرًا على من يعرفون تعاليم (بوذا)..

نعم.. لقد وصلت للحقيقة يا (هن - تشو - كان)..

إن (جينغ - تشا) هنا!..

* * *

العاشرة - *مساء اليوم السادس من مايو..*

كيف لا ينجح أسلوب معقد كهذا؟..

ها هي ذي الة (الغسيل الكلوي) - أو (الترويق الدموي) حتى لا يتضايق الإخوة العرب - تهدر.. على حين تتسرب دماء (هن - تشو - كان) عبر شرايينه إلى مرشح يقوم باستخلاص ما بها من سموم ثم يعيدها إلى أوردته..

لقد مرت ساعة أو أكثر..

ولكم يا إخواني أن تراهنوا على عدد لفافات التبغ التي أشعلتها حيث جلست في الاستراحة الأنيقة أنتظر.. وأتأمل المشهد من خلال حاجز زجاجي.. وأدفن سجائري في تلك المطفأة النحاسية القائمة التي لا تستعمل المستشفيات سواها..

قال د. (منير) في سخرية وهو يلقي بجسده جواري:

- هل تطلب من الله ولدًا أم بنتًا؟

يعني أنني قلق كزوج ينتظر خارج غرفة الولادة.. مزاح سخيف طبعًا، لهذا هززت رأسي في اقتضاب.. وأجبت:

- أطلب من الله أن تصمت!..

وهنا خرجت إحدى مشرفات التمريض ودنت مني مبتسمة بوجهها الصبوح.. مما جعلني أتفاءل نوعًا.. لكنها قالت في كياسة:

- لم تدفع الثلاثمائة جنيه تأمين العناية المركزة!

لو أن النظرات تقتل لتحولت هذه الحمقاء إلى مصفاة تصلح لترشيح الزيوت.. أو شبكة تصلح لصيد الأسماك..

وكانوا قد أخرجوا الفتى على سرير متحرك، الغيبوبة كما هي، لكني أعتقد أن لونه صار أفضل (أو ربما هو خداع البصر)..، وفي تؤدة اقتادوه إلى فراشه حيث أعادوا تركيب الخراطيم والأنابيب..

- ما رأيك..

- لا أدري.. من الصعب الإمساك بتقدم أو تأخر حالة كهذه

- كان من المفروض أن يفيق..

- ربما.. وربما نحن مخطئون.. لكننا لا نملك سوى إعادة المحاولة بعد يومين..

ومن يدري؟.. ربما هو في طريقه إلى الإفاقة..

وعدت لداري وكأن الإحباط هو المحلول المطهر الذي أوضح لي كم أنا متعب ومنهك.. إعياء اليوم كله طفا على سطح

بركة أحاسيسي..

لهذا دخلت الفراش وجلست على طرفه فانتزعت جل ثيابي.. ثم تمددت - نصف عار - فوقه، ولا داعي مرة أخرى أن تؤكد لي أنه لا يعلو ويهبط من تحتي.. عقلي الباطن يتثاءب وينثر ثيابه فيتساقط ما بها من وجوه..

(الكاهن الأخير).. (دراكيولا).. (ميدوسا).. (إلهام).. (عزت).. (هويدا).. (العساس).. (أخيروم).. (شاكال).. (عادل).. (موكاسا)... يا لها من حياة تلك التي أحياها..!..

إنني لشخص عجيييييب...، و.....

* * *

(ريفاااات)!.. لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟

لم أستطع النوم أيها الكاهن الأخير إلا الآن.. النوم لا يأتي لمجرد أنك تريده.. هل ثمة شيء جديد؟..

أنا منفي يا (ريفاااات) في مملكة الأشباح (زانادو) أواجه الكوابيس، في حين تأبى أن تنام قليلًا من أجلي؟!..

ظننت أنني سأفيدك بعدم النوم أكثر مما أفيدك بالنوم...

خطأ يا (ريفاااات).. قل لهم أن يكفوا عن العبث بجسدي وصب السوائل في عروقي.. فهذا لن يفيد أبدًا إذا كنت تأبى النوم من أجله..

إذن ندفنك وينتهي الأمر؟..

تدفنني وأنا لم أمت بعد؟.. كل ما هناك أن وعيي رحل.. وعيي رحل إلى مملكة الكوابيس (زانادو).. ويوم يفر من هناك سأفتح عيني وأتكلم..

وهل وعيك هو ما يحدثني الآن من هناك؟..

بل هو جزء من روحي يخاطبك.. الجزء الذي يوصل ما بين جسدي ووعيي..

لا أفهم شيئًا يا (هن - تشو - كان).. الواقع أنهم يتحدثون كثيرًا عما يسمى بال (إن - دي - إي) [2].. وفيه يصف المشرف على الموت ما يراه ويحسه لأن أجله لم يأت بعد.. لا أومن كثيرًا بهذا الكلام، لكني أتساءل عما إذا كان ما تمر به نوعًا من هذه الخبرات؟...

أنا لا أفقه تعبيراتكم العصرية هذه ولا أجيد ترديدها.. كل ما هناك هو أن وعيي حبيس في عالم آخر.. ويجب أن أستعيده..

هذا جميل.. لكن كيف؟...

أنا لا أعرف يا (ريفاااات) حتى هذه اللحظة.. لكني أوصيك خيرًا بجسدي لأنه - إن تلاشى - فقد انتهيت، وهو ما سيحاول (جينغ - تشا) عمله..

بدأت الرؤيا تذوب.. تتلاشي.. تترجرج كمياه بحيرة تحركها الرياح..

ثم ساد الظلام..

* * *

يا لك من إنسان ممل!..

أنت لا تقدم لي شيئًا مفيدًا سوى الظهور لي كل ليلة مرددًا أنني ينبغي أن أعمل شيئًا ما.. ثم تختفى دون إرشادات..

* * *

- آلو؟.. (رفعت)؟
- أظن هذا..
- لقد أنهينا التحليل.. لا يوجد سم معروف في السائل الذي حللناه..
- ومعنى هذا؟..
- معناه أن عليك الاستمرار في الغسيل الكلوي والمحافظة على تنفس الفتى..
- ومعناه أن طريقنا مسدود تمامًا..

* * *

وهكذا - ترون - قضيت أيامي في حيرة بين مكالمات هاتفية لا طائل من ورائها.. وزيارات للمستشفى لا تجدي فتيلًا

لقد طالت غيبوبة الفتى.. طالت..

ويبدو أنني سأعود إلى هوايتي الأصلية: الملل..

تدريجيًا تقل زياراتي للمستشفى.. ودوامة الحياة تجرني معها..، كان ذلك حين قابلت (براكسا) فتاة المقابر.. ولقد نجحت في أن تنسيني الأمر برمته لمدة أسبوع كامل (إن هذه قصة لا بأس بها.. ذكروني أن أحكيها لكم المرة القادمة، ولكن دعونا لا نشتت أنفسنا هذه المرة)..

على أنني - حين عدت للمستشفى - كنت أملك الحل..

وكان لذلك قصة طويلة.....

* * *

السابعة عشرة - ***مساء اليوم الخامس من (ديلار)..***

(جينغ - تشا) هنا!..

عرف ذلك بينما العجلة تستدير لتلحق به..

وثب إلى أعلى فمرت من تحته، وفي هذه المرة لم يعد ثمة شيء.. لقد اختفى معسكر (الراموس) وتلاشى المخ العملاق المسمى بـ (الأب).. لا يدرى أين ولا متى ذهبوا، لكنه لم يعد يرى سوى الغبار الأحمر الناري.. والسماء التي كادت تمتلئ بالخيوط الزرقاء..

العجلة تتوقف ثم تعود له.. وهو الآن وحيد... وحيد..

ومن طرف عينه استطاع أن يرى جزءًا منخفضًا من الغبار الأحمر.. جزءًا يبدو وكأنه يداري حفرة عميقة..

هو لا يدري طبيعة هذا العالم ولا تضاريسه.. لكنه يملك فرصة..

وقف وخلفه الحفرة ينتظر العجلة..

ها هي ذي تقترب.. تقترب.. تقترب..

لن يفر الآن.. سينتظر أكثر..

اللهب والدخان يتناثر منها، لكنه ثابت في موضعه..

حتى اللحظة الأخيرة.. كان هذا كافيًا.. وسرعان ما وثب في الهواء ليدور دورتين على حين اندفعت العجلة - بالقصور الذاتي - لتسقط في الجزء المنخفض من التربة مبعثرة الغبار الأحمر في كل مكان.. ومعه الشرر والدخان..

ثم غاصت غائبة عن عينيه..

* * *



(خينغ ـ تشا) هنا !.. عرف ذلك بينما العجلة تستدير لتلحق به ..

تنفس الصعداء ووقف يرمق المشهد.. فلم يكن كل هذا رديئًا..
حين سمع صوت الضحكة الساخرة..
هاهاهاها!.. هذه النبرة لا يمكن أن تخطئها أذناه..
هاهاهاها!.. وأدار رأسه مجفلًا فوجد.. (جينغ - تشا) وقد عقد ذراعيه على صدره ووقف على بعد عشرين مترًا يرمق المشهد ويقهقه:
- هاهاها!.. إننا نمرح كثيرًا أيها (الزهرة الزرقاء)!..
(جينغ - تشا) خصمه العتيد..
(جينغ - تشا) الذي أباد أساتذته وأسلم أسرارهم للأعداء..
(جينغ - تشا) الذي ظل عقبة في حياته منذ دخل الدير..
(جينغ - تشا) السبب الرئيسي وراء كل مشاكله.. وعبر الأزمان..
(جينغ - تشا) هنا.. معه في هذا العالم الكابوسي..

* * *

ضحك (جينغ - تشا).. ضحك فرأى الكاهن الأخير قهقهاته تدور في الهواء وتتحول إلى وطاويط حمراء اللون ترفرف ببطء حول رأس عدوه..
- لم تزل بارعًا يا (هن - تشو - كان)!..
تصلب الفتى.. وتقدم ببطء وحذر من (جينغ - تشا) الذي لم يبدل وقفته.. ولم يتحفز بل احتفظ بالبسمة المتهكمة الواثقة على ثغره:
- لقد تفاديت عجلة (بوذا) ببراعة.. لكن المباراة لم تنته
- (جينغ - تشا)!..
قالها من بين أسنانه بغل.. قالها بمقت.. قالها بحقد.. وأردف::
- كيف جئت إلى هنا وأنت ميت؟.. أنا قتلتك!
- كدت.. لكنني استجمعت قواي وقذفتك بالقنفذ المليء بـ (السيرجانتا)..
وهكذا نفيتك إلى هذا العالم..
- (جينغ - تشا)!
قالها وكأنه يبصق.. لكن المذكور أعلاه لم يعبأ.. وواصل التفاخر:
- عدت لعالمنا وزمننا واستشفيت عدة أيام في أحد الأديرة.. ثم رأيت في المنام أنك قد وجدت طريقة للعودة إلى عالم الأحياء.. لم أكن لأترك هذا يحدث.. وهنا خطر لي أن أتناول السم أنا نفسي.. لم لا؟.. حين ألحق بك هنا سأعرف كيف أذيقك العذاب ألوانًا وكيف أتخلص منك إلى الأبد.. ثم أنا أملك (الشوكارا).. هي معي.. وأعرف كيف أستعملها لأعود إلى عالم الأحياء متى فرغت منك، أما أنت فلا حيلة لك في الفرار.. أنت هنا تحت رحمتي..
- (جينغ - تشا)!
قالها كأنما يقيء ما بمعدته..
- نعم.. (جينغ - تشا).. الذي تحالف مع الخان العظيم وقوى الشر في (زانادو) لأنه (نافاراي) مثلك، ويعرف ما يفل الحديد..

- أنت لست (نافاراي) ولم تكنه قط..
- ربما.. لكني أعرف كل ما يعرفه (النافاراي)، وقد زادني هذا الكتاب قوة..
وفي قتالنا القادم سيجد (الزهرة الزرقاء) أساليب لم تخطر له ببال..
تلاقت العينان لدقائق.. رجلان يمقت بعضهما البعض منذ خمسة قرون، وقد انسدل بينهما ستار أبدي من الكراهية..
بعد هنيهة همس الفتى متسائلًا:
- لماذا سكن الحقد قلبك إلى هذا الحد؟
- لم يسكن الحقد قلب (جينغ - تشا) لأن قلبه هو تنين الحقد ذاته.. جذوة الكراهية المقدسة..
وارتجف صوته قليلًا.. وخفق صدره وأردف:
- كنت دومًا ضدي.. العقبة التي تحول بيني والنجاح.. منذ الصبا كانوا يقولون لي: أحسنت يا (جينغ - تشا)، لكن (الزهرة الزرقاء) فعلها أفضل منك.. ليتك تغدو مثله.. ليتك تقلده في كل شيء..!.. هل تذكر ممر النيران الراقصة الذي حرمني من أن أكون (نافاراي)؟.. الأخ (ميانج) كان يعلمك كل شيء لأن (الزهرة الزرقاء كالأرض الخصبة التي لا تجحد جهود الفلاح).. ألم يقل ذلك؟.. ألم يفعل ذلك؟
- لم يكن هذا ذنبي.. لا ذنب للزهرة في أن يفضلها الناس على الأشواك.. وليس على الأشواك أن تحقد عليها..
- أنت لست زهرة!!
صاح في عصبية.. ثم استعاد رباطة جأشه:
-.. و (جينغ - تشا) ليس حفنة من الأشواك.. كلانا في نفس العمر.. ونال ذات التعليم، ولكنهم اختاروك أنت.. أنت..، ثم تحالفت مع (الماهايانا) لأنتقم.. فإذا بك تفر بعيدًا حاملًا كل ثمار خيانتي.. لحقت بك هنا لأنتقم.. فإذا بك تقتل رجالي وتوشك على قتلي..
ورفع عقيرته نحو السماء التي بدأ لون الدماء ينتشر فيها.. وصاح:
- لقد نضجت ثمرة الحقد في صدري، ودنا قطافها..!..
غمغم (هن - تشو - كان) وهو يحاول أن يبدو متماسكًا:
- والآن.. ماذا تريد مني يا حليف الشياطين؟
ضغط الفتى الموتور على أسنانه.. وهمس:
- إن كتاب (الشوكارا) معي هنا يا (هن - تشو - كان) - ملفوفًا حول خاصرتي.. وبدونه لا أمل لك في الفرار..
- أعرف هذا..
- سنخوض قتالا مريعًا.. القتال الأخير لنا.. والمنتصر سيحصل على الكتاب ويعود إلى دنيا الأحياء، أما الخاسر فسيفنى في كيان الخان.. إن جسدك يرقد في حوزة صديقك عاري الرأس.. وجسدي يرقد في عناية رهبان (الماهايانا)..
وحين تنتهي مباراتنا سيلفظ أحد الجسدين أنفاسه لاحقًا بالأجداد.. في حين يفتح الجسد الآخر عينيه ويتكلم..
- والكتاب؟.. كيف يعود به الرابح من أرض الكوابيس؟.. بل كيف سافرت أنت به أصلًا؟
- إن للكتاب وجودًا معنويًا وماديًا.. يمكنك أن تسافر به وتحلم به..

بل هو يجوب عوالم الأحياء والأشباح بحرية مطلقة..
- إذن يا (جينغ - تشا)..
- إذن يا (هن - تشو - كان)..
- فلينتصر صاحب الحق..
- وليهلك واهن الجسد والقلب والعقل!..
.....

* * *

الواحدة - ظهر اليوم الثمانين من (شينافو)..

عندما تغرب الشمس، وتلطخ بماؤها ثوب المساء الأزرق.. عندئذ يبدأ فجر (النافاراي)..

* * *

احمرّ لون السماء إلى درجة أنها بدت كبحيرة من الدماء.. وبالفعل بدأت قطرات لزجة حمراء تتساقط منها..

بالواقع بدا وكأن الهواء نفسه صار أحمر اللون..

وفي الأفق ترى المحاربين الجريئين يقفان وبينهما خمسة أمتار.. وقد شرع كل منهما يتأمل الآخر في انتقاد..

ثم إن (هن - تشو - كان) فتح ساقيه وثبت قدميه على الرمال الحمراء:

- تشا سارايانا!

دوت الصيحة فارتج الهواء بها، وتساقطت من السماء قطع من الزجاج الأزرق المهشم.. على حين اتخذ الأفق شكل ثعبان عملاق يتثاءب..

- تشا سارايانا!

رد بها (جينغ - تشا) وهو يتخذ وضعًا مماثلًا..، ومن جديد حلقت الوطاويط وانشقت الارض لتخرج منها أمعاء عملاقة تتلوى محدثة قرقرة!..

فتح (هن - تشو - كان) ذراعيه إلى آخر امتداد لهما:

- جيانغ سارايانا!..

- جيانغ سارايانا!..

عشرات الأيدي المخلبية المتقلصة تشق الغبار الأحمر محاولة الوصول إلى أقدام المتحاربين..

- كيو سارايانا!

قالها (هن - تشو - كان) وهو يعيد رأسه للوراء..

- كيو سارايانا!..

قالها (جينغ - تشا) وهو يقلد ذات الوضع..

إنها معركة النهاية بين الخصمين.. يخوضانها في أرض الكوابيس (زانادو) حيث كل شيء ممكن..

اليوم لن يكون هناك جريح ولا فار..

فقط سيكون هناك رابح وخاسر.. حي وميت..

الصراع بين الخير والشر في أبسط صوره وأكثرها تسطيحًا..

* * *

أيها السادة.. ترون الخير على يمينكم يرتدي الأبيض والشر على يساركم يرتدي الأسود..

إن أرض الملعب لعجيبة تزري بأية لوحة سريالية لـ (دالي) أو (شاجال).. والأغرب أنها تتبدل في كل ثانية لتختلف تمامًا عن الثانية السابقة..

لحظة يتضح لنا أن المتحاربين واقفان فوق عنق تنين غاضب ينفث النيران.. ثم في اللحظة التالية نجدهما واقفين وسط المستنقعات تتصاعد حولهما أبخرة غاز (الميثان) على حين تزحف التماسيح نحوهما..

الخير - (هن - تشو. كان) - يلتفت حوله فيجد وجوهًا مألوفة أثيرة إلى قلبه.. الأخ (ميانج) والكاهن الأكبر وكل عشيرة (النافاراي) عبارة عن وجوه معلقة في الهواء ترمقه في مودة..

وعبر المساحات الشاسعة يرى جنود الخان على زواحفهم الشرسة، يلوحون بألسنة اللهب.. وينتظرون نتيجة المباراة..

وهنا أدرك - دون جهد - أن وجوه (النافاراي) التي يراها ليست سوى فرسان (الراموس) وقد انعكست عليهم صور من نفسيته..

وتكلم الكاهن الأعظم.. تكلم بذلك الصوت اللزج.. صوت المخ (الأب) قائد الثوار.. قال:

- أضرب أيها المحارب.. إن هذا الرجل هو الخان.. هو الشر بعينه ولئن قتلته لغدوت حرًا!..

وقال الأخ (ميانج) بأسلوبه الرصين:

- لتكن لك خفة النمر وشراسة ذئب الثلوج..

وفي اللحظة التالية انطلق (هن - تشو - كان) كالسهم نحو هدفه..

* * *

لبضع ثوان لم يحدث شيء..

لقد ظل الخير والشر يتحاوران.. يدوران حول بعضهما..

كان كلاهما أستاذًا في التفادي، وبدا الأمر كأن سمكتين صغيرتين تتملصان من يد عملاقة دست نفسها في بحيرتهما..

مئات الركلات يوجهها (هن - تشو - كان) لتصفر في الهواء، لكن (جينغ - تشا) يثب وينحني ويتفاداها..

يوجه - بدوره - مئات اللكمات التي يتملص منها (هن - تشو - كان)..

ولكن - حين حدث الصدام الأول - التمعت السماء بضوء البرق.. ودوى هزيم الرعد.. ثم بدأ مطر من الجليد القرمزي فوق الرجلين..

لقد أصابت قدم (جينغ - تشا) عنق خصمه في نقطة (شورا) حساسة..

وفي السماء انفجر وجه الأخ (ميانج) ليتطاير منه سرب من النحل..

لكن الركلة عطلت توازن (جينغ - تشا) الفائق.. مما مكن (هن - تشو دكان) من ضربه برأسه في صدره ليسقط (جينغ - تشا) فوق الرمال..

وتتالت ركلات (هن - تشو - كان) الرشيقة السريعة بمشط قدميه (اليمني فاليسرى على التوالي) حتى انفجر الدم من فم (جينغ - تشا)..

وببطء أدار رأسه ثم سقط ميتًا!..

صاح (هن - تشو - كان) في هستيريا:

- سوان هاتشاه سارايانا!

ووثب نحو الجثة ليتفحصها.. حين سمع الضحكة.. قادمة من أعلى - الضحكة - لم يكن من الممكن ألا تكون لغيره.. (جينغ - تشا)!.. حقًا!.. هو كذا.. ولكن كيف؟.. إنه جثة ملقاة على الأرض..

هو ذا (جينغ - تشا) واقفًا على قمة الجبل يرمق المشهد في ثقة وسخرية، مستمتعًا بكل هذا:

- أنت بارع يا (هن - تشو - كان).. لكنك كنت تقاتل سرابًا صنعه لك الخان العظيم!.. لم يكن ثمة ما يدعو لإضاعة جهدك بينما أنا هنا طيلة الوقت!

ورفع إصبعه أمام عيني (هن - تشو - كان) الذاهلتين..

- يسمونه أسلوب (المرآة).. ويهدف إلى استنزاف قدرات الخصم في معارك وهمية مع أطياف.. إنه مأخوذ من (الشوكارا)..

- من المؤسف أنني لم أجد وقتًا لدراسة (الشوكارا).. كنت دائمًا مشغول البال بحمايتها وإخفائها..

- أما (جينغ - تشا) فيحفظ كل حرف فيها...

وفي اللحظة التالية وثب خمسة من (جينغ - تشا) على (هن - تشو - كان)!

كلهم متماثلون.. كلهم حانقون.. كلهم سريعو الحركة كالبرق..

- هذا تطبيق أوسع لأسلوب (المرآة) أيها الكاهن الأخير.. من منهم هو أنا؟!..

بالتأكيد (جينغ - تشا) هو الواقف على الجبل.. ولكن.. لماذا بالتأكيد؟.. ربما هي صورة خادعة بينما (جينغ - تشا) الحقيقي هو.....

كانوا يتحركون برشاقة جميعًا.. وحركاتهم متناسقة كرقصة مدروسة.. اثنان يتراجعان بينما يهاجمه ثلاثة.. ثم يتراجع اثنان وينقض ثلاثة.. ثم يختفي واحد ليظهر وراء ظهر (هن - تشو - كان) في الثانية التالية..

كان يتفادى كل هؤلاء.. لكنه لم يعرف قط أين يوجه ضربته..

* * *



ووثب نحو الجثة ليتفحصها .. حين سمع الضحكة .. قادمة من أعلى

الضحكة ـ لم يكن من الممكن ألا تكون لغيره ..

أنت في (زانادو) أيها المحارب.. فلا تثق بعينيك.. ثق بعقلك.. ثق بغريزتك..

* * *

يا له من مأزق!
كل ضرباتك بلا جدوى فلا ترتطم سوى بوهم..، وأنت لا تجرؤ على الوقوف ساكنًا وادخار قواك لأن أحدهم قد يكون هو.....
المشكلة أن الغبار الأحمر يتبعثر تحت أقدامهم جميعًا..
وكلهم يتركون ظلًا..
فما هو الحل إذن؟...
ثق بغريزتك.. ثق بغريزتك..
غريزتك تقول إن كل هؤلاء أطياف.. ليس خصمك واحدًا منهم..
إذن توقف..
دعهم يهاجموك..
ولتر النتيجة..

* * *

الثامنة - ***صباح اليوم الثالث عشر من مايو..***

كنت منهكًا بعد عناء مغامرتي مع (براكسا)..

وكنت ملقى - كالوسادة - فوق فراشي حين ولول جرس الهاتف، فهرعت مترنحًا لأرد وأنا أشعر كأني لم أفق بعد من عالم الحلم..

- مريضك الآسيوي..

- هل مات أخيرًا لحسن حظى؟

- كلا.. هو يتلوى كالدودة ويئن محاولًا تمزيق الخراطيم، وقد اضطررنا إلى ربطه في الفراش..

- وهل تتهمني بأنني السبب؟

- بل ظننت أن الأمر يهمك..

- إنه يهمني.. شكرًا لك..

- أ.. بالمناسبة.. مشرفة التمريض تذكرك بتأمين العناية المركزة!

..... كليك!.....

ما الذي يحدث للفتى؟.. لقد كف عن الاتصال بي في المنام منذ أسبوع تقريبًا.. ولا أدري ما دهاه.. ولا أعلم أي تقدم حققه..

كانت جثة القط بعد في موضعها في العلبة الورقية، وكنت أعلم أن المسكين سيموت جوعًا حتى إن لم تقتله الغيبوبة، لهذا كنت أقدم له وجبات منتظمة من اللبن عبر محقن وأنبوب بلاستيكي صغير أدخلته من فمه إلى أمعائه..

هذه هي الطريقة الوحيدة التي وجدتها لأنني بالطبع لن أعطيه سوائل وريدية..

كان حيًا.. حيًا كأفضل ما يكون.....

لكن جثته بدأت ترتجف وكأن الكهرباء تسرى فيها..

ترتجف.. ترتجف..

تراجعت للوراء وقد أدركت أن شيئًا ما ليس على ما يرام..

شيئًا شريرًا يحدث بالتأكيد....

* * *

الثالثة - *فجر اليوم السادس من (هوردام)..*

كان حدسه صائبًا..
فلم تؤثر فيه ضربات أي من المحاربين الخمسة..، وبدأ يفهم أنهم جميعًا أطياف وهمية.. أما آثارهم على الرمال و ظلالهم فجزء من الوهم..
وهكذا سار بينهم في تؤدة يتلقى ركلة هذا ولكمة ذلك دون تأثير يذكر..
سوى - بالطبع - بعض الاضطراب الغريزي الذي يحاول دفعه للاختباء..
ولكن.. أين (جينغ - تشا) الحقيقي؟

* * *

أسلوب الحرباء:
ابتدعه المعلم العظيم (شو - هان - كه) في عام التنين المائة.. وبه يستطيع محارب (النافاراي) أن يسمح للنور بالمرور من أعضائه.. ويغدو شفافًا لا يراه العدو.. يحتاج لساعات طوال من التأمل..
تلقى (هن - تشو - كان) الضربة على ضلوعه فأنّ وسقط أرضًا...
لم يحتج لكثير جهد كي يعرف أنها حيلة جديدة من (جينغ - تشا) تجعله غير مرئي..
إن كتاب (الشوكارا) لخطير بحق!.. كل هذه الأساليب الجهنمية في يدي شيطان مثل (جينغ - تشا).. الويل!..
شرع يتقلب في الرمال الحمراء بحركات عشوائية محاولًا تفادي ضربات لا يراها.. ثم نهض.. وأخذ يدور حول نفسه في توتر..
انهالت الصفعة على قفاه، فاستدار ليوجه ركلة إلى ما حسبه مصدرها.. وطبعًا لم يكن هناك سوى الفراغ.. غلت دماء كرامته.. وفار بركان غضبه..
وفي اللحظة التالية رفع قبضتيه إلى جانبيه وقدمه اليسرى إلى خاصرته..
ثم دار بسرعة البرق حول نفسه عدة دورات، وبنفس السرعة مسح الاتجاهات الأربع.. حتى.....
اصطدمت قدمه - في رقصة الباليه الدموية هذه - بشيء طري أدرك أنه أسفل بطن خصمه الخفي.. وسمع الصرخة الدامية..
اخضرت السماء.. وتحولت إلى كتلة من الديدان المتلوية في حين برزت عين عملاقة محملقة من التربة الحمراء..، وعلى الأرض تمدد (جينغ - تشا) يئن بعد ما صار مرئيًا وقد أفقده الألم قدرته على التركيز..
هتف (هن - تشو - كان) في انتصار، وهو يلهث:
- يسمونه أسلوب (المحراث) يا (جينغ - تشا).. ويصلح لمنع عشرة رجال من مهاجمتك إذا كنت ضريرًا.. أحسب أنك لا تعرفه؟

تلوى الفتى كالثعبان حول نفسه.. ثم هتف:
- وآآآآآه... لا أعرفه.. وآآآآآه!.. لقد كنت سريعًا كفهد جريح..
- (النافاراي) يرث سرعة البرق من أمه الطبيعة..
- لكني سأدبرك أيها الزهرة الزرقاء!..

* * *

أسلوب (الزلزال):
ابتدعه المعلم الحكيم المقدس (شاشكين - كوا) في عام القنفذ العاشر..
وبه يستطيع محارب (النافاراي) أن يذهل خصمه ويزلزل حواسه بمجرد إطلاق صرخة وحشية عالية..
وصرخ (جينغ - تشا).. صرخ كأفضل ما يكون..
اهتزت السماء الحمراء وانكسر جزء منها كاشفًا عن ثغرة تتسرب منها مياه البحر الزرقاء إلى هذا العالم..
كانت صرخة عاتية مريرة طويلة ممزقة مزلزلة محطمة..
وأحس (هن - تشو - كان) أنه يغوص في الأرض وأن يديه تزنان أطنانًا.. لكنه لن يغيب عن الوعي.. حتمًا لن يغيب عن الوعي..
يحتاج (جينغ - تشا) لأساليب أقذر من هذه كي يقهره..

* * *

أسلوب (البندول):
ابتكره الأستاذ (تشي - وا - صن) في عام التنين العاشر بعد المائة.. وبه يستطيع محارب (النافاراي) أن يصيب خصمه بالدوار عن طريق الحركة الرحوية السريعة مع الاهتزاز صعودًا وهبوطًا.
أخذ (جينغ - تشا) يمارس هذا الأسلوب مع خصمه..
ولم يستطع الكاهن الأخير أن يصدق كل هذه البراعة وسرعة الحركة..
دار رأسه ومعه دار العالم.. وتحول الأفق إلى بئر عميقة.. حاول أن يغمض عينيه، لكنه ظل مشدودًا مسحورًا إلى المشهد.. مشهد الدوامة التي تدنو منه وتنأى.. تروح وتجيء.. كلا!.. لا تستسلم!.. أرجوك..
واخيرًا استجمع قواه واندفع صارخًا إلى مكان فارغ جوار الدوامة..
ووجه أعنف ركلة وجهها في حياته.. وبعد ربع ثانية طار (جينغ - تشا) في الهواء الأحمر ليسقط على الرمال متلويًا.. وسقط (هن - تشو - كان) إلى جواره.. وسمع صوت (جينغ - تشا) المتحشرج يتساءل:
- كيف فعلتها؟
- الصياد لا يطلق سهامه على موضع الطائر المحلق.. بل على الموضع الذي يقدر أن الطائر سيكون فيه حين تصله السهام!

ولكن.. لماذا يضيع فرصته؟.. لماذا يثرثر؟..
ها هي ذي فرصته سانحة.....

* * *

تغلي حمم البراكين.. تشتعل الأشجار في غابات (التايجا).. ينفجر النجم الأحمر.. تفح الأفعى.. يزأر النمر وينقض.. يتهشم الجبل.. معًا.. حين يكور الكاهن الأخير قبضته، ويهرع نحو خصمه الساقط على الأرض لينهى قتالًا طال..
يا أرواح الأجداد المقدسة استرقى النظر.. وأصغي.....
يا كل محاربي (النافاراي).. تعالوا لتروا.....
حين تصل هذه القبضة إلى هدفها سيكون (جينغ - تشا) كتلة من العظام المهشمة.. وستروي دماؤه رمال (زانادو) الحمراء..
وعلى طريقة (النافاراي) برز الإصبع الوسط والإبهام من القبضة لتحاكي رأس الكبش البري، فيكون تدميرها قاتلًا..
ليس من شيم (النافاراي) مهاجمة خصم راقد على الأرض.. لكن الرأفة حمق إذا تعلق الأمر بالأفاعي.. و (جينغ - تشا) أفعي..

* * *

الضربة عنيفة.. عنيفة..
تناثرت أشلاء جنود الخان في الفضاء.. وانفجرت العين الجاحظة من الأرض.. واشتعل الأفق بالنيران..
وعلى الأرض سقط (جينغ - تشا) غارقًا في العرق والدم..
هرع (هن - تشو - كان) إليه كي يفتش ثيابه بحثًا عن كتاب (الشوكارا)..
انحنى جواره راكعًا على التراب الأحمر وشرع يبحث.. لابد أنه موجود معه.. لا يمكن لمحارب (نافاراي) - أو من يعرف أسرارهم - أن يتنقل دون أن يحمل الكتاب معه.. لابد أن.....
- والآن... أيها (الزهرة.....)..
كان هذا هو (جينغ - تشا) الذي استجمع قواه.. فجلس على حين غرة وقد قبض بأنامله على حنجرة (هن - تشو - كان).. قبضة مخلبية لا فكاك منها تكاد تنتزع الحنجرة انتزاعًا، وشعر الكاهن الأخير بساقي خصمه تلتفان حوله لتثبتاه في موضعه..
طوح بذراعيه يمينًا ويسارًا محاولًا عمل شيء ما..
لكن الفتى كان صلبًا برغم كل شيء.. وكان بعيدًا عن مجال الضربات..
- غاااااه!
- هذه.. هي... لا.. لعبتي الأخيـ... ـرة.. إن حـ.. حنجرتك لي!
قالها وهو يواصل الضغط بأصابع لا تقهر على حنجرة (هن - تشو - كان)..

وعلى وجهه ابتسامة صفراء قاسية.. كان ينزف.. ويلهث.. لكن الحقد كان يحرك بقاياه كما تظل العربة مندفعة بعد موت الحصان الذي يجرها..

- غاااااه!.. غاااااه!

* * *

العاشرة - ***صباح اليوم الثالث عشر من مايو..***

- غاااااه... غاااااه!

ماذا دهاه؟.. افعلوا شيئًا!.. لربما انسدت أنبوب القصبة الهوائية.. أو حدث عطل في جهاز التنفس.. لا تقفوا هكذا كشواهد القبور..

هرع د. (منير) يتفحص الأجهزة والوصلات.. ثم هز رأسه ألا مشكلة هنالك.. لا يوجد تفسير لكل هذا..

- إذن فهذا كابوس؟
- حتمًا..
- لكن الكابوس لا يسبب إزرقاق الشفتين..

هز د. (منير) رأسه في سأم.. وغمغم:

- إن كل ما يحدث غريب وغير معتاد، ولا يمت للطب بصلة.. فلن أدهش إذا ما طار هذا الفتى أو بدأ ينهق كالحمير..

ثم نظر إلى الطبيبين الجالسين جواره.. وتساءل وهو ينهض..

- هل كل شيء معد لجلسة الغسيل الكلوي؟
- كل شيء..
- إذن هيا بنا.. ولنأمل ألا تحدث كارثة ما.. إنها المرة الثالثة ويعلم الله وحده ما قد تجلب علينا..

* * *

السادسة عشرة - ظهر اليوم المائة من (فالتاري)..

لقد بدأ الوجود يظلم.

إنها النهاية يا (هن - تشو - كان).. فاستسلم.. ولم يدر متى سمع الزئير.. ولم يدر معناه حين سمعه..

لكنه حين سمع صراخ (جينغ - تشا) الشنيع.. أدرك أن شيئًا ما يحدث ها هنا..

وبدأت الكلابة الحديدية تتخلى عن حنجرته..

وعاد الضوء إلى الكون..

عندها فتح عينيه ببطء فرأى (جينغ - تشا) منكفئًا على وجهة غارقًا في الدماء بينما يده المتقلصة ما زالت على عنق (هن - تشو - كان)..

أما الذي كاد يوقف الدم في عروقه فهو النمر..

النمر العملاق ذو الأنياب الذي وقف جوار جثة (جينغ - تشا) يلعق شفتيه وأنيابه السيفية بلسانه..

لقد أجهز على الفتى إذ عضه في خاصرته.. وبالتالي أنقذ حياة (هن - تشو - كان).. أنقذها في آخر لحظة..

كان النمر عملاقًا.. عيناه كجمرتي نار.. لكنه كان ساكنا يقف في رصانة وتؤدة كأنما هو فخور بما فعله..

وببطء نهض (هن - تشو - كان) وزحف على ركبتيه متوقعًا أن يثور الوحش.. لكن هذا الأخير ظل ساكنًا يرمقه في لامبالاة..

جوار جثة (جينغ - تشا) تربع.. ومد يده بين طيات الثياب باحثًا عن ضالته.. ها هو ذا الحزام السميك.. ويداخله.....

أخيرًا!.. كتاب (الشوكارا) في يده..

لقد تلوث بالدماء لكنها ظلت على حواف الصفحات لحسن الحظ..

أما المفاجأة الأروع فكانت قنينة صغيرة تشبه الأنبوب..

قنينة تحوي سائلًا أزرق اللون عطر الرائحة..

بالتأكيد ليس هذا سمًا.. إن (جينغ - تشا) لا يملك تحضير المصل المضاد لـ (السيرجانتا) في هذا العالم... وبالتالي فمن المنطقي أنه أعده مسبقًا ليحمله معه إلى (زانادو)..

ولما كانت ثيابه لا تحوي سوى هذه القنينة فبالتأكيد هي المطلوبة..

وهنا بدأت جثة (جينغ - تشا) تتشقق.. وبدأ الطحلب يخرج من شقوقها معلنًا نهاية الكابوس..

تلفت حوله فوجد فرسان (الراموس) والمخ (الأب) واقفين.. وسمع (الأب) يقول بصوته المتحشرج اللزج:

- أحسنت أيها المحارب.. قهرت أعتى جنود الخان.. الجندي الذي لم يكن قط وهمًا وكان يملك أن يغير كل شيء!..

- وهذا النمر المفترس.. إنه ليس وهمًا.. لكن من أين جاء؟

سمع صوت الحشرجة المريع فأدرك أن (الأب) يضحك:
- هاااف!.. هاااف!.. أنت في (زانادو) أيها المحارب حيث لا تصدق كل ما تراه.. هذا النمر - الذي أراه أنا عنقاء ضخمة - ليس سوى أخيك القط الذي لحق بك من عالمك..!..
- مستحيل!.. لقد نسيه قلبي طويلًا.. ولكن كيف استطاع أن يقتل (جينغ - تشا)؟
- أنت لا تدري كيف رآه.. ربما رآه تنينًا أو غولًا عملاقًا..
- ولكن كيف يقتله؟
- أنت في (زانادو) أيها المحارب حيث تُسيل الأوهام الدماء كما تسيلها الحقائق!

* * *

العاشرة والنصف - ***صباح اليوم الثالث عشر من مايو..***

مرة أخرى تعاود الأجهزة هديرها محاولة تنظيف دم الفتى..

وكنت أنا أدخن كدبابة من مخلفات الحرب العالمية..، وأجلس إلى جوار د. (منير) نتأمل المشهد..

وإلى جانبي العلبة الورقية حيث يواصل القط سباته القلق المليء بالكوابيس.. لم تعد هذه العلبة لتفارقني بعد اليوم..

ونظرت إلى ساعتي.. العاشرة والنصف.. لا أدري ما سر اللهفة التي تنتابني وكأني بحاجة إلى اللحاق بموعد نسيته تمامًا..

غريب هذا!...

* * *

الثالثة - ***صباح اليوم العاشر من (أفيانتا)..***

أخيرًا.. عاد اللون الأسود المحبب للسماء وعاد العنكبوت العملاق ينسج خيوطه.. وعلى الرمال الحمراء وقف (هن - تشو - كان) وسط فرسان (الراموس) يمسك بيده القط الصغير الذي لم يعد يراه سوى قط صغير..

- والان أبدأ التجربة..

قالها المخ العملاق.. وكان (جينغ - تشا) قد تحول إلى كتلة من الطحالب الزرقاء عند قدمي المحارب الأخير..

في حذر رفع (هن - تشو - كان) القارورة.. وفتحها..، ومد إصبعه الإبهام في فم القط متجاهلًا أنيابه.. وسكب السائل فيه.. قطرات معدودة..

كان لابد أن يجرب..

فمن أدراه - برغم كل شيء - أن هذه ليست حيلة أخيرة من (جينغ - تشا)؟..

ولثوان طفق ينتظر....

بدأ القط يتلاشى.. جسده يبهت بالتدريج.. فجأة لم يعد هناك..

وأدرك (هن - تشو - كان) أن الترياق ناجع..

لقد عاد وعي القط إلى عالم الأحياء.....

* * *

الحادية عشرة - ***صباح اليوم الثالث عشر من مايو..***

غريب هذا!.. لقد فتح القط عينيه!..

إن هذا مذهل.. إنه ينهض.. يثب من الصندوق.. يمط أقدامه ويكور ظهره ويتثاءب بعنف كأنما يحاول انتزاع لسانه من مكانه!..

أصابني البكم أنا ود. (منير) وشرعنا نرمق المشهد في بلاهة..

- من أتي بهذا القط ها هنا؟

دوى صوت مشرفة التمريض إياها وقد هالها أن ترى قطًا في العناية المركزة التي تديرها، صرخت في هستيريا وولولت.. ثم إنها صاحت ما إن رأتني:

- إنه ملكك، أليس كذلك؟.. تمتنع عن دفع تأمين العناية المركزة لمدة أسبوع ثم تتسلى بإحضار القطط الضآلة معك؟.. إن هذا لا يطاااااااااق!.. هي ي ي ي!

وانفجرت في البكاء الهستيري.. وتهانفت فوق مقعد جلدي تنعي طالعها..

أما أنا فكنت شارد الذهن عن كل هذا.....

كنت في (زانادو).....

* * *



غريب هذا !. لقد فتح القط عينيه !.. إن هذا مذهل .. إنه ينهض ..
يثب من الصندوق ..

الواحدة - ***مساء اليوم الثالث من (كاسبوس)..***

حانت لحظة الحقيقة..

في صمت يرفع (هن - تشو - كان) القنينة إلى فيه..

وبحذر يجرع الجرعات الأولى من السائل..

كان عطر المذاق حادًا قليلًا.. وأحس بدوار خفيف، لكنه تجاهله وفرغ من باقي الجرعات.. ورفع عينيه ليرى الخواء من حوله..

ساد الصمت.. لا شيء سوى صوت لهاثه.....

الكتاب في يده اليسرى والقنينة في اليمنى.. وآلام الترقب..... ثم.....

* * *

الحادية عشرة والربع - ***صباح اليوم الثالث عشر من مايو..***

وحين فتح عينيه..
وحين ارتجفت شفتاه.. وحين تحرك رأسه واختلجت يداه..
وحين هرعت ملهوفًا إلى الحجرة لأنتزع أنبوب القصبة الهوائية..
وحين فرغ من سعاله ودموعه.. وجلس في الفراش يرتجف..
عندئذ أدركت أن (هن - تشو - كان) قد عاد إلى عالمنا..
انتصر المحارب الأخير على الغيبوبة.. وعالم الأوهام..
كان في يده كتاب (الشوكارا).. لا أدري متى ولا كيف قبض عليه..
وفي اليد الأخرى قنينة صغيرة خاوية..
أما أول ما قاله فكان بلغته التي لا أعرفها.. لكنني فهمته لأنه لا محل لكلمة أخرى تقال في هذا الموقف..
- أين أنا.....؟
-.....

* * *

خاتمة..

انتهت أسطورة (النافاراي)!..

انتهت قصة المحارب الذي عبر خمسة قرون وآلاف الأميال كي يجيء إلى عالمنا.. وعبر حاجز الواقع كي يصل إلى أرض الكوابيس..

حقًا لا أعرف الحقيقة..

هل (زانادو) و (الأب) و (الراموس) وصراعه مع خصمه.. هل حدث كل هذا حقًا أم هي مجرد هلوسة انتابته في غيبوبته وحكاها لي؟

هل ما أعاده لدنيانا قنينة الترياق أم الغسيل الكلوي الذي أجريناه؟

لكن عندي دليلين هامين على صدقه..

الدليل الأول: هو إقحامه للقط في القصة.. وهو لا يعرف أن هناك قطًا..

الدليل الثاني: أنني وجدت الكتاب في يده حين أفاق..

لقد كان (هن - تشو - كان) في عالم مواز غريب يمكن أن يحدث فيه كل شيء وأي شيء..

لكنه أثبت أنه الأفضل كالعادة.. والأكثر براعة وتوفيقًا..

والأهم أنه لم يعد يخشى أحدًا في عالمنا الذي صار آمنًا تمامًا..

إنني سعيد بهذه النتيجة لأنني - أعترف - وقعت في هوى هذا الفتى الشريف الباسل كأبطال الأساطير الإغريقية..، وقعت في هواه برغم فاتورة المستشفى التي دفعتها بالكامل وتسببت في خراب بيتي.. ففي لحظة الدفع لا تجد واحدًا من أية سفارة آسيوية يعرض خدماته الثقافية!..

وبعد فترة نقاهة لا بأس بها، عاد (هن - تشو - كان) للإقامة معي في داري..، وكان أن قابل الملحق الثقافي الصيني معي وأفهمه أنه من مواطني (التبت).. وأنه تربى في (مصر) ويريد أن يعمل في سفارة (الصين الشعبية).. وأنه - بالطبع - لا يملك أوراقًا تؤيد كلامه!

وقد كان..

وأنتم تذكرون دون شك أن الفتى كان يعمل مترجمًا في تلك السفارة، لأن عربيته لم تكن سيئة على الإطلاق في تلك الآونة..

ووجدت له مسكنًا لا بأس به، ونجحت في جعله يذوب وسط مواطنيه الذين لا يتخيل أحدهم أي سر يطويه الفتى تحت ثيابه العصرية الأنيقة وأدبه الجم..

لا أنصح أحدكم باستفزازه.. فهو مسالم جدًا، لكنك لا تدري متى يقرر أن يستخدم أسلوب (السارايانا).. عندئذ أنت الملوم ولا أحد غيرك..

بعد ذلك بفترة كانت له مغامرة لا بأس بها مع وحش وطنه رجل الثلوج (المي - جي).. ذكروني أن أحكيها لكم يومًا ما.. ماذا تقولون؟..

حكيتها في الكتيب الثاني عشر؟!. معذرة... يبدو أن تصلب الشرايين قد نال من ذاكرتي بالفعل..

على كل حال لم تنته ذكرياتي مع (هن - تشو -كان)، وسأحكي لكم المزيد إذا راقت لكم حكاياته..

والآن نعود للحديث عن الأحداث الكابوسية التي عشتها في ذلك الأسبوع الذي سبق عودة (هن - تشو - كان) لعالمنا.. الأحداث التي كادت تنسيني كل شيء عن الفتى، بل وكادت تودي بحياتي في الواقع..

إن الحديث عن المقابر محبب للنفس.. نفس الأشباح على الأقل..

وقد كانت (براكسا) تحب الحديث عن المقابر.. وكنت أنا.....

ولكن.. معذرة...

إن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل
القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

فلننعش ذاكرتنا!

العاشرة والنصف - مساء اليوم الخامس من مايو..

الحادية عشرة والربع - مساء اليوم الخامس من مايو..

الحادية عشرة والنصف - مساء اليوم الخامس من مايو..

الحادية والأربعين - ظهر اليوم الخمسين من (هسبراد)..

الواحدة والنصف - صباح اليوم السادس من مايو..

العاشرة - صباح اليوم الرابع من (جونو)..

الرابعة والربع - صباح اليوم السادس من مايو..

الستون - صباح اليوم الأول من (چاسكا)..

الثامنة - صباح اليوم السادس من مايو..

العاشرة - ظهر اليوم السبعين من (ساكاريس)..

العاشرة - مساء اليوم السادس من مايو..

السابعة عشرة - مساء اليوم الخامس من (ديلار)..

الواحدة - ظهر اليوم الثمانين من (شينافو)..

الثامنة - صباح اليوم الثالث عشر من مايو..

الثالثة - فجر اليوم السادس من (هوردام)..

العاشرة - صباح اليوم الثالث عشر من مايو..

السادسة عشرة - ظهر اليوم المائة من (فالتاري)..

العاشرة والنصف - صباح اليوم الثالث عشر من مايو..

الثالثة - صباح اليوم العاشر من (أفيانتا)..

الحادية عشرة - صباح اليوم الثالث عشر من مايو..

الواحدة - مساء اليوم الثالث من (كاسبوس)..

الحادية عشرة والربع - صباح اليوم الثالث عشر من مايو..

خاتمة..

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة النافارايي

لا نريد ضوضاء ..
لا نريد صخبًا، لا نريد صرخات هلع ولا هتافات إستحسان .. إن الكاهن الأخير يخوض آخر معاركه، ويحتاج إلى أكبر قدر من التركيز. خذوا مقاعدكم يا سادة وانكمشوا فيها .. لأن هزيمة الكاهن الأخير تعنى نهايتنا نحن .. لا نريد صفيرًا .. لا نريد سوى الصمت البليغ..



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة حسناء المقبرة

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

زانادو: هي مملكة خيالية عاش فيها (قوبلاي خان) في قصيدة (كبلنج) الشهيرة المسماة بنفس الاسم.

(N.D.E) الحروف الأولى من عبارة (تجربة الدنو من الموت). [2←]

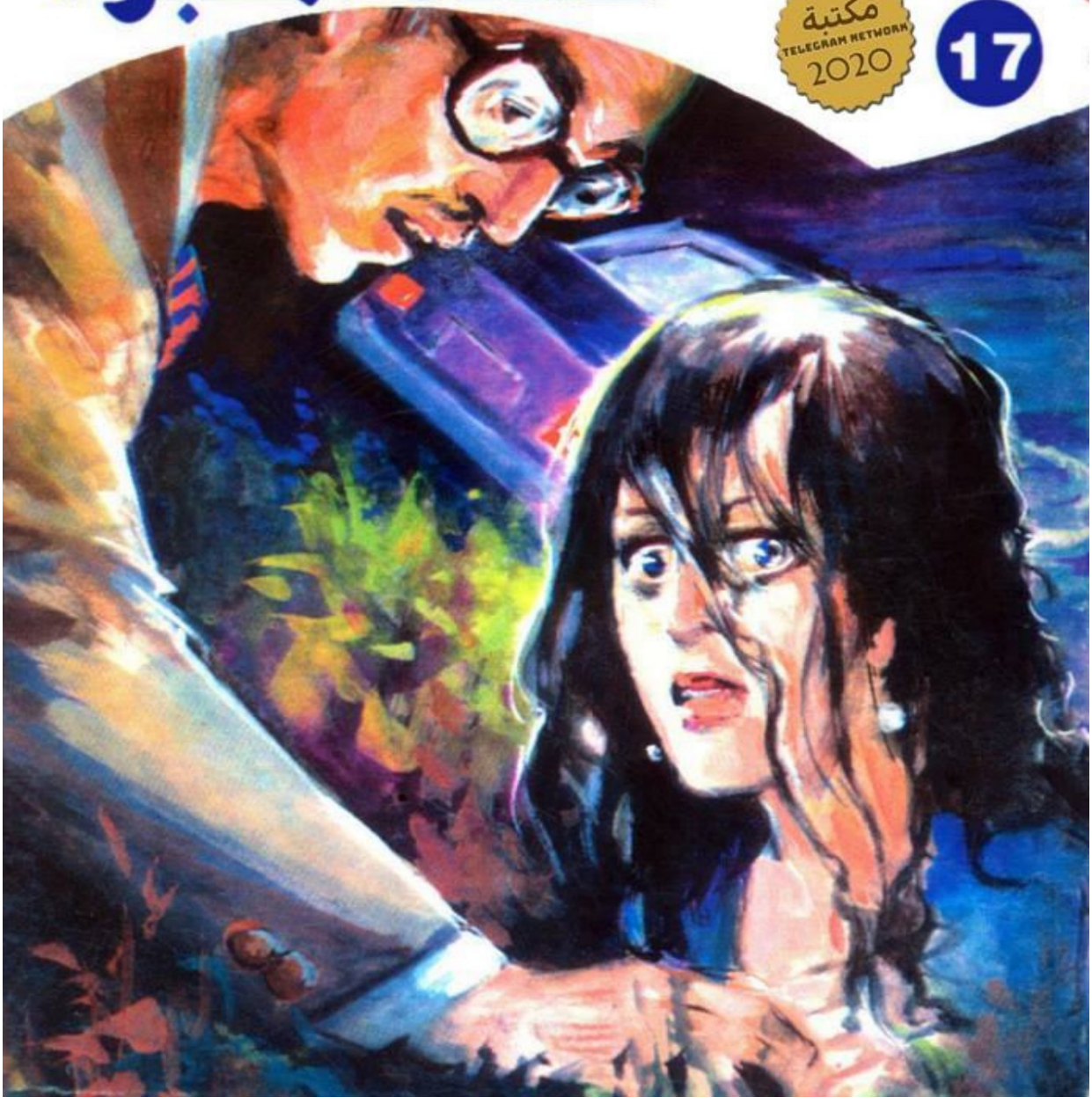
روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة حسناء المقبرة

17

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٧

روايات مصرية للجيب

•

ماوراء الطبيعة

أسطورة حسناء المقبرة

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

مقدمة

أرى بينكم ضيوفًا جددًا لم أتشرف بجلوسهم إلى مائدتي من قبل.. لهذا أرجو أن تسمحوا لي بتقديم نفسي لهم..

الاسم: رفعت إسماعيل.

السن: أدنو من السبعين أو القبر أيهما أسرع.

الحالة الاجتماعية: ذئب وحيد.

المهنة: أستاذ أمراض الدم سابقًا، وصائد أشباح هاو.

محل الميلاد: كفر بدر - شرقية..

ملامح مميزة: أصلع الرأس.. أشيب الفودين.. نحيل كعود ثقاب..

عادات: أدخن كأوتوبيس قريتي.

هل ثمة أسئلة أخرى؟.. لا أظن...

والآن تعالوا نستمع من العجوز (رفعت) - الذي هو أنا - إلى قصة جديدة رهيبة من حكاياته العديدة.. متى تنتهي قصصي؟..

يا له من سؤال!.. حين أموت طبعًا.. او حين يصيبني الشلل أو العته أو سرطان الحنجرة.. أو حين تملون

حكاياتي وتنصرفون عن مجلسي.. وأنا أشك في الاحتمال الأخير لأن جعبتي لا تزال مفعمة بحكايات لا بأس بها.. بعضها يشيب لهوله الولدان - كما يقولون - وبعضها يعدك بأمسية مسلية لا بأس بها.. لاسيما مع شطيرة وقدح شاي..

طالما ظل الشيخ (رفعت إسماعيل) قادرًا على جعلك تسهر مع كتاب بدلًا من مشاهدة التليفزيون أو التسكع في الطرقات؛ فهو مازال بصحة جيدة.. ومازال حيًا على الأقل..

سأحكي لكم الليلة حكايتي مع (براكسا) حسناء المقبرة.. تعرفون حسناء النهار.. تسمعون عن حسناء الشاطئ.. حسناء المدرسة، لكن حسناء المقبرة مصطلح فريد من نوعه.. إن لم يكن سخيفًا..

لماذا أسميتها كذلك؟..

الإجابة سهلة.. لأنها حسناء.. ولأنني قابلتها في مقبرة..

أما ما حدث بعد ذلك فموضوع يطول شرحه....

١ - فتاة..!

الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المرعبة التي يراها واسعوا الخيال..
ولم أكن أعرف عن نفسي إلا ضيق الخيال.. لهذا لم أحسب كل هذا ممكنًا..

* * *

اليوم السابع من مايو عام ١٩٦٧... تذكرون أنني في هذا التاريخ بالضبط كنت غارقًا - حتى الأذنين - في مشاكلي مع غيبوبة (هن - تشو - كان) التي تأبى أن تنتهي بالموت وهو الراحة الكبرى، أو الإفاقة وهي الراحة الصغرى..
كنت غارقًا في خواطري وأبحاثي الحائرة عن مخرج حين حدثت لي هذه القصة المختصرة.. أحداثها لم تتعد أسبوعًا لكنها جديرة - بكل تواضع - أن توضع على رف ذكرياتي جوار مصاصي الدماء.. والمذءوبين.. والنباتات المفترسة.. وكل كهنة (الأزتك) الحانقين دومًا..

* * *

في الساعات الأولى من الصباح دق جرس الباب.. فنهضت لأفتحه لأجد عمي الحاج (إبراهيم) قد وقف على الباب يدق الأرض بعصاه.. وقد غرق في العرق والغبار بعد رحلة طويلة من قريتي إلى داري.. فما إن رآني حتى وثب يعانقني.. ويطلق السباب لسبب لا أعرفه حقًا.. ثم بدا - كالعادة - يعلن استياءه من تدهور صحتي ونحولي وتأخري في الزواج إلى الحد الذي صار معه الأمر مريبًا..
ولم يفتني حين أدخلته الشقة أن ألاحظ النظرات المتشككة التي راح (يمسح) بها كل ركن فيها، كأنما - سامحه الله - يتوقع أن شقة العازب هي وكر للموبقات.. وأنه سيجد غانية في كل حجرة.. وزجاجة خمر تحت كل مقعد ومائدة قمار خلف كل ستار..
إنهم يتزوجون في العقد الثاني في قريتي.. وهم لا يفهمون أبدًا أن يعيش إنسان حتى العقد الخامس من عمره دون زواج ما لم يكن مخبولًا أو فاقد الرجولة أو معوج السير..
سامحك الله يا عمي!.. أنت لم تر ولم تعرف (ماجي).. وهذا يكفي كي لا ألومك على سوء الظن..
مشكلتي مع الزواج هي أنني سريع الملل وسلبي إلى حد مفزع. ومعنى الزواج هو أن أجتاز غابة شائكة من الإجراءات والمفاوضات والمجاملات وأن - تصوروا هذا - أسافر إلى (دمياط) لانتقاء الموبيليا مع حماة متشككة رافضة لكل شيء!.. وكل هذا لأجل ماذا؟.. لأجل فتاة لا أحبها ولا أحمل نحوها أية مودة..
إن اجتياز هذه الغابة يحتاج حافزًا قويًا.. حافزًا أقوى بكثير مما تقدمه لي أية واحدة من عرفتهن..

ولقد كانت (هويدا) مناسبة إلى حد ما.. قادرة على جعلي أتحمل ما ينبغي أن أتحمله.. لكن العفن تسرب إلى علاقتنا دونما سبب مفهوم، وحين انتزعت خاتمها من يدي اليمنى أدركت أنني أنتزع آخر أمل لي في أن أصبح زوجًا أو أبًا..

دعونا من هذا الموضوع الممل..

لنعد إلى عمي الذي - حتمًا - يحمل لي موضوعًا أكثر أهمية.. جلس عمي في الصالة يجفف عرقه بمنديل كبير ويلهث.. ثم جرع جرعة كبيرة من زجاجة المياه الغازية وتجشأ ثلاثًا.. وقال:

- لقد وجدت أنك نسيتنا.. وأمك في ورطة حقيقية بينما أنت هنا يا دكتور لا يوجد ما يشغلك من زوجة ولا أولاد.. فقلت لها إن عندها رجلًا كامل الرجولة ولابد أن يكون معها في لحظات كهذه.. [صبرًا.. لا يوجد خطأ في الموضوع.. فلم تكن أمي قد لاقت ربها عندما حدثت هذه القصة.. فقصتي مع (هن - تشو - كان) تسبق قصتي مع نبات (الموكاسا).. لكن تأخري في سرد الأولى جعلها تأتي بعد الثانية.. عسير على أن أشرح لعمي أنني مشغول مع كاهن من (التبت) مصاب بغيبوبة (السيرجانتا).. لن يفهم حرفًا دعك من أن يصدقه]..

- أنت تعرف أن أباك رحمه الله - الفاتحة على روحه - ولا الضالين آمين.. أنت تعرف أن أباك أوصاني بأن أتابع كل التفاصيل فيما يتعلق بتلك البائسة التي لا تفهم شيئًا..

فرغت من قراءة الفاتحة ومسحت وجهي بكفي.. ثم بدأت أفهم كل التفاصيل منه، والأمر يتعلق بخلاف على قيراط أرض يعتقد أخي (رضا) - تحت ضغط زوجته طبعًا - أنه حقه.. في حين تعتقد أمي وأختي أنه من حقهما..

وأنا بطبعي أنفر من هذه النوعية من المشاكل المادية التي تفرق ما بين أفراد الأسرة الواحدة، ولم يكن لي علاقة بشيء سوى بنصيب ضئيل دفعت منه أول أقساط سيارتي التي أسدد ثمنها حتى اليوم.. لكن عمي كان متحمسًا.. ولم أرد أن أبدو بشكل المتخاذل الذي يتهرب من الحفاظ على حق أمه..

إن الأمر سيحتاج كثيرًا من الكياسة لتفادي صدام لا أريده مع (رضا) أخي الوحيد العزيز.. وكثيرًا من العبقرية كي أقنع أمي بأنني لم أظلمها..

وهكذا - ترون - تركت ميدان المعركة وارتديت ثيابي قاصدًا قريتي مع عمي، لكني لم أنس الاتصال بالمستشفى طالبًا منهم المزيد من العناية بالفتى المريض (هن - تشو - كان).....

* * *

طبعًا هناك العديد من الأسرار العائلية في الموضوع، لهذا أرجو إعفائي من ذكر ما حدث وكيف تمت تسويته.. وهذا على كل حال لن يفيد روايتنا في شيء.. لقد ولى عهد (أونوريه دي بلزاك) الذي كان يسود الصفحات بوصف شكل ومشاعر شخصية.. ثم يتضح لنا أنه يتحدث عن الخياط مثلًا.. وأن هذا الخياط لا دور له في القصة بعد ذلك بتاتًا!.. لقد كان الاستطراد هواية.. أما اليوم فالقارئ ملول لا يريد سوى ما يخدم القصة.. وهذا يناسبني هذه المرة.. (بالمناسبة... سامحوني على هذا الاستطراد الأخير..!)..

لقد انتهى الخلاف في مساء اليوم السابع من مايو.. أي أنني قضيت في قريتي أقل من يوم، وعلى طريقة الدبلوماسي الذي يقنع كل طرف بأنه نال قطعة أكبر من الكعكة.. نجحت في أن أقنع

أمي بترك القيراط لـ (رضا) ونجحت في أن أقنع (رضا) بترك القيراط لأمي..!..
ثم ودعتهم جميعًا - أمي وأختي و (رضا) و (طلعت) - غير عالم أنني أودع أمي الوداع الأخير.. أنتم تعرفون قصة وفاتها من كتيب سابق لهذا لن أعيد سردها..
وفي الثامنة مساء ركبت سيارتي عائدًا إلى القاهرة..

* * *

طريق (كفر بدر) المتجه إلى (فاقوس) غير مرصوف.. ويشعرك السير فيه بأنك جالس في خلاط أسمنت سريع..
أنت تعرف هذه الطرقات الريفية غير الممهدة، الضيقة كمسافة بين سطرين، تحفها من الناحيتين أشجار عجوز تتهدل أغصانها المنهكة، على حين تجري على أحد الجانبين مياه قناة أو مصرف تكسوها طبقة كثيفة من الطحالب الخضراء.. وفوق كل جزيرة من هذه الطحالب ترى فقاقيع ماء تروح وتجيء.. وصوت نقيق ذكور الضفادع إذ تحاول الظفر بأمسية صيف دافئة. ومن بعيد - خلف الأشجار - يلاحق البدر سيارتي، وعلى وجهه تلك البسمة الوقحة التي أمقتها..
ذكرني البدر بالمذءوبين...
من يدري؟.. لربما خلف شجرة ما يرفع أحدهم عقيرته نحو القمر وينتظر.. ينتظر البائس الذي يمشي على قدميه في هذا المكان المخيف.. سرت القشعريرة في ظهري وتنهدت..
لا يوجد مذءوبون.. أنا واثق من هذا.. بل أثبت الحقيقة بنفسي في سهول (رومانيا).. لكنه - مرة أخرى - الخوف الغريزي غير المبرر من كل ما نجهله..
إن طابع الرعب المحلي يتباين جغرافيًا من مكان لآخر.. فوسط ثلوج (رومانيا) وأشجار الصنوبر المكسوة بالجليد يمكنك أن تحلم بالمذءوبين وتخشاهم.. أما في (جامايكا) بأمطارها الحارة يكون السحر الأسود و (الفودو) مناسبين للجو.. القلاع تناسب مصاصي الدماء أكثر.. أما في قريتي وحقول الذرة فإن الطابع المحلي للأساطير يأخذ تيمة النداهة والجان.. إلخ..
إن رؤية مذءوب في ريف مصر أمر شاذ وغير متوقع.. أمر لا (يليق) بالبيئة كأنك ترى عازف طبل بلدي وسط أوركسترا.. أو مباراة تنس جوار مصرف المياه الآسنة في قريتي.. لماذا تدافعت هذه الخواطر إلى ذهني في هذا الوقت؟.. ربما لأنني - رغم الشيب المحتشد على جانبي رأسي – ما زلت طفلًا.. طفلًا يتسلى بإفزاع نفسه حتى الموت، ويتلذذ بكونه آمنًا داخل السيارة المغلقة فيخلق خياله ألف شبح وشبح خارجها..

* * *

ومن بعيد لاحت لعيني تلك القباب الصفراء الكئيبة تستحم في ضوء القمر البارد..
إنها المقابر.. مقابر قرية (كفور داود).. وهي بالنسبة لمن يعرف طريق قريتي الوعر علامة على أن ثلاثة كيلومترات تفصله عن (فاقوس)[1].. وأنا أحب المقابر.. أحب طابع الحزن الصامت المخيم عليها.. وأحب كونها المكان الوحيد الذي يكف ساكنه عن إيذاء الآخرين للأبد..!

تمتمت بكلمات الفاتحة وأنا أرمق الشواهد البدائية المصنوعة من الطين وقد غطيت بطبقة متآكلة من الجير، وعليها أسماء ساكني القبور بخط طفولي مكتوب بالطبشور غالبًا...

كنت أوشك على الابتعاد حين لمحت عيناي شيئًا ما... على جانب الطريق - إذا أمكننا تسميته كذلك - كانت تلك الترعة الراكدة بمياهها المغطاة بالطحالب..

لم تكن ضيقة.. ولم تكن واسعة.. مجرد ترعة بريئة أخرى.. لكنني أدركت أن شيئًا ما يحدث تحت مياهها.. تلك البقعة الغامضة من النور الأصفر تضيء المياه وما حولها، وتنعكس لتضيء دائرة لا بأس بها من جذوع الأشجار المدلاة في تراخ حول الترعة وهأنذا أدنو أكثر.. فأكثر...

وعلى كشافات سيارتي يتضح لي المسرح أكثر، ويسقط قلبي في قدمي ذعرًا..

إن ما أراه لهو سيارة - هيكل سيارة - قد هوت في مياه الترعة مائلة، فانغرست مقدمتها وأكثر من نصفها رأسيًا تحت الماء.. وقد ظلت أضواؤها سالمة مرسلة ذلك الضوء العجيب كأنما الترعة تتوهج ذاتيًا.. لابد أن هذا الحادث طازج ما دامت البطاريات لم تنفد أو يتخللها الماء..

وكذا لم يكن أمامي سوى أن أوقف محرك سيارتي وأترجل.. في توجس أدنو من مسرح الحادث.. ببطء وذعر.. ولم أنس - طبعًا - أن أدس قرص (النيتروجلسرين) تحت لساني تحسبًا لما قد أراه.. وعند حافة الترعة توقفت...

استدرت للخلف فرأيت المقابر صامتة تنتظر على الجانب الآخر من الطريق كأنها جمهور مسرحية.. وأنا الممثل الأوحد بها.. ثم عدت أرمق المشهد الذي أمامي..

السيارة في وضعها الرأسي وسط المياه تبدو كوحش أسطوري يرشف المياه ليروي ظمأه.. ثم لن يلبث أن يرفع وجهه ويراني.. و عندئذ....

لكنني دنوت أكثر.. لا أستطيع أن أميز أي شيء من داخل السيارة.. لكن حتمًا يوجد راكب أو اثنان.. ربما أسرة بريئة كاملة.. بالتأكيد لقي السائق حتفه.. ولكن هل ثمة آخرون..؟..

وعلى ضوء القمر القاسي استطعت أن أميز ماركة السيارة.. سيارة (أوبل) من طراز عتيق نوعًا.. على لوحتها كتب (ملاكي القاهرة – ٧.. ٢.. ٣.. ٤.. ٥)..

أشعلت سيجارة وعلى ضوء اللهب الخافت المنبعث منها شرعت أتأمل موقفي.. أنا لا أجيد السباحة وأعتبر طفو إنسان فوق الماء - متحديًا كل قوانين الطبيعة - نوعًا من معجزات الأولياء..

إذن لا يوجد سبيل أمامي سوى الذهاب إلى قرية (كفور داود) والعودة بعشرة رجال أشداء مفتولي العضلات ممن يمارسون معجزة السباحة ليساعدوني في إنقاذ هؤلاء التعساء، هذا بالطبع إذا كان هناك من بقي منهم....

وهنا سمعت صوت الأنين....

وعند قدمي أدركت أن هذه الكومة المتشابكة من الطحالب والطين والثياب الممزقة لم تكن مجرد كومة.. لقد كانت هناك يد بشرية متشنجة تحاول التشبث بسيقان نبات (ذيل القط) الذي ينمو بكثرة على حافة الترع..

وحين انحنيت أكثر أدركت أن هذه اليد تخص كائنًا حيًا يحاول في استماتة أن يخرج من الماء....

كانت يد فتاة.....

* * *



وحين انحنيت أكثر أدركت أن هذه اليد تخصّ كائنًا حيًّا يحاول في

استماتة أن يخرج من الماء ..

٢ - اسمها (براكسا)..

الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا تغاضينا عن الأشياء المرعبة التي يراها واسعو الخيال..
وأنا لست واسع الخيال.. لكني بشر.. ومن أبسط حقوقي الآدمية أن أرتجف خوفًا حين أرى ما يدعو لذلك..

* * *

تشبثت يدها بيدي...
يدها الباردة كالثلج.. المبتلة كأحضان (بوسيدون)[2].. سأظل أذكر ما حييت ذلك المشهد الدرامي المصاحب لخروجها البطيء من الماء وشعرها مختلط بالطين والأعشاب، وجسدها - الذي كان مغمورًا كله - أشبه بجسد تنين أسطوري يخرج ببطء من المياه..
أنا عشت موقفًا شبيهًا حين أخرج وحش (لوخ نس) عنقه العملاق من تحت مياه البحيرة، لكني - أعترف - لم أشعر ساعتها بهذا الشعور المقلق الغريب.. في (لوخ نس) كان الفزع مجسدًا وكاملًا وواضحًا.. أما هنا فهناك جو رهيب من الغموض لا أستسيغه كثيرًا..
(آثار أقدام الدب أكثر إفزاعًا من الدب نفسه).. مثل روسي لم يسمعه الروس من قبل لأنني أنا مؤلفه الوحيد.. وإنني لا أرجو أن يضمه الأخوة الروس إلى قائمة أمثالهم المتعلقة بالدببة..
لهثت.. استجمعت قواي المتهالكة حتى نجحت في إخراج باقي الجسد من الماء.. وعندئذ فقط أطلقت يدها سراح يدي..
وهناك - عند قدمي - تكورت تلهث وترتجف..
انحنيت راكعًا على ركبتي وربت على كتفها المبتل..
- الحادث.. السيارة.. فـ.. فجأة...
- لا عليك.. أنت على ما يرام الآن.. اهدئي بالًا..
كانت في حال شبه هستيرية، وتصدر هذه الأصوات التي يختلط عليك كنهها.. أبكاء هي أم ضحك.. ولا ألومها كثيرًا في الواقع..
- هل أنت مصابة؟
- لا أدري.. لا أدري.. السيارة.. الـ....
- هل كان معك أخرون؟.
- لا.. وح.. وح.... هيييه!
واخذت تشهق وتزفر وتسعل مرارًا لا حصر لها.. ثم إنها ألقت برأسها المبتل الذي تفوح منه رائحة الماء والطحالب على كتف بذلتي الجديدة.. مشكلة أن تكون شهمًا هي اضطرارك للتضحية بأشياء أخرى غير راحتك وحياتك.. ربما اضطررت للتضحية بثيابك أيضًا وهذا أسوأ ما في الأمر..!

ساعدتها على النهوض على قدميها ببطء وهي ما زالت مستندة إلى كتفي، وسرني أنها تحرك أطرافها جميعًا دون ألم، فلا يوجد كسر إذن، وهي متنبهة واعية فلا يوجد ارتجاج مخ إذن، دعك من أن يكون هناك نزف داخلي فهذا احتمال لن يتضح إلا بعد قليل..

ببطء ساعدتها على السير..

- إلى أين؟

قالتها بصوت واهن.. ويا له من سؤال!.. أنا أمقت الأسئلة الغبية:

- إلى سيارتي طبعًا.. سنقصد المستشفى في (فاقوس) أو إذا شئت..

- لا!..

بعصبية لا مبرر لها في الواقع.. ثم هدأت لهجتها قليلًا وأردفت:

- أنا بخير.. لا مستشفى أرجوك.. أريد أن.. أبتعد..

- ليكن...

ودنونا من السيارة ففتحت لها الباب الأيمن فألقت بجسدها على المقعد وطوحت رأسها إلى الوراء حتى حسبته موشكًا على أن ينفلت منها ويتدحرج إلى المقعد الخلفي، درت حول مقدمة السيارة لأجلس في مقعد السائق ثم أدير المحرك.. كروووورك!.. توتوتوتوه!..

ولم يفتني أن ألقي نظرة أخيرة إلى مشهد السيارة الغارقة في الماء بينما أضواؤها تبعثر ذلك الضوء المهيب تحت صفحته..

وعلى بعد أمتار كانت المقابر ترمق ختام المشهد في فضول.. خيل لي أنها تتثاءب استعدادًا للنوم بعد انتهاء العرض المسرحي المشوق.. وعادت معالم الطريق تزحف إلى دائرة نور السيارة.. مرافقتي ما زالت تنظر بعينين زائغتين إلى سقف السيارة، وقد ارتخى جسدها كله كوتر كمان تمزق من فرط العزف..

اختلست نظرة جانبية إليها..

جميلة هي دون شك.. برغم كل شيء أستطيع أن أميز شعرها الطويل الفاحم.. وأنفها الأقني.. وشفتيها المنفرجتين قليلًا عن صرخة صامتة.. وكانت ترتدي فستانا في حال مزرية، لكن من الواضح أنه كان أنيقًا محتشمًا أزرق اللون قبل أن يحوله الحادث إلى خرقة مبتلة تصلح لتلميع الأثاث.. وكانت قد فقدت حذاءها.. وبالطبع حقيبتها..

سألتها وأنا اثبت عيني على الطريق:

- من القاهرة؟

- هم م م م!

- وما اسمك؟.. أنا (رفعت إسماعيل).. طبيب بشري..

- اسمي (براكسا نجيب)..

قالتها وكأنها لا تجد غرابة في الاسم.. تساءلت عن الاسم من جديد لأتأكد أن سمعي لم يخني.. فقالت في شيء من نفاد الصبر:

- (براكسا).. بـ..ر..ا.. كـ.. سـ..ـا.

- يبدو أن أباك مولع بالأدب اليوناني..

كنت أتحدث طبعًا عن مسرحية (براكسا) للساخر اليوناني العظيم (أرستوفان).. وهي المكان الوحيد الذي سمعت فيه اسمًا مماثلًا.. قالت الفتاة وهي ما زالت ترمق الطريق ورأسها راجع

للوراء:
- لم يخنك الظن كثيرًا.. الواقع أن أمي يونانية.. وهي التي اختارت لي هذا الاسم..
غريب هو اسم (براكسا)... غريب ورهيب وأسطوري.. يوحي بشيء ما لا يمكن وصفه.. شيء أزلي كالكون نفسه.. غامض كالظلام.. رهيب كأنشودة الريح عبر الوديان المنسية.. (براكسا).. أية صعوبات سببها لها اسم كهذا لا يمكن أن يكون الموظفون قد كتبوه كما يجب في شهادة ميلادها وشهادة تخرجها و... و...؟.. ربما تحول معهم إلى (برديس) أو (نرجس) أو (براءة) أو أي اسم مشابه..
- وماذا جاء بك إلى هنا يا آنسة.. أو هل أقول يا (سيدتي)؟
- آنسة.. وجئت هنا لأن....
وصمتت هنيهة.. نظرت نحوها بطرف عيني لأعرف لم صمتت.. لمحت شفتيها تختلجان.. وتكورت تفاحة آدم في عنقها فأدركت أنها تبتلع ريقها قبل أن تجيب.. ثم إنها تنهدت وهمست:
-.. أرجوك لا داعي لرفع الكلفة.. إن لي أسبابي الخاصة التي أرجو إعفائي من ذكرها..
شعرت بالدم يحتشد في أذني خجلًا.. يا لي من متطفل سخيف..!.. ليكن إذن.. هذه الفتاة لا تحب التدخل في خصوصياتها باعتبار وجودها في سيارة على طريق (كفر بدر) اللعين وحدها ليلًا أمرًا لا يثير الفضول.. هل كانت تزور أقاربها؟.. لا يبدو هذا التفسير مستساغًا لي...
على كل حال الوقت يمضي.. مددت يدي إلى علبة التبغ وسحبت سيجارة ولم أنس أن أقرب العلبة منها فجذبت لفافة تبغ لنفسها.. هي إذن من الطبقة التي تدخن فيها النساء.. وهما طبقتان في (مصر): طبقة الفتيات المدللات رائدات أندية التنس و (بابي) و (مامي)، وطبقة نساء الأحياء الشعبية الفقيرة.. إذن فهذه الفتاة - بالاستبعاد - مدللة تعاني من الفراغ والملل وتتسلى بقراءة الوجودية قبل النوم[3]..
قربت عود الثقاب المشتعل من طرف لفافتها.. وتأملت وجهها على ضوء اللهب المتراقص.. كانت شاحبة إلى حد غير عادي.. وثمة هالات سوداء على جفنيها السفليين.. هذا شيء متوقع بالطبع..
وهنا وجدت عينيها مرفوعتين نحوي تتفحصاني بنفس الاهتمام!.. أجفلت واعتراني الحرج والارتباك..، ثم إنني قربت اللهب من طرف لفافة تبغي.. وتصاعد الدخان الأبيض، وعدت أركز عيني على الطريق...
- كيف سقطت السيارة في الماء؟
سعلت قليلًا من صدر واضح أنه اعتاد الدخان.. وقالت بإنهاك:
- لا أدري.. لو عرفت ما حدث لتجنبته.. كنت مسرعة ولم أدر أين تبدأ الترعة وأين تنتهي.. فجأة لم أجد أرضًا تحت العجلات.. لا شيء سوى الظلام.. مياه باردة تتسرب إلى صدري.. فتحت باب السيارة وكافحت عبر المياه حتى أصل إلى جانب البركة.. و....
ساد الصمت بضع دقائق.. ثم إنني سألتها:
- هل جئت لزيارة المقابر؟
- نعم...
- ولماذا؟.

مرة أخرى تعيد رأسها للوراء مريحة إياه على مسند الرأس.. وتنهدت:
- إن أبي هناك...

* * *

القاهرة.. يا مدينتي العجوز المنهكة..
الشوارع مازالت مزدحمة برغم أننا في منتصف الليل.. إنه ليل الصيف الحار الذي يطرد الناس طردًا إلى الطرقات.. وزحام الأضواء الباهرة الملونة بينما صوت (أم كلثوم) يتردد من مكان ما يشدو (هذه ليلتي)....
وكانت الفتاة - عليها اللعنة - قد احرقت خمس لفافات تبغ من علبتي، ووجهت لي مائة رد مُسكت على أسئلتي الفضولية.. لماذا تتصور هذه الحمقاء أنني أتطفل أو أحاول مغازلتها؟.. لقد صرت كهلًا منهكًا لا يفكر في شيء سوى حاجته الماسة إلى النوم.. ولولا بقية من حياء عندي لقلت لها إنها لا تمثل لي سوى عقبة في طريق العودة إلى داري.. فالعشاء.. فالحمام.. فالنوم إلى ساعة متأخرة من صباح غد....
أشد ما يثير حنقي هو أن تفترض فتاة سوء النية فيك بينما أنت لا تعبأ بها أصلًا.. وتبدأ في تفسير تهذيبك وعنايتك الرجولية على أساس من خيالها المريض النرجسي..
- إلى أين تريدين أن أصحبك؟
قلتها وتوقعت أن تقول لي (الزمالك) أو (جاردن سيتي).. لكنها لم تقل شيئًا من هذا...
- كل الأماكن تتساوى عندي!
ماذا؟.. هذه الفتاة - إذن - فيلسوفة عبثية من تلاميذ (كامي) لا تجد فارقًا بين أي وضع وآخر.. أو هي مخبولة تمامًا وأنا أميل إلى ترجيح هذا الاحتمال الأخير.. إن الفلاسفة لا يمشون في المقابر ليلًا....
- ماذا تعنين بالضبط؟.. أين عنوان دارك هنا؟
- ليست داري هنا.. ولا في أي مكان على وجه الأرض!
نظرت لها في حيرة.. كانت محتفظة بذات الوضع العجيب.. حتمًا هي مصابة بصدمة عاطفية من هول ما رأته.. فلأكن بها رفيقًا..
- إذن.. من أين جئت؟
- جئت من حيث وجدتني..
وابتسمت ابتسامة غامضة دون أن تنظر نحوي.. وأردفت:
-.. جئت من المقابر...!

* * *

٣ - غريبة الأطوار..

الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا تغاضينا عن الأشياء المرعبة التي يراها واسعو الخيال..
وأنا لم أر شيئًا غير عادي.. لكن كلام هذه الفتاة لم يرق لي كثيرًا.

* * *

سألتها في نفاد صبر:
- إذن أين تتوقعين أن آخذك؟
- لا أدري..
سئمت هذا الجنون.. من حقها المطلق أن تجن وأن تصاب بالانهيار العصبي.. وأن تعتقد أن مكانها هو حيث دفن أبوها، لكن ما ذنبي أنا في كل هذا؟.. أنا الكهل البائس الذي لا يرجو من الناس سوى تركه وشأنه..
- إذن انزلي هنا!
قلتها لها بغلظة ضاغطًا على الفرملة وأوقفت السيارة على جانب الطريق.. توقعت منها احتجاجًا ما.. لكنها فتحت الباب المجاور لها ببساطة وترجلت.. أدرت المحرك في عصبية وكدت أبتعد حين....
آه أيها الضمير الراقد كالثعبان في أعماقي!.. تبًا لك!.. لماذا تحركت في بطء لتلومني على ترك هذه الفتاة المنهكة الكليمة وحيدة في شوارع القاهرة بلا نقود ولا حذاء؟!..
وجدتني أتقهقر للوراء وأجذب فرملة اليد.. ثم أهيب بها أن تركب ثانية ولم تكذب هي خبرًا فتحت الباب وألقت بنفسها على المقعد..
- إذن لا مكان تنتوين المبيت فيه الليلة؟.
- تؤ!
أصدرت بشفتيها هذا الصوت المعرب عن الرفض المتضجر..
- أنا أعيش وحدي ولن أستطيع اصطحابك لداري..
- تؤ!
- إذن أسلمك إلى قسم الشرطة وهم قادرون على العناية بك..
- لا.. أرجوك!
فليكن.. سآخذها إلى أحد الفنادق وأحجز لها غرفة على حسابي.. يمكنني غدًا أن أمر لأجدها في حال معنوية أفضل تسمح بالتفسير..

* * *

وكان أول فندق دخلناه راقيًا إلى حد ما.. موظف الاستقبال شاب وسيم مملوء بالحيوية - في منتصف الليل - حيانا في حرارة.. فقلت له:

- نريد غرفة للآنسة..

طلب أوراقها الشخصية فلم يجد.. بدا متشككًا مرتابًا وتبدل أسلوبه في ثوان إلى التحفظ المهذب.. ثم قال إنه آسف وإنه يعتقد أن ذلك مستحيل حتى بالضمان الشخصي مني..

شكرناه، وخرجنا نجوب المدينة الواسعة بحثًا عن فندق يقبل فتاة دون أوراق رسمية.. هناك فنادق تقبل ذلك وأكثر لكنها مملوءة بالبق.. وسمعتها ليست فوق مستوى الشبهات، آخر فندق من هذا النوع أقمت فيه منذ أعوام.. وكان خادم الفندق يفتش غرفتي ركنًا ركنًا وأنا أتظاهر بالنوم.. ثم يقسم - بالطلاق - أنه لم يدخل غرفتي وأن الفندق مسكون..

إنها الواحدة صباحًا....

ولا أمل يدلني على إمكان التخلص من هذه الكارثة..

* * *

في النهاية استجمعت شجاعتي واقترحت عليها أن تبيت الليلة في داري.. فقد نام الجيران والبواب، ولن يكون عسيرًا أن تتسلل إلى هناك..

- وأنت.. أين تبيت؟

- سأجد مخرجًا.. أنا رجل، وشوارع المدينة ترحب بالرجال بعد منتصف الليل.. لكنها تقسو على النساء أيما قسوة..

توقعت أن تشكرني وتصارحني كم أنا رائع.. لكنها لم تقل شيئًا مما دعم من وجهة نظري بخصوص كونها مدللة غير ناضجة.. وهي تتوقع أن من حقها الحصول على كل ما يتطوع الآخرون بتقديمه لها..، فإذا أنا تركت لها داري فلأنني ذكي وأعرف ما ينبغي أن أفعله..

أوقفت السيارة أمام مدخل البناية المظلمة.. ونزلت منها ومسحت شرفات الحي بعيني لأتأكد من أن أحدًا لا يقف في شرفة داره.. ثم تأكدت من أن غرفة البواب - في المدخل - مغلقة، لا أريد إفساد سمعتي بعد كل الأعوام التي حاولت فيها أن أقنع الجيران بأنني ملاك أصلع الرأس..

- بست!.. هيا!.

ناديتها بذلك الهمس المسموع.. فنزلت من السيارة وتقدمت داخلة من المدخل المظلم..

حافية القدمين لحسن الحظ فلا تحدث قرقعة الكعبين الأنثويين الكفيلة بإيقاظ الموتى.. خفيفة الحركة كالثعلب تسرع إلى صعود درجات السلم الرخامية خلفي.. وقلبي يتواثب كالطبل في صدري..

- ألا يوجد مصعد...؟

- ششششت!

وسبقتها إلى باب شقتي ففتحته حتى لا تقف هي على الباب فترة.. فما إن انسلت إلى الداخل حتى سمعت صوت باب ينفتح في الطابق السفلى.. فهرعت أنظر من أعلى ليراني هذا المتلصص.. وجدت وجه الأستاذ زكريا - الحانق دائمًا كأحد آلهة (الأوليمب) – ينظر لي من أسفل.. ابتسمت في حرج لكنه لم يبتسم.. وسمعته يقول:

- (د. رفعت)!.. أريد الكلام معك حالًا!
- ألا يمكن الانتظار حتى الصباح؟
- لا.. الأمر يتعلق بسمعة وسلامة هذه العمارة!
- إذن لا تصعد!.. أنا أت إليك!



وسبقتها إلى باب شقتى ففتحته حتى لا تقف هى على الباب فترة ..

وواربت الباب خلف الفتاة وهرعت أنزل درجات السلم واجف القلب.. لن أستطيع أبدًا تبرير وجود هذه الفتاة.. إنها الفضيحة القاضية على سمعتي.. سيعرف هذا الرجل أن شكوكه كانت حقيقية وسيوقن عمي أنه لم يأثم بسوء الظن..

سأتحول إلى الوباء الذي تخشاه كل الاسر هنا.. ويالها من كارثة!.. أنا المتحفظ المنغلق المتظاهر بأنه يحمل كبرياء الطب ذاته..

ها هوذا يقف على باب شقته يرمقني في ارتياب.. ها هوذا ينظر لأعلى.. ثم ينظر لي.. ويوارب باب الشقة حتى لا يسمع أحد من (حريمه) ما سيقوله لي من مواضيع مشينة بالتأكيد..

- كنت أريد أن أقابلك لأقول لك...

- خيرًا إن شاء الله؟.

- أنت تعرف عاقبة العبث!

- لا سمح الله!

- وبرغم ذلك.. برغم ذلك....

وارتجف من الانفعال باحثًا عن الكلمات.. ثم استطرد:

- برغم ذلك كدت تقتلنا جميعًا بهذه المغامرة اللعينة مع هؤلاء الآسيويين الذين هاجمونا في عقر دارنا..!

آه ه ه ه ه!..

إنه يتكلم عن (هن - تشو - كان) ومغامرة القتلة الذين كانوا يريدون كتاب (الشوكارا).. نسيت هذا الموضوع تمامًا ونسيت أن الكاهن الأخير مازال في العناية المركزة.. وأنا الذي ظننته يتحدث عن..... حمدًا الله!..

- بالمناسبة.. كيف حال ذلك الفتى الباسل؟

- مازال في غيبوبة.. لكنه حي على الأقل..

- أرجو له الشفاء.. والآن أتمنى لك ليلة طيبة.. ولا تنس ما قلته لك.. أنت مسئول عن الآخرين كما أنت مسئول عن نفسك..

- سأتذكر هذا.. عمت مساء يا سيدي..

وصعدت السلم غير مصدق أنني نجوت..!

* * *

أغلقت باب الشقة في هدوء، ودخلت لأجد الفتاة واقفة تتأمل تماثيل (الزولو) الموضوعة على البوفيه..

دخلت غرفة النوم فأخذت كل النقود التي أضعها في الخزانة، وجمعت بعض الأشياء التي قد تكون ثمينة فوضعتها في جيبي.. ثم أغلقت الغرفة التي تحوي جهاز التسجيل والمكواة بالمفتاح ودسست هذا الأخير - أيضًا - في جيبي.. فمن أدراني أن هذه الفتاة ليست لصة؟.. من الحماقة أن أترك شقتي لمن رأيتها أول مرة منذ ثلاث ساعات.. وعلى كل حال لا أظنها قادرة على سرقة الفراش أو الثلاجة حتى لو أرادت..

وخرجت لها حيث وقفت في ضوء الصالة تتأمل ذات التماثيل.. فأخذت بيدها الباردة المترددة إلى الداخل.. وشرعت أشرح لها:

- ترين.. ها هي ذي غرفة النوم.. ستنامين بثيابك أو بمنامتي التي تركتها لك على الفراش.. هنا الثلاجة وبها بقايا طعام وبعض البيض.. لا تنسي إطفاء الموقد.. الحمام من هنا.. والآن وداعًا.. سأعود صباحًا.. لا تحاولي إغلاق الرتاج لأنه ليس عندي واحد!.. اعتدت منذ بضع سنوات أن أغلق باب الشقة بالمفاتيح من الداخل عند النوم.. وأنا لن أترك لك المفاتيح لأنني لا أثق بك طبعًا!

وتركتها واقفة أمام الحمام.. مبعثرة الشعر.. حافية القدمين.. مشوشة الفكر، وواربت الباب خلفي....

* * *

بالطبع لم أذهب بعيدًا..

لماذا أذهب بعيدًا ما دام جاري (عزت) غير متزوج ومولعًا بالسهر؟.. سرت بتؤدة إلى الشقة المجاورة وقرعت الجرس دون كياسة.. فسمعت عبارات السباب من الداخل.. وأضاء (عزت) مصباح السلم.. ثم فتح الباب ليسألني في حنق:

- ماذا هنالك يا (رفعت)؟.

- إنه ذلك المفتاح اللعين مرة أخرى.. أظن أنني سأبيت عندك الليلة...

- يا لك من مزعج!.. ادخل...

كانت شقته قد تحولت إلى (أتيليه) صريح عامر بالتماثيل في مرحلة الإعداد أو الانتهاء منها.. وبصعوبة وجد لي مكانًا أجلس فيه.. أرجو ألا يسألني عن رأيي في تماثيله، فالحقيقة هي أنني لم أحبها قط، إنه يحاكي الطبيعة أكثر من اللازم.. وأنا لا أحب الفنان (الكاميرا).. من المفترض أن يحدث تطور واسع لرؤية الفنان للواقع منذ عهد (مايكل أنجلو) حتى الآن.. أما أن يقضي هذا الفتى وقته في محاكاة تشريحية محكمة للواقع فأمر لا أستسيغه بحال..

شرع يثرثر عن أعماله الرائعة حتى دنا الفجر.. وأنا أريد أن أنام..

وهكذا جاءت اللحظة التي أغمضت فيها عيني متجاهلًا قواعد اللياقة تمامًا.. كم من الوقت نمت؟.. لا أدري..

لكنني فتحت عيني لأجدني نائمًا فوق أريكة عتيقة في الصالة وفوقي ملاءة ممزقة.. وكانت الشمس تأتي من مكان ما.. وعند رأسي وجدت (عزت) يهز كتفي في كياسة حتى لا يفزعني..

- (عزت).. ماذا حدث؟..

- لا شيء يا (رفعت).. لا تخف.. لكني أعتقد أن أشياء غير عادية تحدث في شقتك الآن!

* * *

٤ - وحين تختفي..

الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المرعبة التي يراها واسعو الخيال..
و (عزت) فنان.. ولأنه فنان فهو حتمًا واسع الخيال.. وإنني لأسائل نفسي عن حقيقة ما رآه....

* * *

جلست أفرك جفني محاولًا أن أصحو.. ووضعت النظارة على أنفي فعادت الموجودات تتحسن.. كجهاز تليفزيون يعمل دون هوائي ثم قمت بتركيب الهوائي له!...
- تقول أشياء غير عادية؟
كان منفعلًا إلى حد غير عادي لكنه يتظاهر بالاتزان.. وقد قال لي وهو يركع على الأرض جواري:
- فتحت بابي منذ ساعتين لأتخلص من القمامة.. وما إن خرجت إلى بسطة السلم حتى خيل لي أن شيئًا غير عادي يحدث.. دققت البصر أكثر فرأيت ضوءًا أحمر يخرج من فرجة الباب السفلى لشقتك.. ضوءًا أحمر يتحرك بإصرار..
واتسعت عيناه ونبتت قطرات عرق على جبينه..
-.. ظننت أنها ظاهرة بصرية ساعد الإرهاق والظلام على إيجادها.. فتجاهلت الأمر، ثم عدت أواصل عملي هنا جوارك بعد ما غطيتك بملاءة.. كان نومك عميقًا كمومياء (أمنمحات).. لهذا تركتك وخرجت للشرفة.. لم يكن الفجر قد أشرق بعد.. لهذا كان غريبًا أن أرى ذات الضوء الأحمر خارجًا من نافذتك المغلقة ما بين خصاص الشيش.. بل وكان يفترش الشرفة قادمًا من فرجة الباب السفلى.. (رفعت).. أنا لا أعرف ما في شقتك لكنه - حتمًا - شيء مضيء كالشمس.. وضوؤه أحمر باهر كستائر مصاصي الدماء.. فما هو؟.
أي كلام بلا معنى يردده هذا المعتوه؟.. ضوء أحمر في شقتي؟.. لا يوجد عندي أي مصدر له..
ثم إنني تذكرت الفتاة.. (براكسا).. ماذا فعلته هذه المخبولة حين تركتها وحيدة؟.. أتراها أشعلت حريقًا أو أشعلت الموقد ونسيته؟.. أم...
- ولماذا لم توقظني عندئذ؟.
- حاولت ولكنك كنت نائمًا مثل...
-.. أعرف.. أعرف.. مثل مومياء (أمنمحات)..
- بل كالدب القطبي في (فبراير).. ثم كانت هناك الضوضاء!
- ضوضاء؟
- كان هناك شيء يصطدم بباب الشقة بإصرار مريب.. ليس بقوة ولكن بإصرار كأنك حبست قطًا هناك..
كان الموضوع قد بلغ حدًا لا يطاق..

وهرعت إلى مفاتيح الشقة فتناولتها لأفتح الباب وأعرف ما هنالك.. كاد (عزت) يلحق بي ليروي فضوله، لكني سددت الطريق أمامه.. قائلًا له أن ينتظر حتى أعود إليه وأن يراقب السلم بعناية..

وبيد ملهوفة زججت بالمفتاح في الكالون.. ودخلت.. لم يكن الظلام دامسًا بالداخل لأن النهار بدأ يتسرب من نافذة المطبخ والحمام.. لهذا لم يكن عسيرًا أن أرى الصالة، ولا أدري لماذا آثرت الصمت..؟..

* * *

"ليست داري هنا.. ولا في أي مكان على وجه الأرض...".

* * *

كانت غرفة النوم مفتوحة.. فدنوت منها في حذر ونظرت عبر الباب.. لم تكن هناك.. كان الفراش مرتبًا كأفضل ما يكون، وقد تم طي منامتي فوق الوسادة بتلك الطريقة المنمقة الأنيقة التي لا تأتي إلا من يد أنثى.. ولم يكن صعبًا أن أستنتج أنها نامت بها من التنيات الواضحة في النسيج ورائحة (الشانيل) التي تفوح منها.. تفقدت الشقة فلم أجد أثرًا لها..

فتحت الثلاجة فوجدت البيض كاملًا والجبن وفخذ الدجاجة في نفس الحال التي تركتهما عليها.. هي - إذن - لم تصب شيئًا من الطعام.. حتى الحمام كان غير مبتل والصابونة جافة تمامًا..

إذن هي صحت مع الفجر فبدلت ثيابها وخرجت في سكون.. دون أن تأكل شيئًا أو حتى تغسل وجهها....

ترى هل استعادت روعها أم أن هذه المغادرة المفاجئة هي نوع آخر من انهيارها العصبي؟.. كان المفترض أن تنتظر عودتي لتوجه لي عبارة شكر.. أو تطلب مني تسهيل خروجها.. أو على الأقل تطلب مني شراء حذاء لها.. غريبة الأطوار هي.. غريبة الأطوار ومجنونة قليلًا..

لكني تساءلت بيني وبين نفسي: ترى هل أراها ثانية؟

* * *

عدت إلى (عزت) واخبرته أن لا مشكلة هنالك..

- ليكن.. والآن يمكنني أن أنام ملء جفوني.. دعني أؤكد لك أنني لا أخرف ولست من النوع الذي يستسلم للرؤية الهستيرية: أقسم لك إنني رأيت هذا الضوء وسمعت تلك الضوضاء..، لكن ما دامت شقتك بخير ولم تحترق بعد فأنا مطمئن.. و....

ثم نظر إلي في شك وقطب حاجبيه وقد تذكر شيئًا:

- لحظة!.. كيف دخلت شقتك وأنت قلت لي أمس إن مفتاحك لا يستجيب...؟!

يا لشرود ذهني!.. صحيح أن الكذب ليست له قدمان.. لكن المزيد من الكذب ليس عسيرًا..

قلت له في سرعة:

- كنت منهكًا وجربت المفتاح الخطأ.. هذا هو كل شيء..

- يا لك من رجل عصبي عجول يا (رفعت)..!.. هذه الأشياء لا تحدث إلا لك.
كم أحبك يا (عزت)..!.. بمرضك العضال وغرابة أطوارك.. من المؤسف أن مواعيدنا متناقضة تمامًا وإلا لصرنا صديقين لا نفترق.. إن الوطواط لا يعيش مع العصفور أبدًا.. الوطواط الذي يسهر الليل كله وينام النهار.. والعصفور الذي ينام الليل بطوله ويسهر النهار إذا صح هذا التعبير.. ثم إنك لا تستقر في دارك.. على الأقل حينما أقرع بابك....
تمنيت له نومًا طيبًا وتركته عائدًا إلى شقتي....

* * *

مضيت أتفقد الشقة باحثًا عن أي أثر للفتاة فلم أجد. كأنها طيف عبر المكان ورحل دون آثار مادية.. حتى أنني بدأت أتساءل عما إذا كنت رأيتها حقًا.. لربما كانت ليلة البارحة وهمًا كلها.. ولربما....
ثم ما هو موضوع تلك الأضواء التي يزعم (عزت) أنه رآها؟.. من الوارد أن يكون مخرفًا.. ولكن ما الصدفة التي تجعله يخرف في هذه الليلة بالذات؟.. إنني مرتاب بطبعي وأؤمن بأنني مصاب بنوع خاص جدًا من النحس يوقعني في شراك كل ما هو غريب.. وغير عادي.. ومرعب... لم أجد جوابًا عن أسئلتي..
وكانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا.. أدرت قرص الهاتف طالبًا سنترال قريتي.. وبعد ربع ساعة من المحاولات الخرقاء أتأني صوت عامل الهاتف يصيح في وقاحة:
- آلوووووه!
- أوصلني برقم (٨) وحياة والدك.. أرجو أن تسرع قبل أن ينقطع الخط.. ومرت ثوان متوترة.. ثم سمعت صوت الحاج (دياب) يسأل عامل السنترال عما هنالك، وتداخلت الأصوات.. إلى أن استطعت أن أخبره أنني (رفعت إسماعيل)، وأنني أريد منه أن يسأل أخي (رضا) عن أية حوادث سيارات عند ترعة (كفور داود)، وأن يتصل بي هو ظهرًا لأن ذلك سيكون أكثر سهولة...
وبمجرد أن أنهيت هذه الحرب، بدأت أستعد للذهاب إلى الجامعة فقد حان ميعاد العمل....

* * *

منهكًا مضعضعًا من جراء ليلة قلقة، بدأت يومي بالمرور على (هن - تشو - كان) في العناية المركزة لأطمئن إلى أنه لم يمت... ثم اتجهت إلى مبنى الأمراض الباطنية العتيق المتداعي.. صاعدًا في درجات السلم إلى الغرفة التي ثبتت عليها لوحة تقول (أ. د. رفعت إسماعيل).. وتحتها لوحة أصغر: (وحدة أمراض الدم)..
الحق أقول لكم إن هذه (الوحدة) لم يكن بها سوى طبيب واحد هو أنا الذي أصررت - بعد عودتي من (اسكتلندا) - على تكوينها، ولم تكن بها أجهزة سوى مجهر سوفيتي الصنع عتيق جدًا.. وبضع شرائح زجاجية وزجاجات صباغة.. وإبرتين من إبر بذل النخاع العظمي..
كنت أعشق الدم.. ليس إلى درجة شربه طبعًا لكن إلى درجة الوله.. خاصة وأمراضه لها مذاق خاص متميز بين علوم الطب.. وأجد فيها الترابط المنطقي والتسلسل الذي تفتقر إليه بقية الفروع..
كنت أحب عملي وأفخر به..

لكني - أعترف - لا أزال أحسب نفسى هاويًا في دنيا الطب.. مجرد طفل يجمع الفراشات الجميلة والغريبة لكنه لا يجرؤ على بيعها..

بهذا المنطق لم أجد الشجاعة قط كي أفتتح عيادة خاصة.. كيف أبيع الناس خبرات أؤمن بأنها لم تكتمل بعد؟.. أي قناع سأرتديه - أنا الطفل المنبهر بكل شيء - أمام المرضى لأقنعهم بأنني العليم بكل شيء؟.. لقد اعترف أحد الأطباء العظام - لعله (ويليام أوسلر) - أنه أخطأ في تشخيص تسعين في المائة من الحالات التي فحصها في حياته.. وقد أدرك هذا فوق منضدة التشريح! فأين أنا من (ويليام أوسلر)؟!

إن امتلاك عيادة شبيه بامتلاك زوجة.. كلاهما يحتاج إلى ثقة مفرطة بالذات.. والإيمان بأنك قد كبرت وصرت خطرًا كالآخرين..

و.... معذرة!.. هأنذا أعود للإطناب بعيدًا عن الموضوع مرة أخرى!.. سامحوني.. فنحن بشر.. وجميعنا لا يقاوم لذة الحديث عن نفسه أبدًا..

أعود للموضوع إذن.....

جلست في مكتبي أتفقد صحف الصباح بنظرة سريعة عجول.. كان هناك خبر عن العثور على جثة المهندس الذي شوهد يسقط في النيل منذ ثلاثة أيام، لم أكن طبعًا أعرف شيئًا عن هذا الموضوع لأنني كنت غارقًا إلى أذني في مشكلة الكاهن الأخير.. والخبر على كل حال يقول إن المهندس (محمود أبو زيد) البالغ من العمر خمسين عامًا قد شوهد واقفًا مع شخص آخر فوق الجسر منذ ثلاثة أيام. رآهما أحد رجال الشرطة في الظلام الدامس (فقد حدث هذا عند منتصف الليل).. ويقول الشرطي إنه شاهد التحامًا بين الرجلين، ثم رآهما يقفزان متلاحمين في الماء.. وهولا يفهم ما إذا كان أحدهما قد أجبر الآخر على الوثب أم أن هذا كان انتحارًا ثنائيًا فريدًا من نوعه.

الخلاصة أن رجال الإنقاذ تمكنوا من انتشال جثة المهندس - وقد تعرفه أهله - لكن ما شد انتباه الجميع كان هو وجهه.. بالطبع لا بد من أن يكون منتفخًا متقلصًا متشمعًا.. كل هذا متوقع برغم بشاعته.. الجديد في الامر - يزعمون - هو أن علامات الشيخوخة كانت قد غزت ملامحه إلى حد لا يوصف.. بل وأن شعره أبيض كالثلج وكان فاحم السواد..

خبر صغير نجحت الصحيفة - كالعادة - في تهويله محاولة جعله قضية الساعة، لكني لم أر أي شيء غريب في شيب الشعر.. فكم من ماركيزات الثورة الفرنسية ابيضت شعورهن عشية موعدهن مع المقصلة.. والساخر الأمريكي العظيم (مارك توين) استحال شعره للون الأبيض وهو يرمق حريقًا على ظهر سفينة في الماء.. والسبب أن أخاه كان على ظهر هذه السفينة المنكودة....!

نعم.. لا أرى شيئًا غريبًا في شيب الشعر المفاجئ.. لكني أرى كل الغرابة في سببه!....

ما الذي رآه هذا الفقيد وأثار رعبه إلى ذلك الحد؟!..

وتنهدت.....

لكم من أسرار يحوي هذا الكائن الغامض الصموت: الليل!.. حتى أنا قابلت بالأمس لغزًا.. وكان هذا اللغز يدعى (براكسا).. جاءت حين جاء الظلام ورحلت حين رحل.. ولم تترك لي أثرًا أقنع به نفسي بأنني لم أكن اخرف....

طويت الصحيفة وأغمضت عيني وتمنيت أن أراها من جديد.. لم أكن أعرف أن أبواب السماء قد انفتحت لأمنيتي.. وللمرة المليون أقول إنني كنت ساذجًا حين تمنيت ذلك.. ففصول القصة لم

تكن قد انتهت بعد..
بالأحرى كانت في بدايتها....

* * *



كان هناك خبر عن العثور على جثة المهندس الذى شوهد يسقط فى النيل منذ ثلاثة أيام ..

٥ - أشتاقها!..

نعم.. الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المفزعة التي يراها واسعو الخيال..
ولكن ما دخلي أنا بكل هذا؟!..

* * *

"أرجوك لا داعي لرفع الكلفة.. إن لي أسبابي الخاصة التي أرجو إعفائي من ذكرها..".

* * *

"تؤ!".

* * *

"(رفعت).. أنا لا أعرف ما في شقتك لكنه - حتمًا - شيء مضيء كالشمس.. أحمر باهر كستائر مصاصي الدماء.. فما هو؟!".

* * *

"تؤ!".

* * *

لا أدري لماذا ظلت صورتها وهي مرجعة رأسها للوراء وتطلق الدخان من بين شفتيها المنفرجتين قليلًا، لماذا ظلت هذه الصورة تؤرقني طيلة اليوم..؟.. بل - ولا تضحك أرجوك - ضبطت نفسي وأنا أحاول أن أقلدها في التدخين بذات الطريقة!..
وسألني زميل عما إذا كنت كتبت تقريرًا عن حالة (التصلب النخاعي) التي فحصناها منذ أسبوع.. فقلت:
- تؤ!
الواقع أن الفتاة كان لها تأثير هائل في روحي..
يقول من ذاقوا النبيذ - حفظنا الله من أذاه - إن له طعمًا مرًا كريهًا تأباه النفس في المرة الأولى.. ثم لا تلبث أن تتعوده فتحبه فتحتاج إليه.. ومن ثم يأتي الإدمان..
و (براكسا) كان لها مذاق كريه منفر بالنسبة لي في اللقاء الأول.. لكني اليوم لا أجده كريهًا إلى هذا الحد..
فهل - إذا جن الليل - أجدني أحتاج إليها؟.. فأدمنها؟

* * *

حين عدت لشقتي ظهرًا شعرت - للمرة الأولى - بمدى الخواء الذي أحيا فيه وبه وله...

لقد وجد الآخرون هدفًا لحيواتهم.. فمنهم من قرر أن يمضي هذه الساعات يجمع المال في عيادته، ومنهم من عاد إلى داره ليتشاجر مع امرأته ويسومها الخسف، ومنهم من وثب إلى أقرب حافلة أو عربة (مترو) لينشل ما تيسر له من محافظ الركاب..

واحد فقط يحيا بلا هدف..

واحد فقط يصارع الملل واللا جدوى..

وهذا الواحد يدعى (رفعت إسماعيل).....

وهنا دق جرس الهاتف فهرعت أرد عليه قبل أن يقتلع أعصابي من جذورها.. تبًا لهذا الاختراع الشنيع!

- (رفعت)!.. هذا أنت؟.. أنا (رضا)...

- (رضا) من؟

- سبحان الله!.. أخوك طبعًا..

آه!.. كنت قد نسيت الأمر برمته.. فلنر ما سيقوله لي عن الحادث الذي - ولابد - تعرف (فاقوس) كلها بأمره الآن:

- لا أدري ما يعنيك في الأمر؟.. على كل حال لقد حضرت النيابة وانتشلوا الجثة..

- أية جثة؟

- جثة سائق السيارة طبعًا!

جلست على أريكة، وبيد واحدة اخرجت علبة تبغي وسحبت منها لفافة.. وتساءلت:

- لحظة يا (رضا)... هل أنت واثق من كلامك؟.. الحادث عند ترعة (كفور داود).. جوار المقابر.. سيارة (أوبل) قديمة...

-.. ونصفها مغمور تحت الماء.. لا توجد حادثتان من نفس النوع.. والسائق لم يجرح لكنه غرق لأنه لم يستطع تحرير نفسه والسباحة للشاطئ.. لا أدري ماذا يهمك في كل هذا؟..

- فضول يا (رضا).. فضول.. رأيت مسرح الحادث في أثناء عودتي من القرية أمس.....

- مستحيل يا (رفعت).. هذا غير معقـ.... وررررر!

حمدًا الله!..

انقطع الخط فأراحني من أسئلته الفضولية حول ما يهمني في هذا الموضوع.. أريد أن أخلو بنفسي لأحسن التفكير..

ماذا يعنيه كل هذا؟..

أولًا: يعني أن ما رأيته أمس كان حقيقيًا.. لا هلاوس في الموضوع ولا رؤى.. وهذه هي القاعدة التي سأبني فوقها استنتاجاتي..

ثانيًا: لقد كذبت (براكسا) علي حين قالت إنها وحيدة وإنها كانت تقود السيارة.. جثة الرجل التي وجدوها خلف المقود تؤكد كذبها...

وهذ يقودنا إلى سؤال فرعي لكنه هام جدًا:

لماذا تكذب الفتاة؟

الاحتمال الأول: تكذب لأنها مصدومة عصبيًا ولا تعرف حقيقية ما تقول.. أميل إلى استبعاد هذا الاحتمال لأنه لم يحدث في أية كارثة سمعت عنها.. المفترض أن تخرج الفتاة من الماء مولولة كي ننقذ خطيبها أو زوجها أو أخاها، ومهما كانت درجة انهيارها العصبي فهي تتماسك حتى تبلغ رسالتها..

الاحتمال الثاني: تكذب لأنها لا تريد أن تسيء إلى سمعتها حين يعرف الناس أن رجلًا كان معها.. أميل - أيضًا - إلى استبعاد هذا الاحتمال.. فـ (براكسا) من بيئة متحررة نوعًا.. وطريق (كفر بدر - فاقوس) ليس طريقًا شاعريًا يلتقي فيه العشاق خلسة، دعك من أن الأمر يحتاج إلى برود أعصاب غير بشري كي تحافظ فتاة على سمعتها مضحية بحياة إنسان ربما أمكن إنقاذه.. لا أصدق أن في الكون أنانية شريرة إلى هذا الحد..

الاحتمال الثالث: تكذب لأنها حقًا أرادت الخلاص من هذا الرجل، وقدم لها الحادث فرصة ذهبية.. ربما كان هذا الرجل شريرًا يهددها أو مبتزًا يطاردها أو زوجًا تريد الخلاص منه.. وفي جميع الأحوال كانت تصبو إلى هلاكه.. وهذا هو ما حدث بالفعل...

الاحتمال الرابع: تكذب لأنها قتلته. وهو شبيه بالاحتمال الثالث إلى حد ما.. يمكنها أن تخدره وتدير محرك السيارة تاركة إياها تنحدر إلى الماء والرجل خلف عجلة قيادتها.. ثم تتشبث بحافة الترعة زاعمة لي أنها هي الناجية من الحادث.. و..!..

كلها احتمالات سخيفة هشة.....

فأمرها كان سيفتضح عاجلًا أو آجلًا، وهي فتاة ذكية وتعرف ذلك جيدًا.. وكيف تأكدت من أنني لن أقودها إلى أقرب قسم شرطة؟..

إن رأسي يكاد ينفجر....

مئات الأسئلة لا يملك الجواب عنها سوى (براكسا) ذاتها... دخلت إلى الحمام لأغسل وجهي بالماء البارد، ثم فتحت الصيدلية الصغيرة المعلقة جوار المرأة لأخذ قرص (أسبرين).. وهنا لاحظت شيئًا غريبًا....

كانت زجاجة (الميركيروكروم) مفتوحة وقد تبخر أكثرها تاركًا جزءًا أكثر تركيزًا من الصبغة.. هذا هو الأثر الوحيد الذي تركته لي، أما الأثر الثاني فكان أمبولًا محطمًا... الأمبول الزجاجي المعقم الذي يعبئون فيه خيط الحرير المستخدم في خياطة الجروح.. كنت أحتفظ دائمًا بواحد تحسبًا للطوارئ إذا ما شج الأستاذ (زكريا) رأسي أو شججت رأسه..

والآن أرى الأمبول محطمًا وفارغًا.. وجواره الإبرة الجراحية المعقوفة إياها ملقاة في إهمال بين فكي ماسك الإبرة.. تأملت وجهي في المرآة فرأيت علامات الذعر مرتسمة عليه.. أي نوع من الفتيات هذه؟..!..

أنا واثق من أن لهذا معنى واحدًا.. لقد كانت مجروحة في مكان ما.. ولم تخبرني.. وفتشت الشقة بعناية حتى وجدت الخيط والإبرة.. وقامت بخياطة جرحها بنفسها أمام المرأة ودون تخدير!!

إن هذا يبدو مستحيلًا.. لا يوجد مخلوق عنده قوة التحمل الكافية للقيام بذلك.. دعك من أن الفتاة لا تملك أية خبرة طبية كما هو واضح.. ليس الأمر سهلًا إلى هذا الحد..

ثم.. أين عساها جرحت؟.. أنا لم أر دمًا في أي مكان.. ولم تتألم أو تتأوه...

لكن - إذا استبعدنا هذا - ما الذي يمكن ان يفعله إنسان بخيط جراحي وإبر وماسك إبر غير خياطة الجروح؟!..

عدت من الحمام مثقلًا بالهواجس.. فارتميت بثيابي على الفراش بعد أن فتحت باب الشرفة لأظفر ببعض أنسام الهواء.. رائحة (الشانيل) مازالت لاصقة بالفراش تشي بمن نامت فيه ليلة أمس..

يجب أن.... يجب أن ماذا؟.. لقد نسيت.. إن أفكاري مختلطة تمامًا.. من الواضح أن إنهاك الأمس قد.....

* * *

وحين صحوت....

كان ضوء القمر يغمر الفراش..

وأدركت - في رعب - أنني نمت أربع ساعات متواصلة بلا أحلام.. لقد كنت راقدًا أفكر ثم - فجأة - لم أعد هنالك..

تثاءبت ونهضت متثاقلًا إلى الصالة المظلمة باحثًا عن مفتاح النور عالمًا أن هذه الغفوة سأدفع ثمنها أرقًا حتى الصباح..

وهنا دق جرس الباب فأجفلت.... ذهبت لأفتحه في توجس..

وفي ضوء السلم الخافت رأيت (براكسا).....!

* * *

٦ - لكنها عادت..

دعوني أؤكد لكم أن الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المريعة التي يراها واسعو الخيال.. لكن سعة الخيال شيء مذموم عندما تأتي (براكسا) إلى دارك ليلًا..

* * *

"تؤ!".

* * *

- (براكسا)!.. ماذا عاد بك إلى هنا؟
- يا له من استقبال حار!..

أشرت لها في صمت كي تدخل.. آمل ألا يكون أحد قد رآها صاعدة إلى شقتي هذه المرة أيضًا، لكني لم أجد لدي الجرأة الكافية كي أطردها من على الباب..

خطت إلى الداخل في تؤدة خطوات استكشافية منهكة، وكان صوت كعبي حذائها يدويان في الصمت هذه المرة.. ترتدي هي الآن ثوبًا أبيض ويحيط بخصرها حزام أسود عريض.. وللمرة الثانية أدرك أنها فاتنة.. فاتنة إلى حد لا يصدق..

أغلقت باب الشقة وأشرت إلى الأريكة كي تجلس عليها.. لحسن الحظ أنني لا أزال مرتديًا ثيابي.. شعور عجيب أن ترى امرأة في هذه الشقة التي اتخذت طابعًا ذكوريًا لا يتغير..



أغلقتْ باب الشقة وأشرتْ إلى الأريكة كي تجلس عليها ..

أشعلت لفافة تبغ وجلست أمامها أنتظر رد فعلها الأول..
- لا تبدو سعيدًا برؤيتي..
- أولًا: أنت تعرفين الظروف عندي.. ثانيًا: أنت رحلت في الصباح دون تعليق ولا كلمة وداع ولا تفسير.. وهذا تصرف غير مبرر.. وغير مهذب إذا سمحت لي بالتعبير.. ثالثًا: إن أسئلة عديدة تزدحم على لساني فلا تدع لي الفرصة لأتظاهر بالسعادة.
انحنت إلى الأمام لتجذب لفافة تبغ من علبتي.. ودون أن تنتظر رد فعلي أشعلتها.. وعادت تسترخي على الأريكة واضعة ساقًا على ساق:
- ففف!.. لنبدأ بالجزء الثالث من خواطرك.. أية أسئلة تفكر فيها؟
- السؤال الأول هو لماذا رحلت دون ضوضاء صباحًا؟
- لأنني كنت أريد الانصراف قبل أن يصحو الناس، وكنت أنت غير موجود فلا يمكنني أن أخبرك..
- ثانيًا: لماذا لم تغسلي وجهك أو تأكلي؟.. وكيف خرجت حافية القدمين إلى الشارع؟.
- لم آكل لأنني لم أرغب في ذلك.. غسلت وجهي بالماء واكتفيت.. أما عن الخروج حافية القدمين....
ومدت يدها إلى حقيبة يدها الصغيرة مخرجة شيئًا لفته في ورقة جريدة.. وناولته لي مستطردة:
-.. فقد استعرت خفك من تحت الفراش، وهأنذا أعيده لك شاكرة..
آه... أنا لم استعمل خفي قط فلم ألحظ اختفاءه.. نظرت في عيني نظرة متحدية لاشك فيها.. وتساءلت:
- أية أسئلة أخرى؟
- نعم.. لماذا عدتِ؟
- طبعًا لأعيد لك الخف.. وهذه..
ووضعت على المائدة الصغيرة أمامها ورقة من ذات الخمسة جنيهات، وأضافت باسمة:
- كنت بحاجة إلى المال.. ووجدت هذه في درج الكومودينو.. قلت لنفسي إنك لن تمانع إذا ما اقترضتها..
- وماذا فعلت طيلة النهار..؟
هزت رأسها في لا مبالاة.. وغمغمت وهي تطفي لفافة تبغها:
- مرة أخرى تعود للفضول غير الحميد.. كنت أعيش حياتي الخاصة وكفى.. هل انتهت أسئلتك؟
- لا.. ليس بعد...
ونهضت إلى المطبخ فعدت بزجاجة مياه غازية.. وشرعت أعد قدحًا من القهوة المركزة لي.. ثم عدت لها وصببت لها السائل الفائر في كأس كبيرة.. وجلست أمامها أرشف القهوة..
كانت الحادية عشرة مساء.. وإضاءة الشقة الخافتة تضفي على المكان كله تأثيرًا شبيهًا بالأحلام.. ومن الغريب أنني - حتى هذه اللحظة - لم أكن قادرًا على تذكر وجه الفتاة..، فقط حين ألقاها أعرف أنها هي.. أما حين أبتعد عنها يصير تذكر وجهها مستحيلًا.. وكلما حاولت ذلك استعدت وجه إحدى قريباتي..

إن وجه (براكسا) لشبيه بالبحر.. لديك فكرة عامة عنه لكنك غير قادر على وصف كل موجة فيه مهما حاولت....

قلت لها وأنا أمد ساقي:

- هل أبلغت الشرطة أو أهلك؟.. ماذا تم بخصوص السيارة؟

- هذا ليس شأنك.. ولا تعتبر ردى هذا إهانة...

- لا أعرف حقًا أي شيء تخفين..

- إن غموض المرأة هو سرها المقدس..

بعد دقائق من التفكير قررت أن أسألها في حذر (إنه الدافع الخفي الذي يحرك تصرفاتي كثيرًا):

- هل أنت واثقة من أنك لم تجرحي في الحادث؟

- تؤ!..

- ولم تحتاجي لخياطة جروحك بالتأكيد؟

جرعت جرعة من زجاجة المياه الغازية.. ثم توقفت وتساءلت في شك:

- لا أدري ما ترمي إليه.. ولكن.. آه... أنت تتحدث عن الخيط الأسود الذي كان في صيدلية الحمام؟.. لقد كان ثوبي ممزقًا واحتجت إلى أن أخيطه فلم أجد لديك أية خامات تطريز.. اضطررت إلى استعمال هذا الخيط السميك.. وكانت معه إبرة معقوفة غريبة الشكل لكنها صالحة...

- وخطت الثوب بماسك الإبرة؟!

- من الصعب إمساك هذه الإبرة بالأصابع.. قل لي: أظن أنها إبرة تستخدم في الجراحات.. أليس كذلك؟

ولم أرد...

إنها تكذب.. أنا واثق من أنها تكذب.. ولكن لماذا؟... ولأي غرض؟.. برغم أنها صارت أكثر مرونة وأقل تعجرفًا إلا أن ارتياحي لها قد قل كثيرًا.. ثمة شيء لا يريح في كل هذا.. وإنني لأسائل نفسي عن الحقيقة.. لن أصارحها بما قاله لي (رضا) ظهر اليوم.. أو سأؤجل ذلك بعض الوقت..

كل ما ستقدمه لي هو أكذوبة جديدة.. وأنا سئمت الأكاذيب.. بعد هنيهة قالت (براكسا) وهي تضع الزجاجة:

- حدثني عن نفسك أكثر.. ولتنس قليلًا دور المحقق البوليسي..

- ماذا تريدين معرفته؟.. أنا (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم بكلية طب (...).. في الأربعينيات من العمر.. غير متزوج.. مدخن من النوع الثقيل.. هل يوجد ما يقال أكثر؟

وشرعت تستجوبني عن حياتي ونفسي استجوابًا ناعمًا رقيقًا، فأجبتها بدقة وصراحة عن كل ما أرادت.. ولم أمنع نفسي من استشعار لذة خفية في أن هناك من يعبأ بي إلى هذا الحد المروع..

- ألن تنصرفي؟!

- بلى.. ولكن أمهلني بعض الوقت..

- هو منتصف الليل.. أي أن....

- أنت أذكى - أو المفترض أنك أذكى - من أن تخضع نفسك لقوانين استنها المجتمع للرجل التقليدي.. أنا لا أرتكب خطأ وأنت لا ترتكب خطأ.. الخطأ إذن هو في ذهن أولئك الذين يملئون الطرقات ولا يضيفون شيئًا للحياة سوى مزيد من سوء الظن..

تبًا لهاته الفتيات الوجوديات المثقفات!.. لا تكاد تقول الواحدة منهن (صباح الخير) حتى تصدع رأسك بوجوب التمرد على النمطية وأهمية أن نكون نحن لا هم.. إلى آخر هذا الملل...

ثم إنها بدأت تحدثني عن نفسها وكان حديثها عذبًا محببًا للنفس والأذن.. قالت إنها تدرس الأدب الإنجليزي في كلية آداب (...)، وإن أباها - رحمه الله - طبيب أسنان سافر إلى (اليونان) أغلب سني عمره حيث قابل أمها وتزوجا.. وقالت إنها اعتادت المجيء إلى (كفور داود) لتزور قبر أبيها كلما عادت ذكراه السنوية.. لكنها لم تخبرني بعنوانها قط.. ولم تفسر لي غرابة أطوارها الواضحة..

كانت الجلسة قد طالت.. وكنت مستمتعًا كقط يقعي جوار مدفأة.. حديثها العذب، وشبح الوحدة الذي بدأ يتأفف ويغادر عالمي.. والإضاءة الخافتة التي جعلت من كل هذا حلمًا جميلًا.. لكنه حلم لابد وأن ينتهي.. ليس منطقيًا أن تظل حتى الواحدة صباحًا في شقتي - أنا الأعزب الشقي - بدعوى الصداقة أو التحرر الفكري..

وهنا.. قامت بآخر شيء توقعته..

انتهزت إحدى لحظات الصمت وطوحت بحذاءيها جانبًا.. ثم ثنت قدميها تحتها وتكورت - كقطة صغيرة - على نفسها، وكفت عن الكلام..

- آنسة (براكسا)!.. حان وقت الرحيل..

-.....!

- اسمعيني.. لا مجال للمزاح هنا....

-.....!

دنوت منها وهززت كتفها بحذر.. كانت غافية حقيقة لا تصنعًا.. لابد وأنها بعد منهكة من أثر ليلة البارحة وإلا لما نامت بهذه البساطة، هززتها بمزيد من الشدة فأصدرت صوتًا متململًا وعقدت يديها على صدرها.. وغيرت وضعها إلى وضع أكثر استرخاء على الأريكة!...

عليك اللعنة!.. يا له من موقف..!.. كيف أنجح في ايقاظك إذن؟.. إن صب الماء البارد فوق رأسك فكرة لا بأس بها لكني لست فظًا إلى هذا الحد خاصة مع النساء.. ليس أمامي سوى تركك ودخول غرفة نومي.. ولكن لا.. إن فلاح (الشرقية) المتحفظ الراقد في أعماق روحي لا يستطيع ذلك.. لا يستطيع سوى أن.....

وهكذا دققت جرس (عزت) في إصرار للمرة الثانية!..

سمعت صوت سبابه وهو قادم من الداخل.. فما إن فتح الباب ورآني حتى تقلص وجهه ذهولًا:

- (رفعت)!.. هل جننت؟.. ثاني ليلة تدق فيها بابي بعد منتصف الليل!.. لابد وأن هذه مزحة ثقيلة منك..!

- دعني أدخل يا (عزت) أولًا ثم نتكلم..

قلتها وأنا أدخل شقته.. هذه المرة كنت أحمل منامتي وفرشاة أسناني ومشط شعري.. بل ومطفأة سجائري..

- إذن أنت تنوي المبيت عندي؟

- هذا واضح!

صاح في حنق وهو يجذب ذراعي لأنظر في وجهه:

- لقد حان الوقت لتفسر لي: لماذا تهرب من شقتك؟!

- سأحكي لك كل شيء...

وحكيت له القصة كاملة هذه المرة....

* * *



جلست في الصالة شارد الذهن أتأمل (براكسا) حيث رقدت على الأريكة وقد عقدت يديها على صدرها وثنت ساقيها تحت جذعها

قال (عزت) بعد أن فرعت من الكلام:

- هذه الأشياء لا تحدث إلا لك يا أخ (رفعت).. ولو أردت رأيي فأنا أعتقد أن الفتاة مخبولة تمامًا.. وليس من الحكمة أن تتركها في دارك وحدها لتفعل ما تريد.....

- والحل في رأيك؟

- أن تطردها حالًا..

- لا يطاوعني قلبي على ذلك.. إنني (جنتلمان) كما تعلم..

- إذن أفعل هذا عنك.. اسمع.. سندخل معًا إلى شقتك وأوقظها أنا.. قل لها إنني شريكك في المسكن وإنني غاضب وإنني أسأت الفهم.. وسأوجه أنا لها عبارات سمجة تجعلها تنصرف حانقة..

- وأين تذهب هي في ساعة كهذه؟

- هي مشكلتها.. ما كان يجب أن تظل عندك كل هذا الوقت...

لم أدر حقًا ما أقول.. كلامه منطقي.. وهذا الذي يجري خطأ وينبغي أن ينتهي.. ثم إنني لن أطرد من شقتي كل ليلة.. ينبغي قطع قدمي هذه الفتاة اذا صح التعبير..

خرجت معه من شقته مبلبل الفكر قاصدين شقتي عبر الردهة المظلمة أعلى الدرج.. ومددت يدي لجيبي أخرج المفاتيح..

وهنا سمعته يمسك بيدي بعصبية حتى كاد يهشمها.. كان يريد أن أرى شيئًا أثار انتباهه.. وسمعته يقول:

- هوذا.. لست مجنونًا والحمد لله!

نظرت إلى حيث أشار.. وتصلبت....

ما سر هذا الضوء الأحمر الخارج من أسفل بابي؟!....

* * *

٧- وعاد الرعب..

كنت أقول إذن إن الليالي المقمرة عالم رائع.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المرعبة التي يراها واسعو الخيال..
لكن الشيء الذي يراه اثنان يندر أن يكون خيالًا..

* * *

مددت يدي بالمفتاح إلى قفل الباب، وجاهدت كي لا ترتجف أصابعي من فرط انفعالي.. وخلفي جرى (عزت) لاحقًا بي.. ولم نتبادل كلمة لكننا عرفنا - في ذات اللحظة - أننا سنرى شيئًا مروعًا..
انفتح الباب ببطء شديد.. شديد.....
ومططنا عنقينا - كالسلحفاة - لنرى بحذر ما هنالك..

* * *

لم يكن هناك شيء...
بالحق لم يكن هناك شيء..
اختفى الضوء الأحمر بمجرد أن لامس مفتاحي قفل الباب، وكأنني فتحت دائرة كهربية ما..
وأنرت ضوء الصالة فلم أر سوى الفتاة نائمة على الأريكة كالملائكة وكما تركتها منذ دقائق..
ما معنى هذا؟..
نظرت إلى (عزت) ونظر هو لي نظرة خاوية معناها عدم الفهم لشيء..

* * *

"مرة أخرى تعود للفضول غير الحميد.. كنت أعيش وكفى..".

* * *

نظر (عزت) إلى الفتاة النائمة في ضوء الصالة الخافت..
- هل هذه هي؟.. إنها جميلة حقًا..
- لكنك لست الأمير الذي تنتظره هي كي تفيق..
أشار لي من طرف خفي كي أمضى معه إلى المطبخ..
وهناك أضاء النور النيون الخافت.. وذهب إلى الحوض فغسل وجهه بشيء من الماء.. ثم شرب جرعة في كفه.. وقال هامسًا:
- ما رأيك؟.

- لا رأي لي..
- أنت رأيت الضوء الأحمر مثلي.. لم تكن هلوسة جماعية.. إن هذه الفتاة تخفي سرًا يعلمه الله وحده.. أو هي تداعبنا مداعبة عملية قاسية..
أشعلت لفافة تبغ واستندت إلى الموقد مفكرًا..
- والحل؟
- اقترح ألا تغادر الشقة.. بت ليلتك هنا لتعرف ما يحدث بالضبط.. وسأكون أنا في شقتي بانتظار ندائك لي.. إلا إذا أردت أن أبيت أنا الآخر معك..
قالها وفتح علبة أحفظ فيها الملح، ومضى يزدرد بعض الحبيبات البيضاء التي وضعها في كفه.. أرجو ألا ينسى القارئ المرض المزمن الذي يعانيه (عزت) ويجعله يشتهي (الصوديوم) باستمرار.. لابد أن ضغطه بدأ ينخفض بعد الانفعالات الأخيرة..
وقلت وأنا أدفن لفافة التبغ في الحوض محدثًا ذلك الصوت الفائر القصير:
- عُد أنت إلى شقتك ولا تقلق.. سأبيت في حجرتي..
هز رأسه وتمنى لي ليلة طيبة ثم غادر الصالة، ملقيًا نظرة أخيرة على الجسد المسترخي هناك.. ثم فتح باب
الشقة وخرج..

* * *

"تؤ!".

* * *

جلست في الصالة شارد الذهن أتأمل (براكسا) حيث رقدت على الأريكة وقد عقدت يديها على صدرها وثنت ساقيها تحت جذعها والتوى عنقها إلى اليسار.. الإضاءة خافتة شاحبة كإضاءة قطارات الدرجة الثالثة (إذا احتفظ أحدها بأضوائه) بسبب المصباح البائس المتخاذل الذي أضيئه ليلًا لأعرف مكان الحمام....
إنها أول فرصة تتاح لي كي أتأمل ملامحها بعناية ودقة دون أن أصطدم بعينيها المقتحمتين....
دنوت منها ببطء راكعًا على ركبتي ودققت النظر أكثر.. كان أنفها الأقني ينحدر من جبين مفعم بالكبرياء إلى شفة عليا رقيقة يعلوها ذلك الأخدود الذي يسميه علم التشريح (النثرة).. وكانت تجعيدتان قاسيتان تحيطان بالفم من الجانبين توحيان بأنها اعتادت التحدي وإشعار الآخرين بسماجتهم....
وفي أذنيها كان قرطان من اللؤلؤ - لابد أنه حقيقي - يتدليان في إهمال نحو عنقها و.....
إنني الآن أرى عنقها بوضوح تام وقد انزاح عنه ستار شعرها الأسود الفاحم..
ما هذا الذي أراه؟!..
إن هذا الجرح.. جرح غليظ بشع المنظر يمتد بطول عنقها من زاوية الفك حتى الترقوة....
جرح مزق الأنسجة على جانبيه شر ممزق.. جرح عميق كما هو واضح.. بل - وأنا واثق من هذا - مزق الشريان السباتي والوريد الودجي.. وهما الوعاءان الأساسيان في العنق المسئولان عن

الذبح..!
كيف استطاعت هذه الفتاة أن تعيش بجرح كهذا؟...
إذن فحادث العربة لم يكن دون إصابات...
ولكن كيف لم تمت؟.. بل - على الأقل - كيف لم تنزف؟!...
أما أسوأ ما في الأمر فهو الخيوط السوداء التي تحيط بحافة الجرح في محاولة بدائية لغلقه!.. محاولة لتقليل بشاعته وحجمه لا لغلقه إذا أردنا الدقة....
هذه الخيوط مألوفة لدي.. خيوط مأخوذة من صيدلية داري.. واستخدمت بيد غير خبيرة لخياطة هذا الجرح الذي لم أر مثله في عنق مخلوق حي....!....
إذن كانت الفتاة كاذبة..
هي التي أخذت الخيط ووقفت أمام مرآة الحمام تحاول استعماله على نفسها، عالمة أن انسدال شعرها لن يبقي السر خافيًا لفترة طويلة!!..
من هي هذه الفتاة؟.. ومن أين جاءت حقًا؟!..
وهنا رفعت عيني إلى وجهها..
فوجدت عينيها مفتوحتين تحملقان في وجهي....!

* * *

إن أشد ما يثير رعبي لهو الجهل بالخطر.. وفي كل قصصي أردد عبارتي الخالدة: (لم أكن أعرف ذلك.. لأني كنت ساذجًا.. ساذجًا).. تخيلوا لحظة دخول (ذات الرداء الأحمر) لجدتها التي لا تعرف أنها ذئب متنكر.. كلنا نعرف ذلك لكنها لا تعرف، ونكاد نصرخ: اهربي.. اهربي! لكنها – بالطبع - لا تسمعنا..
(جوناثان هاركر) يزور قصر (دراكيولا) وهو الوحيد الذي لا يعرف من هو (دراكيولا).. رائحة الكبريت انبعثت من (كاترين) في القبو المظلم لكني لم أربط بين ذلك وبين مصاصي الدماء..
وفجأة تلتمع الحقيقة كضوء شهاب...
ويدرك بطل القصة - بعد فوات الأوان - أنه في مأزق حقيقي..
عندئذ تولد ذروة القصة..
(من الكتيب العاشر - حلقة الرعب)

* * *

- د. (رفعت)!.. هل تريد شيئًا؟
سألتني بصوت ناعس لم يعد بعد من عالم الأحلام.. وقبل أن أرد عليها ابتلعت ريقها بصوت مسموع مرتين.. ثم توسدت ذراعها على مسند الأريكة وواصلت النوم....
- لا.. لا شيء يا (براكسا).. واصلي.. واصلي نومك..
قلتها للاأحد في الواقع.. قلتها لنفسي...

وبدأت أتراجع - على ركبتي - إلى أن عدت إلى موضعي الأول.. ورفعت جسدي بصعوبة إلى الأريكة وأشعلت لفافة تبغ.. ومضيت أتأمل ألسنة الدخان الأبيض وأقيم موقفي عليه..

بصعوبة أقاوم رغبتي الجامحة في أن أصرخ وأفر من الشقة.. إن هذا لا يليق بي.. إنني منطقي رزين وسأظل كذلك.. وتأملت الفتاة في اهتمام مذعور..

لا تبدو لي مريعة إلى هذا الحد.. مجرد فتاة حسناء أخرى غافية كمومياء (أمنمحات) أو دب قطبي في (فبراير) كما يقول (عزت).. لكن الحقائق تقول إنها شيء آخر.. شيء لا أفهم كنهه.. في الصباح سأطلب منها ألا تعود أبدًا..

فأنا لا أرغب في إيقاظها حاليًا.. بل ولا أجرؤ حتى على لمسها.. نعم.. سأكون حازمًا للمرة الأولى في حياتي.. ولكن في الصباح..

* * *

قررت أن أمضى بقية الليلة عند (عزت)... يجب على هذا البائس أن يتحملني.. فأن تكون جارًا لـ (رفعت إسماعيل) معناه أن تتحمل كارثة كل صباح ومصيبة كل مساء.. وأن تتعلم ألا تشكو...

هذا ذنبه لا ذنبي إذن.....

وأنا لن أبيت مرة أخرى مع هذا الشيء مهما حدث.. نهضت لأنصرف حين لفتت نظري المرأة المعلقة في ركن الصالة.. (كلا!.. لن أقول لكم إن صورة الفتاة لم تنعكس فيها فلا تتوقعوا ذلك!.. لقد ابتعدنا كثيرًا عن د. (كامنجز) ومومياء مصاصي الدماء.. ولن يخلو التكرار من الاملال لو عدت لذات النغمة).. إن ما خطر لي حين رأيت المرأة هو فكرة....

هذه المرأة - إذا ما وقفت عند النافذة - تظهر منظورًا عامًا للصالة بكل تفاصيلها.. فلو أننا فتحنا النافذة.. وثبتنا على خصاصها مرآة صغيرة باستعمال دبابيس الضغط، ثم غيرنا وضع شيش النافذة ليتوازى مع مرآة الصالة....

عندئذ يكون من الممكن لمن يقف عند (عزت) في الشرفة أن يرى مرآة النافذة وقد عكست صورة واضحة لمرآة الصالة، وهذه الأخيرة تريني كل ما يحدث في الصالة عندي.. هل تفهم هذه التقنية؟..

إنها تشبه إلى حد ما أسلوب منظار الغواصة (البيروسكوب) الذي يكشف لها كل ما يدور فوق سطح الماء بينما الغواصة في الأعماق..

وفي سرعة أحضرت مرآة الحلاقة وثبتها على خصاص الشيش.. وفتحت الشيش إلى الوضع المطلوب.. وزيادة في الحرص ربطته بخيط رميت طرفه في شرفة (عزت) ليسهل على التحكم في زاويته من هناك.....

ثم زدت إضاءة الصالة لتكون الرؤية أفضل...

لم تكن الفتاة قد حركت ساكنًا....

لهذا سرت في خفة إلى باب الشقة وأغلقته خلفي....

* * *

٨- لكنها بريئة..

تعرفون أن الليالي المقمرة عالم رائع.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المخيفة التي يراها واسعو الخيال....
ولقد كانت الليلة مقمرة.. وخيالي متسع كالمحيط.. لهذا لم أكن قادرًا على التغاضي عن شيء...

* * *

في هذه المرة لم يشد (عزت) شعره.. بل فتح لي الباب في استسلام أثار شفقتي..
- لم تستطع أن تحتمل.. هه؟
- بالفعل..
ولم أصارحه باكتشافي الصغير حول عنق الفتاة.. لا جدوى من الشرح فهو لن يفهم شيئًا على كل حال..
إلا أنني تركته واتجهت إلى الشرفة، فعالجت المزلاج لأفتحه ودخلت وهو خلفي غير فاهم لشيء.. وجذبت الخيط المثبت في شيش نافذتي حتى استطعت أن أرى في المرآة صورة لا بأس بها لصالة شقتي، وكومة بيضاء مبهمة على الأريكة هي الفتاة....
سألني في غباء هارشًا رأسه:
- ماذا تفعل بالضبط؟.. لم أتصور أنك مراهق إلى هذا الحد برغم صلع رأسك..!.. تريد اختلاس النظر إلى الفتاة بهذا الأسلوب المعقد؟!
- إن اسمي هو (رفعت إسماعيل) لا (توم البصاص) كما يقول الإنجليز.. وغرضي علمي تمامًا..
ووضعت يدي على كتفه شارحًا:
- هذا تقليد بدائي لدوائر التليفزيون المغلقة.. هكذا يمكننا أن نرى كل ما يحدث في الشقة بينما نحن هنا آمنان.. وعندما ينبعث الضوء الأحمر مرة أخرى سيكون عندنا التفسير بدلًا من أن نركض إلى الشقة فلا نجده..
- فهمت..!..
وأحضر مقعدين إلى الشرفة المظلمة إلا من ضوء القمر.. أنسام الليل الرحيمة تداعب وجهينا في رفق.. المباني المجاورة مدثرة بالظلام والصمت كأشباح تنتظر رد فعلنا....
- أعتقد أن الأمر يحتاج لكوبي شاي.. ولكن....
قالها وضم إصبعيه الإبهام والسبابة علامة الاستحسان.. وأردف:
- ليكن شايًا حقيقيًا...!
نهضت معه إلى المطبخ لأشرب.. على حين تناول برادًا قديمًا متسخًا وقلبه ليفرغه.. كاد يغشى علي حين رأيت صرصورًا أسود فاخر الشكل يثب من البراد محركًا شاربيه في جشع!، لكن (عزت) أطلق سبة وواصل ملء البراد من صنبور المياه....!

لا يزال واحدًا من سادة (العك) وقادته كما عرفته دائمًا.. وحين انتهى الشاي المريع صبه في كوبين ملوثين بالشحوم، ودعاني كي أعود إلى الشرفة لنتجرع هذا الشيء الكريه ونواصل المراقبة..

وعدنا إلى مقاعدنا.. وشرع يثرثر عن تماثيله ومستقبل أعماله، وعن مراسلاته مع (كندا) التي طلبت عرض بعض تماثيله هناك.. لابد أن الكنديين قد جنوا أو عندهم أزمة في خامات البناء.. وبينما هو لا يتوقف نظرت بطرف عيني إلى المرآة....

أصابني الذهول....

لقد اختفت الكومة البيضاء من على الأريكة!

* * *

"تؤ!".

* * *

- (عزت)!.. لقد رحلت الفتاة!

نظر للمرآة في حيرة ووضع كوب الشاي على سور الشرفة:

- فعلًا.. لربما هي في دورة المياه.. إن هذا حقها كما تعلم..

- تعال ندخل الشقة ونر ما هنالك..

وهرعنا إلى شقتي، وفتحت الباب.... وفي الداخل.. كانت الصالة خاوية - كما رأيتها بالضبط - ولا أحد في حجرة النوم ولا المطبخ ولا الحمام ولا....

لقد طار العصفور دون سابق إنذار بينما نحن نعد الشاي بالصراصير في مطبخ (عزت)....

- ولكن كيف أفاقت؟.. لقد كانت نائمة مثل....

- مثل مومياء (أمنمحات).. لابد أنها تسير في أثناء نومها..

- وكيف أغلقت الباب ونزلت السلم بهذه البساطة؟

- أنت لا تعرفها.. إن حركتها رشيقة للغاية..

وهنا أشار (عزت) إلى شيء ملقى على الأرض جوار الأريكة.. تبينت على الفور أنه ملاءة بيضاء من غرفة نومي.. وفهمت ما حدث...

كانت الشيطانة تراقبني خلسة وعرفت ما أنتويه بالمرآتين.. لهذا - ما إن خرجت من الشقة - حتى هرعت إلى غرفة النوم واحضرت ملاءة كومتها على الأريكة لتعطي انطباع جسدها النائم.. ومع المسافة والظلام وتشويه المرئيات كان الانطباع كاملًا...

لماذا فعلت ذلك؟..

لأنها كانت تعرف أنني سأراقبها، وسأحاول منعها من الخروج.. وكان عليها أن تلهيني بهذه الملاءة حتى ترحل هي في سلام.. ولم يكن ثمة داع كبير لهذه الخديعة لأنني بالفعل لم أكن مراقبًا يقظًا وأضعت دقائق ثمينة في المطبخ مع (عزت).....

والآن - للمرة الثانية - رحلت (براكسا) دون أن أعرف.. ومن الصعب أن أعرف كيفية عودتها لدارها في هذه الساعة من الليل.. لكنني لن أبكي حزنًا على فراقها.. بالتأكيد لن أفعل..

* * *

وحين رحل (عزت) أخيرًا، دخلت غرفة نومي - بعد ما أحكمت غلق الباب - لأنعم بنوم هادئ لم أذقه منذ.. منذ يومين..

وجدت ورقة موضوعة جوار الفراش تحت قاعدة الأباجورة.. فلابد أن الفتاة كتبتها قبل أن ترحل.. وجوارها كانت جريدة الأمس.

أضأت الأباجورة وخلعت حذائي ورقدت على ظهري أقرأ الخطاب..

"عزيزي د. رفعت".

كان الخط منمقًا أنيقًا.. خط فتاة دون شك...

اضطررت للمرة الثانية أن أفر من دارك بنفس الأسلوب الذي لا يدل على اللياقة. لكنني أردت أن تنتهي هذه المزحة قبل أن تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

في الواقع أنا مدينة لك بالاعتذار عن دعابة طالت كثيرًا. لقد كنت أنت موضوع رهان بيني ومجموعة من أترابي بعضهن طالبات طب ممن تدرس لهن أمراض الدم (ولن أذكر أسماءهن أبدًا). كانت صديقاتي تتحدثن حول أي إنسان غريب الأطوار أنت. لم تتزوج ولم تفتتح عيادة وتقضي حياتك في دائرة لا تنتهي من قصص الرعب وعوالم ما وراء الطبيعة. ويومها قلت لهن إنني لو قابلتك لجعلتك تعيش في لغز حقيقي يغير مجرى حياتك للأبد.

أنت تعرف هؤلاء الفتيات المدللات اللواتي يعانين الفراغ والملل ويفرطن في التسلية على حساب الغير. وكنت للأسف واحدة منهن. وقد راهنني على أن أقوم بما وعدت به فقبلت الرهان. لكنني كنت عاجزة عن العثور على نقطة البدء.

وتصادف أن كانت إحداهن يملك أهلها عزبة جوار قرية (كفور داود) وتعرف أنك من قرية (كفر بدر) المجاورة. لهذا قررنا أن الرؤية المرعبة التي ستواجهك ستحدث حتمًا عند مقابر (كفور داود). سيكون هذا هو المكان الذي ستقابل فيه (براكسا) حسناء المقبرة.

وكنا نعرف أنك ستعود ليلًا، وكان من حسن طالعنا أن سيارة قد انقلبت في الترعة قبل يوم لكن أحدًا لم يحاول انتشالها.

وهيأنا المسرح واختبأت أنا جوار ضفة الترعة. وكنا نعلم أنك ستتوقف لترى الحادث عن كثب. وأنت تعرف الباقي.

حين تركتني وحيدة في شقتك كانت الفرصة مهيأة لي بالكامل كي أعبث هنا وهناك، وقمت عدة مرات بإضاءة مصباح أحمر أحمله معي لأعطيك انطباعًا أن ضوءًا غامضًا ينبعث من الشقة. ثم غادرتها عند الفجر.

وهذه الليلة عدت أعابثك من جديد حاملة ذات الكشاف الأحمر، مع ماكياج متقن لجرح نافذ في عنقي. أردت - وأردن - أن نقنعك بأنك تري حادثًا خارقًا للطبيعة.

إلا أنني لم أستطع التمادي أكثر.. فأنت كنت مهذبًا رقيقًا معي لهذا غادرت شقتك تاركة لك هذا الاعتذار، عالمة أن عالمًا حكيمًا مثلك يغفر الزلات البشرية ويتسامح معها.

لكنني لست جبانة يا د. (رفعت). وأعرف كيف أواجه أخطائي لهذا سأعود لك غدًا كي تؤكد لي بنفسك أنك لم تعد غاضبًا علي. و (صاف يا لبن).

ومن يدري؟.. ربما كسبت صداقة دائمة من إنسانة وجدت فيك ما لم تجده في شباب اليوم..

المخلصة: (براكسا نجيب)

* * *

انهيت الخطاب في حنق وارجعت رأسي للوراء.. فاصطدم بحافة الفراش الخشبية.. لكني لم أستشعر ألمًا.... إذن قد عبثت بي هذه المستهترة أنا الحمار العجوز الذي لم يستطع أن يجعل تلميذاته يحترمنه...!

تذكرت - على الفور - فيلما نسيت اسمه لـ (عبد الحليم حافظ) حين كان يلعب دور أستاذ موسيقا شيخ، وعبثت به فتاتان مدللتان تراهنتا على الفوز بحبه.. وقيمة الرهان زجاجة مياه غازية..!

هذا الموقف شبيه بما حدث لي..

هذه الفتاة تلاعبت بشهامتي وأعصابي وجعلتني أبيت ليلتين خارج دارى للاشيء... مجرد لذة العبث..

ما أقسى النفس البشرية اللوامة!

ولا أدري متى نمت كمدًا.. لكني نمت على كل حال.... لقد أخذت الفتاة الرعب وتركت لي الغيظ.. وكلاهما شعور يتناقض والنوم.. لكني نمت....

* * *



أنهيت الخطاب فى حنق وأرجعت رأسى للوراء .. فاصطدم بحافة الفراش الخشبية ..

"تؤ!".

* * *

في الصباح جلست على مائدة الإفطار أتصفح صحف اليوم التي يضعها الصبي على عتبة بابي (وغالبًا ما ينسي ذلك).. وكالعادة لم أجد متسعًا من الوقت لمطالعتها، فطويتها على أن أقرأها بعناية في مكتبي بالكلية...

ثم إنني عدت أتأمل خطاب الفتاة المنكودة.. وهنا خطر لي خاطر غريب...

أحضرت ورقة وقلمًا وشرعت أنقل خطابها بالحرف إلى الورقة بأسرع ما استطعت..

فما إن انتهيت حتى نظرت لساعتي.. لقد استغرق ذلك تسع دقائق أو أكثر قليلًا.... إن معنى هذا هام جدًا..

هام أكثر مما تصورت أنت...

* * *

٩ - لكنني أرتاب..

الليالي المقمرة عالم رائع.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء الرهيبة التي يراها واسعو الخيال....
لكن شمس النهار كانت تبدد كل خيال....

* * *

متى دخلت مع (عزت) تاركين الشرفة؟
كان ذلك حين دعاني لاحتساء الشاي بالصراصير..
كم من الوقت يستغرقه غليان الماء في البراد.. صب الشاي.. العودة إلى الشرفة؟..
ثلاث دقائق.. أو أربعًا على أكثر تقدير... هذه هي الفترة الوحيدة التي يمكن أن تكتب الفتاة خطابها فيها.. لأنها تكتبه على أساس أنني رأيت جرح عنقها.. فكيف تجد الوقت الكافي لتنهض.. تضع ملاءة بيضاء مكانها.. تكتب الخطاب بعد أن تخرج قلمًا وورقة.. تضعه تحت الأباجورة.. تلقي بالملاءة.. تفتح باب الشقة.. تخرج؟!..
إن النظام يعطى للوقت بركة لكن ليس إلى هذا الحد...
أنا نفسي حاولت كتابة الخطاب ذاته ووجدت أن أسرع كاتبة اختزال في الكون لن تتم كتابته قبل تسع دقائق...!
إذن من المستحيل أن تكون الفتاة قد كتبت الخطاب في الوقت الذي غفلنا فيه عن مراقبتها... هذه نقطة...

* * *

النقطة الثانية تتعلق بمحتواه... تزعم أن الحظ خدمها بحادثة سيارة في ترعة (كفور داود) استغلتها ببراعة.. لا أظن أن قوانين الصدفة سخيفة إلى هذا الحد... ألا ترى ذلك معي؟!....
ثم إنها فسرت لي وجود السيارة.. لكنها لم تفسر أضواءها التي ظلت تتألق تحت الماء...
كيف تظل بطاريات سيارة صالحة يومًا كاملًا وهي مغمورة تحت الماء؟.. لم تقدم لي (براكسا) تفسيرًا لأنه لا تفسير هناك...

* * *

النقطة الثالثة تتعلق بالضوء الأحمر....
فكرة سخيفة أن تدعي أنها كانت تحمل كشافًا أحمر لتثير رعبي، فقد رأيتها أول يوم.. وكانت ممزقة الثياب حافية القدمين.. فأين أخفت الكشاف إذن؟!!..

ثم.. ما هو المبرر الذي يجعل فتاة متمدينة تمشي حافية القدمين.. وتغمر جسدها في ترعة كي تخدعني؟.. ولماذا لم تخبرها زميلاتها - مطالبات الطب - أن (السركاريا) ستخترق كل ملليمتر من جسدها لتغزوه بديدان (البلهارسيا) لعنة مجاري المياه في (مصر)؟!...

نأتي لموضوع الجرح.. لقد تقدم فن (الماكياج) كثيرًا.. لكنه يؤدي دوره فقط حين يوجد الحاجز الرابع - حاجز خشبة المسرح أو شاشة السينما - لكن لا تقل لي إن هناك (ماكياجًا) قادرًا على خداع طبيب يفحصه من على بعد ثلاثين سنتيمترًا.. مستحيل..!

* * *

"تؤ!".

* * *

ذهبت لعملي مبلبل الفكر مشوش العقل بخواطري.. جلست أتصفح الجرائد التي لم أقرأها بعد، حين وجدت خبرًا صغيرًا أثار اهتمامي..

"يلقى مصرعه في الترعة - تم انتشال جثة (أحمد عبد الرحمن) - ٤٥ سنة - صيدلي من ترعة قرية (كفور داود) محافظة الشرقية بعد جهود مضنية قام بها الأهالي.

وكانت سيارة المذكور قد سقطت في الماء امس وظلت مغمورة به عدة ساعات. وقد انتقل إلى مكان الحادث كل من..... بدفن الجثة...".

هذا هو..!

الرجل الذي كان في السيارة مع (براكسا) ولم تخبرني بأمره.. لم يبلغنا الخبر بالسبب الذي جعل هذا الصيدلي يسير بعربته في طريق (كفر بدر - فاقوس).. فهل هو من أهل القرية؟.. لا أعرف صيادلة من (كفر بدر).. فهل هو من أبناء القرى المجاورة؟..

إن الأمر سهل.. سأتصل بـ (رضا) مرة أخرى وأسأله عن تفاصيل لم يذكرها الخبر..

وهرعت إلى (سويتش) الكلية.. أعطيت لفافة تبغ لعم (بسيوني) العجوز عامل (السويتش) طالبًا منه أن يتصل بسنترال (كفر بدر) - كابينتها على وجه الدقة - فابتسم... وبصق على سبيل التحية.. ثم شرع يمارس الجهاد المقدس: الاتصال بقريتي.

وبعد لأي.. سمعت صوت الحاج (دياب).. فأخبرته أنني (رفعت إسماعيل) وأن عليه أن يتكرم ويطلب من (رضا) أخي الاتصال بي ظهرًا..

ثم شكرت (بسيوني) فهز رأسه وبصق على سبيل قول: عفوًا.. وغمغم:

- عندي إسهال مستمر من البارحة يا دكتور.. وأردت أن....

لم أسمع باقي أعراضه لأني فررت من (السويتش) عائدًا إلى مكتبي.

* * *

حين دق جرس الهاتف المحموم الطويل في شقتي.. كنت متوترًا كالقوس فوثبت نحوه.. ورفعت السماعة:

- آلو...
- أنا (رضا) يا (رفعت).. كيف الحال؟
- على ما يرام يا (رضا).. قل لي.. هل تعرف من يدعي (أحمد عبد الرحمن).. وهو صيدلي من (كفور داود)..؟
سألته عن الرجل الذي استخرجوا جثته من الماء، وأخبرته أنه هو (أحمد) هذا.. فقال إنه غير معروف في مركز (فاقوس) كله وإنه قاهري تمامًا، كل ما يمكنه ذكره عن الحادث هو أن..
- الرجل عجوز جدًا.. شاب شعر رأسه كله وتجعد وجهه تمامًا..
- مستحيل يا (رضا).. الصحف تقول إنه في الخامسة والأربعين...
- صدقني أنا.. أنا الذي حملت جثته على يدى هاتين مع الرجال.. ولكن.. (رفعت).. لماذا تعلق كل هذه الأهمية على الموضوع؟
كنت أفكر سريعًا في مغزى كلامه...
هذا ثاني غريق أشيب أسمع عنه خلال يومين.. الأول كان في جريدة أمس.. واليوم يحدثني (رضا) عن الآخر..
هل ثمة علاقة ما بين الرجلين؟..
ما سر هذه الشيخوخة المبكرة؟...
- سؤال أخير يا (رضا)...
- وررررررررر!
انقطع الخط اللعين قبل أن أوجه سؤالي.. لا يهم..
لقد نسيته على كل حال...

* * *

كنت أحترق بفضول لا يرتوي...
فضول لمعرفة كل شيء قبل أن تعود الفتاة ليلًا.. على كل حال هي لن تجدني لأنني غير راغب في لقائها بل أخشاه كالموت....
سأمضي الليلة إذن في أي مكان.. ربما في العناية المركزة جوار الكاهن الأخير الذي لم يشف من غيبوبته بعد..
لقد خدعتني (براكسا) مرارًا...
لكنني لن أدعها تخدعني خدعتها الأخيرة إذ تزعم أن كل ما يحدث هو دعابة قامت بها فتيات مستهترات..
إن في محاولتها إقناعي بذلك لمعنى خطيرًا..
هي لا تريد أن أصغي للشكوك المتزاحمة في ذاتي..
هي تريد أن أكف عن البحث....
هي تريد أن تعود لي هذه الليلة لتقول: (صاف يا لبن)..
فلماذا؟.....
فلأبتلع قرصًا من المهدئات.. ولأواصل بحثي...

* * *

في دليل الهاتف وجدت عددًا لا بأس به من آل (أحمد عبد الرحمن) منهم صيدليان.. هل أقدم أم أحجم؟.. حتما سترد علي أرملة منكوبة أو أخ كليم أو أم ثكلى.. ولن يقبل أحد أن يثرثر معي حول الفقيد، والسبب الذي جعله يزور (كفور داود).. في النهاية استجمعت أشلاء شجاعتي، وأدرت قرص الهاتف لأسمع صوت طفل يرفع السماعة ويهتف بحماس:

- ألووووه!.. طانط (سناء) أحضرت لي أرنبًا وبطة.. وكان جدي عندنا أمس..!

أنباء هامة جدًا!.. إن هذا الصغير يتمتع بحاسة إعلامية واضحة ولو كان مزاجي رائقًا لطلبت منه مزيدًا من التفاصيل... وهنا سمعت صوتًا رجوليا يزجره أن: كفى يا (حماده) ثم يقول لي في حزم:

- أفندم؟

- د. (أحمد عبد الرحمن) موجود؟

توقف ثانية عن الرد.. ثم سمعته يسألني في حذر:

- من يريده بالضبط؟

هذا الرجل يتذاكى علي متظاهرًا بالحرص.. وهو ذكاء مفضوح كذكاء المخبرين في الواقع.. لهذا قلت:

- أنا قريبه من (كفور داود)..!

ساد الصمت هنيهة.. ثم قال في تؤدة:

- ليس للمرحوم أقارب في (كفور داود)..

- ماذا؟.. هل مات؟!

- لا تزعم أنك لا تعرف..

ثم استحال صوته إلى صراخ غاضب يكاد يسمعه جيراني:

- كفوا عنا عليكم اللعنة!.. ألا تجدون سوانا في هذا العالم؟.. ذلك المهندس المخبول.. ثم تلك الغانية..!.. إن الرجل قد مات بسببكم.. وكان أفضل الناس.. تك!.. وررررر!

وضعت السماعة محمر الأذنين كأنما صفعت على قفاي.. واضح أن هذا هو أخو (أحمد عبد الرحمن) أو أخو زوجته.. وهو حانق بسبب حشد من المتطفلين كانوا يتدخلون في حياة أخيه، أحدهم مهندس مخبول وغانية.. وأنا طبعًا....

نسيت أن أقول أيضًا إن هذا يعني أن من طلبته هو أحمد عبد الرحمن المطلوب!...

أشعلت لفافة تبغ وجلست جوار الهاتف أفكر....

لقد قدم لي الرجل بثورته كل ما أحتاج إليه من معلومات..

أولًا: هناك غانية وهي على علاقة بالفقيد.. يمكن القول دون خطأ كبير إنه يتحدث عن (براكسا).. فهي كانت مع الفقيد حين حدث الحادث....

ثانيا: هناك مهندس مخبول.. هل يمكن أن يكون هو (محمود أبو زيد)؟.. لم لا؟.. جثتان شاب شعرهما وبدت عليهما علامات الشيخوخة.. لابد أن هناك رابطًا بينهما....

وتساءلت.. من هو الآخر الذي سقط مع (محمود أبو زيد) في الماء؟.. لقد سقط (أحمد عبد الرحمن) مع (براكسا) في تلك البركة.. فهل هو نفسه من سقط مع المهندس؟..

إن الربط سهل....

(محمود أبو زيد) ثم (أحمد عبد الرحمن) ثم (براكسا).... ما معنى هذا إذن؟....

كأن هناك نوعًا من الانتقال...

شيئًا ما قتل (محمود أبو زيد) غرقًا ثم غادره إلى (أحمد عبد الرحمن) ثم قتله غرقًا وغادره إلى (براكسا)..

هل هذا ممكن؟....

إنه يفوق الخيال لكنه منطقي أكثر من اللازم.. لعل هذا يفسر الشيخوخة المفاجئة التي تهاجم هؤلاء التعساء بعد موتهم.. كأن الشيء الذي كان بهم يمتص شبابهم وحيويتهم قبل أن يغادرهم....

قد يوحي هذا بتناسخ الأرواح لكن هذا غير صحيح، لأن مبدأ التناسخ غير مقبول دينيًا..

(الهندوك) فقط يؤمنون بهذا المبدأ، ويعتقدون أن الروح تنتقل من جسد إلى جسد بوفاة الأولى.. ولربما كان الجسد الثاني جسد حيوان.. وتكفر الروح عن خطاياها في الجسد الثاني...

ويعتقدون أن هذه الدورة أبدية مقدارها ٤ ٣٢٠ مليون سنة وهو ما يمثل يومًا واحدًا في عمر رب أربابهم الذي يبلغ عمره مائة وخمسين يومًا....!..

ولهذا يحرقون الجسد ويلقون عظامه في نهر الجانج المقدس - منبع (الكوليرا) الأول في العالم - ويصلون للمتوفي عشرة أيام إلى أن تستقر روحه في جسد آخر بسلام....

طبعًا كلام وثني تأباه الأديان السماوية، وغير وارد أصلًا في تفسير ما يحدث... لكنني أقبل تفسيرًا يقول إن هناك كيانًا شيطانيًا يمارس هذه اللعبة منذ فترة يعلمها الله وحده.. وهذا الكائن يحوم حولي الآن في صورة حسناء اسمها (براكسا)..!..

إلا أن الفضول لم يمنعني من البحث في مكتبي عن كتاب عن (الأديان المقارنة).. وجلست أراجع ما كتب عن التناسخ وخلافه.. فلم أزدد إلا نفورًا من الفكرة....

* * *

"تؤ!".

* * *

ترررررررررن!..

هرعت إلى الهاتف لأجيب.. فسمعت صوت (رضا) وسط آلاف الأصوات بسبب تداخل الخطوط..

- (رضا)!.. ماذ حدث؟

- لا شيء يا (رفعت).. أردت أن توجه لي سؤالًا ثم انقطع الخط فعاودت طلبك...

ابن حلال حقًا يا (رضا)!.. لقد وفرت على عناء معاودة الاتصال بالحاج (دياب) الحانق دائمًا..

- قل لي يا (رضا).. هل هناك شخص من (كفور داود) ومدفون هناك اسمه (نجيب)..؟.. طبيب أسنان سافر إلى (اليونان) وتزوج من يونانية؟.

- لا أعتقد يا (رفعت).. إن تلك البلدة لم تنجب إلا لصوصًا.. لكني سأحاول التأكد واتصل بك.. ولكن هل الأمر يهمك إلى هذا الحد..؟

- جدًا يا (رضا).. إنها مسألة نسب!

- ألف نهار أبيض!

كان هذا هو الحافز الوحيد الذي سيجعله يهتم بالأمر.. فهو لن يعبأ شعرة بقضية (براكسا) والضوء الأحمر وخلافه.. لكن موضوع النسب أمر جدير بالاهتمام...

ووضعت السماعة وشرعت أفكر في الخطوة التالية...

كان الوقت قد فر مني بين التفكير.. والقراءة.. والمكالمات الهاتفية..

بصعوبة تبينت أن الرؤية تزداد صعوبة..

وبصعوبة تبينت أن الظلام قد بدأ يسفر عن وجهه المخيف..

بصعوبة سمعت أذان المغرب من مسجد قريب...

وبصعوبة أدركت أن قرص القمر يختلس النظر من خلف المباني في الأفق.. كأنه يستوثق من أن الشمس قد رحلت حقًا... لقد حان وقت الانصراف....

* * *

وفتحت باب الشقة وكدت أغلقه خلفي.. لولا أن تبينت شيئًا يصعد درجات السلم نحوي في الغبشة.. شبحًا يرتدي فستانًا وشعر رأسه طويل.. وشممت رائحة (الشانيل)...

لقد عادت (براكسا) كما وعدت...

عادت وأنا غير مستعد للقائها.....!

* * *



وفتحت باب الشقة وكدت أغلقه خلفي .. لولا أن تبينت شحنا

يصعد في درجات السلم نحوي في الغبشة ..

١٠ - وكنت على حق..

الليالي المقمرة عالم رائع.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء الشنيعة التي يراها واسعو الخيال...

* * *

"لهذا سأعود لك غدًا كي تؤكد لي بنفسك أنك لم تعد غاضبًا علي. و (صاف يا لبن)..".

* * *

"تؤ!".

* * *

في هذه المرة لم أكن على استعداد للعب أدوار مهذبة.. لا وقت لدي كي أكون رقيقًا....
أغلقت الباب بأعنف ما استطعت، ووقفت ألهث خلفه لثوان.. ثم أدرت المفتاح في القفل.
سمعت صوتها من وراء الباب، ممزوجًا بالضحك:
- توقعت منك الجفاء.. لكن ليس إلى هذا الحد...

* * *

وقال الذئب للحملان الصغيرة:
- افتحوا يا صغاري.. أنا أمكم وقد عدت من السوق..
نظر الحملان إلى قدم الذئب البيضاء التي نثر عليها الدقيق، وكاد أحدهم يفتح المزلاج، لكن أخاه هتف في فزع:
- لحظة!.. هذه ليست أمنا!
كيف عرف ذلك؟.. لا أذكر بالضبط.. فقد عادت هذه القصة إلى ذاكرتي بعد ثمانية وثلاثين عامًا.. ودون سابق إنذار..

* * *

صوت (براكسا) الناعم من وراء الرتاج:
- د. (رفعت)!.. أنت لم تقبل اعتذاري.. هذا واضح!
- لم لا تنصرفين يا فتاة؟!
قلتها في شيء من نفاد الصبر برغم محاولتي التماسك.. وأردفت.

- لا أحد يريدك هنا...
- يا لها من قسوة!
ثم ساد الصمت هنيهة..
بعدها عاد صوتها.. هل تخدعني أذناي أم أن صوتها صار أكثر خشونة وجدية وأقل دلالًا؟.. لا أدري.. إن الإيحاء يلعب دورًا هائلًا في هذه المواقف...
- د. (رفعت) أعتقد أن المزاح قد انتهى.. إن كلينا يفهم الآخر..
- بالتأكيد..
- إذن عليك أن تفهم أن هذا الباب المغلق لن يحميك مني.. كل أبواب الأرض لن تفعل..
- حقًا؟
انفجر الصوت يضحك.. تلك الضحكة السمجة المنتصرة..
- أنت تعرف ما هو الرعب.. وأنا الرعب ذاته في صورة إنسان.. سأطاردك خلف كل باب.. وراء كل حائط.. أسفل كل نافذة.. ستجدني تحت فراشك قبل أن تنام.. وفي كل حلم من أحلامك.. ولن تجد مفرًا مني سوى الموت.. الموت تختاره بنفسك لنفسك.. صدقني يا د. (رفعت).. لا سبيل أمامك سوى أن تفتح الباب وتصغي لما أقوله لك!
كانت صادقة.. نبرات صوتها توحي بالصدق..
يجب أن أواجه هذا (الشيء) وإلا غدت حياتي كلها جحيمًا.. أنا أعرف كيف سيفسد الرعب كل شيء، ولن أجد موضعًا آمنًا أذهب إليه بقية عمري.. إنني أفضل الموت العاجل على الموت البطيء..
سأفتح الباب.. وليكن ما يكون....

* * *

كانت واقفة على مدخل الباب تبتسم في انتصار..
وحين سمحت لها بالدخول ورأيت وجهها في ضوء الصالة، أدركت أن التجاعيد تزايدت في ملامحها، وأن خصلات عديدة من الشعر الأبيض غزت رأسها....
دخلت إلى الصالة.. وجلست على أريكتها المعتادة.. فجلست أمامها وأشعلت لفافة تبغ.. ثم غمغمت:
- يبدو لي أن وقتك صار ضيقًا..
وناولتها لفافة تبغ أخرى وأشعلتها لها.. قالت وهي تنفث الدخان وقد أرجعت رأسها للوراء كعادتها:
- بالفعل.. لهذا جئت أعقد معك صفقة..
- هل أنا أتحدث الآن مع فتاة أم مع كائن؟
نظرت في عيني.. وابتسمت.. ثم همست:
- منذ أعوام لا أعرف عددها وأنا أهيم بين البشر.. كروح حائرة تبحث عن مأوى.. عشت في (النرويج).. في (زامبيا).. في (المجر).. ثم بلدكم الدافئ الذي جئته منذ شهور.. كنت حدادًا..

مثالًا.. راقصة باليه.. محاربًا في جيش (هانيبال).. فلاحًا في (منغوليا).. ساحرًا في في (الكونغو).. مهندسًا في (مصر)..

- والآن طالبة آداب اسمها (براكسا).. وغدًا طبيب أمراض دم اسمه (رفعت إسماعيل).. هل أخطأت التخمين؟

- أنت ذكي ولم تتجنب الحقيقة.. أنا مضطر لسكنى أجساد البشر.. لكن هذه الأجساد تبلى سريعًا ويكون علي أن أجد جسدًا آخر بسرعة..

- لهذا أغرقت (أحمد عبد الرحمن) في النيل وأخذت جسده ليجد رجال الشرطة ذلك المهندس البائس (محمود أبو زيد) وقد فرغت منه الحياة...

- هذا صحيح.. كانت هناك حسناء اسمها (براكسا) هي أول من رأى (أحمد عبد الرحمن) لحظة خروجه من الماء.. وأدركتُ أن الدور عليها بعد أن يبلى جسد هذا الأخير.. صادقتها وأقمت علاقة عاطفية معها - لحسن الحظ أن (أحمد) كان وسيمًا - ثم أخذتها في السيارة إلى (كفور داود).. وهناك أغرقت السيارة في الماء.. كانت هذه هي نهاية قصتي مع جسد (أحمد) وبدايتي مع (براكسا)..

- والآن (براكسا) تبلى.. وجاء دوري أنا..

- هذا صحيح.. لكني أعرض عليك صفقة لا بأس بها يا د. (رفعت) باعتبارك أول من فهم السر في هذا البلد..

ووضعت (براكسا) ساقًا على ساق.. وأردفت:

- لقد حان وقت الخلاص من (براكسا).. ولا يتأتى هذا إلا بإغراقها معك.. وتحت الماء أستطيع مغادرة جسدها ودخول جسدك.. وسيجدها الناس مجرد جثة غارقة قد بدت عليها مخايل الكهولة.. أما أنت فستغادر الماء باحثًا عن ضحية قادمة.. والعرض الذي أقدمه لك يا د. (رفعت) هو أن تجد لي شخصًا مناسبًا كي يغرق مع (براكسا).. كبش فداء عنك إذا أردت الدقة..

- هبني انقضضت عليك الآن وقتلتك أو قيدتك؟

- لن تستطيع... إن (براكسا) ميتة بالفعل منذ غرقت السيارة.. هي مجرد حذاء استعمله للتنقل.. والميت لا يمكن قتله!

ثم أضافت وهي تبتسم بخبث:

- إنني سأملأ الكون صراخًا وعويلًا وسيأتي كل سكان البناية ليروا د. (رفعت) يهاجم فتاة في شقته.. أنت لا تحتمل فضيحة كهذه يا د. (رفعت) خاصة أن قصة (الكائن) تبدو نوعًا من الهلوسة التي لا يصدقها عاقل..

يا له من موقف!..

لقد واجهت كل شيء.. رأيت (لوخ نس)، وتسابقت مع (الزومبي) وتصارعت مع (العساس)، واشتبكت مع نبات (الموكاسا).. لكني - للمرة الأولى في حياتي وأحلامي - أجلس مع مسخ أناقشه بهذه البساطة والعقلانية..

سألت الفتاة وأنا أشعل لفافة تبغ ثانية:

- ما أنت؟

هزت رأسها في ملل، وداعبت خصلات شعرها:

- تعني (من أنت؟) طبعًا.. حسن.. أنا كائن بروتوبلازمي هلامي فائق القدرات.. لا أعرف بدايتي.. وأظن أنني كنت دائمًا هنالك.. لربما جئت من كوكب آخر بين أجزاء شهاب.. ولربما أنا ربيب الأرض، لا أدري.. فقط أعرف أنني سأظل أفعل هذا الذي أفعله حتى تحين الساعة.

- ولماذا كتبت لي ذلك الخطاب الملفق؟

- لأنك بدأت تفهم.. ولم أكن أريد أن تفر مني قبل أن أنجح في إغراقك.. كتبت لك اعتذارًا بسيطًا على أمل أن يزيل علامات استفهامك وعندئذ يمكننا أن نخرج معًا.. ومن يدري؟.. لربما طلبت منك نزهة نيلية تنهي هذا الإشكال!

أما الآن.. فمن الصعب أن أقنعك بالخروج معي.. إن وقتي ضيق لهذا أقدم لك هذا العرض السخي..

- سؤال واحد.. هل تظنين حقًا أنني سأذهب إلى واحد من الجيران وأطلب منه أن يذهب معك لتغرقيه؟!

- هي مشكلتك..

وضعت أنا الآخر ساقًا فوق ساق بحثًا عن الاسترخاء.. وقلت وأنا أشعل لفافة تبغ (الثالثة في ربع ساعة):

- وماذا يرغمني على الاستجابة؟.. سأتركك تستهلك هذا الجسد وتفني.. أما عن نفسي فلن أقترب من الماء لمدة شهر.. وبهذا يكون آخر مسمار في نعشك قد دق!

مالت إلى الأمام ونظرت إلى عيني في سخرية:

- هل أنت بهذه السذاجة حقًا؟

- لا أفهم..

- هل تظن أن قوة الفتاة مازالت قوة فتاة كما هي بعد ما احتللت جسدها؟!.. إنني قادر - إذا أردت - على حملك كالطفل وإغراقك في بانيو الحمام.. بعدها سأغمر رأس الفتاة تحت الماء بذات الطريقة.. ويتم التبادل دون مشاكل..

- إذن.. لماذا لا تفعل دون ثرثرة؟

- لأني غير راغب في إيذائك.. لقد بدأت تروق لي إلى حد ما ويصعب علي أن أدمر كائنًا على قدر من الذكاء..

- نفس المنطق الذي يجعل قتل دجاجة أسهل من قتل الكلب.. أليس كذلك؟

- بلى...

يا له من جنون!..

يصعب على أن أصدق أن هذا الموقف وهذه الكلمات حقيقية.. إن قصة رائعة تنضم إلى قائمة ذكرياتي الآن.. بشرط ألا تكون هي ذيل القائمة..!

في الواقع أنا قادر على الفرار.. أستطيع في أية لحظة أن أركض للباب، المشكلة هي ما سيحدث بعد ذلك.. سأظل أنتظر في أية لحظة أن تهاجمني - أو يهاجمني - هذا الكائن ويغمر وجهي في الماء.. لن أجد الراحة أبدًا في أي مكان...

كلا.. إنني أفضل أن ينتهي الأمر الآن.. وهنا....

* * *

أمسكت بكتفي الأيسر وأصدرت أنينًا مروعًا.. وارتميت على الأريكة محاولًا أن أخترقها إلى الأعماق.. وسقطت لفافة التبغ من يدي لتحرق السجادة....

- ماذا بك؟

قلت محاولًا التماسك ومن بين أسناني:

- نوبة قلبية..!.. إن هذه الانفعـ....الات.. آه!.. سوف تقتـ... ـلني.. هاااااه!

وقفت أمامي.. وجهها في الظل.. الشك والحيرة في مسلكها:

الأريكة محاولا أن أخترقها إلى الأعماق..

- هل أفعل لك شيئًا ما؟.. لا أريد أن تموت بهذه الكيفية كما تعلم...!.

- الأقراص!.. النتروجلسرين!.. غرفـ... آه... ـفة.. النوم!

- حسن.. حسن..

وسمعت صوت كعبيها يمضيان في شيء من الهرولة إلى هناك..

وقبل أن تفهم هي ما حدث، وثبت إلى باب غرفة النوم وأغلقته خلفها.. كان آخر ما رايته وجهها المحملق الكريه يستدير نحوي حيث انحنت تفتش أدراج الكومودينو...

لقد كان مفتاح حجرة النوم مثبتًا في ثقب المفتاح من الخارج، وهي عادة عندي أن أغلقها كلما سافرت وأخذ المفتاح معي.. وهكذا أدرت المفتاح في القفل وأغلقته...

سمعت صوت زئيرها.. وسمعت قبضتيها الكاسحتين تدقان الباب مرارًا.. هو لا يعبأ بما يحدث لكفي (براكسا) الرقيقتين حتى لو هشمهما تمامًا.. لكني كنت واثقًا بأن لجسد الفتاة إمكانات محدودة ولن تقدر أبدًا على تهشيم الباب....

طبعًا هناك باب الشرفة.. وحتمًا ستفتحه..

لكن الشرفة لا تقود لأية غرفة أخرى.....

* * *



أمسكت بكتفى الأيسر وأصدرت أنينًا مروعًا .. وارتميت على
الأريكة محاولاً أن أخترقها إلى الأعماق ..

عدت إلى الحمام ففتحت الصيدلية ودسست تحت لساني قرصًا من (النتروجلسرين).. فقد بدأ الألم يمزق صدري حقيقة لا تمثيلًا.. كانت النوبة الأولى خدعة راهنت فيها على أنها لن تتركني لأموت بهذه السهولة.. كنت بحاجة إلى أن أسجنها بعض الوقت إلى أن أعرف ما أفعله بها..

أما الآن فإن الانفعال قد أنهكني حقًا.. وأنا بحاجة إلى الراحة بعض الوقت قبل أن أذهب لأفعل الشيء المعتاد...

أوقظ (عزت) طبعًا..!

* * *

كان صوت ضربات الفتاة ومحاولات تهشيمها للباب شبيهًا بخنزير بري حبيس، ولقد هرعت إلى شقة (عزت) ومارست عمليات مماثلة مع بابه إلى أن فتح لي:

- بسم الله الرحمن الرحيم!.. ميعاد الرعب اليومي..
- لقد سجنتها في غرفة نومي يا (عزت).. سجنتها..!
- من هي؟
- يا لك من معتوه!.. الفتاة طبعًا..
- وما نفع ذلك..

شرعت أحكي له بأنفاس متلاحقة متهدجة ما كان بيني وبينها.. لم يبد عليه أنه صدق حرفًا لكن الذعر على وجهه كان حقيقيًا..

- وماذا تنتوي عمله معها؟.. تبلغ الشرطة؟
- بالطبع لا.. لن يصدقونا.. ما أنتوي عمله هو فتح الشرفة مع أول ضوء الشمس.. عندئذ سيغمر النور الحجرة.. إن هذا الكائن لا يظهر إلا ليلًا ويفر قبل الفجر.. فهل يعني هذا أن ضوء الشمس يدمره؟!..

تجربة تستحق المحاولة..

هرش رأسه في غباء.. وغمغم:

- وكيف ستفتح باب الشرفة؟.. إنها بالداخل كما تعلم..
- لهذا طلبتك كي تأتي معي.. سنقتحم الحجرة معًا ويلتحم معها أحدنا على حين يفتح الآخر الشيش.. ونجرها مرغمة إلى الشرفة..

حك لحيته مفكرًا واستند إلى باب شقته:

- لكنها قوية كما قالت هي..
- لا أعتقد أنها أقوى من رجلين حتى لو كانا أنا وانت!

ومشى معي إلى شقتي وقد بدا عليه الاقتناع.. سيمضي الليل معي ثم ننفذ معًا في الصباح ما أزمعناه....

وعلى باب الشقة لاحظت شيئًا غريبًا...

* * *

"تؤ!".

* * *

- (عزت)!.. لقد اختفت الضوضاء!
- وماذا في ذلك؟.. لقد انتابها الإرهاق..
- لا أظن.. ربما هي تنتظر؟!

ودنوت في حذر من باب الغرفة وأطرقت محاولًا أن أسمع أفضل.. ثم بعد هنيهة مددت يدي إلى المفتاح..

صاح (عزت) في رعب وهو يمسك يدي:

- صبرًا..!.. ربما كانت خدعة.. وبمجرد فتح الباب ستخرج كالنمر الحبيس في وجوهنا..!

من يدري؟.. وربما كانت في الشرفة تبحث عن وسيلة للفرار.. وعندئذ لن يكون من الحكمة أن ندخل خلفها..

تراجعت يدي إلى جواري.. وهززت رأسي:

- إذن ننتظر حتى الشروق؟!
- ننتظر...

وهكذا - يا رفاق - جلست مع (عزت) في الصالة نرمق الباب الموصد في توجس.. وننتظر قدوم الشمس.....

* * *

الجزء التالي ليس من مذكرات الدكتور (رفعت إسماعيل)

كان (شريف الغمري) شابًا كأي شاب آخر.. يأكل جيدًا ويشرب جيدًا وينام جيدًا ويشاهد السينما ويستمع إلى أغاني (عبد الحليم حافظ).. كان يتمنى أن يتذوق هذا الإكسير السحري المسمى بالحب.. الإكسير الذي يتحدث عنه الجميع في الشعر والأفلام والأغاني، الجرثومة التي وجدت وسطها الحيوي الملائم في أغاني (عبد الحليم) وسواه...

كان في الخامسة والعشرين من العمر.. معدوم التجارب.. له تلك الملامح الدقيقة السمراء التي ورثها الشاب المصري من جده الفرعوني، وفي تلك الليلة كان قد أمضى أمسية أطول من اللازم مع أحد أصدقائه من سكان (الدقي) يلعبان الشطرنج ويثرثران عن الفتيات، وكلاهما يعرف أن الآخر كاذب مذع.. لكنهما لم يتهم بعضهما البعض بشيء....

إنها الثانية بعد منتصف الليل.. وهو يمشي في شارع (الترعة) يفكر في السبب الذي جعلهم يسمونه بهذا الاسم في هذا الحي الراقي.. هل كانت هناك ترعة هنا مثلًا؟.. أم ان....

وهنا حدث شيء مروع...

رأى شيئًا أبيض يهوي من إحدى شرفات العمارة التي تبعد عشرة أمتار عن موضعه.. شيئًا له ثقل وطاقة وضع فلا يمكن أن يكون مجرد ملاءة.. وسمع صوت الارتطام بالأسفلت فسقط قلبه عند قدميه.. إن ضوء القمر يفترش الشارع كله والرؤية لا بأس بها... هرع نحو الشيء الأبيض.. ووقف يتأمله... فأدرك أنه يرى فتاة ترتدي ثوبًا أبيض مكومة فوق الأسفلت كأنه لم تعد في جسدها عظمة سليمة واحدة.. ماذا يفعل؟.. يصرخ؟.. يفر؟.. يطلب الشرطة؟.. لكن الفتاة تحركت.. ببطء تحركت.. ثم إذا بها تجلس أمام عينيه المذهولتين.. كانت بارعة الجمال.. منهكة مبعثرة لكنها بارعة الجمال.. ورآها تنظر نحوه فانحنى جوارها يتساءل متلعثمًا:

- هـ.. هل أنت سـ.. سالمة؟

هزت رأسها أن نعم.. ثم مدت يدها له كي يعاونها على النهوض.. مستحيل.. كيف تظل سالمة بعد سقطة كهذه؟

- هل.. هل سقطت من... أعلى؟

مرة أخرى ترفع عينيها نحوه:

- بل حاولت الانتحار لأنه لا أحد يحبني...

- ولـ.. ولكن.. لـ.. لماذا؟.. وكـ.. كيف؟

وشرعت تحكي له وهي مستندة إلى كتفه قصتها الطويلة مع حب فاشل، أدركت معه أنه لا أمان لرجل.. وطلبت منه أن يساعدها على الابتعاد عن هذا المكان..

في الساعات المقبلة ستنمو علاقة حب سريعة بين (شريف) والفتاة التي سيعرف أن اسمها (براكسا)... علاقة حب طالما تاقت لها نفسه الظمأى إلى السحب كالصحراء..، ولسوف تدعوه الفتاة إلى نزهة ليلية هادئة عندما يأتي المساء، ويعانق القمر صفحة الماء.. ولسوف يقبل (شريف) في حماس هذه النزهة التي داعبت أحلامه دهرًا...

كل هذا سيحدث فيما بعد.. أما الآن فهما يبتعدان ببطء عن مكان الحادث.. و (شريف) ما زال يتساءل عن كيفية نجاتها من سقطة كهذه.. لكنه قال لنفسه إن الأحمق فقط هو من يضيع الوقت في هذه الأسئلة التافهة....

إن الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء الشنيعة التي يراها واسعو الخيال..

وللأسف لم يكن (شريف الغمري) من هؤلاء.....

* * *

خاتمة..

في الصباح اقتحمت أنا و (عزت) الغرفة مهيئين لمواجهة مسخ هائج كالبركان.. لكننا لم نجد أحدًا بالداخل..، دخلنا الشرفة - التي كانت مفتوحة - فلم نجد الفتاة.. لقد طار العصفور.. ولكن كيف؟

لفت (عزت) نظري إلى قطعة ممزقة من ثوب أبيض تعلقت بسور الشرفة.. وإلى حذاء أبيض دقيق ملقى على الأسفلت أسفل البناية.. عندئذ فهمت أنها قفزت من هناك مفضلة الانتحار على مواجهة النهار بكل احتمالاته المفزعة بالنسبة لها....

من هي (براكسا)؟.. من هم أهلها؟.. كيف لم تعد إليهم كل هذه الفترة؟

أنا واثق من أن صورتها تتصدر إحدى نشرات (خرج ولم يعد) في مكان ما.. وبالتأكيد لها اسم آخر حقيقي لا نعرفه..

دق جرس الهاتف فرفعت السماعة لأسمع (رضا) يصرخ:

- (رفعت)!.. لا يوجد أطباء اسنان من (كفور داود).. ولا أحد يدعى (نجيب) في البلدة بأسرها.. أنا متأكد من كلامي.. إنهم يخدعونك يا (رفعت).. يخدعونك!

- أعرف هذا يا (رضا) وإنني لشاكر فضلك..

- أقول لك ألا تقدم.. لا ترتبط بهذه الفتاة.. لا مزاح في مواضيع الزواج هذه!

على الرغم منى ابتسمت.. وشكرته.. ووضعت السماعة..

* * *

لم تعد (براكسا) قط.. ولم أرها أو أسمع عنها...

هناك تفاصيل عديدة تفوت الصحف وتفوتني.. كنت أتوقع أن أقرأ خبر العثور على جثة فتاة غريقة شاب شعرها.. لكني لم أقرأ خبرًا كهذا ربما لأنهم لم يعثروا عليها قط....

أنا أعرف أن هذا الكائن يبحث عن وقود دائم من الأجساد البشرية.. فهل هو ما زال في (مصر) أم رحل بعيدًا عنها إلى (سيبريا) أو (تمبكتو) أو أي بلد ناء اخر؟..

هل سيعود لي مرة أخرى؟..

إن هذا الاحتمال لم يعد يفزعني.. فأنا اليوم في السبعين من العمر ولا يمكن القول إن موتي الآن هو خسارة لأحد.. حتى أنا...!

لكنني - في سن الأربعينيات - كنت أرتجف فرقًا في كل ليلة أسمع فيها صوت كعبي أنثى على سلم داري...

وبالطبع لم أستطع أن أعود إلى موضوع (هن - تشو - كان) قبل أسبوع كامل استرجعت فيه روعي ورباطة جأشي...

إن الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المفزعة التي يراها واسعو الخيال.. ولم أكن أعلم أنني واسع الخيال إلى هذا الحد..!

* * *

لقد كانت قصة الليلة كابوسية إلى حد ما، وإنني لأستميحكم العذر..
لكن قصة الليلة القادمة لن تقل قتامة عن هذه.. فهي تلعب حول تيمة (الرعب من المعارف).. تيمة (البارانويا) الخالدة..
لكن هذه قصة أخرى.....

د. رفعت إسماعيل
القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

١ - فتاة..!

٢ - اسمها (براكسا)..

٣ - غريبة الأطوار..

٤ - وحين تختفي..

٥ - أشتاقها!..

٦ - لكنها عادت..

٧- وعاد الرعب..

٨- لكنها بريئة..

٩ - لكنني أرتاب..

١٠- وكنت على حق..

الجزء التالي ليس من مذكرات الدكتور (رفعت إسماعيل)

خاتمة..

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة حسناء المقبرة

الليالى المقمرة عالم ساحر .. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المفزعة التى يراها واسعو الخيال .. والليلة اكتمل القمر بدرًا .. و(براكاسا) كانت هناك .. عندئذ عرف د. (رفعت إسماعيل) أنه إنسان واسع الخيال .. واسع الخيال إلى حدّ مخيف!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة الغرباء

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

لدى
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٢٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]
أسماء القرى (كفر بدر) و (كفورداود) وهمية، فلا داعي لأن يجهد ساكنو (الشرقية) أنفسهم بحثًا عنها.. !

(بوسيدون) أو (نبتون) في معتقد الإغريق الوثني هو إله المحيطات. [←2]

[←3]

كانت الوجودية هي الموضة في تلك الأيام.. أيام (فيتنام) وثورة الشباب و (الهيبز) وفن البوب.

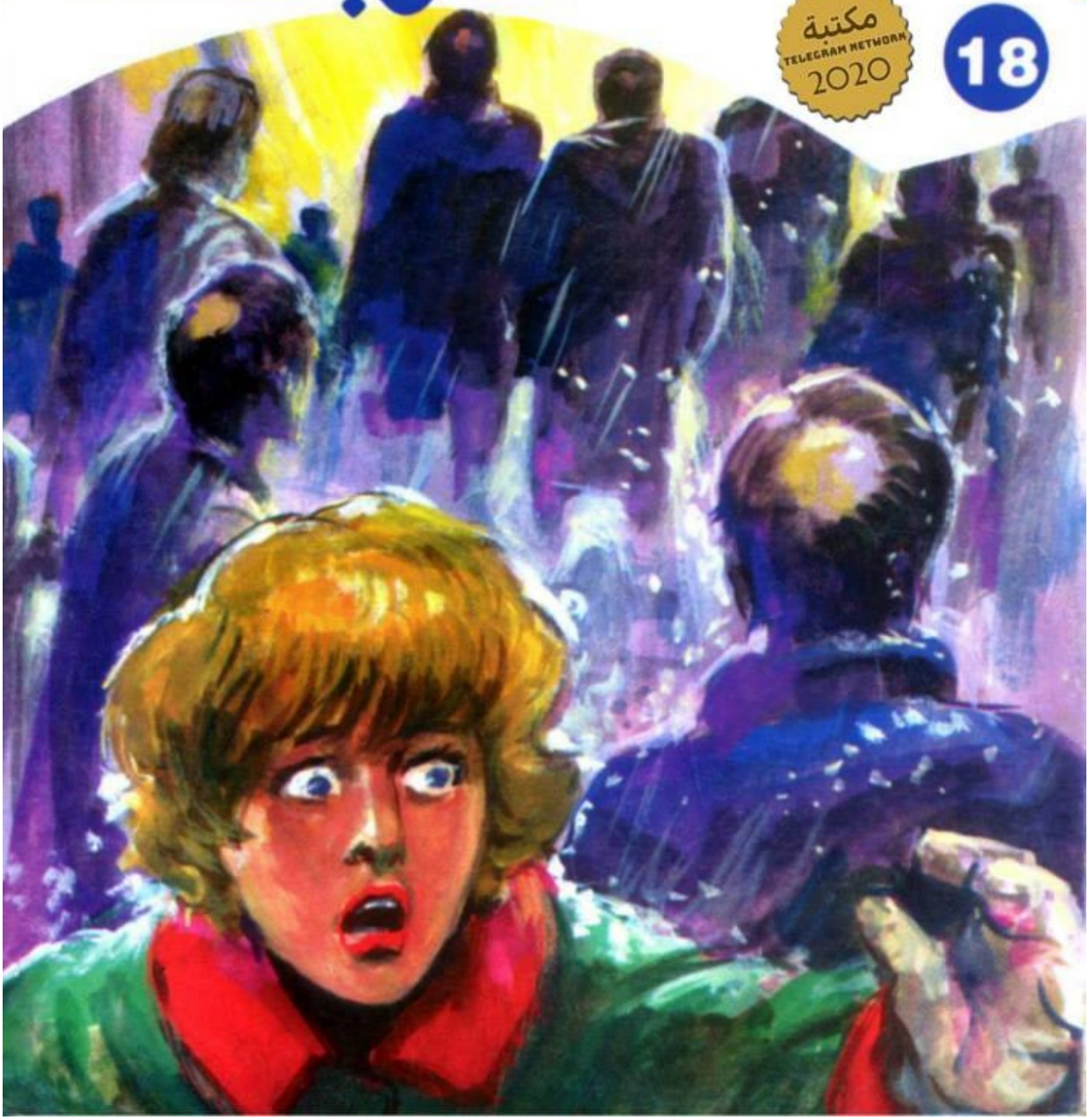
روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة الغربـــاء

18

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٨

روايات مصرية للجيب

•

ماوراء الطبيعة

أسطورة الغرباء

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

مقدمة

من جديد هو ذا د. (رفعت إسماعيل) يتحدث إليكم...

أرى - وهذا يسرني - أن عددكم قد ازداد كثيرًا وإنني لأجرؤ على مقارنته بالعدد الذي جلس حولي أول مرة كي يصغي إلي أسطورة مصاص الدماء...

عندئذ أفهم معنى الاهتمام ومغزى الحب...

هل جاء الجميع؟.. فلننتظر هنيهة.. لربما كان هناك من يلهث في الخارج تحت الأمطار باحثًا عن طريق مجلسنا هذا.. ولربما كان هناك من يصعد الآن درجات السلم.. ولربما هناك من تأخرت عقارب ساعته عن السابعة مساء.. موعدنا...

ما أقسى حياة لا ينتظر فيها السابقون من تأخروا عنهم..!

إن الحفاظ على المواعيد أمر لا بأس به، لكن التسامح فضيلة أكثر قيمة، ولن يفهم هذا سوى شيخ فان مثلي تعلم أن يسمع الأعذار أولًا قبل أن يعاقب أو يغضب...

هوذا آخركم.. تعال إلى المجلس ولا ترتبك.. ساعدوه على الجلوس.. قدموا له بعض الشاي.. هل هدأت نوعًا؟.. إذن اقترب مني وأصغ لحكاية الليلة مع من سبقوك.....

كانت آخر قصة حكيتها لكم هي قصة النبات.. لا خطأ هنالك.. فقصة (النافاراي) كانت تكملة لقصة (الكاهن الأخير).. وقصة الحسناء في المقبرة حدثت في أثناء مروري بأسطورة (النافاراي).. إذن التتابع الزمني الصائب يقول إن آخر قصة حكيتها كانت (النبات) تليها قصة اليوم.. القصة التي حدثت عام ١٩٦٨ في (سويسرا) لي أنا الكهل الذي بلغ من العمر أربعة وأربعين عامًا وقتها.....

والآن ماذا أقول لكم؟

نعم.. كما هي العادة..

أضيئوا الأنوار وأغلقوا الأبواب وأصغوا لما سأقول...

- ١ -

(في هذه المرة لن أتدخل قليلًا ولا كثيرًا في الأحداث.. سأتركها لتيارها الطبيعي كريشة عائمة في مجرى نهر، وسأترك لكم هذا الحشد من قصاصات الصحف والصور الفوتوغرافية وخلافه كي يجرفكم معه وكي تستنتجوا منه ما تستنتجون...
فقط تذكروا أن هذه الأحداث وقعت عام ١٩٦٨....)

* * *

مجلة أخبار الجامعة:

أ. د. (رفعت إسماعيل) يسافر إلى (سويسرا)

بقلم: (سلوى محمود) - السنة الرابعة.

قابلته قبل سفره بيومين - الأستاذ (رفعت إسماعيل) - وكان منهمكًا في إعداد أوراقه، غارقًا في التدخين كعادته، وبصعوبة نجحت في إقناعه بأن يتحدث إلى مجلة (أخبار الجامعة) وإلى طلبته الذين سيقرءون هذه السطور.

وفي مكتبه طلب لي مشروبًا باردًا ولنفسه قدحًا من القهوة، وأشعل سيجارة ثم جلس يجيب عن أسئلتي التي حاولت بها أن أكشف لكم - أخي الطالب وأختي الطالبة - بعضًا من عالم هذا الأستاذ الذي احترمناه جميعًا: د. (رفعت إسماعيل).

الأستاذ الدكتور (رفعت إسماعيل).. نريد معرفة ما في بطاقتك الشخصية..

سؤال غريب وإجابة - حتمًا - أغرب!

(كانت روحه المرحة تفيض على المكان، وتذكرت هنا ما يقال عن حبه الشديد للدعابة فضحكت، ثم واصلت الأسئلة):

فيم تفكر في هذه اللحظة؟

هذا لا يعنيك في شيء..!

ما هي هواياتك؟

التدخين!

يقولون إن لك صولات وجولات في عالم ما وراء الطبيعة وإنك واجهت كل أنواع الكوابيس والمسوخ.. فهل هذا صحيح؟ وما هو سبب هذا الولع؟

ربما أنهم لم يثيروا رعبي بما يكفي في طفولتي فنشأت ظامئًا إلى الرعب.

ولماذا لم يتزوج د. (رفعت إسماعيل) بعد؟

أستطيع أن أقول إن هذا ليس شأنك، لكنني لن أقولها لأنني لا أريد إلقاء (كرسي في الكلوب)، وعلى كل حال يمكن سؤال النساء عن هذا بدلًا مني. ربما كنت خير من ينطبق عليه بيت الشعر..

فأما الحسان فيأبيننني وأما القباح فآبى أنا!

إذن هل يمكن أن يقع د. (رفعت) في الحب؟

لا يوجد ما يمنع فأنا لست صنم (نسرا) أو تمثال (خفرع).. وإن كنت أدعو الله ألا يحدث هذا.. فالحب في الرابعة عشرة ضرورة.. وفي الرابعة والعشرين حياة.. وفي الرابعة والثلاثين حماقة.. وفي الرابعة والأربعين مأساة!

إذن أنت تكتب الشعر؟

إذا كنت تعتبرين ما قلت شعرًا فأنا لا أنكره...

ما هو رأيك في الصداقة؟

أتمنى أن أعرف سر اهتمام الفتيات بهذه التعريفات المقتضبة السخيفة اللواتي يكتبنها في آخر كراسات المحاضرات.. على كل سأقول لك أي شيء يخطر ببالي.. الصداقة كفاح!

كيف تكون الصداقة كفاحًا؟

لا أدري.. قلت لك أول ما خطر لي.. أليس هذا كافيًا؟

ما هو رأيك في المرأة؟

كائن طويل الشعر ويستطيع انتعال الأحذية ذوات الكعب العالي دون أن تنكسر رقبته..

ما هو رأيك في الجمال؟

الجمال أزرق!

ما معنى أن الجمال أزرق؟

لا أدري..

وما رأيك في الذكرى؟

الذكرى هي النار التي ستدفئ برد شيخوختنا..

لونك المفضل؟

الأسود!

مطربك المفضل؟

أنا.. في الحمام!

لماذا تسافر إلى (سويسرا)؟

يا له من سؤال!.. ليس للتزلج على كل حال..! إنني ذاهب إلى (جنيف) مقر منظمة الصحة العالمية لتقديم تقرير عن (الأنيميا) لدى طلاب المدارس في (مصر)، باعتبار (مصر) نموذجًا جيدًا للدول النامية، وبالطبع سيكون هناك آخرون من (الهند) و (إفريقيا الاستوائية) وغيرهما.....

هل هي زيارتك الأولى لهناك؟

إن المرء لا يزور (سويسرا) مرتين ما لم يكن مليونيرًا يطمئن على رصيده..

نتمنى لك رحلة طيبة وعودة سالمة.

شكرًا جزيلًا..

وهكذا - أخي الطالب وأختي الطالبة - أنهينا هذا الحوار الشيق مع أ. د. (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم بالكلية، وقد حاولنا أن نتعمق في شخصيته ونتفهم آراءه في الحياة ونزيل بعض علامات الاستفهام من حوله..

وفي عناية الله نترككم ونعدكم بلقاءات أكثر إمتاعًا مع عدد من أساتذة الكلية الأجلاء.

(سلوى محمود)

* * *

الصفحة الأولى من جريدة (.....):

(معجزة تنقذ طائرة مصرية)

برن - وكالات الأنباء:

نجا ركاب وطاقم إحدى الطائرات المصرية من حادث غير متوقع كان سيفضي إلى كارثة. حيث تعطلت محركات الطائرة لسبب غامض وهي موشكة على الهبوط. ثم تمكن قائد الطائرة من استعادة السيطرة والهبوط بسلام في (سويسرا) وجهة الوصول. وقالت السلطات في المطار إن الحادث نجم عن خلل في المحركات وأن نسبة حدوثه نادرة جدًا.

* * *

صفحات من نشرة سياحية مطبوعة بالإنجليزية:

(سويسرا: جنة الأرض)

لقد حبا الله (سويسرا) بالسلام والثراء والجمال، حتى غدت كواحة للأمان والهدوء وسط (أوروبا) المحتدمة بالصراعات.

ويرجع هذا إلى سياسة الحياد التي التزمت بها (سويسرا) بدقة، مما أدى إلى استقرار أوضاعها، وبعدها عن الحروب. وقد شجع هذا المستثمرين وأصحاب الثروات على إيداع أموالهم في بنوك (سويسرا) ذات الشهرة العالمية.

وتتكون (سويسرا) من اتحاد لاثنتين وعشرين مقاطعة - أو ما يسمونها (كانتون) - ويتوسط موقعها أربع دول هي (ألمانيا) و (النمسا) و (فرنسا) و (إيطاليا)، لهذا تشكل اللغة الألمانية ٧٢ ٪ من الألسنة، وتشكل الفرنسية ٢٠٪، والايطالية ٦٪، بينما تنفرد مقاطعة (جريسون) بنسبة ١٪ ممن يستعملون اللغة الرومانية.

وتمر بـ (سويسرا) سلسلتا جبال هما جبال (الألب) وجبال (جورا). وبين السلسلتين يوجد سهل فسيح. وتشتهر البلاد بمناطق الانزلاق التي يأتيها السياح من كل أرجاء العالم كي يستمتعوا بالتزلج على الجليد في (سان موريتز) و(دافوس) و (زرمات).

* * *

قصاصة من جريدة (نويشاتل) باللغة الألمانية:

انتهت اليوم آخر جلسات مؤتمر (الأنيميا) الثلاث، والذي قامت بتنظيمه منظمة الصحة العالمية في (جنيف). وقد ضم المؤتمر نخبة من أساتذة أمراض الدم في العالم، وإن كانت هناك وجوه غير معروفة - لنا على الأقل - من العالم الثالث. نذكر من هؤلاء البروفسير (ساروار) من (بومباي) و(إيديامي) من (نيجيريا) و(خوان رودريجز) من (كولومبيا) و(إسماعيل رفعت) من (مصر).

وقد التقينا بالأخير بعد أن أنهى المحاضرة القصيرة التي ألقاها عن مشكلة (الأنيميا) في (مصر) وسألناه:

- إذا ما تناسينا المصطلحات الطبية.. ما هو سبب مشكلة (أنيميا) أطفال المدارس في مصر؟

- أنا لا أرى أنها تشكل ظاهرة مروعة، إلا أن دودتي (البلهارسيا) و(الإنكلستوما) تلعبان الدور الأساسي عندنا..

- إذن ليس الفقر هو المشكلة؟

- الفقر مشكلة في حد ذاته لكنه ليس المتهم الوحيد.. هناك الديدان والخبز الأسمر وعادة احتساء الشاي بعد تناول الطعام.. بالإضافة إلى افتقار المواطن المصري إلى ثقافة غذائية سليمة عمومًا..

- وما هي خططك بعد انتهاء المؤتمر؟

- تلقيت دعوة إلى (بازل) من أستاذكم العظيم (فردريك شوندر) لأرى الجديد في صناعة الأدوية هناك، خاصة وقد أخبرني أن (بازل) هي مركز الصناعات الكيميائية عندكم، إن بضعة أيام هناك لن تؤذي أحدًا..

تمنينا للدكتور (إسماعيل) زيارة طيبة إلى (بازل)، ثم مضينا عبر أروقة المكان باحثين عن البروفسير (إيديامي) الذي حدثنا عن.....

* * *

<u>صفحة من نشرة سياحية بالألمانية:</u>

بازل: (بازل) هي المدينة السويسرية التي شقها نهر (الراين) إلى نصفين..

إن القادمين إلى (بازل) لابد أن ينبهروا بالتاريخ العريق لهذه المدينة، التاريخ الذي يرجع إلى ألفي عام منذ بناها الرومان في تلك الرقعة المتاخمة لـ (فرنسا) و(ألمانيا). وتشتهر المدينة - فضلًا عن صناعة الأدوية - بسوق (موسترميس) الذي يعرفه السياح جيدًا.

وفي وقت من الأوقات كانت (بازل) مركز الثورة على حكم الأساقفة، وبها طبعت تعليمات الراهب الثائر (مارتن لوثر) الذي بذر بذرة المذهب (البروتستانتي) في (أوروبا).

إن زائري (بازل) يعرفون جيدًا جمال المدينة، ويعرفون أنها أهم موانئ (سويسرا).

* * *

<u>قصاصة من جريدة (....) القاهرية:</u>

(النيزك لن يصطدم بالأرض)

وكالات الأنباء: أكد العلماء في وكالة (ناسا) الفضائية والعاملون بمشروع (أبوللو) أن النيزك شوهد يجتاز مجموعة الكويكبات يوم ١٤/ ٢ لن يصطدم بالأرض. ويؤكد د. (برت لامبرت) مدير المشروع أن مدار النيزك قد انحرف قليلًا عما هو متوقع وبالتالي فمن المؤكد أن يضيع في الفضاء. ومن المعروف أن توقعات العلماء كانت تشير إلى قرب سقوطه في مكان ما من (أوروبا). وبرغم أن حجم النيزك صغير نسبيًا إلا أن الأضرار التي كان ممكنًا أن يسببها سقوطه فوق إحدى المدن كان يثير قلقًا عامًا.

* * *



ويؤكد د. (برت لامبرت) مدير المشروع أن مدار النيزك قد انحرف قليلاً عما هو متوقع ..

قصاصة من جريدة (...) القاهرية:

بتاريخ (٦٨/ ٢/ ٢٤):

اجتماعيات:

تم أمس زفاف الآنسة (سميرة إبراهيم) إلى الدكتور (محمود عزمي).

في حفل عائلي بهيج تم عقد قران الآنسة (هويدا عبد المنعم) بالتربية والتعليم على الأستاذ (سيد الشمندوري) الموجه بالتربية والتعليم. ألف مبروك.

تمت خطبة الآنسة (سحر الشربيني) بالجامعة الأمريكية إلى رجل الأعمال (شريف إبراهيم).

تمت.....

* * *

صفحة (العلوم) بمجلة (....):

ماذا تعرف عن النيازك؟

برغم تأكيد العلماء أن النيزك الذى دنا من الأرض في ٢/ ١٤ لن يصطدم بها، إلا أن مسار النيزك اقترب من (أوروبا) بشكل غير مسبوق ثم اختفى تمامًا فلا يعرف أحد مصيره حتى هذه اللحظة!.

ويذكرنا هذا بحادث سابق شهير هو حادث نيزك (تونجوس) عام ١٩٠٨، فقد هوى هذا النيزك فوق غابات (التايجا) في (سيبيريا) ليملأ المكان نورًا.. وتكونت سحابة دخان هائلة.. وحدثت انفجارات مروعة وارتجت الأبنية وتهشم زجاج النوافذ ثم لا شيء[1].... وحتى البعثات السوفيتية التي ذهبت لمكان السقوط لم تجد شيئًا.. ولا حفرة واحدة.. ولا شظية.. فيما عدا أن الأشجار كانت متساقطة عبر دائرة قطرها مائة كيلو متر واتجاه جذوعها يشير إلى مركز الانفجار الذي أسقطها، الغريب هنا أن الأشجار كانت سالمة تمامًا في هذا المركز!.. فأين ذهب النيزك؟

وافترض الأمريكيان (جاكسون) و(ريان) أن هذا التأثير لا ينجم إلا من اصطدام الأرض بثقب أسود. على حين افترض السوفيتي (ستانيوكوفتش) أن ما اصطدم بالأرض هو نواة جليدية لمذنب صغير.. وأن هذه النواة قد ذابت لدى احتكاكها بجو الأرض وتبخرت محدثة انفجارًا.

وتفند النظرية الأولى حقيقة أن اصطدام الأرض بثقب أسود لن يمر بهذه البساطة.. وتفند النظرية الثانية حقيقة أن أحدًا لم ير مذنبات فوق (سيبيريا) عام ١٩٠٨.

وبالطبع ظهرت بعض الخزعبلات على غرار أن ما حدث كان انفجارًا نوويًا في محركات سفينة فضاء.. أو أن النيزك كان من مادة مضادة، لكننا واثقون بأن تفسير ما حدث موجود - أو لم تتم معرفته بعد - في قواعد علم الفلك.

إن تكرار حادث (تونجوسكا) بعد ستين عامًا ليدعونا إلى إعادة تأمل هذه الظاهرة المحيرة.

* * *

- ٢ -

(صورة وسط أشجار الصنوبر رائعة الجمال بها مجموعة من الأشخاص يبتسمون للكاميرا ببلاهة. أحدهم أشيب الشعر يدخن غليونًا، وأحدهم أصلع تمامًا ناحل الجسد يدخن لفافة تبغ وينظر في عصبية إلى قداحته التي تأبى أن تشتعل..)

(توجد أرقام صغيرة فوق رأس كل واحد من الواقفين تمت كتابتها بقلم جاف، وعلى ظهر الصورة تمت كتابة فهرس بأسماء القوم حسب الرقم).

١ - بروفسير (فردريك شوندر) مضيفي...

٢ - أنا.. (لم يخطرني المصور اللعين بأنه يوشك على ضغط الزناد وكنت منهمكًا في إشعال القداحة).

٣ - د. (هانز رايتمان) لا أدرى عمله بالضبط لكنه دائمًا هناك.

٤ - (مارتا) الحسناء سكرتيرة (شوندر)..

٥ -.....

٦ -.....

(بازل) ٢٥/٢/١٩٦٨

* * *

<u>قصاصة من جريدة سويسرية:</u>

يصل اليوم إلى قرية (موندهاوزه) فريق من علماء الفضاء السوفييت والأمريكيين لدراسة الآثار المحتملة لسقوط النيزك - الذي اصطلحوا على تسميته (نيزك موندهاوزه) - والذي دخل المجال الجوي في ١٤ فبراير، ويؤكد الأهالي بالقرية أنهم شاهدوا ضوءًا ساطعًا يعمي الأبصار، وسمعوا دويًا مرعبًا اهتزت له النوافذ وتحطم زجاج الكثير منها.

لكن لم توجد آثار مادية ملموسة للنيزك ولم يره أحد يسقط ولم تتناثر منه شظايا أو مخلفات مما يجعل الأمر مثيرًا لجدل علمي واسع.

وقد التقينا بالبروفسير (نيكفور أنسيمفتش) من معمل (لينجراد) لأبحاث الفضاء، وسألناه عن رأيه فيما حدث.. فقال لنا:

إن الأمر كله غريب.. ولقد قمنا بفحص دائرة قطرها ثلاثون كيلومترًا دون أن نجد أثرًا لهذا النيزك.. لا شيء سوى زجاج النوافذ المحطم وحكايات الأهالي. لقد حدثت الظاهرة ليلًا ولم تستغرق سوى عشر دقائق لكن الجميع رأوها هنا.

هل وجدتم اثار إشعاعات؟

بالطبع لا وإلا ما كنا هنا نثرثر.. إن ما حدث هو تكرار شبه تام لنيزك ١٩٠٨ في (سيبيريا) والذي اصطلح علماء الفلك على تسميته (نيزك تونجوس)، فيما عدا فارقًا واحدًا هو أن الأشجار لم تتحطم ولم تقتلع من جذورها.

هل تميلون إلى اعتبار ما حدث نوعًا من اللقاء مع سكان العوالم الأخرى؟

في الاتحاد السوفيتي لا نؤمن بهذه الترهات وليدة العقل البرجوازي وعشاق كتابات الخيال العلمي، ونحن نثق بوجود تفسير مادي جدلي لهذا الذي حدث.

أما الدكتور (مارك جودمان) من وكالة (ناسا) الأبحاث الفضاء الأمريكية فيؤكد:

أنا مؤمن بأن هذا نموذج آخر للقاءات اللصيقة من النوع الثاني، أي أن هناك من رأي جسمًا طائرًا غير معروف، وهذا الجسم قد ترك آثارًا مادية مؤكدة.

وهل هناك آثار مادية غير الزجاج المهشم؟

لقد قابلنا ثلاثة أو أربعة فلاحين كفت أبقارهم عن إدرار اللبن.. ونحن نقابل هذه الشكوى دائمًا في كل حالات ظهور الأجسام الطائرة غير المعروفة.. أو ما يسمونه بشكل أقل تحفظًا بـ (الأطباق الطائرة).

وما هي خططكم الحالية؟

لا شيء. سنقابل الجميع ونصغي لقصصهم. ثم نحلل دماءهم ونفتش كل مكان بحثًا عن الإشعاعات. ونرسل بعض الصخور والنباتات إلى معاملنا لفحصها، وفي العادة لن يسفر كل هذا عن شيء لكننا سنفعله على كل حال!

* * *

ركن (هواة الأدب) في مجلة (جيجنفارت):

وصلتنا قصيدة شعرية من (بيتر شمارت) الذي يبلغ من العمر عشرين عامًا ويقيم في (موندهاوزه) جوار (بازل). يقول (بيتر) إنه مولع بأشعار (شيللر) وإنه يكتب الشعر من قبل أن يتعلم الكلام.

ويصف (بيتر) لنا ليلة الرابع عشر من (فبراير) حيث رأى (رؤيا علوية) على حد قوله، وأنه رأى ملائكة السماء آتين من أجله (ليحملوه نحو السر الأعظم). ومن الواضح أن حادث النيزك الذي كاد يزيل قريته من على وجه الخارطة قد أثر في معنوياته كثيرًا، وها نحن أولاء نقدم لكم مقطعًا من قصيدته التي أسماها (نيزك):

لم يكن ثمة شيء..
إلا أنه حين دوّى اللحن العلوي..
والتمعت السماء ببرق غير أرضي..
عندئذ جاء الشيء..
كعنقاء جاءت من أرض الأساطير..
أو كمقطع من (باخ)..
أو حلم من دنيا (تريستان وأوزوالد)..
جاء يزور عالمي...
جاء يحملني معه إلى السر الأعظم...
لم أر وجوههم.. لم أسمع أصواتهم..
لكنني عرفت أنهم جاءوا.....

هذا هو المقطع الذي اخترناه من قصيدته مفرطة الطول، وسنسمح لأنفسنا أن نفترض أن (بيتر) يكتب الشعر في دورة المياه وعليه أن يكف عن هذه العادة إذا أراد أن يكتب شيئًا مقبولًا يومًا ما....!

* * *

ركن (حوادث وقضايا) في مجلة (جيجنفارت):

وجد أحد الحطابين جثة شاب طافية فوق مياه جدول في قرية (موندهاوزه) جوار (بازل)، وتبين مفتشو الشرطة أن الجثة لشاب من أهالي القرية يدعى (بيتر شمارت) (٢٠ سنة) وسبب وفاته أسفكسيا الغرق.

وقد أكد والده الذي يملك مزرعة صغيرة أنه يرجح انتحار ابنه، خاصة وأنه لم يعد على ما يرام في الآونة الأخيرة، وأنه شعر بعد سقوط النيزك بأن هناك حافزًا قويًا يدعوه إلى الصعود للسماء. ويؤكد الدكتور (هوفمايشتر) طبيب القرية أن ملامح الاكتئاب والتوتر بدأت تغير أسلوب الفتى وتعامله مع الآخرين مع تأكيده المستمر على (أنهم بيننا). ويؤكد الطبيب أنه عجز تمامًا عن فهم ما يعنيه بـ (هم).

ويثير هذا الحادث علامات استفهام عديدة حول أسباب انتحار الشباب في سن يمكن أن يقدم الكثير فيه.

* * *



وجد أحد الخطابين جثة شاب طافية فوق مياه جدول فى قرية

(موند هاوزه) جوار (بازل) ..

من مفكرة فرويلاين[2] (مارتا) سكرتيرة (شوندر):

الثلاثاء ٢٦/٢:

١ - الاتصال بـ (شنايدر).

٢ - حساب البنك.

٣ - السفر مع البروفسير وضيوفه إلى مسقط رأس البروفسير في (موندهاوزه) - حتى ٣/٣ - ثياب ثقيلة.

٤ - إرسال خطاب (أنجا) قبل السفر.

* * *

(صورة لنفس المجموعة السابقة - تقريبًا - في ثياب شتوية.. ليتكم ترون منظري بالقلنسوة ومعطف المطر.. هذه المرة نقف فوق الجليد، على حين تغطى الثلوج قمم أشجار (الشربين الفضي).. ومن بعيد تبدو مداخن الأكواخ مغطاة بالثلج الأبيض الناصع والبخار يتصاعد من أفواهنا..)

التقطت (مارتا) هذه الصورة لنا حتمًا لأنني لا أراها...

كانت هذه هي قرية (موندهاوزه) مسقط رأس (البروفسير) والتي أصر على أن نزورها خاصة وأنها لا تبعد أكثر من نصف ساعة عن (بازل).

١ - البروفسير (شوندر)..

٢، ٣ - أبوه وأمه، وإنني لأسائل نفسي عن سر بقائهما حيين كل هذه الأعوام.. في الواقع يبدوان لي أصبى من ابنهما.

٤ - أنا...

٥ - د. (هانز رايتمان)...

* * *

صور سخيفة لي وأنا أتأمل المعالم الساحرة المعتادة في هذه القرى.. أرتدى لوحتي التزلج وهم يحاولون إقناعي بأن أفعل شيئًا.. صور لي في أكواخ خشبية وسط فلاحين ذوي شوارب كثة يجرعون الجعة التي تتناثر رغوتها فوق المناضد..

* * *

قصاصة من جريدة (نويشاتل):

يغادر (سويسرا) اليوم وفد علماء وكالة (ناسا) الأمريكية ونظائرهم السوفييت بعد انتهاء عملية المسح الشامل الذي أجروه على موضع سقوط النيزك في قرية (موندهاوزه).

ويقول د. (جودمان) (أمريكا) أن البحث لم يسفر عن شيء برغم المحاولات المستميتة التي قاموا بها هناك.

- إن النيازك لا تظهر وتختفي بهذه الطريقة. أن يرى الجميع ضوءًا ويسمعوا أصواتًا، ويشير كل شيء إلى أن هذا الجسم يقترب، ثم فجأة لا يعود هناك نيزك، وتعود الحياة إلى ما كانت عليه.

إننا - في (ناسا) - لا نؤمن بالهلاوس الجماعية.. وحين يرى عشرة آلاف رجل ظاهرة ما فمن الصعب أن نعزو هذا إلى الإيحاء.

ما من فلكي لا يذكر نيزك (تونجوسكا) الذي رآه كل سكان (سيبيريا) يهوي فوقهم، ثم تلاشى دون أن يترك أثرًا.

نحن - في (ناسا) - نميل إلى اعتبار هذه الظاهرة ناجمة عن اصطدام ثقب أسود صغير بالأرض.. فقط الثقوب السود لا تنفجر إلا إلى الداخل.. وقوة جاذبيتها الكاسحة تمنع بعثرة الجسيمات التي يصطدم بها الثقب الأسود..

إن السوفييت ميالون أكثر إلى فكرة المذنب الجليدي الذي يذيبه الاحتكاك بالهواء فلا يبقى له أثر. كالرجل الذي يقتل خصمه بلوح من ثلج فإذا ما ذاب الثلج اختفت أداة الجريمة.

إنني أرى الاحتمال الأخير وجيهًا خاصة وأننا - في هذه المرة - رأينا مذنبًا كاملًا يدنو من (أوروبا)، في عام ١٩٠٨ لم يكونوا قد رأوا أية مذنبات.

وعلى كل حال أرى أننا قمنا بكل ما يجب عمله، وقد حان الوقت لنعود إلى معاملنا حاملين عيناتنا وعلامات استفهامنا.

* * *

ركن (جراح القلوب) بمجلة (جيجنفارت):

عزيزتي (مارليز):

أكتب إليك هذا الخطاب للمرة الأولى، ولا أدري السبب في الواقع.. فأننا لا أثق كثيرًا بالمشاكل التي تنشرها المجلات ولا أعتقد دومًا في صحتها.. أحيانا أحسب أن أكثر من كاتب قصة قصيرة مغمور يتسلى بتأليف مشاكل تنشرها مجلاتكم.....

على كل حال وجدت نفسي في تلك المرحلة التي يحتشد فيها الدخان الأسود في الصدر فلا يجد مخرجًا إلا على شكل حبر أسود يخطه قلمي في رسالة إليك.....

هو: شاب في الخامسة والعشرين.. وسيم.. ناجح.. ويحبني..

أنا: فتاة حسناء لطيفة كما يقولون...

جاء إلى بلدتنا - وهي بالمناسبة قرية صغيرة جوار (بازل) - منذ عام هو وأسرته، وكانت هذه هي البداية.. أنت تعرفين كيف تتم هذه الأمور...

دعوة إلى حفل راقص.. همسة في أذني.. الخروج معًا في ليالي الصيف إلى الغابات.. ألحان الـ (روك أند رول)..

زهرة (البانسيه) خلف أذني والآمال في قلبي.. أبواه راضيان عن علاقتنا..

أبواي فخوران بها.. الكل في القرية ينتظر...

وفي تلك الأمسية - ليلة رأس السنة - قال لي وهو يلهث إنه يحبني ولن يرضى عني بديلًا.. وقدم لي خاتم خطبة بسيطًا وطلب مني الزواج.. ولم يدعني أقدم ردي إلا بعد أن أمعن الفكر في مطلبه. ولم أكن - في الواقع - بحاجة إلى هذه المهلة...

ومرت أيام..
حدث شيء أليم لأخيه الأصغر (في العشرين من عمره) بعد معاناة قصيرة مع المرض النفسي.. انتحر هذا الأخ في الجدول..
لكن الأحزان تنتهي.. ومهما حدث لابد من نقطة تتوقف عندها العواطف وتبدأ الحقائق..
انتحيت به جانبًا بين أشجار (الكرك) المحيطة بداره، وقلت له إنني أوافق بكل سرور على ما طلبه مني لأنني أرى الوقت مناسبًا كي أكون بجواره..
وهنا أثار رد فعله ذهولي...
لم يبد على علم إطلاقًا بما أتحدث عنه.. كأنني لم أتفق معه على شيء.. ثم تركني وفر عائدًا إلى داره وسط نظراتي الحيرى.
ماذا دهاه؟
ما سر هذا التبدل الذي جعله شاردًا غريب الأطوار؟.. بل وأن جزءًا من مؤخرة رأسه قد صار عاريًا من الشعر تمامًا الأمر الذي أكد لي أنه يعاني توترًا قاتلًا.....
هل هو يخدعني؟.. هل أحس بأنه تسرع في عرضه؟.. أم هو ضحية صدمة عصبية تلت وفاة أخيه؟..
ما رأيك في هذا التصرف الشاذ عزيزتي (مارليز)؟
بإخلاص (إنريكه) - (موندهاوزه)

* * *

عزيزتي (إنريكه):
حاولت أن ألخص خطابك للقراء نظرًا لطوله المفرط.. ودعيني أؤكد لك أنني شعرت بأسى بالغ من أجل حلمك الوليد، لكنني لا أدري السر الحقيقي وراء هذا التجاهل..
وإن كنت أميل للاعتقاد أنها حال طارئة تلت وفاة الأخ، فإما أنها نوع من النسيان الهستيري يحاول بها أن يمحو الامه، وإما هو يعرف أن أخاه انتحر لأنه يحبك - هذا احتمال وارد.. ألم تفكري فيه؟ - ولعبت عقدة الذنب دورها...
لا شيء أنصحك بعمله...
كل ما عليك هو الانتظار..
فإما أن يبرأ من ألمه ويعود لك دامعًا طالبًا الغفران، وإما أن يرحل للأبد وينتهي هذا الفصل من حياتك، عندئذ يا صغيرتي دعيني أصارحك بأنك بعد شابة وجميلة (كما تقولين إنهم يقولون). ولم تحن قيامة العالم بعد...
هناك آخرون ينتظرون في الصف، فلم لا تعطينهم فرصة؟!
(مارليز)

* * *

من ملفات د.(هوفمايشتر) الطبية:

الاسم: (هاينز شمارت).
السن: ٢٥ عامًا.
المهنة: رسام.
الرقم: ٤ ١٨٣٤ - ب.
الشكوى: نقص في الوزن - تساقط شعر الرأس - توتر عام.
الفحص: يعاني الشاب من نقص مطرد في الوزن (حوالى ٢ كجم) في الأسبوع مع شهية طيبة للطعام..
يوجد تساقط للشعر في مؤخرة الرأس - الجلد سليم تمامًا فلا ندوب ولا التهابات ولا قشور (فقدان شعر منطقي؟) - الجزء الذي تساقط عنه الشعر يشبه دائرة كاملة الاستدارة.
الفحص المخبري: لا فطريات في فروة الرأس - تحليل السكر سلبي - هرمونات الغدة الدرقية عادية - لا طفيليات[3].
التشخيص:
إنها لحالة محيرة، وإنني لأميل لاعتبارها ناجمة عن فرط التوتر الذي تلا وفاة أخيه (بيتر).. لقد كان (بيتر) هو الآخر غير مستقر نفسيًا وكانت له هلاوس عدة.. وأعتقد أن هذا هو ما حدث مع (هاينز).
من الواجب هنا أن أذكر أن (هاينز) لم يبد أدنى استعداد للتعاون، وأنني قمت بفحصه قسرًا بناء على طلب أبويه اللذين أقلقهما تدهور صحته وميله للانعزال ومشاجراته المستمرة مع (إيرين) شقيقته الصغيرة (١٠ أعوام).
لهذا كله أؤثر أن أسمى الحالة (اكتئاب تفاعلي حاد).
العلاج:
مضاد اكتئاب حلقي ثلاثي إلى أن تتضح الصورة أكثر.

* * *

صفحات من مجلة (موندهاوزه):

لما كانت مجلتنا معنية بكل جديد في قرية (موندهاوزه) - باعتبارها مجلة محلية يصدرها نادي شباب القرية - فإننا فخورون بأن نقدم لكم ضيفًا جاء قريتنا منذ أيام بعد ما شارك في أحد مؤتمرات الصحة العالمية في (جنيف)، وهو البروفسير (رفعت إسماعيل)، مصري آت إلينا من أرض النيل والأهرام، في وطنه يقوم بتدريس أمراض الدم لطلاب الطب، وقارئ ممتاز، ويملك خبرة لا بأس بها بعالم ما وراء الطبيعة كما قال البروفسير (شوندر) عنه.. فهو الرجل الذي

يزعمون أنه واجه لعنة الفراعنة و (الزومبي) ووحش (لوخ نس) ويعرف الكثير عن حقيقة (الياتي) ومذءوبي (رومانيا)..

ولما كانت قريتنا قد جابهت حادث النيزك الغامض منذ أيام معدودة - مع ما يحمله ذلك من احتمال وجود طبق طائر أو شيء من هذا القبيل - فإننا طلبنا من د. (رفعت) أن يكتب لنا مقالًا عن رؤيته الخاصة للأحداث واحتمالات قدوم سكان من عوالم أخرى، فكان هذا المقال الذي ترجمه من الإنجليزية إلى الألمانية البروفسير(شوندر) بنفسه:

طلبت مني مجلة (موندهاوزه) - مشكورة - أن أبدى آرائي في أمور لا أعتقد أنني خير من يتحدث عنها، لكن الطلب أثلج صدري وأرغمني على أن يكون لي رأي في أمر لم يشغل بالي قط.

ونظرًا لأنني لا أجيد من الألمانية سوى ست كلمات وجملة واحدة هي: كاين دويتش (لا أتكلم الألمانية)!، فإنني كتبت ما أريد قوله بالإنجليزية على أن يترجم هذا فيما بعد.

سألني محررو المجلة الكرام عن رأيي في وجود زائرين من عوالم أخرى، وقد شعرت بأنهم يتوقعون أن أقول: نعم، وأبدأ في سرد قصص ممتعة للغاية حدثت لي شخصيًا..

الواقع أنني سأخيب أملهم.. فأنا لا أعتقد في وجود شيء ما. وأثق تمامًا بأننا منفردون معزولون في هذا الكون اللامتناهي..

ما هي حجتي في هذا التصريح المتعسف؟..

أولا: لم تنجح كل محاولات المراقبة السمعية للفضاء - بكل الأجهزة الضخمة المتاحة - في اكتشاف إرسال لاسلكي يشتبه في كونه ذا أصل اصطناعي.

ثانيًا: يرى عالم الفضاء الروسي (شكلوفسكي) أنه ما دامت هناك فترات نشوء متباينة في الكون فمن المحتم أن تسبقنا حضارات عدة تكون بالنسبة لنا (عليا)، ومن المحتم أن تتأخر عنا حضارات أخرى، الحضارات المتأخرة لن تتصل بنا.. أما الحضارات المتقدمة فبالتأكيد وصل بعضها إلى تقنيات عالية وأساليب راقية لاستخدام الطاقة، مما يجعل اتصالها بنا أكيدًا.

لكن هذه الحضارات العليا لم تتصل بنا بعد.. إذن لا توجد حضارات عليا، وبالتالي فلا حضارات على الإطلاق.

إنني أومن بهذا المنطق تمامًا.

ثالثًا: أنا أعرف أن الفضاء غني جدًا بالكربون - أساس الجزيئات الحية - وأعرف أن الغازات ما بين المجرات تخلق فيها جزيئات عضوية معقدة، لكن هذا لا يعني وجود حياة.. بل يعني أن تكوين كوكب من سحابات الغاز هذه يؤدي إلى هدم هذه الجزيئات المعقدة، وهذا يعني أن الجزيئات العضوية توجد في الفضاء لكن ليس على سطح الكواكب وهذا دليل آخر.

أنا أتمنى أن نقابل كائنات الفضاء في حياتنا، لكني أرفض تمامًا أن نضيع الوقت والمال بحثًا عنها..، إذا كانت هذه الكائنات هنالك فلتأت وإلا فلتدعنا مع مشاكلنا العتيقة المعروفة: المرض.. الفقر.. الجوع.. الطغيان...

* * *

<u>عدد تال من نفس المجلة:</u>

بريد القراء:

(س. ر. ك): إنني أعتبر نفسي من قراء مجلتكم المدمنين. إلا أنني في عدد سابق قرأت مقالًا يدل على الغباء عن سكان الكواكب الأخرى، كتبه شخص يتظاهر بأنه لا بأس به.

وإنني لأرجو أن تتوخى المجلة الحرص فيما تكتبه وتنشره بعد ذلك لأن أمثال هذا المتعصب يقللون من أرقام التوزيع إلى حد لا يصدق، ويبلبلون الفكر بعدوى من عقولهم المريضة المحرومة من ملكة الخيال.

* * *

<u>قصاصة من إحدى الصحف:</u>

النشرة الجوية:

تتزايد برودة الطقس بشكل مطرد وتهطل أمطار جليدية على شمال البلاد حيث تنخفض الحرارة إلى عشرين درجة تحت الصفر. ومن المحتم أن يؤدي الجليد إلى حصار بعض القرى الجبلية، أما في الجنوب فيكون الطقس مطيرًا باردًا. لهذا نقول لسكان الشمال أن يأخذوا حذرهم وألا يفرطوا في التفاؤل!..

* * *

<u>ركن (طبيبك) بمجلة (جيجنفارت):</u>

• (ملدريد إ.) قارئة من إحدى الضواحي لاحظت أن شقيقتها قد فقدت الكثير من وزنها في الآونة الأخيرة، وتقول إن هناك جزءًا عاريًا من الشعر في مؤخرة رأسها.. وإن هذا الجزء يشبه دائرة كاملة الاستدارة. وتقول إن شقيقتها تأبى إجراء فحوص طبية أو حتى السماح لطبيب بأن يراها. وفي النهاية تتساءل (ملدريد) ما إذا كان هذا المرض معديًا، وما هي احتمالات إصابتها هي به؟ كما تتساءل عما إذا كان امتلاك أسرتها لثلاث قطط وكلب له دور في هذا؟

البروفسير (إ. هوزه) أخصائي الأمراض الجلدية يجيب قائلًا:

ربما كان هذا نوعًا من (فقدان الشعر المنطقي) مصاحبًا لتوتر أو إرهاق عام، وربما كان نوعًا من العدوى الفطرية للشعر. وفي كل الحالات لا يمكن أن نقرر قابلية العدوي - والشفاء - دون أن نرى رأس شقيقتك المتصلب. حاولي إقناعها بأخذ رأي أحد الأطباء الموثوق برأيهم.

• (هنكل و.) من نفس الضاحية يلاحظ تبدلًا غير عادي في طباع صديقه الوحيد، ويخشى أن يكون قد سقط فريسة عقار (إل إس دي) الذي قرأ عنه كثيرًا.

الدكتور (شوستر) من (بازل) استشاري الأمراض النفسية يقول:

أنت لم تحدد لنا ما تعنيه بتبدل الطباع. إن عقار (إلى إس دي) - أو (ليزرجيك أسيد داي إيثيل أميد) - ليس هو المخدر الوحيد في العالم حتى تتهمه، فضلًا عن أن الشباب في (سويسرا) لا يعرفه لحسن الحظ.

وعلى كل حال ثمة أمراض عديدة قد تتداخل علاماتها مع أنواع المخدرات، ولكم من مرة قبض البوليس على مخمور يترنح ثم اتضح بعد ذلك أنه مصاب بغيبوبة نقص السكر.

نحن لا نريد أن نظلم أحدًا. يمكنك أن تحضره لمقابلتي في (بازل) وعندئذ نستطيع وضع النقط على الحروف.

* * *



لاحظت أن شقيقتها قد فقدت الكثير من وزنها فى الآونة الأخيرة .

وتقول إن هناك جزءا عديد من الشعرة فى مؤخرة رأسها ..

منشور من بلدية (موندهاوزه) للسكان:

نظرًا لسقوط الثلوج بكثرة في الأيام الثلاثة السابقة، صارت مغادرة القرية متعذرة، لكن الاتصال الهاتفي سليم ويمكن لخدمات الهاتف والبرق أن تستمر طيلة فترة الحصار.

نحن بحاجة إلى متطوعين يعاونون في إزالة الثلوج من الطرقات الرئيسية، ونهيب بالأهالي ألا يقلقوا لأن الحصار لن يستمر أكثر من أسبوع حتى يذوب الجليد أو تأتي الكاسحات أيهما أسرع.

إن لدينا ما يكفي من المؤن والوقود. ويمكن لمن يحتاج إلى أخشاب أن يحصل على حاجته من مخزن البلدية.

* * *

تلغراف إلى (بازل):

حبيبتي..

لا تقلقي (قف) اضطرتنا ظروف المناخ إلى إطالة إقامتنا في (موندهاوزه) (قف) معي ضيوفي (قف) سنعود بعد أسبوع.

زوجك (فريدي)

* * *

صورة غريبة جدًا للثلوج تحاصر النوافذ كأننا في (سيبيريا).. لقد بلغ ارتفاع الجليد مترًا ونصف المتر..

تجمد الماء في المواسير فكان علينا إذابته بالمشاعل لنحصل على حاجتنا منه.. واضطر الأهالي - كما ترى في الصورة - إلي حفر أنفاق أمام أبواب ديارهم ليتمكنوا من الخروج والدخول..

الواقع أن كل شيء في الجو كان يروق لحيوانات (الرنة) وكلاب (الهسكي) و (بابا نويل).. لكنه - حتمًا - لا يروق لعجوز مثلي يرتدي الجوارب الصوفية حتى منتصف (مايو) في مصر!

* * *

من مذكرات د. (هوفمايشتر):

هل هو وباء؟

أشعر بريبة مما أراه لكنه حقيقي.. إن هناك عددًا لا بأس به من (حالات تساقط الشعر الدائري) وفقدان الوزن في الآونة الأخيرة.. وكلهم مراهقون أو شباب..

إن هذا لعجيب..

حالة (هاينز) تتكرر باطراد غير عادي، فما هو التفسير؟.

لو لم يقولوا إن النيزك الذي كاد يدمر قريتنا كان خاليًا من الإشعاعات لظننت أن ما أراه هو تأثير إشعاعي مدمر..

حين تتحسن الظروف الجوية سأبرق إلى (وزارة الصحة) طالبًا رأيهم، وسأتخذ من الإجراءات ما يلزم لفحص دماء هؤلاء الشباب.. فمن أدراني أن سرطان الدم لم يتفش فيهم على غرار ما حدث

بعد قنبلة (هيروشيما)؟..
الأكثر غرابة هنا هو التغيير النفسي والاكتئاب الذي أصاب كل هؤلاء.. أنا لا أفهم سببًا له في الواقع، وأرجو أن أجد من يساعدني على الفهم..

* * *

من مفكرة فرويلاين (مارتا) سكرتيرة (شوندر):
الأحد ٣/ ٢:
١ - حضور الصلاة في الكنيسة.
٢ - موعد مع د. (هوفمايشتر) في العيادة بناء على طلبه.
٣ -.....

* * *

تفريغ تسجيل الحوار تم بين البروفسير (شوندر) ود. (رفعت إسماعيل) ود. (هوفمايشتر) ود. (هانز رايتمان).
(أصوات جلبة، صوت أقداح تصطدم، ضحكات).
د. (شوندر): وكما قلت لك من قبل...
د. (رايتمان): لماذا تقوم بالتسجيل؟
د. (هوفمايشتر): أحتاج إلى مراجعة كل ما سيقال في هذه الجلسة.. أنا أعرف يا بروفسير (شوندر): أنك مختص بأمراض الدم فضلًا عن كونك من أبناء قرية (موندهاوزه) ويهمك أمرها..
د. (شوندر): هذا صحيح..
د. (رفعت): إنه منتم كما يجب أن يكون قالها بالإنجليزية، (الملاحظ في هذا التسجيل أن د. (رفعت) يفهم الألمانية إلى حد ما لكنه عاجز عن استخدامها، ولهذا لم يكن بحاجة إلى مترجم..).
(صوت ضحكات)
د. (رايتمان): أنت تتكلم كأنها نهاية العالم..
د. (هوفمايشتر): أخشى أنني أشعر بذلك فعلًا..
د. (شوندر): هلا تحدثت بوضوح أكثر..
د. (هوفمايشتر): إن القصة تتعلق إلى حد كبير بحادث سقوط ذلك النيزك الذي لم يسقط قط.. لاحظت حالتين مرضيتين فريدتين في أسرة واحدة.. أولًا الشاب (بيتر شمارت).. شاب عادي جدًا في العشرين من عمره رأى ظاهرة الضوء العجيبة فبدأ حالة من (الانجذاب) غير المبرر نحو رؤيا علوية زعم أنها جاءت ليراها..، بعد ذلك بأيام نجده متوفيًا غارقًا في الجدول، وكل شيء يؤكد أنه انتحر...
د. (رفعت): هذا ليس مستحيلًا.. لقد شعر أن السماء تناديه أو أي شيء من هذا القبيل.. (بالإنجليزية).
د. (هوفمايشتر): لكن القصة لم تنته عند هذا الحد.
د. (شوندر): هلا كففت عن الاستنتاجات بعض الوقت يا د. (رفعت) حتى نسمع القصة كاملة؟

د. (هوفمايشتر): بعد هذا نرى أعراضًا اكتئابية حادة تحاصر شقيقه الأكبر (هاينز).. إنه يفقد وزنه باستمرار.. وثمة دائرة خاوية من الشعر في مؤخرة رأسه..
د. (رايتمان): وماذا في ذلك؟.. إنه التوتر..
د. (هوفمايشتر): خطر لي ذلك طبعًا وعالجته بأدوية اكتئاب والمهدئات على الرغم منه في الواقع لأنه كان نافرًا من أي علاج أو فحص.. ونسيت الأمر برمته.. إلا أنني بدأت أرى هذه الحالات بشكل أكثر من المعتاد..
د. (شوندر): ماذا تعني؟.. رأيت نفس الحالة مرارًا؟
د. (هوفمايشتر): رأيت ثلاث حالات في أسبوع واحد.. فهل ترى هذا العدد كافيًا لإثارة الريبة؟
د. (شوندر): ونفس رقعة الشعر المستديرة؟
د. (هوفمايشتر): بالتأكيد...
د. (رايتمان): لكن هذا يؤكد وجود نوع من العدوى.
د. (شوندر): لم يسمع أحدنا عن وباء يحدث نفس الأعراض.. وفي نفس الموضع..
د. (رفعت): ما هو احتمال أن تكون مصادفة؟
د. (هوفمايشتر): لست خبيرًا رياضيًا.. لكن احتمال تكرار هذه الصورة في هذه القرية لابد أنه لا يتجاوز واحدًا في البليون...
د. (رفعت): وهذا هو ما يحيرك؟
د. (هوفمايشتر): نحن معزولون في القرية وأنا المسئول الوحيد عن صحة أهلها، وهي مسئولية ثقيلة جدًا.. أثقل من أن أحتملها وحدي.. لابد من رأي آخر معي...
د. (شوندر): ولكن ماذا يثير توترك إلى هذا الحد؟ هل ثمة خطر مباشر على هؤلاء؟
د. (هوفمايشتر): لا أستطيع استبعاد هذا..
د. (شوندر): آه.. أنت تفكر في (هيروشيما) أو شيء كهذا.
د. (هوفمايشتر): هذا وارد...
د. (رايتمان): إذا سمحتم لي.. لماذا نفترض وجود علاقة مباشرة لما يحدث بسقوط النيزك؟
د. (هوفمايشتر): لأن حدوث ظاهرتين غريبتين منفصلتين في شهر واحد أمر لم يألفه البشر حسب نواميسهم...
د. (شوندر): إذن فلنرتب أفكارنا.. الاحتمال الأول هو احتمال وجود إشعاعات غامضة خرجت من النيزك..
د. (رايتمان): الاحتمال الثاني هو احتمال حدوث وباء جاء به النيزك أو لم يجئ به.. سيان...
د. (رفعت): الاحتمال الثالث هو حدوث مصادفة أدت لاحتشاد عدة حالات غامضة لكل منها تفسير خاص بها..
د. (شوندر): قوانين الاحتمالات تنفي هذا الاحتمال..
د. (رايتمان): الاحتمال الرابع هو أن هناك غزوًا ما قد حدث لأجساد هؤلاء الضحايا..
د. (شوندر): غزوًا ممن؟.. تعني كائنات غير مرئية؟
د. (رايتمان): لم لا..؟.. إن تغير الشخصية يعزى - منذ فجر التاريخ - إلى مس شيطاني، وهذا المس يحدث علامة ما في جسد الضحية.. لم لا نعيد إحياء هذا المعتقد الآن؟..
د. (رفعت): إن هذا الاعتقاد عسير الهضم...

د. (هوفمايشتر): الحق يا سادة أن هذا ما يقلقني..
د. (شوندر): ماذا تعني؟..
د. (هوفمايشتر): ثمة دلائل معينة توحي لي أن هؤلاء الأشخاص لم يتغيروا بالمعنى الحرفي.. أحيانا يخيل إلى أنهم لم يعودوا هم.. كأنهم صاروا آخرين!
(صوت شهقة ذعر.. صوت قدح يتهشم..)..

* * *

- ٤ -

ركن جراح القلوب بمجلة (جيجننفارت):

عزيزتي (مارليز):

كتبت لك منذ أيام أحكي لك قصة فتاي الذي وعدني بالزواج ثم حدث له تغير مريب في شخصيته بعد وفاة أخيه الصغير، مما جعله ينكرني تمامًا بل ويفر مني فرار السليم من المجذوم...

قرأت ردك وراق لي كثيرًا واخترت أن أنتظر عله يشفى من العاصفة التي هزت عالمه ويعود لي..

بالفعل عاد.. لكن عودته كانت أكثر غرابة من رحيله..

أسكن أنا وأسرتي في بيت من طابقين عند أطراف قريتي، وكانت السيول الثلجية قد غمرت البلدة حتى ارتفع الجليد محاصرة الديار جميعًا..

وكنا نمضي وقتنا في البيت بين جلوس حول المدفأة نقرأ.. أو نستمع إلى المذياع.. أو أحاول الرسم بألوان (الباستيل) التي علمني هو استخدامها يومًا ما..

وفي تلك الليلة صعدت إلى غرفتي بالطابق الثاني فشرعت أصغي إلى موسيقا (الروك) وأحاول تطريز (بول أوفر) يناسبه لو جاء لي يوما عائدًا نادمًا...

وهنا سمعت طرقات على زجاج النافذة فأجفلت..

إن نافذتي - كما قلت - تقع في الطابق الثاني، وبالطبع لم يرتفع الجليد إلى هذا الحد.. فمن الذي يقرع الزجاج إذن؟

نهضت في توجس إلى النافذة التي احتشد الجليد على إطارها السفلي فرأيت وجهه هو!.. هو بالذات وهو يلهث بردًا وإعياءً وقد ارتدى قلنسوة من الفراء..

وبصعوبة أدركت أنه متعلق بماسورة الصرف بيده الأخرى.. فتحت المزلاج في عصبية فانساب الثلج والهواء البارد إلى الداخل وعلى السجادة تكونت قطرات ماء من قطع الجليد الدقيقة التي ذابت هناك..

ورأيته يستجمع قواه حتى حشر جسده في الإطار ثم وثب إلى الداخل ليتكوم على الأرض..

سألته في لوعة ورعب عما جاء به هاهنا، فقال وهو يرتجف إنه كان بحاجة إلى الانفراد بي ليخبرني بشيء هام..

ساعدته على خلع معطفه والجلوس جوار المدفأة وشرعت بفرشاة خشنة أزيل الجليد عن كتفيه وخصلات شعره..



ورأيته يستجمع قواه حتى حشر جسده فى الإطار ثم وثب إلى الداخل
ليتكوّم على الارض ..

فما إن استعاد روعه حتى قال إننا يجب أن نرحل معًا وألا يعرف أحد برحيلنا.. كيف؟ من النافذة طبعًا!..

هنا - أصارحك عزيزتي (مارليز) - تحركت في أعماقي نشوة الأنثى وفخارها.. فها هو ذا حبيبي قد تجشم المخاطر من أجل أن يصل إلى، و هوذا يدعوني إلى مغامرة صغيرة من النوع الذي يحدث للأخريات فقط..

فهل أرفض دعوته؟.. لقد كانت لقلبي الكلمة العليا على عقلي.. فتدثرت في معطف ثقيل ووضعت على رأسي غطاءً ثقيلًا ثم تسلقت النافذة بمعاونته وشرعت أنحدر بحذر على الماسورة بعدما واربت النافذة طبعًا..

لم يكن الأمر صعبًا - وهذا لا يقلل مخاطرة فتاي - لأن الجليد كان مرتفعًا حتى أن السقوط من النافذة لم يكن يعني سوى ارتفاع ثلاثة أمتار لو حدث...

وعلى الثلوج شعرت به يمسك يدي ويقودني في الظلام إلى... إلى الغابة المظلمة الباردة حيث تقف أشجار (اللارك) كنواطير أسطورية تراقب المكان، وتخيف من تسول له نفسه الاقتراب.. سرنا بضع دقائق وهو صامت... صامت...

وفجأة استدار لي وهمس. إنه يعتذر على كل ما بدر منه من تجاهل لي في الآونة الأخيرة.. قال لي إن إرادته سلبت يوم مات أخوه.. قال لي إنني الأولى والأخيرة.. قال لي إنني رفيقة دربه و..... و....

إن الانبهار لمعدٍ.. ولقد كنت أسمع أنفاسه المبهورة فأشعر بأنفاسي هي الأخرى تتقطع.. وفي عينيه كان ذلك النداء الذي أغرق الفئران في النهر في قصة الأخوين (جريم)..

قال لي إن له عددًا من الأصدقاء يريد مني أن أتعرفهم..

وإن هناك الكثير مما يمكن أن نقوم به ما لو أنني صرت واحدة منهم.

وهنا رأيت ظلالًا وأشخاصًا يدنون منا فوق الجليد.. إنني أعرف هؤلاء.. كلهم من قريتي...

كانوا يبتسمون.. أربعة شبان وفتاتان....

ابتسمت لهم في حرج - فلم أتوقع أن يرونا في هذه الخلوة - لكنهم لم يبتسموا.. الظلال تغمر ملامحهم والظلام يغلف سماتهم..

دنوا منا أكثر ولمحت عيونهم تلتمع..

كان شيء ما غير مريح في ملامحهم.. بالواقع لم يكن أي شيء مريحًا في ملامحهم..، وسمعت إحداهن تقول لي:

- هلمي يا (إنريكه).. كوني واحدة منا..

وابتسمت أكثر..

سألتها في حيرة وأنا أتخذ من إحدى الأشجار واقيًا لظهري:

- أنتم؟.. من أنتم؟.

- نحن.. الغرباء!

دوى صوتها البارد في الظلام فشعرت برأسي يدور..

امتدت يد فتاي إلى يدي، وشعرت بضغطة ملأى بالرفق والمودة.. وسمعته يغمغم:

- لا تخشي شيئًا يا (إنريكه) ما دمت أنا معك..

وفي يده لمحت زجاجة صغيرة مغلقة أزال سدادتها وقربها من فمي في رقة وهو يهمس بصوت كالفحيح جمد تعاريج مخي:
- هيا.. إشربي من هذا..
- لكن..
- هلمي يا (إنريكه).. كوني واحدة منا..
وفجأة تعالى نوع من الهتاف الخفيف.. بدأ كالفحيح من حناجر الجميع ثم بدأ يتعالى ببطء.. ببطء.. حتى صار أقرب إلى الهمس المسموع.. كانوا يرددون اسمي مرارًا وتكرارًا بطريقة هي أقرب إلى التنويم المغناطيسي..
- (إنريكه)..!.. (إنريكه)!
- لكني لا أريد..!.
- (إنريكه)..!.. (إنريكه)!
- أنا لا أشـ.....
- (إنريكه)..!.. (إنريكه)!
ولمحت فتاة من الفتاتين تدور حولي في دوائر متصلة آتية بحركات راقصة بطيئة.. إنه جزء من ذات التنويم المغناطيسي.
- (إنريكه)..!.. (إنريكه)!
ولمحت مؤخر رأسها.. كان هناك جزء خال من الشعر تمامًا على شكل دائرة!.. مثلها.. مثل فتاي.. فما معنى هذا؟
انتابني الذعر وشعرت بأنني فريسة تشكيل عصابي من نوع ما.. استجمعت قواي ووجهت للفتاة دفعة قوية فسقطت أرضًا.. كانت تضحك!..
المفزع أنها كانت تضحك برغم سقطتها!..
اندفعت أركض مذعورة فوق الثلوج.. أتعثر.. أنهض.. أنزلق.. أبكي.. تتجمد الدموع على خدي..
لكنني - من ورائي - كنت أسمع صوت ضحكاتهم الساخرة.. أسمعها حتى خرجت من الغابة ووصلت لداري.. وتسلقت ماسورة المياه عائدة إلى حجرتي حيث ظللت أرتجف وأبكي برهة...
والآن.. أستحلفك بالله يا (مارليز) أن تقولي لي حقيقة ما حدث، وكيف أتجنب هذا الموقف المريع...
لم أعد أريده.. إنني أمقته..
لكنني - فقط - أعيش في رعب من أن أسمع مرة أخرى صوت الطرقات على زجاج نافذتي..
بإخلاص: (إنريكه) - (موندهاوزه)

* * *

وصل هذا الخطاب إلى المجلة بعد أسبوعين بسبب ظروف الطقس وتعطل الخدمة البريدية.
وحين وصل.. كان رد (مارليز) - محررة الباب - كما يلى:
عزيزتي (إنريكه):

قرأت مشكلتك ببالغ الأسى والعطف على اللحظات المريرة التي مررت بها دون داع في الواقع..
أنا أرى - دون تزويق - أن ما مررت به لهو دعابة قاسية قام بها أشخاص لا خلاق لهم، وإن موضة (الهيبيز) الحالية ومذكرات زعمائهم التي تنشر في كل موضع باعتبارهم أبطال العصر لهي السبب في كل ما يحدث لشبابنا من تخريب..
وسأقدم لك نصيحتي دون إبطاء..
أولًا: لقد انتهى أمر خطييك هذا تمامًا ولن نعود إلى هذا..
ثانيًا: يجب إبلاغ الشرطة بأسماء هذه العصابة..
ثالثًا: يجب إبلاغ أبويك..
رابعًا: يجب أن تجدى غرفة أخرى في المنزل حتى ولو كان الجليد قد ذاب في (موندهاوزه)..
هذا هو رأيي يا (إنريكه) ولا تحاولي المساومة فيه لأنه نابع من ضميري وقناعاتي..
اكتبي لي باستمرار.

(مارليز)

* * *

<u>قائمة مبيعات متجر (شلوندرف) الاثنين ٣/٣ :</u>

.....
.....
قلنسوة صوفية عدد: ٦ السعر: ٦ × ١٢ فرنك
خنجر من الصلب الممتاز عدد: ٧ السعر: ٧ × ١٠ فرنك
.....

* * *

<u>إشارة هاتفية في مركز الشرطة :</u>

اليوم ٤ مارس - الساعة ٨:٤٠:
العثور على جثة في منزل (ستورلي). انتقلت سيارة الشرطة إلى هناك للتحري.

* * *

<u>التقرير الذي كتبه المفتش (شيبرت) عن الحادث :</u>

بناء على مكالمة هاتفية من (ماكس ستورلي) مزارع من أبناء القرية، انتقلنا إلى منزله المكون من طابقين عند أطراف الناحية، وقد استغرق الأمر ساعة بسبب الجليد الذي يسد الدروب حتى أننا اضطررنا لأن نترجل.
وفي المنزل المذكور وجدنا ابنة المزارع البالغة من العمر ثمانية عشر عامًا (إنريكه ستورلي) جثة هامدة في حجرتها بالطابق العلوي..

وكانت هناك آثار طعنات في جسدها وقد تناثرت الدماء على جدران الحجرة، كما كانت هناك آثار معركة في المكان.

وقد تبين لنا أن نافذة الحجرة مفتوحة حتى أن الفراش كان مغطى بندف الثلج التي لم يذب بعضها، والتي تسربت عبر النافذة. مما أكد لنا أن مرتكب الفعلة قد دخل من هذا الموضع..

ونظرًا لعدم وجود رجال معمل جنائي، فإننا حرصنا على إبقاء الحجرة على ما هي عليه حتى لا تتلف أية بصمات أو آثار.

وقمنا بانتداب طبيب القرية د. (فولب هوفمايشتر) لفحص الجثة توطئة لدفنها حيث إن استدعاء المشرح العدلي كان مستحيلًا. وقد قام د. (هوفمايشتر) بفحص الجثة وأكد أنها توفيت نتيجة طعنات بأداة حادة كالخنجر، وعدد الطعنات هو أربع منها اثنتان في منطقة القلب والرئة كانتا سبب الوفاة الأساسي.

ولم يتبين د. (هوفمايشتر) الوقت الذي حدثت فيه الوفاة لأنه لا يملك الخبرة الكافية لهذا كما قال.

وباستجواب الأب الذي كان منهارًا تمامًا، قال لنا إنه لم يسمع صراخًا أو أية جلبة لأن غرف داره غير منفذة للصوت. وقال إن ابنته كانت تمضي الأيام الأخيرة في الدار مع الأسرة حتى إذا جاء الليل صعدت لغرفتها تتسلى بالتطريز وتستمع لموسيقا (الروك) الصاخبة، العامل الثاني الذي منعه من سماع صوت مريب حيث جلس مع امرأته في غرفة المعيشة حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم ذهبا لحجرتهما فناما حتى الصباح.

وفي السادسة صباحًا ذهبت الأم لتوقظ ابنتها كعادتها حين وجدت المشهد الشنيع الذي أسلفنا ذكره.

والفراو (ستورلي) حاليًا في حالة تخدير دائم بالعقاقير المهدئة في محاولة لشفائها من الانهيار العصبي الذي داهمها.. ويؤكد الأب أن ابنته لم يكن لها أعداء أو صداقات غامضة وأنها كانت شبه مخطوبة للشاب (هاينز شمارت) من أبناء القرية.

فيما عدا ذلك لا يوجد ما يريب في قصة حياتها.

تحفظنا على الجثة ولم نسمح بدفنها إلى أن تنقل إلى إدارة الطب الشرعي بعد انتهاء العاصفة.

نواصل التحريات مع من كانت له علاقة بالفتاة.

* * *

<u>بلاغ إلى الشرطة من حارس المقبرة:</u>

في ليلة الثلاثاء ٣ مارس، سمعت أنا (هيرمان ماشتمان) جلبة قادمة من المقبرة.. الفناء الخلفي الذي تأكدت من غلقه..

لهذا غادرت داري حاملًا مشعلًا، وسرت - برغم الثلوج الكثيفة - بين شواهد القبور التي غطاها الجليد. وقد وجدت شيئًا مريبًا هو أن قبر الفتى (بيتر شمارت) الذي توفي غرقًا من فترة قصيرة، وجدت هذا القبر مفتوحًا وقد نبشته يد ما.. أو هذا ما ظننته..

لم تكن هناك آثار أقدام فوق طبقة الجليد السميكة، كما لم أر أحدًا يتسلل في المكان، وبالتالي لا أملك تفسيرًا لما حدث.

س - هل تعتقد أن الجثة قد اختفت من نعشها؟

ج - لست واثقًا لكني أعتقد أن لا.. إن نابش القبور هذا لم يجد الوقت الكافي كي يكمل عمله..
س - ما هو تفسيرك لعدم وجود آثار أقدام حول القبر؟
ج - قلت أنني لا أملك تفسيرًا..
س - هل تعتقد أن الجليد المتساقط أخفى الأثر؟
ج - لم يكن الجليد يتساقط وقتها....
س - إذن ماذا تعني؟
ج - أعرف أن هذا هراء.. لكن يخيل إليّ كأن... كأن شيئًا داخل المقبرة كان يحاول الخروج منها!

* * *

تقرير كتبه البروفسير (شوندر):

بناء على طلب غير رسمي من د. (هوفمايشتر)، توجهت أنا وضيفاي - د. (هانز رايتمان) والمصري د. (إسماعيل) - إلى دار الشاب (هاينز شمارت) الذي يؤكد د. (هوفمايشتر) أنه أول حالة صادفها من حالات (الوباء) - إذا كنا سنعتبره كذلك - الذي داهم القرية في الأيام القليلة الماضية.

كانت مهمتنا محددة في خمس نقاط أساسية:

١ - هل ما يحدث جزء من وباء؟

٢ - إذا كان وباء فهل هو وباء معروف؟

٣ - هل ما يحدث نتيجة إشعاعات معينة؟

٤ - هل تشترك كل الحالات في نفس الصورة حقًا؟

٥ - يجب توصيف الصورة بدقة وعناية.

ولما كانت الأبحاث المعملية غير متاحة فإننا سنعتمد بشكل مطلق على حاستنا الإكلينيكية وعلى تقديرنا للأمور.

ذهبنا إلى البيت فقابلنا والداه، وعرفنا منهما أنه صار انعزاليًا إلى حد غير عادي، وأنه صار ينام النهار بطوله ويصحو ليلًا. وعرفنا أنه يغادر الدار ليلًا - خلسة - في جولات ليلية لا يدريان كنهها لكنهما يدركان حدوثها كلما وجدا الفراش خاليًا بطريق الصدفة.

قالت لنا شقيقته (إيرين) إنه صار عصبيًا دائم الشجار معها على غير عادته، وإنه لا ينفك يتحدث عن (الغرباء) وعن حادث النيزك. وقالت إنها ذات الكلمات التي كان يستعملها أخوها المرحوم (بيتر) قبل وفاته. لكنها نفت بإصرار أن يكون (بيتر) قد أصيب بفقدان شعر في مؤخرة الرأس..

كنا على وشك الصعود لغرفة الفتى حين وصل رجلان من رجال الشرطة، أحدهما المفتش (شبيرت) الذي تمت أمه بصلة قربى لأبي. وقد كان مسلك الرجلين مهذبًا ومتحفظًا - برغم أنهما لم ينزعا معطفيهما - وبدا لي أنهما يداريان شيئًا، ثم - بعد لأي - قالا إنهما جاءا بخبر غير سار.. لقد وجدت خطيبة (هاينز) صريعة في ظروف أقل ما يقال عنها إنها مروعة.

وتبين لي أنهما جاءا غارقين في الشكوك بخصوص (هاينز).. ولم لا؟..

فحين تموت الزوجة يكون زوجها هو القاتل حتى يثبت العكس.. وحين تموت الخطيبة يكون خطيبها هو المتهم الأول خاصة إذا كانت علاقتهما على غير ما يرام في الآونة الأخيرة، وإذا كان الخطيب غريب الأطوار كما يؤكد الجميع..

طلب رجلا الشرطة الصعود إلي (هاينز) ليسألاه السؤال التقليدي في هذه الأمور: أين كنت في ليلة ٣ مارس؟.. هل يمكنك إثبات ذلك؟... هل هناك خلافات بينك وبين القتيلة؟

اقترح د. (رفعت) أن نؤجل فحص الفتى إلى ما بعد الاستجواب.. لكن المفتش (شبيرت) رأى من الحكمة أن نكون معه لنبدي رأينا الطبي في حالة الفتى العقلية...

وصعدنا إلى غرفة (هاينز) فقرع الأب الباب.. وانتظرنا هنيهة.. وهنا سمعنا صوتًا معدنيًا من الداخل يغمغم بعبارات السباب آمرًا من يقرع الباب أن ينصرف...

لكن الأب أصر على موقفه.. سمعنا جلبة ثم انفتح الباب ببطء كاشفًا عن وجه نحيل ضامر تلتمع عيناه كالذئب.. وازداد توترًا حين رآنا وتراجع للوراء بينما المفتش يسأله عن آخر مرة رأى فيها خطيبته (إنريكه ستورلي)..

وفي هذه اللحظة صاح د. (رفعت) مشيرًا إلى الحائط.. رأينا صورة فوتوغرافية لفتاة معلقة هناك، وقد غرست فيها مدية ثبتتها للجدار.. كاد د. (رفعت) ينتزعها ليفحصها.. لكن صيحة تحذير خشنة من المفتش جعلته يتوقف..

وبمنديل لفه حول كفه انتزع المفتش الخنجر - لم يكن مدية - من الجدار، ونظر للصورة مؤكدًا أنها صورة (إنريكه) نفسها.. كما لاحظ أن الخنجر ملوث بالدماء ما بين نصله ومقبضه.. وكان هذا أكثر من كاف..

لهذا - حين طلبوا منه أن يتبعهم - لم يجادل ولم يتهرب أو ينكر شيئًا.. فقط ارتدى ثيابه ومعطفه في صمت بينما مساعد المفتش يتلو عليه حقوقه..

لاحظ د. (رفعت) أن الفتى غير مستقر نفسيًا ويبدو كالمصدومين.. كما أكد أنه لم ير غباء قاتل بلغ هذا الحد المريع.. لماذا يحتفظ بالخنجر في حجرته؟ لماذا لم يتخلص منه؟.. لماذا شوه صورة الفتاة؟...

قال د. (رايتمان) إن الفتى أراد أن يعتقل.. إما لأن ضميره يطلب القصاص، وإما هو يحاول حماية شخص ما من تهمة القتل..

لكن المفتش (شبيرت) لم يعبأ بآرائنا على أساس أنها آراء هواة، وأكد أنه قادر على انتزاع الحقيقة.

لكنه - كريمًا - دعانا لفحص الفتى بدقة في المخفر، وقد أزمعنا أن نفعل ذلك دون إبطاء..

* * *



وفى هذه اللحظة صرخ (رفعت) مشيرا إلى الحائط .. رأى صورة فوتوغرافية لفتاة معلقة هناك . وقد غرست فيها مدية ثبتها للجدار ..

قصيدة وجدوها بين أوراق المرحوم (بيتر شمارت):

هل حقًا تعرف الكثير عن أي شيء؟
هل تعرف أقل القليل عن أي شيء؟
ماذا تعرف عني؟
ماذا أعرف عنك؟
هل حقًا أنا هو أنا.. وأنت هو أنت؟..
أنت لا تعرف عني سوى صوتي، لون عيني، مشيتي..
والآراء التي أزعم أنها آرائي...
وأنا لا أعرف عنك سوى أنك صديقي..
فهل أنت حقًا صديقي؟

* * *

تعليق لـ د.(رايتمان):

إن هذا الفتى ليعاني من حالة (بارانويا) كلاسيكية، فهو قد فقد الثقة فيمن حوله وفقد الثقة في نفسه..

إن الآخرين يثيرون هلعه، ويشعرونه بأنهم ليسوا ودودين ظرفاء إلى الحد الذي يتظاهرون به..

إنني لن أندهش لحظة واحدة لكون هذا الفتى قد انتحر.. لكنني أسائل نفسي عما إذا لم يكن على شيء من الصواب في اعتقاده.. إن هذا الفتى قد رأى ما يدفعه إلى هذا الخلط.. أشعر بهذا.. بل أنا واثق منه.. وإن الأيام القادمة سوف....

* * *

محضر الشرطة الخاص بالفتى (هاينز شمارت) - ٢٥ سنة:

س - ما هي مهنتك الحالية؟
ج - رسام إعلانات.. أعمل بالقطعة مع بعض المجلات.
س - ما هي علاقتك بـ (إنريكه ستورلي)..؟
ج - كانت خطيبتي..
س - لماذا تقول كانت؟
ج - لأنها لم تعد كذلك!
س - هل حدثت بينكما مشادة؟ ومتي؟
ج - لم يحدث...
س - إذن لماذا انتهت العلاقة؟
ج - يمكنك أن تسألها..!
س - متى قابلتها آخر مرة؟
ج - منذ شهور..

س - وأين كنت ليلة الحادث؟
ج - كنت في حجرتي بداري..
س - ماذا كنت تفعل؟
ج - لا شيء.. قضيت وقتي بين النوم والشرود.
س - إذن ما هي حجة غيابك؟ من شهودك؟
ج - لم يرني أحد أغادر الدار.. ألم تسألوهم؟
س - هذا ليس دليلًا على شيء.. هناك النافذة دائمًا كما تعلم..
ج - لم أترك آثارًا على الجليد بالتأكيد.. فهل فحصتم ذلك الموضع؟
س - إنك لن تجد صعوبة في إزالة آثار كهذه.. وعلى كل حال نحن لسنا بانتظار تعليماتك، نحن من نمسك بزمام الأسئلة هنا.. والسؤال هو: ما تفسيرك لما وجدناه في حجرتك؟.. الصورة والخنجر...
ج- إن هذا التصرف لا يدل على شيء.. قصص الحب الفاشلة تنتهى دومًا بتمزيق صورة أو حرقها.. ولو سألتم عالم نفس لأكد لكم ذلك، ولأكد لكم كذلك أنني لو كنت قتلتها لكان هذا كافيًا لإفراغ شحنة العنف عندي، وبالتالي فلا حاجة عندي لتمزيق صورتها وإثارة الشكوك حول ذاتي برغم أنني أول من سيتم استجوابه...
س - توجد آثار دماء على مقبض الخنجر..
ج - وهل أثبتم أن الدماء دماء الفتاة؟ لا أظن..
س - أنت تعرف أن هذا متعذر الآن.. لكن الدماء هي الدماء ولابد من أن تفسر لنا وجودها..
ج - لقد حاولت الانتحار بقطع شرايين معصمي..
س - منذ متى؟
ج - منذ أسابيع ثلاثة...
س - وهل قام الطبيب بإنقاذك؟
ج - كلا.. قمت بربط معصمي بنفسي.. لم يكن الجرح بالغًا..
(وكشف لنا المتهم عن معصمه الأيسر ليرينا ضمادة موضوعة هناك وكانت مختفية تحت سوار كمه..)
س - ولماذا عدلت عن الانتحار؟
ج - لا أظنك تلومني على هذا.. ربما خطر لي ما خطر لـ (هاملت) حين خاف الأحلام التي قد تتراءى له إذا ما نام...
س - هل تتعاطى أي نوع من المخدرات؟
ج - لا..
س - ماذا تعرف عن وفاة أخيك (بيتر)؟
ج - يا له من سؤال!.. أنت لن تتهمني بقتله طبعًا..
س - لو فرضنا جدلًا أنه انتحر.. ألا ترى أن حالات الانتحار قد صارت أكثر من اللازم في بيتكم؟
ج - لكل منا أسبابه للأسف.. أعتقد أنكم تعرفون أنه كان يعالج نفسيًا منذ فترة..
س - وماذا عن قصائده؟

ج - قصائده؟.. إن (بيتر) لم يكتب الشعر في حياته..
س - هل كنتما غارقين في حب (إنريكه) أنت و (بيتر)؟
ج - أعرف خلجات عواطفي فقط، ولا أعرف خلجات عواطف أخي.. لربما أحبها ولربما لم يفعل..
س - هل كان هذا هو سبب انتحاره؟
ج- يمكنكم سؤال أخي...
وقد انتهى التحقيق، وقمنا باحتجاز المتهم مع السماح للبروفسير (شوندر) وضيوفه بفحصه كما أرادوا وسنقوم بإرفاق تقريرهم مع أوراق التحقيق.

* * *

<u>ملاحظات دوّنها مساعد الشرطة (شنايدر):</u>
قمت بفحص محتويات غرفة القتيلة (إنريكه ستورلي)، وكانت الدماء تغرق المكان لكننا نجحنا في استنقاذ بعض الأوراق الخاصة والمجلات، وكانت الأوراق عبارة عن مراسلات بينها وبين (هاينز شمارت)، وصيغة الخطابات ودية إلى حد كبير لا تحوي أي دليل على سوء الفهم، وثمة صورتان لها مع نفس الفتى.
أما المجلات فكانت كما يلى:
١ - مجلة مصورة للأطفال.
٢ - مجلة (جيجنفارت) الخاصة بالشباب.
٣ - مجلة نسائية (فرويلاين).
بالإضافة إلى عشرين شريطًا من شرائط (روك آند رول) لفرق (الهو) و(رولنج ستونز).

* * *

عودة إلى السرد التقليدي للأحداث

مع د. (رفعت إسماعيل)

- ١ -

تحية يا رفاق...

مضيفكم (رفعت إسماعيل) يعود لكم من جديد ليثرثر بالأسلوب التقليدي المعتاد حاكيًا لكم ما مر به من أحداث في هذه التجربة المروعة...

قدمت لكم في الصفحات الماضية سيلًا من قصاصات الصحف والمقالات والصور الشخصية والتقارير وتحقيقات الشرطة..

وتركت لكم أن تستنتجوا منها ما تحبون دون تدخل مني بأي شكل، لكني أشعر - في هذه اللحظة بالذات - أنني أرغب في الكلام.. في الثرثرة.

إن الصفحات الماضية جعلتني أشعر بما يحسه العداء الكسيح أو المطرب الأخرس أو الملاكم الأكتع أو الرسام الضرير.. فلم لا أكف عن استعراض العضلات هذا الشبيه بلزوميات (أبي العلاء المعري)؟

.. لقد كان الشعراء يكتفون بتماثل آخر حرف في كل بيت شعر (يسمونه حرف الروي) حتى جاء (أبو العلاء المعري) فألزم نفسه بتماثل آخر ثلاثة حروف، وهو شيء لم يضطره إليه أحد.. هو أحس بضرورة أن يزيد عدد الأصفاد حول قدميه ليظهر براعته أكثر ويستعرض عضلاته أكثر...

وأنا لست (أبا العلاء المعري)...

لهذا - اسمحوا لي - سأنطلق كعبد بلا أصفاد فوق الصفحات التالية....

* * *

لقد ألممتم - في الصفحات الماضية - بجوانب اللغز الذي قلما يحدث في حياة قرية سويسرية هادئة مثل (موندهاوزه).. عرفتم د. (هوفمايشتر) و (هاينز شمارت) والبروفسير (شوندر).. وعرفتم علامات الاستفهام التي أحاطت بالقصة...

لكن مفتش الشرطة الأحمق (شبيرت) احتفظ بغروره فلم يشرك معه أحدًا في تلك المعلومات التي جمعها، ولولا هذا لاستطاع د. (هوفمايشتر) أن يفند أكثر ما قاله (هاينز) في اعترافه.. ومنه - مثلًا - أنه حاول الانتحار منذ ثلاثة أسابيع..

لقد قام د. (هوفمايشتر) بفحص الفتى منذ فترة قريبة جدًا، وكانت نتيجة الفحص جازمة: إن معصمي الفتى على ما يرام، ولم توجد بهما أية جروح....

ولقد كذب الفتى علينا - حين فحصناه في خلوة - إذ زعم أن الضمادة حول معصمه هي رباط ضاغط وضعه لألم أحس به في هذا الموضع، ولم يكن المفتش معنا لينفي ذلك.

وحين انتزع د. (هوفمايشتر) الضمادة لم نر شيئًا غير عادي هناك ولا حتى ندبة صغيرة.. لكن المفتش لم يحضر فحصنا ولم يكلف خاطره بسؤالنا عن رأينا، بل اكتفى بأخذ التقرير الذي كتبه د. (رايتمان) ووضعه في درج مكتبه دون تعليق....

على كل حال كان يؤمن - مثلنا - بأن الفتى كاذب، خاصة وقد تعرف رجاله الخنجر وعرفوا أنه تم شراؤه من متجر (شلوندرف) بسعر عشرة فرنكات يوم الحادث بالضبط.. أي أن الخنجر لم يكن موجودًا عند الفتى منذ ثلاثة أسابيع ليقطع شرايينه.

الغريب هنا أيضًا أن الفتى اشترى سبعة خناجر من ذات المتجر، وزعم للبائع أن أصدقاء كثيرين له مولعون بنوع الصلب الجيد الذي صنع منه هذا الخنجر...

فأين ذهبت الخناجر الستة الأخرى؟

الأمر الثاني الذي لم يصارحنا به المفتش هو ما ذكره الفتى بثقة عن أن أخاه (بيتر) لم يكتب الشعر في حياته..

إن القرية كلها تعرف هواية (بيتر) للشعر - الرديء في الواقع - وتعتبره شاعرها المعتوه.. فكيف لا يعرف (هاينز) هذه الحقيقة عن أخيه؟

لقد أحس المفتش أن الفتى لا يعرف حقيقة أن (بيتر) يكتب الشعر.. معنى هذا أنه لا يعرف (بيتر) حقًا...

بعبارة أخرى.. إما أن (هاينز) أصيب بفقدان ذاكرة جزئي...

وإما أن هذا الفتى ليس هو (هاينز)....!

* * *

أكاد أموت مللًا!

كئيبة جدًا فكرة السجن الجليدي داخل قرية تعزلها الثلوج عن العالم الخارجي، السجن الأبيض البارد ينسيك كل شيء عن الطرقات والشوارع الواسعة التي تتسابق فيها السيارات.. تشعر باختناق كلما نظرت إلى السماء وتمنيت لو فردت جناحين تحلق بهما بعيدًا.. بعيدًا.. نحو بلادك الدافئة.. تتمنى أن ترى الطين.. الطين الأسمر الجميل بدلًا من هذه المادة البيضاء الباردة التي زحفت على روحك حتى جمدتها بين ضلوعك..

لقد عشت تجربة القرية التي عزلها الجليد في تلك القرية الرومانية التي واجهت فيها المذءوبين.. ماذا كان اسمها؟.. آه.. (كرايوفسكا) على ما أظن..

لكن سجنى الجليدي لم يطل وقتها.. ثم إن الأحداث العاصفة التي حدثت هناك لم تدع لي مجالًا للشعور بالوحشة..

أما هنا.. فحدث بلا حرج عن شعوري بالإحباط والاختناق وأنا أعد الأيام بانتظار ذوبان الجليد كي أعود إلى (بازل) فـ (جنيف) فـ (مصر) دون إبطاء.. صحيح أنني في (سويسرا) جنة الله في الأرض..

لكن الحقيقة التي لا يغفلها أحد هي أنني لم أعد قادرًا على الاستمتاع بأي وضع يبقيني بعيدًا عن غرفة نومي ووسادتي.....

كانت تسليتي الوحيدة في سجني هذا هي الخروج مع البروفسير (شوندر) ود. (هوفمايشتر) وذلك السمج الذي لا أدري سر بقائه حيًا د. (هانز رايتمان)..، وكنا نذهب في زيارات إلى ديار هؤلاء المراهقين والشبان الذين بدت عليهم أمارات الداء المريب الذي تحدث عنه د. (هوفمايشتر)..

لقد بلغ عددهم عشرة...

والقصة دائمًا هي: العزلة والعصبية والبعد عن المجتمع الخارجي مع تحول ملحوظ، و - بالطبع - الجزء الدائري العاري من الشعر في مؤخرة الرأس والذي يحرصون جميعًا على مداراته بقلنسوة صوفية..

ويلاحظ الأهل دومًا أن الفتى تغير إلى حد غير عادي.. بل وأنه ينسى الكثير من الأشياء التي تشكل جوانب جوهرية جدًا من حياته..

إن هذا لغريب حقًا...

* * *

أمضي الوقت في تعلم اللغة الألمانية محاولًا إضافتها إلى مجموعة اللغات التي أملك (الحد الأدنى من الأمان اللغوي) لها.. ومنها الفرنسية واليونانية.. لكن الحقيقة هي أنني شخت حقًا.. وكلما دخل عقلي لفظ أو تعبير جديد تسرب من عقلي لفظ يوناني أو فرنسي مماثل... كأن تجويف مخي محدود الحجم لا يسمح سوى لكمّ معين بالدخول إليه.. وأي معلومة جديدة تقابلها خسارة لمعلومة قديمة.. إن هذا ينافي المنطق لكنه حدث!..

أرجو ألا يأتي اليوم الذي تطرد فيه اللغة الألمانية كل مصطلحات العربية من ذهني المكدود هذا..!

* * *

ومرت أيام...

ولم يبد في الأفق ما يبشر بقرب انتهاء الحصار، وبرغم أن البلدية هنا أكدت مرارًا أن الحصار لن يطول أكثر من أسبوع، كانت للطبيعة - كالعادة - الكلمة الأعلى.. وعرفنا أن كاسحات الجليد تعمل كلها دون انقطاع عند أطراف (بازل)..

على أن العتاد والمؤن كانت تصلنا بانتظام، كما كانت مفاجأة سارة - لقارئي الألمانية - حين وصلت الصحف والمجلات المتأخرة، وتم إرسال أربعة صناديق كبيرة ملأى بالخطابات إلى (بازل) ليتم توزيعها من هناك..

وكنت - طوال هذه الفترة - مقيما في دار بروفسير (شوندر) حيث نشأ مع أبويه، وقد خصص لي حجرة أنا وذلك السخيف (رايتمان).. أما سكرتيرته (مارتا) فكانت تبيت مع الأم في حجرة واحدة.. وأقام الأب مع ابنه (شوندر) في حجرة أخرى...

كان البيت مشيدًا أكثره من الأخشاب، على غرار بيوت الفلاحين في الجبال.. وكان دافئًا من الداخل إلى حد لا يصدق حتى أنك لتجد نفسك سابحًا في بركة ماء أحدثها الجليد المتراكم على

كتفيك وأرنبة أنفك وحاجبيك بمجرد أن تخطو إلى داخل البيت المريح النظيف إلى درجة غير عادية.

وفي الفراش ترقد تحت غطاء من الفراء تتأمل العروق الخشبية في السقف، أو تستمع إلى المذياع محاولًا فهم حرف واحد مما يقال، أو ترسم الخطط للتودد إلى (مارتا) الحسناء غدًا، أو تحاول تعلم المزيد من الألمانية حتى يأتي النوم فلا تدري كيف...

وغدًا يوم آخر حتمًا...

الحق أقول لكم: لم أكن أهتم لحظة بهذه الأحداث الجارية بالقرية.. فمشاكل الشباب السويسري هي آخر ما يعنيني أنا المليء بالمخاوف على وطني وعلى أهلي وعلى أصدقائي.. والغارق في الأحزان الخاصة بخصوص أمي وخصوصي..

هل سمع أحد عن مشكلة للشباب السويسري؟! لقد حلت هذه الشعوب مشاكلها منذ أعوام فلم تبق أمامها مشاكل سوى قضية الانتحار وعبثية الوجود..

إنهم مترفون إلى حد يحرمهم من شفقتي إلى الأبد...

ونظرت إلى يميني وأنا راقد في الفراش.. بغلٍ أتأمل الجسد الضخم لـ د. (رايتمان) متدثرًا في أغطيته محاولا أن ينام برغم ضوء (الأباجورة) القادم من ناحيتي....

لقد كان تباين مواعيد نومنا سبب خلافات لا تنتهي بيني وبينه بالإضافة إلى ثقل ظله الطبيعي، وغروره، وحذلقته..

إنه من نوع الأرواح المغلقة التي لا تستطيع الوصول إليها مهما حاولت من ود أو رقة أو مجاملة..

أذكر أنه لامني مرة على استخدام كلمة (سويسرا) عند الحديث عن وطنه.. فسألته عن السبب في حنق..

- يا سلام!.. وماذا أسميها إذن؟.

- سمها (هلفتيا).. (هلفتيا) كما يناديها أبناؤها.. أنتم تخترعون الأسماء بلا أساس وتعتبرون أنفسكم عباقرة.

قلت له وقد صعد الدم إلى رأسي..

- هذا شيء رائع.. وأعدك بذلك بشدة إذا كففتم أنتم عن تسمية (مصر) بـ (إجيبتن) برغم أن كل أبنائها يسمونها (مصر)، وإذا كففتم عن تسمية (سوومي) باسم (فنلندا)!

كانت هذه هي خاتمة المحادثة لكنها تركت في نفسه كراهية شديدة لي حتى أنني أدركت أن أفضل خدمة أؤديها له هي أن أموت...

الأدهى هو أنني لا أعرف عمله بالضبط.. فقد كان معنا في المؤتمر لكنه لم يقدم أبحاثًا ولم يناقش ولم يعطني أي إيحاء بأنه طبيب.. إن أي سباك يحترم نفسه كان سيقدم آراء مثمرة أكثر مما قدمه هذا الـ (رايتمان)..

لكن البروفسير (شوندر) يحبه ويصحبه معه في كل مكان.. بل وإنه يرغمني على مقاسمته الحجرة..

إن الأمر لم ينته هنا.. بل إن (رايتمان) هستيري يعاني الخوف من المرض.. لهذا يظهر الاشمئزاز من جواربي بطريقة مهينة للغاية ويخفي منشفته بعيدًا عني كأني أجرؤ على استعمالها..

ولا يكف عن الارتجاف كلما عطست أمامه.. بل إنه حرم علي التدخين في الغرفة تحريمًا باتًا.. هذا من حقه ولكن أين أدخن إذن؟!..

كانت هذه الخواطر تجوب ذهني وأنا أرمق جسده النائم في كراهية.. أذنيه الكبيرتين وأنفه المعقوف الذي يذكرني بصورة مرضى الزهري في كتاب (هتشنسون)..

وشعره.. شعره الأشقر الشبيه بـ.... غريب هذا!.. هناك بقعة خالية من الشعر في مؤخرة رأسه.. بقعة مستديرة تمامًا أراها بوضوح حيث أدار وجهه للحائط بعيدًا عني..

لا أذكر أنه كان يملك أجزاء صلعاء في رأسه.. وفي اليومين الماضيين كان يرتدي قلنسوة صوفية طيلة اليوم فلم أستطع رؤية شعره..

متى وكيف ظهرت هذه البقعة؟

هذا غريب لكنه لن يحرمني من نوم هادئ حتى الصباح.. لن أثير ضجة بسبب بقعة صغيرة صلعاء بينما رأسي كله أصلع كبطن ضفدعة...

* * *



هناك بقعة خالية من الشعر فى مؤخرة رأسه .. بقعة مستديرة تمامًا أراها بوضوح حيث أدار وجهه للحائط بعيدًا عنى ..

وكيف كان لي أن أعرف أنه في تلك الليلة بينما أنا غاف - كموميا‌ء (حتب حرس) - ناعم البال، كان هناك شيء مروع يجري عند أطراف القرية!..

بالتحديد في الغابة المظلمة الباردة ما بين أشجار (اللارك).؟

كانت (ساندي) قد ضربت موعدًا لـ (كارل) هناك..

كلاهما شاب جميل مليء بالحيوية.. الغد ينتظره والآمال تجري في دمه ويحب الآخر إلى حد الوله..

المشكلة التي تضايق (كارل) هي التغير الذي طرأ على (ساندي).. هو يعلم جيدًا أن المرأة لها مزاج شبيه بالبحر.. تارة يتقلب وتارة يهدأ دونما سبب، ويعلم أن المرأة تتألم من أشياء لا يجد الرجل فيها أي أذى.. إن المرأة تجد في نسيان عيد ميلادها ما يجده الرجل في صفعة على قفاه.. بل هي تعتبر هذا النسيان إهانة أشد وطأة..

لكن (ساندي) كانت تتحسن وتعود لصوابها في كل مرة..

دائمًا تعود لصوابها إلا في هذه المرة...

لماذا تصر على النأي بعيدًا عنه؟ ولماذا تفر منه؟.. ولماذا تعقص الشعر عند مؤخرة رأسها بهذا الأسلوب العجيب؟

ولماذا تفقد وزنها باستمرار؟

عاش فترة طويلة أشبه شيء بقطعة خشب عائمة فوق بحر متقلب.. الأمل فالقنوط.. الحبور فالوجد.. انتظار الغد فالفزع منه...

إنهن يجدن هذه التسلية تمامًا.. ثم جاءت تدعوه إلى لقائها في الغابة هذا المساء..

كاد يجن فرحًا.. تعطر..! ارتدى أكثر ثيابه أناقة (وسُمكًا كذلك) ثم هرع إلى هناك فوق الثلوج متسائلًا في سره عن السبب الذي يدعوها لاختيار هذا المكان البارد الموحش للقاء..

نعم هي تريد خلوة.. ولكن الغابة.. في هذه الساعة.. إن في هذا شيئًا من المبالغة..

كانت هناك بانتظاره...

البخار يتصاعد من فيها فيتجمد على خصلات شعرها وشفتها العليا وفي عينيها رأى مستقبلًا رائعًا إلى حد أنه مفزع..

وهنا سمع اسمه.. اسمه يتردد بصوت خفيض أقرب إلى الفحيح من عدة حناجر..

- كـ...ـا.. ر..ل..!

نظر مجفلًا فرأى في الظلام حوالي عشرة أشخاص يقفون في شبه دائرة حولهما.. وكانت (ساندي) ترمقه طيلة الوقت وفي عينيها دعوة صامتة له كي يشرب..

يشرب من الزجاجة الصغيرة التي أخرجتها من ثيابها وقربتها من فيه وهي تهمس - دون أن تغمض عينيها لحظة - في أذنه:

- هلم يا (كارل).. كن واحدًا منا.. نحن الغرباء.

ارتجفت شفتاه ولاشعوريًا تراجع للوراء خطوة..

- أي غرباء؟

- أبناء النيزك!.

وبدأ الفحيح يتعالى من الحناجر كنوع من الهتاف المنظم.. شيئًا فشيئًا يتعالى بالأسلوب الذي يسميه الموسيقيون (كريشندو):

- (كارل)!.. (كارل)..!

- ماذا تعنون؟.. هل جننتم جميعًا؟

- (كارل)!... (كارل)..!

واصل التراجع للوراء وهو يردد دون كلل:

- هل جننتم؟

- (كارل)... (كارل)..!

- أنت يا (فرانتز)!.. وأنت يا (دانييل)... ماذا دهاكم؟

- (كارل)!.. (كارل)..!

وازداد الأمر سوءًا حين تقدمت إحدى الفتيات منه.. ناعسة هائمة شرعت تتراقص حوله ببطء رائحة غادية.. كأنها رقصة إغريقية قديمة أو شيء من هذا القبيل.

شعر بإرادته تتخلى عنه وجفونه تزداد ثقلًا..

كلا.. هذا لن يكون.. إن هؤلاء الأوغاد....

تراجع للوراء أكثر فأكثر..

لكنه نسي أن الجليد زلق.. وأن سطحه غير منتظم.. وأن حذاءه غير معد لذلك.. و.....

* * *

كذلك كيف كان لي أن أعرف - حيث نمت كرجل من (روديسيا) لدغته مستعمرة من ذباب (تسي تسي) - أن مساعد الشرطة (شنايدر) صحا على جلبة قادمة من الزنزانة التي حبس فيها الفتى (هاينز) والتي تقع على بعد ثلاثة أمتار من الغرفة التي نام فيها المساعد؟؟..

نهض هذا الأخير ليري سر هذه الضوضاء عازمًا على تهشيم رأس الفتى.. لكن ما رآه جعله يعدل عن هذا تمامًا...

لقد وجد الفتى متشبثًا بقضبان الزنزانة وقد تسلق عليها إلى أعلى مستوى ممكن حتى كاد يلمس السقف..

وكان ينظر لأعلى في هيام وافتتان مروعين، ومن فمه الفاغر تخرج عبارات معينة بلغة غير معروفة يكررها بلا انقطاع..

والحق يقال.. كان المشهد مرعبًا ورهيبًا إلى درجة أن المساعد لم يجرؤ على اتخاذ رد فعل إيجابي باللوم أو التهديد أو التساؤل.. لا شيء على الإطلاق.. بل هو لم يتلفظ بحرف واحد..

فقط تراجع - مرتجفًا - إلى غرفته وأغلق بابها بإحكام...

إن ما رآه هو نوع من المس الشيطاني.. لا يوجد تفسير آخر لهذا الذي يراه.. فلتمر هذه الليلة بأي شكل فلا يوجد حل آخر..

جلس يتصفح مجلات (جيجنفارت) التي وجدها عند الفتاة القتيلة (إنريكه) ليزجي الساعات الباقية على الفجر.. وبعصبية قرب المدفأة الكهربية من قدميه المتجمدتين..

إن هذه المجلات الشبابية كلام فارغ - فكر في حنق - هي أشبه بالساندوتشات الثقافية السريعة التي ترضى كل الأذواق، وهو كان معتادًا على الوجبات الثقافية الدسمة ولا يهوى أسلوب (التيك أواي) هذا.. ثم إن حرص هذه المجلات على إغراء الجميع جعلها خليطًا متنافرًا من السياسة والحب والرياضة والسينما والجريمة.. كأنها طبق من اللحم والعسل و(الكيتشب) والبصل..

وهنا لاحظ - في ركن (طبيبك) - شكوى أحد القراء من (موندهاوزه) يتحدث عن غرابة أطوار صديقه.. وفي ذات الصفحة شكوى لقارئة تتحدث عن جزء عار من الشعر في رأس أختها.. أمن هذا الوقت المبكر إذن؟..

يا لها من مصادفة!.. إن المفتش (شبيرت) سيكون فخورًا به حين يرى هذه الصفحة.. انتزعها ووضعها على المكتب.. ثم عاد يطالع أعداد المجلة في اهتمام زائد بحثًا عن صدف أخرى..

وكان أن وجد قصيدة (بيتر شمارت) السخيفة عن النيزك، ثم وجد عددًا تشكو فيه (إنريكه) إلى محررة باب (جراح القلوب) التغير الذي طرأ على خطيبها ونفوره منها بعد وفاة أخيه..

ياله من صيد ثمين!.. إن مجلة (جيجنفارت) مجلة تافهة حقًا لكنها تلقى رواجًا لا بأس به بين شباب القرية، وقد قدمت له معلومات لا بأس بها أنسته الرعب الذي عاشه منذ لحظات مع هذا الذئب المسعور (هاينز)..

* * *

وكيف لي أن أعرف - وأنا نائم كسلحفاة في (ديسمبر) - أن د. (رايتمان) فتح عينيه.. أدار رأسه إلى اليسار وشرع يتأملني في ظلام الحجرة بضع دقائق مصغيًا لصوت شخيري وحشرجة صدري الذي سد التبغ شعبه....

وكيف لي أن أعرف أنه كان يفكر في شيء ما..

شيء يتعلق بي؟؟.....

* * *

- ٢ -

وجدوا جثة (كارل) الشاب البالغ من العمر تسعة عشر عامًا.. وجدوها مغمورة في الثلوج خارج الغابة..

كانت هناك عدة طعنات في جسده، ومن المؤكد أنه صارع قاتليه بعنف.. لكن لم توجد أية آثار أقدام حول الجثة سوى آثاره هو..

أخبرني البروفسير (شوندر) بهذا صباحًا على مائدة الإفطار.. كما أخبرني أن المفتش (شبيرت) يكاد يجن من كثرة الحوادث الغامضة التي تجتاح قريته الهادئة..

لم يكن هناك ما يدل على الجاني، لا أعداء للفتى.. لا علاقات غامضة.. أما أهله فيؤكدون على أنه معتاد على العودة للدار في ساعة متأخرة فلم يساورهم القلق بشأنه إلى أن جاء الصباح وأدركوا أنه ليس في فراشه....

كان لهذا معنى واحد..

لربما كان (هاينز) بريئًا من دم (إنريكه).. ها هوذا حادث مشابه يقع، بينما الفتى رهين محبسه، ثم إن أحدًا لم يستطع بعد إثبات أن الدم على الخنجر هو دم الفتاة.. ودون معمل جنائي يستحيل البحث عن بصمات على الخنجر أو نافذة الفتاة..

لكن المفتش لم يطلق سراح الفتى..

هو لن يترك شيئًا للمصادفة...

* * *



وجدوا جثة (كارل) الشاب البالغ من العمر تسعة عشر عام ...

وجدوها مغمورة فى الثلوج جرح الغربة ...

عند الظهيرة وصل المفتش (شبيرت) مهمومًا إلى دار البروفسير.. كأن كتفيه تزنان أطنانًا.. وكان يحمل مجموعة مجلات تحت إبطه..

جلس أمام المدفأة عشر دقائق صامتًا يدخن ويجرع جرعات كبيرة من المشروب الساخن الذي قدمته له الأم..

وجلسنا حوله أنا والبروفسير و (رايتمان) ود. (هوفمايشتر) و(مارتا) السكرتيرة حائرين لا ندري حقًا ما نفعل أو نقول.. فقط نتبادل النظرات ونفرك أيدينا..

بعد دقائق أخرى غمغم الرجل وهو يتأمل لهيب المدفأة:

- أنا بحاجة إليكم...

لم يرد أحدنا.. ظللنا صامتين نترقب رد فعله..

قال وهو يتأمل الكوب الذي أمسكه بين راحتيه المفتوحتين:

- إن هذا الذي يحدث ليفوق تحملي وتوقعاتي.

- هون عليك يا (هيرمان)..

قالها البروفسير وهو يستلقي في مقعده..

أخرج المفتش علبة سجائره فتناول لفافة تبغ منها أشعلها، وكذا أشعلت أنا لفافة أخرى.. ومد (رايتمان) يده فأخذ واحدة من علبة المفتش وأشعلها وجلس يصغي..

- في البدء كانت جريمة مقتل - أو انتحار - الفتى (بيتر) وقد بدا لنا الأمر عاديًا.. ثم جاءت جريمة مقتل (إنريكه).. وبدا لي أن الحل واضح: غيرة مفرطة من (هاينز) جعلته يقتل أخاه وحبيبته.. لكن التحقيق مع (هاينز) لم يفض إلى شيء.. فيما عدا انطباعًا غريبًا سيطر علي طيلة التحقيق.. إن هذا الفتى يكذب طيلة الوقت.. بل هو لا يعرف الكثير عن أخيه، فقد قال إن (بيتر) لا يقرض الشعر وكل القرية تعرف أن هذا غير صحيح.. وقال إنه - (هاينز) - حاول الانتحار منذ ثلاثة أسابيع برغم أن أحدًا لم ير خدشًا في معصمه...

وتوقف لحظة ليطفئ رماد السيجارة.. وحك عنقه في إنهاك:

- ثم جاء حادث هذا الفتى (كارل) ليدمر أدلتنا كلها لأنه مات في نفس الظروف بينما (هاينز) في قبضتنا.. وهذا يعني أن هدفنا ما زال حرًا طليقًا...

تساءل (رايتمان) في حذر:

- تعني أن هناك سفاحًا يمارس نشاطه في القرية؟

- بل ما هو أسوأ....

ودون أن يشعر أشعل لفافة تبغ أخرى واستطرد:

- أنتم تعلمون أننا مصب المعلومات إلى حد كبير.. وقد علمت شيئًا ربما كان ذا أهمية.. لا أدري بالضبط.. لقد وجد حارس المقبرة آثار عبث في قبر الفتى (بيتر شمارت).. لم توجد آثار أقدام ولا شيء.. حتى أن الانطباع الذي كونه هو أن شيئًا بالمقبرة كان يحاول الخروج منها!.

- رباه!.

صاحت (مارتا) في توتر.. أما د. (هوفمايشتر) فقال في عصبية:

- أنا لم أخطئ التشخيص.. إذا ظننتم أنها كانت حالة (تيبس عضلات) دفن صاحبها حيًا فأنتم مخطئون.

نظر له المفتش في دهشة ولسان حاله يقول: أي معتوه هذا؟
ثم قال وهو يضغط على كلماته:
- هل اتهمك أحد بشيء؟
- حسبت في هذا نوعًا من التلميح..
- لسنا، في إحدى قصص (إدجار آلان بو)[4] فاهدأ قليلًا..
قلت أنا محاولًا إزالة مناخ الخزعبلات هذا:
- لسنا كذلك بصدد عملية التحول إلى مصاص دماء.. فالموتى لا يغادرون قبورهم إلا يوم الحساب..
ساد الصمت هنيهة ثم قال البروفسير بتؤدة بعد أن رشف رشفة ماء:
- هلا أكملت كلامك يا (هيرمان)؟.
قال المفتش وهو يقلب صفحات مجلة من التي كان يحملها:
- أخيرًا بدأنا نطالع صفحات هذه المجلة (جيجنفارت) التي كانت لدى القتيلة (إنريكه) ووجدنا فيها أشياء هامة للغاية منها قصيدة للفتى (بيتر) والمزيد من شكوى تساقط الشعر الدائري وخطاب (إنريكه) إلى المحررة تشكو تغير شخصية حبيبها الذي هو (هاينز) طبعًا.. وهذا ليس كل شيء...
وفتح مجلة أخرى وأشار إلى مقال فيها:
- هذا هو العدد الأخير من المجلة وكان قد تأخر كثيرًا بسبب ظروف العاصفة، وبه آخر خطاب كتبته (إنريكه) للمحررة.. لقد تأخر إرسال الخطاب كثيرًا لذات الظروف، لكنه حين وصل للمجلة نشر فورًا، ولم تدر المحررة أن قارئتها هي الآن جثة تنتظر التشريح..
مد (رايتمان) يده إلى كوب الماء الذي بقي به بعض الماء، فجرعه ثم تساءل:
- وماذا في الخطاب؟
- أرجو أن تقرأه بنفسك على الجالسين..
ساد الصمت على حين أمسك د. (رايتمان) المجلة وشرع يقرأ بصوت مسموع خطاب (إنريكه) إلى المحررة:
- عزيزتي (مارليز):
كتبت لك منذ أيام أحكي لك قصة فتاي الذي (.....) صوت الطرقات على زجاج نافذتي..

بإخلاص: (إنريكه) - (موندهاوزه)
ما إن انتهى (رايتمان) من قراءة الخطاب حتى عم الصمت.. الصمت الثقيل ذو الدوي الشبيه - حتمًا - بالصمت الذي ساد الكون بعد أن رست فلك (نوح) فوق جبل (أرارات)..
كان البروفسير (شوندر) هو أول من تكلم.. قال:
- إن هذا.. خطير...
وهتف د. (رايتمان) وهو يطوي المجلة:
- كأن هناك تنظيمًا ما.. مجموعة من الشباب يمارسون نشاطًا غامضًا في الليل، وهم يحاولون ضم آخرين إليهم..
قلت وأنا أشعل لفافة تبغ:
- إذن.. لقد مر (كارل) بتجربة مماثلة.

نظر لي البروفسير (شوندر) للحظة مفكرًا.. ثم غمغم:
- الواقع أن هذا صحيح.. لقد لقي الفتى حتفه جوار الغابة وهذا يعني أنه كان - بشكل ما - متورطًا مع هؤلاء الأوغاد الذين لا أدري ما يمثلون بالضبط..
مرة أخرى ساد الصمت الثقيل.. الكل يبحث عن شيء يقال..
- وما رأيك أنت أيها المفتش؟
هذه كانت من (مارتا) السكرتيرة..
والتقت عيوننا علي المفتش (شبيرت) الذي تشاغل بتقليب صفحات المجلة التي كانت معه...

* * *

- لنقل إن لدينا بعض حقائق ثابتة يمكن الارتكاز عليها.. ولئن كنت على خطأ أرجو أن تصححوا لي..
- أولًا: هلكت (إنريكه) و(بيتر) وربما (كارل) لأنهم رفضوا أن يكونوا من الغرباء وبالتالي عرفوا أكثر مما ينبغي لهم أن يعرفوه.. هل هناك اعتراض؟.
- لا.. نحن نوافقك تمامًا.. استمر..
- ثانيًا: لا يمكن معرفة أفراد المجموعة لكن (هاينز) - بما لا يقبل الشك - واحد منهم..
رفعت يدي معترضًا، لكن المفتش (شبيرت) هز رأسه في نفاد صبر طالبًا مني أن أنتظر.. واستطرد:
- ثالثًا: يمكن معرفتهم إلى حد ما بعمل مسح على رءوس شباب القرية.. فمن وجدناه فقد وزنه ورقعة دائرية من شعر رأسه يكون من هؤلاء.. وحين تنتهي العاصفة يمكننا مقارنة بصماتهم جميعًا بالبصمات على الخنجر.. أليس هذا ما أردت قوله يا د. (رفعت)؟.
- نعم..
- رابعًا: ما هو سر ما حدث لهؤلاء الشباب؟
قلت وأنا أحاول ألا أبدو سخيفًا:
- الاحتمال الأول هو تفشي أفكار هدامة - كأفكار الهيبيز - بين هؤلاء الشباب، ولا أرى ما يدعونا لاستبعاد تعاطي المخدرات هنا.. وهذا يجعلهم يكونون ما يشبه الجماعات الدينية المخبولة التي تملأ الولايات المتحدة. لقد ذبح (الهيبيز) ممثلة السينما (شارون تيت) لأنهم ظنوا أن السماء أمرتهم بذلك، وأرى أن هذا هو ما يجري هنا..
- وفقدان الوزن؟.. ودائرة الشعر العارية؟
- فقدان الوزن علامة دائمة من علامات تعاطي المخدرات أما دائرة الشعر العارية فلربما كانت علامة خاصة بهم يصنعونها بأنفسهم لأنفسهم..
نظر المفتش (شبيرت) إلى من حوله فوجد نوعًا من الموافقة.. قال وهو يشعل لفافة تبغ:
- نظرية مقبولة.. وإن كانت لا تفسر ما حدث عند قبر (بيتر) وما حدث لجثة (إنريكه)..!.
- (إنريكه)؟!!
دوت الصيحة من خمسة حناجر في وقت واحد..
- وهل حدث شيء لـ (إنريكه)؟!

اهتز كتفا المفتش (أهو ضحك مكتوم أم بكاء؟) وغمغم:
- ألم أخبركم؟.. لقد اختفت الجثة مساء أمس من الحجرة التي وضعناها فيها في المخفر!

* * *

قلت في عصبية:
- وماذا في ذلك؟.. ربما كان أولئك المخبولون حريصين على استرداد جثث ضحاياهم لأغراض تتعلق بالسحر الأسود..؟ نظر لي بعينيه الزرقاوين الباردتين وتساءل:
- وكيف يمكن سرقة جثة من مخفر شرطة بهذه البساطة؟.. لقد فتحت النافذة من الداخل يا عزيزي.. وأنا أعني ما أقول دون أدنى محاولة مسرحية لإثارة اهتمامكم..!.
ونظر إلى لفافة التبغ التي يمسكها.. وتهانف فجأة:
- إن هذا لفوق إحتمالاااااالي... هي ي ي!
ودفن وجهه في يديه وشرع يهتز...
يا له من جنون!.. إن مشهد هذا المفتش المخضرم قوي الأعصاب وهو يبكي كالمراهقات كان لا يحتمل.. وشعرت بأمعائي تتلوى مع رغبة حادة في القيء..
على حين قدم البروفسير (شوندر) بعض الشراب للمفتش مردداً..
- هلم يا (هيرمان)!.. إن هذه ليست غلطتك!
- أكاد أجن يا (فريدي)..
حقًا!.. ومن ذا الذي لا يوشك على الجنون؟

* * *

عند هذه النقطة وقف د. (هوفمايشتر) في توتر.. عيناه تلتمعان.. وقبضتاه مكورتان..
صاح واللعاب يتناثر من فيه (فوق وجهي للأسف):
- هوذا!.. لا يوجد سوى حل واحد.. إنها حالة استحواذ كاملة تلك التي نحن بصددها..
تساءل البروفسير وهو يربت على ظهر المفتش:
- استحواذ؟.. ماذا تعنيه؟
- استحواذ روحي.. إن هؤلاء الفتية ممسوسون!.. كل شيء يشير لهذا لكننا نتجاهل ذلك التفسير..
تساءل د. (رايتمان) في شيء من السخرية:
- ومن مسّهم؟.
- ألا تفهمون؟.. لقد حدث كل هذا بعد سقوط النيزك المشئوم.. الأمر واضح إذن.. ثمة كائنات لا مرئية جاءت الأرض فوق متن النيزك ثم شرعت تغزو شباب قريتنا واحدًا تلو الآخر.. وعلامة الغزو هي دائرة عارية من الشعر في مؤخرة الرأس.. ومن يعرف سرهم يقتل دون رحمة. لقد كان (بيتر شمارت) يتحدث عنهم طيلة الوقت.. يقول إنهم حولنا.. لم يصدقه أحد حتى دفع حياته ثمنًا لما عرفه!.

* * *

"هلم يا (كارل).. كن واحدًا منا.. نحن الغرباء..".

* * *

"هلمي يا (إنريكه).. كوني واحدة منا..".

* * *

"أبناء النيزك..".

* * *

استعد المفتش للانصراف.. ارتدى معطفه وقد ارتسمت مخايل السلطة والجدية على وجهه من جديد، كأنه يدعونا إلى نسيان لحظة الوهن العابرة التي مر بها منذ ثوان..

وهنا سرت معه إلى الباب الخارجي...

بدا عليه نوع من الدهشة - كما بدا على الجالسين جميعًا - من سيري معه.. فأنا وهو لا نملك مواضيع مشتركة ولسنا صديقين بكل تأكيد...

لكنني خرجت معه من الباب، وتأبطت ذراعه وهو يمشي فوق الثلج قاصدًا سيارته التي أحيطت إطاراتها بالجنازير للتمكن من السير فوق الجليد...

قلت له والبخار يتصاعد من فمي:

- أخشى أنني بدأت أوافق د. (هوفمايشتر) على كلامه!.

نظر لي في حيرة.. ضخم البنيان عريض المنكبين كجدار حي.. وتساءل:

- هذا الهراء؟

- نعم....

وتلفت حولي.. ثم همست:

- إنني أشعر بأن هذا الوباء - أو الاستحواذ - لم يكتف بالشباب بل هو يزحف نحو الكبار..

- ماذا تعني؟.

- أعني أن هناك أشياء مريبة تحيط بـ د. (رايتمان) هناك بقعة صلعاء حديثة في مؤخرة رأسه..

- وماذا في ذلك؟.. إن الرجل في سن الصلع الوراثي العـ...

قاطعته وأنا أرمق عينيه في ثبات:

- الصلع لا يظهر بين يوم وليلة.. ثم إنني راقبت مسلكه في أثناء جلستنا.. ألم يأخذ منك لفافة تبغ ويشعلها؟.. إن (رايتمان) الذي أعرفه لا يطيق التبغ.. ألم يكمل كوب الماء الذي شرب منه البروفسير؟.. إن (رايتمان) الذي أعرفه مجنون بصحته ويستحيل أن يلمس كوبًا استعمله أحد أمامه..

- وماذا تريد قوله؟

- أريد القول إن هذا ليس (رايتمان)!!

* * *

- ٣ -

أخيرًا اقتنع المفتش بأنني لست مخبولًا.. وطلب مني أن راقب الموقف وأن أبلغه بما يستجد.. وأن..... أكون حذرًا...

وحين انصرف وقفت أرمق الثلوج في شرود.. ثم عدت إلى دار البروفسير، وبالطبع ظللت صامتًا برغم النظرات الفضولية التي أحاطت بي..

إن البروفسير - لسبب لا أدريه - يثق ثقة عمياء بـ (رايتمان) ويحترمه، وحتمًا لن يصغي لأي شيء أقوله في هذا الصدد.. وانصرف د. (هوفمايشتر) بعد دقائق ناصحًا إيانا أن نفتح أعيننا ونكون أكثر حذرًا....

* * *

بعد الغداء جلست أدون أحداث هذه القصة لأتذكرها فيما بعد إذا ما ظللت حيًا، كنت جالسًا في غرفة المعيشة وحدي.. إن (رايتمان) في غرفتنا الآن.. وأنا لا أدري ما سأفعله حين يأتي المساء، فالمؤكد أنني لن أبيت ليلة واحدة أخرى مع هذا (الشيء)..

لو ذاب الجليد لنسيت كل شيء ورحلت إلى (بازل) كاسرًا (قلة) خلفي - لو وجدت واحدة - كي لا أعود إلى هذه القرية المشئومة..

لكني هنا.. ومن الواجب أن أتحمل ما أنا فيه.. وهنا سمعت صوت خطوات رقيقة تنساب خلفي..

رفعت رأسي فوجدت (مارتا) الحسناء سكرتيرة البروفسير تدنو منى حاملة قدحًا من (الكاكاو) قدمته لي، ثم تربعت - كالهرة - على الأريكة جواري تحسو نصيبها من قدح آخر كانت تحمله..

- فيلين دنك! [5]

فهزت رأسها وشرعت تحسو (الكاكاو) من القدح وعيناها الزرقاوان مثبتتان علي...

يجب أن أقول هنا إن (مارتا) كانت بارعة الجمال.. ليس ذلك الجمال (الآري) السخيف الشبيه بالتماثيل والذي تراه في كل الناطقات بالألمانية، لكنه جمال حي ظريف المعشر.. وأنا رجل نحيل أصلع في العقد الخامس من العمر وعندي من الحكمة ما يكفي لجعلي كلما رأيتها أردد (سبحان الله)، ثم أنسى الأمر برمته..

لكن القرصين الأزرقين كانا مسلطين على وجهي كما تسلط كشافات (الجستابو) على فدائي فرنسي ضبط متلبسًا.. حتى أنني كدت أعترف لا أدري بأي شيء بالضبط.. أعترف فحسب..

- خيرًا..؟.. هل ثمة شيء غريب في مظهري؟

قالت في هيام حقيقي وهى تتأملني:

- لم أدر من قبل كم أنت جذاب!

كدت أجن فرحًا ثم فطنت إلى أن هناك شيئًا ما على غير ما يرام...

حين ترى فتاة أنني جذاب أوقن أنها معتوهة أو تعبث بي..

- هل تحب الجليد؟...
- أحبه في عصير الليمون طبعًا..
ضحكت.. أكثر مما يحتمله القول في الواقع.. ورشفت المزيد من (الكاكاو) ثم لعقت بقاياه من على شفتيها.. وهمست:
- أنت ظريف.. أتحدث عن الجليد الحقيقي.. الثلج الأبيض في كل مكان.. البرد الذي يدغدغ أناملك وأرنبة أنفك.. الظلام.. الأشجار الصامتة التي تحيط بعاشقين لا يريان في الكون سوى بعضهما.. ألا يحرك فيك هذا شيئًا؟!.
وفي تؤدة قدمت عرضها: تريد أن نخرج معًا - أنا وهي - وحيدين إلى الغابة هذه الليلة نتناجى ونتأمل الجليد المتسربل بالظلام.. تتعانق يدانا وتتلاقي عينانا و..... هل فرغت من قدح (الكاكاو)؟.. إذن هاته وفكر في عرضي جيدًا إلى أن أغسل القدحين...
ولما نهضت لتضع القدحين في المطبخ اختلست نظرة إلى ظهرها.. ولم يفتني أن ألاحظ البقعة الخاوية من الشعر في مؤخرة رأسها.. البقعة التي لم أرها أمس... البقعة التي عرفت أنني سأجدها....
الآن فهمت.....
اللعينة!... لقد بدأت الآن فقط أدرك مدى تغلغل هذا الوباء في القرية.. أولًا (رايتمان) ثم (مارتا).. ثم أذهب أنا معها إلى الغابة كالأبله وهناك تدعوني إلى أن أصير من الغرباء.. فإما أن أقبل وأعود شخصًا آخر له رقعة صلعاء في مؤخرة رأسه.. وإما أن أرفض ويجدوا جثتي ممددة فوق الجليد غدًا..
إنها الآن في المطبخ.. فماذا أفعل؟ وكيف أتخذ قراري؟...
نهضت إلى الهاتف وأدرت رقم المخفر.. بعد ثوان سمعت صوت المفتش (شبيرت) الغليظ يتساءل عما هنالك..
هامسًا قلت:
- أنا (رفعت) أيها المفتش.. (رفعت إسماعيل).. أعتقد أن (مارتا) سكرتيرة البروفسير لم تعد هي.. لقد ظهرت العلامة في رأسها.. والأدهى أنها تغريني للذهاب معها إلى الغابة ليلًا..
بدا الاهتمام في صوته وهو يهتف:
- لا تفوت الفرصة إذن.. اذهب!.
- لحظة.. لا أعتقد أنها تريد ذلك حبًا في شعري الجميل...
- أنا أفهم يا أحمق لكنك لا تفهم.. إنها تقدم لنا فرصة ذهبية للقبض على هؤلاء متلبسين.. سنكون هناك أنا ورجالي مسلحين بمجرد أن يحاصروك..
- إذن.....
- تظاهر بقبول العرض.. وليكن اللقاء في منتصف الليل.
- ولكن.... سأقبل العرض....

* * *

وهكذا يا رفاق ترونني أمشي مع (مارتا) إلى الغابة عند منتصف الليل..، أرتدي ثلاث طبقات من الثياب الصوفية وقلنسوة وقفازين.. وفي جيبي ينتظر مسدسي قلقًا....

كانت تتحدث في مرح وطلاقة عن أشياء رائعة لكنى لم أفقه حرفًا مما تقول..

كنت أفكر في حقيقة هذا الشيء الذي أمشي معه.. أكائن غريب حقًا أم عضو في تشكيل عصابي ما؟.. وكيف ستكون نهاية هذه القصة الدامية؟.. ترى هل صدقني المفتش؟.. ماذا يفعل (رايتمان) الآن؟.. هل علم أحد بخروجي؟...

ها هي ذي الغابة بأشجارها السامقة المكسوة بالجليد.. الظلام.. صوت أنفاسي اللاهثة....

- ها نحن أولاء قد وصلنا.

قالتها (مارتا) وهي تريح ظهرها إلى جذع شجرة.. أما أنا فدسست قرصًا من (النيتروجلسرين) تحت لساني احتياطًا للمفاجآت القادمة ووقفت أرمقها في تحفز..

- ماذا دهاك؟.. هل أنت معجب بي حقًا؟

دعينا من هذا الهراء يا فتاة وأريني لعبتك.. هأنذا فريسة طازجة بين يديك وما زلت تمثلين؟.. مشكلتي هي أنني سريع الملل.. ولا أطيق التطويل دون داع..

وهنا رأيت الظلال تقترب منا.. ظلال رجال ونساء يمشون فوق الجليد ببطء خالقين دائرة شبه كاملة حولنا... كان عددهم يقترب من العشرين..، وسمعت صوتًا خافتًا كالفحيح من حناجرهم:

- ر.. يـ.. فـ.. ـا.. ت!.. ر.. يـ.. فـ.. ـا.. ت!



وهنا رأيت الظلال تقوم من .. ظلال رجال ونساء يمشون فوق الجليد

بطء حالمين شبه دائرة كاملة حولنا ..

كان صوتًا هو أقرب لهتاف يتعالى ببطء.. وسمعت (مارتا) تهتف بي وقد اتسعت عيناها الزرقاوان:

- هلم يا (رفعت) كن واحدًا منا.. إن الغرباء أبناء النيزك يريدونك بينهم...

- (ريفات)!.. (ريفات)!

كان المشهد مروعًا بحق لكنه لا يخلو من سحر خاص.. ذلك السحر المميز لحفلات (الزار) في ريفنا.. الانبهار هو ما يميزه.. إنهم يقودونك إلى نوع من التنويم المغناطيسي يجعلك تقبل كل شيء..

ورأيت الفتاة إياها - ذات الشعر المنسدل على وجهها - وقد دنت مني وشرعت تدور حولي ببطء آتية بحركات راقصة ساحرة.. ولم أتبين وجهها المغطى بالشعر لكني شعرت بأنني أغوص أكثر.. أغوص....

وهنا سمعت الصوت الغليظ إياه يهتف:

- توقفوا جميعًا!

رفعت عيني في لهفة لأرى المفتش (شبيرت) وحوله ثلاثة رجال أشداء برزوا جميعًا من مكان ما في الظلام، وفي قلبي ترقرقت أنهار العرفان بالجميل.. لقد جاء في الوقت المناسب كما وعد...

نظرت نحوه في ترقب.. فسمعته يصيح وهو يقترب..

- لقد نفذنا ما اتفقنا عليه يا د. (رفعت)..

- مرحى!

- وصرت في قبضتنا!

-.....!

ونظرت إليه غير فاهم ولا مصدق، فإذا به ينظر للشباب ويقول كلمات لم أدر معناها.. كانت عيناي ثابتتين على رقعة الشعر العارية في مؤخرة رأسه!..

والتفت لي وقد أدرك أنني لاحظت.. قال في ثقة:

- هأنتذا ترى أنني لم أعد أنا.. كنت ساذجًا يا زميلي.. ساذجًا إلى حد لا يصدق!

تراجعت بظهري للوراء ببطء:

- إذن.. فأنت أيضًا؟.

- بالتأكيد! لابد لنا نحن الغرباء من التكاثر.. نحن بحاجة إلى أجساد مادية نحيا فيها.. وغدًا يعود د. (رايتمان) إلى (بازل) ليجد آخرين، وتعود أنت إلى (مصر) لتجد آخرين..

وعما قريب سيكون العصر عصرنا.. نحن الغرباء!

ازددت تراجعًا وأنا أوشك على فقدان الوعي:

- إذن النيزك هو الذي.....

- بالتأكيد.. كنا نحن جزءًا من النيزك وكان لابد أن نستمر..

ومن وراء كتفه رأيت الآخرين يدنون...

وعلمت أنني لن أستطيع الركض فوق الجليد، ولا الاستمرار في التراجع بظهري لأني - حتمًا - سأصطدم بشيء ما...

إذن...

ليس في جعبتي سوى الصراخ....
الصراخ.....

* * *

خاتمة

لم أصدق قط أنني كنت أحلم..

حين صحوت صارخًا من النوم، ووجدت د. (رايتمان) جالسًا جواري على الفراش يحاول تهدئة روعي..

أجفلت منه وقد خطر لي أنه جزء من الكابوس.. ثم هدأ بالي بعد ثوان حين عرفت أن كل هذا كابوس زارني بعد قراءة مقال جريدة (نويشاتل) عن النيزك، وبعد كل ما التهمته في العشاء من فطائر.

كنا في كوخ البروفسير بقريته لكن لا حصار ثلوج، ولا خطابات إلى مجلة (جيجنفارت)،.. ولا غرباء....

لقد كان كل هذا كابوسًا محكمًا خلقه عقل مريض...

* * *

وحتى حين عدت إلى (مصر) ظلت الرؤيا تطاردني.. وذلك المشهد الأخير الذي صحوت في ذروته.

وحين رأيت - باستعمال مرآتين - تلك البقعة الصلعاء في مؤخرة رأسي ظننت أنني صرت من الغرباء، وأن استيقاظي من الكابوس هي خدعة محكمة دبروها لي..

وذهبت لأحد أطباء الأمراض الجلدية النابهين، وصارحته بأمر هذه البقعة وريبتي من أمرها..

قال لي وهو يجلس على مقعده بعد أن أتم الفحص:

- إن الصلع يملأ رأسك فما الجديد هنا؟

- كان في مقدمة الرأس فقط...

- الآن صار في مؤخرته أيضًا.. إنك تتقدم في العمر يا صاحبي..

وهكذا نسيت كل شيء عن هذه القصة، وإن كنت بعد كل هذه الأعوام أسائل نفسي عما إذا كان حلمًا حقًا.. لقد كان حلمًا له صوت ورائحة وملمس ودرجة حرارة...

لكنني سعيد برغم كل شيء أن كل هذا لم يكن حقيقة..

* * *

وحين عدت إلى (مصر) كان هناك كابوس آخر ينتظرني.. كابوس قادم من عوالم قصص الرعب التي لا ترحم.. وكان صاحبه هو أعظم مؤلفي الرعب قاطبة..

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

- ٥ -

عودة إلى السرد التقليدي للأحداث مع د. (رفعت إسماعيل)

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

خاتمة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة الغرباء

عندما تفنى الظلال ..
عندما تبدأ الشمس رحلة
النهاية .. عندما يتوقف الزمن ..
عندما تعلن طيور الظلام
إمبراطوريتها .. عندما تذوب
الآمال و تتآكل الأحلام و يفنى
الغد .. عندئذ .. يأتى
الغرباء..



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة بو

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

حقيقة.

فرويلاين: آنسة بالألمانية. [2←]

لو حدث هذا اليوم لكان تحليل (الإيدز) ضروريًا لحالة مريبة كهذه. [←3]

[←4]

يعني قصة (سقوط منزل آشر) وهي أشهر قصص الدفن الأحياء. وهي من قصص (إدجار آلان بو) الكابوسية الخالدة.

شكرًا جزيلًا (بالألمانية). [←5]

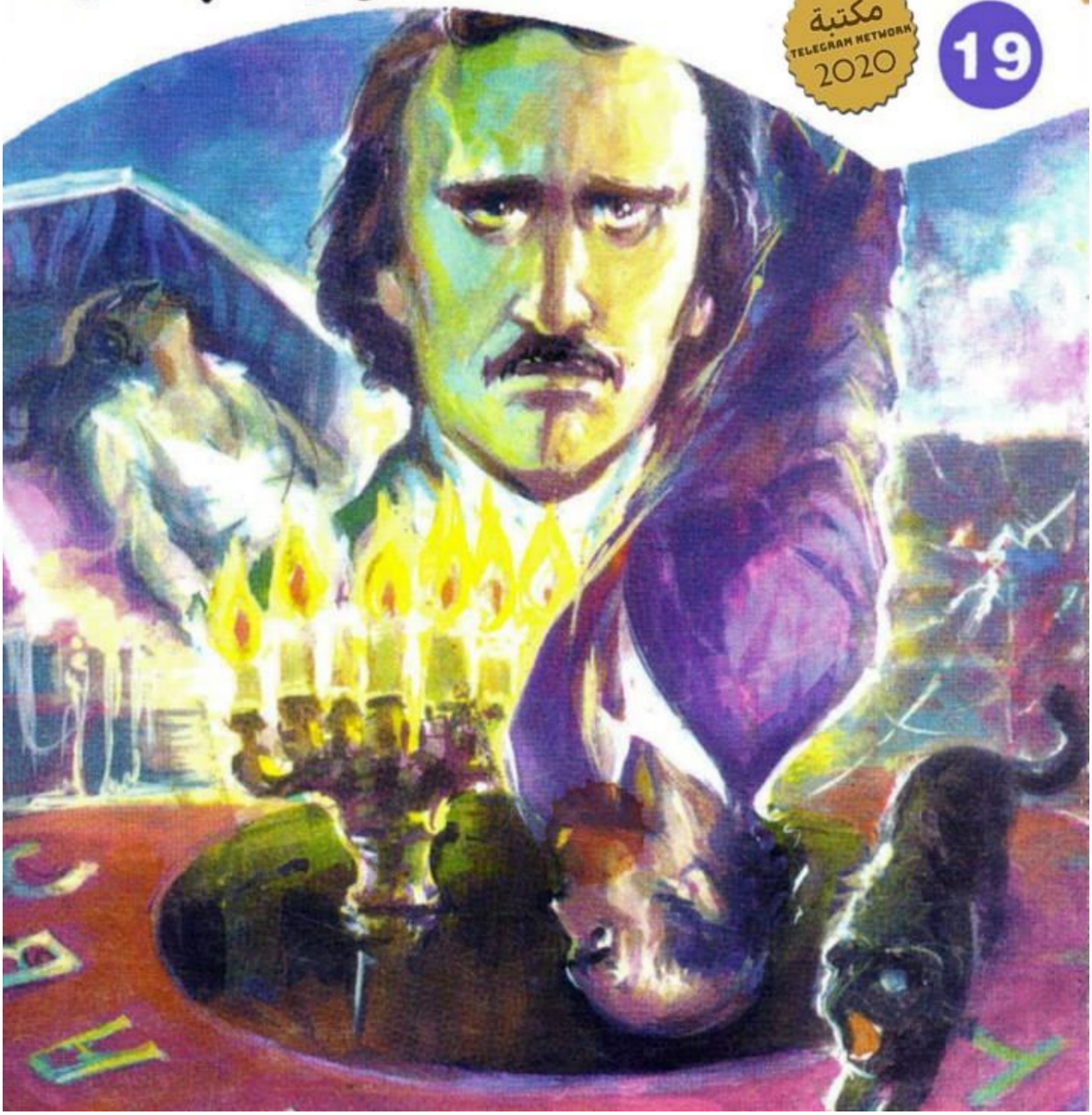
روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة بو

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

19



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٩

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة بو

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

مقدمة

إنه أكتوبر..... الشهر الذي حرم من دفء الصيف وشاعرية الشتاء..

الشهر الذي تنتهي فيه أحلام الصيف الزاهية، بينما آمال الشتاء الغامضة لم تولد بعد....

الشهر الشبيه بهيكل عظمي يرتدي عباءته السوداء ويرتجف.. لو كان للهياكل العظمية أن ترتجف..!..

و هأنذا - د. (رفعت إسماعيل) - أجلس على مكتبي.. جواري لفافة تبغ لم أشعلها، لكني أداعبها بأناملي.. أفركها.. أتشممها.. تلك الطريقة التي يسمونها بـ (التدخين على البارد)..

جواري قدح من (الينسون) وهو المشروب الوحيد الذي سمحوا لي بأن أشربه.. تبًا لهم قراصنة الطب... ما إن تعطي أحدهم يدك، حتى يستولي على عنقك وحياتك كلها.. لا تشرب القهوة ولا الشاي.. لا تنم.. لا تصح.. لا تدخن.. لا تقرأ.. لا تكتب.. لا تعش..!..

لكني سأسمح لنفسي بتسلية صغيرة ضاربًا عرض الحائط بكل نصائحهم.. سأجلس إلى مكتبي وأسطر أحداث قصة أخرى من ذكرياتي الرهيبة..

اليوم أحكي لكم قصتي في عوالم (إدجار آلان بو) الكابوسية، وهي مغامرة قصيرة رهيبة مرت بي عام ١٩٦٨.

وبالمناسبة: هذه القصة ليست حلمًا ولا هلوسة.. أعتقد أن عبقرية ذلك الشاعر الأمريكي كانت شيئًا ملموسًا، ولقد نجحت في أن تخلق عالمًا شبه مادي غصت فيه حتى شحمة أذني..

ستقرءون القصة معي.. ولسوف تفهمون الكثير من الأشياء.. وحين تنتهي أحداثها سأكون هناك - كالعادة - كي أشرح لكم وجهة نظري فيما حدث.. وكيف حدث.....

والآن كما يقول (دانتي).. يا من تدخلون هذا العالم الرهيب، اتركوا وراءكم كل أمل!.. أنتم الآن في ضيافة (بو)..

* * *

إهداء

إلى الأستاذ الخالد (إدجار آلان بو).. الذي رفع قصة الرعب إلى مقام الشعر.. ورفع الشعر إلى منزلة الحلم، واستخلص من كآبته وجهامة دنياه ذلك الكون السرمدي المصبوغ باللون الأزرق.. إلى (ادجار آلان بو) الذي فهم روعة الفزع... نهدي هذا الكتيب.

* * *

١ - أمريكا من جديد

العام ١٩٦٨..

للمرة الثانية تجبرني أعمالي على العودة إلى الولايات المتحدة... ولقد زرتها مرة من قبل.. يوم واجهت موضوع الاشتعال الذاتي، وذلك الوغد القديم (شاكال).. هل تذكرونه؟

وزرتها مرة غير محسوبة منذ أعوام - ربما عام ١٩٦٦ - حين اتخذتها محطة انطلاق إلى (جامايكا)، وواجهت (الزومبي) مع صديق لدود هو (هاري شيلدون)...

هذه المرة أرحل مرة أخرى إلى هذا البلد الذي لا أكن له أي ود مفقود.. والسبب.. حاولت أن أوضح السبب في الصفحات الأولى من (أسطورة اللهب الأزرق)..

* * *

إن الحياة في (أمريكا) أسرع مما ينبغي.. أعقد مما ينبغي.. أعنف مما ينبغي.. وأكثر مادية مما ينبغي.. ثم إنني لم أجد مبررًا يسوغ لي أن أحب بلدًا بذل كل ما يستطيع كي يعين عدوي على هزيمتي..

كان هذا هو العام ١٩٦٨.. وهزيمة ١٩٦٧ لم تبرد بعد.. ولم تزل مرارتها في الحلوق.. ولها في كل بيت مأساة..

لهذا - أكرر - ذهبت إلى هناك مضطرًا..

وكانت الأعمال التي علي أن أتمها - والتي لا أرى داعيًا كي أشرحها لك - تدور كلها في (نيويورك)...

إن (نيويورك) مدينة غير عادية.. ربما كان من المبتذل أن أقول إنها مدينة لا ترحم.. أو أن العاطفة قد ماتت فيها تاركة المجال للمادة.. إلى آخر هذا الهراء الذي يقوله الجميع عن أية مدينة.. لكنها الحقيقة!..

إن (نيويورك) تحوي أسماء لا بأس بها تغري بالمشاهدة.. (امبايرستيت). (برودواي).. (وول ستريت).. إلخ.. كل هذه الأسماء التي تسمعها منذ نعومة أظفارك وتتمنى أن تراها.. لكني أنصحك أن تكون أكثر حذرًا..

ولو أنك جرؤت على السير في الطرقات بعد العاشرة مساء.. وصادفت عصابة من الزنوج المسلحين بالمدي وإذا طلع الصباح عليك وأنت مهشم الأوصال مجدوع الأنف.. عندئذ لا تقل إنني لم أنذرك!..

وإذا مشيت في زقاق جانبي وفوجئت بتاجر (هيروين) يقوم بتوزيع السم على بعض الأوغاد.. وإذا ضايقه أن يراك.. عندئذ لا تلومن إلا نفسك.

وإذا ركبت إحدى سيارات التاكسي الصفراء المجنونة - يسمونها هنا (كاب) - ووجدت سائقها يقتحم بها رتلًا من السيارات لتتهشم كل عظمة من عظامك.. عندئذ تعرف أنك كنت مخطئًا حين ظننتها الجنة..

فإذا جاء الليل وسرت وحدك بين أضواء المحلات الساطعة المنعكسة على زجاج منظارك.. ورأيت الغواني يقفن على أبواب متاجر كتب عليها (سكس شوب) وهن يناديك: "هي ميستر!"..

وشعرت بالحيرة والضياع في عالم غريب مقزز.. عندئذ لا تقل إنني لم أخبرك بما ينتظرك...

* * *

نعم.. (نيويورك) ليست هي الجنة... ربما بدت كذلك لشخص غيري.. أما أنا.. فأقصى ما أبتغيه هو مكان هادئ تعزف فيه الموسيقا.. وصديق باسم أعرف أنه يحبني حقًا.. وأناس يتحدثون برقة وصوت خفيض..

قلت هذا الرأي لصديقي - على الطريقة الأمريكية - (جيري كلاين) فلم يرق له كثيرًا..

محام شاب هو.. أنيق.. وسيم يعشق بلده بعنف.. ويتصور أن من واجبي أن أشعر بالسعادة في مدينته وإلا كان هذا نوعًا من الكفر بنعمة الله..

وهكذا اتفقنا على أن يريني ما يعتقد أنني لن أقاومه في هذا البلد، نسيت إن أقول إن أعمالنا كانت مترابطة جدًا، لهذا لم يفعل ما فعله من أجل سواد عيني.. ولكن فعله بداعي المصلحة.. أو كما يقول الأمريكان: (البراجماتية)..

أخذني إلى مطاعم لا بأس بها.. وشوارع لم أتصور وجودها.. وملاهي (برودواي) المبهرة..

قلت له بعد هذا كله:

- (جيري).. أنا لم أزعم لحظة أنكم لا تمتلكون التقدم والمال والابهار.. لكنكم تفتقرون إلى الروح الإنسانية.. إن (أمريكا) شبيهة بصناعة السينما في (هوليوود).. جميلة مبهرة لكنها بلا تاريخ ولا عمق حضاري...أن فن السينما عمره لم يتعد قرنًا، بينما المسرح عمره عشرات القرون.. لكن السينما أكثر جاذبية من المسرح.

قال لي.. وهو يفرغ علبة البيرة التي كان يجرعها في حلقه ثم يهشم العلبة بقبضته..

- أنا لا أفهم ما تريد قوله.. لكني على كل حال أستطيع أن أريك تراثًا إنسانيًا لا بأس به..

والتمعت عيناه الزرقاوان خلف زجاج منظاره:

- سنذهب إلى (جران كونكورس)!

* * *

فيما بعد عرفت أن (جران كونكورس) يحوي الكوخ الذي عاش فيه شاعر أمريكا العظيم (إدجار آلان بو) مع زوجته منذ ما ينيف عن القرن...

لقد اشترت الولاية ذلك الكوخ، وجعلت منه مزارًا سياحيًا لكل من عشقوا شعر (بو) وقصص (بو)...

وكنت أنا بطبيعة الحال قارئًا نهمًا لكل ما جادت به قريحة ذلك العبقري.. قرأته بالعربية أولًا في سني صباي بالمنصورة.. ثم قرأته بالإنجليزية - والقاموس جواري - في أعوام دراستي للطب..

كان (بو) يملك - وهذا رأيي الخاص - تلك العبقرية المريضة المشؤومة التي تلد أشنع الرؤى القاتمة على الورق.. لكنك لا تستطيع إلا أن تصفها بأنها عبقرية..

رأيت ذات مرة رسومًا رهيبة بيد مريض (شيزوفرنيا) موهوب.. وإن أنس فلن أنسى القشعريرة التي أرسلتها في عمود الفقري تلك العوالم المشؤومة القاتمة بسمائها القرمزية وبحارها الدموية..

وشخصياتها الشبيهة بعناكب حائرة في نسيج قدري مخيف.. لقد كان المريض يرينا قطعة من ذاته.. يرينا العالم الداخلي المريع الذي يحيا فيه ويتعذب به..

وفي قصص (بو) كنت اشعر بذات القشعريرة.. هذه هي العوالم الرهيبة التي يحيا بها الرجل ليله ونهاره.. أي عذاب وأي ألم...

* * *

كانت العمائر الحديثة تحيط بالكوخ..

لقد زحفت المدينة على المكان الذي كان جنة أحلام هذا الشاعر العظيم، ولو أنصفوا لتركوا المكان كما أحبه وكما أراده.. لكن يكفيهم أنهم لم يزيلوا الكوخ كله ليبنوا موضعه (سوبر ماركت)...

دخلت مع (جيري) نتأمل الجدران المتأكلة.. ثمة لافتة موضوعة على مدخل الكوخ تقول:

"إدجار آلان بو"

ولد عام ١٨٠٩، في (بوسطون)..

مات أبواه في طفولته فتولى رعايته تاجر من (فرجينيا) قام بتعليمه حتى دخل الجامعة، ثم كف عن الإنفاق عليه.

في عام ١٨٢٧ عاد إلى (بوسطون) وبدأ ينشر أشعارًا لم تحظ بنجاح.

تزوج من ابنة عمته والتحق بالكلية الحربية.

توفيت زوجته عام ١٨٤٧ فكانت الضربة القاصمة له، وانغمس في شرب الخمر.

عام ١٨٤٩ وجد في أحد شوارع (بالتيمور) ميتًا.

لقد عاش (إدجار آلان بو) أربعين عامًا قدم خلالها للعالم قصائد وقصصًا لا تنسى. وكانت عبقريته التي تمكنت من مزج الرعب بالشاعرية هي التي جعلت لأدبه مذاقًا خاصًا لدى الناطقين بالإنجليزية وقارئيها...

انتهت الكلمات المكتوبة على اللافتة....

إنها لم تخبرني بشيء عن هذا العبقري، هكذا تبدو أية لوحة من بعيد.. ربما مبهرة.. ربما قبيحة.. لكنك لا تجرؤ على الزعم بأنك رأيتها إلا حين تدنو منها وتدقق النظر في كل خدش وكل ضربة فرشاة..

ماذا سيقولون عني حين أموت؟.. د. (رفعت إسماعيل) راهب العلم الذي لم يتزوج من أجل دراسة أمراض الدم.. له أسفار عديدة وصداقات كثيرة في الوسط العلمي، وله تأملات خاصة في. (الميتافيزيقا).. هذا هو كل شيء...

ولكن أين. حقيقتي؟.. أين معاناتي العاطفية؟.. مشاكلي مع التدخين؟.. مخاوفي وإحباطاتي؟.. لحظات نصري ولحظات هزيمتي.. كل هذا لن يعرفه أحد سوى من دنا مني إلى مسافة سنتيمترات وسمع سعالي ليلًا.. وأصغي لصوت اصطكاك أسناني بردًا.. وخاض معي مغامرة اختيار ربطة عنق قبل أن أقابل خطيبتي..

هنا عاش (إدجار آلان بو) وهنا ماتت حبيبته.. زوجته صغيرة السن الرقيقة كزهرة.. الحالمة كفراشة..

* * *

كان يحبها كثيرًا..

وبرغم مرضها بالسل فإنه لم يستطع أن يوفر لها ما يقيم أودها من الطعام.. لم يكن يملك لها سوى الحب..

على هذا الفراش كانت ترقد وترتجف، لا يكاد ما عليها من ثياب أن يسترها، في حين يجلس هو عند قدميها يدلكهما.. ويتحايل على القط كي يقنعه بالرقاد فوق قدميها الحبيبتين..



على هذا الفراش كانت ترقد وتوخف ، لايكاد ما عليها من ثياب
أن يستوها فى حين يجلس هو عند قدميها يدلكهما ..

وحين ماتت.. كاد يعجز عن دفنها لولا أن تبرع الجيران بدفع نفقات التكفين والدفن..
لقد ماتت في (يناير).. شهر مولده.. وحين جاء الربيع بروائح الكرز وعبير البنفسج، وابتسم البدر فوق قمم الأشجار؛ استبد به الحنين إليها فكتب أروع قصيدة في الأدب الأمريكي.. وأروع قصيدة قالها شاعر في زوجته عمومًا:

كان هذا منذ أعوام طوال.. طوال..
في مملكة بقرب البحر..
عاشت عذراء بتول لك أن تدعوها..
باسم: (أنا بيل لي)...
عاشت تلكم البتول ولا غرض لها في الحياة.
إلا أن تهواني.. وأن أهواها....

–

طفلة كانت.. وطفلًا كنت..
في تلك المملكة بجوار البحر..
إلا أننا عرفنا الحب الذي هو أقوى من الحب ذاته أنا وحبيبتي (أنا بيل لي)..
حبًا أثار حسد الملائكة ذوات الأجنحة علينا..

–

وفي ليلة - منذ زمن سحيق - في تلك المملكة بجوار البحر..
هبت الريح من غمامة..
فاقشعرت حبيبتي (أنا بيل لي)..
وأتى من يحملونها بعيدًا عنى..
ليسجنوها في ضريح..
في تلك المملكة بجوار البحر..

–

لكن حبنا كان أقوى..
من حب كل من فاقونا عمرًا..
من كل من فاقونا حكمة..
ولن تقدر الشياطين في أعماق المحيط ولا في طيات السحاب أن تفصل روحي عن روح..
(أنا بيل لي)..

–

لا يسطع ضياء القمر إلا ويجلب لي الأحلام..
عن (أنا بيل لي) الجميلة..
ولا تلتمع النجوم إلا وأرى فيها...
عيني (أنا بيل لي) الجميلة..
ولهذا أقضي الليالي مسهدًا.
وأرقد جوار عزيزتي.. حياتي.. عروسي...

في ضريحها بجوار البحر..
في قبرها بجوار البحر...!

* * *

كنت شاردًا في هذه الخواطر حين شعرت بيد (جيري) تجذب كمي.. أن أنتبه لشيء مريب..
كان هناك رجل قصير القامة أصلع الرأس يقف على بعد خطوات منا.. وكان يرمقني بذلك الفضول المزعج الذي يوحي بحقه الإلهي في التدخل فيما لا يعنيه...
نظرت له في حنق، وادرت ظهري كي لا أراه.. ثم اختلست نظرة أخرى للوراء فوجدته يحدجني بذات الثبات.
كان يرتدي معطفًا خاكيًا حال لونه، وفي فمه لفافة تبغ مطفأة.. وفي عينيه رقة ومودة لا أنكرهما..
وفي اللحظة التالية دنا منا..
لقد تجاوز الفضول حدوده ليدخل في نطاق التدخل السافر.. أنا لا أحب هذا..
وحين فتح فاه ليتكلم كان ما قاله هو آخر شيء مخبول توقعته في حياتي..
قال وهو يطرف بكلتا عينيه:
- مستر (بو)..!.. أخيرًا قد عدت!

* * *

٢ - حكاية لا تصدق

- اسمي هو (رفعت).. (رفعت إسماعيل).
- لا يهم..!.. النتيجة واحدة وهي أن العبقري (إدجار آلان بو) قد عاد إلى عالمنا في صورة جديدة.

نظرت مستغيثًا بـ(جيري) فغمز بعينه اليسرى في إشارة واضحة أن هذا الرجل معتوه.. فجاره ولينته الأمر..

قلت للرجل في تواضع:

- إنها ليست معجزة إلى الحد الذي تظنه.

وحاولت مغادرة المتحف مع (جيري) لكن الرجل كان لزجًا كذبابة.. سار خلفنا مطاردًا وهو لا يكف عن الثرثرة:

- اسمي هو (سام كولبي).. خبير في الروحانيات.. هيه!.. لا تسرعا هكذا!.. إن ساقي القصيرتين لعاجزتان عن اللحاق بساقيكما.. أنت تعرف شعوري يا سيد.. ريفام.... حين....

قلت له في سماجة لا تضارع، وأنا أحاول إشعال لفافة تبغ لولا أن لمحت (زغرة) في عين حارس الأمن تقول لي: ان خراب بيتي رهن بهذه الحركة..

- اسمي (رفعت).
- ليكن.. أنت تعرف شعوري يا سيد (رفعت) حين أدخل إلى هذا الكوخ بحثًا عن (الاكتوبلازم) السخي الذي تركه المرحوم (بو) في كل ركن وفوق كل قطعة أثاث.. إن روح (بو) لعالقة بهذا المكان كما تعلق رائحة الظربان بقفصه.
- تشبيه شاعري!
- شكرًا لك.. وفجأة برزت لي أنت من حيث لا أدري.. ولمحت عينيك وقامتك.. وشممت رائحتك أنت تشع ذات هالة (الاكتوبلازم) التي غمر بها (بو) هذا المكان.. بعبارة أخرى أنت هو (بو) وقد عاد إلى عالمنا.

عبثت في جيوبي حتى وجدت ستة بنسات، وبكل حنكة مددت يدي فدسستها في كف هذا الرجل.. أعتقد أنه بحاجة إلى (إكرامية) حتى يرحل ويريح أذني العجوز من هذا الهراء..

وهرعت و (جيري) إلى الباب.. سمعت (جيري) يهتف:

- لماذا أهنته؟.. لم يكن متسولًا قط.

قلت له وأنا أشعل لفافة التبغ:

- لم أرد إهانته.. لكنه يستحق ذلك إذا كان يرى انني (إدجار آلان بو) نترك رائحة الظربان في الأماكن التي ندخلها..!..
- لم يقل ذلك.. إنه.....

وهنا سمعت الرجل يصرخ وهو يهرع وراءنا.. كان غاضبًا كخرتيت لدغته ذبابة في جفنه.. غضبة لم أر مثلها من قبل.. وأشهد أن احمرار وجهه وعينيه واللعاب المتساقط من فيه تكفلوا

بإثارة الهلع في قلبي.. كأنني كنت في بلد أجنبي وارتكبت خطأ قانونيًا جسيمًا دون علم، وهو ذا رجل الشرطة ينفجر في..

- أنت أيها الـ (.....).. تحاول إعطائي صدقة!!.. أيها الـ (....) يا (....) يا (....) !.. أنا القادر على شراء ألف من عينتك لو بعت قلامة أظفاري!!.

كانت شتائمه تعكس. قدرة لغوية مذهلة، وعلمًا واسعًا وتربية طويلة في أزقة (بروكلين) إذا لم يخب حدسي..

حاولت تهدئته بكل الوسائل.. لكن غضبه كان نوعًا من الاعصار الذي لا تجدي معه أية وسيلة سوى تركه حتى يهدأ...

* * *

قال (كولبي) وهو يقلب مشروب الشوكولاتة الساخنة:

- الواقع أنني أسأت فهمك يا د. (رفعت).. أنت رجل طيب.

كنا جالسين في ذلك المقهى الصغير الذي اخترناه ليكون المكان الذي نعقد فيه اتفاق الصلح..

تأملته للمرة الرابعة.. كان دقيق الملامح والأطراف كأنه دمية أطفال.. جميلة ودود، لكن شيئًا ما في ابتسامتها لا يريحك تمامًا.. تعرفون بالطبع هذا الطراز من البشر اللطيف أكثر من اللازم لكنك لا تستطيع أن تمنحه مودتك كاملة.

ولا يفوتك أن تلاحظ - إذا ما حولت نظرك إليه فجأة - أنه يرمقك في ثبات بعين لا تطرف..!..

قال لي وهو يرشف المشروب الساخن (الذي عرفت أنه لا يشرب سواه، مما أكد انطباع الطفولة في ذهني):

- هل تؤمن بتناسخ الأرواح؟

- لا.....

- إذن لا تؤمن بإمكانية كونك عشت من قبل حياة سابقة ربما كـ (إدجار آلان بو) مثلًا؟

قمت بنزع منظاري لتلميع زجاجه وقلت:

- إنني مسلم يا مستر (كولبي) وتناسخ الأرواح يتعارض مع ديانتي.. وحتى لو لم يكن يتعارض معها فإن قانون الصدفة يقول إنه من العسير أن أكون أنا بالذات - بين كل سكان الأرض - تجسيد روح كاتبكم العبقري.. أعترف أنني شخص منحوس، لكن ليس إلى هذا الحد المروع.

مال برأسه نحوي.. ثمة شارب بني على شفته العليا من الشوكولاتة.. واتسعت عيناه:

- لقد راقبتك وأنت تتفحص الكوخ.. راقبتك بعناية، ورأيت الانبهار والذهول على محياك.. كنت تشعر بشيء ما.. كنت تشعر بأنك عشت هذه التجربة من قبل.. رأيت هذا الكوخ من قبل.. و.....

ثم نهض في عصبية.. وقال معتذرًا:

- معذرة.. أريد الذهاب للحمام.. إنها (البروستاتا) كما تعلمون في سني!

وهرع يسأل النادلين عن مكان دورة المياه..

- غريب الأطوار لكنه مسل.

قالها (جيري) وهو يضيف بعض السكر لقدح الشاي... فقلت وأنا أتأمل الرجل:

- ليس مخبولًا على الإطلاق.
- إن قومه لا يتمتعون بأدنى قدر من البراءة.
- قومه؟!
رشف (جيري) جرعة من الشاي وغمغم:
- طبعًا.. اليهود!.. ألا تعرف معنى أن يكون اسم الشخص (سام)؟!..
يهودي؟.. لست معاديًا للسامية أبدًا.. أنا أكره الصهيونية لكني لا أحمل ضغائن لليهودية.. ولكن ما سر هذا التوتر في أعصابي والجفاف في حلقي..؟.. بالطبع لم أظهر هذا لـ (جيري). وأشعلت لفافة تبغ وشرعت أسعل على سبيل التسلية..
بعد دقائق عاد (كولبي) من الحمام.. كان قد نسى أزرار سرواله مفتوحة وبلل معطفه بمياه الصنبور.. رجل بائس مشعث لا يوحي بالخطر بل بالبلاهة و (الدهولة)..
قال وهو يجذب مقعده ليجلس جواري:
- مازلت تنكر أنك شعرت بما شعرت به؟.. حسن!... أنا قادر على أن أثبت لك صدق كلامي وفراستي.. اسمعا!.. إن داري قريبة من هنا.. ولسوف أدعوكما إلى تجربة فريدة من نوعها.
- وما هي؟..
- ستريان لو قبلتما.
تبادلت و (جيري) النظر.. كان الملل يخنقنا في هذا النهار اللعين، وما كانت لدينا وسيلة لإمضاء الأمسية.. لم لا نذهب لنرى ما يريد هذا المعتوه؟.. هو غير قادر بالتأكيد على إيذائنا نحن الاثنين.. ومن الممكن أن نتعلم من ورائه خبرة جديدة..
وكما قلت لكم - وسأقول دومًا - كنت ساذجًا.. ساذجًا.. ولم أعرف هذا إلا بعد صفحتين أو ثلاث!

* * *

ضيقة جدًا دار (كولبي).. تتكون من حجرتين وصالة مليئة بقصاصات ممزقة وخرق مبعثرة هنا وهناك، ثمة غرفة نوم مغلقة وغرفة جلوس بها مائدة مستديرة يعلوها ذلك الشمعدان السداسي اليهودي الشهير.. وعلى الحائط لوحة كبيرة تمثل قرص (زودياك) الخاص بالتنجيم.. وعدة برطمانات ملأى ببلورات زرقاء مخضرة..
ثم مكتبة بها عدة مجلدات سميكة مهترئة.. وحوض أسماك زينة به سمكتان بشعتا المنظر.. وكان الجو يعبق برائحة بخور مقيتة زيتية تخنق الأنفاس..
قرب (جيري) فمه من أذني وهمس:
- لا أحب هذا المكان.. (رفعت).. هذا الرجل يمارس السحر الأسود وأقسم على هذا!



ضيقة جدًا دار (كولبى) .. تتكون من حجرتين وصالة ملينة

بقصاصات ممزقة وخرق مبعثرة هنا وهناك ..

الواقع أنني - أنا الآخر - شعرت بهذا.. وتذكرت شقة الأم (مارشا) ساحرة (الفودو) في (جامايكا) يوم جلست أمامها لتقرأ لي أوراق (التاروت)..

لكن ماذا بيدي عمله؟.. هل نهرب؟.. إن الرجل - حتى هذه اللحظة - كان نموذجًا للكرم واللطف.. قدم لنا قدحين من مشروب الشوكولاتة الساخن - عليه اللعنة - وسمح لي بالتدخين، بل وأدار على الجراموفون أسطوانة عتيقة لـ (باخ)..

ثم نهض وأحضر بعض البرطمانات.. أراها لي بما تحويه من بلورات خضراء مزرقة شبيهة بالشب.. قال لي:

- هل ترى؟.. هذا هو (إكتوبلازم) عدد من الأرواح التي قمت بتحضيرها!

تساءل (جيري) في توجس وهو يتأمل البلورات:

- هل تعني أن الأرواح تركت لك هذا؟..

- إن للأرواح القدرة على إعطاء تجسيد مادي معين غالبًا ما يأخذ شكل بلورات.. وهذا هو ما نسميه (جبلة خارجية) أو (إكتوبلازم).. هذا شيء معروف.. و....

ثم نهض ملهوفًا.. وهرع إلى الحمام مرددًا عذره لأن..

- نعم.. نعم.. إنها (البروستاتا).. لا عليك يا صديقي!

وجلست - أنا و (جيري) - نتامل البرطمانات.. كانت هناك وريقة ملصقة على كل واحد منها، وقد خط عليها اسم معين: أدولف هتلر.. إيزادورا دنكان.. تيمورلنك.. نورما جين بيكر.. إدجار آلان بو.. يوليوس قيصر..

تساءلت وأنا أرشف الشوكولاتة كارهًا:

- لا أعرف هذه الـ (نورما جين بيكر).

قال (جيري) في خبث:

- إنه الاسم الأصلي لـ (مارلين مونرو).. إن هذا اليهودي ليس محرومًا تمامًا من تذوق الجمال!

- فهمت.. إن عالم الأرواح لا يعترف بأسماء الشهرة.

وهنا عاد الرجل... قال لنا وهو يغلق أزرار سرواله هذه المرة:

- الآن يمكننا البدء.. ولتكون الصورة واضحة أمامكما سنحاول استحضار روح (إدجار آلان بو) وسؤالها عن د. (رفعت إسماعيل).. سيجيبنا الرجل بالخبر اليقين.

قلت في نفاد صبر وأنا أعيد البرطمانات إلى الرف:

- ما دمت تزعم أن روحه هي روحي فأنت لن تجد شيئًا.

- هذا ما أتوقعه.

- آها!.. لقد بدأت تتراجع!.. إذا لم يحدث شيء ستعتبر هذا دليلًا على صدق كلامك..... وكلانا يعرف أنه لن يحدث شيء.

نظر لي تلك النظرة التي تفزعني.. وقال ضاغطًا على حروف كلماته:

- د. (رفعت).. أرجوك ألا تكون واثقًا إلى هذا الحد.

- إن المنطق هو ما يتكلم.. ولا دخل للثقة هنا.

تناول بين سبابته وإبهامه حفنة من طعام الأسماك القشري، وبعثرها فوق سطح الماء.. السمكتان ترتفعان للسطح تعبان ما أمكنهما عبه من هذه القشور.. قال لي وقد أولاني ظهره:

- لو أن روح (إدجار آلان بو) استجابت لنا فأنا مخطئ ولا خطر عليك.. أما لو كانت هي بعينها روحك فإنني لا أضمن النتائج.. لربما هلكت أنت في الحال.. ولربما غبت إلى الأبد في عالم الأثير حيث لا تدري إن كنت (رفعت) أم (بو)!

ثم استدار لي وجفف أنامله في معطفه:

- إنني سأعتبر انسحابك اعترافًا منك بصدق كلامي.. فهل تنسحب يا دكتور (رفعت)؟!

* * *

٣ - تجربة خطرة...

ولماذا أنسحب؟...
أعرف جيدًا أن شيئًا لن يحدث، سيقول هذا المعتوه كلامًا كثيرًا ويداري عينيه بكفه ويهتز.. وبعد عشر دقائق سيقول لي إن روح (إدجار آلان بو) غير موجودة، وأن هذا دليل كاف على أنها تجسدت في شخصي..
هذا هو ما سيحدث بالضبط، فلم لا ألعب دور الشجاع الواثق من ذاته ولو مرة؟.. أنا لم ألعب هذا الدور منذ قبلت تشريح مومياء (أخيروم) كي لا أبدو رعديدًا أمام رجال هيئة الآثار..
أنا لن أنسحب يا (كولبي)..
هلم ألعب لعبتك..

* * *

فرك يديه في شغف، وقال وهو ينظر في عيني بثبات:
- ليكن يا د. (رفعت).. ولكن لنتفق على شيء.. أنا لا أفعل، ما أفعله دون مقابل.
تصاعد الدم إلى رأسي:
- ولماذا كانت ملحمة الشرف التي أتحفتني بها حين....؟
- لم أتحدث عن مال.. - قالها رافعًا كفه في كبرياء - فالعلم لا يقدر بثمن.. ما أريده هو إثبات رسمي منك يقر بأن التجربة صحيحة.. وهذا الإقرار سينشر في مجلة (ويزارد)[1] وهي مجلة توزع على نطاق محدود في وسط المهتمين بالروحانيات.. إن التصديق هو ما أريده.
قال (جيري) وهو يرسم على وجهه أمارات الاستمتاع بما يحدث:
- وكيف له أن يعرف أن التجربة صحيحة إذا لم يحدث شيء؟
قال الرجل في صبر:
- أنا واثق بأنه سيعرف ذلك.
ثم توتر وجهه وهتف:
- معذرة!.. الحمام..!.. إنها (البروستاتا) كما تعلمون.
- إنها لحالة متقدمة بالفعل يا صديقي.
فما إن تركنا اليهودي حتى مال (جيري) على اذني هامسًا في جدية:
- هل حقًا تنوي المرور بهذه المهزلة؟
تثاءبت وقلت:
- إن الحياة هي حشد من الخبرات السارة وغير السارة.. وانا أهوى جمع الخبرات كما يجمع غيري العملات أو أغطية زجاجات المياه الغازية.. ويومًا ما سأحكي لرفاقي تجربتي مع تحضير الأرواح، ولسوف يهزون رءوسهم في شغف قائلين: كم من خبرات غريبة عاشها هذا العجوز..!
- وتكتب له هذا الإقرار؟

- لم لا؟.. إنه يسعى إلى الشهرة والدعاية.. لم أر في حياتي طبيبًا يمتنع عن تعليق عبارات الشكر التي يكتبها له المرضى في عيادته.

ثم أردفت:

- على كل حال أنا واثق من أنني لن أشعر بشيء.. وستكون كتابة ذلك الإقرار غير ذات موضوع..

هز (جيري) رأسه وفك رباط عنقه الأنيق طلبًا للاسترخاء:

- الواقع يا (رفعت) أنني لم أعد واثقًا أيكما أكثر خبالًا.

* * *

منذ الطفولة لم أكن كالآخرين..
لم أر ما رآه الآخرون..
ولم أستطع أن آتي بالأحلام من الربيع الذي عرفه الآخرون..
لم أجد فيه أحزاني.. ولا أفراحي...
وكل ما عشقت في حياتي..
عشقته وحدي..

(إدجار آلان بو)

* * *

فخورًا بنفسه، متحمسًا عاد لنا (سام كولبي).. كان قد وضع أسطوانة جديدة لـ (باخ).. وأشعل بعضًا من ذلك البخور المرعب لإضفاء جو النصب الذي أراده...

وقف في وسط الغرفة، وأشار إلى سلة عتيقة فوق أحد الرفوف:

- هل تفضلان أسلوب السلة؟

أشعلت لفافة تبغ.. أعترف أنني كنت قد بدأت أتوتر.. وقلت:

- أفضل أسلوبًا أكثر حداثة.

- إذن.. ليكن أسلوب المائدة.. ليس لدينا وسطاء للأسف لهذا سنلجأ إلى هذا الأسلوب.

وأشار لكل منا كي نجلس إلى المائدة، وانتزع الشمعدان السداسي والمفرش فوجدت أن الحروف الأبجدية كلها مسطرة على محيط المائدة الخارجي.. أنا أعرف هذه الطريقة من قراءاتي.. سيحتاج الأمر إلى كوب كذلك على ما أظن..

لكن (التكنولوجيا) الأمريكية لم تترك شيئًا لم تطوره.. أحضر لنا الرجل أداة تتحرك على ثلاث عجلات هي أقرب إلى مكواة حديدية - ولها ذات الحجم - لكن لها ثلاثة مقابض، وكان طرفها المدبب هو المؤشر الذي سيشير إلى الحروف تباعًا..

- أرجو ألا ينفجر هذا الشيء في وجوهنا.

- صه!.

ونهض (كولبي) فأضاء ضوءًا أحمر كريهًا خانقًا ثم أطفأ ضوء الغرفة.. و.....

* * *



أحضر لك الرجل أداة تتحرك على ثلاث عجلات هى أقرب

إلى مكواة حديدية !..

كنت في السابعة من عمري حين أطفأ أحدهم النور..
صحوت لأرى الضوء الأحمر الرهيب يغمر المكان.. خلتني قد مت وذهبت إلى الجحيم حيث تمرح الشياطين حولي.. صرخت.. صرخت..
ثم شعرت بكف خالي الباردة تربت على ذراعي:
- لا تخف يا (رفعت)!.. إنها إضاءة مصباح (الكيروسين).. لقد تعطل التيار الكهربائي وأنت نائم يا بني..!
لكنني كنت أنشج وأرتجف..
ولا أذكر متى نمت ثانية...

* * *

لن يجيء خالي هذه المرة.. لأنني رجل كبير ناضج أمارس - بملء إرادتي - تجربة رهيبة في (نيويورك)..
ها هو ذا (كولبي) يعود في تؤدة ليجلس إلى المائدة.. يبدو لي أكثر شيطانية في الضوء الأحمر الرهيب..
قال وهو يمسك أحد المقابض الثلاثة:
- من الآن لن يكون هناك مزاح.. فليبتلع كل منكما لسانه وتعليقاته الساخرة.
كانت شخصيته تتبلور أكثر فأكثر لتتحول إلى قوة كاسحة لا تجرؤ على معارضتها، وأعتقد أن شخصية كهذه كانت قادرة على الإيحاء بأي شيء لكل من يجلس معها في هذا الجو المسموم..
إن النصب يحتاج إلى شخصية قوية حقًا عميقة التأثير..
- ليمسك كل منكما بمقبض.
فأمسكنا.....
- ستشعران (بالكاشف) يتحرك.. لا تقاوماه.. اتركاه يذهب إلى حيث يريد.. وستكون الإجابة على أسئلتنا هي ما ينجم عن الحروف.. تذكرا لا أسئلة سوى ما أسأله أنا.. لا نريد خلطًا.
- ولكن عندي بعض الأسئ....
- صه.. لقد أغلق باب المناقشة وإبداء الآراء.. إن الدكتاتورية هي اسم اللعبة يا سادة من الآن فصاعدًا.
ابتلعت ريقي بصوت مسموع....
بدأ الرجل يتلو عبارات ما بصوت خفيض، لابد أنها نوع من الاستنجاد بالشياطين أو شيء من هذا القبيل.. ثم تبينت كلمة (إدجار بو) في كلامه..
وهنا خطر لي خاطر... لابد أنه قام باستحضار روح المذكور بنجاح من قبل - بدليل (الإكتوبلازم) في البرطمان - وهذا يعني أنه مخطئ في كلامه.. هو يعرف أنه مخطئ.. فما جدوى هذا الذي يحدث إلا إذا كان يدرك جيدًا أنه نصاب؟..
ابتلعت خواطري وواصلت تلك التجربة..

* * *

كم هو زلق هذا (الكاشف)!...
بصعوبة شديدة تستطيع أن تثبت قبضتك عليه دون أن تدفعه..
وسمعت صوت (كولبى) يتساءل:
- (إدجار آلان بو).. هل أنت معنا؟.
ساد الصمت لحظات.. صوت أنفاسنا ودقات قلوبنا.. ثم شعرت بالكاشف ينزلق.. ببطء نحو محيط المائدة..
تحرك أولًا نحو (النون).. ثم (العين).. ثم (الميم)..
ن - ع - م...!
رفعت عيني نحو (جيري) وقالت نظرتي ما لم أستطع قوله.. إن واحدًا منا فقط يمارس دورًا إيجابيًا في التحريك، في حين يظن الآخران أن الكاشف يتحرك تلقائيًا..
إنها حيلة سهلة ومن الصعب كشفها..

* * *

سأل (كولبي) بصوت درامي:
- هل تسمعني جيدًا يا مستر (بو)؟.
- ن - ع - م..!
- هل تستطيع تعرف أحد من الموجودين؟.
ببطء تحرك الكاشف.. طرفه المدبب يشير إليّ..
ثم شرع يتحرك نحو حرف (الراء).. ثم رسم قوسًا طويلًا قاصدًا (الفاء)..
ر - ف - ع - ت، إ - س - م - ا ع - ي - ل، م - ص - ر - ي، ي - ع - م - ل، ط - ب - ي - ب - ا...!
- ولماذا عرفته دون سواه؟!.
تحرك الكاشف ببطء.. ببطء نحو حرف اللام..
"ل - أ - ن - ه - أ - ذ- ا..!".
جففت بيدي اليسرى قطرات العرق التي نبتت على جبيني.. سيسهل علي فضح الخدعة لو أن (كولبي) نزع يده من مقبضه..
يصعب على أن أدعوه إلى ذلك الآن لكني سأدبره..
- وكيف يكون أنت بينما أنت معنا هنا؟.
ساد الصمت هنيهة..
هذا النوع من الأسئلة صعب حتى على الأرواح (لم أشك لحظة في أن هذه خدعة سخيفة من (كولبي).. بماذا سيجيب يا ترى؟...
وبعد هذه الهنيهة عاد الكاشف يتحرك:
أ - و - ق - ف، ا - ل - ت - ج - ر- ب - ة، ح - ا - ل - ا، و - ا - ل - ا، ح - د - ث، م - ا - ل - ا، ت -ح - م - د، ع - ق - ب - ا - ه!.
- ماذا تعني؟.. ولماذا لا تجيب على سؤالي؟.

- إ - ن، ر - و - ح - ي - ن - ا، و - ا- ح - د - ة، و - م - ع - ن - ى، هـ - ذ - ا، أ - ن - ك، ت - س - ل - ب - هـ، ج - ز - ء -ا، م - ن، ذ - ا - ت - هـ، ا - ل - ا - ن!.

للمرة الاولى تكلمت...

- ما معنى هذا الهراء يا (كولبي)؟.. لقد طالت الدعابة.. طا..

نظر لي (كولبي) نظرة صارمة.. وضم شفتيه:

- شششش!..

ثم نظر إلى الكاشف وهتف:

- إذن ارحلي يا روح (بو).. ارحلي!.

تنفست الصعداء.. واستعددت لأواصل الكلام، لولا أن شعرت بالكاشف يتحرك جارًا قبضتي معه..

كان يتجه في سرعة مجنونة إلى حرف (الفاء).. ثم فارقها مسرعًا إلى حرف (الألف).. ثم (التاء)..

شرع (كولبي) يتمايل في موضعه محاولًا اللحاق بحركة الكاشف المجنونة.. وحرك شفتيه لينطق الحروف:

- ف.. ا.. ت الأوان..!.. إن رحيلي يعني رحيله معي!.

* * *

- فات الأوان!.

قالتها (ماجي) وأنا أودعها في (أسكتلندا) يوم جاء ميعاد الرحيل..

كانت لحظة وهن قد انتابتني بينما القطار يهدر منذرًا بمغادرة المحطة، وأوشكت على أن أثب بحقائبي عائدًا لها..

لكنها - بإشارة حازمة من يدها - منعتني من ذلك.. كان وثبي من القطار يعني إضافة جثة ممزقة إلى مشرحة جامعة (داندي)..

ومن النافذة شرعت أرمقها.. رقيقة.. واهنة.. حانية..

وتبتعد طيلة الوقت....

* * *

كان (بو) هو الآخر يبتعد....

وشعرت بكف (كولبي) الباردة تعتصر يدي في جنون:

- لا تستسلم يا (رفعت)... حاول ألا تموت!...

لماذا يهزني هذا المعتوه؟.. أريد أن أناااام!..

- (رفعت)..... قاوم الحفرة التي ستغوص فيها.. حاول أن تبقى على السطح..

النعاس لذيذ بعد عناء الحياة.. لكن لدي مواعيد يجب أن أحفظها، وأميالًا يجب أن أقطعها قبل أن أنام في الغابة الباردة..

من قال هذا؟.. (فروست)؟.. ربما.. لا داعي للتذكر لأنني سعيد برغم كل شيء..

سعيد.....

* * *

٤ - قناع الموت الأحمر...

والغراب لم يطر بعد..
مازال قابعًا في موضعه فوق تمثال (بالاس) فوق باب غرفتي
وعيناه عينا شيطان يحلم..
بينما ضوء المصباح يرسم ظله على الأرض..
هذا الظل الذي لن تفارقه روحي..
إلى الأبد..!

(إدجار آلان بو)

* * *

الضوء الأحمر مازال موجودًا لم يبرح المكان بعد..
لكنني أدركت - بعد جهد - أن الجدران سوداء تمامًا..
كان مصدر الضوء الأحمر الدموي هو الزجاج الأحمر المثبت على النوافذ.. وخلف تلكم النوافذ كان اللهب يتأجج باعثًا ذلك الضوء الرهيب على وجوه الواقفين حولي..
نظرت يمينًا ويسارًا فادركت أنني في حفل تنكري. رجال يرتدون أقنعة مروعة ونساء يلبسن ثياب الكرنفال.. كانت الموسيقا تعزف باستمرار.. والحشد يرقص عليها رقصًا رشيقًا بارعًا..
وفجأة دوى صوت غريب أجفل له القوم.. نظرت إلى ركن القاعة فوجدت ساعة سوداء رهيبة عند الجدار الغربي.. كانت هي المسئولة عن هذا الصوت الغريب..
نظرت لساعتي فلم أجدها.. وأدركت أنني ألبس كهؤلاء القوم.. ثيابًا تمت إلى القرون الوسطى..
- تحية للأمير (بروسبرو)!.
دوت العبارة بالإيطالية لكني فهمتها..
أين أنا؟.. كيف جئت ها هنا؟.. من هؤلاء؟...
أنا أعرف جيدًا أن هذا حلم.. بالأحرى هو كابوس.. لكن كيف أصحو منه؟.. كيف أنهيه؟..
خرجت من هذه القاعة الكئيبة أمشي بين الراقصين.. أدركت أن هناك سبع قاعات.. كل منها لها لونها الخاص الناجم عن لون الزجاج.. قاعة زرقاء.. خضراء.. صفراء.. إلخ..
وهنا شعرت بشيء مألوف في كل هذا...
ولكنني لم أستطع أن أقسم.. ربما كان هذا ضربًا من ظاهرة (ديجافو) اللعينة التي تجعل ما لم تره من قبل يبدو مألوفًا..
كان الوقت منتصف الليل..
ولمحت رجلًا يسير بين الراقصين.. رجلًا طويلًا ناحل اختار لنفسه زي الكفن.. كان يمشي بين القوم باعثًا الهلع والاشمئزاز في قلوبهم..

وإذ دنا مني لمحت في ضوء الغرفة الرابعة - الأرجواني - قناعه.. كان قناع مومياء متحللة، وكان الكفن الذي يرتديه ملطخًا بالدماء كله..

أي ذوق فظ دفع هذا المخبول إلى التنكر بهذا الشكل؟!..

ولمحت من يدعونه (بروسبرو) محنقًا يشير نحو الرجل ويقول شيئًا ما لحراسة الذين جردوا سيوفهم..

وهنا تذكرت....

إنني وسط قصة (قناع الموت الأحمر) الشهيرة لـ (إدجار آلان بو)!.. الأمير الذي أراد الفرار من الوباء فبنى لنفسه وخلصائه قصرًا سامقًا بعيدًا عن الوباء الذي عم البلاد.. الوباء الذي سموه (الموت الأحمر)..

ترك الرجل شعبه يتألم وعاش في هذا القصر - الذي صهرت أقفاله كي لا تفتح - ينعم بحياة الرغد والهناء..

ثم أعد عدته لهذه الحفلة التنكرية الباهرة بين القاعات السبع الملونة التي بناها لضيوفه.. كان يريد إبهارهم وجعلهم ينسون.. لكن ضيفًا دخيلًا يرتدي الكفن ظهر لينغص هذا الحفل..

وحين طارده الأمير بسيفه فر الضيف إلى القاعة الحمراء.. لحق به الأمير هناك ورفع سيفه ليقتله.. لكنه لم يفعل.. لقد كان الضيف هو الموت الأحمر ذاته، وقد استطاع دخول القلعة الحصينة... وسرعان ما تساقط الأمير وضيوفه موتى والدم ينز من أجسادهم..

قصة مروعة لكنها لا تخلو من عظة... المشكلة أنها تحدث أمامي الآن بكل تفاصيلها..

كيف؟.. لماذا؟.. لا أدري....



لحق به الأمير هناك ورفع سيفه ليقتله .. لكنه لم يفعل .. لقد كان

الضيف هو الموت الأحمر ذاته ..

كان الضيف غريب الأطوار يسير ما بين القاعات في تؤدة، والأمير يصرخ في حراسه:
- انزعوا قناع هذا المهرج لنعرف من هو قبل أن نشنقه!.
لكن الحراس كانوا خائفين....
وسرعان ما دخل الضيف القاعة الحمراء.. فهرع الأمير مجردًا حسامه نحو هذه القاعة....
هرعت أنا الآخر ألحق بالأمير..
ليكن هذا حلمًا أو كابوسًا.. لا يهم.. إن من واجبي أن أنذر هذا الرجل..
إنني أعرف خاتمة القصة.. ولما كانت القصة مماثلة للحياة لمن يعيشون في أحداثها، فإنني أجرؤ على القول إنني أعرف قدر هذا الأمير بدقة..
يجب منعه.. يجب الاستغاثة.. يجب إقناع هؤلاء القوم بالفرار من القصر حالًا.. القصر الذي تسلل إليه الموت الأحمر...
صحت في جنون:
- لا تلحق به أيها الأمير إلى الغرفة الحمراء!.
هكذا قلتها بالعربية.. الغريب أن الكلمات خرجت من حلقي بالإيطالية.. وفهمتها وعرفت أنهم فهموها..
لكن الأمير لم يعرني اهتمامًا...
هرع إلى داخل الحجرة السوداء.. بعد ثوان سمعت صرخة رعب عاتية.. وسمعت ساعة الحائط تدق دقة واحدة مرتجفة قبل أن تهمد نهائيًا...
الجثث تتساقط واحدة بعد الأخرى.. الصراخ يملأ المكان ويطرد الضحكات الخليعة التي ملاته من قبل...
لقد فشلت مهمتي إذن.. يجب أن أفر.. أفر....
شعرت بحاجة للسعال فعلت كاتمًا فمي بكمي.. و حين رفعت كمي وجدته غارقًا بالدماء..
وأدركت - دون جهد كثير - أن الدماء تنزف من كل سنتيمتر في جسدي.. لقد دهمني الموت الأحمر قبل أجد وقتًا كافيًا كي أصاب بالرعب..
إن قدمي تذوبان تحتي.. الظلام يدهمني....
إنني.....

* * *

٥ ـ القلب الذي كشف السر...

وثب الشيطان من الصندوق
فأثار هلع الأطفال..
لم تفلح أية لعبة في تهدئتهم
ظلوا يتوقعون رعبًا جديدًا.. فكفوا عن السمع..
كفوا عن النظر.....
انسل ذعرهم يملأ الدار من غرفة إلى أخرى..
حتى حملتهم أمهم في نهاية الأمر إلى الفراش..

(إدجار آلان بو)

* * *

وجدت نفسي جالسًا في غرفة ضيقة على مقعد.. وحولي ثلاثة رجال يرتدون ثيابًا رسمية..
رجال شرطة هم - قلت لنفسي - ولكن ماذا يريدون مني؟..
أشعر بأن هذه الجلسة غير عادية.. الغرفة خانقة بها فراش واحد صغير.. وأرضيتها من الخشب البالي المتآكل..
وكان الرجال جالسين في شيء من التأدب، لكن الريبة كانت على وجوههم.. من أنا هذه المرة؟..
كنت أوقن أنني أداري سرًا.. ولكن ما هو؟..
وبدأت أتذكر.. الشيخ العجوز المقيت.. كنت أحبه برغم كل شيء، لكني إنسان عصبي.. عصبي إلى حد مروع..
كانت عينه اليسرى شبيهة بعين الصقر.. زرقاء.. عليها سحابة تذكرني بالموت.. وكنت أخافها كثيرًا...
وصممت على قتل الشيخ كي أتخلص إلى الأبد من مشهد عينه الرهيبة..
نعم.. إنني أتذكر ذلك جيدًا..
أتذكره لأنني الآن - كما أدركت - ألعب دور البطولة في قصة (إدجار آلان بو) الشهيرة: القلب الذي كشف السر..
يا للغرابة!.. أشعر أن ماضيّ هو ماضي بطل القصة لم أعد أنا د. (رفعت إسماعيل) بكل تراثه.. بل أنا شاب مخبول عاش في أوائل هذا القرن..
والأسوأ أنني لم أكن أعرف أنني مخبول..
كل ما فعلته كان منطقيًا للغاية بالنسبة إلى هذا العقل المريض المستقر في تجويف جمجمتي..

كنت في - كل ليلة - أعالج مزلاج غرفة الشيخ، وأدس رأسي لأسلط شعاعًا من المصباح الكهربي على عين الرجل.. العين الهامدة الميتة التي أكرهها..

ظللت أمارس هذا العمل سبع ليال.. وفي الليلة الثامنة صحا الرجل على صوت المزلاج.. أصابه الهلع.. شرع يرتجف، كورقة أمام الضوء المتسلط عليه من فتحة الباب..

راح يتساءل من أنا، لكنني لم أجب.. ظللت أسلط الضوء عليه ورأسي في الظلام.. وأدركت أنه أصيب بنوبة قلبية، وأنه موشك على الانهيار..

وبعد دقائق توفي الرجل إذ لم يتحمل قلبه كل هذه المعاناة..

قمت بانتزاع ألواح خشب من الأرضية، وقمت بدفن جثته الممزقة في غرفتي.. وأحكمت إعادة الألواح إلى مكانها.. كما أحكمت إزالة أية بقعة دم..

* * *

وفي الصباح جاءني رجال الشرطة يستفسرون عن صوت صرخة سمعه أحد الجيران من غرفة الشيخ ليلة أمس..

أنا أعرف نهاية القصة.. لكني لن أقع في خطأ بطل القصة الأصلي.. إن بعض تماسك الأعصاب سيكون كافيًا لنجاتي..

جلست مع رجال الشرطة فوق أخشاب الأرضية التي يرقد تحتها الشيخ..

شرعت أثرثر معهم وأمازحهم.. إن هي إلا دقائق وينصرفون.. فهم أصلًا يتوقعون أن ما جاءوا لأجله هراء..

ولكن..... دوم دوم!.. دوم دوم!..

ما هذا الصوت؟..

تماما!.. مثل بطل القصة، أسمع صوت الدقات قادمًا من تحت الخشب.. وأعرف - أو أظن - أن هذا هو صوت قلب الشيخ اللعين الذي ما انفك ينبض!

هل يسمعون هذا الصوت؟.. لا!.. مستحيل.. لكني سأحاول أن أخفيه.. هأنذا أنهض.. أحرك مقعدي في عنف.. أتجادل بصوت عال - دون داع في الواقع - وأضرب الأرض الخشبية بحذائي..

أنا أعرف أن كل هذا حدث في القصة الأصلية، لكني مرغم على أن أحذو حذو البطل.. عواطفي وقناعاتي الخاصة هي عواطفه وقناعاته.. أنا لا أفهم!

الرجال ينظرون لي في حيرة.. أنا واثق بأنهم سمعوا دقات القلب كما سمعتها.. أنا واثق بأنهم يعرفون القصة كلها.. إنهم - أولئك الأوغاد - يسخرون مني..

دوم دوم... دوم دوم... الصوت يتعالى..

العرق يحتشد على جبهتي..

الرجال يرمقونني في شك..

وهنا وصلت أعصابي إلى نهاية المطاف..

نهضت من مقعدي صارخًا:

- نعم... أنا قتلت الشيخ ودفنته هنا تحت هذه الأخشاب..... هلموا أخرجوه من هنا وأسكتوا قلبه الذي كشف السر!!

كنت أعرف أن المشنقة تنتظرني.. عشت للحظات كل مشاعر المحكوم عليه بالإعدام.. يا للهول!..

إلا أن القصة كانت قد انتهت على كل حال، ووجدت نفسي أفارق هذا الكابوس إلى كابوس آخر!

* * *

٦ - البندول والبئر...

برغم غيابي المطلق في هذا الكابوس الشنيع؛ ظلت قدرتي على الملاحظة والتفنيد قائمة..

كانت الكوابيس مجسمة تمامًا لها طعم ولون ورائحة.. والإضاءة.. آه من الإضاءة!.. لقد صور المخرج الشهير (روجر كورمان) أكثر قصص (إدجار آلان بو) مستخدما أسلوب التلوين المسمى (باثيكولور).. ذلك الأسلوب الذي لا يترك من طيف الضوء سوى اللونين الأزرق والأخضر، وهكذا يصطبغ الفيلم بكامله بهذين اللونين الكئيبين الباردين.. مع اختيار أماكن تصوير عتيقة تحاصرها خيوط العناكب..

لقد وجدت نفسي أعيش في فيلم من أفلام (كورمان) هذه.. الفارق أنني عاجز عن إطفاء جهاز التليفزيون أو مغادرة دار السينما قبل انتهاء العرض...

* * *

كذلك لم أعجز عن فهم حقيقة موقفي..

واضح أن التجربة التي مررت بها نجحت في انتزاعي من عالم الواقع.. ولكن لأدخل عالمًا من الكوابيس لا يجمع بينها سوى أنها وليدة خيال (إدجار آلان بو) المريض..

ما معنى ذلك؟ وما سببه؟..

أعتقد أن كل هذه الرؤي كانت متجسدة حية في ذهن الرجل.. وحين خطوت أنا خارج عالم الماديات؛ خطوت إلى ذلك العالم المحكم الذي صاغه (بو).. إنني أفكر مثله وأشعر مثله.. لهذا - كان من الطبيعي - أن أعيش ذات كوابيسه..

إنه تفسير مبتور غير مرض تمامًا.. لكنه التفسير الوحيد الذي أستطيع أن أزعمه..

* * *

هذه المرة كان الأفق كله قرصًا من الحروف العربية والإنجليزية مبعثرة في إهمال..

وكنت أنا أتدلي في الهواء.. رأسي يكاد ينفجر من الاحتقان بينما قدماي مربوطتان في حبل يصل إلى نقطة اللارؤية، في عنان السماء القرمزية التي حاصرتها الغيوم..

وشعرت أن رأسي يتأرجح.. يتأرجح حول محيط دائرة.. كأنه مؤشر يتجه إلى الحروف لينقل رسالة ما..

ورأيت حرف (الهاء) يدنو من راسي.. ثم حرف (الياء).. إذن هو يمارس معي ذات لعبة المائدة والكوب، ولكن على نطاق كوني هائل.. إن رأسي هو الكوب والسماء هي المائدة.. ولمحت حرف (الألف) فبدأت أكون كلمات.. فجملًا...

هـ - ي - ا، ح - ا - و - ل، أ- ن، ت - ت - خ - ل - ص، م - ن، هـ - ذ - ا، ا - ل - ك - ا - ب - و س

صحت بصوت دوي كهزيم الرعد في الأفق:

- كيف؟.. كيف؟.
وشعرت برأسي يدخل الدائرة من جديد:
ي - م - ك - ن - ك، أ - ن، ت - ن - ج - و، ل - و، ن - ج - ح - ت، ف - ي، ت - غ - ي - ي - ر، ن - ه - ا - ي - ة، ق - ص - ة، م - ن، ا - ل - ت - ي، ت - م - ر، ب - ه - ا
أغير نهاية قصة؟.. هذا هو السبيل الوحيد للنجاة؟.. يبدو لي سهلًا.. ولكن لماذا؟.. لماذا؟..

* * *

كان ظلام الليل السرمدي يغمرني.. الظلام يجثم على صدري كحجر، والجو ثقيل لا يحتمل...
وفي أعماقي يقين كامل أنني سجين في سجن يدعى (توليدو) رماني فيه قضاة محاكم التفتيش الإسبانية، بقسوة لا توصف ولا مبالاة تنم عن أعنف احتقار للجنس البشري وآلامه..
كنت أعرف الأساطير العديدة التي حكوها عن هذا السجن، وأعرف العقاب العبثي المروع الذي ينتظرني داخله.. لكنني لم أستطع أن أتذكر أنني قرأت قصة كهذه..
فيما بعد - حين راجعت مجموعات (بو) القصصية - تذكرت أن هذه هي قصة (البندول والبئر)..
كان التوقيع على هامش الصفحة الأولى يقول (المنصورة - مايو ١٩٤٠).. لابد أنني قرأتها في عصر أحد أيام الصيف، كنت جالسًا في الشرفة - حتمًا - أتأمل الموجودات والمارة وقلبي ذو الستة عشر عامًا يخفق بأحلام لا نهاية لها.. ولا بد أنني قرأت القصة وقلت إنها جيدة ثم أغلقت الكتاب ونسيت الأمر برمته، فلم يعد إلى عالمي إلا اليوم.. بعد ثمانية وعشرين عاما من النسيان التام.....!..

* * *

الظلام الدامس.. الترقب.... ثم ضوء خافت أجهل مصدره...
كنت على ظهري ممددًا، مقيدًا إلى إطار خشبي بحزام جلدي سميك، وكانت ذراعي اليسرى حرة لتتيح لي أن أتبلغ بطبق على يساري به لحم متبل..
ليس وجود اللحم ترفًا.. بل هو جزء من التعذيب، لأنهم لم يحضروا معه ماء!، وكان على أن أتحمل الظمأ في أعماقي..
رفعت عيني إلى أعلى فرأيت بندولًا.. بندولًا يتأرجح مع الوقت.. المشكلة أن هذا البندول كان على شكل منجل من الفولاذ البراق يتأرجح نزولًا - مع كل ثانية - نحوي!..
إذن فهذا هو المصير الذي ينتظرني على أيدي قضاة محاكم التفتيش..!..
كم من ساعات مريرة قضيتها أرمق هذا النصل وهو يهبط لأسفل.. دائمًا لأسفل.. رائحة الفولاذ المسنون تتسرب الآن لأنفي.. لا بد أن أيامًا قد مرت علي في هذا الحال، أرمق النصل يدنو من جسدي.. ببطء.. ببطء....
كنت أفقد الوعي مرارًا، لكني حين أفتح عيني كنت أجد النصل لم يدن من جسدي أكثر!.. لقد كان الشياطين يوقفون عمل البندول إلى أن أفيق من إغمائي حتى لا تفوتني ثانية عذاب واحدة..!
إلى أسفل!.. دائمًا إلى أسفل!..



رائحة الفولاذ المسنون تتسرب الآن لأنفى .. لابد أن أياما قد
مرت على فى هذا الحال ، أرمق النصل يدنو من جسدى ..

وتخيلت اللحظة التي سيبدأ فيها النصل تمزيق النسيج على صدري ثم يذهب بعيدًا.. ليعود كي يمزق المزيد من النسيج.. ثم لحم الصدر نفسه.. و.....

و ارتجفت.. نظرت إلى طعامي فوجدت الفئران تصطرع عليه..

وهنا خطرت لي فكرة عبقرية.. بيد مرتجفة تناولت قطعة لحم من الباقية في الطبق وشرعت أدهن بها الحزام الجلدي الذي يقيدني إلى الإطار الخشبي..

وعلى الفور شعرت بالحيوانات المريعة تزحف على جسدي.. سمعت صوت القضم والقطع.. وشعرت بأفواهها تتحسس شفتي.. تعبث في عنقي..

لكني تمالكت غثيان وتماسكت...

وبعد دقائق طالت شعرت بالحزام يرتخي.. تمكنت من تحرير يدي.. واستطعت تمزيق القيد والنهوض.. وصرت حرًا.. نجوت!..

وهنا رأيت النصل يرتفع لأعلى!..

أصابني هذا بالإحباط.. هم يراقبونني طيلة الوقت، وقد فرغوا من هذه الدعابة لكنهم سيبدؤون دعابة أخرى..

لقد فررت من مصيدة فئران إلى مصيدة أخرى لا أكثر..

وهنا أدركت الحقيقة المروعة..

إن الجدران تلتهب!.. تلتهب بالنيران.. والأسوأ هو أنها تضيق من حولي ببطء شديد..

أدركت أنها تدفعني إلى مركز القبو.. وهذا المركز كان عبارة عن بئر عميقة لم أدرك لها قرارًا...

أنا مضطر إذن إلى الاختيار ما بين الموت حرقًا أو سقوطًا من عل..

* * *

وهنا تذكرت كلمات (بو).. لو أنني نجحت في تغيير نهاية قصة لصرت حرًا.. هكذا قال..

ولكن كيف كانت نهاية هذه القصة؟.. أنا أعرف أن (بو) لا يحب النهايات السعيدة، وحتمًا الموت هو ما ينتظرني ولكن كيف؟.. حرقًا أم في البئر؟.. للأسف لا أذكر هذه القصة أساسًا.. ولو تذكرت نهايتها لفعلت أي شيء كي أغيره.. لكنني - على كل حال - لا أملك سوى الموت..

وهنا سمعت صوت قعقعة فوق رأسي.. صوت انفجار.. صوت أبواب تفتح.. ثم شعرت بيد تمسك بي لتنتشلني من القبو.... إذن هناك من اقتحم السجن ليحررني..

ورأيت وجوهًا باشة صديقة تتحدث الفرنسية..

* * *

شعرت أن الكابوس ينتهي، وأن المرئيات تذوب من حولي.. فرحت أقهقه كالمجنون.. أنا أول من يبقى حيًا بعد قصة من قصص (بو):

- لقد فعلتها!.. نجوت من قصتك يا (بو)!.. خرجت منها حيًا!.. لقد أنقذني جنود فرنسيون في آخر لحظة.. هاها هاها!.

مرة أخرى شعرت بأنني تحولت إلى بندول معلق في الأفق.. دائرة الحروف تحيط بي.. رأسي يتجه ببطء إلى حرف (الكاف).. ثم (اللام).. ثم....

ك - ل - ا، ه - ذ - ه، ه - ي، ن - ه - ا - ي - ة، ا - ل - ق - ص - ة، أ - ل - أ - ص - ل - ي - ة!.

- ولكنني نجوت!.

شرعت الحروف تتجمع ببطء شديد.. وفهمت ما تريد قوله:

- في نهاية القصة الأصلية ينجو البطل على أيدي جنود الجنرال (لاسال) الذين استولوا على (توليدو) في آخر لحظة، لينتقموا من وحوش محاكم التفتيش..!

ثم أردف (بو):

- لو - حقًا - أردت أن تبدل نهاية القصة لرميت بنفسك في البئر.. وعندئذ كنت ستخرج من عالم قصصي الرهيب!.

- لم أكن أعرف القصة يا (بو).. لم أكن أعرفها!.

- أتمنى لك حظًا أفضل في المرة القادمة!!.

وشعرت بالكون يذوب تحت قدمي...

وغصت في مادة العدم الهلامية المقيتة...

* * *

٧ - القط الاسود...

كان (إدجار آلان بو) صغير البنية..
لكنه كان حساس الملامح.. يتمتع بقوة شخصية آسرة ممزوجة بنوع من الشجن والكآبة والكبرياء العاتية..
كانت له علاقات نسائية، لكن كل من عرفنه من النساء قلن إنه لم يحب في حياته سوى امرأة واحدة هي زوجته..
عرف اليتم من الأبوين في سن صغيرة، وتبناه تاجر غني اسمه (جون آلان) هو من منحه اسم (آلان) هذا.. وبرزت موهبته الأدبية غير العادية في سن مبكرة، حتى أنه صار مسئولًا بالكامل عن تحرير مجلة أدبية كبيرة في سن الثانية والعشرين..
ويصفه الشاعر الفرنسي العظيم (بودلير) قائلًا:
- لقد اجتاز هذا الرجل قمم الفن الوعرة.. وهوى في حفر الفكر الإنساني، واكتشف - في حياة أشبه بعاصفة لا تهدأ - طرقًا وأشكالًا مجهولة يدهش بها الخيال ويروى العقول الظامئة إلى الجمال، هذا العبقري مات عام ١٨٤٩ فوق مقعد في الشارع.. وكان عمره يدنو من الأربعين عامًا.

* * *

لما حاولت أن أهوى فوق رأس القط بالفأس؛ أوقفتني يد زوجتي الرقيقة هاتفة أن لا..
لكن أبخرة (الأفيون) تصاعدت إلى رأسي، فلم أجد مفرًا من أن أهوى فوق رأسها هي لأهشمه إربًا..!
هكذا بدأ هذا الكابوس بداية حماسية مبالغًا فيها..
هأنذا - بعد ثانية من بدء الكابوس - أقف بفأس تلوث نصله بالدم أرمق جثة زوجتي في ندم وحيرة...
أية قصة هذه؟.. لا أذكر أنني قرأت قصة مشابهة لـ (إدجار آلان بو).. فلأدع الأحداث تستمر ولسوف أتذكر وقتها..
وهنا رأيته يقف أمامي بجسده الأسود، وفمه الأحمر المقيت وعينه العوراء.. ذلك القط الأسود اللعين..
عندئذ تذكرت..
إن القصة التي أمامي هي قصة (القط الأسود)، وهي - لعمري - من أشنع قصص (بو) وأكثرها قتامة.. أنا شخصيًا كنت أمقتها أكثر من أية قصة قرأتها في حياتي...
لكنها - وهذا حق - مفعمة بالنقاط التي يمكن تغييرها.. فانا أذكر كل تفاصيلها بدقة، وأعرف عن حق الأخطاء التي ارتكبها البطل، والتي لم يرتكبها....
حتى اسم القط اذكره.. إنه (بلوتو) مثله مثل إسم (بلوتو) حاكم مملكة الموتى المظلمة (هيدز) عند الإغريق..

* * *

طبقًا لهذه القصة أنا إنسان رقيق مرهف الحس يهاب الحيوانات، ويعاملها بما هي أهل له..

ثم وقع في براثن الإدمان اللعين، فصار مع الوقت مصابًا بذلك الداء المرادف للإدمان: عمل أشياء ما كان ليفعلها لو كان محتفظًا بكامل عقله.. أشياء يندم عليها أشد الندم حين يفيق..

وطبقًا لمتطلبات هذا الداء صرت أضرب زوجتي ضربًا مبرحًا.. وصرت أقسو على حيواناتي أشد القسوة..

ثم كان أن وقع ذلك الحادث الأليم..

كنت عائدًا إلى الدار واصطدمت بالقط، الذي أنشب أنيابه في ساقي.. حادث طبيعي لكنه حدث لإنسان غير طبيعي...

وكان من المحتم أن أستجيب له بشكل غير عادي..

رفعت القط وفقأت عينه اليسرى بمطواتي..

ومن يومها صار يطاردني في البيت ككابوس يذكرني طيلة الوقت بفعلتي الشنعاء.. الفجوة السوداء المظلمة تملأ أحلامي بالذعر..

وحين بلغ السيل الزبى كان الحل الوحيد الباقي لي هو أن أعلق أنشوطة أشنق فيها هذا القط البائس!..

كانت زوجتي تقول لي دومًا إن القطط السوداء هي سحرة متنكرون، والواقع أنني بدأت أصدق هذا القول، إذ أذكر الأحداث التي تلت هذا..

الحريق الذي اشتعل في البيت في الليلة ذاتها.. ولم يستطع أحد أن يجد له تفسيرًا قط..

ثم رسم القط المشنوق الذي وجدته على الجدار الوحيد الذي ظل سالمًا بعد الحريق.. لم أجد كلمات تشرحه..

كل هذا كان نذيرًا بشيء ما....

لهذا كان ينبغي ألا أرى ذلك القط الأسود الأعور الذي صادفني في الحانة ذات ليلة.. لم يكن له صاحب.. وكانت على صدره بقعة بيضاء لا شكل لها..

ما كان ينبغي أن أراه.. وما كان ينبغي أن آخذه معي للدار.. كنت واثقًا أنه ليس القط الأول الذي شنقته بنفسي فوق غصن الشجرة فالقط المذكور لم تكن هناك بقع بيضاء على صدره..

ودارت الأيام..

لكني - والحق أقول - كنت أخشى هذا القط بشدة.. كنت أرتجف هلعًا من مرآه.. وبالأخص من مرأى صدره..

كانت البقعة البيضاء التي لا شكل لها تتشكل ببطء في صورة.. آه!.. لا أجرؤ على القول.. صورة مشنقة!

يومًا فيومًا تتشكل المشنقة أكثر.. وتلاحظ زوجتي ذلك.. أطالبها ألا تتكلم عن ذلك.. لكنها تصر..

حالتي النفسية تزداد سوءًا..

أجلب الفأس وأهرع نحو القط لأقتله.. لكن امرأتي تحاول منعي.. فيهوي الفأس ليشج راسها!

* * *

فارس شجاع سافر طويلًا..
في الليل والصبح بحثًا عن (إلدورادو)..
لكنه تقدم في العمر وسقط الظل على قلبه..
إذ لم يجد مكانًا في الأرض يشبه (إلدورادو)..
وإذ خذلته قواه رأى ظل حاج يمر بقربه..
فسأله: أيها الظل أين عساي أجد (إلدورادو)؟..
أجاب الظل: فوق جبال القمر..
وفي وادي الظلال امتط حصانك بجسارة..
إذا كنت تبغى (إلدورادو)..

(إدجار آلان بو)

* * *

لم أكن أبغي (إلدورادو) أرض الذهب الأسطورية..
كنت أبحث عن مخرج يقيني تكرار أحداث القصة الرهيبة، فمن المفروض - حسب ما فكر فيه (بو) - أن أدفن زوجتي في ثغرة بالجدار حتى تختفي جثتها أبدًا..
إذن لن أفعل ذلك.. سأبلغ الشرطة بكل بساطة، وهكذا تتغير أحداث القصة، وأعود إلى زمني الأصلي..
نعم.. يمكنني الآن أن أفتح باب هذا المنزل وأنادي الجيران كي يخفوا إليّ ليفضحوا أمري.. و...
وهنا فطنت إلى حقيقة مروعة..
إنني كنت أتكلم وأتكلم.. لكن يدي كانتا مشغولتين بتقليب الملاط، ووضع قوالب القرميد بعضها فوق البعض..!

* * *

(رفعت).. قاوم الحفرة التي ستغوص فيها.. حاول أن تبقى على السطح!!..

* * *

إذن فالأمر حتمي..! لا مفر لي برغم محاولاتي العنيفة كي لا أفعل ما أفعله..
الجدار قد ارتفع مداريًا جثة زوجتي كما حدث في القصة الأصلية بالضبط.. ولم أكن أعرف أنني أجيد البناء..
كان يدى لهما حياة وإرادة خاصتين بهما..
والأسوأ هو أنني ارتكبت عامدًا ذات الخطأ الذي ارتكبه بطل القصة.. حبست القط حيًا داخل فجوة الجدار مع الجثة.. وليكونن هذا القط هو بداية النهاية..

* * *

وجاء رجال الشرطة يسألون عن زوجتي..
شرعت أدعوهم في مرح لتفتيش البيت، وأدعوهم إلى أن يتفحصوا كل موضع وكل مكان..
كلا يا (رفعت)... لا تطرق الجدار الذي أخفيت به الجثة.. أرجوك لا تفعل!.. بطل القصة كان يجهل ما ينتظره أما أنت فتعرف.. أرجوك!..
لكن هذا حدث.. رفعت قبضتي وطرقت الجدار..
عندئذ دوي صوت العواء الطويل الذي جمد الدم في عروقهم..
وها هم أولاء رجال الشرطة يهدمون الجدار..
وها هي ذي جثة زوجتي المتعفنة تبدو للعيان، وفوق رأسها وقف القط الأسود يرمقني بفجوة عينه المريعة، وقد فغر فاه الأحمر عن عواء صامت منتصر..
لقد حاولت جهدي كما رأيتم.. وفشلت!..
فإلى كابوس آخر.....

* * *



وهاهى ذى جثة زوجتى المتعفنة تبدو للعيان ، وفوق رأسها وقف القط الأسود يرمقنى بفجوة عينه المريعة ..

٨ - سقوط منزل (أشر)...

حين وجدت نفسي أتأرجح كالبندول أمام الأفق؛ صرخت بصوت اهتزت له الأشجار فوق الأرض، والغيوم القرمزية في السماء:

- تبًا لك يا (بو)..

لقد أرغمت على الحياة في عوالم خيالك المريض التي هي بخار من أبخرة الأفيون الذي كنت تدمنه، فويل لي أنا الذي نال عذابين...

عذاب أبطال قصصك بمصائرهم الرهيبة.. وعذاب محاولتي للفرار من هذه المصائر كفأر في مصيدة.. بلا أمل في الخلاص.. فهل يكون الخلاص يوم ينتهي مخزونك من القصص؟.. إنك كنت غزير الإنتاج - للأسف - وخلفت لنا كمًا لا ينتهي: الحشرة الذهبية... الدوامة.. تابوت ليجيا.. الضفدع القفاز.. موريللا.. إليانورا.. إلخ.. إلخ..

فهل سأمر بكل هذا؟..

المصيبة أنني أعيش كل عذابات وآلام أبطال قصصك.. وهي عذابات لا يطيقها المرء سوى مرة واحدة في عمره.. لكنني أعيشها جميعًا في عمر واحد..

- تبًا لك يا (بو)!.

لقد كذبت علي.. زعمت أنني أستطيع الفرار.. ولكن لا أمل لدي.. إن أحداث القصة لها حتمية قدرية لا تتبدل ومهما حاولت فمسار القصة أشبه بنهر ماض من منبعه إلى مصبه....

ص - ب - ر - ا، ت - ذ - ك - ر، ح - ي - ا - ت - ي، و - آ - ل - ا - م - ي، و - ل - س - و - ف، ت - ج - د،ا - ل - ح - ل!

* * *

حياتك؟.. لقد كنت نموذجًا للفشل في كل شيء حاولته يا (بو)... طردوك من جامعة (فرجينيا) لإفراطك في الشراب.. طردت من الأكاديمية الحربية في (وست بوينت) لأنك كنت تتخلف عن الطوابير العسكرية مفضلًا كتابة الشعر.. طردك الثري الذي رباك ورفض أن يوصى لك ببنس واحد..

قالوا إنك مجنون..

ربما كان هذا صحيحًا.. إن كل هذه العبقرية لا تخرج إلا من عقل أحرقت الموهبة خلاياه.. كانت لك أخت مجنونة.. ولربما كانت في عقلك بعض من (كروموسوماتها).. بذرة الجنون..

حتى زواجك كان غريبًا.. زوجتك كانت في الثالثة عشرة من عمرها وأنت قاربت الثلاثين..! كانت طفلة.. ولم يكن في حوزتك ما تقدمه لها سوى الشعر.. ماتت أمام عينيك من المسغبة ومن داء الصدر اللعين، لكنك لم تملك لها سوى معطفك العتيق العسكري تغطيها به..

أي عذاب وأي ألم عشته في حياتك أيها العبقري المجنون! وحين ماتت لم تستطع دفنها إلا بما جاد به جيرانك عليك..

* * *

حمدًا لله!
قد انتهى الخطر..
وولى المرض الطويل..
وانتهت الحمى التي يسمونها (الحياة)..
أعرف أن قواي قد فارقتني
وأنني عاجز عن تحريك عضلة واحدة
لكن هذا لا يهم..
أشعر أنني أفضل حالًا بكثير..
لقد سكن كل هذا الأنين والعواء والتنهد والبكاء
ومعها سكن ذلك الخفق الرهيب في القلب..
لقد انتهت تلكم الحمى التي يسمونها (الحياة)..

(إدجار آلان بو)

* * *

هذه المرة أنا فوق صهوة جوادي - لم أدر من قبل مدى براعتي في الفروسية - قاصدًا دار صديقي (رودريك أشر).. بناء على دعوة عاجلة منه يقول فيها إن مرضًا نفسيًا عضالًا قد ألم به، وهو في حاجة ماسة إلى وجودي جواره..

كان اليوم يومًا كئيبًا من أيام الخريف، وانقباض غير عادي يغزو روحي، إذ أرى جدران البيت الباردة الرمادية، ممتزجة بسماء مكفهرة كئيبة....

إنني أذكر قصة كهذه.. قصة بها إسم (أشر) لكنني لست واثقًا من تفاصيلها...

ثمة فارق هائل ما بين قراءة قصة وأنت في فراشك ليلًا في تلك الدقائق التي تفصلك عن النعاس؛ وقراءتها لتعيشها بكل تفاصيلها.. بل وتحاول تغيير هذه التفاصيل..

أدركت أن القصة بعد في بدايتها لأنني لا أحمل أية ذكريات عن أية أحداث، سوى معرفة سطحية بصديقي (رودريك أشر) الهادئ المنطوي آخر أفراد سلالته..

* * *

غريب هذا...!

حتى الهواء ذاته مصبوغ باللون الرمادي الكئيب..!..

وعندما دخلت الدار بصحبة أحد الخدم وجدت المكان يفوح بعبق القدم.. دروع.. أسلحة.. ستائر يدوية..

أما (أشر) نفسه فكان شاحبًا كورقة.. شعره أشعث مبعثر في غير نظام حول رأسه، وشفتاه صارتا أقرب لندبة في وجهه..

أية خبرات مروعة مرت بهذا الرجل؟!...
قال لي في شرود إن مرضه أدى إلى حدة غير عادية في حواسه فهو لا يطيق إلا الطعام ماسخ الطعم... ولا يحتمل رائحة الزهور.. ولا يلبس إلا قماشًا ناعم الملمس.. ولا يتحمل أي صوت..
- لقد سيطرت جدران هذا البيت على روحي.. أنا مشدود إليه بكل قواي.
وهنا لاحظت شبحًا يمر عن كثب..
أدرت وجهي نحوه فرأيت فتاة ناحلة مهزولة تمر بالغرفة.. ولم تنظر نحونا أو تقول شيئًا..
نظرت إلى (أشر) مستفهمًا فوجدته يبكي..
قال لي في تأثر بين شهقاته:
- هي أختي (مادلين).. آخر أفراد الأسرة.. وهي تعاني مرضًا عضالًا يؤدي إلى فقدانها الوزن باستمرار، بل - والأدهى - يؤدي إلى توقف قلبها من حين لآخر.. وعندئذ تبدو ميتة لكل من يراها.. لن تلبث (مادلين) أن تلحق بأجدادي وأصير أنا وحيدًا في هذا العالم القاسي.
وهنا التمعت الفكرة في ذهني كومضة مصباح..
أنا الآن في قصة (سقوط منزل أشر)..!..
تذكرت القصة وتذكرت ما يحدث فيها..
إنها لمن أشنع قصص (بو) وأكثرها كآبة، وفي الأدب العالمي هي من أشهر قصص (الدفن حيًا) التي يخيفون بها مرضى تصلب العضلات وغيبوبة السكر..

* * *

ظللت ساعات أصغي لآراء (أشر) الكئيبة، وفلسفته المختلطة المضطربة التي ألهمه إياها مرضه العضال..
الواقع أنه هو نفسه لم يكن يدرى ما يتكلم عنه، وكان فهمه للحياة مختلطًا فغدا من العسير أن ينقل إليّ هذا الفهم، غير أنه كان يحاول التعبير عن ذاته في إطار الرسم وإطار الموسيقا الشاذة المضطربة..
كان يؤمن بأن لجميع الجمادات حياة خاصة بها.. لهذا استطاع أكثرها أن يوجد لنفسة بيئة ملائمة تحيط به.. والدليل على هذا هو الهواء الراكد الغريب الممرض الذي يحيط بأحجار هذا البيت..
الواقع أنني أنا الآخر بدأت أشعر بهذا.. كان البيت طاغية، خلق لنفسه عالمه الكئيب الذي احتكر أرواحنا.. وأعتقد أنني لو كتب علي أن أحيا فيه لفقدت رشدي حتمًا.. لكنني عزيت نفسي على اعتبار أن هذه فترة عارضة..

* * *

وجاء اليوم الذي كنت أخشاه..
جاءني (أشر) في هدوء ليقول لي:
- ماتت (مادلين)!.
ثم أخبرني أنه ينوي ألا يدفنها قبل أسبوعين، بعدها سينقلها لتدفن في قبو أسفل القصر..

وذهبت معه لنحمل الجثة إلى التابوت، ثم نحمل التابوت إلي غرفة صغيرة مغطاة جدرانها بالنحاس ولها باب حديدي ثقيل..

واستطعت أن ألقي نظرة على وجه الجثة للمرة الأولى.. كانت تشبه (أشر) إلى حد مروع، و عرفت أنهما كانا تؤامين غير متماثلين.. على ثغرها الرفيع ابتسامة شاحبة رقيقة أثارت ذعري.. ولون بشرتها لم يشحب بعد تمامًا..

تعاونا على إرجاع الغطاء، ثم أوصدنا الباب الحديدي وعدنا إلى الجزء الأعلى بالدار....

* * *

الآن جاء دوري لأغير أحداث هذه القصة، ولأمنع مأساة أعرف أن وقوعها حتمي وإن يكن غير ضروري..

كان (رودريك) يداعب أوتار الكمان ذاهلًا، حين تنحنحت وقلت له في وقار:

- (رودريك).. إن أختك لم تمت بعد!.. يجب أن نخرجها من التابوت حالًا..

اتسعت عيناه وازداد شحوب وجهه:

- ماذا أوحي لك بذلك؟.

- لأنني.. أعرف ذلك.. أنت لا تعرف أنني وأنت جزء من نسيج مجنون طرزه رجل يدعى (إدجار آلان بو).. وطبقًا لهذا لم تمت (مادلين) بعد.. لقد وضعناها في التابوت حية ولن تلبث أن تراها أمامك وفي عينيها نظرة اتهام!.

- هذا هراء!

كدت أنفجر باكيًا من الغيظ والحنق.. لقد وضعتها معه في التابوت لأنني كنت مجبرًا.. لكني لن أتركها هناك... فقط أحتاج لعونه... لكنه ظل يداعب أوتار الكمان مصدرًا لحنًا كنياط قلب تتمزق، وشرع يردد دون كلل:

- ماتت (مادلين).. صرت وحيدًا!.. ماتت.

- لم تمت يا (رودريك).. أصغ لي.. أنت لن تدفنها الآن كما قررت لأنك تخشى ذات الشيء.. إذن كل ما أطلبه هو أن نخرجها من التابوت ونرقدها في الفراش، ونلتف حولها.. بضع ساعات.. يومًا.. أو يومين.. فلربما وقع المحظور..

نظر لي متفكرًا هنيهة.. ثم قال:

- ليكن..... هلم نخرجها من ذلك التابوت ونرى إن كان حدسك صائبًا..

كان هذا هو نصري الأول على حتمية القصة..

لقد نجحت في إقناعه بالتريث.. ولعمري لتكونن في هذا نجاتي من المأزق الذي يحاصرني ولا مخرج منه.. أنا متأكد من هذا..

* * *

ترك الكمان ونهض ليذهب معي إلى حيث دفنت (مادلين)..وهنا خيل لي أنني أسمع صوت أنين.. ثم صوت ضربات تهوي على جسم معدني.. التفت نحوه متسائلًا فسمعته يصرخ:

- يا للهول!.. ألم تفهم بعد؟.. إنها هناك!.. لقد غادرت التابوت الذي كانت به.. وهي الآن قادمة نحوى لتلومني على دفنها دون أن أتأكد!.. يا ويلي!.

والتفت لأرى ما يعنيه.. إذ انفتح الباب عنوة محدثًا جلبة عند الباب كانت (مادلين) بلحمها وشحمها في ثوبها الأبيض الطويل.. وفي عينيها نظرة لا أجرؤ على وصفها.. ورأيتها تجري نحو (أشر) ثم تهوي فوقه فاقدة الحياة بعد ما استنفدت قواها في الخروج من تابوتها.. هو أيضًا لم يتحمل الصدمة وسقط أرضًا...

الذعر يستبد بي.. أفارق المنزل أقرب إلى المجانين وأركب حصاني.. وإذ أنظر إلى الخلف أرى.....

الشرخ في جدار البيت يتسع.. يزداد عمقًا.. ثم المنزل كله يتهدم وتتساقط أحجاره في مياه البحيرة.. يختفي من وجه البسيطة.. لقد قضى المنزل على آل (أشر).. وحين هلكوا قضى المنزل على نفسه..

هذه هي نهاية القصة كما أعرفها..

لقد تأخرت كثيرًا في دعوة (أشر) إلى فتح التابوت، وتعجلت كثيرًا مغادرة الدار بعد هلاك الأخوين..

فلو كنت قد تعجلت في الأولى أو تلكأت في الثانية لكانت نهاية القصة قد تغيرت، وغدوت حرًا.....

ترى إلى أية أسطورة مرعبة جديدة يأخذني خيال (بو)؟!

* * *

٩ - ويليام ويلسون...

رباه... لقد اصطنع الموت لنفسه عرشًا
في مدينة غريبة متوحدة
بعيدًا في الغرب المعتم..
حيث ولي الخيّر والشرير والأسوأ والأفضل إلى راحتهم السرمدية..
هناك تجد عروشًا وقصورًا وأبراجًا
(أفناها الزمن لكنها لا ترتجف)
ولا تشبه شيئًا في عالمنا....
هنالك ترقد مياه الأحزان...

(إدجار آلان بو)

* * *

لم أكن - بين قصة وأخرى - أعرف من أنا ولا أين أنا.. كنت أشعر بذاتيتي وأعرف أنني هو أنا.. لكنني كنت - مثلًا - أجهل اسمي ومهنتي وسني وذكرياتي..

ولم يكن لي كيان مادي.. فمثلًا لم أكن قادرًا على رؤية يدي أو قدمي.. لكنني كنت أرى الأفق القرمزي، والحروف المنتشرة فيه كمائدة عملاقة لتحضير الأرواح، وإنني لأسائل نفسي عن شكل الكون الذي كنت سأراه لو استعملنا أسلوب البلورة أو السلة مثلًا....

يذكرني هذا الكون الغريب بالرؤى التي يبعثها عقار (إل إس دي) - عقار الهلوسة - فيمن يتعاطاه، ويذكرني أيضًا بمملكة (زانادو) الغريبة التي ضاع فيها الكاهن الأخير (كما حكى لي طبعًا)..

أنا لست من معتادي الهلوسة.. وحتى الرؤى التي يحكى عنها من يمرون بالتخدير الجراحي لم يكن لي نصيب فيها.. لقد أجريت جراحة استئصال اللوزتين في سن الثانية عشرة.. دسوا المحقن في عرقي فأغمضت عيني، وفتحتهما بعد ثانية واحدة لأعرف أن الجراحة تمت، وأن هذه الثانية كانت نصف ساعة..!

لهذا كنت مندهشًا مذهولًا لا أصدق شيئًا مما أراه.....

* * *

قبل أن تبدأ القصة الجديدة أخذت عهدًا على نفسي أن تكون هي الأخيرة.. ليس لدي وقت يسمح بقضاء عمري في هذا العالم القاتم المخبول الذي يلخص كل تعاسات البشر وأحزانهم..

من الغريب - ألاحظ هذا الآن فقط - أن قلبي تحمل كل هذه المعاناة دون أن تنهار شراييني التاجية.. هذا يعني أنني منفصل تمامًا عن جسدي وأن روحي هي التي تخوض غمار هذه القصص..

هل أنا ميت؟..

لا أعتقد... أنا لم أضل طريقي في عالم الأرواح، بل في عالم الخيالات التي صاغها عقل بشري موهوب.. وهذا يخالف كل ما أعرفه عن العالم الآخر.. حتمًا أنا ضحية نوع فريد من الهلوسة أو الإيحاء أو التنويم المغناطيسي..

إن منطقي لم يخذلني من قبل ولن يخذلني هذه المرة..

فلأحاول أن أرتب أفكاري وأن استخلص معلومات ما من الوضع الذي أنا فيه..

ما هي القصص التي مررت بها؟..

كلها قصص لـ (إدجار آلان بو).. ويمكنني أن أرتبها كما يلى:

١ - قناع الموت الأحمر، لم أكن بطلًا مباشرًا فيها بل مجرد مدعو من المدعوين، وقد وصلت في منتصف القصة بالضبط. وانتهت القصة بهلاكي. كان الخطر هو وباء (ربما التيفوس).

٢ - القلب الذي كشف السر، هنا كنت البطل الأساسي. وكنت قاتلًا مخبولًا. وأخفيت جثة سرعان ما كشفت عنها للشرطة لأني سمعت صوتًا لا وجود له. انتهت القصة باستعدادي للإعدام.

٣ - البندول والبئر، مرة أخرى أنا البطل الأساسي.. ولكني ضحية لألعاب شيطانية من قضاة التفتيش.. القصة تنتهي بنجاتي.

٤ - القط الأسود، هنا تتكرر تيمة القاتل الذي يفضح نفسه بنفسه، ودفن الجثة. مع مسحة ميتافيزيقية هي انتقام القط من معذبه. تنتهي القصة باستعدادي للإعدام.

٥ - سقوط منزل (أشر)، هنا ألعب دورًا فرعيًا.. البطولة الأساسية هي لـ (أشر).. الخطر هنا هو البيت والمرض الذي أصاب (مادلين) مما أدى لدفنها حية. تنتهي القصة بنجاتي. بالمناسبة هذه هي أول قصة أحضرها منذ بدايتها.

إن الموت مسيطر على كل هذه القصص.. ورائحته تفوح بقسوة ما بين السطور، الدفن يتكرر في ثلاث منها فهل هي مصادفة؟..

يمكن القول إنها أربع لأنني دفنت مجازًا في قصة البندول والبئر.. قمت بفضح نفسي للشرطة في قصتين..

وهنا خطر لي شيء.. ربما لم تكن هذه الكوابيس عشوائية كما خطر لي أولًا.. هناك نمط معين يربط بينها، لاحظت كذلك أن (بو) كان قاسيًا للغاية على أبطال قصصه بينما أكثرهم لم يرتكب خطأ.. ما ذنب (أشر) كي يلاقي كل هذا الرعب؟.. وما ذنب سجين محكمة التفتيش؟.. وما ذنب المدعوين الأبرياء إلى حفل الأمير (بروسبرو)؟.. حتى حين حدث قتل في قصصه كان القاتل مسلوب الإرادة أقرب إلى الجنون.. وما من محكمة معاصرة تدين قاتلًا كهذا.. لكن (بو) أدانه وحكم عليه بحكم شنيع..

سيكون هذا ذا عون لي لو وجدت نفسي في قصة لا أذكرها.. تبًا لها من قاعدة مهزوزة مخلخلة... لكني لا أرى أمامي غيرها.. هل أنا على صواب أم أن الإرهاق والحيرة جعلاني أتوهم؟!

* * *



إن الموت مسيطر على كل هذه القصص .. ورائحته تفوح بقسوة

ما بين السطور ..

في هذه المرة أنا أدعى (ويليام ويلسون)..
فيما بعد عرفت أن هذا الاسم مستعار لأن القصة تبدأ بالسطور التالية:
"اسمحوا لي مؤقتًا أن أدعو نفسي (ويليام ويلسون).. لا أريد لهذه الصفحة الطاهرة أن تتدنس باسم الذي جلب العار على عائلته.. ألم تنثر الأعاصير جسد الذي لا مثيل له في أقصى أقاليم الأرض؟.. آه أيها المنفى الأكثر إحباطًا بين المنفيين!.. ألم تغب للأبد عن هذا الكون بزهوره وأمجاده وأحلامه الذهبية؟".
وهذا معناه أن الاسم حركي.....
تدور القصة أولًا في أروقة مدرسة إنجليزية عتيقة موحية بالكآبة والصرامة..
أما عني أنا - هذا الـ (ويليام ويلسون) - فأنا طاغية مسيطر على زملائي الطلاب بطبع حاد أقرب إلى العصبية..
كل التلاميذ خضعوا لي ما خلا طالبًا واحدًا يتحداني في كل ثانية بمناسبة أو بدون مناسبة..
وكانت وقاحته وتحديه تجاهي ممزوجين بنوع ما من المودة التي لا محل لها من الإعراب، مما أثار غيظي وحفيظتي عليه..
الغريب هنا أن هذا الطالب كان يدعى مثلي.. (ويليام ويلسون).. أو - بمعنى أدق - كان يدعي بذات الاسم الأصلي لي..

* * *

ما زلت عاجزًا عن تذكر هذه القصة..
هي من القصص التي لم تعلق بذاكرتي منذ أن قرأتها يومًا ما وعمري لم يتجاوز العشرين.. فلم أعلق عليها أهمية خاصة..
وعمومًا هي ليست من القصص التي تثب للذهن بمجرد الكلام عن أدب (إدجار آلان بو).. فهل ستتضح تفاصيلها أكثر؟..
واضح على كل حال أنني ما زالت في البداية، فلم يفتني من الأحداث الشيء الكثير...

* * *

الغريب هنا أن كلينا - أنا وخصمي - مولود في ١٩ يناير عام ١٨١٣.. أليس هذا شاذًا ومريبًا؟..
كان يقلدني في الملبس والسلوك وحتى طريقة الكلام التي نجح في انتحالها برغم نبرة صوته الخفيضة للغاية في كلامه، فحنجرته لم تكن تتيح له الكلام بصوت عال، وهي نقطة ضعف فيه أحسنت السخرية منها مرارًا
مع الوقت تحولت عاطفتي نحوه إلى مقت صريح لم أستطع إخفاءه، مع شعور لا يمكن تفسيره يقول لي إنني عرفت هذا (الآخر) يومًا ما في زمن سحيق للغاية.. هذا الشعور ولى سريعًا ولم يبق فترة كافية، لكنني مرغم - بحكم الدقة - على ذكره..
ثم كان الحادث....

ليلة تسللت إلى غرفته في المدرسة مزمعًا أن أثير رعبه بمداعبة ثقيلة.. كان المصباح في يدي.. أزحت ستائر فراشه و...

* * *

لاحظت هنا أن هذا الحدث يتكرر مرة أخرى.. تسليط ضوء المصباح ليلًا على شخص نائم، حدث مرة مع العجوز في قصة (القلب الذي كشف السر).. ويتكرر مرة أخرى في هذه القصة..

لابد أن هذه الفكرة كانت تمثل كابوسًا مقيمًا لـ (بو).. أن يصحو من النوم في الظلام ليجد كشافًا قويًا مسلطًا على وجهه ودون أن يتبين حامل الكشاف....

هل لهذا الاستنتاج دلالة ما..؟..

سأحاول إذن أن أطفئ هذا المصباح....

إن نقاط ضعف هذا العالم الذي أنا فيه؛ لابد أنها نقاط ضعف (إدجار آلان بو) شخصيًا..

لربما هو يتمنى في سره لو انطفأ المصباح.. المصباح المخيف الذي حرك كوابيسه جميعًا..

إذن فلأحاول...

حركت يدي لأطفئ المصباح فوجدتها - ويا للعجب - تستجيب لإرادتي.. إذن فلي إرادة حرة في هذا العالم!

في اللحظة التالية ساد الظلام.. وأيقنت أنني لم أعد في غرفة (ويلسون)..

رأيت الأفق القرمزي من جديد.. وشعرت بجسدي يتأرجح عبر القرص العملاق نحو الحروف التي كنت أرجوها:

ل - ق - د، إ- ق - ت - ر - ب - ت، ج - د - ا، م - ن، ا - ل - خ- ل - ا - ص!

صحت وأنا أشعر بأن رأسي يوشك على الانفجار مما فيه من دماء:

- ماذا تعني أنني اقتربت؟ ظننت هذا هو الخلاص!.

ل - ي - س، ب - ع - د، إن، أ- م - ا - م - ن -ا، ا - ل - ك - ث - ي - ر، م - ن، ا - ل - م - ر -ح، م - ع - ا

- عليك اللعنة!

وانفجرت في سيل من عبارات السباب.. أسوأ عبارات سباب تلفظتها في حياتي وتعلمتها من أصدقاء السوء..

- إذن أنت تتسلي بي أيها الـ (....) !...

لقد نجحت في إنهاء قصة (ويليام ويلسون) قبل أن تبدأ.. هدمتها في نقطة محورية هامة هي التي كانت ستؤدي إلى تركي لمدرسة (برانسبي) والتحاقي بكلية (إيتون) وما إلى ذلك من انحرافي ومطاردة (ويلسون) لي كالضمير.. من ثم اضطراري لقتله..

عرفت هذا بالطبع حين راجعت القصة فيما بعد.. ولكن هذا لا يرضي معذبي..

هو ذا يقودني - في صمت - إلى كابوس جديد...

* * *

١٠ - ليجيا...

كنت لي كل شيء يا حبيبتي..
جزيرة خضراء في البحر
نافورة.. عرشًا
وكلها مزدانة بزهور الحلم
وجميعها ملكي....
كان هذا حلمًا أكثر تألقًا من أن يدوم..
أملًا نجميًا ما كاد يبزغ حتى خبا!..
صوتًا من المستقبل يدعوني أن أستمر
لكن روحي ظلت في الماضي
خرساء.. عاجزة.. منبوذة!

(إدجار آلان بو)

* * *

كنت قد بدأت أدرك قواعد اللعبة..
يجب أن ألعب على هواجس (بو) الشخصية، ومخاوفه التي تتبدى في قصصه.. هذه هي نقاط الوهن التي لا تستعصي على التبديل..
إن (بو) - كما فهمت - يملك هواجس عدة: الكشاف المسلط على الوجه - الأفيون - طقوس الدفن - الشرطة - وفاة زوجته.. إذن لأضعن هذه النقاط أمامي وأواجه القصة الجديدة...

* * *

كان هذا قرب نهر (الراين)..
كالعادة أنا أتحدث الألمانية بطلاقة وأفهمها.. ولا تسلني كيف.. (ليجيا) الحسناء الرشيقة التي تأتي وترحل كالظل.. بصوتها العميق الحلو.. ويدها الرخامية التي تضعها على كتفي.. وغمازتيها الرقيقتين..
أما عيناها فحدث عنهما ولا تخش شيئًا.. عينا مهاة هما أوسع من عيني أي غزال في وادي (نورجهاد) - هكذا قال (بو) ولا أدري ما وادي (نور جهاد) هذا - مفعمتين بالتعبير.. كنت أمضي ليالي الصيف أتذكر عينيها وأتملى فيهما.. وأوشك أن أتذكر شيئًا ما لا أدري كنهه حقيقة.. لكنه كان موجودًا في نجوم الصيف وفي جدول الماء.. وفي الشهب الهاوية.. وفي الشعر...
(ليجيا)!.. أوه.. (ليجيا)...
كانت هذه الجوهرة هي زوجتي..

قادتني - وانا مذعن لها كطفل - عبر أروقة الفكر، وعلمتني ما لم أعلمه عن فلسفة الكون وحقائق الأشياء..

فقد كانت (ليجيا) عبقرية، تملك من الذكاء ما يفوق جمالها.. وبدونها كنت أغدو طفلًا يحبو في ظلام..

ثم مرضت (ليجيا)..

صارت أناملها الرقيقة كأنما قدت من شمع، وانتفخت عروق جبهتها الصافية.. وأدركت أنها - ولا بد - إلى الموت صائرة..

وكانت ساعاتها الأخيرة مأساة حقيقية..

فالمسكينة كانت تحب الحياة وتتشبث بها حقًا، وسبب تشبثها بالحياة هو الحب الذي لم أكن أستحقه وكانت تكنه لي وحدي..

لكم تمسكت بيدي كطفل يخشى أن تبتلعه الأمواج، وبكت.. فأي حمل على نفسي وضميري ألقته هذه الطفلة... ولكم توسلت لي ألا أتركها تموت بهذه البساطة هي التي أحبتني حقًا.. لكني كنت عاجزًا كطفل أنا الآخر..

* * *

هذا الموقف حقيقي في حياة (بو).. أنا واثق من هذا.

الحب الرهيب المروع الذي ادخره لزوجته.. هل يمكن الاستفادة منه؟.. هل يمكن تبديل هذه اللحظة المروعة التي أنا واثق من جدارتها بالتبديل؟..

للأسف فاتت هذه السويعات الثمينة وأنا عاجز عن إيجاد الأسلوب الأمثل للاستفادة بهذه اللحظات..

مر الوقت سريعًا وماتت (ليجيا)..

* * *

ماتت (ليجيا) وتحطمت أنا.....

غادرت هذا المكان الذي صار قفرًا.. واشتريت ديرًا متصدعًا في مكان ما من (إنجلترا)، منطقة غريبة نائية مليئة بالوحشة..

وشرعت أدفن أحزاني في مهمة غريبة بعض الشيء.. هي إعادة زخرفة وتنسيق هذا الدير من الداخل ليتواءم مع مزاجي السوداوي الجديد...

آه لو رأيتم النقوش المصرية والأفاريز الغريبة والمفروشات الشاذة والستائر المتموجة.. إذن لأيقنتم أن من انتخب هذا الذوق الغريب مخبول أو هو إلى المخبولين أقرب!

ثم وجدت نفسي محتاجًا إلى المرأة فخطبت شقراء زرقاء العينين اسمها (ليدي رووينا تريفانون أوف تريمان).. اسم طويل ينم عن أصل عريق.. لكن لا تدعوا المظاهر تخدعكم..

إن الأهل الذين يوافقون على أن تتزوج ابنتهم في بيت مرعب كهذا هم أشخاص بلا خلاق أغواهم بريق الذهب لا أكثر..!

حتى الفراش كان مريعًا.. كان من الطراز الهندي يعلوه سرادق أشبه بالأكفان.. وفي كل زاوية من الزوايا ناووس جنائزي من الأبنوس الأسود أحضروها لي من وادي الملوك بالأقصر..

أما الجدران فملأتها بصور الرهبان المعذبين.. وأساطير النورمانديين الرهيبة.. وحتى الستائر ملأتها برسوم من هذا الطراز...

وهكذا مضى الشهر الأول من زواجنا في هذا المكان المروع.. كانت تكرهني.. أدركت هذا دون جهد.. وكانت تخافني.. ولقد سرني هذا..

من تكون هذه الحشرة لتقارن نفسها بـ (ليجيا) النقية الرصينة ذات الشخصية الأثيرية السامية وعيني غزال من وادي (نور جهاد)؟..

* * *

أخذت (رووينا) تضمر وتشحب..

وفي الشهر الثاني من زواجنا أصابها مرض شديد، ارتفعت درجة حرارتها وراحت تهذي.. تتكلم عن أشخاص يتحركون في البرج..

ثم تم لها الشفاء.. وعاشت بلا مرض بضعة أيام..

ثم فاجأتها علة أخرى أشد قسوة، و راحت ترتجف في الفراش، تثور لأتفه الأسباب وترتعب لأقلها..

حار الأطباء في أمرها، وبدأ أن حالها يتدهور من سيئ إلى أسوأ وعادت تتكلم عن الأصوات الخافتة وحركة الستائر...

وفي ذات ليلة جلست جوارها أرمق وجهها في شرود..

كنت أبغي أن أعاونها لكن سدى.. فهي تزداد هزالًا على هزال.. وما لبثت أن شحبت شحوب الموتى فنهضت مسرعًا كي آتيها بزجاجة الدواء التي وصفها لها الأطباء..

وكانت عندي مبخرة من الطراز الإسلامي تتدلى في الصالة.. وحين مررت جوار المبخرة شعرت بشيء غير منظور يمر بي ببطء.. وعلى السجادة رأيت ظلا شفافًا غير محدد الملامح يتحرك.. كأنه ظل لظل.. لكني تجاهلت هذا الذي أراه.. وعزوته إلى إرهاق الشديد.. وأحضرت لها كأس الدواء وقربته من شفتيها..

وهنا رأيت شيئًا - كأنما في حلم - هو ثلاث أو أربع قطرات من سائل ياقوتي اللون تتساقط من نبع غير منظور إلى كأسها الذي ترشف منه الآن!..

* * *

بدأ التدهور يحاصر (ليدي رووينا) سريعًا.. وأدركت أن مفعول تلك القطرات الحمراء كان كاسحًا.. لقد بدأت حالها تتدهور سريعًا.. سريعًا.. وسرعان ما أسلمت الروح فهيأها خدامي لتنزل إلى غياهب القبر..

وهنا خطر لي خاطر.....

* * *



بدأ التدهور يحاصر (ليدى روويننا) سريعا .. وأدركت أن مفعول
تلك القطرات الحمراء كان كاسحا ..

أنا أعرف ولع (بو) بموضوع الدفن حيًا الذي - كما هو واضح - يسبب له هاجسًا خاصًا.. صحيح أنني لا أذكر حرفًا من قصة (ليجيا) هذه، لكن تعودي على أفكار (بو) يجعلني أتوقع ما لابد أن أتوقعه.. هذه الليدي (رووينا) ما زالت حية ترزق.. وإنما جعلها هذا العقار الذي شربته مع الدواء تبدو ميتة.

إذن لن أدفنها.. سأضعها في الفراش وأسهر جوارها بضعة أيام حتى أتأكد من موتها.....

لقد تمنى (بو) لو أن زوجته الحقيقية لم تمت.. لو أنها تفيق بعد ساعات من الغيبوبة التي دهمتها.. إذا كان ذلك صحيحًا فإن اللعب على هذه النقطة قد يحدث آثارًا إيجابية..

* * *

ومددت (رووينا) في الفراش، وشرعت ساهرًا جوارها أرمق وجنتيها الشاحبتين وشفتيها الذابلتين.. وأتأمل النوواييس الأربعة المحيطة بالفراش، وأفكر في (ليجيا)...

ثم حولت عيني إلى الجسد الممدد أمامي.. فشعرت بقسوتي.. واعتصرت الشفقة قلبي..

ها هي ذي تلك العروس الفاتنة تحمل إلى حتفها بعد شهر واحد من زواجها. والسبب هو خيال (بو) المريض الذي يحركني.. لم يستطع أن يغفر لها أنها جاءت بعد حبيبته (ليجيا) - التي هي (أنا بيل لي) في ذات الوقت - فصمم على أن يعاقبها..

ولماذا تزوجها إذن؟.. يا له من سؤال!.. تزوجها كي يعاقبها طبعًا!.. ويعاقبها على ماذا؟.. على كونه تزوجها..!

منطق رهيب مروع لكنه كان كافيًا كي يجبر هذه الحسناء - التي اشتراها بطل القصة بذهبه - على الحياة في هذا البيت المقبض.. وعلى أن يسومها ألوان الرعب والتنكيل النفسي.

لقد ماتت هذه البائسة لأن قلبها تحطم..

لأنها عرفت أنها لا تمثل لزوجها سوى صورة النقيض من (ليجيا).. صورة تذكره كل ثانية بما خسره حين ماتت (ليجيا)..

أما قطرات السائل الأحمر التي انصبت في كأسها فلم تكن سوى قطرات صبها (إدجار آلان بو) بين سطور قصته ليعذب الفتاة البريئة.. وليقتلها..

لقد كان (بو) قاسيا كالموت ذاته على أبطال قصص الذين لم يكن لأحدهم ذنب واضح.. وحتى حينما اقترفوا القتل كان هذا بسبب الجنون الذي زرعه فيهم.. وليس لشهوة القتل ذاتها..

أمسكت بيد البائسة الباردة كالثلج وطبعت فوقها قبلة.. قبلة جعلت الدموع الساخنة تبللها.. وهمست:

- سامحيني.. فلتغفر لي روحك في عالمها الأبدي ما كان مني.. لقد ماتت (ليجيا) ومعها مات الماضي.. ولو أنك لم ترحلي لعرفت كيف أقدم لك السعادة على طبق من ذهب.

لم أرد أن أقول هذا.. لكن جو (بو) العتيق الفيكتوري جعل الكلمات تخرج من فمي مفخمة متكلفة.. كنت حين أقرأ (شكسبير) أتساءل دومًا عن الكيفية التي سيطلب بها أبطاله - بلغتهم الشعرية الفخيمة - دخول دورة المياه..!.. لابد أنهم سيشكون من الأنهار التي توشك أن تفيض لتغرق الزمن السرمدي.. أو أي شيء من هذا القبيل...

المهم.. شعرت فجأة بشعور واهن.. كان هناك خلجة حدثت في الكف الشمعية التي بين أناملي..

تحفزت في جلستي أكثر.. إن هذه الأوهام تحدث دومًا لمن يطيلون التحديق في الجثث.. أنا متأكد من هذا..

ولكن.. ها هي ذي سعلة.. ثم شهيق طويل..

إنها حية!.. كما توقعت تمامًا..!

نهضت بصعوبة.. وهي تسعل وترتجف... أما أنا فلم أشعر بالذعر ولا الدهشة..

كنت أريد فقط أن أشعرها بأنني هنا جوارها.. أشعرها بدفء ذراعي.. أريدها أن ترى جفوني الملتهبة وشعري المبعثر لتعرف أنني لم أنم لحظة واحدة منذ رحلت..

احتضنتها.. باردة كالثلج كانت.. لكنها حية..

- لا تخافي يا زنبقتي.. أنا زوجك الذي يحمد الله العلى القدير أن رحمه من ندم يحرق أشجار الغاب جميعًا.

وشرعت أهدهدها.. أهدهدها.. كطفل صحا مذعورًا فلم ير أمه.. كانت قد ثابت إلى رشدها وعرفت أين هي ومن هي.. وفي اللحظة التالية لم أعد أشعر بكيانها.. ولا بالغرفة كلها..

لقد ذبت في الأبدية.. وانتهت القصة بالنسبة لي عند هذا الحد..

* * *

١١ - العودة...

انظروا!.. هي ذي ليلة سعد
بين هذي الليالي الموحشة!
حشد من الملائكة المجنحين
يجلسون في المسرح ليشاهدوا
مسرحية الآمال..
بينما الجوقة بحرارة تعزف
ألحان الأجواء..

(إدجار آلان بو)

* * *

تأرجح جسدي كالبندول أمام قرص الأفق الأرجواني.. كانت هناك سمكتان تحلقان وتتسليان بالتهام الحروف المبعثرة هنا وهناك.. سمكتان هما اللتان رأيتهما عند (كولبي) قبل أن نبدأ هذه التجربة المريعة.. وسمعت صوتًا مدويًا يردد:

- معذرة!.. إنها البروستاتا كما تعلمون!.

عندئذ سعلت كي أزيل الجفاف من حلقي.. وصرخت:

- لقد نلث حريتي يا (بو)!.

شعرت برأسي يدور ببطء متجهًا إلى الحرف الأول.. فالثاني.. فالثالث..

ح - ق - ا، ق - د، ن - ل - ت - هـ - ا، و ن - ج- ح - ت، ف - ي، ت - غ - ي - ي -ر، ا- ل - م - ص - ي - ر، ا - ل - ك - ئ - ي - ب -، ل - أ - ب - ط - ا - ل - ي!

- إذن يمكنني العودة إلى عالمي؟.

و - د - ا -ع - ا، ي - ا - د - ك -ت - و - ر، ر- ف - ع - ت!

ولم يكد يقولها حتى شعرت بالقيد الذي يعلق قدمي للأفق يتمزق.. وشعرت بأنني أقذف إلى بعيد.. إلى بعيد..

* * *



تأرجح جسدى كالبندول أمام قرص الأفق الأرجوانى ..

إصبع يضغط على جفني في إصرار...
إصبع بارد كالثلج.. صلب كالوتد...
وسمعت صوتًا ذا صدى يقول:
- إنه ما زال حيًا يرزق!.
تلك اليد تهزني في إصرار.. صبرًا يا فتى..!.. رحمة بالصداع المترجرج في رأسي.. أشعر بأن مخي هو ذلك الجزء المتحرك في بذرة المانجو.. كنا نحك الأسفلت الخشن ببذرة المانجو محاولين الوصول إلى هذا الجزء.. الأسفلت كان ساخنًا في (أغسطس).. وكنت أرتدي شورتًا قصيرًا.. و (إلهام) كانت ترتدي ثوبًا أبيض ذا بقعة صفراء على الكتف..
- هيا يا (رفعت)!.. افتح عينيك..
ولماذا أفتحهما؟.. لقد رحلت (ماجي) و (هويدا).. ولم أعد راغبًا في المزيد.. ما جدوى أن أرى؟.. لقد كان الكاهن الأخير يجيد التظاهر بالبلاهة حقًا.. على حين افتضح أمر (براكسا) سريعًا...
- (رفعت)!.
وفتحت عيني.. كان رأسي ملقى على المائدة المستديرة ما بين الحروف، وثمة خيط من اللعاب يسيل من فمي، وحين رفعت عيني أكثر رأيت وجهين مألوفين.. (جيري) و (كولبي).. كانا واقفين وقد بدأ عليهما الذعر المصحوب بالأمل..
وشعرت بـ (جيري) يربت على كتفي ويقدم لي بعض الماء في كوب جزعته في نهم.. كان رأسي يتأرجح على منكبي لكني بدأت أشعر به أخيرًا.. وبدأت أقيمه....
اما (كولبي) فبدا لي منهارًا أقرب إلى الوهن.. وكان أنفه محمرًا وأذناه.. وكان يجفف عرقه باستمرار مرددًا:
- قلت لك إنها جرعة لا تذكر!.. لا تذكر!.
أخيرًا - وبعد مرور عشر دقائق - استطعت أن أوجه السؤال التقليدي المتوقع:
- ماذا حدث بالضبط؟

* * *

قال (جيري) في اشمئزاز:
- لقد اعترف الرجل بكل شيء.. كانت خدعة حقيرة يا (رفعت).. لقد دس لك جرعة من عقار الهلوسة في مشروب الشوكولاتة!.
ثم ناولني لفافة تبغ وأشعلها لي وأردف:
- لم تكن تجربة تحضير الأرواح هذه سوى خدعة.. كان هو من يتحكم في تحريك (الكاشف) موحيًا لنا أن الروح تختار.. وكان يأمل أن ترى أنت رؤيا معينة بفعل عقار الهلوسة، من ثم يستغلك كبوق دعاية لمواهبه.
جلس (سام كولبي) في الركن متخاذلًا لاهثًا ككلب في يوم قيظ ثم اعتذر لأنه يشعر بحاجة لدخول دورة المياه بفعل (البروستاتا) كما تعلمون..
فما إن انصرف حتى عاد (جيري) يواصل ما بدأه:

- الذي حدث يا (رفعت) هو أنه - كما هو واضح - أعطاك جرعة زائدة.. رأينا رأسك تسقط على المائدة واللعاب يخرج من شدقيك على شكل رغاو.. وهرعت أنا لأضيء الضوء الكهربي فوجدت لون الموت الأزرق على وجهك وشفتيك.. أما عن اليهودي فلا تسلني.. لقد أصابته نوبة رعب هستيرية وشرع يولول كطفل ويردد أن الجرعة كانت قليلة، واعترف لي بخدعته ثم خر على قدمي يتوسل كي أساعده على الخروج من هذا المأزق.. فهو نصاب لكنه ليس قاتلا أبدًا.. وبينما أنا أفكر في استدعاء البوليس أم الاسعاف سمعتك تسعل.. فهرعت أضغط جفنك بإصبعي محاولًا انعاشك.. وهأنتذا بيننا من جديد!.. يا لها من معجزة!.

نفثت دخان لفافة التبغ.. وغمغمت:

- لم يحن أجلى بعد.. ولكن كم من الوقت غبت عن وعيي!

- دقيقتان أو أقل قليلًا!!.

نظرت له في حيرة وارتديت منظاري الذي كنت قد خلعته.. وقلت في ضيق:

- لا أفهم.. لقد عشت سبع حيوات كاملة بينما أنت تقول إنني غفوت دقيقتين..

لم يفهم ما قلت.. فقط تساءل:

- هل ستقاضيه؟ - هذا اليهودي - يمكنني أن أتولى هذه الدعوى.

- بالعكس..

قلتها وأنا أنهض مترنحًا لأرمق حوض الأسماك وأضفت:

- سأكتب له ذلك الإقرار الذي أراده!.

.....!

* * *

خاتمة...

(أنا الدكتور رفعت إسماعيل، مصري الجنسية، ٤٤ عامًا؛ أقر في هذه الشهادة بكامل إرادتي - أن المستر (سام كولبي) لم ينجح في إثبات أنني تناسخ لروح الأديب الأمريكي (إدجار آلان بو) لكنه برغم ذلك نجح في جعلي أمر بخبرة معينة لا أستطيع تفسيرها، إلا أنها تتعلق بمنحي القدرة على التعامل المرن مع عالم الشخصيات والأفكار التي تركها هذا الأديب العبقري.

وأنا عاجز تمامًا عن تمييز ما إذا كانت موهبة المستر (كولبي) موهبة سيكولوجية أم ميتافيزيقية.. لكني أعرف حتمًا أنني اجتزت بفضله خبرة نادرة لن يكون سهلًا علي أن أنساها).

د. رفعت إسماعيل

جران كونكورس ١٩٦٨

* * *

كانت تلك هي السطور التي كتبتها لـ (سام كولبي) على ورقة وجدتها هناك، أمام نظراته الذاهلة.. كأنه يقول لي: ولكن ما دمت أؤكد لك أنني نصاب!..

وتحاملت لأنهض.. وتأبطت ذراع (جيري) قاصدًا الباب.. ولم أنس طبعًا أن أحيي (كولبي) تحية المساء.. من المؤكد أنني لن أرى هذا الرجل ثانية، ولست نادمًا على ذلك..

وفي طريق العودة حكيت لـ (جيري) ملخصًا لكل ما مررت به في هذه التجربة المريرة.. قال لي وهو يتأمل الأضواء من نافذة السيارة ويداه على المقود:

- في الواقع يا (رفعت) أنا لا أدري حقًا ما أعتقده.. ولكن دعني أحدثك عن تجربتي مع الغوص في (فلوريدا).. كانت هذه هي المرة الأولى لي، وحدث خلل في جهاز (الأوكسجين) مما عطل وصوله للدماغ نهائيًا.. في تلك اللحظات عشت - لمدة أيام كاملة - مغامرة شديدة الإمتاع مع (زورو) و (طرزان).. وصرت (جيمس بوند) في عملية خاصة بصاحبة الجلالة ملكة بريطانيا.. رأيت كل هذه الأحداث بجلاء كامل.. ثم وجدت نفسي ممددًا على الشاطئ وهناك من يحاول إخراج الماء من معدتي.. وعرفت أن تجربة الغرق هذه لم تدم سوى دقيقة.. تصور هذا!.. دقيقة رأيت فيها كل هذه الأحداث.. بل وأن الهلوسة الزمنية جعلتني أشعر - عن يقين تام - بأنها استغرقت دهرًا.

- ماذا تعني؟.

- أعني أنك كنت تهلوس طبعًا.

تثاءبت وأرحت رأسي على ذراعي:

- ها آآآآه.. ربما يا (جيري).. ربما.. غير أنني عشت في قصص لـ (بو) لا أذكر أنني أعرفها أبدًا.. اسمع.. هل هناك قصة له تدعي... ويـ... ويـ... ويليام ويل...؟.

- (ويليام ويلسون)... إنها قصة شهيرة!.

- أرأيت؟.. أنا عشت أحداث هذه القصة ولم أكن قرأتها قط.. كيف تهلوس بشيء لا تعلمه ثم يتضح لك أنه موجود حقًا؟.. ألا تجد في كل هذا شيئًا خارق للطبيعة؟.

قال وهو يختلس النظر لوجهي:

- أنت قرأت بالتأكيد هذه القصة في الماضي.. وتكفلت الهلوسة باستخراجها من أعماق منجم عقلك الباطن.

ثم بلع ريقه وتساءل في حزم ممزوج بشيء من ضجر:

- ماذا تحاول أن تقنعني به بالضبط؟!.

* * *

حقًا لا أدري ما أحاول أن أقنعك به....

إن كل نظرياتي عن الروح المعذبة التي لحقت بجلستنا؛ وحاولت أن تتصل بنا؛ وحاولت أن تصحب روحي في رحلة إلى عالمها الكئيب... كل هذه مجرد نظريات....

لقد كان (بو) معي.. كان في داخلي....

وحملني معه إلى عالم الأفكار التي أفرزها... كأنه كان يريد أن يريني مدى عذابه وألمه بتلك النفس الحساسية المرهفة التي وهبها الله له، ربما كان يريد من يتألم معه.. وربما كان بحاجة إلى الصحبة أو التسلية....

لا أدري.. كل ما أعرفه هو أنني عشت في عالم غريب.. عشت سبع حيوات كاملة.. لكنني لم أعشها ك (بو).. ولكن كبطل من أبطال قصصه يحاول جاهدًا تغيير قدره..

وقد نجحت في هذا....

أنا لا أؤمن بتناسخ الأرواح..

لكني أؤمن بالأرواح ذاتها...

وفي لحظة كنت فيها أقرب ما أكون إلى الموت، شفت روحي إلى الحد الذي استطاعت فيه أن تسافر إلى عوالم أخرى لم يوجدها سوى خيال عبقري معذب....

لقد كان (كولبي) نصابًا.. لاشك في هذا..

لكنه اعطاني حلمًا سأظل أذكره ما حييت...

* * *

أم تراه عقار الهلوسة قد تسبب في كل هذا؟.. ربما..

* * *

سأترك تساؤلاتي العديدة وحيرتي.. وأنهي هذه القصة الغامضة لأبدأ معكم قصة أخرى....

في هذه المرة تقابلون مشعوذًا آخر هود. (لوسيفر).. ولكن حذار.. حذار!.. هذا الرجل يمكن أن يكون خطيرًا.. إنه يحمل معه أوراق (التاروت) ويعرف الكثير عن الجالسين معه.. و....

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل
القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

إهداء

١ - أمريكا من جديد

٢ - حكاية لا تصدق

٣ - تجربة خطرة...

٤ - قناع الموت الأحمر...

٥ - القلب الذي كشف السر...

٦ - البندول والبئر...

٧ - القط الاسود...

٨ - سقوط منزل (أشر)...

٩ - ويليام ويلسون...

١٠ - ليجيا...

١١ - العودة...

خاتمة...

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة بو

الاسم: إدجار آلان بو .
المهنة: كاتب قصص رعب من الطراز الأول. إن قراءة قصص الرعب في فراشك لشيء ممتع.. لكن الخطر كل الخطر هو حين تعبر الحاجز الواهي الفاصل بين الواقع والخيال، وتجد نفسك شخصية بائسة حائرة في عوالم (بو) الكابوسية!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : حكايات التاروت (عدد ممتاز)

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

الساحر بالإنجليزية.

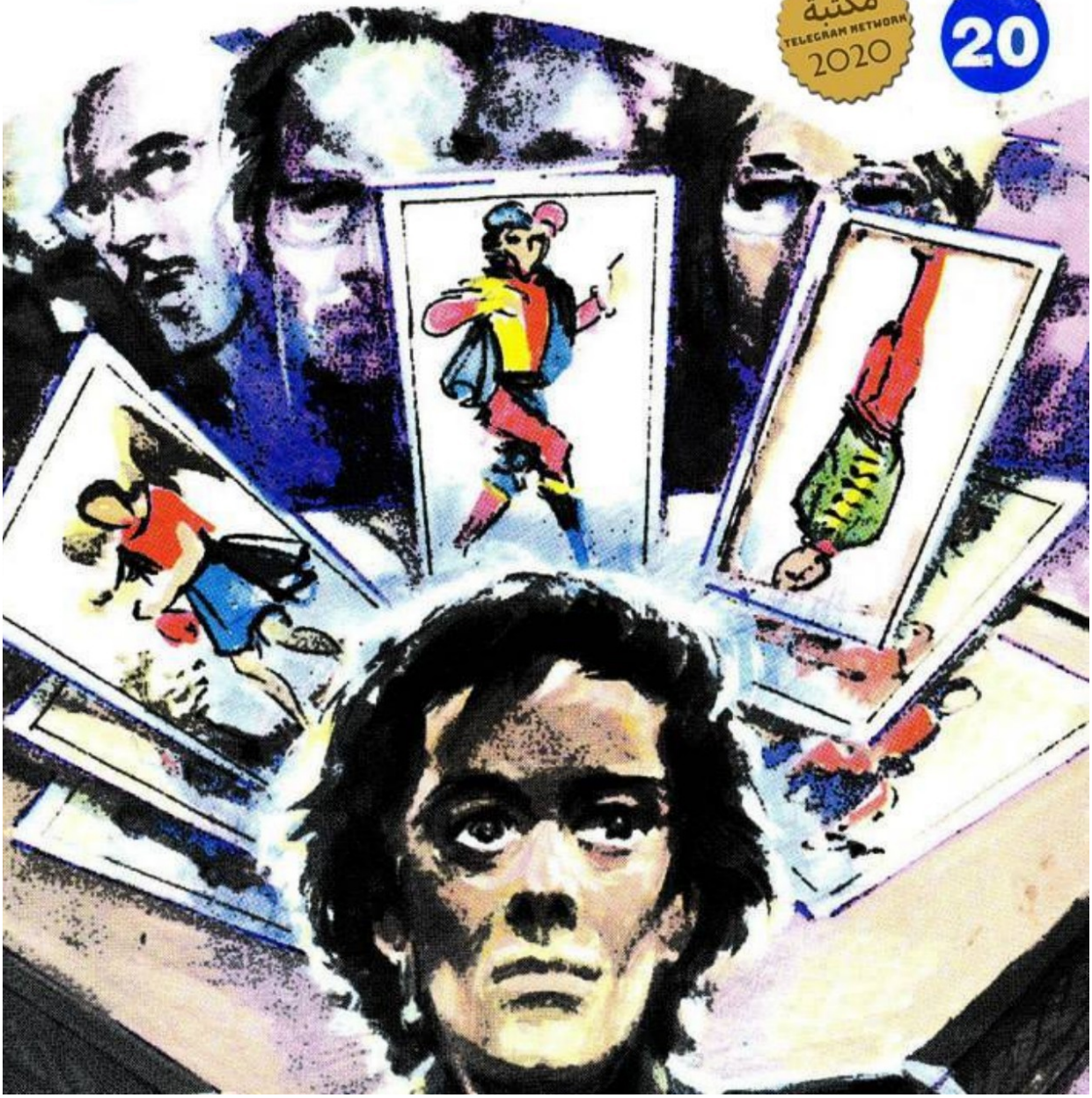
روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

حكايات التاروت

20

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

٢٠

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

حكايات التاروت

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

مقدمة

تحية لكم...

الدكتور (رفعت إسماعيل) الشيخ الثرثار الذي لا يكف عن انتظار الموت، قد عاد ليصدع رءوسكم بالمزيد من الحكايات المفزعة، الحكايات التي أفني عمره كله بينها..

نعم.. لم يمنعني هذا من أن أحب أحيانًا.. أصغى للحن حالم أحيانًا.. أقتطف زهرة رقيقة أحيانًا.. أرسم الشمس إبان الغروب أحيانًا..

لكني - أعترف - لم أحظ قط بسعادة خالصة، وكانت فكرة زوال السعادة تنغص علي كل شيء..، حتى والزهرة في يدي كنت أتخيل ذبولها..، وحتى وحبيبتي معي كنت أتصورها محمولة إلى القبر أو إلى دار رجل آخر سواي..

متشائم..؟.. كذا يقولون..

مريض؟.. ربما..

لا أطلب تفسيرات نفسية من أي نوع.. كل ماهناك هو أنني أستمتع بصحبتكم حقًا.. ولسوف أحكي لكم قصة لا بأس بها هذه الليلة.. فدعونا من التحليلات..

لقد أحببتم حلقة الرعب.. واليوم أقدم لكم حلقة الرعب الثانية، وهي - كالعادة - حشد من القصص القصيرة مربوطة في نسيج قصة واحدة كبيرة..

وقد حدثت هذه الأحداث عام ١٩٦٨ بينما شيخكم (رفعت) في سن الرابعة والأربعين..

هلموا اتخذوا مقاعدكم..

إن د. (رفعت إسماعيل) سيحكى لكم حلقة رعب جديدة..

* * *

حكايات التاروت

لم أكن قد غادرت الولايات المتحدة بعد..

كنت أمضي أيامي مع صديقي المحامي الأمريكي (جيري) بعد تلك التجربة النفسية المروعة التي عشتها مع قصص (إدجار آلان بو).. والتي لم أفهم قط هل كانت هلوسة شديدة، أم هي تجربة روحانية نادرة الطراز..

وطبعًا - أنت تلاحظ أنه لم يأت بعد - لحق بي صديقي العتيد (هاري شيلدون) خبير الكمبيوتر الشاب قادمًا من (فلوريدا).. فمن الصعب أن أمر على الولايات المتحدة مر الكرام دون أن ألقاه..

وحتى هذه اللحظة لست واثقًا من هو النحس الحقيقي.. أنا أم هو.. فما إن يظهر الأخ (هاري) حتى يتحرش بنا (الزومبي) وتلاحقنا لعنة (شاكال) اللعين.. وكل مسوخ الأرض..

كان مرحًا كعهدي به، وأمضينا أيامًا لا بأس بها نسترجع الذكريات التي قل أن تكون لدى واحد آخر سوانا..

عرف حكايتي مع النبات القاتل والكاهن الأخير و (براكسا) حسناء المقبرة.. على أن أشد ما أثار اهتمامه هو قصتي مع (إدجار آلان بو)، خاصة حين عرف أنني عشت تفاصيل قصص لا أذكر أنني قرأتها قط..

وبمراجعة مجمع أعمال الأديب الأمريكي العظيم استطاع أن يجد كل ما تكلمت عنه..، لقد استطاع (بو) أن يقودني إلى عالمه الخاص لا مراء في هذا..

وطلب مني (هاري) أن أصحبه ليلقى ذلك الدجال (سام كولبي)، فهو يثير شغفه حقًا..

وفي ليلة صيف باسمة ركبنا إحدى سيارات أجرة (نيويورك) الصفراء المجنونة قاصدين بيت الرجل..

استقبلنا الرجل بملامحه الودود الطفولية التي مازالت تثير الهلع في قلبي، فأشرق وجهه حين رآني ودعاني إلى الداخل متحمسًا.. صحيح أننا جئنا على غير ميعاد، لكنني صرت شخصًا عظيم الأهمية يستحق أن يفتح له صالة كبار الزوار لو أن عنده واحدة..

قمت بتعريفه بصديقي (هاري) وأخبرته أن (جيري) غارق في الأعمال فلم يستطع المجيء.. ثم دخلنا المنزل الكئيب.. كان كما هو لم يتغير بعد... وعلى المائدة المستديرة كانت هناك علبتان من الطعام المحفوظ وطبق وقدح من الشوكولاتة يتصاعد منه الدخان..

في حماس ذهب الرجل القميء إلى رزمة من المجلات في ركن الغرفة، فأخرج منها واحدة وفتحها على صفحة معينة وطواها وهرع نحوي ليريني إياها..

كانت هناك صورة فوتوغرافية لذلك الإقرار الذي كتبته له بخطي، وعنوان المقالة الرنان يقول: طبيب يعترف بمبدأ التناسخ - (كولبي) يصف تجربته الخاصة..

استشطت غضبًا.. وقلت من بين أسناني:

- لكني لم أقر مبدأ التناسخ لحظة.. إن ما كتبته يقول إنني عشت تجربة غير عادية لا أدري كنهها...

تساءل (هاري) وهو يتأمل غلاف المجلة:

- مجلة (ماجيك)؟.. ياللطباعة الرديئة!.. واضح أنها لا تلقى رواجًا كبيرًا.. وأنت يا (رفعت).. كيف سمحت لنفسك أن تنخرط في هذا الهراء؟

قلت وقد احمرت أذناي:

- لم أنخرط فيه.. لكنها شهادة حق سمحت لنفسي أن أقولها.. وما كنت لأقول سوى ما رأيت وعرفت..

هتف (كولبي) في حماس:

- لقد أحدث المقال دويًا في أوساط المهتمين بالروحانيات ونشر مرتين.. وسر نجاحه يعود لأن موضوع التجربة هذه المرة ليس معتوهًا ضعيف الإرادة.. بل هو رجل مثقف ناضج يسره بالتأكيد أن يثبت أنني نصاب!

- أنت كذلك! - قلتها وأنا أعيد له المجلة - وأعتقد أن كل شيء غريب، رأيته لم يكن لك فضل فيه.. لقد كدت تقتلني بتجربتك المخبولة تلك.. لكن لتقل إنك كنت إشارة البدء التي نقلتني إلى عالم لا يصدق..

هتف غير مبال بالإهانة:

- إنه المجد!.. أنت نقلتني إلى عالم لا يصدق من الشهرة والاحترام العلمي.. واليوم أنا مدعو إلى (نادي السحر) باعتباري ضيف شرف.. والفضل لك..

غمغم (هاري) وهو يجلس على أحد المقاعد واضعًا يديه في جيبه:

- نادي السحر؟.. اسم غريب!.. وهل هذا النادي يقدم لضيوفه حساء أجنحة الخفافيش في جماجم بشرية؟ وهل تتسلون هناك بذبح الأطفال الرضع؟

أطلق (كولبي) صرخة احتجاج.. وهتف:

- لا تكن سخيفًا يا مستر (شيلدون).. إن هذه الفكرة الصبيانية عن السحر لا تليق بك بل بقراء القصص المصورة..

- في رأيي أن القصص المصورة أكثر احترامًا.. فأنا خبير (كمبيوتر) يا سيد (كولبي).. ولا أتعامل إلا مع الحقائق الملموسة والمقدمات التي تقود إلى نتائج.. ولو أنني فتحت ذاكرة (الكمبيوتر) اليوم ووجدت برنامجًا لم يكتبه أحد فإنني لعلى استعداد أن أومن بسحرك هذا..

اتسعت عينا (كولبي) وفيهما ارتسمت نظرة حالمة، أقسم إن الرقة الرومانسية غزت سمنته الكريهة..

قال في افتتان:

- لا يهمني رأيك كثيرًا برغم احترامي له.. اليوم يجلس سحرة الولايات المتحدة يستمعون لي وأنا أتكلم.. وهذا هو كل ما أبغى من الكون..

قلت وأنا أشعل لفافة تبغ وأتخذ مقعدًا:

- كنت أظن السحر والروحانيات موضوعين منفصلين..

- إن السحر هو...

ثم تقلص وجهه ألمًا.. وهتف:

- معذرة.. الحمام.. إنها (البروستاتا) كما تعلمان..

وغادرنا مسرعًا كعادته، فنظر إلي (هاري) مندهشًا ولسان حاله يقول:

- ماذا دها هذا الرجل؟

قلت له بلا مبالاة:
- لا عليك.. إن (بروستاتا) هذا الرجل صارت موضوع الساعة بالنسبة لمن يزوره أو يحاول فهم حرف من كلامه..
بعد ثوان عاد الرجل من الحمام وقد بدت عليه معالم الارتياح.. وقال وهو يجرع ما بقي في القدح من (شوكولاتة).
- كنت أقول إن السحر والروحانيات وعلم (الباراسيكولوجي) كلها مسميات توضع في خزانة واحدة هي (الميتافيزيكس) أو علوم ما وراء الطبيعة.. نحن في هذا المجال أبناء عمومة.. ونحن نلتقي في بيت الأسرة الكبير المسمى (نادي السحر) من حين لآخر ليلقي كل منا محاضرة عما عرفه أخيرًا في هذا المجال..
ثم التمعت عيناه.. ببريق مجنون.. وهتف:
- هل تحبان أن تحضرا أحد هذه الاجتماعات؟
قلت له وأنا أتأمل السمكتين تسبحان في حوضهما غير عابئتين بشيء من هذا الهراء:
- بلى.. لكنني كنت أحسب هذه الاجتماعات مقصورة على الصفوة.. أعني أنه يجب أن تكون معك بطاقة تعريف أو تحمل معك قبعة فيها أرنب أو شيئًا من هذا القبيل..
- لا شيء من هذا..! - قال وهو يطوح رأسه يمينًا ويسارًا:
- المهم أن تترك معتقداتك البالية في دارك لا أكثر ولا أقل..
- من الممكن أن أفعل هذا..
نظر إلى الساعة على الحائط.. وقارنها بساعة جيب عتيقة أخرجها من صدار بذلته.. ثم قال:
- ليكن.. إن الحفل يبدأ بعد نصف ساعة.. فاستعدا لكي نذهب.. نصيحة يا مستر (شيلدون).. أتوسل إليك أن تتجاهل طريقتك العدائية الهجومية بعض الوقت إن هناك من لا يحبون هذا ممن نحن ذاهبون إليهم... احتفظ لنفسك بعقليتك الجدلية النقدية بعض الوقت وأعدك أن تعرف أكثر..

* * *

كان اللقاء في شقة فاخرة في حي (بارك أفينيو).
مجموعة من الخدم الذين يرتدون زيًا موحدًا يهرعون هنا وهناك حاملين أقداح الشراب.. وفي صدر القاعة مائدة هائلة عليها وعاء ضخم مزركش يحوي شرابًا ينقلونه إلى الأقداح بمغرفة كبيرة - مثلما يفعلون في حفلات الكوكتيل - جوار عشرات الأصناف التي يستحيل أن تعرف كنهها بالضبط..
ثمة شيء شبيه بديناصور مذبوح جواره شوكة وسكين - عرفت فيما بعد أنه ديك رومي عملاق - وأطباق ملأى بأشياء يمكن أن تكون عيونًا مقلوعة أو صراصير محمرة أو أنوفًا بالصلصة..
لن أفهم أسلوب الطهى الأمريكي أبدًا... وعليك - أنا لن أفعل هذا ما حييت - أن تنقل إلى طبقك عدة أصناف من هذه الأشياء المرعبة لتلتهمها بلذة في المكان الذي اخترته لنفسك..
ناديت (هاري) وطلبت منه أن ينتقى لي شيئًا آكله.. شيئًا ليس مخنوقًا ولا موقوذًا، ولم يطبخ بالخمر، ولا يحوي لحم الخنزير، ولا يحوي تعويذة سحرية ما، ولا يثير منظره الذعر في قلبي!

نظر لي في حيرة:
- المهمة عسيرة.. فأنا نفسي أجد صعوبة في انتقاء شيء مأمون..
ثم أشرق وجهه بابتسامة عذبة وقال:
- لحظة!.. وجدت لك الحل السعيد!
ومد يده ونقل إلى طبقي عودين من الكرفس..!

* * *

بفم مليء بالكرفس شرعت أتأمل المكان..
كانت الموسيقا العذبة - المصنف العاشر لأحدهم - تنبعث من لا مكان.. كأنما هي الكل الذي نحن فيه، حيلة بارعة كما ترى.. ولابد أن السماعات مدفونة في مكان ما تحت أقدامنا..، حتى الإضاءة ذاتها تأتي من لا مكان.. الجدران ذاتها تضيء بلون أزرق خافت يبعث الانتعاش في روحك..
في البدء شعرت بالخجل لأنني الوحيد الذي لا يرتدى (الفراك) في هذا الحفل المنشّى (بالمناسبة، أرجو أن يفتيني أحدكم عن كنه الفراك بالضبط حتى أشتري لنفسي واحدًا في الحفلات القادمة).
ثم بدأ خجلي ينزاح حين رأيت شبانًا يرتدون (الجينز)، ورجالًا يرتدون بذلات أقل ما يقال عنها إنها أسوأ من بذلتي..
لقد كان طابع هذا الحفل هو البساطة والبذخ.. البساطة في التقاليد.. والبذخ في الإمكانيات..
وحتى هذه اللحظة لا يوجد شيء غير عادي..
كانت هناك فتيات ترتدين ثياب السهرة ويرحن هنا وهناك متظاهرات بالمرح والانطلاق، وكان هناك رجال واضح أنهم بلغوا الذروة في الثراء أو على المناصب.. يحيط بهم - إذ وقفوا معتدين بأنفسهم - رجال ونساء يتظاهرون بالاهتمام المتصوف بما يقال.. كأن ثراء الإنسان يكفي لجعله أحكم الحكماء..
الخلاصة أنه جو مقيت..
وأنا يا رفاق خفاش آدمي.. أهوى الظلام والوحدة وأمقت الأضواء والناس، وسر حبي الوحيد للحفلات هو أنني أكل فيها كالحيتان.. لذلك لا تتوقعوا مني أن أحب هذا الحفل الذي لم أظفر فيه سوى بعودين من الكرفس..
ولكن أين (هاري) وسط هذه الفوضى؟
آه!.. هو ذا واقف يتحدث مع شقراء لا ترتدي شيئًا تقريبًا..
كنت أظن أن هذه الأساليب المراهقة بعيدة عن رجل متزوج من امرأة حسناء تحبه.. لكني كنت مخطئًا على ما أظن..
وأين (كولبي) في كل هذا؟
ها هوذا.. ضيف الشرف المرتقب للحفل.. إنه يمشي هنا وهناك بثيابه البالية يمازح هذا ويكلم ذاك.. لكن من الواضح أن أحدًا لا يعبأ به بتاتًا.. إنه مجرد رجل مضحك يثير الشفقة لا أكثر ولا أقل..

بالطبع كان يختفي من حين لآخر عن ناظري.. إنها البروستاتا كما تعلمون.. لو أن هناك جمعية لهواة التبول لصار هذا الرجل رئيسها الشرفي.. إنني أضمن له هذا على الأقل..

ولكن.. أين السحر وسط كل هذا؟..

إن هي إلا حفلة مرحة أخرى.. صحيح أنني لم أر مثلها إلا في السينما، لكنني أشعر بالملل وكأنني أفنيت عمري كله في حفلات مماثلة.. لهذا اتجهت بثقة إلى (البوفيه) المفتوح فملأت طبقي بالكرفس.. ثم اتجهت إلى أريكة وثيرة أمامها مائدة صغيرة.. فأرحت جسدي عليها وأشعلت لفافة تبغ، وأخذت أتسلى بإلقاء الرماد على السجادة الفاخرة، وأراقب هؤلاء البلهاء..

* * *

كانت عقارب الساعة تتجه نحو الحادية عشرة مساء..

حين ظهر رجل في العقد السادس من عمره.. متأنق.. أشيب الشعر.. يرتدي منظارًا معلقًا إلى صدره بسلسلة ذهبية..

ظهر هذا الرجل يشق طريقه بين زحام القوم المتمايلين والمتمايلات حتى وجد لنفسه موضع قدم.. ثم صاح بصوت جهوري معدني:

- هير هير[1]

فساد الصمت إلا من نغمات البيانو القادمة من لا مكان.

- يسرني - أنا رئيس رابطة سحرة (نيويورك) - أن أقدم لكم ضيف حفلنا الليلة..

نظرت بطرف عيني إلى (كولبي).. فوجدته وقد احتقن وجهه.. ولا شعوريًا شرع يحك حذاءه في ساق بنطاله ليزداد لمعانًا.. ثم يتقدم إلى الأمام.. إنها لحظته المنتظرة..

- إنه لرجل فذ.. وهو شرف مهنتنا بعطائه الذي لا يكل، وجهوده المخلصة من أجل علوم ما وراء الطبيعة..

ويتقدم (كولبي) عبر الصفوف يزيح هذه.. ويبعد هذا قاصدًا مركز الحلقة، حيث وقف الرئيس يقول:

- أعرف أنكم لستم جميعًا من المهنة.. بعضكم ضيوف عليها.. وبعضكم لم يسمع عن هذا الرجل العظيم!.

وهنا كان (كولبي) قد وصل إلى الرئيس.. ومد يده نحوه..

- أرجوكم جميعًا أن تحيوا... الدكتور (لوسيفر)!!

وتعالى صوت التصفيق على حين شرع (كولبي) يدور بعينيه في بلاهة.. إذن لم يكن هو المقصود.. إذن..

شعرت برغبة عارمة في الضحك مازجتها الشفقة.. كلنا يعرف هذا الشعور المرير.. هو ذا (كولبي) ينسحب وقد بدا لي كأنما صار عاجزًا عن رفع كتفيه لأعلى.. سقطتا إلى جانبه على شكل رقم (٨).. واحمرت أذناه أكثر فأكثر، على حين شرع الجمع - الذي لم يلحظ سوء التفاهم هذا - يردد الأغنية الشهيرة في حفلات التكريم:

"لأنه رجل لطيف طيب.. لأنه رجل لطيف طيب.. ولا أحد ينكر ذلك.."

وهنا لم أعد أنظر إلى (كولبي)..

تركزت عيناي على ذلك الرجل النحيل الذي يرتدي السواد والذي وقف يحيي الناس جوار الرئيس..

طويل القامة كان.. كل ما فيه أسود.. شعره.. ثيابه.. لون عينيه.. على عنقه قلادة ذهبية هائلة الحجم.. وفي أصابع يديه عدد من الخواتم الماسية يفوق قدرتي على العد..، وكان هناك قرط يتدلى من أذنه اليمنى (ولم أكن قد رأيت من يرتدي القرط بين الرجال في ذلك الوقت)..

كان رهيبًا.. وأدركت أنه يستغل هذا الإيحاء خير استخدام.. لقد أدرك أن له طابعًا شيطانيًا لا تخطئه العين، لهذا استكمل هذا الطابع بانتقاء الثياب السوداء وتسمية نفسه بإسم (لوسيفر) الاسم اللاتيني للشيطان.. إسم معناه (أمير البهاء) لأن الكبرياء تقود إلى الهلاك..

شعرت بكراهية له من اللحظة الأولى، وتمنيت أن أرحل أنا و (هاري) الآن..

لكن شيئًا في أعماقي أمرني أن أنتظر وحتى يفرغ هذا المخبول من كلامه.. لابد أن أعرف الشيء الذي منحه كل هذا (البرستيج) بين أقرانه.. كل السحرة يخرجون أرنبًا من القبعة، فهل هو يخرج منها أفراس نهر؟!.. كل السحرة يشطرون المرأة إلى نصفين فهل هو يشطرها إلى ثلاثة؟!..



تركزت عيناى على ذلك الرجل النحيل الذى يرتدى السواد

والذى وقف يحيى الناس جوار الرئيس ..

على أنني كنت مخطئًا هنا حين خلطت بين السحر (الاستعراضي) الذي يؤدى على المسارح، والسحر الخفي الذي يمارس في غرف مغلقة..

فالنوع الأول معروف ودائمًا ما ينكشف عن ألعاب حواة تافهة.

أما النوع الثاني فلا أعرف عنه حرفًا...

رأيت هذا المدعي يرفع يده لتهدأ الجلبة.. ثم يقول:

- سرني هذا الترحيب!

كان صوته كمظهره.. أسود.. قاتمًا.. كئيبًا..، على أن له سحرًا مغناطيسيًا غامضًا يجعلك تود لو سمعت أكثر..، صوته كان أشبه بتلك النبرات الرتيبة التي تخرج من حنجرة الببر القوية حين يغفو بعد أن التهم فريسته بالكامل..

- إنني أجد قلوبًا مخلصة ملأى بالحب في هذا المكان.

حب؟.. عم يتحدث هذا المعتوه؟.. لكنني لاحظت نبرة صوته واللهجة الأجنبية الواضحة في كلماته.. واضح أنه ليس أمريكيًا.. ربما هو من (أوروبا) الشرقية أو (روسيا) أو شيء من هذا القبيل..

كما لاحظت أنه في العقد الخامس من العمر مثلي..

- عودوا لمرحكم.. أما عني أنا فلسوف أجلس في صومعة الأحلام مع مستر (كلارتون) مضيفنا الكريم.. فمن أراد أن يلحق بي هناك فبه أسعد.. وله قلبي يطرب.. أما الأخرون فهم سعداء من أجله.

واستدار ليتجه إلى حجرة جانبية ومعه رئيس الرابطة الذي عرفت الآن أنه صاحب الدار وأن اسمه (كلارتون).

لم يفتني كذلك أن ألاحظ الأسلوب الغريب الذي تكلم به على غرار (به أسعد) و (له قلبي يطرب) ليعطي كلماته طابعًا غريبًا يوشك أن يكون كنبوءات العرافين..

إن (كولبي) نموذج للنصاب الأبله.. أما (لوسيفر) فهو من طراز راق شديد البراعة.. إنه النصاب نجم المجتمعات.. ولن أدهش لو كان ثراؤه واسعًا كحيلته..

عاد الحفل إلى صخبه السابق... الضحكات الأنثوية تدوي.. والخدم يروحون هنا وهناك... (هاري) يأتي إلي - لا أدري من أين - ليقول لي وهو يجرع كأسه:

- هل معك لفافة تبغ؟...

- أظن هذا.. حسبتك لا تدخن.

- أنا كذلك.. تلك الشقراء طلبت أن أقدم لها واحدة!

- عليك اللعنة!.. أنا أمقت هؤلاء الكرماء على حسابي.. خذ العلبة كلها ولكن أعدها لي..

قال وهو يدس العلبة في جيبه:

- ما رأيك في هذا الجو المسموم؟

- عرفنا ألعن منه مع سحرة (الفودو) في تلك الليلة.. هل نسيت؟

- وكيف أنسى؟.. قل لي.. لماذا لا نتبع هذا المخبول إلى صومعته كما قال؟...

- لا!..

- لكنك مولع بالتجارب الجديدة.. إن الفضول يقتلني.. لحظة يا صغيرتي!.. لقد أحضرت لك سجائرك..

وهنا دنا مني (سام كولبي).. قصيرًا تعسًا مبعثر الهندام.. وفي عينيه نظرة من يرجوني أن أنسى ما حدث.. قال لي:

- كذا ترى! - وتنهد - إنه لجو غير عادي!

- لا أرى شيئًا غير عادي.. مجرد حفل صاخب على درجة من التحرر..

- هذا لأنك لم تدخل الصومعة!

نظرت في عينيه البريئتين، فوجدت دعوة لا تحتاج إلى ترجمة.. إنه يتحرق شوقًا كي يلحق بهذا الـ (لوسيفر) في اجتماعه الخاص.. وأنا حقًا لا أرغب في أن أرى هذا النصاب مرة أخرى.. أريد العودة إلى داري وآخذ حمامًا فالنوم.. أرجوك.. أريد أن آكل شيئًا عوضًا عن الكرفس...

وهنا رأيت (هاري) عائدًا لي حاملًا علبة التبغ وبحنق صاح:

- أنت وسجائرك!.. كالعادة تستعمل أرخص نوع من التبغ على الإطلاق.. لقد كادت الفتاة تموت بالالتهاب الرئوي بعد نفسين!

- لم أطلب منها أن تحب سجائري.

قال وهو يتأبط ذراعي وذراع (كولبي):

- والآن دعونا من هذا الهراء.. هلما بنا نر هذا النصاب!

رفعت يدي في احتجاج صامت، لكن (كولبي) هو الآخر كان متحمسًا ووجدت أنني - في الواقع - أدفع إلى الداخل دفعًا..

ماذا ستخسر - قالا لي - لو ألقيت نظرة؟.. لقد وعد الرجل أنه (بنا يسعد) و (لنا قلبه يطرب) لو منحناه هذه السعادة؟ ثم إنك لا تعرف (لوسيفر) إنه الرجل يسيطر على مفاتيح السحر كلها - والكلام لـ (كولبي)- وهو ليس نصابًا كأكثر العاملين بهذه المهنة القذرة.. وبمعنى أقرب إلى فهمكما..

- إنه لرجل يعرف ما يتكلم عنه!.

وهكذا سمحت لنفسي - هذه المرة فقط - أن أدخل صومعة الدكتور (لوسيفر).. وكما تعرفون عني: كنت ماذا؟.. ساذجًا.. ساذجًا..

* * *

رائحة البخور هذه...

رائحة البخور تفوح بها الغرفة، الغرفة التي يسودها لون أخضر غريب، فلم أكن واثقًا هل هو انعكاس من الجدران، أم أن هناك مصدرًا للضوء الأخضر؟

الزخارف الشرقية تملأ المكان.. وثمة مبخرة من السقف، على حين تناثرت النوافذ (الأرابيسك) الموصدة في أرجاء القاعة..

حتى السجاد كان إيرانيًا سميكًا غاصت فيه أقدامنا حتى كاحلها.. لقد حرص من أثث هذه الحجرة على افتعال طابع عربي من الذي يثير خيال الأمريكان.. حتى أنهم وضعوا زنجيًا عاري الجذع إلا من صدرية مذهبة جوار الباب الذي تغطيه الستائر ليوحوا للداخلين أن هذا عبد من عبيد ألف ليلة وليلة..

وكانت هناك جارية حسناء تحمل (الدلة) تطوف بها على الجالسين تملأ أقداحهم بشيء أعتقد أنه قهوة.

هذه هي الصومعة إذن، وسمعت صوت البر يزأر:
- مرحبًا بك يا (كولبي) أنت ود. (رفعت) ومستر (شيلدون)!
ارتجفت لهذه البداية وكدت أؤمن أنها معجزة.. ثم تذكرت أن (كولبي) الثرثار بالتأكيد قد حكا للرجل كل شيء عنا..
كانوا جالسين على الأرض على طنافس عربية موشاة بالذهب.. حول ما يشبه (طبلية) صغيرة مسدسة الزوايا، كأنما خرجت من تحت يد أفضل صانعي (خان الخليلي)، لكنه دائمًا ذلك الجو الشرقي المفتعل الذي لا يجيد الغربيون محاكاته.. فهم لا يعرفون عنا سوى قصص ألف ليلة وليلة ولوحات (ديلاكروا)..
الضوء الأخضر الساطع يغلف الوجوه.. دنوت من المجلس واخترت إحدى الطنافس وتربعت عليها.. وجلس (هاري) إلى يميني و (كولبي) إلى يساري.. وشرعنا نتأمل الجالسين.. كانوا خمسة بالإضافة إلى (لوسيفر) والأخ (كلارتون).. وبعد دقائق دخلت الغرفة امرأتان فجلستا إلى المائدة معنا.. إحداهما شابة لا بأس بها والأخرى عجوز لابد أنها فقدت طفلها في حروب (الهكسوس)..
ظل الصمت هو السائد بضع دقائق..
لا نفعل شيئًا سوى أن نتبادل النظرات.. متى ينتهي هذا الهراء؟.. ثم إن (لوسيفر) بدأ يتكلم.. بصوت بطيء النبرات عميقها، يتكلم.. عن أي شيء بالضبط؟.. لا أدري في الواقع.. مجرد كلام فارغ لا أول له ولا أخر عن وحدة الكون والعقيدة (المانوية) والوصول إلى الحقيقة عن طريق فهم أنفسنا أكثر.. إلخ...
ملت على أذن (كولبي) هامسًا:
- هذا المخبول.. هل هو ساحر أم عراف أم مدعي نبوة من الذين تزخر بهم بلادكم، والذين في بلدي يحملونهم إلى أقرب مصحة عقلية حيث تتكفل بعض صدمات كهربية بشفائهم تمامًا؟!
- حنانيك.. لا تسخر منه إنه..
وهنا دوي صوت البر:
- أنا عالم يا د. (رفعت)!.. لا أكثر ولا أقل!!
رفعت عيني نحوه فوجدته يرمقني بعينيه السوداوين الثابتتين.. ما أقواهما من عينين!.. كأنهما خلقتا للتنويم المغناطيسي.. وسمعته يقول وهو يرفع شيئًا ما في قبضته:
- هل سمعت عن أوراق (التاروت)؟
تأملت الأوراق التي يقبض عليها في قبضته.. بالطبع سمعت عنها وبالتأكيد أعرفها.. هل أنسى الأم (مارشا) في (جامايكا) ونبوءتها عن القلعة والتراب الأحمر؟.. أعرف هذه الأوراق برسومها المشؤومة، لكني لا أعرف شيئًا عن مغزاها ولا معناها..
قال د. (لوسيفر) وهو يجيل عينيه بين الجالسين:
- هناك من يؤكد أن كلمة (تاروت) مأخوذة من الكلمة الهيروغليفية (تاروش) ومعناها: الطريق الملكي.. ومن يؤكد أنها مأخوذة من كلمة (روتارو) اللاتينية ومعناها: الدائرة.. لقد حاول الكثيرون معرفة متى وكيف نشأت هذه الأوراق لكن الجميع فشل في ذلك.
قال صاحب الدار (كلارتون) وهو يرفع منظاره إلى أنفه:
- في كتاب (العالم البدائي) يزعم مؤلفه (كورت) أن هذه الأوراق ظهرت في (أوروبا) في القرن الرابع عشر.. لكنها ظهرت في الشرق قبل ذلك بعهد سحيق.. ربما كانت تعود إلى عهد الفراعنة

أنفسهم..
قال أحد الجالسين وهو رجل أسمر له وجه كئيب ممتقع:
- إن (ستيوارت كابلان) عاكف الآن على كتابة كتاب (أوراق التاروت) يتحدث فيه عن لغز هذه الأوراق[2].
دون كياسة تساءلت أنا عاجزًا عن الفهم:
- لا أفهم.. ما هي جدوى هذه الأوراق أصلًا؟.. أليست نوعًا من (فتح الكوتشينة) لا أكثر؟
تحركت العينان الثاقبتان نحوي.. وسمعت صوت الحشرجة:
- ليس الأمر بهذه البساطة.. لقد عكف الدكتور (يونج) تلميذ (فرويد) الشهير على دراستها ثم أعلن رأيه: إن (التاروت) هو أسلوب لتنمية الحدس واتباع منهج عملي يلائم وجود الإنسان في هذا الكون..، والعالم الإنجليزي (ليفي) يقول: إن (التاروت) يتيح لمن لم ير العالم قط أن يمتلك المعرفة الكاملة بالكون ويتحدث في كل المواضيع ببراعة..
بالمناسبة.. أنت مصري يا د. (رفعت) وكان من واجبك أنت أن تحدثنا عن (التاروت) على حين نصغي لك.. إن (التاروت) في الغالب اختراع فرعوني قديم..
أضاف (كلارتون) في حماس موجهًا الكلام لي:
- يزعمون أن كهنة مصر دونوا فيها كل أسرار حضارتهم التي أحسوا بقرب اندثارها.. وكان ذلك في العام الألف قبل المسيح..
تساءلت الفتاة بصوت بدا التوتر يغزوه:
- وكيف وصل (التاروت) إلى أوروبا؟.
- وصل إلى (انجلترا) مع طوائف الغجر.. وصنع أول (تاروت) بها في عهد الملك (هنري الثامن)..
وهنا قطع (هاري) خيط الكلام ليتساءل:
- دعونا من تاريخ هذه الأوراق.. ما الذي تنتويه بالضبط؟
شاعت ابتسامة غامضة في وجه د. (لوسيفر) وشرع (يفنط) الأوراق دون أن ينظر إليها.. ثم أجاب:
- أنوي أن آخذكم إلى رحلة نادرة خارقة للعادة.. وأداتي هي (التاروت).. كان لابد لي من أن أخبركم بشيء عنه قبل أن أبدأ.. والآن من سيكون الأول؟!
ساد الصمت.. فملت على أذن (كولبي) هامسًا:
- من هو د. (لوسيفر) هذا؟
قال هامسًا دون أن يحول بصره عن المشهد:
- لا أحد يعرف.. يقولون إنه من (المجر) وإن اسمه (فرانتز لوسيفر).. وقد جاء إلى (الولايات) منذ ثلاثة شهور.. ويقال إنه أثار حيرة الجميع بما يصنعه بهذا (التاروت).. حتى أن مستر (كلارتون) الذي لم يعد شيء يبهره، قد استضافه عنده بصورة دائمة وأعد له هذه الغرفة خصيصًا..
- يسأل عن الأول.. الأول في ماذا بالضبط؟
- لا أدري.. ربما سيرينا بعض قدراته التنبؤية..
وببطء شديد دارت عينا الرجل الثاقبتان بين صفوفنا..
خطر لي في هذه اللحظة مدى سخف ملاحظتي حول العينين القويتين، فالعينان وحدهما غير قادرتين على التعبير عن شيء.. كل ما تملكانه هو أن تتسعا لتوحيا بالرعب أو تضيقا لتوحيا

بالمكر، الحاجبان هما ما يعطي العينين تأثيرهما الكامل..، هما ما يعطي العينين إيحاء الطيبة والضعف، ويعطيانها إيحاء الحزن، ويعطيانها إيحاء الشر..

المخيف في هذا الـ (لوسيفر) أن عينيه لم يكن فوقهما سوى حاجبين مسطحين أفقيين لا ينمان عن شيء.. وهذا في حد ذاته يثير الرعب في قلبي..

صوت البير الراضي عن شبعه يتردد:

- الحق أقول لكم إنني لواجد بينكم من يستحق شفقتي.. إن بينكم يا إخوان من لا يصدق.. فله الحسرة تغمرني، وبينكم من يسخر.. فمنه أشعر بالحنق، وبينكم من لا يبالي.. فإليه نصحي أن يعيرني أذنيه الفانيتين بعض الوقت.

شعرت بالتوتر.. فأنا أمتاز عن الآخرين بأنني قابل للدخول في كل هذه القوائم.. أنا بالفعل لا أصدق ولا أبالي وأسخر!.. وبالتالي أنا سببت للرجل الحسرة والحنق وواجبي أن أعيره أذني الفانيتين بعض الوقت!.

نظر لي د. (لوسيفر) نظرة باردة.. وجرع قدح القهوة الذي كان أمامه.. وأشار إلى ما وراء كتفي..

- لا!

قلتها في إصرار، إذ رأيت الجارية آتية إلى حاملة (الدلة) لتصب لي بعض القهوة في فنجاني.. تلبية لإشارته..

والسبب معروف.. بعد تجربتي السابقة مع (كولبي) لا أجد لدي استعدادًا كي أشرب شيئًا ما قد يحوى عقار هلوسة، أو شيئًا مماثلًا..

أريد أن أكون بكامل قواي العقلية لأرى ما سيحدث.. إذا كان هناك ما سيحدث حقًا..

ثم إن د. (لوسيفر) واصل الكلام:

- إن لي أن أفترض أن من لحقوا بي يريدون أن يعوا المزيد عن غدهم.. وإنه لمما يثير دهشتي أن أرى – بالصدفة - هذا الحشد من ذوي المصائر المكفهرة.. كلكم تريدون بصيصًا من الغد.. وليس من الحكمة أن تروا هذا المصير.. فهل حقًا أنتم على ذلك عازمون؟!

ساد الصمت هنيهة..

لم أعتد من قبل أن أرى عرافًا يقول (لزبائنه) إن مصيرهم أسود وأن غدهم قاتم.. من المعتاد أن يقول لهم إن كل شيء تمام وإن الأيام القادمة هي أسعد الأيام.

على كل حال أنا لا أومن بهذا الهراء.. ورأيي هنا صارم لا يتزحزح، لا يوجد تنبؤ بالغيب لدى بشر.. ولو أن هذا النصاب كان يعلم الغيب حقًا لصار حاكم العالم بعد أسبوع..

إن الإنسان الذي يعرف الغيب لقادر على أن يكسب كل أوراق اليانصيب، ويعرف أين تتوقف الكرة في لعبة (الروليت)، ويعرف كل الخطط الحربية وأرقام حسابات البنوك وأسئلة امتحان الثانوية العامة..!، إنسان كهذا لن يجلس في غرفة يشرب القهوة ويحاول أن يبهرنا..

قطعت المرأة العجوز حبل أفكاري قائلة بصوت رفيع مرتجف:

- إنك أثرت فضولنا يا د. (لوسيفر).. هل تعني أن كل الجالسين هنا مستقبلهم قاتم؟.. ما سر هذه المصادفة؟

ابتسم ابتسامته الغامضة وقال:

- لأن كل الجالسين هنا - أو أكثرهم - من اللاعبين بالنار.. لا مصادفة هنالك في أن يحتشد في مكان واحد عدد ممن ستحترق أناملهم...

تنهدت المرأة.. وغمغمت:
- أنت تثير رعبي بكل هذا.. ولا يسعني إلا أن أطلب منك أن أكون الأولى..
ومدت العجوز يدها نحو د. (لوسيفر) فناولها الأوراق، وطلب إليها أن تخلطها بنفسها.. فهو يريد أن يلقح الأوراق كلها بمغناطيسية الشخصية، وأن تكرس تفكيرها كله لمحتوى هذه الأوراق..
وفي أذني همس (كولبي):
- تتكون أوراق (التاروت) من ٧٨ ورقة في صورتها الكاملة، منها ٥٦ ورقة تدعى (السر الأصغر) هي التي ولدت منها أوراق اللعب المعروفة حاليًا.. أما الـ ٢٢ ورقة الباقية فتدعى (السر الأعظم)..
ولهذه الأوراق ترتيب معين يمكن للملمين بـ (التاروت) أن يجدوا فيه قصة كاملة..
- إذن سيحكي لنا هذا الرجل سبع قصص..
- بالتأكيد.. فالجالسون هنا سبعة..
كانت السيدة قد انتهت من خلط الأوراق فأعادتها إلى د. (لوسيفر)، الذي تناولها..
وبهدوء بدأ يقلب الأوراق بترتيب معين.
الصور الزاهية الغامضة تتراءى لعيني في الضوء الأخضر الغامض.
وبدأ د. (لوسيفر) يتكلم.
وكانت هذه حلقة الرعب الثانية.
لقد دارت العجلة ولن تتوقف إلا حين يقرر هو ذلك..
لأنه رجل لطيف طيب...
ولا أحد ينكر ذلك..

* * *



وبهدوء بدأ يقلب الأوراق بترتيب معين ..

الحكاية الأولى

ماذا أصاب (لويز)؟

بطولة: ليليان مازورسكي

(لقد كان الجواب قريبًا منك يا سيدتي لكنك لم تفهمي قط)..



الاسم : ليليان مازورسكي

السن : ٥٦ عامًا .

المهنة : سكرتيرة سابقًا .

الحالة الاجتماعية : أرملة وأم لثلاثة .

الإقامة : نيويورك .

الجنسية : أمريكيـة لكن أصولهـا تعود إلى (بـولندا)

وقد نزح أبوها إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٢، وهو عامل طباعة أصلًا .

الهوايات : إن مسـز (مازورسـكي) اجتماعية جدًا ، وتهوى صحبة البشـر ، وفي هذه الأمسـية اصطحبتها صديقة ابنتها (لويز) لتقابل هؤلاء القوم الخارقين للعادة.

بالإضافة إلى ذلك هي تهوى سماع موسيقا العشرينات وأغاني (نات كنج كول).

قال دكتور (لوسيفر) وهو يرتب الأوراق أمامه:
- والآن دعينا نر يا مسز (مازورسكي)...
أجفلت المرأة حين سمعت اسمها..، ولم أر في هذا معجزة ما.. فمن أسهل الأمور أن تعرف أسماء المدعوين إلى حفل..
كانت الورقة الأولى هي ورقة (الساحر).. تمثل ساحرًا يقف أمام مائدة عليها أشياء عديدة.. [فيما بعد عرفت أن هذه الورقة تشير إلى المهارة والثقة بالنفس، بينما يرى (أنطوان كورت) الفرنسي أنها ترمز إلى القرن الأول للديانة المسيحية، على حين يرى علماء النفس أنها ترمز لانبثاق (الأنا) في النفس البشرية].
الورقة الثانية كانت (المشنوق) وكالعادة تمثل شابًا معلقًا من قدمه اليمنى إلى المشنقة.. وتشير هذه الورقة إلى الاستسلام والتضحية بالنفس...
الورقة الثالثة هي (القوة).. وتمثل رجلًا يصارع أسدًا..
ثم جاءت ورقة العالم.. ثم ورقة المحاكمة..
وأخيرًا جاءت الورقة المشئومة: الموت.. يظهر فيها هيكل عظمي يمسك بمنجل يحصد به الرءوس..
وفيما بعد عرفت أن هذا الرسم المميز للموت في خيال الإنسان، إنما استمد أساسًا من أوراق (التاروت). وعرفت كذلك أن رقم هذه الورقة الكئيبة هو (١٣) !.. دائمًا هي الورقة الثالثة عشرة..
اتسعت عينا المرأة ذعرًا إذ رأت هذه الورقة.. هتفت في د. (لوسيفر):
- هلا أوضحت لي معنى هذا؟!
نسق د. (لوسيفر) الأوراق بترتيبها الذي خرجت به.. ثم قال:
- لو أننا تتبعنا رأي علماء النفس في هذه الأوراق يا سيدتي لقلنا إنك تعانين من إحساس بالذاتية جد مفرط، مما يضطرك إلى التضحية لتتأقلمي مع المجتمع، وعندئذ تتكاملين روحيًا مع العالم وتولدين من جديد، وتنتهي خشيتك من الموت..
ثم ابتسم ابتسامته الكريهة وأردف:
- لكننا لسنا بصدد علم النفس هنا، السحر - يا سيدتي - هو إسم اللعبة.. فأصغي جيدًا لما سأقول.....

* * *

في هذا اليوم - الذي حتمًا مر بها منذ أيام - عادت مسز (مازورسكي) إلى دارها شاعرة بالحنق..
لقد كان يومًا نحسًا كله.. فحين ذهبت إلى (السوبر ماركت) لم تجد كيس النقود معها، وخرجت منه لتجد ورقة مخالفة على زجاج سيارتها الصغيرة لأنها وقفت في الممنوع..
تصاعد الدم إلى رأسها وتراجعت بالسيارة إلى الوراء.. طبعًا لتكسر رفرف السيارة الواقفة خلفها..
وخرج صاحب السيارة يسب ويلعن متسائلًا عن القانون الذي يسمح لهؤلاء العجائز المتصابيات بقيادة سياراتهن في قلب (نيويورك) محطمات سيارات البسطاء الأبرياء الذين لا

وقت لديهم لهذا الهراء..
المهم - نوجز القول - اضطرت البائسة إلى كتابة شيك لهذا الرجل الذي ينفجر غضبًا...
ثم إنها رأت أن اليوم قد حقق ما يكفي من النحس، فالسياسة المثلى الآن في العودة إلى الدار.. فاحتساء كوب من اللبن.. فالنوم قبل أن تحدث كارثة أخرى..
وهكذا - ترون - عادت السيدة (مازورسكي) إلى دارها..
وهنا نلاحظ عدة أشياء بخصوص هذه السيدة:
أولًا: هي تعيش في ضاحية نائية بعيدة عن قلب المدينة.
ثانيًا: لا يوجد جيران قريبون على بعد ميلين.
ثالثًا: هي ليست وحيدة في دارها لأن معها ابنتها (لويز)، وهي آخر من بقي في الأسرة بعد ما تزوج (مارك) ونزح إلى (أوهايو) وبعد ما تزوج (بوب) ونزح إلى (كاليفورنيا)..

* * *

هنا كف د. (لوسيفر) عن سرد القصة والتفت إلى مسز (مازورسكي) وتساءل في كياسة:
- هل كل شيء دقيق حتى هذا الجزء؟
شحب وجهها وغمغمت:
- لا بأس.. استمر إذن.
وعاد د. (لوسيفر) يواصل قصته..

* * *

لم تكن (لويز) في الدار لأنها خرجت مع صديقتها الجديدة (هارييت).. هكذا عرفت الأم حين قرأت الـ (ستيكر) الملصق على الثلاجة..انتزعته في غل وهشمته بين أناملها، ثم فتحت الثلاجة وأخرجت دورق اللبن وصبت لنفسها كوبًا كبيرًا باردًا..
منذ أن دخلت (هارييت) في حياة (لويز) لم تعد (لويز) هي هي.. فتاة السبعة عشر عامًا الرقيقة المرهفة التي تعزف البيانو وتقرأ الشعر ليلًا قد أصابها تغيير ما..
إن (لويز) نحيلة ترتدي منظارًا وثيابها كلاسيكية محتشمة راقية.. أما (هارييت) فصاخبة حمراء الشعر ترتدي أي شيء وكل شيء..، ومن المؤسف أن الأم لم تجد قط لديها الشجاعة كي تطردها أو تأمرها أن تترك ابنتها وشأنها..
ومن يومها تخرج (لويز) كثيرًا.. وتتأخر عن الدار كثيرًا.. وحين تعود لا تكف موسيقا (الروك أند رول) الصاخبة الشنيعة عن الدوي في حجرتها مرددة أسوأ أغنيات فريق (هو) أو غيره من أسماء هؤلاء الشياطين الذين يسمون أنفسهم فرقًا..
وكانت الأم تشعر بارتياح شديد لصديقة ابنتها (ماري) التي تناسب طباعها إلى حد كبير.. ولم تكن تريد من (لويز) سوى أن تمضي مع (ماري) فترات أطول..
ثم إن د (لوسيفر) نظر باتجاه الفتاة الجالسة معنا.. وتساءل:
- هل أنا مخطئ في هذا يا (ماري)؟
أبعدت الفتاة خصلات الشعر التي تغطي نصف وجهها وقالت:

- لا.. استمر أرجوك..

* * *

إلى هنا والقصة عادية تمامًا..
من من الآباء هنا لم يمر بها وهو يتعامل مع إبن في سن المراهقة؟..
إن الأصدقاء قد يكونون شعلات من نار ما إن تضع ابنك بينهم حتى يحترق.. وقد يكونون قطعًا من جليد ما إن يلامسهم ابنك حتى يتجمد..، الخلاصة أنه لن يكون بمعزل عنهم أبدًا، وواجبك كأب أن تنتقي له الأصدقاء معتدلي الحرارة حتى لا يتجمد أو يحترق..
تلكم الخواطر دارت - ولابد - في ذهن الأم فوجدت نفسها تسكب كوب الحليب ثم تنتزع ثيابها ذاهبة إلى الفراش وقد أحست بأنها عازفة عن أكل أي شيء.. إن الفارق الزمني المهول بينها وبين ابنتها - أكثر من أربعين عامًا - يجعل أي احتمال للتفاهم بينهما مستحيلًا.. كان من الأوفق لها أن تكون جدتها، وهي نفسها لا تدري سر الظروف التي قادتها إلى الحمل في الأربعين من عمرها.. حتى أنها ظلت ترتقب في هلع أن تولد ابنتها مصابة بتخلف عقلي أو عيب خلقي مروع.
لكن شيئًا من هذا لم يحدث والحمد لله..

* * *

صوت الباب ينفتح..
صوت خطوات ابنتها تنسل إلى الداخل..
هرعت حافية القدمين إلى مدخل الدار.. وهتفت في ابنتها:
- ألن تتناولي عشاءك؟
تعمدت ألا تلقى تحية المساء أو تعلن عن وجودها كي تحافظ على كونها مرعبة للفتاة..، ورسمت على وجهها تعبير حزم مسرحيًا، فالحقيقة المؤسفة هي أنها لم تستطع قط أن تكون حازمة مع طفلتها..
- تناولته بالخارج..
قالتها الفتاة.. شاحبة.. غريبة الأطوار مبعثرة المنظر قليلًا..، ثم إنها هرعت إلى غرفتها دون إضافة أخرى..
في هذه المرة لم تحتمل مسز (مازورسكي) هذا الذي يحدث كل ليلة تقريبًا.، هرعت إلى غرفة الفتاة بدورها وفتحت الباب بعنف لتجد ابنتها واقفة أمام النافذة تنظر عبرها إلى الليل المظلم بالخارج..
- (لويز)! - صاحت في عنف - ماذا دهاك بالضبط؟
هل أنت واثقة أنك بخير؟
ودون أن تدير الفتاة ظهرها.. همست:
- أرجوك ألا تشغلي بالك بي..
لكن مسز (مازورسكي) كانت في غاية الانشغال بالفعل.. منشغلة منذ زمن سحيق.. منشغلة إلى حد إجراء تحريات واسعة عن ابنتها.. منشغلة إلى حد تفتيش حجرتها ركنًا ركنًا.. منشغلة إلى حد

كشف القميص عن معصمها ليلًا بحثًا عن آثار إبر، فهي لم تكن واثقة من أن ابنتها لا تتعاطى شيئًا ما..

هي قد قرأت مرارًا أن المراهق مدمن المخدرات يحرص على ارتداء ثياب شتوية في الحر ليغطي معصميه بها.. والوقت كان صيفًا.. وبرغم ذلك ترتدى (لويز) قميصًا طويل الكمين..

- إلى أين ذهبت أنت و (هاربيت)؟

- لا شيء.

قالتها الفتاة ومطت شفتيها اشمئزازًا:

- ذهبنا إلى السينما.. وزرنا بعض الصديقات.. كان كل هذا مملًا..

- ومتي تناولت العشاء إذن؟

- ليس عشاء بالمعنى الحرفي.. بعض البطاطس المحمرة و(كولا)..

إذن قد حان الوقت للعب دور الأم الحانية:

- سأعد لك العشاء.. ولسوف تأكلينه..

- ولكن أنا لا...

- (لويز)!.. من فضلك افعلي شيئًا من أجلي.. شيئًا واحدًا..

وإلى المطبخ ذهبت مسز (مازورسكي).. أعدت بعض الكبد مع البصل.. يا ليت زوجها (بول) كان هنا.. إن سلطة الأب لشيء شديد الأهمية لا تشعر به سوى الأمهات.. تمامًا كما أن عناية الأم شيء هام لا يفهمه إلا أب يحاول تغيير (الكافولة) لطفله.. كان (بول) يفهم هذه الأمور.. ومن يدري؟. لربما كانت واهمة في ظنونها.. لربما ابنتها تمر بأزمة نفسية عابرة وهي في سن يشعر جيدًا بالحرمان الاجتماعي..

نعم.. هي بالتأكيد في حاجة إلى رأي طبيب نفسي أو خبير تربوي.. إن هذا الذي يحدث ليس..... آي!..

وفي جزع تأملت الجرح في إصبعها.. لقد مزقته السكين تمزيقًا.. والدم يسيل على رخامة المطبخ..

- مامي!... هل جرحت نفسك؟

هتفت (لويز) في هلع.. ثم إنها تقدمت من أمها وأمسكت إصبعها.. متى دخلت المطبخ؟.. إن الأم لا تذكر شيئًا من هذا..

المهم أنها أمسكت إصبع الأم، وفي رفق وحنان شرعت تمتص الدم من عليه، وهو مشهد ألفته الأم جيدًا ولم تندهش له.. ما أثار دهشتها هو التلذذ الواضح في ملامح (لويز).. هو البريق الغامض في العينين.. كأنها قطة تلعق اللبن في رضا..

ودون كلمة اخرى انتزعت الأم إصبعها.. وإلى الحمام جرت لتأخذ من الصيدلية قطعة من البلاستر..

وفيما هي عائدة إلى المطبخ، كانت (لويز) جالسة أمام طبق الطعام تلتهمه في جوع واضح.. وتقول لها:

- يجب أن تكوني حذرة يا (ليلي).

- اسمي (مامي).. وللمرة الألف أقول لك إنني امرأة من الطراز العتيق.. وفي مراهقتي لم أكن أنادي أمي باسمها..

- هلمّي يا (ليلي).. لا تتشبثي بالألفاظ هكذا..
- اخرسي يا (لويز)!
فخرست الفتاة.. ولما كان الليل قد توغل، صعدت كلا المرأتين إلى غرفتيهما لتناما..
ولم تتبادلا تحية المساء بالطبع..
لكن الأم - في فراشها - لم تستطع أن تهدأ بالًا.. صوت موسيقا (الروك) يتعالى من غرفة طفلتها طاردًا كل احتمال للنوم..
وأخيرًا تسمع صوت الـ (ستريو) يغلق.. وتسمع الـ (كليك) المميزة لانغلاق النور الكهربي في غرفة الفتاة..

* * *

الظلام الدامس.. صوت الساعة الرتيب.. صوت أنفاسها..
ولكنها تتبين صوتًا آخر.. صوتًا لا ينتمي لأوركسترا الليل التي ألفتها واعتادتها.
ما هو أصل هذا الصوت؟.. وما مصدره؟..
نهضت في تؤدة إلى الباب وأصاخت السمع.. فلم يكن ثمة شك فيما سمعته.. إنه لصوت قدمين حافيتين دقيقتين تزحفان فوق الأرض.. لا داعي للمزيد من الإنصات ولتفتح الباب لترى..
بالتأكيد هما قدما ابنتها.. فاللصوص لا يملكون أقدامًا حافية دقيقة على قدر ما تعلم..
فتحت الباب حين كان صوت كالون الباب الخارجي ينغلق.. إذن لقد رحلت الفتاة.. ولكن لأين؟.. وفي هذه الساعة؟..
إلى مدخل الشقة هرعت.. أضاءت الأنوار كلها.. فتحت باب الشقة ووقفت ترمق الظلام الدامس بالخارج.. تستنشق رائحة هواء الليل الصيفي المترعة بزهور البرتقال..
لا أحد على مرمى البصر..
- (لوييييز)!
بأعلى صوتها نادت.. لكن أحدًا لم يكن هناك ليرد عليها سوى نباح كلب من بعيد.. كأنها لمسة أخيرة يضيفها مخرج عبقري على مشهد سينمائي يصف الوحشة..
- (لووييز)!
كالملسوعة أغلقت الباب.. هرعت إلى حجرة ابنتها وفتحتها.. الفراش خاو ومنسق.. أي أن الفتاة لم تنم قط..
على الفراش كان هناك شيء ما..
وإذ تدقق النظر أكثر تعرف ما هو.. منظار ابنتها الذي لا ترى بدونه تقريبًا.. إذن (لويز) خرجت.. خرجت إلى مكان لا تدري أين هو (لا يوجد مكان من أي نوع قرب هذا البيت المنعزل)..
والأدهى أنها خرجت حافية القدمين.. ودون منظار.. فكيف تستطيع أن تتبين أي شيء؟..
شرعت تتأمل الغرفة بدقة أكثر، فكان أن وجدت مجموعة من الكتب.. قربت عينيها من أغلفتها لتقرأ العناوين..
يا لها من مواضيع!.. (عن الأشباح).. (أنا مشيت مع زومبي).. (مصاصي الدماء يحيون)..

وكانت هناك بعض مجلات على غلافها مصاصو دماء ينقضون على أعناق نسوة صارخات..
تبًا لها من ثقافة!.. ما الذي يثير شغف ابنتها في هذه المواضيع الكئيبة الشنيعة؟.. هل لهذا ارتباط معين بتغير شخصيتها الواضح؟..
هل هذه هي الليلة الأولى التي تغادر فيها البيت؟...
كيف لم تستطع أن تسمعها من قبل إن لم تكن هذه أول ليلة؟..
وهنا جاءها الجواب المريع في صورة خاطر غير مكتمل.. ثما صار فكرة واضحة توشك أن تغدو حقيقة:
لأن هذه هي أول ليلة تمتنع فيها عن عادتها في احتساء الحليب قبل النوم!..
نعم لا شك في هذا.. هي تجرع كوبًا من الحليب كل ليلة، ولم تفعل ذلك اليوم فقط بسبب تعكر مزاجها..
فهل لهذا السبب وحده لم تنم؟.. هل لهذا السبب سمعت قدمي طفلتها وهي تتسلل خارجة؟.. وهذا يعني أن هناك من يدس لها منومًا في الحليب.. ولا يوجد مشتبهون كثيرون للأسف..
كان التفكير يقتلها حتى أنها - عمدًا - ذهبت للمطبخ، وصبت لنفسها كوبًا من السائل الأبيض الدسم..
سأرى - قالت لنفسها - ما إذا كان هذا اللبن منومًا، فإن كان كذلك استرحت من الانتظار المتوتر.. وإن لم يكن كذلك استرحت من الشكوك.. و.. آووووه! إن.. النعاس..... يغا.....
لقد كان اللبن كذلك!

* * *

- هالو.. (ماري) هذا أنا أم (لويز).. هلا أتيت إلي بعض الوقت؟.
- أكيد يا سيدتي.. هل حدث شيء ما؟
- لم يحدث بعد.. لكني أعرف أنه سيحدث..
ووضعت سماعة الهاتف بانتظار (ماري) صديقة عمر (لويز).. إن (ماري) لفتاة متزنة عاقلة، لكنها - حين جاءت - لم يكن لديها الكثير كي تقدمه للأم.. فقد نأت (لويز) بجانبها عنها، ولم تعد تزورها أو تكلمها هاتفيًا.. إن الصداقة لا تشترى ولا تطلب ولقد أحست الفتاة بأنه لم يعد لها مكان في حياة صديقتها.. فابتعدت في كياسة وصمت..
- وماذا عن هذه الـ (هاربيت)؟
حدقت الفتاة في أظفار يديها.. وغمغمت:
- حمقاء هي.. غير متزنة.. لكن لها مغناطيسية خاصة.. وكل من يتعامل معها يمر بهذا الطور المريب.. لقد حاولت أن تضمني إلى سلسلة مفاتيحها لكني أبيت.
ثم اقشعر جلدها.. وهمست بصوت كالفحيح:
- الحق أنها فتاة مرعبة!
- ولماذا هي مرعبة؟
- لا أدري.. عاداتها.. شاحبة الوجه جدًا.. تحب الليل والظلام.. أنا لم أرها في ضوء النهار قط..

قالت الأم وقد تذكرت الكتب التي وجدتها في غرفة ابنتها:

- وهل لديك فكرة عما يفعلن حتى ساعة متأخرة من الليل؟.. هل لديك تفسير لخروج (لويز) وحيدة بعد منتصف الليل؟

- لا أدري يا مسز (مازورسكي).. ربما هي مصابة بداء المشي في أثناء النوم.

- لم تشك منه طيلة عمرها..

- ألم تسأليها عن سبب خروجها؟

- بلي.. سألتها في الصباح حين أفقت من إغماءتي..

وتذكرت مسز (مازورسكي) ما حدث..

في ساعة متأخرة من الصباح صعدت لغرفة الفتاة.. وجدتها نائمة في الفراش منهكة تمامًا.. قدماها العاريتان متسختان بالوحل الجاف الذي سارت فوقه ليلًا.. لهذا تتسخ ملاءاتها سريعًا.. تحت عينيها هالتان سوداوان قبيحتا المنظر.. وكالعادة أغلقت كمي قميص نومها وعنق ثوبها بإحكام شديد كأنها تدارى شيئًا ما.

مدت الأم يدها وفتحت الزر الذي كان يغلق كم القميص ورفعته لأعلى لتتأمل الساعد الناحل.. لم تكن هناك آثار إبر.. ولكن كان هناك ثقبان دقيقان متباعدان في لحم الذراع كأنما نجما عن نابين حادين..

نابين حادين؟!...

وبدأ جلد ذراعي الأم يتصلب..

لماذا لم تعد (لويز) ترتدى الأيقونة حول عنقها؟.. لماذا انتزعت ستائر الغرفة البيضاء وجعلت أمها تضع بدلًا منها ستائر زرقاء سميكة؟..

لماذا لم تعد تستحم؟..

* * *



صعدت لغرفة الفتاة ..

وجدتها نائمة فى الفراش منهكة تمامًا ..

كان البروفسير (هندريكس) موحيًا بالثقة إلى حد كبير، إذ جلس واضعًا ساقًا على ساق يصغي لكلام الأم، ويرمقها بعينين زرقاوين لا تطرفان.. كان طبيبًا نفسيًا لكنه مولع - كذلك - بعالم الخوارق.. ويقبل قصص الأشباح دون تشنج كبير..

سألها إذ فرغت من قصتها:

- هل كفت (لويز) عن الاستحمام؟

- نعم..

- هل تنام أكثر النهار وتسهر الليل كله.

- نعم..

- وهل رفضت أن تأتي معك إلي؟

- نعم..

نقل ساقًا على ساق.. وغمغم:

- لو أننا أخذنا رأي الطب النفسي في هذا لكان لدينا احتمالان..

وفتح إصبعيه السبابة والوسط ليعد عليهما:

الاحتمال الأول: هو تفاعل هستيري لضغوط تحيط بابنتك..

الاحتمال الثاني: هو أن ابنتك قد أدمنت عقارًا ما.. وعندئذ كنت ستلاحظين العلامات المعتادة: أكمام طويلة - آثار إبر في الذراع - زكام حتى في الصيف - حكاك مستمر بفعل (بق الكوكايين) كما يسمونه - أشياء ثمينة تختفي من الدار - فقدان شهية..

ـ بعض هذه الأعراض موجود.. لكن أكثرها لم يظهر عليها..

- يبقى لدينا الاحتمال غير العلمي.. وهو أن ابنتك قد أصيبت بمس شيطاني.. إنها في سن المراهقة ومن الوارد تمامًا أن تمس في هذه السن..

كانت الأم قد قرأت قصة (طارد الأرواح الشريرة) لـ (بيتر بلاتي) وكادت تموت هلعًا.. لكنها تعلمت الكثير عن هذا الموضوع من الرواية.. وهي كانت ميالة لتصديقه.. ربما عن رغبة خفية في أن تشعر أنها لم تذنب كأم.. لو أن ابنتها أصيبت بالهستيريا أو الإدمان لكان الذنب على رأسها.. أما الأرواح الشريرة فهي تأتي وتذهب دون قانون خاص، ولا ذنب لأحد فيها..

نصحها البروفسير أن تأخذ رأي أحد المختصين في الموضوع.. ورشح لها عالمًا مجريًا سيأتي إلى الولايات المتحدة بعد شهر، وعرض عليها أن يقدم لها دعوة إلى الحفل الذي سيحضره هذا العالم لتكريمه..

كان إسم هذا العالم هو..... (فرانتز لوسيفر).

* * *

وهنا كف د. (لوسيفر) عن الكلام المباح، وابتسم ابتسامة مشرقة (إذا كان لي أن أقول هذا) وقال لمسز (مازورسكي):

- هذه هي حكايتك يا مسز (مازورسكي).. وكلها مرسومة أمامي على أوراق (التاروت).. فهل نسيت شيئًا؟!

ازرق وجه المرأة (أعني أنه احمرّ لكن في الضوء الأخضر يصير الأحمر أقرب إلى اللون الأزرق).. وبلعت ريقها..

- أنت تعرف كل شيء عن القصة.. ولكن كيف عرفت هذا من الأوراق؟

- هذا سرى الخاص.. وأنتم لهذا تسألون وأنا أجيب..

قلت له عاجزًا عن البقاء صامتًا:

- أعني أنه كان يجب أن تكون هناك ورقة عليها كوب لبن.. وورقة عليها فتاة نحيلة ترتدى منظارًا.. وورقة عليها سكين مطبخ..، وإلا فكيف تحكي كل هذه القصة؟

- لو كان (التاروت) بهذه البساطة لصار لعبة أطفال، ولما كانت هناك درجات (دكتوراه) فيه..

قالها بإباء وشمم.. وأدركت أن الرجل يكرهني بعنف، وأنني صرت عدوه العتيد... سنرى بعد قليل ما سيقول عن (تاروتي) أنا..

في استسلام تساءلت مسز (مازورسكي):

- لقد جئتك مع (ماري) العزيزة لنعرف منك ما ينتظرنا والحل لهذه المشكلة..

- لقد تأخرت كثيرًا يا مسز (مازورسكي)..

- تأخرت عن ماذا؟

- دعيني أحك لك ما سيحدث..

* * *

قال د. (لوسيفر):

- في ذلك اليوم ستعودين يا مسز (مازورسكي) إلى الدار عازمة على اتخاذ إجراء صارم..

ستكونين قد اتخذت قرارًا بألا تنامي الليل أبدًا، ومنذ أيام تكفين عن احتساء اللبن ليلًا لأنك لا تريدين أن تفوتك لحظة خروج ابنتك..، وبالفعل لم يحدث قط أن الفتاة خرجت منذ صرت متنبهة لما عساه يحدث..

إجراء حكيم.. والإجراء الأكثر حكمة هو انتزاع سلك الهاتف من القابس، وتخبئة هذا الجهاز المقيت في خزانة ثيابك..

إلا أنك في هذا اليوم ستتخذين قرارًا أكثر تطرفًا...

ستغلقين الباب على الفتاة تمامًا.. ستختارين لها السجن الانفرادي حتى تشفى مما هي فيه..

وهكذا تتأكدين من أن بالمنزل ما يكفي من الطعام، ثم توصدين الباب الرئيسي وتضعين المفتاح في مزهرية عملاقة بالردهة..

- إن (لويز) تخرج عدة مرات في النهار.. وتخرج مرة واحدة في الليل لتعود في ساعة متأخرة.. هذا - بالطبع - إذا ما تناسينا خروجها الذي كان يحدث بعد نومك.

هذه المرة لن يخرج أحد.. لا أنت ولا هي..

ولئن كان ما تعانيه إدمانًا للمخدرات فلسوف يشفيها السجن منه..

ولئن كان مسًا شيطانيًا فها هي ذي معك تراقبينها طيلة الوقت، وحتمًا ستعرفين الحقيقة..

أحيانًا كان جرس الباب يدق لكنك كنت تتجاهلينه، لأنك أخبرت معارفك وبائع الحليب والصحف أنك سافرت مع (لويز) لزيارة أخيها في (أوهايو).. فلن يفتقدك أحد حتمًا..

إن كل هذا جميل..
لكن الحكمة كانت تقضي بأن تستدعى أحد أخويها ليكون معك، ولعمري هذا هو الخلل الأساسي في الأسرة الأمريكية: تفككها..، لقد صار ابناك بعيدين عنك جدًا، وفيما عدا مكالمة هاتفية كل شهر.. لم يكن الأمر ليختلف عنه لو كانا قد توفيا منذ زمن..
ستمضين الساعات يا سيدتي تشاهدين التليفزيون..
ستعدين لها الطعام وتصعدين لغرفتها تتوسلين لها كي تأكل شيئًا.. لكنها ستظل صامتة راقدة في الفراش تنظر إلى السقف بعينين زائغتين..
أحيانًا ستنجحين في دس قطعة لحم أو بيضة مقشورة بين شفتيها الجافتين.. وهذا على الأقل سيبقيها حية..
لكن لنقل إنك لن تشعري براحة أبدًا من كل هذا.. فأنت تتوقعين غضبًا عارمًا.. هياجًا.. محاولات انتحار تمنعينها في آخر لحظة.. أما كل هذا السكون والصمت فأمر لا يطاق..

* * *

وفي يوم غير عادي ستصعدين إلى حجرتها..
وبالمصادفة لن تكون هناك، وهو حدث غير عادي في الفترة الأخيرة، وفرصة ذهبية لك كي تعيدي التفتيش..
ذات الكتب الرهيبة.. ذات شرائط (الروك آند رول) جوار جهاز التسجيل ذي البكرتين.. وبقايا طعام..
فتحت درج مكتبها باحثة عن كتابات خاصة بها، فلم تجدي شيئًا معينًا سوى الأيقونة التي كانت لا تفارقها.. ومنظارها..
وهنا سترين ظلًا يتحرك على الحائط فتديرين وجهك لتري ما عساه يكون هناك..
عندئذ ستجدين (لويز) واقفة على الباب تبتسم ابتسامة شيطانية وتسمعينها تقول لك:
- هل وجدت ما تبحثين عنه يا أماه؟
وإذ ترين وجهها ستفهمين الحقيقة..
لقد كنت حمقاء تمامًا..
ألم تربطي قط ما بين تغيير طباعها.. وتلذذها بلعق الدماء التي سالت من إصبعك.. نومها طيلة النهار وسهرها ليلًا.. وخروجها تحت أستار الظلام إلى القفار.. و(هاربيت) التي تخيف صديقاتها..
ثم الأكمام الطويلة دائمًا.. كانت تخفي بها أثر الأنياب في معصمها.. فلماذا؟
الواقع يا سيدتي أن هذه هي طباع مصاصي الدماء. لقد كان الجواب قريبًا منك لكنك لم تفهمي قط..
والآن - وأنت تتراجعين بظهرك للوراء وهي تتقدم منك - تعرفين أنك كنت حمقاء حين لم تدركي ذلك..
حمقاء حين حبست نفسك في بيت واحد مع هذا المسخ الذي يتضور جوعًا..
حمقاء حين لم تصدقي كلماتي هذه..
لكن الأوان قد فات يا سيدتي..

فات للأسف..

* * *

حين انتهى (لوسيفر) من سرد حكايته ساد الصمت بعض الوقت، إلا من صوت الأنفاس الثقيلة وحفيف أوراق (التاروت) بين أنامله وهو يعيد خلطها..

بعد قليل تساءلت مسز (مازورسكي) بصوت مبحوح:

- ومتى يحدث هذا؟

- لا أدري.. ربما الليلة بعد عودتك من هنا..

- وكيف أمنعه؟

- تلك مشكلتك أنت.. إنما أطلعتك على ما سيكون ولك أن تصدقي أو لا تصدقي..

همست المرأة كأنما تحدث نفسها:

- من العسير علي أن أصدق.. لقد تركتها في الدار الآن و.. ولكن.. بالفعل أعترف بأن تفسيرًا كهذا خطر على بالي مرارًا.. إن (لويز) تخيفني.. طفلتي البريئة التي أرضعتها من صدري تخيفني!

وتهانفت.. فربتت الفتاة على كتفها.. أردت أن أقول لها إن كل هذا لن يحدث لأن (لوسيفر) هذا نصاب بالتأكيد.. لكنني وجدت أن الأصوب هو أن أنتظر ريثما تنتهي هذه الجلسة المشئومة..

- من التالي؟

دوى صوت البر ناظرًا إلينا.. فرفع الرجل الأسمر كئيب الوجه يده طالبًا أن يكون هو المختار..

ناوله د. (لوسيفر) الأوراق وترك له أن يخلطها..

أخذها منه وشرع يقلبها على المائدة المسدسة أمامه..

ثم بدأ يتكلم..

* * *

الحكاية الثانية

(اللعبة)

بطولة: جون ميلز

(لنقل إن الصفقة التي أعرضها عليك لهامة جدًا.. إنها تساوى حياتك ذاتها.. والثمن الذي أعرضه عليك قريب من هذا).



الاسم : جون ميلز
السن : ٤٤ عامًا .
المهنة : مدير شركة .
الحالة الاجتماعية : متزوج ولم ينجب .
الإقامة : نيويورك.
الهوايات : للأسف مستر (جون) لا يهوى سوى القمار، وقد أضاع مبالـــغ طائلة من المال في (لاس فيجاس). إن هذا قد أضر كثيرًا بوضعه الاجتماعي والمالي وكاد يودي بزواجـــه إلى النهاية مرارًا لو لـــم تكن زوجته تحبه . إن القمار لهو مرض اجتماعي شبيه بالإدمان وكلاهما يحتاج إلى علاج نفسي صارم .. وللأسف لم يطلب (ميلز) علاجًا كهذا .

الحالـــة الصحية : كما لنا أن نتوقع من ملامح وجهه ، مســـتر (ميلز) مريض بداء عضال في كليتيه .. وهو منذ زمن يعيش مهددًا بإنهاء إقامتـــه في عالمنا هذا .. ولعل هذا يعزيه نوعًا عن كونه لم يأت بأطفال إلى هذا العالم .

كانت الورقة الأولى هي بالفعل أول ورقة في (التاروت).. وتمثل (الجوكر) - المهرج - بثيابه المزركشة، يمسك بيده اليمنى عصاه، واليد اليسرى ارتفع إصبعها السبابة إلى السماء.. بينما يطأ بقدمه كلبًا شرسًا..، ولم يزل العلماء حائرين بصدد هذه الورقة.. لماذا يرفع إصبعه السبابة إلى السماء؟.. هل هي آثار عقيدة التوحيد في الثقافة الإنسانية؟.. وهل هو يطأ الكلب رمزًا إلى مصارعة الشهوات؟..

بعد هذا جاءت ورقة الشيطان.. وأمامه سيدة مذعورة تداري وجهها عنه، ثم ورقة النجم.. التي تظهر امرأة تسكب الماء في البحر من وعاء فخاري،

بعد هذا جاءت ورقة المحاكمة.. ثم ورقة الكاهنة العظمي...

كف د. (لوسيفر) عن تقليب الأوراق ورفع عينيه نحو مستر (ميلز).. وقال له.

- لك أحكي ما أرى.. ما كان وما سيكون.. ولكن عساك لا تهاب الموت.. لأن الردى ينسال من أوراقك..

وهنا سمعنا ذلك الصوت المألوف يتساءل في حرج:

- معذرة.. هل توجد هنا دورة مياه؟.. إنها (البروستاتا) كما تعلمون!

هتف (كلارتون) بصوته المعدني:

- اجلس يا (كولبي) ولا تكن مهرجًا.. إن أحدًا لن يغادر الصومعة حتى ينتهي د. (لوسيفر) من ممارسته.

- سأموت!

- اجلس يا (كولبي)!

وهكذا شرع د. (لوسيفر) يحكي ما يراه..

* * *

كان مستر (ميلز) يعرف جيدًا نهايته المحتومة..

يعرفها منذ تأمل الطبيب صورة الأشعة، وأنزل المنظار على أنفه ليتمكن من أن يحدج مريضه بعينيه الشبيهتين بسحابتين ممطرتين..

قال له كعادة الأطباء الأمريكيين في صدم مرضاهم:

- إن كليتيك معطلتان يا مستر (ميلز). وهو عيب خلقي قديم فيهما يجعلهما مليئتين بالحويصلات، عديمتي النفع.

- لكني لم أشك منهما قط..

- الكلية عديدة الحويصلات قد لا تعلن عن وجودها قبل سن الأربعين..

ثم وضع الأشعة جانبًا وأردف:

- ثمة حلول مؤقتة كما تعلم كالغسيل الكلوي ومحاولة زرع كلية.. لكن حتى نجد واحدة يمكننا القول إن حياتك مهددة بالخطر تمامًا..

ثم أشار نحو الباب في كياسة:

- والآن أرجو أن تسمح لي بفحص المريض التالي.

* * *

وهكذا - وبهذه القسوة - عرف (ميلز) أن إحدى قدميه في عالمنا هذا والأخرى في عالم يخشاه بقوة كما خشية (هاملت) من قبل، برغم اشتياق هذا الأخير إلى سبات طويل..

سحقًا للطبيب!.. قال له هذه الكلمات وذهب ليلعب الجولف.. أو قالها وذهب ليتناول الغداء.. أو قالها وذهب ليلقى حبيبته..، لم يدرك قط أنه - ببضع حروف - زلزل حياة إنسان.. خلخلها من جذورها فلم تعد ثمة قيمة لشيء..

الآن فقط يتذكر كفاحه للوصول إلى منصب مدير الشركة.. يتذكر محاولاته للإلقاء بشراكه حول (جين) حتى تحبه.. فتقبل في ليلة صيف باسمة أن تكون زوجته..

كل هذا كان هراء.. كل هذا من أجل لا شيء..

* * *

ولم يصارحها قط بما عرفه..

إن تلك العزيزة الرؤوم لا تستحق أن تتألم ألمًا لا جدوى منه..

فقط هي لاحظت جهامته وجنوحه للصمت. وفسرت الأمر على أنه مشكلة ما في العمل.

أما هو فكانت حساباته محكمة..

إنه مواظب على دفع قسط بوليصة التأمين على حياته. وهؤلاء الحمقى لم يعرفوا قط أنه مصاب بـ.. ماذا كان اسمه؟.. نعم.. تحوصل الكليتين الخلقي..، ولو أنه قضى النحب بعد قليل سيكون لدى (جين) العزيزة مبلغ محترم من المال..

المشكلة هي أنه يريد لها ما هو أكثر..

* * *

في ذلك الوقت اندمج أكثر في القمار، وصار أكثر ترددًا على حلبات سباق الخيل، وهو سلوك جد غريب من رجل يفترض فيه أن يكون أكثر تجردًا وزهدًا في الموبقات..

لكن ذلك - كما قلنا - كان داء عضالًا فيه، يحتاج إلى رأي الطب النفسي..

هناك بوجهه الشاحب الكئيب كان يجلس يتأمل عجلة الروليت أو أوراق اللعب أو تلاحق حوافر الخيل.. ويمسح قطرات العرق الباردة المتلاحقة فوق جبينه.. ويخسر.. دائمًا يخسر..

لكنه - ككل المقامرين - كان يأمل في أن تكون المرة القادمة أوفر حظًا.. المشكلة هي أن هذه المرة القادمة لا تجيء أبدًا...

وكان هذا هو الوقت المناسب ليظهر (جيروم) في حياته...

* * *

إن (جيروم كلايد) لإنسان مقيت حقًا..

هو كسول.. مهمل.. شديد الذاتية والإحساس بالاضطهاد مما يجعله مرءوسًا سيئًا لكل إنسان حتى ولو كان هذا الإنسان هو (ميلز)...

إن الموظف الذي يتكلم طيلة الوقت عن حقه المهضوم لهو موظف يثير الغثيان.. خاصة إذا ما كان لا يفعل شيئًا تقريبًا..

إن (ميلز) يتمنى دومًا أن يطرده لكنه حقًا لا يدري لماذا لا يفعل ذلك.. ربما لأن (كلايد) لم يكن يظهر لعينيه إلا لحظة يكون (ميلز) رائق المزاج أو منهمكًا إلى حد أن ينسى طرده..

وكان (كلايد) يمارس لا شيء تقريبًا في المكتب.. لا أحد يدري ما يقوم به ولا أحد يهتم...

كالثعلب العجوز يجلس أمام الآلة الكاتبة يطبع أشياء لا يعرف أحد كنهها.. يكتب خطابات لم تطلب منه.. ويسطر جداول لم يردها أحد.. ثم يذهب للغداء أو تناول القهوة، ويعود ليسب ويلعن الحمقى الذين لا يدركون مدى كفاءته..

الخلاصة أنه مخلوق مقيت، ولم تكن البشرية لتفقد بوفاته أكثر مما تفقده إذا توفى خنزير بري في (إندونيسيا)..

وفي ذلك اليوم كان (ميلز) في حلبة السباق يراقب الخيول ذوات الأسماء الموحية مثل (لاري السريع).. (مثلث برمودا).. (كابوتشينو) تهرع في الحلبة وصياح الناس يصم الآذان..

وكان هو يضع منظاره المعظم على أنفه والجريدة تحت إبطه مراقبًا ما يحدث..

لقد راهن على جواد يدعى (سومبريرو).. وهذا الجواد متفوق يتمتع بكل خواص النجاح فيما عدا عيبًا واحدًا: هو أن (ميلز) قد راهن عليه.. وبالتالي صارت خسارته مؤكدة...!

وبالفعل أصيب الجواد بالبله والعته والشلل الرعاش في ثوان.. وصار هو الأخير في المضمار..

أنزل (ميلز) منظاره وتثاءب ونظر إلى الساعة.. هل عساه يراهن على جواد خاسر آخر.. أم يعود إلى البيت؟..

وهنا شعر بيد ثلجية تلمس ذراعه..

- نهارك سعيد يا مستر (ميلز)!

كان هذا هو (كلايد) الذي بدا له منفرًا أكثر من أي وقت مضى.. كان قصير القامة منحنيًا للأمام كالقرد.. ورأسه الأصلع يلتمع في ضوء الشمس بمادة زيتية كريهة.. وكانت أسنانه النخرة تفضح أعواما طوالا قضاها في التدخين واحتساء القهوة..

- لم أعرف أنك هنا..

قال (ميلز) في تحفظ:

- أحيانًا أجد نفسي راغبًا في قتل الملل..

- أنا كذلك.. لقد راهنت على (سومبريرو) مثلي.. وكالعادة خسر.. مرحبًا بك في نادي الخاسرين يا سيدي!

هز (ميلز) كتفيه عازمًا على الرحيل دون تعليق، لكن الرجل أوقفه بجذب كمه.. يالها من وقاحة!.. ماذا يريد هذا المخبول؟

- أريد أن نجلس معًا ونتحدث.. هل تمانع؟

- لا أرى ما...

- أرجوك يا سيدي.. لسوف أقدم لك عرضًا لا يرفض..

- إذا كان الأمر كذلك.. لربما كانت (الكافتريا) مناسبة..

* * *

- إن كلانا مقامر بالفطرة يا مستر (ميلز)..

كانت هذه هي العبارة الافتتاحية التي بدأ بها (كلايد) حديثه، وكان هذا شبيهًا بأن تبدأ القصيدة بكفر صريح.. فهب (ميلز) محنقًا يوشك على الرحيل.. لولا أن دعاه (كلايد) إلى الجلوس فالهدوء لأن ما سيقوله سيثير اهتمامه حتمًا..

- إذن تكلم..

صب الرجل الكريه لنفسه بعض القهوة وقال:

- من المفهوم لي يا سيدي أنك رجل مريض تمامًا.

- من قال هذا الهراء؟...

- إنني أعمل في شركتك.. وأدخل مكتبك أحيانًا، ولا يعدم الأمر أن أجد تقريرًا طبيًا أو نتيجة تحليل من حين لآخر..

صعد الدم إلى رأس (ميلز):

- أنت تتجسس علي إذن يا (كلايد)!

رشف (كلايد) قهوته في استمتاع.. كان من الذين يجدون أروع اللذات في أن يكرههم الأخرون.. قال:

- لا يهم المصطلح الذي تستعمله... سمه تجسسًا.. سمه اطلاعًا على بواطن الأمور، لكن النتيجة واحدة..

تنهد المدير التعس في استسلام.. سيصغي لهذا الوغد بعض الوقت ثم ينهض غاضبًا ويطرده من الشركة أول شيء غدًا:

- حسن.. قل عرضك اللعين.

قال (كلايد) وهو يضع بعض (مبيض القهوة) على قدحه:

- لنقل إذن إنني أملك ما تريده أنت.. أنت بحاجة إلى كلية وأنا أملكها..

- لحظة أيها المعتوه.. إن توافق الأنسجة..

- هذا هو أجمل ما في الموضوع.. لقد هيأت المصادفة أن أكون أنا من نفس فصيلة الدم وذات نوعية الأنسجة، لقد قرأت نوعيتها على التقرير الطبي الخاص بك.. وإنه لنوع نادر حقًا.. لكني أعرف أنني أملك نفس الشيء.

- وهل من المعتاد أن يعرف كل إنسان نوعية أنسجته؟

- طبعًا.. فأنا أجريت فحص الأنسجة كي أتبرع بكليتي من أجل المرحومة زوجتي.. لكنها ماتت قبل أن.... إهئ!

وسالت دمعتان من عيني الوغد مسحهما، وأخرج منديلا كبيرًا قذرًا تمخط فيه.. ثم عاد يرشف القهوة..

تساءل (ميلز) في غل:

- أنت تعرض علي مالم أطلبه..

- بالعكس.. إنني أمنحك فرصة الحياة والاحتفاظ بكل ما قد حققته.. إن هذا يعني المزيد من الأفراح.. المزيد من الرحلات إلى (هاواي).. المزيد من المال.. المزيد من المضايقات لموظفيك..

ثم نظر - بعيني الثعلب - إلى عيني (ميلز):

- لن تجد كلية مماثلة بسهولة..

ولم يكن (ميلز) بحاجة لسماع هذا.. فهو يعرف جيدًا أنه لا توجد كلية متوافقة نسيجيًا معه حتى الآن.. لقد طال انتظاره كثيرًا دون جدوى.. حتى ظن أنهم - في مركز رعاية الكلى - قد نسوا رقم هاتفه..، وجلسات غسيل الكلى - أو ترويق الدم - لم تعد محتملة أكثر من هذا..

لهذا انتقل للخطوة التالية:

- كم تريد مقابل كليتك اللعينة هذه؟

ابتسم (كلايد) ابتسامة الأب الذي يسمع لغو طفله:

- إن (كلايد) يا سيدي لا يبيع كليته بمال العالم.. إنه يبيعها لأنه يريد ذلك.. وبمقابل مختلف عما تظنه..

- إذن ماذا تريد بالضبط؟

أخرج الرجل ورقة وخط عليها بقلمه بضع كلمات، ثم ناولها إلى المدير.. ودون كلمة أخرى أخرج ورقة مالية دسها تحت فنجان القهوة.. ثم نهض مسرعًا لينصرف..

وقبل أن يرحل هتف:

- تعال إلى هذا العنوان في تمام الثامنة مساء إذا ما كان الموضوع يعنيك حقًا.

* * *

الثامنة مساء إلا الثلث..

و (ميلز) في غرفة النوم بداره يربط رباط عنقه أمام المرآة.. ثم يذهب إلى الخزانة فيتناول مسدسه.. يدس فيه بضع طلقات ثم يضعه في جيب السترة من الداخل..

ثم يخرج إلى الردهة فيلثم زوجته طالبًا منها أن تتمنى له حظًا هو أحوج ما يكون له..

- إلى أين أنت ذاهب بالضبط؟

- ذاهب لزيارة.... صديق حميم..

ثم يتركها ويستقل سيارته (البويك) السوداء ينهب بها الطرقات إلى العنوان الذي خطه له (كلايد) على الوريقة..

لماذا شعر بالقلق؟.. لماذا أخذ المسدس معه؟.. لا يدري حقًا.. لكنه شعر بالتوجس من هذه الصفقة التي لا يستعمل فيها المال.. حين ينتهي الحديث عن المال في المعاملات التجارية يبدأ الحديث عن الدم أو الشرف أو أي شيء آخر.. وهذا النوع من المعاملات يحتاج إلى أن يكون المرء مسلحًا.. قلقًا..

حي قذر من أحياء (نيويورك) هو.. حيث يقف تجار المخدرات في الظلام ينتظرون (مرضاهم) ليزيدوهم رهقًا..، وفتيات الليل يرحن هنا وهناك..

على حين يقف الزنوج جماعات يقطعون الطريق على المارة ملوحين بمداهم...

وفجأة تمر سيارة الدورية بأضوائها الملونة التي تمسح أرجاء الشارع، فيختفى كل هؤلاء كأنما هي عصا ساحر..

هو ذا العنوان المذكور.. منزل حقير عتيق مدخله في زقاق خلفي مليء بأوعية القمامة التي تتشاجر فوقها القطط السوداء المشعثة.. وثمة رجل سكير يمسك بزجاجة صغيرة من الكحول يرقد على الأرض في شبه غيبوبة..

للحظة شعر (ميلز) أنه في فيلم سينمائي يمثل الحياة السرية لمدينة (نيويورك).. وفي توجس أغلق سيارته وصعد الدرج المهدم قاصدًا شقة موظفه (كلايد).

* * *

- مرحبًا بك يا مستر (ميلز)..

قالها الرجل وهو يفتح له الباب...، ثم قاده عبر صالة عطنة الرائحة إلى مائدة خشبية عتيقة جوار النافذة..

- أرجو أن تجعل نفسك مستريحًا..

وبالفعل استراح (ميلز) على مقعد من الخشب الجاف.. وجذب (كلايد) مقعدًا آخر ليجلس على الطرف الآخر من المائدة وأراح كوعيه عليها ورفع ساعديه عاقدًا أنامله تحت ذقنه غير الحليق، أو الحليق بموسى عمرها قرنان..

وفوق رأسيهما كان هناك مصباح كهربي يتدلى من سلك طويل إلى ارتفاع شديد الانخفاض مما ألقي ظلالًا غير محببة على الإطلاق على وجهيهما..

بعد دقائق من الصمت بدت - كما يقول الكتاب دائمًا - كأنها دهور.. قال (ميلز) في نفاد صبر ممزوج بالرعب:

- هلم.. قل عرضك..

تعود الابتسامة اللزجة إلى وجه (كلايد) ويقول:

- لنقل أن الصفقة التي أعرضها عليك هامة جدًا.. إنها تساوى حياتك ذاتها.. والثمن الذي أعرضه عليك قريب من هذا..

- تعني حياتك أنت؟

- إن كلينا مقامر يا مستر (ميلز) يعاني من إدمان هذا الداء العضال.. الرغبة المجنونة فيما هو أكثر.. العجز عن التوقف في اللحظة المناسبة.. والحاجة إلى الشعور بالخطر.. أليس كذلك؟

- لا أفهم ما ترمي إليه..



وأخرج شيئًا رماه على المائدة .. كان مسدسًا قبيح المنظر ..

مد الرجل يده إلى جيبه وأخرج شيئًا رماه علي المائدة.. كان مسدسًا قبيح المنظر من النوع ذي الساقية الدوارة..

- ما هذا يا مستر (ميلز)؟

ـ مسدس.....

- هل تعرف (الروليت الروسي)؟.. المسدس الذي لا يحوي في خزانته سوى طلقة واحدة ويتبادل المتبارزان تصويب المسدس إلى رأسيهما وضغط الزناد، حتى تأتي الطلقة من نصيب أحدهما؟.. أنا أعرض عليك الآن نوعًا من هذا (الروليت الروسي)..

هب (ميلز) غاضبًا.. وقد تصاعد الدم إلى رأسه:

- إذن المسألة هكذا.. أنت قد جننت تمامًا وتتوقع مني أن أشاركك هذا العبث.. اسمح لي أن أقول لك..

رفع الرجل عينية الشبيهتين بعين القط نحو (ميلز)، وغمغم بصوت لا انفعال فيه:

- هلا تركتني أواصل كلامي يا مستر (ميلز)؟.. أنا لن أشترك في هذه اللعبة.. أنت من سيمارسها أمامي لتسليني.. فلئن نجوت من أربع طلقات متتابعة فزت بكليتي التي سأكتب لك إقرارًا بتبرعي بها قبل البدء.. ولكن إذا هلكت فإنني سأرتب الأمر ليبدو كأن هناك من قتلك في هذه الأحياء الإجرامية.. وهكذا تنال زوجتك بوليصة تأمينها كاملة..!

ببطء جلس (ميلز) لاهثًا متسع العينين.. خيط من العرق البارد ينساب على جبينه..ويفعم لسانه بمذاق الملح...

خرجت الألفاظ متهدمة متخاذلة:

- أنت.. مجنون.. تمامًا..

- ربما..

- وماذا تستفيده أنت؟

- أستفيد لذة التوتر والإثارة - واتسعت عيناه - وأستفيد تعذيبك، وأنت تعرف أنني لم أحبك قط يا مستر (ميلز) كما أنك لم تمل لي لحظة..

- وما هو الضمان أنك تبر بوعدك لو أنك خسرت؟

- أنا لم أمتنع يومًا عن دفع خسائري.. وعلى كل حال سأكتب لك كمبيالة بأي مبلغ تريد.. أستردها بعد إجراء زرع الكلية.. كما سأعطيك إقرارًا موقعًا مني بالتبرع..

- وكيف أعرف أن كليتك تصلح حقًا؟

مد (كلايد) يده إلى جيبه فأخرج حزمة من الأوراق البالية فناولها إلى رئيسه.. وقال:

- خذ وقتك في دراسة هذه التحاليل.. إنها تثبت دون شك أن كلامي صائب.. إن عليها توقيع أطباء محترمين لاشك في كلامهم.. دعك من أن حالة الأوراق الرثة تدل على أنها معي من زمن ولم أقم بتزويرها خصيصًا لك.

مد (ميلز) يدًا مرتجفة نحو الأوراق.. ثم أحجم.. من الجنون أن يساير هذا المخبول.. من الخطب أن..!.. ثم عاد يفكر.. من يدري؟

لربما كان هذا هو الصواب بعينه.. الحقيقة أن غريزة أخرى تحركت في دمه: غريزة المقامرة.. التي لم يعبر عنها أديب قط مثلما عبر عنها العبقري الروسي.(دستويفسكي) في روايته (المقامر)..

كان العرض مغريًا لكنه لم يستطع قبوله..
- يمكنك أن تبدأ الآن يا مستر (ميلز).. أو خذ وقتك في التدبر وعد إلي أي يوم تريد في هذه الساعة..
نظر (ميلز) إلى الرجل بعينين زائغتين ولم يقل شيئًا..

* * *

مستحيل أن أقبل.. من أدراني أن هذه ليست ألعوبة قذرة من رجل يرغب في إذلالي أو الخلاص مني؟
لكن الحل سيكون عادلًا.. حل المشكلة سيوضع في كف الحظ.. ولسوف يلقي الحظ النرد.. وسأكون الرابح في الحالتين.. إما حياة صحية بلا متاعب.. وإما موت سريع يريحني ويمنح امرأتي الثراء..
وحين عرض التقارير الطبية على طبيبه ذي العينين الغماميتين كان يتمنى أن يخبره الرجل أن الكلية لا تصلح.. ولكن...
- مرحي!.. كيف وجدت هذا المتطوع؟.. إن كليته تناسبك كأفضل ما يكون.. وإنك لمحظوظ يا صديقي إذ وجدت الواحد في المليون الذي تناسبك كليته والذي يقبل منحك إياها!
كم ستدفع لهذا الرجل الكريم؟
نظر (ميلز) إلى الطبيب مبلبل الفكر.. ثم غمغم:
- لا شيء.. سألعب معه لعبة صغيرة!!

* * *

قال د. (لوسيفر) وهو يتأمل أوراق (التاروت) المبعثرة أمامه:
- وهكذا يا مستر (ميلز).. سمعت عن قدومي إلى (نيويورك)..
وهأنتذا قد جئت إلى صومعتي كي تسألني عن رأيي..
هل قلت كل ما يدور بذهنك؟
تحشرج صوت الرجل.. ابتلع ريقه بصوت مسموع:
- نعم.. كنت دقيقًا يا سيدي..
- الحق أقول لك يا مستر (ميلز) أنك لفي ورطة.. لكن (التاروت) يقترح الحل الصحيح للمشكلة و....
دوى الصوت:
- أرجوكم.. البروستاتا!
- صه!.. لا يقاطعني مقاطع حتى أفرغ من هذا..
وبدأ د. (لوسيفر) يحكي بقية القصة..

* * *

في الثامنة من أحد الأيام ستذهب إلى دار (كلايد) يا مستر (ميلز).. نعم.. أعرف أنك ستفعل لأني أفهم تكوينك النفسي جيدًا.. ولكن دعنا نر ما سيحدث..

إن الرجل يرحب بك في حماس، ويدعوك إلى الجلوس على المائدة إياها.. وفي هذه المرة يحضر ورقتين..

يكتب على الأولى كمبيالة بخمسين ألف دولار ويوقعها ويمنحك إياها، وعلى الثانية يكتب إقرارًا بأنه يتبرع لك بكليته.

وهنا تخطر لك الفكرة.. لماذا يظن هذا الأحمق أنك غير قادر على أخذ الورقتين والانصراف، ثم الضغط عليه كي يقبل؟.. هكذا دون أية تضحيات من أي نوع؟

لكن الرجل يقرأ ما يدور برأسك من أفكار، وترى المسدس في يده مصوبًا نحوك.. مسدسًا غير الذي ستجرى به اللعبة:

- مستر (ميلز).. إنك رجل شريف ملتزم بكلمتك فلا تحاول أن تخدعني.. هذا المسدس محشو بالكامل وسأطلقه عليك دون تردد لو حاولت أن تفر.. وبعد انتهاء اللعبة - لو ظللت حيًا - لن أقلق من احتفاظك بالورقتين لأنك أنت من سيطارني وقتها مطالبًا إياي بالوفاء بالتزامي..

وهكذا تجلس إلى المائدة يا مستر (ميلز) وقد فهمت أن الرجل أذكى مما ظننته فيه..

ويحضر لك المسدس ذا الساقية الدوارة ورصاصة واحدة.. فتقوم بتعبئتها.. ثم تناوله المسدس كي يقوم بتدوير الساقية عدة دورات حتى يختلط عليك الأمر..

بعدها يقول وهو يناولك المسدس:

- ستجرب أربع مرات.. لست ملمًا بقانون الاحتمالات كي أحدس احتمالات وفاتك.. لكني أقول لك إن فرصة العثور على الرصاصة لا بأس بها..، بالطبع لن تجرب ست مرات و إلا كانت فرصة العثور على الرصاصة مائة في المائة.. هل أنت مستعد؟.. إذن أبدأ..!

الأدرينالين يتصاعد إلى أذنيك ورأسك.. أطرافك باردة كالثلج.. قلبك واجف راجف..

الآن فقط تدرك معنى الخطر.. لكن شيئًا من اللذة غمرك وسط هذا.. (كلايد) أيضًا سييدو راضيا..

ويرتجف نشوة وقد جرفته حمى المخاطرة..

والآن ترفع فوهة المسدس إلى رأسك و... كليك!..

- الطلقة الأولى!.. إن احتمالات موتك تتزايد!

ترى كيف يكون الشعور بطلقة رصاص تمزق مخك؟ بالتأكيد لن تحس بشيء.. فقط يختفي هذا العالم وتجد ذاتك في عالم آخر.

لكنك خائف.. خائف..

وفي بطء ترفع الفوهة إلى رأسك وتضغط الزناد مغمضًا عينيك.. حتى (كلايد) ذاته أغمض عينيه..

كليك!..

لقد نجوت من نصف الاحتمالات، فكيف يكون نصفها الآخر؟..

ودون أن يطلب منك الرجل ذلك ترفع الفوهة مرة ثالثة إلى رأسك.. وتضغط الزناد...

.....

وأمام عيوننا المذهولة شرع د. (لوسيفر) يجمع أوراق (التاروت) من فوق المائدة المسدسة ويعيد خلطها.

- أ.. د. (لوسيفر).. ماذا حدث بعد ذلك؟

- في ماذا؟. في هذه القصة؟

- آه.. لقد انتهت عند هذا الحد..!

هتف (ميلز) في حنق وهو يزحف على ركبتيه - إذ كان جالسًا القرفصاء - ليدنو من المجري النصاب متسائلًا:

- لم أفهم.. هل سأموت أم لا؟.. أنا لهذا جئت..

بلا مبالاة قال (لوسيفر):

- يمكن القول إنك لم تمت.. فورقة الموت لم تظهر.. لقد انتهت أوراقك بورقة الكاهنة العظمى التي تشير إلى أن الموت هو نهاية كل كائن حي لكنها لا تشير إلى موتك بصفة مباشرة..

- ومعنى هذا؟..

- أنصحك أن تخوض هذه التجربة.. فلا يوجد خطر داهم عليك..

وساد الصمت على حين ازداد (ميلز) شحوبًا..

ومن خارج الصومعة تعالت ضحكة أنثوية مرحة.. إنهم يلهون بالخارج على حين تدور هذه المسرحية المرعبة بالداخل..

- والآن.. من التالي؟

رفع (هاري) - ذلك المخبول - يده..

كان مدفوعًا بطبيعته القتالية الميالة إلى التحدي.. فناوله د. (لوسيفر) الأوراق ليخلطها بمعرفته..

وكانت هذه هي الحكاية الثالثة..

* * *

الحكاية الثالثة

(فودو)

بطولة: هاري شيلدون

(النكرومانسر) يمزق جثث الموتى ليعرف أسرارهم.. أما ساحر (دمية الدم) فيمزق أجساد الأحياء ليتعلم منهم).



الاسم : هاري شيلدون

السن : ٣٦ عامًا .

المهنة : خبير حاسبات آلية .

الإقامة : فلوريدا .

الحالة الاجتماعية : متزوج وأب لطفل واحد .

الهوايات : ككل أمـــريكي قح يهوى (هاري شيلدون) الترحال ورؤية الجديد . له اهتمام خاص بشعوب وثقافات جزر الكاريبي ، يهوى كذلك التصوير الفوتوغرافي .

سمات شخصية :

إن (هاري شيلدون) إنسان متحضر شجاع وإن كان على درجة ما من التهور والاندفاع . وهو صديق حميم لـ د. (رفعت إسماعيل) وقد سبق لنا أن دنونا منه في أسطورتي (الموتى الأحياء) و (اللهب الأزرق) ، وعرفنا أكثر خصائص شخصيته . ونضيف هاهنا أنه - مثل (رفعت) - يخلق المتاعب لنفسه حيثما ذهب . وأخيرًا هو زوج مخلص نوعًا وأب طيب .

مالت مسز (مازورسكي) على أذن (ماري) وهمست شيئًا ثم نظرت إلى ساعتها في قلق..
سألها د. (لوسيفر) وهو يرتب الأوراق علي المائدة، ودون أن يرفع عينيه إليها:
- هل ثمة ما يقلق السيدة؟.. هل تأخرت؟ قالت السيدة في شيء من التهيب:
- في الواقع نعم.. إنها الواحدة صباحًا.. وكنت أرغب في..
- لكننا لم نقرأ (تاروت) الآنسة الصغيرة بعد.. أعدك أن هذه الحكاية لن تكون طويلة.. وبعدها نطالع (تاروت) الفتاة..
فلنر ما لدينا هنا.. آه!.. ورقة الساحر.. ثم ورقة الإمبراطورة.. ثم ورقة العاشق.. فورقة القلعة.. ثم ورقة..... الموت.. ولا شيء سواه.. الورقة الثالثة عشر برسمها المقيت تلتمع في الضوء الأخضر أمام عيوننا..
ملت على أذن (كولبي) هامسًا:
- هذا الرجل لا يستعمل سوى أوراق السر الأعظم الاثنتين والعشرين فلماذا لا يستعمل الباقي؟
- في بعض بقاع الأرض - ومن بينها المجر - لا يستعملون سوى أوراق السر الأعظم.
- وما هي أوراق السر الأصغر؟
- هي أربع مجموعات: مجموعة السيوف وعددها أربع عشرة ورقة تنتهي بورقة تمثل ملكًا فملكة ففارسًا.. ثم مجموعة العصي ولها ذات الترتيب.. ثم مجموعة الكؤوس.. ثم مجموعة الدراهم.. وبهذا تغطي هذه المجموعات شئون الصحة والعمل والحظ والمال.. أما الملك فيرمز إلى....
- لا مناقشات جانبية يا (كولبي)!
كذا دوى صوت (كلارتون) المعدني يأمرنا أن ننتبه إلى ما سيقول النصاب الأكبر.. فلذنا بالصمت..
قال د. (لوسيفر) وهو يحدق في (هاري):
- إن لك لقلب محارب.. عهدك أن تثور أولًا ثم تفكر.. وإن هذه لشيمة الشرفاء الخالين من الضغائن.. لكن لك قصة رهيبة.. ولك أحكيها دون إبطاء..

* * *

هناك من سطا على منزل (هاري)..
هذا هو ما أدركه الرجل حين عاد إلى داره مع زوجته (لندا) وطفلهما الصغير الجميل (جيمي)..
كان الباب الأمامي مهشمًا..، ولم يحتج الرجل لكثير ذكاء كي يعرف ما حدث بينما هو في حفل زفاف مع أسرته..
هرع إلى هناك.. ودخل من الباب المهشم ليجد آثار العبث في كل موضع من البيت الجميل المتسق..
كانت خزانته الحديدية مفتوحة.. هناك من صهر قفلها بلهب (الأوكسي أسيتيلين) ليسطو على محتوياتها..

وياله - ذلك اللص - من أحمق!... إن (هاري) لم يكن ثريًا يومًا.. كل ما كان بالخزانة هو مائتا دولار وبعض مخططات (الكمبيوتر) الهرمية التي أعدها لنظام مصرفي مستحدث..

الواقع أن (هاري) ورث هذه الخزانة عن أبيه.. وكما أن أباه لم يستطع قط أن يضع فيها ما هي جديرة به كذلك كان شأن (هاري) الذي ورث ضيق الحال عن أبيه..

لهذا أثار دهشته أن يقوم أحد بسرقة هذه الخزانة الحمقاء التي لا تحوي أي شيء تقريبًا، وأجرى اتصالًا هاتفيًا بالشرطة.. فجاء رجالها وقاموا برفع البصمات والتقاط بعض صور للباب.. ثم عادوا أدراجهم.. دون كثير أمل في معرفة السارق..

* * *

عندما جلس (هاري) و (لندا) في الصباح يفرزان الموجودات التي اختفت من الخزانة، تذكر (هاري) أن هناك شيئًا بالغ الأهمية قد فقد من داخلها.. كيف نسى هذا الشيء؟

لم يصارح (لندا) بأنه قد تذكر ما حدث..

لم يخبرها بأنه يعرف الشيء الوحيد الناقص في الخزانة...

إنه يتذكر الآن.. طبولًا.. أجسادًا راقصة يتناثر العرق من مسامها.. جماجم تشتعل النيران من عيونها.. (كوديكا).. (كوديكا).. الموتى الأحياء ينشرون سلطانهم في تلكم البقعة من (جامايكا).. ثم الحفل.. ذلك الجو الشيطاني المشئوم..

هنالك خلف الشجرة يختفي مع د. (رفعت) يراقب ما يحدث، ويقوم بتسجيله صوتًا وصورة على حين تقف تلك الساحرة الحسناء تحرق دمى.. وأية دمى!

(رفعت) هو من تنبه إلى الشبه القوي ما بين الدمية و (لندا) زوجة (هاري).. ولم لا؟.. ألم تهاجم امرأة ما (لندا) في السوق وتسرق خصلة وافرة من شعرها الأشقر هذا الصباح؟!



لم يصارح (لندا) بأنه قد تذكر ما حدث ..

لم يخبرها بأنه يعرف الشيء الوحيد الناقص في الخزانة ..

نعم.. (هاري) يذكر مناورة (رفعت) اليائسة التي نجحت برغم كل شيء من أجل سرقة الدمية.. ثم الفرار..

ولم يجرؤ (هاري) على تصديق كل ما قاله (رفعت) من سخف عن (الفتيش) تلك الدمى التي تصنع مشابهة لشخص ما.. ومن المفترض أن ينتقل الإيذاء من الدمية إلى هذا الشخص[3]..

لكنه بدأ يصدقه..

وحين رأى ما دها (لندا) حين أخذ (جيمي) الصغير يتسلى بأطراف الدمية المماثلة لها.. حين رأى ذلك لم يعد يشك في الموضوع من أساسه.. وأيقن أن هناك أسرارًا في هذا الكون لا يعرف الإنسان عنها حتى القشور..

وإذ عاد إلى (جامايكا) كان قد أزمع أن يداري هذه الدمية إلى الأبد.. لم يجرؤ على دفنها أو إغراقها أو حرقها طبعًا، لأن معنى هذا أن ينسف (لندا) دون رجعة..

لهذا وضعها في كيس من البلاستيك.. ودس هذا الكيس في كيس ورقي أكبر حجمًا.. ثم وضع هذا الأخير في الخزانة..

ومن يومها نسى كل شيء عن (الفتيش) وعن رحلته التعسة إلى (جامايكا) مع ذلك النحس (رفعت إسماعيل)..

لكنه اليوم يتذكر..

ويعرف أن هناك خطرًا جامحًا يهدد (لندا)..

* * *

"خذ الحذر في التعامل معه.. فكل ما سيحدث له سيحدث لها.. تخيل مثلا أن فأرًا قرض منه قطعة، أو أن رماد سيجارة ملتهبًا سقط فوقه!"

[الأم (مارشا) في (أسطورة الموتى الأحياء)]

* * *

والآن يمكن تخيل ما سيحدث..

سيعود السارق إلى داره.. يعد لنفسه قدحًا من الشراب ويشعل لفافة تبغ فظيعة الرائحة (إن الخمر والسجائر هما خبز اللصوص).. ثم يجلس على الفراش متربعًا.. وبلعاب يسيل يبدأ في عد الدولارات ويشعر بخيبة أمل لا توصف.. ثم يمد يده - والأمل يتواثب في صدره - إلى الكيس الورقي ويمزقه.. ويمزق الكيس البلاستيكي بداخله فيجد هذه الدمية القبيحة ذات الشعر الأشقر!..

عندئذ من الطبيعي أن نتوقع أنه سيثور...

سيمزق أوصال الدمية.. أو يرميها في المرحاض.. أو يضعها فوق شعلة الموقد ليحيلها إلى كتلة من الكربون..

فماذا سيصيب (لندا) وقتها؟!..

* * *

ولما كان (هاري) من طراز متسرع حار الدماء، فإنه لم ينتظر دقيقة واحدة.. إن الوقت يمضي وقد مرت ليلة كاملة على السرقة.. وهو لا يعرف السبب الذي جعل اللص ينتظر كل هذا الوقت، لكنه - حتمًا - لن ينتظر أكثر..

أدار قرص الهاتف طالبًا صديقًا قديمًا له.. (جابرييل) إبن الأم (مارشا) الساحرة الجامايكية..، كان (جابرييل) بالصدفة في (فلوريدا) منذ شهرين يبحث عن مزيد من الدولارات، كان يعمل ناد في ناد ليلى على سبيل رفع الدخل.. وبالمناسبة يشكل المهاجرون من (الكاريبي) جالية لا بأس بها في (أمريكا) ويسمونهم (سبيكس).. وهي كلمة تحمل رنينًا ما من الإهانة لا يفهمها سوى الأمريكان..

- أريد (جابرييل)..

سمع صوتًا ذا لكنة أجنبية يتساءل:

- من يريده؟.. هل أنت شرطي؟

- لا.. أنا صديق..

دوى الصوت ينادي:

- (جابرييل).. ثمة رجل يدعو نفسه صديقًا ها هنا!

ثم صوت (جابرييل) نفسه:

- هاللو..

- (جابرييل).. أنا (هاري شيلدون).. أنا بحاجة لعونك يا رجل..

وللرجل حكى القصة كاملة.. إن هذه الأجواء ليست غريبة على (جابرييل).. بل هو تربى في أحضان السحر الأسود إذا صح هذا التعبير.. ومن الصعب أن تكون أمك ساحرة (فودو) كما تعلم..

- أنت في مأزق يا مستر (شيلدون) - قال (جابرييل) - إن هذه الدمية لخطر حقيقي.. وأرى أن تأتي إلي لنذهب إلى أمي..

- وهل هي هنا؟

- طبعًا.. إنها تحب الولايات المتحدة ولم تكن لترضى بأن أتركها وحيدة في (كينجزتن).. هاك عنواني.. أراك هناك بعد ساعة.

* * *

وتم اللقاء في الموعد المرتقب..

ومن النظرة الأولى أدرك (هاري) أن الساحرة العجوز قد أحالت سكنها المتواضع في هذا الحي إلى نسخة أخرى من شقتها في (جامايكا).. الجلود المعلقة على الجدران.. والأثاث النابي عن الذوق.. والسيجار المشتعل في يدها.. بل خيل لـ (هاري) انها نقلت الرائحة الخانقة معها..

لقد ازدادت المرأة شيخوخة.. لكن عينيها احتفظتا بذات البريق.. وطالت أظفارها أكثر..، وصافحت (هاري) صائحة بصوتها الرفيع:

- هيه!.. أنت هنا إذن أيها الأشقر؟.. وأين صديقك الأصلع كثير الكلام والتدخين؟.. ألم يزل حيًا على الأقل؟ اجلس.. آه!.. أرى أنك ما زلت أحمق متسرعًا.. لماذا لم تعهد لي بتلك الدمية كي

أجردها من سحرها؟ ولكن لا عليك.. إن الأم (مارشا) تعرف.. تعرف كل شيء.. هيه!..لماذا لا تجلس؟!.

جلس (هاري) على طرف الأريكة البالية.. وقال:

- أرى يا سيدتي أن حيويتك لم تتزحزح..

- هذا حق.. ولكن ليكن معلومًا لديك أن الأم (مارشا) لا تفعل شيئًا دون مقابل..

- تعنين المال؟..

ضحكت ضحكتها الرفيعة المجلجلة الشبيهة بصرير باب:

- لا طبعًا.. هي هي!.. يبدو أنك لم تعرف الأم (مارشا) بعد..

* * *

هنا تدخلت أنا في الكلام.. فلم أقدر على أن أظل صامتًا إلى هذه النقطة.. سألت (هاري) في دهشة:

- (هاري).. هل ما حدث قد مر بك حقًا أم أن الدكتور (لوسيفر) يتنبأ لك؟

في غموض ابتسم الرجل.. ونظر نحو د. (لوسيفر).

- (هاري).. يجب أن تقول..

واصلت الإلحاح.. فنظر لي (هاري) والابتسامة على شفتيه.. كان يتعمد المحافظة على الابتسام كديدن من يتظاهرون بالثقة بالنفس وإن لمحت خللًا واضحًا في هذا القناع الأجوف..

غمغم وهو يحك رأسه:

- الواقع أن هذا حدث منذ شهر.. وقد نسيت الموضوع تمامًا.. لكن.. أظن أن د. (لوسيفر) هذا يعرف ما يتكلم عنه..

للمرة الأولى بدأ الفأر يلعب في عبي كما يقولون.. مددت يدي إلى لفافة تبغ وأشعلتها متجاهلًا التحذير الصامت في عيني (كولبي) و (كلارتون) صاحب الدار..

كان (لوسيفر) قادرًا بالتأكيد على معرفة قصة مسز (مازورسكي) ربما من (ماري) صديقة ابنتها، وربما من د. (هندريكس) طبيبها النفسي (هل كان هذا هو اسمه؟)..، وكان (لوسيفر) قادرًا على معرفة قصة (ميلز) فلربما ثرثر بها هذا الأخير..

ولكن كيف - أكاد أجن - استطاع أن يعرف شيئًا عن (هاري)؟.. (هاري) الذي أعرف جيدًا أنه لم يحك شيئًا لأحد.. (هاري) الذي لم يفارقني منذ أتينا هذا البيت.. حتى أنا لم أسمع بهذه الحكاية قط..

وتأملت - وسط حلقات الدخان - وجه (لوسيفر) الشيطاني، بينما عيناه النفاذتان عارمتا القوة تجوبان وجوهنا.. الثقة بالنفس في صورة إنسان.. ومن حين آخر يميل على مستر (كلارتون) مضيفنا يتبادل وإياه بضع كلمات هامسة.. ثم دوى صوته الجهوري:

- لا داعي للمزيد من المقاطعات.. وأنت يا مستر (كولبي).. هلا خرجت لتريح نفسك قليلًا بدلًا من جلوسك هنا تتواثب كالبرغوث؟

في امتنان وثب (كولبي) على قدميه.. غادر الصومعة مهرولًا بينما دخان البخور يمتزج بدخان سيجارتي.. ومن مكان ما تنبعث موسيقا شرقية ممسوخة من التي يستعملها الغربيون دون أن

يفهموا كنه (الربع تون)..
وعاد صوت البير الراضي عن نفسه يتكلم..

* * *

قامت الأم (مارشا) بعمل رائع..
عمل رائع إذا كان لنا أن نطلق هذا على كل التعاويذ التي راحت ترددها.. وكل البخور الذي أطلقته.. وكل التلوي المحموم حول جورب (لندا) الذي كان (هاري) قد سرقه لها باعتباره شيئًا حميمًا من أشيائها..
ثم إنها سكبت بعض الماء على النار التي أضرمتها في الجورب.. فتصاعد دخان خانق الرائحة من الجورب المصنوع من ألياف صناعية.. شرعت تردد عبارات لا حصر لها واللعاب يتناثر من فيها..
وحين انتهت - أخيرًا - مدت يدها المخلبية إلى (هاري) داعية إياه أن يمسح وجهه بالرماد..
- هكذا يمكننا القول إننا عزلنا المرأة الشقراء عن دميتها.. ونحن الآن في مأمن..
- إذن أستطيع العودة إلى داري...
- بالتأكيد.. لكن لا تنس ما قلته لك.. لقد قلت إنني أفعل ذلك مقابل ثمن..
- وأنا مستعد لدفعه دون إبطاء..
قالت وهي تجفف يديها من الماء.. وتبتسم في ثقة:
- أريد بعض قطرات من دمك!

* * *

- هل حقًا تعنين ما تتحدثين عنه؟
كذا سألها (هاري) ذاهلًا غير عالم بم يرد عليها..
- الأم (مارشا) لا تمزح أيها الأشقر..
سألها وهو ينظر نحو (جابرييل) باحثًا عن مهرب:
- هل لي أن أعرف السبب؟
- قلت إن هذا هو أجري وليس لك أن تسأل.. ولكن ثق إن الأم (مارشا) لا تنتوي إيذاءك.. لنقل إنها بحاجة ماسة إلى دماء شاب أبيض شجاع من أجل (الفودو).
وجد (هاري) أن عليه ألا يبدل طابع الشاب الشجاع غير المؤمن بالخزعبلات..، فمد يده إلى الأم وعلى وجهه ابتسامة الواثق من نفسه..
ابتسمت المرأة في رضا وتناولت كأسًا زجاجية، وسكينًا.. ثم أمسكت بكف (هاري) المفتوحة، وبنصل السكين أحدثت شقًا سطحيًا صغيرًا ثم تركت الدم تسيل منه قطرات إلى الكأس..
- كذا.. لقد انتهيت تمامًا..
وناولته قطعة من ألياف الكتان بللتها بزيت خاص.. وأمرته أن يضغط بها الجرح بعض الوقت..
ثم أومأت له كي ينصرف، وقالت إن الأمور ستكون على ما يرام بخصوص (لندا) فليس عليه أن يقلق على شيء..

* * *

قال د. (لوسيفر):

- هكذا.. يمكننا القول إن هذا هو ما حدث لصديقنا (هاري) منذ شهر أو أكثر..، ولا شك في أنه نسي الأمر تمامًا.. ولكني ذكرته به لأنه قد قارف خطأ جسيمًا..

المرء لا يترك قطرات من دمه لدى ساحرة (فودو) ويرحل.. صحيح أنك تعرفها.. صحيح أنها صديقة قديمة لك.. صحيح أنها أنقذت حياتك من (الزومبي) يومًا ما..

لكنك - والحق يقال - لم تكن حذرًا، فالمرء لا يستطيع أن يثق بساحرة.. إن هؤلاء النسوة يتقلبن كالبحر ذاته.. ولديهن ما لا ينتهي من الألاعيب الشيطانية.

إليك أوجه نصحي.. هل ما زالت هذه المرأة وولدها داخل الولايات؟..هل تستطيع الاتصال بهما؟

قال (هاري) في حيرة:

- نعم.. ولكن لم....؟

- لأنك ستدعو (جابرييل) إلى كأس من الشراب، ثم تأخذ الكأس وعليه بصماته إلى الشرطة.. عندئذ يتضح لك أن السارق الذي فتح خزانتك هو بعينه (جابرييل)!!

تبادلت و (هاري) نظرة حيري.. ثم توليت السؤال:

- ولماذا يفعل ذلك؟

- لأنه يريد أن تجيء إليه وإلى أمه بكامل إرادتك طالبًا العون.. وقد فعلت ودفعت الثمن من دمك الذي منحته لهما بإرادتك الحرة، ودون ضغوط خارجية.. هل فهمت؟

- حتمًا لا..

قال د. (لوسيفر) وهو يمد يده طالبًا بعض القهوة:

- ألم تسأل نفسك لماذا يسطو أحد على خزانتك أنت بالذات ويتجشم كل هذا العناء مع أنك لم تشتهر بالثراء يومًا؟.. الأمر واضح لا لبس فيه.. كان يريد شيئًا ما من الخزانة غير المال.. وهذا الشيء هو الدمية..

- ولماذا يريدها؟.. ولماذا يريد دمي؟..

- لأن هناك أسلوبًا سحريًا يعشقه سحرة (الفودو).. هو أسلوب (دمية الدم)... اصنع (فتيشًا) لإنسان - مثل (لندا) - وضع عليه قطرات من دم إنسان يحبه - مثلك في هذه الحالة - ثم اغمس الدمية في مياه المستنقع ثلاثة أيام.. ثم ادفنها في الرمال شهرًا..، والنتيجة هي أن صاحب (الفتيش) يتلاشى تمامًا بينما تحل جميع صفاته ومزاياه في الساحر..

- تعني أن هذا نوع من فنون (النكرومانسي)؟

- لا.. (النكرومانسي) يمزق جثث الموتى ليعرف أسرارهم.. أما ساحر (دمية الدم) فيمزق أجساد الأحياء ليتعلم منهم..

- ولماذا تريد الأم (مارشا) هذا؟!

- لأنها تريد أن تتحول إلى أمريكية شقراء!.. إن هذا منطقي جدًا خاصة منذ جاءت إلى (الولايات المتحدة)، ووجدت نفسها تحت خط الفقر مع ابنها.. لقد فقدت كل سلطة لها وكل نفوذ، وهي

تتمنى لو كانت أمريكية بيضاء كالأخريات.. لو أنها لم تكن (سبيكس)..
تنهد (هاري) ونظر إلى أوراق اللعب المشئومة المتراصة على المائدة.. وتساءل:
- لو كان كلامك صحيحًا.. فلماذا لم يحدث هذا حتى الآن؟
- ثلاثة أيام وشهر.. تلكم هي الفترة اللازمة لوقوع التلاشي.. وأنت منحت المرأة دمك منذ شهر.. أي أن التحول قد يقع في أية لحظة من الآن فصاعدًا..
ثم رشف رشفة من القدح.. وأردف:
- عليك أن تسترجع الدمية منها بأي ثمن.. وإلا...
ثم شرع يكمل، القصة لـ (هاري)..

* * *

ذات يوم ستعود لدارك يا مستر (شيلدون) شارد الذهن.. فأنت عاجز تمامًا عن استرداد الدمية.. ولم تستطع أن تجد (جابرييل) في أي مكان..
وحين ذهبت إلى مقر الأم (مارشا) لم تجدها..
ستفكر لحظتها في مدى خطورة تجاهل الأمر.. لم لا تتجاهله؟..
إن الأمر كله مجرد كلام قاله د. (لوسيفر)، وليس بالضرورة هو الصواب.. لماذا لا يكون هذا الأخير مجرد نصاب؟..
وتنادي على (لندا)..
- (لندااا)!.. حبيبتي.. أنا قد عدت..
فلا تجدها.. تقول لنفسك إنها في المطبخ حتمًا..
تصعد إلى هناك فلا تجدها كذلك.. هل خرجت؟.. هل تزور جارتك؟
وأين ذهب الشيطان (جيمي)؟..
لن تصدق ما حدث إلا حين ترى بقع الدم على (الموكيت) خارج غرفة النوم.. ستدخل.. وعندئذ ترى كل هذا الهول على الأرض.. فوق الفراش... وعلى الجدران. وآثار كفها المخضبة بالدم..
لم تستطع البائسة أن تفهم ما يحدث لها..
أما الشيء الذي سيثير انتباهك حين تهدأ العاصفة الأولى..
الشيء الذي ستراه ما بين الدموع التي تغمر مقلتيك.
الشيء الذي ستتذكره على الفور..
هو جورب أسود صغير نصف محترق يلتف عنقها.. الجورب الذي أعطيته لساحرة (الفودو) منذ شهر واحد..
وإلى جوار الجورب ترى ألياف كتان مألوفة الشكل وقد تلوثت بقطرات من دماء..
إن الأم (مارشا) لامرأة أمينة قل أن تجد مثلها هذا الزمن..
امرأة لا تنسى إعادة ما اقترضته!..

* * *

انتهت القصة..

ولمحت (هاري) يحاول التظاهر بأنه لا يرتجف.. لكن هذا زاد الأمر سوءًا.. ومن الذي يجرؤ على لومه؟..

مددت يدي نحو معصمه مواسيًا.. وهمست:

- إن هذا إلا رجم بالغيب يا (هاري).. فلا تقلق.. ما الذي يدفع (مارشا) لهذا؟.. أعتقد أن هذه المرأة أقوى بمراحل من أن تلجأ لحيلة تافهة تجعلها بيضاء..

قال (هاري) في توتر:

- لا أدري.. لكن القصة ملأتني قلقًا.. يجب أن أذهب للمرأة وأحاول استرداد الدمية منها ولو كلفني هذا تحطيم عظامها..

- هذا بفرض أنها أخذتها حقًا!

دوى صوت د. (لوسيفر) البري يقول بتؤدة:

- والآن من التالي؟.. إن صحبتكم لتملؤني حبورًا.

قلت في كياسة:

- ألا تجد أنه من الغريب أن نكون كلنا منحوسين إلى هذا الحد، ثم نحتشد في مكان واحد؟

- لا غرابة - قالها وهو يخلط الأوراق - إن من جاءوا هنا إنما هم بالفضول مدفوعون.. أي أنهم يهوون الخوارق، ومنهم من جاءوا طلبًا للنصح أي أنهم في ورطة حالية.. وكلا النوعين يمكن أن يرى الجانب المظلم من القمر..، والآن.. من التالي؟

آه!.. الآنسة الصغيرة.. إنها تريد الانصراف مع صاحبتها السيدة (مازورسكي).. هلا أخذت الأوراق وقمت بخلطها لي يا صغيرتي؟

فعلت الفتاة ذلك وهي ترتجف.. حتى أن الأوراق سقطت منها مرارًا..، كان وجهها الملائكي الشفاف يعكس أقسي علامات الرعب، وقلت لنفسي في دهشة: ترى أي سر مخيف تطويه هذه الفتاة المرهفة - كأنها (سنو وايت) - خلف ضلوعها؟.

هوذا د. (لوسيفر) يتكلم...

تعالوا نصغ إليه...

* * *

الحكاية الرابعة

(والآن نرجوكم الصمت!)

بطولة: ماري جوليم

(لقد جاء دورك يا صغيرتي.. لكنها - أعدك - لن تكون لحظات طويلة!).



الاسم : ماري جوليم

السن :١٧ عامًا .

المهنة : طالبة .

الإقامة : نيويورك .

الهوايات : هي فتاة رومانسية تحب الشعر والموسيقا وتعزف عزفًا رديئًا جدًا على البيانو ، لها مجموعة محدودة من الصديقات أهمهن (لويز مازورسكي) . تحب أجواء الرعب وعوالم ما وراء الطبيعة بصفتها سوداوية المزاج . وستكون هذه الهواية وبالًا على رأسها .

صفات عامة :

إذا ما تغاضينا عن هوايتها اللعينة هذه لأمكننا القول دون تحفظ إن (ماري) فتاة عاقلة رصينة تنتمي بطباعها وأخلاقها إلى عصر الخمسينات الجميل .. ودليلنا على هذا هو أن مسز (مازورسكي) تثق بها بشدة ..

بأنامل رقيقة شرعت (ماري) تخلط الأوراق..
ثم ناولتها عبر المائدة إلى الطبيب المجرى غريب الأطوار..، وعادت تثني ساقيها تحتها كقطة صغيرة.
- معذرة يا د. (لوسيفر)!.. دورة المياه.. إنها البروستـ..
دوى صوت (كولبي) المرتبك المحرج.. لكن د. (لوسيفر) أخرسه بإيماءة حازمة من يده..
ثم إنه أمسك بأوراق (التاروت) وشرع يفرزها على المائدة.. متجاورة.. متماسة.. أما أنا فكنت أحاول أن أفرد ساقي اللتين تخشبتا من جلسة القرفصاء هذه..
لماذا يصر هذا النصاب على الجلوس على الأرض؟.. ما الفارق لو مارس ألعابه هذه فوق مائدة؟.. إنه فقط يحاول أن يحدث تأثيرًا سيكولوجيًا علينا.. وهذا التأثير ناتج عن ارتباط السحر بالشرق.
وبمعنى أدق: بألف ليلة وليلة..، لكن كل هذا يكون صبيانيًا إذا كان (لوسيفر) غربيًا يجلس مع مجموعة من الغربيين..
على كل حال.. مددت يدي إلى رباط حذائي، ودون تردد انتزعت الحذاء نفسه.. و.. آه هـ هـ!.. يا للنشوة والراحة...
لمحت أنف (لوسيفر) يتقلص.. وعلى وجهه تعبير اشمئزاز.. دعه يتساءل عن مصدر هذه الرائحة.. فلو كان عرافًا حقًا لما عجز عن معرفة أن هناك من انتزع حذاءه تحت المائدة المسدسة!..
والآن دعنا نتأمل الأوراق...

* * *

أولًا: ورقة الحكيم الجالس ممسكًا بعصا الحكمة.. وقد جلس النسر تحت قدميه..، علماء النفس يقولون إنها ترمز إلى نمو البديهة لدى الإنسان.. ويقول (كورت) إنها ترمز إلى سلطة البابا في القرن الرابع الميلادي، بينما يجمع مستعملو (التاروت) عامة على أنها ورقة تعني الرحمة - الشفقة - الكياسة..
بعد هذا جاءت ورقة (القلعة) التي تظهر رجلين تقتلهما الصاعقة وهما يحاولان اقتحام قلعة كبيرة..
ثم جاءت أوراق الشيطان.. فعجلة الحظ.. ثم - في النهاية - ورقة الموت إياها!.. لقد صار هذا مملًا..
إن هذا الـ (لوسيفر) شبيه بلاعبي الثلاث ورقات في بلدنا.. وأكاد أظنه يخفي ورقة الموت هذه في كمه ليبرزها كل مرة..
سمعت صوته البيري يتردد في السكون:
- لعمري أنت تلعبين بالنار أيتها الفتاة.. ولك أحكي كل شيء.. لكنني لا أبغى مقاطعة..
- ليكن يا سيدي..

* * *



بعد هذا جاءت ورقة (القلعة) التى تظهر رجلين تقطلهما الصاعقة

وهما يحاولان اقتحام قلعة كبيرة ..

كانت (ماري) مولعة بكل ما هو غريب..
صحيح إنها فتاة تقليدية مهذبة أحسن أهلها تربيتها؛ إلا أنها كانت تملك ذلك الولع المريض بالرعب.. الرعب الذي يولد تلك الرجفة غير المسبوقة في روحها.
كانت - تذكر - في السابعة من عمرها، حين ارتكبت خطأ ما.. (ماذا كان بالضبط؟).. المهم أن أمها رأته خطأ فادحًا..
جرتها من ذراعها إلى القبو.. رائحة العطن وخيوط العنكبوت.. ثم إنها أوصدت الباب عليها.. الظلام الدامس.
" مامي!.. مامي! ".. أرجوك!.. سأكون فتاة طيبة!
قالتها مرارًا.. بكت.. ضربت برأسها الحائط دون جدوى.. الظلام هو حين تصحو كائنات لا تدري كنهها لكنها جميعًا ذوات أنياب ومخالب.. كلها قادمة كي تلتهمها..
الفكرة تمزقها.. لكنها - في الوقت ذاته - تمتعها.. تجعلها ترتجف بالنشوة واللذة.. ثم ينتابها الذعر فتصرخ أكثر..
وحين انتهت هذه الخبرة كانت (ماري) قد صارت مدمنة رعب، وكان هذا يناسب شخصيتها الهادئة الصموت..
في فراشها قرأت كل ما كتب عن المذءوبين ومصاصي الدماء والقبور التي تنفتح ليلًا لتبرز منها أيد ذوات مخالب.. إن الرومانسية والسوداوية والرعب شيء واحد متداخل.. وإلا فكيف كتبت (ماري شيللي) زوجة الشاعر الشهير قصة (فرانكنشتاين)؟
وكيف مزج (إدجار آلان بو) الرعب بالشعر؟.. لكن (ماري) لم تصارح مخلوقًا بعالمها الخاص خاصة و (لويز) صديقة عمرها لم تعطها الاهتمام المناسب..
وهنا ظهرت (هارييت) على الساحة..

* * *

قابلنا (هارييت) قبل هذا.. وعرفنا أنها حمراء الشعر صاخبة خرقاء.. وعرفنا أنها شاحبة اللون تعشق الظلام والليل..
وعرفنا أنها شخصية مغناطيسية تسجن كل من يدخل دائرتها بين خيوط العنكبوت.. ولقد كانت (هارييت) عنكبوتا كبيرًا..

* * *

في تلك الليلة جلست أربع فتيات في دار إحداهن يتبادلن المزاح والقفشات..
فإذا دنونا بالكاميرا أكثر وجدنا بينهن فتاة ناحلة ترتدي منظارًا غليظًا.. هذه الفتاة هي (لويز مازورسكي)،.. الفتاة الأخرى حمراء الشعر التي لا تكف عن الضحك الخبيث هي (هارييت).. أما هذه الفتاة الملائكية البتول فـ (ماري).. والفتاة الرابعة السمراء التي ترتدي البنطال القصير هي (هيلين).. صاحبة الدار...

وكما نرى لا تكف (هارييت) عن المزاح - البذيء نوعًا - والكلام عن الفتيان، بينما (لويز) و (ماري) شديدتا التحفظ تضحكان على سبيل المجاملة لأنهما لم تعتادا هذا...

تقول (هارييت) وهي تضع قدميها على الأريكة:

- دعونا نلعب لعبة مسلية..

- مثل ماذا؟

- مثل محاولة تحضير الأرواح!

* * *

برغم احتجاج (هيلين) و (لويز) رجحت كفة (هارييت) و (ماري)..

لم لا؟.. إنها لعبة لا بأس بها.. ولم تجربها واحدة منهن ربما باستثناء (هارييت) التي يخيل لهن أحيانًا أنها تعرف كل شيء في الكون..

إن الأمر سهل.. ستحضر (هيلين) فرخًا من الورق تكتب على هامشه الحروف الأبجدية كلها.. وتحضر كوبًا زجاجيًا..

وبعد إطفاء الأضواء وترديد تعاويذ معينة تضع كل فتاة منهن إصبعًا على قاعدة الكوب.. عندئذ يبدأ الكوب في التحرك مشيرًا إلى الحروف تباعًا.. والحروف تقول كلمات ما..

- لكنها مخاطرة! - قالت (لويز): لقد قرأت أن هناك طريقة ما لصرف الأرواح وإلا أصر بعضها على البقاء!

- هراء! - قالت (هارييت) - كل الأرواح تنصرف بمجرد أن ينتهي الكلام معها..

في الضوء الخافت المخيم على المكان، جلست الأربع صديقات حول الكوب الموضوع فوق الورقة، والورقة بدورها على الأرض..

- روح من نطلب؟

وهكذا..

تساءلت (هيلين).. فأجابتها (هارييت) دون تردد:

- لقد أثيرت تساؤلات عديدة حول (جاك) السفاح.. كثيرون زعموا أنهم عرفوا شخصية ذلك السفاح الذي أثار ذعر (لندن) في القرن الماضي، بل إن أحد المحكوم عليهم بالإعدام صاح وهو على خشبة المشنقة: أنا جا..!..، ثم انفتحت المصطبة ولقى حتفه قبل أن يعرف الجلاد ما إذا كان هو (جاك) السفاح أم لا..، إن هذا الرجل للغز من ألغاز تاريخ الجريمة.. وأعتقد أنني راغبة في سؤال روحه عن هذا السر..

ارتجفت (ماري) من هول الفكرة:

- إنك تزيدين الرعب رعبًا.

- ولم لا؟.. أليست الإثارة هي ما نريد؟

ثم اتسعت عيناها الخضراوان الشبيهتان بعيني قط.. وهمست بصوت كالفحيح:

- والآن.. نرجوكم الصمت!

* * *

طلبوا روح (جون دوليتل) ذلك الرجل الذي لم يكمل كلامه على المشنقة.. وطفقوا ينتظرون..
لكن دون جدوى.. كانت التجربة فاشلة من اللحظة الأولى.
وفي ساعة متأخرة من الليل انصرفت ثلاث فتيات في سيارة (هارييت) الرياضية عائدات إلى بيوتهن..
على حين ودعتهن (هيلين) على الباب.. ثم دلفت إلى الداخل..
فما إن دخلت (ماري) دارها.. وما إن بدأت تنزع ثيابها حتى سمعت جرس الهاتف يدق.. فهرعت إليه ترفع السماعة قبل أن يصحو واحد من أهل الدار الذين ناموا منذ ساعات..
- هاللو!
- (ماري).. أنا (هيلين)..
- ماذا هنالك يا (هيلين)؟
سمعت صوت صديقتها الملهوف:
- ذلك الكوب.. الكوب الذي لعبنا به تلك اللعبة اللعينة.. هل كان في وضع مقلوب حين تركتم الدار؟!
يا له من سؤال غريب!.. ردت (ماري) في غير اكتراث:
- بالطبع لا أذكر.. ولكن.. أحسبه كان مقلوبًا.
- بالتأكيد كان كذلك..
في لهفة تردد صوت (هيلين) المرتجف:
- حين اوصلتكم للباب وعدت إلى حجرتي، وجدت الكوب في وضع معتدل.. فوهته إلى أعلى..
- أنا لا أرى أهمية لما...
- ألا تفهمين يا حمقاء؟ أنا لم ألمس الكوب.. كما لم تمسسه إحداكن وهذا يعني أن هناك من قلبه..!
- ومع ذلك من المحتمل أن واحدة منا قلبته وهي شاردة الذهن..
- لم يحدث يا (ماري).. لم يحدث.. أستطيع أن أقسم على ذلك..
أنا خائفة يا (ماري).. خائفة!
تنهدت (ماري) في صبر:
- إن هذا كله هو تأثير اللعبة - إن كان لنا أن نسميها كذا - على أعصابك.. إن توترك يجعلك تعيشين أوهامًا قاسية..
ثم ابتلعت ريقها ووجهت لصديقتها دعوة ترجو ألا تقبلها.. لو أنها تعرف العامية المصرية لسرها كثيرًا تعبير (عزومة مراكبية) فهو يعبر بدقة عما تفكر فيه الآن..
- هل تريدين أن آتي لأمضي الليلة معك؟
نعم.. فإن (هيلين) ستمضي هذه الليلة وحيدة..
فأبوها منفصل عن أمها.. وأمها طبيبة يضطرها عملها إلى البيات خارج الدار أحيانًا كثيرة.. إن هذه البائسة ستمضي ليلة رهيبة حقًا.. لكنها لم تزل قادرة على التظاهر برباطة الجأش:
- لا يا (ماري).. سأكون بخير.. ليلة طيبة..
- ليلة طيبة..

* * *

لماذا لم تصدقها؟

لماذا لم تعر الأمر اهتمامًا؟..

كان بإمكانها أن تذهب إليها.. وكان بإمكانها أن تدعوها إلى المبيت معها.. وكان بمقدورها أن تطلب لها الشرطة..

لكنها لم تفعل شيئًا من هذا.. ذهبت لتنام وتحلم بعشرات الكوابيس.. بأكواب ملأى بالدماء سرعان ما تنقلب لتسيل على ثوبها.. وترى (هارييت) تبتسم كاشفة عن أسنان ناصعة البياض إلى حد مريب، بينما الدم يسيل من شعرها الأحمر..

وحين صحت في الصباح غارقة في العرق كريه الرائحة، أدركت أنها ستقطع علاقتها مع (هارييت) الحمقاء من الآن فصاعدًا..

لن تكون مفتاحًا في ميدالية (هارييت) تتسلى بهزه لإحداث صليل.. الأخريات صرن مفاتيح لكنها لن تكون..

وبعد قليل وصلتها مكالمة من (لويز) تخبرها أن (هيلين) قد لقيت مصرعها!...

* * *

تحت أغصان شجرة الصفصاف العجوز جوار سور المدرسة: التقت الفتيات الثلاث: (هارييت) - (ماري) - (لويز)..

كن واثقات أن أحدًا لا يسمعهن ولا يختلس إليهن النظر.. وكان موضوع الندوة هو: ماذا حدث لـ (هيلين)؟..

لقد سمع الجيران صرخات قادمة من الشقة.. وأسرعوا بمحاولة اقتحام الباب.. ثم طلبوا رجال الشرطة..

وجاءت الشرطة وقاموا باقتحام الباب الموصد.. ثم فتشوا الشقة بعناية، فلم يجدوا شيئًا.. لا جثث فتيات ولا دماء ولا آثار عنف.. هذه شقة نظيفة منسقة غادرها صاحبها..

لم يستطيعوا أن يلوموا الجيران، فما داموا قد أجمعوا على أنهم سمعوا صراخًا فمن العسير أن يكون هذا وهمًا.. ولكن ماذا حدث بالضبط؟

الإجابة كانت في زقاق خلفي قذر بالمدينة..

والذي وجدها هو متسكع كان يسير هناك، حين وجد جثة فتاة في مقتبل العمر وقد خنقت بحبل غليظ.. لا داعي طبعًا لوصف حال الجثة لأن هناك سيدات هاهنا.. لكن هذه الصورة تقليدية جدًا، ويعرفها هواة قراءة هذه الأشياء المريعة في صفحة الحوادث بالجريدة.

كما لا داعي طبعًا أن نهين ذكاء القارئ بالثرثرة عن بحث رجال الشرطة عن صاحبة الجثة.. إنها (هيلين) طبعًا..

ولكن من قتلها؟.. ولماذا غادرت دارها في ساعة كهذه؟

لم يستطع البوليس أن يعرف من كان معها في تلك الليلة.. لكن صديقاتنا الثلاث يعرفن..، ومن الواضح أنهن لن يخبرن رجال الشرطة بشيء حتى لا يقعن في مصيدة الشكوك والاستجوابات..

لكن (هارييت) أبدت ملحوظة مروعة:

- (جاك السفاح) كان يقتل باستعمال حبل من الليف حول العنق!..
نظرت إليها (ماري) واتسعت عيناها رعبًا:
- ماذا تعنين؟
- أرى أن الأمر لا يمكن أن يكون مصادفة!..
- ماذا تعنين مرة أخرى؟
- كلامها عن الكوب.. لقد كان (جون دوليتل) هو (جاك السفاح) بالفعل.. ومن الواضح أن روحه قد لبت نداءنا.. لكنها لم تنصرف..!.. إن الروح تتسلي بقتلنا وقد بدأت بصاحبة الدار أولًا..
- يا للهول!.. (هاريت)... لا تقولي هذا..
- لكنه الشيء الوحيد الممكن قوله.
وفي حزم نظرت للفتاتين المذعورتين.. وصاحت:
- لنأخذ الحذر إذن.. ولا داعي لذكر كلمة واحدة عن لعبة تحضير الأرواح هذه.. فلا أحد يعلم عنا سوى أننا من شلة (هيلين)، سنحضر الجنازة غدًا ونبكي كثيرًا ثم ينتهي الأمر..
ونظرت إلى ساعتها واحتضنت حافظة أوراقها قائلة:
- هيا بنا ننصرف الآن.. ولتعمل كل منا على حماية نفسها.. ولتأخذ رأي أهل العلم في الموضوع إذا استطاعت..
ثم رفعت أصبعها السبابة محذرة:
- والآن.. أرجوكما الصمت!

* * *

ومرت أيام..
وكما لنا أن نتوقع.. ابتعدت (ماري) عن صديقتيها (لويز) و (هاريت) وقد لاحظت التبدل الذي بدأ يطرأ على طباع الأولى.. لكنها لم تستطع أن تجد له تفسيرًا..
وكانت تلك المحادثة بينها وبين الأم.. وبالمناسبة كانت (ماري) هي صاحبة الاقتراح على الأم باستشارة البروفسير (هندريكس) الذي كانت (ماري) تثق برأيه تمامًا..
إن (ماري) لا تدرك أن التغير الذي طرأ على (لويز) سببه تحول هذه الأخيرة إلى مصاص دماء.. ولو عرفت لأصابها الهلع.. ولحكت هذا للبروفسير.. إن الربط ما بين وفاة (هيلين) وتحول (لويز) إلى مصاص دماء كان سيلقي الضوء على القصة كلها.. كان سيلقي الضوء على (هاريت).
لكن (ماري) لم تعلم..
فقط ذهبت إلى البروفسير وحدها.. وله حكت القصة كاملة طالبة رأيه..
لكن الرجل لم يكن يملك ما يقوله سوى اعتقاده (أن هناك شيئًا شريرًا في هذه القصة)..، وأوصاها - كالعادة - باستشارة عالم روحاني مجرى اسمه (لوسيفر)..، وها هي ذي قد جاءت إلى حفلنا الليلة ومعها أم (لويز).. امرأة أخرى ملأى بعلامات الاستفهام التي تبغي لها جوابًا..
ومال د. (لوسيفر) مقربًا وجهه من (ماري)
- أتراني أخطأت يا (ماري)؟!

* * *

لم يخطئ د. (لوسيفر) في حرف..
فالقصة كانت كما حكاها دون تغيير..
قال د. (لوسيفر) وهو يتأمل الأوراق:
- مرة أخرى تتجاهلين يا (ماري) علامات واضحة كشمس الظهيرة.. من هي (هارييت).؟ أين تسكن؟
- لا أعلم.. تقول إنها من (بنسلفانيا) أصلًا، وقد التحقت بالمدرسة المسائية منذ شهرين..
- هكذا! -هتف في انتصار - فتاة حمراء الشعر شاحبة الوجه لا تظهر إلا في الليل.. ولا أحد يعرف أين تسكن..
- تعني أنها.. أنها مصاص دماء؟
- بل أعني أنها ساحرة.. هناك كتاب صدر في عام ١٤٨٧ في عهد البابا (إينوسنت الثامن) اسمه (مطرقة الساحرات).. هل قرأه أحد؟![4]
همهم (كولبي) و (كلارتون) أن نعم.. فالكتاب معروف لهما بوصفهما من (المتخصصين)..، وفي رفق سأل (كلارتون) الفتاة:
- هل في جسد (هارييت) هذه علامة مميزة.. مثل وشم أو خال غريب الشكل؟!
حملقت الفتاة في المائدة بعض الوقت.. ثم غمغمت:
- ربما.. على لوح كتفها الأيسر..
بانتصار هتف د. (لوسيفر):
- وهذا هو القول الفصل.. يقولون إن الساحرات يكن على علاقة بالشيطان، وهذه العلاقة تترك أثرًا معينًا في أجسادهن.. أظن أن (هارييت) هذه ساحرة شريرة تلهو بكن.. مرة عن طريق روح (جاك السفاح) ومرة عن طريق لعنة مصاصي الدماء..
أشعلت لفافة تبغ.. وتساءلت وأنا أثني فخذي تحتي:
- وماذا تقترحه أنت؟
- الحرق للساحرة.. والوتد لمصاصة الدماء!
تبادلت و (هاري) نظرة حيرى.. ثم سألت الرجل:
- كنت أظنك تمارس السحر، ولم أتوقع أن تكون لديك هذه الآراء الحازمة بصدد الساحرات!.. كنت أنتظر منك موقفًا أكثر تفتحًا نحو زميلات العمل!
- هناك سحرة وهناك سحرة.. إن (هارييت) هذه تمارس سحرًا أسود مشئومًا.. وأعتقد أنها كالأفعى نفعها لا يذكر وضررها يفوق الوصف.. والخلاص منها هو السبيل..
وأشار نحو (ماري) الممتقعة.. وقال:
- دعيني أحك لك ما سيحدث.....

* * *

لأنه رجل لطيف طيب..
ولا أحد ينكر ذلك..

* * *

ملأى بالأسئلة والحيرة تعودين إلى ممارسة عملك وحياتك الطبيعية أي (ماري)..
الآن أنت تخشين كل شيء.. ترتجفين فرقًا من كل ظل.. ولم يعد الرعب يروق لك كما كان في الماضي..
إن ما سمعته عن (لويز) وصورة (هيلين) المقتولة لا تبرح خيالك..
حتى أنك - في دارك - تصيرين عاجزة تمامًا عن البقاء وحدك في غرفة، حتى العزاء والسلوى تجدينهما في صحبة طفل صغير مثل أخيك.. أو عجوز مثل والدتك.
لكن العلامات تتوالى..
لماذا تجدين كل كوب تتركينه مقلوبًا؟.. وما سر الدم على منشفتك التي تتركينها في الحمام؟.. وما سر الرقم (٣) المكتوب على البخار المتراكم فوق مرآة الحمام؟.. ما سر ذات الرقم تجدينه مكتوبًا فوق غبار الطاولة؟
ستنادين كل فرد بالدار تسألينه:
- لماذا كتبت هذا على المرأة؟
وسيجيب - مع هزة من الكتفين - قائلًا:
- لم أكتب شيئًا.. لماذا تسألين؟

* * *

لماذا تتكرر معاكسات الهاتف هذه الأيام؟
في كل مرة يدق الجرس فترفعين السماعة.. فلا تسمعين صوتًا على الجانب الآخر..
- هالو!.. هالو!
لا شيء سوى اللهاث البطيء المتحشرج.. والانتظار.. لماذا بالضبط؟
- هاللو!.. أجب أيها الوقح!
وتضعين السماعة في عصبية.. ثم ترفعينها مرة أخرى آملة في سماع من يتكلم..لكن لا جدوى.. دائمًا الصمت المطبق واللهاث..

* * *

وحين تغادرين الدار ليلًا ستعرفين أن هذه هي رحلتك الأخيرة..
أنت لا تريدين، لكن قدميك تتحركان كأن لهما حياة خاصة بهما.. تنسابين كقطرة الندى متسللة من الدار.. تعالجين الأقفال.. تضعين الحذاء في قدميك وتخرجين إلى الشارع المظلم... وتمشين..
صوت الكلاب تنبح من بعيد.. والبرد.. تضمين معطفك على جسدك المرتجف وتواصلين المسير.. إلى أين؟..
لا تدرين..لكن قدميك تعرفان الطريق..
وتدخلين ذلك الزقاق المظلم المهجور وتقفين هنيهة تنتظرين، ثم تسمعين صوتًا يناديك:

- (ماري)!.

صوتًا هامسًا رقيقًا.. فتنظرين إلى الوراء.. لتجدي (سيلويت) ذلك الرجل واقفًا عكس النور فلا تبدو لك ملامحه.. يسد طرف الزقاق وفي فمه لفافة تبغ مشتعلة تبدو كجمرة من جهنم..

- لقد انتظرت قرنًا من أجل هذه اللحظة.. ويمد يده في جيبه ليخرج شيئًا ما.. شيئًا أقرب إلى حبل ملفوف..

عندئذ تفهمين حقيقة رقم (٣)..

أنت الثالثة في دائرة الانتقام.. دائرة ألاعيب (هاربيت)..

لقد جاء دورك يا صغيرتي.. ومع (جاك السفاح) العائد..

لكنها - أعدك - لن تكون لحظات طويلة!..

* * *



ويمدّ يده فى جيبه ليخرج شيئا ما .. شيئا أقرب إلى حبل ملفوف ..

انتهى (لوسيفر) من سرد قصته..

جمع أوراق (التاروت) وراح يعيد خلطها، على حين تنهدت الفتاة في رعب.. وتحسست عنقها كأنما تشعر بحبل (جاك السفاح) عليه ثم تساءلت:

- هل.. هل هذا هو كل شيء؟

- بالفعل..

- وكيف أمنعه؟

- الجواب يكمن في (هاربيت)..

نظرت الفتاة إلى الأم.. ثم أعلنتا أنهما راغبتان في الرحيل.. فقد تأخر الوقت كثيرًا، فأشار لهما (لوسيفر) بيده إشارة وقور معناها أنهما تستطيعان الانصراف..

- شكرًا لك يا د. (لوسيفر) - قالت مسز (مازورسكي) -: على كل ما قدمته من أجلنا.. أنت أنرت لنا الغد المظلم.. ولقد وثقنا بعلمك. فاستحققنا أن نعرف..

هز الوغد رأسه في تواضع.. لم أر في حياتي تواضعًا هو أقرب إلى الغرور من هذا..، وانتظر حتى نسقت المرأتان ثيابهما وغادرتا الصومعة.. ثم نظر نحونا.. وتساءل:

- بقي اثنان.. أنت يا (كولبي).. و د. (رفعت).. بمن أبدأ؟

قلت له محتجًا:

- نسيت مستر (كلارتون)..

- إنه قد مر بتجربة (التاروت) بالفعل.. وذلك منذ أسبوعين..

- إذن أبدأ بـ (كولبي)..

- ليكن..

وناول الأوراق إلى (كولبي).. وابتسم..

ابتسامة لها ألف معنى..

* * *

الحكاية الخامسة

(مذءوب!)

بطولة: سام كولبي

(ستطلق مسدسك.. ولكن ماذا تستطيع رصاصة فضية واحدة أن تفعل؟).



الاسم : سام كولبي .

السن : ٥٠ عـامًا .

الإقامة : نيـويـورك.

المهنة : نصـــاب .

سمات شخصية : أعتقد أننـــا عرفنـــا الكثيـــر عن (كولبي) في القصة السابقة (أســـطورة بو).. ولمن لم يقرأها نقول إنه معدوم البراعة بائس جدًا .. وبرغم أنـــه يهودي فهو لا يملك مالًا يذكر، ولـــم يحرز نجاحًا مهنيًا من أي نوع . وعامة هو رجل بلا خطر .. طيب القلب لكنه لا يبعث الراحة في النفس ، وأنت لا تســـتطيع أن تثق به أكثر من ثقتك بثعبان عجوز لم يعد قادرًا على اللدغ .

الحالة الصحية : لا يحتاج الأمر منك أن تكون إخصائيًا في المســـالك البولية كي تعرف أن (بروستاتا) هذا الرجل تحتاج إلى استئصال عاجل .

بدأ د. (لوسيفر) في تصفح أوراق (تاروت) (كولبي).. ولقد بدا لي غريبًا أن يعكف ساحر على قراءة طالع ساحر آخر..

ثم وجدت الأمر ليس غريبًا إلى هذا الحد.. فلكم ذهبت إلى طبيب عيون أو قلب برغم أنني طبيب أنا الآخر..

لن أحكى لك ما أظهرته الأوراق منعًا للإملال.. فكلانا لا يفهم منها شيئًا.. سأحاول أن أدخل إلى القصة مباشرة... ظهر رجل عند مدخل الحجرة لم أتبين وجهه جيدًا في الضوء الخافت.. وتساءل:

- د. (لوسيفر).. هل ستظل وقتًا أطول هاهنا؟.. إن الكثيرين قد عادوا إلى ديارهم وكذا سائق السيارة ينتظر..

ابتسم (لوسيفر) وغمغم:

- كذلك (كولبي) ود. (إسماعيل) ينتظران.. إنني سأبقى هنا فترة أطول يا عزيزي..

نظرت إلى ميناء ساعتي.. إنها الثالثة صباحًا..

شعرت بمعدتي تتقلص جوعًا.. يبدو أنني هضمت ما أكلت من كرفس بسرعة غير متوقعة.. كما أن علبة سجائري صارت فارغة كعقل ضفدع، وأخشى ألا أجد من يبيع تبغًا عند عودتي..

لكني وجدت (هاري) يتابع الكلام في شغف، فقررت أن أنتظر بعض الوقت.. لكن لن أسمح لهذا المعتوه (لوسيفر) أن يقرأ طالعي.. أنا أعرف طالعي جيدًا: سأعيش بعض الوقت ثم أموت.. وموتى آت لا محالة.. ربما الآن وربما بعد مائة عام.. لا يهم...

وكذا.. جلست القرفصاء أصغي لما يقول د. (لوسيفر) عن (كولبي)..

* * *

يقول الأب (جونز) وهو يرسم علامة الصليب:

- هناك مذءوب في دار (هالبروك).. أنا واثق من هذا.. لكننا بحاجة إلى من يفهم هذه الأمور..

* * *

إن الناس يحبون من ينصب عليهم...

لهذا وحين وقعت الواقعة؛ لم يجد الأب (جونز) من يلجأ إليه سوى (سام كولبي)..

على الأقل هو يعرفه منذ زمن.. وصحيح أن (جونز) - كقس كاثوليكي - لم يكن يحب اليهود البتة، فإنه وجد أن الوقت ليس مناسبًا لمعاداة السامية إذا كان (كولبي) هذا سيقدم الخلاص لمجموعة من الأرواح المعذبة..

وإلى دار (كولبي) ذهب في تلك الليلة بردائه الكهنوتي الأسود الطويل وعلى رأسه قبعة سوداء مما أعطى مظهره كله صرامة أثارت الرعب في قلب اليهودي النصاب..

وبعد احتساء أقداح الشوكولاتة الساخنة التي لا يشرب (كولبي) سواها.. وبعد ما ذهب (كولبي) ثلاث مرات إلى دورة المياه بسبب البروستاتا كما تعلمون..

بعد كل هذا وجد الأب الوقت ملائمًا كي يفتح الموضوع..

قال وهو يحرك ساقًا ليضعها فوق ساق:
- لك جئت يا (كولبي) لأنني لا أعرف لمن ألجأ..
هز (كولبي) رأسه في تواضع.. وجلس يجفف عرقه:
- على الرحب والسعة..
قال الأب وهو يمسك كوب الشوكولاتة بكلتا راحتيه:
- الأمر يتعلق بقضية.. لنقل إن لها حساسية خاصة بالنسبة لي كرجل كنيسة.. لا أدري ما إذا كنت تفهم قصدي؟.
- استمر أرجوك..
- أنت تعلم أننا نتلقى اعترافات عديدة في مهنتنا ولا يحق لنا الكلام عنها بأي ثمن.. لكنني أجد نفسي مضطرًا إلى أخذ رأيك حتى نتمكن من منع جريمة قبل وقوعها الأمر الذي سيمزق ضميري أبد الآبدين..
ثم تقلص وجهه.. بدت تجاعيده في الضوء الخافت كأنما أخاديد في أرض صحراوية لم تعرف المطر دهرًا.. وأردف:
- أتراك تعرف شيئًا عن المذءوبين؟

* * *

المذءوب من أقدم الأساطير في تاريخ البشر..، وهي أسطورة الرجل الأدمي الذي يتحول إلى ذئب عندما يكتمل القمر بدرًا.. ويعيث في الأرض فسادًا ليلة كاملة، ثم في الصباح يعود إلى طبيعته ويكون من العسير معرفة شخصيته[5]..
ويوصي العالمون بهذه الأمور من يهاجمه مذءوب أن يحرص على إصابته أو انتزاع مخلب من يده.. عندئذ يمكن في الصباح العثور على صاحب الإصابة أو من فقد إصبعًا من يده.. ويقتل بنصل من فضة..
يقول العلماء إن خرافة المذءوب هي تفسير شعبي لمرض (البورفريا) الناجم عن اختلال تمثيل الحديد في الجسم.. من ثم يكتسب المريض سحنة شاحبة وأنيابًا حادة وأظفارًا طويلة.. ويستطيل شعر حاجبيه ويتجعد جلده، ويهاب نور الشمس..
أي أنه يتحول - حرفيًا - إلى ذئب بشري، لهذا سمى العلماء هذا المرض باسم (مرض الرجل الذئب).
على أن هناك شواهد عدة مريبة على هذه الأسطورة.. لقد وصفها أطباء يونانيون لهم ثقلهم.. ومنهم (مارسيليوس السايدي) من (أركاديا) حين تحدث عما يدعى (لايكا أنثروبي).. أي (حالة التصور الذئبي) حيث يأكل المريض اللحم النيئ ويعوي كلما رأى القمر بدرًا..
حتى العلماء العرب شديدو الرصانة كتبوا عن هذا المرض.. ومنهم (ابن سينا) و (الزهراوي)، وقد دعوه بـ (القطرب) بضم القاف والراء.. وهي محاولة لتعريب حروف (لايكا أنثروبي) في صورة قريبة من فهم العقل العربي..
إن (كولبي) لم ير في حياته مذءوبًا.. لكنه لا يرفض وجودهم أبدًا..

* * *

- نعم.. أعرف الكثير عنهم في الواقع..
- إذن قد وجدت ضالتي..
ووضع الأب القدح على المائدة المستديرة.. وقال:
- منذ شهر زارني واحد من آل (هالبروك) في الكنيسة..
أنت تعرف أن المعترف يدخل غرفة مظلمة حتى لا أرى وجهه أو أعرف من هو، في حين أجلس أنا بالخارج أصغي إلى كلماته.. وبهذا لم أعرف قط من هو..
- قلت إنه من آل (هالبروك)..
- نعم.. إن آل (هالبروك) يترددون علي بانتظام للاعتراف.. وأنا أعرفهم من لهجتهم الإيرلندية الواضحة.. ثم إن كل رجال الأسرة لهم ذات الصوت المميز..، صدقني إنني واثق بأنه من هذه الأسرة..
- وهل هم كثيرون؟
- حوالي أربعة رجال - بما فيهم الأب - وامرأتان.. الأم والابنة.. وهم عائلة منغلقة متدينة..
- أرجو أن تستمر..
- قال لي هذا المعترف: إنه يريد أن أعاونه لأنه بحاجة إلى الخلاص من اللعنة التي تلاحقه.. لقد هاجمه مذءوب منذ يومين في شوارع (نيويورك).. وهو لم يتبين شيئًا من ملامحه سوى أنه كان يرتدي ثياب رجل عادي إلا أن رأسه رأس ذئب..
- إن هذا صعب التصديق.
- ربما.. لكن الرجل بدا لي صادقًا.. قال إن المذءوب جرحه في ذراعه ثم فر عبر الأزقة، وعاد (هالبروك) هذا إلى داره.. وأخفى هذه التجربة المروعة عن ذويه.. زعم لهم أنه جرح في حادث سيارة.. وقام بتضميد الجرح..، المشكلة هي أنه يخشى أن يتحول بدوره إلى مذءوب حين يكتمل القمر بدرًا..
- وماذا قلت له؟
- بالطبع قلت له إن كل هذا وهم.. ونصحته بأن يعود إلى داره ويصلي كثيرًا.. ولسوف يمر كل شيء على ما يرام...
ابتسم (كولبي) ابتسامته الطفولية الوديعة:
- إذن لقد انتهت المشكلة..
هز القس رأسه في إنهاك وقال:
- بالطبع لا.. ما حدث بعد ذلك هو أنني قرأت في جريدة الأمس أن ابنة (هالبروك) قد لاقت حتفها..، وجدوها في الفناء الخلفي للدار ممزقة تمامًا.. وكان ضياء القمر يغمر المكان، حضر رجال الشرطة وتفحصوا الجثة ثم أعلنوا أن من فعل هذا مجنون حتمًا.. مجنون وله أظفار مخلبية طويلة وأنياب..، أضف إلى هذا أن آثار الأقدام التي شوهدت جوار الجثة هي أقرب إلى آثار أقدام كلب كبير - أو ذئب - إذا أردنا الدقة..
- وحفظ الموضوع..

- بالتأكيد.. لا يوجد دليل على شيء..، لكنني - أنا وأنت - نجد شيئًا مألوفًا في كل هذا..، يبدو لي أن ما قاله ذلك البائس الذي كان يخشى أن يصير مذءوبًا.. يبدو لي على شيء من الصواب.. هناك مذءوب في دار (هالبروك)..

- وما المطلوب مني؟

- أريدك أن تجده.. وتمنحني فرصة تخليص روحه كاملة، فإن كان ذلك فهو خير.. وإلا كان علينا أن نعدمه!

ثم مد يده وصافح (كولبي) في حرارة:

- إنني أعتمد عليك يا سيدي!

* * *

لم يستطع (كولبي) أن يرفض العملية..

ولم يكن هذا عن حب للعمل الإنساني أو مقت للمذءوبين.. كل ما هنالك هو أنه لم يطق أن يقول لا لعرض مغر كهذا.. لقد تصاعد الغرور الشخصي إلى رأسه.. بالإضافة إلى أنه لم يعتد أن يعلن جهله بما يجهل.. دائمًا هو (كولبي) العبقري الذي يفهم في كل شيء ولا يخفى عليه شيء..

ثم هو - وهذا لا ينكر - جائع منذ أسابيع، وبحاجة إلى بعض المال حتى ولو كان هذا المال ملوثًا بالدماء التي تسيل من مخالب المذءوبين..

وهكذا...

قضى يومين يطالع كل ما كتب في مراجع السحر عن (الويروولف) أو (المذءوب) أو (مسخ الذئب) أو (القطرب).. أيا ما كان اسم هذا الداء..

ثم إجماع عام في المراجع كلها على أن الخلاص للمذءوب لا يكون إلا بالموت.. موت بالفضة دائمًا..

وهكذا جلس (كولبى) إلى مكتبه، وشرع يسبك رصاصة من الفضة دسها في مسدسه.. ثم وضع المسدس في جيبه وذهب إلى موعده مع الأب (جونز).

* * *

العقبة الأولى: هي دخول الدار بشكل طبيعي يسمح بملاحظة أفراد الأسرة..

العقبة الثانية: هي معرفة المذءوب.. وهي مهمة عسيرة حقًا.. لأنه سيكون شخصًا عاديًا تمامًا..

وقد رتب له الأب (جونز) الأمر..

ذهب معه إلى دار (هالبروك)، وزعم لرب الأسرة (برنارد هالبروك) المحامي المتقاعد الذي بلغ من الكبر عتيًا.. زعم له أن (كولبي) هو رجل تحر مكلف بالتحقيق في سلسلة جرائم غامضة كلها تماثل ما حدث للفتاة، وأوصاه خيرًا بـ (كولبي) لأن بعض التعاون معه قد يجنب ضحايا آخرين ميتة بشعة..

وأدرك (كولبي) أن القس محبوب في هذه الدار وذو شعبية؛ لأن الحب انعكس عليه هو نفسه في صورة استقبال ودي محبب للنفس.. واستطاع (كولبي) أن يصنف الأسرة..

١ - الأب: المحامي الإيرلندي والشيخ الداهية.
٢ - الأم: عجوز شمطاء حبيسة مقعد متحرك.
٣ - أوسكار: الابن الأكبر - ٢٨ سنة - محاسب.
٤ - كلود: الابن الأوسط - ٢٩ سنة - مدرس.
٥ - جورج: الابن الأصغر - ٢٩ سنة - مدرس.
وكانت الجلسة - التي استغرقت ساعتين - عادية جدًا خالية مما يثير الشبهات، لا شيء يثير الريبة
سوى أن (كلود) يبدو كالذئب في ملامحه الصارمة وعينية الرماديتين الميتتين..، وسوى أن (جورج) يصدر صوتًا غريبًا - كزئير الضواري - حين يلتهم اللحم، وسوى أن (أوسكار) له أظفار أطول من اللازم، وسوى أن الأب يصدر صوتًا كعواء الذئب كلما سعل.
مجرد عائلة بريئة أخرى.. ولا شيء يريب..

* * *

قال د. (لوسيفر):
- وهكذا غادرت الدار يا (كولبي) دون تقدم يذكر..، لكنك لم تنس أن تخبرهم أنك ستعود يوم الرابع عشر من (يوليو) لتواصل التحريات..، وطبعًا لا داعي للقول إن هذا هو اليوم الذي يكتمل فيه القمر بدرًا..
ومط عنقه إلى الأمام وابتسم:
- سيكون هذا بعد أسبوع من الآن.. أليس هذا صحيحًا؟
- بلى.. بلى.. كل ما تقول صواب..
- وهل لديك الآن منهاج عمل معين؟
قال (كولبي) في حماس:
- سأقضي الليل معهم.. الجميع في مكان واحد...
- وإذا تحول أحدهم إلى مذءوب..
- سيتلو الأب (جونز) صلواته.. فإن لم تجد كانت رصاصة من الفضة كافية جدًا..
ضحك د. (لوسيفر) ضحكته الطويلة المقيتة.. ثم قال:
- لن يكون الأمر لعبة أطفال يا (كولبي).. دعني أحك لك ما سيحدث، وكما أراه في أوراق (التاروت)

* * *

ليلة الرابع عشر من (يوليو)..
الليلة يكتمل القمر بدرًا.. ويكشف مذءوب عن نفسه ويلقي ساحر متحمس نهايته.. أو لعله المذءوب الذي سيلقاها؟..
ليلة الرابع عشر من (يوليو)..

هأنتذا يا (كولبي) في قاعة الاستقبال لدى هذه الأسرة اللطيفة.. وقد وضعت المسدس ذا الرصاصة الفضية في جيبك، وحولك يجلس أفراد الأسرة غير فاهمين لما تعتزمه..

يقول الأب في تململ:

- أنا لا أدري لماذا جمعتنا يا مستر (كولبي).. ولماذا تصر على أن نحتشد جميعًا في مكان واحد؟

تقول أنت في ذكاء وأنت ترمقهم:

- صبرًا سيدي.. فهناك أشياء ستتضح بعد قليل..

ثم تنظر إلى الباب في قلق:

- أرجو منك أن توصد الباب وتعطيني المفتاح!

- لحظة!.. لو كنت تظن أن...

- أنا لا أظن شيئًا يا سيدي.. أرجوك أن تطيعني..

- ليكن.. آمل أن تنتهي هذه المهزلة حالًا..

ويأمر الأب ابنه الأكبر أن يذهب فيوصد الباب.. ثم يعود بالمفتاح ليناوله للأب.. وينظر هذا إلى (كولبي) نظرة تقول:

هأنذا أمضي معك إلى نهاية هذا الهراء..

عندئذ تتساءل يا (كولبي) في توتر:

- هل النوافذ موصدة؟

يتنهد الأب في سأم:

- ف ف ف!.. نعم.. هلا أوضحت الآن؟

- ليس بعد.. إنني..

وهنا يثب الابن الأوسط (كلود) متوترًا.. يجيء يمينًا ويسارًا.. كل عضلة في جسده تهتز.. ثم يقول:

- أنا.. أنا بحاجة إلى الخروج..!.. لابد..!

لابد؟..

مرحبًا بك يا صديقي في نادي المذءوبين.. تميل في مقعدك نحوه.. وعلى وجهك ترتسم علامة النصر:

- لماذا تحتاج إلى الخروج يا (كلود)؟

- لأن.. لأنني أريد ذلك!

- ولماذا تريد ذلك؟

- إن لي ارتباطات قـ.. قوية.. أنت لا تفهم..

- بالعكس.. أفهمك تمامًا.

ويجلس الفتى متوترًا تلك الجلسة التي هي إلى الوقوف أقرب.. وتبدأ الشكوك تحتشد في ذهنك.. إن الأب (جونز) لم يأت هذه الليلة، ومعنى هذا أنك حر في التصرف.. مطلق القرار..

ولكن.. عليك الانتظار أكثر حتى تتأكد..

* * *

وتمر الثواني.. تتجمع في صورة دقائق.. والدقائق تحتشد في شكل ساعات.. ساعة ونصف على وجه التحديد ذهبت فيها إلى الحمام أربع مرات لأنها البروستاتا كما يعلم الجميع..

علامات التوتر تزداد على (كلود).. يئن.. يمسك ذراعه.. ثم إنه يداري وجهه بعض الوقت.. و... ويسقط أرضًا..

يهرع (أوسكار) نحوه ليرفعه بين ذراعيه القويتين بينما الأم تولول من مقعدها المتحرك..

ينيمه (أوسكار) على الأريكة.. فتسير أنت مسرعًا لترى وجهه ذا العينين المغمضتين.. لا جدال هنالك.. لم يكن وجه (كلود) مشعرًا كهذا من قبل.. لم تكن أسنانه حادة إلى هذا الحد.. ولم تكن له هذه المخالب.. ثمة تحول لاشك فيه يحدث الآن..

تمد يدك إلى جيبك وتخرج المسدس..

- ما هذا الذي تفعله يا أحمق؟

يدوي صوت الأب متسائلًا.. فترد وأنت تتراجع عن الفتى فاقد الوعي دون أن تبعد فوهة المسدس عنه:

- لا جدال هنالك أيها الأب.. إن ابنك مذءوب.. وهو من مزق جثة ابنتك منذ شهر.. ستتكفل رصاصتي الفضية بإنهاء المأساة بشرط أن تكونوا شهودي على هذا التحول..!

عندئذ تدوي الضحكات..

الجميع يضحك.. الأب حيث وقف جوار المدفأة.. (أوسكار) حيث جلس على الأريكة جوار أخيه.. وحتى الأم على مقعدها المتحرك..

وحين استطاعوا أخيرًا أن يتمالكوا أنفسهم، نظروا إلى وجهك المليء بالحنق.. وعادوا يضحكون..



يدوى صوت الأب متساءلا .. فترد وأنت تتراجع عن الفتى فاقد الوعى دون أن تبعد فوهة المسدس عنه :

- أنا لا أهذي - تقولها غاضبًا - انظروا إلى وجهه لتدركوا مبلغ صدقي!
قال الأب وهو يخرج يده من جيبه:
- هو هو هو!.. أنت صادق يا (كولبي).. هو هو!.. لكنك أبله!
عندئذ ترى مخالبه..، وترى شعر حاجبيه الذي يزداد كثافة..
وترمق الأم حيث جلست على مقعدها فتراها تعض على شفتيها بنابين حادين واللعاب يتساقط من فيها..
أما (أوسكار) و (جورج) فكان الشعر قد غطى وجهيهما تمامًا..
- ألم تفهم بعد يا (كولبي) إننا عائلة من المذءوبين؟.. وأن الداء انتقل إلينا جميعًا من (جورج) الشهر الماضي بعد ما قتل أخته وجرحنا جميعًا؟.. ألم تفهم بعد أنك وحدك في بيت موصد الأبواب وسط خمسة مذءوبين؟!
ستصرخ يا (كولبي) لكن أحدًا لن يسمعك..
ستطلق مسدسك.. ولكن ماذا تستطيع رصاصة فضية يتيمة أن تفعل؟!...
لقد انتهت مشاكلك مع البروستاتا... إلى الأبد..!
أنهى د. (لوسيفر) قصته المروعة وهو يهتز كاتمًا ضحكة.. ثم إنه أمسك أوراق (التاروت) اللعينة وشرع يطويها وينشرها بين يديه في الضوء الأخضر الكئيب..
كان (كولبي) يرتجف كورقة، ولم يفلح أحدنا في تهدئته.. وأدركت أنه يرى الموقف الآن بكل تفاصيله الرهيبة..
- كلهم مذءوبون؟
- كلهم!
- دون استثناء؟
- دون استثناء؟
ثم إن (لوسيفر) نظر نحوي.. وداعب القرط في أذنه.. ثم قال لي في لهجة محببة للنفس بصوته الساحر..
- الآن لم يبق سواك أي د.. (رفعت).. ولقد عهدتك لا تصدق حرفًا منذ جلسنا.. كمن يرى البهاء السماوي كاملًا ثم يأبى أن يؤمن..
قلت وأنا أنفث دخان التبغ في وجهه متظاهرًا بالثبات.
- نحن كمسلمين نأبى أن نصدق أن هناك من يعرف الغيب.. والمنجمون يكذبون ولو صدقوا..، إنها مسألة عقيدة إذا أردت رأيي.. وإيماني يعتمد على ألا أؤمن بأشياء كهذه..
- لكنك ستجرب (التاروت)..
- إن هي إلا لحظة وهن بشري.. فضول لا أكثر..
ابتسم وتبادل النظر مع (كلارتون)..
- أنت سمعت وعشت نهايات هؤلاء الجالسين..
- وماذا عن نهايتي؟
- إن الأمر فيما يتعلق بك يا د. (رفعت) لبسيط جدًا.. فأنت كهل وتعيش وحيدًا.. وأنت رجل مثقف تعرف جيدًا كل الأشياء المرعبة التي قد تحدث لكهل وحيد.. مثلك يا د. (رفعت)!

* * *

الحكاية السادسة

(خطوات في الردهة)

بطولة: د. رفعت إسماعيل

(نظرات خالية من التعبير، لكنها - في ذات الوقت - تقول الكثير جدًا..!)



الاسم : رفعت إسماعيل

السن : ٤٤ عامًا .

المهنة : طبيب بشري

وأستاذ جامعي .

الجنسية : مصري .

الحالة الاجتماعية :

ذئب عجوز متوحد .

الهوايات : بلا هوايات إلا إذا اعتبرنا التدخين هواية ، وحظـــه العاثر يوقعه دومًا مـــع مصاصي الدماء والموتى الأحياء والسحرة والمذءوبين . لكنه لم يحب هذا يومًا ولم يسع له . إن حياة (رفعت إسماعيل) لهي سلسلة طويلة لا تنتهي من التورط .

سمات شخصية : أصلع كحوض لأسماك الزينة ، نحيل كالقلم الرصاص ، معتل الصحة كمســـتعمرة درن كاملة ، يدخن كـ (برلين) حين دخلها الحلفاء.

ناولني د. (لوسيفر) أوراق (التاروت) كي أخلطها..
شعرت بقشعريرة حين لامست أناملي أنامله الباردة الصلبة..
الأوراق نفسها كانت ناعمة الملمس كالأفعى (أنا لم ألمس أفعى في حياتي لكن لابد أنها كذلك)..
تفوح برائحة لا سبيل لوصفها هي مزاج من التوابل والقدم والعطور الشرقية..
بدأت أركز ذهني - مخلصًا - في أي شيء.. لكن سدى..
ظل تفكيري مبعثرًا فوق رمال الاهتمامات البشرية..، وخطر لي للحظة أن هذا سيؤدي إلى فساد التجربة ثم تذكرت أن التجربة فاسدة من الأصل، ولن تنجح بأي منطق..
وفرغت من تقليب الأوراق فأعدتها له..
بدأ الرجل يفرز الأوراق على المائدة في تؤدة:
ورقة الموت الكئيبة أولًا..!..
نظر لي في تهكم لحظة.. ثم غمغم:
- قصتك تبدأ بالموت. فكيف تنتهي؟.. أعتقد أنك من أصحاب الباع الطويل في النحس يا صديقي!
- هذا ليس جديدًا على..
وشرع يتأمل باقي الأوراق..
ورقة المحاكمة.. ثم ورقة القمر.. ثم ورقة المشنوق...
قلت له متهكمًا:
- يبدو لي أنني سأقتل رجلًا ما حين يكتمل القمر.. وتتم محاكمتي وأعدم شنقًا!
- صه!
قالها لي في حزم.. وقد بدا لي كأنما يركز تفكيره بعنف.. ثم أردف:
- حسب التفسير السيكولوجي لهذه الأوراق.. أنت مضطر للتضحية ليعود ميلاد نفسك.. يجب أن تسمو بذاتك فوق الوجود المادي..
- هذا كلام عائم بلا رأس ولا ذيل..
- صبرًا.. إن السحر هو التفسير الوحيد الذي أركن إليه هنا..
وشرع يحكي لي ما يرى..

* * *

- أنا مشرفًا على رحلة طلابية؟!
هكذا هتف د. (رفعت) وهو يقرأ اسمه الذي أرسلته له رعاية الشباب بالكلية مطالبة إياه بأن يكون مسئولًا عن رحلة طلابية إلى القناطر الخيرية..
شرع الرجل يولول ويصرخ.. فهو آخر من يصلح لهذه المهمة السقيمة بين كل أساتذة الكلية..
لكن هؤلاء القوم كانوا مصرين كالكابوس.. وقالوا له كلامًا لا أول له ولا آخر عن علاقة الطالب بالأستاذ، وعن الأبوة، وعن الدور الريادي للأساتذة.. و....

وهكذا وجد العجوز (رفعت إسماعيل) نفسه جالسًا في مقعد خلفي من الحافلة يصغي لهرج الطلبة ومرجهم، وقرع الطبول وتصفيق الأكف..

وتلك الأغاني السخيفة المبتذلة التي يرددها كل الطلاب في كل الرحلات منذ كان هو نفسه طالبًا..

الصبر يا د. (رفعت)!.. الصبر!..

ظل يردد هذا في سره وهو يمضغ لفافة تبغه العاشرة ويتسلى بقراءة صفحة الوفيات في الجريدة..

كان يرجو أن يتركوه وشأنه لكنهم لم يرحموه.. أقحموه في عشرات الألعاب السخيفة الجماعية على غرار (كيلو بامية) وسواها.. وكان عليه أن يبتسم على الرغم منه بينما هؤلاء الفتيان والفتيات المفعمون بحب الحياة إلى حد المرض يهتزون حوله مرددين الأغاني والدعابات..

بالنسبة لـ (رفعت) كان واجبه أمام نفسه يتلخص في أن يمنع طالبًا من أن ينتحر أو طالبة من أن تدهمها سيارة.. لكن المرح شيء اختياري لا يمكن إرغامك عليه بقرار حكومي..

* * *

وفي القناطر الخيرية واصل هؤلاء المهرجون عبثهم.

وفي ظل شجرة وارفة جلس د. (رفعت) يدخن ويرمق المهزلة البشرية الجارية أمامه..

ثم إنه من يده إلى جعبته فأخرج الكاميرا العاكسة التي كان قد اشتراها من (انجلترا) منذ عشرة أعوام.

لم يكن (رفعت إسماعيل) من هواة التصوير.. لكنه أحس بحاجته إلى استعمال الكاميرا قبل أن تتلف من طول إهمالها..

راح يتنقل هنا وهناك يختار كادرات متوازنة تعكس جمال الطبيعة، وإبداع خالقها.. لكنه - كلما ذهب إلى مكان - وجد الكادر يمتلئ بعشرات الأوغاد الذين لا تدري من أين يأتون. كلهم يبتسمون وقد كونوا الصفين الشهيرين: الصف الجالس على ركبتيه.. والصف الواقف خلفه، ولا بأس بواحد أو اثنين من الصف الخلفي يمدون إصبعين ليرسموا قرونًا فوق رءوس الغافلين في الصف الأول!.. والكل يرسم على وجهه بسمة بلهاء..

عليكم اللعنة جميعًا..!

كان د. (رفعت) يعرف الموجودين جميعًا، إن لم يكن بالاسم فعلى الأقل بالوجه.

لهذا أثار انتباهه شابان يقفان بمعزل عن الآخرين.. أحدهما شاب وسيم متأنق يعاني من ظاهرة (الألبينو) التي يسميها العامة بـ (عدو الشمس).. فهو أحمر اللون أبيض شعر الرأس والحاجبين والأهداب.. وعيناه رماديتان محمرتان..، والآخر كان فتاة بارعة الجمال ترتدي منظارًا أسود..

وكلا الشابين كان يمسك بكف صاحبه، وبدا أنهما ينأيان عن الجمع ولا يكفان عن تبادل الهمسات، أو الجلوس متقاربي الرأس في ظل إحدى الأشجار.. إنه الحب إذن..

مال (رفعت) على أذن أحد الطلبة سائلًا عنهما.. فهو لم يرهما من قبل وبالتأكيد لم يدرس لهما قط.. فأجابه الطالب:

- إنهما (عادل) و (هالة).. زوجان شابان من السنة الثالثة.. منعزلان تمامًا ولا يختلطان بأحد.. مهذبان..

- لم أرهما قط..

- جاءا من الإسكندرية هذا الشهر فقط.. وهما يثيران التساؤل دائمًا لكن أحدًا لم يستطع معرفة ما هو أكثر..

نظر د. (رفعت) إلى الزوجين الشابين حيث وقفا يتأملان بعض الزهور.. لم يستطع أن يخفي حسده لهما.. كلاهما شاب وسيم ويحب الآخر.. هذه هي السن التي يمكن للمرء فيها أن يستمتع بالحب ويتوحد بالطبيعة..، هو أيضًا كان تواقًا إلى الحب في هذه السن.. لكنه كان عاجزًا عنه.. مجرد طالب ريفي خجول عاكف على الدراسة.. وعلى تدبير حياته بالملاليم التي ترسلها له أمه من القرية.. وها هو ذا - بعد كل هذه الأعوام - عاجز عن الحب لأن القطار قد ولي بعيدًا..، حينما كان قادرًا على الحب لم يكن يملك.. وحينما ملك لم يعد قادرًا على الحب.

المهم.. رأى أن من واجبه نحو (عصفوري الحب) هذين أن يلتقط لهما بعض الصور خفية.. بشرط أن تبدو كأنها جاءت بالصدفة..

اتجه نحوهما وصوب الكاميرا..

وهنا حدث شيء غريب.. رآهما يفران من أمام العدسة كأنما هي فوهة بندقية مصوبة نحوهما..

غريب!.. لماذا يتصرفان هكذا؟.. وبدأ القلق يزحف إلى قلبه...

هل هما حقًا متزوجان؟.. ربما يزعمان هذا كي يظفرا بحرية أكثر، وعندئذ لن يرحبا بصورة فوتوغرافية تسجل علاقتهما..

ثم إنه استبعد هذا الاحتمال..

يخفيان علاقتهما عن من إذا ما كانا - بالفعل - يشهدان عليها مائة طالب وأستاذهم؟!..

هل هما متدينان من النوع الذي يؤكد تحريم التصوير؟.. لا يبدو عليهما أي نوع من التدين العادي أو المتطرف..

حاول مرة أخرى.. فمرات.. أن يلتقط صورة تضمهما..

لكن النتيجة واحدة في كل مرة.. أيقن (رفعت) أن هناك سرًا ما..

وفي المرة الأخيرة - بدافع العناد - اختبأ خلف كتف أحد الفتيان الواقفين أمامه.. والتقط صورة للشابين..

ولم يفته - عبر (محدد الرؤية) - أن يدرك أن الفتاة أدارت وجهها نحوه.. ورأته من خلف منظارها الأسود.. لكن بعد فوات الأوان.. ورآها تجذب ذراع زوجها لتلفت نظره..

انتهى اليوم وبدأت رحلة العودة في الحافلة..

وفي المقعد الخلفي جلس د. (رفعت) يوزع الابتسامات متظاهرًا بالسرور بينما الضوضاء تصم أذنيه. إن هؤلاء الحمقى يعتقدون أن السبيل الأوحد للتعبير عن الحياة هو الصخب.. لو أن (ديكارت) هنا لغير مقولته الشهيرة إلى (أنا أصرخ إذن أنا موجود).

ولم يفت د. (رفعت) أن يلاحظ أن الفتى عدو الشمس لم يكف عن اختلاس النظر إليه..

نظرات طويلة خالية من التعبير..

لكنها - في ذات الوقت - تقول الكثير جدًا..

* * *

إلى هنا انتهى د. (لوسيفر) من كلامه.. ونظر لي ليسألني سؤاله التقليدي:
- هل ثمة خطأ فيما قلته؟
لم أستطع أن أرد..
إن الحقيقة المروعة هنا.. الحقيقة التي لم أستطع أن أفندها هي أن كل ما قاله صائب.
أنا قمت بهذه الرحلة فعلًا قبل قدومي إلى (الولايات المتحدة) بأسبوعين.. وكل ما ذكره صواب بلا أدنى تحريف..
كنت آمل أن يكشف لي عن زيفه.. إذ إنني أنا الوحيد الذي يستحيل أن يعرف عنه أي شيء..
في حالة مسز (مازورسكي) و (ماري) كان الرجل قادرًا على معرفة قصتهما من د. (هندريكس) خاصة وهذا الأخير هو من أوصاهما باستشارة د. (لوسيفر)..
في حالة (كولبي) لا توجد مشكلة.. فهذا الأبله لا يحسن الاحتفاظ بسر وقتًا أطول من الوقت الذي تمتلئ فيه مثانته..
في حالة (هاري) ظننت أنه ثرثر بشيء ما للشقراء التي كان معها وهي نقلت فحوى الحديث إلى د. (لوسيفر)..
وفي حالة (جون ميلز).. من يدري؟.. لربما كان هو نفسه متعاونًا مع (لوسيفر) كما يحدث كثيرًا مع وسطاء قارئي الأفكار..
أما أنا.. فالحق أقول إنني لا أملك أدنى فكرة..
ابتلعت ريقي وبصوت غريب قلت:
- أرجو أن تستمر..!

* * *

قال د. (لوسيفر):
- أنت لم تحمض الفيلم بعد يا د. (رفعت).. أرسلته إلى المعمل ثم نسيت كعادتك كل شيء عنه..
لكنك ستتذكر أمره حين تعود إلى (القاهرة).. وستذهب لاستلام الصور.. وعندئذ ستجد ما يثير قلقك.
لن تجد هذين الشابين في الصورة التي التقطتها لهما...
ستجد الخلفية والمشهد الطبيعي وحتى كتف الفتى الذي احتميت به.. لكنك فيما عدا ذلك لن تجد شيئًا..
إلى البيت ستعود حائرًا يا د. (رفعت) عاجزًا عن الفهم..
ما معنى ذلك؟..
معناه - بكل بساطة - أن هذين الشابين من مادة مغايرة لنا.. مادة لا تعكس الضوء..
أنت تعرف من قراءاتك أن هذا هو شأن الأشباح والأطياف ومصاصي الدماء.. فهل ينطبق شيء من هذا على هذين؟..

إن أحدًا من طلابك لا يعرف من أين جاءا ولا أين يذهبان بعد ساعات الدراسة.. إذن يحتمل الأمر أي شيء.. إنهما يذهبان إلى مجرة أخرى أو تحت الأرض أو إلى تابوت خشبي.. لا فارق.. المهم أنهما كائنان مخيفان..

الأسوأ هنا هو ما تلاحظه من آثار عبث في شقتك..

هناك من دخل الشقة في أثناء سفرك.. لم يسرق شيئًا (وأنت لا تملك ما يسرق).. لكنه بحث بعناية وصبر.. عن ماذا؟..

الأمر واضح ولا يحتاج بحثًا.....

* * *

وفي المساء تحكم إغلاق الشقة عليك.. ثم تدخل فراشك..

وبرغم مئات الخواطر القلقة يتسرب النعاس إلى عينيك ببطء.. ببطء.. وتنام...

إلى متى؟.. لا أحد يعرف... لكنك تصحو في قلب الليل على صوت خطوات في الردهة..

تهرع - حافي القدمين - إلى باب الغرفة، وتصيخ السمع.. نعم.. لا جدال في أن هناك من يمشي في الردهة..

تفتح الباب بعد أن تخرج مسدسك من تحت الحشية.. وبحركة مسرحية تمد يدك إلى مفتاح النور..

وتضيئه فلا تجد أحدًا.. تسمع صوت الخطوات يبتعد متجهًا إلى غرفة المكتب.

فتهرع إلى هناك.. وتمد يدك إلى زر الإضاءة..

وهنا تراهما...

لقد تبدلا كثيرًا والحق يقال..

لم يعد شيء في وجهيهما يمت لوجوه البشر.. بل هما كتلتان هلاميتان تسيلان باستمرار ويقطر منهما سائل أخضر لزج إلى البساط..

أما يداهما فقد. تحولتا إلى نوع من المجسات كأيدي الأخطبوط.. لكنهما كانا يرتديان ثياب الذكر والأنثى..

وترى الذكر فيهما يقف وراء المكتب المفتوح منهمكًا في تقليب الأوراق.. أما الأنثى فتقف جوار خزانة الكتب تفرزها وتلقى كتابًا تلو الآخر على البساط..

- معذرة على تطفلنا يا د. (رفعت).. ومعذرة على أننا لم نكلف نفسينا بالتحول إلى صورتكم!



لم يعد شيء في وجهيهما يمت لوجوه البشر .. بل هما كتلتان

هلاميتان ..

كذا يدوي صوت الذكر وهو جالس على المكتب لا يتحرك.. ثم يردف وهو يمسك مجموعة الصور بين يديه الرخوتين:

- أنت تفهم أننا لا نرغب بتاتًا في أن يرى هذه الصورة أحد..! فالفيلم عاجز تمامًا عن تسجين انعكاس أجسادنا..

- مـ.. من أنتما؟

- إنه لسؤال عسير.. لكنك تستطيع القول إننا مخلوقات قادمة من أعماق الأرض.. ونحن مكلفان بتعرفكم ودراسة أحوالكم ومدى استجابتكم لاحتمال الغزو!

- هل.. هل تمزح؟

- إن ملامح وجهي تؤكد لك أنني لا أمزح.. أرجو أن تترك هنا السلاح جانبًا فهو عديم النفع مع الكتل البروتوبلازمية من أمثالنا..

ثم ينهض متجها نحوك:

- كنا نحاول أن نتأقلم معكم لكن فضولك جعلك تتسرع.. حاولنا العثور على هذه الصور مرارًا في أثناء سفرك لكن سدى.. والآن وقد تخلصنا من الصور..

يقولها وهو يحاصرك ما بين الجدار وبين زوجته:

- حان الوقت للتخلص ممن رأى هذه الصور..!

.....

* * *

انتهى د. (لوسيفر) من الكلام فشرع يجمع أوراق (التاروت) ويدسها في علبة لامعة أنيقة..

ثم نظر لي بعينيه الحادتين النفاذتين:

- هل هناك أسئلة؟

قلت محاولًا تمالك أعصابي:

- حسبتك ستقدم لي نبوءة منطقية..لكنك قدمت لي قصة من قصص الخيال العلمي من طراز (إنهم بيننا)..

- أنت عائد إلى (مصر).. ولسوف ترى ما إذا كان د. (لوسيفر) نصابًا آخر أم عبقريًا..

قال (كلارتون) وهو ينهض على قدميه بصعوبة:

- والآن يا سادة.. إذا لم يكن لديكم مانع.. إن د. (لوسيفر) منهك وبحاجة إلى قسط من راحة..

نهض (هاري) و (ميلز) و (كولبي) أما أنا فظللت أرمق (لوسيفر) في ثبات بعض الوقت.. ثم غمغمت وأنا أقابل نظرته الحادة بمثلها:

- إن لي سؤالا أخيرًا يا د. (لوسيفر)..

- أي شيء..

- من أنت؟

نظر لي في صمت بعض الوقت.. ابتسامة خفية تلاعبت على ركن فمه الأيسر.. ثم نهض دون كلمة أخرى مغادرًا المكان مع (كولبي) و (كلارتون)..

* * *

ارتديت حذائي وتأبطت ذراع (هاري) لأتمكن من المشي.. ثم غادرنا الصومعة إلى قاعة الاحتفالات الهائلة بالخارج، التي خوت على عروشها تمامًا، فلم يعد بها سوى اثنين أو ثلاثة من السكارى.. وأطفئت أكثر الأضواء.. وسادت الفوضى المكان من أطباق فارغة متسخة وزجاجات مبعثرة وأعقاب سجائر.. بينما الخدم يعملون جاهدين على تنظيف كل هذا..

إنها الساعات الأولى من فجر يوم جديد...

* * *

خاتمة الحلقة

(لأنه رجل لطيف طيب.. ولا أحد ينكر ذلك!)

مرت أيام علي أنا و (هاري) لا نتحدث عن شيء سوى ما كان في تلكم الأمسية الطويلة الشبيهة بكابوس..

بصعوبة كنا نصدق أن كل هذا كان حقيقيًا، وأننا حقًا كنا هناك مع هذا الرجل غريب الأطوار.. وسط هذا الحفل الشاذ..

وفي الصحف قرأنا خبر سفر د. (لوسيفر) العالم المجري الشهير في شئون ما وراء الطبيعة عائدًا إلى وطنه..

عندئذ فقط استطعنا أن نصدق أن كل هذا مر بنا..

* * *

جلست و (هاري) في ذلك الصباح المشمس نتحدث عن نبوءات د. (لوسيفر) الست لمن كانوا معه..

قلت لـ (هاري) وأنا أشعل لفافة تبغ وأريح ساقي على مقعد آخر في الحديقة:

- مهما قلت لي.. أنا لا أؤمن بقدرة مخلوق على معرفة الغيب.. هذا الرجل كان يهذي بما لا يعلم..

- كان دقيقًا في شرح كل ما يدور بخلدنا.. أنت تذكر هذا..

اعتدلت في جلستي.. وقلت:

- أعترف أن هذا صحيح.. لست واثقًا من أنكم لم تثرثروا فيما يتعلق بكم، لكني واثق من أنني لم أفتح فمي..، في بلدي يوجد عدد من الدجالين الذين يزعمون قدرتهم على الاتصال بعالم الغيب.. وأكثر هؤلاء يعتمدون على اللحظات التي يثرثر فيها (الزبائن) قبل أن يدخلوا لهم..، ثم هم يعتمدون على الفراسة والحدس الشخصي إلى حد كبير.. إن دخول امرأة يعني في الغالب أنها تشكو من العقم.. ودخول فتاة قبيحة متقدمة في العمر يعني أنها تشكو من قلة الخطاب..

ابتسم (هاري) في تهكم:

- لا أحسب هذا يسري هنا.. فلا شيء في ملامحي يوحي بأنني فقدت دمية (فودو).. ولا شيء في ملامحك يوحي بأنك قمت بتصوير شابين غريبين..

ثم أضاف وهو يتخلل بأنامله شعره الأشقر:

- هل خضعنا جميعًا لتنويم مغناطيسي أمكنه معه أن ينتزع أسرارنا من الصدور؟..

- لا أظن.. ليس التنويم المغناطيسي الجماعي سهلًا إلى هذا الحد..

- ربما هو شيء دسه لنا في القهوة؟

- حتمًا لا.. أنا لم أحتس قهوته.. وكذلك (كولبي)..

ثم أضفت وأنا أرمي عقب السيجارة بعيدًا:

- حتى لو عرف بصيصًا من الحقيقة فهو غير قادر على صنع هذا المزيج المحكم من التفاصيل.. (مارشا) وابنها.. مسز (مازورسكي) وسيارتها الصغيرة وعاداتها في شرب اللبن.. تفاصيل رحلة يقوم بها طلبة طب مصريون إلى القناطر.. مستحيل أن يلفق كل هذا وإلا كانت هناك أخطاء فاضحة..

- إذن ما رأيك؟

نظرت إلى وجهه.. وقطبت حاجبي:
- رأيي أن هذا الـ (لوسيفر) يقرأ الأفكار حقًا..

* * *

أما عن الجانب التنبؤي من عمله.. فلا أدري..
لقد كانت كل حكاية من حكاياته تنقسم إلى جزأين: ما حدث وما سيحدث..
الجزء الأول: ينتهي دائمًا بجلسة قراءة الطالع هذه.
والجزء الثاني: يبدأ بها..
الجزء الأول: صادق ودقيق ولا تفسير له سوى قراءة الأفكار..
الجزء الثاني: لا يمكن معرفة دقته.. لكنه كان ينتهى دومًا بنصيحة.. والآن تعال نجر إحصائية لما تنبأ به الرجل:
١ - قصة مسز (مازورسكي): تنبأ لها بالموت على يدي ابنتها مصاصة الدماء.. ونصيحته واضحة: يجب أن تقتل ابنتها قبل أن تقتلها.. أو على الأقل ترسل في طلب ابنيها ليكونا معها..
٢ - قصة (جون ميلز): القصة الوحيدة التي لم تنته بالموت. إنه ينصح الرجل بالإقدام على التجربة.
٣ - قصة (ماري جوليم): تلقى (ماري) حتفها على يد (جاك السفاح) الذي عادت روحه تعيث فسادًا في عالمنا.. النصيحة هنا هي حرق (هارييت) التي يوحي كل شيء بأنها ساحرة.
٤ - قصة (كولبي): يموت على أيدي أسرة من المذءوبين الإيرلنديين.. وعلى (كولبي) أن يتحاشى اللقاء يوم ١٤ يوليو أو يتسلح بعدد أكبر من الطلقات الفضية.
٥ - قصة (هاري): في هذه القصة لا يموت (هاري) بل زوجته الحبيبة - وهذا أسوأ - وعليه أن يسترد دمية (الفودو) قبل فوات الأوان من الأم (مارشا).
٦ - قصتي أنا: ألقى حتفي بيد غريبين من أعماق الأرض.. ولا أدري كيف أتحاشى هذا أو أنجو منه.
ست قصص وخمسة موتى بأبشع الأساليب وأغربها.. كأن أحدًا لا يمكن أن يموت في حادث سيارة أو بنوبة قلبية.
وإنني لأسائل نفسي..

* * *

بعد أسبوع بدأت أشياء كثيرة تتضح..
الحادث الأول هو حادث غريب تحدثت عنه الصحف النيويوركية بالتفصيل:
امرأة عجوز تعيش مع ابنتها وحيدتين في الدار، قامت هذه المرأة بقتل ابنتها الشابة مستعملة وتدًا خشبيًا (لأنها مصاص دماء) على حد قولها.. وقد أسلمت نفسها للشرطة فور الانتهاء من عملها المقيت هذا.
أثبتت تحريات الشرطة أن الفتاة كانت مدمنة مخدرات، وقد أصابها ذلك الداء الزنيم من صديقاتها. لقد كانت تخبئ مخزون المخدرات في مكان ما بقرب البيت.

هكذا..

على ضوء هذا الخبر يمكننا تفسير تصرفات (لويز) المريبة كلها.. شحوبها.. خروجها الليلي الغامض.. وحتى أثر العضة في معصمها.. إنها أسنانها هي بينما كانت الحاجة للمخدر تمزقها!..

الخبر الثاني هو: مصرع مدير شركة في أحد أزقة (نيويورك) برصاصة في رأسه.. كان الاعتقاد السائد هو أن عصابة ما قد قتلته ورمت جثته هناك، لكن الطب الشرعي أكد من احتراق الجلد واتجاه الطلقة أن الحادث كان انتحارًا.. كذلك أثبت اختبار (المولاج) أن آثار النترات موجودة على أصابع الجثة مما يؤكد أن مصرعها هو انتحار، وبالتالي لا يستحق المتوفي قيمة بوليصة التأمين على حياته والتي كان سيحصل عليها لو مات بطريقة طبيعية.

الخبر الثالث هو: محاولة فتاة شابة إحراق صديقتها إذ أوثقتها وقامت بسكب البنزين فوقها.. وكانت على وشك إشعال عود ثقاب حين استغاثت الضحية بالجيران. قالت المتهمة إنها تتهم صديقته بالتسبب في مصرع صديقة ثالثة لهما. ومن المعروف أن هذه الصديقة الثالثة قد هاجمها مختل نفسي في أحد الأزقة وخنقها بحبل.

الخبر الرابع: محاولة مشعوذ أن يغتال أفراد أسرة إيرلندية زاعمًا أن هناك مسخًا ذئبًا بين أفرادها.. بل إنه كان يعتقد أن الأسرة كلها مسوخ ذئاب وأعد لهم مسدسًا محشوًا برصاص فضي..، ويبدو أن هناك رجل دين أقنعه بهذا..

النتيجة: تم عرض المشعوذ على الطبيب النفسي..

* * *

قلت لـ (هاري) شاعرًا بالزهو:

- هل رأيت؟.. كل تنبؤات (لوسيفر) كانت زائفة.

هز رأسه في حيرة وقال:

- بالفعل.. كلها أوهام بلا أساس..

- لقد أجاد هذا الرجل زرع الشكوك في نفوسنا.. الشكوك التي لا سبيل إلى دحضها.. وغدا كل واحد منا على استعداد لعمل أي شيء كي ينجو.. وها هي ذي النتيجة:

مسز (مازورسكي) قتلت ابنتها المدمنة بدلًا من أن تعالجها.. إن سلوك مدمن المخدرات لمريب، ويمكن الإيحاء بسهولة لضعاف الشخصية أن مدمن المخدرات قد أصيب بمس شيطاني..، نفس الشيء حدث مع (ماري) التي حاولت أن تحرق (هارييت) على أساس أنها ساحرة.. لم تكن (هارييت) سوى فتاة عابثة ماجنة.. ربما هي من حرض (لويز) على الإدمان.. لكنها لم تكن ساحرة..، أما مستر (ميلز) البائس ذو طبيعة المقامرين.. فكان من السهل إقناعه بالتمادي في لعبة هي الانتحار بعينه.. وقامر المسكين مقامرته الأخيرة وخسر.. وتخلص الشيطان (كلايد) من جثته.. وها هو ذا (ميلز) قد خسر حياته ومبلغ التأمين.. وظفر بالجحيم الأبدي..، أما عن (كولبي) فمن حسن الحظ أنهم أوقفوا هذا المعتوه قبل أن يسبب مذبحة.. وماذا عنك يا (هاري)؟

تحاشى نظرتي.. وغمغم:

- مهما كان.. سأسترد هذه الدمية!

- هذا من حقك لو أنها كانت عند (جابرييل) حقًا.. لكني أنصحك ألا تتهور - وأنت كذلك - في محاولة الحصول عليها..

ضيق (هاري) عينيه.. وتساءل:

- ولكن لماذا حاول (لوسيفر) دفعنا جميعًا إلى الهلاك؟..

قلت في ثقة وأنا أحك رأسي:

- لأنه - كما يقول اسمه - شيطان!

* * *

نعم.. كان (لوسيفر) شيطانًا..

شيطانًا يتسلى بتحريض الأبرياء على الشر.. وإثارة الهلع في نفوسهم من أبنائهم... من أصدقائهم..

يدفعهم إلى إلقاء أنفسهم إلى التهلكة..

لقد بذر بذور الشر في نفوسنا.. ثم رحل تاركًا لها أن تورق وتغدو أشجارًا سامقة ترتوي بالدماء والكراهية.

نعم.. كان (لوسيفر) شيطانًا.

ودليلي على هذا هو رد سفارة (المجر) على ما نشر بالجريدة، من أنها لا تعرف مواطنًا لها يدعى (فرانتز لوسيفر)..

إذن فمن أين جاء هذا الرجل؟..

قالوا إنه سوفييتي فار من وراء الستار الحديدي.. وقالوا إنه من (أمريكا اللاتينية)..

لكنني لا أرى داعيًا لكثرة التساؤل.. ولا تخبط الآراء..

لقد جاء هذا الرجل من سقر..

* * *

وهكذا تنتهي حكايات (التاروت).. أو حلقة الرعب الثانية..

تسألونني عما حدث لي أنا بصدد نبوءتي..

طبعًا لن أعرف شيئًا حتى أعود إلى (مصر) وأقوم باستلام الصور الفوتوغرافية إياها..

وإن كنت أتوقع بالفعل شيئًا غير مألوف بصددها..

ستكون هذه هي الأسطورة القادمة..، أما عن حلقة الرعب الثالثة فلكم أحكيها بعد عشر قصص أخرى كما تعودنا..

قد ألمح لكم بجزء منها الآن..

ولكن هذه حلقة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

حكايات التاروت

الحكاية الأولى (ماذا أصاب لويز؟)

الحكاية الثانية (اللعبة)

الحكاية الثالثة (فودو)

الحكاية الرابعة (والآن نرجوكم الصمت!)

الحكاية الخامسة (مذعوب!)

الحكاية السادسة (خطوات في الردهة)

خاتمة الحلقة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

حكايات التاروت

عدد من الغرباء .. وأوراق لعب .. وساحر غريب الأطوار .. من صنعها ؟! .. من لعب بها أول مرة ؟! لا أحد يدري.. لكن هذه الأوراق ستحدد مصائرهم .. وستكون هذه المصائر شنيعة .. شنيعة إلى حدّ لا يُوصف!!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة عدو الشمس

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[1←]

(اسمعوا وعوا) هكذا كان المنادون في الأسواق يجمعون القوم.

بالفعل صدر هذا الكتاب بعد عامين.. وبعده بعامين أخرين صدر كتاب الإنجليزي (ألفريد دوجلاس). [2←]

[←3]
هذا الأسلوب من أقدم الأساليب للسحر في التاريخ، ولسوف نقرأ عنه أكثر حين نطالع (أسطورة الطوطم) [د. رفعت إسماعيل].

بسبب هذا الكتاب الأحمق أعدمت محاكم التفتيش نساء بريئات كثيرات. [4←]

تحدثنا بشيء من التفصيل عن هذه الأسطورة في (أسطورة الرجل الذئب). [←5]